



# حِمَايَةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضُرُورَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ

الندوة العلمية الدولية التاسعة

٤-٦ رجب ١٤٤٠ هـ

١٢-١٤/٣/٢٠١٩ م

بحوث الندوة محكمة

(الجزء الأول)

الكتاب: حِمَايَةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضُرُورَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ

الرقم الدولي للكتاب: ISBN 978-9948-35-065-1

اللغة: العربية

التصنيف العمري: E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

رقم إذن الطباعة: MF-01-1103844

تمت الطباعة في مطبعة دبي، دبي - أ.ع.م.

جميع الحقوق محفوظة

يُمنع نشر أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي وسيلة من الوسائل الورقية أو الإلكترونية إلا بإذن خطي

## قواعد النشر

- ١- ألا يكون البحث قد نُشر من قبل أو قُدِّم للنشر إلى جهة تحكيمية، أو نال به صاحبه درجة علمية، وعلى الباحث أن يقدم تعهداً خطياً بذلك.
- ٢- أن تكون الأدلة المذكورة موثقةً بالتحريج من المصادر الأصلية، ومبيناً درجة قبولها، إذا كانت من غير الصحيحين.
- ٣- أن يتسم البحث بالجدّة والأصالة والعمق والسلامة اللغوية والالتزام بالشروط الأكاديمية المتبعة في الأبحاث العلمية، مع تجنب الاستطراد والخروج عن الموضوع.
- ٤- عدم استعمال مصطلحات غير عربية إلا في حدود الضرورة مع توضيحها في الحاشية عند أول ذِكْر لها.
- ٥- عدم التكلف في الاستدلال بالنص على ما هو بعيد الصلة به وتوضيح وجه الدلالة منه.
- ٦- أن تُثبَّت قائمة المصادر والمراجع مستوفاةً في آخر البحث مرتبةً على حروف المعجم.
- ٧- أن يُقدِّم اسم الكتاب على اسم مؤلفه عند توثيق النصوص في الحواشي، وكذلك في ثبت المصادر والمراجع.
- ٨- ألا يشار في الحواشي إلى المعلومات المتعلقة بطبعة الكتاب المحال إليه إلا في حال اعتماد الباحث أكثر من طبعة للكتاب الواحد.
- ٩- ذكْر خلاصة نتائج البحث وتوصياته.
- ١٠- أن يكون حجم الخط في كتابة البحث (١٦)، وأما الحواشي فتكون بحجم (١٤). على نظام ويندوز بخط (Traditional Arabic)، مع ترك مسافة ٢,٥ سم في جوانب الصفحة الأربعة، وأن يتراوح البحث ما بين (٣٠) إلى (٤٠) صفحة.
- ١١- أن يرفق الباحث مع بحثه سيرةً ذاتيةً له، وصورةً حديثة، وتُرسل بالبريد الإلكتروني.
- ١٢- أن يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي تطلبها لجنة التحكيم على بحثه وإرسالها في الموعد المحدد.







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على محجة بيضاء، ليلها كنهارها، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيسر الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف أن تتحف القراء بكتاب أعمال الندوة العلمية الدولية التاسعة، التي انعقدت في قاعة المؤتمرات بفندق جود بلاس في الفترة ما بين ١٢ - ١٤/٠٣/٢٠١٩م، بعنوان: "حماية الوطن في السنة النبوية: مقصد شرعي وضرورة مجتمعية"، والكتاب يشتمل على ٣٤ بحثاً علمياً منتخباً من مجموع ٢١٨ بحثاً، بحسب المعايير العلمية الأكاديمية. ومما يزيد الأمانة العامة غبطة وسروراً بأن تكون أعمال هذه الندوة باكورة إصدارات جامعة الوصل، بعد تحولها من كلية الدراسات الإسلامية والعربية إلى جامعة تطاول الصروح الجامعية بدولة الإمارات العربية المتحدة، وذلك فضل من الله تعالى، يؤتبه من يشاء.

لقد اجتهد الباحثون - على تفاوت تخصصاتهم، وإمكاناتهم البحثية - في استجلاء صورة وضيفة عن عناية السنة النبوية بحماية الوطن، وترسيخ دعائم استقراره، ومن أبرز المحاور الموضوعية لهذه العناية: أسس حماية الوطن، ومقوماتها، ومجالاتها، ومبادئها، ومقاصدها، فضلاً عما عנית به الجهود البحثية من تأصيل لسبل درء الأخطار المحدقة بالأمن الداخلي والخارجي، ما أسفر - في نهاية المطاف - عن حقيقة لا تخالجه شائبة من الشك، وهي: أن حماية الوطن وحفظ أمنه من المقاصد العظمى في الإسلام.

وإذا أمعنا النظر في قول الله تعالى: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (١٩١) (البقرة: ١٩١) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣٣) (المائدة: ٣٣ - ٣٤) من قبل أن تقدرُوا عليهم فاعلموا أن الله عفور رحيم ﴿ (المائدة: ٣٣ - ٣٤)

وقوله ﷺ: مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ<sup>(١)</sup>، ألفينا في هذه النصوص حيوطاً دقيقة تَلَحُّمٌ وَتَسْدِيدٌ مَقْصِدِيَّةٌ حماية الوطن، وتعزيز وسائل حفظ أمنه العام وجوداً وهدماً.

وإن كانت الفتنة في الآية قد فسرنا بعضهم بالشرك، لكن سياقها أرحب من ذلك؛ إذ تجرّ ذيلها على معاني إلقاء الخوف واحتلال نظام العيش كما حدث في مكة قبل نزول سورة التوبة، وصار بلاء الفتنة أشد من ألم القتل، وكيف لا وفي افتتاح الناس تصدّع أمنهم وذهاب طمأنينتهم.. ولذلك نجد النبي ﷺ، في موافقه وإدارته للأزمات، يكافح بحزم ورؤية مستقبلية ما يمكن أن يُشكّل تهديداً لأمن الوطن، ويشدد العقاب على أولئك الأعراب الذين عبثوا بثروة الدولة، وأمن مجتمعتها، ولم يكن ذلك في حدود القصاص فقط.

وفي الختام، لا يسعني إلا أن أزفّ آيات الشكر والتقدير والعرفان إلى السيد/ جمعة الماجد رئيس مجلس أمناء جامعة الوصل ومؤسسها، لعنايته الخاصة بالأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، ومتابعته لها عن كثب، وإلى الأستاذ الدكتور / محمد عبد الرحمن مدير الجامعة الذي شاركنا في كل خطوة؛ توجيهها وتشجيعاً وهدماً.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى الشركات والمؤسسات والشخصيات التي أسدت إلينا دعماً معنوياً ومادياً برعايتها الذهبية أو الفضية أو البرونزية، وكذا المساهمين جميعاً في إنجاح أغراض هذه الندوة، واللجان الفرعية التي اضطلعت بمهامها على الوجه الأمثل، وأخص بالذكر لجنة التدقيق اللغوي لمحتوى هذا الكتاب .

والأمانة العامة إذ تُقدِّم على إذاعة أعمال الندوة التاسعة، وتذليلها لجمهور الباحثين، فإنها حريصة على أن تكون الندوات اللاحقة وأعمالها العلمية في مستوى علمي أنضج، وجهداً موصول في تبديد شكوك المتطاولين على السنة النبوية، والذود عن حياض أئمتها وتراثهم الثري في مجال النقد والتفقه واستشفاف مقاصد الهدى الراشد.

والله ولي التوفيق.

الأمين العام لندوة الحديث الشريف

أ.د./ حمزة عبد الله المليباري

١- رواه البخاري في الجهاد والسير باب لا يعذب بعذاب الله ٦١/٤



## كلمة السيد جمعة الماجد

### رئيس مجلس أمناء جامعة الوصل

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ  
وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة، ضيوف الندوة الأكارم،

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. وبعْدُ:

يَسْرِينِي أَنْ أُرْحَبَ بِكُمْ فِي مُنَاسَبَةِ افْتِتَاحِ أَعْمَالِ النَّدْوَةِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ التَّاسِعَةِ حَوْلَ  
حِمَايَةِ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، فَأَهْلًا وَسَهْلًا بِكُمْ.

كَمَا يَسْرِينِي أَنْ أُعَبِّرَ لَكُمْ عَنْ سَعَادَتِي بِأَنَّ كُتَيْبَةَ الدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ تَبْدُلُ  
جَهْدَهَا لِيَسْتَمِرَّ هَذَا الْحَدُثُ الْعِلْمِيُّ الدَّوْلِيُّ مُنْذُ الْعَامِ ٢٠٠٣، خِدْمَةً لِلدِّينِ وَالْوَطَنِ  
وَالْمُحْتَمَعِ.

أَيُّهَا الْحُضُورُ الْكِرَامُ! إِنَّ بِنَاءَ الْوَطَنِ وَحِمَايَةَ أَمْنِهِ مَسْئُولِيَّةٌ مُشْتَرِكَةٌ بَيْنَ الْجَمِيعِ، وَأَنَّ  
الْمُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةَ الَّتِي يَتَخَرَّجُ فِيهَا الْأَجْيَالُ تَكُونُ مَسْئُولِيَّتُهَا حَوْلَ الْوَطَنِ أَعْظَمَ.  
لِأَنَّهَا تُزَوِّدُهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ مَا يَتَأَهَّلُونَ بِهِ لِإِنْبَاءِ الْوَطَنِ وَحِمَايَةِ أَمْنِهِ، وَخِدْمَةِ مُجْتَمَعِهِ.

وَأَمَلِي أَنْ تَكُونَ الْجَلْسَاتُ الْعِلْمِيَّةُ، وَالْأَبْحَاثُ الَّتِي تُقَدَّمُ فِيهَا مُثْمِرَةً، وَمُحَقَّقَةً  
لِلْأَهْدَافِ الْمَرْجُوءَةِ.

وَفِي هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ لَا يَسْعُنِي إِلَّا أَنْ أَشْكُرَ صَاحِبَ السُّمُوِّ الشَّيْخَ خَلِيفَةَ بَنِّ زَايِدِ  
آلِ نُهْيَانَ رَئِيسَ الدَّوْلَةِ حَفِظَهُ اللهُ، وَصَاحِبَ السُّمُوِّ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ بْنَ رَاشِدِ آلِ مَكْتُومِ  
نَائِبِ رَئِيسِ الدَّوْلَةِ رَئِيسَ مَجْلِسِ الوُزَرَآءِ حَاكِمَ دُبَيِّ، لِمَا يُقَدِّمَانِهِ مِنْ دَعْمٍ كَبِيرٍ لِهَذِهِ  
المُؤَسَّسَةِ العِلْمِيَّةِ الخَيْرِيَّةِ، لِتُسَهِّمَ فِي مَجَالِ البِنَاءِ العَرَبِيِّ وَالثَّقَافِيِّ، وَمَجَالِ التَّأهِيلِ لِسُوقِ  
العَمَلِ.

وَشُكْرِي مَوْصُولٌ إِلَى جَمِيعِ الحُضُورِ، وَأَخْصُ الضُّيُوفَ وَالبَاحِثِينَ، وَإِلَى كُلِّ مَنْ  
أَسَّهَمَ فِي إِنْجَاحِ هَذِهِ النَّدْوَةِ؛ بِتَقْدِيمِ رِعَايَةِ مَادِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ.  
وَيُسْرِّبُنِي أَنْ أُعْلِنَ عَن بَدْءِ أَعْمَالِ هَذِهِ النَّدْوَةِ العِلْمِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ التَّاسِعَةِ، وَعَلَى بَرَكَاتِهِ  
اللهِ.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

## وطنٌ يُفدى

د. عارف الشيخ

وطنُ الشُّموخ من الأديم إلى السّما  
حُ لمعتدٍ أو غاصبٍ خان الذّمّا  
كالتّوأمين توافقًا وتلازُمًا

شدّ الرّحيل لـ"يشرب" مُتألّمًا  
ذرف الدّموع، وقال حين تكلمّا  
إيّاك لولا قد رأيتُ تجمّهما  
وأنا الجديرُ بأن أعزّ وأكرّمًا  
وبعثتُ للخلق الكريم مُتمّمًا

آذيتُم من عاش فيكم بلسمًا  
لم أنس دارا قد دعّوها "أرقمًا"  
مات، وكنتُ بحُب برّ مُغرّمًا  
إني لقد عشتُ الحياة تيّتمًا  
أنا من قريش كم جرعتُ العلقما  
شُعلاً لأنني قد بُعثتُ مُعلّمًا

وطنٌ يُفدى بالنفائس والدّما  
إنّي أنا الحرّ الذي لا أستريدُ  
أنا منك جزءٌ لم يُجزأ ساعة

عزّ الفراق وقد رأيتُ "محمّدا"  
إذ طاف بالبيت العتيق مُودّعا  
والله مكّة لم أكن بمُفارق  
قومي همُ قد أخرجوني مُكرها  
الله أرسلني إليهم رحمة

تبّأ لكم تبّأ لكم تبّأ لكم  
لم أنس غارَ حراءَ لو غادرتكم  
لم أنس صحراءَ رعيتُ بها غنيّ  
في "بكرة" بكت رقابَ جابر  
ولدى انطلاقةِ دعوتي ورسالتي  
لكن صدعتُ بأمر ربي حاملاً

وطني فديتك في رحابك أنحني  
إنَّ المحبَّ ينال من محبوبه  
أنا قد هويتك منذ فجر طفولة  
ولكم تنشقتُ العبيرَ صيحةً  
واليوم إن أخرج فيني قد حمدتُ

لك ما حييتُ وسوف أحتمل الظما  
كُرْها و يحسب كلُّ كره مرهما  
ولقد هويتك طائعا لا مرغما  
ولدى مساءاتِ حضنتُ الأنجما  
تُ هواك في قلبي أشدَّ وأعظما

وطني جنان الخلد لو شبّهته  
لي ذكريات في رُبّاك وإنني  
وطن الأمان هواك يشفي علتي  
ولذا ببسم الله تُربة أرضنا  
ودعا مسافرنا بتربة أرضه  
هي هذه الأوطان سرُّ خليقة  
فإذا أردتَ بأن تعاقب آمنا

بالأمّ لم أك في الهوى مُتوهما  
منك ارتويتُ وقائمي فيك نما  
و ثراك شافٍ للمفارق للحمي  
ذهب الرسول بأمس عالج أسقما  
يغدو فهذا التُّربُ تذكيرٌ بما  
تربُّ يخالط لحمَ جسم والدما  
في أرضه؛ أخرجّه منها مرغما

حبي لأوطاني إذن حبُّ الطيو  
حبي لأوطاني الحبيبة نعمة  
هو موطني سأذود عنه بمذوي  
أحمي كرامته فأعلي راية ال  
وللاقتصاد وللثقافة والبنا

ر لوكرها تغدو وترجع حوما  
هيا إذن نشكرُ عليها المنعما  
وعلى الزناد يدي أرد الغاشما  
إيمان والأخلاق فيه مُقدما  
ء أقيم فيه بكل صوب معلما

أدعو إلى توحيد كلِّ شتاته  
بأخوة أزهو فنحن جميعنا  
وأقول لا للشائعات ولا لعن

وأقيم مُجتمعا بعدلٍ أحكما  
جسدٌ إذا عضوٌ أصيب تألّمّا  
ف لا لمن هو يستبيح محرّما

وطنُ المحبّة والسلام مُجنّدٌ  
لا للخيانة لا لكلِّ وشاية  
هي هذه الأخلاقُ سنّةُ أحمد  
هي هذه الأخلاقُ إن لم أرعها

أنا للدفاع عن الكرامة والحِمى  
متفائلٌ أنا لا أحبّ تشاؤما  
إحيائها فرضٌ على مَنْ أسلما  
فأنا المواطنُ صرت خَلقا مُبهما

أنا قد مددتُ يد التسامح للورى  
لله أسجدُ، والولاء لِحاكمي  
وطنيتي هي نخوة وعقيدة  
أنا إلف كل تعایش يدعو به ال

فمن اغتدى بالعنصرية أجرما  
ولموطني ما عشتُ كلّ المنتمى  
سمحاء إن وضعُ هناك تأزّما  
قانون لا إرجاف في تحكّما

يا " نَدوة علمية دَولية "  
أحسنّت بل قد أحسنّت "كلية"  
شُكرا لكم شُكراً لِراعٍ قد رعى  
دامت " إمارات " ودام "شيوخنا"

بـ"دبي" تُعقد تستفزّ العالمّا  
إذ أحرزت فيما استجدّ تقدّما  
شكرا لـ"جمعة" كم بنى كم علّما  
دامت " دبي " وعاش "جمعة" سالما



الوطن في عصر العولمة  
من جدلية الانتماء إلى مقتضيات الحماية وال عمران  
قراءة في ضوء الحديث النبوي

الأستاذ الدكتور / إبراهيم أحمد محمد الصادق الكاروري  
نائب مدير جامعة أم درمان الإسلامية  
الأمين العام لهيئة علماء السودان







## المقدمة

يمثل الوطن في العرف الإنساني والتأسيس العمراني والنشاط الحضاري قاعدة الانطلاق ومرتكز الفعل ومركز السعي، والانتماء إلى الأوطان والتعلق بما أمر فطري تجده عند الإنسان مهما اختلفت ميوله ونزعاته وأفكاره فهو مشدود إلى وطنه ينعم بظلاله ويحن إليه إذا فارقه، بل نجد ذلك عند الحيوان أيضاً، فتراه يرتبط بالمكان الذي يألفه ويكاد لا يفارقه، وهو ما أكدته سنة الرسول ﷺ وتجلى في الأحاديث النبوية الشريفة التي حفلت بالتعريف بقيمة الوطن وحبه والزود عنه.

والانتماء إلى الوطن يعبر عن نفسه في الحب والإجلال الذي يظهر في إرادة الحماية والحفظ والرعاية، ويتداخل في ذلك الذهني بالنفسي والموضوعي بالعاطفي، ويصبح الدفاع عن الأوطان وتقديم الغالي والنفيس من أجلها ومن أجل حمايتها ورعايتها، من دلائل الأخلاق السامية والمشاعر الصادقة والقيم الفاضلة؛ فالوطن الآمن هو الذي يحفظ للإنسان أمنه وسلامته واستقراره، هو البقعة التي تمكن الإنسان من إحسان العبادة لله في أبعادها الخاصة والعامة، والتعبير عن معاني الدين وقيمه في شمولها وإحاطتها؛ فالوطن المستقر هو قاعدة إلى الانطلاق والبناء والعمران الحضاري والنهوض والتقدم الإنساني، ومع ذلك فإن حركة الإنسان ومسيرته والتطور الذي يحيط بها، والمتغيرات التي تؤثر في تلك المسيرة ربما ألقى ببعض الظلال السلبية وأبرزت بعض الأسئلة حول الوطن والوطنية وقيم الحماية والحفظ والرعاية ومهدداتها، وربما أثرت في تصور الوطن وماهيته، والواجب تجاهه لا سيما في عصر الفتن والتباس الحقائق واضطراب القيم، وربما تؤكد ذلك في هذا العصر، هو عصر العولمة التي من معانيها تقارب الأمكنة وضعف الحدود الجغرافية أو ذوبانها، وسهولة الانتقال، وربما ألقى ذلك بآثاره على تعريف الوطن وحفظ حقوقه. والبحث لا يغفل ما يرد من دراسات تتحدث الآن عن قضية ما بعد العولمة ويقدم معالجة موضوعية موصولة بالهدى النبوي في السنة المطهرة.

يأتي هذا البحث لتناول حماية الوطن في عصر العولمة قراءة تستصحب جدلية الانتماء

ومقتضيات العمران، فإن ضعف الانتماء والتباس العمل من أجل الوطن يؤثر في قيم العمران ومقتضياته، وتبدو هذه الجدلية واضحةً جلية ما يقتضي النظر فيها ومقارنتها في ضوء السنة النبوية.

**أهداف البحث:** يهدف البحث إلى التعريف بالوطن وقيم حفظه وحمايته في السنة الشريفة. وإبراز مطلوبات الانتماء للوطن ودعائم ذلك ومرتكزاته من خلال الحديث النبوي. والنظر في قضايا العولمة وتأثيرها في قيم الانتماء وواجبات الحفظ والحماية، ووصل ذلك بالسنة المطهرة.

**أهمية البحث:** تبرز أهمية البحث من خلال: توضيح أسس البناء والعمران الوطني في السنة الشريفة. والتحديات التي تواجه الوطن وسلامته في عصر العولمة. وبيان مرتكزات العمران الوطني في عصر العولمة مقارنة في ضوء السنة النبوية.

**مشكلة البحث:** يمكن تحديد مشكلة البحث من خلال الأسئلة الآتية: ما هي قيم التأسيس والحماية للوطن في السنة النبوية؟ وهل تؤثر العولمة في قوة الانتماء الوطني وفعالية ذلك؟ وما هي آثار العولمة بتجلياتها المعاصرة؟ وما هي ملامح جدلية الانتماء ومطلوبات العمران في ضوء السنة الشريفة؟

**المنهج المتبع:** اتبع البحث المنهج التحليلي من خلال التعريف بالوطن، ومرتكزات البناء والحماية، وتتبع التحديات التي أبرزتها العولمة ورصدها، وبيان أثرها في تعزيز مطلوبات الانتماء والعمران.

**الدراسات السابقة:** هناك مجموعة من الدراسات تناولت العولمة معرفة بتجلياتها وآثارها على الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية وسيادة الدول ومن تلك الدراسات على سبيل المثال؛ الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي للدكتور عبد العزيز عثمان التويجري، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، وبحث آخر بعنوان نحو فهم للعولمة الثقافية تأليف بول هوبر ترجمة طلعت الشائب المركز القومي للترجمة.

ولقد طرقت هذه البحوث بعض القضايا التي أشارت إليها بصورة عامة غير أن هذا البحث حاول معالجة القضية من خلال جدلية الانتماء ومقتضيات الحماية والعمران بالتصويب المعمق حول هذه القضية وبيان كيف تتحقق قيم الانتماء للوطن، وكيف يعيش الإنسان في عالم دائم

الحركة مأخوذ بجمعية التطور وسننه التي تتجلى في هذا العصر فيما عُرف بالعولمة، كيف يستطيع أن يزواج بين الانتماء الوطني والمشاركة الحضارية بوعي وفهم وإدراك في ضوء السنة النبوية المطهرة.

## المبحث الأول: تعريف الوطن وعصر العولمة

**مفهوم الوطن في اللغة والاصطلاح:** جاء في القاموس: "الوطن منزل الإقامة (كالمواطن) جمعه أوطان ووطن وأوطن أقام وأوطنه إيطاناً ووطنه توطيئاً، واستوطنه إذا اتخذ وطناً أي محلاً وسكناً يقيم فيه"<sup>(١)</sup>. وفي المعجم الوسيط، الوطن: "مكان إقامة الإنسان ومقره، ولد به أولم يولد، واطن القوم عاش معهم في وطن واحد، والوطنية مصدر صناعي منسوب إلى الوطن يضاف إليه"<sup>(٢)</sup>. وجاء في أساس البلاغة عن الانتماء للوطن: "وطن كل يحب وطنه وأوطان ومواطن ومواطنة، والإبل تحن إلى أوطانها وفي المجاز استعمالها في مراض الغنم ومشاهد القتال"<sup>(٣)</sup>. وجاء في لسان العرب:

**أوطنت أرضاً لم يكن في وطني لو لم تكن عاملها لم أسكن<sup>(٤)</sup>**

ويلاحظ مما سبق أن كلمة الوطن تدل على معانٍ متقاربة هي:

- أ. إقامة الشخص في مكان سواء أكانت الإقامة دائمة أو مؤقتة.
  - ب. الانتماء العاطفي وهو حب المكان الذي يقيم فيه الإنسان وهو ما وجدناه عند الزمخشري.
  - ج. التوافق والتعايش مع أهل المكان أو المقيمين فيه.
- من الألفاظ ذات الصلة وهي ذات دلالة سياسية لا سيما في هذا العصر لفظة (مواطنة).

**تعريف المواطنة:** هي التزامات متبادلة بين الأشخاص والدولة، فالشخص يحصل على

١- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، فصل الواو، ج ١، ص ١٢٣٨.

٢- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، باب الواو، ج ٢، ص ١٠٤٢.

٣- الزمخشري، أساس البلاغة، ج ١، ص ٦٦٤.

٤- ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ٤٥١.

حقوقه المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية نتيجة انتمائه إلى تجمع معين، وعليه في الوقت ذاته واجبات يتحتم عليه أداؤها<sup>(١)</sup>، وهناك من ذهب إلى أن المواطنة ترجمة للكلمة الإنجليزية (Citizenship) وعرفت دائرة المعارف البريطانية بأنها علاقات بين فرد ودولة يحددها قانون تلك الدولة بما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة، ويقارب مفهوم المواطنة مفهوم الجنسية، والجنسية هي رابطة سياسية وقانونية بين أشخاص ودولة معينة تجعله عضواً فيها وتعيد انتماءه إليها وتجعله في حالة تبعية سياسية لها<sup>(٢)</sup>.

**لفظة الوطن في القرآن الكريم:** وردت مادة وطن في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعَجَبْتَكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْرِيْنَ ﴾ (٣٥) ﴿٣٧﴾

جاء في التفسير: (المواطن جمع موطن، ومواطن الحرب مقاماتها، والمواطن التي نصر الله المسلمين فيها هي يوم بدر، وما بعده من المواطن التي نصر الله المسلمين على الكفار فيها قبل يوم حنين)<sup>(٤)</sup>، غير أننا نجد الكلمة التي تدل على الوطن كلمة دار وديار، وقد وردت في مواضع كثيرة في القرآن ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ (٤٥)، وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ (٣٤٦) ﴿٣٧﴾ وقال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٩) ﴿٣٧﴾، ويعلی القرآن الكريم من قيمة الدار أو الوطن، ويجعله من أهم ما ينتمي إليه الشخص ويحبه ويحافظ عليه،

١- ينظر: مشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، ص ١٠.

٢- ينظر: سعيد عبد الحافظ، المواطنة حقوق وواجبات، ص ١٠.

٣- سورة التوبة الآية ٢٥.

٤- السيواسي، فتح القدير، ج ٣، ص ٢٣٦.

٥- سورة البقرة الآية ٢٤٣.

٦- سورة البقرة الآية ٢٤٦.

٧- سورة الحشر الآية ٩.

وإذا فقد الإنسان وطنه فقد أهم ما يملك وأهم مناسج هويته.

**ورود لفظة الوطن في السنة النبوية:** ورد لفظ الوطن في السنة النبوية في عدد من الأحاديث؛ ومن ذلك: عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَأَمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ<sup>(١)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا □ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَقِفُ الْمَوْقِفَ أُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ، وَأُرِيدُ أَنْ يُرَى مَوْطِنِي، فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، حَتَّى نَزَلَتْ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾<sup>(٢)</sup>، وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَيْبَةَ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنْ ثَلَاثِ حِصَالٍ فِي الصَّلَاةِ: عَنْ نَقْرَةِ الْعُرَابِ، وَعَنْ افْتِرَاشِ السَّبْعِ، وَأَنْ يُوْطِنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ كَمَا يُوْطِنُ الْبَعِيرَ<sup>(٣)</sup>. أَي يِلَازِمُ الْمَكَانَ، وَيَأْتِي أَيْضًا الْوَطْنَ فِي السَّنَةِ بِمَعْنَى الدِّيَارِ. وَعَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ، ثُمَّ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ، ثُمَّ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ، ثُمَّ بَنُو سَاعِدَةَ، وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ خَيْرٌ فَقَالَ سَعْدٌ: مَا أَرَى النَّبِيَّ ﷺ إِلَّا قَدْ فَضَّلَ عَلَيْنَا؟ فَقِيلَ: قَدْ فَضَّلَكُمْ عَلَى كَثِيرٍ<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَيْسَ مِمَّا عُصِيَ اللَّهُ بِهِ هُوَ أَعْجَلَ عِقَابًا مِنَ الْبَغْيِ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَطِيعَ اللَّهُ فِيهِ أَسْرَعَ ثَوَابًا مِنَ الصَّلَاةِ وَالْيَمِينِ الْفَاجِرَةِ

١- الترمذي، السنن، أبواب الجنائز عن رسول الله ﷺ، باب (١١)، حديث رقم: ٩٩٩، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ"، وابن ماجه، السنن، أبواب الزهد، بَابُ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ بَابُ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، حديث رقم: ٤٢٦١.

٢- الحاكم، المستدرک على الصحيحين، كتاب الجهاد، سبب نزول آية فمن كان يرجو لقاء ربه، حديث رقم: ٢٥٤٢، وقال الحاكم: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ"، والبيهقي، شعب الإيمان، ج ٥، ص ٣٤١.

٣- أحمد، المسند، حديث رقم: ١٥٥٣٢، وحسنه شعيب، ابن حبان، الصحيح، كتاب الصلاة، باب ما يكره للمصلي وما لا يكره، ذِكْرُ الْإِبَاحَةِ لِلْمُصَلِّي تَبْرِيدَ الْحَصَى بِيَدِهِ لِلسُّجُودِ عَلَيْهِ عِنْدَ شِدَّةِ الْحَرِّ، باب الحدث في الصلاة، حديث رقم: ٢٣١٨.

٤- البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، بَابُ فَضْلِ دُورِ الْأَنْصَارِ، حديث رقم: ٢٥٧٨، ومسلم، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، بَابُ: فِي خَيْرِ دُورِ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حديث رقم: ٢٥١١.

تَدْعُ الدِّيَارَ بِلَافِعٍ"<sup>(١)</sup>. و عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: "الرَّحِمَ وَحُسْنَ الْخَلْقِ وَحُسْنَ الْجَوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ"<sup>(٢)</sup>. وهكذا نجد التقارب في المعنى بين الوطن والديار وذلك في الدلالة على مستقر الإنسان ومكان وجوده وقد اهتمت السنة النبوية بالوطن وأعلت من قيمته فهو مأوى الإنسان وم منزل الرحمات ودائرة العمران.

### مفهوم العولمة وتعريفها:

أ) المفهوم اللغوي للعولمة: لفظ عولمة من الألفاظ الناشئة حديثاً وقد وَجَدَتْ مكانها في القاموس السياسي والاقتصادي وكثير تداولها بين المفكرين والباحثين في الكثير من ضروب المعرفة ومع هذا الاستعمال الواسع فإن الكلمة مازالت بحاجة إلى مجهودات متواصلة لإحسان ضبطها وهذا إن أثبت أهمية ذلك لا سيما في الدراسات الأكاديمية فإنه يشير من ناحية أخرى إلى أن الكلمة مازالت تؤشر إلى ظاهرة لم يكتمل بناؤها وتشكلها حتى الآن، وهذا يُعد مدخلاً للتعريف بمفهوم العولمة.

كلمة عولمة من حيث اللغة مصدر على وزن (فوعلة)<sup>(٣)</sup> نسبة إلى كلمة العالم، وهي محاولة لترجمة الكلمة الإنجليزية (Globization) لذلك يذهب البعض إلى أن الترجمة السليمة هي الكوكبة، ويقصد بذلك إزالة الحواجز والمسافات والسدود بين القارات والشعوب والأمم بحيث يصبح العالم من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه بلداً واحداً. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى استعمال لفظة أخرى ذات دلالة أيضاً تتصل بالعالم وهي عبارة العالمية (Universalism) وكلمة العالمية لا تثير الشكوك والريبة والتحفظات التي تثيرها العولمة وذلك مردود إلى أن لفظة العالمية تأتي دائماً في سياق الرؤية الإنسانية والأفكار العامة والعلاقات البشرية في بعدها العالمي أما العولمة فهي تعبير عن واقع اقتصادي معلوماتي سياسي وتوصيف لظاهرة تنزع نحو إدراج العالم كله في نسق إمبراطوري استعماري جديد يحكمه الإنتاج والسوق المفتوح<sup>(٤)</sup>.

١- البيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم: ٤٨٤٢، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، حديث رقم: ٧٥٨٣، وحسنه.

٢- أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: ٢٥٨٩٦.

٣- محمد سيد طنطاوي، الأمة الإسلامية، ص ٥، "بتصرف".

٤- حسن الخطيب، العالمية والعولمة في منظور مقارني، ص ٩. "بتصرف".

ب) **المفهوم الاصطلاحي:** يحاول المفهوم الاصطلاحي وضع حد لتعريف المعنى وضم أطرافه بغرض تحديد مجال الدراسة وقصر تمدد المعنى وتشعبه لا سيما في الدراسات الأكاديمية غير أن مفهوم العولمة من الناحية الاصطلاحية يمكن القول بأنه مازال مفتوحًا لتكتسب معان وإضافات جديدة، العولمة ليست محض مفهوم مجرد، فهي عملية مستمرة يمكن ملاحظتها باستخدام مؤشرات كمية وكيفية في مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة والاتصال، ومن التعريفات المهمة في هذا المقام: "العولمة تصف وتعرف مجموعة من العمليات التي تغطي أغلب الكوكب أو التي تشيع على مستوى العالم"<sup>(١)</sup>، وهناك تعريف آخر يصف العولمة بأنها السعي إلى تحويل العالم إلى مجال واحد من العلاقات عن طريق تحقيق سيطرات ثلاث: ١. سيطرة التقنية في حقل العلم. ٢. سيطرة الشبكة في حقل الاتصال. ٣. سيطرة الاقتصاد في التنمية، وهذا بدوره يفرز ظاهرة السوق بلا قيود والتنافس بلا شروط والريح بلا حدود في سياق عالمي لا وجود فيه لمجتمع مدني عالمي أو مؤسسات ذات سلطة<sup>(٢)</sup>. يلاحظ على معظم التعريفات التي اهتمت بإعطاء توصيف لمصطلح العولمة أنها حاولت أن تعطي ذلك التعريف نوعًا من القراءة سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم ثقافية؛ لذلك نجد التعريف في كثير من الأحيان محمل بأقدار من هذه القراءات وهي قراءات منطقية إذ لا يمكن فرض تعريف لغوي أو وضع قيد اصطلاحى على ظاهرة تشهد تغيرات متسارعة، وتحوارات متصلة وربما أشار إلى ذلك ظهور ما يعرف بما بعد العولمة، وإن كان المنحى الذي يذهب إليه البحث هو منحى توصيف الحالة في إطارها الكلي وليس المحدد الأيدلوجي.

## المبحث الثاني: الانتماء للوطن ودلالته العمرانية في ضوء السنة الشريفة

عند تناول الانتماء الوطني ودلالته العمرانية يقتضي الأمر بيان مرتكزات الانتماء للوطن وأهميته، ونجد ذلك واضحًا في القرآن الكريم يقول تعالى في كتابه العزيز مبيّنًا واجبات الإنسان الإيمانية وارتباط ذلك بموجبات الاستخلاف قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰٓؤُلَآءِ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ

١- طه عبدالرحمن، روح العولمة وأخلاق المستقبل، ص ٧. "بتصرف".

٢- عبدالعزيز بن عثمان التويجري، العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي، ص ٧ وما بعدها. "بتصرف".

لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾<sup>(١)</sup>. من خلال هذه الآيات الكريمات يتضح لنا الآتي:

- الأرض هي الوطن الأول للإنسان: الأرض هي الوطن الذي اختاره الله للإنسان، وقد زوّد الله الإنسان بالعلوم والمعارف وسخر له الكون ليقوم بإصلاحه وإعمارهِ ويتضح الأمر في بيان أهمية حضور همّ العمران فيما ورد عن أنس بن مالك قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فِسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا"<sup>(٢)</sup>. وفي هذا دلالة على العمل والإنتاج وإزالة التوهم أن هناك تناقض بين العبادة والعمران.
- التحذير من الفساد والاضرار بالأوطان: من أهم تحديات البناء والإعمار، الفساد وسفك الدماء، ويشير الفساد هنا إلى سوء التعامل مع البيئة، ويشير سفك الدماء إلى العدوان على الإنسان، وفي ذلك تدمير لبذور الحياة وتهديد لسلامة الأوطان، جاء في الحديث عن ابن عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَلَبٌ دَمِ امْرِئٍ بَغَيْرِ حَقِّ لِبَهْرِيقِ دَمِهِ"<sup>(٣)</sup>، وهذه الصفات التي أشار إليها الرسول ﷺ من أخطر مداخل الفساد؛ فالذي لا يقدر الحرم ويعتدي فيه، والذي لا يلتزم قيم الإسلام في السلم والأمن ويتخلق بأخلاق الجاهلية، والذي يعتدي على حياة الإنسان كل يؤوب بالبغض من الله وهو جزاء عظيم يتناسب وهذا الجرم.
- العلم مؤهل الاستخلاف في الأرض: العلم المزود بالأخلاق هو العاصم من الفساد، وهو المؤهل للإصلاح والعمران في الأرض، والعلم هنا يشمل العلم بالعلاقات بين عناصر الكون من ناحية وبقدرات الإنسان وهو المهيم على هذه العناصر بحكم التسخير الذي جعله الله قانوناً للتعامل مع خيرات الكون والاستفادة منها من ناحية أخرى، وعن أبي أمامة الباهلي قال: ذَكَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَضَّلْتُ الْعَالِمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضَّلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ

١- سورة البقرة الآيات: ٣٠- ٣١- ٣٢.

٢- أحمد، المسند، حديث رقم: ١٣١٠٠، البخاري، الأدب المفرد، حديث رقم: ٤٧٩.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الدييات، باب مَنْ طَلَبَ دَمَ امْرِئٍ بَغَيْرِ حَقِّ، حديث رقم: ٦٨٨٣.



وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لِيَصْلُونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرِ<sup>(١)</sup>. وتعليم الخير هو العلم الذي يعرف الإنسان برسالته في الحياة وواجبه في الإصلاح والإعمار، ومن هنا كان فضل العالم على العابد.

- الوحي منهج الهداية وال عمران للأوطان: أنزل الله الوحي وأرسل رسله للناس بالقيم الأخلاقية، وهي قيم الإصلاح وال عمران يقول تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾<sup>(٢)</sup>. ونجد هذه العلاقة قوية في إعمار الكون من خلال إعمار الوطن، ورسالة الإنسان في الحياة تتضمن المزوجة بين العبادة وال عمران ليصبح العمران مقصدًا من مقاصد الشريعة الإسلامية. قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾<sup>(٣)</sup>. إن هذا الارتباط القوي بين المنهج الإسلامي والوطن يوجب الدفاع عنه، وإن إقامة الدين لا تأتي إلا في واقع ووطن ومكان وجغرافيا ولذا يصبح الانتماء الوطني بعدًا من أبعاد الانتماء الإسلامي العام؛ فالوطن ضرورة لإقامة دنيا الإسلام وعمرانه وضرورة الدين ليكون الوطن إسلاميًا، تتحقق إسلامية عمرانه.

### المبحث الثالث: الوطن قيم التأسيس ومرتكزات العمران مقارنة في ضوء الحديث الشريف

أولاً: قيم التأسيس الوطني: تتضح قيم التأسيس للوطن التي نقصد بها الأصول التي تنبني عليها دعائمه وتحقق له الاستقرار ليصبح صالحًا للعيش والطمأنينة في قول إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾<sup>(٤)</sup> وهذه الآية الكريمة بينت لنا قيم التأسيس التي تتضح في الآتي:

١- الترمذي، السنن، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم: ٢٦٨٥. قال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ".

٢- سورة البقرة الآية ٣٨.

٣- سورة هود ٦١.

٤- سورة إبراهيم الآية ٣٧.

- الالتزام العقدي وهو الذي يمثل العروة الوثقى في الاستقرار والطمأنينة ويتضح ذلك في قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ وهذا يتضمن التسليم لله والتوكل عليه واستحضار البعد القيمي في ذلك ونجد دلالة حينما تبعت أم إسماعيل فقالت: "يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟" فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: "الله الذي أمرك بهذا؟" قال: نعم قالت: إذن لا يضيعنا<sup>(١)</sup>.

- التزام العبادات وهي التي تتجلى فيها معاني القيم العالية طاعة الله وتحقيقاً لمقاصد الإيمان وذلك في قوله: ﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾، إقامة الصلاة تتضمن الإشارة إلى تحقيق معنى العبودية والطاعة لرب العالمين.

- الوجود البشري المترابط وذلك في قوله ﴿ فَأَجْعَلْ أَعْدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ ويتجلى في تجمع الناس واستيطانهم وتعاونهم على الخير ما يحقق العمران والتنمية.

- الإنتاج وخيرات الأرض وذلك في قوله ﴿ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فالحياة إنما تزدهر وتنمو وتتطور بالعمل والإنتاج، وتوفير وسائل الحياة السعيدة التي أشارت إليها الآية بالثمرات.

وهذا جميعه يتضح في نسق متكامل أبرزته مقاصد الشريعة الإسلامية، ويتمثل في حفظ الدين والنفوس والعقل والمال والنسل، وهذا التأسيس العمراني يقوم على حب أصيل استغرق القلب و ملأ الجوانح وتحول إلى دافع وحافز للعمل والإنتاج، وقد عبر عن ذلك الحب الرسول ﷺ حين أخرج من مكة، عن عبد الله بن عدي بن حمراء قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزورة، فقال: والله إنك لحخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أبي أخرجت منك ما خرجت<sup>(٢)</sup>. وظهر هذا الحب أيضاً حين توطن المدينة التي هاجر إليها؛ فعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: "أن إبراهيم حرم

١- البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشي، حديث رقم: ٣٣٦٤،

النسائي، السنن الكبرى، كتاب المناقب، هاجر ﷺ، حديث رقم: ٨٣٢٠.

٢- الترمذي، السنن، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل مكة، حديث رقم: ٣٩٢٥، قال

الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح غريب"، أحمد، المسند، رقم الحديث: ١٨٧١٥.

مَكَّةَ وَدَعَا لَهَا، وَحَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَدَعَوْتُ لَهَا فِي مُدَّهَا وَصَاعِهَا مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ لِمَكَّةَ<sup>(١)</sup>. وفي هذا دليل على الصلة بين حب الوطن والعمل على تنميته وحمايته.

### ثانياً: مرتكزات العمران الوطني:

أ. **العمران الاجتماعي:** نقصد به تنمية الوجود البشري في جو من الاستقرار والطمأنينة وفي هذا حفظ للحياة والحيوية بالحفاظ على المواطن؛ فعن قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنِ الصُّنَابِيحِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنِّي مُكَاتِرٌ بِكُمْ الْأَمَمِ، فَلَا تَقْتُلَنَّ بَعْدِي"<sup>(٢)</sup>، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَحُلُقَهُ فَرُجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ"<sup>(٣)</sup>، وهذا يتضمن الدعوة إلى قيم تأسيس الأسرة وهي وحدة البناء الاجتماعي ويقوي الصلة بين أبناء المجتمع بتنمية أواصر الحب والإخاء من حيث الاهتمام بعامة أبناء الوطن؛ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْلَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"<sup>(٤)</sup>. والمواطن الصالح مهموم بمجتمعه؛ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُحْيِيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ"<sup>(٥)</sup>، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِنْ

١- البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، بَابُ بَرَكَةِ صَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُدَّتِهِمْ فِيهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، حديث رقم: ٢١٢٩، مسلم، كتاب الحج، بَابُ فَضْلِ الْمَدِينَةِ، وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا، وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا، وَشَجَرِهَا، وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا، حديث رقم: ١٣٦٠.

٢- ابن حبان، الصحيح، كتاب الجنایات، بَابُ الْجَنَائَاتِ، ذَكَرَ الْعَلَّةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا نُهِِيَ عَنِ قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ، حديث رقم: ٥٩٨٥.

٣- الترمذي، السنن، بَابُ مَا جَاءَ إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ تَضَرُّونَ دِينَهُ فَرُجُوهُ حَدِيثِ رَقْمِ ١٠٨٤، قَالَ الْأَبَانِيُّ: "حسن".

٤- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ وَأَنَّ مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَنَّ إِفْسَاءَ السَّلَامِ سَبَبٌ لِحُصُولِهَا، حديث رقم: ٢٠٣.

٥- مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ فَضْلِ إِزَالَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، حديث رقم: ١٩١٤.

المَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرَغَ مِنْ دَلُوكَ فِي إِئَاءِ أَحِيكَ" (١). وهذا يبين طبيعة هذه العلاقة التي تنشأ داخل الوطن تأسيسًا على قيم التكافل والتعاون والمحبة.

ب. **العمران الاقتصادي:** لقد دعت الشريعة الإسلامية إلى التنمية الاقتصادية وعالجت

مشكلاتها التي تنشأ في الغالب عن أمرين القصور في استخدام الموارد الممنوحة من الله، وسوء توزيع الناتج بين المواطنين، وقد شجعت الشريعة الإسلامية على العمل والإنتاج عن طريق

الاهتمام بالقطاعات: التجاري، والزراعي، والصناعي؛ فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "بَيْنَنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ. فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابَ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشَّرَاحِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَبَعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُجُولُ الْمَاءَ بِمَسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ.

لِلْاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ. فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَمْ تَسْأَلْنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَا إِذْ قُلْتُ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَاتَّصَدَّقُ بِثُلْثِهِ، وَأَكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلْثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلْثَهُ" (٢)، والحديث يدل على التخطيط والإنتاج وحسن التوزيع، عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ

قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ: صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْحَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، وَمُنْبَلَّهُ، وَارْتُمُوهُ وَارْتَمُوا، وَأَنْ تَرْتُمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْتَكِبُوا لَيْسَ مِنَ اللَّهِوَ إِلَّا ثَلَاثٌ: تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ، وَرَمِيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَبْلُهُ، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَمَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ، فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا أَوْ قَالَ: كَفَرَهَا" (٣). وفي الحديث

حثٌّ على الاهتمام بالصناعة والتدريب وتنمية القدرات وكله موصول بالعمران وعن سهل بن عبد الله: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرْسَلَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَكَانَ لَهَا غُلَامٌ بَحَّارٌ، قَالَ لَهَا: مُرِّي عَبْدَكَ فَلْيَعْمَلْ لَنَا أَعْوَادَ الْمِنْبَرِ، فَأَمَرَتْ عَبْدَهَا، فَذَهَبَ فَقَطَعَ مِنَ الطَّرْفَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا

١- البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب: كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، حديث رقم: ٦٠٢١، الترمذي، السنن، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في طَلَاقَةِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْبِشْرِ، حديث رقم: ١٩٧٠ (واللفظ له).

٢- مسلم، الصحيح، كتاب الزهد والرقائق، باب الصَّدَقَةِ فِي الْمَسَاكِينِ، حديث رقم: ٢٩٨٤.

٣- أبو داود، السنن، كتاب الجهاد، باب في الرَّمْيِ، حديث رقم: ٢٥١٥.

قَضَاهُ، أَرْسَلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ إِنَّهُ قَدْ قَضَاهُ، قَالَ ﷺ: أَرْسَلِي بِهِ إِلَيَّ، فَجَاؤُوا بِهِ، فَاحْتَمَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَهُ حَيْثُ تَرَوْنَ<sup>(١)</sup>، والدليل قائم على الاهتمام بالصناعة لما لها من أثر إيجابي على النمو العمراني.

ت. **العمران السياسي:** وقد هدفت الشريعة الإسلامية إلى تحقيق العدل وإقامة الشورى وربط التكليف السياسية بالعدل و الأمانة؛ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - قَالَ: "مَنْ ابْتُلِيَ بِالْقَضَاءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلْيَعْدِلْ بَيْنَهُمْ فِي لَحْظِهِ وَإِشَارَتِهِ وَمَقْعَدِهِ"<sup>(٢)</sup>، وفي هذا بيان لقيم العدل المطلق في التعامل مع الخصوم، وفي الشورى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: "لَوْ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُمَا"<sup>(٣)</sup>. والشورى قمة التميز في النظام الإسلامي، وبيان أن الحكم أمانة لها مقتضياتها؛ فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِزْبِي وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"<sup>(٤)</sup>، ومعلوم المكانة العالية التي نالها أبو ذر غير أن ذلك لن يشفع في أن يتولى الإمارة وفق التقدير النبوي الحكيم، وأوجب السمع والطاعة في المعروف للأمرء؛ فعَنْ ابْنِ عُمَرَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"<sup>(٥)</sup>، ولن ينتظم سلك المجتمع ويتحقق له الاستقرار ما لم يستوعب فقه الطاعة ويلتزمها.

- ١- البخاري، الصحيح، كتاب الهبة وفضلها، بَابُ مَنْ اسْتَوْهَبَ مِنْ أَصْحَابِهِ شَيْئًا وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ اضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا، حديث رقم: ٢٤٣٠.
- ٢- البيهقي، السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، جماع أبواب ما على القاضي في الخصوم والشهود، بَابُ إِنْصَافِ الْخَصْمَيْنِ فِي الْمَدْحِ عَلَيْهِ، وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُمَا، وَالْإِنْصَافِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَتَّى تَنْفَدَ حُجَّتُهُ، وَحُسْنِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِمَا، حديث رقم: ٢٠٩٦١. حديث حسن.
- ٣- مسند أحمد بن حنبل، حديث رقم ١٨٠٢٣- ج ٤ / ص ٢٢٧ قال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب، وحديث عبد الرحمن بن غنم عن النبي ﷺ مرسل.
- ٤- صحيح مسلم، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، حديث رقم ١٨٢٥، ٣ / ١٤٥٧.
- ٥- صحيح مسلم، باب وجوب طاعة الأمرء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم ٤٨٦٩ - ج ٦ / ص ١٥.

ث. العمران الوطني وفروض الكفايات: تمثل فروض الكفايات منهجاً عظيماً في الشريعة الإسلامية بتنمية المجتمع ورعاية حقوق الإنسان وإصلاح البيئة التي يعيش فيها، وهذا يعزز الانتماء الوطني، ونقصد بفروض الكفايات ما يقوم به الإنسان من واجب يلغي المسؤولية عن الآخرين ويسقط التبعة<sup>(١)</sup>. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا نَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، تَلَحُّقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ"<sup>(٢)</sup>، وجميعها أعمال تتجلى فيها معاني الوطنية والاهتمام بتنمية الوطن وتطويره. وهذا يتضمن:

١. تعليم العلم ونشره.
٢. إحسان تربية الأبناء.
٣. الاهتمام بكلام الله نشرًا وتعليمًا.
٤. الاهتمام ببناء المساجد وإحيائها.
٥. الاهتمام بالمرافق المخصصة لأبناء السبيل.
٦. الاهتمام بالمياه وتوفير مصادرها.
٧. التصديق بالمال للفقراء والمحتاجين.

ودائرة الصدقة تمتاز بالاتساع؛ فعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ. قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْهَا؟ قَالَ: "يُعْتَمِلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ". قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: "يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ". قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: "يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ". قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: "يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ"<sup>(٣)</sup>. وهكذا تمثل فروض الكفايات مدخلاً واسعاً للتنمية والعمران الوطني.

١- ينظر: أصول الفقه الإسلامي، د. أمير عبدالعزيز، ج ١، ص ٥٢ "بتصرف".

٢- ابن ماجه، السنن، أبواب السنة، بَابُ ثَوَابِ مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ، حديث رقم: ٢٤٢، قال الألباني: حسن.

٣- مسلم، الصحيح، كتاب الزكاة، بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، حديث رقم:

## المبحث الرابع: مهددات العمران الوطني وقيم الحماية في ضوء الحديث النبوي الشريف

ربما أثر الانفتاح العولمي وشكّل مهددًا في بعض جوانبه على تماسك الأوطان وهذه القراءة تتضمن النظر في تلك المهددات وقيم الحماية ويتضح ذلك في الآتي:

**أولاً: مهددات العمران الوطني:** قد يتعرض الوطن إلى بعض المهددات التي تؤدي إلى الاضطراب والزعزعة وعدم الاستقرار، و الاهتمام بتحقيق الأمن الوطني في أبعاده كلها لا ينفصل عن الأفق الحضاري للمجتمع وهو أفق تشكله الأصول الفكرية والأخلاقية والعملية التي تركز عليها الأمة في أوطانها ومن خلالها تكتسب خصائصها وتميزها إن الأمن الوطني المحقق لعمران الأوطان والحفاظ لها، وإن تأثر بالواقع والضوابط العامة الحاكمة للعلاقات الدولية اليوم إلا أن أمن الوطن يتكامل مع غيره من الأوطان التي تتوافق في العقيدة والمبدأ، وتشارك بفعالية في نسيج الحضارة الإنسانية ومن هنا يصبح التحالف والتآلف والتوحد القائم على قيم الولاء هو الأصل في رد الغوائل والمهددات، ونسوق أمثلة لبعض تلك المهددات:

**١- مهددات الولاء الوطني:** إن الولاء قيمة عليا يلتزم من خلالها المواطن بحفظ أمانة الوطن والاجتهاد في خدمته، وكل ما يهدد هذا الولاء يُعد مدخلاً لإفساد الحياة، وتدمير عرى التماسك الوطني، وللولاء الوطني جوانب يمكن تحديدها في الآتي: الأرض، والقوم، والقانون، والسلطة، فالمسلم إذا ولد أو عاش بأرض أحبها، ذلك أن كل ما علاها من سماء، وما غمرها من ماء، وما أثارها من شمس نعمة يستفيد منها وبالتالي يشعر بالولاء لها والولاء للقوم من مكارم الأخلاق، والمرء إنما يتقوى بإخوانه، والإنسان مدني بطبعه، وتتأسس على ذلك قيم المشاركة والتعامل ويضاف إلى ذلك الولاء للقانون؛ فإن الدساتير والقوانين ينبغي الولاء لها والدفاع عنها وحسن اتباعها، ويأتي الولاء للسلطة فإن الإسلام يربط ذلك بما تقدمه من خدمة لتنمية الوطن وعمرانه لمصلحة المواطنين حماية لهم ورعاية، والولاء للسلطة نابع من الوفاء بالبيعة للحاكم وفق المواثيق المتراضى عليها. ومن مقتضيات ذلك الإخلاص في بذل النصح وإتقان العمل ومراعاة الحقوق؛ فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "مَنْ بَايَعَ

إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ وَثَمَرَةً قَلْبِهِ، فَلْيَطِئْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرَ يُنَارِعُهُ فَاصْرُبُوا رَقَبَةَ الْآخَرِ، قُلْتُ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي. قُلْتُ: هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَفْعَلَ وَنَفْعَلْ، قَالَ: أَطِئْهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَأَعَصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ<sup>(١)</sup>. وفي هذا دعوة صريحة إلى تحقيق الوحدة والوفاء بالعهد حماية للأوطان وتبدو الطاعة هنا باعتبارها التزام وظيفي لتحقيق الصلاح والنهي عن النزاع والاختلاف يترتب عليه من شهور تؤثر في استقرار الأوطان والادعاء بأن الانتماء للوطن يتناقض وأقدار العولمة لا يسلم له عقلاً وشرعاً ذلك أن استقرار الأوطان هو المقدمة الأساسية لاستقرار العالم.

٢- **مهددات السلم الداخلي:** من أهم عوامل الاضطراب والخلل الذي يصيب البناء الوطني ما يؤثر على السلم الداخلي والذي ينبغي أن يحكم العلاقة بين أبناء الوطن الواحد، وهذا ينعكس في البغضاء والكراهية؛ فعن الزبير بن العوام قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعْرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَنْبَيْتُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"<sup>(٢)</sup>. وفي الحديث إشارة إلى مهددات السلم الداخلي، ومنها البغضاء والحسد، وترياق ذلك الحب، وإفشاء السلام وربطه بقيم الإيمان، وليس من المنطق أن يرى البعض العولمة وما بعدها مدخلاً للخروج على الالتزام الوطني والقيم الحافظة للعلاقات بين أبنائه والعيش في أوطان متوهمة.

٣- **مهددات نسق القيم:** المجتمع الإسلامي هو مجتمع القيم العالية، وكل ما يهدد هذه القيم يمثل عدواناً على الاستقرار الوطني والطمأنينة، ومن هنا فإن الإسلام ربط الحقوق الشرعية للإنسان بوجوده وما يمارسه من أحكام وتصرفات وفق تلك القيم، بل إن حقوق الإنسان الشرعية حقوق شمولية للجنس البشري كله، والإسلام يقدم منظوراً واقعياً لحقوق الإنسان في تشريعاته وقد أدار المجتمعات بطريقة توازنه رائعة وفق الهدي القرآني يقول تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ

١- أبو داود، السنن، كتاب الفتن والملاحم، بَابُ ذِكْرِ الْفِتَنِ وَدَلَائِلِهَا، حديث رقم: ٤٢٤٨.

٢- أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: ١٤٢٩، الترمذي، السنن، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٢٥١٠.



رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾<sup>(١)</sup>، ومن أهم مهددات نسق القيم الظلم والعدوان و يمثل الظلم مهددًا خطيرًا لل عمران الوطني والاستقرار الاجتماعي يقول الرسول ﷺ في الحديث القدسي في ما يرويه عن ربه: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا"<sup>(٢)</sup>، والظلم يؤدي إلى ضياع الحقوق وفساد العلاقات، ويبعث على العدوان ما يمثل حاضنة للجرائم الخطيرة التي إذا انتشرت بين أبناء المجتمع أدت إلى ضعف الانتماء الوطني وصارت مهددًا للسلم والاستقرار، ولذلك جاء التحذير واضحًا صريحًا من وقوع الظلم؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمُنُ بِوَأْتِقَهُ". وَعَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا أَوْ فِي سُوقِنَا، وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ أَوْ قَالَ: لِيَقْبِضَ عَلَى نِصَالِهَا"<sup>(٣)</sup>. وهذا يدل على الحساسية البالغة في رعاية حق المسلم الا يروعه أو يُعتدى عليه. والبلوغ في ذلك أعلى درجة وهذا يقتضي المساهمة بفعالية في تغذية الواقع العالمي لقيم الإسلام وهداياته لا الاستلام والعجز عن المشاركة الحضارية.

٤- انتهاك الحرمات: يمثل انتهاك الحرمات صورة من صور مهددات العمران الوطني؛ فعن جابر عن النبي ﷺ في خطبة الوداع: "وَقَالَ: إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا"<sup>(٤)</sup>، وقد حرّم الرسول ﷺ المدينة وهي الوطن الذي اختاره بعد هجرته؛ فَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "مَا كَتَبْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا الْقُرْآنَ وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْمَدِينَةُ حَرَامٌ مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا فَمَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"<sup>(٥)</sup>، وإن من أخطر مهددات العمران الوطني العدوان على

١- سورة الرحمن الآية ٧.

٢- مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، حديث رقم: ٦٧٣٧.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، حديث رقم: ٦٦٦٤.

٤- مسلم، الصحيح، كتاب الحج، بَابُ حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، حديث رقم: ١٢١٨، وابن حبان، الصحيح، كتاب الصلاة، باب الوعيد على ترك الصلاة، حديث رقم: ١٤٥٧.

٥- البخاري، الصحيح، فضائل المدينة، بَابُ حَرَمِ الْمَدِينَةِ، حديث رقم: ١٧٧١.

الناس والجرأة على سفك الدماء وانتهاك الحرمات يقول تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (١٣) (١)، وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ، لَقِيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ" (٢)، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَتْلُ مُؤْمِنٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا" (٣)، إن الالتفات إلى هذه المهددات يجعل المجتمع محصناً ضد كل ما من شأنه إضعاف التماسك الوطني وعندها ينعم المواطن بالأمن والاستقرار، وينطلق مزوداً بالدوافع الإيجابية لبناء وطن قادر على المساهمة الفاعلة في بناء الحضارة الإنسانية.

**ثانياً: قيم حماية الوطن:** الشريعة الإسلامية وهي تضع اللبنة القوية لبناء وطن آمن ومستقر، جعلت من أساسيات ذلك وضع منهج واضح لحماية المجتمع ومعالجة مهدداته، ومن ذلك التصدي إلى الجرائم الكبرى المؤثرة على مسيرة المجتمع وأمن الوطن، وينبغي التذكير بذلك تأكيداً على أن سلامة الأوطان هي المقدمة الأساسية لتحقيق السلم العالمي، وإن التقارب الذي تصنعه العولمة لا يعني ازدواجية الولاء أو التحرر من الولاء الوطني. وقد شرع الإسلام بعض العقوبات على تلك الجرائم على سبيل المثال:

- الحماية من جريمة التحسس: تتبع العورات أمر حرّمته الشريعة الإسلامية قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّكُ بِعَصِ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٢) (٤)؛ فعن أبي بزرّة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: "يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ

١- سورة النساء الآية ٩٣.

٢- ابن ماجه، السنن، أبواب الديات، بابُ التَّغْلِيظِ فِي قَتْلِ مُسْلِمٍ ظُلْمًا، حديث رقم: ٢٦٢٠.

٣- النسائي، السنن الكبرى، كتاب المحاربة، باب: تَعْظِيمُ الدَّمِ، حديث رقم: ٣٤٣٤.

٤- الحجرات الآية ١٢

اللَّهُ عَوْرَتُهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ"<sup>(١)</sup>. وقد ذهب الفقهاء بأن الجاسوس المسلم إذا تجسس لصالح العدو على المسلمين يُقتل، ومنهم من قال بتعزيره، والتجسس يمثل خطرًا يهدد كيان الوطن واستقراره، عندما يصبح وسيله من وسائل الدولة المعادية للبحث عن نقاط الضعف داخل الوطن، أو صناعة تلك النقاط واستثمارها في إحداث اضطراب يؤدي إلى زعزعة الاستقرار الوطني.

- **الحماية من جريمة قطع الطريق:** هذه الجريمة عقوبتها حدًا من حدود الله سبحانه وتعالى، وهي في حقيقتها تتلاقى فيها جرائم ثلاث مزدوجة بُني بعضها على بعض، فهي من جهة تتضمن معنى من معاني التمرد على الولاية العامة والمجاهرة بالإجرام، وتتضمن من جهة أخرى جريمة ثانية هي الاتفاق الجنائي، فهي عمل مشترك مبني على اتفاق وتعاون على الإثم والعدوان، فذات الاتفاق الآثم جريمة منفردة ما دام اقترن به ما يدل على التنفيذ، وإن فات التنفيذ بأمر لم يكن في حسبتهم، ومنها جرائم القتل وسلب الأموال، وقد يكون فيها هتك الأعراس يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ <sup>(٢)</sup> <sup>(٣)</sup>، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَاجْتَوَوْهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا. فَفَعَلُوا فَصَحُّوا، ثُمَّ مَالُوا عَلَى الرَّعَاءِ فَقَتَلُوهُمْ وَأَرْتَدُوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَسَاقُوا ذَوْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ فِي أَثَرِهِمْ، فَأَتَى بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا"<sup>(٤)</sup>.

١- أبو داود، السنن، كتاب الأدب، باب في الغيبة، حديث رقم: ٤٨٨٠.

٢- الجريمة، الامام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط ١٩٩٨م، ص ٧٦ بتصرف.

٣- سورة المائدة الآية ٣٣.

٤- مسلم، الصحيح، كتاب القسامة، باب حُكْمِ الْمُحَارِبِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ، حديث رقم: ٤٤٤٥.

- الحماية من الجرائم السياسية: الجريمة السياسية هي التي يكون فيها اعتداء على نظام الحكم أو على أشخاص الحكم بوصفهم حكامًا، أو على قادة الفكر السياسي لآرائهم السياسية. وقد عرّف الإسلام الإجرام السياسي بنوعية؛ فوجدت الآراء المنحرفة والبدع الضالة التي لا يقصد بها إلا هدم الإسلام الذي هو قوة الدولة الإسلامية ورباطها وجامع وحدتها، والرابط بين أشتاتها، كما وجد الاعتداء بالقتل على الخلفاء العادلين، فقتل أعدل الحاكمين بعد النبيين عمر بن الخطاب، وقتل الشهيد عثمان بن عفان، وقتل فارس الإسلام علي بن أبي طالب<sup>(١)</sup>. فكان -إذًا- في الإسلام النوعان من الإجرام، إجرام إبداء الرأي المنحرف الذي يراد به فك عرى الإسلام عروة عروة، والإجرام الذي لا يقف به المجرم عند الرأي بيديه؛ بل يتجاوزها إلى أن يحكم على مخالفه بالقتل من غير بينة إلا اعتقاد المنحرف أو هواه المتحكم، وأن ينفذ هو الحكم في غدر وخيانة أو تبجح ومجاهرة بالعصيان إن واثته الأحوال، بل حدث في كثير من الأحوال أن تفاقم الأمر وخرج الخارجون يحملون السيوف على الحاكم ويحاولون أن يزيلوا حكمه ويدلوا من دولته بآخري يقيمونها<sup>(٢)</sup>. وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: "بعث علي رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهنية فقسمها بين الأربعة الأقرع بن حابس الحنظلي ثم المجاشعي وعيينة بن بدر الفزاري وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان وعلقمة بن علاثة العامري ثم أحد بني كلاب فعضبت فريش والأنصار قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا قال: إنما أتألفهم، فأقبل رجل غائر العينين مشرف الوجنتين نائئ الجبين كث اللحية مخلوق فقال: اتق الله يا محمد. فقال: "من يطع الله إذا عصيت أيامني الله على أهل الأرض فلا تأمنوني فسأله رجل قتله أحسبه خالد بن الوليد فمنعه فلما ولي قال: إن من ضئضي هذا أو في عقب هذا قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد"<sup>(٣)</sup>.

١- أبو زهرة، الجريمة، ص ١١٦.

٢- المرجع السابق، ص ١١٧.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل {وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ صَرْصَرٍ شَدِيدَةٍ {عَاتِيَةٍ}، حديث رقم: ٣١٦٦.

## المبحث الخامس: العولمة وتحديات الانتماء الوطني ومنهج المعالجة

سوف نحاول أن نستعرض طرفاً من القراءات التي اهتمت بتحديات ظاهرة العولمة وتوصيفها؛ فتناولت تحديات الانتماء الوطني ومنهج المعالجة في ضوء السنة النبوية المطهرة.

**أولاً: مسيرة العولمة وتطورها:** ظهر هذا المصطلح أول ما ظهر في مجال المال والتجارة والاقتصاد غير أنه لم يعد مصطلحاً اقتصادياً محضاً؛ فالعولمة الآن يجري الحديث عنها بوصفها نظاماً أو نشاطاً ذا أبعاد يتجاوز دائرة الاقتصاد؛ فالعولمة الآن نظام عالمي يراد له أن يشمل دائرة مجال المال، والتسويق، والتبادلات، والاتصالات، مثل شموله مجال السياسة، والفكر، والايديولوجيا<sup>(١)</sup>.

والعولمة تعني جعل الشيء على مستوى عالمي أي نقله من المحدود، والمراقب إلى اللامحدود الذي ينأى عن كل مراقبة، والمحدود هنا هو أساس الدولة القومية التي تتميز بحدود جغرافية صارمة على مستوى الجمارك لنقل البضائع والسلع، إضافة إلى حماية ما بداخلها من أي خطر أو تدخل خارجي سواء تعلق الأمر بالاقتصاد أو السياسة أو الثقافة؛ فالعولمة تتضمن معنى إلغاء حدود القومية في المجالات الاقتصادية والمالية والتجارية، وترك الأمور تتحرك في هذا المجال عبر العالم وداخل فضاء يشمل الكرة الأرضية<sup>(٢)</sup>.

إن الخلاصة التي نصل إليها تبين لنا أن العولمة ظاهرة موضوعية وهي في جانب من جوانبها ثمرة لسياسات الحكومات وإداراتها، وبرلمانات الدول التي وافقت على القوانين والاتفاقيات التي تلغي الحدود وتحرر حركة السلع والخدمات ورؤوس الأموال في الأسواق العالمية ووقعت عليها، ومع أننا قد نتفق مع الرأي الذي يذهب إلى أن مرحلة التطور التي تمر بها العولمة أمر طبيعي، إلا أن العولمة لم تعد تقف خلف الباب تستأذن الدخول، بل هي بدأت تفعل فعلها على هذا الكوكب ولم تعد مجرد مفهوم بل هي ممارسة وسلوك يومي وعملية مستمرة تنمو وتتطور على الدوام، وهذا يدفع إلى القول بأن العولمة هي عملية إنتاج لأنماط ثقافية واجتماعية وإعلامية وسياسية واستهلاكها وتوزيعها وتلاقحها بغرض تنمية نماذج معينة تستخدم أدوات تساعد على بلورة الظاهرة عن طريق

١- عبدالعزيز بن عثمان التويجري، العولمة والحياة الثقافية، مرجع سابق، ص ٨.

٢- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص ١٣٦ "بتصرف".

الشركات المتعددة الجنسيات التي تمارس سطوتها بكفاءة عالية<sup>(١)</sup>.

ثانياً: **تحديات العولمة:** وتبرز أهم التحديات في الآتي:

(١) **مفهوم القومية العابرة للحدود:** هناك علاقة معقدة وقلقة بين القومية العابرة للحدود، والدولة والثقافات القومية وهذا يظهر في التحديات التي تواجه بعض الحكومات في المجتمعات والجماعات الاجتماعية العابرة للحدود التي تعمل داخل حدودها الإقليمية ويكون لها أعضاء ولأهم خارج تلك الحدود، وهناك دول عاجلت هذه المشكلة بسن قوانين للمواطنة والجنسية المزدوجة للمهاجرين باعتبارها وسيلة لتوسيع نفوذ بلادهم الأصلية وزيادة تأثيرها وهذه الجماعات العابرة للحدود يمكن أن تسهم في اقتصاد دولها الأصل مثل عملهم وإنتاجهم في الدول التي استقروا فيها، وينبغي ملاحظة هل القومية العابرة للحدود تضعف الدولة الأم والثقافة القومية أم لا؟ وما هو المدى الذي يسهم به الأفراد في الدوائر العابرة للحدود أو في استيعاب ثقافات الدول المضيفة؟ وهل بالإمكان أن يكون للشخص عدة أوطان؟<sup>(٢)</sup> وهذا ما تسعى الدول للإجابة عنه من خلال الإجابة عن هذه الجدلية.

(٢) **تحديات أمام السيادة:** سيادة الدولة هي السلطة العليا للدولة في إدارة شؤونها سواء كان ذلك داخل إقليمها أم كان في إطار علاقاتها الدولية، وهذا يدل على أن للسيادة وجه داخلي يقتصر نطاق تطبيقه على علاقة الدولة بمواطنيها داخل إقليمها بحدوده السياسية المعلومة، ووجه خارجي ينصرف نطاق تطبيقه على علاقة الدولة بغيرها من الدول التي تقوم على احترام الاستقلال الوطني والسلامة الإقليمية لكل دولة وعدم جواز التدخل في شؤونها الداخلية.

من أهم تعبيرات العولمة المعاصرة تهديدها لسيادة الدولة واتساع مؤسسات الهيمنة الدولية مثل البنك الدولي ومنظمة الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية ومحكمة العدل الدولية، وهي تطلع بدور مهم في السياسة الدولية وقد أصبحت تمثل بديلاً للسلطة بالنسبة للحكومات القومية، ويُعد تطور المنظمات الإقليمية دليل على تآكل السيادة القومية فمعظم

١- أسامة المجذوب، العولمة والإقليمية، ص ٣٦ وما بعدها "بتصرف".

٢- المرجع نفسه، ص ٧٩.

الحكومات القومية تقر الآن بضرورة التعاون الإقليمي إن كان لها أن تظل من اللاعبين الرئيسيين على المسرح العالمي<sup>(١)</sup>.

يقول اليحاندرو بورتس (Alejandro portes): "السؤال ما معنى أن يكون هناك مواطنون كثيرون وهم في حقيقة الأمر ليسوا هنا ولا هناك؟ القومية العابرة للحدود قد تهيئ على الأقل أحياناً تحولاً عن فكرة المواطنة التي تعتمد على الدولة بشكل تقليدي نحو مفاهيم أكثر مرونة<sup>(٢)</sup>. ونجد إشارة إلى مفهوم احترام الدولة فيما ورد في صحيفة المدينة التي أعطتها خصوصيتها "... وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه المدينة أنهم أمة واحدة من دون الأمم"<sup>(٣)</sup>.

**٣) التطرف والإرهاب العولمي:** أتاحت وسائط الإعلام الحديثة عددًا لبعض الجماعات الإرهابية تجاوز الحدود الجغرافية لميدان المعركة بنشرها لنشاطها ومعاركها على الانترنت وتجنّد من الشباب حتى من خارج الشرق الأوسط. وقد ضبّطت الشريعة الإسلامية منازع العدوان حمايةً للوطن والمواطنين، جاء في صحيفة المدينة: "وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وأمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخر منه صرف ولا عدل"<sup>(٤)</sup>.

**٤) تهديد الهوية الوطنية:** الهوية هي مجموعة الخصائص والمميزات العقديّة والأخلاقية والثقافية التي يتفرد بها شعب من الشعوب وأمة من الأمم، ونسيج الهوية نسيج معقد جداً يُستمد من عقيدة الشعب وقيمه الكبرى وذاكرته التاريخية وعبقريّة المكان الذي يعيش فيه، إن التحديات تتمثل في انخفاض مستوى الاهتمام بالخصوصيات والمثاليات والموروثات والروحانيات التي أصاب المؤمنين بها نوع من الانكماش والانحسار بسبب الهجمة الشرسة للعولمة، إن العولمة تحاول ربط الناس بعالم اللا أمة، واللا وطن، واللا دولة لأن ذلك يسهل عمليات الاستلاب التي تقوم بها، إن العولمة لا تستوطن بلداً ولا تركز إلى شعب أو أمة وإنما تستوطن الفضاء

١- المرجع السابق، ص ١٥٩.

٢- المرجع السابق، ص ١٦٠.

٣- ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ١٥٠.

٤- ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٢٣.

المعلوماتي الذي تصنعه شبكات الاتصالات والذي يوجه الثقافة والسياسة والاقتصاد. من أهم القواعد المتبعة في الاختراق الثقافي والاقتصادي السعي الحثيث والمتواصل لتهميش سلطة الدولة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية... والعولمة تتطلب أوطاناً خالية من أي سلطة غير السلطات التي تنشئها العولمة<sup>(١)</sup>. وتظهر أهم مهددات الهوية إضافة لما سبق في تهديد الفضيلة والبناء الأسري وقيم النزاهة والتسامح والتعاون، وتكريس الأرباح وجمع المال بغض النظر عن الأسلوب المتبع في تلويث البيئة وهدم المجتمع<sup>(٢)</sup>. وفي المحافظة على الهوية نجد حديث رسول الله ﷺ في التحذير من التشبه المفضي إلى الذوبان وذلك في قوله عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ"<sup>(٣)</sup>.

**٥) الجريمة العابرة للحدود:** هي أفعال مؤتمة تمثل سلوكاً إجرامياً معروفاً وممنوعاً بحكم القانون، تقوم على فكرة التنظيمات أو العصابات الدولية ذات النشاط المخطط والمستمر والمعقد الهرمي، المدرب على ممارسة نشاطه الإجرامي وعبور الحدود بين الدول والتي قد تنضم إلى عضويتها أو تقع تحت ولايتها بعض الشخصيات من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة في المجتمع بالتواطؤ مع آخرين. لقد أصبحت الجريمة أكثر قوة وعنفاً وانتشاراً بفضل العولمة، التي وضعت بين يدي المجرمين التقنية الحديثة من الاتصالات والمعلومات، ما سهل لهم الاستفادة من هذه المعطيات بكل ذكاء ومهارة<sup>(٤)</sup>، قد اهتمت صحيفة المدينة بالتصدي للعدوان؛ حيث ورد أن النصره واجبة عليهم على من دهم يشرب<sup>(٥)</sup>.

**ثانياً: الإطار المرجعي للتعامل مع العولمة:** وفي سبيل تحديد رؤية استراتيجية في التعامل مع الآثار السالبة للعولمة وانعكاس ذلك على مقتضيات العمران الوطني تُحدد النقاط الآتية:

١- المرجع السابق، ص ٧٤.

٢- المرجع نفسه، ص ٧٧.

٣- أبو داود، السنن، كتاب اللباس، باب: فِي بُسِّ الشُّهُرَةِ، حديث رقم: ٤٠٣١. قال الألباني: "حسن صحيح".

٤- محمد شلال العاني، عولمة الجريمة، رؤية اسلامية في الوقاية، ص ٣٤، "بتصرف".

٥- ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٢٣.



١- **نشر الوعي بالعولمة:** إن الوعي بأهداف مهددات العولمة ومراميها، يمثل مقدمة لإحسان التعامل مع هذه المهددات، إن مهاجمة العولمة أو الاستسلام لها من أسهل الأمور التي يمكن أن يصرار إليها لكن الشاق هو التحليل العميق لجوهر عمليات العولمة وجذورها وامتداداتها والآثار المترتبة عليها وكيفية معالجتها<sup>(١)</sup>، وهذا يقتضي الاهتمام بالجوانب العلمية والمعرفية وتعزيز المسكات الوطنية وإحسان التعامل مع قدر العولمة بتعزيز الإيجابيات ومعالجة السلبيات وإنشاء المؤسسات المتخصصة للتعامل مع الظاهرة بثقة في القيم الوطنية الموصولة بالشريعة الإسلامية. ونجد ذلك في حث الرسول ﷺ على العلم والإحاطة المعرفية وهو يبين درجة العالم مقارنة بالعابد، "عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَيَّ مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ"<sup>(٢)</sup>.

٢- **تحقيق الأمن الفكري:** يقصد بالأمن الفكري ذلك المنتوج العقلي الهادف إلى حفظ الأمة في أصل وجودها، وفي مرتكزات فعلها وفعاليتها الحضارية ضد المهددات الداخلية والخارجية، وهذا بدوره يؤدي إلى تحقيق قيمة الوحدة الفكرية المتصلة بأساس هوية الأمة ويتضح ذلك في مجموعة من النقاط منها:

- إن الوحدة الفكرية في إطارها العام تؤدي إلى وحدة الرؤى العامة وتحقيق الانسجام المجتمعي، إن الوحدة المنهجية هي السياج الفكري الجامع والموحد لسعي الأمة في تصورها وحركتها.

- والأمن الفكري يتحقق عندما يقع صلح بينما يتم الإيمان به والتطلع إليه، والانسجام بين الثوابت ومتغيرات التنمية ما ينفي طوارئ التغيير وبوادر الانحراف، ويعد التقارب والتجانس القيمي والفكري والجامع القومي من أهم مؤنات البناء الفكري، كما أن

١- مصدر سابق ١٠٢.

٢- الترمذي، السنن، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْفَقْهِ عَلَى الْعِبَادَةِ، حديث رقم: ٢٦٨٥، قال الترمذي: "حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ".

الوحدة بين الأمة وقيادتها على كافة الأصعدة تمثل ضمانة قوية لعدم الافتراق والزعزعة الداخلية<sup>(١)</sup>.

- وهنا تبرز أهمية القيم الجامعة التي تشكل الحماية من المهددات كما جاء في الحديث  
أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَتَظْهَرُ الْفِتْنُ،  
وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: الْقَتْلُ"<sup>(٢)</sup>. وتقارب الزمان يشير إلى  
تقارب المكان وهذا واضح في الواقع العملي اليوم.

٣- **البناء المؤسسي:** إن الدولة المعاصرة هي دولة المؤسسات ولا يتصور نجاح في العمل وبلوغ  
المقاصد إلا إذا قام ذلك على بناء مؤسسي قوي راسخ، ومن أهم المؤسسات مؤسسات  
التربية والتنشئة الوطنية، فمن أخطر المهددات لهذه المؤسسات التقليد والاعتراب وتظهر  
مضاعفات ذلك في أمرين وذلك في مؤسسات التربية الحديثة وهذه تقلد المؤسسات التربوية  
في الغرب تعد الفرد ليكون مستهلكاً لكل ما يرد إلى الأسواق من المصانع الخارجية، ولا  
يكون منتجاً إلا بالقدر الذي تطلبه أعمال السكرتارية و(البيروقراطية) التي تدير العمل في  
الوكالات التي تتولى تسويق المنتجات الواردة وهي مؤسسات مغتربة عن قضايا المجتمعات  
الإسلامية المعاصرة.

والأمر الثاني في مؤسسات التربية الإسلامية وهذه انعزلت في كثير من الأحيان عن واقع الحياة  
فهي تحدث عن المثل الأعلى الذي رفعه الآباء ولكن لا توفر لهم فرص المشاركة في خدمة المثل  
الأعلى وتكون النتيجة هي قول لا عمل تتفجر مضاعفاته في أشكال التطرف والتزمت أو التحلل  
والمروق وهذا يقتضي القيام بعمل نهضوي تجديدي ليعطي تلك المؤسسات دورها وفعاليتها في  
التأسيس والرعاية أمام تحديات العولمة استهزاء؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ  
مَسْئُولٌ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ

١- إبراهيم الكاروري، الأمن الفكري إطار مقاصدي، "بتصرف".

٢- مسلم، الصحيح، كتاب العلم، باب رَفَعِ الْعِلْمِ وَقَبَضِهِ، وَظُهُورِ الْجَهْلِ، وَالْفِتْنِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، حديث  
رقم: ٦٩٦٤.

زَوْجَهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ"<sup>(١)</sup>.

٤- المشاركة بفعالية في صناعة الواقع الحضاري: إن المشاركة بفعالية في صناعة الواقع الحضاري، وهو ما يتطلبه التحدي العولمي القائم اليوم، إن مقاييس التقدم الحضاري في العالم المعاصر تلقي ضوءاً كاشفاً على السلبية النسبية في جهود المجتمع الإسلامي الحضاري في اللحاق بمستويات التقدم المادي بصفة خاصة، وفي مواجهة إشكاليات الانصهار والاقتراب والتفاعل مع حضارة الغرب، لا يزال المسلمون ينظرون إلى ذلك نظرة تساؤل عميقة يشوبها التردد والانفعال وضعف المواجهة أمام هيمنة الغرب على نمط الحضارة المعاصرة وكأن المسلم لا يملك رصيذاً من القيم الحضارية يكفل له المواجهة والقيادة بإيمان وحزم، إن البحث عن الواقع الأفضل والمستقبل المشرق للأوطان لن يتحقق إلا بتفحص الماضي الحضاري للأمة الإسلامية، هذا الماضي يمثل تياراً متدفقاً يصب دائماً في الحاضر، ويرفده بكل مكوناته الأساسية ودفعه نحو المستقبل وهو يحمل الكثير من هذه المكونات إن الوعي بالسنن الحضارية يدعو إلى استخلاص القيم والقوانين التي ترشد المسيرة باستجلاء عوامل المد في عصور الازدهار لإدراك عوامل الجزر في أزمنة التحديات، إن المشاركة بفعالية تحقق حماية للوطن من غوائل السلبات وتأهله للاستفادة من الإيجابية والمساهمة في المسيرة الحضارية الكونية<sup>(٢)</sup> من منطلق الرسالة الإسلامية بقيمتها الإنسانية؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً"<sup>(٣)</sup>. فهو رحمة لكل العالم.

١- البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب {قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}، حديث رقم: ٥١٨٨، أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: ٤٤٩٥.

٢- ينظر: سليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، ص ١١.

٣- مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث رقم: ٢٥٩٩.

### الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث الذي تناول جدلية الانتماء ومقتضيات الحماية والعمران للوطن في عصر العولمة، نوقشت مجموعة من القضايا منها التعريف بالوطن وخصائص عصر العولمة، واتضح أن العولمة تمثل التحدي الأكبر ولا يمكن لأي دراسة أن تتجاوز تأثيرها على مسارات الحياة لاسيما ما يتصل بالوطن وقضاياها، مع تناول مطلوبات الانتماء للوطن وانعكاس ذلك على منهج العمران، مع التعريف بقيم التأسيس التي يعتمد عليها البناء الوطني، وقد تناول البحث مهددات العمران مع تناول قيم الحماية وذلك حتى تكتمل الصورة، وختم البحث بتناول العولمة وتحدياتها ومنهج التعامل مع هذه التحديات.

ومن أهم النتائج والتوصيات التي خلص إليها البحث:

## أولاً: النتائج:

- تمثل السنة النبوية المطهرة منهج الهداية في التعامل مع الواقع وقضاياها ونوازلها ومن ذلك المحافظة على الأوطان في ظل التحديات القائمة.
- اهتم الإنسان منذ أن استخلفه الله على الأرض بالوطن موضع حياته واستقراره.
- فُطِرَ الإنسان على حب الوطن وهو من مرتكزات الاعتقاد السليم والوعي الحضاري القويم.
- زود القرآن والسنة المسلم بمعارف وافية في كيفية التعبير عن حب الوطن والعمل على استقراره وحمايته
- يمثل التحدي العولمي أهم التحديات في العصر الحديث وهو أمر لا فكاك منه مما يقتضي التعامل العلمي معه.
- لقد بينت السنة النبوية منهج التعامل مع التحديات الوطنية وزودت الدارس بمعارف حول حفظ الوطن وتنمية خيراته وحمايته من الأعداء.
- لا يوجد تناقض بين حب الأوطان والمحافظة عليها والاستفادة من إيجابيات العولمة وفق رؤية واضحة.

## ثانياً التوصيات:

١. الاهتمام بالدراسات التي تتناول قضايا الوطن ومنهج حمايته واستقراره.
٢. تطوير الدراسات الموصولة بالسنة النبوية الشريفة للنظر في النوازل المعاصرة والمستجدات.
٣. التعريف بمرتكزات البناء الوطني وأركانه، ومنهج العمران وأصوله.
٤. التعريف بالعولمة وتحدياتها في هذا العصر وصناعة الوعي اللازم لذلك.
٥. وضع رؤية استراتيجية لكيفية التعامل مع إشكالات العولمة.
٦. تعزيز الدراسات الوطنية ومنهجيتها في مؤسسات التعليم العام والعالي والاهتمام بمعارف السنة النبوية في ذلك.
٧. تخصيص برامج في وسائل الإعلام للتعريف بواجبات حفظ الأوطان والتحديات القائمة اليوم وربط ذلك بأصول الفكر الإسلامي وعلى رأسها الكتاب والسنة المطهرة.

## المراجع والمصادر

- إبراهيم أحمد محمد الصادق الكاروري، الأمن الفكري إطار مقاصدي، الناشر مكتبة الفراديس، الطبعة الثالثة، ٢٠١٧م.
- إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.
- أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، السنن الكبرى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩١.
- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، دار الكتب العلمية، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.
- أسامة المخدوب، العولمة والإقليمية، الناشر الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٥م.
- الإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة بيروت-لبنان.
- أمير عبدالعزيز، أصول الفقه الإسلامي، مطبعة دار السلام، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- بول هوبر نحو فهم للعولمة الثقافية، ترجمة: طلعت الشائب، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، القاهرة.
- حسن الخطيب، العالمية والعولمة في منظور مقارني، مجلة عالم الفكر، مجلد ٣٤، الكويت، يوليو - سبتمبر ٢٠٠٥م.
- سعيد عبدالحافظ، المواطنة حقوق وواجبات، مركز باعث للدراسات الحقوقية والدستورية، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، الصحيح، دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، السنن، دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- سليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- طه عبدالرحمن، روح العولمة وأخلاق المستقبل، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٢٦.
- عبدالمملك بن هشام بن أيوب، السيرة النبوية، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) الطبعة الثالثة.

- عبدالعزيز بن عثمان التويجري، العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي، أعمال المؤتمر الإسلامي العام الرابع، أبريل ٢٠٠٢م.
- كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، فتح القدير، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- محي الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- الإمام محمد أبو زهرة، الجريمة، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م.
- محمد آدم العولمة، أثرها على اقتصاديات الدول الإسلامية، مجلة النبأ العظيم، العدد ٤٢ ذوالقعدة، ١٤٢٠هـ.
- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الأدب المفرد، دار البشائر الإسلامية - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- محمد دياب عولمة، الإسلام والغرب، الكتاب العربي، ط ١، ٢٠٠٥م.
- محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ابن ماجه، السنن، الفكر، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- محمد سيد طنطاوي، الأمة الإسلامية، المؤتمر الإسلامي العام الرابع، أبريل ٢٠٠٢.
- محمد شلال العاني، عولمة الجريمة، رؤية إسلامية في الوقاية كتاب الأمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
- محمود بن عمر الزمخشري جار الله أبو القاسم، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية.

- مشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، تعريب: عادل الهواري، سعد مصلوح، مكتبة الفلاح - الكويت الطبعة الرابعة.
- الإمام أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١ ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.



مقتضيات المواطنة في بلاد المهجر  
نحو مقارنة تأسيسية لمداخل حماية الوطن  
من خلال السنّة النبوية

الأستاذ الدكتور / محمد علا  
أستاذ التعليم العالي / كلية أصول الدين وحوار الحضارات، تطوان  
جامعة عبد المالك السعدي - المغرب





## مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الناس مختلفين وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا، والصلاة والسلام على النبي الكريم، محمد أشرف المخلوقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبع هداه إلى يوم الدين، أما بعد؛

يكتسي الحديث عن المواطنة في الوقت الراهن بأهمية بالغة، بالنظر إلى المتغيرات الجيوسياسية والإقليمية التي تعرفها المنطقة العربية والإسلامية والعالمية، وارتفاع حجم الهجرات البشرية ممثلة في اليد العاملة وأتباع الديانات والتيارات المختلفة وغيرها، والنزوح المتبادل بين مختلف سكان بلدان العالم جراء الحروب، والطائفية، والتطرف، وغياب الاستقرار، وتصاعد وتيرة العنف في عدد من بؤر التوتر، أو لأسباب اقتصادية واجتماعية مثل: الدراسة، والعمل، والاستشفاء وغيرها. ويفيد استشراف الواقع الإنساني في المستقبل القريب والبعيد أن التعدد البشري بمختلف حمولاته المرجعية (الدين والدولة واللغة والعرق والمذهب...) سيزداد تداخلا، وتمازجا، وتركيبا، وتعقيدا، ويحتاج إلى مراجعة جملة القواعد والقوانين المنظمة للعلاقات في أفق ترسيخ مواطنة حقيقية، وتأهيل البنى البشرية لتستوعب اختلافاتها وتنوعاتها وتؤسس لتعاقدات إنسانية. وإذا كانت النزوحات البشرية في العصور السابقة تتم بحرية واستقلالية ويحكمها التعايش والتعارف في عامة الأحوال، وكانت بعيدة عن التكلف والتعقيد والتقييد، فإنها في العصر الراهن، بعد تأسيس الدولة الحديثة، أصبحت خاضعة لقوانين محكمة وشروط دقيقة قد تخلّ في أحيان كثيرة بشروط المواطنة الحقّة بأبعادها الإنسانية التي تحفظ الكرامة وتضمن الحرية.

والتأمل في التاريخ البشري سيجد أن جميع الأنبياء والرسل قد أرسلوا في إطار تجمعات بشرية وأوطان مشكّلة (قرى، مدن، ممالك، إمبراطوريات...) التي كانت الفضاء الطبيعي الحاضن لدعوتهم. فلا رسالة بدون مجتمع أو وطن حاضن، ولا بناء للعقائد والأحكام دون بناء يسبقه للمجتمعات والأوطان، وليس من مهمات الأنبياء ووظائفهم تجميع الأفراد المشتتين المنتشرين في رقع جغرافية متفرقة لبناء تشكيل مجتمعي أو وطن بالمفهوم المتداول حاليا، فقد جُبل الناس على

التجمّع والاجتماع، لدواع أمنية واجتماعية وسياسية واقتصادية، تلبية لأغراضهم وتبادل منافعهم ومصالحهم وتحقيق التكامل فيما بينهم، تقوية للضعيف وحماية له، ومساعدة للمحتاج ومؤازرة له، ودعماً للقوي ونصرة له. ومن ثم كانت مهمة الأنبياء والرسل تعزيز تلك البناءات المجتمعية القائمة ومحاربة الظواهر السلبية المنتشرة فيها والمفاسد المقوّضة لوجودها، وربط الناس بخالقهم، وتجويد علاقات التعامل فيما بينهم، وإصلاحها، والرقى بها إلى مستويات أفضل لتحقيق الاستخلاف المطلوب والإعمار المرغوب؛ فبناء الأوطان سنّة اجتماعية وتاريخية، وحاجة مجتمعية قائمة، بغضّ النظر عن الدين أو العرق أو الجنس أو اللون؛ ذلك أن حاجات الناس ومصالحهم قائمة على الاجتماع، والتعايش، والسعي لبناء العلاقات النافعة، وقضاء الحوائج المتبادلة، والأغراض الميسّرة للمعاش، والمعيّنة على نوائب الدهر ومتطلباته. وبعبارة أخرى تأتي مهمة الأنبياء والرسل لتعزيز بناء الأوطان، وتعزيز القيم الإيجابية البانية بمنهج جديد وأسس قويمة قادرة على حماية المكتسبات السابقة وتعزيزها لتحقيق مصالح الناس العاجلة والآجلة، وقائمة من جهة أخرى على التقليل من مسببات الهدم والفساد والنكوص، والتشريع لمقومات العطاء، والبناء، والنهوض.

وكثيرا ما يربط القرآن بين الأنبياء والأوطان المرسلين فيها، حيث تتردد ألفاظ: القرية، والقرى، والمدينة، وأحيانا يكون التعيين بذكر مواطن بعينها مثل: بابل، الأيكة، سبأ، الأرض المقدسة، مصر، بكة، مع الإشارة إلى أن الكثير من المواطن وردت دون تعيين في القرآن فسماها قرية أو مدينة، أي موطننا حضاريا اجتمع فيه الناس وأسسوا به تجربة إنسانية وحضارية خلدها القرآن لأخذ الدرس والعبرة. وقد كانت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام إلى العالم أجمع، رغم انتمائه الأصلي لقبيلة ووطن معين، يجاوره قبائل شتى، وامبراطوريات وإمارات يحكمها ملوك وقياصرة. وكان كل قوم معتزّين بأوطانهم وانتماءاتهم، يدافعون عنها ويتفاخرون بها، وينظّمون الأشعار حول رجالها وأمجادها وتاريخها، إظهارا للكرم، والشجاعة، وجمال المكان، والاعتزاز بالبطولات والإنجازات، وتخليد الرموز من الأجداد والسلف، إنه الاعتزاز بالانتماء والافتخار به.

وتمكننا مجمل المعطيات التاريخية والحضارية من مراجعة جملة من المسلمات في علم الاجتماع وتفنيد العديد من المزاعم الحديثة التي من بينها: أن مفهوم المواطنة يرتبط ارتباطا كليا بتنامي النزعة الوطنية لدى الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين الذي نشأ مع الدولة الحديثة وحدودها الجغرافية

والسياسية، وإنما هو مفهوم له جذور تاريخية أعمق، أسهمت فيه جميع الأمم والحضارات بنسب معينة، وعلى رأسها الحضارة الإسلامية.

إن مقارنة موضوع المواطنة من داخل المرجعية الإسلامية يفرض الرجوع إلى المصادر التأسيسية الأصلية؛ القرآن الكريم و السنة النبوية، من أجل الوقوف على المقومات البانية للمواطنة والضامنة للاستقرار والعيش الكريم لمختلف الفئات المكونة للوطن. والوطن هنا أرض الله جميعا، والمسلم مطالب بالتحيز للوطن المسلم، بصفته وطنا يلي حاجياته النفسية، والدينية، والوجدانية، كما يضمن له تحقيق الانسجام مع تطلعاته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن لكل قاعدة استثناءات، وقد تتراكم بعض الاستثناءات وتكبر حتى تقترب من تشكيل قواعد مستقلة، فتأتي ظروف تجعل المسلم يغادر بلده إلى بلاد أخرى، لها خصوصيات مخالفة لوطنه الأم، وهو حال الأعداد الهائلة من المسلمين في بلاد الغرب، الذي أصبح يشكل ظاهرة لها شأنها ومكانتها المعترفة في الاجتهاد الفقهي المعاصر.

والناظر فيما كتب حول الموضوع من الدراسات السابقة يجد بعض الاجتهادات المعترفة التي تحتاج إلى متابعة ومزيد اجتهاد، خاصة مع تعدد المقاربات والمنهجيات، واختلاف المرجعيات الموجّهة للنظر في موضوع المواطنة لدى المهاجرين عامة والمسلمين خاصة، والغالب الأعم حول تلك الكتابات تخصيصها مباحث معينة لمقاربة الظاهرة، ونذكر من تلك الدراسات: "المواطنة في الإسلام" لـ "سعيد إسماعيل علي"، و "المواطنة في الشريعة الإسلامية - دراسة فقهية مقارنة" لـ "ياسر حسن عبد التواب جابر"، و "الهوية والمواطنة - الهوية الملتبسة والحداثة المتعثرة" لـ عبد الحسين شعبان"، و "الهجرة إلى غير بلاد المسلمين - حكمها وآثارها المعاصرة في الشريعة الإسلامية" لـ عبد الله يوسف أبو عليان"، و "المواطنة والوطن في الدولة الحديثة المسلمة" لـ "علي محمد الصلابي"، إضافة إلى جهود الهيئات الدينية الرسمية من خلال نشراتها التوعوية وما تقوم به من إرسال للأئمة والعلماء والمفكرين لتأطير المسلمين في أماكن إقامتهم وتوعيتهم بالأدوار المطلوبة منهم، وتنويرهم بمدخل الإسهام الثقافي والحضاري الممكن تحقيقها في مواطن تواجدهم. من جهة أخرى توجد العديد من الكتابات الغربية تناقش الظاهرة من وجهة نظرها، بصفاتها ظاهرة دخيلة فرضت نفسها بقوة على المجتمعات الغربية اقتصاديا، وسياسيا، واجتماعيا، ودينيا، وثقافيا، حين توافد على

بلادهم أعداد هائلة من المهاجرين من شتى البقاع، ومن ثم أصبحت الظاهرة بحاجة إلى قوانين تنظمها، وضوابط تؤطرها للتوفيق بين متطلبات واقعهم وحاجياته مع ضمان حقوق المهاجرين وواجباتهم. فضلا عن أن المقاربة لا تعرف استقرارا وثباتا، إذ تتلون في الغالب بتلون التيارات السياسية المتعاقبة على التدبير، وقد عرفت بالفعل بعض المنعطفات المقلقة مؤخرا مع تنامي اليمين المتطرف وتصاعده وتقلده التسيير في بعض البلدان الغربية، مما انعكس سلبا على بعض التراكمات الإيجابية التي تحققت لدى المسلمين في تلك البلدان.

وهذه الدراسة اجتهاد ومحاولة لتأصيل قيم المواطنة ومقتضياتها من السنّة النبوية بالنسبة للمسلمين المقيمين في غير بلادهم الأصلية، وهو الوضع الذي تحققت مثيلاته بأشكال معينة في زمن النبوة وإن كانت قليلة، نظرا لخصوصيات تلك المرحلة، ونظرا لورود عدد من الآثار التي تنهى عن الإقامة بين ظهرائي المشركين<sup>(١)</sup>. غير أن الخوض في غمار البحث مكنا من الوقوف على العديد من الآثار التي تؤطر وجود المسلمين في غير بلادهم الأصلية، فكانت نماذج حية من قبس النبوة، أعطت أمثلة واضحة عن المسلم المواطن الوفي لبلد إقامته والساعي إلى الخير والنفع للبلاد والعباد أينما حلّ وارتحل.

وقد ارتكزت المقاربة المعتمدة في الموضوع على مناهج أهمها: المنهج الاستقرائي والمنهج الاستنباطي، والمنهج التحليلي، والمنهج النقدي التفاعلي، حيث عمدنا في البداية إلى تأصيل مفهوم المواطنة من خلال السنّة النبوية واستقراء الآثار القولية والفعلية الدالة عليها، مع تحليل تلك الآثار وربطها بالمتغيرات الحاصلة في زمننا المعاصر، وليس هذا من باب الإسقاط التعسفي وإنما هو أعمال حقيقي للمنهج النبوي وبيان قدرته على التأصيل النظري للكثير من المفردات والاصطلاحات وهمولاتها القيمة والحضارية الموجهة للعالم اليوم من جهة، وعلى استنطاق قدراته الحقيقية لاقتراح حلول للظواهر المعرفية والمنهجية الحادثة والمصاحبة لها من جهة أخرى. فالكثير من

١- عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمَ، فَأَعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلُ قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ، وَقَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ؟ قَالَ: لَا تَرَايَا نَارَهُمَا، جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ أَبْوَابِ السَّيْرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَابُ مَا جَاءَ فِي كِرَاهِيَةِ الْمَقَامِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ رَقْمُ ١٦٠٤، وَمَعْنَى "لَا تَرَايَا نَارَهُمَا" أَي لَا يَكُونُ بِمَوْضِعٍ يَرَى نَارَهُمْ وَيَرُونَ نَارَهُ إِذَا أَوْقَدَتْ.

الأحاديث النبوية هي تأصيل لقيم المواطنة ومقوماتها ومضامينها من غير ادعاء ولا افتعال، والعديد من أحداث السيرة النبوية هي تجسيد عملي لقيم المواطنة، وكلها تهدف إلى حماية الوطن وتصب في خدمة المجتمعات الإنسانية بصفة عامة والمجتمع المسلم بصفة خاصة، ولا سيما أن رسالة الإسلام هي رسالة عالمية إنسانية ممتدة في الزمان والمكان طولاً وعرضاً، أفقياً وعمودياً.

### مقاصد الدراسة:

تصبو الدراسة إلى تحقيق جملة مقاصد أهمها:

- رصد جانب من التراث النبوي الذي يؤصل للمواطنة ويَجَلِّي مضامينها.
- إبراز دور السنّة النبوية في تعزيز بناء مجتمع قائم على مواطنة حقيقية بانية، وتجلية الانعطافات المهمة التي ساهمت من خلالها السنّة النبوية في إرساء ركائز المواطنة.
- تسليط الضوء على مظاهر اهتمام السنّة النبوية ببناء الإنسان المسلم المواطن في غير بلاده الأصلية.
- تحليل بعض الجوانب التي تحتاج إلى تعميق النظر وبذل المزيد من الجهد لتحليل المعطيات ورصد التغيرات الحاصلة اليوم.
- ردّ الجميل للوطن الحاضن ببيان حقوقه والمحافظة عليه، والواجب تجاه حماته.
- الوفاء للوطن الأم بخدمته والدفاع عن مصالحه وإعطاء صورة إيجابية عنه.

### المبحث الأول: مفهوم "المواطنة" و"بلاد المهجر"

**أولاً: مفهوم المواطنة:** اشتقت كلمة **المواطنة** من كلمة **"الوَطَنُ"**، وهو مكان إقامة الإنسان ومقرّه، وإليه انتماؤه، وُلد به أو لم يولد، و**وَطَنٌ** فلانٌ بالبلد: اتَّخَذَهُ مَحَلًّا وَسَكَنًا يقيم فيه، سَكَنَهُ وَأَلْفَهُ، والجمع: أوطانٌ<sup>(١)</sup>. وفي لسان العرب **"الوَطَنُ: المَنْزِلُ تقيم به، وهو مَوْطِنُ الإنسان ومحلّه. وَطَنٌ** بالمكان وأوطِنَ أقام؛ وأوطِنُهُ: اتَّخَذَهُ وَطَنًا. يقال: أَوْطِنَ فلانٌ أرضاً كذا وكذا أي اتَّخَذَهَا مَحَلًّا وَمُسْكَنًا يقيم فيه. وفي صفته ﷺ: كان لا يُوطِنُ الأَماكنَ أي لا يتخذ لنفسه مجلسًا يُعرَفُ

١- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص: ١٠٤٢.

به. وَأَوْطَنْتُ الْأَرْضَ وَوَطَّنْتُهَا تَوَطِّينًا وَاسْتَوْطَنْتُهَا أَيِ اتَّخَذْتُهَا وَطَنًا، أما المَوَاطِنُ فكل مَقَامٍ قام به الإنسان لأمر فهو مَوْطِنٌ له، وفي الحديث: أَنه نَهَى عن نَقْرَةِ الْغُرَابِ وَأَنْ يُوْطِنَ الرَّجُلُ فِي الْمَكَانِ بِالْمَسْجِدِ كَمَا يُوْطِنُ الْبَعِيرُ<sup>(١)</sup>؛ قيل: معناه أَن يَأْلَفَ الرَّجُلُ مَكَانًا مَعْلُومًا مِنَ الْمَسْجِدِ مَخْصُوصًا بِهِ يَصَلِّي فِيهِ كَالْبَعِيرِ لَا يَأْوِي مِنْ عَطَشٍ إِلَّا إِلَى مَبْرُكٍ دَمِثٍ قَدْ أَوْطَنَهُ وَاتَّخَذَهُ مُنَاحًا، وقيل: معناه أَن يَبْرُكَ عَلَى رِكْبَتَيْهِ قَبْلَ يَدَيْهِ إِذَا أَرَادَ السُّجُودَ مِثْلَ بُرُوكِ الْبَعِيرِ؛ ومنه الحديث: أَنه نَهَى عن إِطْيَانِ الْمَسَاجِدِ أَيِ اتَّخَاذِهَا وَطَنًا<sup>(٢)</sup>.

إن المعاني اللغوية السابقة تمكننا من القول: إن مواطن الإنسان متعددة ومختلفة، فالرحم ووطن للحنين، كانت فيه سكينته واستقراره، وكلّ طرف من الزوجين يشكل وطنًا للطرف الآخر يجد فيه سكينته واطمئنانه واستقراره، والأسرة ووطن، والقرية والمدينة ووطن أوسع، والدولة أو القطر ووطن أكبر، والأمة الإسلامية ووطن، والعالم ووطن للجميع، والجنّة موطن السعادة للمؤمنين يوم القيامة، كما أن النار موطن الكافرين والمكذابين.

ومفهوم المواطنة حاليًا مرتبط بالوطن الدولة، فلا يمكن تصوّره بمعزل عن الجماعة السياسية ذات التعاقدات الاجتماعية والقانونية المؤطرة لمصالحهم وحاجياتهم، يقول عبد الإله بلقزيز: "المواطنة هي الهوية السياسية التي يكتسبها الفرد الاجتماعي بعد أن ينشأ نظام سياسي مفتوح يعترف له بحقوقه كاملة أمام الكائن السياسي الجماعي (الدولة) ويفرض عليه التزامات مادية مباشرة هي عينها التي تصنع شروط استمرار الكائن السياسي الفوقي ذلك، وتنظم السياسة كتدبير للشأن العام يختص به كل المواطنين"<sup>(٣)</sup>. وهو التعريف الذي يؤكد معيار الحقوق والواجبات كشرط تعاقدية لبناء مواطنة تجمع الوطن بالمقيمين به.

**ثانيا: المقصود ببلاد المهجر: مفردة مهجر: اسم، وجمعه: مهاجر، وهاجر: ترك وطنه،**

١- الحديث أخرجه ابن ماجة، رقم: ١٤٢٩، كتاب إقامة الصلاة و السنّة فيها، باب ما جاء في توطين المكان في المسجد يصلي فيه. وروايته؛ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَيْبَةَ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَعَنْ فِرْشَةِ السَّبْعِ، وَأَنْ يُوْطِنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ كَمَا يُوْطِنُ الْبَعِيرُ".

٢- ابن منظور، "لسان العرب"، مادة (وطن).

٣- عبد الإله بلقزيز، "في الديمقراطية والمجتمع المدني"، ص: ٦٢.



والمُهَجَّرُ: المكان يُهاجَرُ إليه أو منه<sup>(١)</sup>، والهجرة في علم السكان أو علم الديموغرافيا بشكل عام تعني الحركة السكانية التي ينتقل فيها الأفراد أو الجماعات من مكان الإقامة الأصلي أو من المكان الذي يعيشون فيه، ويتجهون للعيش في مكان آخر لفترة زمنية معينة، وقد يجتازون أثناء انتقالهم حدودًا إداريةً ودوليةً بين المنطقتين، ويكون الباعث في هذه الحركة السكانية الانتقالية، إمّا البحث عن الرزق، الذي يتجلى في الأسباب الاقتصادية، وإمّا لأسباب سياسية، أو علمية، أو أمنية<sup>(٢)</sup>.

فالهجرة عموماً هي انتقال من مكان إلى مكان آخر، وهي ظاهرة اجتماعية تاريخية عرفها الإنسان طيلة تاريخه لأسباب متعددة، حيث كان البحث دائماً عن مواطن عيش تتوفر على ظروف أفضل في موارد المياه، والغذاء، والأمن والاستقرار، والبعد عن المخاطر، حيث يترك الإنسان موطنه الأصلي ويغادره إلى مكان آخر، وهي حقل مهم من الحقول المعرفية في علم الاجتماع.

فالمقصود بالمسلمين في بلاد المهجر المسلمون المهاجرون إلى خارج أوطانهم، والمستقرون في بلد الهجرة، مع انتمائهم دينياً وعرقياً إلى وطنهم الأصل، فهم بذلك متعلقون بوطنين: وطن الإقامة ووطن النشأة.

## المبحث الثاني: المواطنة ودورها في التأسيس للدار العالمية بدل التقسيمات الثنائية

من الجوانب الكبرى في الفقه الإسلامي التي تحتاج إلى تجديد النظر والاجتهاد؛ واقع المهاجرين اليوم بخصائصه ومتغيراته، من أجل ملاءمة أسسه الشرعية وبناء قواعد جديدة قادرة على استيعاب أحكامه وتأطيرها لتواكب حاجياته وتلبي متطلباته. ولعل من أهم تلك المهمات مراجعة فهم بعض الآثار الفقهية القائمة على منع الإقامة ببلاد الكفر وتأويلها التي كانت لها سياقاتها الخاصة وظروفها المحيطة، ولا زال الكثير من أبناء المسلمين يرددونها دون مراعاة لتلك السياقات وما حدث من مستجدات ومتغيرات؛ فالملايين من المسلمين المقيمين في الغرب اليوم صاروا يشكلون رقماً وازناً في الدول المستقبلية لهم؛ إذ تشير بعض التوقعات المستشرقة للمستقبل أن المسلمين في بعض الدول

١- مجمع اللغة العربية، قاموس المعجم الوسيط، ص: ٩٧٣.

٢- عبد الله يوسف أبو عليان، الهجرة إلى غير بلاد المسلمين، حكمها وآثارها المعاصرة في الشريعة الإسلامية، ص: ١٦-٢٠. بتصرف.

الأوربية سيشكلون غالبية سكانها، ومن ثم فإن المطلوب بشدة هو الاجتهاد لتأسيس فقه التعايش، والتساكن، وتوسيع مفهوم المواطنة وأساسه ومترقاته لدى المهاجرين المسلمين في بلاد المهجر.

إن اختيار تلك الأعداد الهائلة من المسلمين ترك أوطانهم الأصلية والاستقرار في أوطان أخرى من العالم راجع إلى أسباب مختلفة، مرتبطة في عمومها بتوفر شروط الأمن والصحة وتوفر متطلبات الحياة وأهمها: الأمن البدني، والنفسي، والغذائي، والعلمي، المعرفي وغيرها. وقد أكدت السنة النبوية في بيان واضح تلك الدواعي، حيث يقول النبي الكريم ﷺ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَانِيًّا فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"<sup>(١)</sup> وهو الحديث الذي يحدد بشكل واضح شروط العيش الكريم دونما ربطه بمكان معين سواء كان في بلاد المسلمين أو في غيرها من بقاع الأرض، فشروط الأمن والسلامة وتوفر متطلبات العيش هي المحددات الكبرى لاختيار موطن الإقامة وظروف العيش الكريم، ولا شك أن الأمن في السرب يشمل الأمن على الدين بإقامة شعائره وأداء أركانه وتعاليمه بكل حرية وسلم وأمان.

إن من الأسس المنهجية الموجهة للمواطنة العالمية تعزيز مفهوم الدار العالمية الواحدة وتجاوز كل التقسيمات التقليدية، (دار الكفر ودار الإيمان، دار دعوة ودار إجابة) فالأصل هو عدم القسمة، والواقع يفرض تجاوز التقسيم الثنائي للمعمورة إلى مفهوم الدار العالمية الواحدة خاصة بعدما غدت مشاكل العالم تم الجميع وتؤثر في الجميع، وانتشر المسلمون في جميع بقاع العالم وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من تلك المجتمعات الحاضنة لهم، ومن ثم أصبح لازماً تضافر جميع الجهود لإيجاد حلول عالمية للمشاكل الكبرى القائمة، ما يمهّد من جديد لبناء تصورات لمداخل الإسهام الإسلامي وإمكاناته في حل مشكلات عالمنا المعاصر وأزماته وتجاوزها.

إن استمرارية اعتماد التقسيم الثنائي للمعمورة من شأنه أن يشكل حاجزاً نفسياً لدى الآخر لقبول دعوة الإسلام أو الانفتاح عليها، فإذا كان النبي ﷺ قد راسل ملوك عصره وعظماء زمنه بأوصاف محببة لديهم<sup>(٢)</sup>، فكيف يمكن لخطابنا أن يصل الآخر الموصوف عندنا بأقبح الأوصاف

١- أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٢٣٤٦، قال عنه: هذا حديث حسن غريب.

٢- من ذلك استفتاح الرسول عليه الصلاة والسلام رسائلهم إليهم بقوله: "إلى هرقل عظيم الروم" و "إلى كسرى

لديه. فهذه القسمة "تتخذ اليوم حجة بأن المسلمين لا يمكن أن يكونوا مصدر استقرار في العالم؛ لما في دينهم من تعاليم - بحسب زعم هؤلاء - من أحكام تنفي الآخر، ورغم أن المسلمين في جميع أنحاء العالم - اليوم - هم المعتدى عليهم وهم الذين يتعرضون لسائر أنواع العدوان"<sup>(١)</sup>، فمن شأن الاستمرار في تنزيل تلك المقولات في التداول الإسلامي أن يزيد من قتامة النظرة الغربية إلى الإسلام والمسلمين، ويزيد من اشتعال فتيل التطرف والعنف من قبل الطرف الآخر، خاصة من الحركات اليمينية المتطرفة، وردود أفعال الذات، ما يُقوّض من إمكانات التواصل والتفاعل بين الشعوب والأمم، وعضو القرب والتآلف يزداد البعد والعداء، وبدل الانفتاح والاستيعاب يزداد الانغلاق والانفلات.

ومما يعزز مفهوم الدار العالمية المعطى الإحصائي الذي يتجلى في الأعداد الكبيرة والمتزايدة للمسلمين في بلدان خارج عالم المسلمين الجغرافي، بل إن بعض المناطق قد أصبح فيها عدد المسلمين يشكل قوة ضاغطة في توجيه بعض سياسات تلك البلدان وتوجهاتها. فما قيمة أن يتم تقسيم العالم إلى قسمين لا علاقة تجمع بينهما إلا الحرب والصراع، وكيف يمكن التواصل مع الآخر إذا كانت القاعدة الحاكمة، أن كل ما هو خارج أقاليم الإسلام يشكل كتلة واحدة ينبغي محاربتها، "فالمفروض في فقه التعامل مع الآخر أن يستبعد كل التصنيفات التاريخية التي كانت محكومة بظروف حرب مرافقة لحصار الدعوة نحو: دار الكفر والإيمان، ودار السلم والحرب؛ فالغرب الآن فيه ما يزيد عن ثلاثين مليون مسلم، بما يعادل مجموع دول كثيرة في العالم الإسلامي. كما ينبغي تجاوز ثنائيات فكرية وسياسية كثيرة جعلتها المركزية الغربية المعاصرة عوائق وموانع أمام التواصل والتفاعل الإيجابي بين الشعوب ومنها: (الأنا والآخر، الحداثي والماضي، الشرق والغرب، الشمال والجنوب، الإسلام والغرب..)"<sup>(٢)</sup>.

فهذا التقسيم ضرب من التكلّف وُبعد عن الواقع وتضييق آفاق الرسالة ذات البعد العالمي، ومعيق معنوي ورمزي ومادي لكل الجهود المبذولة من أجل تعزيز قيم المواطنة المشتركة لكل الفئات

عظيم الفرس"، و"إلى المقوقس عظيم القبط" و"إلى النجاشي عظيم الحبشة".

١ - طه جابر العلواني، "مقاصد الشريعة"، ص: ٥٦.

٢ - سعيد شبار، "الثقافة والعولمة وقضايا إصلاح الفكر والتجديد في العلوم الإسلامية"، ص: ١٤٨.

والتشكيلات في الدار العالمية، ومن ثم فإنه من حقنا في زماننا أن نطلق ما نراه مناسباً من توصيف، فلا وجود لتوصيف ثابت مقرر وإنما هي أمور تفاعلية بناءً على الواقع وبناءً على نوعية الآخر وموقفه، وبناءً على قاعدة المعاملة بالمثل وعلى سياق المناخ الدولي.

### المبحث الثالث: قيم المواطنة من خلال السنة النبوية وقدرتها على الاستيعاب والدمج

صحيح أن مفهوم المواطنة مفهوم حادث وطارئ، تدور معانيه حول الانتماء إلى الوطن والإقامة به والارتباط بثوابته وخدمته وحمايته والدفاع عنه، ولكن تكمن أهميته في مضامينه وآثاره وتجلياته على الواقع، ومدار تلك الآثار قائم على نُظم، وقوانين، وتقاليد، وأعراف، ومعاملات، وسلوكيات تنظم حياة الناس سواء كانوا مؤتلفين أو مختلفين، ومن تلك المظاهر العملية ما هو ثابت ومنها ما هو متغير، ومن ثم فإن المفهوم في حقيقته هو تعبير عن تراكم العطاء الإنساني في مجال السلوك والقيم والمعاملات على المستويات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية. وتشكل التجربة الإسلامية بروافدها المختلفة أحد الإسهامات الكبيرة في الرقي بمضامين مفهوم المواطنة على أسس متينة في المسيرة الإنسانية؛ فلقد احتضنت بلاد المسلمين مختلف الطوائف والأديان، وقدمت نماذج راقية في التعامل معهم تجلّى ذلك في ضمان حقوقهم والدفاع عنهم وإقامة العدل بينهم ومعهم، ونصرة المظلوم وإعانة المحتاج منهم، ومساعدة المرضى والضعفاء من جميع الملل، وحماية أماكن عبادتهم وضمان ممارسة شعائرهم والتعبير عن آرائهم وقناعاتهم، تجسّد ذلك منذ فجر الدعوة المحمدية؛ إذ قدّمت التجربة النبوية بقيادة الرسول الكريم محمد ﷺ نموذجاً فريداً في تعزيز قيم بناء الأوطان والوفاء لها وحماية مكوناتها المعنوية والمادية.

إن المسلمين المهاجرين يجدون عزاءهم بالإحساس بالغرابة والبعد عن الأوطان متجسداً في حياة الرسول الكريم ﷺ؛ لقد تعرض عليه السلام للاغتراب عن وطنه الأم مكة المكرمة، فعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال في حق مكة عند الهجرة منها: " مَا أَطْيَبَ مِنْ بَلَدَةٍ، وَأَحَبَّ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ"<sup>(١)</sup>، وهي "عبارة نبوية بليغة تترجم عن شعور النبي ﷺ نحو

١- صحيح بن حبان، كتاب الحج، باب فضل مكة، ذكر البيان بأن مكة كانت أحب الأرض إلى رسول الله ﷺ، رقم ٣٧٠٩.

بلده ووطنه، وعن حبه له، وشوقه إليه، وحرصه عليه، وتبين لنا أن الرسول ﷺ لم يترك مكة كرها لها، أو رغبة عنها، أو استخفافاً بشأنها، ولكنه خرج منها مكرهاً، ولولا هذا الإكراه ما فضل عليها بلداً آخر<sup>(١)</sup>؛ فاللوطن منزلة خاصة في قلب الإنسان، خاصة الوطن الأول، وطن النشأة والطفولة والترعرع، حيث يكبر الإنسان ويكبر معه حبّ المكان كيفما كان، وعند مغادرته يظل الحنين راسخاً، والشوق مستمرًا. ولا يعني ذلك إهمالاً للوطن المستقبل أو التنكر له، بل يصبح بدوره وطنه الثاني ما دام فيه مستقره وموطنه، يدافع عنه ويحميه من مسببات الهدم ويسعى لرفعته ورقبه، فقد كان ﷺ وفيًا للوطن المستقبل وللوطن الأمّ معاً، فقد كان من دعائه عليه الصلاة والسلام كما روت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ"<sup>(٢)</sup>، ولا أدل على ذلك الحب أن المدينة كانت محط استقراره وموطن قبره عليه السلام. أما حياته فيها فكانت كلها جهداً وعطاءً، فمنذ أن وصل إليها عمل بجد واجتهاد لتقوية التماسك المجتمعي، وجمع الكلمة، وتوحيد الصف، واستيعاب مختلف الفئات المشكلة للمجتمع، وتوجيه قواها للعطاء، والتعاون، والتربية والتعليم ونشر قيم الخير والصلاح، والتصحيح على قيم الظلم والفساد، وهي القيم التي اهتمت بالأصول والكليات كما اهتمت بأدقّ التفاصيل والجزئيات، اهتمت بأركان الدولة ولم تهمل حقوق النملة، ولم تتغافل عن تنقية العقول وتقويتها، وصفاء القلوب وفعاليتها، فكانت قيماً جامعة مانعة بانية للخير هادمة للشر، مؤسسة للصلاح في كل زمان ومكان، فكانت بحق تجربة رائدة لاستلهام قيم المحافظة على الأوطان وحمائيتها وتعزيز بنائها.

ولقد تضافرت بشكل موسع النماذج التي وصلتنا من السنّة النبوية في تعامل النبي ﷺ مع الناس أجمعين، المسلمين المؤيدين منهم أو المخالفين في الدين من اليهود والنصارى والمشركين، لما في ذلك من المقاصد الإيجابية الخفية والظاهرة على وطن المدينة وحوزة المسلمين والناس أجمعين. فقد سمع بالرسالة الجديدة كثير من الأقوام، ومنهم من فارق وطنه والتحق بموطن الدعوة والرسالة. وقد كان منهج تعامله مع الفئات الوافدة من الأمم الأخرى منهجاً فريداً ومميزاً وراقياً، جسّده مكارم أخلاق النبي الكريم وتوجيهاته النيرة، لإعداد الأحرصان الدافعة وتعزيزها في مجتمع عربي أصيل من

١- سعيد إسماعيل علي، "المواطنة في الإسلام"، ص: ٣٢.

٢- صحيح البخاري، فضائل المدينة، باب حدثنا مسدد، رقم: ١٨٨٩.

أجل استيعابهم ودمجهم حتى صاروا عنصراً أصلياً من المجتمع وطرفاً محورياً لا هامشياً، وأساسياً لا ثانوياً. وقد تعزز ذلك بتوجيهات الوحي الواضحة، القائمة على ترسيخ مبادئ الأخوة، والتسامح، والتضامن، والتكافل، واحترام الكرامة الآدمية، حيث أسهمت تلك الأسس والتوجيهات بشكل كبير في استيعاب القادمين من الأمم المجاورة ودمجهم بمنهج خلاق وبطريقة انسيابية؛ فجعلتهم جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المسلم، لهم ما لبقية أفرادهم وعليهم ما على غيرهم. وقد كانت لهم أدوار حقيقية على واجهات متعددة، نذكر من هؤلاء بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي وغيرهم. فكان ذلك تطبيقاً عملياً ونموذجاً واقعياً لتوفير الأحضان الدافئة لمن ترك وطنه والتحق بوطن آخر يجد فيه راحته وسكينته. وهذا الإحساس بالانتماء الكامل للوطن الجديد أكدته كذلك "نظريات المواطنة المعاصرة المستمدة من علم الاجتماع والتي تستند أصولها من كتابات مارشال الذي عرّف المواطنة بأنها تلك المكانة التي يتمتع بها شخص ما باعتباره عضواً كامل العضوية في مجتمع معين"<sup>(١)</sup>.

ومن الأمثلة البارزة الدالة على تضحية المسلمين وصبرهم، في تلك الفترة، المنهج الفريد الذي استقبل به الأنصارُ بالمدينة المهاجرين القادمين من مكة المكرمة، فإذا كان المهاجرون قد تحملوا آلام فراق الوطن الأصل والتضحية بممتلكاتهم وأموالهم من أجل اللحاق بالموطن الجديد للدعوة، فإن الأنصار قد عبّروا عن قمة التضحية والبذل والكرم، جسده تضامناً غير المشروط مع المهاجرين ووضع أموالهم وممتلكاتهم رهن إشارتهم بل وقسمتها معهم، عَن أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةَ أَحْسَنَ بَدَلًا مِنْ كَثِيرٍ، وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ، قَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَةِ، فَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَكُونُوا يَذْهَبُونَ بِالْأَجْرِ كُلِّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: كَلَّا، مَا أَتَيْتُمْ بِهِ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ اللَّهَ لَهُمْ"<sup>(٢)</sup>؛ فالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت تأكيداً للأخوة الإنسانية، وتجسيداً لنوازح الخير الموجودة في الإنسان، التي تنتظر

١- سعيد إسماعيل علي، "المواطنة في الإسلام"، ص ١٧ (نقلا عن موسوعة علم الاجتماع

٢٠٠١م/١٤١١هـ).

٢- السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الهبات - جماع أبواب عطية الرجل ولده - باب شكر المعروف، رقم:

١٢١٥٩.

من يستحثها للبروغ ويستثيرها للظهور<sup>(١)</sup>.

من جانب آخر لم يكن لدى هؤلاء الوافدين أي إحساس بالغبية أو الدونية، بل اعتبروا أنفسهم عناصر فاعلة داخل المجتمع الجديد يهتمهم ما يههمه ويضرهم ما يضره، فانخرطوا فيه بإيجابية وعطاء وكان لهم اسهامات وإنجازات وبطولات مشهودة، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ، فَأَخَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غِنَى، فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: أَقْسِمُكَ مَالِي نَصْفَيْنِ وَأُزُوجُكَ، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، ذُلُّونِي عَلَى السُّوقِ، فَمَا رَجَعَ حَتَّى اسْتَفْضَلَ أَقْطًا وَتَمَنَّا، فَأَتَى بِهِ أَهْلَ مَنْزِلِهِ فَمَكَّنْتَنَا يَسِيرًا، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَجَاءَ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهَيْمٌ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: مَا سَأَلْتِ إِلَيْهَا، قَالَ نَوَاءٌ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ وَزَنَ نَوَاءٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ<sup>(٢)</sup>. فهذا الموقف يؤكد على قيمة العمل في أي بلد يحط به الإنسان رحاله، خاصة وأن قيمة العمل هي قيمة تدافعية تفاعلية بين الناس، تحتاج إلى تفهم الواقع ومعرفة قواعده وقوانينه وحاجياته ومتطلباته.

فمجال الأموال والمعاملات مثل: البيع والشراء المباحين، هو فضاء مفتوح لكل الناس دون اعتبار للدين في مبدئية عقد البيوع وغيرها، ولا شك أن التوجيهات النبوية الموجهة في هذا المجال والمرحلة النبوية عموما تعطي للدارسين نبراسا نيرا ينسحب على كل من غادر وطنه واستقر في بلاد أخرى باعتبارها توجيهات عامة يمكن تبنيها وتكييفها بحسب الظروف والسيئات وملابسائها وخصوصياتها.

أما على مستوى الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية، فالأصل في الإسلام أن يضمن الحرية

١- من الأمثلة التي تؤكد نزعة الخير المركوزة في الإنسان ما حدثني به بعض المهاجرين الأوائل الذين وصلوا إلى الديار الأوربية في الثمانينات من القرن الماضي عن طريق الهجرة غير الشرعية، حيث كانوا في أحيان كثيرة يبيتون تحت القناطر والأماكن المهجورة، فكان بعض السكان المحاورين يتعجبون لحالهم ويستغربون لمناظر لم يألفوها في واقعهم، فيأتون لهم بالمال والطعام تضامنا معهم ومواساة لهم. ومع مرور الوقت وتوافد المزيد من المهاجرين بدأ ذلك الإحساس التضامني يقل، كما رافق واقع المهاجرين مشاكل أخرى معقدة فرضت نهج تدخلات منظمة ومقاربات متعددة.

٢- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، حديث رقم ٢٠٤٩.

لأداء الشعائر الدينية دون تنقيص أو احتقار؛ فقد كان أهل الكتاب مجاورين للنبي ﷺ في المدينة، وجاء مرة وفد نصارى نجران، فأنزلهم في المسجد وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه، فكانوا يصلون في جانب منه، ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر<sup>(١)</sup>. نموذج آخر يؤكد ذلك التسامح الديني الفريد في زمن النبوة وهو "لما جاء وفد نصارى الحبشة، أنزلهم رسول الله في المسجد، وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم، وكان مما قاله يومئذ: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، فأحب أن أكرمهم بنفسي"<sup>(٢)</sup> وهذا التسامح في الدين بإقامة شعائرهم الدينية في المسجد يدل من باب أولى على ضرورة التسامح في باقي مناحي الحياة الدنيوية ومتطلباتها.

### المبحث الرابع: مداخل حماية الوطن من خلال السنّة النبوية

يدل حال المسلمين اليوم في البلاد الغربية وفي غيرها من بلدان العالم التي اختاروها مواطنين بديلة، إنه لا بد من خلق صيغ موائمة جديدة قائمة على تفعيل قيم التواصل والتعاون، وتغليب منطق المصالح والمفاسد، لتحقيق الخير لهم وللإسلام والبلدان المستقبلية والحاضنة لهم. ولرسالة الإسلام بعد إنساني قائم على أساس الأخوة والمحبة الإنسانية، وهو بعد يُعد البلد المضيف وطنا حقيقيا للسكان فيه، ويُعد قاطن هذا "الوطن البلد" إنسانا أخا ضمن أسرة ممتدة موسعة، كلّ ما يعنيه يعنيه، وكل ما يضره يضره، وكل ما ينفعه ينفعه، وكلها مبادئ موافقة للبعد الاستخلافي بمفهومه العام والشامل.

ومن جهة أخرى، فقد أشار الكثير من الآيات القرآنية والتوجيهات النبوية إلى أسس التعامل بين الأفراد والجماعات، وجاءت العبارات والنصوص الدالة على ذلك بصيغ العموم والاستغراق بغض النظر عن الدين أو العرق أو الجنس (الناس، بني آدم)، خاصة فيما يتعلق بالمعاملات والقيم ومكارم الأخلاق، وفي هذا السياق يندرج قوله ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"<sup>(٣)</sup>. فالمواطنة

١- ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، ٢ / ٤٢.

٢- ينظر: "الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية" لأبي القاسم عبد الرحمن أحمد بن أبي الحسن، ١٧٩/٢

٣- السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الشهادات - جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز - باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، رقم: ٢٠٨٣٩.



من هذا المنظور تعزيز للمشارك الإنساني وتقوية للبناء القيمي والأخلاقي، ومن ثم يمكن عدّها أحد روافد الإعمار والاستخلاف بالمفهوم القرآني، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولعل ما سبق يعزز مفهوم الدار العالمية التي تسع الجميع مهما اختلف الدين وتباينت العقائد، وكلها توجيهات متوافقة ومنسجمة مع المحددات المنهجية القرآنية التي تؤكد عالمية رسالة الإسلام وعالمية دعوة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾<sup>(٤)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾<sup>(٥)</sup>، ويقول النبي ﷺ: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بغيرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".<sup>(٦)</sup> فمن ميزات المسلم إنه إنسان منفتح غير منغلق، مستوعب وحاضن لكل خير نافع للناس، كما إنه مصدر للخير والنفعة للناس، وتوجيهات النبي الكريم لا تقتصر على وجود المسلمين في بلد دون آخر، وإنما هي توجيهات عامة ودستور حياة المسلم في كل زمان ومكان، وذلك من متعلقات عالمية رسالته.

إن المواطنة، باعتبارها مفهوما مجردا، لا تتحقق فاعليته وتأثيره وعطاؤه إلا بما يحيط به من قرائن ومتعلقات تعتبر سنده ومنبع قوته، وتدور تلك المتعلقات المرجعية المؤطرة له حول قيمه الروحية ومضامينه المادية، ومكونات الفضاء البشري الأصلية، إضافة إلى الظروف الخارجية المحيطة

١- سورة يونس، الآية ١٤.

٢- سورة الأعراف، الآية ١٢٩.

٣- سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

٤- سورة النساء، الآية ٥٨.

٥- سورة المائدة، الآية ٤٢.

٦- سنن داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجار، رقم:

التي تجسدها التحديات والإكراهات، التي غالبا ما تكون دافعا للتجويد والعطاء. ويمكن استقراء جملة من مداخل حماية الوطن استنادا إلى السنّة النبوية نجملها فيما يلي:

**أولا: المدخل العاطفي النفسي الوجداني:** وهو أساس الارتباط بالوطن، ومنبع القوة الروحية الدافعة إلى حمايته معنويا وماديا؛ إذ إن الوجود المادي للوطن والمواطن لا يجدي نفعا دائما ومستمر ما لم توجد تلك الرابطة الوجدانية العاطفية التي تؤلف بينهما، ولقد ضرب لنا النبي ﷺ أروع الأمثلة في الارتباط النفسي بالوطن والإخلاص له، وقد أشرنا سابقا إلى ارتباطه الكبير بمكة المكرمة وحبها لها وعدم رغبته في الخروج منها، رغم ما تعرض له في دعوته من الصّد والمنع والاستنكاف والإعراض عن العدوان الذي انتهى بالمقاطعة والمطاردة لصاحب الرسالة والأتباع وتعذيبهم واضطهادهم، فضلا عما رمي به عليه السلام من أوصاف السحر والشعوذة، والشعر، والجنون، والكهانة، بل والعزم على القتل. ورغم تلك الظروف القاسية كان عليه السلام وفيما لوطنه محبا له، راجيا هداية قومه، وراغبا في البقاء به، "فالإنسان هو ابن بيئته، لا يستطيع أن ينفصل عنها ولو بالبعد، ولا يمكنه التخلص من آثارها ولو خرج من إطارها، فإن ما تأثر به المرء في وطنه - وهو بيئته - من أرض وهواء وماء وغذاء، وأصل ونسب، وسلالة وورثة، وظروف بيئية أخرى، تسيطر عليه في أعماقه، وتحيط بأفاقه، سواء عليه أدق النظر فرآها أم غفل فغاب عنه مرآها؛ ولذلك كان ارتباط الإنسان بوطنه جد عميق، وجدّ وثيق"<sup>(١)</sup> وفي ذلك تأكيد للبعد العاطفي للمواطنة، وتجسيد "الشعور الفرد بالارتباط بالوطن والانتماء للجماعة، أي بارتباط مستقبله بمستقبلها وانعكاس كل ما يصيبها على نفسه، وكل ما يصيبه عليها، وهذا يأتي من شعور الفرد بالمصالح المشتركة بينه وبين أفراد الجماعة والعلاقة بينه وبينهم، وارتباط مصيره بمصيرهم ومصيرهم بمصيره"<sup>(٢)</sup>.

لقد كان حبّ الوطن سبباً في نزول بعض من آيات القرآن الكريم على النبي ﷺ، أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ

١- أحمد شرباصي، "الدين والمجتمع"، ص: ٣٥

٢- سعيد إسماعيل علي، "المواطنة في الإسلام"، ص ٥٣.

وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ومن تجليات تلك العاطفة الجياشة رغبة النبي ﷺ في تحويل القبلة اتجاه الكعبة بمكة المكرمة، قال تعالى: ﴿ قَدْ زَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

ومن مقتضيات المدخل العاطفي النفسي الوجداني الولاء للوطن والوفاء له والاعتراف بالخير والجميل له، ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك روعة الوفاء عند المهاجرين وهم يفرحون بانتصار النجاشي على عدوه حين نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، قالت أم سلمة: "فوالله ما علمتُنا حزناً حزناً قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه" (٣). وقد جسّد الموقف وفاء المسلمين، وحذرهم من الفوضى، وتعبيراً صادقاً عن انتمائهم للمجتمع الجديد وما يملي عليهم من واجبات المواطنة اتجاه الوطن الجديد.

ومن متعلقات الوفاء بالوطن إتقان الأعمال والمهمات، ومناهضة الفساد وعدم التستر عليه، والسعي إلى توطيد دعائم السلم والاستقرار، ومساعدة الضعفاء والمرضى والمحتاجين، والمبادرة إلى فضائل الأعمال والخيرات، وتحمل المسؤوليات المدنية للدفاع عن حقوق المسلمين لجنّي المكتسبات الميسرة للعيش الكريم.

فلا شك أن ارتباط المسلمين بمرجعيتهم العليا (القرآن الكريم و السنّة النبوية الصحيحة) يعد رافداً مهماً لترسيخ الإيمان بالمبادئ الكبرى الموجهة للقول والفعل؛ إذ إن ذلك البعد النفسي الإيماني والعاطفي الوجداني هو الذي جعل قلوب المسلمين جميعاً متعلقة بالتجربة النبوية التي استطاعت تأسيس نموذج كان قائماً على الاحترام والالتزام الطوعي للقانون، والاهتمام بالعمل العام والرغبة في القيام بأعمال تطوعية لخدمة المجتمع الذي يعيش فيه الفرد حتى لو تطلب الأمر تضحية بجانب

١- سورة القصص، الآية: ٨٥.

٢- سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

٣- ينظر: السيرة النبوي لابن هشام ابتداء من ٢١٨/١.

من جوانب مصالحه الخاصة، وصولاً إلى الاستعداد للتضحية بالنفس في سبيل الدفاع عن الدولة ضد ما تتعرض له من تهديدات<sup>(٤)</sup>.

**ثانياً: المدخل القيمي الأخلاقي:** الذي يعزز المشترك الإنساني، ويبرز جمالية قيم الإسلام وقدرتها على الاستيعاب والدمج، كما يمنح تلك القيم أبعاداً رسالية وحضارية، ولقد تعامل النبي ﷺ طيلة مسيرته الدعوية مع طوائف عدة فئات مختلفة من المجتمع، تأثرت بأخلاقه وشيمه الإسلامية الرفيعة، سواء في تعامله مع أصحابه أو أهل بيته، أو مع الصبيان والنساء، أو مع المخالفين له في الرأي والدين والعقيدة، من اليهود والنصارى والمشركين المسلمين، أو من الأعداء والمحاربين، حيث كان في غاية التواضع والسماحة والودّ والاحترام، وكان يعامل جميع الناس بالحسن والعدل، بل إن سعيه لرد الحقوق وإقامة العدل وصد العدوان كان على قدم المساواة بين المسلم وغير المسلم.

ونذكر في هذا السياق موقفاً عظيماً للنبي عليه الصلاة يفصح عن الصبر والاحتساب، وهو خلق كريم تشتد حاجة المسلمين إليه اليوم في جميع بقاع الأرض نظراً لكثرة التشكي والأذى وتعدد متطلبات الحياة وتداخلها، يقول ابن القيم رحمه الله: "تأمل حال النبي ﷺ، إذ ضربه قومه حتى أدموه. فجعل يسلك الدم عنه، ويقول: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" كيف جمع بين هذه الكلمات الأربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه؟ أحدها؛ عفوه عنهم، والثاني؛ استغفاره لهم، والثالث؛ اعتذاره عنهم، بأنهم لا يعلمون، والرابع؛ استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: "اغفر لقومي" كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي فهبه لي"<sup>(٥)</sup>.

ومما يرتبط بهذا المدخل جانب الهداية والخيرية؛ إذ إن وجود المسلمين في غير بلاد المسلمين يشكل فرصة ينبغي أن تُستثمر في الدعوة إلى الهدى والخير والصلاح، بحكمة ورفق ولين، وأفضل الدعوة ما كان بالسلوك والمعاملات والتخلق بقيم الإسلام التي تعطي صورة جميلة عن حقيقته

٤- محمد سعد أبو عامود، "المواطنة المصرية والعروبة، حصاد هجرة العمالة المصرية" ص: ١٢٩٠.

٥- التفسير القيم لابن القيم الجوزية، ص: ٥٨٩.

وحقيقة مضامينه، قالت عائشة رضي الله عنها في وصف خلق النبي ﷺ "كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنَ"<sup>(١)</sup>.... يقول ﷺ: "فَوَ اللَّهُ لَأَنَّ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ التَّعَم"<sup>(٢)</sup>، والمسلمون الأولون إنما نشروا الإسلام في العالم بأخلاقهم، وسلوكياتهم أكثر من أقوالهم أو خطبهم.

وهذا التعامل الراقي مع الآخر يعكس من جهة الصورة الإيجابية عن الهوية والدين والثقافة لدى المسلمين، كما يعكس من جهة أخرى الصورة الإيجابية عن البلد الأصل وعن أهله، فيكون بذلك سفيرا عن وطنه وممثلا عنه من خلال القيم والأخلاق المؤطرة للعمل والسلوك. فرقي الهوية والانتماء الوطني مرتبط أشد الارتباط بأنماط تعامل أهلها مع الآخرين خارج أوطانهم، وما يؤكد ذلك ما يبثه الإعلام وينشره من أحداث عن المهاجرين ووقائعهم، فحين تُذكر بطولاتهم ومواقفهم الإيجابية فإنها تحيلهم إلى مواطنهم الأصلية التي قدموا منها، وحين تذكر في المقابل مواقفهم السلبية فإنها تربطهم بمواطنهم التي قدموا منها، ومن ثم فإن المهاجرين يعدون سفراء عن بلدانهم وهم مسؤولون بنسب معينة عن التمثلات والصور الذهنية التي تتشكل لدى المجتمع والإعلام في بلدان إقامتهم.

فالأصل عند المسلمين أنهم خير الناس لكل الناس، ومن أهم مضامين تلك الخيرية فعل الخير للناس جميعا، والنصيحة والرحمة بهم، والسعي لهم فيما فيه الصلاح والسعادة لهم، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

ثالثا: المدخل الحواري التواصلي الحضاري: من المحددات القرآنية الكبرى سنة التعارف والتعاون بين الناس، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٤)</sup>، فالتعاون بين الأمم والشعوب فضلا

١- مسند أحمد بن حنبل - مسند عائشة رضي الله عنها، حديث رقم " ٢٥٢٤٠.

٢- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، حديث رقم: ٣٠٠٩.

٣- سورة آل عمران، الآية: ١١٠

٤- سورة الحجرات، الآية: ١٣

عن المجتمعات الأفراد أصبح أمراً مؤكداً وضرورياً، لأنه يحمي الأوطان جميعاً من الهلاك والضياع، وقد حدد القرآن الكريم موضوع هذا التعاون ضمن مبدأ عام وهو: البر والخير، كيفما كان نوع هذا الخير، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾<sup>(١)</sup>. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>، ومن سبل الخير بذل الجهد لمحاربة الشر. كيفما كان نوع هذا الشر.

ويشمل التعاون كل المجالات: الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، والعلمية وغيرها من مجالات الخير والصلاح، ويتخذ صوراً شتى؛ تعاون دولي لمواجهة قضايا تمم العالم أجمع: محاربة تلوث البيئة، تسليم المجرمين، التنمية الاقتصادية، عقلنة استغلال ثروات البر والبحر والفضاء، الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة.

ومن تجليات ذلك التعاون علاقات الإخاء والمخالطة الإيجابية بين المهاجرين وغيرهم من أهل الديار المستقبلية، بل إن طرائق تعاملهم قد تكون سبباً يدفع الكثير من أهالي تلك البلدان إلى زيارتهم في مواطنهم الأصلية من أجل التعرف أكثر على التقاليد والعادات والقيم السائدة في بلدانهم، فيكون ذلك أحد جوانب التواصل الحضاري، ومدخلاً للتقريب بين أهل الديانات والملل، وتضييق شقة الخلاف والصراع بينهم، وتوسيع دائرة المشترك الإنساني من خلال التأسيس لمواطنة عالمية تؤلف بين الجميع وتوحدهم.

ومن تجليات ذلك التواصل التعاون على حفظ الأمن والسلام والاستقرار، التي تعدّ من أهم مقاصد الإسلام الكبرى، الأمن على الدين وعلى النفس وعلى العرض وعلى العقل وعلى المال، قال الرسول ﷺ: "المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب"<sup>(٣)</sup>؛ فالمؤمن يحقق مبادئ السلام الكبرى للإسلام أينما حل وارتحل. ومن ابتلاءات الزمن المعاصر اتهام الإسلام وأهله بالإرهاب والعنف والتطرف، وإن وجود المسلمين في أحضان البلدان

١- سورة المائدة، الآية: ٢

٢- سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

٣- سنن ابن ماجه، أبواب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، رقم: ٣٩٣٤.

الغربية يشكل فرصة عظيمة لتصحيح تلك المغالطات والدعاوى وتنفيذ الاتهامات والادعاءات المنتشرة في الإعلام بجميع أصنافه، والإسهام في معالجتها، وطريق ذلك المخالطة الإيجابية معهم، والمشاركة المسؤولة في المنتديات والمطارحات الفكرية والعلمية التي تناقش قضايا العنف والتطرف والإرهاب. وينبغي أن تكون تلك المشاركة مبنية على العلم الصحيح والبحث الرصين والمعرفة الدقيقة بالأدلة القوية حتى تكون رسالتنا واضحة قوية لا غموض فيها ولا لبس. فحماية الحقيقة ورعايتها يمنع من توسيع دائرة الكذب والبهتان المؤدي إلى الصراع والقتال، ففي ذلك حماية للأرواح والأوطان ودعم للحق والحقيقة. مستنيرين في ذلك بالآثار النبوية المتضافرة التي تدعو إلى الرفق والرحمة والسماحة، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: " إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"<sup>(١)</sup> وفي صحيح البخاري، قال ﷺ " إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ"<sup>(٢)</sup> وفي حديث آخر يقول النبي الكريم في وصيته لمبعوثيه إلى اليمن معاذًا وأبا موسى: " يَسْرًا وَلَا تُعَسِّرًا، وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرًا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تُخْتَلِفًا"<sup>(٣)</sup>.

**رابعاً: المدخل الحقوقي:** يرتبط وجود المسلمين في بلاد المهجر بسياقات داخلية وخارجية، فضلاً عن تعقد أبعادها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ فالظاهرة مرتبطة بطرفين؛ الذات والآخر، نحن والغرب، وهما طرفان تجمعهما الأخوة الإنسانية، وليس التقابل كما في بعض الأدبيات الغربية، فالتمييز هنا تمييز منهجي يرجى من خلاله البحث للآخر عن موقع في الذات، والبحث للذات عن مواقع مناسبة لدى الآخر. وما دام سياق الحديث مرتبطاً بالذات أولاً فإن أي تأصيل نظري للمدخل الحقوقي سيكون موجّهاً بالأساس إلى الذات، المطالبة بالوعي التام بشروط الواقع الجديد الذي له قوانينه ونظم اشتغاله وطرائق تديره التي تفرض علينا اجتهاداً وتنقيحاً لتجميع المعطيات وتكييفها بحسب الخصوصيات والإكراهات والتحديات، وإيجاد المداخل المناسبة لجلب أكبر قدر ممكن من المنافع والمصالح المتبادلة، وقد يكون لذلك أثره لدى الآخر في تعديل نظرتة

١- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم: ٢٥٩٣.

٢- صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - باب إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ولم يصرح، رقم: ٦٩٢٧.

٣- صحيح البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، حديث رقم ٣٠٣٨.

وتكليف قوانينه وتحيين معطياته فيما يرتبط بقضايا المسلمين.

فلا شك أن المسلمين مطالبون بمعرفة دقيقة بكل القوانين المتعلقة بوجودهم في بلدان إقامتهم، لا عذر لهم بجهل القانون، وإلا سيفسد حالهم وتضيع حقوقهم ويخطون خبط عشواء في معاملاتهم، فالخبرة في هذا المجال أمر أكد ومطلوب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْبُئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾<sup>(١)</sup> فهذه المعرفة سبيل احترام القانون وجني المكتسبات والتنبيه إلى الثغرات والسعي إلى تكيف العقبات ثم العمل على طرق سبل تعديلها جلبا للمصالح ودرءاً للمفاسد. وينبغي في هذا الصدد الاستفادة من منهج النبي عليه الصلاة والسلام في التفاوض مع الغير من أجل جني المكتسبات العظيمة والخيرات الحميدة، وذلك عند تفاوضه عليه السلام في صلح الحديبية مع سهيل بن عمرو، حيث تنازل النبي ﷺ عن كتابة اسمه وصفة الرسالة أثناء تدوين معاهدة الصلح مع المشركين؛ إذ كانت عينه عليه السلام متجهة صوب المقاصد المستقبلية الكبرى للدعوة وبركات ذلك على الإسلام والمسلمين بعد تحقيق الهدنة ووضع أوزار الحرب. فأوضاع الأمن والسلام تمكن من صفاء الرؤية، فتسكن القلب للإسلام وتفتح العقول لتأمل توجيهاته وتدبر أحكامه. والمسلمون اليوم في جميع بقاع الأرض محتاجون إلى هذه الحكمة النبوية التي دلّت على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مستوعباً للجزئيات والتفاصيل متجاوزاً لها إلى الأصول والكليات، ومستوعباً للأشكال والمظاهر متجاوزاً لها إلى المقاصد والجواهر، ومستوعباً للمرحلة التاريخية الراهنة التي عاشها متجاوزاً لها إلى الآفاق المستقبلية القادمة. ومن أهم ميزات المسلم أنه يستند إلى أرضية صلبة متعالية، لا يضحى بالمبادئ والأصول من أجل متغيرات ظرفية، لأنه يعرف غاياته ومقاصده الكبرى ويسعى لتحقيقها في ليونة مع التحديات والعراقيل، بمنهج تنزيلي قائم على الإخلاص وتحقيق المصلحة الشرعية، والصبر والتأني والحفاظ على المكتسبات والبحث عن أنوار الآمال من برائن الخن والآلام.

كما أن قوله عليه الصلاة والسلام: "كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"<sup>(٢)</sup> دليل على ضرورة أداء الأمانات والمسؤوليات وإتيان الواجبات والمهمات بإحسان وإتقان في أي زمان أو

١- سورة فاطر، الآية: ١٤.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث رقم: ٨٩٣، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، حديث رقم: ١٨٢٩.



مكان، مع الإشارة إلى أن الأسرة المسلمة في بلاد الغرب تزداد مسؤوليتها اتجاه رعاية الأبناء والحفاظ على خصوصياتهم وتمكينهم من التوفيق بين هويتهم الأصل ومميزات وطنهم المستقبل.

وترتبط بالمدخل الحقوقي ثنائية الولاء والحماية، فمن بين التعريفات التي أُطلقت على المواطنة أنها "مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين شخص طبيعي، وبين مجتمع سياسي (دولة)، من خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولى الثاني مهمة الحماية. وتحدد هذه العلاقة بين الشخص والدولة عن طريق القانون، كما يحكمها مبدأ المساواة"<sup>(١)</sup>، وتسعفنا آثار السنّة النبوية بشكل كبير في التأصيل لثنائية الحماية والولاء، والمقصود بها التعاقد المنظم بين تشكيلات مجتمعية متجاوزة، أو بين تشكيلات داخل المجتمع الواحد يقوم على الولاء لجهة التسيير والتدبير مقابل الحماية والنصرة المتبادلة، فهما في الحقيقة شريكان لكنهما طرفان غير متساويين، بحكم طبيعة الوظائف المنوطة بكل طرف، وهنا تطرح إشكالية إمكانية تبادل الأدوار والحفاظ على بنود الشراكة والاتفاق. ومن أبرز الأمثلة على ذلك وثيقة المدينة التي ضمنت حقوق جميع المكونات المشكلة لمجتمع المدينة بمختلف توجهاتها الدينية والعقيدية، التي أكدت على المسؤولية الجماعية، وزرع الإيجابية في المجتمع وبين المواطنين، واعتبرت تحقيق الأمن والاستقرار مسؤولية فردية وجماعية مشتركة.

**خامسا: المدخل العملي البنائي:** وذلك بالمبادرة إلى العمل الإيجابي البناء والحرص على ما فيه صلاح الخلق ونفعهم في مختلف مجالات الحياة، والعمل الإيجابي عموما، منبعه الإيمان ومستنده القرآن، الذي استوعب الكليات والأسس الموجّهة لبناء الإنسان وتشيد العمران، والقائمة على الحوار ومنطلقات التزكية وأخلاق الرحمة والسماحة والمحبة والأخوة والانفتاح على الآخر وفهم متوجه الحضاري والعلمي والمعرفي والقيمي الأخلاقي، وهي محددات أساسية حاكمة على العلاقات والتصرفات بل إنها قيم التكريم والاستخلاف المستقاة من الوحي ومشكاة النبوة.

إن العمل الإيجابي البناء عنصر محوري في منظومة الاستخلاف، ومن نماذج ذلك ما رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ

١- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، ص: ٥٦.

إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ"<sup>(١)</sup>، "وتكمن دلالة هذا الحديث في تحفيز الإنسان على القيام بعمل ينتفع به المجتمع، ويُسهِّم في تحقيق تنميته، وعده عملاً من أعمال البر والخير، تستفيد منه الجماعة، ويصل إلى مستوى الصدقة التي تزرع روح التكافل داخل النسيج الاجتماعي"<sup>(٢)</sup>. ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر<sup>(٣)</sup>. أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمُ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُورُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَآنَ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدَمَهُ عَلَى الصَّرَاطِ يَوْمَ تَزَلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ.

ومن العمل الإيجابي الإحسان إلى الخلق عموماً والسعي لربط علاقة الأخوة الإنسانية مع جميع الخلق، اقتداءً بالنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم؛ فقد زار النبي أبا طالب وهو في مرضه (وهو مشرك)، كما عاد الغلام اليهودي لما مرض<sup>(٤)</sup>. وكذلك الإحسان إلى الجيران والأصحاب، قال عليه السلام: "خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ"<sup>(٥)</sup>، وواضح أن المقصود بالجار هنا الجار المطلق بغض النظر عن دينه أو عقيدته.

إن حجم العطاء الذي قدمه النبي ﷺ والجهد الذي بذله في خضم ظروف قاسية يعدّ درساً

١- أخرجه البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، حديث رقم: ٢٣٢٠.

٢- إبراهيم القادري بوتشيش، "مقومات السلم المدني وآليات تحصيله: دراسة تأصيلية في ضوء السنّة النبوية، ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية الثامنة "السلم المدني في السنّة النبوية؛ مقوماته وأبعاده الحضارية"، ٥٩/١.

٣- رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب الميم - من اسمه محمد - محمد بن عبد الرحمن بن الشافعي البصري، رقم: ٦٠٢٦.

وقال فيه: "لَمْ يَرَوْهُ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ عَمْرٍو بْنِ دِينَارٍ إِلَّا سُكِّنَ بِنُ سِرَاجٍ، تَفَرَّدَ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ قَيْسٍ"

٤- أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب عيادة المشرك، حديث رقم: ١٣٥٦.

٥- جامع الترمذي، البر والصلة، حديث رقم: ١٩٤٤. قال فيه: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

بليغا للسائرين في الطريق إلى الله، كلُّ من موقعه وطبيعة عمله وظروف اشتغاله؛ وهي ظروف لا تخرج عن مسارين اثنين: فإما أن تكون دائرة حول الشدة والضييق والمعاناة، أو تكون محاطة بالرخاء والنعيم والأمن والاستقرار.

**ففي الحالة الأولى** ينبغي النظر إلى تلك الظروف بعين الرّضى والتفاؤل والبحث في منافذ الحياة المختلفة والجدّ في طلب السبل الصحيحة التي تفتح الآمال وتحوّل الحزن إلى منح، فتنتقل المعادلة من ردود أفعال غير محسوبة إلى تأثير وعطاء قد تمتدّ بركته حتى إلى من كانوا سببا في المحنة والضييق. وأما بالنسبة إلى من ينعم بظروف الأمن والرخاء والحرية فإن درس المواطنة الموجه إلى هؤلاء أبلغ وأشدّ، لأنهم مطالبون بأعلى مستويات العطاء والمردودية والإيجابية، ولا مبرر لضجرهم أو تشكّكهم، ولا يليق بهم خلق المبررات الواهية والمسوغات الملتوية للتغطية على تكاسلهم وتهاونهم، يصدق هذا على الجانب الفردي كما يصدق على الجانب الاجتماعي الحضاري، خاصة وأن أغلب مبررات الضعف والتخلف تستند إلى أطروحات وهمية من قبيل: المؤامرة الخارجية، وغياب الوسائل وضبابية المنطلقات، وطول أمد التخلف... متغافلة عن إمكانات الأمة المادية والبشرية والروحية والقيمية والمعنوية والتاريخية القادرة على خلق المعجزات في سلّم التقدم الإنساني والعمري والحضاري.

فالنظرة الإيجابية تجعل الحياة زينة وبهجة وسرورا مهما كانت الظروف والأحوال، وهي قادرة على تحويل الحزن إلى منح، والسليبات إلى إيجابيات، وعلى استقراء العناية الإلهية في خضم الحزن ولحظات الشدة، والدفع إلى الإنتاج والعطاء بنشاط وهمّة، على أساس "أن الدنيا مزرعة للآخرة وسوق ومعمل لها، وتدفع إلى السعي الحثيث في الحياة الدنيا، ثم إنّها تُكسب القوة المعنوية المنهارة في غياب الإيمان قوة، وتسوق اليائسين الساقطين في العطالة واللامبالاة إلى الشوق والهمة وتحثهم إلى السعي والعمل"<sup>(٦)</sup>.

**سادسا: المدخل العمراني التكاملي:** ومن هذه الأبعاد: البعد العمراني في الرسالة، القائم على جلب المصالح والمنافع ودفع المفساد والمضار، وحيث ما كان الخير كان المسلم سبّاقا إليه وحيث ما كان البناء كان المسلم ساعيا إليه وحيث ما كان الضرر أو كانت المفسدة كان المسلم

٦- سعيد النورسي "كليات رسائل النور، سيرة ذاتية"، ص: ٢٩٤.

سباقا إلى درئها وإزالتها. وحين نتحدث عن البعد العمراني فنقصد به المساهمة الفعلية بإخلاص وإتقان في كل الأعمال والتكليفات المنوطة بهم في تلك البلدان والاقتراب منها ونقل تجاربها النافعة إلى بلدان الأصل لما وقفوا عليه من تقدم في الصناعات والنظم وأساليب العيش وطرائق التفكير؛ إذ لا يمنع الدين من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يفيد أوطاننا ويقويها ويعزز مكانتها في مختلف الميادين والمجالات من المصالح الدنيوية عامة، فرسول الله ﷺ يقول: "الكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا"<sup>(١)</sup> وفي تراثنا الكثير من النماذج منها مشورة سلمان الفارسي رضي الله للنبي في غزوة الخندق، ومقولة الإمام علي رضي الله عنه "لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال" وأيضا موقف الغزالي من علم المنطق الذي ليس إسلاميا<sup>(٢)</sup>، فالأدلة الشرعية متفقة على أن الأخذ بالتنظيمات الدنيوية المفيدة، مما يوجد لدى الغير، هو أمر لا حرج فيه، ومن شأن ذلك أن يبدد جملة من المفاهيم الخاطئة التي ترسبت في الفضاء الفكري وسادت في الثقافة الإسلامية لقرون عدة والقائمة على معاداة الآخر بسبب دينه المخالف، وهو ما أنتج ممارسات القطيعة وعدم مسايرة التاريخ والتطورات الحاصلة فيه.

كما أنّ التكامل أمر مطلوب، ليس فقط داخل الأمة الواحدة، وإنما حتى مع باقي الأمم الأخرى، فيما يجلب النفع ويحقق الأمن والاستقرار أي أن التكامل "يتمثل في ضرورتين: داخلية وخارجية؛ ضرورة داخلية تنبع من الحاجة إلى روابط وعلاقات الحب والرحمة والثقة بين أبناء المجتمع الواحد، وعهود ومواثيق السلام والطمأنينة بين المجتمعات، وضرورة خارجية تنبع من الاعتماد المتبادل، والمشاركة في المنابع بين البشر لتوفير متطلبات الحياة"<sup>(٣)</sup>.

وركيزة التكامل هو تقوية الأبعاد العلمية والمعرفية؛ فالمسلم مدعو إلى الانخراط الثقافي والفكري والسياسي في البناء، وعدم الرضا بأمكان الظل والهوامش، خاصة وأن الرسالة التي ينتمي إليها رسالة عالمية ينبغي أن يعكسها توجه عالمي قائم على التفاعل والعطاء الإنساني، وتعميم النفع

١- جامع الترمذي، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم:

٢٦٨٧. قال فيه: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

٢- خير الدين التونسي، "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، ص: ٦.

٣- ملكاوي، فتحي حسن "منهجية التكامل المعرفي، مقدمات في المنهجية الإسلامية"، ص: ١٥.

والخير لكل الناس حيثما كانوا أو وجدوا.

لقد جسدت إقامة المسلمين في الحبشة<sup>(١)</sup> جوانب مهمة لمقتضيات المواطنة ومداخل حماية الوطن التي أشرنا إليها سابقا، وتجلت في معانٍ جليلة، من أهمها: مسؤولية الأمن والاستقرار، ورسالية القيم ومكارم الأخلاق، والمبادرة إلى العمل الإيجابي البناء والمخالطة الإيجابية، والوعي التام بالحقوق والواجبات، وجدلية الحماية والولاء وقيم الوفاء، والدعوة إلى الخير والهدى. ولقد أعطت التجربة نموذجاً لحياة المسلمين في بيئة غير إسلامية، وأبانوا عن سلوك منفتح بمخالطة إيجابية، وكانت تلك المخالطة بمثابة عرض لنموذج إسلامي جديد في الدعوة إلى الخير والهدى بطاعة الخالق والرحمة بالمخلوق.

كان مقدّم وفد قريش إلى النجاشي بالهدايا لتمكينهم من المسلمين فرصة ثمينة وفرت المشاركة في مناظرة دينية عرضت خلالها مضامين الدين الجديد وحياسة تعاطف الملك والفوز بالأمن والاستقرار، وانتصار الحق وإزهاق للباطل، وتأكيد قيم الوفاء والكرم وحسن الجوار، وانتصار المبادئ على المصالح والمنافع الذاتية التي جسدها النجاشي وأساقفته حين ردّوا الهدايا المغرية على وفد قريش.

إن المرافعة العظيمة التي قدّمها جعفر بن أبي طالب<sup>(٢)</sup> أمام النجاشي للدفاع عن عقيدتهم

١- ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ابتداءً من ٢١٨/١ .

٢- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَزْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيِّ، آمَنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ لَا نُؤَدِّي وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَعَثَتْ قُرَيْشٌ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَيْعَةَ، وَعَمَرُو بَنَ الْعَاصِ بِهَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ وَإِلَى بَطَارِقَتِهِ، أَرْسَلَ إِلَيَّ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا، وَمَا أَمَرْنَا بِهِ نَبِينًا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: مَا هَذَا الدِّينَ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا بِهِ فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟ قَالَ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: " أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفِ، وَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُؤَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرْنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، =

تعد درسا بليغا للمواطنين المسلمين المقيمين في غير بلادهم الأصلية، بأن يحسنوا اختيار ممثليهم من يدافع عن حقوقهم ويتكلم باسمهم، فهم مرآتهم في الإعلام، وممثلوهم لدى الجهات الحكومية المعنية، ويقدمون نموذج المسلم الذي يخالط الناس بقيم مستلهمة من مرجعية دينية يشار إليها بالبنان وحاضرة بقوة في الصحف والإعلام. ومن مظاهر النفحة الدبلوماسية في خطاب جعفر بن أبي طالب قوله: "خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ فَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظَلَّمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ". ولا شك أنها عبارة مؤطرة لخروج المسلمين إلى بلاد غيرهم ورجائهم العثور على ظروف أفضل للعيش الكريم تمكنهم من إقامة شعائرهم وتحصيل رزق يوفر حاجياتهم ومتطلباتهم.

هذه بعض من الشذرات المعرفية حول مقتضيات المواطنة ومداخل حماية الوطن المتعلقة بالمسلمين المقيمين في بلاد المهجر اعتمادا على مضامين السنّة النبوية، وهي دراسة لا تدعي الإحاطة الشاملة بمتعلقات الموضوع وجوانبه، وإنما هي محاولة أولى ستعقبها دراسات أكثر تحليلا

= وَصَلَةَ الرَّحِمِ، وَحُسْنَ الْجِوَارِ، وَالْكَفَّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفُحْشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمْرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَمْرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَّنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمَنَا فَعَدَبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا فَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَصَيَّبُوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ فَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظَلَّمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ "، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ عَلَيَّ، " فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كَهَيْعِصَ "، فَبَكَى النَّجَاشِيُّ وَاللَّهُ حَتَّى أَحْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَافِقَتُهُ حَتَّى أَحْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَّى عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا فَوَاللَّهِ لَا أُسَلِّمُهُمَ إِلَيْكُمَا، وَلَا أَكَادُ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي وَالسُّيُومُ: الْأَمْنُونَ مَنْ مَسَّكُمْ غَرِمَ، مَنْ مَسَّكُمْ غَرِمَ، مَنْ مَسَّكُمْ غَرِمَ، مَا أَحْبُّ أَنْ لِي دَبْرٌ ذَهَبٌ وَأَنْتِي آذِيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ وَالِدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْجَبَلُ رُؤُودٌ عَلَيْهِنَّ هَدَايَاهُمْ، فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا أَحَدَ اللَّهُ مِنِّي الرَّشَوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَأَخَذَ الرَّشَوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فَأُطِيعُهُمْ فِيهِ، فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحِينَ مَرْدُودًا عَلَيْنَهُمَا مَا جَاءَ بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ. (انظر سيرة ابن هشام، ٢١٨/١ وما بعدها).

وعمقا بإذن الله تعالى. وأهم ميزة لتلك المقتضيات والأبعاد أنها أسس متكاملة متداخلة، فقد دل الوحي أن الإقامة في تشكيلات مجتمعية أو أوطان أصلية أو خارجية يعد من حاجات الإنسان الضرورية، وأهم ميزة للمجتمع المسلم هو غنى مرجعيته الدينية وقدرتها على توفير الأسس النظرية والعملية لتحقيق العيش في أي منطقة من العالم ما دامت شروط العيش الكريم متوفرة. ويعد ذلك الالتقاء الحضاري فرصة للتلاقح الإنساني والثقافي، من أجل الأخذ والعطاء والإفادة والاستفادة، وفي خضم ذلك البناء تتقادح الجهود الفكرية في إطار تدافع سلمي قائم على أساس التربية وموجه بتعاقد مجتمعي يضمن للمتعاقدين أحقية الوجود والاجتهاد في أفق استيعاب كلي ودمج إنساني يرتكز على الأخوة الإنسانية وتحقيق الكرامة.

**خاتمة:** لقد حاولنا أن نبرز بعضاً من مقتضيات المواطنة ومداخل حماية الوطن من السنّة النبوية لتكون نبراساً وضاء لدى المهاجرين المسلمين في البلاد الأخرى لحماية مواطنيهم استقرارهم والوفاء لمواطنهم الأصلية، فوجدنا أن لها معالم واضحة في المنطلقات والأسس النظرية، وكذلك في الممارسات العملية والنماذج التطبيقية التي زينت تجربة النبي الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، فكانت نموذجاً فريداً في العمل الإيجابي البنائي والعمل الميداني والتدافع المجتمعي والحضاري المستوعب للقيم الإنسانية والأصول الإسلامية الكلية التي تضمن العزة، والكرامة، والحرية والعدل، والحقوق، وأداء الواجبات، كما كانت تجربة غنية وفرت للعلماء والباحثين مادة علمية ثرية يستقون منها مناهج في النظر وقواعد في السلوك قابلة للتوظيف في مقارنة الكثير من القضايا المعرفية والثقافية والتربوية والاجتماعية والإنسانية في واقعنا المعاصر.

وفي الختام نشير إلى التوصيات والنتائج المهمة التي خلصت إليها الدراسة.

خلص البحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات أهمها:

- ١- أن ارتباط مفهوم المواطنة يكون أشد وأقوى بمضامينه النفسية وحمولاته القيمية والسلوكية أكثر من دلالاته السياسية والتاريخية كما أنه مرتبط أشد الارتباط بالمرجعيات المؤطرة والمغذية له.
- ٢- يستحيل عقلاً وتاريخاً أن تصادر مرجعية معينة مفهوم المواطنة وتدعي أحقيتها في تأسيسه أو ملء مضامينه والتنظير لمقتضياته، فكل الجماعات البشرية عبر التاريخ عرفت أشكال مواطنة معينة، وأسست أنظمة اجتماعية وثقافية وأسست لتعاقدات تنظم من خلالها شؤونها الداخلية وعلاقتها الخارجية.

- ٣- تعدّ تعاليم القرآن الكريم ومضامين السنّة النبوية خزانا معرفيا غنيا للتأصيل لمقتضيات المواطنة ومداخل حماية الوطن، بما يراعي اختلاف أحوال المسلم سواء أكان مقيما في بلده الأصلي أو مهاجرا إلى بلاد أخرى، حيث إن تلك المقتضيات تظل لصيقة به مهما اختلفت ظروفه وأحواله. فالمسلمون ببلاد المهجر مطالبون بمراعاة خصوصية ظروفهم على مستويات؛ الهوية والدين والحقوق والواجبات ونصرة قضايا الأمة من خلال مواقعهم ومسؤولياتهم.
- ٤- الحاجة ماسة اليوم إلى ضرورة اعتبار المعمورة داراً عالمية واحدة تسع الجميع وتحتضنهم، ولا معنى لأي تقسيمات تاريخية مبنية على الصراع والتقاطب الحاد، من مثل دار الإسلام ودار الحرب، ومن ثم تظهر ضرورة توسيع دوائر الأخوة الإنسانية والمشاركات الدينية وتضييق دوائر الاختلافات والانشطارات المفرقة.
- ٥- لقد كانت اجتهادات النبي ﷺ في ترسيخ أسس المواطنة توازي في حقيقتها اليوم اجتهادات علماء الاجتماع والقانون والسياسة ورجال الثقافة والفكر والدعوة في التنظير القانوني والتنظيمي للمواطنة.

#### ومن توصيات هذه الورقة نذكر:

- ١- تنظيم ملتقيات فكرية وندوات علمية لفائدة المواطنين المسلمين المقيمين في الغرب قصد تعزيز الوعي الفردي والجماعي بمفهوم المواطنة ومقتضياتها ومدخلها انطلاقا من مصادرنا التشريعية، وكذا تبصيرهم بأدوارهم الطلائعية في البلدان المستقبلية لهم، من خلال صيغ بنائية تأصيلية تجمع بين الخصوصية والعالمية.
  - ٢- تكتيف الدورات التكوينية قصد معالجة مختلف العوائق والإشكالات التي تعرقل اندماج المسلمين في الدول المستقبلية لهم دون ذوبان أو فقدان للمبادئ والأصول والهوية المميزة.
  - ٣- استثمار كل الفرص المتاحة التي من شأنها أن تيسر الاندماج الوطني وتحقق التنوع الديني والثقافي والحضاري، مثل: الانخراط في مؤسسات المجتمع المدني، والحرص على التمثيل في المجالس المنتخبة، وبناء المؤسسات الخاصة، مثل: المساجد والمدارس ومعاهد تدريس اللغة العربية.
  - ٤- إصدار أعمال هذه الندوة المباركة والتركيز على نشر نسخها لدى المهاجرين المقيمين في بلاد المهجر بتنظيم أيام دراسية تبسط مضامينها.
- والله ولي التوفيق والهادي إلى سبيل الرشاد.



## لائحة المصادر والمراجع:

- صحيح البخاري، دار الفجر للتراث، القاهرة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م
- صحيح مسلم، اعتنى بجمعه ومراجعته هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م
- السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م.
- الجامع الكبير للترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، (د.ت).
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية (د.ت).
- صحيح بن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر.
- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (ت ٣٢٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
- مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م.
- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ) "تفسير القرآن العظيم"، ط ١. دار الكتب العلمية.
- "السيرة النبوية"، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت ٢١٣هـ)، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، طبعة دار القلم، بيروت.
- أبو القاسم عبد الرحمن أحمد بن أبي الحسن، "الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية" دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، د.ت.
- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ) "لسان العرب"، ط ١، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٩٦٨م.
- أحمد شرباصي، "الدين والمجتمع" المطبعة الحديثة، القاهرة، ١٩٨٠م.
- بديع الزمان سعيد النورسي "كليات رسائل النور، سيرة ذاتية"، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالح، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- خير الدين التونسي، "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، تمهيد وتحقيق المنصف الشنوفي، بيت الحكمة، تونس.

- سعيد إسماعيل علي "المواطنة في الإسلام"، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط ١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- سعيد شبار، الثقافة والعولمة وقضايا إصلاح الفكر والتجديد في العلوم الإسلامية، دار الإنماء الثقافي، سلسلة أبحاث ودراسات فكرية: ٢، ط ١، ٢٠١٤م.
- طه جابر العلواني، مقاصد الشريعة، دار الهادي، ط ٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- عبد الإله بلقزيز، في الديمقراطية والمجتمع المدني، إفريقيا الشرق، بيروت، ٢٠٠١م.
- عبد الله يوسف أبو عليان، الهجرة إلى غير بلاد المسلمين، حكمها وآثارها المعاصرة في الشريعة الإسلامية، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- محمد أويس الندوي، التفسير القيم لابن القيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر.
- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.
- محمد سعد أبو عامود، المواطنة المصرية والعروبة، حصاد هجرة العمالة المصرية من أعمال المؤتمر السابع عشر، ٢٠٠٥م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- ملكاوي، فتحي حسن "منهجية التكامل المعرفي، مقدمات في المنهجية الإسلامية" المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طوب بريس الرباط، ١٤٣٤هـ/٢٠١٢م.
- أعمال الندوة العلمية الدولية الثامنة "السلم المدني في السنّة النبوية؛ مقوماته وأبعاده الحضارية"، عقدت في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بديبي، ٢٨-٣٠ رجب ١٤٣٨هـ/ ٢٥-٢٧ أبريل ٢٠١٧م.

مضامين المواطنة من المنظور الإسلامي،  
وأثرها في حماية الوطن  
قراءة تحليلية في وثيقة المدينة المنورة

الأستاذ / شيخ أحمد جينغ  
باحث في مرحلة الماجستير تخصص الحديث وعلومه  
جمهورية السنغال





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ثم الصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحابه ذوي الرضوان والتمكين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فَتُعَدُّ قضية سلامة الأوطان وأمنها واستقرارها حجر الزاوية في حياة الإنسان حياةً ملؤها الهدوء والاستقرار والسعادة، حياةً تجلب له أجواءً لائقةً وظروفًا مواتيةً لأداء واجباته نحو عبادة الله تبارك وتعالى وعمارة الأرض، واستجابةً لنداءات الفطرة فقد انطلق العقل الإنساني في رحلة بحثٍ عمّا يحمي به الوطن، ويؤمن له أمنه واستقراره فيه، ويأتي تثبيت دعائم المواطنة وما تقرّره من حقوقٍ وواجباتٍ من بواكير ما أتحفتنا به الحضارة اليونانية في سياق التراكمات المدنية والعمرائية التي ساهمت فيها الأمم والحضارات، وقد خضعت المواطنة لعملية تطوير في أسسها ومضامينها أحدثت نقلةً نوعيّةً في هيكلها وصورتها البدائية، وأضفت عليها طابعًا منحها الحفاوة والقبول بصفتها صيغةً حضاريةً مناسبة في التعايش السلمي، والعمل على تماسك الأنسجة الوطنية ووحدها في ظل تعددية المذاهب والاتجاهات والأعراق داخل البلد والشعب الواحد، والحضارة الغربية وإن كنا لا نتنكر لإسهامها في تطوير قيم المواطنة وإثرائها بما ينسجم مع فلسفتها، إلا أن ما نرفضه هو جعل ذلك حكرًا عليها، أو غض الطرف عمّا قدمته الحضارة الإسلامية من إسهام يفوق ما قدمه الغرب بمراحل، وقد آن الأوان أن نتقدم بدراساتٍ جادة في كلّ الميادين القيمة والحضارية التي يُزعم غياب التشريع الإسلامي عنها، أو تفوق غيرها فيها، لقد آن الأوان أن يدرك العالم ما قدمه الإسلام من سماحة ورفق في المواطنة كان سببًا في حماية المدينة ودولة النبوة من الانهيار.

إن تناول موضوع المواطنة، وأبعادها في الشريعة الإسلامية استلهاً من وثيقة المدينة المنورة مثل هأمًا سيطر عليّ من فترة ليست بالقصيرة، ومن أمارات التوفيق أن تأتي ندوة الحديث الشريف الدولية التي تقيمها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي في نسختها التاسعة بعنوان: " حماية الوطن في السنة النبوية: مقصد شرعي، وضرورة مجتمعية"، لتكون عاملاً محفزاً لاستثمار أطيب

أوقاتي في دراسة مضامين المواطنة كما يَصَوِّرها الإسلام، وأثر هذا التَّصوُّر في حماية الوطن، فشرعت في ملاحقة مادَّة البحث والتَّعامل معها. وتنسب هذه الورقة إلى المحور الأوَّل من محاور النَّدوة: "المفاهيم والمصطلحات والمقاصد"، واخترت أن يكون بعنوان: "مضامين المواطنة من المنظور الإسلامي، وأثرها في حماية الوطن: قراءة تحليلية في وثيقة المدينة المنورة".

وتنبع أهمية البحث في هذا الموضوع بإخضاع متن وثيقة المدينة للتَّحليل من جهة الآثار وحزمة الأهداف التي أتمنى أن تتحقَّق في هذه الدِّراسة، وأهمَّها:

- أوَّلًا: الإسهام في تأصيل المضمون الصَّحيح للمواطنة بما يتوافق مع ثوابت ديننا، وتقديم قراءة واعية لمفهومها وأبعادها بعيدا عن التَّشدد والتَّمييع.

- ثانيا: دعم السَّلم والاستقرار في أوطاننا، وتقوية المناعَات ضدَّ الآفاتِ المجتمعيَّة التي تنخرُ في كيان الأمم والشُّعوب، وتفكِّك حُمتها؛ تحت تأثير العنصريَّات والانقسامات الداخليَّة الأمر الذي سيؤسِّس حتمًا لبيئاتٍ ومجتمعاتٍ متناحرةٍ، مشحونةٍ بالاحتقانِ والتَّوترِ والاحتراباتِ.

- ثالثا: إبراز سماحة دين الإسلام، ونبل تعاليمه، وتسويق قيمه المعززة للسَّلم والاستقرار، والعودة بالذاكرة الإنسانيَّة إلى ما أنجزته دولة الإسلام الأولى ممثَّلا في بنود صحيفة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم.

- رابعا: محاربة ظاهرة الإرهاب، والحدُّ من تغلغله الفكريِّ عن طريق تطويق المواقف الراديكاليَّة والمفاهيم المغلوطة التي تبرَّر لأصحابها استهداف الأبرياء، وسفك دماء المخالفين من المسلمين أو من أصحاب الدِّيانات الأخرى.

الدِّراسات المنجزة حول الموضوع: لم أف على مؤلِّف تناول مضامين المواطنة على نحوٍ يتوافق مع المنظور الإسلامي، بالعودة إلى بنود الوثيقة واستثمارها في حماية الوطن، وغاية ما وقفت عليه هي دراساتٌ أُفردت للحديث عمَّا تضمَّنته الوثيقة من أحكامٍ شرعيَّة، ومسائلٍ سياسيَّة، وتوجيهاتٍ أخلاقيَّة، واجتماعيَّة، وهذه الأبحاث هي:

- الوثيقة النبويَّة والأحكام الشرعيَّة المستفادة منها لـ "جاسم محمد راشد العيساوي"، وهو

رسالةٌ علميَّةٌ لنيل درجة الماجستير.

- وكتاب وثيقة المدينة المضمون والدلالة لـ "أحمد قائد الشُّعبي"، من منشورات كتاب الأُمَّة الصادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، العدد (١١٠).

- وهناك رسالة علميَّة بعنوان: "الوطن، والمواطنة في الكتاب والسُّنة: دراسةٌ تأصيليَّةٌ تحليليَّةٌ" لـ "محمد افيق"، وهو بحثٌ لنيل درجة الماجستير، وهي دراسةٌ بينها وبين الورقة قواسمٌ مشتركةٌ، وتُفارقها الورقة في أنَّها اعتنت ببيان أثر مضامين المواطنة في الوثيقة في حماية الوطن، وهذا ما لم تتعرض له هذه الأطروحة.

أمَّا منهجية الدِّراسة: فقد اعتمدت المنهج الوصفيَّ التحليليَّ في دراسةِ نصوصِ الوثيقة، مع سبر الأقوال حول الموضوع ونقدها، وعزو الاختيارات العلميَّة إلى أصحابها، واجتهدت قدر الطاقة في الاعتماد على الموادِّ العلميَّة الأصيلَّة والعميقة.

أمَّا حدود الدِّراسة: فترتسم في تصميم خريطةٍ ذهنيَّةٍ لحقيقةِ المواطنة باستعراض مفهوميها وفضاءاتها، مع استنطاق فقراتِ دستور المدينة؛ لما لها من أهميَّة بالغةٍ في الإمداد بمحدِّدات العقد الاجتماعيِّ، ولما سجَّلته من انتصارٍ وجدارةٍ في الحِفاظِ على دولة الإسلام الأولى؛ فقد قمت باستدعاء عناصرها النَّاطمة لمبدأ المواطنة والاستفادة منها في مجال حماية الوطن، وعليه، فيتشكَّل كيانُ البحثِ من مقدِّمةٍ، وخاتمةٍ، يتوسَّطهما تمهيدٌ، ومبحثان بمطالبتهمَا.

التَّمهيد: مدخل لتأسيس مصطلح المواطنة في أبعاده اللغويَّة والاصطلاحية.

أولاً: تحرير مفهوم المواطنة في المسار اللغويِّ: المِوَاطَنَةُ مصدر قياسيٌّ من الفعل (وَاطَنَ) <sup>(١)</sup>، وقد أثبتت قوانين اللغة العربية في شقِّها الصَّرفيِّ أنَّ صيغة (فَاعَلَ)، يأتي المصدر منها على زنة (مُفَاعَلَة) يقول العلامة ابن مالك في ألفيته:

لفاعلِ الفِعالِ والمفاعله... وغيرُ ما مرَّ السماعُ عادله

١- يمنع بعض الباحثين من هذا الاشتقاق والتوظيف؛ للدلالة على المواطنة؛ لما يثيره من إشكاليات حسب زعمه، والصَّحيح جوازه كما تواردت عليه الغالبية العظمى من الباحثين المعاصرين.

ويقول ابنه في شرحه: "إذا كان الفعل على (فَاعَلَ) فله مصدران: (فِعَال، ومُفَاعَلَة) نحو: قاتل قتالا ومقاتلةً، وخاصم خصامًا ومخاصمةً"<sup>(١)</sup>، هذا من حيث البنية الصرفية للكلمة. أما ما يتعلق بمعناها في اللغة فلم أجد أحدا من المتقدمين يعرف المواطنة بهذه الصيغة، وبالعودة إلى صيغة (فَاعَلَ) من أجل الاقتراب أكثر من المعنى المراد من الكلمة نجد أن جريان معنى المشاركة عليها هو الأغلب؛ يقول سيبويه: "اعلم أنك إذا قلت: فاعلته، فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان منك إليه حين قلت فاعلته"<sup>(٢)</sup>، وهذا معناه اشتراك طرفي المفاعلة في الفاعلية والمفعولية، ويتسلط المعنى ذاته على مجرى استخدامنا لكلمة المواطنة؛ ولكل ما سبق فالمعنى الأقرب للكلمة في سياق ما نحن فيه من الحيثية اللغوية المجردة هو: المشاركة في الوطن أيًا كانت صورة هذه المشاركة.

**ثانيا: تحرير مفهوم المواطنة في المسار الاصطلاحيّ:** مصطلح المواطنة من المصطلحات الوافدة، وترجمتها بالفرنسية Citoyenneté، والفكر الغربي أكثر الاتجاهات إثراءً وإسهامًا في تناولها ودراستها، وقد حُدِّد مفهومها في دائرة المعارف البريطانية بأنها: "علاقة بين فردٍ ودولةٍ كما يحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجباتٍ وحقوقٍ في تلك الدولة"<sup>(٣)</sup>، وجاء تعريفها في الموسوعة السياسية بأنها "صفة المواطن الذي يتمتع بالحقوق، ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماءه إلى الوطن..."<sup>(٤)</sup>، فظهر في هذين التعريفين وفي كل التعريفات التي وقفت عليها للمواطنة أن حقيقتها تتأسس على ركنين أساسيين: الركن الأول: أداء مجموعة من الحقوق والواجبات تجاه الوطن والمواطنين الآخرين، الركن الثاني: التمتع بمجموعة من الحقوق يستحقها من الدولة ومن يشاركهم الوطن، وعليه، فإذا حيّدنا أسس المواطنة التي ينصُّ على اعتبارها أصحاب كلِّ توجُّه، وما يمنحونه للمصطلح من أبعادٍ وأفقيٍّ تتراوح بين الرِّحابة والضيق وفق ثوابت كلِّ وقيمه ونظرتة للحياة والكون والإنسان، ثمَّ عمّقنا النظر في هذين التعريفين، نجدها محايدين إلى درجة كبيرة، وليس هناك أيُّ تسلُّطٍ للقناعات الغربية في رسم حدّها، وذلك لما جاء في تعريفها من

١- بدر الدين ابن الإمام مالك صاحب الألفية، في شرحه لنظم والده، ص: (٣١٢).

٢- سيبويه، الكتاب: (٦٨/٤).

٣- ذكره دكتور علي خليفة الكواري، في مقال في صحيفة البيان الإماراتية، رابطته:

[/https://www.albayan.ae/opinions](https://www.albayan.ae/opinions)

٤- عبد الوهاب الكيالي، وآخرون، موسوعة السياسة: (٣٧٣/٦).



التَّجريد البعيد عن التمثيل، بالإضافة إلى وجود تنصيب على ركني المواطنة، وهما: التمتع بالحقوق، بعد أداء الواجبات والالتزامات، وهذه الواجبات والحقوق يحددها التَّوجه أيُّ توجهه، سواء كان ديناً سماوياً، أم مدرسةً فكريةً، أم اتجاهًا سياسياً، بما يتوافق مع فلسفته وثوابته، فالتَّعريف إذن صالح إسلامياً؛ شريطة أن يخضع تلك الحقوق والواجبات للتَّحديد الإسلامي على ما سأذكره في هذا البحث، والتَّعريف الذي أقرحه في ضوء ما سبق للمواطنة من المنظور الإسلامي البحت أنَّها: انتماء فردٍ إلى دولة إسلامية، تترتب بموجبه التزاماتٌ وواجباتٌ، كما يمنحه حقوقاً وامتيازاتٍ بما لا يتعارض مع ثوابت الشريعة الإسلامية.

### المبحث الأول: لمحة تاريخية عن المواطنة، وأبعادها في الفكر الإنساني، وتقييمها في ضوء الشريعة الإسلامية.

تقدّم معنا عند التعريف بالمواطنة أنَّ التعريفات التي وقفت عليها لا يُشكّل تبيينها؛ لأنها تعريفاتٌ مجملّة، وغاية ما تفيدُه أنَّ المواطن عليه واجبات، وله حقوق، دون تفصيل لتلك الواجبات والحقوق، ولن أحوض في ذكر التفاصيل الدقيقة لهذه الحقوق والواجبات؛ لاستحالته بسبب شدة الاختلاف في القوانين التي يتحاكم الناس إليها، وسأستغني في هذا المبحث بالعرض التاريخي، ثمَّ الاقتراب قليلاً من مجمل أسس المواطنة وأبعادها في الفكر الإنساني، مع تقويمها وفق هدي الشريعة الإسلامية الغراء.

### المطلب الأول: لمحة تاريخية عن المواطنة، وأبعادها في الفكر الإنساني.

ارتبطت نشأة مفهوم المواطنة بالحضارة اليونانية الإغريقية؛ فقد نادى الفلاسفة اليونان إلى تحقيق العدالة والمساواة في إطار الدولة، ومن هؤلاء أفلاطون platon في كتابه (الجمهورية)، فقد قسّم أفلاطون المجتمع إلى ثلاث طبقات: الحكام "الفلاسفة"، و"العسكر"، وطبقة "التجار" و"الحرفيين"، كما قام بتحديد وظيفة كل طبقة، والالفت للظن هنا أنه استبعد العبيد من حق المواطنة وجعلها حكراً على أثينا وفي ذلك يقول: "لا أرى في نظام العبيد شيئاً غير طبيعي، وكل الغريب الذي أراه فيه هو أن يُستبعد اليوناني فينبغي قصرُ ووضُع العبودية على الأجانب من غير

اليونان"<sup>(١)</sup>.

ولما جاء أرسطو استبعد هو الآخر الحرفيين والعبيد من المواطنة؛ لأنَّ العبد في خدمة شخص واحد، والصُّنَاع أيضا مهمتهم الانشغال بشيء واحد، وعليه فالمواطن الحقيقي هو من يَسْهُرُ لخدمة المجتمع ككل<sup>(٢)</sup>، نستفيد من ذلك أنَّ سقف المواطنة وفضاءها عند اليونان كان منخفضاً جدًّا للغاية لا يتجاوز الطبقة الأرستقراطية<sup>(٣)</sup> وقد أسهم ذلك في اندلاع ثورات متكررة كانت عامل انفراجات في فضاءاتها شيئاً فشيئاً<sup>(٤)</sup>.

أمَّا في الحضارة الرومانية فقد كان الوضع مختلفاً نوعاً ما حيث شهدت المواطنة فيها تطوراً حين أصبحت حقاً لجميع سكان الإمبراطورية الرُّمانيَّة وقتئذٍ<sup>(٥)</sup>.

وفي أوروبا، وبعد انحسار نفوذ الكنيسة على الحياة الاجتماعية، واندلاع الثورة الفرنسيَّة في القرن الثامن عشر، سنة: ١٧٨٩م، طفق صرح المواطنة يقترُب من الاكتمال، وتوسع دائرتها ويعلو سقفها.

ولما جاء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صاغه ممثلون من جميع أنحاء العالم، ومن مختلف الخلفيات القانونية والثقافية، واعتمده الجمعية العامة في العاصمة الفرنسية باريس في: ١٠/١٢، سنة: ١٩٤٨م، بموجب القرار (٢١٧)، حدَّدت لأول مرة حقوق الإنسان الأساسية التي يتعين حمايتها عالمياً، وجاء في البند الأول منه أنَّه: " يولد جميع الناس أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق، وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء"<sup>(٦)</sup>.

١- عزت قرني، الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، ص: (١٨٩).

٢- ينظر: الفريد إدوارد تايلو، أرسطو، ص: (١٢).

٣- الأرستقراطية، هي: " نظام سياسيٌّ طبقيٌّ استبداديٌّ، يتولى فيه الحكم طبقة من النبلاء أو الأشراف دون عامة الشعب"، دكتور/أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة المعاصرة: (١/٨٤).

٤- ينظر: حسين أحمد الحجوري، الفكر الديمقراطي وإشكالية الديمقراطية في المجتمعات المعاصرة، ص: (٣٩).

٥- ينظر: دليل المواطنة، إعداد الرابطة السورية للمواطنة، ص: (١٤).

٦- موقع الأمم المتحدة، على الرابط:

أما مجمل عناصر المواطنة وأسسها في الفكر الغربي فيحشد الشيخ عبد الخالق الشَّريف نصوصاً من كتاب ومفكرين استخلص منها أسس المواطنة عند الغرب<sup>(١)</sup>، وهي:

- الأساس الأول: إنَّها علاقة قانونية بين فرد (مواطن) ودولة، أساسها الاشتراك في وطن واحد.
  - الأساس الثاني: وجود حقوق وواجبات متبادلة بين الفرد والدولة.
  - الأساس الثالث: إنَّ الوطن مصدر الحقوق والواجبات ولا شيء غيره.
  - الأساس الرابع: إنَّ المساواة بين الأفراد (المواطنين) جميعهم على قاعدة الاشتراك في الوطن.
  - الأساس الخامس: ضرورة خضوع الفرد (المواطن) لأنظمة المجتمع والتقيدها بها.
  - الأساس السادس: استبعاد الدين من هذه العلاقة القانونية استبعاداً مقصوداً.
- المطلب الثاني: محاكمة أسس المواطنة على ضوء معطيات الشريعة الإسلامية.**

من يرصد الحراك الثقافيَّ في صالونات السياسة والفكر يلمس استمرار موجات من السَّجالات المحتدمة بين الطبقة المثقفة حول المواطنة، وأفقهها، وتعتبر الأطروحة الأكثر حضوراً تلك التي تعنى بموقف التيار الإسلامي من مسألة المواطنة، ومدى تساوقهم مع متطلباتها، وقبولهم بحمولتها في صبغتها الحديثة في ظل هيمنة الحضارة الغربية، وما تتطلبه من استحقاقاتٍ قد تتناهى في بعض تجلياتها مع مبادئ الشريعة الإسلامية، وقد انقسم الباحثون الشرعيون طائفتين حيال مبدأ المواطنة: الطائفة الأولى: تبنت موقف الرفض والتحفُّظ من المواطنة جملةً وتفصيلاً؛ كونها مصطلحاً مشحوناً بفكرة غربية غريبة، يعكس القبول بها وبمشتقاتها من المصطلحات الغازية لبيئتنا الثقافية حالة سقوط وانحزامية<sup>(٢)</sup>.

والطائفة الثانية: تماهت مع المواطنة، وقبل بها وبمحتوياتها الدلالية والقيمية، كما رفضت وجود

---

١- ينظر: مقال الشيخ عبد الخالق الشَّريف، بعنوان: (المواطنة أم الأمة)، مقال للشيخ في موقع صيد الفوائد، على الرابط: <http://www.saaaid.net/Doat/alsharef/56.htm>، مع شيء من التصرف اليسير.

٢- وممن يمثل هذا الاتجاه بكل قوة فضيلة الشيخ محمد شاكر الشَّريف، وله مقال في نقدها في موقع صيد الفوائد تحت عنوان: "المواطنة أم الأمة؟"، رابط المقال:

أية قطيعة بين مدلولاتها وقطيعات الشريعة، ولم يتوقف أصحاب هذا الرأي عند هذا الحد بل طفقوا ينتقون من النصوص ما يرونها متلائمة معها فيسقطون دلالتها عليها تأصيلاً وإضفاءً للمشروعية عليها، وفي خضم المطالعة فيما قُدِّمَ من أفكار وأبحاث حول هذا التجاذب خرجت منها بقناعة صلبة تتمثل في الانطلاق من ثوابت الدين واتخاذها أداة معيارية لوزن كل جديدٍ ووافدٍ، وهي خطوة كفيلة لدفع كلِّ ما هو مخالف للشريعة من المواطنة، مع توازن في ذلك، يمنحنا فرصة الاستمتاع بمنجزات العصر الحضارية، والانفتاح على ما يضحخه من أنظمة وأسس وأليات مبتكرة في حقوق المعرفة كافة في حدود ما تسمح به قيم الدين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: يجد المتأمل في المصطلحات المستجدة أنها لا تخلو من ثلاث حالات عند النظر في فحواها: إما أن تكون حقاً مطلقاً، أو باطلاً مطلقاً، أو تنطوي على حق وباطل، ومن خلال تلك الإطلالة السريعة على أسس المواطنة وأبعادها في فكر غيرنا نحن المسلمين يظهر اندماجها في عداد المقولات الوافدة والمستجدة التي فيها حق وباطل؛ فعندما نستعرض هذه الأسس التي ذكرها شيخ محمد شاعر الشريف قبل قليل نجد أن وجودَ حقوق وواجبات متبادلة بين الفرد والدولة حقٌّ لا غبار عليه، وكون العلاقة بين الفرد والدولة علاقة قانونية أساسها الاشتراك في وطن واحد كلام مقبول وصحيح أيضاً، أمّا أن الوطن مصدر الحقوق والواجبات ولا شيء غيره فهذا الكلام لن يكون مقبولاً إلا إذا كان القانون الذي يسري فيهما مستمداً من الشريعة الإسلامية، أو أنه لا يخالفها، وإلا فلا، وأمّا أن على الفرد الخضوع لأنظمة المجتمع والتقيّد بها فكلام صحيح أيضاً شريطة أن لا يحمل على مخالفة الشرع، أو مقارفة محارم الله، أو التّهاون على أوامره، وهذا لا يتصور في الدول الإسلامية التي ينصُّ أغلب دساتيرها على أن دين الدولة الإسلام، أمّا المساواة بين المواطنين جميعهم على قاعدة الاشتراك في الوطن فغير صحيح إسلامياً بهذا الإطلاق؛ فعلى سبيل المثال ليس هناك مساواة بين المسلم وغير المسلم في استحقاق تولى الولاية العامة مثل: رئاسة الدولة، وهذا الأمر من الثوابت في الشريعة الإسلامية لأدلة كثيرة متضافرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾<sup>(١)</sup>، ولما أخرججه الشيخان من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ

١- سور النساء، الآية: (١٤١).

فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةَ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ<sup>(١)</sup>، يقول القاضي عياض: "فإذا طرأ مثل هذا على والٍ من كفرٍ، أو تغيرٍ شرعٍ، أو تأويلٍ بدعةٍ، خرج عن حكم الولاية، وسقطت طاعته، ووجب على الناس القيام عليه وخلعه، ونصبُ إمام عدل، أو والٍ مكانه إن أمكنهم ذلك..."<sup>(٢)</sup>. هذا، وقد انعقد الإجماع على عدم جواز ولاية الكافر على المسلمين كما حكاه جمعٌ من أهل العلم، منهم ابن حزم<sup>(٣)</sup>، وتمادى ابن المنذر فنقل الإجماع عن فقدان الكافر لأهلية الولاية على تزويج ابنته المسلمة ناهيك عن الولاية العامة، والإمامة العظمى على المسلمين؛ يقول رحمه الله: "وأجمعوا أن الكافر لا يكون ولياً لابنته المسلمة"<sup>(٤)</sup>.

وأما قضية استبعاد الدين من هذه العلاقة القانونية استبعاداً مقصوداً فلا يقول به مسلم، وحكايته تغني عن بيان بطلانه، ولا يوجد اليوم - في حدود علمي - دولة إسلامية واحدة يعتدُّ بها تنصُّ على ذلك صراحةً في دستورها، والله أعلم.

## المبحث الثاني: مضامين المواطنة في وثيقة المدينة، وآثارها في حماية الوطن.

تعد وثيقة المدينة المنورة من الوثائق التاريخية العتيقة والهامة؛ نظراً لما تحتويها من مبادئ وقوانين ضابطة لحياة الفرد داخل الدولة والمجتمع، وعلاقة الدولة برعاياها، وليس من المبالغة في شيء إن عددناها أول دستور عرفته البشرية، وفي هذا المبحث سوف تتوجه العناية صوب تحليل موادّ الوثيقة وبنودها لتجلية مضامين المواطنة فيها، وما تطيحها من مقومات حضارية في حماية الوطن، وإرساء دعائم الأمن والأمان في ربوعه، وسيتم الحديث عن ذلك في ثلاثة محاور رئيسة:

- ١- أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: "سترون بعدي أمورا تنكرونها": (٤٦/٩)، رقم الحديث (٧٠٥٦). ومسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب (وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية): (١٤٧٠/٣) رقم الحديث (١٧٠٩).
- ٢- القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم: (٢٤٦/٦).
- ٣- ابن حزم، مراتب الإجماع، ص: (١٢٦).
- ٤- ابن المنذر، الإجماع، ص: (٧٨).

- المحور الأول: حماية الوطن من الأخطار الداخليَّة.

- المحور الثاني: حماية الوطن من الأخطار الخارجيَّة.

- المحور الثالث: حماية الوطن من خطر العمالة والتَّخاير.

وقد قدَّمتُ المحورَ الأولَ المتعلِّقَ بحماية الوطن من الخطر الداخلي؛ لأنَّه من العسير جدًّا حماية الوطن من الخطر الخارجي، أو أي خطر أو تهديد آخر إذا كان الوضع الداخلي يعاني من التَّهالك والتآكل والاهتزاز، وقبل ذلك فهذا استعراض لنصِّ الميثاق كاملاً، والإحالة على أرقام بنودها عند التَّحليل.

#### - نص وثيقة المدينة:

أثناء البحث والتَّقليب في المصادر التي رصدت لنا نصوص وثيقة المدينة المنورة، والمقارنة بينها من مصدر لآخر وجدت نصَّها على التَّمام والكمال عند فضيلة الدكتور محمد حميد الله رحمه الله، مع جهد مشكور بذله في تقسيم نصوصها إلى بنود وفقرات مرَّقة، وسأورد نصَّها كما أورده في كتابه مجموعة الوثائق السِّياسيَّة للعهد النَّبويِّ والخلافة الرَّاشدة<sup>(١)</sup>، والإحالة عليه أثناء الدِّراسة.

#### بسم الله الرحمن الرحيم

(١) هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. (٢) أنهم أمة واحدة من دون الناس. (٣) المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٤) وبنو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٥) وبنو الحارث بن الخزرج على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٦) وبنو ساعدة على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٧) وبنو جُشمٍ على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٨) وبنو النَّجَار على

١- محمد حميد الله الحيدر آبادي، الهندي، المصدر المذكور، ص: (٥٩ - ٦٢).

رعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٩) وبنو عمرو بن عوف على رعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (١٠) وبنو التّبيت على رعتهم يتعاقلون معاقلهم، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (١١) وبنو الأوس على رعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى؛ وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (١٢) وأنّ المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. (١٢ ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. (١٣) وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم. (١٤) ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن. (١٥) وأنّ ذمّة الله واحدة يجبر عليهم أدانهم، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. (١٦) وأنه من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم. (١٧) وأنّ سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم. (١٨) وأنّ كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا. (١٩) وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله. (٢٠) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. (٢٠ ب) وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن. (٢١) وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل، وأنّ المؤمنين عليه كافة، ولا يحلّ لهم إلا قيام عليه. (٢٢) وأنه لا يحلّ للمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه؛ وأنّ من نصره أو آواه فإنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. (٢٣) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنّ مردّه إلى الله وإلى محمد ﷺ. (٢٤) وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. (٢٥) وأنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنّه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. (٢٦) وأنّ لليهود بني النّجار مثل ما لليهود بني عوف. (٢٧) وأنّ لليهود بني الحارث مثل ما لليهود بني عوف. (٢٨) وأنّ لليهود بني ساعدة مثل ما لليهود بني عوف. (٢٩) وأنّ لليهود بني جشم مثل ما لليهود بني عوف. (٣٠) وأنّ لليهود بني الأوس مثل ما

ليهود بني عوف. (٣١) وأنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثمَّ فإنَّه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. (٣٢) وأنَّ حفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم. (٣٣) وأنَّ لبني الشَّطبية مثل ما ليهود بني عوف، وأنَّ البرَّ دون الإثمِّ. (٣٤) وأنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم. (٣٥) وأنَّ بطانة يهود كأنفسهم. (٣٦ ب) وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ. (٣٦) وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنَّه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأنَّ الله على أبرِّ هذا. (٣٧) وأنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأنَّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأنَّ بينهم النصح والنصيحة والبرِّ دون الإثمِّ. (٣٧ ب) وأنه لا يأثمَّ امرأً بحليفه، وأنَّ النصر للمظلوم. (٣٨) وأنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. (٣٩) وأنَّ يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. (٤٠) وأنَّ الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثمِّ. (٤١) وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. (٤٢) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإنَّ مردَّه إلى الله وإلى محمَّد رسول الله ﷺ، وأنَّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرِّه. (٤٣) وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها. (٤٤) وأنَّ بينهم النصر على من دهم يشرب. (٤٥) وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنَّه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين. (٤٥ ب) على كل أناس حصَّتهم من جانبهم الذي قبلهم. (٤٦) وأنَّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرِّ المحض من أهل هذه الصحيفة، وأنَّ البرَّ دون الإثمِّ لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأنَّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرِّه. (٤٧) وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثمِّ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثمَّ، وأنَّ الله جار لمن برَّ وأتقى ومحمد رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

١- أقدم من نقل متن الصَّحيفة هو ابن إسحاق بدون سند - ينظر: ابن هشام السَّيرة النبوية (١٠٦/٢)، - ومن طريقه ابن سيد الناس في عيون الأثر: (٢٢٧/١ - ٢٢٩)، وابن كثير في السيرة النبوية: (٢/٣٢٠ - ٣٢٣) من دون إسناد أيضا.

وأسنده البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الديات، باب العاقلة: (١٨٤/٨)، رقم الحديث (١٦٣٦٩)، أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا أحمد بن عبد الجبار، ثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأحنس بن شريق، قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب ﷺ هذا الكتاب...".



= وأخرجه أبو عبيد في الأموال، كتاب افتتاح الأرضين صلحا، وأحكامها، وسننها، وهي من الفيء، ولا تكون غنيمة، باب كتب العهود التي كتبها رسول الله ﷺ وأصحابه لأهل الصلح، ص(٢٦٠)، رقم الحديث(٥١٨): حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، وعبد الله بن صالح، قالا: حدثنا الليث بن سعد، قال: حدثني عقيل بن خالد، عن ابن شهاب، أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ.

وابن زنجويه في الأموال، كتاب العهود التي كتبها رسول الله ﷺ وأصحابه لأهل الصلح، ص:(٤٦٦) - (٤٧٠)، رقم الحديث(٧٥٠)، عن عبد الله بن صالح، عن الليث بن سعد، به.

وأخرجه ابن أبي خيثمة - كما قاله ابن سيد الناس في عيون الأثر(١/٢٢٩) -: حدثنا أحمد بن حنبل أبو الوليد، ثنا عيسى بن يونس، ثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار...".

وهذه الأسانيد لا تسلم طريق واحدة منها بمفردها، ومخرجات دراستها كانت كالتالي:

فأما طريق ابن إسحاق التي نقلها ابن هشام، وتابعه عليها كل من ابن سيد الناس، وابن كثير فليست لها أزمّة ولا خطام، وبالتالي لا تعول عليها في الصناعة الحديثية النقدية.

وأما طريق البيهقي فلا يخلو أحدٌ من رجاله من وجود ما يُعْمَرُ به سوى محمد بن يعقوب، أمّا يونس بن بكير وابن إسحاق وعثمان بن محمد ففيهم تليين خفيف؛ وبعد البحث والنظر فيما قاله النقاد في أحوالهم وجدت أنهم لا ينزلون عن رتبة الصدوق، وأمّا أحمد بن عبد الجبار العطاردي الكوفي فقال فيه ابن عدي في الكامل(١/٣١٤) -: "رأيت أهل العراق مجمعين على ضعفه"، وقد فسّر الحافظ ابن عدي في الكتاب المذكور(١/٣١٥) سبب تضعيفهم إياه قائلا: " وإنما ضعفوه لأنه لم يلق من يحدث عنهم"، وقال الحافظ عنه في التقریب، ص:(٨١): " ضعيف وسماعه للسيرة صحيح"، وما قاله الحافظ لا يمكن التعويل عليه لتمرير روايته هنا؛ لأنّ الوثيقة تضمنت أحكاما لا يمكن التساهل فيها، فنخلص من حاله أنّه في رتبة الضعيف ضعفا غير شديد؛ وعثمان بن محمد تحمّل الحديث وجادة، وهي طريقة في التحمل مختلف فيها، فنخلص من ذلك كله أنّ هذا الإسناد ضعفه يسير.

وأما إسناد أبي عبيد وابن زنجويه فرجاله كلهم ثقات غير يحيى بن عبد الله بن بكير؛ فقد وثقه جمع من الحفاظ، وضعفه آخرون وبالأخصّ في روايته للموطأ بعرض حبيب كاتب الليث، أما روايته عن الليث بن سعد فصحيحة؛ قال الحافظ بن حجر في تقریبه، ص:(٥٩٢): "ثقة في الليث، وتكلموا في سماعه من مالك"، وتبقى في هذا السند علتان:

العلة الأولى: حال عبد الله بن صالح كاتب الليث، قال عنه الذهبي في الميزان (٢/٤٤٠): "هو صاحب حديث، وعلم، مكثّر، وله مناكير"، وهو ضعف يسير يرتفع بزوال شبهة التّكارة، ومتابعة يحيى بن بكير له كفيلة برفع هذه الشبهة عن هذه الرواية.

العلة الثانية: إرسال الزهريّ، ومراسيله شر من مراسله غيره؛ قال يحيى بن سعيد: "مرسل الزهري شر من =

## المطلب الأول:

### حماية الوطن من الأخطار الداخليَّة في وثيقة المدينة.

اتَّسم الوضع الداخليُّ في المدينة المنورة إبان هجرة المصطفى ﷺ بقدرٍ كبيرٍ من التَّعقيد في جانب حياتها الاجتماعية؛ فقد استحكمت في المكوِّنين الرئيسيين للعرب في المدينة قبيلتي الأوس والخزرج، وقد هجر النَّبي ﷺ إلى المدينة واستلم هذا الإرث الثَّقيل، لكنَّه عليه الصَّلَاة والسَّلَام اتَّخذ سلسلة من السِّياسات الحكيمة للحِمْ هذا العداء ومحاصرة إفرزاته؛ فكان بناء المسجد

=مرسل غيره؛ لأنه حافظ وكلُّ ما يقدر أن يسمي سَمَى، وإنما يترك من لا يستحيز أن يسميه"، وقد ضعف مراسيل الزهري جمع من الحفاظ، منهم الشافعي، وابن معين، ورؤي عن أحمد بن صالح المصري، كما ذكره ابن رجب في شرح علل الترمذي الصغير (١/٥٣٥)، وهذه العلل خفيفة تنزاح بوجود متابع أو شاهد.

أما طريق ابن أبي خيثمة فلا توجد في القطعة الموجودة من تاريخه، وإنما ذكره ابن سيد الناس، وهو إسناد ضعيف جدا؛ لحال كثير بن عبد الله المزني؛ قال الشافعي وأبو داود: ركن من أركان الكذب، وضرب أحمد على حديثه، وقال ابن حبان: له عن أبيه، عن جده نسخة موضوعة، كما في ميزان الاعتدال (٣/٤٠٧)، فمثل هذا السند يتقاعد عن الجابر.

ولما سبق بيانه؛ فقد اختلف الباحثون المعاصرون في صحة الوثيقة: فذهب الأستاذ يوسف العث إلى أنَّ الوثيقة موضوعة، يقول الدكتور أكرم ضياء العمري في دفع مقولة أستاذ العث في السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٧٥): "وبذلك يتبين أن الحكم بوضع الوثيقة مجازفة، ولكن الوثيقة لا ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة، فابن إسحق في سيرته رواها دون إسناد مما يجعل روايته ضعيفة، وأوردها البيهقي من طريق ابن إسحق أيضًا بإسناد فيه سعد بن المنذر - لم أقف عليه بعد بحث-، وهو مقبول فقط، وابن أبي خيثمة أوردها من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو المزني، وهو يروي الموضوعات، وأبو عبيد القاسم بن سلام رواها بإسناد منقطع يقف عند الزهري، وهو من صغار التابعين فلا يحتج بمراسيله..."، وقد مال بعض الباحثين إلى أنَّ الوثيقة بتمامها وردت من طرق لا ينزل بمجموعها عن درجة الحسن لغيره، من هؤلاء صاحب كتاب الوثيقة النبوية، ص: (٦٨)، وهذا ما توصلت إليه فأسانيد الوثيقة بمجموع هذه الطرق في مرتبة الحسن لغيره إن شاء الله تبارك تعالى.

النَّبِيُّ الشَّرِيفُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْ مَقَدَمِهِ مُؤَذِّنًا بِفَاتِحَةِ عَصْرِ جَدِيدٍ مَفْعَمٍ بِتَوْحِيدِ الْكَلِمَةِ وَوَحْدَةِ الصَّفِّ، تَلَّتْهَا خَطْوَةُ الْمُؤَاخَاةِ الَّتِي أَقَامَهَا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؛ فَمَالَتِ الْمُجْتَمَعُ الْجَدِيدَ بِرُوعَةِ الْإِيثَارِ وَأَشْرَقَ صُورِ الْمُوَاسَاةِ تَعَاهَدَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِخَطَابٍ دَعَوِيٍّ مُبَارَكٍ حَافِلٍ بِالتَّأَكِيدِ عَلَى أَصَالَةِ الْأَخُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي يَنْصَهَرُ أَمَامَهَا فُؤَارِقُ الْجَنَسِ وَاللَّوْنِ وَحَوَاجِزُ اللَّغَةِ وَالْقَبِيلَةِ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي الْبَنْدِ (١)، وَالْبَنْدِ (٢) مِنَ الْوَثِيقَةِ التَّنْصِيفِ عَلَى أَنَّ " الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قَرِيشٍ وَيَثْرَبَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلِحَقِّ بَهْمِ وَجَاهِدِ مَعَهُمْ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ "، وَقَدْ أَتَتْ تِلْكَ السِّيَاسَاتُ أَكْلَهَا فِي رَتْقِ مَا انْفَتَقَ مِنْ عِلَاقَةِ الْأَوْسِ بِالخَزْرَجِ بِاسْتِثْنَاءِ فِتْرَاتٍ قَلِيلَةٍ كَانَتْ تَعْلُو فِيهَا نَبْرَاتٌ تَحَاوَلُ جَاهِدَةً خَطْفَ الذَّاكِرَةِ نَحْوِ الْمَاضِي الْأَلِيمِ الْمُوَعُودِ بِنَارَاتِهِ لَكِنْ مَا يَلْبَثُ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى يَقُومَ بِمَا يَلِزِمُ لِاحْتِوَاءِ الْمَوْقِفِ بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (١).

وَمِنَ التَّحْدِيَّاتِ الَّتِي وَاجَهَتْ دَوْلَةَ النُّبُوَّةِ كَذَلِكَ طَبِيعَةَ التَّوْزِيعِ السُّكَّانِيِّ فِيهَا؛ فَقَدْ تَأَلَّفَ بِمُجْتَمَعِ الْمَدِينَةِ الْجَدِيدِ مِنْ صَنْفَيْنِ آخَرَيْنِ بَعْدَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ﷺ، وَهَم:

- الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ تَتَخَلَّجُهُ الشُّكُوكُ وَيَتَرَدَّدُ فِي تَرْكِ دِينِ الْأَبَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ يَبْطِنُ الْعِدَاوَةَ وَالْكَيدَ ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

- الْيَهُودُ (٢)، وَكَانَتْ فِي الْمَدِينَةِ (يَثْرَبَ) مِنْهُمْ ثَلَاثُ قَبَائِلَ مَشْهُورَةٍ، وَهَم: بَنُو قَيْنِقَاعَ وَكَانُوا

١- وَمِنْ شَوَاهِدِهِ مَا قَامَ بِهِ الْيَهُودِيُّ شَاسَ بْنَ قَيْسٍ مِنْ مَحَاوِلَةٍ لِلتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ، يَرِاجِعُ ابْنَ هِشَامٍ، السِّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ: (٢/١٤٦).

٢- هَجَرَ الْيَهُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ مِنَ الشَّامِ عَلَى الرَّاجِحِ فِي الْقَرْنَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَالْيَهُودَ فِي الْمَدِينَةِ يَتَشَكَّلُونَ مِنَ الْقَبَائِلِ الثَّلَاثَةِ: بَنُو النَّضِيرِ، وَبَنُو قَرِيطَةَ، وَبَنُو قَيْنِقَاعَ الَّذِينَ اخْتَلَفَ فِي كَوْنِهِمْ عَرَبًا تَهَوَّدُوا، أَمْ أَنَّهُمْ نَزَحُوا مَعَ النَّازِحِينَ إِلَى الْحِجَازِ، وَهَنَّاكَ يَهُودٌ مِنْ بَطُونٍ أُخْرَى ذَكَرَهُمُ السَّمُودِيُّ فِي وِفَاءِ الْوَفَا: (١/١٣٠-١٣٢)، وَيَسْرِي فِيهِمْ أَيْضًا الْخِلَافُ السَّابِقُ مِنْ كَوْنِهِمْ عَرَبًا تَهَوَّدُوا أَمْ نَازِحِينَ، وَقَدْ سَبَقَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ قَبِيلَةَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ إِلَى الْمَدِينَةِ بِالِاتِّفَاقِ، وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ وَجُودَهُمْ فِيهَا سَبَقَ وَجُودَ الْعَرَبِ؛ فَقَدْ هَجَرُوا إِلَيْهَا وَفِيهَا الْعَمَالِيقُ وَهُوَ عَرَبٌ بِلَا خِلَافٍ.

وَأَمَّا قَبِيلَتَا الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ فَتَنَحَدِرَانِ مِنْ قَبِيلَةِ الْأَزْدِ الْبِمْنِيَّةِ الْكَبِيرَةِ، وَهُمَا أَخْوَانٌ، وَمَعَ ذَلِكَ دَارَتْ بَيْنَهُمَا أَيَّامٌ دَامِيَةٌ كَانَتْ آخِرَهَا يَوْمُ بَعَاثِ الَّذِي فَقَدُوا فِيهِ كَثِيرًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَرِجَالِهِمْ، وَلِلْقَبِيلَتَيْنِ بَطُونٌ، يَتَكُونُ كُلُّ بَطْنٍ مِنْهَا إِلَى بَيْوتٍ.

حلفاء الخزرج وكانت ديارهم داخل المدينة، وبنو النَّضِير، وبنو قريظة وهم حلفاء الأوس وكانت ديارهما بضواحي المدينة<sup>(١)</sup>.

وقد أخضع اليهود مجتمع المدينة لنفوذهم الاقتصادي بفضل صدارتهم في مجال الزراعة والصناعة والتجارة الداخلية والخارجية، وجشعهم الذي حطّم كل القيود التي وضعت لترشيد الاكتساب؛ يزيع فضيلة الشيخ عفيف طبارة السّتارة عما عرف به اليهود من حبّ المال قائلاً: " ليس في تاريخ البشرية أمة اشتهرت بحبّ المال والسّعي إلى جمعه كما اشتهر به اليهود؛ فقد سلكوا في ذلك كلّ الطرق المشروعة وغير المشروعة حتى ما كان بعيداً عن المروءة، وأسرفوا في الحرص على جمع المال إلى حدّ العبادة"<sup>(٢)</sup>.

فهذه - إذا - إطلالة تمهيدية خاطفة على مجمل الحالة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية في المدينة المنورة، والتي على أساسها سنّ النبي ﷺ قانوناً يتمتّع بالأقدار الكافية من السّماحة والرّفق والانفتاح في هذا المجتمع الجديد المتعدّد، ومضامين المواطنة التي لعبت دوراً محورياً في استقرار الجهة الداخليّة لهذه الدّولة الوليدة تجسّدت في:

#### - الإذعان لسلطة الدّولة، وسيادة القانون.

لقد علّم النبي ﷺ نفل الموروث الجاهليّ عند قبائل العرب، وما كانوا عليه من فرط التّسيب والانفلات، وغلبة منطق الأثرة وقانون الغاب، وهي عادات جاهليّة تركت بصماتها وسماتها في واقع ما خلفوه من تراث أشعاراً ونصوصاً أدبيّة؛ فهذا عمرو بن كلثوم أحد الشعراء في العصر الجاهليّ يتباهى بما كانت عليه قبيلته من الأثرة والأنانية في أبياتٍ شهيرة معروفة يقول فيها<sup>(٣)</sup>:

وأنا الشّاربون الماء صفواً  
ويشرب غيرنا كدرا وطينا

يراجع: محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ، ص: (١١٩)، ود. أكرم ضياء العمري،

المجتمع المدني، ص: (٥٧-٦٢)، والوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها، ص: (١٩-٢٤).

١- ينظر: صفى الرحمن المباركفوري، الرّحيق المختوم، ص: (١٩١-١٩٣)، بتصرف يسير.

٢- عفيف عبد الفتاح طبارة، اليهود في القرآن، ص: (٣٢).

٣- أبو بكر الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: (٤١٩).

وأما سيطرة قانون الغاب عليهم فحدث ولا حرج، فهذا الشاعر القاطمِيُّ التغلبيُّ أحد شعراء الدولة الأموية يعكس جانباً مما أثار عن العرب في حبِّ الحرب في هذا البيت فيقول<sup>(١)</sup>:

وأحياناً على بكرٍ أحنينا      إذا ما لم نجد إلا أحنانا

وهذه العادات لا تتفق مع دولة السَّلام والوئام والقانون الذي كان النبي ﷺ ينشدها، لكنّه تمكن من تجاوز هذه العقبة بتشبيده دولة الشريعة والقانون عبر عدد من الإجراءات الدستورية في هذه الصَّحيفة:

- أولاً: تحديد النبي ﷺ القائد الأعلى للدولة، وصاحب القرار الأول والأخير، وله القضاء وإليه التنفيذ، وقد جاء ذلك في عدد من البنود صراحة وتلميحا؛ فقد ورد في البند(٢٣): "وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنَّ مردّه إلى الله وإلى محمد ﷺ".
- ثانياً: جعل الشريعة الإسلامية قانوناً ومرجعياً، فقد نصَّ في البند(٤٢): "وأنّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ أو اشتجارٍ يخاف فساده فإنَّ مردّه إلى الله وإلى محمّد رسول الله ﷺ...".
- ثالثاً: المنع من الظلم والاعتداء، وأنَّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصَّحيفة<sup>(٢)</sup>، وأعلن ﷺ أنّه سيطلق يد العدالة لتأخذ مجراها في حقِّ من تسوّل لهم أنفسهم التّعدي على الحرمات، كما في فقرة من البند(٤٧): "وأنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنّه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم..."، وإمعانا في رفض الظلم فقد رفض معه كلّ صور التَّغطية على المجرمين، وأبلغ الجميع بعدم جواز ذلك، وأنّه سلوك يجلب لعنة الله وغضبه، فقال: "وأنّه لا يحلُّ لمؤمنٍ أقرَّ بما في هذه الصَّحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه؛ وأنَّ من نصره أو آواه فإنَّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرفٌ ولا عدلٌ"<sup>(٣)</sup>، ولما كان مجتمع المدينة مكوّناً من مسلمين ويهودٍ ومشرّكين فقد يبدو مع القراءة السَّطحيّة أنّ الخطاب للمسلمين واليهود دون الباقيين ممن لا يدينون بدين، لكن

١- أبو علي الأصفهاني، شرح ديوان الحماسة، ص: (٢٥٣).

٢- كما ورد في البند (٣٩).

٣- كما ورد في البند (٢٢).

الحاصل أن قوله: " أقرَّ بما في هذه الصَّحيفة " لا يترك أحدا في المدينة ممن وقع على هذه الصَّحيفة دون أن يشمله.

هذه هي الرُّكيزة الأولى -إذًا- من ركائز المواطنة لحماية الأمن الداخليّ نقطفها من بستان هذه الوثيقة التأسيسية اليانعة إنّها "الإذعانُ لسلطة الدَّولة، وسيادة القانون"، سيادة قانونٍ عادلٍ يقف الجميع أمامه متساوين؛ فتنبسط العدالة، وينعم الجميع بالأمان على أنفسهم وأموالهم وذويهم، ثمَّ تكون هناك سلطة ساهرة بكامل أجهزتها لحماية هذا القانون، وإنزاله على الوقائع حدودًا وتعزيراتٍ، فالحقُّ لا بدَّ له من قوَّةٍ تحميه، يُروى في الأثر: " إِنَّ اللَّهَ لَيَزِعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزِعُ بِالْقُرْآنِ "(١).

إنَّ حمل الناس على الخضوع لسلطة الدولة وسيادة القانون ليس أمرًا ثانويًا وليس من فضول الفعل فقد كان سببا في عدد من الإجراءات العسكرية التي قام بها النبي ﷺ ضدَّ من عبث وخرج عن القانون، نذكر منها للمثال:

حصارَ يهود بني قينقاع المنتهي بإجلائهم بعدما أظهروا العداءَ السَّافر للدَّولة، والإخلالَ بالأمن داخل المدينة، والاعتداء على حرمة امرأة مسلمة متحجبة، وكشَفَ سواها على الملاء(٢)؛ في تحدٍّ ونقضٍ سافرٍ للقانون.

كان السَّبب في مقتل كعب الأشراف الذي تعدَّى على رأس الدَّولة عليه الصَّلَاة والسَّلَام

---

١- هذا الأثر أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: (٥ / ١٧٢) من طريق الهيثم بن عدي، قال: حدثنا عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "لَمَّا يَزِعُ اللَّهُ بِالسُّلْطَانِ أَعْظَمُ مِمَّا يَزِعُ بِالْقُرْآنِ"، وهو إسناد مظلم فالهيثم بن عدي متروك، وأتهمه بعض النقاد بالكذب؛ فقد سئل يحيى بن معين عنه فقال: "كوفي ليس بثقة، كذاب"، وقال عنه أبو حاتم الرَّايزي: "متروك الحديث، محله محل الواقدي، كما نقله ابن أبي حاتم في الجرح والتَّعديل: (٨٥/٩).

وأخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة: (٣/٩٨٨): حدثنا موسى بن إسماعيل، قال: حدثنا حماد- هو ابن زيد-، قال: حدثنا يحيى بن سعيد- الأنصاري-: أن عثمان فذكره، وهذا الإسناد رجاله كلهم ثقات، لكنَّه معلٌ بالانقطاع؛ لأنَّ يحيى بن سعيد لم يدرك عثمان، والله أعلم.

٢- ينظر: د. أكرم العمري، المجتمع المدني، ص: (١٣٨). والرَّحيق المختوم، ص: (٢٥٧ - ٢٥٨).

بالهجاء والنيل منه، والتواصل ثم التعاطف مع الكيان المعادي (قريش)<sup>(١)</sup>.

كان السبب في إجلاء بني النضير بعد أن حاولوا اغتيال رأس الدولة عليه الصلاة والسلام بأمر من قريش، وقد منع ذلك أن امرأة من اليهود أفشت سرهم كما تقول إحدى الروايات في سبب إجلائهم<sup>(٢)</sup>.

كان سببا في الإغارة على بني قريظة وغزوهم بعد أن نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين دولة المدينة<sup>(٣)</sup>، وقد عمَّ أرجاء المدينة السلام والوثام بإجلاء الطابور الخامس من هؤلاء الخونة من اليهود، والله الحمد والمنة.

#### - احترام حقوق الإنسان.

لن تقوم للمواطنة قائمة، ولن يكون للأوطان مستقبل ولا تنمية، ولن تعرف الهدوء والاستقرار إذا كانت حقوق الإنسان فيها مهضومة، وقديما قيل: العدل أساس الملك، وإنَّ الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة<sup>(٤)</sup>، لقد عمل النبي ﷺ على منح الناس حقوقهم كاملة غير منقوصة منذ طلوع فجر الرسالة، وأكدها في دستور المدينة، وقانون دولته الوليدة، فقد نصَّ على جملة من الحقوق نذكر منها:

- **أولا حق الحياة:** وأكبر مؤشر على هذا الحق في الدستور، تلك العقوبة التي تلحق من أزهق نفسا بريئة؛ ففي المادة (٢١): "أنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بيته فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل..."، وقوله: (مؤمنا) لا يفيد أن المؤمن إذا قتل ذميا أو معاهدا لا يقتل به، والذي

١- ينظر: د. أكرم العمري، المجتمع المدني، ص: (١٤١-١٤٣).

٢- عبد الرزاق، المصنف، كتاب المغازي، باب وقعة بني النضير: (٣٥٨/٥)، رقم الحديث (٩٧٣٣)، وهذه الرواية كما يقول الدكتور أكرم ضياء العمر في المجتمع المدني، ص: (١٤٦): "رجاله ثقات، وفيه جهالة اسم الصحابي ولا تضر".

٣- ينظر: د. أكرم العمري، المجتمع المدني، ص: (١٥٢).

٤- هذه العبارة يحكيها شيخ الإسلام في بعض كتبه بصيغ تفيد أنه ينقلها عن غيره من مثل (ولهذا يروى)، أو (ولهذا قيل)، ينظر: ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، ص: (٧).

أميل إلى ترجيحه في هذه المسألة الخلافية هو رأي الحنفية ومن وافقهم<sup>(١)</sup>، وليس رأي الجمهور القائل بعدم جواز قتل المؤمن بالكافر مطلقاً<sup>(٢)</sup>؛ لأنَّ كلَّ الأدلة التي استند إليها الجمهور جاء الكافر فيه مطلقاً فيحمل على الكافر المحارب، ومن الأدلة القوية على ما أقول ما ثبت عن النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"<sup>(٣)</sup>، وهذه العقوبة الأخروية لمن قتل معاهداً متعمداً يتناسب مع عقوبة من يقتل مؤمناً متعمداً كذلك فناسب أن تكون العقوبتان واحدة في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾<sup>(٤)</sup>.

- ثانياً: حقُّ حرية الاعتقاد: فقد أسست الوثيقة لهذا الحق، وكفلتها لجميع المواطنين في المدينة؛ فأوجب "احترام حق الغير في اعتقاده ما يشاء، وفي تركه يعمل طبقاً لعقيدته، وعدم إكراهه على اعتناق ما يخالف هذه العقيدة، ولم يتجاوز حدود تجويز مجادلته بالحسنى، فإن أمكن إقناعه بالعدول عن عقيدته عن طواعية واختيار دون ضغط ولا إكراه فلا حرج في ذلك، وإن ظل على عقيدته فلا يجوز التأثير عليه بما يحمله على تغييرها وهو غير راض"<sup>(٥)</sup>؛ ففي المادة (٢٥): "وأنَّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ<sup>(٦)</sup> إلا نفسه وأهل بيته"، وأنبه أن هناك باحثين ينكرون القول بحرية الاعتقاد في الشريعة، ويفهمون منها ما ليس مجالاً للبحث أصلاً، وإنما المقصود منها هو ترك الناس يختارون الإسلام أو ما عاداه دون إكراه؛ لأنَّ الإكراه لا يؤسس عقيدة مقبولة في الإسلام، وإنما يأتي بمنافقين يظهرهم الإسلام ويبطنون الكفر، والعياذ بالله !!.

١- ينظر: الكاساني، بدائع الصنائع: (٣٢٧/٧).

٢- ينظر: ابن قدامة، المغني: (٢٧٣/٨).

٣- البخاري، في صحيحه، كتاب الجزية، باب: (إثم من قتل معاهداً بغير جرم): (٩٩/٤)، رقم الحديث (٣١٦٦).

٤- سورة النساء، الآية: (٩٣).

٥- الشعبي، وثيقة المدينة الدلالة والمضمون، ص: (١٩٦ - ١٩٧) مع تصريف يسير.

٦- أي يهلكه. يقال: وتغَّ، وتغَّأ، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (١٤٩/٥).



- ثالثاً: حق المساواة أو العدالة<sup>(١)</sup> أمام القانون، وفي كثير من الحقوق إلا ما ندر مما جرى استثناءه كحق تولي الولاية العامة.
  - رابعاً: الحق في حرية الفكر والتعبير عن الرأي بضوابطه، وخير دليل على ذلك أن هذه الوثيقة في أصلها تمخضت عن مباحثات وتراض بين الأطراف كافة دون فرض أو إملاء، وهذه قمة حرية التعبير والفكر والاختيار.
  - خامساً: الحق في التكافل الاجتماعي، والدعم المالي للمعوزين، وفداء الأسرى، والمساعدة في دية القتيل، وقد شغل هذا الحق أغلب بنود الوثيقة.
- إذن فمراعاة حقوق الإنسان بأنواعها المقررة في الشرع من مضامين المواطنة التي تحمي الوطن واستقراره، وتبجده عن شبح التوتر والاضطراب، وهو حق واجب على الدولة توفيره لكافة أبناء الشعب.

#### - طاعة ولاية الأمور، والابتعاد عن صور العصيان المدني.

من أكبر مهددات الأمن الداخلي لجلبها الشرور والفتن إلى أوطاننا فتنة الخروج على ولاية الأمور والنظام الحاكم بقوة السيف كما هو منهج الخوارج، ويأتي في حكم الخروج بالسلاح ما انتشر من الثورات والمظاهرات؛ لأنها من أسباب الخروج بالسيف، والوسائل لها أحكام المقاصد كما تقول القاعدة الفقهية<sup>(٢)</sup>.

إن واجب السمع والطاعة لولاية الأمور فيما أحب المرء وكره، وفي المنشط والمكره يعد من

١- يفضل العلامة العثيمين التعبير بالعدل دون المساواة فيقول في كتابه لقاء الباب المفتوح (١٣/١٧): "وينبغي أن نعرف الفرق بين العدل والمساواة، الآن يقول كثير من الناس: الإسلام دين المساواة، وهذا غلط، ليس في القرآن كلمة مساواة، أو أن الناس سواء، بل لو تأملت أكثر ما في القرآن تجد نفي المساواة"، إلى أن قال: "وفرق بين العدل والمساواة، لو أخذنا بظاهر كلمة المساواة لقلنا: الذكر والأنثى سواء كما ينادي به الآن المتفرجون، لكن إذا قلنا العدل أعطينا الذكر ما يستحق، والأنثى ما تستحق، ولهذا نرجو من إخواننا الكتاب وغير الكتاب أن ينتبهوا إلى هذه النقطة؛ لأن كلمة المساواة أدخلها بعض المعاصرين، والله أعلم كيف أدخلوها، قد يكون عن سوء فهم، وقد يكون لسبب آخر، إنما الدين دين العدل، والعدل إعطاء كل أحد ما يستحق".

٢- ينظر: ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام: (١/٥٣).

مضامين المواطنة التي حافظت عليها وثيقة المدينة وهو نقيض التمرد والعصيان المدني، ويؤخذ ذلك من ثلاثة أمور:

- الأمر الأول: إنَّ القيادة في دولة المدينة أكَّدت في عدد من بنود الوثيقة على حرص القيادة على تنفيذ ما تضمَّنته، وعدم الخروج عليها بمخالفتها.
  - الأمر الثاني: إنَّه خيَّر في البند(٤٧) بين البقاء في المدينة مع الالتزام بها، أو الخروج منها، وأنَّ من فعل واحداً من الخيارين فهو آمن، فقال: "وأَنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأَنَّه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم"، إذن فمن يبقى في المدينة تجري عليه أحكامها إذا ظلم واعتدى ولا مفرَّ.
  - الأمر الثالث: إنَّ كلَّ الأسباب التي أدَّت إلى توجيه ضرباتٍ عسكريَّةٍ لقبائل اليهود الموقعين على الميثاق، وحصارهم، وإجلائهم كانت في نقض ما منعت منه بنود الوثيقة، والخروج عن مقتضياتها كما مرَّ معنا آنفاً.
- فالمقصود هو أنَّ الطَّاعة وعدم العصيان من لوازم المواطنة الصَّادقة، ومن مضامينها المركزية، وقد تضافرت الأدلَّة من الكتاب والسُّنة على حرمة الخروج على الحكَّام، وتواترت حكايات العلماء لإجماع السَّلف حياله، يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: "ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنَّهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسَّيف وإن كان فيهم ظلمٌ كما دلَّت على ذلك الأحاديثُ الصَّحيحة المستفيضة عن النَّبي ﷺ؛ لأنَّ الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتن، فلا يدفع أعظم الفسادين بالترام أدناهما، ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته"<sup>(١)</sup>.

### المطلب الثاني: حماية الوطن من الأخطار الخارجيّة في وثيقة المدينة.

كثيرة هي تلك المخاطر التي تكون الأوطان عرضةً لها من العدو الخارجي، وخصوصاً عندما تزخر بالخيرات والموارد الطبيعية؛ وقد قيل: "إنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ"<sup>(٢)</sup>، فيتوجَّب على الدَّولة

١- ينظر: ابن تيميَّة، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: (٥٣/١).

٢- جزء من قول منسوب إلى النَّبي ﷺ، وتاممه: "اسْتَعِينُوا عَلَيَّ قَضَاءِ الْخَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ =

بكل مكوّناتها، ومنسوبيها أن يقفوا سدا منيعا أمام تلك الأخطار الخارجية، وهي وإن تعدّدت صورها وألوانها إلاّ أنّي سوف أتحدّث عن خطرين منها، وهما: خطر الاجتياحات العسكريّة، وخطر الحملات الإعلاميّة، والانتماء الصادق للوطن يفرض حيالهما ما يلي:

### - الوقوف في وجه الاجتياح العسكريّ:

أدرك النبي ﷺ من يومه الأوّل في المدينة أن دولته الوليدة مهدّدة، ولها أعداء متربصون، الأمر الذي يحتمّ عليه أن يترك في عين الاعتبار وهو يصوغ بنود الوثيقة عقد ميثاق وطنيّ يلزم جميع المواطنين مسلمين ومشركين ويهودًا الدفاع عن بيضة المدينة من أيّ تهديد أو غزو خارجيّ، وقد جاء ذلك صريحًا في أكثر من بند من بنود الوثيقة؛ ففي فقرة من البند (٣٧)، يقول ﷺ: "وأَنَّ

=مَحْسُودٌ"، وفي لفظ: "اسْتَعِينُوا عَلَيَّ إِنَّجِ الْخَوَاجِجَ بِالْكَتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ". يرويّه معاذ بن جبل رضي الله عنه، ومدار طريقه على ثور بن يزيد، يرويّه عن خالد بن معدان، عن معاذ بن جبل، أخرجه الطبراني في الأوسط، باب (من اسمه إبراهيم): (٥٥/٣)، رقم الحديث: (٢٤٥٥)، وقد رواه عن ثور أربعة كلهم ضعفاء، كما يقول الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤٣٦/٣). ويرويّه ابن عباس رضي الله عنه، وله عنه طريقان مدارهما على الحسن بن عبيد الله الأبراري، وهو كذاب، ينظر: ابن الجوزي، الموضوعات: (١٦٦/٢).

وقد ذكر الشيخ الألباني في السلسلة (٤٣٨/٣ - ٤٣٩) للحديث طريقا أخرى من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثمّ قال: "هذا إسناد مظلم"، لكنّه رحمه الله ذكر طريقا أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، ثمّ قال عقبه: "فالحديث بهذا الإسناد جيد عندي...". وفيما قاله نظر؛ ذلك أنّ الحديث حكم عليه الإمام أحمد ويحيى بن معين بأنّه "موضوع ليس له أصل" كما نقله ابن الجوزي عنهما في كتابه الموضوعات، كتاب الصدقة: (١٦٦/٢)، ونفي هذين الإمامين أن يكون للحديث أصل يصعب معه بعد ذلك تجويد أسانيده كما فعل الشيخ هنا؛ لأنّ الأئمة المتقدمين عندما يطلقون مثل هذه الأحكام فإنما سيتندون في ذلك على مخزون ضخم من المحفوظات في الأسانيد والمتون مما تجعل مباراتهم أو معاكسة أحكامهم أمرا في غاية الصعوبة !.

وللحديث طريق أخرى عن أبي بردة أخرجه أبو عبد الرحمان السلمي في أداب الصحبة، ص: (٧٠)، وفيه علتان:

الأولى: أنه مرسل؛ لأنّ أبا بردة، لم يلق النبي ﷺ، ينظر: المزي، تحفة الأشراف: (٤٦٦/٦).  
الثانية: أنّ أبا عبد الرحمان السلمي متهم، ينظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤٣٩/٣)، ولا يصلح للتقوية؛ لأنّ الحديث موضوع وليس له أصل كما تقدم، والله أعلم.

بينهم النَّصر على من حارب أهل هذه الصَّحيفة..."، وفي البند(٤٤)، يقول: " وأنَّ بينهم النَّصر على من دَهَمَ يثرب".

ولما كانت كلفة الحروب باهظةً تحتاج إلى ميزانية كبيرة، سواء في ذلك الحروب الدفاعية أو الهجومية، فقد نصَّ الدستور على وجوب التزام اليهود والمسلمين بتغطية نفقات الحروب الدفاعية عن المدينة<sup>(١)</sup>، فقال: "وأنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين" كما جاء في البندين(٢٤) و(٣٨)، وجاء في فقرة من البند(٣٧): "وأنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم...".

أتاحت لنا هذه البنود مقوِّمات مهمةً لحماية الوطن من أكبر خطر قد يتهدده، وهو الغزو العسكري، ويتمثل في وجوب الخروج للدِّفاع عن الوطن من جميع أطراف الشعب، بغض النَّظر عن الدين والمعتقد، فطالما أنَّه مواطن يحمل ولاءً لوطنه، فعليه الوقوف مع دولته بالمال والسِّلاح، والنفس والنفيس، وفي الثُّراث الإسلامي الفقهي نجد ساداتنا الفقهاء من كل المذاهب الإسلاميَّة ينصُّون على أنَّ الدِّفاع عن البلد حال الهجوم عليه فرضٌ عين على أهل البلدة، فمن يليهم؛

١- هذا في جهاد الدفع، أما جهاد الطلب فلا يجوز الاستعانة فيه بالكفار على الرَّاجح من قولِي العلماء؛ وقد استدلل المانعون بما أخرجهم مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسِّير، باب (كراهة الاستعانة في الغزو بكافر): (١٤٤٩/٣)، برقم: (١٨١٧)، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَذْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذَكِّرُ مِنْهُ جُرْأَةً وَنَجْدَةً، فَفَرَحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَذْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: جِئْتُ لِأَتَبِعَكَ، وَأُصِيبَ مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: "فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ"، قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجْرَةِ أَذْرَكَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَالَ: "فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ"، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَذْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: "تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟" قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَانْطَلِقْ".

أمَّا المجيزون فمن أدلتهم ما رواه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب السِّير، باب(الرِّضخ لمن يستعان به من أهل الذمة): (٩٢/٩)، رقم الحديث(١٧٩٧٠): أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، أنبأ الربيع بن سليمان، قال: قال الشافعي: قال أبو يوسف: أنبأ الحسن بن عمارة، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس ﷺ، أنه قال: "استعان رسول الله ﷺ بيهود بني قَيْنُقَاعَ فَرَضَخَ لَهُمْ، وَلَمْ يُسْهِمَ لَهُمْ"، وهذا الحديث لا يصح، وقد قال البيهقي عقبه: "تفرد بهذا الحسن بن عمارة وهو متروك، ولم يبلغنا في هذا حديث صحيح، وقد روينا قبل هذا في كراهية الاستعانة بالمشركين..."، قلت: إذن لا يصحُّ في هذا حديث كما قال هذا الإمام العلم.

نصَّ على وجوبه ابن عابدين الحنفِي في الرد المحتار<sup>(١)</sup>، والدُّسوقي المالكي في حاشيته على الشرح الكبير<sup>(٢)</sup>، والنووي الشافعي في روضة الطالبين<sup>(٣)</sup>، وابن قدامة الحنبلي في المغني<sup>(٤)</sup>، وأمَّا شيخ الإسلام ابن تيمية فذهب إلى ما هو أبعد فنقل الإجماع على ذلك قائلاً: "وأما قتال الدَّفْع فهو أشد أنواع دفع الصَّائل عن الحرمه والدين فواجب إجماعاً؛ فالعدو الصَّائل الذي يفسد الدين والدُّنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه فلا يشترط له شرط بل يدفع بحسب الإمكان، وقد نصَّ على ذلك العلماء أصحابنا وغيرهم، فيجب التَّفريق بين دفع الصَّائل الظَّالم الكافر وبين طلبه في بلاده"<sup>(٥)</sup>.

ولخطورة الهجوم المسلح على الأوطان، وضرورة حماية الوطن منه، فقد أوجب بعض الدول ما بات يعرف بالتَّجنيد الإجمالي، وهو "طريقة لاختيار الرجال وفي بعض الأحيان النساء للخدمة العسكرية الإلزامية، وعادةً يتم التَّجنيد الإجمالي بمجرد انتهاء الدِّراسة، فيخدم المجنِّدون لمدة تتراوح بين عام واحد وثلاثة أعوام، وقد استخدمت كثير من الدول التَّجنيد الإجمالي في وقت الحرب، ولكنَّ عددًا قليلاً من الدول استخدمته أثناء فترات السلم..."<sup>(٦)</sup>.

والخدمة العسكرية من موجبات المواطنة إلى جانب المشاركة الماليَّة في ميزانيَّة الدَّولة؛ وقد حدَّدت موسوعة السِّياسة صفة المواطن بأنَّه: "الذي يتمنَّع بالحقوق، ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماءؤه إلى الوطن، وأهمُّها واجب الخدمة العسكرية، وواجب المشاركة الماليَّة في موازنة الدَّولة"<sup>(٧)</sup>، وفي سياق التَّعريف بالمواطنة وما يترتَّب عليها من حقوقٍ وواجباتٍ ذكرت موسوعة الكتاب الدولي<sup>(٨)</sup> أنَّ "المواطنين لديهم بعض الحقوق، مثل حقَّ التصويت وحقَّ تولي المناصب

١- ينظر: ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار: (١٢٤/٤).

٢- ينظر: الدسوقي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير: (١٧٤/٢).

٣- ينظر: النووي، روضة الطالبين: (٢١٤/١٠).

٤- ينظر: ابن قدامة، المغني: (٢١٣/٩).

٥- ينظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: (٥٣٢/٥).

٦- ينظر: الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)، على الرِّابط: <https://ar.m.wikipedia.org/wiki/>، بتصرف يسير.

٧- عبد الوهاب الكيالي، وآخرون، موسوعة السِّياسة: (٣٧٣/٦).

٨- نقلا عن مقال الدكتور/علي خليفة الكواري حول "مفهوم المواطنة في الدول الديمقراطية"، المقال منشور

العامّة، وكذلك عليهم بعض الواجبات، مثل واجب دفع الصّرائب، والدّفاع عن بلدهم".

وقد صدق من قال: "وطن لا نحميه لا نستحق العيش فيه"؛ إنّها عبارة بليغة، وكلمة صادقة في التعبير عمّا يستحقه أغلى ما يملكه الإنسان بعد الدين – وهو الوطن – من ضروب الوفاء والتّضحية، قال بعض الحكماء: "حرمة بلدك عليك كحرمة أبويك"<sup>(١)</sup>.

### - الوقوف في وجه الحملات الإعلامية:

لن يتوقّف الأعداء عن فعل كل ما يمكن لإسقاط الدول المعادية، وإخفافهم في الاجتياح العسكريّ لن يثنيهم، ولن يكون نهاية الطّريق، فهناك أسلوب آخر لا يعلّ ضراوة عن أسلوب الضربة العسكريّة؛ لقوة فاعليته في الضرب بأمن الأوطان الداخلي، إنّهُ حملات التشويه والحرب الإعلامية التي غالباً ما تستند في مجملها على التّمويه والكذب والخداع، وهي كفيّلة بالقاء الرعب على الخصم، مع تشكيكه في القدرات التي بحوزته، بالإضافة إلى تأثيرها القوي في تشتيت وحدة الصف والكلمة داخل الوطن وأبناء الشّعب.

لقد علم النبي ﷺ خطورة الحروب عموماً والحروب الإعلامية خصوصاً، فضمّن بنود الميثاق موادّ تعمل على إعاقه قريش من ممارستها ضد الدولة الناشئة عن طريق تجفيف ينبوع هذا الإعلام المفترض، وتحطيم أركانه، فقد منع عليه الصّلاة والسّلام اليهود في الوثيقة من الخروج عن المدينة أو الاتصال بقريش أو غيرهم بأيّ شكل من الأشكال إلا بمعرفته ﷺ وإذنه<sup>(٢)</sup>، ومعلوم أنّه لا إعلام بلا تواصل واتّصال بين طرفين مرسل(قرشي)، ومستقبل(مدني) وخصوصاً في تلك الحقبة التي كانت الأجهزة فيها بدائيّة وغير متطورة كما هي اليوم، فقد جاء في البند(٣٦ب): "وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ"، ومنع من مناصرة المجرمين أو التستر عليهم كما في المادة(٢٢): "وأنه لا يجلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأن من نصره، أو آواه، فإنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل"،

بصحيفة البيان الإماراتية، بعنوان: "على الرّابط: <https://www.albayan.ae/opinions/>

١- ابن الفقيه، البلدان، ص: (٤٨٨).

٢- ينظر: مجموعة من الباحثين بإشراف معالي الدكتور/صالح بن عبد الله بن حميد، نضرة النعيم، ص: (٢٦٩/١).

والمحدث هنا وإن كان يطلق على كل من اقترف ما يوجب حداً<sup>(١)</sup> إلا أن ذلك لا يمنع من دخول أصناف المجرمين في دلالته فيحرم إيواء الأفراد المنتمين إلى الكيانات المعادية للحيلولة دون تسريبهم ما يضر بالدولة وأمنها.

فاستناداً على التحليل السابق لما في المادتين توصلنا إلى قيم هامة ستساعد على الإمداد بالمقومات الكفيلة للذود عن الوطن من الإعلام الموجّه ضد سمعة أوطاننا ومصالحها وتلاحم أبناء الشعوب، وفيما يلي اقتراح لاستراتيجية أمل أن تمنحنا القدرة على صدّ الحملات المغرضة:

على حكوماتنا ودولنا تبني سياسات تحمل فلسفة إعلامية واضحة، تحرص على تسويق ما عندنا من قيم أخلاقية وحضارية مقابل تحسين سمعتنا عبر العالم، ومواجهة الحملات المعادية التي تعمل ليلاً ونهاراً على النيل منا؛ بتعريتها، وبيان زيفها، وكيف أنّها مغرضة ولا تستند إلى أي أساس متين، كل ذلك بالحق والحجة والبرهان، بعيداً عن نصرّة الباطل بباطل مثله؛ فالغايات عندنا لا تبرر الوسيلة.

رصد ميزانية لائقة توظّف في مجال الإعلام بكافّة أجهزتها وأدواتها العصرية بدءاً بالإذاعة والصحف الورقيّة والإلكترونيّة، والقنوات الفضائيّة، مع العناية في اختيار الموظّف الذي يعرف مهنته، والرسالة التي يراد منه أن يوصلها.

يجب على المواطنين في دولنا أن يقفوا مع حكوماتهم في تأدية هذا الواجب، وهو أمر متاح وميسور؛ وذلك بالتّسجيل في وسائل التّواصل الاجتماعي؛ مثل: الفيسبوك Facebook، وموقع التدوين المصغّر Twitter، وسناب شات Snapchat، وفتح قنوات على اليوتيوب youtube، وسواها من وسائط التواصل الاجتماعي التي يأتيها منها كل يوم جديد، على أن يستحضر دوماً أنّه يرتادها لهدف نبيل، يتلخّص في خدمة الدين بنشر تعاليمه والدعوة إليه، ونصرة الوطن بالإشادة به وبمجزاته، مع إدامة الثناء على ولاة الأمور، وتشمين ما يبذلونه من خدمات، أو يتخذونه من قرارات فيها الخير والنفع للنّاس، إلى جانب الدفاع عن الوطن، والصدّ عن الحملات المغرضة وصور التّشويه والشّائعات، كل ذلك عن طريق سلطة الكلمة الحسنة، والجيد من المنشورات والتّغريدات،

١- ينظر: أبو عُبيد القاسم بن سلّام، غريب الحديث: (١٦٨/٣)، مادة (صرف).

مع العناية البالغة في انتقاء كل حرف من حروفها، وتقديمها على نحوٍ جميلٍ ومشرقٍ، ولا ينسى القيام بمبادرات في تدشين الهاشتاغات، وكذلك المشاركة فيها خدمةً للأهداف المشار إليها.

### المطلب الثالث: حماية الوطن من خطر العمالة والتخاير في وثيقة المدينة.

هناك خطر لا يمكن عدُّه داخليًا ولا خارجيًا صرفًا، وإنما هو خطر مركَّب يتشكَّل من مجموع ذلك، بوجود مؤامرة خارجيَّة ضدَّ الدولة توظفُ فيها عنصر أو مجموعة عناصر داخليَّة، ويتمثل في خطر العمالة للقوى الخارجيّة، وهو غدر بالوطن وخيانة عظمى وفق الأعراف الدولية المعاصرة.

من يقرب هذه الوثيقة لا يستريب في أنّها أحرزت براءة اختراع، وحازت سبقًا حضاريًا بالرؤية الأمنية التي قدّمتها من أجل الالتفاف على هذا الخطر الداهم؛ فقد كان التَّحذير من هذه الجريمة واضحًا في عدد من بنودها وفقراتها، ومن عمق فقهه عليه الصَّلَاة والسَّلَام لأعقد المسائل الأمنيَّة حرصه على أن يُلفَّ أمن المدينة أمام سيول الخيانة والغدر بسياج منيع من مَوادِّ هذا الدستور ونصوصه؛ لعلمه بخطر اليهود أحدِ أطراف الميثاق، وأصالة سجيَّة الغدر وحيَاكة المؤامرات فيهم، فقام بخطوتين وقائيتين:

**الخطوة الأولى:** المنع من التواصل مع الكيان المعادي (قريش) إلا بمعرفته ﷺ وإذنه، كما جاء صريحًا في البند (٣٦ب)، ووُرود ضميرٍ عائِدٍ إلى اليهود في البند لا يستفاد منه أنّ التَّواصل مع قريش كالأُّ حلال للمسلمين، وكلما في الأمر أنّه في حقِّ اليهود أكد.

**الخطوة الثانية:** تضييق دائرة مشروعية إعطاء الإجارة<sup>(١)</sup> للأجانب، وجعلهُ وقفًا وحصرًا على المسلمين، كما في البند (٢٠ب) "وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن"، وفي البند (٤٣): "وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها"، وحول هذا المعنى يقول الباحث

١- الإجارة هي والأمان بمعنى واحد، والأمان في الاصطلاح، هو: " دخول دار الغير (أي إقليمه) بأمان، مسلما كان الدَّاخل أو حربيا"، ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية: (١٦١/٣).



أحمد عجاج كرمي: " منعت الصحيفة أهلها- ولا سيما المشركين واليهود- أن يجيروا أحدا من أهل مكة، وبذلك استطاع النبي ﷺ أن يضبط أمور غير المسلمين في المدينة...<sup>(١)</sup>."

لقد كان النبي ﷺ يحمل هذا الدستورَ محمّلَ الحدِّ، وهو بذلك على التقيض تماما من اليهود الخونة، علماً بأنَّ بنوده جاءت بعد توافق من جميع المجموعات داخل المدينة، ولم يفرض عليهم، إنَّ العبث بأمن المدينة الداخلي كان مسألة حياة أو موت بالنسبة له عليه الصلّاة والسّلام.

ومّا سبق بيّانه ندرک القيمة الأُمّیّة التي زودتنا بها الوثيقة في هذه البنود، بتأمين حلّ فعّال لإشكاليّة العمالة للكيانات المعادية؛ فالتخاير مع أيّة قوّة معادية للدّولة، أو التّواصل معها؛ لتأدية دور ما فيه إضرار بالوطن بوجه من الوجوه خيانة وجريمة، وطعن للوطن في مَقْتَلٍ، ويجب أن يكون واضحا أنّه من غير المقبول تقدّم أيّ مبرر أو عذر بإزاء هذا التّواصل في حالة حرب، أو خصومة سياسيّة، أو توتر بين الدّولتين ما لم يكن هناك تفويض رسمي من الدّولة، ثمَّ إنَّ الصّدقة بين الدول وما يشبهها ليست استثناء من قاعدة المنع هذه؛ والسّبب ببساطة أنّ مظنة الإضرار بالدّولة والتّعريض بمصالحها للخطر ما زالت قائمة؛ لما علّم من أنّ ظاهرة التّجسّس بين الدّول أضحت خياراً متحكّماً في أجندة السّياسات الخارجيّة، ولن تتوقّف دولة عن ممارستها حتى مع الدّول الحليفة والصّديقة، وفي الواقع الدوليّ مئات الأمثلة من حالات التّجسّس من هذا النّوع. ثمَّ إنّّه يجب على الجهات المختصّة سنّ قوانين رادعة عن هذه الفعلة الشنيعة؛ ويساعد على ذلك رحابة هذا المجال لأيّ تحرّك أو مبادرة قانونيّة؛ لأنّ باب التّداولات الفقهيّة حول أنسب عقوبة لردع هؤلاء الخونة ما زال مُشرّعاً، والفقهاء في المدوّنات الفقهيّة وإن لم يجمّعوا على عقوبة بعينها إلا أنّهم لم يتهاونوا مع هذه المشكلة؛ لذا نجد منهم من يميل إلى قتل الجاسوس، ومنهم من ترك الأمر لسياسة الإمام، وفي كلمة يعكس فيها مجمل آراء أهل العلم داخل المذهب المالكي تحديداً حول المسألة يقول العلامة القرطبي رحمه: " من كثرَ تطلّعه على عورات المسلمين، وبيّنه عليهم، ويعرّف

١- ينظر: أحمد عجاج كرمي، الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص: (٨٧) بتصرف يسير.

عدّوهم بأخبارهم لم يكن بذلك كافرا إذا كان فعّله لغرض دينوي، واعتقاده على ذلك سليم، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد ولم ينو الردّة عن الدّين"، إلى أن قال: "إذا قلنا لا يكون بذلك كافرا فهل يقتل بذلك حدّا أم لا؟، اختلف الناس فيه، فقال مالك، وابن القاسم، وأشهب: يجتهد في ذلك الإمام. وقال عبد الملك: إذا كانت عادته تلك قُتِل؛ لأنّه جاسوس؛ وقد قال مالك بقتل الجاسوس، وهو صحيح؛ لإضراره بالمسلمين وسعيه بالفساد في الأرض...".<sup>(١)</sup>

وأعود لأؤكد على قبح هذه الفعلة، وكلّي ثقة أنّه لن يُقدّم عليها إلا من يعانون من أمراض نفسية، أو تشوّهاتٍ في فِطْرهم، لقد أدرك أولئك الذين ساهموا في قهر الشعوب، وتلطّخت أيديهم بدماء الأبرياء قيمة الأوطان، وقُبِحَ بيعها، كأنّهم يوجّهون سهام النّقد وعتبًا مباشرًا إلى من تعاونوا معهم في بيع أوطانهم في سوق النّخاسة؛ فهذا نابليون بونابرت Napoléon...Bonaparte، أحد الطغاة ممن دَمَّر أوطاننا يَحْمِلُ على خونة الوطن ضاربًا مثلا، في مقولة سارت بما الرّكبان، عندما قال: "مثّلُ الذي خان وطنه وباع بلاده، مثل الذي يسرق من مال أبيه ليُطعم اللّصوص؛ فلا أبوه يسامحه، ولا اللّص يكافئه"<sup>(٢)</sup>.

#### الخاتمة:

إلى هنا تكون سفينة هذا البحث قد رست بعد التّطواف في أجواء هذا الموضوع الشّيق، ولا أملك في خاتمته إلا أن أقوم بتسجيل أهمّ النتائج والتّوصيات التي توصلت إليها، فأما النتائج فهي:

- إنّ مصطلح المواطنة يعني المشاركة في الوطن، وتترتّب بموجبها حقوق وواجبات.
- يعود أصل المواطنة إلى حقبة اليونان، وشهدت تطوُّرا وتطورا في فضاءاتها، وأسستها في حقب حضاريّة مختلفة حتى هيمن عليها الطّابع الغربي، وفيها مخالافات شرعيّة، فيجب الحذر منها، والالتفات إلى ما يوافق ثوابت الدين عند التّعامل مع مفرداتها.

١- ينظر: أبو عبد الله، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (٥٣/١٨).

٢- أخذنا من موقع موضوع، ضمن منشور بعنوان: "أقوال نابليون"، على الرّابط:

<https://mawdoo3.com>

- مضامين المواطنة في وثيقة المدينة حافلة بمقومات حماية الوطن من المخاطر الداخلية والخارجية، وخطر العمالة والتخاير للكيانات المعادية.
- وأما التوصيات التي أحسبت تسجيلها في هذا المقام فهي:
- ضرورة التكتاف وتوحيد الجهود لحماية الأوطان بمشاركة الشعوب ومؤسسات المجتمع المدني والحكومات ليحمل هذه الأمانة كلٌّ في موقعه وفي حدود ما يملك ويستطيع.
- يجب أن يكون معروفاً أن محاربة ظاهرة الإرهاب والتطرف التي كانت سبباً مباشراً في كثير من حالات انعدام الأمن والأمان في البلدان، والتي أكلت الحرث والنسل وباتت هماً مشتركاً لن تتم مواجهتها بالشكل الصحيح عن طريق الاعتماد على الحلول الأمنية، بل الواجب التنويع في أدوات محاربتها بإدخال القوّة النَّاعمة؛ كتعزيز مفاهيم الوسطية والاعتدال، وفتح باب الحوار والنقاش مع من ينجح نحو العنف والتطرف.
- على أجهزة التشريع وسنّ القوانين في العالم الإسلامي من برلماناتٍ ومجالسٍ شورى العودة إلى هدي الكتاب، وما ثبت من سنته عليه الصّلاة والسّلام، وما تحفل به سيرته من تجارب في القيادة وفنون السّياسة والإصلاح وتوظيفها في مواجهة الأزمات، وحماية الأوطان بها، فما هذه الوثيقة النبويّة المباركة إلا حلقةٌ من سلسلةٍ ممتدّة من الحلول النبويّة المعصومة، والتي أثبتت جدواها في مسيرة الإصلاح الدّعويّ والسّياسيّ والاجتماعيّ.
- على النّخب المثقفة وأصحاب الفكر والرأي أن يضطلعوا بدورهم في توفير الأبحاث والدراسات التي تلامس احتياجات الناس، وتقديم الحلول لمعضلات السّاعة من هديه عليه الصّلاة والسلام، والتّخفّف من كثير من الحلول المستوردة.

## لائحة المصادر والمراجع:

- ابن تيمية: أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، الحسبة في الإسلام، دار الكتب العلمية، الأولى، بدون تاريخ.
- ابن تيمية: تقي الدين، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، الحرائي، الفتاوى الكبرى، دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
- ابن تيمية: أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، الحرائي، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ابن الجوزي: جمال الدين، عبد الرحمن بن علي بن محمد، الجوزي، الموضوعات، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، الأولى، تواريخ مختلفة.
- ابن حجر: أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، العسقلاني، تقريب التهذيب، سوريا، دار الرشيد، الأولى: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ابن حزم: أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
- ابن رجب: زين الدين، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلمي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، شرح علل الترمذي، الأردن، مكتبة المنار.
- ابن زنجويه: أبو أحمد، حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله، الخرساني، الأموال، السعودية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الأولى: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ابن سيد الناس: أبو الفتح، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، اليعمري، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، بيروت، دار القلم، الأولى: ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
- ابن شبة: أبو زيد، عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبدة، النميري، البصري، تاريخ المدينة، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
- ابن الصلاح: أبو عمرو، عثمان بن عبد الرحمن، تقي الدين، ت: (٦٤٣) هـ، معرفة أنواع علوم الحديث، سوريا، وبيروت، دار الفكر، ودار الفكر المعاصر، بدون رقم طبعة، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ابن عابدين: أمين بن عمر بن عبد العزيز، الدمشقي، الحنفي، رد المختار على الدر المختار، بيروت، دار الفكر، الثانية: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

- ابن عبد السلام: أبو محمد، عز الدين، سلطان العلماء، عبد العزيز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، بدون رقم طبعة، عام: ١٤١٤ هـ - ١٩٩١ م.
- ابن عدي: أبو أحمد، بن عدي، الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، لبنان بيروت، الكتب العلمية، الأولى: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ابن عبد الوهاب: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان، التميمي، النجدي، مختصر سيرة الرسول ﷺ، السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الأولى: ١٤١٨ هـ.
- ابن قدامة: أبو محمد، موفق الدين، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، الجماعيلي، المقدسي، المغني، القاهرة، مكتبة القاهرة، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
- ابن كثير: أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير، الدمشقي، السيرة النبوية من البداية والنهاية، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بدون رقم طبعة، سنة النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م.
- ابن المنذر: أبو بكر، محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، الإجماع، دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.
- ابن هشام: أبو محمد، جمال الدين، عبد الملك بن هشام بن أيوب، الحميري، المعافري، السيرة النبوية، شركة الطباعة الفنية المتحدة، بلا رقم طبعة، ولا تاريخ.
- أبو عبيد: القاسم بن سلام بن عبد الله، الهروي، البغدادي، الأموال، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ، ولا رقم طبعة.
- أبو عبيد: القاسم بن سلام بن عبد الله، الهروي، البغدادي، غريب الحديث، حيدر آبادكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الأولى: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
- الألباني: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الأولى، تواريخ مختلفة.
- أحمد عجاج كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ، القاهرة، دار السلام، الأولى: ١٤٢٧ هـ.
- أحمد قائد الشعيبي: وثيقة المدينة المضمون والدلالة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلسلة كتاب الأمة، العدد (١١٠)، الأولى، ذو القعدة: ١٤٢٦ هـ، كانون الأول: ٢٠٠٥ م.
- د. أحمد مختار عبد الحميد عمر وفريقه، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الأولى: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

- الأصفهاني: أبو علي، أحمد بن محمد بن الحسن، المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، بيروت، دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- الأنباري: أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، دار المعارف، الخامسة، بلا تاريخ.
- د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، السادسة: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- د. أكرم: ضياء العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة: خصائصه، وتنظيماته الأولى، المدينة المنورة، المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، الأولى: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- البخاري: أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، الأولى: ١٤٢٢ هـ.
- بدر الدين: محمد ابن الإمام جمال الدين محمد بن مالك، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- البيهقي: أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، الخراساني، السنن الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، الثالثة: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- جاسم: محمد راشد العيساوي، الوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها، الشارقة، مكتبة الصحابة، الأولى: ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- حسين أحمد: الحجوري، الفكر الديمقراطي وإشكالية الديمقراطية في المجتمعات المعاصرة، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، بدون رقم طبعة، التاريخ: ١٩٩٦ م.
- الخطيب البغدادي: أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت، تاريخ بغداد، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الأولى: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- الدسوقي: محمد بن أحمد بن عرفة، المالكي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، دار الفكر، بدون طبعة، وبدون تاريخ.
- الذهبي: أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الغرب الإسلامي، الأولى: ٢٠٠٣ م.
- الذهبي: شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر، الأولى: ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م.

- السمهودي: أبو الحسن، نور الدين، علي بن عبد الله بن أحمد، الحسيني، الشافعي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، بيروت، دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤١٩ هـ.
- سبويه: أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر، الحارثي بالولاء، الكتاب، القاهرة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الثالثة: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- صفى: الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، القاهرة، دار الحديث، الأولى: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- الطبراني: أبو القاسم، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، القاهرة، دار الحرمين، بدون تاريخ، ولا رقم طبعة.
- عبد الرزاق: بن همام بن نافع، أبو بكر، الحميري اليماني الصنعاني، المصنف، الهند، المجلس العلمي بالهند، الثانية: ١٤٠٣ هـ.
- العثيمين: محمد بن صالح بن محمد، لقاء الباب المفتوح، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، أخذته من المكتبة الشاملة، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
- عبد الوهاب: الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بلا رقم الطبعة، ولا تاريخ طباعة.
- عزت قرني، الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، الكويت، دار ذات السلاسل، الأولى: ١٩٩٣ م.
- عفيف: عبد الفتاح طبارة، اليهود في القرآن تحليل علمي لنصوص في اليهود على ضوء الأحداث الحاضرة، مع قصص أنبياء الله إبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام، بيروت، دار العلم للملايين، العاشرة: تموز يوليو: ١٩٨٤ هـ.
- الفريد: إدوارد تايلو، أرسطو، ترجمة: عزت قرني، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، الأولى: ١٩٩٢ م.
- القاضي: أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي، السبتي، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المكتبة العتيقة ودار التراث، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
- القاضي: أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي، السبتي، إكمال المعلم بفوائد مسلم، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الأولى: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- القرطبي: أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الأنصاري، الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الكتب المصرية، الثانية: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
- الكاساني، أبو بكر، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد، الحنفي، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، الثانية: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

- مجموعة: من الباحثين بإشراف الشيخ/صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، جدة، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، الرابعة، بدون تاريخ.
- مجموعة: من الباحثين بالرابطة السورية للمواطنة بدعم من مؤسسة hivos الهولندية، دليل المواطنة، دمشق، بدون دار نشر، الأولى: ٢٠١٦م.
- محمد حميد الله: الحيدر آبادي، الهندي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، دار النفائس، السادسة: ١٤٠٧هـ.
- المزني: أبو الحجاج، جمال الدين، يوسف بن عبد الرحمن، تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، المكتب الإسلامي، والدار القيّمة، الثانية: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- مسلم: بن الحجاج، أبو الحسن، القشيري، النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا رقم طبعة، ولا تاريخ طباعة.
- النووي: أبو زكريا، محيي الدين، يحيى بن شرف، روضة الطالبين وعمدة المفتين، بيروت، المكتب الإسلامي، الثالثة: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- النووي: أبو زكريا، محيي الدين، يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الثانية: ١٣٩٢هـ.

### المواقع الإلكترونية:

- موقع الأمم المتحدة.
- موقع صحيفة البيان الإماراتية.
- موقع صيد الفوائد.
- موقع قصة الإسلام.
- موقع الموسوعة الحرة.



الوطن والوطنيةُ في السنّة النبوية:  
حتمية الانتساب ومقصدية الحماية  
دلالات استقرائية في نصوص السنة وفقهها

الدكتور / عبد الله عبد المومن  
أستاذ الفقه وأصوله بجامعة ابن زهر  
كلية العلوم الشرعية - السمارة / المغرب





## تقديم

الحمد لله المستفتح بحمده كل أمر ذي بال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه خير الصحب والآل، والضراعة إليه جل اسمه في توفيقني وتسديدي لما أدبره وأحبره من مقال. أما بعد،

فلا خلاف في أن مستند التشريع السياسي الإسلامي، في مجمل قضاياها، حراسة الدين وسياسة الدنيا، وهو قائم على تحقيق المصالح ودفع المضار بما يتناسب ومقاصد الشريعة وقواعدها الكلية. ولا خلاف أيضا أن هذا الباب يخلو إلى حد ما من النصوص التشريعية التي يسهل الورود عليها لاستنباط الأحكام الكفيلة بمقتضاه، ليس شأنها في ذلك شأن أبواب التشريع من العبادات والمعاملات، بل يندر استقراء النصوص الحافّة بالمعاني التأصيلية لفقهاء السياسة أو الأحكام السلطانية، كما درج المتقدمون على تسميته. ولربما يرجع الأمر في نظري إلى طبيعة هذه الأحكام الاجتهادية القابلة للتغير والتطور بتحديد زخارفها وسياساتها، كلما استدعى الحال ذلك، والمدار فيها على ضرورات الاجتماع البشري والعمرائي لميل الطبع إلى التنظيم، وقوام التدبير، وهو مطلب شرعي ضروري؛ إذ انبثاقه عن داعي الفطرة، والجلبة، وسُننها في الوحدة والاجتماع مما لا يحتاج إلى بيان، وقد يجري سنن التكليف في مثله على مقتضى الجلبة والطبع، ولعله المقتضي لعدم التفصيل التشريعي في هذا الباب.

ولكن هذا لا يغني أبدا عن الاستمداد من كليات وأصول التشريع السياسي الضابطة لسنن المجتمع الإنساني المنظم، وحتى من جزئياته الكفيلة بتوجيه هذا الباب، وهو عمري كائن في فقه السنة النبوية ونصوصها مما يحتاج فقط إلى الغور في معانيه لبناء قضاياها الكبرى، والإحاطة بمراميه العليا. وهو ما قصدته من خلال هذه المباحثة المنقّرة عن أصول الوطنية وجُذورها في السنة النبوية تعريفًا وتوظيفًا، والمساهمة بالكشف عن حقيقة الانتساب ومقاصد الانتماء الوطني ومنها، حماية الأوطان، بمنهج استقرائي تحليلي، امتزج فيه الدرس المصطلحي بالبعد التأصيلي، مدليا بعدهما بثمرة فقه السنة النبوية ومقاصدها، من أجل التأسيس لمبادئ الحماية ومجالات الرعاية، دونما الاعتماد

على سند أسبق في الباب؛ إذ يندر اقتحام مثل هذه المدارس إلا إجمالاً.

إن حقيقة الحماية ثابوية في المقاصد الكبرى للانتماء، وهي من أولويات الانتساب، وكلاهما يُسندهما البعد الجبلي قبل الشرعي والسلطاني، وما التأسيس في الدراسة للأبعاد الانتسابية إلا حافز على استخلاص ما تصبو إليه من أركان الحماية من جهة الوجود والعدم، في البعدين المادي والمعنوي؛ ويشمل الأول: الدفاع وتحقيق الأمن، وبسط الحقوق ومقابلتها بالخدمة. ويشمل الثاني: المحافظة على الوحدة، وبث قيم الخير والجمال، وحفظ الهوية، والسيادة الوطنية.

ولن أدعي السبق والتفرد لتعذر الاستقصاء، لكن أحسبني قد عانيت في استثمار فكرة البحث وتسميرها من خلال سبر أغوار النصوص وتقرّي معانيها، وهو بيّن في المباحث التي قام عليها بيان الدراسة، بدءاً بالتأصيل للمفهومية بضابطة موضوعية قائمة على التعريف، والتوظيف المصطلحي، ثم بضابطة شرعية قاربت الجانب التأصيلي والحكومي لقضية البحث، وهو ما أثمر أبعاداً تعددت مراميها وأوجه بنائيتها، لتؤول إلى دلالات مقاصدية كشفت ما استبطنته نصوص الهدى النبوي الشريف من إسعاف طلبة الخلق في الدلالة على الحق، في مصالح المعاش والمعاد.

وإني إذ أتقدم للمشاركة بهذه المباحثة المتواضعة إلى ندوة الحديث الشريف الدولية، والتي تُنبئ في كل إطلالة علمية بمدى إلمامها الباهر بقضايا الشرع والواقع، وهو ديدن المنهج التشريعي النبوي الذي ما فتئت نصوصه تنير درب الإنسانية بسراج الهدى والنور. فالله أسأل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله الكريم، وأن يُسهم في ترسيخ قيم الوحدة والاجتماع، وأن يكون فاتحة بحث واستكشاف في عوالم الفقه السياسي، بما يناسب نهضة الأمة، وسلامة أوطانها، ورفقي مجتمعاتها.

## المبحث الأول: التأصيل العام لمفهومية الوطن والوطنية

### في السنة النبوية تعريفاً وتوظيفاً

#### المطلب الأول: الضابطة الموضوعية

الفرع الأول: في اللغة: الوطن في أصله مصدر وطن، و(وطن) بِالْمَكَانِ (يَطْنُ) وَطْنَا أَقَامَ بِهِ، وَأَوْطِنَ وَأَتَّطِنَ وَاسْتَوَطِنَ الْمَكَانَ، وَتَوَطَّنَ بِهِ؛ أَي اتَّخَذَهُ وَطْنَا.

والموطن منه، وهو كل مكان أقام به الإنسان لأمر، والجلس، والمشهد من مشاهد الحرب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ (٢٥) التوبة: ٢٥، وينسب إلى الأول: الوطني، قال ابن مالك:

يَاءُ كِيَا الْكِرْسِيِّ زَادُوا لِلنَّسَبِ وَكُلُّ مَا تَلِيَهُ كَسْرُهُ وَجَحَبٌ<sup>(١)</sup>

والوطن والوطنية مصدران، والمراد بالأول، مولد الرجل والأصل الذي هو فيه، أو مقامه الأصلي. وقيل: مكان إقامة الإنسان ومقره، وإليه انتمائه: وُلِدَ بِهِ أَوْ لَمْ يُوَلَدْ. والمراد بالثاني، الارتباط بالوطن وبمصالحه.

(وواطنه) على الأمر أضمر فعله معه وَوَأَفَقَهُ عَلَيْهِ، وَالْقَوْمَ عَاشَ مَعَهُمْ فِي وَطَنٍ وَاحِدٍ، والمواطنة منه، ومعناها: الصلة أو الرابطة بين الفرد المواطن، والوطن.

ووطن بالتشديد معناه، قال ابن سيده: { وَطَنَ نَفْسَهُ عَلَى الشَّيْءِ وَلَهُ } فَتَوَطَّنَتْ: حَمَلَهَا عَلَيْهِ فَتَحَمَّلَتْ وَذَلَّتْ لَهُ؛ والتوطين منه. وستأتي معاني المصطلحات في السنة النبوية<sup>(٢)</sup>.

وتكاد تجتمع المعاني على الإقامة والتوافق عليها؛ قال الحافظ: "وَالْعَرَبُ تُفَرِّقُ فِي الْأَوْطَانِ فَيَقُولُونَ لِمَسْكَنِ الْإِنْسَانِ وَطَنٌ، وَلِمَسْكَنِ الْإِبِلِ عَطْنٌ، وَلِلْأَسَدِ عَرِينٌ وَعَابَةٌ، وَلِلظُّبِيِّ كِنَاسٌ، وَلِلضَّبِّ وَجَارٌ، وَلِلطَّائِرِ عَشٌّ، وَلِلزَّبُورِ كَوْرٌ، وَلِلْيَرْبُوعِ نَافِقٌ، وَلِلتَّمَلِّ قَرِيَةٌ"<sup>(٣)</sup>.

## الفرع الثاني: في الاصطلاح

يتأكد التقارب بين المعنيين في اللغة والاصطلاح، لاستمداده منه؛ إذ الجامع الاستقرار والتحقق من الكيان، وفي السياق نفسه، كل ما يحقق المعنى فهو دال عليه؛ قال الخليل: الوطن،

١- ابن مالك، الألفية، ٧١.

٢- ابن فارس، مقاييس اللغة، ١٢٠/٦، ابن منظور، لسان العرب، ١٣/٤٥١، الفيومي، المصباح المنير، ٢/٦٦٤، الزبيدي، تاج العروس، ٣٦/٢٦٠، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ٢/١٠٤٢.

٣- ابن حجر، فتح الباري، ٦/٣٥٨.

مَوْطِنُ الْإِنْسَانِ وَمَحَلُّهُ<sup>(١)</sup>. وفي الصحاح: محل الإنسان الذي يوطنه نفسه ويسكن فيه<sup>(٢)</sup>. وعرفه الجرجاني: الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه<sup>(٣)</sup>.

وإمعانا في البعد الاصطلاحي لهذا المفهوم وجمعا بين مفرداته ومعانيه، يبينه الأستاذ علال الفاسي بيانا وافيا: "الوطن ليس هو الأرض وحدها، ولكنه الأرض وما فوقها، وما يعيش فيها من شعب، ومن عقيدة، ومن شرائع، ومناهج للحياة، المجموع الذي يكون النموذج الذاتي للوطن والذي يخلق المواطن على صورته، هذا المواطن الذي يسهل أن يتأخى مع النماذج المماثلة له ويمتزج معها، ولكن من الصعب عليه أن يعيش في جو خارج عنها، أو يندمج فيما هو يكون من نماذج مناقضة لها"<sup>(٤)</sup>.

### المطلب الثاني: التوظيف المصطلحي لمعاني الوطن والوطنية في السنة النبوية

والبحت في هذا الباب من جهة الدراسة المصطلحية هو لتحقيق القول في ماهية المصطلح، وتأصيل معناه، ومن ثم دلالاته الشرعية، بناء على الاستقراء التام لمعانيه من خلال استعمالاته، وعلاقاته، ومشتقاته، قصد التوصل إلى ضابط جامع لمفهوميته. والقصد من العلاقات: كل علاقة للمصطلح بغيره من المصطلحات ائتلافا، أو اختلافا، أو تداخلا<sup>(٥)</sup>.

### الفرع الأول: العلاقات

١- علاقة ائتلاف:

أ- الأرض: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَقْفًا بِالْحَزْرَةِ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ"<sup>(٦)</sup>.

١- الفراهيدي، العين، ٧ / ٤٥٤.

٢- الجوهري، الصحاح، ٦ / ٢٢١٤.

٣- الجرجاني، التعريفات، ٢٥٣.

٤- الفاسي، علال، دفاع عن الشريعة، ٣٨.

٥- الشاهد البوشيخي، مشروع المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية، ٢٢، ٣٥.

٦- أخرجه أحمد (١٨٧١٥) والترمذي (٣٩٢٥)، وقال: «حديث حسن صحيح».

ب - الدار، أو دار المُقامة: والتعبير بالوطن والدار في الحديث عن قبيلة بنت مخزومة: "فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قَدْ أَمَرَ لَهُ بِمَا شُحِصَ بِي، وَهِيَ وَطَنِي وَدَارِي"<sup>(١)</sup>، ويقال دار المقام ودار الإقامة، وهو مستقر الإنسان من الأوطان، وعبر عنها القرآن الكريم بقوله سبحانه: "قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ الحشر: ٩، والدار تطلق على البلاد"<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ"<sup>(٣)</sup>؛ أي من شره (في دار المقامة) بضم الميم أي الوطن"<sup>(٤)</sup>. ومعنى الإقامة الاستقرار والثبات، وضدها التنقل والحركة والسفر، ومن آثارها الحكمية تشريع العزيمة للمقيم والرخصة للمتنقل؛ قال الباجي: "من أقام بموضعٍ مُدَّةَ الإِتِمَامِ فَهَلْ يَثْبُتُ فِي حَقِّهِ حُكْمُ الْوَطَنِ"<sup>(٥)</sup>.

ج - دار الأوبة والرجوع: قوله عليه الصلاة والسلام: "أَيُّونَ تَائِبُونَ"<sup>(٦)</sup>؛ أي راجعون إلى الله، وفيه إيهام معنى الرجوع إلى الوطن؛ يقال آب إلى الشيء أوبًا وإيابًا أي رجع"<sup>(٧)</sup>. ومنه أيضا التعبير بالمنقلب بصيغة المفعول مصدر ميمي؛ أي مكان الانقلاب والعود، وهو الذي تعوذ النبي ﷺ من سوئه بعد السفر. وقد قيل لأعرابي: "ما السرور؟ قال: أوبة بغير خيبة، وألفة بعد غيبة"<sup>(٨)</sup>.

- 
- ١- أخرجه: أبو داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب ما جاء في إقطاع الأرضين، حديث رقم: ٣٠٧٠، والبيهقي، كتاب إحياء الموات، باب ما لا يجوز إقطاعه من المعادن الظاهرة، حديث رقم: ١١٧٧٠، وحسنه الحافظ في الفتح، ٣ / ١٥٥.
  - ٢- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ٢٨ / ٨٩.
  - ٣- أخرجه ابن حبان، كتاب الرقائق، ذكر ما يستحب للمرء أن يتعوذ بالله جل وعلا، حديث رقم: ١٠٣٣، والحاكم وصححه، كتاب الدعاء، حديث رقم ١٩٥١.
  - ٤- المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، ١ / ٢٠٨.
  - ٥- الباجي، المنتقى، ١ / ٢٦٤.
  - ٦- أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا أراد سفرا أو رجع، حديث رقم: ٦٣٨٥، مسلم، كتاب الحج، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره، حديث رقم: ٤٢٨.
  - ٧- اللكنوي، التعليق الممجّد على موطأ محمد، ٢ / ٤٣٥.
  - ٨- الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، ٣٧.

د - محلل القرب: حديث: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدْرَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ رَأْسَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا، مِنْ حُبِّهَا"<sup>(١)</sup>، قال ابن الملقن: "فتضعيف الدعاء وتعجيل السير من أجل أن قرب الدار يجدد الشوق إلى الأحبة والأهل، ويولد الحنين إلى الوطن"<sup>(٢)</sup>. وفي الحديث دَلَالَةٌ عَلَى فَضْلِ الْمَدِينَةِ، وَعَلَى مَشْرُوعِيَّةِ حُبِّ الْوَطَنِ وَالْحَنِينِ إِلَيْهِ"<sup>(٣)</sup>.

٢- علاقة اختلاف:

أ- المهجر والمهاجر، والأصل من الهجرة، لغة: الترك والمفارقة والانتقال، والهجرة: تَرْكُ الْوَطَنِ وَالنُّهُوضُ إِلَى اللَّهِ وَمِنْهُ سُمِّيَ الْمُهَاجِرُونَ"<sup>(٤)</sup>، قال السندي، قوله: "جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الْهَجْرَةِ"<sup>(٥)</sup>، والهجرة: ترك الوطن، قال الحافظ: "وَأَصْلُ الْهَجْرَةِ هَجْرُ الْوَطَنِ"<sup>(٦)</sup>. وأن الهجرة تخدم ما كان قبلها لأنها مفارقة الوطن والأحباب"<sup>(٧)</sup>.

ب - المنفى أو الجلاء، قال عياض: "والجلاء بالفتح والمد: الانتقال عن الوطن، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الحشر ٣، والإجلاء على وزن إفعال، مصدر: أجلوا، ومن هذا سميت: الجالية، وجمعها الجوالي: لأنهم جلاوا عن أوطانهم"<sup>(٨)</sup>، وفي الحديث: "وَقَدْ رَأَيْتُ إِجْلَاءَهُمْ"<sup>(٩)</sup> يقال: جلا القوم عن مواضعهم جلاءً، وأجليتهم أنا إجلاءً وجلوتهم. وقال الهروي: يقال جلا عن وطنه، وأجلى وجلا

١- أخرجه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث، حديث رقم: ١٨٨٦.

٢- ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ١٢ / ٥٦٧.

٣- ابن حجر، فتح الباري، ٣ / ٦٢١.

٤- ابن عبد البر، الاستذكار، ٢ / ٩.

٥- أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم: ٣٩٢٣.

٦- ابن حجر، فتح الباري، ٧ / ٢٢٩.

٧- المناوي، فيض القدير، ٢ / ١٦٧.

٨- ابن المرزبان، تصحيح الفصيح وشرحه، ١٩٦.

٩- جزء من حديث مطول أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئتة أخرجتك، حديث رقم: ٢٧٣٠.



بمعنى واحد، والإجلاء: الإخراج من الوطن والمال على وجه الإزعاج والكراهة.

ج - الغربية والمغترب بالفتح؛ أي مكان الاغتراب، والغريب: "الوحيد الذي لا أهل له، والبعيد عن الوطن، والأقارب، والأنصار"<sup>(١)</sup>. وعن بعض الأدباء: الغربية ذلة؛ فإن أردفتها قلة، وأعقبتها علّة، فهي نفس مضمحلّة<sup>(٢)</sup>. وقد عبر عنه النبي عليه الصلاة والسلام في كثرة الاغتراب والسفر والظعن عن الوطن بالذي: "لَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ"<sup>(٣)</sup>.

د - الرباط: المقام بالثغر وهو غير الوطن؛ فإن كان وطنه فليس برباط، قاله مالك فيما نقله ابن حبيب<sup>(٤)</sup>.

٣. علاقة تداخل:

أ- البلاد، والتعبير بالبلد والبلاد وارد في السنة في غير ما موضع، ومنه ما رواه الشيخان من حديث ثمامة بن أثال وقوله للنبي - ﷺ: "وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ إِلَيَّ... الْحَدِيث"<sup>(٥)</sup>، وفي الحديث أيضا: "الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُ"<sup>(٦)</sup>.

ب - محل وموطن الرعاية، ومنه الراعي والرعية، ففي الحديث: "كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"<sup>(٧)</sup>، وهذا التعبير عن المواطنة هو من تعبيرات السنة النبوية، وهو

١- المناوي، الإتحافات السننية، ١٥٧.

٢- ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ١٥١.

٣- أخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، حديث رقم: ٣٦.

٤- الباجي، المنتقى، ١٦١ / ٣.

٥- أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب وفد بني حنيفة، حديث رقم: ٤٣٧٢، ومسلم، كتاب

الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، حديث رقم: ٥٩.

٦- أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، حديث رقم: ٦٥١٢، ومسلم، كتاب الجنائز،

باب ما جاء في مستريح ومستراح منه، حديث رقم: ٦١.

٧- أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث رقم: ٨٩٣، ومسلم، كتاب

الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، حديث رقم: ١٨٢٩.

المصطلح الشائع في مؤلفات العلماء المسلمين، وفي النصوص الإسلامية القديمة في هذا الموضوع<sup>(١)</sup>.

### الفرع الثاني: المشتقات

١- التوطن، ومعناه التمكين والتثبيت؛ ففي الحديث: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَافْتِرَاشِ السَّبْعِ، وَأَنْ يُوطَّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ أَوْ الْمَقَامَ كَمَا يُوطَّنُهُ الْبَعِيرُ"<sup>(٢)</sup>. "يُوطَّنُ" أَي: يُقَرَّرُ وَيُثَبَّتُ الْأَمْرَ، وَأَصْلُ التَّوْطِينِ جَعْلُ الْوَطَنِ لِأَحَدٍ"<sup>(٣)</sup>.

٢- الموطن: ومعناه المقام والمكان؛ وفي الحديث: "دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى شَابٍّ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: أَرْجُو اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ الَّذِي يَرْجُو وَأَمَّنَّهُ مِمَّا يَخَافُ"<sup>(٤)</sup>.

٣- التوطن واسم الفاعل منه الموطن، وقد تقدم معناه في اللغة، وفي الحديث: " لَا يُوطَّنُ الرَّجُلُ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ إِلَّا تَبَشَّشَ اللَّهُ بِهِ مِنْ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ كَمَا يَتَبَشَّشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِعَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ"<sup>(٥)</sup>. قال ابن حبان مُفصِّحاً في ترجمته عن سر الاشتقاق: "ذَكَرَ نَظْرَ اللَّهِ حَلَّ وَعَمَلًا بِالرَّفْقَةِ وَالرَّحْمَةِ إِلَى الْمَوْطِنِ الْمَكَانِ فِي الْمَسْجِدِ لِلْخَيْرِ وَالصَّلَاةِ" اهـ. فلاتخاذ المكان سُمِّيَ مَوْطِنًا، والفضل كله في اتخاذ المسجد موطنا.

١- محمد المبارك، نظام الإسلام، الحكم والدولة، ١٠٧.

٢- أخرجه ابن ماجه، كتاب الإقامة، باب ما جاء في توطن المكان في المسجد يصلى فيه، حديث رقم: ١٤٢٩، وابن خزيمة في صحيحه، باب النهي عن إيطان الرجل المكان في المسجد، حديث رقم: ١٣١٩، والحاكم في المستدرک وصححه ووافقه الذهبي، كتاب الصلاة، باب نهى النبي ﷺ عن نقرة الغراب، حديث رقم: ٨٣٣.

٣- القاري، المرقاة، ٨ / ٣٤٤٥.

٤- أخرجه الترمذي، كتاب الجنائز، حديث رقم: ٩٨٣، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت، حديث رقم: ٤٢٦١، وإسناده حسن.

٥- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٨٠٥١، وابن حبان، كتاب الصلاة، باب المساجد، حديث رقم: ١٦٠٧ وإسناده صحيح.

### المطلب الثالث: الضابطة الشرعية

مما تقصّده من البحث المصطلحي عن مصطلح الوطن في السنة النبوية تبين دليل المشروعية القاضي كذلك بطبيعة أحكام الإقامة بالأوطان، وهجرها، وهو مما لا يسع المجال لتفصيله لكن يتحصل التنبيه إليه بإزاء ما نحن ذاكروه. وأول النصوص في الباب ما ورد في حديث بدء نزول الوحي، وقوله عليه الصلاة والسلام لخديجة لما ذهب عنه الروح: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي"<sup>(١)</sup>، قال الحافظ: "وفي معناه اثني عشر قولاً ومنها، خوف مفارقة الوطن"<sup>(٢)</sup>. وحديث: "وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ"<sup>(٣)</sup>؛ يعدّ الأصل الأول واللباب في حب الأوطان والتعلق بها.

وأما حديث النبي ﷺ أنه: "كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدْرَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ رَأْسَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَكَهَا مِنْ حُبِّهَا"<sup>(٤)</sup>، ففيه دلالة كما سبق على مشروعية حب الوطن والحنين إليه.

ويمكن تبين طبيعة الأحكام الشرعية بخصوص اعتبار المواطنة والإقامة في الأوطان مما عده الشرع وسيلة إلى حفظ بيضة الدين والتزام وحدة الأمة، فتدرجت الأحكام بين الجواز والمنع اعتباراً أن للوسائل حكم المقاصد، ويمكن إجمال ذلك فيما يأتي:

١- ومثله ما ورد في حديث مجاشع بن مسعود أنه "أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِابْنِ أَخٍ لَهُ يُبَايِعُهُ عَلَى الْهَجْرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا، بَلْ يُبَايِعُ عَلَى الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّهُ لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَيَكُونُ مِنَ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ"<sup>(٥)</sup>، وفي الحديث ونحوه وهو كثير دليل على استحباب الإقامة، وكرهة الخروج من المواطن إلا لعذر.

٢- أن المَفَارَقَةَ للأوطان تكون بسبب نيّة خالصة لله تعالى كطلب العلم والفرار بالدين، أو للحج والعمرة، أو بسبب الجهاد في سبيل الله. قال التّوّي: "مَعْنَاهُ أَنَّ تَحْصِيلَ الْخَيْرِ بِسَبَبِ الْهَجْرَةِ

١- أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٣.

٢- ابن حجر، الفتح، ١/٢٤.

٣- سبق تخريجه.

٤- سبق تخريجه.

٥- أخرجه أحمد، حديث رقم: ١٥٨٤٧، بإسناد صحيح.

قَدْ انْقَطَعَ بِفَتْحِ مَكَّةَ، لَكِنْ حَصَّلُوهُ بِالْجِهَادِ وَالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، وَفِيهِ حَثٌ عَلَى نِيَّةِ الْخَيْرِ، وَأَنَّهُ يُثَابُ عَلَيْهَا، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ مَعَنَاهُ إِذَا طَلَبَكُمُ الْإِمَامُ لِلْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ فَاخْرُجُوا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ لَيْسَ بِفَرْضٍ عَيْنٍ، بَلْ هُوَ فَرْضٌ كِفَايَةٌ إِذَا فَعَلَهُ مَنْ يَحْصُلُ بِهِمُ الْكِفَايَةُ سَقَطَ الْخُرُجُ عَنِ الْبَاقِينَ، وَإِنْ تَرَكُوهُ كُلُّهُمْ أَتَمُّوا أَجْمَعِينَ<sup>(١)</sup>.

٣- عن عبد الله بن عمرو عن النبي -ﷺ- قال: " قَفَلَةٌ كَعَزْوَةٌ"<sup>(٢)</sup>؛ يستفاد من الحديث إرشاد النبي ﷺ إلى عدم مفارقة الأوطان إلا لعارض، وفي الإقامة خير؛ قال الخطابي: " هذا يجتمل وجهين: أحدهما: أن يكون أراد به الففول عن الغزو والرجوع إلى الوطن؛ يقول: إن أجزر المجاهد في انصرافه إلى أهله كأجزه في إقباله إلى الجهاد، وذلك لأن تجهيز الغازي يضرب بأهله، وفي قفوله إليهم إزالة الضرر عنهم واستحماماً للنفس، واستعداداً بالقوة للعود"<sup>(٣)</sup>.

٤- وعن أبي سعيد رضي الله عنه: "جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الهجرة، فقال: ويحك إن الهجرة شأنها شديد"<sup>(٤)</sup>؛ أي فأمره النبي -ﷺ- أمر إرشاد وتوجيه أن يصرف نظره عن الهجرة رفقا به، وشفقة عليه، لأن الهجرة أمر شاق عليه، لما فيها من مفارقة الوطن والأهل والأحباب.

٥- مقام المنع، وتحريم الوسائل أخف رتبة من تحريم المقاصد، ولذا منعت الإقامة إن كان في الأمر إضرار بالمقاصد، فكان المنع سدا للذريعة، واعتبارا لما هو أولى تحققه من مقاصد حفظ بيضة الدين.

وفي الباب دعاء النبي ﷺ: "اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ"<sup>(٥)</sup> بِتَرْكِ هِجْرَتِهِمْ وَرُجُوعِهِمْ عَنْ مُسْتَقِيمِ حَالِهِمْ، وَنَبِيٌّ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ إِلَى أَنْ فِيهِ سَدُّ الذَّرِيعَةِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ ذَلِكَ لِئَلَّا يَتَدَرَّعَ بِالْمَرَضِ أَحَدٌ لِأَجْلِ حُبِّ الْوَطَنِ<sup>(٦)</sup>. وكل ذلك من أجل إظهار شعائر الدين إذا لم

١- النووي، شرح صحيح مسلم، ١٣ / ٨.

٢- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٦٦٢٥، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب في فضل القفل في الغزو، حديث رقم: ٢٤٨٧.

٣- الخطابي، معالم السنن، ٢ / ٢٣٧.

٤- أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب زكاة الإبل، رقم الحديث: ١٤٥٢.

٥- أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم الحديث: ١٢٩٥، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم الحديث: ١٦٢٨.

٦- ابن عبد البر، التمهيد، ٨ / ٣٩١.

يأمن المسلم الفتنة على دينه، وخاف تضييع واجباته.

## المبحث الثاني: الأبعاد الاستقرائية لحتمية الانتساب الوطني في السنة النبوية

### المطلب الأول: المُسوِّغات

والقصد منها كل ما يحمل على ضرورة الانتساب، واحتملته معاني النصوص من أبعاد نفسية، أو عقدية أو اجتماعية وغيرها، ومنها:

١. **التعلق الوجداني:** استبطنت نصوص السنة النبوية معاني سامية في أحقية الانتساب الوطني وضرورته بوصفه من الفطر المركوزة والروابط اللصيقة بالمنشأ والمقام، وللدلالة على عمق الصلة وغورها انتسابا وانتماء، وهو ما انبنى عليه الفقه السياسي في استنباط ما يناسب وحدة المجتمعات وحفظ كيانتها، ولعل أسمى تنبيهه إلى أهمية هذا البعد الوجداني في قضية الانتساب هو ما اقتضاه فقه المفارقة وهجرة الأوطان في السنة النبوية ومدى ضبطه وإحكامه، بل لربما كانت التنبهات الأولى في حديث نزول الوحي حين قوله عليه الصلاة والسلام: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي" والذي تأوله العلماء باثني عشر قولاً، قال الحافظ - ويقصد معنى الخشية المذكورة - ومنها: مفارقة الوطن<sup>(١)</sup>. ثم يتأكد هذا المعنى بما نقله الحافظ عن السهيلي في انزعاجه عليه الصلاة والسلام لما علم من ورقة بن نوفل إخراج قومه له من بلده، قال: يُؤَخِّدُ مِنْهُ شِدَّةَ مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ عَلَى النَّفْسِ فَإِنَّهُ سَمِعَ قَوْلَ وَرَقَةَ أَنَّهُمْ يُؤَدُّونَهُ وَيُكَذِّبُونَهُ فَلَمْ يَظْهَرَ مِنْهُ انْزِعَاجٌ لِذَلِكَ، فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُ الْإِخْرَاجَ تَحَرَّكَتْ نَفْسُهُ لِذَلِكَ لِحُبِّ الْوَطَنِ وَإِلْفِهِ فَقَالَ: "أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟"<sup>(٢)</sup>.

ثم استعانة النبي ﷺ لشدة الخطب وهول المفارقة على النفوس بالدعاء عند قوله: (اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هَجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ)<sup>(٣)</sup> وقوله عليه الصلاة والسلام: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مَدَّنَا، وَصَحَّحْهَا لَنَا، وَأَنْقُلْ حُمَاهَا إِلَيَّ".

١- ابن حجر، الفتح، ٢٤/١.

٢- ابن حجر، الفتح، ٣٥٩/١٢.

٣- سبق تخريجه.

الجُحْفَةَ<sup>(١)</sup> إِبَانِ الهجرة له أكثر من اعتبار في الباب، بل فيه من الأصول: حماية الحماية ومنع كل وسيلة تفضي إلى البقاء لاعتباره الأصل الأول واللباب، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى قَطْعِ الذَّرَائِعِ فِي الْمُحَرَّمَاتِ فُرْجًا حَمَلَ الْبَعْضُ حُبَّ الْوَطَنِ عَلَى دَعْوَةِ الْمَرَضِ<sup>(٢)</sup>.

وما روي عن بلال في الباب أبلغ في الدلالة على معنى الوجد ولوعته في التعلق بالديار والآثار، بل هو سبب دعاء النبي ﷺ السابق، وقد روي قوله:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة  
بوادٍ وحولي إذ خمر وجليل  
وهل أردنّ يوماً مياه مجنّنة  
وهل يبدون لي شامة وطفيل

فكان أن فاض على الصحب الكرام الصبر والثبات فحُبِّ إليهم الوطن الجديد، وما زالت تعطف أهواؤهم على مواطنهم الأولى بانعطافها على الذكريات العزيزة، والمعاني السامية، التي اتصلت عندهم بتلك المجالي المحببة<sup>(٣)</sup>.

وأما ما ثبت من ترتيب الثواب على المفارقة والهجر للأوطان بدءاً بالهجرة، والجهاد، والفرار بالدين من الفتن، والمتابعة بين الحج والعمرة، وكذا الجد في طلب العلم لما فيه من النزوح والخروج عن البلد، وكلّ مفارقة بسبب نيّة صالحة، فأغلبه لعظم تلك الأعمال، ثم ترغيباً في الأجر لما عز على النفس مفارقة الأهل والديار، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -: "قَالَ: تَكْفَلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ

١- أخرج البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، حديث رقم: ١٨٨٩،

ومسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة، حديث رقم: ١٣٧٦.

٢- ابن عبد البر، التمهيد، ٨ / ٣٩١.

٣- ابن عاشور، محمد الفاضل، ومضات فكر، ٣٩٩. ولينظر مقاله البديع هناك حول سر الوطن العربي الأصلي في الآداب العربية المولدة، وكيف ارتبطت معاني المواطنة وقِيمِهَا بشعر الفتوح وطابعه الإقليمي باستحضار المواقع بتفاصيلها من الرمال والصخور والنبات والحيوان، إلى ما بعده عند شعراء القرن الثالث إلى حدود العصور المتأخرة، إذ لم يغب جمال المواطن عن مباني القصيد ولوازم الانسجام الفني والوجداني. وانظر، الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، ١١ فما بعدها.

إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ"<sup>(١)</sup>، وأحاديث كثيرة في الباب.

٢. **الانتماء العقدي:** استنادُ الوطنية بوصفها فرعاً إلى أصل العقيدة هو الضامن الوحيد لوحدها وبقائها ونفوذها، واستصلاح الخلق بتدبير أمرهم وجمع كلمتهم وصلاح حالهم ومعاشهم هو مقصد التشريع السياسي الجامع بين حراسة الدين والدنيا، ومن ثم فبناء الوطن ومبادئ الوطنية على هذا الأساس ضامن لصالح المواطن وكمال حاله، ومنشئ لنموذج نفسي ينبثق من روح الجماعة تبرز فيه العقيدة بالوطن والكيان. وتجسد هذا الأمر في الوظيفة النبوية قبل نشوء الدولة وبعدها، في بناء قيم المواطنة وإصلاح حال الرعية بتعليم العقيدة الصحيحة والتعاليم السمحة ونبذ كل أشكال الانحراف عقيدة وسلوكاً، و الأمر نفسه هذا حذوه الخلفاء من بعد النبي ﷺ، فعن عمر بن الخطاب قال: "إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم وقيموا بينكم دينكم"<sup>(٢)</sup>.

وقد ربط القرآن الكريم بين الدار والإيمان بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾، ووجه المزج بينهما كما ذهب إليه الرازي: أنهم جعلوا الإيمان مُستقراً ووطناً لهم لِمَتَمَكَّنَهُمْ مِنْهُ وَاسْتَقَامَتِهِمْ عَلَيْهِ"<sup>(٣)</sup>، فلم يراعوا وطنهم الترابي بقدر ما راعوا وطنهم الاعتقادي"<sup>(٤)</sup>، فيكون الإيمان مدعاة إلى التآلف والاتحاد حتى ليصح تسمية الدار به، والعكس صحيح. ولا ييناكُد أن الانتماء العقدي قاض على الانتماء الوطني، لذا عُدَّ خادماً ومكملاً له، ما لم يتعارضوا كالإخلال بالدين أو رفضه، أو الطعن في أصوله بأي وجه كان، وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا المعنى في التحفيز على الشح بالدين، بل جعله من الإيمان، حين قال: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدَّفَ فِي النَّارِ"<sup>(٥)</sup>، وقد عرض البيهقي في تفسير هذا المراد لقصة شعيب عليه السلام،

١- أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ "أحلَّتْ لَكُمْ الْغَنَائِمُ"، حديث رقم: ٣١٢٣، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم: ١٨٧٦.

٢- ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ٢١.

٣- الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٩ / ٥٠٨.

٤- الفاسي، علال، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ٢٢٣.

٥- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم: ١٦، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم: ٤٣.

ولها وجه تعلق بمرادنا، قال تعالى على لسان قومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَإِهْلِي قَوْمِ إِسْرَائِيلَ﴾<sup>(١)</sup>، فإنه أشار بقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إلى أنه قد فوّض أمره إلى الله تعالى، فإن عصمه من الجلاء عن الوطن فذلك فضله، وإن خلاهم وما يهْمون به من إخراجهم فالجلاء أحب إليه من مفارقة الدين، وهذا من الشح بالدين؛ لأن الله تعالى جعل الجلاء عن الوطن قرينة القتل<sup>(٢)</sup>.

قال الغزالي: "إذا كان النزوع عن الوطن أسلم للدين وأعون على العبادة فهو الأولى، وإلا فيأثر الوطن أولى، ومثله قاله جاز الله في تفسير الآية"<sup>(٣)</sup>.

فالمؤمن أبداً يحن إلى وطنه الأول<sup>(٤)</sup>، وهنا تلاقح العقيدة والسياسة، وارتباط الوطن بالإيمان، فلا يفترقان. وهذا يؤكد أن العقيدة الإسلامية ليست مجرد معنى "ميتافيزيقي" - كما يقال - يصرف المرء عن دنياه، وتدبير شؤون أمته، بل هي عنصر حيوي إيجابي فعال في صميم السياسة، توجيهها، وهيمنة، ورشداً، بل ومن أقوى عناصر "القوة" في الإسلام<sup>(٥)</sup>. ولذا لا محيد عن ربط الشخصية الإنسانية بمحيطها بل - إن صح القول - هو أنجع طريق إلى إثبات هويتها، هذا المحيط يمثل العقيدة الإسلامية بأبعادها الفكرية والسلوكية، ولا يمكن تجاهل عمق هذا الشوق الفطري

١- الأعراف: ٨٨.

٢- البيهقي، شعب الإيمان، ٣ / ١٦٧.

٣- الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير، ٤ / ٥٩٣.

٤- جامع العلوم والحكم: ٣ / ١١٢٧، وفي النسخة التي حققها محمد الأحمد أبو النور تعليقا على إضافة "وحب الوطن من الإيمان": وقد حذفته لعدم ورودها في النسخة الخطية؛ ولأن هذا الكلام غير مستقيم. ه قلت: بينما أثبتتها المحقق شعيب الأرنؤوط وغيره وتوجد في باقي النسخ، وليس في الأمر كبير اعتراض مالم يسند في نظري. انظر نسخة الأرنؤوط: ٢ / ٣٧٩.

ولو فرض وضعه فلا يخفى جواز روايته وقد جزم به غير واحد من الحفاظ، سيما إن كان له معنى حسن من أعلام النبوة، والأصول في مثله لا تدفعه، بل تصححه وتشهد له، وذكر هذا الشرط من جملة البيان كما قرر الحفاظ. انظر، ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣ / ١٣٤٣، ابن حجر، الإصابة، ٩ / ٣٩٩.

٥- الدريني، محمد فتحي، بحوث ودراسات في الفكر الإسلامي المعاصر، ١ / ٤٤١.



التلقائي إلى تلك العقيدة<sup>(١)</sup>.

- بل يؤكد ذلك عدم التنافي؛ إذ الانتماء العقدي مستوعب لكل الانتماءات الأخرى داخل الوطن الواحد، ما يضمن التعايش الحقيقي كما سيأتي بيانه.

**٣. الكيان المادي والمعنوي:** أما من جهة المعنى فالقصد الوحدة والاجتماع، وله مرجع إلى أعرق الأصول النفسية في الوحدة الدينية والوطنية وفي تمثل معاني الأمة الموحدة، في دعوة إبراهيم في بنيه: قال تعالى: ﴿فَجَعَلْ أَعْدَاءَ مَنِ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ إبراهيم ٣٧؛ إذ إن من ضروريات تحقيق الكيان تحقق الاجتماع، والانتساب إلى مواطنة أحق، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ الصَّلَاحِ فِي مُقَدِّمَتِهِ: "قَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا تَنَسَّبَ إِلَى قَبَائِلِهَا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَعَلَبَ عَلَيْهِمْ مَسْكُنَ الْقُرَى وَالْمَدَائِنِ حَدَثَ فِيمَا بَيْنَهُمُ الْإِنْتِسَابُ إِلَى الْأَوْطَانِ وَأَضَاعَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنْسَابَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ غَيْرُ الْإِنْتِسَابِ إِلَى الْأَوْطَانِ"<sup>(٢)</sup>.

ويشمل الجانب المادي في كيان المواطنة كل ما يصلح به حال الرعية من هذا الباب، وقد وضعت السنة النبوية دستوراً ونظاماً مالياً يحقق جودة الكفاية للفرد والمجتمع، وفي دعاء النبي ﷺ للمدينة إبان الهجرة ما يفيد التنبيه إلى مقصد الاستقرار المجتمعي بقوله عليه الصلاة والسلام: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا، وَصَحَّحْهَا لَنَا"<sup>(٣)</sup>، وهو الذي توخاه الماوردي من جملة القواعد التي تصلح بها الدنيا (الوطن والدولة): "وَأَمَّا الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: فَهِيَ خِصْبُ دَارٍ تَتَسَّعُ النَّفُوسُ بِهِ فِي الْأَحْوَالِ وَتَشْتَرِكُ فِيهِ ذُو الْإِكْثَارِ وَالْإِفْلَالِ. فَيَقِلُّ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ، وَيَنْتَفِي عَنْهُمْ تَبَاغُضُ الْعَدَمِ، وَتَتَسَّعُ النَّفُوسُ فِي التَّوَشُّعِ، وَتُكْثِرُ الْمُوَأَسَاةَ وَالتَّوَأَصْلَ. وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي لِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَأَنْتِظَامِ أَحْوَالِهَا، وَلِأَنَّ الْخِصْبَ يُثْوِلُ إِلَى الْغِنَى وَالْغِنَى يُورِثُ الْأَمَانَةَ وَالسَّخَاءَ."<sup>(٤)</sup>، ومن بديع ما يروى في الباب عن الأصمعي قَالَ: "سَمِعْتُ بَعْضَ الْأَعْرَابِ يَقُولُ: "الْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ، وَالْغِنَى

١- النهان محمد فاروق، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ١٨.

٢- عياض، ترتيب المدارك، ٢٣/١.

٣- سبق تخريجه

٤- الماوردي، أبو الحسن، أدب الدنيا والدين، ١٤٣.

في العُرْبَةِ وَطَنٌ<sup>(١)</sup>. وأنشد بعضهم خلافه<sup>(٢)</sup>:

لقرب الدار في الإقتار خير  
من العيش الموسّع في اغتراب  
وهذا النظام تحقق في إجماله في التشريع النبوي بتحديد الأجور والتوافق والرّضى في التأجير،  
وتحديد الأسعار ومنع الغش والاحتكار والاستغلال، وإيجاب العدل، والبذل، والصدق، والرشد  
في التصرف المالي<sup>(٣)</sup>.

### المطلب الثاني: المُحدّدات

الحديث عن محددات أحقية الانتساب الوطني وضرورته من خلال استقراء النصوص النبوية  
تأسيس لمبادئ المواطنة الصادقة من الوجهة العملية التنزيلية، وهي - أي المحددات - أهم حافز  
على تحقيق مقصد الحماية، وتفصيلها فيما يأتي:

١- **العدل والمساواة:** وكلاهما ينبثق من أصل الاعتقاد، والعدل عملياً تحقيق للمساواة بين  
الرعية في المعاملة، وتحقيقه في مبدأ المواطنة إقرار لمقصد إنسانية الإنسان.

ويروى عن عبد الله بن طاهر أنه قال يوماً لأبيه: كم تبقى هذه الدولة فينا وتبقى في بيتنا؟،  
قال: مادام بساط العدل والإنصاف مبسوطاً في هذه الإيوان<sup>(٤)</sup>. قال الماوردي: "فَأَدَبُ الشَّرِيعَةِ مَا  
أَدَى الْفُرْضَ، وَأَدَبُ السِّيَاسَةِ مَا عَمَّرَ الْأَرْضَ، وَكِلَاهُمَا يَرْجِعُ إِلَى الْعَدْلِ الَّذِي بِهِ سَلَامَةُ السُّلْطَانِ،  
وَعِمَارَةُ الْبُلْدَانِ؛ لِأَنَّ مَنْ تَرَكَ الْفُرْضَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَمَنْ حَرَبَ الْأَرْضَ فَقَدْ ظَلَمَ غَيْرَهُ"<sup>(٥)</sup>. وقد  
حفظت لنا السنة النبوية نماذج خالدة تقرر مبدأ العدل والمساواة قولاً وعملاً وتقريراً، فحين شفع  
أسامة بن زيد في المرأة المخزومية التي سرقت، وبنو مخزوم لهم وزهم الكبير في المجتمع، كان رد النبي  
ﷺ زاجراً صادداً عن تسرب نعمة الطائفية إلى المسلمين، وقد شهد قوله النبوي الشريف "وَأَمُّمُ اللَّهِ لَوْ

١- رواه الدينوري في المجالسة: ٣ / ٥٨، وابن الأعرابي في معجمه: ٢ / ٧٨٨

٢- ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ١٥١.

٣- انظر، قواعد التدبير المالي في السنة النبوية، بحث شارك به د عبد الله عبد المومن في ندوة الحديث  
الدولية السابعة: إدارة المال والأعمال في السنة النبوية.

٤- الغزالي، أبو حامد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ٧٧.

٥- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ١٣٤.

أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطْعَتْ يَدَهَا"<sup>(١)</sup>، سد هذا الباب وحسم ذرائعه، نفسه الذي تقرر في بناء المواطنة في دستور المدينة على المساواة في الحقوق المدنية بين المواطنين جميعهم، مسلمهم وغير مسلمهم، بل شدد النبي ﷺ في التحذير من إيذاء غير المسلمين، منها، قوله ﷺ: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِيحُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>، واتفقت كلمة الفقهاء على هذه القاعدة في معاملتهم: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"<sup>(٣)</sup>.

وعلى أساس العدل يسود الأمن ويزدهر المجتمع وتسود المصالح<sup>(٤)</sup>، ويتحقق مبدأ التعايش السلمي على "التوافق على أسس عامة تصبح عرفاً ثم تتحول إلى قانون، ويأتي الدين فيؤكد بعضها ويصلح الباقي"<sup>(٥)</sup>. وقد يعلم قبح الجور عقلاً وشرعاً فيجب اجتنابه، "والورع عنه لما فيه من اختلال الرعية، واضطراب الدولة، وخراب البلاد، وعذاب الآخرة"<sup>(٦)</sup>.

**٢ - الولاء السياسي:** ومنطلق هذا الباب من حديث النبي ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"<sup>(٧)</sup>، وإن كان اللفظ فيه عاماً لكنه ينصرف بالأولى إلى سياسة الدنيا والدين، وهذا لا يتأتى دون اعتماد نظام سياسي قائم بذاته يتفرع عنه جوهر المصالح الفردية والجماعية الخاصة والعامّة، عزاه التشريع السياسي إلى مهمة الإمامة القائمة على الاستخلاف الحقيقي في شؤون الرعية.

- ١- أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم: ٣٤٧٥، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، حديث رقم: ١٦٨٨.
- ٢- أخرجه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب تعشير أهل الذمة إذا احتلفوا بالتجارات، حديث رقم: ٣٠٤٥، وإسناده حسن.
- ٣- عتر، نور الدين، فكر المسلم وتحديات الألف الثالثة، ٢١٤.
- ٤- وقد جعل الماوردي من نتائج العدل تحقيق الأمن والخصب، ويكون من وجهين: خصب في المكاسب، وخصب في المواد، والأول متفرع عن الثاني. انظر أدب الدنيا والدين: ١٤٤.
- ٥- الفاسي، علال، دفاع عن الشريعة، ٤٣.
- ٦- ابن نصر، المنهج السلوك في سياسة الملوك، ٣٦٧.
- ٧- سبق تخريجه.

فالتلازم بهذا الموجب بين الراعي والرعية قائم على رعي المصالح، ولذا التأم من جزئيات التشريع في الباب القاعدة الفقهية المشتهرة: "تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة"، ونقل الزركشي بعد إيراد القاعدة كلام الشافعي رحمه الله: "منزلة الوالي من الرعية منزلة الوالي من اليتيم"<sup>(١)</sup>. وتحقق هذا الولاء في مبادئ الوطنية قائم على رعاية مصالح الداخل والخارج، وتحقيق ما به حفظ الدين وتدبير شؤون الخلق، وهو كفيل في مقابل ذلك بضمان حق الحياة، والتدين، والتملك، والكرامة، والحرية، ودرء كل المفسد المحدقة. ولذا، فمرتبة الوازع السلطاني في مقامات التشريع، وإن تبوأ الدرجة الثالثة بعد الجبلي والديني، فإن نفعه فيما يتعلق بالسيادة وإصلاح الرعية مما لا يخفى، وأصل هذا الاعتبار حسن السياسة والتدبير، ومن ثم نشأ وصف الرعاية وما تفرع عنه من التلازم بين الراعي والرعية، "فمتى كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهي المفسد عن فساده، ويتركه على مراده، أفسد في سائر بلاده"<sup>(٢)</sup>.

**٣. التعايش والتساكن:** ينبنى جوهر التعايش والتساكن في ظاهر الوجود على عنصرين مهمين: أولهما، إعمار الأكوان، والثاني، إسعاد الإنسان، وهو قائم في كل واقع على مراعاة الانتماء العقدي، وتقدير السمات والخصوصيات الدينية والثقافية، ونبد التعصب على سبيل القطع والإجمال. وكل هذا من جراء المحافظة على القيم وخلال الخير داخل المجتمعات وهو ما رسخه النبي ﷺ في أول خطاب نبوي مدني بعد الهجرة: "أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامًا، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ."<sup>(٣)</sup>

أصول المواطنة في دستور المدينة الذي مهّد لبنيان الدولة الإسلامية أقرت بمبدأ التعايش بين الناس جميعاً على أساس الوحدة الوطنية، مع احترام حرية الاعتقاد ونبد العصبية والكراهية، ففي الحديث: "مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً فَقُتِلَ فَقَتْلُهُ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى

١- الزركشي، المنشور في القواعد الفقهية، ١ / ٣٠٩.

٢- الغزالي، التبر المسبوك، ٥٠.

٣- أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب منه، حديث رقم: ٢٤٨٥، وقال: «هذا حديث صحيح».

أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَنْحَاشِي مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَنْفِي لِدِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ"<sup>(١)</sup>، وكان التفريق في ضمان حق التساكن بين أبناء الوطن الواحد على أساس مبدأ المواطنة فليس الذمي مثل المستأمن، لأن الأول من رعايا الدولة ومواطنيها بينما الثاني فوافد لظروف استثنائية، وليس هذا كذاك، لأن الأول والمواطن سواء.

وتحقق ذلك بجلاء في حرية التدين؛ فمنع النبي ﷺ التضييق على غير المسلمين من المواطنين، فلا يضارون فيما يعتقدون، "والقاعدة الفقهية التي حرص المسلمون على تنفيذها هي: "أنا أمرنا بتركهم وما يدينون"<sup>(٢)</sup>.

ومرد ذلك إلى أسس التشريع السياسي في الإسلام، وركائزه الإصلاحية التي قامت على أساس من "وحدة النوع الإنساني" لوحدة مصدره، ومن هنا اعتبر "الإنسان العام" في حد ذاته، وحيثما كان "قيمة كبرى"، بل ومن أجل القيم، فاستبعد - نتيجة ذلك - كل سياسة ترمي إلى القضاء على هذا الإنسان، وحقه في الحياة الحرة الكريمة، أو تحطيم بنيته المعنوية، جريا وراء تحقيق حلم عنصري، أو نزوعا إلى الاستعلاء والهيمنة الدولية، أو غير ذلك من البواعث غير الإنسانية"<sup>(٣)</sup>.

وقد أذخر تاريخنا ما لا يخفى تعداده من مظاهر التعايش والتساكن في وقت كانت المجتمعات الإسلامية أقدر على الاحتواء، والاستيعاب لعصبية متنافرة، وقوميات متباعدة، وأصول متضاربة.

### المطلب الثالث: الموجهات

إن السبيل إلى تحقيق مقصد الحماية مستند إلى موجهات كشفت عنها اللثام عن طريق تتبع ظواهر النصوص ومعانيها، وتدارستها من خلال أبعاد تأسيسية لمبدأ الوطنية وقيمها استوحياتها من دعاء النبي ﷺ في التأسيس للمجتمع الجديد بالمدينة، فاستبطن جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام وزخر بمعان سامية تمثلت في قوله: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ

١- أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم: ١٨٤٨.

٢- أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ١٨٤، وانظر عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، ٣٦.

٣- الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ١/ ١٣٨.

لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدُنَا، وَصَحَّحَهَا لَنَا، وَأَنْقَلُ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ"<sup>(١)</sup>، واحتوش البعد النفسي، ثم المعنى الاجتماعي والاقتصادي ويليه غيره من الأبعاد ذات التميز في البناء الوطني؛ إذ الدعاء بالقوة والصحة ودفع الأمراض والعلل عن المجتمع يستدعي كل مقومات التألق والترقي الحضاري المختزلة في جلب المصالح، ودرء المفاسد، وبتفسير أبين دفع كل الآفات الاجتماعية وغيرها، التي تعرض مصلحة الوطن للضرر، والضررُ يزال.

**١- البعد النفسي:** وأردت هنا تأكيد قيمة البعد النفسي في الانتساب الوطني، بعد الامتزاج بالأرض والكيان، ووكدت عن طريق الاستقراء حقائق عالية في الركون إلى التشبث بالموطن لما يخزنه من ارتياح وسكون نفسي باعث على التجذر والاستقرار، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ "بِاسْمِ اللَّهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا"<sup>(٢)</sup>؛ فعلى معنى عدم تخصيص التربة بالمدينة لبركتها والريق بشرف ريقه المبارك ﷺ، فإن معاني الانتساب حاصلة ومغاني الاستقرار متحصلة، ونفى جمع من العلماء تخصيص الحديث بالمدينة وهو رأي النووي وعباس وغيرهما، ونقل الحافظ عن القرطبي قوله: "وَأَمَّا وَضْعُ الإِصْبَعِ بِالأَرْضِ، فَلَعَلَّهُ لِحَاصِيَةِ فِي ذَلِكَ أَوْ لِحِكْمَةِ إِخْفَاءِ آثَارِ القُدْرَةِ بِمُبَاشَرَةِ الأَسْبَابِ المُعْتَادَةِ"<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر البيضاوي: "أن المباحث الطبية شهدت على أن تراب الوطن له تأثير في حفظ المزاج، ودفع نكايه المغيرات، ولهذا ذكر في تدبير المسافرين أن المسافر ينبغي أن يستصحب تراب أرضه، إن عجز عن استصحاب مائها..."<sup>(٤)</sup>، وتلك عادة العرب منذ القديم، وفيه أنشد بعضهم:  
ولا بد في أسفارنا من قبيصة  
من التراب نُسقاها لحب الموالد<sup>(٥)</sup>

١- سبق تخريجه.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب رقية النبي ﷺ، حديث رقم: ٥٧٤٥، ومسلم، كتاب السلام، باب

استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظر، حديث رقم: ٢١٩٤.

٣- ابن حجر، فتح الباري: ١٠ / ٢٠٨، عياض، إكمال المعلم، ٧ / ٩٥.

٤- البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، ١ / ٤٢٠.

٥- الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، ١٦. والقبيصة التراب المجموع وما تناولته أطراف الأصابع. الفيومي،

المصباح المنير، ٢ / ٤٨٧.

وقد استنبط بعض العلماء من جهة اللغة والمعنى بُعد الألم النفسي في فراق المواطن من خلال قوله عليه الصلاة والسلام لورقة مستنكرا: "أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟"<sup>(١)</sup>، والموضع الدال على تحريك النَّفْس وتحرقها إدخال الواو بعد ألف الاستفهام مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه، وذلك أن الواو ترد إلى الكلام المتقدم، وتشعر المخاطب بأن الاستفهام على جهة الإنكار أو التفجع لكلامه والتألم منه<sup>(٢)</sup>. ويظهر أن المفارقة في الحديث أشد على النفس من الإيذاء والتكذيب، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنها المقصودة من المؤازرة لأهل الكهف، قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الكهف: ١٤ - أي (ألمناهم صبرا) على هجر الوطن والأهل والمال، وغير ذلك.<sup>(٣)</sup>

- وقد أنشد القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي إثر خروجه من بغداد، وقد قاسى بين لوعة الفراق، وألم البقاء<sup>(٤)</sup>:

وقائلة: لو كان ودك صادقا  
لبغداد لم ترحل فكان جوايبا  
يقيم الرجال الموسرون بأرضهم  
وترمي النوى بالمغترين المراسيا  
وما هجروا أوطانهم عن ملالة  
ولكن حذاراً من شمات الأعدايا

قال ابن بطلال: "وقد جبل الله النفوس على حب الأوطان والحنين إليها، وفعل ذلك عليه السلام، وفيه أكرم الأسوة، وأمر أمته سرعة الرجوع إلى أهلهم عند انقضاء أسفارهم"<sup>(٥)</sup>.

**٢- البعد الاجتماعي:** أرست السنة النبوية دعائم المواطنة بالوحدة الاجتماعية المستندة إلى رعي الحقوق التي أقرها الشرع بناء على التكامل بين الراعي والرعية، وبين الرعية بعضهم بعضا، والذي لا يتحقق في جوهره إلا بالوظيفة الاجتماعية أو ما يوسم بالتكافل أو الإحسان الإلزامي، وتحقيق معنى المواطنة قائم على مدى الترابط بين الحقوق الفردية والمصالح الكبرى للمجتمع،

١- سبق تخريجه.

٢- أبو شامة، شرح الحديث المقتفى في بعثة النبي المصطفى، ١٦٣.

٣- الزحيلي، التفسير المنير، ١٥ / ٢١١.

٤- عياض، ترتيب المدارك، ٧ / ٢٢١.

٥- ابن بطلال، شرح البخاري، ٤ / ٤٥٣.

فاستيعاب التكامل بين العنصرين هو السبيل إلى رعاية "حق الغير من الفرد والمجتمع مما يتعين بالتالي على ذي الحق - بمقتضى هذا التشريع - أن يقيم التوازن بينهما في العمل والممارسة ما أمكن، أداء لهذه الوظيفة التي تتركز في المحافظة على الحقين معا، دون افتئات أحدهما على الآخر، عدلا ومصلحة"<sup>(١)</sup>. وهو الحافز على لزوم تلك الوظيفة التي تعدّ من أسس المواطنة وثوابتها، وقد ربطت السنة النبوية ضبط المصالح الآنية والعاجلة بالحوافز الأخروية الآجلة حتى يكون الإنسان المواطن على بصيرة من أمره في نشدان الصلاح والإصلاح، والأحاديث في الباب أكثر من أن تحصى، وأوسع من أن تستقصى، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّمَا أَهْلُ عَرَضَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمْ أَمْرٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرَّتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى"<sup>(٢)</sup>، وقوله أيضا: "مَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ"<sup>(٣)</sup>

كما أوكلت إلى الراعي جزءا من تلك الرعاية، ومن ثم وجب على الرعية أن يلتمسوا الحق من ولائهم وأن يعدلوا إليهم كما يرى الماوردي: "فَإِنَّ الْحَوَائِجَ عِنْدَهُمْ أَنْجَحُ وَهِيَ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ، وَهُمْ لِذَلِكَ مَنْدُوبُونَ، فَهُمْ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مُسَاوِيًا، وَلِيَصْبِرَنَّ عَلَى إِنْطَائِهِمْ فَإِنَّ تَرَكَمُ الْأُمُورِ عَلَيْهِمْ يَشْغَلُهُمْ إِلَّا عَنِ الْمُلْحِ الصَّبُورِ"<sup>(٤)</sup>. ويرى الغزالي أن "احتقار أرباب الحوائج، وغلغلق الأبواب دونهم، من أعظم الخطر، وقضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات"<sup>(٥)</sup>. بل مراعاة هذا الجانب أبلغ الأثر في حماية المجتمع من آفات التطرف والانحراف "بل تخفف حجمه إن وجد، وتعيد الثقة بين السلطة والمواطن، وتشجع نمو قيم اجتماعية سليمة"<sup>(٦)</sup>.

**٣- البعد الاقتصادي:** وطلب الصحة في الحديث باعث على القوة المجتمعية وآيل إلى القوة الاقتصادية، ولا يتحقق ذلك إلا بالعدل في الكسب والتوزيع، والخصب من أسباب الصلاح

١- الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ١ / ١٢٠.

٢- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٤٨٨٠، وإسناده صحيح.

٣- أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم: ٢٤٤٢، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨٠.

٤- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ٣٣١.

٥- الغزالي، التبر المسبوك، ٢٧، وانظر، ٥٤.

٦- النبهان، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ٧١.



وضده الجذب من أسباب الفساد، وقد يعمّان. وتحقيق التآلف بين القوتين هو في "تسخير الموارد المالية لتوفير ما تتطلبه المصالح العامة، والتوصل إلى ما تقضي به الوحدة الاجتماعية من التضامن والتعاون، وهي تتقبل رعاية كل المصالح التي تتفق وقواعد العدل"<sup>(١)</sup>.

وشأن قوة الاقتصاد في الدولة إنتاج قيم الاستقرار، وهو طريق الرقي والتمدّن، وقد استقر في مبادئ التشريع أن "الغاية من كل اجتماع تحقيق المصلحة والمنفعة للمجموع، وهي منفعة تعود على أكبر عدد في البناء الاجتماعي، بأكبر قدر ممكن"<sup>(٢)</sup>.

وتلك القوة تقوم على أساس حرية العمل والكسب، والتآزر والتعاون، وقد عدّ الإسلام الكسب والإنتاج قربة وصدقة، ففي الحديث: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَزْرَعُ زَرْعًا، أَوْ يَغْرِسُ غَرْسًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ"<sup>(٣)</sup>، وقد فسح الشرع المجال لحرية اختيار العمل دون تضيق وزرع نتائجه كذلك دون حجر، إلا إن تعارض مع المصلحة العامة. وعلى هذا الأساس منع الاحتكار والتسعير مطلقا، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: "لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ"<sup>(٤)</sup>. يقول أبو زهرة: "وفي ذلك الحديث الشريف تنبيه إلى أمور تعالج بها الأزمات الاقتصادية ومنها، منع الاحتكار ووضع عقاب رادع للمحتكرين"<sup>(٥)</sup>.

**٤. البعد التربوي:** إقامة بنية المواطنة الصادقة لا ينفك عن دور المواطن ذاته في تبني قيم المعرفة والتربية والتوعية والتعليم، وتجدر الإشارة إلى الأسس التربوية الأولى التي أرستها السنة النبوية لتعليم أبناء المسلمين وتوعيتهم في بدر، واقتضت ضرورته بأمر من النبي ﷺ أن يلزم الأسرى تعليم أبناء المسلمين مقابل فكاهم، ومن ثم تكون جيل المدينة الراشد على مبدأ المواطنة الواعية، وكان النبي ﷺ يأمر الولاة على الأمصار بتعليم الأبناء، وجميع الطبقات الأحرار والعبيد، ففي كتابه إلى عمرو بن حزم (ت ٥١ هـ) حين ولاه على نجران قال: "أمره أن يفقههم في الدين ويعلمهم

١- خلاف، السياسة الشرعية، ١٠٩.

٢- أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ٥٦.

٣- أخرجه أحمد، حديث رقم: ١٢٤٩٥، وإسناده صحيح.

٤- أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، حديث رقم: ١٦٠٥.

٥- أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ١٩٣.

القرآن" (١)، ويكاد يستقر عن طريق الاستقراء أن التعليم في المرحلة الأولى للبناء، كان:

- تعليماً إجبارياً، وتعليم الصبيان القرآن أصل من أصول الإسلام، فينشأون على الفطرة، ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة، وترسيخ هذا المبدأ كان عن طريق حافز القرب والفوز الأخرى.

- وتعليماً متنوعاً؛ أي متعدد التخصصات، وروي عن معاوية أنه كان في السمر يحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارهم، والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون، وقد وكلوا بقراءتها (٢).

- وتعليماً عاماً؛ استوى فيه الأحرار والعبيد، والمسلم والذمي، وقد نقل عن ابن بطال: أجاز أبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه تعليم الحربي والذمي القرآن والعلم والفقهاء رجاء إسلامهما اهـ (٣).

فهذا التعليم، وإن أحدث بوسائل وأدوات ابتدائية لكنها حققت في ظرف وجيز رقياً حضارياً، لم يكن بالحسبان؛ فالمدنية وأسباب الرقي الحقيقي، التي وصل إليها العصر النبوي الإسلامي في عشر سنوات، من حيث العلم، والكتابة، والتربية، وقوة الجامعة، وعظيم الاتحاد، وتنشيط الناشئة، وما قدر عليه رجال ذلك العهد الطاهر، وما أتوه من الأعمال واستولوا عليه من الممالك، وما بثوا من حسن الدعوة وبلغ الحكمة وتممكن الموعظة، لم تبلغها أمة من الأمم ولا دولة من الدول في مئات من السنين، بل جميع ما وجد من ذلك إلى هذا الحين عند سائر الأمم، كلها على مباني تلك الأسس الضخمة الإسلامية انتشأ (٤).

فأساس المواطنة الصالحة التعليم والتثقيف والتربية، حتى يتم بناء الإنسان الكامل القادر على العمل، والتعاون داخلياً، والحماية والذود خارجياً.

١- ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، ٢٥٨.

٢- الكتاني، التراتيب الإدارية: ٢ / ٢٩٦ ويقرر أن الواصل إلينا العلم به أدون مما كان موجوداً بمراحل كثيرة، وانظر عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، ٣٩.

٣- المصدر نفسه، ١٩٩/٢.

٤- الكتاني، التراتيب الإدارية، ١ / ١٣.

**٥. البعد الحضاري:** وهو أساس التواصل؛ وقد عبّر عنه الماوردي "بسعة النفوس في التوسّع، وتكثير المواصلات والتواصل"<sup>(١)</sup>، وهذا لعمرى من أسرار المواطنة الصالحة في اختراق الحدود وتوسيع مجالات النفع واعتبار الصالح العام، وهو أحد مسالك الرقي الحقيقي التي تُحقّق الوطنية في ظلّه مفهوم وحدة الأمة وسيادة حضارتها. وهذا بطبيعة الحال لا ينفك عن جوهر أخلاق الإسلام وقيمه العالية الباعثة على امتزاج قيم المواطنة بخلال الخير مما يؤسس لصدق الانتساب وجوهر الإيثار، وفي الحديث: "أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي لِلنَّبِيِّ ﷺ الْهَدِيَّةَ مِنَ الْبَادِيَةِ، فَبَجَّهَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُخْرَجَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتَنَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ.. الحديث"<sup>(٢)</sup>.

قال الطيبي: "(فَبَجَّهَهُ)؛ أي يعدّ ما يحتاج إليه في البادية من أمتعة البلدان. وقوله: ((إن زاهرا باديتنا ونحن حاضروه)) معناه: إنا نستفيد منه ما يستفيد الرجل من باديته من أنواع النباتات، ونحن نعدّ له ما يحتاج إليه من البلد"<sup>(٣)</sup>.

إن الحديث الشريف يستبطن في دلالاته معاني الانتساب الهادف وحقيقة الوحدة والالتئام وسمو التواصل الحضاري، يقول القاري: فصار المعنى كأنه باديته<sup>(٤)</sup>، وتعدّى النفع حدود المكان، فحصل امتزاج الوطنين.

فمناسبة أصل الخير وخالله كما قرر ابن خلدون لأصول العمل السياسي وما يتفرع عنه من الانتساب الوطني، باعثنان على تحقيق مقصد إنسانية الإنسان أو على حد قوله: أن خلال الخير في الإنسان هي التي تناسب السياسة<sup>(٥)</sup>، بل هي على حد - رأي ابن الأزرق - سبب وجود خلق السياسة فيه ودلالاتها عليه<sup>(٦)</sup>، والأمر سيان بالنسبة إلى الراعي والراعية.

١- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ١٤٣.

٢- أخرجه أحمد، حديث رقم: ١٢٦٤٨ وإسناده صحيح.

٣- الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن، ١٠ / ٣١٤١.

٤- القاري، المرقاة، ٧ / ٣٠٦٤.

٥- ابن خلدون، المقدمة، ١٧٨.

٦- ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ١٢٦.

### المبحث الثالث: مدارك مقصدية الحماية، وأقسامها

ابتغيتُ من خلال المباحثة عن دلالات مقصدية حماية الأوطان المزج بين المعاني المستقرأة والمفاهيم الحديثة المعاصرة في معالجة قضية الحماية للأوطان في بُعديها المادي والمعنوي، ولا أستقصي المثل من الحديث الشريف لتعذره، وإنما أستحضر مدركها وملاكها التام، وللباحث القياس عليه، مع إدراك الوجه الجامع.

#### المطلب الأول: المدارك المقصدية

١. الحماية من جهة الوجود: يُمكن اعتبار المواطنة والارتباط الذاتي الوجودي من مكونات الفطرة ومقتضيات التكليف الذي أرشد إلى مراعاة هذا الحق تحقيقاً لمقاصد الوجود الإنساني على وجه الأرض، إذ لا يمكن الانفكاك عنه والغاية من وجود الإنسان: العبادة والعمارة، وليس من سبيل إلى تحقيق تلك المقاصد دون توفر وسائلها، ومن ثم اقتضى الأمر استمدادا من مقتضيات الفطرة والتكليف ترسيخ هذا الحق الشرعي بالحفظ والصيانة والرعاية.

ومعنى الرعاية من جهة الوجود حفظ ضروريات المواطنة: الدين والنفس والعقل والنسل والمال، بغض النظر عن هوية المواطن ودينه، وهو بالنسبة للمسلم على المسلم أخرى وأولى، والأصل فيه حديث النبي ﷺ: "كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ وَعَرَضُهُ وَدَمُهُ"<sup>(١)</sup>.

وصون هذا الحق ثابت بالانتماء العقدي الذي قدمنا له ضمن ثوابت المواطنة، وكفالاته بتحقيق الاستقرار الروحي، والأمن النفسي والمعرفي، والقرار المادي والمعنوي، ويجمع فيه الكل بصدق الانتماء دون منازع، يقول الدكتور الدريني: "وكل أولئك حق مقرر مصون للمواطن في الدولة، مسلما كان أم غير مسلم، على السواء، أما بالنسبة إلى المسلم، فبإسلامه؛ إذ الإسلام هو مناط عصمته...، وأما المواطن غير المسلم، فإن عصمته ثابتة بالولاء السياسي الذي تستقر على مقتضاه مواظنته، وجنسيته الدائمة في الدولة"<sup>(٢)</sup>.

٢. الحماية من جهة العدم: وأساس هذا الأمر ما شرعته السنة النبوية من وجوب دفع

١- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، حديث رقم: ٢٥٦٤.

٢- الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ١/ ١٠٩.

الصائل وحماية الثغور وتشريع الجهاد إن دعت إليه ضرورة الاستغلال والاستيطان، وما توجب المقاومة والكفاح إلا بسبب بغية المستعمر والمستوطن "التحويل عن النموذج الوطني الذي لا يوافق على اقتباس إلا إذا كان متفقا مع مقياس العقيدة، لينتصر في النهاية الوطني على غيره"<sup>(١)</sup>.

وهو السر كذلك في باب العقوبات في تشريع التغريب، والنفي عن الأوطان، حتى تظهر توبة الجاني وكل من يخشى فساد، وتشريعه من أجل حماية البلاد من المفاصد الواقعة والمتوقعة، قال الحافظ: "وَحَقِيقَةُ النَّفْيِ الْإِخْرَاجُ مِنَ الْبَلَدِ"، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: - "يَكْفِيهِ مُفَارَقَةُ الْوَطَنِ وَالْعَشِيرَةِ حَذْلَانَا وَذَلَا"<sup>(٢)</sup>.

كل ما من هذا القبيل فالقصد منه الحماية ليس إلا، قال الحافظ العراقي تعليقا على قصة المخنث الذي كان يدخل على النساء ويصفهن وصفا دقيقا والذي قال عنه النَّبِيُّ - ﷺ - "أَلَا أَرَى هَذَا يَعْرِفُ مَا هَاهُنَا، لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَجَبُوهُ"<sup>(٣)</sup>: "فِيهِ جَوَازُ الْعُقُوبَةِ بِالنَّفْيِ عَنِ الْوَطَنِ لِمَنْ يُخَافُ مِنْهُ الْفَسَادُ وَالْفِسْقُ"<sup>(٤)</sup>.

### المطلب الثاني: مقاصد أصلية

١- ترسيخ الوحدة الوطنية: والأصل وحدة الأمة؛ قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ في شق العصا ومخالفة الكلمة<sup>(٥)</sup>. قال البقاعي: "أمة واحدة لا شتات فيها أصلا فما دامت موحدّة فهي مرضية"<sup>(٦)</sup>.

"فالوحدة لا تقبل التجزؤ، ولأنها أمة واحدة كما لا يقبل الحق التعدد، وهذا لا يُناكده ما يمليه اصطلاح الدولة كيانا يحفظ الوحدة ويلمّ الشعث، دون المبالغة في الاعتداد بمفهوم الشخصية

١- الفاسي، علال، دفاع عن الشريعة: ٣٥، وانظر ص ٤٧.

٢- ابن حجر، فتح الباري، ١٢ / ١١٠.

٣- أخرجه مسلم، كتاب السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء، حديث رقم: ٢١٨١.

٤- العراقي، زين الدين، طرح الشريب في شرح التقريب، ٨ / ١١٧.

٥- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ١ / ١٥٨.

٦- البقاعي، نظم الدرر، ٥ / ٢٠٧.

المعنوية بشكل مطلق؛ لأنها لا تعدو محض افتراض قانوني، ومن ثم فالمسلم أن "لفظ الأمة أعم من الدولة، ولأنه لا يتصور دولة بدون أمة"<sup>(١)</sup>.

تبقى السيادة للشريعة -إذًا- مع قبول التعدد؛ فوحدة الأمة لا تنفي التعددية في إطار الوحدة، مع مراعاة مبدأ الإمامة الخاصة، والتنظيم الجماعي، والشورى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"<sup>(٢)</sup>.

والحق في ديننا العظيم أنه قد التحم المعنى الديني والاجتماعي وتمازجا تمازجا تاما مما جعل المجتمعات على تعددها لا تخرج عن الصبغة الدينية، ويكاد يجمع علماء الاجتماع على أن أقوى المجتمعات المجتمع الديني. فالعامل الاعتقادي هو الذي تنبعث منه الوحدات الاجتماعية. فإن سلمنا بذلك ضاق مسار الخلاف، وأقف عند حديث عظيم أخرجه الترمذي تتألف فيه معاني الوحدة في الإسلام ويستحق التوقف: عَنْ سَلْمَانَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " يَا سَلْمَانُ، لَا تَبْغِضْنِي فُتْفَارِقَ دِينِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ أَبْغُضُكَ وَبِكَ هَدَانِي اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -؟ قَالَ: " تَبْغِضُ الْعَرَبَ فَتَبْغِضُنِي"<sup>(٣)</sup>. فهذه وحدة نسبية اعتبرها الشرع لأنها تخدم الجامعة الكبرى، وقد ذهب بعض المعاصرين إلى تعريف الوحدة الوطنية "بذلك النسيج الاجتماعي الصحيح القوي الذي يجمع أبناء وطن واحد على اختلاف انتماءاتهم بلا فتن طائفية أو نعرات قبلية، مقدمين المصلحة العليا للوطن على مصالحهم الخاصة"<sup>(٤)</sup>، وهذا الذي نتغياه.

إن حقيقة الوحدة مع صدق المواطنة معنى متجذر في نصوص الشريعة ومقاصدها، ولا يتوصل إلى تحقيق معاني الأخوة الإيمانية والتي جعلها الشارع من المقاصد الكبرى إلا بهما، وقد

---

١- الفاسي، علال، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ٢٢٢، الكتاني، محمد، من تساؤلات عصرنا، ١٤٢، ١٤٤. ويقرر في نفس السياق أن مفهوم الشعب يعني مجتمعا متجانسا يمارس وجوده السياسي والاجتماعي في تفاعل مع محيطه، ومفهوم الأمة يعني الهوية الجامعة للشعب عندما يتجانس تجانسا تاما.

٢- عبد المومن، عبد الله، رؤى معرفية في الأصول والمقاصد، ٢٠٧.

٣- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٢٣٧٣١، والترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل العرب، حديث رقم: ٣٩٢٧ وإسناده ضعيف

٤- وصفي عاشور أبو زيد، الوحدة الوطنية في الإسلام، ٤١.

أسند الفقه هذا المعنى، قال التجموعتي المالكي: "كلما كانت الجماعة أوفر وأكثر، كان الخير أشمل وأظهر"<sup>(١)</sup>، وهذا من تأسيس المالكية لكرهية تعدد الجماعة في مسجد الإمام الراتب حرصا على الوحدة في الصلاة، ويقاس عليه لجامع الوحدة.

وقصة أبي ذر مع عثمان، حين أمره بالخروج من المدينة من هذا الباب في حماية الوحدة ولمّ الشعث، وقوله ﷺ مؤذن بذلك: "فإن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدا حبشيا مجذع الأطراف"<sup>(٢)</sup>، وفي القصة كما قرر الحافظ: "جواز الاختلاف في الاجتهاد. والأخذ بالشدّة في الأمر بالمعروف، وإن أدى ذلك إلى فراق الوطن وتقدّم دفع المفسدة على جلب المصلحة لأنّ في بقاء أبي ذر بالمدينة مصلحة كبيرة من بث علمه في طالب العلم ومع ذلك فرجع عند عثمان دفع ما يتوقع من المفسدة من الأخذ بمذهبه الشديد"<sup>(٣)</sup>.

**٢- تثبيت القيم الوطنية:** إن التمكين الأخلاقي في النفوس والمجتمعات هو المقصد الأسمى من الاجتماع، وكل ما ثبت استقراره بالفطر السليمة إلا وانعكس على الطبع والغير والزمان والمكان، وكل مصر يشرف بأهله وبقيمهم.

وقد نهت السنة النبوية إلى هذا المعنى بما يناسب التوطين القيمي، وإن ناسب الاستعمال اللفظي فلبعده الأخلاقي، ففي حديث حذيفة مرفوعا: " لا تكونوا إمعة؛ تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم؛ إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا"<sup>(٤)</sup>.

إن المقصود الأصلي من ترك الوطن هو ترك المعاصي، وترك المعاصي خير من ترك

١- التجموعتي المالكي، إرشاد المرید السالك إلى من يقتدى به من إمامي الجماعتين في المسجد المحمدي على مذهب الإمام مالك، ورقة ١ مخطوط خاص.

٢- أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها، حديث رقم: ٦٤٨.

٣- ابن حجر، فتح الباري، ٣/ ٢٧٥.

٤- أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الإحسان والعفو، حديث رقم: ٢٠٠٧، وقال حديث حسن.

الوطن<sup>(١)</sup>. مصداقا للحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْهَجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْ تَهْجَرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ"<sup>(٢)</sup>، وعكسه الإقامة والمكث فيه على مبدأ الكرامة وتحقيق مبادئ الحق والعدل، فالكرامة الإنسانية أساس المواطنة، وإلا فقد منع الإسلام حق العيش القائم على الهوان، قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَلِكُمْ﴾ محمد: ٣٥.

وللمواطنة ارتباط وثيق بقيم المجتمعات ودستورها الأخلاقي، ولذا كانت قيمها مقصدا لذاته يتوسل إليه لرعاية وجودها وسيادتها، وقد نبهت السنة إلى هذه الحقيقة في الوصل والفصل بين المواطن ومواطنيها ومدى التفاعل القيمي بينهما، فقد أخرج أحمد عن النبي ﷺ، قال: "مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا عِنْدَ مَوْطِنٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرِضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرِضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ"<sup>(٣)</sup>.

ولذا وجب التناصح ما أمكن، ونشر قيم الخير والبر والصلة، ونبذ الفساد والإفساد، "وما تفرقت الجماعات إلا بسيادة الرذيلة في مجموعها، وعموم الظلم لربوعها، والأخلاق الفاضلة الأساس الأول لبناء المجتمع، ومن ثم فلا بد من تعاون المجتمع في محاربة الآفات الخلقية والاجتماعية، فعلى الرشيد أن يهدي الضال، وعلى العالم أن يبين للجاهل"<sup>(٤)</sup>.

**٣- إقرار السيادة الوطنية:** لا تتحقق الوحدة الوطنية دون سيادة مستمدة من التشريع نظراً وعملاً، وهي سيادة يرى الغزالي أنها مستمدة من الإيمان، وأنها لا تتحقق إلا بكماله، وصدق الاستخلاف والأمن إنما يكون مع سياسة السلطان. "فيجب على السلطان أن يعمل بالسياسة وأن يكون مع السياسة عادلاً لأن السلطان خليفة الله ويجب أن تكون هيئته بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كانوا بعيداً"<sup>(٥)</sup>.

١- السندي، حاشية على النسائي، ٧ / ١٤٤.

٢- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٦٨١٣، وإسناده صحيح.

٣- أخرجه أحمد، حديث رقم: ١٦٣٦٨، وإسناده ضعيف.

٤- أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ٢٤.

٥- الغزالي، التبر المسبوك، ٦٢، الفاسي، علال، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ٢٢١.



عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "بَشَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالنَّصْرِ وَالسَّنَاءِ وَالتَّمَكِينِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلًا لِذُنُوبِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ." (١).

ولا تنفك سيادة الأمم أيضا عن تاريخها وعراقتها، ولذا تسود بالحضارة المنبثقة عن عقيدتها وأصالتها، ولما كانت الجذور امتدادا حيويا ولازما لإبراز السمات الحضارية، كان من غير الطبيعي إغفال الجذور والامتدادات في صناعة السيادة الممتدة عبر التاريخ، وليست السيادة مجرد شعار وإنما هي ممارسة، وقدرة تفاوضية للدفاع عن الحقوق والمصالح (٢)، وتشمل سيادة الدولة في الداخل والخارج، ما يأتي: "ففي الداخل بسُلطاناً قاهرٌ تتألفُ مِنْ رَهْبَتِهِ الْأَهْوَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَتَجْتَمِعُ لِهَيْبَتِهِ الْقُلُوبُ الْمُتَفَرِّقَةُ، وَتَكْفُ بِسَطْوَتِهِ الْأَيْدِي الْمُتَعَالِبَةُ، وَتَمْتَنِعُ مِنْ خَوْفِهِ الثُّفُوسُ الْعَادِيَةُ؛ لِأَنَّ فِي طِبَاعِ النَّاسِ مِنْ حُبِّ الْمُعَالَبَةِ عَلَى مَا آثَرُوهُ وَالْقَهْرِ لِمَنْ عَانَدُوهُ، مَا لَا يَنْكُفُونَ عَنْهُ إِلَّا بِمَنْعِ قَوِيٍّ، وَرَادِعِ مَلِيٍّ" (٣). وفي الخارج في حماية البيضة بالذب عن الحوزة لِيَتَّصِرَفَ النَّاسُ فِي الْمَعَايِشِ وَيَتَنَشَّرُوا فِي الْأَسْفَارِ آمِنِينَ" (٤).

**٤- تعميم الدفاع الوطني:** إن مقصد الدفاع نابع من أصل الوطن نفسه؛ إذ الاصطلاح يصدق كما سبقت الإشارة إلى التوطين والتمكن وفيه ما لا يخفى من المدافعة، واستعمال السنة لهذا المعنى مؤكد له، ولنا الشاهد من حديث يأجوج ومأجوج وفيه وصف المسلمين بعد خروجهم وأخذهم بالعذاب كالجراد: "فَيَنْزِلُ مِنْهُمْ رَجُلٌ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوهُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى، فَيُنَادِيهِمْ: أَلَا أَبْشَرُوا، فَقَدْ هَلَكَ عَدُوُّكُمْ!" (٥).

وقد أقرت السنة مبدأ الدفاع عن الحوزة والثغور تفعيلا لحماية الدين وحراسة الأوطان، وهذا الباب وإن كان متفرعا عن تشريع الجهاد، لكن يختص إلى حد ما بما تمليه روح المواطنة من البناء

- ١- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٢١٢٢٢، وابن حبان، كتاب البر والإحسان، باب ذكر وصف إشراك المرء بالله جل وعلا في عمله، حديث رقم: ٤٠٥، وإسناده حسن.
- ٢- النهان، محمد فاروق، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ١٠٧، ١٠٨.
- ٣- الماوردي، أبو الحسن، أدب الدنيا والدين، ١٣٤.
- ٤- الماوردي، أبو الحسن، الأحكام السلطانية، ٤٠.
- ٥- أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، حديث رقم: ٤٠٧٩، وإسناده حسن.

المادي والإعداد الروحي للتعليق بالكيان ودار المقام والانتساب، وقد ورد من الأحاديث الدالة على هذا المعنى ما يثمن قضية الإعداد الوطني للدفاع والحماية، وهذا النفس في المواطنة يقتضي التشاور ووحدة الكلمة، ومعرفة حقيقة الضرر المحدث بوحدة الأمة وكان النبي ﷺ يخاطب الصحابة على التكرار دون المرة: "أشيروا علي أيها الناس" (١)، وكان هذا التوصيف البارع في كلام رسل المقوقس سجلا خالدا في تاريخ الإسلام: "أميرهم كواحد منهم" (٢).

أما أنه يقتضي أيضا استصحاب الخبرة العلمية والمعرفية في الإعداد والصناعة والتجهيز، حتى تكون العدة وطنية حقيقة، ففي معجم الطبراني عن عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة، عن أبيه، عن جده، قال: "أنهر رسول الله - ﷺ - رجلاً معه قوس فارسية فقال: أطرحها ثم أشار إلى القوس العربية وقال بهذه وبرمح القنا يمكن لكم في البلاد وينصركم على عدوكم" (٣).

قال السندي: قوله: "قوس عربية" ما يرمى بها النبل، وهو السهام العربية، والفارسي ما يرمى به نحو البندق. "القنا" جمع قناة، وهي الرمح (٤).

وعلى حد تعبير شوقي أبو خليل بنعته بال سلاح الوطني، فلما تحترزه الدلالة من مقصدية الانتماء القائمة على المحاماة والمدافعة ما أمكن، ولذا عدّه من مقومات النصر الكبرى (٥).

أما أنه ليس بغريب، والعبرة بالمآل أنه وكلما كان الدفاع من أجل القضية وتحقق بإزائه القصد إلى إعلاء كلمة الله ونصرة دينه بمحض الانتماء العقدي فلا ضير أن يتحصل النصر من الله لمن جاهد من أجل ذلك، والاستشهاد كذلك لمن قتل في سبيله، فالدفاع أداة حماية الحياة، وملاكها الدين، ولا ريب. ويعد نفي ذلك لأن العبرة في مثل هذه المواطن بالمعاني لا بالألفاظ، والوقوف عند الظواهر حائل دون درك الأسرار وخبر السرائر، "فلقد قاومت البلاد الإسلامية الاستعمار

١- البيهقي، دلائل النبوة، ٣ / ٣٤.

٢- الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، ٢ / ٣٣٠.

٣- أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم: ٣٥١، والبيهقي، كتاب السبق والرمي، باب التحريض على الرمي، حديث رقم: ١٩٧٣٤، قال الهيثمي في «المجموع» ٥ / ٢٦٧: في إسناد مساتير لم يضعفوا ولم يوثقوا. فالحديث روي بأسانيد ضعيفة، أوقفها هذا على توجيه الهيثمي.

٤- السندي، حاشية على ابن ماجه، ٢ / ١٨٨.

٥- شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، ٢٢.

والاحتلال بعبارات الجهاد والاستشهاد، ورفعت شعارات الإسلام لإيقاظ المشاعر الوطنية والشعور بالذات المتميزة<sup>(١)</sup>. فلا خلاف اعتبارا للمقاصد أن يسمى من يقتل من أجل ذلك شهيدا، لأن الإيمان مقترن بالوطنية تلازما، وإذا تحصل الانتماء العقدي كما أسلفنا فلا عبرة بالعبرة إن صدق القصد، وهذا على خلاف من قال من العلماء المعاصرين: الذي يقتل من أجل الدفاع عن الوطن - فقط - ليس بشهيد. والواجب علينا ونحن مسلمون وفي بلد إسلامي - والله الحمد - ونسأل الله أن يثبتنا على ذلك، الواجب أن نقاتل من أجل الإسلام في بلادنا، وإذا قتل وهو يدافع بهذه النية فليس بشهيد<sup>(٢)</sup>. وقال في موضع: نرجو منكم أن تنبهوا على هذه المسألة؛ لأننا نرى في الجرائد والصحف: الوطن! الوطن! الوطن! وليس فيها ذكر للإسلام، هذا نقص عظيم، يجب أن توجه الأمة إلى النهج والمسلك الصحيح<sup>(٣)</sup>.

والصحيح أن دفاع المواطنين عن الأرض دفاع عن الانتماء والدين، "بل على الأفراد منهم حماية الأرض والدفاع عنها وهو فرض ديني عليهم، لوجوب سكنى دار الإسلام على المسلم"<sup>(٤)</sup> إلا لعراض خوف الفتنة على الدين، ونفس الأمر في الإقامة بغيرها.

### المطلب الثالث: مقاصد تبعية

١. حماية الذاكرة الوطنية: لا يستثني تكامل المشروع الحضاري الإسلامي من خلال نظرتة الشمولية وخصائصه الواقعية استلهاهم العناية بالذاكرة والموروث الحضاري المستمد من "العقيدة منطلقا، والتشريع نظاما، والأخلاق سلوكية، والتاريخ تجربة حية مؤثرة"<sup>(٥)</sup>، وليكتمل بوصفه حلقة في البناء الحضاري فيوسم بالتراث أو الذاكرة الوطنية ولا مشاحة في الاصطلاح، وهو مما وجبت حمايته ورعايته، لكونه جزءا من الشخصية، ثم لارتباطه الوثيق بالعقيدة، والثقافة، والأرض.

١- النهان، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ٤٣.

٢- العثيمين، شرح رياض الصالحين، ١/٦٦.

٣- النهان، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ١/٦٩.

٤- محمد المبارك، نظام الإسلام، ١٣٦، وانظر، عبد العزيز بن الصديق، حكم الإقامة ببلاد الكفار وبيان وجوبها في بعض الأحوال، ٢٦، ٢٧.

٥- النهان، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ١٣.

تلك الذاكرة بمفهومها الشمولي "تجسد كل أنواع الموروث الفكري والثقافي والمواقف والتاريخ والأحداث والمواقع وما تحتضنه من كلمات وعبارات وأمثال وقصص وأساطير"<sup>(١)</sup>، وما تعتر به الشخصية من أجماد وتاريخ وحركات وآثار بوصفها امتدادا إنسانيا، كل ذلك من مقومات الهوية الذاتية التي اعتدّ بها التشريع الإسلامي أسسا ثابتا في صرح بناء الشخصية المسلمة، وهي كالعقيدة واللغة لتكاملهما في تعزيز الانتماء الحقيقي. ولذا اقتضى الأمر حماية الذاكرة والموروث أصولا وفروعا، وقد نبهت السنة إلى حفظ أصول ومصادر المعرفة الإسلامية والذود عنها، "بل لا يستبعد جواز الحجر في مواطن الشُّبه؛ إذ كلما خيف على عقول الناس من زعزعة معارفهم أو حتى التطبيع ولو بالمناقشة والجدل مع أهل الشبهات، أو التعرّيج على مصادرهم وأصولهم إلا وكفي الأمر بالحجر والمقاطعة، وذكر الأمر بما فيه حتى يعرفه الناس، وهو منهج الصحابة رضي الله عنهم في التحصين المعرفي وقطع الشُّبه، بل الأصل فيه نعت النبي صلى الله عليه وسلم الوارد عليها بالتهوُّك - أي التحير والالتباس - عند الاطلاع، أو حتى الدنوّ من كل ما يُشوّش مع وجود المشرب الصحيح والمُحجّة البيضاء، ومثله ضربُ عمر صبيغا لمجرد السؤال، واستفسار عائشة السائلة عن انتسابها للحرورية، وموقف عثمان مع أبي ذر، واستقصاؤه يطول"<sup>(٢)</sup>.

ولا يُنأكد في الباب التسليم بالتعددية الثقافية في المجتمع الواحد ما لم يقع التشويش على أصول المعارف، فلا تزال الهوية تمانع وتدافع حتى تقوى بنفسها، ومن ثم قد يتحصل الحوار والتلاقح الهادف، بل قد يعد ذلك من سمات الثراء الحضاري.

**٢. استتباب الأمن الوطني:** إن استلهاهم منزع الوطنية من البعد النفسي والتعلق الوجداني كما أسلفت باعث ابتداء على استيحاء معاني الاستقرار والتساكن، فلا خلاف أنه كلما سكنت النفوس واطمأنت إلا وتحقق الاستقرار والأمن، والفرق بين استتباب الأمن وتعميم الدفاع - وهو

١- المصدر نفسه: ١٢.

٢- عبد المومن، عبد الله، نبذ التعصب والعنف من خلال علوم السنة ومناهجها، ٨. وحديث جابر أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَغَضِبَ، وَقَالَ: «أَمْتَهُوْكَونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَفِيَّةٍ لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فَتُكْذِبُوا بِهِ أَوْ بِيَاظِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي» (رواه أحمد حديث رقم: ١٥١٥٦ بإسناد ضعيف).

الذي أسلفت - من أجل التنبيه فقط إلى الحماية الداخلية والخارجية.

ولا يقصُر الحديثُ هنا على الأمن الحسي دون المعنوي، بل لربما الثاني أؤكد من الأول، وسبيل تحقيقهما في الوطن الآمن بما يُجمله تكاثف المقاصد الأكيدة التي سبق التنبيه إليها بدءاً بالوحدة الوطنية ثم السيادة ثم القيم ثم تحقق الدفاع عن تلك المعاني، لكن طرق تنزيله قائمة على مراعاة جانب من الأهمية بمكان، وهو الأمن المعرفي أو الأمن الثقافي، وتقديمه من باب أولويته في درء تشويش الفكر قبل السلوك، والفكرة أول العمل، وقد نهت إلى تأصيله في السنة النبوية بنهي النبي ﷺ عن كل ما يحمل على اضطراب الفكر وقد تقدم التنبيه على بعضه، وقد ارتضى علماء السلف هذا المنهج وتابعهم من بعدهم في الصدّ عن متابعة دواوين مشتهرة، لما تستبطنه من التشويش على عقائد الناس وزعزعة معارفهم<sup>(١)</sup>.

وهذا ما يؤكد الإبقاء على الخصوصية الثقافية التي تؤمن المحافظة على الموروث والالتزام بالقيم الوطنية والإنسانية معاً، "فإن تحقق ذلك من الناس تداول المعارف ما لم يعتزها التعصب والهوى، وهما حائلان دون تحصيل ذلك، ولذا استصحبهما فساد الغاية وفتح الفكر وترويع الرأي ولو على حساب المعارف. وقد ذكر ابن العربي في تفسير آية الحراية: أن الحراية تكون بالاعتقاد الفاسد وقد تكون بالمعصية فيجازى يمثلها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (٢٧٦) البقرة: ٢٧٩

أما الأمن الفردي والجماعي فشرط تحقيقه العدل، قال ابن عاشور: "فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي: العدل، والعزة، والرخاء إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة، فلا يختل الأمن إلا إذا احتلت الثلاثة الأول، وإذا احتل احتلت الثلاثة الأخيرة"<sup>(٢)</sup>.

١- وتواردت إثر ذلك فتاوى فقهية، انظر بعضها في المعيار المعرب: ٤٥٦/٢. وانظر، في الموقف من شبهات الكلام والجدل بين القبول والردّ دراسة حول «تجديد مباحث أصول الدين بين المدارس والممارسة» د عبد الله عبد المومن: ٥٦٠. مجلة الجامعة عدد خاص بمؤتمر التجديد والاستجابة لروح العصر. دائرة الوقف السني، كلية الإمام الأعظم بغداد ٢٠١٥م.

٢- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٧١٥/١.

٣. توسيع مجال الخدمة الوطنية: إن إقرار التشريع الإسلامي لمبدأ التعاون داخل نظام الوحدة والاجتماع، من أبين سمات الخدمة الواجبة بالكل لا بالجزء على الرعاية تجاه المجتمع، لاستكمال دورهم العضوي في استكمال بنيانه وتحقيق سيادته ووجوده، والقصد هنا بالخدمة ما كان ماديا واجتماعيا أما ما يتعلق بالحماية والدفاع، فذاك في نظري محله الحقوق والواجبات، وسيأتي. وقد راعت السنة النبوية محيط الاجتماع وفضاءه وأثره في تحقيق الخدمة بين أبنائه، ففي الحديث: "المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، يَسْعُهُمَا المَاءُ وَالشَّجَرُ، وَيَتَعَاوَنَانِ عَلَى الفِتَانِ" (١). قال الخطابي: "وقوله يسعهما الماء والشجر يأمرهما بحسن المجاورة وبينهما عن سوء المشاركة، وقوله: ويتعاونان على الفتان، يقال معناه الشيطان الذي يفتن الناس عن دينهم ويضلهم، ويروى الفتان بضم الفاء وهو: جماعة الفاتن كما قالوا كاهن وكهان" (٢).

واستكمال هذا الدور على وجه التحقيق لا يتأتى إلا بالإيثار والتنازل عن الحقوق خدمة للمجموع، وقد بينته السنة بجلاء في قول النبي ﷺ في غير ما حديث، ومنه: "مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ. قَالَ الراوي: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ مَا ذَكَرَ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ" (٣).

ومن القواعد التربوية وتنزيلها على حرمة الأوطان أكد: حفظ الحرمة يُقَابَلُ بكرم الخدمة (٤)، وهي ناشئة - أي تلك الخدمة - عن الالتزام بالتعاون المادي والتعاطف الأخوي والمحبة الواصلة، "وكل مجتمع منظم يسوده التعاطف والتضامن، ويعمه الرضا والأمن والطمأنينة، وتتقدم فيه الحضارة والبناء وتشمله العدالة الاجتماعية، إلا ويحظى بتحييد الإنسان واحترامه" (٥).

٤- ترسيخ مبدأ الحقوق الوطنية: ارتباط الحقوق بالموطن والمقام هو من باب رعايته وحفظ حرمة، وتوطين النفوس والمجتمعات لا يتأتى إلا بأداء الحقوق وقد ورد استعمال اللفظ في السنة

١- أخرجه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جاء في إقطاع الأرضين، حديث رقم: ٣٠٧٠،

قال الهيثمي في المجمع: ٦ / ١١ رواه الطبراني ورجاله ثقات.

٢- الخطابي، معالم السنن، ٣ / ٤٥.

٣- أخرجه مسلم، كتاب، باب استحباب المواساة بفضول المال، حديث رقم: ١٧٢٨.

٤- زروق، عدة المرید الصادق، ٤٤٣.

٥- الفاسي، غلال، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ١٩٥.

النبوية بما يناسب إبراء الذمة، ففي حديث جابر وقد وُقي بما كان عليه من دين لغرماء والده، بين يدي النبي ﷺ: " وَقَدْ وَطَّئْتُ نَفْسِي أَنْ أَشْتَرِيَهُمْ مِنْ الْعَجْوَةِ أَوْ فِيهِمْ الْعَجْوَةَ الَّذِي عَلَى أَبِي فَأَوْفَيْتُهُمْ " (١) ...

لقد نشأت فكرة الحقوق مع نشأة الدولة الإسلامية، ويعد تصرف النبي ﷺ والخلفاء الراشدين مع قضية التعليم وقد سبق بيانها، وقضية الاستحقاقات كمسألة الغنائم وتميز العطاء اقترانا بامتيازات المواطنة من هذا القبيل، حيث اعتمد مبدأ المساواة في تداول الحقوق دون اعتبارات كثيرة، نحو السبق في الإسلام أو البلاء في الحرب أو غير ذلك، الأمر نفسه في المهمات الكبرى، مثل: شؤون المالية، والخراج، وتنظيمات الدولة المتعددة. و الأمر نفسه في حق الاعتقاد والرأي وحق التعبير وحق التنظيم سيما إذا اقترنت الحقوق بالعدل؛ فمبادئ المواطنة الحققة أثبتت هذه الحقوق، وما قول عمر في قضية المغالاة في المهور: "أصابت امرأة وأخطأ عمر" (٢) إلا من هذا الباب، وغير ذلك من المواقف كثير. فحقوق المواطنة لصيقة بتطبيق العدل، ومن ثم فلا مجال لحقوقها مع الظلم والاستغلال والفقر وما إليه، والتشريع الإسلامي حاصر تلك المظاهر الهدامة بما لا يُحصَر من الأحكام والقوانين. ومن ثم، خلص الأمر في "جميع الحقوق على تعددها إلى انبائها على أمرين: الأول، الحرية الشخصية، والثاني، المساواة بين الأفراد" (٣).

هذا الذي للمواطن، أما الذي عليه فأولاه صدق المواطنة وتحقيق معنى العهد والاستخلاف، وهو باعث على حفظ حمى الوطن من جهة الوجود والعدم وقد تقدم، ثم المحافظة على الوحدة وقد سلفت معانيها، وتجليه عمليا في التخلق بالتربية الوطنية وقيم الخير وخلالها، فإن الإثم مفرق، والخير جامع موحد.

١- أخرجه أحمد، حديث رقم: ١٥٠٠٥، وإسناده صحيح.

٢- ابن كثير، مسند الفاروق، ٢ / ٥٧٣.

٣- خلاف عبد الوهاب، السياسة الشرعية، ٣٠.

## الخاتمة والتوصيات:

- إن الذي ينتهي إليه مسار المباحثة في هذا الموضوع هو توكيد مدى استيعاب مدارك التشريع النبوي لقضايا الحياة والإحياء، والبناء والإنماء، التي لربما في هذا المنحى بالذات لم تستقصها قرائح الألباب ولم تحط بها مدارك الباحثين والكتاب، وأقصد على وجه التفصيل دون الإجمال، وكان - والحق يقال - لندوة الحديث الشريف السبق المبارك في استثارة همم البحث واستنهاضها للتعلم أكثر في مقارنة مثل هذه القضايا الرئيسية، التي إن ارتبطت بفقهاء التشريع السياسي في حفظ الوحدة والكيان، فهي تمت بصلات إلى كل مجالات التشريع؛ إذ لا تستقيم الحياة دون بساط الاجتماع، وضرورات الانتفاع؛ فلا يمكن الحديث عن أمة أو وحدة دون أرض أو وطن، ولذا كان الامتزاج بينهما أمرا طبيعيا، والاندفاع إلى التشبث بهما مطلبا عاطفيا حيويا.

ويجمل ختاماً سرد توصيات البحث بناء على عمق معاناة مع فكرته، وطريقة تدبير منهجه، ومنها:

١. محاولة استثمار أفكار البحث الرئيسية والفرعية في إعادة صياغة منظومة تربوية متكاملة تؤسس لجيل وطني، يتسلح بالمعرفة قبل العاطفة، معرفة بقضايا الملحة وهويته الثابتة، فالوحدة الوطنية والسيادة والقيم والذاكرة... وما إلى ذلك، كلها تحتاج إلى تفصيل بحثي يُبنى على ما قدمناه، ويضاف إليه.
٢. ينبغي تجاوز مراعاة الظواهر والألفاظ في القضايا المصيرية ذات البعد الوجودي والكوني، التي لداعي الفطرة الأثر البارز في نسج فصولها، والتشريع مؤيد لكليها وجزئها؛ فمصطلح الوطنية، ومشتقاته، والدفاع ومرادفاته، كلها ترتبط بقضية العقيدة والانتماء، فلا ينبغي الحجر عليها ولا التقليل من قيمتها؛ إذ الأجيال الناشئة تربّت على الالتزام بها، واستعمال الناس حجة، وفي الممانعة تشكيك في قيمتها، والعبرة بالمقاصد لا بالألفاظ.
٣. الحرص على توجيه مثل هذه الأفكار إلى الجهات المشرفة على تربية الناشئة، وتلقين معاني الانتماء وحتمية الانتساب ربطاً بالأصول التشريعية في مجالس الدرس والتحصيل، حتى ننشئ جيلاً وطنياً ملتزماً وملتحمًا.



٤. التربية النبوية على المواطنة أبلغ عنوان لحوار وطني ومشروع حضاري يهتم شرائح مجتمعية مختلفة في مجالات معرفية متباينة، من أجل التوعية بقيمة سنة نبينا عليه الصلاة والسلام في حل آفات الواقع، ومعالجة جل النوازل والوقائع، وهو من البلاغ المبين الذي تفتقر الأمم في واقعنا إليه.

والحمد لله رب العالمين.

## لائحة المصادر والمراجع

- أحمد زروق، عدة المرید الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق القصد وذكر حوادث الوقت، إعداد: إدريس عزوزي، طبعة وزارة الأوقاف المغربية: ١٤١٩، ١٩٨٩.
- أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت.
- إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.
- أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩.
- إبراهيم محمد بن إسماعيل الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير، الرياض، مكتبة دار السلام، ١٤٣٢هـ.
- أبو بكر أحمد الحسين البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.
- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ.
- أبو بكر محمد بن إسحاق، ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، المكتب الإسلامي، بيروت.
- أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، شعب الإيمان، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ.
- تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم، ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ.
- التجموعتي المالكي، إرشاد المرید السالك إلى من يقتدى به من إمامي الجماعتين في المسجد المحمدي على مذهب الإمام مالك، ورقة ١ مخطوط خاص.
- جمال الدين بن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر. ١٤١٤هـ.
- أبو الحسن نور الدين السندي، حاشية على سنن النسائي، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦هـ.
- أبو الحسن نور الدين السندي، حاشية على سنن ابن ماجه، بيروت، دار الجليل.
- أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.
- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، التبر المسوك في نصيحة الملوك، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ.
- أبو الحسن علي بن خلف، ابن بطلال، شرح صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ.
- أبو الحسن علي بن سلطان القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢هـ.
- أبو حفص عمر بن علي، ابن الملتن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، دمشق، دار النوادر، ١٤٢٩هـ.

## الوطن والوطنية في السنة النبوية: حتمية الانتساب ومقصدية الحماية...

- أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، التعليق الممجد على موطأ محمد، دمشق، دار القلم، ١٤٢٦هـ.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- أبو حاتم محمد بن حبان البستي، صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ.
- أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.
- أبو الحسن نور الدين الميثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٤١٤هـ.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، بيروت، المكتبة العصرية.
- أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ.
- زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، جامع العلوم والحكم، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ.
- أبو زكرياء محي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ.
- زين الدين محمد المناوي، الإتحافات السنوية بالأحاديث القدسية، دمشق، دار ابن كثير.
- زين الدين محمد المناوي، فيض القدير القدير شرح الجامع الصغير، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٦هـ.
- زين الدين محمد المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، الرياض، مكتبة الإمام الشافعي، ١٤٠٨هـ.
- أبو سليمان الخطابي، معالم السنن، حلب، المطبعة العلمية، ١٣٥١هـ.
- شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر بيروت، ط: ٢٠٠٢م.
- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن، مكة المكرمة، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- علال الفاسي، دفاع عن الشريعة، مطبعة الرسالة، الرباط، ط ٤، ١٩٩٩م.
- عبد الله عبد المومن، نبذ التعصب والعنف من خلال علوم السنة ومناهجها، جامعة محمد الخامس أبو ظبي، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.
- عبد الله عبد المومن، رؤى معرفية في الأصول والمقاصد، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، مطبعة المعارف، ١٤٣٦هـ.

- أبو عبد الله محمد بن علي بن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، العراق، وزارة الإعلام.
- أبو عبد الله بدر الدين الزركشي، المنشور في القواعد الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، ١٤٠٥ هـ.
- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي، مفاتيح الغيب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ هـ.
- أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، المغرب، وزارة الأوقاف، ١٣٨٧ هـ.
- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن، مكة المكرمة، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، إكمال المعلم بفوائد مسلم، مصر، دار الوفاء، ١٤١٩ هـ.
- أبو عبد الله الحاكم، المستدرک على الصحيحين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١ هـ.
- أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري، الاستذكار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٦ هـ.
- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجه، السنن، دار الرسالة العلمية، ١٤٣٠ هـ.
- علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ.
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، دار ومكتبة الهلال، د.ت.
- أبو عبد الله محمد ابن مالك، الألفية، دار التعاون.
- أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري، الدرر في اختصار المغازي والسير، القاهرة، دار المعارف، ١٤٠٣ هـ.
- أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، المحمدية، مطبعة فضالة.
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، القاهرة، دار الحديث، ١٤١٦ هـ.
- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، السنن، مصر، مكتبة مصطفى الحلبي، ١٣٩٥ هـ.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، ١٤٢٢ هـ.
- أبو عثمان الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م.
- علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مسند مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقواله على

- أبواب العلم، المنصورة، دار الوفاء، ١٤١١هـ.
- أبو الفضل زين الدين العراقي، زين الدين، طرح التثريب في شرح التقريب، دار إحياء التراث العربي.
- أبو الفضل محمد بن محمد الملقب بمرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، د.ت.
- أبو القاسم شهاب عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي أبو شامة، شرح الحديث المفتى في مبعث النبي المصطفى، الشارقة، مكتبة العمرين العلمية، ١٤٢٠هـ.
- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د.ت.
- محمد المبارك، نظام الإسلام، الحكم والدولة، دار الفكر، الطبعة الرابعة: ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، د.ت.
- محمد فاروق النبهان، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، دار القلم العربي، دار الرفاعي للنشر، ط١، ١٤٢٥، ٢٠٠٤.
- محمد فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، دار قتيبة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- محمد الفاضل بن عاشور، ومضات فكر، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م.
- محمد بن صالح بن محمد العثيمين، شرح رياض الصالحين، الرياض، دار الوطن، ١٤٢٦هـ.
- أبو محمد عبد الله بن جعفر ابن المرزبان، تصحيح الفصيح وشرحه، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٩هـ.
- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية، ١٩٨٤م.
- نور الدين عتر، فكر المسلم وتحديات الألف الثالثة، دار الرؤية، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م.
- ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.
- القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، الكويت، وزارة الأوقاف، ١٤٣٣هـ.
- أبو النجيب عبد الرحمن بن نصر جلال الدين العدوي، المنهج المسلوک في سياسة الملوك، الزرقاء، مكتبة المنار.
- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ.

- وصفي عاشور أبو زيد، الوحدة الوطنية في الإسلام: مفهوما، ضوابطها، مقاصدها، القاهرة، دار المقاصد، ١٤٣٧هـ.

- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دمشق، دار الفكر المعاصر، ١٤١٨هـ.

- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، المنتقى شرح الموطأ، مصر، مطبعة السعادة، ١٣٣٢هـ.

#### المجلات والدوريات:

- مجلة الجامعة عدد خاص بمؤتمر التجديد والاستجابة لروح العصر. دائرة الوقف السني، كلية الإمام الأعظم بغداد ٢٠١٥م.

- مجلة المورد العراق، مج ع ١، ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، تحقيق: جليل العطية.

أُسُسُ حِمَايَةِ الْوَطَنِ، وَمُقَوِّمَاتُهَا  
فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ

الدكتور / أيمن جبرين جويلس  
وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية  
كلية الشريعة - جامعة الخليل







## مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالوطن مهبط الحنان الفطري للإنسان، ورمز الانتماء الغريزي للمكان، وآية الانتماء العاطفي للهوية، في الوطن يأمن الإنسان على دينه ونفسه وفكره وعقله وعرضه ونسله وماله، في أحضانها ينمو ويشب ويشيب الإنسان عزيزاً كريماً مطمئناً في مسكنه، شامخاً في عرينه، مستقرّاً في منبته، متقلّباً في نعيم ربوعه.

الوطن للإنسان كالأم لأبنائها، تحنُّ عليهم وإن جاروا، تضمّمهم وإن جهلوا، تشتاق إليهم وإن غابوا، تحتضنهم وإن سفهوا، الوطن للمواطنين ديوان يجمعهم، وكيان يوحدهم، ومنارة تهديهم، وملاذ يحميهم، وعنوان يقوِّبهم، وبوصلة ترشدهم.

ولهذا حظي الاهتمام بالوطن بمكانة مميزة في الفكر الإسلامي؛ في القرآن الكريم والسنة المشرفة. وبما أن السنة النبوية تمثل الممارسة الفعلية لهدي القرآن، فقد وجدنا دعوة نبوية صريحة للاهتمام بالأوطان ووجوب الدفاع عنها، وتأمين كل السبل الداخلية والخارجية لحماية الوطن.

وهذه الكنوز النبوية تحتاج إلى جهودٍ علمية لاستخراجها وفهمها وتنزيلها على الواقع، بما يحقق مقاصد الشريعة في نظرتها إلى الوطن، ويسقط عنها التأويلات الجاهلة أو الجائرة التي تقلل من شأن الأوطان.

وعلى الرغم من أهمية الموضوع إلا أن الدراسات الشرعية حوله قليلة، ما يجعل الكتابة فيه أمراً في غاية الأهمية.

## أهمية الموضوع:

١- إظهار دور السنة النبوية في الاهتمام بالوطن: حفظاً وتمكيناً ورفعة، حماية وتنمية وتقوية.

٣- التعرف على مقاصد الشريعة في حفظ الأوطان.

٤- تنفيذ دعاوى أعداء الدين وجهلة المسلمين في عدم الاهتمام بالأوطان.

**مشكلة البحث:** تكمن مشكلة البحث في الوصول إلى منظومة متكاملة من مقومات حماية الوطن في السنة النبوية، ومحاولة تنزيل نصوصها على الواقع المعاصر، واستنباط المقومات الداخلية والخارجية لحماية الوطن من هاتيك النصوص، وبيان مدى انطباق التشريعات الإسلامية المتعلقة بحماية كيان الأمة الإسلامية على كيان الوطن.

### الدراسات السابقة:

١- بحث بعنوان: "المواطنة من منظور الشريعة الإسلامية"<sup>(١)</sup>، ماهر ذيب أبو شاويش، ركّز فيه على مفهوم المواطنة والحقوق والواجبات ولم يستعرض فيه مقومات حماية الوطن داخلياً وخارجياً من خلال السنة النبوية.

٢- بحث بعنوان: "حقوق المواطنة وواجباتها في ضوء القرآن والسنة"، إعداد: أ. د. حسن السيد خطاب، جامعة المنوفية، مصر، ركّز فيه على مفهوم المواطنة وحقوقها وواجباتها دون الدخول في تفاصيل أسس حماية الوطن من خلال السنة النبوية.

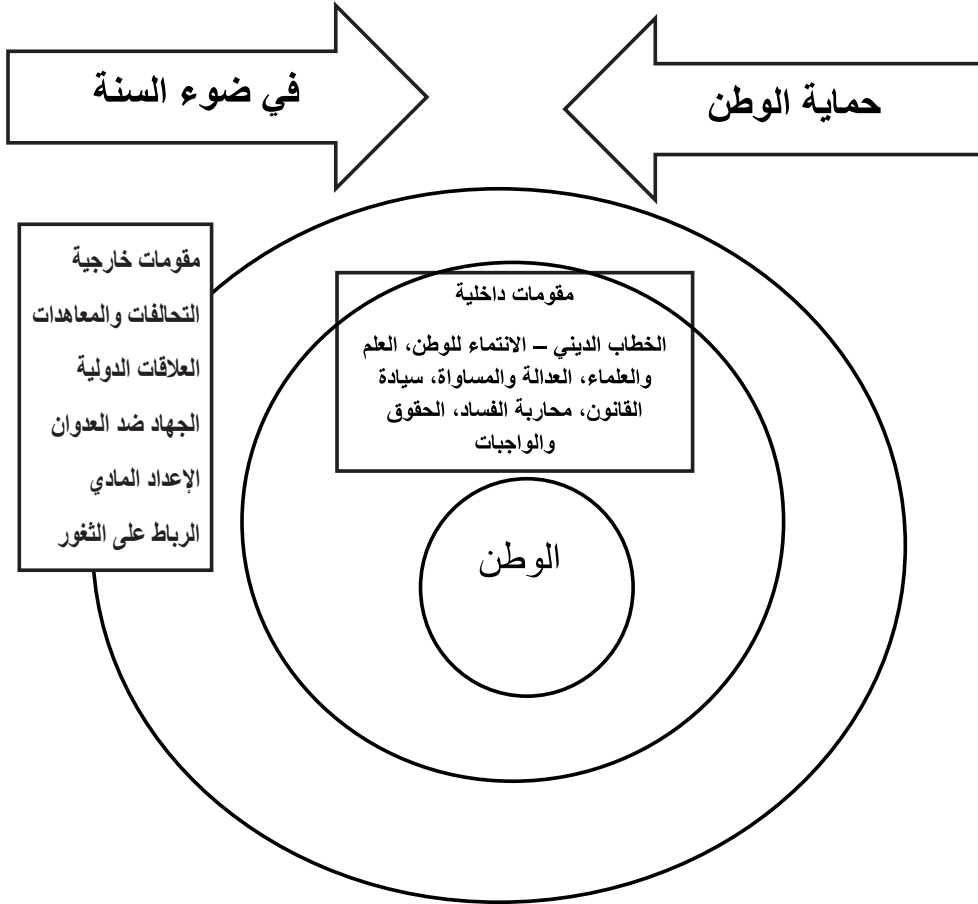
ولهذا كانت الإضافة البحثية في هذا البحث عرض أسس حماية الوطن داخلياً وخارجياً بما يحقق مقصود الشارع في حماية الوطن من أي خطر داخلي أو خارجي وكل ذلك من خلال السنة النبوية.

### منهجية البحث:

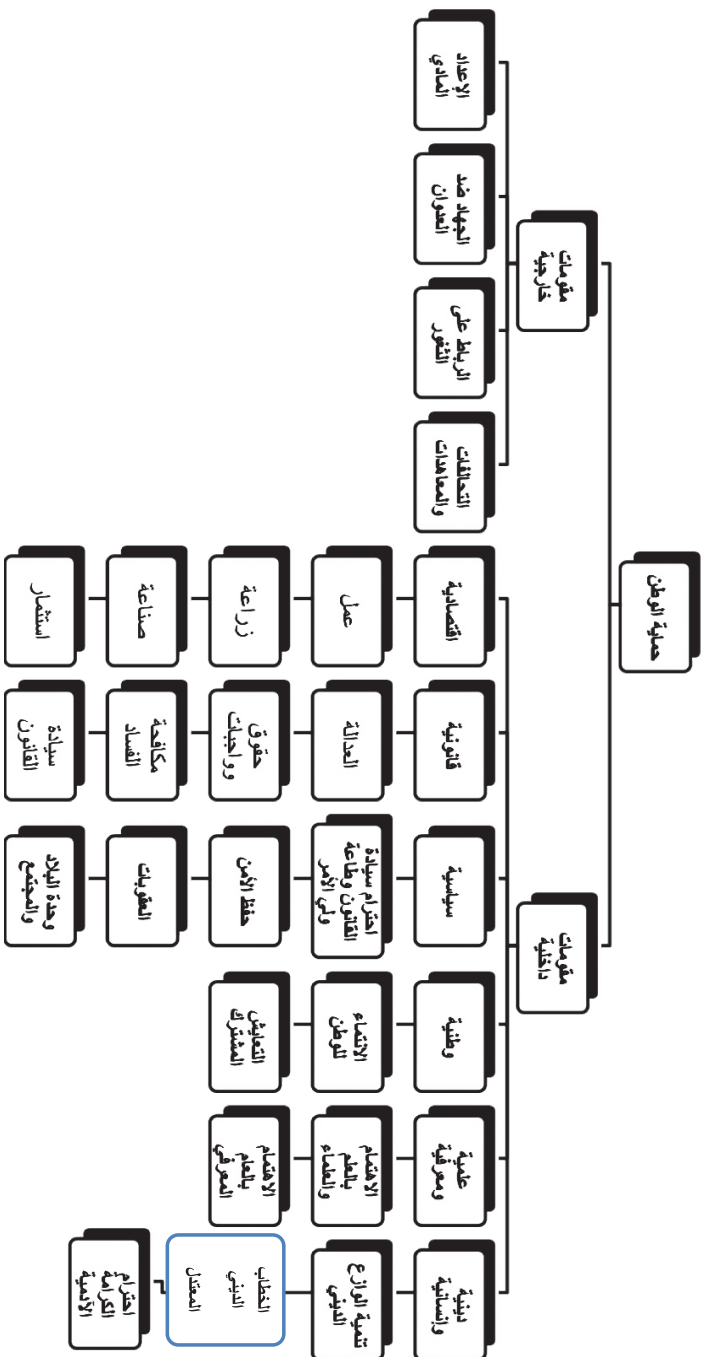
اتبعت في كتابة البحث المنهجين الوصفي والاستقرائي مستفيداً من المنهج الاستنباطي التحليلي، ركزت فيه على نصوص السنة النبوية اقتباساً واستدلالاً وتنزيلاً على الواقع بما يفيد الغاية من البحث، أما الآيات فنسبتها إلى موضعها في السور والآيات، خرّجت الأحاديث وحُكم على أغلبها من خلال مصادر الحديث المعروفة، أما ما كان في البخاري ومسلم فأكتفي بالعزو إليهما، علماً أنني أكثر من الاعتماد عليهما.

١- منشور في مجلة جامعة طيبة، العدد: (٩)، ١٤٣٧ هـ.

شكل (١) يلخص مقومات حماية الوطن في السنة النبوية



شكل (٢) مخطط هيكل لحماية الوطن في ضوء السنة النبوية



## الأول: مكانة الوطن في الشريعة الإسلامية

فيه مطلبان: المطلب الأول: مفهوم الوطن والمواطن.

المطلب الثاني: مكانة الوطن في السنة النبوية.

تمهيد:

حُبُّ الْوَطَنِ غَرِيزَةٌ فَطَرِيَّةٌ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالْإِسْلَامُ يَتَوَافَقُ مَعَهَا، بَلْ يَجَسِّدُهَا وَيَعْبِرُ عَنْهَا، وَمِنْ هُنَا نَجِدُ اقْتِرَانَ حُبِّ الْوَطَنِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ بِحُبِّ النَّفْسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۝٦٦﴾ النساء: ٦٦؛ فالمساواة بين قتل النفس والإخراج من الأرض دليل على قيمته في النفس البشرية، وأنها قيمة مشروعة.

وقد اقترن الوطن في موضع آخر بالدين، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ المتحنة: ٨، وهذا يدل على مدى ارتباطه بالدين والنفس.

ولولا هذه الغريزة الفطرية لما كان الاضطرار لترك الوطن تضحية يُثَابَ عليها المهاجرون، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۝٨﴾ الحشر: ٨، ولأهمية الوطن في حياة الإنسان جعل الله حبه مبرراً للجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٢٤٦﴾ البقرة: ٢٤٦.

وقد مَنَّ اللهُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنْ أَسْكَنَهُ الْأَرْضَ وَأَمَرَهُ بِعِمَارَتِهَا بِمَا يَفِيدُ الْكُونَ وَيُخْدَمُ الْإِنْسَانِيَّةَ: قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۝٦١﴾ هود: ٦١؛ وفي المعنى ذاته امتن الله على قريش بتحقيق مقومات الاستقرار والعيش من الرزق الكريم والشعور بالأمن في وطنهم مكة، كما في سورة قريش، وهذا ما دعا لتحقيقه سيدنا إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمَ الْأَخِيرُ ﴿١٣٦﴾ البقرة: ١٢٦، وفي هذا المبحث أوجز الحديث عن مفهوم الوطن ومكانته في السنة النبوية.

### المطلب الأول: مفهوم الوطن والمواطن

الوطن في اللغة: هو المنزل الذي يمثل موطن الإنسان ومحلّه، وَطَنَ بِالْمَكَانِ وَأُوطِنَ؛ أي أقام فيه واتخذة محلاً وسكناً يقيم فيه، والوطن الأصلي هو مولد الرجل، والبلد الذي هو فيه<sup>(١)</sup>. واصطلاحاً هو: منزل الإقامة، والوطن الأصلي هو: مولد الإنسان، والبلد الذي تأهل فيه، ووطن الإقامة: البلدة التي ليس للإنسان فيها أهل ونوى الإقامة فيها أكثر من ١٥ يوماً ولم يتخذها سكناً<sup>(٢)</sup>.

### المطلب الثاني: مكانة الوطن في السنة النبوية:

تَزَخَّرُ السنة النبوية بالأحاديث الصحيحة الصريحة التي تؤكد مكانة الوطن في الوجدان الإنساني والشعور الفطري، وتدعو إلى ضرورة اتخاذ الإجراءات الوقائية والعلاجية اللازمة لحفظه وتنميته وازدهاره وحمايته والدفاع عنه، ومن أهم هذه الروايات:

١- استنكار النبي ﷺ واستغرابه من إخراج قومه له من أرضه، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال حين أخبره ورقة بن نوفل أنه سيُخرج قومه من وطنه: (أَوْ مُخْرِجِي هُمْ!)<sup>(٣)</sup>، فالنبي ﷺ لا يستغرب ردّهم لدعوته، ولكنه يعجب أن يتمادوا إلى درجة إخراجهم من وطنه.

٢- التصريح بحب الوطن والثناء عليه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ: (مَا أَطْيَبَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبُّ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ)<sup>(٤)</sup>، ولما

١- انظر: الرازي، مختار الصحاح، (ص ٣٤١)، مادة: وطن. ابن منظور، لسان العرب، (١٣ / ٤٥١)، باب النون فصل العين، مادة: وطن.

٢- انظر: نقاز إسماعيل، مفهوم الوطنية والمواطنة في الفكر الإسلامي المعاصر، العدد: (٦)، (ص ٢٤٠).

٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث: (٣)، (٧/١). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث: (١٦٠)، (٩٧/١).

٤- أخرجه الترمذي، جامع الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل مكة، رقم الحديث: (٣٩٢٦)، (٦/٢٠٨)، وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ".

هاجر ﷺ إلى المدينة أَلْفَهَا وَأَحَبَّهَا وَلَمَّا فَتَحَتْ مَكَّةَ خَافَ الْأَنْصَارُ أَنْ يَتْرَكَ الْمَدِينَةَ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: (كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ)<sup>(١)</sup>.

٣- **التعبير السلوكي الفطري عن حب المدينة، فعن أنس رضي الله عنه، (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدْرَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ رِاحِلَتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَكَهَا، مِنْ حُبِّهَا)<sup>(٢)</sup>،** وقد علق الإمام ابن حجر على هذا الحديث بقوله: "وفي الحديث دلالة على فضل المدينة وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه"<sup>(٣)</sup>.

٤- **الدعاء بحب المدينة وصرف الأوبئة عنها، فعن عائشة رضي الله عنها، قَالَتْ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَعُكَّ أَبُو بَكْرٍ، وَبِلَالٌ، قَالَ ﷺ: اللَّهُمَّ الْعَنْ شَيْبَةَ بَنِ رَيْبَعَةَ، وَعُتْبَةَ بَنِ رَيْبَعَةَ، وَأُمَيَّةَ بِنَ خَلْفٍ، كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِنَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اللَّهُمَّ حَبِّبْ لَنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مَدَّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ)<sup>(٤)</sup>، وجه الدلالة:**

- مشروعية الدعاء على الكفار الذين أخرجوا المسلمين من أرضهم.
  - عدم الإنكار على أبي بكر وبلال رضي الله عنهما الحنين للعلاج عند الأهل.
  - استحباب الدعاء للوطن أن يحفظه من الأمراض والشدائد، قال النووي: "وَفِيهِ الدُّعَاءُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالصَّحَّةِ وَطِيبِ بِلَادِهِمْ وَالْبَرَكَةِ فِيهَا وَكَشْفِ الضَّرِّ وَالشَّدَائِدِ عَنْهُمْ"<sup>(٥)</sup>.
- ٥- **مشروعية الانتفاع من تراب أرض الوطن في العلاج، فعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ**

١- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، رقم الحديث: (١٧٨٠)، (١٧٠/٥).

٢- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حدثنا عبد الله بن محمد، رقم الحديث: (١٨٨٦)، (٢٣/٣).

٣- ابن حجر، فتح الباري، (٣/٦٢١).

٤- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حدثنا مسدد، رقم الحديث: (١٨٨٩)، (٢٣/٣). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها،

رقم الحديث: (١٣٧٤)، (١١٧/٤). واللفظ للبخاري.

٥- النووي، شرح النووي على مسلم، (١٥٠/٩).

النَّبِيِّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: (بِاسْمِ اللَّهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بَرِيْقَةٌ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا)<sup>(١)</sup>، جاء في فتح الباري نقلاً عن بعض العلماء: "وتراب الوطن له تأثير في حفظ المزاج ودفع الضرر"<sup>(٢)</sup>، ذكر الجاحظ أن العرب: "كانت إذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلةٍ أو زكام أو صداع"<sup>(٣)</sup>.

هذه جملة من الأحاديث النبوية في بيان حب الوطن ومكانته ومشروعيتها التعلق به والحنين إليه والدفاع عنه ما يتفق مع الفطرة الإنسانية.

## المبحث الثاني: أسس حماية الوطن ومقوماتها الداخلية

### المطلب الأول: مقومات دينية وإنسانية لحماية الوطن

أولاً: تنمية الوازع الديني: يمثل الدين عاملاً محرِّكاً للمشاعر، وخطاباً موقظاً للضمائر، وموجهاً للتصرفات الإنسانية نحو ممارسة فكرية وسلوكية واجتماعية متوازنة تقوم على منظومة الحقوق والواجبات، وكلما زاد التمسك بالدين فهماً ووعياً وتطبيقاً كلما زادت المناعة لدى المواطن ضد الفساد أو الظلم أو العدوان أو أي جنائية تمس الوطن أو المواطنين، وما من وازع يحافظ على مقدرات الوطن من الهدر والتضييع ويحقق للمواطن الكرامة والمساواة والعدالة من تنمية الوازع الديني لدى المواطنين.

ومن هنا دعا النبي ﷺ إلى تنمية الوازع الديني في جميع الممارسات والعلاقات اليومية الجهرية والعلنية الفردية والجماعية والمؤسسية، وذلك من خلال مراقبة الله تعالى في كل شأن؛ ففي حديث جبريل المشهور عن أبي هريرة أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)<sup>(٤)</sup>، وربط الممارسات الحياتية بالله يدفع المواطن

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطب، بابُ رُقِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، رقم الحديث: (٥٧٤٥)، (١٣٣/٧).

٢- ابن حجر، فتح الباري، (٢٠٨/١٠).

٣- الجاحظ، رسائل الجاحظ، (٣٩٢/٢).

٤- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بابُ سُؤْلِ جِبْرِيلَ النَّبِيِّ ﷺ I عن الإيمان والإسلام، رقم الحديث: (٥٠)، (١٩/١). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بابُ الْإِيمَانِ مَا هُوَ وَبَيَانُ خِصَالِهِ، رقم الحديث: (٩)، (٣٠/١).



للاستقامة والعزة والشجاعة والكرامة والمسؤولية ومنها: الحفاظ على الوطن وحمانيته من أي خطر دون خوف أو قلق على الأجل أو الرزق، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: (..) وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ<sup>(١)</sup>، والوصية بالتقوى هي الوصية النبوية الجامعة لتنمية الوازع الديني في توجيه السلوك والمشاعر، ومنها ما يتعلق بحماية الوطن، ومن هذه الوصايا، عن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)<sup>(٢)</sup>.

**ثانيًا: الخطاب الديني الوسطي:** من بديهيات الكون أن التدين فطرة، وأنه يحكم مسارات الإنسان وتوجهاته، فمن الضروري إذاً تربية الجيل من أبناء الوطن على حب الله ورسوله والمؤمنين ومراقبة الله في أفعالهم وممارساتهم، فهذه التربية المبنية على الخطاب الديني ترتقي بالجيل في الفكر والسلوك، فلا يخرج منهم ما يضر بالوطن وأهله ومؤسساته وممتلكاته، وتبدأ مستويات الخطاب الديني المعتدل من الأسرة، فالمدرسة، فالمسجد، فالاجتماع، فمؤسساته الإعلامية والدينية والثقافية العامة والخاصة. والخطاب الديني العملي أقوى أثرًا من الخطاب النظري.

والتربية الأسرية تربية شاملة على جميع الجوانب ومنها التربية الوطنية، وذلك من خلال القدوة والممارسة الإيجابية، حين يرى الأبناء آباءهم يجنون بلدهم، ويتفانون في خدمته، والدفاع عنه، والحفاظ على مقدراته، وثرواته من النهب، أو السلب، أو التعدي، أو الإساءة، ويبدلون أموالهم وأرواحهم في سبيل الدفاع عنه؛ فهذا يعزز روح الانتماء في نفوس الجيل، وفي هذا الصدد فإن

١- أخرجه الترمذي، جامع الترمذي، أبوابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عن رسول الله ﷺ، رقم الحديث: (٢٥١٦)، (٢٨٤/٤)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح". أحمد، مسند أحمد، مسند بني هاشم ﷺ، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنهما)، رقم الحديث: (٢٧١٣)، (٤٨٧/٤) - (٤٨٨)، والحديث صحيح كما قال الشيخ شعيب الأرنؤوط. واللفظ للترمذي.

٢- أخرجه الترمذي، جامع الترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معاشرته الناس، رقم الحديث: (١٩٨٧)، (٥٢٦/٣)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح". أحمد، مسند أحمد، مسند الأنصار ﷺ، حديثُ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ﷺ، رقم الحديث: (٢١٧٥٠)، (٤٩٨٣/٩)، والحديث حسن لغيره كما قال الشيخ أرنؤوط.

الرعاية الأسرية رعاية شاملة لمختلف جوانب الرعاية المادية والمعنوية، ومنها التربية الوطنية في الحفاظ على البلاد وممتلكاتها، ومقدراتها، وحقوق أبنائها، عن ابن عمر عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (أَلَا كُلكُمْ رَاعٌ<sup>(١)</sup>) وَكُلكُمْ مَسْئُولٌ عَنِ رَعِيَّتِهِ، فَإِلِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنِ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنِ رَعِيَّتِهِ،... أَلَا فَكُلكُمْ رَاعٌ وَكُلكُمْ مَسْئُولٌ عَنِ رَعِيَّتِهِ<sup>(٢)</sup>). أما المساجد والمؤسسات الدينية فإنها تمثل منارة هداية، وبوصلة تأثير وتحريك في المجتمع، ولهذا يجب أن يكون خطاها بائياً لا هادماً، إيجابياً لا سلبياً، وحدوياً لا عنصرياً، وهذا توجيه النبي ﷺ، فعن سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنِ أَبِيهِ، عَنِ جَدِّهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ لهُمَا: (يَسْرًا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرَا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَحْتَلِفَا)<sup>(٣)</sup>. وفي السياق ذاته حذر النبي ﷺ من التنطع في الدين، فقال ﷺ: (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) قَالَهَا ثَلَاثًا<sup>(٤)</sup>. والخلاصة أن تقديم الخطاب الإسلامي بصورته الحقيقية المشرقة مسؤولية الجميع، وبخاصة الدولة والعلماء في اختيار الدعاة والعلماء الذين يعتلون المنابر ويوجهون الشعب؛ فتكون لديهم المؤهلات العلمية والسلوكية اللائقة بهذه المهمة الكبيرة (وراثة الأنبياء عليهم السلام). وتظهر أهمية هذا الخطاب في: أنه يمثل كلمة مسموعة لدى الجمهور؛ فيؤدي دوره المميز في حماية الوطن بمناهضة كل فكر مغشوش، أو شائعة مغرضة، وتظهر قيمة هذا الخطاب أيضاً في التفاف الشباب حول هذا الخطاب المنقح القائم على الحجة والبرهان من ذوي الخبرة والاختصاص؛ وبذلك لا يبقى لكل ناعق أو مستهتر أو طائش أو منتنع أي بيئة ينمو فيها، لوجود حصانة دينية وفكرية كافية.

- ١- "الراعي هو الحافظ المؤمن الملتزم صلاح ما قام عليه وهو ما تحت نظره؛ ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودينه ومتعلقاته". من تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، صحيح مسلم، (١٤٥٩/٣).
- ٢- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، رقم الحديث: (١٧٣٨)، (٦٢/٩). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، رقم الحديث: (١٨٢٩)، (٧/٦). واللفظ للبخاري.
- ٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، رقم الحديث: (٣٠٣٨)، (٦٥/٤). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير، وترك التفتير، رقم الحديث: (١٧٣٣)، (١٤١/٥).
- ٤- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنتعون، رقم الحديث: (٢٦٧٠)، (٥٨/٨).

**ثالثاً: احترام الكرامة الإنسانية:** يعزز شعور المواطن في وطنه بكرامته وإنسانيته روح الانتماء لوطنه انتماءً يدفعه لحبه والتفاني في خدمته والدفاع عنه ضد أي مؤامرة أو اعتداء. ولهذا يجب على ولاة الأمر وقادة الأوطان أن يُعلِّموا من شأن الكرامة الإنسانية دون تمييز بين حاكم أو محكوم؛ لتحقيق مبدأ الكرامة التي تمثل الدرع الحامي للوطن.

ومستند الاحترام المتبادل بين جميع المواطنين هو الآدمية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ۖ﴾ (الإسراء: ٧٠). ومن هنا كان وقف النبي ﷺ لجنازة يهودي معللاً ذلك بأثما نفس، قَالَ ﷺ: (أَلَيْسَتْ نَفْسًا)<sup>(١)</sup>، ومن كلمات المؤرخين والمستشرقين الفرنسيين في ذلك كلمة رينان (Ernest Renan) (ت ١٨٩٢م): "الإسلام هو دين الإنسان"<sup>(٢)</sup>.

### المطلب الثاني: مقومات علمية معرفية

**أولاً: الاهتمام بالعلم والعلماء:** إن الاهتمام بالعلم والعلماء يرفع من شأن المجتمع، وينهض بالوعي الديني والمجتمعي، ويحمي الوطن من هجرة العقول، ومن الأمية والتخلف، ولهذا كان أول ما نزل من خطاب القرآن الكريم الأمر بالقراءة المستندة حقيقة الوجود الإنساني وأصله ونشأته ومصيره، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لَطْفَىٰ ۝﴾ (العلق: ١ - ٥، وقد أضفى النبي ﷺ وصف الخيرية على التفقه في الدين؛ فعن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)<sup>(٣)</sup>، ولهذا حرص النبي ﷺ حتى في وقت حاجته إلى المال في مسألة فداء الأسرى على التعليم مقابل الفداء؛ فعن ابن عباس، قَالَ: (كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِدَاءٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِدَاءَهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ)<sup>(٤)</sup>.

١ - أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، رقم الحديث: (١٣١٢)، (٨٥/٢). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، رقم الحديث: (٩٥٨)، (٥٦/٣). واللفظ للبخاري.

٢ - انظر: السرجاني، شهد شاهد من أهلها!! ص ١٧٤، نقلاً عن: القانون والمجتمع تراث الإسلام، بإشراف ارنولد، (ص ٤١٣).

٣ - أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم الحديث: (٧١)، (٢٥/١).

٤ - أخرجه أحمد، مسند أحمد، مسند بني هاشم رضي الله عنهم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وتظهر قيمة الاهتمام بالتعليم في النهوض بالوطن علمياً واقتصادياً، ولهذا فالعلاقة مطردة بين الاهتمام بالتعليم وحركة العمران في البلد، والعكس صحيح؛ فحيث يضعف الاهتمام بالتعليم يقل العمران، ويفشو التخلف والجهل والظلم والفساد والشعوذة والاستبداد<sup>(١)</sup>. ومن صور الاهتمام بالتعليم تشجيع البحث العلمي، وإنتاج مناهج تعليمية تحافظ على هوية المجتمع وقيمه ولغته وثوابته من جهة، وتواكب المستجدات من جهة أخرى.

**ثانياً: الاهتمام بالإعلام الهادف الحكومي والخاص:** من أشهر تعريفات الإعلام تعريف العالم "الألماني أوتوجروت"؛ حيث عرّفه بأنه: "التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها في الوقت نفسه"<sup>(٢)</sup>، ويظهر الجانب الإعلامي في الأحاديث والخطب النبوية، نحو خطب الجمعة والغزوات والمناسبات وخطبة الوداع. وفيها تتلمس أهم أهداف الإعلام في الإسلام، وهي: تعبيد الناس لربهم سبحانه، وتوثيق الروابط الاجتماعية، ونشر مبادئ الوحدة، والعدالة، والمساواة، والإسهام في تنمية المجتمعات في جميع المجالات، ونشر الوعي العام بين المسلمين، بالدعوة للعلم والتعليم، ومواجهة الغزو الفكري، والمخططات الماكرة الهادفة لطمس هوية الأمة، الإسلامية وتذويبها<sup>(٣)</sup>، ويُدرج تحقيق هذه الأهداف في جوهر متطلبات حماية الوطن.

ولقد كانت الوصية بالتقوى هي السمة البارزة المتكررة في خطبه ﷺ؛ لأن من التقوى اجتناب الأذى أو التعدي على ممتلكات الوطن وثرواته، أو التماهي مع أعدائه، ومن التقوى أيضاً اتخاذ التدابير القانونية الكفيلة بالحفاظ على أمن الوطن وسلامة المواطنين، ومن التقوى العمل الجاد على محاربة البطالة والجهل، وتوفير المناخ الملائم للتعلم والازدهار، ومستند هذه الواجبات الدينية الوطنية الوصية بالتقوى المتكررة في جميع خطبه ﷺ ومنها: (أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ... فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ)<sup>(٤)</sup>.

عن النبي ﷺ، رقم الحديث: (٢٢٥١)، (٥٤٩/٢). وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

١- انظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (٥٤٨/١).

٢- انظر: رفاعي، صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم، (ص ٢١-٢٢)، وهو ما ذهب إليه د سيد الشنقيطي.

٣- رفاعي، صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم، (ص ٤٤-٤٥).

٤- أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنّة، رقم الحديث: (٤٦٠٧)،

### المطلب الثالث: مقومات وطنية

**أولاً: الولاء والانتماء للوطن:** يدور الولاء للوطن حول شعور المواطن أنه مسؤول عن وطنه، والعمل على تنميته، وحماية مقوماته الدينية واللغوية والثقافية والحضارية، والشعور بالمسؤولية عن المشاركة في تحقيق النفع العام، واحترام القوانين التي تنظم علاقات المواطنين فيما بينهم، والتضامن مع باقي المواطنين في مواجهة الطوارئ والأخطار، والاستعداد للتضحية لحماية الوطن، وتغليب المصلحة العامة على كل المصالح الذاتية الخاصة<sup>(١)</sup>. ولهذا جعل النبي ﷺ تحمل المسؤولية آية الانتماء للوطن، ومن أرقى مظاهرها التكافل الاجتماعي؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ<sup>(٢)</sup>)، أَوْ قَلَّ طَعَامٌ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ أَقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ<sup>(٣)</sup>). ومن أهم صور الانتماء للوطن ترك العصبية الجاهلية للقبيلة أو الحزب أو العرق، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (... دَعَوْهَا، فَإِنَّهَا مُتَنَتَّةٌ)<sup>(٤)</sup>.

**ثانياً: التسامح والتعايش المشترك بين مكونات المجتمع:** التسامح أساس الاستقرار، ومفتاح التماسك، ومن أهم مظاهر التعايش المشترك التحلي بخلق الرحمة، فعن أبي هريرة، قَالَ:

(٣٢٩/٤)، واللفظ له. الترمذي، جامع الترمذي، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، بابُ مَا جَاءَ فِي الْأَخْذِ بِالسُّنَّةِ وَاجْتِنَابِ الْبِدْعِ، رقم الحديث: (٢٦٧٦)، (٤٠٨/٤)، وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ". ابن ماجه، سنن ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، بابُ اتِّبَاعِ سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، رقم الحديث: (٤٤)، (٢٨/١). وصححه الألباني أيضاً، انظر: الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، رقم الحديث: (٣٧)، (١٢٣/١).

١- انظر: العلمي، المواطنة مفهومها ومقوماتها، <https://machahid24.com/etudes/74521.html> بتصرف.

٢- أي نفذ زادهم، انظر: ابن حجر، فتح الباري، (١٢٥/١).

٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشركة، بابُ الشَّرِكَةِ فِي الطَّعَامِ وَالتَّهْدِ وَالْعُرُوضِ، رقم الحديث: (٢٤٨٦)، (١٣٨/٣).

٤- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، بابُ مَا يُنْهَى مِنْ دَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، رقم الحديث: (٣٥١٨)، (١٨٣/٤). مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، بابُ نَصْرِ الْأَخِ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، رقم الحديث: (٢٥٨٤)، (١٩/٨). واللفظ لمسلم.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (.. وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)<sup>(١)</sup> فالنبي ﷺ: "يعلن أن الله تعالى يمد بالقوة كل من يعاون أخاه الإنسان في أي إقليم، وفي أي موطن، ولم يعين ذلك الأخ، بل عممه، فيعم الأخوة الإنسانية، ولا يقتصر على الأخوة الدينية أو الإقليمية"<sup>(٢)</sup>، بل طبق النبي ﷺ ما يدعو إليه من تعاون إنساني "فعمد النبي ﷺ مع اليهود حلفاً أساسه التعاون على الخير، وحماية الفضيلة ودفع الأذى وحماية المدينة من كل اعتداء، وهو يشبه ما يسمى في عصرنا بالتعايش السلمي، ولكن كان أبلغ؛ لأنه لا يكتفى فيه بدفع الشر، بل الاتجاه فيه إلى دفع الخير"<sup>(٣)</sup>.

لقد مثلت كتابة صحيفة المدينة نموذجاً حضارياً في التعامل والتعايش بين مكونات متعددة الديانات قائم على أساس العدل والأمن واحترام سيادة القانون، واحترام منظومة الحقوق والواجبات؛ ومن البنود الواردة في الصحيفة: "وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم"<sup>(٤)</sup>، ومنها: "وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَهُودَ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتَعُ"<sup>(٥)</sup> إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ"<sup>(٦)</sup>، ومنها: "وَإِنَّ بَيْنَهُمْ التَّصَرَّ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ"<sup>(٧)</sup>.

#### المطلب الرابع: مقومات سياسية داخلية

أولاً: طاعة ولي الأمر وسيادة القانون: تستقر العلاقات السياسية والاجتماعية والحقوقية باحترام المواطنين للقانون المنظم لشؤونهم، وأصل المبدأ في القرآن الكريم؛ حيث قال تعالى:

١- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ وَالْتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَابُ فَضْلِ الْجَمَاعَةِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذِّكْرِ، رقم الحديث: (٢٦٩٩)، (٧١/٨).

٢- أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، (ص ٢٦).

٣- أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، (٦٦/١). وانظر: أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، (ص ٢٥-٢٦).

٤- العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (٢٨٣/١). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠٤/١).

٥- أي لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته. انظر: ابن سلام، غريب الحديث، (١٧٠/٣)، مادة طلق. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (١٤٩/٥)، مادة وتغ.

٦- السهيلي، الروض الأنف، (١٧٦/٤). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠٤/١).

٧- السهيلي، الروض الأنف، (١٧٧/٤). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠٤/١).

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٢٥) الحديد: ٢٥. وقد أمر ﷺ المواطنين بطاعة الحاكم في المعروف لتحقيق الاستقرار الداخلي من جهة، والإعانة على تدبير شؤون البلاد، واحترام سيادة القانون من جهة ثانية، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي)<sup>(١)</sup>، وممارسة الحاكم لسلطاته محكومةً بسلطان القانون، ومما يدل على هذا الأصل التشريعي الدستوري ما يرويه ابنُ عُمَرَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ)<sup>(٢)</sup>. ولهذا كان أهم عمل قام به النبي ﷺ في المدينة المنورة هو كتابة الصحيفة التي تعد دستوراً للمسلمين وغيرهم؛ حيث كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم، وقد تمثلت سيادة القانون في عهده ﷺ بالوثيقة، وقد سبق الإشارة إلى بعض بنودها<sup>(٣)</sup>، ومحاولتنا الربط بين مبدأ سيادة القانون وفق المفهوم المعاصر وبين كتابة الصحيفة هو محاولة اجتهادية لتقريب فكرة الاحتكام إلى لنظام العام للدولة.

**ثانياً: حفظ الأمن العام:** إن حفظ أمن الوطن والمواطن مقصد شرعي؛ لأنه يدخل في المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية الشاملة لحفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وإذا كان تحقيق هذا المقصد متوقف على اتخاذ إجراءات وتدابير رادعة فلا بد منها رعاية لمصلحة المجتمع كله، وأكد النبي ﷺ هذا المنهج القويم في التعامل مع الجرائم فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ أَسَامَةَ كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي امْرَأَةٍ، فَقَالَ: (إِنَّمَا هَلَاكُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحَدَّ عَلَى الْوَضِيعِ وَيَتْرَكُونَ

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام ويُتقى به، رقم الحديث: (٢٩٥٧)، (٥٠/٤). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بابُ وَجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، رقم الحديث: (١٨٣٥)، (١٣/٦)، واللفظ لمسلم.

٢- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن بمعصية، رقم الحديث: (٧١٤٤)، (٦٣/٩)، مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بابُ وَجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، رقم الحديث: (١٨٣٩)، (١٥/٦). واللفظ لمسلم.

٣- انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، (٥٩/٢). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠٤/١).

الشَّرِيفَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا<sup>(١)</sup>، ومن أهم مقاصد هذه العقوبات تحقيق الأمن وردع الجناة والمجرمين، والمبدأ العام لمشروعية سن القوانين هو حفظ مقاصد الشريعة الشاملة للدين والنفس والعقل والنسل والمال، ومن هذه الأصول قوله ﷺ في خطبة الوداع: (فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا)<sup>(٢)</sup>، ومن أهم طرق حفظ الأمن احترام سيادة القانون، وقد تمثل ذلك في عهده ﷺ بالوثيقة (وثيقة المدينة المنورة).

**ثالثاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** إن الوطن كالسفينة، والحفاظ عليه مسؤولية الجميع، وهذا من أوضح الأمثلة النبوية على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حماية الوطن ودرء الأخطار عنه؛ عن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَالِقِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ بَحْجًا، وَبَحْجًا جَمِيعًا)<sup>(٣)</sup>، بل جعل النبي ﷺ مواجهة الفساد أو الظلم مسؤولية الجميع بحسب الإمكان؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ﷺ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)<sup>(٤)</sup>، وحتى يؤدي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دوره في حماية الوطن لا بد من أن تكون هذه المهمة راشدة ومضبوطة بضوابط الشرع، نحو أن يكون القائم بهذه المهمة عالماً بطرق الإنكار ودرجاته ومآلاته<sup>(٥)</sup>.

- ١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب إقامة الحدود على الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، رقم الحديث: (٦٧٨٧)، (١٦٠/٨).
- ٢- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربن والقصاص، باب تَغْلِيظِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْأَمْوَالِ، رقم الحديث: (١٦٧٩)، (١٠٨/٥).
- ٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب هَلْ يُقْرَعُ فِي الْقِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ، رقم الحديث: (٢٤٩٣)، (١٣٩/٣).
- ٤- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بَيَانِ كَوْنِ التَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، رقم الحديث: (٤٩)، (٥٠/١).
- ٥- الأزدي القرطبي، الإنجاد في أبواب الجهاد، (ص١٣). ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، (١٢/٣-١٣).



رابعاً: وحدة المجتمع وتماسكه: يجب أن تكون وحدة النسيج الوطني أولوية لكل المواطنين، وللقادة والمسؤولين؛ لما فيها من حماية للوطن، وتحقيق للتماسك والتعاون وتخلص من كل عوامل الهدم أو التآكل الداخلية، جاء في متن الصحيفة: "هؤلاء المسلمون جميعاً على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين"<sup>(١)</sup>، كذلك: "وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا"<sup>(٢)</sup> بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلِ"<sup>(٣)</sup>، وهذا يدل على أن عامة أحكام الشريعة الإسلامية إنما تقوم على أساس المسؤولية التكافلية.

### المطلب الخامس: مقومات قانونية

أولاً: العدالة الاجتماعية والمساواة الحقوقية: من أهم المبادئ الاجتماعية في الإسلام تحقيق العدالة من خلال نصره المظلوم وردع الظالم، بغض النظر عن لونه أو عرقه أو جنسه أو لغته، ففي الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا)<sup>(٤)</sup>. ويستغرق خطاب النهي عن الظلم في الحديث جميع آحاد وأشكال وصور الظلم سواء كان بين المؤمنين أنفسهم، أو بين الكافرين أنفسهم، أو بين المؤمنين وأهل الأديان والملل الأخرى، بل إن النهي يشمل ظلم الإنسان لنفسه وللكون والبيئة والحيوان والنبات، ومما يشهد لهذا التناصر والتضافر الجماعي في رفض الظلم ومحاربه رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في إجابة دعوة حلف الفضول فيما لو دعي إليه في الإسلام<sup>(٥)</sup>. ومن أصول المساواة ما جاء في متن الصحيفة التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، والتي

- ١- السهيلي، الروض الأنف، (١٧٣/٤). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠١/١).
- ٢- المفرح هو الذي أنقله الدين والغرم. وَقَدْ أَفْرَحَهُ يُفْرِحُهُ إِذَا أَنْقَلَهُ، وَأَفْرَحَهُ إِذَا غَمَّهُ. انظر: ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر، (٤٢٤/٣).
- ٣- السهيلي، الروض الأنف، (١٧٤/٤). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠١/١).
- ٤- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم الحديث: (٢٥٧٧)، (١٦/٨).
- ٥- سبب هذا الحلف أن قريشاً كانت تتظالم في الحرم، فدعا بعضهم إلى التحالف على التناصر من الأخذ للمظلوم من الظالم، فأجابتهم قريش وتحالفوا في دار ابن جدعان، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَقَدْ شَهِدْتُ حِلْفًا فِي دَارِ ابْنِ جُدْعَانَ، مَا أَحْبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرُ التَّعَمِّ. وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَحْبَبْتُ" انظر: ابن الجوزي، الوفا بتعريف فضائل المصطفى، (٨٧/١)

تنظم علاقة مكونات المجتمع بعضها ببعض، ومن ذلك: "ذمة الله واحدة، يجير عليهم أديانهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس"<sup>(١)</sup>، ومن الشواهد النبوية التاريخية على العدالة والتسامح وثيقة النبي ﷺ لأهل نجران تقضي بتأمينهم على أموالهم وأنفسهم، ودفعهم للجزية والدفاع عنهم ومناصرتهم<sup>(٢)</sup>.

**ثانياً: معرفة الحقوق والواجبات:** تُسهّم معرفة المواطن بحقوقه وواجباته في تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الوطن؛ فحين يؤدي المواطن ما عليه من واجب، ويتمتع بما له من حقوق، لا يتصادم مع غيره من أبناء الوطن ولا تتنافر العلاقات، وإنما تتكامل بما يحقق التوازن والتلاحم الذي يحمي الوطن من أي تفكك، ونجد في التشريعات الإسلامية منظومة متكاملة من الحقوق والواجبات شاملة لمختلف مناحي الحياة، ومثال ذلك حق الحاكم في الطاعة وحق المحكوم في الشعور بالعدل والأمان والرعاية والعناية؛ ففي التحذير من الظلم والجور بحق الرعية عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَفَرَّقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ)<sup>(٣)</sup>، وفي المقابل أمر المواطن بطاعة الحاكم في المعروف لتحقيق الاستقرار، والإعانة على تدبير شؤون البلاد، واحترام سيادة القانون؛ فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعَصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي)<sup>(٤)</sup>، ومن واجبات كل من الحاكم والمحكوم أن يقدم كل منهما النصح للآخر، وفي الحديث: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ)<sup>(٥)</sup>. والخلاصة أن معرفة الحقوق والواجبات تسهم في حماية البلاد من أي عداوات تترسب نتيجة الظلم أو غياب المساواة.

١- انظر: ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠٢/١).

٢- ابن حديدة، المصباح المضي، (١٩٧/٢). وانظر: أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، (٥٤٨/٢).

٣- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بابُ فُضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَعُقُوبَةِ الْجَائِرِ، رقم الحديث: (١٨٢٨)، (٧/٦).

٤- سبق تخريجه، (ص ١٩)، هامش (٣٩).

٥- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ الدين النصيحة، رقم الحديث: (٥٧)، (٢١/١). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بابُ بَيَانِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، رقم الحديث: (٥٥)، (٥٣/١). واللفظ لمسلم.

ثالثاً: إشاعة أجواء الحرية المسؤولة المنضبطة: إن توفير أجواء الحرية يسهم في حماية الوطن، من خلال تمكين المواطنين من التعبير عن أفكارهم ومقترحاتهم، وفي توفير بيئة مناسبة للإبداع والتميز والمراجعة؛ كل ذلك ضمن ضوابط المصلحة العليا للدولة وفي سياق الرشد السياسي والديني والأخلاقي، وهناك ثلاثة مبادئ شرعية نبوية تضمن ممارسة الحرية المنضبطة والهادفة والمسؤولة وهي:

- (١) الدين النصيحة: عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ...) (١)، وهذا المبدأ يعزز روح المسؤولية الفردية والجماعية.
- (٢) إنكار المنكر: فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيَعْبِرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) (٢)، وهذا المبدأ يمثل صمام الأمان من أي انحراف شرعي قد يعصف بالوطن.
- (٣) ممارسة الشورى في الشؤون العامة، والخاصة، نحو الغزوات وتدابير شؤون البلاد، ويفتح هذا المبدأ المجال أمام جميع المواطنين للمشاركة الفعلية الحقيقية.

### المطلب السادس: تحقيق التنمية الاقتصادية (علاج مشكلتي الفقر والبطالة)

الاقتصاد عصب الحياة، به تتقدم البلدان، ويزدهر العمران، ويتطور الإنسان، وبدونه تتخلف أمم، وتنهار حكومات، وتستعبد شعوب، وتسترق دول وتقهتر حكومات. وحماية الوطن كما تكون بحبه والدفاع عنه، تكون أيضاً بتحسين الأوضاع الاقتصادية، للمواطنين من محاربة البطالة، وتدويل المال بين أبناء الوطن، وتشجيع الاستثمار من خلال الإفادة من التشريعات الإسلامية المتصلة بالتنمية الاقتصادية كالدعوة للعمل والكسب المشروع؛ فعَنِ الْمِقْدَامِ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) (٣)، ومنها: النهي عن السؤال في غير سبب مشروع؛ عن أبي

١- سبق تخريجه، (ص٢٢)، هامش (٥٧).

٢- سبق تخريجه، (ص٢٠)، هامش (٤٥).

٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم الحديث: (٢٠٧٢)، (٥٧/٣).

هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَأَنْ يَجْتَبَ أَحَدُكُمْ حُرْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ)<sup>(١)</sup>، ومنها: مشروعية التجارة والسلم؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُسْلِفُونَ بِالتَّمْرِ السَّنَتَيْنِ وَالثَّلَاثَ، فَقَالَ: (مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ، فَفِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ)<sup>(٢)</sup>، ومنها: إباحة الإجارة بما تحققه من نفع للمؤجر والمستأجر، ومنها: المشاركة في المال من خلال المزارعة الشجر من المالك (الأنصار) وسقايته من العامل (المهاجرون)<sup>(٣)</sup>، ومنها: المزارعة من خلال تقاسم الأرض والبذر من المالك والرعاية والسقاية من المزارع، وفي هذه التشريعات تحريك للمال، وتنشيط للاقتصاد، وتشغيل للأيدي العاملة، وكل ذلك يسهم في حماية الوطن من الفقر أو التخلف أو البطالة، ويحقق الكفاية الاقتصادية التي تحمي الوطن من التبعية للدول الأجنبية، ومن طرق التنمية الاقتصادية: تحقيق التكافل الاجتماعي من خلال الزكاة وصدقة الفطر، والأحاديث في ذلك مشهورة مستفيضة، والتكافل الاجتماعي من خلال الصدقات والتبرعات المفروضة والمسئونة يسهم في حماية الوطن من الجشع والطمع والعداء والطبقية الاجتماعية الجائرة. ومن صور التنمية: تأكيد السنة النبوية تقسيم الميراث الذي يؤدي إلى تفتيت الثروة، وتحريك المال، وتنمية الاقتصاد؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: (مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِلْوَرَثَةِ، وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَلِإِنَانَا)<sup>(٤)</sup>، ومنها: تشريع الهبات والأعطيات كالعمرى<sup>(٥)</sup>، ومنها: تشريع الوقف والوصية، وفي قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في التصديق بماله مثال بين على التوازن الاجتماعي والتكافلي من حيث الانفاق وحفظ حق الورثة؛ فعن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قَالَ لَهُ

- ١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم الحديث: (٢٠٧٤)، (٥٧/٣).
- ٢- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب السلم، باب السلم في وزن معلوم، رقم الحديث: (٢٢٤٠)، (٨٥/٣).
- ٣- ما أرشد إليه حديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، بَابُ إِذَا قَالَ: أَكْفِنِي مَوْئِنَةَ النَّخْلِ وَعَيْرِهِ، وَتُشْرِكُنِي فِي التَّمْرِ، رقم الحديث: (٢٣٢٥)، (١٠٤/٣).
- ٤- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض، باب الصلاة على من ترك دينًا، رقم الحديث: (٢٣٩٨)، (١١٨/٣). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفرائض، بَابُ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، رقم الحديث: (١٦١٩)، (٦٣/٥).
- ٥- منها ما جاء عند مسلم، صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب العمرى، رقم الحديث: (١٦٢٥)، (٦٧/٥).

بعد حوار بينهما حول قدر التبرع: (الثُلُثُ، وَالثُلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ..<sup>(١)</sup>)، ولئن كانت الصدقات والتبرعات والهبات تمثل نوعاً من المواساة، إلا أن الإسلام دعا إلى ما هو أبعد من ذلك: دعا إلى الإيثار الذي يمثل أعلى أنواع المواساة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فَقَالَ: أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْعِنَى وَلَا تُمْهَلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ<sup>(٢)</sup>، هذه الصدقات والتبرعات والتشريعات النبوية من الهبات والوصايا والإيثار وغيرها، تسهم جميعها في إحداث تنمية اقتصادية حقيقية في تنشيط حركة المال، ومحاربة البطالة، ولهذا أثره الكبير في حماية الوطن.

### المطلب السابع: مكافحة الفساد والمفسدين

إن مكافحة الفساد ومعاقبة الفاسدين سياسة تحفظ الوطن من الضياع وتحفظ المواطن - وهو الكنز الحقيقي للدولة - من الظلم والتعدي على حقوقه المعنوية أو المادية، ولهذا كان واجباً على الدولة أن تسنَّ القوانين الوقائية من الوقوع في الفساد، وأن تضع العقوبات الرادعة لمن يرتكبون الفساد، حفاظاً على ثروات البلد ومقدراته ومؤسساته. ولهذا حذر النبي ﷺ من ممارسة الفساد أو السكوت عنه أو المشاركة فيه، ومن ذلك: عَنْ خَوْلَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ رَجُلًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(٣)</sup>، وفي الأخذ على يد الظلمة يروي أنس رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَمْفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُرُهُ، أَوْ

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم الحديث: (١٢٩٥)، (٨١/٢). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم الحديث: (١٦٢٨)، (٧١/٥).

٢- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزكاة - باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح رقم الحديث: (١٠٣٢)، (٩٣/٣).

٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، بابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (فَأَنْ لَّهُ خُمْسُهُ) رقم الحديث: (٣١١٨)، (٨٥/٤)، ومعنى (يتخوضون): "من الخوض وهو المشي في الماء وتحريكه والمراد هنا التخليط في المال وتحصيله من غير وجهه كيفما أمكن"، من تعليقات د. مصطفى البغا.

تَمَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ<sup>(١)</sup>، وقد مارس النبي ﷺ محاسبة الولاة والمسؤولين، فعَنْ أَبِي مُحمَّدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ عَنْ هُدَايَا الْوَلَاةِ وَالْعَمَالِ: (.. أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هُدْيَتُهُ، وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بَعِيرٍ حَقَّهُ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(٢)</sup>، وتظهر قيمة محاربة الفساد في تطهير المجتمع من العناصر الخبيثة المدمرة ما يسهم في تقوية الوضع الداخلي للوطن، واستمرار نموه، وتميزه، وازدهاره.

## المبحث الثاني: الأسس الخارجية ومقوماتها

### المطلب الأول: الارتباط الوثيق بالأمة الإسلامية

لا يعني حب الوطن في الإسلام الانفصال عن جسد الأمة الإسلامية؛ فلا يتوقف نصر المظلوم، أو إغاثة الملهوف، أو إعانة المنكوب على الحدود الجغرافية للوطن، وإنما يمتد تضامن المسلم مع إخوانه حيثما كانوا، عملاً بمبدأ الأخوة الإسلامية؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾<sup>(١٠)</sup> الحجرات: ١٠، وقد أكد النبي ﷺ هذا المبدأ؛ فعن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)<sup>(١١)</sup>، والأخوة الإسلامية لا تنافي الاعتبارات الوطنية لكل دولة؛ وإنما علاقة الوطن في المفهوم المعاصر مع الأمة الإسلامية هي علاقة الجزء مع الكل، وحمانيته حماية للكل، وحماية الكل أيضاً حماية للجزء، وعليه فالمسلم مع أبناء الوطن متسامح، ومع أبناء الدين متعاطف، ومع أبناء آدم متعارف، وافتراس التناقض بين الانتماء للوطن والانتماء للأمة الإسلامية تعسف وافتراس مفتعل.

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب يَمِينِ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ إِنَّهُ أَخُوهُ إِذَا خَافَ عَلَيْهِ الْقَتْلَ، رقم الحديث: (٦٩٥٢)، (٢٢/٩).

٢- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحيل، بابُ احْتِيَالِ الْعَامِلِ لِيُهْدَى لَهُ، رقم الحديث: (٦٩٧٩)، (٢٨/٩).

٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، بابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالبِهَائِمِ، رقم الحديث: (٦٠١١)، (١٠/٨). مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، بابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، رقم الحديث: (٢٥٨٦)، (٢٠/٨). واللفظ لمسلم.

إن ارتباط المسلمين كلُّ في وطنه بالأمة الإسلامية يمثل عامل قوة للوطن لاستناده إلى مبادئ التضامن والتعاطف والتراحم المنبثقة من رحم الأخوة الإسلامية التي لم يكتف النبي ﷺ بالدعوة المجردة لها، بل مارسها نموذجاً رائعاً على الأرض في المدينة المنورة من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومن خلال كتابة الصحيفة "المسلمون من قريش ويشرب ومن تبعهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس"<sup>(١)</sup>، وتظهر قيمة الوحدة الإسلامية في أنها تمثل درعاً للمسلمين، وردعاً لأعداء الأمة، وتؤمن بين الأوطان الإسلامية قدرًا كافيًا من التعاون الشامل اللازم لحماية البلاد.

### المطلب الثاني: التحالفات والمعاهدات مع المناطق والدول المجاورة

تُسهم التحالفات والمعاهدات السياسية والاقتصادية، وبخاصة مع الدول المجاورة في تحقيق الاستقرار والازدهار، وتجنب الحروب والاضطرابات، وتستفيد الدول بعضها من بعض في تحقيق التعارف الإنساني من خلال الاحترام المتبادل، ونقل الخبرات، والإفادة من إمكانيات كل دولة وثرواتها، وهذا ما حرص عليه الإسلام؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ إن فقه التعارف يتطلب تعايشًا وتفاهمًا وتصالحًا تُستفید منه الأمم في الاستقرار والسلام والعدل الدولي والتطور المعرفي، والتنمية الاقتصادية، وهذا ما حرص عليه النبي ﷺ؛ فقد جاءت وثيقة المدينة ضمانًا لعدم الظلم أو البغي، وتأكيدًا على للتحالف الوثيق بين أهلها ضد العدوان الخارجي، وتشجيعًا على التكافل الاجتماعي<sup>(٢)</sup>. وفي مناطق الاشتباك أو التوتر كان النبي ﷺ يقدم الصلح على القتال؛ لحقن الدماء، وتحقيق السيادة بالحق، ومن ذلك على سبيل المثال<sup>(٣)</sup>: غزوة ذي العُشيرة: سنة ٥٢هـ، حيث عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلب وحلفائهم من بني ضمرة<sup>(٤)</sup>، وفي غزوة الأبواء عقد النبي ﷺ معاهدة حلف مع حُشَيْبِ بْنِ عَمْرٍو الضمري، وكان سيد بني ضمرة في زمانه، تقضي بتأمينهم على

١- ابن هشام، سيرة ابن هشام، (١/٥٠١).

٢- انظر: أ.د. كمال الشريف، حقوق الإنسان في صحيفة المدينة، حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية

والقانون الوضعي، (١/٦٨-٧٠)، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠١م.

٣- العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (٢/٣٤٦). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (١/٥٩٩).

٤- العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (٢/٣٤٦). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (١/٥٩٩).

أموالهم وأنفسهم، والدفاع عنهم ومناصرتهم<sup>(١)</sup>. وصالح صاحب أيلة وأعطاه الأمان على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار في كل عام للمسلمين<sup>(٢)</sup>. ومن الشواهد على التحالفات وثيقة النبي ﷺ لأهل نجران تقضي بتأمينهم على أموالهم وأنفسهم، ودفع الجزية والدفاع عنهم ومناصرتهم<sup>(٣)</sup>، وتظهر قيمة التحالفات في حماية الوطن وأثرها في (تحقيق التعاون الشامل في التبادلات التجارية، وتفرغ كل دولة لتقوية وضعها الداخلي، والتحالف العسكري حال تعرض أي من الحلفاء لخطر داهم).

### المطلب الثالث: التضحية والفداء والجهاد لدفع العدوان

اتفق الفقهاء على وجوب الجهاد على المسلمين المكلفين لدفع خطر العدوان على أوطانهم إذا احتلها أو استولى على جزءٍ منها، ويكون قتاله فرض عين. ويلزم المسلمين أن ينصروا ذلك البلد إذا عجز أهله عن إخراج العدو، ويبدأ الوجود بالأقرب فالأقرب<sup>(٤)</sup>، فمن الطرق الواجبة على أبناء الوطن حمايةً لوطنهم أن يتصدوا ضد العدوان على النفس أو العرض أو الأرض، وفي آية مشروعية القتال ما يدل على هذا الدافع المشروع، قال تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(٥)</sup> الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ<sup>(٦)</sup> ﴿٤٠﴾ الحج: ٣٩ - ٤٠، وقد حضَّ النبي ﷺ المسلمين على الدفاع عن أموالهم، - والأرض من المال- فعن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن الرسول الله ﷺ قال: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)<sup>(٧)</sup>، وإذا تبعنا معظم غزوات النبي ﷺ نجد أن ثمة سببًا جوهريًا

١- ابن كثير، البداية والنهاية، (٢٤٣/٣).

٢- ابن القيم، زاد المعاد، (٤٧٠/٣).

٣- انظر: ابن حديدة، المصباح المضي، (١٩٧/٢). أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، (٥٤٨/٢).

٤- انظر: الموصلي الحنفي، الاختيار لتعليل المختار، (١١٧/٤)، الخطاب، مواهب الجليل، (٣٤٨/٣-٣٤٩)، الشرييني، مغني المحتاج، (٢٢/٦)، ابن قدامة، المغني، (١٩٧/٩)، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٨٠/٢٨)، الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، (٥٨٤٩/٨)، القحطاني، الجهاد في سبيل الله تعالى، (ص٧).

٥- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، بَابُ مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ، رقم الحديث: (٢٤٨٠)، (١٣٦/٣). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ قَصَدَ أَخَذَ مَالٍ غَيْرِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ كَانَ الْقَاصِدُ مُهْدَرِ الدَّمِ فِي حَقِّهِ، رقم الحديث: (١٤١)، (٨٧/١).



دعا إليها، مثل: نقض العهود، والخيانة، والتآمر مع الأعداء، والتعدي على المسلمين، والإعداد للهجوم على المسلمين؛ فهذه الأسباب التي تمثل تهديدًا للوطن، كانت سببًا لكثير من غزواته ﷺ.


### المطلب الرابع: الرباط على الثغور

إن الحفاظ على أمن البلاد من أي خطر فريضة شرعية وضرورة وطنية، ولأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ فإن الرباط على الثغور بالإقامة فيها، وتأمينها، وحراسة المواقع التي يمكن أن يتسلل منها الأعداء يصبح واجبًا كفايًا، وعلى الدولة اتخاذ التدابير الأمنية الكافية لتحقيق هذا الواجب، وأصل هذا الواجب قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠) آل عمران: ٢٠٠. وفي السنة النبوية دعوة صريحة للمشاركة في الرباط؛ لما فيه من أجر وثواب، ويقظة أمنية، وعسكرية، تحفظ أمن الوطن والمواطنين، فعن سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (رِبَاطٌ يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعٌ سَوَطٌ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا)<sup>(١)</sup>. وتظهر قيمة الرباط في إبقاء الأمة يقظة منتبهة أمام أي تحركات من أعدائها، ويعينها على استكشاف ما لدى أعدائها من مكائد أو مؤامرات.

### المطلب الخامس: الإعداد المادي والأخذ بأسباب القوة

من فروض الكفايات التي تطالب بها الأمة امتلاك الإمكانات المادية العسكرية والصناعية والتقنية التي تساعدها في الحفاظ على أمنها واستقرارها وتطورها وازدهارها، وحتى تبقى مهيبَةً الجانب، مَصُونَةُ الشرف والأرض والعرض، يجب عليها أن تحصن الوطن بكل ما يتاح لها من تحصينات علمية وصناعية وعسكرية وزراعية؛ نهضةً بالوطن والمواطنين من جهة، وتقويةً لموقعها الإقليمي والعالمي، ودفعةً لأي خطر يمكن أن يهددها من جهة أخرى، وهذا يشمل كل صور الإعداد التي وسعتها آية الإعداد، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (٦٠) الأنفال:

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَابُ فَضْلِ رِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، رقم الحديث: (٢٨٩٢)، (٣٥/٤).

٦٠. وفي السيرة النبوية مواقف واضحة تدل على الاهتمام بالإعداد والأخذ بأسباب القوة، فمن ذلك: استخدام الرسول ﷺ للمنجنيق والدبابة في حصار الطائف<sup>(١)</sup>، ومنها: الدعوة للتصنيع الحربي؛ فالنبي ﷺ لما افتتح خيبر سبي فيما سبي ثلاثين قينا<sup>(٢)</sup> وكانوا صناعاً سماسر وحدادين، فدعا النبي ﷺ لاطلاقهم لينتفع المسلمون بصناعتهم<sup>(٣)</sup>، ومنها: الحث على استخدام آلات الرمي؛ فعن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾  أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ<sup>(٤)</sup>، ومنها: توفير حاجة الدولة من السلاح بشرائه عند العجز عن تصنيعه؛ فقد بعث النبي ﷺ سعيد بن زيد إلى نجد ليبْتَاعَ له الخيل والسلاح، واتخذ ﷺ أنواع السلاح. التي كانت موجودة إذ ذاك عند الأمم<sup>(٥)</sup>، ومنها: التدريب على استخدام السلاح فقد أرسل النبي ﷺ غُرُورَةَ بْنَ مَسْعُودٍ، وَعَيْدَانَ بْنَ سَلَمَةَ، كَانَا مُجْرَشَ يَتَعَلَّمَانِ صَنْعَةَ الدَّبَابَاتِ وَالْمَجَانِيْقِ وَالضُّبُورِ<sup>(٦)</sup>.

- 
- ١- انظر: خطاب، الرسول القائد، (ص ٣٧٨). السهيلي، الروض الأنف، (٣٣٧/٧). أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، (٤٧٦/٢).
- ٢- القَيْن هو الحَدَّادُ وَالصَّانِعُ، وكل عَامِلٍ الْحَدِيدِ عِنْدَ الْعَرَبِ قَيْنٌ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، (٣٥٠/١٣)، فصل القاف.
- ٣- الكتاني، التراتيب الإدارية = نظام الحكومة النبوية، (٥٢/٢).
- ٤- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الرَّمِيِّ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ وَذَمِّ مَنْ عَلمَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ، رقم الحديث: (١٩١٧)، (٥٢/٦).
- ٥- الكتاني، التراتيب الإدارية = نظام الحكومة النبوية، (٢٧٩/١).
- ٦- السهيلي، الروض الأنف، (٣٣١/٧). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٤٧٨/٢). وجرش: من مخاليف اليمن من جهة مكة، انظر: ابن منظور، لسان العرب، (٢٧٢/٦)، فصل الجيم، الضبور: جلدٌ يُعْشَى حَشْبًا فِيهَا رِجَالٌ تُقْرَبُ إِلَى الْحُصُونِ لِلْقِتَالِ. انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، (ص ٤٢٨)، باب الرء، فصل الضاد.

### خاتمة (أهم التوصيات والنتائج):

أظهر البحث ما يحظى به الوطن من عناية دينية بالغة من خلال السنة النبوية، وقد توصلت فيه إلى جملة من النتائج والتوصيات، أجمالها فيما يأتي:

أولاً: ما ينطبق على الأمة الإسلامية على ترامي أطرافها، من مقومات حمايتها والمستمدة من التشريعات النبوية ينطبق على مستوى الوطن ذي الحدود الجغرافية وفق المفهوم المعاصر، وما ينسحب على الكل من مقومات مستنبطة من الهدى النبوي ينسحب على الجزء وهو الوطن، ومما يدعو لهذا أن الهدى النبوي قولاً وفعلاً وممارسة في الشأن الوطني، تم ضمن ما وصلت إليه سيادة الإسلام في عهده بدأت من يوم قيام الكيان الإسلامي في المدينة. واتسع مفهوم الوطن آنذاك ليشمل الجزيرة كلها، فضلاً عن التحالفات مع المجاورين والتي تضمن ولاءهم للدولة.

ثانياً: الاهتمام بالوطن فكرياً وثقافة وهوية وعناية شاملة وممارسة فعلية، جزء من التشريع الإسلامي النبوي ولا يتعارض مع الهوية الإسلامية الأكبر، والتي تستوعب الأوطان الإسلامية. ولم يكتف النبي ﷺ بالدعوة النظرية لحب الوطن والاهتمام به، بل ترجم أقواله إلى منهج متكامل وممارسة عملية تنوعت وتعددت بين احترام الأدمية وحقوق الإنسان، إلى التكافل الاجتماعي، ومحاسبة الفاسدين، والقتال لدفع خطر الأعداء.

ثالثاً: من أهم المقومات الداخلية لحماية الوطن: مقومات دينية، نحو الخطاب الديني الوسطي، وإنسانية، مثل احترام الكرامة الإنسانية. وهناك مقومات علمية معرفية، مثل الاهتمام بالعلم والعلماء، والاهتمام بالإعلام الهادف. وهناك مقومات وطنية، مثل الولاء للوطن والتسامح والتعايش المشترك، والاهتمام بتاريخ الوطن. وهناك مقومات سياسية داخلية، مثل سيادة القانون وحفظ الأمن العام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووحدة المجتمع وتماسكه. وهناك مقومات قانونية مثل العدالة الاجتماعية والمساواة الحقوقية، ومعرفة الحقوق والواجبات، وإشاعة أجواء الحرية المسؤولة المنضبطة، ومكافحة الفساد والمفسدين ومقومات اقتصادية، مثل تحقيق التنمية الاقتصادية.

رابعاً: من أهم الأسس الخارجية ومقوماتها: الارتباط الوثيق بالأمة الإسلامية، والتحالفات والمعاهدات مع المناطق والدول المجاورة، والتضحية والفداء والجهد لدفع العدوان، والرباط على

الثغور، والإعداد المادي والأخذ بأسباب القوة.

خامساً: أوصي الباحثين بإجراء مزيد من الدراسات والأبحاث حول هذا الموضوع، وذلك لقلّة الدراسات العلمية المعمّقة فيه، واستخراج ما في السنة من مواقف وشواهد تساعد في الوقوف على الصورة المتوازنة المعتدلة عن مكانة الوطن.

سادساً: أدعو اللجان القائمة على هذه الندوة المباركة إلى التعاون مع الإعلام لتبني هذه الدراسات وعرض خلاصاتها على المواطنين، وتقديمها إلى المؤسسات الرسمية وأصحاب القرار بغرض تفعيل (مقومات حماية الوطن وأساسه).

سابعاً: دعوة لأصحاب القرار الأكاديمي في الجامعات والكليات الشرعية في الوطن العربي لاعتماد مساق يحمل عنوان (الوطن في الكتاب والسنة)؛ وذلك للضرورة الملحة في زمن تستهدف فيه الأوطان.

هذا غيض من فيض، والموضوع بحاجة إلى مزيد من الدراسات والأبحاث التي تسلط الضوء على مكانة الوطن، وسبل النهوض به، وحمايته داخلياً وخارجياً.

هذا ما توصلت إليه، فإن وفققت فمن الله وحده، فله الحمد والمِنَّة، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله من كل زلل أو خطأ. والله ولي التوفيق وعليه الاتكال.

## المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، المبارك بن محمد الشيباني، أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
- الأزدي القرطبي، محمد بن عيسى بن محمد، أبو عبد الله، الإنجاد في أبواب الجهاد وتفصيل فرائضه وسننه وذكر جمل من آدابه ولواحق أحكامه، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، ومحمد بن زكريا أبو غازي، دار الإمام مالك، مؤسسة الريان.
- الألباني، محمد ناصر الدين، أبو عبد الرحمن، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- الألباني، محمد ناصر الدين، أبو عبد الرحمن، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
- الألباني، محمد ناصر الدين، أبو عبد الرحمن، صحيح الترهيب والترهيب، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبد الله، الأدب المفرد، حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيرى مستفيداً من تخريجات وتعليقات الشيخ: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بيومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، أبو عيسى، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد

- فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، أبو العباس، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج، الوفا بتعريف فضائل المصطفى، دار المعرفة.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج، غريب الحديث.
- ابن حجر، أحمد بن علي، أبو الفضل، فتح الباري شرح صحيح البخاري، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حديدة، محمد (أو عبد الله) بن علي، المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، تحقيق: محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت.
- الخطاب، محمد بن محمد الطرابلسي، أبو عبد الله، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر، ط ٣، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
- خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، دار الفكر، بيروت، ط ٦، ١٤٢٢هـ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، أبو عبد الله، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط ٥، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

## أُسُسُ حِمَايَةِ الْوَطَنِ، وَمُقَوِّمَاتُهَا فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ

- ابن رشد، محمد بن أحمد بن محمد، أبو الوليد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
- رفاعي، عاطف إبراهيم المتولي، صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم، دراسة في التفسير الموضوعي، إشراف د. حاتم مزروعة، رسالة ماجستير، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية (ماليزيا)، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.
- الزُّحَيْلِي، وهبة بن مصطفى، الفِقهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ، دار الفكر، دمشق، ط ٤.
- أبو زهرة، محمد، العلاقات الدولية في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٥م.
- أبو زهرة، محمد، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر ذي القعدة، ١٤٢٥هـ.
- السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد، أبو القاسم، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١.
- الشرييني، محمد بن أحمد الخطيب، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- الشريف، كمال، حقوق الإنسان في صحيفة المدينة، حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠١م.
- أبو شُهْبَةَ، محمد بن محمد بن سويلم، السيرة النبوية على ضوء القرآن، دار القلم، دمشق، ط ٨، ١٤٢٧هـ.
- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
- العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٦، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، أبو طاهر، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ٨، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
- القحطاني، سعيد بن علي بن وهف، الجهاد في سبيل الله تعالى، مطبعة سفير، الرياض.

- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد، المغني، مكتبة القاهرة ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط ١٤١٥هـ، ٢٧، ١٩٩٤م.
- الكتّاني، محمد عبّد الحّي بن عبد الكبير ابن محمد الحسني، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ط ٢.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، أبو عبد الله، سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، أبو عبد الله، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
- مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، أبو الحسن، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، بيروت ط ٣، ١٤١٤هـ.
- الموصلي، عبد الله بن محمود بن مودود، أبو الفضل، الاختيار لتعليق المختار، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٥٦هـ، ١٩٣٧م.
- نفاذ، إسماعيل، مفهوم الوطنية والمواطنة في الفكر الإسلامي المعاصر، العدد ٦.
- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب، أبو محمد، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م.
- الهروي، أحمد بن محمد، أبو عبيد، الغريبين في القرآن والحديث، تحقيق ودراسة: أحمد فريد الزبيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.



أهم الروابط الإلكترونية:

- الحمصي، علي نديم الحمصي مفهوم المواطنة في الشريعة الإسلامية صحيفة المدينة المنورة نموذجًا،  
الموقع: [https://www.almaaref.org/books/contentsimages/  
books/dirasad/aleslameyoun\\_walmocharaka/page](https://www.almaaref.org/books/contentsimages/books/dirasad/aleslameyoun_walmocharaka/page)
- العلمي، عبد القادر، المواطنة مفهومها ومقوماتها، الموقع:  
<https://machahid24.com/etudes/74521.html>



حماية الوطن في السنّة النبوية ومقوماته السلوكية  
والاجتماعية والاستراتيجية

الدكتور/ بيدر محمد بن محمد حسن  
أستاذ مساعد في كلية الشريعة والقانون - جامعة العلوم الإسلامية الماليزية  
الجمهورية اليمنية





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين، محمد وعلى آله وصحابه الغر الميامين. أما بعد،

فإنه من الأهمية بمكان عند الحكم على حالة معينة دراسة ظواهرها السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية بقدر من الاتزان والاتساق والتمعن، سواء أكانت تلك القضية تتعلق بحماية الوطن، أم ببعض السلوكيات غير المرغوبة، والتي تؤثر سلبًا في الوطن، حتى تتكون فكرة واضحة تقود وتُعين على الوصول إلى نتائج إيجابية في القضية المراد دراستها.

ولكون البحث يناقش قضية حماية الوطن في السنة النبوية، من خلال ثلاثة مقومات أساسية وهي: المقوم الأخلاقي، والمقوم الاجتماعي، والمقوم الاستراتيجي؛ فإنه من الملائم دراسة هذه المقومات من خلال السنة النبوية المطهرة وتحليلها بما يتناسب وطبيعة القضية المراد دراستها.

لقد تطرقت السنة النبوية لقضية حماية الوطن من جهات عدة تتضمن الجانب الأخلاقي الذي يمثل الوازع النفسي، الجانب المؤسسي الذي يمثل تنظيم شؤون المجتمعات ما يخدم حماية الوطن. والجانب الاجتماعي، وتطرق البحث إلى هذه الاتجاهات التي تُعد الركائز الأساسية في الحفاظ على الوطن وحمايته.

وتتمثل مشكلة البحث في غياب المقومات الأساسية والجوانب المهمة التي يعتمد عليها في حماية الوطن؛ فالمقومات السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية التي تُعد من الركائز الأساسية في حماية الوطن، تكاد تكون مهملة في الجانب التوعوي والثقافي والتعليمي في البلدان العربية والإسلامية، مع أن السنة النبوية مثلت الإطار الفكري والأسس المنهجية لهذه القضية، ولذلك فإن البحث يحاول أن يلامس بعض هذه الأطر المؤسسية المنهجية والمهمة في حماية الوطن في السنة النبوية المطهرة من خلال التطرق إلى بعض المقومات الأساسية لحماية الوطن في السنة النبوية.

ويهدف البحث إلى بيان أهمية البعدين الاستراتيجي والمنهجي في التعامل مع قضية حماية الوطن في السنة النبوية، كون التنظير الإرشادي المجرد من الأعمال المؤسسية المنهجية يكون أثرها أنيًّا وغير مجدٍ على المدى الطويل، ويضع البحث بعض الأطر المنهجية والاستراتيجية التي يمكن أن تساعد في ترجمة بعض أفكار البحث إلى أعمال مؤسسية تحتضن التعليم والتثقيف الإيجابي في جانب حماية الوطن والعمل على أمنه، واستقراره، ورفقه، وازدهاره.

وهناك دراسات عن حماية الوطن في السنة النبوية وحب الوطن في السنة النبوية وهي كثيرة لا تتسع هذه المقالة لحصرها، وسوف تقتصر المقالة على أهم ما ورد في هذا الصدد، ولعل من أهم الدراسات التي تطرقت إلى قضية الوطن وحمائته وحبه ما يأتي:

– **"الدفاع عن الوطن فطرة وإيمان"** لعادل عبد الله هندي<sup>(١)</sup>. مقالة منشورة في مجلة المستشار. تطرق فيها الباحث إلى بعض القضايا المهمة تمثلت في الآتي: فطرية حبّ الأوطان، والإسلام والوطنية، وصور من الدفاع عن الوطن في السنة النبوية، بيد أن البحث لم يتطرق إلى قضية حماية الوطن بشكل منهجي استراتيجي، وتناول البحث حماية الوطن في السنة النبوية ومقوماته السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية، وقضية حماية الوطن من خلال تأطير فكري استراتيجي يصلح أن يكون أنموذجًا لعمل مؤسسي يصب في مصلحة حماية الوطن وخدمته وأمنه واستقراره وتطوره ورفقه وازدهاره.

– **"الانتماء للوطن وضوابطه الشرعية دراسة نموذجية وفق الشريعة الإسلامية"**<sup>(٢)</sup>. تطرق الباحث في هذه الدراسة إلى الانتماء الوطني وضوابطه الشرعية، مبيِّنًا أهم المصطلحات المتعلقة والمتصلة به، نحو مفهوم الوطن والوطنية والمواطنة -الذي يُعد أهم ركائزه ودعائمه التي يقوم عليها - بمختلف وجهات النظر الفكرية لفقهاء وفلاسفة وعلماء، وركزت الدراسة بصفة خاصة على النظرة الشرعية لمفهوم الانتماء إلى الوطن من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، إضافة إلى آراء كبار علماء السنة؛ نحو شيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ ابن باز، إضافة إلى آراء وتصورات العديد من العلماء والباحثين؛ وذلك قصد الوصول إلى أثر الانتماء

١- ينظر: [http://www.almostshar.com/Subject\\_Desc.php?Subject\\_Id=4633&Cat\\_Subject\\_Id=34&Cat\\_Id=3](http://www.almostshar.com/Subject_Desc.php?Subject_Id=4633&Cat_Subject_Id=34&Cat_Id=3)

٢- ينظر: [https://www.alukah.net/publications\\_competitions/0/55434/#ixzz5dnPCmOS8](https://www.alukah.net/publications_competitions/0/55434/#ixzz5dnPCmOS8)

الوطني في السلم الاجتماعي.

ولم تستهدف الدراسة الأسس المنهجية والاستراتيجية التي يمكن أن تكون أرضية لعمل مؤسسي خاص لتنمية مهارات المجتمعات والشعوب من أجل حماية الوطن، وغطى البحث الذي نحن بصددده بعض الجوانب المؤسسية والمنهجية والاستراتيجية ذات الصلة بقضية حماية الوطن في السنة النبوية.

- "الوطن والمواطنة في القرآن والسنة"، لمحمد أفيقة<sup>(١)</sup>. تطرق الباحث فيها إلى قضية الوطن والمواطنة بشكل عام، تضمنت الرسالة بعض الجوانب المتعلقة بحب الوطن وحمايته في السنة النبوية، وإن كانت قليلة، فقد غلب على الرسالة الجوانب العامة المتعلقة بالوطن والمواطنة، وغاب عن الباحث التركيز على الأسس والمضامين المتعلقة بحماية الوطن والحفاظ عليه، وسوف يضيف هذا البحث بعض الجوانب الاستراتيجية والمنهجية المتمثلة في المقومات الأساسية لحماية الوطن في السنة النبوية.

وهناك دراسات أخرى لها علاقة بموضوع حماية الوطن وحبّه، استفاد الباحث منها في بعض الجوانب الفكرية التي تتسم بطابع علمي وتأصيلي، غير أن الجوانب الفلسفية للموضوع التي تبرز أهمية المقومات المذكورة في البحث هي من القضايا الجديدة في هذه الدراسة التي لم تتناولها الدراسات السابقة.

واشتملت دراستنا على ثلاثة مباحث تضمن كل مبحث بعض المطالب التي تعالج حماية الوطن في السنة النبوية في الجوانب السلوكية، والاجتماعية، والاستراتيجية.

١- يُنظر: أفيقة، محمد. الوطن والمواطنة في القرآن والسنة. رسالة ماجستير، جامعة العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، الجزائر. ٢٠١٦م.

## المبحث الأول: مفهوم الوطن وحمايته

سوف يتطرق المحور لمفهوم الوطن من خلال تعريف أصحاب المعاجم لمفردة "وطن" ثم بعد ذلك ننتقل إلى التعريفين الشرعي والقانوني للوطن.

**المطلب الأول - الوطن لغة:** هو منزل الإقامة من الإنسان ومحل<sup>(١)</sup>. وأوطنت الأرض اتخذتها وطنًا، يعني الوطن، بأنه محل الإنسان، وأوطن الأرض ووطنها واستوطنها وآتطنها أي جعلها وطنًا<sup>(٢)</sup>.

**المطلب الثاني - الوطن في المفهوم القانوني:** موطن الشخص هو المكان الذي يقيم فيه على وجه معتاد<sup>(٣)</sup>. ويركز التعريف القانوني للوطن على الحيز الجغرافي فقط دون الإشارة إلى الدولة والمؤسسات والنظم والقوانين والعلاقات الاجتماعية والنظم السياسية والاقتصادية وغيرها من الأمور المهمة التي ينبغي أن تشير إليها التعاريف القانونية والدستورية للوطن، ولذلك فإن البحث سوف يضيف في المفهوم العام للوطن ما يتعلق بالقضايا التي أهملتها التعاريف القانونية للوطن، وذلك بوصفها جزءًا مهمًا لا يقل أهمية عن الحيز الجغرافي للوطن.

**المطلب الثالث - الوطن في المفهوم العام:** الوطن هو الحيز الجغرافي الذي ينتمي إليه الإنسان وفقا للنظم المعمول بها في الدولة، وهو المكان الذي يشعر فيه الفرد بالانتماء له والولاء، والوطن ليس مجرد رقعة من الأرض؛ فالوطن يشمل على كل ما من شأنه تنظيم شؤون الناس والعمل على أمنهم واستقرارهم ورفاهيتهم، وعليه فإن مؤسسات الدولة ودستورها وقوانينها وأنظمتها والمجتمع تُعد روح الوطن والحيز الجغرافي هو الجسد.

ويستلزم الحفاظ على الوطن الحفاظ على الروح حتى لا يموت الجسد، ولذلك وجب الحفاظ على الوطن وحمايته جسديًا وروحيًا، حتى تسير حياة الناس بالشكل المطلوب في عمارة الأرض وبناء

---

١- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس. (بيروت: دار الهداية. د.ت).  
٢- يُنظر: ابن منظور، معجم لسان العرب، (بيروت: دار صادر)، ص ٣٢. ويُنظر: الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (١٩٨٦)، مختار الصحاح، (بيروت: مكتبة لبنان) ص ٣٠٣.  
٣- يُنظر: arab-ency.com/law/detail/164280. (١/٨١) مدني إماراتي) تم الاطلاع عليه بتاريخ ٢٠١٨/٩/١٢ م.



الحضارات الإنسانية الراقية، وقد أعلى الإسلام من شأن الأوطان بوصفها قيمة مهمة في حد ذاتها، كما أنها الهوية المعبرة عن الإنسان، فالحب والانتماء والولاء إلى الوطن واجب شرعي وقانوني.

ولقد أعطى النبي ﷺ اهتماماً بالغاً للوطن بوصفه جزءاً لا يتجزأ من حياته، وذلك حين هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بوقوفه على مشارف وطنه "مكة" ينظر إليها أسفاً حزيناً ليقول: "مَا أَطْيَبُكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبُّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ"<sup>(١)</sup>.

**المطلب الرابع: مفهوم حماية الوطن:** لا تعني حماية الوطن في السنة النبوية الحفاظ على حدوده من الاختراق والتعدي فحسب، بل تعني مفهوماً واسعاً وعميقاً؛ فالوطن بقدر حاجته إلى حماية أطرافه من أي اعتداء، فهو بحاجة إلى العناية بعمقه الروحي والمعنوي والحضاري، والمكوّن الاجتماعي والنظم والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية، والتعامل الإيجابي مع كل المكونات التي تمثل الشعب والوطن والدولة، ونشر روح الألفة والمحبة بين فئات المجتمع على اختلاف مشاربها ومذاهبها، والابتعاد عن كل ما من شأنه تعكير صفو المجتمع والتأثير على وحدته وتماسكه وتعاونه.

وسوف يتطرق البحث في المباحث الآتية إلى أهمية هذه العوامل الداخلية في الحفاظ على الوطن وحمايته من خلال دراسة بعض المقومات المهمة والتي تمثل العصب الأساس للجبهة الوطنية الداخلية.

## المبحث الثاني: المقوم الأخلاقي السلوكي لحماية الوطن

لقد حرص الإسلام على بناء مجتمعات يسودها الأمن والسلام والوئام بين أفرادها بتكريس مبادئ إنسانية وأخلاقية راقية ومتعددة لبناء مجتمع متماسك قوي، بغض النظر عن الاختلافات الدينية والقبلية، وغيرها من الاختلافات التي تُعد من سنن الكون، من خلال روافد أخلاقية رائعة، مثل: التعاون، والحب، وبذل الخير، والمعروف، وإطعام الطعام، ونشر السلام، والتعاون على البر والتقوى، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وغيرها من المفردات الأخلاقية والسلوكية السامية في

١ - الترمذي، (٥/ ٧٢٣)، (ح ٣٩٢٦).

الإسلام التي حث عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكل هذه المفردات تُعد دعائم راسخة في بناء وحدة مجتمعية وطنية، تتألف فيما بينها لحماية الوطن والحفاظ على مكتسباته والعمل على عمارته الإنسانية والحضارية، ويتطرق هذا المحور إلى مفردة أخلاقية عظيمة، ممثلة لمفردات متعددة، والاقتصار على مفردة واحدة في هذه الدراسة هو مجرد مثال وقراءة استراتيجية لكيفية التعامل مع المفردات السلوكية والأخلاقية الرائعة التي حوّاها القرآن والسنة النبوية المطهرة، وسوف نتطرق الدراسة إلى مفردة سلوكية واحدة لبيان أهمية البعد السلوكي والأخلاقي في السنة النبوية في حماية الوطن، وهذا المفردة السلوكية المهمة هي حقوق الجار، التي تركزت في تربية النبي ﷺ أصحابه وأُمَّته عليها، وحرص تمام الحرص على البلوغ بها إلى الغاية القصوى من الاهتمام، في تعاملاته اليومية مع جيرانه ﷺ، حتى ولو كانوا من غير المسلمين، وذلك حرصاً منه ﷺ على تعزيز السلوك الإيجابي في المجتمع الواحد وبناء الوجدان والشعور بالانتماء إلى مجتمع واحد وبلد واحد، كون ذلك من الروافد الأساسية في حماية الوطن.

### المطلب الأول: احترام الجار وحسن معاملته من روافد حماية الوطن

لقد كرّس الإسلام مفهوم الجار، بوصفه رابطة اجتماعية أصيلة في أخلاقيات المسلم، وهذا الخلق الراقي له مقاصد عظيمة، تجعل منه رافداً رئيساً من روافد حماية الوطن، ذلك أن للاحترام حق الجار والإحسان إليه مقاصد عظيمة، تجعل المجتمع يسوده الاحترام والتفاهم والحب والخير والسلام، أما إذا كانت هناك بعض المخالفات والتعدي على حقوق الجيران، وعدم القيام بحقوقهم من الإحسان والاحترام، فإن في ذلك مدعاة إلى توتر العلاقات بين الجيران، ومن ثم يحدث نوع من التفكك الاجتماعي في الوطن الواحد، الذي يقود إلى الخصومات والمشاجرات، وزعزعة النسيج الاجتماعي والتأثير السلبي في الوطن وأمنه الداخلي، لقد تعددت الأحاديث النبوية التي تدل على الإحسان إلى الجار، والحرص على الإحسان إليه ولو كان من غير المسلمين.

ولقد استوعبت الأحاديث المتعلقة بالجار ثلاثة جوانب مهمة:

الجانب الأول: الإحسان إلى الجار.

الجانب الثاني: منع الإساءة إلى الجار.

الجانب الثالث تحمل إساءة الجار.

ويتطرق البحث إلى الجوانب الثلاثة بشيء من التفصيل والتحليل في سياق المآلات التي تؤدي بدورها إلى حماية الوطن.

### المطلب الثاني: الجانب الأول الإحسان إلى الجار يمثل رافداً من روافد حماية الوطن

**الحديث الأول:** عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-، عن النبي ﷺ قال: "مَا زَالَ يُوصِيَنِي جَبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ"<sup>(١)</sup>. من القراءة التحليلية لهذا الحديث النبوي واستمرار جبريل عليه السلام في توصية النبي ﷺ بالجار، والإحسان إليه، حتى إن النبي ﷺ ظن أن الجار جزء لا يتجزأ من الأسرة الواحدة التي يرث بعضها بعضاً، هذا الحرص على الإحسان إلى الجار، هو مكون أساسي من مكونات الحرص على سلامة المجتمع، الذي يعد عنصراً أساساً في حماية الوطن وبناء أمنه واستقراره، والعمل على تماسكه وتعاطفه ورفقيه، وهذه النتائج التي يمثلها المجتمع المتعاون المتماسك المتعاطف، مثلت الروح التي تحيي وتنعش الوطن وتحميه من أي انزلاق نحو التفتت، والشقاق، والصراع، والنزاع. فالمعاني الاجتماعية السمحة التي حثنا الإسلام عليها هي في حقيقتها ومقاصدها تعني حماية الوطن، فالقراءة الصحيحة للأحاديث التي تحثنا على احترام الجار، تعني أن الأفراد هم مكون الوطن الواحد؛ فإذا ما ساد بينهم الاحترام والوفاء، فإن ذلك يكون السمة الروحية الأصيلة للوطن، وحمايته، وأمنه، واستقراره، وبناء حضارته.

وأي مجتمع يتصف بهذا الخلق النبوي السامي في التعامل مع الجار، فإنه لا شك قادر على تكوين منظومة حس اجتماعية عالية في تلاحم المجتمع وتماسكه، الذي يمثل العامل الأساس في حماية الوطن وبناء سلمه، وأمنه، واستقراره، ورفاهيته، وازدهاره.

**الحديث الثاني:** عن أبي شريح العدوي، قال: سمعت أذناي، وأبصرت عيناي، حين تكلم النبي ﷺ فقال: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ"<sup>(٢)</sup>. في هذا الحديث النبوي الشريف، تركزت الدعوة إلى إكرام الجار،

١- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. كتاب الأدب باب: الوصاة بالجار. ح/٦٠١٤.

٢- المصدر السابق. باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره. ح/٦٠١٩.

والضيف، وقد يكون الضيف هو الجار، والجار هو الضيف أيضاً، وقد عُدَّ إكرام الجار والضيف من الإيمان، وإكرام الجار لا يعني فقط أن تكرمه بالطعام والشراب وحسن الضيافة، وإنما الإكرام مفردة تستوعب كل المعاني الإيجابية التي من شأنها أن تخدم حماية الوطن، وهكذا نلاحظ كيف حرصت السنة النبوية من خلال هذه المفردات الأخلاقية الراقية من خلق مجتمع مدني متعاون متلاحم متراحم يكرم بعضه بعضاً ويحسن بعضه إلى بعض، وقد كان المجتمع الإسلامي الأول الممثل لهذه التعاليم الأخلاقية مجتمعاً رائعاً وفريداً، ولقد أثمرت تلك الأخلاق الرفيعة سلماً وتعاوناً وأمناً واستقراراً ليس له مثيل على مر العصور، وهذه من العوامل المهمة والمهمة التي تعزز معاني الوطن في النفوس والحرص على حمايته وأمنه واستقراره وبناء حضارته.

### المطلب الثالث:

#### الجانب الثاني التحذير من الإساءة إلى الجار يمثل رافداً من روافد حماية الوطن

لم تقتصر السنة النبوية على مجرد الحث على الإحسان إلى الجار والترغيب في ذلك، بل حتى تكتمل الصورة، فإن السنة النبوية المطهرة عملت على منهج متكامل للوفاء بالتزامات التماسك المجتمعي الرافد الأساس في حماية الأوطان، فكما رَغِبْتَ، حذرت ورهبت، ومن ضمن الأحاديث الواردة في التحذير والترهيب لمن يسيء إلى جاره، حديث أبي شريح، أن النبي ﷺ قال: "وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ. قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ"<sup>(١)</sup>.

في هذا الحديث، إمعان في التوبيخ لمن يؤذي جاره، ولا يتحمل ما قد يصدر من تصرفات عنه ربما تؤدي إلى تكدير صفو العلاقة بين المتجاورين، واتساع رقعة التوتر بين الجيران، ما يؤدي إلى اتساع رقعة التوتر في المجتمع، وهذا بدوره يؤدي إلى الانتقاص من السكينة العامة للمجتمعات ويقلق بشكل كبير الاطمئنان الاجتماعي والسلام المدني بين الناس ما يؤدي إلى آثار سلبية على الوطن وحمايته وأمنه واستقراره، والأحاديث في هذا الصدد كثيرة، منها: حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ"<sup>(٢)</sup>.

١- صحيح البخاري. باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ح ٦٠١٦. مصدر سابق.

٢- المصدر السابق. باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ح ٦٠١٨.

## المبحث الثالث: المقوم الاجتماعي ركيزة في حماية الوطن

المجتمع هو الوعاء الذي تتفاعل فيه كل ما يتعلق بالإنسان من أمور حياتية تتعلق بأمره الشخصية أو تتعلق بالمجتمع أو بالوطن، فالمجتمع هو نواة الوطن، ولذلك فإنه من الأهمية بمكان عند مناقشة حماية الوطن في السنة النبوية، أن تُدرس الجوانب التي تتعلق بالمجتمع بشيء من الاستفاضة والتحقيق، للوصول إلى الجوانب الإيجابية التي من شأنها تكريس ما يخدم قضية حماية الوطن.

### المطلب الأول: الوضع الاجتماعي الإسلامي الأول وانعكاساته الإيجابية في حماية الوطن

لقد أسهم المحيط الاجتماعي للمسلمين إسهامات منهجية راقية في البحث والاستقراء، من خلال تأثر العقل المسلم بالأسلوب القرآني الراقي في الدعوة والنظر والتفكير، وليس هذا فحسب، فطريقة القرآن الكريم في التعاطي مع المدعوين من أهل الكتاب والمشركون، ومناقشتهم مناقشة فكرية للتفكير في السموات والأرض وفي خلق أنفسهم، وغير ذلك من الأساليب القرآنية الرائعة التي هي المنهج الدعوي لغير المسلمين، لدعوتهم إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وهذا الأسلوب التربوي الراقي خلق مجتمعًا راقياً بفكره وثقافته، كل هذا كان له أكبر الأثر على النتاج الفكري الخصب الناضج بالنظر والاستقراء، لأن من الوظائف الأساسية للدين الإسلامي إنشاء مجتمع صالح يسوده الأمن والسلام، والبناء والتنمية والتطور، في المجالات التي تحتاج إليها الإنسانية كافة، وذلك من خلال تكوين الفرد الصالح الواعي المثقف العالم والمتعلم، حتى يتكون مجتمع صالح يسوده السلام والوئام، ولو اختلفت بهم اللغات والأديان والألوان والقبائل والأعراق.

ولقد بنى النبي ﷺ المجتمع الإسلامي الأول بناءً أخوياً وإيمانياً راسخاً جعل منه حمة واحدة لا تجزئها الأفكار المختلفة، ولا الآراء المتباينة، ولا القبائل المتباعدة، ولا الأجناس واللغات والألوان، فقد أرجع النبي ﷺ أصل العلاقة بين المجتمع الإسلامي الواحد إلى الإسلام والإيمان؛ كما في حديث النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى" (١).

١- القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. كتاب البر والصلة. باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم. ح ٢٥٨٦.

إن تجسيد حياة المؤمنين في هذا الإخاء والتماسك والتعاطف والترّاحم، يشكل عنصر القوة، والمقوم الأساس في بناء وطن قوي متمكن في نفوس الناس ظاهراً في حياتهم الاجتماعية والمدنية على أرض الواقع المعيش، وهذا ما كانت عليه الأوضاع الاجتماعية في العهد الأول لصحابة الرسول ﷺ، لقد كان لذلك الترابط والتعاطف والترّاحم أثر واضح في بناء الوطن وحمائته، فإلى جانب التزام الناس بالدين الإسلامي الحنيف، واجتماعهم عليه، وعدم تفرقهم إلى جماعات وأحزاب، كان الأثر الواضح في الانعكاس الإيجابي على الوطن وحمائته من التفكك والانحدار إلى مهاوي الصراع، كما هو الحال في أيامنا هذه في بعض البلدان العربية التي تعاني من تفسخ النسيج الاجتماعي وانتشار الفوضى وضياع الأوطان.

والترابط المجتمعي هو الذي أنتج أمة قوية في شتى المجالات، ولكون المجتمع الإسلامي الأول يمثل عصبه الأمة الواحدة، في ظل منهج دستوري قرآني نبوي متأصل ومتجذر في النفوس والقلوب، ومسيطر على العقول والأفكار، فإن المجتمع الإسلامي كان نتاجه إيجابياً في التجاوب مع المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي وقعت بعد وفاة النبي ﷺ، وكان لذلك الأثر البالغ في الطريقة التي بنى من خلالها مجتمع الصحابة وطنهم، وإن اختلفوا في الطرق والأفكار والاستراتيجيات، إلا أن الوطن والعصبه الاجتماعية الواحدة كانت الهاجس الوحيد، الذي يجتمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم ولا يختلفون فيه.

لقد كان الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ المؤسسين للمجتمع الإسلامي الفذ، والذي تميز بتمسكه بالمبادئ الإسلامية الإنسانية في كافة الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كافة، ولقد كان لهذا المجتمع المسلم المتمسك بالقرآن والسنة - اللذين هما أصل الخير في الأمة - الأثر البالغ في انعكاساته الإيجابية في بناء المجتمع الواعي بأهمية الوطن وحمائته من كل ما من شأنه أن يمس كيانه الواحد، ولقد كان ذلك واضحاً من خلال رجوع الأنصار إلى رأي المهاجرين في قضية اختيار الخليفة، حفاظاً على تماسك المجتمع المسلم وحمية الوطن من التفكك والانزلاق إلى مهاوي الصراع<sup>(١)</sup>.

١- يُنظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١. ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). ج ٣، ص ٥٥.

من جهة أخرى، يظهر في هذا الجانب الاستيعابي لأهمية الوطن وحمايته لدى جمهور الصحابة من المهاجرين والأنصار - رضوان الله تعالى عليهم -، حيث إنهم عدلوا عن آرائهم إلى رأي ثلثة من المهاجرين - رضوان الله تعالى عليهم -، واستوعبوا أهمية الاجتماع على رجل عظيم مثل أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه -، يمكنه القيام بما يتوجب عليه من رعاية شؤون المسلمين، والقيام بواجباته التي يحتمها عليه الواجب الإسلامي تجاه رعيته وتجاه الوطن وحمايته<sup>(١)</sup>.

ومن الانعكاسات الإيجابية للواقع الاجتماعي للمسلمين في العصر الأول هو التزامهم جميعاً بالسمع والطاعة والانقياد في المعروف، والانتقاد البناء للخليفة، إذا ما تجاوز في إدارته لشؤون الأمة سهواً، أو نسياناً، أو اجتهاداً، قدم فيه المفضل على الفاضل، أو لم يصب فيه الحق، وسرعان ما يرجع إذا ما بان له الحقيقة في ذلك، وعدم مناصبته العداء والخروج عليه وإثارة النعرات والزوابع والفتن التي تضر بالوطن وأمنه وسلمه واستقراره، وتدمر النسيج الاجتماعي الذي يعد نواة الوطن وحمايته ومصدر أمنه وقوته واستقراره وازدهاره ورفاهيته.

### المطلب الثاني: التماسك الاجتماعي مقوم من مقومات حماية الوطن

كما تقدم أن المجتمع المسلم الأول في عصر الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم-، كان يحظى باهتمام متميز في تماسكه وقوته، كونهم التزموا بالكتاب والسنة، التي صاغت المجتمع الإسلامي في بوتقة واحدة، تحت راية الإسلام، وألغت جميع الفوارق الطبقية التي من شأنها أن تشحذ الكراهية والحقد بين المجتمعات، وتؤثر سلباً في حماية الوطن وأمنه واستقراره، وتذكي روح العصبية المقيتة، ولقد جعلت الأخوة الإسلامية من المبادئ الإسلامية العليا، لكونها من أوثق عرى الإيمان، فالتزم المجتمع المسلم بهذه المبادئ الإسلامية الراقية، التي جمعتهم بعد تفرق وجعلت منهم كياناً مسلماً واحداً، لا يتطرق إليه الشقاق والنزاع والتعصب والتباغض والحصام والفصام.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أخبره: أن رسول الله ﷺ قال: "المُسلِمُ أخو المُسلِمِ، لا يظلمُهُ ولا يُسلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ

١- يُنظر: الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١. ١٤٠٧هـ).

ج ٢، ص ٢٤١.

كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(١)</sup>.

إن هذا الحديث النبوي الشريف يمثل الرابطة الإسلامية المتينة التي جعلت منهم مجتمعاً موحداً متماسكاً قوي الأواصر والروابط، أنتجت وئاماً وسلماً واستقراراً للوطن، ليس له مثيل في عالم الإنسانية جمعاء، فلقد كان لذلك الأثر البالغ في الطريقة التي كانوا يتعاملون بها مع بعضهم بعضاً، كما مثل الجانب الاجتماعي الرائع في توافقه وتكامله وتأخيه وتعاطفه جانباً آخر في بناء الوطن وحمايته.

### المبحث الرابع: الجانب الاستراتيجي المؤسسي مقوم من مقومات حماية الوطن

الجانب الاستراتيجي المؤسسي يتمثل في بناء المؤسسات الهادفة التي تعمل على حماية الوطن والحفاظ عليه، فمن خلال بناء المنظومة التأهيلية والتعليمية والتثقيفية الاستراتيجية، التي تستهدف الشعب والمجتمع، وتغرس فيهما القيم الراسخة التي تقوي الجوانب الإيجابية وتخدم الوطن، وتقوي أواصر المجتمع، وتبعدهم عن الممارسات التي من شأنها أن تؤثر سلباً في الوطن وترابط المجتمع، وحتى لا تنعكس تلك الممارسات على سكينه الوطن وأمنه واستقراره، يتحتم العمل بشكل كبير في الجانب التأهيلي الاستراتيجي.

إن الاهتمام بالجانب التربوي التثقيفي للشعوب في جوانب معينة تُعد من أفضل الضمانات على الإطلاق في حماية الأوطان في السنة النبوية، من التفسخ الداخلي والتآكل المجتمعي الذي يمثل سبباً رئيساً في تفشي ظاهرة ضياع الأوطان جراء ضعف القيم الثقافية الاستراتيجية والحضارية، لأن الإنسان إذا كان بمقدوره الاحتيال على القانون والدستور، فإنه يصعب عليه الاحتيال على الوازع النفسي الخلقي الإيماني المكرس بمراقبة الخالق سبحانه وتعالى، ذلك أن سلطان النفس - إذا ما أحسن صناعته وصياغته - كان أقوى من سلطان القانون، وهذا هو سر تميز التشريع الإسلامي في نُظمه ومبادئه وتشريعاته بتضمنه أساسين مهمين: أولهما المراقبة الذاتية، وثانيهما المراقبة الخارجية؛ فالمراقبة الذاتية، أساس صناعتها في النفس البشرية هو العلم والوعي والثقافة الواعية والمعرفة العميقة، ما يثمر عن الإيمان والتقوى والخلق النبيل، وهذا منحى استراتيجي طويل الأمد يصب في

١- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. كتاب المظالم. باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه. ح/٢٤٤٢. مصدر سابق.



صالح الوطن وحمايته وأمنه واستقراره ورفاهيته وبناء حضارته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ<sup>(١)</sup>.

والمراقبة الخارجية هي مراقبة السلطات القانونية للفرد الذي يشذ عن المجتمع الصالح بتصرفاته المشينة التي تؤثر سلبًا في المجتمع والوطن، وهذه المراقبة القانونية يجب ألا تتسامح مع من يعبت بأمن الناس واستقرارهم ورفاههم<sup>(٢)</sup>.

وقد بوب الإمام البخاري - رحمه الله - بابًا في إثم من آوى محدثًا<sup>(٣)</sup>، وقد لعن النبي ﷺ من آوى محدثًا كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي الطفيل، قال: قُلْنَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: أَخْبِرْنَا بِشَيْءٍ أَسْرَهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: مَا أَسْرَ إِلَيَّ شَيْئًا كَتَمَهُ النَّاسُ، وَكَيْفِي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ<sup>(٤)</sup>.

والمحدث هو من اقتحم سلم الناس وأمنهم واستقرارهم، وأشاع فيهم الفتن وأقلق سكينتهم العامة، وبث فيهم الشحناء والبغضاء، وأوردهم هلاك الصراع والحروب والخراب والدمار، وهذا المحدث قد قرنت جريمته الشنعاء ببعض الممارسات التي يُعد بعضها شركًا بالله سبحانه وتعالى، مثل الذبح لغير الله، إضافةً إلى مقارنتها بأشد أنواع العقوق وهو لعن الوالدين، ما يدل على حجم الكارثة التي يرتكبها المحدث في حق الوطن والمجتمع وسلمه وأمنه واستقراره.

والتشريع الإسلامي يجمع بين الروح والجسد ويوائم بينهما؛ فالروح هي المراقبة الذاتية التي

١- صحيح البخاري. باب: إن الله عنده علم الساعة، ح/٤٧٧٧. مصدر سابق.

٢- يُنظر: المدرسي، محمد تقي. المجتمع الإسلامي منطلقاته وأهدافه. (بيروت: دار الجيل، د. ط. ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م) ص ٢٢٥.

٣- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. مصدر سابق.

٤- القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. باب: تحريم الذبح لغير الله. ح/١٩٧٨. مصدر سابق.

يكرسها الإيمان والتقوى والخلق القويم، التي تُعد نتاج العلم والمعرفة الحقيقية، فإذا ما افتقرت هذه النفس إلى المراقبة الذاتية، احتاجت إلى التدخل الخارجي المتمثل في القانون، كما يحتاج الخضوع إلى القانون، فإنه بحاجة من باب أولى إلى وازع نفسي يتعلق بالروح، تدفعه إلى الحرص على مصالح الوطن نظاماً وحكومة وشعباً، وهذا الشعور بالمسؤولية يعد من الضمانات العظيمة التي تمنع الأشخاص من الاندفاع إلى الفساد الفردي، الذي يكون أساساً لفساد جماعي رهيب يتأثر بسببه الوطن سلباً، وتنقسم عرى النسيج الاجتماعي ما يؤدي حتماً إلى ضياع الوطن، كما هو حاصل في بعض الدول العربية التي لم تكن الشعوب على ثقافة استراتيجية جيدة تمكنها من تجاوز أي عوامل صراع، ولذلك فإن تلك المجتمعات التي سلّمت قيادتها إلى الجماعات الفتوية ضاعت أوطانها على يديها وأصبحت تحن إلى سابق الأيام التي كانت تعيش فيها في وطن واحد بأمن واستقرار وسلام ووثام<sup>(١)</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الباب قضية المجتمع التي تُعد محور حماية الوطن في السنة النبوية، فإذا ما استقام أمر المجتمع في مسؤولياته وأخلاقياته وسلوكياته، كان ذلك من المقومات الأساسية في بناء الوطن حمايةً وسلاماً وأمناً واستقراراً على الوجه المطلوب، وإذا ما كان المجتمع بعيداً عن السلوكيات اللائقة، أضر ذلك سلباً في الوطن وسلمه وأمنه واستقراره.

ولقد حرص النبي ﷺ في معالجة بعض المؤثرات الخارجية التي قد تؤثر في سلوكيات الأشخاص، وتؤثر بدورها في المجتمع والوطن برمته، ومن ذلك الحياة في بيئة قاسية كالبادية كما ورد من حديث عبد الله بن عباس، عن النبي ﷺ قال: "مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَتِنَ"<sup>(٢)</sup>، القراءة الاستراتيجية لهذا الحديث النبوي الشريف تؤدي إلى معرفة مدى تأثير الإنسان ببيئته ومجتمعه اللذين يعيش فيهما، فالإنسان الذي يعيش في مجتمع عنيف شديد، غالباً ما يظهر أثر ذلك في شخصيته، ولذلك فإن حديث النبي ﷺ اشتمل على النهي عن الرجوع إلى البادية بعد التمدن، التي غالباً ما تكتسب منها الشخصية القاسية الشديدة في التعامل مع الآخرين، وربما تكون هذه الشخصية عنيفة في ردة أفعالها، ما يقوي جانب الخطر

١- يُنظر: المدرسي، محمد تقي. المجتمع الإسلامي منطلقاته وأهدافه. ص ٣٣٠. مصدر سابق.

٢- الشيباني، أحمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد. تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. باب: مسند عبد الله بن عباس، ح/ ٣٣٦٢.

على المجتمع والوطن وحمایته من نتائج الجفوة والشدة.

وقد أشار أكثر فلاسفة علم الاجتماع إلى دور المجتمع في التأثير السلبي، أو الإيجابي في خصائص الأشخاص وصفاتهم، سواء أكانوا صالحين، يهتمون لأمر أوطانهم وحمایتها وسلمها وأمنها الاجتماعي والمدني، أم فاسدين يعملون على تدمير نسيج الأوطان الاجتماعي وأمنها وسلمها المدني، وذلك إنما تعكس تصرفات حالة المجتمع الأخلاقية والثقافية<sup>(١)</sup>.

### المطلب الأول: الجانب المؤسسي في صناعة المرجعيات مقوم من مقومات حماية الوطن

إن العالم الإسلامي اليوم، تعتريه كبوات قاسية أدت إلى انفصام في عراه الاجتماعية والسلوكية والمنهجية والفكرية، وقادته بعيداً عن الاجتماع والائتلاف، والسلم المدني والاجتماعي والوطني، وأدت بدورها إلى تفشي حالات الإرهاب والجريمة، مما أصاب الأوطان بتمزقات خطيرة، وهذا ما يحتم على الحكومات أن تبني استراتيجية المرجعيات للناس للرجوع إليها في القضايا التي تمهمهم، ويتحتم على الناس أن يحتضروا من هذه العواصف الهيجاء بالمرجعيات المتخصصة والمجتهدين والمستوعبين لما يجري هنا وهناك في أوطانهم والعالم، وألا ينحروا وراء كل ناعق، وإنما يحتضروا بحمي العلم الرصين والفهم العميق والثقافة الإيجابية الواعية والحكمة السابعة التي تقدر الأمور بقدرها، وتعطي كل حادث حقه ومستحقه.

الجدیر ذكره في هذا الصدد، أن تعدد المرجعيات، وكثرة الجماعات، قد يكون فيها سلبيات قاتلة تؤثر في الوطن والتماسك المجتمعي، وذلك إذا كانت تلك المرجعيات تحمل أيديولوجيات ذات توجهات مختلفة عن بعضها بعضاً، ولديها مشاريع سياسية خاصة بها، ما ينذر بكارثة مجتمعية يكون سببها تعدد المرجعيات وكثرة الجماعات، ولذلك فإنه يجب أن تكون المرجعيات واحدة ذات هدف واحد، وهو خدمة الوطن وسلمه واستقراره وتماسكه، بحيث يكون الوطن هو المحور الأساس الذي لا يختلف عليه اثنان، وإن أي قضية تثور من شأنها التأثير السلبي في الوطن، والتماسك الاجتماعي، فإنه يجب التوقف عندها تغليباً للأولويات والثوابت التي يجب ألا يستهان بها؛ فالوطن من الثوابت التي لا يُقبل التلاعب بها أو الاستهانة بشأنها، ومن هنا فإن إيجاد مرجعية

١- يُنظر: السمالوطي، نبيل محمد توفيق. المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع دراسة في علم الاجتماع الإسلامي. (جدة: دار الشروق. د.ط، د.س) ص ٦٣.

للناس تكون متفقة حول الثوابت والأوليات تُعد من الأهمية بمكان، حتى لا ينفلت زمام الأمور، وتصبح القضايا الحساسة التي تؤثر في الوطن سلبيًا وإيجابيًا في مهب الآراء والتلاعبات الفكرية والإيدلوجية.

ولذلك فإن الإسلام حرص على أن وجود مرجعيات يعود إليها الناس في شؤونهم، وما أهمهم من الأمور، وخاصة المصرية منها، وذلك من القواعد العظيمة في التشريع الإسلامي أن القول في مسألة بغير علم يُعد من كبائر الذنوب والمعاصي، التي قُرنت بالشرك بالله سبحانه وتعالى. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ {الأعراف: ٣٣}.

وقد استنكر النبي ﷺ على جماعة من الناس اقتحامهم لأمر لا يعرفونه، فأفتوا فيه، وكان نتاج ذلك موت نفس كما جاء عن الأوزاعي، قال: بلغني أن عطاء بن أبي رباح، قال: "أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، يُخْبِرُ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَهُ جُرْحٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ أَصَابَهُ احْتِلَامٌ، فَاعْتَسَلَ فَمَاتَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءَ الْعِيِّ السُّؤَالُ"<sup>(١)</sup>. وإن كان الحديث فيه خلاف بين العلماء في التصحيح والتضعيف، إلا أن الاستشهاد به في هذه القضية يوافق الأصول العامة للشريعة الإسلامية، التي تؤكد حرمة القول على الله بلا علم، وهذا رافد يؤكد أن معنى الحديث يصب في خدمة هذه القضية، ولذلك فإن التعنيف الشديد الذي نص عليه الحديث، إنما كان في قضية تتعلق بشخص واحد أدت إلى وفاته جراء اقتحام بعضهم للفتيا دون علم، فمن باب أولى ألا يتصدر للقضايا العامة للوطن وللمجتمعات والدول والشعوب، إلا المرجعيات المتفق عليها، والمعروفة بعلمها وتخصصها وقدرتها على دراسة الوقائع والأحداث، ومعرفة مصالحها ومفاسدها ومآلاتها.

والواقع خير شاهد، فحينما كثرت الجماعات وأصبح لكل جماعة مرجعية مستقلة عن

١- المؤلف المستدرك على الصحيحين - كتاب الطهارة- باب: كيف يفعل من احتلم وبه جراحة. ح/ ٦٣٥. وروي هذا الحديث من طريقين: من طريق الأوزاعي عن عطاء به، وهذا هو أمثل إسناد للحديث، ومن صحح الحديث وإنما صححه لأجل هذا الإسناد، وهو إسناد معلول، وعلته الانقطاع بين الأوزاعي وعطاء. والطريق الثاني عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أما رواية هذا الحديث عن جابر فإنه لا يصح.

المرجعيات الوطنية، تفتشت الظواهر السلبية في تلك المجتمعات وتراكت على مدار عشرات السنوات، حتى أصبح لكل جماعة مساجدها الخاصة وأتباع وشعار وأهداف، بل أصبح لكل جماعة كيان مستقل بذاته في وطن واحد، وبعد هذه التراكمات الخطيرة التي أفرزت صراعاً مريراً وخطيراً أدت بدورها إلى ضياع بعض الأوطان.

### المطلب الثاني: استراتيجية التأهيل الإيجابي مقوم من مقومات الوطن وحمائته

التأهيل الإيجابي يتمثل في إتاحة الفرصة للشعوب والمجتمعات في التعرف عن كثب على الثقافة المدنية السليمة والصحيحة والمناسبة للحالة المجتمعية التي يعيشونها، ومحاولة تطوير نوعية التفكير الإيجابي للقضايا الاجتماعية والمدنية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإنه يجب على الناس التعرف على الأشياء التي سوف يخوضون فيها، عن طريق السماع والاطلاع والقراءة للمتخصصين، وسؤالهم فيما استشكل من الأمور، ولذلك فإنه من الملاحظ المفارقات الكبيرة بين الدول التي تتمتع شعوبها بثقافة عالية، والشعوب التي تستلهم مواقفها من الجماعات النخبوية، التي تحركهم بناءً على ما تمليه عليهم مصالحهم ومطامحهم، وقد أشار ابن عاشور إلى شيء من هذا في خاتمة كتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام<sup>(١)</sup>.

وقد أشار الطوفي إلى أهمية الرجوع إلى أهل الاختصاص في كل فن، ذلك أن المعتبر هو اجتهاد أهل كل فن دون غيرهم، فأهل السياسة يعتد بقولهم فيما هم مختصون به، وكذلك أهل الطب وأهل الاجتماع وأهل الاقتصاد، فلا يُسَوَّغ بحال التَّطُّفُّل ممن ليس له درية ودراية باختصاص معين، وإلا حصل الفساد، وارتكبت المحاذير، وكان ذلك سبباً مباشراً في الفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي وضياع الأوطان، وهو الحاصل في عصرنا الحاضر في بعض البلدان العربية دون موارد<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان التشريع الفقهي الإسلامي يُوجِبُ على العبد أن يتعلم ما تستقيم به أمور دينه نحو

١- يُنظر: ابن عاشور، محمد الطاهر. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. (عمان: دار النفائس، ط ١.

١٤٢١هـ/٢٠٠١م). ص ٣٦٣.

٢- يُنظر: الطوفي، سليمان بن عبد القوي بن الكريم. شرح مختصر الروضة. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١.

١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). ج ٣، ص ٣٣.

الصلاة وما يتعلق بها من شروط ونواقض وأركان وواجبات وسنن، وغيرها من العبادات، وهو شأن خاص بالعبد في نفسه، ولا يتعدى النَّفع إلى الغير إلا في مساحة تهذيب النفس، فإنه من باب أولى أن تتوجه العناية والاهتمام بالتعليم والتثقيف إلى الأمور التي تتعلق بالشأن العام، ويؤثر على سلم الوطن واستقراره في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية، ولا يصلح أمر المجتمع والدولة والشعوب إلا به.

### المطلب الثالث: استراتيجية تجنب الثقافة السلبية كمقوم من مقومات الوطن وحمايته

تجنب الثقافة السلبية، تُعدُّ من أهم العوامل التي تؤدي إلى ضمان حماية الأوطان واستقرار البلدان وبناء السلم المدني والمجتمعي في شتى الجوانب، كون التغذية الثقافية السلبية يكون أثرها كارثيًا على المجتمعات والشعوب، وتؤدي إلى استقطاب حاد بين المكونات المذهبية والسياسية والعرقية في الدولة الواحدة والمجتمع الواحد، وتُندر التغذية الثقافية السلبية بتفَسُّخ مجتمعي حاد وخطير، يؤدي إلى الصراع المميت، وهو ما يُندر بفشل مدني ومجتمعي ذريع، يؤدي إلى فقدان الدولة ومؤسساتها، وتنقلب الأمور إلى فوضى عارمة وفتن مدلهمة تنهاوش فيها الجماعات والأحزاب على النفوذ والسيطرة بقوة السلاح، لا بقوة الفكر والبرامج التنموية الإصلاحية، ويكون السلاح هو البديل للسيطرة، وليس الفكر والعلم والثقافة.

وقد حث النبي ﷺ على أهمية التأهيل الإيجابي للناس، وأثر ذلك التأهيل الإيجابي على حياة الناس ومجتمعاتهم وسلمهم وأمنهم وصلاح أوطانهم، كما جاء من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِرَاعًا يَنْتَرِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، أَخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُحَافًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"<sup>(١)</sup>، وهذا ظاهر للعيان حينما تعددت المصادر السلبية للثقافة والتلقي لدى بعض الشعوب العربية، فكان نتاج ذلك التحجيش الشعبي في بعض بلدان الوطن العربي والاستقطاب الحاد بين الجماعات والأحزاب من أجل أحداث معينة تصنعها بعض النُخب الفكرية والسياسية، وتجد ميدانًا واسعًا لاستقطاب الأنصار، وتحجيش الأتباع ضد القوى المنافسة، فيحتمد الصراع، وتضيع الأوطان، وتذهب ضحاياه آلاف الناس، وهذا نتاج غربة الشعوب عن

١- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. باب: كيف يقبض العلم. ح ١٠٠. مصدر سابق.

الوعي والعلم والثقافة، وقلة اهتمامهم بالمنهج القرآني والنبوي اللذين يعدان الحصانة الأساسية للشعوب والمجتمعات من استغلال النُخب الفكرية التي لا تأبه بأهمية الأوطان وأمنها واستقرارها إلا في محيطها الضيق ومصالحها الخاصة وهو ما يمثل تهديداً خطيراً ومباشراً لحماية الوطن وأمنه واستقراره وحضارته.

#### المطلب الرابع: استراتيجية الحضرة الإيجابية للثقافة السلبية مقوم من مقومات حماية الوطن

الحضرة الإيجابية يتمثل في الحد من قدرات التغذية الثقافية السلبية والتي يكون مؤداها في الغالب إلى فساد ذات البين والتأليب على المخالف، ونشر ثقافة الحقد والكراهية بين فئات المجتمع، وتناول المواضيع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في إطار طائفي ممنهج، يؤدي إلى التنازع والصراع والافتتال، إضافة إلى نشر ثقافة الجماعة الواحدة والحزب الواحد والمشروع الواحد وعدم قبول الآخر، وهذه الثقافة تهدد السلم المدني للمجتمع والوطن والدولة، وتسبب الاحتقان والصراع والاحتراب والتجزئة للوطن وللمجتمع والدولة الواحدة، كما أنها تُعد تهديداً خطيراً للوحدة الوطنية في أي بلد من البلدان.

وفي الغالب فإن الذين ينتهجون هذا الجانب من الثقافة يجهلون المآلات التي تسببه تغذيتهم الثقافية للمجتمعات والشعوب، ولذلك فإنه ينبغي منع من ليس له أهلية من الحديث فيما ليس من اختصاصه، سداً لما قد يحدث من فتن ومصائب تضر بالوطن وحمائته، وبالنسج الاجتماعي للشعوب والدول، وتحدث شرخاً كبيراً بسبب جهالة أولئك الذين يتصدرون للحديث في الأمور الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، ويولدون جهلاً مركباً يعشعش أثره السيئ في نسيج المجتمعات، ويفرز تشظيلاً مجتمعياً وانشطاراً مجتمعياً وسياسياً كبيراً يؤدي إلى هلاك الأوطان والمجتمعات، وتفشي ظواهر الاستقطاب السياسي والطائفي الحاد الذي يكون سبباً مباشراً في نكسة الأوطان والمجتمعات والدول والشعوب لعقود طويلة. كما هو حاصل في مجتمعات العالم الثالث وخاصة في بعض الدول العربية. قال الله تعالى: ﴿ هَتَأْتُمْ هَوَؤَلَاءِ حَاجِبَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

الجدير ذكره، أنه حينما تتعرف الشعوب على مكانة العلم وأهله، فإنهم لن يألوا جهداً في أخذ الحقائق الواقعية فيما يتعلق بالأمور الاجتماعية السياسية والاقتصادية، وغيرها من أصحابها المتجذرين والمتعمقين فيها، فيتم بذلك تخصيص الدول والشعوب والمجتمعات من أنصاف المتعلمين والجهال الذين يفسدون أكثر مما يصلحون ويهدمون الأوطان والمجتمعات وسلمها وأمنها واستقرارها وحضارتها.

وإن المنهج الإسلامي قد حرص تمام الحرص على ألا يتصدر إلا أهل الاختصاص، وعدد التَّطَافُلِ على العلم من أشد أنواع المخالفات الشرعية التي تستوجب المساءلة في الدنيا والآخرة، لأنه تتوقف على ذلك مسؤوليات عظيمة. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ { الإسراء: ٣٦ }.

#### المطلب الخامس: استراتيجية التأهيل الاجتماعي مقوم من مقومات حماية الوطن

إن نواة الأوطان هي المجتمعات، والمجتمعات تتألف من مكونات قبلية وفكرية ومذهبية ودينية متنوعة، ومتى ما كان الحسّ الاجتماعي مفقوداً بين هذه المكونات المختلفة في مشاربها ومذاهبها، فإن آصرة المجتمع الواحد تقع تحت خطر التآكل والتفسيخ والتفتت، وتصبح التعددية الاجتماعية والفكرية آفة خطيرة على استقرار تلك المجتمعات، حينما تفتقر تلك المجتمعات إلى التأهيل الاستراتيجي الاجتماعي، التي تنبني على المسؤوليات المتبادلة بين فئات تلك المجتمعات المختلفة، من خلال تقبل الآخر والعمل على تحجيم هوة الخلاف، ورتق الشقوق التي تُحدثها الخلافات الفكرية والمذهبية والسياسية، حتى لا يتحول الوطن إلى ميدان صراع بين تلك الجماعات والقبائل، فيؤدي ذلك إلى تآكل المجتمع تحت نير الصراعات الطائفية والأثنية والعشائرية<sup>(١)</sup>.

والأوطان في غالبها مكونة من فئات وأجناس ومشارب ومذاهب مختلفة، وهذا بدوره يجعل تلك الأوطان قابله للصراع، ولذلك فإن بناء استراتيجية التأهيل الاجتماعي تُعد من الأولويات المهمة التي تصب في حماية الوطن، بتنمية ثقافات: الوطن الواحد، والدين الواحد، والمجتمع الواحد،

١- يُنظر: عبد الباقي، زيدان. علم الاجتماع الإسلامي. (د.م: مصبعة السعادة، ط ١. د.س). ص ٢٠.  
ويُنظر: عبد الواحد، مصطفى. المجتمع الإسلامي. (جدة: دار البيان العربي، ط ٣. ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م). ص ١٤.



بحيث يكون الدين والوطن والأمة هي الصبغة الواحدة التي لا يمكن أن يُفترق فيها المجتمع، حتى يبقى متآلفاً متحداً متكاملًا مع بعضه، ولو اختلفت بهم الأجناس والأفكار والمذاهب والأديان، فإنهم يتحدون جميعاً في إعلاء قيمه الأساسية التي تجمعهم وهو الدين والوطن والأمة، وهذا بدوره يمثل حقيقة حماية الوطن من الشروخ الداخلية التي تعد أخطر من العدوان الخارجي على الوطن<sup>(١)</sup>.

ومن هذا المنطلق فقد حرص الإسلام على إعلاء قيمة الحاسة الاجتماعية في أكثر من موضع. قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ {آل عمران: ١٠٣}.

والآيات التي تحث على الوحدة والاعتصام كثيرة، وأكثر من ذلك ما ورد عن النبي ﷺ قولاً وعملاً، فقد كان من الأولويات التي حرص عليها النبي ﷺ بعد هجرته المباركة، العمل على بناء الاستراتيجية الاجتماعية، والتي تُعد أساس بناء أي وطن قوي صالح راق مستقر متحضر<sup>(٢)</sup>، ولقد عمل النبي ﷺ في هذا الصدد من خلال خمس مراحل:

**المرحلة الأولى: استراتيجية التقريب بين الأوس والخزرج من أجل وطن واحد: عمل النبي ﷺ على التقريب بين الأوس والخزرج، وتنمية حاسة المسؤولية تجاه الوطن الواحد وحمانيته، من خلال إعلاء أواصر الأخوة الإسلامية، وجعلها من الثوابت الأصيلة في بناء الوطن وحمانيته وسلمه المدني والاجتماعي، إضافةً إلى التخلية من رواسب الماضي المليء بالنزاع والصراع والثأر<sup>(٣)</sup>.**

**المرحلة الثانية: استراتيجية العمل على ترسيخ مبدأ الأخوة والتعاون بين المهاجرين الأنصار:** كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار من الأولويات التي تُعد ركيزة أساسية ومقوماً أساساً من مقومات حماية الوطن، ولقد لاقى اهتماماً عظيماً من النبي ﷺ لدى وصوله المدينة،

١- يُنظر: أبو زهرة، محمد. تنظيم الإسلام للمجتمع. (القاهرة: دار الفكر العربي، د. ط. ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

ص ١٤.

٢- يُنظر: الكعكي، يحي أحمد. معالم النظام الاجتماعي في الإسلام. (بيروت: دار النهضة العربية، د. ط.

١٩٨١م). ص ١٨.

٣- يُنظر: المصدر السابق. ص ٢٠.

في طريقه لبناء الوطن المتماسك، الذي يعلي مصلح العامة، وتنصهر كل مصالحه في بوتقة الوطن الواحد المتماسك، فأصبحوا على اختلاف أجناسهم وبلدانهم يمثلون وطنًا واحدًا يحمونه ويعملون جاهدين على إعلاء قيمة الوطن وحمائته، فكُونُوا مجتمعًا متماسكًا تسوده المحبة والأخوة والوئام تكون ذلك من الركائز والأسس الضرورية لبناء الوطن وحمائته<sup>(١)</sup>.

### المرحلة الثالثة: استراتيجية التغاضي عن أعمال المنافقين وعدم الإفصاح عن أسمائهم أو قتلهم:

حرص النبي ﷺ على الوطن الواحد وحمائته بالتركيز على الاستراتيجية الاجتماعية لدى المسلمين، والحفاظ على النسيج الاجتماعي الواحد في المدينة، على الرغم من وجود أجسام غريبة فيه لا تؤمن بما يؤمن، وتعمل على خلخلة الوطن والمجتمع الإسلامي من الداخل، ولقد أشار القرآن الكريم في مواضع كثيرة إلى هذا الجسم الغريب الذي يتظاهر بالإسلام ويُيطن الكفر، من أجل التَّيْل من الوطن وحمائته والمجتمع الإسلامي، وذكر القرآن أوصافهم، لكن النبي ﷺ حرص على سِرِّيَّة أسمائهم من أجل الحفاظ على الوطن وحمائته من التفكك والصراع والانقسام، بل إنه عمل جاهدًا على تنمية مسؤولية الحفاظ على الوطن وحمائته بين أصحابه، فلم يسمح بفضحهم أو مضايقتهم، أو قتلهم، وذلك لحرص النبي ﷺ التام على أن يبقى مجتمع المدينة مجتمعًا متماسكًا تسوده الوحدة بعيدًا عن الصراع البيني في وطن واحد قوي ومتماسك، وهذا يمثل العنصر المهم في حماية الوطن وبناء سلمه وأمنه واستقراره وحضارته.

### المرحلة الرابعة: استراتيجية عد اليهود من الوطن الواحد:

يختلف اليهود عن المسلمين في الدين والثقافة، ولكن بوصفهم مواطنين يُشاطرهم المسلمون السكنى في المدينة المنورة، فإن النبي ﷺ لم يُغفل هذا الجانب، بل قام بعمل عظيم في عدِّ اليهود مكونًا أساسًا من مكونات المجتمع المدني والوطن الواحد، فعمل على تنظيم هذا المجتمع والوطن المختلف في دينه وجنسه وثقافته، من خلال التركيز على الاستراتيجية الاجتماعية التي تضمنتها صحيفة المدينة، التي كانت مثالًا رائعًا في ترتيب العلاقة بين فئات مجتمع المدينة المختلفة، وإشعار كل فصيل على مدى المسؤولية التي تقع على عواتقهم، في الحفاظ على تماسك الوطن وحمائته،

١- يُنظر: ابن عاشور، محمد الطاهر. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. ص ١٩٢. مصدر سابق.

والدفاع ضد أي خطر داخلي أو خارجي يهدده، ويستوي في تلك المسؤولية كل من سكنوا المدينة لكونهم يمثلون المجتمع الوطني الواحد، وهذه هي الاستراتيجية الاجتماعية التي تعد من المقومات الرئيسة في بناء الأوطان وحمائتها والحرص على سلمها وأمنها واستقرارها وتطورها<sup>(١)</sup>.

من خلال السرد المتقدم لما كان عليه مجتمع المدينة المتعدد الأجناس والديانات، ودور النبي ﷺ في الحفاظ على الوطن وحمائته وبناء سلمه، وتنمية المسؤولية الاجتماعية لدى أفراد مجتمع الوطن الواحد في المدينة على اختلاف أجناسهم ودياناتهم، يتضح بجلاء أهمية الاستراتيجية الاجتماعية في بناء حماية الأوطان، حتى يسودها الوئام والتفاهم والتقارب وقبول الآخر، والبعد عن الإقصاء والصراع والتعصب الطائفي والمناطقية والفكرية والقبلي، فالاستراتيجية الاجتماعية، تعد من أهم مقومات حماية الوطن والحفاظ على سلمه وأمنه واستقراره، والعمل على تطوره في المجالات والأصعدة والميادين كافة.

#### المرحلة الخامسة: استراتيجية العفو من أجل الوطن وحمائته:

هكذا بدأ النبي ﷺ الحياة الجديدة في مكة، بالعفو العام عن الذين طالما آذوه، وعذبوا أصحابه، وطرده وقاتلوه، غير أنه ﷺ، لم يُبعث من أجل الانتقام لشخصه الكريم، ولا لأصحابه العظماء، وإنما بعث رحمة للعالمين، فكان من ضمن الاستراتيجيات التي اتبعها النبي ﷺ في بناء الوطن وحمائته من التصدع والانهيار، هو العفو والصفح وفتح صفحة جديدة من أجل قيمة عليا هي الوطن، ولذلك فإنه ﷺ، حينما دخل مكة فاتحاً نشر السلام والأمان بين أهلها فقال ﷺ: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْفَى السَّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ.." <sup>(٢)</sup>.

من جهة أخرى، فإن النبي ﷺ لم يضع من مكانة زعماء مكة أو ينتقص من حقوقهم، في حين أنهم كانوا هم من ألبوا عليه وقاتلوه وآذوه أشد الإيذاء، وإنما حفظ لهم مكانتهم، ووشحهم ببعض الأوسمة التي جعلت منهم أعواناً للحق، وأنصاراً للدين والشرعة، ومجاهدين فاتحين، وأئمة يهتدى بهم، فكان من ثمار ذلك بناء وطن متماسك قوي ضرب بأطنابه في أعماق التاريخ، ومثل نموذجاً رائعاً في كيفية بناء الأوطان وحمائتها بالعوامل والاستراتيجيات الحضارية والضرورية لبقائها وديمومتها.

١- يُنظر: المصدر السابق. ص ٤٠.

٢- القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. باب: فتح مكة. ح ١٧٨٠. مصدر سابق.

## النتائج

هدفت هذه الدراسة الموسومة ب: "حماية الوطن في السنّة النبوية ومقوماته السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية" إلى تقديم دراسة تأصيلية وصفية من خلال النصوص القرآنية والنبوية وأسهمت في التحليل النظري والواقعي لما من شأنه خدمة الوطن والحفاظ عليه وحمايته. وتوصلت إلى بعض النتائج التي تُعد من الركائز الأساسية في الأوطان والمجتمعات وهي:

- أولاً: التركيز على بناء السلوكيات الأخلاقية للمجتمعات والأفراد بما يتناسب مع الطبيعة المدنية والخلفية الاجتماعية والدينية لهم بوصفها ركيزة أساس في الحفاظ على الوطن وحمايته.
- ثانياً: التركيز على أهمية المجتمع المتماسك والمتعاون في حماية الوطن.
- ثالثاً: أهمية التأهيل الإيجابي والاستراتيجي للمجتمعات والأفراد من أجل حماية الوطن.
- رابعاً: تُعد الثقافة السلبية من العوائق الخطيرة التي يكمن فيها خلخلة الوطن وسلمه الاجتماعي وأمنه واستقراره.
- خامساً: أهمية تحديد مرجعيات موحدة للشعوب والمجتمعات لأن تفشي ظاهرة اختلاف المرجعيات الدينية والوطنية تسبب كوارث اجتماعية تكون سبباً في تأزم علاقة المجتمع ببعضه البعض ما يهدد الوطن الواحد وسلمه وأمنه واستقراره.
- سادساً: أهمية تحديد الأولويات التي تصب في خدمة الوطن، وإن أي قضية تثور من شأنها التأثير السلبي في الوطن وسلمه الاجتماعي، فإنه يجب معالجة أسبابها وآثارها مما يعود بالنفع في الوطن وأمنه وسلمه واستقراره.
- سابعاً: أهمية التغذية الثقافية الإيجابية في الحفاظ على الوطن وحمايته من الأيدي العابثة المتربصة.

### التوصيات:

- يوصي الباحث اعتماد مركز دراسات يقوم على استخراج جميع الأحاديث والنصوص الشرعية التي تخدم الوطن وتحت على حمايته، ودراستها دراسة تستوحي الجانب الأخلاقي والاجتماعي والاستراتيجي، وذلك لبناء منظومة متكاملة، هدفها الحفاظ على الأوطان والسلام والأمن والاستقرار في البلاد العربية والإسلامية والعالم أجمع.
- يوصي الباحث بالتركيز على الجوانب المتفق عليها، واعتمادها بوصفها مسلمات ومنطلقات للحفاظ على الوطن وحمايته.

## المراجع:

- أفيقة، محمد، الوطن والمواطنة في القرآن والسنة، رسالة ماجستير جامعة العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، الجزائر، ٢٠١٦م.
- الألباني، محمد بن ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي، بيروت: مكتبة المعارف، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ن.م: دار طوق النجاة، ن.ط، د.ت.
- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى، سنن الترمذي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١م.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، بيروت: مكتبة لبنان ١٩٨٦.
- أبو زهرة، محمد، تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت: دار الهداية، د.ت.
- السمالوطي، نبيل محمد توفيق، المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع دراسة في علم الاجتماع الإسلامي، جدة: دار الشروق، د.ط، د.ت.
- الشيباني، أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، د.م: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ.
- الطوفي، سليمان بن عبد القوي بن الكرم شرح مختصر الروضة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- عبد الباقي، زيدان، علم الاجتماع الإسلامي، د.م: مطبعة السعادة، ط ١، د.ت.
- عبد الواحد، مصطفى، المجتمع الإسلامي، جدة: دار البيان العربي، ط ٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، عمان: دار النفائس، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- القشيري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت.
- الكعكي، يحيى أحمد، معالم النظام الاجتماعي في الإسلام، بيروت: دار النهضة العربية، د.ط، د.ت.
- ابن منظور، معجم لسان العرب، بيروت: دار صادر، د.ت.

## حماية الوطن في السنّة النبوية ومقوماته ...

---

- المدرسي، محمد تقى، المجتمع الإسلامي منطلقاته وأهدافه، بيروت: دار الجيل، د.ط، ٤٠٣ هـ/١٩٨٢ م.  
مدني إماراتي) تم الاطلاع عليه بتاريخ . (arab-ency.com/law/detail/16428081/1) .  
12/9/2018 م.  
[http://www.almostshar.com/Subject\\_Desc.php?Subject\\_Id=4633&Cat\\_Subject\\_Id=34&Cat\\_Id=3](http://www.almostshar.com/Subject_Desc.php?Subject_Id=4633&Cat_Subject_Id=34&Cat_Id=3)  
[https://www.alukah.net/publications\\_competitions/0/55434/#ixzz5dnPCmOS8](https://www.alukah.net/publications_competitions/0/55434/#ixzz5dnPCmOS8)





مقومات حماية الوطن ووسائل تفعيلها

دراسة في هدي السنة النبوية

الدكتور / عطا الله مدب حمادي الزوبعي

دكتوراه في الحديث الشريف وعلومه (العراق)





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وآله وأصحابه، ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين أما بعد؛

تُعد الأوطان المهده والمستقر الذي عاشت وتعيش عليه المجتمعات البشرية عبر عصور التاريخ المتعاقبة والتي أسست بدورها لقيام الحضارات الإنسانية على تلك الأوطان، تلك الحضارات التي ارتقت بالإنسان فكريا واجتماعيا واقتصاديا وصناعيا وانتقلت به من عصر إلى آخر أكثر تطورا، من عصر ما قبل التدوين إلى عصر التدوين، ومن عصر ما قبل الصناعة إلى عصر صناعة الآلات والأواني والنسيج.

واستمرت عجلة تطور الحياة في بعض المجتمعات دون غيرها تسابق الزمن وسجلت السبق في سن القوانين لتنظيم شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وبناء المدن وصناعة العجلات والآلات الحربية المتطورة نسبيا للدفاع عن أبنائها وأوطانها ومكتسباتها.

وعندما ننظر في أسباب قيام تلك الحضارات ومقومات وجودها وطول أعمار بعض منها، نجد أن ذلك مرتبط ارتباطا وثيقا باستقرار تلك المجتمعات أمنيا في أوطانها؛ حيث كلما تيسرت أسباب الاستقرار الأمني للمجتمعات انعكس ذلك إيجابا على تطور الحياة وصرفت الهمم للإبداع والبناء والتنمية، وتنظيم أمور الحياة والكشف عن أممات فكرية واجتماعية جديدة أكثر تطورا وتنظيما للحياة، وهذا الذي نطق به قصص التاريخ وحوادثه وشهدت به آثار تلك الحضارات إلى يومنا هذا.

وعلى العكس من ذلك كلما فقد الأمن في مجتمع من المجتمعات فإن الفوضى تعم فيه وتصبح الأمور بيد سفهاء القوم وأرادلهم، وتشكل على إثر ذلك العصابات التي همها المصالح الشخصية؛ حيث لا تقييم وزنا للإنسان ولا اعتبارا لحرمة الدم والمال فيكثر الهرج والفساد في الأرض، فيقتل العباد وتخرَّب البلاد، وتصبح حياة الناس أشبه بالغابة يأكل القوي فيها الضعيف ويتغيب العدل

والإنصاف وتغتال الحرية وتنعدم الكرامة فلا تبقى أهمية للخصال الإنسانية والسمات البشرية التي فطر الله تعالى الناس عليها من حب للخير والإصلاح، ولا يبقى دور للعقل الذي خص الله تعالى به البشر، هكذا تكون الصورة مظلمة عند فقدان الأمن، وقد عاشتها شعوب وأمم عبر التاريخ وتعيشها اليوم شعوب نكبت بفقدان نعمة الأمن.

وقد كفلت الشريعة الإسلامية حق الدفاع عن النفس والوطن والديار وكذلك القانون الدولي والعرف الاجتماعي، قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِيَّائِهِمْ لَأَنْتُمْ أُولُو حَقٍّ عَلَيْهِمْ يُقَاتَلُونَ ﴾ (١٩٠)، فالآية أعطت الحق للمسلمين في رد العدوان على كل من يستهدف أرضهم وخيراتهم، بل أوجبت ذلك وجعلت القتال واجبا دينيا في سبيل الله؛ لأنه يحمي الدين من الفساد والعباد من الاستعباد، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٤)، وكفلت المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة حق أي دولة في الدفاع عن حدودها إذا وقع عليها عدوان خارجي، وجاءت الشرائع السماوية والقوانين الوضعية مؤكدة للعرف الاجتماعي الذي عرفته البشرية عبر تاريخها في حق الدفاع وصد الغزاة. قال الفند الزماني:

فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ  
وَلَمْ يَبَقْ سِوَى الْعُدْوَانِ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا<sup>(٣)</sup>

ونحن إذا ما أردنا أن نقيم دولة تزهدها فيها الدعوة إلى الله، ويأمن فيها الدعاة من القتل والحطف والتنكيل، ويقام فيها شرع الله، ويمكن لدينه الذي ارتضاه، وتبنى الحضارة على المفاهيم الإسلامية فلا بد من إيجاد أرض آمنة، ومجتمع قادر على حماية هذه الدولة وصيانة مكتسباتها.

هذه هي الحقيقة التي لا اختلاف فيها والتي تكشف عن العلاقة المطردة بين ضرورة توفر الأمن، وإقامة دين الله التي مفادها ألا قيام لشرع الله في الأرض إلا بالتمكين، ولا تمكين

١- سورة البقرة آية (١٩٠).

٢- سورة النمل آية (٣٤).

٣- أبو علي القالي، الأمالي، ج ١، ص ٢٦٠.

إلا بشيوع الأمن في ربوع الوطن وحماية أرضه وحدوده، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْوُهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ الْأُمُورُ أَعْيُنٌ عَائِنُ رَبِّكَ﴾<sup>(١)</sup>، فجعل الله سبحانه وتعالى إقامة الدين مرتبطا بالتمكين في الأرض.

فان قيل إن الوطن ليس له أي اعتبار ولا أهمية في الدعوة إلى دين الله بدليل الهجرة حيث هاجر الأنبياء من أرض إلى أخرى أكثر أمنا وأفضل استقرارا في إقامة شعائر الله والدعوة إليه، وقد هاجر رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - إلى المدينة المنورة وترك مكة حرم الله وأعظم البقاع منزلة عند الله وأعز البلاد إلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم -.

قلت: نعم إن الدعوة إلى دين الله في المقام الأول، وهي مقدمة على الأرواح والأموال والأبناء وهي هدف أعلى ونحن نتحدث عن ضرورة تحقيق هذا الهدف الأعلى بالتمكين للدين الذي من أجله خلق الله تعالى البشر، ولأجله سن الله قوانين العدل والإصلاح والثواب والعقاب.

فكيف تُنشر دعوة وتُبنى دولة قائمة بدين الله في بيئة لا يأمن المسلمون فيها على أرواحهم وأموالهم، والأعداء يحيطون بهم من كل جانب، وهذا ما حدث في مكة في العهد الأول للإسلام، فكانت الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة رحلة مباركة للبحث عن وطن آمن لتمكين دين الله وعبادته بحرية وأمن وفي المدينة المنورة تأسست دولة الإسلام وانتشرت دعوته في جميع أنحاء الجزيرة العربية ومنها مكة المكرمة.

فالهجرة على هذا المعنى هي ليست مسألة ترك وطن فُقد فيه الأمن والاستقرار فحسب والتوجه إلى أي مكان آخر، بقدر ما هي بحث عن وطن تتوافر فيه مقومات الأمن وتستقر فيه الدعوة إلى شرع الله، ولذلك نجد أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - لم يهاجر إلا بعد أن اطمأن إلى الموطن الجديد كل الاطمئنان بأن الأنصار سوف يحمون المسلمين ويمنعونهم من أعدائهم، كما يمنعون أنفسهم وأهلهم.

ونحن عندما ننظر في كنوز السنة النبوية نجد أنها أسست لصون كرامة الإنسان بالحفاظ على دينه ونفسه وماله وعقله وعرضه، وشرعت الدفاع عن النفس والمال والديار والأرض والمقدسات.

١ - سورة الحج آية (٤١).

وقد بحثت عن الكتابة في هذا الموضوع فلم أجد على حد علمي من كتب فيه بهذا العنوان، ولكن هناك مواضيع بحثية تتعلق بجانب محدود من هذا الموضوع وهي:

١- الإسلام والوطنية للدكتور محمد بن إبراهيم بن حسن السعيدى وقد حاول الباحث ربط مفهوم الوطنية بالإسلام ومعالجة ردة الفعل التي تولدت لدى بعض شباب المسلمين من ربط مفهوم الوطنية بالحركات السياسية القومية العلمانية والتي كان موقفها سلبيا تجاه الإسلام وتعاليمه، وقد أجاد الباحث وأفاد ولكن اقتصر بحثه على معنى الوطنية في الإسلام ولم يشمل الكلام على ما نحن بصدده من تأصيل لمقومات حماية الوطن في السنة النبوية، وذلك التزاما منه بعنوان الموضوع الذي بحثه.

٢- الوطنية وتعدد الثقافات في الفكر الإسلامي للدكتور أحمد بن عبد العزيز الحليبي، وهذا البحث كسابقه حاول الباحث ربط مفهوم الوطنية بالإسلام، وقد تكلم عن الثقافات المختلفة ثم بين أن الثقافة الإسلامية يمكن أن تؤسس لوطنية تجمع تحت خيمتها ثقافات متعددة تعطيها خصوصيتها دون أن تلغيها.

ثم إني وجدت خلطا في بعض الكتابات عن المواطنة والوطنية من حيث المفهوم؛ فبعضهم يعنون للمواطنة ويتحدث عن الوطنية أو العكس، ولا شك أن هناك فرقا في المفاهيم؛ فالمواطنة هي المساكنة وهي رابطة تقوم على القيم والمبادئ الدينية والإنسانية من حسن الجوار، وتنظيم الحقوق والواجبات بالعدل والإنصاف.

بينما الوطنية هي حب الوطن والشعور بالانتماء إليه والاستعداد للدفاع عنه، وعلى هذا فالمواطنة الحقبة الصالحة التي تقوم على العدل والإنصاف تعزز الوطنية وتنمي الشعور بالانتماء للوطن.

وكتنتيجة لهذه الأمور من جانب، وقلة الكتابة في هذا الموضوع من جانب آخر، تطلب الأمر مضاعفة الجهد للبحث في هذا الموضوع وفق الأهداف التالية: ١- بيان أهمية وجود الوطن الآمن والمحمي ضرورة حتمية لتمكين دين الله وإقامة شرعه، وهذا ما تم الكلام عنه في مقدمة البحث. ٢- الكشف عن مفهوم الوطن في اللغة والاصطلاح. ٣- تأصيل مفهوم حماية الوطن في السنة النبوية. ٤- إبراز دور السنة النبوية في تفعيل وسائل حماية الوطن والدفاع عنه.

## المبحث الأول: مفهوم الوطن في اللغة والاصطلاح

**أولا - الوطن في اللغة:** قال الفراهيدي: الوطن مَوْطِنُ الإنسان ومَحَلُّهُ. وأوطانُ الأغنام: مرابضُها التي تأوي إليها، ويُقال: أَوْطَنَ فلانٌ أرضَ كذا، أي: اتَّخَذَها مَحَلًّا وَمَسْكَنًا يُقِيمُ بها<sup>(١)</sup>. وقال رؤبة:

حَتَّى رَأَى أَهْلَ الْعِرَاقِ أَنَّنِي  
أَوْطَنْتُ أَرْضًا لَمْ تَكُنْ مِنْ وَطَنِي<sup>(٢)</sup>

والوَطَنُ والمَوْطِنُ وَاحِدٌ، وَجَمْعُ المَوْطِنِ مَوَاطِنٌ، وَجَمْعُ الوَطَنِ أوطان. والمثل السائر: لَوْلَا الوَطَنُ لَخَرَبَ البَلَدُ السَّوْدُ. والمَوْطِنُ: مَوْضِعُ الوَطَنِ<sup>(٣)</sup>. واستَوَطَنَ هذه البلادَ، أي: تَوَطَّنَها<sup>(٤)</sup>. والوَطَنُ: كُلُّ مَكَانٍ قَامَ بِهِ الإنسانُ لِأَمْرٍ فَهُوَ مَوْطِنٌ لَهُ<sup>(٥)</sup>. والوطن: محل الإنسان، وأوطان الغنم: مرابضها، وأَوْطَنْتُ الأَرْضَ، وَوَطَّنْتُها تَوَطَّنْتُها، أي اتَّخَذْتُها وَطَنًا<sup>(٦)</sup>. ووطن، يَطن، طِنًا، وَطَنًا، فهو واطِنٌ، والمفعول موطون به، والمواطِنُ اسم فاعل من واطن<sup>(٧)</sup>.

عند النظر في كلام أهل اللغة نلاحظ اتفاقهم على معنى واحد للوطن تواطأت كلمتهم عليه بلا خلاف وهو المكان والموضع من الأرض الذي يقيم فيه الإنسان، ولكن لم يخصوا ذلك بمكان وموضع الإنسان فقط بل أضافوا إليه موضع الحيوان، كما مر علينا من كلام الجوهري.

ونقل الأزهري أيضا في مادة (ع ط ن) عن الليث قال: كل مَبْرِكٍ يكون مَأْلَفًا لِلْإِبِلِ فَهُوَ عَطَنٌ لَهَا بِمَنْزِلَةِ الوَطَنِ لِلْغَنَمِ وَالْبَقَرِ<sup>(٨)</sup>، فجعل الأزهري المعنى شامل للإنسان وبعض الحيوان، ولكن

- ١- الفراهيدي، العين، ج ٧، ص ٤٥٤، وينظر تهذيب اللغة للأزهري، ج ١٤، ص ٢١، حيث نقل كلام الفراهيدي السابق ونسبه لبيث بن المظفر صاحب الفراهيدي الذي أكمل كتاب العين بعد الفراهيدي.
- ٢- الفراهيدي، العين، ج ٦، ص ٤٥٥.
- ٣- ابن دريد، جمهرة اللغة، ج ٢، ص ٩٢٨.
- ٤- الفارابي، معجم ديوان الأدب، ج ٣، ص ٢٨٣.
- ٥- الأزهري، تهذيب اللغة، ج ١٤، ص ٢١.
- ٦- الجوهري، الصحاح، ج ٦، ص ٢٢١٤.
- ٧- أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج ٣، ص ٢٤٦١.
- ٨- الأزهري، تهذيب اللغة، ج ٢، ص ١٠٤.

قال الزبيدي: الوطن مجاز في الحيوان<sup>(١)</sup>.

قلت: وقد يستعمل الوطن في المعنويات مجازاً أيضاً كالمكان في القلب والنفس، كقول الشريف المرتضى: لا تكذبن فما قلبي لها وطن<sup>(٢)</sup>، أي فما قلبي لها مكان أو محل أو مسكن فهو على المجاز.

وقد جاء ذكر الموطن في القرآن الكريم، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ﴾<sup>(٣)</sup>، أي مواضع وأماكن كثيرة من الأرض.

يعني في أماكن حرب توطنون فيها أنفسهم على لقاء عدوكم، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة<sup>(٤)</sup>، وأمكنة ومقامات<sup>(٥)</sup>.

**ثانياً - الوطن في الاصطلاح:** استعمل العلماء المعنى اللغوي للوطن في المعنى الاصطلاحي له. قال الجرجاني: الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه<sup>(٦)</sup>. وقال الكفوي: الوطن: هو منزل الإقامة<sup>(٧)</sup>. والوطن يصدق على البلد والمدينة والديار، كما قال ابن دريد: والوطن: حيث أوطنت من بلد أو دار أو مكان<sup>(٨)</sup>. ولا شك أن هذا المعنى قريب من المعنى المعاصر للوطن والذي هو: المكان الذي يعيش فيه مجتمع من الناس وله حدود معروفة.

وهكذا ومن خلال هذا المبحث يتبين لنا أن لفظة الوطن لم تكن لفظة معاصرة ولكنها لم تكن متداولة قبل المئة الأولى من الهجرة - على حد علمي - وقد تم التعبير عنها بالأرض والبلد والديار، وهذه الألفاظ لا تختلف في معناها عن مضمون المعنى المعاصر للوطن، وإذا أردنا أن

١- الزبيدي، تاج العروس، ج ٣٦، ص ٢٦١.

٢- الشريف المرتضى، الأمالي، ج ١، ص ٤٤٨.

٣- سورة التوبة، آية (٢٥).

٤- الطبري، جامع البيان، ج ١٤، ص ١٧٨.

٥- التفسير الوسيط، ج ٢، ص ٤٨٧.

٦- الجرجاني، التعريفات، ج ١، ص ٢٥٣.

٧- الكفوي، الكليات، ج ١، ص ٩٤٠.

٨- ابن دريد، جمهرة اللغة، ج ٢، ص ٩٢٨.



نسجل فرقا بين المعنى المعاصر والقديم للوطن فهو أن حدود الأوطان بين البلدان في عصرنا هذا أصبحت معروفة بدقة ومعلمة، وعليها اتفاقات مسجلة دوليا، ومسيطر عليها وعلى أساسها تمنح الهوية، بينما لم تكن في السابق بهذه الدقة، وإنما كانت حدود الإمارة والمدينة والقرية والقبيلة تسمى الحمى أو المضارب، وتخضع للعرف والاجتهاد، ولا شك أن هذا الفرق إنما هو في الشكل وليس في المفهوم.

وقد جاء تعبير القرآن الكريم عن هذا المفهوم للأوطان في مواضع عدة قال تعالى:

﴿ وَأَوْثَقْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٢٧) قال تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونِ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانِكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْثَقْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢).

فالوطن هو الديار والمقام الكريم والأرض الممتدة حولهم والتي تضمن خيراتها العيش الرغيد لأبناء المجتمع.

### المبحث الثاني: مقومات حماية الوطن في السنة النبوية

أولت السنة النبوية مسألة حماية أوطان المسلمين وديارهم وحفظ أمنهم عناية خاصة، وعدت نعمة الأمن من أعظم النعم على الفرد والمجتمع، ومطلبا ضروريا لاستقرار الحياة من جميع النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية، ومقابل ذلك فإن حصول الخوف وفقدان الأمن من أعظم البلاء الذي يصيب الفرد والمجتمع، قال تعالى ممتنا على أهل مكة: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّبَّعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنَخِّطَفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّئْ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧) (٣)، والحرم الآمن مكة وديارها وما حولها.

ووردت الأحاديث النبوية تارة تلفت النظر إلى هذه النعمة لذكرها وشكرها، وتارة تدعو الله بدوامها وعدم زوالها؛ فعن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: "مَنْ أَصْبَحَ مُعَانِي فِي بَدَنِهِ، آمِنًا فِي سِرِّهِ،

١ - سورة الأحزاب، آية (٢٧).

٢ - سورة الدخان.

٣ - سورة القصص آية (٥٧).

عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"<sup>(١)</sup>، وعن ابنِ عُمَرَ أَيْضًا يَقُولُ: "لَمْ يَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُ هَوْلًا الدَّعَوَاتِ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَمَوَّ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَأَمِنْ رَوْعَاتِي اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي قَالَ يَعْنِي الْخُسْفَ"<sup>(٢)</sup>.

وعند النظر في كنوز السنة النبوية نجد أن هناك الكثير من الأحاديث قد وضعت المقومات الأساسية لحماية الأوطان أرضا وديارا وحدودا، وحثت على صيانة أمنها، وسوف أذكر جملة من هذه الأحاديث التي دلت بمضمونها ومعناها على إرساء تلك المقومات وحسب النقاط الآتية:

**أولا: تعزيز قيم المواطنة بين أفراد المجتمع:** إن المواطنة القائمة على تنظيم الحقوق والواجبات بالعدل والإنصاف، ومراعاة القيم والمبادئ الدينية والإنسانية من حق الجوار والإحسان إلى الجار والعمل بالإيثار، فإنها تعزز الشعور الوطني وتقوي رابطة الانتماء إلى الوطن، فعندما يُمنح الناس حقوقهم في المواطنة كاملة من حرية المعتقد والعيش بكرامة، فإن هذا يدفعهم للتعاون فيما بينهم وتوحيد صفوفهم لحماية وطنهم، وإن اختلفت أديانهم وتعددت أعراقهم وتنوعت مذاهبهم.

وقد كان للسنة النبوية السبق في رسم صورة لوطن متعدد الأديان والأعراق والقبائل تمنح فيه حقوق الأقليات الدينية والعرقية، وتنظم فيه الواجبات وتسان الكرامة، صورة فيها رقي أخلاقي واجتماعي قل نظيره وعز مثيله في المجتمعات المجاورة، حيث كانت الحضارات الغربية القديمة

١- الطبراني، الأوسط، برقم (١٨٢٨)، وله شواهد ضعيفة عن أبي الدرداء عند ابن حبان في صحيحه (كما في الإحسان)، كتاب الرِّقَائِقِ، باب الفقر والزهد والقناعة، (ذِكْرُ الْإِحْتِبَارِ عَمَّنْ طَيَّبَ اللَّهُ جِلَّ وَعَلَا عَيْشَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا) برقم (٦٧١)، وعن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُحْصِنِ الْحَطْمِيِّ عند الترمذي في سننه، أَبْوَابُ الرُّهْدِ، باب فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ برقم (٢٣٤٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ مَرْوَانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ. وإسناد الطبراني أحسنها.

٢- أبو داود، السنن، كتاب الأدب، بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ، برقم (٥٠٧٤)، وابن ماجه السنن، كتاب الدعاء، بَابُ مَا يَدْعُو بِهِ الرَّجُلُ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى برقم (٣٨٧١)، وأحمد، المسند برقم (٤٧٨٥)، والبحاري، الأدب المفرد، بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ، برقم (١٢٠٠)، والحاكم، المستدرک برقم (١٩٠٢) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

اليونانية والرومانية تقسم المجتمع على طبقات وتجعل منهم درجات في نيل حقوقهم، وتستعبد كثيرا من شرائح المجتمع، وهذا العمل يولد شعورا بالغبن والإهانة، ويضعف رابطة الانتماء للوطن.

ومن الأمثلة التي جاءت بها السنة النبوية في صون حق المواطنة، وثيقة المدينة المنورة التي وضعها رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - والتي نظم فيها معالم الدولة الجديدة التي توازن بين الحقوق والواجبات، وقد راعت الوثيقة خصوصيات القبائل فجعلت كل قبيلة يتحملون مسؤولية العقل فيما بينهم، وعززت أمن المسلمين بأن يكونوا يدا واحدة على أعدائهم من الداخل والخارج؛ حيث جاء فيها: "وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً ظُلْمًا، أَوْ إِثْمًا، أَوْ عُذْوَانًا، أَوْ فَسَادًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَكَلَدَ أَحَدِهِمْ"<sup>(١)</sup>.

وأعطت الوثيقة للأقليات الدينية حقهم في العيش على أرض الوطن أسوة بالمسلمين في حفظ كرامتهم وعدم ظلمهم ونصرتهم على من اعتدى عليهم؛ حيث جاء فيها: "وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسُوءَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ"<sup>(٢)</sup>.

ولا شك أن الإتيان هنا في الوثيقة: "وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا" ليس إتيان دينيا وإنما هو إتيان وطني سياسي اجتماعي يخضع فيه الجميع لتعاليم الدولة التي تنظم شؤون المجتمع.

وبعد أن منحت الصحيفة حق الأقليات الدينية في المواطنة أمرتهم بوحدة الدفاع المشترك عن أرض الوطن إلى جانب المسلمين؛ لأنهم يعيشون على أرض واحدة وينعمون بخيراتها، فيتوجب عليهم الدفاع عنها، فقد جاء في الصحيفة: "وَإِنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتُهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتُهُمْ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ"<sup>(٣)</sup> وجاء فيها كذلك "وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرَبَ"<sup>(٤)</sup>، ولا يخفى على أحد أن هذا النوع من التعاون يهدف إلى حماية البلاد

١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٥٠٢، وأخرج البيهقي في الكبرى برقم (١٦١٤٨) جزء من وثيقة المدينة بسنده عن ابن إسحاق حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأحنس بن شريق قال أخذت من آل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الكتاب.....، ويعني بالكتاب وثيقة المدينة.

٢- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٣

٣- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٣.

٤- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٤.

والديار والثروات.

ومن الأحاديث الأخرى التي أعطت للأقليات حق العيش بكرامة والتأمين على أرواحهم، وأجازت صلتهم ودعوتهم للإسلام، ما جاء في حديث أبي بكر، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أَنْ يَجِدَ رِيحَهَا"<sup>(١)</sup>، وما جاء عن أنس رضي الله عنه قَالَ: "كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمَ". فَظَنَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطَعِ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ"<sup>(٢)</sup>.

ففي هذه الأحاديث وأحاديث الوثيقة نجد التأكيد على الوحدة الوطنية من خلال صيانة حقوق المواطنة ونشر العدل والإنصاف، ورعاية جميع أبناء الوطن؛ لأن الشعور بالظلم من أقوى الأسلحة التي تمزق اللحمة الوطنية.

وهكذا جعلت السنة النبوية المواطنة من المشتركات المهمة التي تؤسس للعيش المشترك للشعوب والأمم وتوحد صفوفهم بوجه ما يدهمهم من أخطار، وإن الاختلاف الديني والعرقي والمذهبي لا يمكن أن يكون عائقا بوجه تعاون جميع أبناء الوطن لحماية وطنهم في ظل دولة ترعى حقوق المواطنة لأبنائها وتحترم مقدساتهم وتصون كراماتهم، وهذا كله يصب لصالح تضافر جهود أبناء الوطن في الدفاع عن وطنهم.

**ثانياً: تنمية الشعور الوطني بين أبناء المجتمع:** وذلك من خلال ابتعاث مشاعر حب الوطن في نفوس أبناء المجتمع وبث روح الانتماء له. والوطنية: هي سلوك يعبر فيه المواطن عن حبه لوطنه وانتمائه له وتمسكه به.

ومما لا شك فيه هو أن حب الإنسان للأرض التي يعيش عليها هي مسألة فطرية فطر الله تعالى الناس عليها؛ لذلك نجد أن الإنسان يتفاعل مع بيئته ومحيطه بشدة ويتعلق بالأرض التي عاش

---

١- أحمد، المسند، برقم (٢٣٧٧) و (٢٠٤٠٣) ورجاله ثقات، والحاكم في المستدرک، کتاب الجهاد، برقم (٢٥٧٩)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الجنائز، باب إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الْإِسْلَامُ، برقم (١٣٥٦) وفي كتاب المرضى، باب عيادة المشرك، برقم (٥٦٥٧).

فيها يعشق معالم أرضه منازلها وجبالها أنهارها وأوديتها، حجرها ومدرها أشجارها ونباتها، حتى تصبح هذه المعالم جزءاً من حياته يصعب عليه مفارقتها، وخاصة تلك التي كانت في مرحلة طفولته وصباه؛ حيث النفس على فطرتها الأولى لم يشوبها شيء من علائق الدنيا فيدمج لديه الزمان مع المكان ليسفر عن جملة حوادث وصور تُنقش في ذاكرته، تشده إلى وطنه وتعزز أواصر انتمائه إليه.

وجاءت السنة النبوية لترعى هذا الحب وتنميه ليكون دافعاً للتمسك بأرض الوطن وجزءاً من الوفاء له الذي فيه الحياة، ومنه الخيرات، وعلى ربوعه مكن الله دينه وأقام رسول الله - ﷺ - دولته، وقد كان رسول الله - ﷺ - شديد الحب للمدينة المنورة فعن أنس رضي الله عنه: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَتَنَظَرَ إِلَى جُدْرَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَكَهَا، مِنْ حُبِّهَا"<sup>(١)</sup>.

وأوضح راحلته: سار سيرا سهلاً سريعاً<sup>(٢)</sup>، يعني حبا بها وشوقاً لها، فالمدينة تمثل حصن الإسلام والأرض والديار والمأوى والعيش الكريم، وهذا الحب والشوق هو جزء من الوفاء لها.

ويلفت رسول الله - ﷺ - نظر المسلمين إلى المدينة المنورة يجبها إلى نفوسهم ويسميها بأجمل وأطيب الأسماء ويذكر جبل أحد وهو من أبرز معالمها، فعن أبي حميد قال: أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ - مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: "هَذِهِ طَابَةٌ، وَهَذَا أُحُدٌ، جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ"<sup>(٣)</sup>.

وعن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمَا قُلْتُ: يَا أَبَتِ، كَيْفَ تَجِدُكَ؟ وَيَا بِلَالُ، كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَتْ: وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَى يَقُولُ:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ  
وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

١- البخاري، الصحيح، كتاب فضائل المدينة باب، برقم (١٨٨٦).

٢- ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، ج ٣، ٢٨٦.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب برقم (٤٤٢٢)، وكتاب المبعث النبوي، أبواب غزوة تبوك، برقم (٤٤٢٢)، ومسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، برقم (١٣٩٢).

وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أَقْلَعَتْ عَنْهُ يَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أْبَيْتَنَ لَيْلَةً  
وَهَلْ أَرْدِنَ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ  
بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ خِرٌّ وَجَلِيلُ  
وَهَلْ تَبْدُونُ لِي شَامَةً وَطَفِيلُ

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحِثُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدَّهَا وَصَاعِهَا وَأَنْقُلْ حُمَاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ"<sup>(١)</sup>.

ففرى كلمات بلال - ﷺ - تنطلق على لسانه من نفس جياشة في حب مكة ومعاملها أرضها ديارها جبالها نباتها ومياهها، وهكذا جميع المهاجرين، فإن حب موطنهم الذي فارقوه متحذر في نفوسهم.

لم تمر كلمات بلال ﷺ على رسول الله - ﷺ - مروراً اعتيادياً بل أولاً رسول الله - ﷺ - اهتماماً خاصاً فأراد رسول الله - ﷺ - أن يوجه هذا الحب إلى الموطن الجديد؛ ليكون حافزاً للتمسك به، فإن المحب يتمسك بمحبوبه، وليستثمر هذا الحب في الدفاع عن الموطن الجديد، فإن المحب يدافع عن محبوبه ولا يتخلى عنه، فجاء دعاء رسول الله - ﷺ - بأن يرزق الله تعالى المسلمين حب المدينة كحب مكة أو أشد حباً ليحفظ من هذا الحب رابطة قوية تعزز وطنيتهم وتدفعهم لحماية وطنهم الذي قامت عليه دولتهم وفيه عزهم وكرامتهم.

ثالثاً: التأكيد على وحدة صف المسلمين: إن وحدة صف المسلمين من أعظم المطالب التي أكد عليها القرآن الكريم والسنة النبوية، ونالت من الاهتمام والقدسية ما لم ينله أمر آخر؛ لأنه في وحدة الأمة قوتها وعزتها وبقائها وجودها وحمايتها وأوطانها ومكتسباتها، وفي تفرقها ضعفها وذهاب ريجها، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد جاءت الأحاديث الشريفة منسجمة مع الآيات القرآنية التي تأمر بوحدة الصف والتعاون

١- البخاري، الصحيح، كتاب المرضى، باب عيادة النساء الرجال برقم (٥٦٥٤).

٢- سورة آل عمران آية (١٠٣).

على البر والتقوى والإحسان إلى القريب والجار وتحرم شق الصف وتجرم المنشقين وتصب في تعزيز وحدة الأمة والمجتمع ونبد الفرقة والتنازع والتحذير منها.

فمن الأحاديث التي تأمر بالتكاتف والرحمة والمودة ما جاء عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ"<sup>(١)</sup>.

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي تأمر برعاية السلام وإفشائه بين المسلمين ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تُحَابُوا، أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"<sup>(٣)</sup>.

ففي هذا الحديث الأخير جعل رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - السلام - بين المسلمين هو القاعدة التي تبنى عليها المحبة ودخول الجنة، وهو الهدف المطلوب، ولا شك أن المحبة تصب في وحدة صف أبناء الأمة، وتشد من أواصر التعاون والتضامن بينهم.

ومن الأحاديث التي تأمر بصلة الأرحام ما جاء عن عبد الله بن عمرو، قَالَ سُفْيَانُ لَمْ يَرَفَعَهُ الْأَعْمَشُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَرَفَعَهُ حَسَنٌ وَفَطْرٌ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي، وَلَكِنْ

١- البخاري، الصحيح، واللفظ له، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره برقم (٤٨١)، وكتاب المظالم، باب نصر المظلوم برقم (٢٤٤٦)، وكتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، برقم (٦٠٢٦)، ومسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدِهِم برقم (٢٥٨٥).

٢- البخاري، الصحيح، واللفظ له، كتاب المظالم، باب لَا يَظْلِمُ الْمُسْلِمَ الْمُسْلِمَ وَلَا يُسْلِمُهُ برقم (٢٤٤٢)، ومسلم، الصحيح، كتاب البرِّ وَالصَّلَةِ وَالْأَدَابِ، بابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ برقم (٢٥٨٠).

٣- مسلم، الصحيح، كتابُ الْإِيمَانِ، بابُ بَيَانِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، وَأَنَّ مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ إِفْشَاءَ السَّلَامِ سَبَبًا لِحُصُولِهَا برقم (٥٤).

الواصل الذي إذا قُطعت رَحْمُهُ وَصَلَهَا<sup>(١)</sup>، الحديث هنا يقرر أن من رد زيارة أخيه أو قريبه بزيارة فهو مكافئ له وهذا وفاء منه ولكن ليس واصلاً لرحمه، ولا يحصل على ثواب صلة الرحم إلا إذا قام بزيارة قريبه ابتداءً، ثم الاستمرار على دوام المواصله، وفي هذا غاية الحث على التواصل، وتعزيز للحمه المجتمع، وتمتين لروابط الأسرة التي هي وحدة بناء المجتمع.

ومن الأحاديث التي تنهى عن النزاع وتحرمه، ما أخرجه البخاري بسنده قال: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: فِي جَيْشٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ....."<sup>(٢)</sup>.

نرى من خلال عرض هذه الأحاديث أن السنة النبوية ركزت على وحدة المجتمع من خلال زرع المحبة ومد حبال المودة ونشر السلام وتحريم التنازع، ووجه الاستدلال من ذلك كله هو أن الوحدة عنوان للقوة وهي أفضل عدة لردع الأعداء وحماية الأوطان، وإن الاختلاف والفرقة عنوان للضعف وهو يزيد من أطماع الظالمين ويمهد لعدوان المعتدين.

**رابعاً: ترسيخ الوعي الجماعي والمسؤولية التضامنية:** لا شك أن الشعور بالمسؤولية التضامنية تمنح المواطن ثقة عالية بنفسه وبمجتمعه؛ حيث يشعر أن المجتمع معه في كل كلمة حق يقولها أو عمل خير يعمله فيه إصلاح لأمته، وهذا يصب لصالح تعزيز حفظ أمن الوطن والمجتمع، وقطع الطريق على الحمقى والفاسقين أن يحدثوا خللاً في وحدة المجتمع أو يعرضوا أمنه للخطر، وذلك من خلال التعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتناصح بين الناس. وقد وجهت السنة النبوية أبناء الأمة الإسلامية إلى تحمل كل فرد منهم المسؤولية تجاه بيته

١- البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ، برقم (٥٩٩١).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب قوله ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ برقم (٤٩٠٥) وفي باب قوله ﴿يَقُولُونَ لَنْ نَرَجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ برقم (٤٩٠٧)، ومسلم، الصحيح، كتاب البرِّ والصَّلةِ وَالْأَدَابِ، بَابُ نَصْرِ الْأَخِ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا برقم (٢٥٨٤).



وأهله ومجتمعه ووطنه وأن يكون ناصحاً في قوله أميناً في عمله فقد جاء عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: "أَلَا كَلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (١).

فالحديث هنا يحث على أداء العمل بأمانة وإخلاص، وخاصة العمل الذي فيه خدمة عامة للأمة والمجتمع؛ لأن الحديث بدأ بأعلى وظيفة وهي وظيفة الأمير ثم تسلسل في المسؤوليات، فمن ولاة الله تعالى ووظيفة أو عمل فهو مسؤول أمام الله تعالى عن إلتقانها وصيانتها.

وأمرت السنة النبوية بتقديم النصح والمشورة لجميع المسلمين أمراء ومأمورين وإرشادهم إلى خير الدارين فعن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: "الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" (٢).

ومن كنوز السنة النبوية من الأحاديث الأخرى التي تؤكد هذا المعنى ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ" (٣).

١- البخاري، الصحيح، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، برقم (٨٩٣)، وكتاب في الاستقراض، باب العبد راعٍ في مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه برقم (٢٤٠٩)، وكتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق برقم (٢٥٥٤)، وباب العبد راعٍ في مال سيده برقم (٢٢٥٨)، وكتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: "من بعد وصية يوصي بها، أو دين" برقم (٧٥١)، وكتاب النكاح، باب "قوا أنفسكم وأهليكم نارا" برقم (٥١٨٨)، وباب المرأة راعية في بيت زوجها برقم (٥٢٠٠)، وكتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" برقم (٧١٣٨)، ومسلم، الصحيح، واللفظ له، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، برقم (١٨٢٩).

٢- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، برقم (٥٥).

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنّه أخوه إذا خاف عليه القتل، أو نحوه، برقم (٦٩٥٢)، وفي كتاب المظالم، باب انصر أخاك ظالما أو مظلوما برقم (٢٤٤٣) و(٢٤٤٤)، ومسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما برقم (٢٥٨٤).

فنى هنا في هذا الحديث أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - يجرم الظلم ويأمر بمنع الظالم من الظلم ويجعل ذلك نصرة له؛ لكي لا يتحمل الظالم إثمًا يهلكه في الآخرة، ولكي لا يحدث نزاعاً بين المسلمين، والملاحظ هنا أن السنة النبوية جعلت الأمر من مسؤولية أبناء المجتمع في السعي للإصلاح وإيجاد حل لمثل هذه المشكلات بين أفراد المجتمع وإن أي إهمال لهذه المسؤولية أو استهانة بهذا الأمر يؤدي إلى تفشي الظلم والعدوان وهذا بدوره يولد شعوراً بالكراهية، ويقطع التواصل والتراحم بين أفراد المجتمع الواحد ويحدث ضرراً عاماً في البنية الاجتماعية والوحدة الوطنية للمجتمع.

ومن الأحاديث التي تحت على المسؤولية الجماعية ووحدة المصير، ما جاء عن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ (رضي الله عنه)، عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا حَرَقْنَا فِي نَصِينَا حَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا"<sup>(١)</sup>.

ومثل هذا الحديث حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه)، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ، مَنْ ضَارَّ ضَارَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ شَاقَّ شَاقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ"<sup>(٢)</sup>.

ففي هذه الأحاديث نجد تأكيداً على أن الإنسان لا يحق له أن يتصرف بماله وملكه إلا بالمعروف ولا يجوز له إلحاق الضرر بالناس سواء أكان ضرراً عاماً أم خاصاً بدعوى أنه يتصرف في ملكه. فالحرية مكفولة بعدم إيقاع أي ضرر أمني أو اجتماعي أو اقتصادي على الفرد أو المجتمع ولا شك أن هذه الأحاديث ترتفع بالإنسان عن المصلحة الشخصية والنزعة الذاتية إلى تغليب المصلحة العامة وتجعل من المواطن أداة فعالة لحماية وطنه وحفظ مصلحته أمته.

١- البخاري، الصحيح، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والإستهام فيه برقم (٢٤٩٣)، وفي كتاب الشهادات، باب القُرْعَةِ فِي الْمُسْكَالَاتِ، برقم (٢٦٨٦).

٢- الحاكم، المستدرک عن أبي سعيد الخدري، كتاب البيوع، برقم (٢٣٤٥)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجْهُ، قَالَ الذَّهَبِيُّ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ أَحْمَدَ، الْمُسْنَدُ، برقم (٢٨٦٥)، وابن ماجه السنن، كتاب الأحكام، بَابُ مَنْ بَنَى فِي حَقِّهِ مَا يَضُرُّ بَجَارِهِ، برقم (٢٣٤١)، وله طرق أخرى.

**خامسا: طاعة ولي الأمر بالمعروف:** أُلزمت السنة النبوية أبناء الأمة الإسلامية طاعة ولاة الأمور بالمعروف وجعلت هذا الأمر من صميم الدين وحذرت من الخروج عليهم من دون وجه حق؛ لأنه يحدث فتنة بين أبناء الأمة ويشق صفهم ويضعف شأنهم وهذا يصب في خدمة عدوهم.

وكان رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - يأخذ البيعة من الناس على السمع والطاعة، فعن جرير رضي الله عنه قال: "بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ"<sup>(١)</sup>، وعن عبادة بن الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: "بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا"<sup>(٢)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تَسْمَعُ وَلَا طَاعَةَ"<sup>(٣)</sup>.

هذه المجموعة من الأحاديث فيها إبراز واضح لمسألة السمع والطاعة لولي الأمر، وقد أوجبت السنة النبوية طاعة ولي الأمر بالمعروف وقد تضمنت الكثير من الفوائد والحكم أذكر منها الأمور الآتية:

- في حديث جرير نجد أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - كان يشترط السمع والطاعة بالمعروف في أخذه البيعة من الناس، ولذلك ذكرها البخاري في باب الشروط في

١- البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، باب هَلْ يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ بَغَيْرِ أَجْرٍ وَهَلْ يُعِينُهُ، أَوْ يَنْصَحُهُ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا اسْتَنْصَحَ أَحَدُكُمْ أَحَاهُ فَلْيَنْصَحْ لَهُ بِرَقْم (٢١٥٧)، وفي كتاب الشروط، باب مَا يَجُوزُ مِنَ الشُّرُوطِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْأَحْكَامِ وَالْمُبَايَعَةِ بِرَقْم (٢٧١٥)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، بِرَقْم (٥٦).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ سَتْرُونَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكَرُونَهَا، بِرَقْم (٧٠٥٦)، مسلم الصحيح، كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ بِرَقْم (١٧٠٩).

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب السمع والطاعة للإمام، بِرَقْم (٢٩٥٥)، ومسلم، الصحيح، كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، بِرَقْم (١٨٣٩).

- الإسلام، والبيعة أمرها عظيم وشأنها جسيم فهي عهد وميثاق يجب الوفاء به، وهذا مشعر بأهمية السمع والطاعة في الحفاظ على وحدة المسلمين وجمع شملهم.
- وفي حديث جرير بن عبد الله أيضا نجد أن شرط السمع والطاعة قرن مع الشهادتين ومع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فالشهادتان تمثلان عقيدة المسلم والصلاة ركن العبادة الأعظم وكذلك الزكاة، وهذه هي أعظم أركان الإسلام فيكون السمع والطاعة بالمعروف على هذا المعنى من صميم الدين وركنًا من أركانه القويمة.
- تضمنت الأحاديث تأكيدًا آخر لشرط السمع والطاعة وهو ما ورد في حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - بعدم منازعة الأمر أهله لأن النزاع خروج عن الطاعة وهذا التأكيد خص به هذا الشرط دون غيره من الشروط الأخرى فجاء التأكيد عليه.
- الخروج عن طاعة ولي الأمر فيه مفسد عظيمة من انتهاك حرمة الدماء وإباحة للأموال والممتلكات وعبث بأمن الوطن والأمة والمجتمع، لذلك كان التشديد في النهي عنه والتحذير منه وتغليظ العقوبة بحق مرتكبه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا"<sup>(١)</sup>.
- وفي هذا المقام نجد أن الروايات التي جاءت عن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - تعطي حلا ناجعا للأمة في حالة استثثار ولاة الأمور بالسلطة والأموال وتأمير بالصبر وانتظار الفرج في الدنيا والثواب في الآخرة، ولم تجز هذه الروايات الخروج على الحاكم مجرد الاستثثار ببعض الأموال؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قَالَ: "مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مِنْ فَارِقِ الْجَمَاعَةِ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"<sup>(٢)</sup>.

١- البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا برقم (٧٠٧٠)، وعن أبي موسى رضي الله عنه برقم (٧٠٧١)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، برقم (٩٨)، وعن أبي موسى برقم (١٠٠)، وعن أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، برقم (١٠١).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سَتْرُونَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكَرُونَهَا برقم (٧٠٥٤)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، برقم (١٨٤٩).

عند النظر في هذه الأحاديث التي تأمر بالسمع والطاعة بالمعروف وتمنع الخروج والتمرد ومنازعة الأمر أهله نجد أنها تهدف إلى لم شمل المسلمين وحرص صفوفهم وجمع كلمتهم وقطع الفرصة على الغلاة والمغرر بهم والمغفلين من العبث في أمن الوطن وتخريب البلد، وبذلك تؤسس السنة النبوية قواعد متينة وراسخة في بناء وحدة المجتمع وحفظ أمن الأمة وحماية الوطن.

### المبحث الثالث: وسائل تفعيل حماية الوطن

إن مَهْمَة حماية الوطن وحفظ أمنه منوطة بأبنائه وإن تحقيق هذه المهمة مرتبط بمدى استعدادهم وجاهزيتهم للدفاع عنه وصيانة أرضه وخيراته ومياهه وسمائه وحراسة حدوده وسد ثغوره، وهذا يأتي في سياق الوفاء منهم لوطنهم وأداء الواجب تجاهه، ذلك الوطن الذي أقاموا فيه شعائر دينهم ومناسك عباداتهم وارتووا من مائه وأكلوا من خيراته وأقلنتهم أرضه وأظلتهم سماؤه، أرض أجدادهم وكرامة معاشهم ومستقبل أبنائهم.

وقد كان للسنة النبوية دور كبير وفعال في توجيه أبناء الأمة إلى ضرورة حماية الدين والوطن واستثمار الطاقات وتحفيز الهمم للدفع عن الأرض والعرض وحماية المقدسات والمكتسبات وحفظ بيضة المسلمين وبيان فضل الجهاد وثوابه والاستعداد له، وفي النقاط الآتية سأبين جانباً مهماً مما جاءت به السنة النبوية من وسائل وأساليب لتفعيل حماية الأوطان والديار والمقدسات:

**أولاً: الترغيب في اقتناء عدة الحرب:** إن حماية أوطان المسلمين ومقدساتهم لا شك تحتاج إلى جهد بدني كبير وإنفاق مالي كثير لتهيئة وسائل القتال وآلات الحرب للأخذ بكافة أسباب الردع التي شرعها الله تعالى للدفاع عن الأنفس والديار والمكتسبات، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾<sup>(٦٠)</sup>؛ فالآية تبين أن أعظم وسيلة من وسائل الحرب نكاية بالأعداء في ذلك الزمان هي الخيول نظراً لقوتها وسرعة انقضاضها؛ لذلك جاءت السنة النبوية تؤكد على اقتنائها وربطها والعناية بها وتدريبها لتهيئتها للقتال.

١ - سورة الأنفال، آية (٦٠).

وجعلت السنة النبوية لمن يفعل ذلك عظيم الأجر والثواب، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْحَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"<sup>(١)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَهُ وَرَوْتَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِصَاحِبِهِ سَهْمًا"<sup>(٣)</sup>.

من خلال هذه الأحاديث الشريفة يمكننا أن نبين الأمور الآتية:

- الأحاديث تحت على رباط الخيل لأنها وسيلة الحرب الفعالة وفيها المغنم والأجر وفي هذا العمل تهيئة واستعداد للدفع عن الأوطان وتأمين حمايتها.

قال القرطبي<sup>(٤)</sup>: وهي أقوى القوة وأشد العدة وحصون الفرسان، وبها مجال في الميدان، خصها بالذكر تشريفاً، وأقسم بغيرها تكريماً قال تعالى: ﴿وَالْعَدِيدَاتِ ضَبْحًا ۝١﴾ فَأَلْمُورِبَاتِ قَدْحًا ۝٢﴾ فَأَلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾<sup>(٥)</sup>.

- أعظمت السنة النبوية الأجر وأجزلت الثواب لمن يقوم برباط الخيل يبتغي وجه الله وحماية الإسلام والمسلمين وديارهم وأوطانهم.

- لما كانت الخيل الوسيلة الأقوى والأسرع والعدة الأشد في الحرب جاءت السنة النبوية تحت على اقتناء هذه الوسيلة دون غيرها كالجمال والبغال والحمير، ولا شك أن الأخيرة تستعمل في الحروب، لكن التأكيد كان على القمة في القوة والبأس والشدة وفي هذا درس للمسلمين على أن يتجهزوا بأحدث العدد القتالية الفعالة وينتقوا الأسلحة الأكثر تطور في العالم؛

١- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، برقم (٢٨٤٩)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة برقم (١٨٧١).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرساً، برقم (٢٨٥٣).

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب سهام الفرس، برقم (٢٨٦٣)، ومسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب كيفية قسمة الغنيمه بين الحاضرين برقم (١٧٦٢).

٤- الجامع لأحكام القرآن، ج ٨، ص ٣٧.

٥- سورة العاديات.

لتكون رادعا لأعدائهم وليتمكنوا من حماية أنفسهم وثرواتهم وأوطانهم.

ولم تقف السنة النبوية عند مسألة اقتناء آلة الحرب وعدتها حسب بل نهبت المسلمين وحتتهم على صناعة السلاح بأنفسهم فعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صُنْعِهِ الْخَيْرَ وَالرَّامِي بِهِ وَمُنْبَلَّهُ"<sup>(١)</sup>، ففي هذا الحديث الحث على صناعة آلة الرمي وهي القوة الرادعة في ذلك الزمان ويفهم من الحديث التأكيد على امتلاك ناصية العلم والمعرفة واكتساب مهارات الصناعات العسكرية وعدم الاقتصاد على شراء الأسلحة من الأمم الأخرى وفي الصناعة فوائد كثيرة؛ منها الاقتصاد في المال وتوفيره لزيادة الإنتاج بخلاف الشراء ومنها اكتساب الخبرة في الإنتاج والتطوير، ومنها تأمين مصدر السلاح وضمان وجوده في أي وقت وخاصة في أوقات الحرب وهذا كله يصب في صالح تأمين حماية أوطان المسلمين.

**ثانياً: الحث على التدريب وممارسة الرمي والفروسية:** فعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ، يَقُولُ: "﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾"<sup>(٢)</sup>، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ"<sup>(٣)</sup>، فالحديث هنا يحث أبناء الأمة على التدريب وممارسة الرمي بالسهم والرمح لأنها توقع أكبر الأذى في صفوف الأعداء، فإذا كان الرامي كثير الممارسة لهذا السلاح دقيقاً في تصويبه حصل المطلوب في صد العدوان وحماية الأوطان.

قال القسطلاني: "إن عادة الرمي لا تستثبت بدون المعالجة والإدمان الطويل، وليس شيء من عدة الحرب وأداتها أحوج إلى المعالجة والإدمان عليها مثل القوس والرمي بها ولذلك كرر عليه

١- ابن أبي شيبة، المصنف، كتاب الجهاد، برقم (١٩٧٧٩)، وأحمد، المسند، برقم (١٧٣٢١) و(١٧٣٣٥)، وأبو داود، السنن، كتاب الجهاد، باب في الرمي، برقم (٢٥١٣)، وفيه زيادة، والنسائي، السنن، كتاب الجهاد، باب ثواب من رمى بسهم في سبيل الله عز وجل، برقم (٣١٤٦) واللفظ له.

٢- سورة الأنفال، آية (٦٠).

٣- أحمد، المسند، برقم (١٧٤٣٢)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، برقم (١٩١٧).

الصلاة والسلام تفسير القوة بالرمي" (١).

وقال الصنعاني: "أَفَادَ الْحَدِيثُ تَفْسِيرَ الْقُوَّةِ فِي الْآيَةِ بِالرَّمِيِّ بِالسَّهَامِ لِأَنَّهُ الْمُعْتَادُ فِي عَصْرِ النَّبُوَّةِ وَيَشْمَلُ الرَّمِيَّ بِالْبِنَادِقِ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْبُعَاةِ وَيُؤْخَذُ مِنْ ذَلِكَ شَرْعِيَّةُ التَّدْرِيبِ فِيهِ لِأَنَّ الْإِعْدَادَ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِعْتِيَادِ إِذْ مَنْ لَمْ يُحْسِنِ الرَّمِيَّ لَا يُسَمَّى مُعِدًّا بِالْمَرَّةِ" (٢).

ومثل هذا الحديث، حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال "خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَسْلَمَ يَتَنَاضِلُونَ بِالسُّوقِ فَقَالَ ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًّا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ فَأَمْسَكُوا بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ مَا لَهُمْ قَالُوا وَكَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَ بَنِي فُلَانٍ قَالَ ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلُّكُمْ" (٣).

ويتناضلون يترامون فهم يتسابقون في الرمي فشجعهم رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - على ذلك وذكرهم بأبيهم إسماعيل بأنه كان رامياً على سبيل المدح والفضيلة. قال النووي: وَالْمُرَادُ بِهَذَا كُلِّهِ التَّمَرُّنُ عَلَى الْقِتَالِ وَالتَّدْرِيبُ وَالتَّحَدُّقُ فِيهِ وَرِيَاضَةُ الْأَعْضَاءِ بِذَلِكَ (٤).

ولا يخفى على أحد أن قول رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - : "وَأَنَا مَعَكُمْ كُلُّكُمْ" هو في غاية الحث على التدريب من أجل تحصيل المسلمين ببناء القدرات وكسب المهارات القتالية التي فيها تأهيل لأبناء الأمة في حماية أوطانهم.

ومن الأحاديث التي ترغب في الفروسية ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا سَبَقَ إِلَّا فِي خُفٍّ، أَوْ نَصْلٍ، أَوْ حَافِرٍ" (٥)، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَجْرَى النَّبِيُّ ﷺ مَا ضَمَّرَ مِنَ الْخَيْلِ مِنَ الْحَفِيَاءِ إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ وَأَجْرَى مَا لَمْ يُضَمَّرَ مِنَ الثَّنِيَّةِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ قَالَ ابْنُ

١- القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ٥، ص ٩٣.

٢- الصنعاني، سبل السلام، ج ٢، ص ٥٠٤.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب نِسْبَةِ الْيَمَنِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ، برقم (٣٥٠٧).

٤- النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٣، ص ٦٤.

٥- أحمد، المسند، بهذا اللفظ بإسناد صحيح، برقم (١٠١٣٨)، وأبو داود، السنن، كتاب الجهاد، باب فِي السَّبَقِ، برقم (٢٥٧٤)، والترمذي، السنن، أبواب الجهاد، باب مَا جَاءَ فِي الرَّهَانِ وَالسَّبَقِ، برقم (١٧٠٠)، النسائي، السنن، كتاب الخيل، باب السبق، برقم (٣٥٨٧) و(٣٥٨٨).



عُمَرَ: وَكُنْتُ فِيمَنْ أُجْرَى" (١).

وهنا في هذه الأحاديث الأخيرة ترغيب في الفروسية واكتساب المهارات القتالية العالية التي تؤهل المقاتلين على مهاجمة المعتدين وصد عدوانهم ودفع خطرهم عن أوطان المسلمين. لأن الخيل وسيلة الهجوم الفعالة في ذلك الزمان وكلما كان المقاتل متمرسا على الفروسية أكسبه ذلك القدرة على المناورة وسرعة الانقضاض.

ولم تقف السنة النبوية عند حد الترغيب في تعلم الرمي فحسب؛ بل حثت على الاستمرار في التدريب والممارسة وعدم الانقطاع عنه، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ: أَنَّ فُقَيْمًا اللَّحْمِيَّ قَالَ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: تَخْتَلِفُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْعَرَضَيْنِ وَأَنْتَ كَبِيرٌ يَشُقُّ عَلَيْكَ. قَالَ عُقْبَةُ: لَوْلَا كَلَامٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ أُعَانِهِ، قَالَ الْحَارِثُ: فَقُلْتُ لِابْنِ شِمَاسَةَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: إِنَّهُ قَالَ: " مَنْ عَلِمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى" (٢).

لا شك أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - يهدف من خلال هذه الأحاديث إلى تهيئة المسلمين لأي طارئ أممي قد يتعرضون له من أعدائهم فيستبق الأحداث ويعد المقاتلين الإعداد الصحيح الذي يعزز ثقة المقاتل بسلاحه من خلال التدريب المستمر عليه وممارسة الرمي به، ويجعل من سلاح المقاتل رفيقا عزيزا عليه وصديقا مقربا إليه وكما قال الشاعر وهو يصف جيش المسلمين في غزوة حمراء الأسد (٣):

كَادَتْ تُهَدُّ مِنْ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي      إِذْ سَأَلْتُ الْأَرْضَ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ  
تَرْدِي بِأَسْدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلَةٍ      عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَازِيلِ

والميل جمع أميل قال الفراهيدي: والأميل من الرجال: الجبان، وهو في تفسير الأعراب: الذي

١- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب السبق بين الخيل، برقم (٢٨٦٨).

٢- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الرَّمِيِّ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ، وَذَمُّ مَنْ عَلِمَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ، برقم (١٩١٩).

٣- ابن هشام السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٠٣، والأبيات لمعبد الخزاعي.

لا تُرْسُ معه<sup>(١)</sup>، والمعازيلُ أيضًا: القوم الذين لا رماح معهم<sup>(٢)</sup> طلبا للسلامة.

ونحن في هذا الزمان زمان التخصص، وذلك لكون آلة الحرب أصبحت أكثر تعقيدا ودقة، وتحتاج إلى ممارسة مستمرة وتخصص وملازمة من أجل الاستعداد والجاهزية، فلا بد أن ينطلق أبناء الأمة من هذه الأحاديث الشريفة التي أسست قواعد متينة في الحفاظ على أمن الوطن وحماية أرضه من أن تدنس، وصون كرامة المسلمين من أن تهان.

**ثالثا: التحريض على القتال والأمر بالصبر والثبات عند اللقاء:** إن مواجهة الظالمين والطغاة المعتدين وخوض غمار الحرب وتحمل بأسها يحتاج إلى مستوى عالٍ من الثبات، وقدر كبير من الصبر؛ وذلك لأن القتال فيه تضحية بالنفس والمال، والوجود بالنفس أقصى غاية الجود، فلا بد من شحذ الهمم واستنهاض الطاقات، وترغيب أبناء الأمة بالأجر العظيم والمقام الكريم الذي أعده الله تعالى للمجاهدين الذين يدفعون الأخطار، ويصدون العدوان عن الأمة.

وقد حثت السنة النبوية على القتال ومواجهة العدوان واستجلبت همم المقاتلين امتثالا قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِيصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) ﴿٣﴾.

قال ابن هشام في يوم بدر: "ثُمَّ حَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّاسِ فَحَرَضَهُمْ، وَقَالَ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ. فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ، أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، وَفِي يَدِهِ تَمْرَاتٍ يَأْكُلُهُنَّ: بَخَّ بَخَّ، أَفَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا أَنْ يَفْتَلَنِي هَؤُلَاءِ، ثُمَّ قَذَفَ التَّمْرَاتِ مِنْ يَدِهِ وَأَخَذَ سَيْفَهُ، فَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ" (٤).

١- الفراهيدي، العين، ج ٨، ص ٣٤٥.

٢- الجوهرى، الصحاح، ج ٥، ص ١٧٦٤.

٣- سورة الأنفال آية (٦٥).

٤- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٦٢٧، وأحمد، المسند، عن أنس رضي الله عنه بلفظ قريب بسياق قصة وفيه زيادة برقم (١٢٣٩٨)، ومسلم، الصحيح، عن أنس أيضا، كتاب الإمارة، بابُ ثبوتِ الجَنَّةِ لِلشَّهِيدِ، برقم (١٩٠١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرَّ بِشُعْبٍ فِيهِ عَيْنٌ عَذْبَةٌ، قَالَ: فَأَعَجَبَهُ يَعْني طِيبَ الشُّعْبِ فَقَالَ: لَوْ أَقَمْتُ هَاهُنَا وَخَلَوْتُ ثُمَّ قَالَ: لَا، حَتَّى أَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: "مُقَامٌ أَحَدِكُمْ - يَعْنِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ - خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ فِي أَهْلِهِ سِتِينَ سَنَةً، أَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَتَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوقَ نَاقَةٍ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ"<sup>(١)</sup>.

ومن الأحاديث التي ترغب في حراسة المسلمين وسد الثغور ما جاء عن ليث، (يعني ابن سعد)، عن أيوب بن موسى، عن مكحول، عن شريح بن السهم، عن سلمان قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأَجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفِتَانَ"<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي تحث على النجدة ما جاء عن أنس بن مالك، قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاجِعًا، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْمِي، فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ: "لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا" قَالَ: "وَجَدْنَا نَاهُ بَحْرًا، أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ" قَالَ: وَكَانَ فَرَسًا يُبْطَأُ"<sup>(٣)</sup>.

هذه جملة من الأحاديث الشريفة وهي أبواب في موضوعاتها، وقد أفادت أحكاما وفوائد كثيرة تتعلق بالتخلي عن الركون إلى الدنيا وزينتها والتخلي بالصبر والثبات والشجاعة على حماية حدود الوطن وصيانة ثرواته أذكر منها الأمور الآتية:

١- أحمد، المسند، بإسناد جيد، برقم (٩٧٦٢) و(١٠٧٨٦)، والترمذي، السنن، أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله، برقم (١٦٥٠) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

٢- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، برقم (١٩١٣).

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق، برقم (٢٩٠٨) وفي باب إِذَا فَرَعُوا بِاللَّيْلِ برقم (٣٠٤٠) وفي كتاب الأدب، باب حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ وَمَا يُكْرَهُ مِنَ الْبُخْلِ برقم (٦٠٣٣)، ومسلم، الصحيح، واللفظ له، كتاب الفضائل، باب فِي شَجَاعَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَقَدُّمِهِ لِلْحَرْبِ، برقم (٢٣٠٧).

١- استنهضت السنة النبوية همم الرجال في الدفاع عن الدين والأرض والعرض وحثتهم على الصبر والثبات عند مواجهة العدوان ووجهت طاقاتهم للبذل والتضحية في سبيل دين الله وحفظ مقدسات المسلمين ومساجدهم وأوطانهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ الْأَرْضُ بِالسَّيِّئِينَ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَوَالِحٍ مُنْقَرِعِينَ وَالْآسَفَاتُ مَذَاجِيرُ الْأُولَى ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) (١).

٢- رغبت السنة النبوية أبناء الأمة في الأجر العظيم والثواب الجسيم والمقام الكريم في الآخرة والعزة والكرامة في الدنيا لمن يدافع عن أمن المسلمين وديارهم، ويحمي أوطانهم فهم بين إحدى الحسينين.

٣- نعت السنة النبوية عن إعطاء الدبر للعدو وحثرت من الخور والانكفاء والهزيمة لأنها سبيل إلى هلاك أرواح المسلمين واحتلال أوطانهم ونهب ممتلكاتهم وذهاب عزهم وكرامتهم وفساد دينهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١) (١).

٤- حثت السنة النبوية على حراسة الحدود وسد الثغور والصبر على المرابطة فيها وفي هذا تنبيه على عدم الغفلة عن العدو المتربص بأبناء الأمة، وعدم إعطاء فرصة للمجرمين والطامعين في التسلل إلى أرض الوطن، قال تعالى: ﴿وَدِّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (٣) (١).

٥- حثت السنة النبوية على السرعة في نجدة المسلمين إذا ما تعرضوا إلى أي خطر أو أمر طارئ والتحلي بالشجاعة والإقدام كما فعل رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - .  
هذه مقتبسات من نور هدي رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - في تفعيل طاقات أبناء الأمة لرد أي عدوان يستهدفهم من الظالمين، ويتوجب على أبناء الأمة جميعهم من حكام ومحكومين أن يعملوا بما يقتدوا بآثارها ليهتدوا بنورها إلى الحق والرشاد ويتمكنوا من إعلاء كلمة الله وحفظ دينهم وحماية أوطانهم وصون كرامتهم.

١- سورة الحج آية (٤٠).

٢- سورة البقرة آية (٢٥١).

٣- سورة النساء آية (١٠٢).

رابعاً: الإنفاق على المقاتلين والاهتمام بهم ورعاية أسرهم: إن تهيئة العدد الكافي من حماة الوطن وتجهيزهم بالعدة اللازمة للدفاع عنه لا شك يحتاج إلى صرف الكثير من الأموال، منها في النفقة على المقاتلين ورعايتهم وتجهيزهم ورعاية أسرهم، ومنها في الإنفاق على آلة الحرب وصيانتها وتحديثها مع الزمن؛ ليكون المقاتل أكثر جاهزية وأشد فعالية في ردع العدوان، ولا يوجد مجال من مجالات الحياة تحتاج فيه الدولة إلى إنفاق أموال طائلة مثل الدفاع عن الأوطان؛ لذلك فإن دول العالم تخصص القدر الأكبر من ميزانيتها لهذا الغرض، وإن كانت هذه مهمة الدولة إلا أن الدولة قد تمر بها أوقات صعبة تحتاج فيها إلى تضافر جهود المواطنين مع الدولة للخروج من الأزمات المالية والاقتصادية وخاصة وقت المحن وتهديد الأمن.

وقد نبهت السنة النبوية إلى هذا الأمر وحثت أبناء الأمة على صدقة التطوع، وجعلت الثواب العظيم في الدنيا والآخرة لمن يتصدق في سبيل الله بالمال أو الظهر أو العدة أو يخلف غازياً بخير في أهله؛ فعن عبد الرحمن بن سمرّة قال: "جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو يتجهز إلى غزوة تبوك، وفي كفه ألف دينار، فصبها في حجر النبي ﷺ ثم ولي، قال عبد الرحمن: فرأيت النبي ﷺ يقبلها بيده في حجره ويقول: "ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا أبداً"<sup>(١)</sup> وقبل ذلك قال ابن هشام في غزوة تبوك: قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ جد في سفره، وأمر الناس بالجهاد والانكماش، وحض أهل الغنى على التفتة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها"<sup>(٢)</sup>. وعن زيد بن خالد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: "من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا" ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا"<sup>(٣)</sup>.

١- أحمد، فضائل الصحابة، برقم (٨٤٦) بهذا اللفظ، وابن أبي عاصم في السنة، باب في فضل عثمان بن عفان رضي الله عنه، برقم (١٢٧٩)، والحاكم، المستدرک، کتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، برقم (٤٥٥٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، قال الذهبي: صحيح.

٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥١٧.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير، برقم (٢٨٤٣)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإمامة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير، برقم (١٨٩٥).

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ"<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَظَلَّ رَأْسَ غَازٍ أَظَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ جَهَّزَ غَازِيًا حَتَّى يَسْتَقِيلَ بِجَهَازِهِ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، وَمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُذَكَّرُ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ"<sup>(٢)</sup>.

نستفيد من أحاديث هذا الباب الفوائد الآتية:

- من حديث ابن إسحاق نرى أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - كان يحض الناس على النفقة في سبيل الله لتتضافر الجهود في إعداد القوة اللازمة لمواجهة الأعداء ونرى الاستجابة السريعة من أصحاب رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - بنفوس كريمة وأيدي سخية.
- ثناء رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - على عثمان رضي الله عنه حيث جعل أجر نفقته مغفرة الله له ذنبه وهذا فيه ترغيب كبير في الحث على الإنفاق.
- الثواب العظيم يوم القيامة لمن جهز غازيا بالسلاح أو حملة على ظهره، والنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف.
- من لم يملك شيئاً من النفقة لم يجرم أجر الغزو في سبيل الله إن هو خلف غازيا في أهله بخير يرضى شؤونهم ويقضي حاجتهم ويدفع عنهم الأذى.
- وأخيراً نلاحظ أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - قد أولى جانب النفقات

١- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الصَّدَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَضْعِيفِهَا، برقم (١٨٩٢)، وابن حبان، الصحيح، (كما في الإحسان)، كِتَابُ السِّيَرِ، بَابُ: فَضْلِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ كُلَّ مَا أَنْقَقَ الْمَرْءُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ أُعْطِيَ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهَا بَعْدَ دَهَائِهَا وَأَعْيَانِهَا عَلَى التَّضْعِيفِ)، برقم (٤٦٤٩).

٢- أحمد، المسند، برقم (٣٧٦)، وابن حبان، الصحيح، (كما في الإحسان)، كِتَابُ السِّيَرِ، بَابُ: فَضْلِ الْجِهَادِ (ذِكْرُ إِظْلَالِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ أَظَلَّ رَأْسَ غَازٍ فِي سَبِيلِهِ)، برقم (٤٦٢٨)، والحاكم، المستدرک، كِتَابُ الْجِهَادِ، برقم (٢٤٤٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَقَدْ احْتَجَّ الْبُخَارِيُّ بِعُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُرَّاقَةَ وَهُوَ ابْنُ ابْنَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه وَلِهَذَا الْحَدِيثِ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، قال: الذهبي: صحيح.

في سبيل الله عناية كبيرة ولم يحقر من أمر الصدقة شيء ولو كانت صغيرة لأن المال عصب الحياة ووسيلة للنجاة، إذا سخر في إعداد الجند إعدادا صحيحا من خلال تجهيزهم بالعدة اللازمة لتحسين كفاءتهم القتالية، وتأمين أرزاقهم ورعاية عائلاتهم لرفع معنوياتهم القتالية، وهذا كله يصب في تحصيل أمن المسلمين والمحافظة على ديارهم ومقدساتهم وحماية وطنهم.

### النتائج والتوصيات:

**أولاً- النتائج:** بعد هذا العرض الموجز لموضوع حماية الوطن من حيث المفهوم والأهمية والمقومات التي أسس عليها وفق منظور السنة النبوية يمكننا أن نسجل النتائج الآتية:

**أولاً:** كشفت الدلائل الشرعية عن مفهوم الوطن فهو الأرض والديار والبلاد وجميع خيرات البلاد ونعمه، وهذا يتوافق مع مصطلح الوطن المعاصر من حيث المضمون.

**ثانياً:** الدفاع عن الوطن ضد التحركات العدوانية والتهديدات الأمنية حق كفلته الشرائع السماوية والقوانين الوضعية والعرف الإنساني.

**ثالثاً:** هناك تلازم كبير بين تمكين دين الله في الأرض وحرية عبادته والدعوة إليه، وبين وجود وطن آمن ومحمي تمنح فيه الحريات وتصان فيه الكرامة، فأمن الأوطان وحماتها هو مطلب شرعي لقيام دين الله في أرضه.

**رابعاً:** حفظ أمن الوطن وحمائه هو حماية لأرواح الناس وأموالهم وأعراضهم، وضمان لمستقبل أبنائهم من الضياع والتشتت، وصون لكرامتهم وحفظ لنعمتهم، فهو ضرورة مجتمعية لحفظ أبناء المجتمع من كل أنواع الفساد الديني والاجتماعي والاقتصادي.

**خامساً:** أرست السنة النبوية المقومات الأساسية لحماية الوطن من خلال تجسيد قيم المواطنة الحقة القائمة على العدل والإنصاف بين أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات وضمان الحريات الدينية للأقليات غير المسلمة.

**سادساً:** رسخت السنة النبوية القيم الأخلاقية للمواطن تجاه وطنه وأمته من خلال بعث روح الوفاء للوطن وتنمية حبه في نفوس أبنائه وإبراز حق الوطن في حمايته والاستعداد للتضحية في

الدفاع عنه وصيانتته.

**سابعاً:** نبهت السنة النبوية أبناء المجتمع على وحدة المصير، وأن ما يصيب الجزء من وهن وضعف يمتد تأثيره ليصيب الجميع وأمرت بالمودة والتعاون على البر والتقوى والتناصح بين أبناء المجتمع والعمل على وحدة الصف والكف عن الاختلاف والفرقة، وألقت أعباء المسؤولية في ذلك على كل فرد من أبناء الأمة وكل من موقعة.

**ثامناً:** استنهضت السنة النبوية المهتم وحفزت الطاقات لأبناء المجتمع من خلال حثهم على امتلاك السلاح والتدرب عليه والتمرس فيه، وعدم تركه ليكون رادعاً لأطماع الظالمين.

**تاسعاً:** أمرت السنة النبوية بالصبر والثبات في ميادين مواجهة الأعداء، والتحلي بالشجاعة والإقدام والنجدة ورغبت إلى ذلك بالأجر العظيم عند الله.

**ثانياً - التوصيات:** أوصي بزيادة البحث في موضوع حماية الوطن لاستيفائه وإعطائه حقه؛ فلا يزال في بداية الطريق والكتابة فيه قليلة، وهو موضوع حيوي بل هو موضوع الساعة؛ لأنه يتعلق بالأمن والأمن هاجس الناس جميعاً، وله أبعاد دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية، ويبدو تعلقه بالنصوص الشرعية تعلقاً وثيقاً؛ وخاصة أبواب الجهاد والمغازي، فهو موضوع أصيل في الشريعة الإسلامية أعني موضوع حماية الوطن، ولا يغر عدم استعمال اللفظة والمعنى والمضمون واحد ولا مشاحة في الاصطلاح والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

تم بفضل الله ومنه وكرمه وصلى الله تعالى على سيدنا محمد رسول الله وآله وأصحابه ومن والاه والحمد لله رب العالمين.



## المصادر

- أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، (المتوفى: ٣٥٠هـ)، معجم ديوان الأدب تحقيق، دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة دكتور إبراهيم أنيس، طبعة مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، عام النشر ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.
- أبو إبراهيم محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (المتوفى: ١١٨٢هـ)، سبل السلام، الناشر دار الحديث.
- أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، الناشر عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م.
- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريني الكفوي، الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المحقق عدنان درويش محمد المصري، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت.
- أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ)، السنة، المحقق محمد ناصر الدين الألباني، الناشر المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠.
- أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه العبسي الكوفي (١٥٩. ٢٣٥ هـ)، مُصنّف ابن أبي شيبه، تحقيق محمد عوامة.
- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق أحمد محمد شاكر، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م.
- ابن حبان، محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م.

- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المحقق محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، المتوفى سنة ٢٧٥ هجرية، السنن، تحقيق محمد عوامة، أرقام الأحاديث تتوافق مع طبعة دار الفكر بيروت.
- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢.
- الشريف أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين المتوفى سنة ٤٣٦ هـ رضى الله عنه، أمالي السيد المرتضى في التفسير والحديث والادب، الطبعة الأولى، سنة ١٣٢٥ هـ سنة ١٩٠٧ م،
- أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، الناشر المطبعة الكبرى، الأميرية، مصر، الطبعة السابعة، ١٣٢٣ هـ.
- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، المحقق مكتب تحقيق التراث، الناشر دار المعرفة ببيروت، الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ.
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، العين، المحقق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر دار ومكتبة الهلال.
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط عادل مرشد، وآخرون، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م.
- أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق، مصطفی عبد القادر عطا، الناشر دار الکتب العلمیة بیروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ ١٩٩٠.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١ هـ)، الجامع لأحكام القرآن، المحقق: هشام سمير البخاري، الناشر دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م، مصدر الكتاب: موقع مكتبة المدينة الرقمية.

## مقومات حماية الوطن ووسائل تفعيلها ...

- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، (المتوفى: ٢٥٦هـ)، الأدب المفرد، المحقق محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر دار البشائر الإسلامية بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩، ١٤٠٩.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، (المتوفى: ٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، حسب ترقيم فتح الباري، الناشر دار الشعب القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ ١٩٨٧.
- أبو عبد الله، ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البابي الحلبي.
- أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (المتوفى: ٣٥٦هـ)، الأمالي، عني بوضعها وترتيبها محمد عبد الجواد الأصمعي الناشر: دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦ م.
- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، (٢٠٩، ٢٧٩ هـ)، السنن، المحقق بشار عواد معروف، الناشر دار الغرب الإسلامي بيروت، سنة النشر ١٩٩٨ م.
- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، كتاب التعريفات،
- أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، كشف المشكل من حديث الصحيحين، المحقق: علي حسين البواب، الناشر دار الوطن الرياض.
- أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق مجموعة من المحققين، الناشر دار الهداية.
- أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق مجموعة من المحققين، الناشر دار الهداية.
- أبو القاسم الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللحمي الشامي، (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المعجم الأوسط، المحقق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر دار الحرمين القاهرة.
- أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب ابن هشام الحميري المعافري، جمال الدين (المتوفى ٢١٣هـ)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشليبي، الناشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م.

- أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، المحقق محمد عوض مرعب، الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، جمهرة اللغة، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الناشر دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- صححه وضبط ألفاظه وعلق حواشيه (السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي)، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي قم ايران ١٤٠٣ هـ.
- المحقق ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.

مقومات حماية الوطن  
في خطبة حجة الوداع

الدكتور / بوعبيد الإزدهار  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - بني ملال  
جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعلى آله وصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم أما بعد؛

فما أحوج البشرية اليوم، وهي تتطلع إلى غد مشرق، في ظل ما تعيشه من نكبات؛ أن تعمق الفهم في التشريع الرباني، وتعيد النظر في التاريخ الإسلامي، وتتبصر من خلاله فاعلية السنن الإلهية الناظمة لمساره وتشكلاته، وتستلهم منه عناصر استقرار البلدان وأمنها؛ وخطبة حجة الوداع- قيد الدراسة والتحليل- تعد واحدة من تلكم الوقائع التي شكلت مرجعًا معرفيًا وفكريًا في التأسيس النظري للدعامات العقدية والاجتماعية والتشريعية في حماية الوطن والدفاع عن حوزته بعد وثيقة المدينة؛ والتي تستوجب منا - اليوم، المزيد من النظر والتأمل في سياقاتها المعرفية والتاريخية، واستنباط ما فيها من الإشارات الدالة على الدفاع عن حرمة الوطن وصيانة بنياته الفكرية والدينية والاجتماعية؛ فقد حوت هذه الخطبة ما يحتاجه المسلم ليقوم بواجبه تجاه ربه ومجتمعه وأمته، وحوث أيضًا ما تحتاجه الأمة الإسلامية لكي تكون ظاهرة عزيزة مترابطة غير متفرقة.

لقد رسمت هذه الخطبة- التي ألقاها النبي ﷺ على مسامع الجمع الغفير من المسلمين بمكة أيام الحج، خريطة الطريق التي ينبغي أن تسير عليها البشرية بعد مرحلة النبوة في كل المستويات؛ إذ نصت على جملة من المقومات التي من شأنها أن تعصم دماء المؤمنين وتوحد صفوفهم وتقوي شوكتهم وتنزع عنهم القيود والأغلال التي علقت بأذهان بعضهم، وتُبدد ما في نفوسهم من بقايا الجاهلية، وتضمن للدولة الإسلامية الحديثة استمراريتها وتحميها من أي سوء منقلب في الفكر والعقيدة والسلوك، على تلكم المبادئ التي غرسها النبي ﷺ طيلة مدة الدعوة والبلاغ، وبخاصة أن مثل هذا المؤتمر العالمي لا يتكرر في حياته ﷺ مرة أخرى، فاغتنم الفرصة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، مصححًا ومبينًا دين ربه للناس من حوله.

ولأجل ذلك، كان جهد النبي ﷺ منصبًا -إلى جانب الدعوة والبيان- على حماية الأوطان،

يوصف ذلك واجبًا لكل إنسان، مهما اختلف لونه وعقيدته ودينه، لأن الوطن يعد المحضن الأساس الذي يوفر للناس الأمن والأمان، عليه أن يعتقد أن الوطن بيته، واجب المحافظة على أمنه وسلامة أركانه، وأن يدافع عنه، كل من موقعه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

فما المقصود إذاً، بحماية الوطن؟ وما هي سياقات حجة الوداع المعرفية والتاريخية، ثم ما هي أهم مقومات حماية الوطن في عناصر هذه الخطبة النبوية؟

ولمقاربة قضايا هذه الدراسة وغيرها، سيتم التركيز على المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: خطبة حجة الوداع، ومسوغات الدعوة إلى حماية الوطن - المفهوم والسياق:

المبحث الثاني: خطبة حجة الوداع: نحو ترسيخ مقومات فكرية واجتماعية وتشريعية لحماية الوطن:

نروم من خلال هذه الدراسة، الوقوف على الوثائق النبوية التي تعد مصدرًا من مصادر السياسة الشرعية، وخطبة حجة الوداع العظيمة واحدة منها، مع استلهاهم ما تحمله من تشريعات لقضايا مهمة في الاجتماع البشري، واستجلاء بنودها بوصفها آخر لقاء بين النبي ﷺ وأمته، إذ تناولت وصايا وقواعد بها إصلاح البشرية وسعادتها، وكذا معرفة الأبعاد التشريعية والمقاصدية لمبادئ العدل والمساواة والأخوة الإنسانية وحرمة إراقة الدماء والتأمين عليها، وإلغاء التمايز القومي والطائفي، والولاء للحكام وولادة الأمر، وغيرها من القضايا التي أقرها الدين الإسلامي، والتي تسهم بشكل كبير في حفظ الأمن واستقرار الأوطان ووحدها.



## المبحث الأول:

### خطبة حجة الوداع ومسوغات الدعوة إلى حماية الوطن - المفهوم والسياق

#### المطلب الأول:

المقصود بمفهوم "حماية" و "الوطن" في التداول اللغوي والاصطلاحي:

أولاً: مفهوم "حماية" في التداول اللغوي والاصطلاحي:

مفهوم "حماية" لغة: الحماية في اللغة: مصدر حمى يحمي، حماية، من الحفظ والصيانة والنصرة؛ يقول ابن منظور إن: "حمى الشيء يحميه حمايةً بالكسر: أي منعه"<sup>(١)</sup>، ويقال: "حميتُ القوم حمايةً أي: نصرتهم"<sup>(٢)</sup>، ويقال: "حميتُ المكان: إذا دفعت عنه، ومنعت منه من يقربهُ، واحتمى الرجل من كذا: أي اتقاه"<sup>(٣)</sup>.

وفي الجملة، نجد أن لمفهوم "الحماية" معاني متعددة، حيث يأتي للدلالة على: المنع والنصرة، وهي داخلة تحت معنى المنع؛ لأن النصره منع الغير من الإضرار بالمنصور. وكذلك يأتي بمعنى الاتقاء وهو أيضاً قريب من المنع، حيث إن من احتمى من شيء اتقاه، واتقاؤه امتناعه منه. وأيضاً يأتي للدلالة على معنى الدفاع، وهو أيضاً يدخل تحت المنع، إذ إن المدافع عن الشيء يمنع عنه ما يضره.

مفهوم "حماية" اصطلاحاً: يتبين من خلال النظر في المعاجم الاصطلاحية أنه ليس ثمة فروق كبيرة بين معنى الحماية في اللغة والاصطلاح؛ إذ المعنى اللغوي هو نفسه المعنى الاصطلاحى، وأصل معنى الحماية لا يختلف في نفسه، وإنما يختلف نوع الحماية بحسب ما يضاف إليه.

فنقول حماية المريض على سبيل المثال: يعنى المنع مما يضره، ومعنى حماية المدني: المنع مما يضره من الاعتداء عليه، والدفاع عنه وغيره، وحماية الوطن؛ أي منع الضرر عنه وعن مواطنيه، واتقاء

١- لسان العرب، لابن منظور، مادة (حمى)، ١٤/١٩٨، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص ١٢٧٦.

٢- ينظر كتاب الأفعال، لابن القطاع، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى- ١٤٠٣هـ، ١/٢٦٠.

٣- أساس البلاغة، للزمخشري، مادة (حمى)، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، لبنان، (د.ت)، ص ٩٦. وانظر، مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق، صفوان عدنان داودي، مادة (حم)، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية- ١٤١٨هـ، ص ٢٥٥.

شر المعتدين منه. وهذا المعنى مستعمل في الفقه الإسلامي، مثال ذلك قولهم: "وجبت الدية على العاقلة؛ لأنهم أهل نصرته، فلما كانوا متناصرين في القتال والحماية أمروا بالتناصر والتعاون على تحمل الدية ليتساووا في حملها كما تساووا في حماية بعضهم بعضاً عند القتال" (١)، فدل ذلك على أن من معاني الحماية في الاصطلاح النصره والتعاون في الضراء والسراء.

### ثانياً: مفهوم "الوطن" في التداول اللغوي والاصطلاحي:

**مفهوم "الوطن" في اللغة:** يطلق لفظ "الوطن" في اللغة، ويراد به "المنزل الذي يُقيم به الفرد، وهو محل الإنسان وموطنه، وجمع وطن أوطان، ويُقال وَطَنَ بالمكان أي أقام فيه، وأوطن فلان أرض كذا وكذا أي اتخذ منها مسكناً ومقاماً" (٢). والوطنُ في المعجم الوسيط يعني المكان، ويُقال "يطن" ووطناً: أي "أقام به، وأوطن المكان أي اتخذهُ وطنًا، وَطَنَ بالبلد اتخذها مسكناً ومحلاً، والوطن مكان إقامة المرء ومُستقره، ويُنسبُ انتماءه إلى وطنه سواء وُلد فيه أم لم يُولد فيه" (٣).

وخلاصة القول، أنّ مفهوم "الوطن" في الدلالة اللغوية يفيد المكان الذي يقيم فيه الإنسان ويتخذ مسكناً، ويربطه بجذوره التاريخية، والذي به تتحقق هويته وانتماءه.

**مفهوم الوطن في الاصطلاح:** جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس: "الواوُ وَالطَّاءُ وَالثُّونُ؛ كلمة صحيحة، فالوطن: محلُّ الإنسان. وَأَوْطَنْتُ الأَرْضَ: اتَّخَذْتُهَا وَطَنًا" (٤). وإذا نظرنا في المصباح المنير نجد أن الوطن هو "مَكَانُ الإنسان وَمَقَرُّه الذي ولد به ونشأ فيه" (٥). كما نجد

- ١- أحكام القرآن، للحصاص، ١٩٥/٣. وانظر، المغني، لابن قدامة، (المرجع السابق)، ١٥٩/١٣.
- ٢- لسان العرب، لابن منظور، مادة وطن. وانظر، مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي، باب الواو، مادة وطن، ص ٣٠٣ بتصرف، وكذا، القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة وطن، ص ١٦٧٠.
- ٣- المعجم الوسيط، مادة وطن، ص ١٠٤٢.
- ٤- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، باب الواو والطاء وما يثلثهما، مادة وطن، ١٢٠/٦.
- ٥- المصباح المنير، للفيومي، باب الواو والطاء وما يثلثهما، مادة وطن، ص ٢٥٤، وانظر، التعريفات الفقهية، لمحمد عميم الإحسان، مادة وطن، ص ٢٣٨. ومعجم التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني، ص ٢١٢، وكذا كشف اصطلاحات الفنون، محمد بن علي التهانوي، باب الواو، ٣٧٧/٤-٣٧٨. وانظر، المعجم الفلسفي، الدكتور جميل صليبا، باب الواو، مادة وطن، ص ٥٨٠.

أن: "الوطن هو البلد الذي تسكنه أمة يشعر المرء بارتباطه بها، وانتهائه إليها"<sup>(١)</sup>.

من خلال التعريفات السابقة نخلص إلى أن الوطن المراد هاهنا في الدلالة الاصطلاحية هو الوطن الخاص، الذي يُولد الشخص فيه ولادة ونشأة، أو نشأة فقط، الذي تربطه به روابط دينية وعقدية واجتماعية، لا يمكن فك الارتباط بها، تلك التي تدفعه إلى الاعتزاز والفخر بالانتماء لهذا الوطن دون الآخر، والدفاع عنه متى استوجب الأمر ذلك. بل تجده يضحى من أجله ويبدل الغالي والرخيص في تحقيق أمنه وسلامة أبنائه من الأعداء الذين يتربصون بهم الدوائر.

### المطلب الثاني: حجة الوداع؛ السياق التاريخي، ومسوغات الدعوة إلى حماية الوطن:

كانت حجة الوداع بمثابة المؤتمر العالمي الجامع في حياة النبي ﷺ، حيث التقى في مكة المكرمة (بعرفات) بجمع غفير من الناس من بلاد العرب والعجم، وذلك في السنة العاشرة للهجرة، فبعد أن أكمل الله تعالى الدين وفتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، أدى النبي ﷺ حجة الوداع، حيث حجَّ معه خلق كثير؛ فعن جابر رضي الله عنه قال: " إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَاجٌّ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشْرًا كَثِيرًا كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِهِ"<sup>(٢)</sup>، وقد انتهز ﷺ اجتماع المسلمين هذا، فخطب فيهم خطبة عظيمة ودَّعَ فيها أصحابه، إذ وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون بالدموع، خاصة بعدما فهم الصحابة أنها آخر لقاء جامع للنبي ﷺ مع أمته، وقد أشار ﷺ إلى ذلك في بداية أول هذه الخطبة بقوله: " أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي فَإِنِّي لَا أَذْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا".

وجه النبي ﷺ خلال هذه الخطبة وصاياها الأخيرة الجامعة إلى أمته؛ حيث لخص فيها أحكام الدين ومقاصده الأساسية، هم أن يغرس في قلوب المسلمين معاني الدين الحق، ومبادئ الرحمة والإنسانية، ويرسي دعائم السلم والسلام في أوساطهم والأجيال من بعدهم، ويبدد ما علق في أذهان بعضهم من بقايا الجاهلية ومساوئها.

١- المصطلحات السياسية الدولية، الدكتور أحمد زكي، ص ٩٣

٢- أخرجه مسلم، في كتاب الحج، من حديث جابر الطويل في صفة حج النبي ﷺ رقم الحديث: ٢٩٤١.

وسبب تسمية هذه الحجة بحجة الوداع - كما يذكر ابن كثير - أنه ﷺ "ودّع فيها الناس، ولم يحج بعدها، وتسمى أيضاً بحجة البلاغ، لأنه ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً، ولم يكن بقي شيء من دعائم الإسلام وقواعده إلا وقد بينه ﷺ" (١).

وبخصوص توثيق هذه الخطبة فقد وردت نصوصها متفرقة على الأبواب في كتب الحديث، وذكرها علماء السير، كالطبري في تاريخ الأمم، وابن هشام في سيرته، وابن كثير في البداية والنهاية، غير أن صاحب البيان والتبيين (٢)، قد انفرد بذكرها مجموعة وكاملة، حتى يسهل استحضار مضامينها في موضع واحد، ولتكون محل مداورة لمعانيها ودلالاتها وأبعادها الاجتماعية والحضارية، فبعد الحمد والثناء على الله والاستعانة به، أوصى ﷺ أمته بتقوى الله وملازمة طاعته جل وعلا، قال ﷺ: "أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد؛ أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألاكل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربنا الجاهلية موضوعة، وأول ربنا أضع ربانا ربنا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوعة كُله، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تصلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس، اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرّات... (٣)".

وقد حملت هذه الخطبة بياناً جامعاً للحقوق والواجبات، وقضايا المرجعية وغيرها، بل إن هذه

١- البداية والنهاية، لابن كثير، ١٢٥/٥.

٢- البيان والتبيين، الجاحظ، المجلد الأول، الجزء الثاني، صص ٢١-٢٣.

٣- سيرة ابن هشام، ٤/٤٦٦ وما بعدها، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في المتعة بالحج والعمرة، الحديث رقم: ٢٩٥٠، وسنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب حجة رسول الله، الحديث رقم: ٣٠٧٤.

الخطبة أرست قواعد الملة، وهدمت مبادئ الجاهلية التي علقت بممارسة المسلمين وغيرهم، كما عَظَّمَ ﷺ من خلالها حرمان المسلمين ودعا إلى الكف عن سفك دماءهم. وذلك بعد أن استقرَّ التشريع، وكمل الدين، وتمت النعمة، ورضي الله هذا الإسلام ديناً للإنسانية كلها، وقد نزل في هذا اليوم قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية: " قال الإمام أحمد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العُميس عن قيس بن مسلم، عن طارق عن ابن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية من كتاب الله لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قال، قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فقال عمر ﷺ: " إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ، فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ"<sup>(١)</sup>.

كل تلك المعاني التي أشرنا إليها سالفًا، تروم زيادة التأكيد على أهمية حماية الأوطان، لأن عناد قريش واستمرارها في التضييق على الدعوة الإسلامية وضع الأمة في حالة استنفار وتأهب للحفاظ على وحدتها وضممان استقرار أفرادها، هذه المرحلة كانت بحاجة إلى دعوة نبوية لتأكيد أهمية التعاون من أجل تحصين الوطن من أعداء الملة والدين، الذين يتصدون به الدوائر للثأر منه ومن أتباعه، هؤلاء أعداء الوحدة والسلام، ليس فقط في ذلك الزمان، بل ما أكثرهم في زماننا المعاصر. ومن ثمة فهنالك مبررات ومسوغات كانت وراء حرص النبي للتمكين لهذه الدعوة وما جاءت به من قيم تحفظ أمن الناس وأعراضهم ودماءهم وصون كرامتهم. ومن ثم فالعقل الإنساني بحاجة اليوم إلى ما يسدد قصده، ويصيب هدفه في البلوغ بالبشرية عمومًا نحو خطى ثابتة إلى الرقي في سلم التنمية والنماء الحضاري، والتضييق على دعوات العنف والتطرف في المجتمع الإسلامي، تلك التي تروم تهديد أمنه واستهداف حصانة أفراده.

١- أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب "اليوم أكملت لكم دينكم"، رقم الحديث: [٧٢٦٨]، ٩١/٩. وصحيح مسلم، كتاب التفسير، الحديث رقم: [٣٠١٧]، ٣١٣/٤.

## المبحث الثاني:

### خطبة حجة الوداع، نحو ترسيخ مقومات فكرية واجتماعية وتشريعية لحماية الوطن

تمهيد:

أرست الشريعة الإسلامية قواعد مهمة في تثبيت أمن الأوطان وحمايتها من الفوضى والانقسام؛ حيث أكدت كثير من النصوص الشرعية والوثائق النبوية على أسس ومقومات من أجل ضمان الاحترام المتبادل بين أفراد البلد الواحد، ثم وثقت العلاقة بين الراعي والرعية على أساس متين مبني على لزوم الطاعة والولاء للسلطان والحاكم، ودعت في ظل هذه العلاقة إلى الاعتصام بحبل الله تعالى والتمسك بسنة نبيه ﷺ، بالقطع مع أفعال الجاهلية ومعتقداتها، كما أعلنت - هذه الشريعة- من قيم الأخوة والتعاون وحب الخير للغير، وجعلت الجميع سواسية لا فرق لأحد منهم على الآخر مهما علا نسبه من النبي ﷺ أو اقترب.

كما أنها حرّمت إراقة دماء المسلمين ونهب أموالهم وفتك أعراضهم من أي سوء، فكل هذه المعاني لخصتها وثيقة حجة الوداع التاريخية حين نصت على جملة من هذه الأسس والمقومات التي لا تقوم الحضارة الإنسانية إلا بها. ولذلك، فمتى حصل الأخذ بهذه المقومات والعمل بمقتضاها تحققت نهضة حضارية هائلة فاقت كل ما هو عليه باقي الأنساق الحضارية المغايرة اليوم من مدننة ورفاهية، وتمتع خلالها الإنسان المعاصر بأضعاف ما يتمتع به غيره في غير الإسلام من طمأنينة واستقرار نفسي وأمن اجتماعي لم يكن يشعر به أو يتوقعه أصلاً من قبل؛ وللتقريب من هذه الأسس والمقومات، سيتم التركيز على الآتي:

### المطلب الأول: المقومات العقدية والفكرية

المقوم الأول: التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ مع إلغاء التمايز القومي والطائفي:

إن المرجعية التي تحدث عنها النبي ﷺ في خطبة الوداع لم تكن مرجعية فئوية أو طائفية، وإنما الدعوة هنا، كانت دعوة عامة لكل البشرية إلى الاجتماع على كتاب الله؛ الذي هو محل إجماع المسلمين أولاً، وعلى سنة النبي ﷺ ثانياً. فمن شأن اعتصام العبد المؤمن بهما، والافتداء بما جاء فيهما من مقومات الوحدة ومسوغات الاصطفاف مع حماة الوطن من الشتات والفرقة، أن يقوي

عنده فرص النجاة من فتن هذا الزمان وأهواله في الانقسام والحراية بين أبنائه، إذ هو السبيل الوحيد للخلاص، والعودة للعزة والقوة، والتقدم الحقيقي.

وقد دعا الرسول الكريم ﷺ أمته في خطبة حجة الوداع إلى هذه المعاني حينما أكد الاتحاد والاعتصام بجبل الله المتين؛ في قوله ﷺ: "وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اِعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ"، فوافقت هذه الدعوة الكريمة من نبي الرحمة دعوة سابقة لها من رب العالمين، حين قال جل وعلا: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٨)، فدل ذلك على أن نصرة الأمة وتماسك بنيانها مرهون بشكل كبير بمدى تماسك أفراد هذه الأمة بدستورها المؤطر لسلوكها والمنظم لها؛ إذ بقدر ما يحصل تمثل للقيم المركزية النازمة لعلاقات الإنسان بربه ونفسه وأخيه الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية، بقدر ما يكون ثمة قوة وتناصر بين كل الأفراد مهما اختلفت ألوأنهم وعقائدهم وأجناسهم.

وبالمقابل، فإن الانحراف عن المنهج الرباني والهدي النبوي قد يدفع بالمرء إلى الزيغ والضلال، ويحرضه نحو زرع المزيد من الفتنة والاضطراب بين مختلف شرائح المجتمع. فليس ثمة شيء أفسد للمجتمعات وأكثر إضعافاً لها، وإغراءً لأعدائها بها، من الفتن والنزاعات الداخلية التي تقصم الظهر وتبعث على الفرقة والانحزام، بل هناك من يلبس لبوس الدين والغيرة على الوطن والدفاع عنه، وبه يخدع الجهلة والمتعجلين من أبنائه، ويسخروهم لخدمة أهدافهم الخبيثة، وخططهم الماكرة لزعزعة استقرار الأوطان وحرمان أهلها الأمن والأمان، كيف والله تعالى يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، والنبي الكريم ﷺ يقول كذلك، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث النعمان أن: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَىٰ" (١).

فَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ هذا المعنى الكبير، وهو من أجل ما يكون في فريضة الحج؛ اجتماع المسلمين؛ لأنهم، أخرجوا مندوبيهم إلى الحج من كل البقاع في مشارق الأرض ومغاربها؛ ليشهدوا الموسم

١- انظر، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، الحديث رقم: ٤٨١٣.

والمنافع الكثيرة المترتبة عنه والمصاحبة له، ولكي يَشْهَدُوا - أيضاً - هذا الأمر العظيم بوحدة المسلمين، وَبِتَوَاضُعِهِمْ لِرَبِّهِمْ وَمَدَلَّتِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ جَلَّ وَعَلَا، وفي خُشُوعِهِمْ وانكسارهم لديه، إذ جميعهم على هيئة واحدة، لم تُفَرِّقْ بينهم مظاهر الدُّنْيَا على ما ينبغي أن يكون الحج الصحيح.

وقد شكل مشهد الحجيج وانتظام صفوفهم وتوحد قصدهم في صعيد عرفات أيام حج رسول الله، درساً بليغاً ومظهراً عظيماً من مظاهر وحدة المسلمين واجتماعهم ما يكون اجتماعهم في هذه البقعة الطيبة المباركة في يوم عرفات، مما أوحى إلى النبي ﷺ بحض أمته بالفعل وبالقول على ضرورة توحيد صف الأمة وتماسك عناصرها، كما حذَرَ من تفرقة صُفُوفِهَا وَأَبْنَائِهَا؛ إذ في الوحدة نصرة وعزة، وفي الفرقة هزيمة وذلة.

ومن ثمة فإن الاعتصام بحبل الله ورسوله من شأنه أن يزيد المجتمع قوة واتحاداً في مواجهة التحديات، واستلهاهم ما فيهما من إشارات دالة على ضرورة الحفاظ على وحدة الوطن والتأهب الدائم للدفاع عنه من كل المخاطر المحدقة به، مع الحذر الشديد عن أي اضطراب من شأنه أن يأتي بشر وضرر بالغين، فيزرع الفرقة والاختلاف بين الناس.

### المقوم الثاني: تصفية الوجود الوثني من المجتمع الإسلامي:

وضع النبي ﷺ كلَّ شيءٍ من أمر الجاهلية، في خطبته العظيمة عندما أعلن عن إلغاء شعائر الجاهلية وشعاراتها، وإبطال أخلاقها ومبادئها الفاسدة، باضمحلال الشُّرك وإخفائه في هذا الوجود، رافعاً راية التَّوْحِيدِ والنصر على أعداء الدين، فقد قرر ﷺ إلى جانب ذلك، القضاء عن أسباب الأضغان والأحقاد، ودفن ما كان في الجاهلية مما يثير الخصومات، وجعل دماء الجاهلية موضوعة، وربا الجاهلية موضوع، ونصَّ على أن أول دم يضعه دم ابن عمه، وأن أول ربا يضعه ربا عمه العباس، ليعلم للناس أن الأمر للحق والقسط ولو على النفس والأقربين.

جاء في هذه الخطبة النبوية أن: "كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْ مَوْضُوعٍ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضْعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرَضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَفَتَلْتَهُ هَذِيلٌ، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبَا أَضْعُ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ"، يقول الإمام النووي أنه: "في هذه الجملة إبطال أفعال الجاهلية وبيعها التي لم



يتصل به قبض، وأنه لا قصاص في قتلها، وأن الإمام وغيره ممن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر ينبغي أن يبدأ بنفسه وأهله فهو أقرب إلى قبول قوله، وإلى طيب نفس من قرب عهده بالإسلام<sup>(١)</sup>.

هذا يعني أن كل شيء من أمر الجاهلية باطل؛ إذ الإسلام أبطل أمور الجاهلية، فلا كبر، ولا بطر، ولا لوأد البنات، ولا للثأر ولا الانتقام، ولا فضل لقبيلة على قبيلة، ولا لأبيض على أسود إلا بالقوى والعمل الصالح، كل ذلك مردود على أصحابه، فقد تم القطع مع ممارسات الجاهلية سلوكًا واعتقادًا. وما يعكس ذلك بجلاء، حديثه ﷺ في موضع آخر، أن أبا ذر عيّر بلالًا بلون أمه، فقال له: يا ابن السوداء، فرد عليه النبي ﷺ بقوله: "إِنَّكَ أَمْرُؤٌ فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ"<sup>(٢)</sup>، الواضح من الحديث أنه على الرغم من كبر سن أبي ذر رضي الله عنه، لا يزال فيه أثر من آثار الجاهلية، فالجاهلية سلوك وخلق وحكم وتصور.

ومن صور الجاهلية، كذلك، وضعه ﷺ لمسألة الربا، التي كانت منتشرة بينهم، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس؛ وذلك ليكون قدوة في هذا الشأن يبدأ بنفسه وآله في تنفيذ الأوامر الربانية، فالربا تقطع المعروف وتزيل المواساة، وتمحو الإحسان بين الناس، وتزيد تسلط الطبقة الغنية على الطبقة الفقيرة، فيمتلئ المجتمع بالشحناء والبغضاء، ويشيع العدوان بين الناس، هذا في الدنيا. وفي الآخرة، فإن المرابين سيكون حالهم على الصورة التي ذكرها الله في القرآن، كما

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

والرسول ﷺ يقول: "لَعَنَ أَكْلَ الرِّبَا وَمُؤْكَلَهُ وَشَاهِدِيهِ وَكَاتِبَهُ"<sup>(٣)</sup>، فالربا تجارة الكسول وبضاعة الخامل، وشر مستطير في الدنيا والآخرة، فهو يهدم القيم، ويحطم الأخلاق، ويدمر الاقتصاد،

١- شرح النووي على صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ١٨٢/٨.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، الحديث رقم ٣٠. وانظر صحيح مسلم، كتاب الإيمان والندور، باب إطعام المملوك مما يأكل، رقم الحديث: ١٦٦١.

٣- أخرجه الإمام مسلم، كتاب المساقاة، باب لعن أكل الربا ومؤكله، حديث رقم ١٥٩٨.

ويربك الأمة، ويثقل كاهلها بالديون، وفوق ذلك فهو يوقع العداوة والبغضاء بين الناس، وينتزع الرحمة من القلوب، فمن شأن هذه السلوكيات والمظاهر أن تهدد أمن الدولة الفكري والاجتماعي، فتظهر ممارسات مخالفة للدين تروم الانتقام والكيل بمكيالين لأولئك المرابين الذين يمتصون دماء المواطنين. بل إن الربا من الكبائر، وأحد السبع الموبقات التي جاء تحريمها صريحاً في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فالله تعالى قد أعلن الحرب على المرابين، حين قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۗ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ (البقرة: ٢٧٨-٢٧٩). فكان هذا وعيداً شديداً من رب العالمين، لمن لم ينته عن التعامل بالربا.

### المطلب الثاني: المقومات التشريعية والقانونية

#### المقوم الأول: تعظيم حرمة إزاحة الدماء بغير حق والتأمين عليها:

شدّد النبي ﷺ في هذه الخطبة على ضرورة الحفاظ على أمن الدولة الإسلامية الحديثة وكف الأذى عن دماء المواطنين والتأمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وكل الخصومات المؤدية إلى الاقتتال بين المسلمين وغيرهم، وقد قرر ذلك التأمين في قوله ﷺ: "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَعَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا.."، فأول أساس ضروري لحياة الأمة؛ الأمن على النفس والمال والعرض، وهي نفسها المدخل الخطيرة لإنهاك المجتمع الإسلامي وإضعاف قواه، لذلك فقد جاءت هذه الخطبة النبوية الجامعة من أجل تعظيم حرمة سفك الدماء، والتشديد على عقوبة غصب الأموال وسرقتها، سواء كانت أموالاً خاصة أو عامة، لأنه لا يهناً للإنسان عيش، ويقر له قرار إلا إذا تحقق له الأمن على روحه وبدنه وماله وعرضه، ولا يخشى الاعتداء عليها وانتهاكها من قريب أو بعيد.

يقول ابن حجر في التعليق على هذا المقوم: "إن مناط التشبيه في قوله؛ "كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا"، وما بعده، ظهوره عند السامعين لأن تحريم البلد، والشهر، واليوم، كان ثابتاً في نفوسهم، مقررراً عندهم، بخلاف الأنفس والأموال، والأعراض، فكانوا في الجاهلية يستبيحونها، فطراً الشرع عليهم بأن تحريم دم المسلم وماله وعرضه، أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم، فلا يدركون المشبه

به أخفض رتبة من المشبه؛ لأن الخطاب إنما وقع بالنسبة لما اعتاده المخاطبون قبل تقرير الشرع<sup>(١)</sup>.

وكلام الرسول ﷺ هذا، جاء مطابقاً لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)، يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: إن "هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله تعالى في غير ما آية في كتاب الله"<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي جاءت مؤيدة لهذا المعنى، قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه عبد الله بن عمرو ﷺ أنه قال: "لِزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَى عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ"<sup>(٣)</sup>. وكذلك ما جاء في حديث عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصَبَّ دَمًا حَرَامًا"<sup>(٤)</sup>.

تدلُّ هذه الآيات والأحاديث كلها على عظم حرمة إراقة دماء المسلمين بغير حق، وحتى يتم ردع الناس عن ذلك، أوجب الله القصاص وجعل فيه حياة للناس، لأنه إذا تذكر المرء أنه إن قتل سيقتل، امتنع عن القتل، فهذا معنى الآية الكريمة في قوله ﷺ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩). فحفظُ النفوس وصيانةُ الدماء والأموال والأعراض قضية من قضايا الإسلام الكلية ومقاصده الضرورية، فكلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، وللحد من ذلك، شرع القصاص في الإسلام من أجل الحفاظ على حياة الناس وصورها، لما يرتدع كل من همم بالجرمة عن الإجرام وتشفي صدور أولياء المقتول من الثأر

١- انظر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ رب مبلغ أوعى من سامع، ١٤٥/١.

٢- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٧٦/٢.

٣- أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلماً، الحديث رقم: ٢٦١٩، ٨٧٤/٢. وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، حديث رقم: ٢٦١٩، ١١٩/٦.

٤- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، الحديث رقم: ٦٨٦٢، والإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر، ٤٩٣/٩.

والانتقام الذي لا تقف معه الدماء عن الإراقة والسيلان.

ومن ثم، فالجتماع - أي مجتمع - لا يصلح حاله البتة بسفك الدماء أو بالانشقاقات والتنازعات والخصومات، وإنما يتحقق ذلك بتثبيت أفرادها بما ورد التنصيص عليه في عقيدة الإسلام، الداعية إلى حفظ الضرورات الخمس؛ من الحفاظ على النفوس والعقول والأموال والأعراض والدماء، فهي عقيدة تحترم الإنسان وتحفظ كيانه، وتحقق دماءه، وترفع شعار الإحسان مع المسلمين وغيرهم، بل تدعو إلى الإحسان مع النباتات والحيوانات، ومن شأن تمثل المرء لهذه المعاني وغيرها أن يزيد اللحمية بين الناس جميعاً ويقوي عندهم حب بعضهم بعضاً، ويدفع بهم إلى البحث عما به سعادتهم في العاجل والآجل.

المقوم الثاني: الالتزام والوفاء بالعهود وأداء الأمانات: شرَّع النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع وجوب رد الأمانات إلى أهلها والوفاء بالعهود بين الناس ضماناً لحقوق كل فرد من أفراد المجتمع، في قوله ﷺ: "مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ؛ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ أُتِّمِنَتْ عَلَيْهَا"، فتأكيد الرسول الكريم ﷺ في هذه الخطبة على مسألة صون الأمانة والحفاظ عليها، دليل على عظمها، وعظم ذنب المتهاون في تأديتها، وأنها مسؤولية كبيرة تتبع صاحبها إلى يوم القيامة، كما ورد في الحديث، قوله ﷺ: "لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ"<sup>(١)</sup>. ومن الأحاديث، كذلك، التي جاء الأمر فيها صريحاً بتأدية الأمانة والحفاظ عليها، قوله ﷺ: "أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أُتِّمِنَكَ، وَلَا تُخُنْ مَنْ خَانَكَ"<sup>(٢)</sup>، لأنه من ضيع الأمانة سيكون لما دونها أضيع.

وقد ذكر ابن هشام في سيرته قصة توضح أمانة النبي ﷺ، يقول فيها: "فتح النبي ﷺ مكة، ودخل المسجد الحرام فطاف حول الكعبة، وبعد أن انتهى من طوافه دعا عثمان بن طلحة - حامل مفتاح الكعبة - فأخذ منه المفتاح، وفتح الكعبة، فدخلها النبي ﷺ، ثم جلس في المسجد

١- رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، الحديث رقم: ٢٥٨٢، ٩٩٧/٤.

٢- المستدرک علی الصحیحین، للحاکم، کتاب البیوع، وأما حدیث أبي هريرة، الحديث رقم: ٢٢٩٧، ٥٢/٢.

فقام علي بن أبي طالب وقال: يا رسول الله، اجعل لنا الحجابة مع السقاية، فقال النبي ﷺ: "أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟"، فدعي له، فقال النبي ﷺ: "هَآكَ مِفْتَاحَكَ يَا عُثْمَانُ، الْيَوْمَ يَوْمٌ بَرٌّ وَوَفَاءٌ"<sup>(١)</sup>، ونزل في هذا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (٥٨) (النساء: ٥٨).

والأمانة؛ هي ضدّ الخيانة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) (الأحزاب: ٧٢). يقول الإمام الطبري: "إنه عُني بالأمانة في هذا الموضع: جميع معاني الأمانات في الدين وأمانات الناس، وذلك أن الله لم يخص بقوله: (عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ) بعض معاني الأمانات"<sup>(٢)</sup>.

وهذا ما ذهب إليه الإمام السعدي بقوله: أن "جميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين"<sup>(٣)</sup>.

وقد حرم الإسلام الخيانة وأخذ ما ليس لك إلا بحق، وقد ذكر ابن حبان في صحيحه؛ "أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ تُوِّيَّ يَوْمَ خَيْبَرَ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "صَلُّوا عَلَيَّ صَاحِبِكُمْ" فَتَعَيَّرَتْ وَجُوهُ الْقَوْمِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ "إِنَّ صَاحِبِكُمْ غَلٌّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَفَتَحْنَا مَتَاعَهُ، فَوَجَدْنَا حَرَزًا مِنْ حَرَزِ الْيَهُودِ لَا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ"<sup>(٤)</sup>، والغل الخيانة كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره<sup>(٥)</sup>.

ومن شأن الإخلال بهذا الواجب أن يثير الفتنة بين الناس ويزرع الانتقام من خان الأمانة وضيعها، وهو أمر غير محمود العواقب، قد يجر بالعباد والبلاد إلى اقتتال وصراع دموي يفقد المرء من خلاله الأمن على نفسه وعرضه وماله؛ ثم إن ذلك مما قد يكون سبباً في إضعاف الأمة وشل

١- سيرة ابن هشام، ٤١٢/٢.

٢- تفسير الطبري، ٣٤٢/٢٠.

٣- تفسير الإمام السعدي، ص ٥٤٧.

٤- صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الغلول، ذكر ترك المصطفى ﷺ الصلاة على من مات، الحديث رقم: ٤٨٥٣، ١١/١٩٠.

٥- تفسير ابن كثير، ١٥١/٢، انظر تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران: ١٦١) أَي: يَخُون.

حركة أفرادها والخوض بهم في معارك هامشية هم في غنى عنها.

### المقوم الثالث: الاعتراف بحقوق المرأة والحفاظ على كرامتها: لقد صانت خطبة حجة

الوداع للمرأة أنوثتها وكرامتها، وحضت على تكريمها ورعايتها، وحفظت لها حقوقها الزوجية، بل "عدت حقوقها واجبات على الزوج وأمانة في عنقه" (١)، فقد قال رسول الله ﷺ "وَأَمَّا النِّسَاءُ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ، لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحَلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا"، والمسلم في علاقته الزوجية، وجب عليه الإحسان لزوجته، فلا يظلمها، ولا يقارنها بغيرها، لأن كل شخص له مميزات، وفيه عيوب، والكمال لله وحده، وهذا ما أرشد إليه الإسلام كما جاء في الحديث، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لَا يَفْرُكُ (٢) مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ" (٣). وقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا، أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُهُمْ خِيَارُهُمْ لِنِسَائِهِمْ" (٤).

ومن شأن هذا التشريع النبوي أن يحفظ للأسرة كيانها ويزيد أفرادها تماسكًا، ويساعدها على القيام بأداء الرسالة المنوطة بها، والمتتملة في حفظ الأنساب وتربية النشء تربية حسنة حتى تؤهلهم لخدمة الأمة والوطن والسعي إلى ما به الخير والصلاح، والأسرة يتوجب عليها كمؤسسة أن تُعلم الأبناء حب الوطن وتجلياته، وتغرس في قلوبهم القيم والمبادئ السمحة التي بها تستقيم سلوكياتهم البانية والمعمرة خيرًا وصلاحًا، ومن ثم فصون الأسرة هو صون بالضرورة لكل عناصر المجتمع من أي تغاير ونزاع بين أفرادها. وحرري بنا اليوم والأمة تنشد الاستقرار وتتطلع إلى وضع أحسن مما هو

١- انظر، الإعلان العالمي لحقوق العباد في حجة الوداع والبلاغ، مقال للدكتور رشيد كهوس، منشور بمجلة الأزهر- مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية، رمضان - ١٤٣٤هـ/يوليوز - غشت، ٢٠١٣م ص ١٩٤٨.

٢- لا يفرك: أي لا يكره أو ييغض أو يظلم.

٣- رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية ب، الحديث رقم: ١٤٦٩، ٩١/٢.

٤- رواه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، حديث رقم ١١٦٢، ٤٥٨/٣، ورواه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم: ٧٤٠٢، ٣٦٤/١٢.

عليه، أن تصون المرأة وتضمن لها حقوقها التي أعطاها الشرع الحكيم.

### المطلب الثالث: المقومات السياسية والاجتماعية

#### المقوم الأول: ضمان المساواة والأخوة الإنسانية الجامعة:

ألغى دين الإسلام التمايز القومي والطائفي وكل الفوارق الاجتماعية حين أقر مبدأ المساواة بين الناس جميعاً، بغض النظر عن اختلاف ألوانهم وأجناسهم، واقتراب نسبهم من آل البيت أو ابتعادهم. والمجتمع الذي يقوم أفراده على قدم المساواة هو مجتمع يشع منه الاطمئنان والأمان، والمحبة والتعاون على الخير، أما إذا انعدمت هذه المساواة في مجتمع، نتج عنه، ولا شك، الصراع وظهرت الطبقة، وتزعزعت الثقة بين الناس.

فالناس جميعاً في ظل القانون الإسلامي سواسية لا فرق بين غني وفقير، ولا بين قوى وضعيف، ولا بين حاكم ومحكوم، يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ اَلْقِصَاصُ فِي اَلْقَتْلِ اَلْحَرْبِ اَلْحَرْبِ وَاَلْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَاَلْاُنْثَى بِالْاُنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ اَخِيهِ شَيْءٌ فَاِنْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَاَدَاءٌ اِلَيْهِ بِاِحْسَنِ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٨)، إن الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب، وأنهم سواسية يتمتع الجميع بحقوقه كافة، فلا تمايز بينهم ولا تفاضل، يؤكد ﷺ في خطبة الوداع أنه "لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ عَجَمِيٍّ، وَلَا عَجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ"، فالجميع سواسية كأسنان المشط؛ كل يؤدي وظيفته بدون استثناء.

ولنا في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة؛ إذ بلغت المساواة والأخوة الإنسانية مستوى غير مألوف في زمانه؛ حيث فتح القلوب قبل الأمصار، بعدالته وجهده في رفع الظلم عن الناس، ناصحاً إياهم ومُرجباً في تمثل هذه المعاني في علاقاتهم ببعضهم بعضاً، وقد فتح المجال واسعاً بهذا السلوك أمام الجميع ليخدم كل فرد أمته ووطنه، إذ أسس لهذه القيم في مناسبات كثيرة؛ وخطبة الوداع كانت واحدة منها، حين خاطب عليه الصلاة والسلام القوم قائلاً: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ".

فالإسلام دين يحث على الأخوة الإنسانية والمساواة بين الناس، ويحرم التفرقة والتمييز بينهم

اعتمادًا على أصول واهية في اللون والجنس وغيرهما، وإنما يجعل التقوى والعمل الصالح والأجود هو معيار تعيين الأفضلية بين الناس، يقول الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣).

وقد عكست لنا خطبة حجة الوداع حكمة النبي ﷺ وقدرته على بناء الإنسان قبل العمران ونزع ما بقي في قلوبهم من الأغلال والتنافر والتباغض، بالدعوة إلى تعزيز قيم التعارف والتآلف بين قلوب المسلمين؛ وقد جاء في هذه الخطبة قوله ﷺ: "تَعَلَّمَنَّ أَنْ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخُو الْمُسْلِمِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ، فَلَا يَجُلُّ لِإِمْرِيٍّ مِنْ أَحِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، فَلَا تَظْلُمُوا أَنْفُسَكُمْ"، وكذا قوله ﷺ في نفس الخطبة: "لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"، ومن الأحاديث، كذلك، الداعية إلى تمثل هذه المعاني، ما ذكره البخاري في صحيحه، فعن عبد الله ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: " الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (١).

كل هذه الشواهد والأدلة الشرعية، تؤكد على عنصر المساواة والأخوة الإنسانية، بوصفه الضامن لوحدة الأمة والحافظ لها من الفرقة والانقسام، فهو يركز على تعظيم الاتحاد والتعاون والتسامح والود والتراحم، وهي القيم نفسها التي تحتاجها البشرية اليوم حتى ترتفع عن الواقع المؤلم؛ واقع الحروب والصراعات القبلية والتحيزات الفكرية التي دمرت الإنسانية وضيقت عليها الدنيا بعد رحابتها. فلو أخذت الأمم والشعوب بهذه التعاليم والمبادئ في واقعها المعيش لسادت المحبة والود والوئام.

ومن ثم، فواقع أتباع الأنساق الدينية والفكرية والعقدية المتغايرة في واقعنا المعاصر يعكس هذه الرؤية الضيقة ويحرم الأجيال من الاستمتاع بإنجاز العقل البشري والاستفادة منه. المفروض على الجميع في -ظل هذا الصراع- أن يقدر كل منهم جهد الآخر ويثمنه، فلا يجعله متماثلًا له ولا

١- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم: [٢٤٤٢]، ٣/١٢٨.



لنسخ متكررة لفكره وعقيدته ونسقه الاجتماعي، بل ينبغي أن يعترف باختلافه وتميزه هو الآخر، كل له خصوصياته، المطلوب - إذًا- أن يعيش في أمن وأمان إلى جانبه، دون أن يظلم الواحد منهم الآخر، أو يسلب ماله أو يهتك عرضه بذريعة مخالفته للدين والعقيدة وغيرهما.

وبرسم هذه الصورة الحضارية من التعارف والتعايش في واقع الناس، يمكن أن نتحدث عن مواطنة إيجابية؛ تلك التي أسست لها تعاليم الدين الإسلامي، مواطنة داعية إلى الإنتاج والفعالية، يُسهم فيها الجميع - كل من موقعه- بالدفع والارتقاء بالفكر والممارسة عن الشعور بالاستعلاء والأنانية الفردية، إلى تحقيق الاستقرار والتمكين لوحدة الأمة الجامعة. ولذلك فالاختلاف الظاهر بين النوع البشري اليوم، ينبغي أن يكون مدعاة للتعرف والتآلف لا الجفاء والتناكف. لأنه انطلاقًا من هذه المساواة المطلقة بين الناس، يتم "إقرار حقيقة إنسانية، وهي أنه لا ينبغي التمييز بين النوع الإنساني مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ودياناتهم" (١).

ومن ثمة فالروابط والعلاقات التي تجمع بين أبناء الوطن الواحد وبينهم وبين مؤسسات الدولة، "لا يمكن أن تقوم على إلغاء الصفات والانتماءات والمعتقدات وغيرها من الخصوصيات التي تميز فئة عن أخرى غيرها، وإنما ينبغي أن تقوم على احترام هذا التمايز، وإتاحة الفرصة أمام الجميع للمشاركة الفعلية في إغناء الوطن وتنمية رصيده الثقافي والحضاري" (٢).

وإذا كان التساكن والتعايش والشراكة والتعاون وما إليها من العناصر الأساسية التي يفترض توافرها بين المشتركين في الانتماء إلى الوطن نفسه، فإنها تهمز وتختل في حالة عدم احترام مبدأ المساواة، مما يؤدي إلى تهديد الاستقرار، لأن "كل من يشعر بالحيف، أو الحرمان دون حق مما يتاح لغيره، وتغلق في وجهه أبواب العدالة والإنصاف، يصبح متمرّدًا على قيم المواطنة، ويكون بمثابة

---

١- وثيقة المدينة: نحو تأسيس مبادئ السلم الاجتماعي والتعايش الديني، الدكتور بوعبيد الازدهار، ورقة ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية الثامنة حول "السلم المدني في السنة النبوية؛ مقوماته وأبعاده الحضارية"، من تنظيم الأمانة العامة للحديث النبوي الشريف، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية دبي - الامارات العربية، أيام: ٢٥-٢٧ / ٠٤/ ٢٠١٧م، الجزء الثاني، ص ٢٥٧.

٢- المواطنة بين السياسة الشرعية والتحديات المعاصرة، د. علاء الدين عبد الرزاق جنكو، ص ٧، بتصرف.

قنبلة موقوتة قابلة للانفجار بشكل من الأشكال<sup>(١)</sup>.

لكن، عندما تتاح فرص التكافؤ بين أفراد الوطن الواحد؛ بأن تكون مجالات الحياة ومناشطها متاحة على قدر متساوٍ من الحقوق والامتيازات لكل المواطنين، فإنهم سيشعرون بواجبهم الوطني في حماية الأمة ومقاومة كل عوامل تفككها وانحيارها، إذ "الوطن الذي تتعدد أصول مواطنيه العرقية، وعقائدهم الدينية، وانتماءاتهم الثقافية والسياسية، لا يمكن ضمان وحدته واستقراره إلا على أساس مبدأ المواطنة الذي يركز على منظومة قانونية وسياسية واجتماعية وأخلاقية متكاملة، والمساواة كمقوم رئيس لها، تعني أنه لا مجال للتمييز بين المواطنين على أساس الجنس، أو اللون، أو الأصل العرقي، أو المعتقد الديني، أو القناعات الفكرية، أو الانتماء السياسي والنقابي والجمعي<sup>(٢)</sup>".

وهكذا، فتمايز الناس في المجتمع الواحد بعد تكافؤ الفرص كتمايز الأعضاء في البدن الواحد، فهي غير متساوية ولا متماثلة، بل متميزة لكل منها دوره ومنزلته، وهي جميعاً يعتمد بعضها على بعض ويكمل بعضها بعضاً لتحقيق التوازن والعدل والوسط. ولا شك أن ترسيخ هذه القيم وتجسيدها في الممارسات النبوية كان دَيْدَنَهُ ﷺ طوال مرحلة الدعوة، وزاد الحرص عليها وتأكيدها في هذه المناسبة التاريخية، ليعلم للجميع أن عهد التفاضل والتمايز بالجنس واللون والنسب قد ولى دون رجعة، وأنه لا فرق بين أحد على الآخر، مهما ارتفع شأنه، ومهما علا وضعه الاعتباري إلا بالتقوى.

**المقوم الثاني: الولاء لولاة الأمور وطاعتهم:** شرَّع الله تعالى لعباده المؤمنين السمع والطاعة لولاة الأمر في السراء والضراء حماية لوحدة الأمة وتجنباً لفرقتها وافتراق مكوناتها، وقد وعظ النبي ﷺ الناس وذكَّرههم في خطبة الوداع بفضل الاعتصام بكتاب الله وطاعة أولي الأمر لما لهما من أثر كبير في توحيد الأمة وضمان وظيفتها الحضارية، فعن أبي أمامة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال ﷺ: " أَيُّهَا النَّاسُ، أَطِيعُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا أَمْرًاكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ " <sup>(٣)</sup>.

١- بيان من أجل الديمقراطية، برهان غليون، ص ١٤ بتصرف.

٢- العدالة مفهومها ومنطلقاتها، أبو بكر علي محمد أمين، ص ٥٣.

٣- رواه ابن حبان في صححه، كتاب السير، باب طاعة الأئمة، ٤٢٦/١٠، حديث رقم: [٤٥٦٣].

فالواجب على الرعية طاعة من ولاه الله عليهم في غير معصيته جل وعلا؛ وفي الحديث إشارة إلى اقتران طاعة أولي الأمر بطاعة الله في الإتيان بقي الفرائض المكتوبة من صلاة وصيام وزكاة، لذلك فمن أولويات الدين الإسلامي تحقيق مصالح الناس والتأكيد على اجتماع كلمتهم، وتوحيد صفهم، والالتفاف حول الأئمة والعلماء والبيعة لولاية الأمور وطاعتهم بالمعروف، لعظم ما رتبّه الله تعالى لهم من ثواب عظيم، وجزاء وفير.

إذ إن في التعاون والوحدة والاجتماع والطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر قوة وفتحاً عظيماً، يعود أثره في الفرد والجماعة، بالعزة والسعادة، وبالاستقرار والطمأنينة، ف"بالسمع والطاعة في المعروف لولاية الأمور من الأمراء والعلماء تنتظم الأمور، وتصلح الأحوال ويأمن الناس، وينصف المظلوم، ويردع الظالم، وتأمين السبل"<sup>(١)</sup>. ولهذا فقد أكدت النصوص الشرعية القطعية ضرورة طاعة ولاة الأمر ولزومها كما دعت إلى حفظها بين الناس جميعاً ضماناً لأنهم وسعادتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩).

قال الإمام السعدي: "وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاية على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم، إلا بطاعتهم والانقياد لهم؛ طاعة لله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرؤا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث، عن عبادة بن الصامت قال: "دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعَنَا فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةَ عَلَيْنَا،

والترمذي في سننه، وقال: حسن صحيح، أبواب السفر، باب منه، ٥١٦/٢، الحديث رقم: [٦١٦]، والإمام أحمد في مسنده تنمة مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو، عن النبي، ٤٨٦/٣٦، الحديث رقم: [٢٢١٦١].

١- بيان حقوق ولاة الأمور على الأئمة بالأدلة من الكتاب والسنة، وبيان ما يترتب على الإخلال بذلك، للشيخ عبد العزيز بن باز، ص ١٨.

٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الإمام السعدي، ص ١٨٤.

وَأَنْ لَا تُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ قَالَ: إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ<sup>(١)</sup>. وفي حديث آخر، فعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي"<sup>(٢)</sup>.

والنصوص في هذا كثيرة متواترة تؤكد كلها ضرورة طاعة ولاة أمر المسلمين مع استحضار المصالح المترتبة عنها في حياة الناس العاجلة منها والآجلة، والداعي إلى ذلك كما يقول الإمام النووي: "اجتماع كلمة المسلمين، لأن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم"<sup>(٣)</sup>.

ولهذا، فإن الخروج عن الحكام وولاية الأمر يعد في وقتنا الراهن "من أخطر الأمور التي لا يمكن تجاهل ما قد ينتج عنها من فتنة وقتال وسفك دماء بين أفراد الأمة"<sup>(٤)</sup>، ومن ثمة فقد تعددت دواعي التزام طاعة ولاة الأمور ومبرراتها في الشريعة الإسلامية، يمكن إجمالها في الآتي<sup>(٥)</sup>:

■ إنها امتثال لأمر الله، ومظهر من مظاهر طاعته جل وعلا، فإنه من أطاع الأمير بالمعروف فقد أطاع الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ<sup>(٥٩)</sup>﴾ (النساء: ٥٩). ولا شك أن هذا الامتثال لأوامر الله من أعظم الأدلة على عبودية الإنسان لله، وخضوعه له والإيمان به رباً وإلهاً ومُشرعاً.

١- أخرج البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ "سترون بعدي أموراً تنكرونها"، ٤٧/٩، رقم: (٧٠٥٦)، ومسلم، كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأئمة في غير معصية، وتحريمها في المعصية: (٤٧٠/٣)، رقم: [١٧٠٩].

٢- رواه الشيخان؛ "صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ<sup>(٥٩)</sup>﴾ (النساء: ٥٩)، ٦٢-٦١/٩، الحديث رقم: [٧١٣٧]. وصحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأئمة في غير معصية، ٤٦٦/٣، الحديث رقم: [٣٣].

٣- شرح النووي على صحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأئمة في غير معصية، ٢٢٥/١٢.

٤- الخروج عن الحكام وأثره في تفريق الأمة، دراسة في ضوء السنة النبوية، د. أحمد إبراهيم يوسف سعدية، د. السيد حمدان السيد سعد، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة السادسة، العدد ١٣، ١٤٣٨هـ، ص ٣٤٠.

٥- ينظر في كتاب: "من قواعد النظام السياسي في الإسلام"، د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي، صص ٤٤-٤٧.

- إن في ذلك ترويضاً للرعية، وتربية لها على الطاعة والانقياد لمن شرع الله طاعته من ولاية الأمور والوالدين والأزواج ونحوهم. وإذا تَرَبَّتْ الأمة على ذلك أصبحت تصرفاتها وفق إرادة الشارع، وبذلك تذوب أهواؤها وأنانيتها كما تنهذب غرائزها وطباعها.
- إنه بالطاعة لأولي الأمر تتلاحم الأمة وتتماسك، وتقوى الصلة بينهم جميعاً، سواء بين الراعي ورعيته، أم بين الرعية فيما بينها. وبهذا تتحقق وحدة الأمة وتتماسك قوتها.
- أنه بطاعة أولي الأمر "تنتظم أمور الدولة وأحوالها، سواء في أمور الدين كالعقيدة والعبادة والأخلاق، أم في أمور الدنيا كالمعاملات والعلاقات، ونحوها. إذ إن تطبيق الشريعة بأصولها وفروعها لا يتحقق إلا بطاعة الراعي، بل لا تتحقق مصالح العباد العاجلة والآجلة"<sup>(٦)</sup>.
- إنه سبب إشاعة الأمن والاستقرار في ربوع ديار الإسلام، وهذا أمر ظاهر، فالطاعة لأولي الأمر تعني سيطرة الشرع والعقل والقلب على كل التصرفات، والتغلب على الهوى والنفس اللذين يجران إلى الجريمة والتمرد والعصيان، وهذا كفيل في تحقيق الأمن والاستقرار والطمأنينة في النفس والمجتمع والبلاد.
- إنه يجعل الأمة المسلمة تظهر بمظهر الهيبة والقوة والرهبة أمام الأعداء، فإذا كانت هذه الأمة تأتمر بأوامر قيادتها العليا في غير معصية الله، فإن هذا سيكون له أثره في الأعداء بلا شك، لما فيه من معاني الاتحاد والائتلاف والتماسك بين أفراد الأمة.
- ثم إن الولاء لأولي الأمر ومبايعتهم سبب في نصر الأمة على العدو؛ فمتى تحققت هذه الطاعة اجتمعت كلمة المسلمين والتحمت صفوفهم واتحدت قوتهم للضرب على العائنين بأمنهم واستقرارهم، وهذه من أهم مقومات النصر، ولذلك كانت انتصارات المسلمين في المعارك الكثيرة بسبب طاعة النبي ﷺ والولاء له.
- ولكل هذه الاعتبارات، فقد اكتست دعوة النبي ﷺ أمته في خطبة حجة الوداع بالتزام طاعة ولي الأمر أهمية بالغة، كيف لا، وهي أصل من أصول العقيدة الصحيحة، وسبيل السعادة والهداية، فلا يجوز الخروج عن الحاكم أو الراعي مهما تغيرت الأوضاع وساءت الأحوال، لأنه إذا ما أرادت أي أمة أن تعيش آمنة مستقرة ومطمئنة في أوطانها فعليها بالتمسك ببيعة الراعي والوفاء

٦- انظر، جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص ١١٧/٢.

له وعدم الاختلاف معه، ففي طاعته؛ طاعة الله ولرسوله، بل إن الشارع الحكيم ألزم الرعية اتباع الإمام وعدم مخالفته في أمور الدين كما الدنيا، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَلَا تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ، فَإِذَا رَكَعَ، فَارْكَعُوا، وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا، فَصَلُّوا جُلُوسًا أَجْمَعُونَ" (١).

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على وجوب اتباع الإمام والراعي في أداء الشعائر الدينية كما الشؤون الدنيوية لما يحققه من مصلحة متبادلة بين الراعي والرعية، وبالنظر إلى عائدته النفسي والاجتماعي والفكري على الأمة وأفرادها في مستوى سعادتهم أو أمنهم واستقرارهم. فالخروج على الإمام أو الحاكم والإخلال بهذا الواجب يعد من أعظم المفاصد التي نعت عنها شريعتنا الإسلامية، لما يترتب عنها من أضرار بالغة تقود المجتمع إلى الهلاك والبوار، فيكون لقمة سائغة لأعداء الوطن والدين. ولعظم هذه المفسدة فقد جاء الأمر بالسمع والطاعة والولاء لولاة الأمر والتعاون معهم على البر والتقوى، لما يجلبه من مصالح دينية ومنافع دنيوية في العاجل والآجل.

وقد قال محمد بن الحسن القلعي (الشافعي) في هذا السياق: "نظام أمر الدين والدنيا مقصود، ولا يحصل إلا بإمام موجود، لو لم نقل بوجود الإمامة؛ لأدى ذلك إلى دوام الاختلاف والهرج إلى يوم القيامة. لو لم يكن للناس إمام مطاع؛ لأنثلم شرف الإسلام وضاع، لو لم يكن للأمة إمام قاهر، لتعطلت المحاريب والمنابر، وتعطلت السبل للوارد والصادر. لو خلا عصر من إمام؛ لتعطلت فيه الأحكام، وضاعت الأيتام، ولم يحج البيت الحرام. لولا الأئمة والقضاة والسلاطين والولاة؛ لما نكحت الأيامى ولا كفلت اليتامى. لولا السلطان لكان الناس فوضى، وأكل بعضهم بعضاً.. " (٢).

لهذا كله، كان الخروج على الحاكم أو السلطان سلوكاً غير مقبول لا عقلاً ولا شرعاً، وذلك

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إقامة الصف من تمام الصلاة، الحديث رقم: [٧٢٢] ١/٤٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب اتمام المأمور بالإمام، الحديث رقم: [٨٦]، ٣٠٩/١.

٢- تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، محمد بن علي بن الحسن القلعي، صص ٩٤-٩٥.

بالنظر إلى عواقبه الوخيمة وآثاره المدمرة؛ إذ إن الضرر والمحنة ستكون أشد على المسلمين من ظلم واعتداء الحاكم - إن كان كذلك - وما تعيشه كثير من الأقطار العربية والإسلامية اليوم من حرمان على مستوى الأمن والاستقرار، يعكس لنا بجلاء الصور المؤلمة والوضع المتدهور التي أصبحت عليه هذه البلدان، بسبب خروجها على السلطان أو الراعي، بل إن شعوب هذه البلدان أصبحت تتعنى يوماً واحداً من أيام ولاية الأمور الذين انقلبوا عليهم، ولو رجع بهم التاريخ إلى الخلف لاختاروا عن اقتناع الولاء والطاعة للراعي مهما كانت الأوضاع وساءت الأحوال، لذلك فهذه "الطاعة التي تتلخص باحترام ولي الأمر وامتثال أوامره في العسر واليسر بحسب الطاقة ما لم يأمر بمعصية لله عز وجل، إنها مسلك عدل متوازن، يجمع بين مصلحة الراعي والرعية، ويحقق الأهداف العامة للدولة، كما أنه يضيق نطاق الخلاف بين الراعي ورعيته بل يحسمه نهائياً، يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ (النساء: ٥٩) (١).

### المقوم الثالث: الانتماء إلى الوطن والتضحية من أجله، والتضامن بين أفراداه:

أوجب الإسلام الاعتزاز بالانتماء إلى الأوطان، وشرع الجهاد في سبيل الله تعالى، دفاعاً عن الدين والأرض والعرض، ورُتب عن ذلك جزاءً، فمن قُتل في سبيل الله مُدافعاً عن تلك المقاصد، كتب عنده جل وعلا من الشهداء. ولا تقتصر حماية الأوطان والدفاع عنها على مواجهة العدوان والدخيل فحسب، بل إن من الواجب في حماية الأوطان مناهضة كل فكر مغشوش، أو شائعة مغرضة أو محاولة استقطاب بعضهم لمصلحة أصحاب الأهواء المشبوهة. كما تشمل حماية الأوطان المحافظة على أسرارها الداخلية، وعدم التعامل مع أعداء الوطن أو من يريدون به السوء، أو يفتنون سمومهم في أجواء المجتمعات بغياً منهم وعدواناً.

وتصحيحاً لهذا الوضع، فقد أكد النبي ﷺ في خطبة الوداع أن الدفاع عن الوطن وحمايته من المخاطر جزء من الدين، فبالحفاظ عليه تُحفظ كرامة الإنسان وعرضه ونفسه وماله؛ حيث إن الله تعالى قرن بين الديار التي لا تنفك بحال عن الوطن والدين في كثير من الآيات، كما في قوله تعالى:

١- من قواعد النظام السياسي في الإسلام، د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي، (المرجع السابق)، ص ٥١.

﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) (المتحنة: ٨)، فالوطن له أهميته في الدين، كما قرن بين الإخراج من الوطن وبين القتل كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴾ (٦٦) (النساء: ٦٦).

وقد صح عن رسول الله ﷺ وأصحابه أنهم كانوا يشتاقون إلى مكة، ولما قدم رسول الله المدينة ومعه أبو بكر وبلال، أخبرت عائشة رسول الله، فقال: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَبْتَ مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدَّهَا، وَحَوْلِ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ"<sup>(١)</sup>. فكان رسول الله ﷺ كارها الخروج من مكة؛ ولما أخرجته قومه من مكة، قال ﷺ: "عَلِمْتُ أَنَّكَ خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ"<sup>(٢)</sup>. وهذا يجعل الانتماء الوطني اليوم حاجةً ضروريةً تُشعر الفرد بالروابط المشتركة بينه وبين أفراد مجتمعه، وتقوية شعوره بالانتماء إلى الوطن وتوجيهه توجيهاً يجعله يفتخر بالانتماء ويتفانى في حب وطنه، ويضحى من أجله، كما أن مشاركة الإنسان في بناء وطنه تشعره بجمال الوطن وبقيمة الفرد في مجتمعه.

كل ذلك، له دلالة على تعلق الفطرة بالأوطان ومشروعية حبها وإصلاحها وبذل الغالي والنفيس من أجلها، وخطورة التخاذل في الذود والدفاع عنها أمر معلوم في الدين؛ فالوطن الذي يعيش فيه الإنسان يجب أن يعيش فيه بالحب والعمل والإنتاج والإصلاح حتى يعمره كما أمر الله ويحيى ثمار تلك العمارة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ

١- متفق عليه، رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي وأصحابه المدينة، حديث رقم: [٣٩٢٦]، ٦٦/٥، ومسلم في كتاب الحج، باب الترغيب في سكن مكة والصبر على لأوائها، حديث رقم: [٤٨٠]، ٣/٢.

٢- انظر، جامع المسانيد والسنن، لابن كثير، حرف العين، (عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهري)، حديث رقم: ٦٦٤٥، ٣٥٥/٥، ومسند الإمام أحمد، مسند الكوفيين، حديث عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهري، حديث رقم: [١٨٧١٧]، ١٣/٣١.



إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ (هود: ٦١).

أما المفسدون الذين يفسدون الأوطان ويهلكون الحرث والنسل ويُروعون الأمنين ويقتلون النفس التي حرم الله، فقد غلظ الله عقابهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد، ولو كان فاعل ذلك الفساد يفعلُه باسم الدين ويراها حسنًا، فإنه ظالم لنفسه وللدين، ولو ادعى أنه يخدم الوطن بذلك، فإنه مفسد يسعى لحظ نفسه. على اعتبار أن الوطن كالسفينة التي يجب على جميع الركاب الحفاظ عليها حتى تنجو وينجو معها أهلها، ولو ترك من يعبث فيها لهلكت السفينة، وهلك كل من فيها. فالفرد الإيجابي هو الذي لا يقدم على خيانة وطنه الذي ترعرع فيه ونال من خيراته واستفاد من إمكانياته، وإنما يكون وقيًا أعظم ما يكون الوفاء لوطنه، مستعدًا للتضحية دائمًا في سبيله بنفسه، محبًا أشد ما يكون الحب له، حب أجل وأسمى من أن ترتقي إليه شبهة أو شك.

وباستحضار واقع الأمة اليوم، وما يعيشه كثير من الأقطار العربية والإسلامية من فرقة وتنازع في كل المستويات والميادين، وأمام خذلان بعض أبنائه وعدم الانخراط في حمايته والدفاع عنه، وجب التأكيد هاهنا أن حماية الوطن وتحصينه من تلك الممارسات العدوانية التي تجعل البلد عرضة للتهديدات الخارجية والداخلية، من التشويش على فكر شبابه، والتهديد لأمنه وسلامته أفراداً، فريضة شرعية، تستوجب من الجميع أفراداً وجماعات أن يلبوا نداء هذه النصره والحماية له متى كانت الحاجة إلى ذلك، غير أن هذا الأمر لا يتحقق إلا بتكتل أبنائه وتماسك أفرادها، علماً أن الوطن هو الذي يوفر للجميع مقومات الحياة من الراحة والأمان، فهو الحمى والملاذ الأول الذي نعيش تحت رايته بسلام وأمان، فمن منا من الممكن أن ينعم بالأمان دون تلبية نداء الوطن في حمايته والدفاع عنه ضد أي مخاطر، خاصة تلك التي تهدف إلى الحفاظ على الأفكار الآمنة التي تُزرع في عقول أولاده.

إن تحقيق الأمن الفكري لأي أمة، يعد مدخلاً مهماً من مداخل توحيدها والرقى بأفرادها نحو إدراك جماعي يقدر العواقب في حالة التخلي عن هذا الواجب حق القدر، والسعي الجاد والحكيم نحو تأمين السلم والسلام في المجتمعات الإنسانية عموماً، بدل تحريبها وتدمير بناها، تلكم التهديدات التي تترصد بالأرض الآمنة من خلال الزج بمحاولات تحريف الأفكار لأبناء الوطن ستبوء دائماً بالفشل، إذا ما قابلها وعي حضاري وعمل دؤوب من أجل وضع الاحتياطات

والتحصينات التي تقف سداً منيعاً أمام هذه المحاولات. لأن النسيج الواحد للوطن لا يمكن أن تُكسره شوكة الظلم أو الأعداء الذين يتربصون بأمنه وأمانه، لذلك فإن الدوافع التي تجعل منا صلابة أمام أي تهديد لأرض الوطن ينبعث من واجبات الوطن تجاه أبنائه، فإن الأرض التي نشأنا عليها ونعمنا بخيراتنا، حريٌّ بنا رد المعروف عندما يطلب الوطن حمايته، فإن حمى الوطن من حمى الأفراد وحمى الشرف، لا يمكن أن يغفل عنها أي فرد يعيش على تراب الوطن.

ولأجل هذه الغاية، فإن زرع قيمة حب الوطن والدفاع عنه في نفوس الناشئة يعد مطلباً شرعياً وضرورة حضارية، ينبغي الحرص عليها وتعميمها في مختلف القنوات التواصلية سواء من خلال وسائل الإعلام أو في البرامج التعليمية أو على الخطب المنبرية، لتوعية أبناء الوطن بقيمته وفضله عليهم، مع العلم أن وقوفهم في تلبية حمايته والدفاع عنه والتصدي لوحده وإظهار الانتماء إليه، ليس فضلاً منهم ولا تكراً، وإنما ذلك واجب حتمي يثاب فاعله ويعاقب تاركه، فإذا تعرض الوطن لأي سوء، فإن ذلك السوء والأذى سيصل أثره إلى كل فرد من أفرادها، ثم إنه لا سلامة لهؤلاء إلا بسلامة أوطانهم، بل إنه لا تقدم لوطن ونُشدان نهضته إلا باستقراره وتحقيق الأمن بين أوساطه.

**الخاتمة:** إن حماية الدعوة الإسلامية وتأمين حدودها ورعاية مقاصدها وغاياتها، شكل قضية مركزية في خطاب النبي ﷺ في حجة الوداع؛ إذ كان على علم ودراية بضرورة تهيئة الظروف المناسبة لثبات المسلمين وتصحيح الاختلالات العقيدية والفكرية والتنظيمية المخالفة لروح الشريعة ومقاصدها قبل موادة أمتها، والتي قد تفرق وحدتهم وتدمر علاقاتهم، والعمل على التأسيس لقيم المساواة والأخوة الجامعة، والإقرار بحقوق المواطنين عموماً والمرأة خصوصاً، وتعزيزها بالفعل الميداني، فنجد ﷺ قد عمل على ضمان تنفيذ هذه القيم، وتفعيل بنودها، وذلك إيماناً منه بحتمية التعاون والتآزر بين الناس جميعاً في بناء مجتمع إنساني سليم، يسوده الأمن والسلام، والود والتسامح والإحساء الإنساني.

والتأمل في عناصر خطبة الوداع التشريعية يدرك أنها جاءت برؤية شاملة مستوعبة لكل القضايا والإشكالات التي عرفها المجتمع الإسلامي وما يدور في فلكه، أكدت إلى جانب ما جاءت به وثيقة المدينة على ضرورة إخراج أهله من وضعية الصراع والتناحر العرقي والطائفي الذي

سببته قريش بعنادها، إلى رحاب الأخوة والمحبة والتسامح، ثم إن هذه البنود شكلت في عمومها حلقات متسلسلة لامست الجوانب التربوية والسياسية والاجتماعية والأمنية للمسلمين وغيرها من الأنساق العقدية المتميزة عنهم. وهذا يكشف حقيقةً، قدرة هذه الخطبة النبوية في إحداث نقلة تشريعية قانونية هائلة، إلى جانب ما أسست له وثيقة المدينة.

كما يجد المتأمل في هذه الخطبة، أيضًا؛ مقدار العدالة والمساواة والتسامح التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ مع كل الناس وحرصها على إسقاط كل الاعتبارات الطبقية والطائفية وتجاوزها بغية ترسيخ المبادئ السامية التي نصت عليها الشريعة الإسلامية، كما أنها اشتملت هذه العناصر في مجموعها على ما تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية والعقدية والاجتماعية، وتنمية علاقة الأفراد بالدولة، وعلاقة بعضهم ببعض، حتى تنتظم كل هذه العلاقات في إطار قانوني تشريعي كلي وجامع يحدد المهام ويضبط الحقوق بالواجبات ويوسع دائرة الانتفاع وتكافؤ الفرص بين الناس جميعًا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، كما يحفز الرعية على طاعة الراعي والولاء له والتعاون معه على تحقيق المنافع والمصالح للوطن والأمة، بما يبعدهما عن عوامل الفتنة ومنزلقاتها الفكرية والعقدية. ومن شأن اجتماع هذه المقومات - التي تمت الإشارة إليها في متن هذه الورقة - في أي مجتمع من المجتمعات وتفعيلها أن تضمن الاستقرار وتقوي وحدة الأفراد والأمم والجماعات من الفتن والانحرافات، وتحفظ الأعراس وتصون الأموال من النهب والسرقات.

وقد توصلت من خلال البحث في "مقومات حماية الوطن في خطبة حجة الوداع" إلى الخلاصات الآتية:

١. إن خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع قد اشتملت على عقائد وقواعد، وتضمنت أحكامًا ومقاصد، وقد تركزت معظم المقاصد التي تضمنتها الخطبة على المصالح الضرورية، لتحقيق عبادة الله في الأرض واستقامة أمور عبادته في الحياة.
٢. إن خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع من حيث مناسبتها وما نصت عليه، تعد إعلانًا أو بيانًا ختامياً، شهدت فيه الأمة للنبي ﷺ بنجاحه في نشر الدعوة وبيان تعاليم شريعة ربه على أحسن وجه وأتمه، والذي نصَّ على:

- الاعتصام بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ سبيل الرشd والهداية، ووقاية من الضلال والغواية.
  - الدعوة الصريحة إلى التوحيد، وإزالة آثار الشرك والوثنية في المجتمع الإسلامي.
  - حماية الوطن وتأمين أرواح المواطنين من المقاصد العليا لشريعتنا الإسلامية.
  - ضمان المساواة والأخوة الإنسانية الجامعة كفيلة بالقضاء على التمايز العرقي والطبقي.
  - الانتماء إلى الوطن والتضحية من أجله، والتضامن بين أفراده يعصم الأمة من الفتن والصرعات.
  - طاعة ولاة الأمر والتعاون معهم مصدر تثبيت الأمن في مجتمعات وصيانة للحممة بين أفرادها.
٣. الأخذ بهذه العناصر والمقومات مجتمعة والعمل بمقتضاها يحقق نهضة حضارية هائلة، تجعل الإنسان المعاصر ينعم بالطمأنينة والاستقرار النفسي الاجتماعي.
- أوصي في ختام هذه الورقة بـ:
- ضرورة ترسيخ قيم العدل والمساواة والأخوة الإنسانية في مجتمعاتنا المعاصرة لما لها من دور مهم في تثبيت أمن الأوطان وحمايتها من الفرقة والتنازع والخصام.
  - توجيه العقل الإنساني المعاصر إلى التشبث بالخيارات الإسلامية، بدل التأثر بالمقولات العدائية العدوانية التي تبغي المساس بالوحدة الوطنية وزرع الفتنة والحروب بين الناس.
  - تربية الناشئة على قيم حب الأوطان والتوعية بفضائلها في مختلف القنوات التواصلية؛ سواء من خلال وسائل الإعلام المرئي والمسموع أو في البرامج التعليمية أو على الخطب المنبرية.

## لائحة المراجع والمصادر:

- أحكام القرآن، للخصاص، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، طبعة دار إحياء التراث، بيروت - ١٤٠٥هـ.
- أساس البلاغة، للزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، لبنان، (د.ت).
- الأفعال، لابن القطاع، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٠٣هـ.
- البداية والنهاية، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- بيان حقوق ولاية الأمور على الأئمة بالأدلة من الكتاب والسنة، وبيان ما يترتب على الإخلال بذلك، للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الجامع من إصدارات الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، السعودية، (د.ت).
- بيان من أجل الديمقراطية، برهان غليون، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبع الخامسة - ٢٠٠٦م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية - ٢٠٠٣م / ١٤٢٤هـ.
- التعريفات، لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د.ت)
- التعريفات الفقهية، لمحمد عميم الإحسان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية - ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، محمد بن علي بن الحسن القلعي، تحقيق: إبراهيم يوسف مصطفى عجو، مكتبة المنار - الأردن، الطبعة الأولى، (د.ت).
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى - ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاکر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى - ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- جامع المسانيد والسُنن الهادي لأقوم سنن، بن كثير تحقيق: د عبد الملك بن عبد الله الدهيش، دار خضر

- للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، الطبعة الثانية- ١٩٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باحس، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة السابعة- ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- سنن ابن ماجه، لابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، (د.ت).
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى، الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية- ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
- شرح النووي على صحيح مسلم، (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الثانية- ١٣٩٢هـ.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية- ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- صحيح البخاري، الإمام البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، (ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة الأولى- ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية [الكتاب مرقم آليا].
- العدالة مفهومها ومنطلقاتها، أبو بكر علي محمد أمين، دار الزمان، دمشق- سوريا، طبعة - ٢٠١٠م.
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، (طبعة جديدة ومنقحة، ومصححة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي)، (د.ت).
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة- ١٤١٩هـ.

## مقومات حماية الوطن في خطبة حجة الوداع

- كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى-١٤١٨هـ /١٩٩٨م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت- لبنان، (د.ت).
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان- لبنان، طبعة ١٩٨٦م.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى- ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، مكتبة لبنان- ١٩٨٧م.
- المصطلحات السياسية الدولية، الدكتور أحمد زكي بودي، دار الكتاب اللبناني - بيروت، (د.ت).
- المعجم الفلسفي، الدكتور جميل صليبا، دار الكتب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت - ١٩٨٢م.
- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبعة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.
- المغني، لابن قدامة، تحقيق: د. عبد الله التركي، د. عبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الطبعة الرابعة- ١٤١٩هـ.
- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق، صفوان داودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية- ١٤١٨هـ.
- من قواعد النظام السياسي في الإسلام (طاعة أولي الأمر)"، د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي، أستاذ بكلية الشريعة- الرياض، شبكة الألوكة، (د.ت).
- المواطنة بين السياسة الشرعية والتحديات المعاصرة، الدكتور علاء الدين عبد الرزاق جنكو - استاذ الفقه والأصول بكلية القانون والعلوم السياسية في جامعة التنمية البشرية في السليمانية، كوردستان - العراق، (د.ت).

### المجلات:

- مجلة الأزهر- مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية، رمضان - ١٤٣٤هـ/يوليوز - غشت، ٢٠١٣م.
- مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة السادسة، العدد ١٣، ١٤٣٨هـ.

### المؤتمرات:

- أعمال الندوة العلمية الدولية الثامنة حول "السلم المدني في السنة النبوية؛ مقوماته وأبعاده الحضارية"، من تنظيم الأمانة العامة للحديث النبوي الشريف، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية دبي- الامارات العربية، أيام: ٢٥-٢٧ / ٠٤/ ٢٠١٧م.



التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة  
وترقية حماية الوطن

من خلال نصوص السنة النبوية

الأستاذ الدكتور / نصر سلمان

مدير مخبر الدراسات القرآنية والسنة النبوية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية / قسنطينة - الجزائر





## المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد؛ فإن الموضوع الذي نحن بصدد دراسته، والمتعلق بـ: "التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة وترقية حماية الوطن من خلال نصوص السنة النبوية"، والذي يكتسي أهمية بالغة في واقع الناس المعيش، وذلك من خلال تعايشهم الديني، المنفتح على كل مجالات الحياة المختلفة، فضلا عن ارتباطه الوثيق بإرساء أسس السلم الاجتماعي بين قاطني الوطن الإسلامي على اختلاف مللهم ونحلهم، وتجسيد مبادئ الحرية الدينية، والتسامح، والعدل، والمساواة، والكرامة الإنسانية بينهم، ترسيخا لقيم المواطنة، وتعزيزا لأمن وسلامة الوطن، ما يجعلنا نوليها الأهمية الكبرى من حيث التناول والدراسة، وذلك من خلال مقدمة، ومطلب تمهيدي، وثلاثة مطالب رئيسة، وخاتمة، على النحو الآتي:

يعد موضوع: "التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة وترقية حماية الوطن من خلال نصوص السنة النبوية" من البحوث القمينة بالدراسة والتنقيب، لما له من مكانة سامقة في إبراز سماحة الإسلام مع مخالفه في المعتقد، كما تكمن أهميته أيضا في إبراز تلك المظاهر الرائعة التي أرساها الإسلام للتعايش مع مواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، والتي شملت جميع مناحي الحياة، الاجتماعية منها، والسياسية، والأسرية، والاقتصادية، والتي دون شك تبرز الوجه المشرق للإسلام، المفعم بالقيم الإنسانية والحضارية التي تجعله بمنأى عما يثار حوله من شبهات، وما يحاك ضده من دسائس، بل وتجعل مبادئه السمحة في التعامل مع غير أتباعه، لا سيما مع مواطنيه منهم، تتفوق على مبادئ حقوق الإنسان في العصر الحديث.

وتنطلق مشكلة البحث في هذا الموضوع من محاولة الجواب على سؤال رئيس ومحوري يتمثل في: هل كفل الإسلام -حقًا- التعايش الديني لمواطنيه، أم أن ذلك مجرد ادعاء؟ وما أثر ذلك في تحقيق قيم المواطنة؟ وما نتائجه في ترقية حماية الوطن؟ وأسئلة فرعية منبثقة عنه، تتمثل في: ما مفهوم كل من التعايش الديني؟ وما المقصود بمصطلح المواطنة؟ وما هي أبرز مجالات هذا التعايش مع مواطني البلاد الإسلامية من أصحاب الملل المختلفة؟ وهل كفل الإسلام لمواطنيه من

غير المسلمين حرية المعتقد أم قام بمصادرتها؟ وعلى فرض كفالتة لها، فهل أوجد سبلا لحمايتها؟ وهل وضع خارطة طريق للتعامل مع مخالفه فيها؟ وهل خط لها أسسا وقيودا تحد من ممارستها في حالة تجاوزها وتعديها؟ وما هي أهم الضوابط التي حددها الإسلام للتعایش مع مواطنيه من أصحاب الملل المختلفة؟ وما هي انعكاسات ذلك على حماية الأوطان؟ هذه الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها عبر المادة العلمية المبثوثة في أثناء هذا البحث.

إن الدراسات الأكاديمية السابقة لموضوع البحث كثيرة، ومتعددة، ما يجعلنا لا ندعي قصب السبق في إعدادده، إلا أنه يمكننا القول بأن مباحث هذه الدراسة لم تكن مُستوعَبة في مصدر، أو مرجع بعينه، ما يبرر الخوض في هذ الموضوع قصد إعطاء تصورٍ شاملٍ حوله، لا سيما وأنه من المواضيع المهمة، التي تحتل الصدارة، وذلك لارتباطه بما يعتقدده الناس من قناعات، وأفكار، ما حدا بنا إلى الوقوف على عدد لا بأس به من هذه الدراسات السابقة لبحثنا، والتي منها:

**أولاً - حرية الاعتقاد في ظل الإسلام** لتيسير خميس العمر: هي دراسة أكاديمية، جاءت مركزة على أحكام الردة، دون سواها، وربطها بالفلسفات والأفكار الحديثة، مع توسع غير مبرر في التأريخ لعلم العقيدة، ما جعل الاستفادة منها ضيقة في نطاقها، لم تتجاوز بيان مفهوم الحرية الدينية، وبعض الضوابط المقيدة لها، ما يجعل بحثنا يتميز عن هذه الدراسة بكونه أكثر شمولية في طرحه، وأوسع في عرضه.

**ثانياً - الإسلام والتعايش بين الأديان** في أفق القرن ٢١، لعبد العزيز بن عثمان التويجري، هي دراسة مختصرة خصصت للتعايش العالمي بين بني الإنسانية جمعاء، وقد غلبت عليها النزعة السياسية في المعالجة، كما لا نجد أثرا لنصوص السنة في محتوياتها، ما يجعل دراستنا تختلف عنها؛ إذ جاءت دراستنا ملأى بنصوص السنة، ومركزة على التعايش البيئي، الذي تقتضيه المواطنة المشتركة.

**بعد عرضنا لبعض الدراسات السابقة لبحثنا** يمكننا القول بأن ما يتميز به بحثنا عن البحوث السابقة له كونه جاء مستمداً من نصوص السنة النبوية الشريفة، مؤصلاً لموضوع التعايش الديني، ومبيناً لما يحوطه من مظاهر، ومؤيدات، وضوابط، وحماية، ومبرزاً لآثار هذا التعايش في إرساء قيم المواطنة الإيجابية وتعزيزها، التي تعود بالخير العميم على الوطن، وأهله بغض النظر عن معتقداتهم،

وأفكارهم، وقناعاتهم، خلافا للدراسات السابقة، التي تناولت بعض جزئيات الموضوع، إذ لم تكن مستوعبة لتفصيلاته، كما كان استدلالها بالمرويات الحديثية باهتا، وتركيزها على أهمية التعايش في إذكاء روح المواطنة وتفعيلها يكاد يكون منعما، ما يجعل الإضافة التي يقدمها بحثنا هذا واضحة جلية، بارزة للعيان.

### التمهيد: مفاهيم البحث الأساسية

سنتولى تناولها عبر أربعة فروع على النحو الآتي:

**الفرع الأول: مفهوم التعايش:** سنتناوله بشقيه اللغوي والاصطلاحي على النحو الآتي:

**أولا - مفهوم التعايش لغة:** العين والياء والشين أصل صحيح يدل على الحياة والبقاء<sup>(١)</sup>، تقول: عايش فلاناً: عاش معه وعاصره، وقضى معه جزءاً من حياته، أو كلَّها، وتعايش القوم؛ أي عاشوا على الألفة والمودّة، وتعايش النَّاسُ: وُجِدوا في الزَّمان والمكان نفسهما، والتعايش في المجتمع الطائفي، أن يعيش أهله في وئام، وتَسَاكُن، وتَوَافُقٍ دَاخِلِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى الرَّعْمِ مِنْ اِخْتِلَافِهِمُ الدِّينِيِّ وَالْمَذْهَبِيِّ، وَالتَّعَايِشُ السَّلْمِيُّ: تَعْبِيرٌ يُرَادُ بِهِ خَلْقٌ جَوٍّ مِنْ التَّفَاهُمِ بَيْنَ الشُّعُوبِ بَعِيدًا عَنِ الْحَرْبِ وَالْعُنْفِ<sup>(٢)</sup>.

**ثانيا - مفهوم التعايش اصطلاحاً:** عرفه الأستاذ أحمد عباس بقوله: "اجتماع مجموعة من الناس في مكان معين، تربطهم وسائل العيش، من المطعم والمشرب، وأساسيات الحياة، بغض النظر عن الدين والانتماءات الأخرى، يعترف كل منهم بحق الآخر دون اندماج، وانصهار"<sup>(٣)</sup>.

**الفرع الثاني: مفهوم القيم:** وسنتناوله من خلال ما يأتي:

**أولاً - مفهوم القيم لغة:** إن مصطلح القيم يطلق في لغة العرب، ويراد به الفضائل التي تحجز

١- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة. ٤ / ١٩٤.

٢- معجم المعاني الجامع، تاريخ الزيارة هو، 14/08/2018. [www.almaany.com/ar/dict/ar-ar](http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar) / تعايش/.

٣- التعايش مع غير المسلمين، وأثره في الفكر الإسلامي، أحمد عباس، ص ١٢، نقلاً عن، صبحي أفندي الكبيسي، وعبدالله حسن الحديثي، "الوسائل الاقتصادية في التعايش مع غير المسلمين في الفقه الإسلامي"، مجلة مداد الآداب، ع ٣، ص ٣٢٤.

صاحبها عن الوقوع في مذمّات الأمور ونقائصها، والآداب التي تدعو للمحامد، وتنهى عن المقايح والأخلاق التي تؤصل لكريم الطباع، وجميل السجايا<sup>(١)</sup>.

**ثانيا - مفهوم القيم اصطلاحا: عرفت بأنها:** "طريقة في الوجود، أو في السلوك يعترف بها شخص أو جماعة على أنها مثال يحتذى، وتجعل من التصرفات، أو الأفراد الذين تنسب إليهم أمرا مرغوبا فيه، أو شأنه مقدرا خيرا تقديرا"<sup>(٢)</sup>.

**الفرع الثالث: مفهوم المواطنة:** سنتناوله بشقيه اللغوي والاصطلاحي على النحو الآتي:

**أولا - مفهوم المواطنة لغة:** المواطنة اسم، وهي مصدر وَاطَنَ، وهي صفة للمواطن، تقول: وَاطَنَهُ عَلَى الْأَمْرِ: وَاَفَقَهُ عَلَيْهِ، وَوَاطَنَ سُكَّانَ الْبَلَدِ: عَاشَ مَعَهُمْ فِي وَطَنٍ وَاحِدٍ<sup>(٣)</sup>، ومنه فالمواطن هو الذي يتمتع بالحقوق التي يتمتع بها أبناء دولته أو مدينته<sup>(٤)</sup>.

**ثانيا - مفهوم المواطنة اصطلاحا: عرفت بأنها:** "اصطلاح يشير إلى الانتماء إلى أمة، أو وطن"<sup>(٥)</sup>، وكون المرء مواطنا من مواطني دولة ما، له فيها حقوق وامتيازات تكفلها له الدولة وبالمقابل عليه الالتزام بالواجبات التي تفرضها عليه، فإذا التزم بذلك أُعْطِيَ حق المواطنة<sup>(٦)</sup>.

**الفرع الرابع: مفهوم الوطن:** سنتناوله بشقيه اللغوي والاصطلاحي على النحو الآتي:

**أولا - مفهوم الوطن لغة:** هو منزل الإقامة، وموطن الإنسان ومحلّه، قال رؤبة:

**كَيْمَا تَرَى أَهْلَ الْعِرَاقِ أَنِّي** **أَوْطَنْتُ أَرْضًا لَمْ تَكُنْ مِنْ وَطَنِي<sup>(٧)</sup>**

- ١- ابن منظور، لسان العرب ١٢/ ٢٢٥ - ٢٢٩، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط ٢٠ / ٧٦٨.
- ٢- مليحة عوني الصغير، ومعن خليل العمر، مدخل إلى علم الاجتماع العام، ص ٩٣.
- ٣- معجم المعاني الجامع. www.almaany.com/ar/dict/ar-ar. مادة، مواطنة، تاريخ الزيارة، ١٨ / ٨ / ٢٠١٨.
- ٤- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ٢ / ٤٣٩.
- ٥- الموسوعة العربية العالمية، ص ٣١١.
- ٦- معجم اللغة العربية المعاصرة، تمت زيارة موقعه بتاريخ، ١٤ / ٠٨ / ٢٠١٨ م،  
www.maajim.com/dictionary/المواطنة
- ٧- ابن منظور، لسان العرب ١٥ / ٢٣٩.

## ثانيا - مفهوم الوطن اصطلاحا:

عرفه الجرجاني بقوله: "الوطن الأصلي، هو مولد الرجل، والبلد الذي هو فيه"<sup>(١)</sup>.

**المبحث الأول: مظاهر التعايش في الوطن الإسلامي بين المسلمين ومواطنيهم من معتنقي الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة**

لقد خط الإسلام جملة من القيم في تعامله مع المخالفين له في الدين، نحاول عرضها عبر الفروع الآتية:

**الفرع الأول: مظاهر التعايش السياسية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة: إن مظاهر التعايش السياسية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى متعددة نجلها في الآتي:**

**أولا - مراعاة حق المواطنة لهم:** إن مراعاة حق المواطنة لساكنة البلاد الإسلامية أساس صلب لإرساء قيمة التعايش السياسي بين أصحاب الملل المختلفة، وقد أرسى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا الحق لمواطني البلاد الإسلامية، حيث نصّب نفسه حجيحا لمن يعتدي على حق المواطنة لهؤلاء وذلك بإذيتهم، أو انتقاص حقوقهم، أو تكليفهم من الأعمال فوق ما يطيقون، أو افتكاك أشيائهم واغتصابها، دون رضاهم فقال: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَعِيرٍ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيحُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>. كما أن من مستلزمات المواطنة بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى فتح الباب على مصراعيه للكفاءات الوطنية، بغض النظر عن معتقدها

١- التعريفات، ص ٢٥٣.

٢- أبو داود، السنن، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجار، حديث رقم ٣٠٥٢، بسنده، عن أبي صخر المديني، أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ أَخْبَرَهُ عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَوْلَادِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ آبَائِهِمْ ذَنْبَةً، قَالَ الْإِمَامُ السَّخَاوِيُّ: "وسنده لا بأس به، ولا يضر جهالة من لم يسم من أبناء الصحابة، فإنهم عدة، ينجر به جهالتهم، ولذا سكت عليه أبو داود". المقاصد الحسنة ١ / ١٨٥، ثم قال: "وله شواهد بينها في جزء أفرده لهذا الحديث"، وقال الإمام العراقي: "وهذا إسناد جيد وإن كان فيه من لم يسم، فإنهم عدة من أبناء الصحابة، يبلغون حد التواتر، الذي لا يشترط فيه العدالة". فتح المغيث ٤ / ٤، وصححه الشيخ الألباني، السلسلة الصحيحة، برقم ٤٤٥.

الديني، لتدلي بدلائها الفكرية، وتجاربها الحية، وهذا كله من أجل تقديمها للوطن ما ينفعه من استشارات فكرية، وخبرات ميدانية، لا سيما أن المواطن غير المسلم قد يكون أكثر تجربة، وأرحب عقلا، من بعض مواطنيه من المسلمين، فيما يتعلق ببعض مجالات الحياة المختلفة، ما يجعل الوطن لا يستغني عن آرائه الحصيفة، ومشوراته السديدة، وحسه الوطني، وإشفاقه على مصلحة الوطن، وقديما قيل: "مشورة المشفق الحازم ظفر"، ومشورة غير الحازم خطر"<sup>(١)</sup>، وقال الإمام القرطبي: "وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مجرباً واداً في المستشير"<sup>(٢)</sup>، وهذا دون شك يعزز قيم التعايش السياسي بين أبناء الوطن الإسلامي، حيث لا يشعر فيه أحد بالدونية بسبب معتقده، أو قناعاته الفكرية، بل يجد نفسه على قدم المساواة في الحصول على الحقوق والامتيازات مع بقية مواطنيه من المسلمين، فلا يشعر البتة بأنه مواطن من الدرجة الثانية، بل يجد نفسه مع بقية مواطنيه كفرنسي رهان، يتمتع بما يتمتع به مواطنوه حذو القذة بالقذة، لا ينقص عنهم في استيفاء حقوقه، وتحصيل امتيازاته شرواً نقيراً.

ثانيا - جواز جوارنا وتأميننا لهم: لقد حرص الإسلام على تأمين مواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، الذين يعيشون في ربوع الوطن الإسلامي، فمنح مواطنيهم من المسلمين حق جوارهم، وحمائيتهم، حيث لا يمكن خفر ذمة مسلم أدخل موطننا مخالفا له في النحلة في حمايته، وهو ما يؤكد ما رواه أبو النضر مولى عمر بن عبید الله أن أبا مرة مولى أم هانئ ابنة أبي طالب أخبره: أنه سمع أم هانئ ابنة أبي طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تسترته، فسلمت عليه، فقال: من هذه فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: مرحباً بأم هانئ فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثمان ركعات، ملتحفاً في ثوب واحد، فقلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي، علي، أنه قاتل رجلاً قد أجزته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: قد أجزنا من أجزت يا أم هانئ قالت أم هانئ: وذلك ضحى<sup>(٣)</sup>.

قال الحافظ ابن حجر: "إذا أمن الكافر واحد منهم حرم على غيره التعرض له ولأمان... والمعنى أن ذمة المسلمين سواء صدرت من واحد، أو أكثر، شريف، أو ضيع، فإذا أمن أحد من

١- الماوردي، أدب الدنيا والدين ص ٣٠٢.

٢- الجامع لأحكام القرآن. ٤/ ٢٤٠.

٣- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن، حديث رقم ٣١٧١، واللفظ له.



المسلمين كافراً، وأعطاه ذمة لم يكن لأحد نقضه، فيستوي في ذلك الرجل، والمرأة، والحر، والعبد، لأن المسلمين كنفس واحدة"<sup>(١)</sup>.

**والخلاصة:** أن المتأمل بإمعان في كل ما أوردناه من مظاهر للتعايش السياسي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى في نصوص السنة النبوية الشريفة يلحظ أنها تصب في مجموعها في بوتقة ترقية حماية الوطن، وتعزيز أمنه واستقراره، وذلك أن هذا المواطن إذا وجد أن جميع حقوقه السياسية مكفولة، وذلك بحصوله على كل الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها مواطنه المسلم، من الاعتداد باستشاراته، ومشاركته في انتخاب ممثليه، وإمكانية ترشحه لبعض المسؤوليات السياسية، فضلاً عن شعوره بالحماية، والأمان اللذين توفرهما له جنسية وطنه، لا شك أنه سيكون حصناً منيعاً لحماية هذا الوطن، والذود عن حياضه، وعدم التآمر عليه، لأنه يجد فيه الحضن الدافئ، والصدر الحاني، أما إذا حدث العكس، وذلك بأن أحس هذا المواطن، الذي لا يدين بالإسلام بأنه مهمش، ومحتقر، وأنه لا يتمتع بالحقوق ذاتها التي ينعم بها مواطنه المسلم، فإنه لا محالة سيكون ناقماً على هذا الوطن، الذي يحسّ فيه بالدونية، والصغار، ما يجعله يفكر في الثأر منه، وذلك بتخريب مقدراته، متى ما سنحت له الفرصة بذلك، وعدم الإخلاص له، بل قد يشوش على سمعته خارجياً، بحجة انتهاكه لحقوق الأقليات، وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى الاستعانة بالأجنبي في تحصيل حقوقه، لا سيما وأنا في عالم منفتح بعضه على بعض، ما يؤدي إلى التدخل في شؤونه الداخلية، وذلك بالتضييق عليه تارة، ورهن قراراته السيادية تارة أخرى، وقد يصل الأمر مداه؛ إلى التدخل العسكري بحجة حماية هؤلاء المواطنين الذين انتهكت حقوقهم بسبب دياناتهم ونحلهم، وهذا دون ريب، يضرب حماية الوطن، وسلامة ترابه، وأمن مواطنيه، واستقرار ساكنته في مقتل، ولا مخلص من ذلك إلا بإعطاء هؤلاء المواطنين حقوقهم كاملة غير منقوصة، كما نصت على ذلك شريعتنا الغراء التي توخت في تشريعاتها مقاصد شتى، يأتي في طليعة سُلّم أولوياتها حماية الأوطان، المفضية إلى التعايش السلمي بين قاطني البلاد الإسلامية.

**الفرع الثاني:** مظاهر التعايش الاجتماعية والأسرية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة: وسنتناوله انطلاقاً من البندين الآتيين:

١- فتح الباري، ٤ / ٨٦.

**البند الأول:** مظاهر التعايش الاجتماعية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة: إن المتأمل للعلاقات الاجتماعية التي أرساها الدين الإسلامي الحنيف في تعامل المسلمين مع مخالفيهم في العقيدة عموماً، وممن يجمعهم بهم حق المواطنة خصوصاً يلمس سماحة قيمه في تعاملاته مع مخالفيه، والمنبئية على التعايش بين أتباعه ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، ممن يضمهم وطن واحد، وتجمعهم جنسية مشتركة، ويحكمهم قانون يطبق على الجميع، دون النظر لانتماء ديني معين، ما يجعل من هذا التعايش الاجتماعي واقعا معيشا بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، وذلك من خلال إبراد بعض النماذج لهذه السلوكات الاجتماعية، على سبيل التمثيل لا الحصر، وإبرازها في النقاط الآتية:

**أولاً - مبرتهم ومعاملتهم بالقسط:** لقد ندب الإسلام أتباعه إلى مبرة مواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، ومعاملتهم بالعدل والقسط؛ حيث لم يجعل كفرهم سبباً للإساءة إليهم، أو الحيف في التعامل معهم، لا سيما إذا جعلوا من السلم شعاراً، ومن احترام روح المواطنة دثاراً، ومن إرساء وترسيخ مبدأ التعايش الاجتماعي منهاجاً ومسلكاً، فإن ذلك يعزز مبرتهم، ويوجب الإحسان إليهم، ويؤكد تمتعهم بحقوق وامتيازات المواطنة، التي يتمتع بها مواطنوهم من المسلمين، هذه المواطنة التي تجعلهم جميعاً يحرصون على التعايش الإيجابي فيما بينهم، تغليباً لمصلحة أمن الوطن وسكينة، وإسهاماً في رقيه وازدهاره؛ قال الله عز وجل:

﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) الممتحنة: ٨.

قال الإمام الطبري: " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك: ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ ﴾ الممتحنة: ٨، من جميع أصناف الملل والأديان أن تَبَرُّوهم وتصلوهم، وتُقْسِطُوا إليهم... إن الله يحبّ المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيبرّون من برّهم، ويُحْسِنون إلى من أحسن إليهم" (١).

**ثانيا - تأمين أرواحهم والإيصال بهم خيرا والتحذير من ظلمهم:** إن تأمين أرواح مواطني البلاد الإسلامية من أصحاب الملل الأخرى، والإيصال بهم خيرا، والتحذير من ظلمهم، أو الاعتداء عليهم يُعدُّ ركنا ركينا، وأساسا مكينا للتعايش الاجتماعي معهم؛ فقد جاءت نصوص السنة محدرة من الاعتداء على أرواحهم، حفاظا على حق المواطنة لهم، وتأمينا للمجتمع من الاضطرابات التي تنجم من جراء ذلك، وتأصيلا لمقصد الحفاظ على النفوس، الذي يحقق قيم السكينة، والسلام، والأمن في ربوع الوطن المشترك، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه : **عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"**<sup>(١)</sup>.

كما جاءت النصوص حاثثة على اتقاء دعوة مظلومهم، موصية بهم خيرا، موجبة الوفاء لهم بعهودهم، والدفاع عنهم من أي خطر يحدق بهم، وعدم تكليفهم من الأعمال فوق وسعهم، فعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: **سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهُ حِجَابٌ"**<sup>(٢)</sup>. وعن عمرو بن ميمون أن عمر رضي الله عنه قال - في وصيته للخليفة الذي بعده: **"وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يُقاتل من ورائهم، ولا يُكَلَّفُوا إِلَّا طاقَتَهُمْ"**<sup>(٣)</sup>. قال الإمام القراني في معرض حديثه عن تحريم الظلم لمواطني الدولة الإسلامية من أصحاب الملل الأخرى: **"فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذى، أو أعان على ذلك، فقد ضيَّع ذمة الله تعالى وذمة رسوله وذمة دين الإسلام"**<sup>(٤)</sup>.

**ثالثا - تبادل الهدايا معهم:** إن تبادل الهدايا بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى يعد مظهرا من مظاهر التعايش الاجتماعي بينهم، يعززه قوله تعالى: **﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ**

- 
- ١- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، حديث رقم ٣١٦٦.
  - ٢- أحمد، المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند، أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، حديث رقم ١٢٥٤٩، وقال فيه الشيخ شعيب الأرنؤوط: **"إسناده صحيح على شرط الشيخين"**، وصححه الألباني، في صحيح الجامع، حديث رقم ١١٩.
  - ٣- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهم، حديث رقم ١٣٩٢.
  - ٤- الفروق، ٣ / ١٤.

عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْنِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴿۸﴾ الممتنحة: ٨،  
 ويدعمه إهداء عمر بن الخطاب رضي الله عنه حلة لأخ له مشرك بمكة قبل أن يسلم أخوه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: رَأَى عُمَرُ حُلَّةً عَلَى رَجُلٍ تَبَاعٍ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: ابْتِغْ هَذِهِ الْحُلَّةَ تَلْبَسُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَإِذَا جَاءَكَ الْوَفْدُ. فَقَالَ: إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذَا مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْهَا بِحُلَّةٍ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ مِنْهَا بِحُلَّةٍ، فَقَالَ عُمَرُ: كَيْفَ أَلْبَسُهَا وَقَدْ قُلْتَ فِيهَا مَا قُلْتَ؟ قَالَ: إِنِّي لَمْ أَكْسِكُهَا لِتَلْبَسَهَا، تَبِيعُهَا أَوْ تَكْسُوَهَا. فَأَرْسَلَ بِهَا عُمَرُ إِلَى أَخٍ لَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ" (١). وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو دُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْحَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُنِي" (٢).

كما بوب الإمام البخاري في جامعه لذلك بقوله: باب قبول الهدية من المشركين (٣)، وقال الإمام ابن حزم: "وإعطاء الكافر مباح، وقبول ما أعطى، هو كقبول ما أعطى المسلم" (٤)، وهذا دون ريب يرسخ قيم التعايش الاجتماعي، ويدعم أسس الألفة بين مواطني البلد الواحد، وينشر المودة والمحبة، ويمتد الروابط والشائج بينهم، ويزيل الشحناء والبغضاء من نفوسهم، فضلا عن تقريب بعضهم إلى بعض وتحيبهم، من أجل أن تكون الحياة طيبة، وأبناء الوطن متعاونين، والأمور ميسرة، ولا شك أن مجتمعا يتبادل أفراد الهدايا، ويفكر بعضهم في بعض، متغلبين على روح الأثرة في نفوسهم، جاعلين الإيثار منهجا ومسلكا، ومشركين مواطنيهم في ذلك، بغض النظر عن مللهم ومعتقداتهم؛ لجدير بأن تبنى على كواهل حضارات، يسودها التعايش، والمودة، والمحبة، والتآخي في الإنسانية، قصد استشعار روح المواطنة المسؤولة، والفاعلة، والمساهمة في الحراك الموصل للنهوض بالوطن المشترك، والسمو به إلى أعلى درجات التقدم والرفق والتحضر.

#### رابعا - تبادل العواري بينهم: إن تبادل العواري بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل

- ١- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، حديث رقم ٢٦١٩.
- ٢- الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار، حديث رقم ١٩٤٣، قال أبو عيسى: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وقد روي هذا الحديث عن مجاهد عن عائشة وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا".
- ٣- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، ٩٢٢ / ٢.
- ٤- المحلى ١٥٩ / ٩.

الأخرى يُعدُّ وجها من أوجه التعاون، والتعايش الاجتماعي بين ساكنة البلاد الإسلامية، بغض النظر عن مللهم ونحلهم؛ إذ الإنسان في هذا المجتمع محتاج إلى ما في يد أخيه الإنسان؛ حيث لا يستطيع أن يستغني عن إعانتته، ولو حرص على ذلك، ما يجعل العارية نوعا من أنواع البر والإحسان، التي تقوى بها روابط التعايش، وأواصر المودة والمحبة بين مواطني البلاد الإسلامية. وإن ما يؤكد هذا التعايش في نصوص السنة النبوية استعارة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أذراعا من مواطنه صفوان بن أمية، وهو مشرك في غزوة حنين، وقد نقل ذلك الحاكم النيسابوري: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِيهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سَارَ إِلَى حُنَيْنٍ... ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إِلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ فَسَأَلَهُ أَذْرَاعًا مِائَةَ دِرْعٍ، وَمَا يُضْلِحُّهَا مِنْ عُدَّتِهَا، فَقَالَ: أَغْضَبًا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: بَلْ عَارِيَّةٌ مَضْمُونَةٌ حَتَّى نُؤَدِّيَهَا إِلَيْكَ ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سَائِرًا<sup>(١)</sup>.

**خامسا - عيادة مريضهم:** أباحت الشريعة الإسلامية عيادة المرضى، ولو كانوا على غير دين الإسلام، ويتأكد ذلك، إذا كان المريض من أصحاب الملل الأخرى يقاسم المسلم وطنًا مشتركًا، فإن ذلك أدعى لعيادته، وأدعم لروح التعايش معه، وأظهر لخالل الإسلام السمحة، عسى أن يكون ذلك سببا في هدايته، والتحاقه بحافل المؤمنين من أبناء وطنه من المسلمين. قال بدر الدين العيني - رحمه الله -: "جواز عيادة أهل الذمة، ولاسيما إذا كان الذمي جارا له، لأن فيه إظهار محاسن الإسلام، وزيادة التآلف بهم، ليرغبوا في الإسلام"<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد جاءت نصوص السنة النبوية نادرة لذلك، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: "كَانَ غُلَامًا يَهُودِيًّا يَخْدُمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمَ". فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

١- الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین - کتاب المغازی والسرایا - ذکر غزوة حنین واجتماع الأنصار عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حديث رقم ٤٣٩٤، وقال عقبه: "صحيح الإسناد، ولم يُخرجه"، وعلق عليه الإمام الذهبي في التلخيص بقوله: "صحيح"، وقال الشيخ الألباني، حسن الإسناد، إرواء الغليل، برقم ١٥١٣.

٢- عمدة القاري، ٨ / ١٧.

أَتَقَدَّهُ مِنَ النَّارِ"<sup>(١)</sup>. مما سبق يمكن القول بأنه لا شك أن عيادة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لمرضى مواطني دار الإسلام من أصحاب الملل الأخرى، كما صنع مع الغلام اليهودي، يعد مظهرا رائعا من مظاهر التعايش الاجتماعي بين المسلمين ومواطنيهم ممن لا يدينون بالإسلام، كما يُعدُّ سلوكا إنسانيا مؤصلا لروح التواصل، والتآلف بين أبناء الوطن الواحد، ومجسدا لأواصر الرحمة التي تقتضيها الطبيعة الإنسانية، التي تقوم على التعايش بين بني البشر، وذلك لكون زيارة المسلم للمريض الكافر تعد سلوكا نابعا من تلك الرحمة التي قذفها الله عز وجل في قلب المؤمن، وهو شعور يجعل المسلم يرقُّ لآلام الخلق، ويسعى لإزالتها، وهذه الرحمة ليست إلا كاملا في الطبيعة الإنسانية، التي فطرت على التعايش، والتآلف بين المتساكنين في الوطن الواحد.<sup>(٢)</sup>

**والخلاصة:** أن المتأمل بإمكانه في كل ما أوردناه من مظاهر إيجابية للتعايش الاجتماعي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى في نصوص السنة النبوية الشريفة، يلحظ أن لذلك تأثيرا بالغا في ترقية حماية الوطن، والحفاظ على أمنه، وسلامته من الفتن، التي تعصف بكينونته من القواعد، وذلك أن هذه الأقلية من أصحاب الملل الأخرى والتي تقطن بلاد المسلمين، حينما يشعر أفرادها بأنه يطبق عليهم ما يطبق على مواطنيهم من المسلمين من قوانين تضبط الجميع، دون انحياز، أو محاباة، أو حيف؛ لا شك أن ذلك سيشرعهم بأنهم مواطنون من الدرجة الأولى، وهذا دون ريب سينعكس بالإيجاب على أمن الوطن وحمايته، وذلك لأن الفرد إذا شعر بانتقاص في كرامته، أو أحسَّ بعدم المساواة مع مواطنيه، فكر في الانتقام، والدسياسة، وعدم الإخلاص لهذا الوطن، بل وخيانتته، غير آبه بأمنه واستقراره وحمايته.

هذا، وإن هذه الأقلية من أصحاب الملل الأخرى التي تعيش في ربوع البلاد الإسلامية حينما تتلمس دفء العلاقات الاجتماعية في واقعها المعيش، فتجد مواطنيها من المسلمين يتبادلون معها الهدايا، ويعيرونها أمتعتهم، ويعودون مرضاها، يزيدونها هذا ارتباطا بمواطني هذا البلد، الذي تعزز فيه الأواصر الاجتماعية بين ساكنيه؛ ما يجعل الجميع يوجه كل طاقاته للحفاظ على هذه الروابط التي تُؤثِّلُ قيم المحبة، والتآلف، والتراحم، والتي دون ريب ستنعكس بالخير على أمن الوطن

١- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، حديث رقم ١٣٥٦.

٢- نور الدين محمد طاهر بن يريح، أساليب التعامل مع الخصوم في ضوء السنة النبوية ص ٦٩.

وحمايته، فتغيب من قاموسه تلك القيم السلبية التي قد ينجرّ عليها انحرام اللحمة الاجتماعية، لأن هذا المواطن إذا احتاج لشيء ما في يد موطنه ولم يتمكن من الحصول عليه بالطرق الحضارية، كالإهداء، وتبادل العواري، سوف يلجأ لأخذه عن طريق الغصب، أو السرقة، وهذا دون ريب سوف يؤثر في سلامة أمن الوطن وحمايته.

**البند الثاني: مظاهر التعايش الأسرية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة:**

إن مظاهر التعايش الأسرية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى متعددة، بعضها خاص بأهل الكتاب كحلّ زواج المسلمين من نسائهم، وبعضها عام يشمل كل أصحاب الملل والنحل على اختلاف مشاربهم الدينية والعقدية؛ هذه المظاهر التي سنورد بعض نماذجها على سبيل التمثيل لا الحصر، على النحو الآتي:

**أولاً - حلّ زواج المسلمين من مواطناتهم من أهل الكتاب:** لقد منعت الشريعة الإسلامية زواج المسلم بالمشرقة لقوله ﷺ ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ﴾ البقرة: ٢٢١، ولقوله أيضا: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا بَعْضَ الْكُوفِرِ ﴾ الممتحنة: ١٠، كما منعت زواج المسلمة بالكافر مطلقا لقوله عزّ وجلّ:

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ﴾ البقرة: ٢٢١

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ﴾ البقرة: ٢٢١. ولقوله أيضا:

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهِنَّ حُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ الممتحنة: ١٠، وذلك خوفا من أن يكون هذا الزواج سببا في فتنتها عن دينها.

بينما أجازت الشريعة الإسلامية للمسلم الزواج من مواطنته الكتابية التي لها دين سماوي، كاليهودية، والنصرانية لقوله ﷺ: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ المائدة: ٥؛ إذ المتأمل في هذه الآية يجدها قد قيدت هذا الجواز بالإحصان أي: العفاف: كما ورد في قوله تعالى أيضا: ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ المائدة: ٥.

بل إن زواج المسلم بالكتابية قد يتجاوز الجواز إلى الاستحباب، إذا رُجِيَ منه أن يكون سببا

في هداية هذه الزوجة والتحاقها بركب جحافل المؤمنين، وفي ذلك يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: "وقد يقال باستحباب نكاحها، إذا رجي إسلامها، فعن مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: أَنَّ عَثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - تَزَوَّجَ بِنْتَ الْفَرَاغِصَةِ وَهِيَ نَضْرَانِيَّةٌ وَعَمَّتْ حَتَّى حَنَفَتْ<sup>(١)</sup> حِينَ قَدِمَتْ عَلَيْهِ<sup>(٢)</sup>، فأسلمت، وحسن إسلامها، وقد ذكر القفال: أن الحكمة في إباحة الكتابية ما يرجى من ميلها إلى دين زوجها، إذ الغالب على النساء الميل إلى أزواجهن وإيثارهم على الآباء والأمهات..."<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم مما قرناه من حل نكاح الكتابية، بل ومن استحبابه في بعض الحالات، إلا أنه يحسن التنبيه إلى أن أحكام الإسلام يتأسس قوامها على الطهر، والعفة، وينبغي على مراعاة المصالح في المعاش والمعاد، ولذلك نجد أن الإسلام، وإن أباح نكاح الكتابية، إلا أنه خطأ قيودا لهذه الإباحة، فاشتراط في نسائهم عدم الخشية على عقيدة الأبناء، والعفة، وعدم بوار المسلمات، وذلك لما ورد عن الصَّلْتِ بْنِ بَهْرَامٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ يَقُولُ: تَزَوَّجَ حُدَيْفَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَهُودِيَّةً، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ يُفَارِقَهَا، فَقَالَ: إِنِّي أَخَشَى أَنْ تَدْعُوا الْمُسْلِمَاتِ وَتَنْكِحُوا الْمُؤَمَّسَاتِ<sup>(٤)</sup>.

**قال أبو عبيد:** "يعني: العواهر؛ فنرى أن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، إنما ذهب إلى ما في الآية وهو قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ المائدة: ٥، فيقول: إن الله

١- حنفت أي: أسلمت. ابن منظور، لسان العرب، ٤ / ٢٥٠.

٢- البيهقي، السنن الكبرى - كتاب النكاح - جماع أبواب نكاح حرائر أهل الكتاب وإمائهم وإماء المسلمين - باب ما جاء في تحريم حرائر أهل الشرك دون أهل الكتاب وتحريم المؤمنات على الكفار، أثر موقوف رقم ١٤٠٩٣، قال فيصل بن عابد اللحياي: "وزواج عثمان من نائلة مستفيض، مشهور، لا يحتاج إلى إثبات، وقد كان أبوها نصرانيا، فتولى العقد أخوها. "المرويات الموقوفة المسندة للخلفاء الراشدين الثلاثة الأول....، حديث رقم ٣٢٥.

٣- المنهاج ٣ / ١٨٧.

٤- البيهقي، السنن الكبرى، كتاب النكاح، جماع أبواب نكاح حرائر أهل الكتاب وإمائهم وإماء المسلمين، باب ما جاء في تحريم حرائر أهل الشرك دون أهل الكتاب وتحريم المؤمنات على الكفار، حديث رقم ١٤٠٩٦، وصححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل برقم ١٨٨٩.



إنما اشترط العفاف منهن وهذه لا يؤمن أن تكون غير عفيفة"<sup>(١)</sup>.

مما سبق يمكننا القول: إن زواج المسلم بمواطنته الكتابية بشروط وضوابط<sup>(٢)</sup> يندرج ضمن أرقى مراتب التعايش الأسري في الوطن المشترك؛ إذ يفتح بابا واسعا للعلاقات الأسرية المتينة، التي ترضى فيها أسرة الفتاة أن تصاهر أسرة هذا الفتى رغم تغاير الملة والدين، وأن يكون إخوة هذه الفتاة أحوالا لأبناء هذا الفتى، فهذا دون شك هو قمة التعايش الأسري الذي يصل فيه الانصهار بين الزوج والزوجة، وبين أسرتيهما إلى أن يقدم والد الفتاة الكتابية فلذة كبده، وقرّة عينه، وحشاشة روحه، لمواطنه المسلم، راضية بذلك نفسه، قريرة بفعله هذا عينه، ما يجعلنا نقول: إنه لا ريب أن مثل هذا الصنيع يصنف في أعلى مدارج التعايش الديني، وأسمى مراتب العلاقات الإنسانية.

**ثانيا - صلة ذوي القربى منهم:** لقد ورد من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: "قَدِمْتُ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي، قَالَ: نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ"<sup>(٣)</sup>.

إن في هذا الحديث رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين، ولم يقاتلوه، وفي هذا قمة التعايش الأسري، وذروة سنام التسامح بين المسلمين، وغيرهم من أصحاب الملل الأخرى؛ إذ لم ينه عن صلتهم، وبرّهم، كما لم يجعل كفرهم سببا لقطيعتهم.

هذا، وقد علق الإمام الخطابي - رحمه الله - على قصة وفود أم أسماء - رضي الله عنها - بقوله: "فيه أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة..."<sup>(٤)</sup>، يضاف إلى ذلك أن من مظاهر صلة ذوي القربى منهم الوصية لهم وذلك لأنهم لا يرثون المسلمين لاختلاف الدين، فنذبت الشريعة لهم الوصية برا وإحسانا لمكان قرابتهم، ما يجعلنا نقول: أي تعايش أسري هذا؟ وأي تسامح ديني

١- -الناسخ والمنسوخ ص ١٤٠.

٢- إن الإسلام وإن أباح نكاح الكتابية، إلا أنه وضع لذلك قيودا تتمثل في، ١ - عدم الخشية على عقيدة الأبناء، ٢ - العفة، ٣ - عدم بوار المسلمات، ٤ - ألا تكون حربية ٥ - ألا يكون ذلك في مواطن الأقليات المسلمة، راجع المتن قبل هامش، ٤٥.

٣- البخاري، الجامع الصحيح كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين، حديث رقم ٢٦٢٠.

٤- ابن حجر، فتح الباري ٥/٢٣٤.

هذا الذي أقره الإسلام وحبّب فعله لمواطنيه من المسلمين تجاه أقاربهم من مواطني البلاد الإسلامية، رغم كفرهم؟؛ حيث ندب لهم الوصية لما منعهم من الميراث؛ قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ الأحزاب: ٦، قال الحسن: "إلا أن يكون لك ذو قرابة ليس على دينك، فتوصي له بالشيء من مالك، هو وليّك في النسب، وليس وليّك في الدين"<sup>(١)</sup>، وقال قتادة معلّقاً على هذه الآية: "للقرابة من أهل الشرك وصية ولا ميراث لهم"<sup>(٢)</sup>.

**ومجمل القول:** إن الرائي لمظاهر التعايش الأسرية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى في نصوص السنة الغراء، يلمس فيها تعزيزاً، ودعماً لترقية حماية الوطن، وذلك من خلال تمتين روابط أواصر المصاهرة، وعلائق النسب بين أفرادها، ويتجلى ذلك في زواج المسلم من الكتائبية بشروط وضوابط؛ إذ تتولد عن هذا الزواج روابط نسبية بين الأم الكتائبية وأبنائها، وحرمة مصاهرة بين الزوج وأقارب زوجته، ما يولد علاقات طيبة بين أسرتي الزوج والزوجة؛ حيث تنأى هذه العلاقات بالطرفين في أن يفكر أحدهما في الكيد للآخر، أو ظلمه حفاظاً على وشائج المصاهرة، وحقوق الخؤولة والنسب، ومراعاة مصلحة الأبناء المتولدين عن هذا الزواج، وهذا دون ريب ينعكس إيجاباً على استقرار الوطن وأمنه وحمايته؛ إذ لا يختلف اثنان أن حماية الوطن، واستقراره وأمنه من استقرار خليلته الأساسية المتمثلة في الأسرة، التي إذا ما عم الوثام والتفاهم والتوادد، والحب بين أفرادها، انعكس ذلك على الوطن حبّاً، وتضحية، وحماية، وإذا حدث العكس نتج عن ذلك أفراد تحركهم الأحقاد، والعقد النفسية، ما ينعكس سلبياً على الوطن الذي تنتشر من جراء ذلك بين أرجائه الأخلاق الدنيئة، والتصرفات السيئة التي تعصف بحماية مقوماته، وتنخر أمنه وتؤثر على سلامة مرتكزاته الخلقية، والدينية.

كما أنه، ونظراً إلى أهمية الأسرة في دفع عجلة ترقية حماية الوطن نجد السنة النبوية المطهرة دعت إلى تمتين الروابط بين أفرادها، وإن اختلفت مللهم ونحلهم، وذلك عن طريق تشريعها لصلة ذوي القربى منهم، والوصية لهم، والإحسان إليهم، وهذا كله دون ريب يسهم في استقرار الوطن وحمايته، وأمنه من خلال التعايش الإيجابي بين المسلمين، وأصحاب الملل الأخرى؛ إذ لا قطيعة

١- الجصاص، أحكام القرآن ٥/٢٢٤.

٢- الطبري، جامع البيان ١٠/٥٣.

رحم، ولا شحنةاء، ولا شح، ولا خلافة، ما يجعل الوطن مطهراً من مواطنين يسكن قلوبهم الغل، والبغي والحسد، وهذا دون شك يكون سببا في كسر جناح الوطن الأسري، هذا الجناح المتين، الذي يمثل العمود الفقري، وذروة السنام، وأس البناء، في ترقية حماية الوطن، والحفاظ على ديمومة أمنه واستمرارية استقراره.

**الفرع الرابع: مظاهر التعايش الاقتصادي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة:** قال آدم ميتز: "ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدرّ الأرباح الوفرة، فكانوا صيارفة، و تجاراً، وأصحاب ضياع، وأطباء، بل أهل الذمة نظموا أنفسهم حيث كان معظم الصيارفة الجهابذة في الشام مثلاً يهود، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طيبب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذتهم عنده"<sup>(١)</sup>.

هذا، وإن المتعمّن في نصوص مرويات السنة النبوية الشريفة، يلمس بجلاء مفاصل هذا التعايش الاقتصادي بين المسلمين، ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، والذي سنورد بعض نماذجه على النحو الآتي:

**أولاً - حلية الإجارة بينهم:** يعد عقد الإجارة بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، مظهراً من مظاهر التعاملات الاقتصادية بينهم، وذلك لأن الناس ليسوا على مستوى واحد من المعيشة، ومن امتلاك بعض الأدوات، واكتساب المهارات والخبرات، فيحتاجون إلى خدمة بعضهم بعضاً، فشرع عقد الإجارة بين المتساكنين في الوطن الواحد، بغض النظر عن مللهم ومعتقداتهم لما في ذلك من رفع الحرج عن الناس والتيسير عليهم في حياتهم؛ فالفقير مثلاً محتاج إلى مال الغني، والغني محتاج إلى عمل الفقير وخبرته، ومراعاة حاجة الناس أصل في شرع العقود<sup>(٢)</sup>، ولا شك أن مراعاة حاجة الناس تندرج ضمن مقصد التعايش الاقتصادي بين بني الإنسانية جمعاء، حيث يكمل بعضهم بعضاً، ولأدلّ على هذا التعايش من صنيع رسول الله - صلى الله عليه وآله

١- آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٨٦/١.

٢- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، الموسوعة الفقهية، ٢٥٤/١.

وسلم -، في استئجار مواطنه ابن أريقط، وهو على شركه ليكون له دليلا لرحلة الحجرة المباركة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "واستأجر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلاً من بني الدليل، ثم من بني عبد بن عدي، هادياً خريئاً، الخريئ: الماهر بالهداية قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ، فأتاهما براحتيهما صبيحة ليالٍ ثلاث، فارتحلا، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل الدليلي، فأخذ بهم وهو طريق الساحل" (١).

يضاف إلى ذلك أن من مقتضيات التعايش الاقتصادي بين مواطني البلاد الإسلامية على اختلاف مللهم ونحلهم، أن كل فرد منهم مسخر لخدمة الآخر، وذلك في حدود طاقاته وإمكاناته الفكرية، والجدسية، وأن هذا التسخير يعد من المستلزمات التي تملئها روح المواطنة، وقد وضع القرآن الكريم ذلك في قوله عز وجل ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الزخرف: ٣٢.

قال الإمام ابن رشد الجد - (رحمه الله) - في تفسير هذه الآية: "يستسخر هذا في خدمته إياه ويعود هذا في خدمته إياه ويعود هذا على هذا في شدة في فضل الله، رخصة منه لعباده ونعمة عددها عليهم بأن جعل افتقار بعضهم لبعض سببا لمعاشرهم في الدنيا وحياتهم فيها حكمة منه لا إله إلا هو" (٢).

ثانيا - مشروعية الرهن بينهم: يُعدّ الرهن وسيلة رائدة، ومظهرا من مظاهر التعايش الاقتصادي بين ساكنة الوطن الواحد من المسلمين، ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، وذلك لما فيه من مد يد العون والإحسان للمحتاجين منهم، وفي ذلك يقول علي عثمان الفقي: "حرص الإسلام منذ شروق فجره على تشجيع مد يد العون لذوي الحاجة، والحرص على أن يتشبع المسلم بروح المواساة لبني جنسه، حتى يعيش المجتمع متراحما متواددا، وتشجيعا لهذا الغرض النبيل وضعت

١- البخاري، كتاب الإجارة، باب "استئجار المشركين عند الضرورة، أو إذا لم يوجد أهل الإسلام وعامل النبي صلى الله عليه وسلم يهود خيبر"، حديث رقم ٢٢٦٣.

٢- المقدمات بهامش المدونة، ٣/٣٥٤.

تشريعات تضمن الحقوق من الضياع، وتحفظها من الجحود، حتى يضل باب التعاون مفتوحا على مصراعيه، وبذلك تنعم البشرية بحياة تعطرها روح الإخاء، والتعاطف، والمودة<sup>(١)</sup>.

وحرصا على استمرارية روح التعايش بين المتعاملين مع بعضهم من بني البشرية شرع الرهن لحفظ الحقوق، وعدم انقطاع المعروف بين الناس، ليعيشوا متعاونين، متآلفين، وقد أعطى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - النموذج الأسمى في التعايش الاقتصادي مع مواطنيه، وذلك باستيفاء احتياجاته الغذائية من يهودي مقابل رهن درعه لحين استيفائه دينه، فما أروعه من تعايش، يحفظ حقوق كل من الدائن، والمدين، وهذا ما نتلمسه في نصوص السنة المطهرة، فعن أنس رضي الله عنه: "أَنَّه مَشَى إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله بِجُبَيْرِ شَعِيرٍ، وَإِهَالَةَ سَنَخَةٍ<sup>(٢)</sup>، وَلَقَدْ رَهَنَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله دِرْعًا لَهُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، وَأَخَذَ مِنْهُ شَعِيرًا لِأَهْلِهِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَا أُمْسَى عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله صَاعٌ بُرٍّ، وَلَا صَاعٌ حَبٍّ، وَإِنَّ عِنْدَهُ لَتَسْعُ نِسْوَةٌ<sup>(٣)</sup>، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "تُوِّفِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ"<sup>(٤)</sup>، وَعَنْهَا أَيْضًا - قَالَتْ: "اشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله - طَعَامًا مِنْ يَهُودِيٍّ بِنَسِيئَةٍ وَرَهْنَهُ دِرْعًا لَهُ مِنْ حَدِيدٍ"<sup>(٥)</sup>.

**ثالثا - توظيف خبراتهم في مجال الاستثمار الزراعي:** ما لا شك فيه أن الشريعة الإسلامية تقوم على رعاية مصالح الناس في المعاش والمعاد، وما هو معلوم أن حاجة الناس ومصلحتهم تستدعي تشريع كل من المزارعة، والمساقاة؛ إن كثيراً من الناس تؤول إليهم ملكية بعض البساتين وذلك عن طريق الهبة، أو الميراث، أو الشراء، ولا يتيسر لهم القيام على استثمارها، وكذلك كثير من الناس قد لا تيسر لهم أسباب ودواعي الملكية وهم من الخبراء بخدمة الأرض، وشؤون الزراعة، والاستثمار؛ إذ من الحكمة والمصلحة تسهيل الاتفاق بينهما على ما يصلح الشجر، وينضج الثمر،

١- فقه المعاملات . دراسة مقارنة . ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

٢- الإهالة السَّنَخَةُ هي: كل شيء من الأدهان، ما يؤتدم به إهالة، وقيل، هو ما أذيب من الألية، والشحم، وقيل، الدسم الجامد، والسَّنَخَةُ، المتغيرة الريح. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٥٤ .

٣- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب البيوع - باب شراء النبي صلى الله عليه وآله بالنسيئة، حديث رقم ٢٠٦٩ .

٤- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب وفاة النبي، حديث رقم ٤١٩٧ .

٥- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الرهن، باب من رهن درعه، حديث رقم ٢٥٠٩ .

وينمي الإنتاج، ويوفر الأرباح، ويكون ذلك عن طريق عقدي المزارعة والمساقاة<sup>(١)</sup>، بين طرفين من أبناء الوطن الواحد، بغض النظر عن انتماءاتهم العقديّة، وقناعاتهم الدينيّة، خدمة لاقتصاد أوطانهم، وتنمية لمواردها، واستزادة لمداخيلها، واستخراجا لخيراتها، تحقيقا للتعایش الاقتصادي فيما بينهم، هذا التعایش الذي يحقق الرفاه المعيشي، والأمن الغذائي، والاكتفاء الذاتي، والذي خبر كنهه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، فتعاقد مع بعض اليهود من مواطني خيبر، - التي صارت إحدى مناطق دولته، بعد فتحها، حيث أصبح مواطنوها من اليهود بعض رعايا البلاد الإسلاميّة -، على أن تبقى أراضي خيبر وشجرها تحت أيدي هؤلاء المواطنين من اليهود، ليعملوا على زراعتها وسقيتها، باذلين في ذلك كل ما لديهم من خبرة في المجال الزراعي، مقابل أخذهم نصف ما تنتجه الأرض، وما يثمره الشجر، و يؤكد هذا ما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ حيث قال: "أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شرط ما يخرج منها"<sup>(٢)</sup>، وعنه أيضا: "أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دفع إلى يهود خيبر نخل خيبر وأرضها، على أن يعملوها من أموالهم، وأن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شرط ثمرتها"<sup>(٣)</sup>، وهذا هو التعایش الاقتصادي بحق، الذي لا يقصى منه طرف بسبب ملته، أو نخلته، وإنما يشترك في إرساء دعائمه جميع مواطني البلاد الإسلاميّة، على اختلاف معتقداتهم، وقناعاتهم، فهذا يشارك بالأرض، أو الشجر، وذاك بالخبرة، واليد العاملة الفنيّة، فيتعاون الجميع، خدمة لمصلحة الوطن وساكنيه، وارتقاء باقتصاده وأمنه الغذائي.

**أقول:** إنّ المستقرى للتاريخ يجد آثار هذا التعایش الاقتصادي قد آتت أكلها، وأينعت ثمارها، وحقققت مقاصدها؛ حيث نرى شعوبا بأسرها، و دولا بأكملها، اعتنقت الإسلام بسبب هذه التعاملات الاقتصاديّة والتجارية، دون أن يصلها فاتح، أو غاز، أو قائد عسكري، و إنما دخلوا في الإسلام عن طريق التجار، والنازحين إليها من المسلمين، الذين كانوا نماذج للقيم الفاضلة، والتعایش الاقتصادي، والقدوة السامية في أخلاقهم و تصرفاتهم، بل قد وصل المد الإسلامي

١- محمد فوزي فيض الله، الفقه الإسلامي، ص ٤٤٠.

٢- البخاري، كتاب الإجارة، باب إذا استأجر أرضا فمات أحدهما، حديث رقم ٢٢٨٥.

٣- مسلم، كتاب المساقاة، باب "المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع"، حديث رقم ١٥٥١.

للصين، و أندونيسيا التي تعد أكبر بلد إسلامي اليوم عن طريق هؤلاء<sup>(١)</sup> الذين قال عنهم توماس أرنولد الأستاذ بجامعة لندن: "إن الإسلام قد حلّ بأفئدة هؤلاء، وغمر قلوبهم بالإيمان، عن طريق التجار، و النازحين إليها، و غيرهم ممن كانوا أمثلة للناس في سلوكهم و أفعالهم، وكانوا حقا أئمة يهدون بأمر الله"<sup>(٢)</sup>.

**وصفوة القول:** إن الناظر لما عرضناه من مظاهر للتعايش الاقتصادي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى من خلال نصوص السنة النبوية الكريمة، يلحظ ارتباطها الرئيس بحماية الوطن وأمنه المالي والغذائي، وتحريره من التبعية الخارجية، فاستغلال خبرات غير المسلمين من مواطني البلاد الإسلامية في المجال الزراعي مثلا يُفضي إلى وفرة الإنتاج، وجودة المحاصيل، ما يؤدي إلى الاكتفاء الذاتي، الذي يعزز الأمن الغذائي للوطن، ما يجعله في حماية من أي ضغوطات، أو مساومات أجنبية، تتعلق بلقمة عيش مواطنيه.

كما أن الناظر في مشروعية الكثير من التعاملات الاقتصادية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى يجدها تدعم تعزيز الحماية الاقتصادية للوطن، وذلك عن طريق إيجاد مناصب شغل لمواطني البلاد الإسلامية من خلال توظيفهم في دفع عجلة التنمية وإسهامهم في كل ما يخدم الحماية الاقتصادية للوطن من بيع وشراء، ومبادلات تجارية واستغلال لخبرات بعضهم قصد الاستفادة مما يمتلكونه من تفوق فكري، ويد عاملة فنية، بغض النظر عن مللهم ونحلهم، وهذا كله دون ريب سيسهم في امتصاص البطالة، التي إذا ما جثمت بكلكلها على صدر الوطن، جعلت من جبهته الاجتماعية حربا ضروسا عليه، يغذي أوارها، ويشعل فتيل شرارها تلك الأيدي المعطلة، والبطون الجائعة، ما يجعل أمن الوطن وحمايته وسلامة استقراره في مأزق، ولا مخلص من ذلك إلا بالتعايش الاقتصادي بين المسلمين ومواطنيهم، وذلك بوضع اليد في اليد، عن طريق التعاون المثمر لتحريك دواليب الاقتصاد الوطني، حماية للوطن من التبعية الأجنبية، وتأمينا لجبهته الاجتماعية من أن ينفرد عقدها المصون وحفاظا على سلمه واستقراره، حيث يعيش فيه جميع مواطنيه في صفاء وإحياء، وتراحم، وتعاون وتعايش في كنف نظام اقتصادي قوي قادر على توفير

١- عاصم أحمد عجيلة، حرية الفكر وترشيد الواقع الإسلامي، ص ٧٨.

٢- الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٢ وما بعدها.

كل ضروريات العيش الكريم للمواطن، والحماية الحقيقية للوطن.

## المبحث الثاني: ترسيخ الإسلام لقيم الحرية الدينية لمواطنيه أساساً للتعایش والمواطنة وترقية لحماية الوطن:

يدعي كثير ممن يناصبون الإسلام العدا المقيت أنه لم يعط هامشاً للحرية الدينية لمواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، بل إنه صادرها منهم، وطمس معالمها في نصوصه وتشريعاته، وواقعه المعيش، ما يجعل هذه الدراسة مُلزِمة بإبراز الأسس المظهرة لهذه الحرية، حتى تتجلى عظمة الإسلام في إقراره لمبدأ الحرية الدينية، وحيازته لقصب السبق في عدم المساس بها، ولو كانت مخالفة لما جاء به، حيث إن المتأمل لنصوص الكتاب والسنة، يجدها مألوفة بما يدعم الحرية الدينية في الإسلام، ويجعل أصولها ومؤيداتها ماثلة للعيان، يسهل استنباطها منها، بما لا يدع مجالاً للحاقد، أو مكابر، أو طاعن فيها، بل يجد الإسلام قد جعلها أصلاً أصيلاً، وركناً متيناً، من مقومات التعایش الديني بين مواطنيه في البلاد الإسلامية، واعدّها أساساً صلباً لأمن الوطن واستقراره، ما حدا بنا إلى تناول ذلك كله وبيانه من خلال الفروع الآتية:

### الفرع الأول - تعريف الحرية الدينية: سنتناوله على النحو الآتي:

أولاً - تعريف الحرية: سنتناوله بشقيه اللغوي والاصطلاحي على النحو الآتي:

أ - تعريفها لغة: (الحُرُّ) بالضم من الرمل ما خلص من الاختلاط بغيره و(الحُرُّ) من الرجال خلاف العبد مأخوذ من ذلك لأنه خلص من الرق وجمعه (أحرارٌ) <sup>(١)</sup>.

ب - تعريفها اصطلاحاً: "هي ما يميز الإنسان عن غيره، ويتمكن بها من ممارسة أفعاله، وأقواله، وتصرفاته، بإرادة واختيار، من غير قسر، ولا إكراه، ولكن ضمن حدود معينة" <sup>(٢)</sup>.

ثانياً - تعريف الحرية الدينية: وهي: "أن يتمتع الإنسان بحق اختيار ما يوصله إليه تفكيره، وتطمئن إليه نفسه من عقيدة، أو رأي دون إكراه، مع الأخذ بعين الاعتبار احترام سلامة النظام العام وأمن الأمة" <sup>(٣)</sup>.

١- الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ١/١٢٨.

٢- الزحيلي، حق الحرية في العالم، ص ٣٩.

٣- تيسير خميس العمر، حرية الاعتقاد في ظل الإسلام، ص ٤٩.



الفرع الثاني: الحرية الدينية أساس مكين لتعايش المسلمين مع مواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى ومدى أثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة: إن المتأمل لنصوص الكتاب والسنة، يجدها ملامى بما يدعم قيم الحرية الدينية في الإسلام، ويتجلى ذلك من خلال إسقاطه الإكراه والإجبار في اعتناق عقيدة بعينها، وذلك لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة: ٢٥٦، وقوله ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩) يونس: ٩٩، وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الكهف: ٢٩؛ حيث ضمن الإسلام حرية العقيدة لمواطنيه من أصحاب الملل والنحل المختلفة، فلا قهر، ولا إكراه، ولا قسر على الدخول في الإسلام، ما يبين أنهم نعموا في ظلّه بحرية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً<sup>(١)</sup>.

كما أن المتمعن في كتب السنن والسير، يجدها تعج بالنصوص والوقائع المؤصلة لمبدأ التعايش بين مواطني البلاد الإسلامية، على اختلاف مللهم ونحلهم، والتي تعد الحرية الدينية إحدى ركائز نجاح هذا التوافق الاجتماعي بينهم، هذه الحرية، التي جعلت من التسامح منهجاً، ومن التعايش سبيلاً، والتي أرسّت أسسها نصوص السنة المطهرة، ووقائع التاريخ الإسلامي المجيدة، والتي منها

ما ورد في وثيقة المدينة: "يهود بني عوف أمة من المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليتهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ<sup>(٢)</sup> إلا نفسه وأهل بيته..."<sup>(٣)</sup>، وكتاب الخليفة عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس، وفيه: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم، وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها، وبريئها، وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقض منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، لا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم"<sup>(٤)</sup>.

مما سبق ذكره نقول: إن المتأمل لما ورد من نصوص في السنة المطهرة، مؤصلة لمبدأ الحرية الدينية كأساس مكين، وحصن منيع لتعايش المسلمين مع مواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى

١- منيب محمد ربيع، ضمانات الحرية في النظام الإسلامي وتطبيقاته، ص ١٣٥.

٢- يوتغ، وتغ وتغا إذا هلك، ويوتغ نفسه، يهلكها. الزمخشري، الفائق في غريب الحديث ٣/٤٤٤.

٣- ابن كثير، السيرة النبوية، ٢/٣٢٢، وابن هشام، السيرة النبوية، ٢ / ١١٤.

٤- الطبري، تاريخ الأمم والملوك. ٢/٤٤٩.

في البلاد الإسلامية، يلحظ مدى حرص الإسلام على حماية الوطن واستقراره، وذلك لأن هذا المواطن إذا شعر بالتضييق عليه في قناعاته الفكرية، ومعتقداته الدينية، كان أداة تخريب ومِعْوَل هدم لهذا الوطن، الذي لم ينعم فيه بحريته التي يرى أنه اعتُدي على صرحها المصون، وحصنها المشيد؛ فقد يلجأ إلى الكيد للوطن بطلبه الحماية من أطراف أجنبية، كما يشوه صورته على مستوى منظمات حقوق الإنسان، متهما إياه بخنق الحريات، والاعتداء على القناعات الشخصية، وقد يصل به الأمر إلى التنسيق مع مواطنيه من منتحلي ملتته، إلى المغالبة من أجل الحصول على هذه الحرية عن طريق بثّ الفوضى، والمهرج، وإقامة الاحتجاجات والمظاهرات، التي قد يبلغ مداها إلى حد رفع السلاح في وجه الآمنين، وهذا دون ريب سيكون له مفعوله السليبي على حماية الوطن، وسلامة مواطنيه، واستقرار ساكنته، ما يجعلنا نقول: إن منح الإسلام لحق الحرية الدينية لمواطنيه من أصحاب الملل والنحل المخالفة يعد طوق نجاة، وصمام أمان لحماية الوطن، وطمأنينة قاطنيه، فما أجله من تشريع وما أحكمها من تعاليم وما أروعها من حرية تفضي لحماية الأموال، والأرواح، والأديان، والأوطان وهذا هو عين مقاصد الشريعة الغراء، وأسس بناء تشريعاتها الحكيمة.

**الفرع الثالث: كفالة الإسلام لحرمة أديرة مواطنيه وكنائسهم من أصحاب الملل الأخرى، وإقرارهم على ممارسة شعائرهم الدينية أساس رصين للتعايش الديني وصمام أمان لحماية الوطن:** لقد جعل القرآن الكريم صيانة أماكن العبادة، وحرمة الشعائر الدينية للمسلمين، وغير المسلمين من أسباب الإذن بالقتال، لينعم الجميع بحريتهم الدينية، وألا تهم عليهم أماكن عبادتهم من الملاحدة وأشباههم<sup>(١)</sup> قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوكُهُمْ وَصَلَوَاتُهُمْ وَمَسَاجِدُهُمْ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الحج: ٤٠.

مما سبق يتبين حرص الإسلام على إرساء حرمة أديرة، وكنائس مواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، وذلك من خلال كفالته لحماية أماكن عبادتهم، وإقرارهم على ممارسة شعائرهم الدينية، ما يجعل الجميع ينعم بحريته الدينية، وهذا دون شك يرسخ قيم التسامح، والتعايش الديني بين أفراد

١- تيسير خميس العمر، حرية الاعتقاد في ظل الإسلام، ٢٢٦ وعاصم أحمد عجيلة، حرية الفكر وترشيد الواقع الإسلامي ٧٤.

الوطن، وفتات مواطنيه رغم اختلاف قناعاتهم الفكرية، ومعتقداتهم الدينية، وهذا ما توضحه هذه النماذج الآتية:

أ- - كتاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأهل نجران باليمن وفيه: "ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد - ﷺ - على أموالهم، وأنفسهم، وأرضهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانته، ولا كاهن من كهانته، و ليس عليه ذنية، ولا دم جاهلية، ولا يخسرون، ولا يعسرون، ولا يبطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقًا، فبينهم النصف غير ظالمين، ولا مظلومين..."<sup>(١)</sup>.

ب - مصالحة خالد بن الوليد لأهل الحيرة على "ألا يهدم لهم بيتا، و لا كنيسة، و لا يمنعهم ضرب نواقيسهم، و لا إخراج صلبانهم يوم عيدهم"<sup>(٢)</sup> وكذا ما ورد في معاهدته لأهل عانات: "و لهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل، أو نهار، إلا في أوقات الصلوات، و أن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم"<sup>(٣)</sup>.

**ومجمل القول:** إن كفالة الإسلام لحرمة أديرة مواطنيه وكنائسهم من أصحاب الملل الأخرى وإقرارهم على ممارسة شعائرهم الدينية يعدّ أساسا صلبا للتعايش الديني، وصمام أمان لحماية الوطن، وذلك أن هذا المواطن إذا وجد نفسه ممنوعا من أداء شعائره، وألقى أماكن عبادته مهددة بالغلق، أو الهدم، أو التحويل إلى مرافق أخرى، لا شك أن هذا سيجعله يفكر في الانتقام لما طاله من حجر على قناعاته، وتضييق على مقدساته، وقد ينتقل من مواطن بارٌّ بوطنه، متعايش مع أفراد، باذل قصاري جهده لخدمته مضح من أجله، إلى مواطن سلبي، يكره مواطنيه، ويكيد لهم، وقد يصل به الأمر إلى الاعتداء على دور عبادة المسلمين المتمثلة في المساجد، بل قد يبلغ الأمر مداه، إلى حد وضع القنابل والمتفجرات في ربوعها، ما ينتج عنه سقوط أرواح بريئة، وسفح دماء معصومة، وهذا كله ينعكس سلبا على أمن الوطن وحمايته واستقراره، وعليه نقول: لا مخلص

١- أبو يوسف، الخراج، ص ٧٢، وابن كثير، البداية والنهاية ٣ / ٦٠/٥.

٢- أبو يوسف، الخراج، ص ١٤٦.

٣- أبو يوسف، الخراج، ص ١٤٦.

من ذلك إلا بالالتزام بتطبيق التشريعات الإسلامية الواردة في نصوص الكتاب والسنة، والمؤصلة لصيانة أديرتهم، وكنائسهم، وبيعهم، ما يث الطمأنينة في نفوسهم ويشعرهم بأنهم يتمتعون بكامل الحرية الدينية والرعية الوطنية، فيكونون بذلك أداة بناء في أوطانهم يدافعون عنها بالغالي والنفيس وبذلك تحمي الأوطان، وتتعايش الأديان، وتأتلف الحضارات وتأتى بنفسها عن التصادم والصراعات.

**الفرع الرابع: قيود الحرية الدينية الملزمة لمواطني البلاد الإسلامية من أصحاب الملل الأخرى ودورها في ترقية حماية الوطن:** لقد كفل الإسلام لمخالفه حرية العقيدة، بل وسمح بممارسة مظاهرها من مناقشات تدور في شأنها، وشعائر تقام عليها، ولكنه في مقابل ذلك لم يترك هذه الحرية على عواهنها بل جعل لها قيودا وضوابط حتى يكفلها الكفالة الصحيحة التي لا عوج فيها ولا أمتا، ومن ثم لا يسمح لهذه الحرية أن تتعدى حدودها، وتتجاوز نطاقها بهدف الفتنة والاضطراب، والإثارة، ونشر الإلحاد، والكفر، والزندقة، واستعمال القوة والعنف، فإن حدث شيء من ذلك، أوجب الإسلام على الحاكم المسلم تأميننا للوطن، وإقرارا لقيم السكينة، والتعايش الديني، ودفعنا للاضطراب أن يمنع ذلك حتى ولو أدى الأمر إلى القتال عملا بقوله عز وجل: ﴿ وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُمْ فَلَاعُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩٣) البقرة: ١٩٣، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقِنَلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (٩٠) النساء: ٩٠، وقوله: ﴿ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ التوبة: ٧<sup>(١)</sup>، هذا وإن كل ما يطلبه الإسلام من المواطنين من غير المسلمين، أن يلتزموا بقيود، وضوابط هذه الحرية التي نعموا بها في ظل تعايشهم مع المسلمين من أبناء وطنهم، والتي يمكن إجمالها فيما يأتي:

**أولا -** عدم إظهار شعائرهم وصلبانهم في الأمصار الإسلامية، مراعاة لمشاعر مواطنيهم من المسلمين، وحرمة دينهم، وذلك لما في هذا الإظهار من تحد للوجدان الإسلامي، ما يؤدي إلى

١- صبحي عبده سعيد، السلطة والحرية في النظام الإسلامي - دراسة مقارنة -، ص ١٤١.

الفتنة والاضطراب<sup>(١)</sup>، وبذلك قال الحنفية<sup>(٢)</sup>، والحنابلة<sup>(٣)</sup>، ولكن الصواب الذي نراه في عصرنا الحاضر أنهم لا يمتنعون من إظهار شعائرهم، حيث يكون هذا الإظهار مشروطاً، ومقيداً بتوفر ضوابط منظمة لذلك، وهو ما ارتآه كثير من علمائنا المعاصرين، حيث يربوا جواز إظهار شعائرهم في البلاد الإسلامية، التي اتخذوها وطناً لهم، وذلك إذا أمن في هذا الإظهار الفتنة، وعدم استفزاز مشاعر الأغلبية المسلمة، والاحتراز من الوقوع في الاضطرابات، التي تهدد سلامة الوطن وساكنته، فإنه لا مانع من إظهارها، ولا شك أن في هذا تساوقاً، وتناغماً، مع تسامح الإسلام مع مواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، وأن ذلك يعد مظهراً رائعاً من مظاهر التعايش الديني، والحرية في ممارسة الشعائر، إذ لا إغلاق لباب الحريات أمام مواطني البلاد الإسلامية، بسبب نحلهم الدينية، وهذا دون ريب ينعكس إيجاباً على الوطن، بأن يسود مواطنيه التآلف، والتراحم، والتعاون، ويعم في ربوعه الأمن، والأمان، والسلم، والسلام، والطمأنينة، والسكينة، والوثام.

ثانياً - عدم السماح لجميع مواطني البلاد الإسلامية على اختلاف مللهم ومعتقداتهم الدينية بتوجيه الإهانات للرموز الدينية، أو الإساءة إلى الديانات السماوية، أو الازدراء بالأنبياء أو الرسل، أو السخرية منهم، لأن ذلك يشكل انتهاكاً للحرية الدينية التي ينعمون بها.<sup>(٤)</sup> وقد نعى القرآن الكريم على الأطراف التي تسيء للرموز الدينية، فقال عن أصحاب الملل الأخرى: " وَإِن نَّكُوثُوا أَيْمَنَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَدِ ابْتُلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأَ أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ التوبة: ١٢ والطعن في الدين، أن ينسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف والاستنقاص على ما هو منه<sup>(٥)</sup>. كما نهى المسلمين عن الإساءة لغيرهم ممن يخالفونهم في العقيدة، فخطبهم بقوله: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ الأنعام: ١٠٨

- ١- تيسير خميس العمر، حرية الاعتقاد في ظل الإسلام، ص ٢٢٧.
- ٢- الكاساني، بدائع الصنائع، ١١٣/٧.
- ٣- البهوتي، كشاف القناع، ٧٢١/١.
- ٤- سعدي محمد الخطيب، حرية المعتقد و أحكامها التشريعية و أحوالها التطبيقية و أهميتها في حوار الأديان، ص ٥٥-٥٧.
- ٥- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٨٠ / ٢٠.

قال ابن كثير: "يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنِ سَبِّ آلِهِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَكْثَرُ مِنْهَا، وَهِيَ مُقَابَلَةُ الْمُشْرِكِينَ بِسَبِّ إِلِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَتَنْتَهِيَنَّ عَنِ سَبِّكَ آلِهَتَنَا، أَوْ لَنَهْجُونَ رَبَّكَ، فَنَهَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْلَادَهُمْ، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا يَنْدَرُجُ فِي مَضْمُونِ تَرْكِ الْمَصْلَحَةِ لِمَفْسَدَةٍ أَرْجَحُ مِنْهَا"<sup>(٦)</sup>.

مما سبق إيراده نخلص إلى أن المتفحص لمسألة القيود والضوابط التي شرعها الإسلام لممارسة الحرية الدينية لمواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، وذلك عن طريق عدم السماح لمواطنيه من أصحاب النحل المختلفة باستفزاز المسلمين في مشاعرهم الدينية، أو الإساءة لرموزهم المقدسة، فإنه حينما يغوص في مضامين هذه القيود يجد جميعها يصب في بوتقة أمن الوطن، واستقراره، وحمانيته، وهذا لما يترتب عن خرم هذه القيود من الفتن، والقتال، والصراعات الدينية، التي قد تصل إلى حد القتال، والتطاحن بين أبناء الوطن الواحد، ما يجعل الوطن يغرق في صراعات داخلية مقيتة تقضي على روح المحبة والتعايش بين أبنائه، وتضرب حمايته، وسلمه الاجتماعي، وأمنه الداخلي، وطمأنينة مواطنيه في مقتل.

### المبحث الثالث: قيم الإسلام في التعايش مع مواطنيه من أصحاب الملل المختلفة وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة

لقد أفاض الإسلام اللثام لأتباعه عن كيفية التعامل مع مخالفيهم في العقيدة عموماً، ومن يقاسموهم وطناً واحداً خصوصاً، حاثاً إياهم على التسامح، والتعايش، والتآلف، والاتحاد، والإنصاف، والمواساة، والمحبة، والصلة، والنصح، وحسن المعاملة، جاعلاً ذلك كله نظاماً اجتماعياً حضارياً للعالمين<sup>(٧)</sup>، موطداً به لدعائم قيم العدل، والمساواة، واحترام الآخرين<sup>(٨)</sup>، ما حدا به إلى أن يحدد مجموعة من الضوابط والقيم النبيلة، التي تحكم هذا التعايش في الوطن الإسلامي، وسنشير

٦- تفسير القرآن العظيم. ٣ / ٣٧٤.

٧- ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، إرساء قواعد التسامح، المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. ص ٣٢٠ - ٣٢٤.

٨- خالد فهمي مصطفى، حرية الرأي والتعبير في ضوء الاتفاقيات الدولية والتشريعات الوطنية والشريعة الإسلامية و جرائم الرأي والتعبير، ص ١٤٣.

لأبرزها من خلال الفروع الآتية:

**الفرع الأول- اعتبار قيمة الكرامة الإنسانية ضابطا أساسيا للتعايش مع مواطني البلاد الإسلامية وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة:** وذلك دون النظر لدينهم، أو جنسهم، أو لوهم لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء: ٧٠؛ حيث لم يكن هذا التكريم حكرا على المواطنين المؤمنين منهم، بل هو عام يشمل جميع بني الإنسانية، دون التفريق بين مؤمنهم وكافرهم، بل تجاوز الأمر إلى مراعاة كرامة الأموات منهم، وهو ما يؤكد ما ورد عن ابن أبي ليلى أَنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ، وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ كَانَا بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا جِنَازَةٌ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَقَالَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ، فَقَامَ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا<sup>(١)</sup>.

وعظفا على ما أوردناه من اعتبار قيمة الكرامة الإنسانية ضابطا أساسيا للتعايش بين مواطني البلاد الإسلامية على اختلاف مللهم ونحلهم، فإننا نُثَنِّي بالقول بأن لهذه الكرامة أهميتها الكبرى في ترقية حماية الوطن، وذلك لأن هذا المواطن غير المسلم حينما يشعر بإهدار كرامته الإنسانية، وأنه يعامل بقسوة، ويتعرض للإهانات والتعنيف، والانتقاص من بشريته، لا شك أن هذا سيؤدّد فيه عقدا نفسية، تعود بالوبال على أمن الوطن وحمايته؛ إذ تجعل منه مواطنا حاقدا، مستعدا لخيانة هذا الوطن، وتخريب مقدراته، والتأرّ من كان سببا في إهدار كرامته، وهذا كله يفضي إلى زعزعة الأمن والطمأنينة والحماية التي ينعم بها الوطن، ما يضطرنا إلى القول بأن احترام قيمة الكرامة الإنسانية، يعدّ من أهم الركائز، وأبرز اللبّات، المسهمة في ترقية النهوض بالوطن، وحماية لحمته البشرية، ورقعته الترايبية، وموارد، ومقدّراته المالية.

**الفرع الثاني: عدّ قيم العدل ضابطا أساسيا للتعايش مع مواطني البلاد الإسلامية وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة:** نعني بقيمة العدل إقامة ميزان الإنصاف بين جميع شرائح المجتمع، فلا تمييز لأحد عن الآخر في تحصيل الحقوق وأداء الواجبات، بسبب نحلته أو دينه، بل كلهم على قدم المساواة أمام قيمة العدل وسلطانه، هذا العدل الذي تكون له آثاره السامية في نهضة الأمم؛ إذ يصلح به السلطان والعمران، كما نص على ذلك الطرطوشي في معرض

١- مسلم، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب القيام للجنّاة، حديث رقم ٩٦١.

حديثه عن العدل قائلاً عنه بأنه: "قوام الملك ودوام الدول، وأسس كل مملكة سواء كانت نبوية أو صلاحية"<sup>(١)</sup>. كيف لا؟ وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة أمرة به، وحاثه عليه، ومُرْتَبَة المثوبة على القيام به، والعقوبة على تركه، أو الميل عن صراطه المستقيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ النحل: ٩٠.

قال الشعبي، عن شتير بن شكل: سمعت ابن مسعود يقول: "إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"<sup>(٢)</sup>. هذا ونظراً إلى مكانة قيمة العدل في واقع رقي الأمم، ونهضة المجتمعات، وتعايش الشعوب فقد عدته الشريعة الإسلامية أساساً لكل الرسالات السماوية؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد: ٢٥، وجعلت تطبيقه على الجميع ركناً من أركان التعايش، وذلك بغض النظر عن نتائج تطبيقه، وعن هوية المطبق عليه، أو دينه، أو عرقه، أو مركزه الاجتماعي، أو علاقته بالمطبق؛ يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ النساء: ١٣٥، ويقول أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة: ٨

وَعَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، أَنَّهُ قَالَ: "لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ خَيْبَرَ، فَأَقْرَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا كَانُوا، وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَحَرَصَهَا عَلَيْهِمْ"<sup>(٣)</sup>. وعنه أيضاً: أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: "حَرَصَهَا ابْنُ رَوَاحَةَ أَرْبَعِينَ أَلْفَ وَسَقٍ، وَزَعَمَ أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا خَيْرَهُمْ ابْنُ رَوَاحَةَ أَحَدُوا الثَّمَرَ، وَعَلَيْهِمْ عِشْرُونَ أَلْفَ وَسَقٍ"<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: "أَفَاءَ اللَّهُ

١- سراج الملوك، ص ١٦٩

٢- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم. ٤ / ٥٩٧.

٣- أبو داود، السنن، كتاب البيوع، باب في الخرص حديث رقم ٣٤١٤، وقد صححه الألباني، غاية المرام برقم ٤٥٩.

٤- نفسه.



عَزَّ وَجَلَّ خَيَّرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَقْرَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمَا كَانُوا وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَبِعَثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِلَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسَقِي مِنْ تَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ وَإِنْ أَيْبُتُمْ فَلِي فَقَالُوا: بَهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَا فَأَخْرَجُوا عَنَّا<sup>(١)</sup>.

مما سبق يتبين بأنه لا ظلم، ولا انتقاص لحق إنسان بسبب مخالفته لعقيدة الإسلام لقوله تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ المائدة: ٨، ولقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ النساء: ٥٨.

بعد إيرادنا لهذه النصوص، المجسدة لقيمة العدل، نلخص إلى أن آثار العدل في واقع نهضة الأمم، تعد مفخرة كبيرة، ومنقبة عظيمة في الإسلام؛ إذ تتجسد بها في أوساط المجتمع قيم شتى، كقيمة الاستقرار والتعايش في المجتمع، وبث الطمأنينة بين أبنائه، لأنه إذا خلا المجتمع من العدل، تأصلت الكراهية والأحقاد بين أبنائه، وسادت فيه الفوضى، وانتشرت الجريمة، واستشرت الفتن، وتسارع الناس إلى أخذ الثارات والحقوق بأيديهم، دون وازع يزعهم، أو رادع يردعهم، وهذا كله دون ريب يعصف باستقرار الوطن، ويؤثر على حماية أمنه، وطمأنينة ساكنيه، أما إذا ساد العدل بينهم اطمأنوا على عصمة دمائهم، وسلامة أقاتهم، وتحصيل حقوقهم، ونظافة أعراسهم، وصيانة حرياتهم، ورد مظالمهم، فإذا تحقق كل هذا ساد المجتمع قيم التعايش، والسلام، والوثام، والأمن، والأمان، والطمأنينة، والسكينة، والخير، والبر، لينعكس ذلك كله على الوطن حماية، وأمنا، واستقرارا، وتحضرا، ورفيا، وازدهارا.

**الفرع الثالث - عدّ قيم المساواة ضابطا أساسا للتعايش بين مواطني البلاد الإسلامية وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة:** نعني بالمساواة عدم المحاباة، أو التمييز، أو التفرقة، أو الانحياز لشخص دون آخر، في الحصول على الحقوق والامتيازات، أو في القيام

١- أحمد، المسند، مسند جابر بن عبد الله ﷺ، حديث رقم ١٥١٨٤، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: "إسناده قوي على شرط مسلم"، كما صححه الشيخ الألباني، غاية المرام برقم ٤٥٩.

بالواجبات والالتزامات، حيث لا يؤخر، أو يقدم أحد على أحد بسبب دينه، أو جنسه، أو شرفه، أو عشيرته، أو مركزه الاجتماعي، بل كلهم على قدم المساواة في التمتع بحقوق المواطنة مغنما ومغرما، ويؤيد ذلك ما ورد عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ اخْتَصَمَ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ وَيَهُودِيٌّ، فَرَأَى عُمَرُ أَنَّ الْحَقَّ لِلْيَهُودِيِّ فَقَضَى لَهُ، فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ: وَاللَّهِ لَقَدْ قَضَيْتَ بِالْحَقِّ، فَضَرَبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالِدَّرَّةِ ثُمَّ قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ: إِنَّا نَجِدُ أَنَّهُ لَيْسَ قَاضٍ يَقْضِي بِالْحَقِّ، إِلَّا كَانَ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكٌ وَعَنْ شِمَالِهِ مَلَكٌ، يُسَدِّدَانِهِ وَيُؤَفِّقَانِهِ لِلْحَقِّ، مَا دَامَ مَعَ الْحَقِّ، فَإِذَا تَرَكَ الْحَقَّ، عَرَجَا وَتَرَكَاهُ"<sup>(١)</sup>.

إذ لا حيف على أحد بسبب كفره واعتقاده لغير دين الإسلام، بل هم على قدم المساواة في الإنسانية، وذلك لما ورد: "عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، قَالَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ"<sup>(٢)</sup>.

وعليه، فلا حيف على أحد بسبب حسبه، أو نسبه، أو كفره واعتقاده لغير دين الإسلام، كما نجد رسولنا الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - قد نصب نفسه خصما لمن يظلم أحدا من أهل الذمة، تأكيدا منه لدعامة المساواة في التعامل؛ إذ إن من مقتضيات المساواة عدم الافتيات على المواطنين من أصحاب العقائد المخالفة لقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٣)</sup>.

**والخلاصة:** إن المتأمل لقيمة المساواة بين المسلمين، ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى،

١- مالك، الموطأ، كتاب الأقضية، باب الترغيب في القضاء بالحق، حديث رقم ٢٦٦٣، مرسلا، عن يحيى

بن سعيد عن سعيد بن المسيب، وذكره، وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب حديث رقم ٢١٩٧.

٢- أحمد، المسند، مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث رقم ٢٣٩٧٢، وصححه شعيب الأرنؤوط في

حكمه على أحاديث المسند، ورواه البيهقي، شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، وقال: "في هذا

الإسناد بعض من يجهل، عن جابر" ٤ / ٢٨٩، حديث رقم ٥١٣٧، وصححه الألباني في السلسلة

الصحيحة برقم ٢٧٠٠، وفي صحيح الترغيب، برقم ٢٩٦٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رواه

أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، ٣ / ٥٨٦.

٣- سبق تخريجه.

في البلاد الإسلامية بوصفها ضابطا للتعايش بينهما، من خلال نصوص السنة النبوية المطهرة، يلحظ أنها تمثل قطب الرحي، وأس البناء، كما تعدّ ضمانا حقيقية لحماية الوطن من الفتن، والقلق التي تعصف بأمنه، واستقراره، وذلك لأن هذا المواطن إذا شعر أنه مواطن من الدرجة الثانية، وأنه لا يجني الحقوق نفسها التي ينعم بها مواطنه، وأنه تفرض عليه واجبات زائدة، غير التي تفرض على غيره من الساكنة، فإن هذا سيجعل منه مواطنا ناقما، تملأ نفسه الأحقاد، غير مخلص لهذا الوطن الذي أهدر حقوقه، وعامله معاملة تمييزية، ما ينعكس على أمن الوطن وحمايته واستقراره، ورقبه، فيصبح هذا المواطن الذي يشعر بالضميم يفكر في الانتفاض على هذا الوضع، وقد ينسق مع أمثاله ممن هم في مثل وضعيته، فيثبون في الوطن القلاقل والفتن بدافع استرداد هذه الحقوق الضائعة، وهذا دون ريب يُؤثر على سلامة حماية الوطن، ويضرب طمأنينة قاطنيه في مقتل، ما يجعلنا نقول جازمين بأن تمثل قيمة المساواة بين ساكنة الوطن الواحد، هي بمثابة صمام الأمان لاستقرار وحماية الأوطان.

**الخاتمة:** بعد دراستنا المتأنية لهذا الموضوع خلصنا إلى جملة من النتائج والتوصيات نوجزها فيما يأتي:

**أولا - أهم النتائج المتوصل إليها:** بعد دراسة هذا الموضوع، وبيان تفاصيله خلصنا إلى النتائج الآتية:

١ - ترسيخ الإسلام مبدأ احترام حق المواطنة في البلاد الإسلامية لأصحاب الملل الأخرى، فلا انتقاص لحق أحد بسبب كفره؛ إذ يتمتع هؤلاء بكامل الرعوية، فيعيشون في كنف دولة الإسلام مواطنين من الدرجة الأولى.

٢ - إقرار الإسلام لمبدأ التعايش السلمي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل والنحل الأخرى، ممن يجمعهم بهم وطن واحد، يعيش فيه الجميع في أمن وسلام ووثام.

٣ - إرساء الإسلام لمبدأ الشمولية في تعايش المسلمين مع مواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، فلم يكن هذا التعايش مقتصرًا على مجال بعينه، بل كانت دائرته رحبة، شاملة لجميع مناحي الحياة، الاجتماعية منها، والسياسية، والأسرية، والاقتصادية.

٤ - كفالة الإسلام لحق حرية مواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، من خلال عدم إكراههم على

- الدخول فيه ، بل وحماية دور عبادتهم وأماكنها، هذه الحرية التي تعد بحق ركنا شديدا في جسد التعايش بين مواطني البلاد الإسلامية، على اختلاف مشاربهم، ونزعاتهم الدينية.
- ٥ - إقرار الإسلام لمبدأ كبح جماح الحرية الدينية، إذا أخل أصحابها بالآداب والأخلاق، وعرضوا سلامة النظام العام، وسكينة المجتمع وأمنه للخطر، والاضطرابات.
- ٦ - إرساء الدين الإسلامي الحنيف لأسس التعايش بين مواطنيه، وذلك من خلال تطبيقه، وتحسينه لقيم العدل والمساواة في التعامل مع مخالفيه، فلا ظلم، ولابغي، ولا تمييز على أحد بسبب دينه، وقناعاته الفكرية.
- ٧ - عدُّ التعايش الديني بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، مرتكزا أساسا، وقاعدة صلبة، وحصنا منيعا لتأهيل مقومات حماية الوطن، وترسيخ سبل أمنه واستقراره.
- ثانيا - توصيات البحث:** بعد دراستنا لهذا البحث، وتتبع جزئياته، وإبراز أهم حثياته، تراءت لنا التوصيات الآتية:
- ١ - إدراج جملة من المساقات والمواد الدراسية في كل أطوار التعليم المختلفة، بدءا من المراحل الأولى، وانتهاء بالمرحلة الجامعية، تحتوي مضامينها على ترسيخ قيم التعايش، والتسامح، والسلام، والتراحم، والتآلف بين بني الإنسانية عموما، وساكنة الوطن الواحد خصوصا، بغض النظر عن اختلاف معتقداتهم، وأفكارهم، وقناعاتهم، وذلك من أجل بثّ هذه القيم في نفوس الناشئة، حتى يشبوا على تمثلها في واقعهم المعيش، فينعكس ذلك على أوطانهم أمنا، وسلما، ورفقا، وازدهارا، وتعايشا، وهذا على المستويين الداخلي، والخارجي.
- ٢ - إعداد مادة إعلامية توعوية، تبرز محاسن التعايش الديني بين بني البشر، وتبين فوائده على الإنسانية، وبثّها باحترافية كبيرة في وسائل التواصل المسموعة، والمرئية، من إذاعة، وتلفزيون، وشبكة عنكبوتية، حتى ينتشر الوعي بأهمية التعايش، والتسامح، في سلامة الأبدان، واستقرار الأوطان.
- ٣ - عقد جملة من المؤتمرات، والندوات الدورية، والمحاضرات، والأيام الدراسية، وإعداد بعض الكتيبات، والمطويات، والنشرية المظهرة للانعكاسات الحميدة للتعايش الديني على الأفراد، والمجتمعات والأوطان، يُتَوَخَّى فيها بساطة الأسلوب، وحسن العرض، ومراعاة مستويات

المخاطبين، حتى تنتفع بذلك غالبية شرائح أبناء الوطن، الذي يضمّ بين جنباته منتسبين له، يتبنون مللاً ونحلاً مختلفة، لكنهم يجمعهم فيه قاسم مشترك مُوَحِّدٌ، ومُوحِّدٌ، ألا وهو التساوي في المواطنة والانتماء للوطن.

٤ - إشباع المنظومة القانونية بالمواد التشريعية المؤصلة للتعايش الديني في البلاد الإسلامية بين شرائح أبناء الوطن من مختلفي المعتقدات، ووضع الآليات المساعدة على تنفيذ ذلك، بل وإدراج النصوص العقابية، الرادعة لمن ينتهك، أو يعتدي على حرمة هذا التعايش.

بعد عرضنا لهذه النتائج والتوصيات: نحسب أننا قد أمطنا اللثام، وكشفنا النقاب عن العديد من المسائل اللصيقة بالتعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة وترقية حماية الوطن من خلال نصوص السنة النبوية، قصد إبراز صورة الإسلام المشرقة، ومبادئه السامية، وتعاليمه المضيئة في تعامله، وتعايشه مع مواطنيه، من أصحاب الملل والنحل المختلفة، عسى أن يكون ذلك سببا في إماتة ما يثار ضد الإسلام من دعاوى مغرضة مزعومة، وأفكار حاقدة محمومة، وآراء مآكرة مسمومة، سائلين المولى عز وجل أن يتقبل عملنا هذا، ويجعله خالصا لوجهه الكريم، إنه سميع قريب مجيب، إذ به الاستعانة وعليه التكلان، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وأمته أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## قائمة المصادر والمراجع:

- آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة، عبد الهادي أبو ريذة، فصل اليهود والنصارى، ط ٥، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي.
- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، تحقيق، مجمع اللغة العربية. الكويت، دار الدعوة للنشر والتوزيع.
- ابن الأثير الجزري، أبو السّعادات، مجد الدين محمد بن المبارك (ت: ٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، إشراف وتقديم: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، الأثري، ط ١، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، جمادى الأولى، ١٤٢١ هـ.
- أحمد عباس، التعايش مع غير المسلمين، وأثره في الفكر الإسلامي، رسالة ماجستير، مخطوطة، بكلية أصول الدين العراق.
- الألباني، محمد ناصر الدين، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل. ط ١، بيروت، لبنان، المكتب الإسلامي، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.
- صحيح التزييب والترهيب، ط ٥، الرياض السعودية، مكتبة المعارف.
- صحيح الجامع، بيروت، لبنان، المكتب الإسلامي.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، ط ١، الرياض السعودية، مكتبة المعارف، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
- غاية المرام، ط ١، بيروت، لبنان، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح، بيروت، لبنان، دار المعرفة.
- البهوتي، منصور بن إدريس الحنبلي كشاف القناع عن متن الإقناع، ط ١، مصر، المطبعة المشرقية، ١٠٥١ هـ.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت: ٤٥٨ هـ)، السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصر، دار الكتب العلمية.
- شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد، ط ١، الرياض، المملكة العربية السعودية، مكتبة، الرشد، ٢٠٠٣ م.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (ت: ٢٧٩ هـ)، الجامع، مراجعة: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي.

- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النجراوي، مصر، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٠ م.
- التويجري، عبد العزيز بن عثمان، الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن ٢١، ط ٢، المملكة المغربية منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، ١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م
- تيسير خميس العمر، حرية الاعتقاد في ظل الإسلام، ط ١، دمشق دار الفكر، سوريا، وبيروت، لبنان دار الفكر المعاصر، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- الجرجاني، الشريف علي، التعريفات، ط ١، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣ م.
- الحصاص، أحمد بن علي الرازي الحنفي (ت: ٣٧٠ هـ)، أحكام القرآن، بيروت، لبنان دار الكتاب العربي.
- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله (ت: ٤٠٥ هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر، ط ١، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠ م.
- ابن حجر، أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت: ٨٥٢ هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رmqه: محمد فؤاد عبد الباقي، كما قام بإخراجه وتصحيح تجاربه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، بيروت. لبنان، دار المعرفة.
- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت: ٤٥٦ هـ)، المحلى، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان دار الآفاق الجديدة.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١ هـ)، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط ٢، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.
- خالد فهمي مصطفى، حرية الرأي والتعبير في ضوء الاتفاقيات الدولية والتشريعات الوطنية والشريعة الإسلامية وحرائم الرأي والتعبير، ط ١، الإسكندرية، مصر، دار الفكر الجامعي، ٢٠٠٨ م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ)، السنن. تحقيق: محيي الدين عبد الحميد. صيدا. بيروت. لبنان، المكتبة العصرية.
- الذهبي، شمس الدين بن محمد بن عثمان (ت: ٧٤٨ هـ)، المستخلص، ط ١، تحقيق: مصطفى عبد القادر، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠ م.
- ابن رشد (الجد)، محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٢٠ هـ)، المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات . بhamش المدونة، بيروت، لبنان دار الفكر.

- الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد (ت: ٥٣٨ هـ)، الفائق في غريب الحديث، تحقيق: علي بن محمد، ط٢، بيروت، لبنان دار المعرفة.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت: ٩٠٢ هـ)، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، بيروت لبنان، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤ م.
- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، تحقيق وتعليق الشيخ: علي حسين علي، ط٢، القاهرة، مصر، دار، الإمام، الطبري، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.
- سعدى محمد الخطيب، حرية المعتقد وأحكامها التشريعية وأحوالها التطبيقية وأهميتها في حوار الأديان، ط١، بيروت، لبنان، منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠١١ م.
- صبحي أفندي الكبيسي، وعبدالله حسن الحديثي، الوسائل الاقتصادية في التعايش مع غير المسلمين في الفقه الإسلامي، مجلة مداد الآداب، العدد ٣.
- صبحي عبده سعيد، السلطة والحرية في النظام الإسلامي - دراسة مقارنة -، القاهرة، مصر، دار الفكر العربي.
- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، بيروت، لبنان دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢.
- الطبري، محمد بن جرير (ت: ٣١٠ هـ)، جامع البيان في تفسير القرآن. بيروت، لبنان، دار الفكر ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.
- تاريخ الأمم والملوك، ط١، بيروت، لبنان دار الكتب العلمية، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- الطرطوشي، محمد بن الوليد بن خلف الفهري المالكي، المعروف بأبي بكر الطرطوشي أو ابن أبي رندقة (ت: ٥٢٠ هـ)، سراج الملوك، تحقيق، محمد فتحي أبي بكر، تقديم، شوقي ضيف، ط١، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية. ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م
- عاصم أحمد عجيلة، حرية الفكر وترشيد الواقع الإسلامي، ط٣، مصر، مطابع نهضة مصر، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.
- أبو عبيد، القاسم بن سلام البغدادي (المتوفى، ٢٢٤ هـ)، الناسخ والمنسوخ.
- العيني، بدر الدين، محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد الحنفي (ت: ٨٥٥ هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتر، ط١، ١٩٥٦ م.



## التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة ...

- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت: ٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.
- الفقي، محمد علي عثمان فقه المعاملات. دراسة مقارنة.، ط ٢، القاهرة، مصر دار المريخ.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ الرافعي الفيومي (ت: ٧٧٠ هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بيروت. لبنان دار القلم.
- القراني، شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي (ت: ٦٨٤ هـ)، الفروق، بيروت لبنان، دار المعرفة.
- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (ت: ٦٧١ هـ)، الجامع لأحكام القرآن. ط ٢، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤ هـ)، تفسير القرآن العظيم. ط ٣، حائل، السعودية، دار الأندلس، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
- السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، بيروت، لبنان دار المعرفة.
- البداية والنهاية، بيروت، لبنان مكتبة، المعارف.
- الموردي، علي بن محمد حبيب (ت: ٤٥٠ هـ)، أدب الدنيا والدين، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، مصر، الدار المصرية اللبنانية.
- محمد فوزي فيض الله، الفقه الإسلامي وفق منهج السنة الرابعة من كلية الشريعة بجامعة دمشق. ط ٢، دمشق، سوريا، مطبعة طربين، ١٣٩٨ هـ/١٩٧٧. ١٩٧٨ م.
- مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١ هـ)، الجامع الصحيح. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة، مصر، و بيروت. لبنان، دار الكتاب المصري. ودار الكتاب اللبناني.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، تمت زيارة موقعه بتاريخ، ١٤ / ٠٨ / ٢٠١٨ م  
www.maajim.com/dictionary
- معجم المعاني الجامع، تاريخ الزيارة هو، ١٤ / ٠٨ / ٢٠١٨. ar-ar. dict. almaany.com
- مليحة عوني الصغير ومعن خليل العمر، مدخل إلى علم الاجتماع العام، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨١ م.
- ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم بن علي (ت: ٧١١ هـ)، لسان العرب، تقديم: عبد الله العلابي، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، بيروت، لبنان، دار لسان العرب.

- منيب محمد ربيع، ضمانات الحرية في النظام الإسلامي وتطبيقاته، ط ٤، القاهرة، مصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م.
- الموسوعة العربية العالمية، الرياض، السعودية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٩٩٦ م.
- ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، إرساء قواعد التسامح، المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.
- نور الدين بن محمد بن الطاهر بن يريح، أساليب التعامل مع الخصوم في ضوء السنة النبوية - دراسة تحليلية -، إربد، الأردن، دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٥ م.
- ابن هشام، محمد بن عبد الملك بن هشام (ت: ٢١٣ هـ)، السيرة النبوية، ط ٢، القاهرة، مصر، دار الفجر للتراث، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (ت: ٨٠٧ هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسين أحمد صالح، ط ١، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، مركز السنة والسيرة، ١٩٩٣ م.
- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، الموسوعة الفقهية لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م.
- وهبة الزحيلي، حق الحرية في العالم، ط ١، دمشق، سوريا، دار الفكر، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب القاضي (ت: ١٨٢ هـ)، الخراج، بيروت، لبنان دار المعرفة.

موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا Wikipedia.org

www.maajim.com/dictionary.

www.almaany.com/ar/dict/ar-ar

www.drakem.com/Portals/Content/?info=T0RBekpsTjFZzEJoWjJVbU1RPT0rdQ==.jsp

# حِمْيَاةِ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَبَادِيُ وَالْمُنْطَلَقَاتُ

الدكتورة / كريمة محمد سوداني  
أستاذ مساعد / زائر ومتعاون الجامعة القاسمية-الإمارات  
الجمهورية الجزائرية





## المقدمة

الحمدُ لله وَهَبِ النَّعْمَ، وَمُزِيلِ النَّعَمِ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى قَائِدِ الْأُمَمِ، وَرَافِعِ الْهِمَمِ، الْإِمَامِ الْأَشْمِ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَا بَعْدُ،

فَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَابْتَلَاهُ بِالْأَكْلِ مِنْ شَجَرَةِ الْجَنَّةِ الَّتِي كَانَتْ الْبَدَايَةَ لِهَبُوطِهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَاسْتِخْلَافِهِ فِيهَا، بِإِعْمَارِهَا وَتَطْبِيقِ هُدَى اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٦) فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ [البقرة: ٣٦-٣٨]، فَقَدْ عَبَّرَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنْ سُكْنَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُرِّيَّتِهِ فِي الْأَرْضِ بِلَفْظِ الْاسْتِقْرَارِ، وَهُوَ مِنَ الْقَرَارِ؛ أَي: الثَّبَاتِ وَالْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ، دَلَالَةً عَلَى أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ سِوَاءٍ أَكَانَ فَرْدًا أَمْ جَمَاعَةً لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَكَانٍ يَعْشُرُ فِيهِ، وَيَكُونُ لَهُ مَوْثَلًا يَنْعَمُ فِيهِ بِالْحَيَاةِ الْهَنِئِيَّةِ.

مِنْ هُنَا جَاءَتْ فِكْرَةُ الْاَوْطَانِ، الَّتِي تُعَدُّ حِمَايَتَهَا مَقْصِدًا شَرْعِيًّا لَا غَنَى عَنْهُ فِي قِيَامِ حَيَاةِ الْاَفْرَادِ وَالْمَجْتَمَعَاتِ، وَقَدْ جَاءَتْ الشَّرِيعَةُ الْاِسْلَامِيَّةُ الْغَرَاءُ بِمَا يَضْمَنُ السَّلَامَةَ وَالْاَمْنَ وَالْاَمَانَ فِي ظِلِّ تِلْكَ الْاَوْطَانِ.

وَعَلَيْهِ يَأْتِي هَذَا الْبَحْثُ لِلْمُشَارَكَةِ بِهِ فِي مَوْتَرٍ: "حِمَايَةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضُرُورَةٌ مَجْتَمَعِيَّةٌ"، بِعَنْوَانٍ: "حِمَايَةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ - الْمَبَادِئُ وَالْمُنْطَلَقَاتُ"، وَذَلِكَ ضَمْنًا: الْمَحْوَرِ الثَّانِي: أُسُسُ حِمَايَةِ الْوَطَنِ وَمُقَوِّمَاتُهَا فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.

أَهْمِيَّةُ الْبَحْثِ: إِنَّ حُبَّ الْوَطَنِ لَيْسَ مَجْرَدَ دَعْوَى بِاللِّسَانِ لَا يَصِدِّقُهَا إِيمَانٌ بِالْقَلْبِ أَوْ عَمَلٌ بِالْجَنَانِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُبْنَى عَلَى أُسُسٍ وَمَبَادِئٍ وَمُنْطَلَقَاتٍ يَتَّفِقُ عَلَيْهَا أُنْبَاءُ الْمَجْتَمَعِ الْوَاحِدِ، وَأَفْرَادُ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ، لِتَنَالَ حَظَّهَا مِنَ التَّطْبِيقِ فِي الْوَاقِعِ الْعَمَلِيِّ، وَهَذِهِ الْأُسُسُ وَالْمَبَادِئُ لَيْسَتْ إِلَّا صَمَامَ الْأَمَانِ لِحَيَاةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ آمِنَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ، خَالِيَةٍ مِنَ الْآفَاتِ وَالْانْحِرَافَاتِ، وَلِذَلِكَ وَجَبَ بَيَانُ هَذِهِ

المبادئ والأسس من خلال سيرة الرسول ﷺ وسنته، واستلهاها في واقعنا المعاصر.

### أهداف البحث:

١. توضيح معاني الوطن والمواطنة وما يتعلق بهما.

٢. بيان أهمية الوطن من خلال السنة النبوية.

٣. تحديد مبادئ حماية الوطن في السنة النبوية ومُنطلقاتها.

واعتمدت في إنجاز هذا البحث منهجين هما: الاستقراء والوصف؛ بوصفهما الأنسب في معالجة قضايا هذا البحث وحيثياته.

**الدراسات السابقة:** لم يتوفّر لديّ -فيما اطّلعْتُ عليه- دراساتٌ علميّةٌ سابقةٌ عن موضوع البحث، سوى مقالٍ بعنوان "حبّ الوطن في ضوء السنة النبوية" للباحثة د. ليلي محمد اسليم، نُشر بمجلة "جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات"، العدد ٤، يناير ٢٠١٣، وهو بحثٌ كما يظهر من عنوانه مُخصّصٌ لِحُبِّ الوطن من خلال السنة النبوية، قامت فيه الباحثة بجمع الأحاديث النبوية الشريفة التي تحدّثت أو أشارت إلى حُبِّ الوطن، وقد ذكرت في مُقدمته أنّ أهميته تكمن في إغفال الدراسات الحديثة لهذا الموضوع (طبعا هذا كان سنة ٢٠١٣ م وما قبلها)، وكذلك إلقاء الضوء على مظاهر حُبِّ الوطن التي تُشكّل حُقوقا للوطن والمواطنين، كما أنّها لخصت أهداف بحثها في: إظهار مدى اعتناء السنة النبوية بعُرسِ قيم حُبِّ الوطن في نفوس المسلمين، وأنّ السنة النبوية شملت كلّ شيءٍ، ومنها حُبُّ الوطن.

**الإضافة العلمية لهذا البحث:** أما بالنسبة إلى البحث الذي بين أيدينا، فيتميّز بتقسيماتٍ وتفصيلاتٍ واضحةٍ لعناصره من حيث إيراد تعريفاتٍ مُتعلّقةٍ بالوطن والمواطنة وحماية الوطن، وإضافةً أحاديثٍ أخرى دالّةٍ على الموضوع، مع حُسنِ التّقسيمِ لِلدلائلِ الأحاديثِ النبويةِ على الموضوعات التي سيقّت فيها، بالإضافة إلى إفرادِ عنوانٍ خاصٍّ بمبادئ ومُنطلقاتِ حماية الوطن في السنة النبوية كما يظهُرُ مِنْ حِطّته.

## المبحث الأول: مَفْهُومُ الْوَطَنِ وَالْمُواطِنَةِ وَحِمَايَةِ الْوَطَنِ

إنَّ الحديثَ عن موضوعِ مباديِّ حِمَايَةِ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَمُنْطَلَقَاتِهَا يَسْتَدْعِي ابْتِدَاءَ تَحْدِيدِ مَعْنَى "الْوَطَنِ"، الَّذِي هُوَ مِفْتَاحُ هَذَا الْبَحْثِ وَأَسَاسُهُ، كَمَا أَنَّ كَلِمَةَ "الْمُواطِنَةِ" وَهِيَ أَحَدُ اشْتِقَاقَاتِ كَلِمَةِ "وَطَنٍ" لَا غِنَى عَنْهَا فِي دِرَاسَةِ هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَبَيَانِ مَعْنَى "حِمَايَةِ الْوَطَنِ" اسْتِكْمَالًا لِبَيَانِ مُصْطَلَحَاتِ الْبَحْثِ، وَعَلَيْهِ سَابِقًا بِتَعْرِيفِ "الْوَطَنِ" فِي الْاسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ وَالشَّرْعِيِّ وَالِاصْطِلَاحِيِّ، ثُمَّ أَعْرَضُ لِلْمُواطِنَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَكَذَا أُبَيِّنُ مَعْنَى حِمَايَةِ الْوَطَنِ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ عُنَاصِرٍ فِي هَذَا الْمَبْحَثِ:

أولاً: مَفْهُومُ الْوَطَنِ لُغَةً. ثانياً: مَفْهُومُ الْوَطَنِ فِي الْاسْتِعْمَالِ الشَّرْعِيِّ وَالِاصْطِلَاحِيِّ. ثالثاً: الْمُواطِنَةُ وَأُسُسُهَا. رابعاً: مَعْنَى حِمَايَةِ الْوَطَنِ. وأبدأ مع العنصر الأول.

أولاً: مَفْهُومُ الْوَطَنِ لُغَةً: جاء في معجم مقاييس اللغة: "الواوُ والطاءُ والنون: كلمةٌ صحيحةٌ. فالوَطَنُ: مَحَلُّ الْإِنْسَانِ. وَأَوْطَانُ الْعَنَمِ: مَرَابِضُهَا، وَأَوْطَنْتُ الْأَرْضَ: اتَّخَذْتُهَا وَطَنًا"<sup>(١)</sup>.

وقال في لسان العرب: "الوَطَنُ: الْمَنْزِلُ تُقِيمُ بِهِ، وَهُوَ مَوْطِنُ الْإِنْسَانِ وَمَحَلُّهُ... وَالْجَمْعُ أَوْطَانٌ... وَأَوْطَنَهُ: اتَّخَذَهُ وَطَنًا، يُقَالُ: أَوْطَنَ فُلَانٌ أَرْضَ كَذَا وَكَذَا، أَيْ: اتَّخَذَهَا مَحَلًّا وَمَسْكَنًا يُقِيمُ فِيهَا"، قال: "أَمَّا الْمَوَاطِنُ: فَكُلُّ مَقَامٍ قَامَ بِهِ الْإِنْسَانُ لِأَمْرٍ فَهُوَ مَوْطِنٌ لَهُ، كَقَوْلِكَ: إِذَا أَتَيْتَ فَوْقَ قَمْتٍ فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ فَادْعُ اللَّهَ لِي وَإِلْحَاوَانِي"<sup>(٢)</sup>.

فمِمَّا سَبَقَ يَتَّضِحُ أَنَّ الْوَطَنَ مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّغَوِيَّةِ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَسْكُنُهُ الْإِنْسَانُ وَيُقِيمُ فِيهِ، بَعْضُ النَّظَرِ عَنْ كَوْنِ هَذَا الْمَكَانِ هُوَ أَصْلُ مَوْلِدِهِ أَوْ مَوْلِدِ آبَائِهِ، أَمْ لَا، مَكَثَ فِيهِ مُدَّةً طَوِيلَةً، أَمْ لَا.

ثانياً: مَفْهُومُ الْوَطَنِ فِي الْاسْتِعْمَالِ الشَّرْعِيِّ وَالِاصْطِلَاحِيِّ: جاء الاستعمالُ الشَّرْعِيُّ لِاشْتِقَاقِ كَلِمَةِ "وَطَنٍ" فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾

١- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١٢٠/٦.

٢- ابن منظور، لسان العرب، ٤٥١/١٣.

[التوبة: ٢٥]، والمواطنُ هنا المقصودُ بما: "مقاماتُ الحربِ ومواقفُها"، قاله في البحر المحيط<sup>(١)</sup>، وهي أيضاً: الأماكن<sup>(٢)</sup>، والمشهدُ من مشاهدِ الحربِ<sup>(٣)</sup>.

أما في الحديثِ الشريفِ: فحَاءَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَهَيَّ عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَأَفْتَرَشَ السَّبِيحَ، وَأَنَّ يُوطَّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ فِي الْمَسْجِدِ كَمَا يُوطَّنُ الْبَعِيرُ<sup>(٤)</sup>. واحتُلفَ في معناه على قولين: الأول: "أن يَأْلَفَ الرَّجُلُ مَكَانًا مَعْلُومًا مِنَ الْمَسْجِدِ، مَخْصُوصًا بِهِ، يُصَلِّي فِيهِ، كَالْبَعِيرِ لَا يَأْوِي مِنْ عَطَنِ<sup>(٥)</sup> إِلَّا إِلَى مَبْرَكٍ دِمَّتِ<sup>(٦)</sup>، قَدْ أَوْطَنَهُ وَاتَّخَذَهُ مَنَاحًا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنْ يَبْرُكَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ قَبْلَ يَدَيْهِ إِذَا أَرَادَ السُّجُودَ مِثْلَ بُرُوكِ الْبَعِيرِ"<sup>(٧)</sup>.

١- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، ٣٩٢/٥.

٢- ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ٤١٣/٣. وبهذا المعنى روى الإمام البخاري عن أبي بكر ﷺ، قال يزيد بن ثابت ﷺ: "إِنَّ عَمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخَشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَاءِ فِي الْمَوَاطِنِ...". البخاري: تفسير القرآن، بابُ قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، "مِنَ الرَّأْفَةِ"، ٧١/٦ (٤٦٧٩).

٣- ابن منظور، لسان العرب، ٤٥١/١٣.

٤- من حديث عبد الرحمن بن شبل، أخرجه: أبو داود وسكت عنه: أَبْوَابُ تَفْرِيعِ اسْتِفْتَاكِ الصَّلَاةِ، بَابُ صَلَاةٍ مَنْ لَا يُقِيمُ صَلَاتَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ٢٢٨/١ (٨٦٢)؛ والنسائي: التَّطْبِيقُ، بَابُ التَّهَيُّيِّ عَنِ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، ٢١٤ / ٢ (١١١٢)؛ وابن ماجه: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ، وَالسُّنَّةُ فِيهَا، بَابُ مَا جَاءَ فِي تَوْطِينِ الْمَكَانِ فِي الْمَسْجِدِ يُصَلِّي فِيهِ، ١ / ٤٥٩ (١٤٢٩)؛ وأحمد، المسند، ٢٤ / ٢٩٢ (١٥٥٣٢، ١٥٥٣٣)، ٤٣٩/٢٤ (١٥٦٦٧)، ١٦٩/٣٩ (٢٣٧٥٨). وقد ضَعَّفَ الحديث بسبب تميم بن محمود الأنصاري، قال فيه البخاري: "في حديثه نظر"، وقال العقيلي: "لا يتابع عليه". انظر: الضعفاء الكبير، ١٤/٢-١٥، وابن حجر، تهذيب التهذيب، ١ / ٤٥١ (٩٥٧).

٥- "العَطْنُ، مُحَرَّكَةٌ: وَطْنُ الْإِبِلِ، وَمَبْرَكُهَا حَوْلَ الْحَوْضِ، وَمَرِيضُ الْغَنَمِ حَوْلَ الْمَاءِ، جَمْعُهَا: أَعْطَانٌ كَالْمَعْطَنِ، جَمْعُهَا: مَعَاظِنٌ". الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ١١٢١.

٦- قال في القاموس: "دِمَّتِ الْمَكَانُ وَغَيْرُهُ، كَفَرِحَ: سَهَّلَ وَلَا نَ. وَالِدِمَامَةُ: سُهُولَةُ الْخُلُقِ". الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ١٦٨.

٧- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤٤١/٥. وانظر: العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ٧٣ / ٣. قال: "الْوَجْهُ الثَّانِي لَا يَصِحُّ هَا هُنَا؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مُشَبَّهًا بِهِ، وَأَيْضًا لَوْ كَانَ أُرِيدَ هَذَا الْمَعْنَى لَمَا اخْتَصَّ التَّهَيُّ بِالْمَكَانِ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا دُكِّرَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ الْأَوَّلُ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَحَكَمْتُهُ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى الشُّهُرَةِ وَالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ وَالتَّقْيِيدِ بِالْعَادَاتِ وَالْحُظُوظِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكُلُّ



فالحاصلُ أنَّ "الوَطْنَ" في الاستعمال الشرعي لا يبعدُ عنه من الناحية اللغويَّة: وهو المكان الذي يوطنه الرَّجُلُ ويَتَّخِذُهُ مكانًا للإقامة والعيش فيه.

أما من الناحية الاصطلاحية، فنجدُ من التَّعريفات:

- تعريف الجرجاني: "الوَطْنُ الأصلي: هو مَوْلِدُ الرَّجُلِ، والبلدُ الذي هو فيه"<sup>(١)</sup>.

- تعريف أبي البقاء الكفوي، قال: "المَوْطِنُ: كلُّ مقامٍ قامَ فيه الإنسانُ لأمرٍ ما فهو مَوْطِنٌ له"<sup>(٢)</sup>.

- وفي المعجم الفلسفي يقول: "الوَطْنُ بالمعنى العام: منزلُ الإقامة، والوَطْنُ الأصلي: هو المكانُ الذي وُلِدَ به الإنسانُ، أو نشأَ فيه، والوَطْنُ بالمعنى الخاص: هو البيئة الروحيَّة التي تتَّجِهُ إليها عواطفُ الإنسانِ القومِيَّة"<sup>(٣)</sup>.

والذي نلخصُ إليه من خلال ما سبق، أنَّه يُمكنُ صياغةُ مفهومِ عامِّ للوَطْنِ بأنَّه: المكانُ الذي يُقيمُ فيه الإنسانُ مُدَّةً، ويكونُ منزلًا ومُستقرًّا له. ولا يُشترطُ بعدَ ذلكُ أن يكونَ هذا الوطنُ هو منشؤهُ الأصلي ومكانُ ولادته، أم لا.

---

هَذِهِ آفَاتٌ أَيْ آفَاتٍ، فَتَعَيَّنَ الْبُعْدُ عَمَّا أَدَّى إِلَيْهَا مَا أَمَكْنَ". اهـ. وذكر ابن الأثير حديثًا آخر بلفظ: "نهى عن إبطان المساجد"، قال: "أَي اتَّخَاذِهَا وَطْنًا". ومنه الحديث في صِفَتِهِ ﷺ "كان لا يُوطِنُ الأَمَاكِنَ"، "أَي لا يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ مَجْلِسًا يُعْرِفُ بِهِ". النَّهْيَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، ٤٤١/٥.

١- التَّعْرِيفَاتِ، ص ٣٢٧.

٢- أَبُو الْبَقَاءِ الْكُفَوِيُّ، الْكُلِّيَّاتِ، ص ٨٠٣.

٣- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ٥٨٠/٢. وربط مفهوم الوطن بالمعنى الخاص بالقومية، إنما بالنظر إلى ظهور الحركات الاستقلاليَّة الحديثة والمعاصرة، والتي تتَّخِذُ من وَحْدَةِ اللُّغَةِ، أو الرُّقْعَةِ الجُغْرَافِيَّةِ، أو الأهدافِ الاقتصاديَّةِ، أو السِّيَاسِيَّةِ، أو غير ذلك من الرِّوَابِطِ الوَضْعِيَّةِ، جامِعًا لها، وهذا مخالفٌ لما جاء في أصل منشأ مفهوم الوطن. انظر في تعريف القومية وأصل نشأتها: غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، ٩٠٩/١.

### ثالثا: المُوَاطَنَة وَأُسُسُهَا

المُوَاطَنَة لُغَةً: هي مأخوذة في العربية من كلمة "وَطَن" التي عرّفناها سابقا، ومن الناحية الصَّرْفِيَّة، فإنَّ كلمة "مُوَاطَنَة" على وزن "مُفَاعَلَة"، هذه الصيغة التي تحملُ صِفَةَ المِشَارَكَةِ والتَّفَاعُلِ، مِنْ وَاطَنَ، قال في لسان العرب: "وَاطَنُهُ عَلَيَّ الأَمْرُ: أَضْمَرَ فِعْلُهُ مَعَهُ، فَإِنْ أَرَادَ مَعْنَى وَافَقَهُ قَالَ: وَاطَاهُ. تَقُولُ: وَاطَنْتُ فُلَانًا عَلَيَّ هَذَا الأَمْرَ، إِذَا جَعَلْتُمَا فِي أَنْفُسِكُمَا أَنْ تَفْعَلَاهُ [...]، وَقِيلَ: وَطَنَ نَفْسَهُ عَلَيَّ الشَّيْءِ وَلَهُ، فَتَوَطَّطْتُ، حَمَلَهَا عَلَيْهِ"<sup>(١)</sup>.

ويقابل المُوَاطَنَة باللغة الإنجليزية Citizenship<sup>(٢)</sup>، وترجمتها الحرفية "المدينة"، وهي مشتقة من الكلمة اليونانية "Politeia" المشتقة بدورها من كلمة "Polis"، أي المدينة، كما هو واضح من اشتقاق الكلمة؛ لأنّها في أصل اشتقاقها Citizenship<sup>(٣)</sup> الآتي من كلمة "City"، وهو ذاتُ المعنى، أي المدينة<sup>(٤)</sup>.

أما من الناحية الاصطلاحية: فهناك عدّة تعريفات للمُوَاطَنَة، منها<sup>(٥)</sup>:

- "المكان الذي يستقر فيه الفرد بشكلٍ ثابتٍ داخل الدولة، أو يحمل جنسيتها ويكون مشاركا في الحكم، ويخضع للقوانين الصادرة عنها، ويتمتع بشكلٍ متساوٍ دون أي نوع من التمييز - كاللون أو اللغة - مع بقية المواطنين بمجموعة من الحقوق، ويلتزم بأداء مجموعة من الواجبات تجاه الدولة التي ينتمي إليها، بما تشعره بالانتماء إليها".
- "العلاقة بين فردٍ ودولةٍ كما يُحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمّن تلك العلاقة من واجباتٍ وحقوقٍ في تلك الدولة".

١- ابن منظور، لسان العرب، ٤٥١/١٣. وانظر: وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، الموسوعة الفقهية، ٢١٩/٣٩ (مواطن الإجابة).

٢- موقع إلكتروني: <https://en.wikipedia.org/wiki/Politeia>

٣- تُنظر هذه التعريفات: صلاح الدين سلطان، المُوَاطَنَة في غير ديار الإسلام، ص ١٣-١٤؛ وأحمد سُعيّفان، قاموس المصطلحات السياسية والدستورية، ص ٣٧٧، والموسوعة السياسية؛ موقع إلكتروني، <https://political-encyclopedia.org/dictionary/%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%88%D8%A7%D8%B7%D9%86%D8%A9>

- "التَّمَتُّعُ بِالْحُقُوقِ الْمَدَنِيَّةِ الْمُرْتَبِطُ بِالْجِنْسِيَّةِ".
- "عُضُويَّةٌ كَامِلَةٌ فِي دَوْلَةٍ أَوْ فِي بَعْضِ وَحَدَاتِ الْحُكْمِ، بِحَيْثُ لَا تُتَمَيِّزُ بَيْنَ الْمَوَاطِنِ وَالْجِنْسِيَّةِ".
- من خِلالِ هَذِهِ التَّعْرِيفَاتِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَفْهُومَ الْمُوَاظَنَةِ خَاضِعٌ لِقَانُونِ كُلِّ دَوْلَةٍ وَمَا يُنْصَحُ عَلَيْهِ دُسْتُورُهَا، الَّذِي لَهُ ارْتِبَاطٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ بِمَا يُعْرَفُ بِالْجِنْسِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ تَقْسِيمُ الْمُوَاظَنَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ:

**مُوَاظَنَةٌ عَامَّةٌ:** وَهِيَ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ الْوَاحِدِ وَالِدَوْلَةِ الَّتِي يَعْشَوْنَ عَلَى أَرْضِهَا ذَاتِ الْحُدُودِ الْجُغْرَافِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ، وَلَهَا قَوَانِينُ مُعَيَّنَةٌ، تَتَّحَدَّدُ بِمُوجِبِهَا الْحُقُوقُ وَالْوَاجِبَاتُ.

**مُوَاظَنَةٌ خَاصَّةٌ:** وَهِيَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِمَنْحِ الدَوْلَةِ الْجِنْسِيَّةِ لِأَفْرَادِهَا بِمَا يَكْفُلُ لَهُمْ مَزِيدًا مِنَ الْحُقُوقِ وَأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ.

وَبِذَلِكَ يَكُونُ جَمِيعُ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ عَلَى اخْتِلَافِ مَشَارِبِهِمْ، الَّذِينَ يَعْشَوْنَ عَلَى أَرْضٍ وَاحِدَةٍ، وَتَرْتِطُهُمْ مَبَادِيٌّ وَمَفَاهِيمٌ مُشْتَرَكَةٌ، لَهُمْ دَوْرٌ أَسَاسِيٌّ وَمُشَارَكَةٌ إِبْجَائِيَّةٌ وَفَعَالَةٌ فِي خِدْمَةِ الْأَرْضِ وَالِدَوْلَةِ الَّتِي يَنْتَمُونَ إِلَيْهَا، وَيَتَنَوَّعُ هَذَا الدَّوْرُ بِتَنَوُّعِ الصَّفَةِ الَّتِي تَمْنَحُهَا هَذِهِ الدَوْلَةُ لِأَفْرَادِ مَجْتَمَعِهَا؛ إِنْ كَانَتْ رَابِطَةً الْجِنْسِيَّةِ، أَوْ الْإِقَامَةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>.

أَمَّا أُسُسُ الْمُوَاظَنَةِ الْعَامَّةِ فِي الْإِسْلَامِ، فَهِيَ الَّتِي تَتَحَقَّقُ بِهَا مَصَالِحُ الْأُمَّةِ، وَتُحْفَظُ بِهَا مَكَاسِبُهَا وَثَرَوَاتُهَا فِي عُنْصُرَيْهَا الْبَشَرِيِّ وَالْمَادِيِّ، وَهَذَا الْمَفْهُومُ جَاءَتْ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ تُعَضِّدُهُ وَتُؤَيِّدُهُ، نَلْحَظُ ذَلِكَ فِي أُسَاسِينَ مِنْ أُسُسِ بِنَاءِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، هُمَا:

- **الْأُخُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ:** وَهِيَ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِوَحْدَةِ الْأَصْلِ وَالْمُنَشَأِ: وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١٠١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، وَفِي حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: "... النَّاسُ بَنُو آدَمَ،

١- انظر: خليل حسين، موسوعة القانون الدولي العام، ١/٩٨-٩٩.

وَأَدَمَ مِنْ تُرَابٍ...<sup>(١)</sup>، كما أوضح ﷺ أَنَّ التَّمْيِيزَ العُنْصُرِيَّ لِعِرْقٍ، أَوْ لَوْنٍ، إِنَّمَا هُوَ مَحْضٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ العُفْرَانِيِّ ﷺ، عِنْدَمَا سَأَبَ بِلَالاً ﷺ، فَعَبَّرَهُ بِأَمِّهِ، فَقَالَ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ ﷺ: "يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأَمِّهِ؟ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"<sup>(٢)</sup>.

- الأَخُوَّةُ الدِّينِيَّةُ: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال ﷺ فيما يرويه عنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسَلِّمُهُ..."<sup>(٣)</sup>.

فهذان الأساسان كفيلا يَجْعَلُ جميع أفراد المجتمع الإسلامي الواحد، والذين يَسْكُنُونَ وَطَنًا واحدًا، يَتَعَاوَنُونَ وَيَتَحَدُونَ عَلَى تَقْدِيمِ كُلِّ مَا هُوَ نَافِعٌ وَمُفِيدٌ، وَيُسَهِّمُ فِي ازْدِهَارِ البِلَادِ والعِبَادِ؛ لِأَنَّ المُواطَنَةَ الصَّالِحَةَ الَّتِي تَرْتَبُطُ أَفْرَادَ الوَطَنِ الوَاحِدِ تَقْتَضِي المِشَارَكَةَ فِي بِنَائِهِ، وَإِحْلَالَ السَّلَامِ والأَمَانِ بَيْنَ سُكَّانِهِ.

#### رابعاً: مَعْنَى حِمَايَةِ الوَطَنِ

أصل اشتقاق "الحماية" من الفعل "حمى"، قال في القاموس "حمى الشيء، يحميه، حمياً، وحمائيةً، بالكسر، وحميةً: منعه. وكلاً حمى، كرضى: حمى. وقد حماه حمياً وحميةً وحمائيةً، بالكسر، وحمومة. وحمى المريض ما يضره: منعه إياه، فاحتَمَى وَحَمَى: امتنع. والحمى كغني: المريض الممنوع

١- أبو داود: الأدب، باب في التفأخر بالأحساب، ٤/٩٢٢ (٥١١٨)؛ والترمذي واللفظ له: المناقب، باب في فضل الشام واليمن، ٥/٧٣٥ (٣٩٥٦)، وقال: وهذا - وهو حديث سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، والذي قال فيه: حسن غريب - أصح عندنا من الحديث الأول - أي حديث سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه. - وسعيد المقبري قد سمع أبا هريرة ويروي عن أبيه أشياء كثيرة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البخاري في مواضع، منها: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، وَلَا يُكْفَرُ صَاحِبُهَا بِأَرْكَابِهَا إِلَّا بِالشَّرْكِ، ١/١٥٠ (٣٠)؛ ومسلم: الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، وَلَا يُكَلِّفُهُ مَا يَغْلِبُهُ، ٣/١٢٨٢ (١٦٦١).

٣- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البخاري: المظالم والغصب، باب: لَا يَظْلِمُ المُسلِمُ المُسلِمَ وَلَا يُسَلِّمُهُ، ٣/١٢٨ (٢٤٤٢)؛ ومسلم: البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/١٩٩٦ (٢٥٨٠).

مَّا يَضُرُّهُ، وَكُلُّ حَمِيٍّ وَمَنْ لَا يَحْتَمِلُ الضَّيْمَ. وَالْحَمِيَّ كَمَا إِلَى وَبُدُّ، وَالْحَمِيَّةُ بِالْكَسْرِ: مَا حَمِيَ مِنْ شَيْءٍ. وَالْحَامِيَّةُ: الرَّجُلُ يَحْمِي أَصْحَابَهُ، وَالْجَمَاعَةُ أَيْضًا: حَامِيَّةٌ. وَهُوَ عَلَى حَامِيَّةِ الْقَوْمِ أَي: آخِرُ مَنْ يَحْمِيهِمْ فِي مُضِيِّهِمْ. وَأَحْمَى الْمَكَانَ: جَعَلَهُ حَمِيًّا لَا يُقْرَبُ، أَوْ وَجَدَهُ حَمِيًّا<sup>(٤)</sup>.

بِالنَّظَرِ إِلَى هَذِهِ الْمَعَانِي الْمَذْكُورَةِ، فَإِنَّ حِمَايَةَ الْوَطْنِ هِيَ: مَنَعُهُ مِنْ كُلِّ مَا يُؤْذِيهِ أَوْ يَضُرُّهُ؛ إِنَّ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَادِّيَّةِ أَوْ الْمَعْنَوِيَّةِ، مِنْ حَيْثُ الْوُجُودِ، أَوْ الْعَدَمِ، وَبِالتَّالِي تَشْمَلُ الْحِمَايَةَ: كُلَّ فِعْلٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَقِّقَ لِلْوَطَنِ الْأَمْنَ وَالْأَمَانَ، وَالسَّلَامَ وَالسَّلَامَ، وَالْحِفَاظَ عَلَى ثِرَوَاتِهِ وَمُقَدَّرَاتِهِ، كَمَا يَضْمَنُ الْاسْتِقْرَارَ وَالطَّمَأْنِينَةَ وَالْعَيْشَ الْكَرِيمَ لِكُلِّ مَنْ يَعِيشُونَ عَلَى أَرْضِهِ، وَيَنْتَمُونَ إِلَيْهِ، وَيَنْتَفِعُونَ بِخَيْرَاتِهِ.

وهذه الحِمَايَةُ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْوَطْنُ، إِنَّمَا هِيَ نِتَاجُ مَا يَبْدُلُهُ مُوَاطِنُوهُ مِنْ جُهْدٍ وَكَدٍّ وَعَمَلٍ؛ إِذِ التَّدَاوُعُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَالدَّفَاعُ عَنِ الْأُوطَانِ وَاجِبٌ مَنُوطٌ بِسَاكِنِيهِ؛ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ، الَّذِينَ وَلَا بُدَّ تَرْتِيبُهُمْ وَشَائِجُ حُبِّ الْوَطَنِ، وَالتَّفَانِي فِي خِدْمَتِهِ، وَالْعَمَلِ عَلَى اسْتِقْرَارِهِ وَتَطَوُّرِهِ، وَلَا زَمَّ ذَلِكَ أَنَّ الْوَطْنَ مُهِمٌّ لِكُلِّ مَنْ الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ.

وَفِي الْمَبْحَثِ الثَّانِي حَدِيثٌ عَنِ أَهْمِيَّةِ الْوَطَنِ لِلْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ مِنْ خِلَالِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.

## المبحث الثاني: أَهْمِيَّةُ الْوَطَنِ لِلْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ فِي ضَوْءِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

لَا يُمَكِّنُ لِأَيِّ فَرْدٍ أَنْ يَعِيشَ خَارِجَ حُدُودِ وَطْنِهِ، لِأَنَّهُ اجْتِمَاعِيٌّ بِطَبْعِهِ، وَحَاجَتُهُ إِلَى الْمَجْتَمَعِ تَعْنِي ابْتِدَاءً حَاجَتَهُ إِلَى الْوَطَنِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ وَيُؤَلَّفُ مِنْ خِلَالِهِ عِلَاقَاتِهِ الْأُسْرِيَّةَ وَالاجْتِمَاعِيَّةَ، كَمَا وَيَسْتَثْمِرُ فِيهِ طَاقَاتِهِ وَإِمْكَانَاتِهِ، وَعَلَيْهِ نَبْذُ أَنَّ لِلْوَطَنِ أَهْمِيَّةً بِالْغَاةِ لِكُلِّ مَنْ الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ، يُمَكِّنُ تَلْخِيصُ أَبْرَزِهَا مِنْ خِلَالِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَطَهَّرَةِ فِيمَا يَأْتِي:

١. إِشْبَاعُ الْحَاجَةِ الْفِطْرِيَّةِ لِحُبِّ الْوَطَنِ: فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَكَهَا"، وَفِي زِيَادَةٍ: "حَرَكَهَا مِنْ حُبِّهَا"<sup>(٦)</sup>. وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا اقْتَرَبَ مِنَ الْمَدِينَةِ أَسْرَعَ السَّيْرَ وَحَتَّ دَابَّتَهُ بِسَبَبِ حُبِّهِ الْمَدِينَةَ

٤- القاموس المحيط، ص ١١٧٤. وانظر: لسان العرب، ١٤/١٩٧.

٥- أي طُرُقُهَا الْمَرْتَفَعَةَ. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٣/٢٢٠.

٦- البخاري: أبواب العمرة، بَابُ مَنْ أَسْرَعَ نَاقَتَهُ إِذَا بَلَغَ الْمَدِينَةَ، ٧/٣ (١٨٠٢).

وَشَوْقَهُ إِلَيْهَا<sup>(١)</sup>. فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حُبَّ الْوَطَنِ فِطْرَةٌ فِي الْإِنْسَانِ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ دَائِمٌ الْحَنِينَ إِلَيْهِ، وَإِنْ ابْتَعَدَ عَنْهُ لَشُغْلٍ شَاغِلٍ، لَمْ يَهِنَا حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي وَجَّهَنَا إِلَيْهِ رَسُولُنَا الْكَرِيمُ ﷺ فِي قَوْلِهِ: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ<sup>(٢)</sup> فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ"<sup>(٣)</sup>.

وفي حديثٍ بَدَأَ الْوَحْيِ عِنْدَمَا أَخْبَرَ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ الرَّسُولَ ﷺ بِأَنَّ قَوْمَهُ سَيُخْرِجُونَهُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أَوْ تُخْرِجِي هُمْ؟"<sup>(٤)</sup>، ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِيُخْرِجَ مِنْ بَلَدِهِ مَكَّةَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ دُونِ سَبَبٍ، وَأَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يَعِيشَ الْمَرْءُ فِي وَطَنِهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَأْلَفُهُ، بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ هَجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ بِسَبَبٍ إِخْرَاجِ قَوْمِهِ لَهُ، دَعَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُجِيبَ إِلَيْهِ وَإِلَى صَحَابَتِهِ وَطَنَهُمُ الْحَدِيدَ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ لَنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ"<sup>(٥)</sup>.

٢. إِشَاعَةٌ وَشَائِحِ الْأَلْفَةِ وَالتَّأْلِيفِ: وَمَا يَنْعَكُسُ مِنْ خِلَالِهَا عَلَى الْجَمْعِ مِنَ الْوَحْدَةِ وَالتَّعَاوُنِ وَالِإِحَاءِ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ: "مَا أَطْيَبَكَ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ"<sup>(٦)</sup>. فَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الشَّرِّكَ الَّذِي كَانَ يَسُودُ مَكَّةَ، وَالِإِيذَاءِ الَّذِي لَحِقَ رَسُولُنَا الْكَرِيمَ صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَلْفَ عَيْشِهَا، وَتَعَوَّدَ عَلَيْهَا بِمَا فِيهَا مِنْ شَجَرٍ وَحَجَرٍ، وَحَتَّى أَهْلِهَا عَبَّرَ عَنْهُمْ بِ"قَوْمِي"، وَلَمْ يَقُلْ فِي مُحَاطَتِهِ لِبَلَدِهِ الْحَبِيبِ مَكَّةَ: "قَوْمِكَ"، أَوْ "أَهْلِكَ"، وَهُمْ الَّذِينَ لَاقَى مِنْهُمْ شَتَّى أَنْوَاعِ الْأَذَى وَالصُّدُودِ، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى

١- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٦٢٠/٣.

٢- أي حاجته. انظر: شرح النووي على مسلم، ٧٠/١٣.

٣- سيأتي تخريجه عند النقطة السادسة من هذا المبحث.

٤- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: الْبُخَارِيُّ: بَدَأَ الْوَحْيِ، كَيْفَ كَانَ بَدَأَ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟، ٧/١ (٣)؛ وَمُسْلِمٌ: الْإِيمَانِ، بَابُ بَدَأَ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ١٣٩/١ (١٦٠).

٥- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ (رضي الله عنها)، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: فَضَائِلُ الْمَدِينَةِ، بَابُ كَرَاهِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ تُعْرَى الْمَدِينَةُ، ٢٣/٣ (١٨٨٩)؛ وَمُسْلِمٌ: الْحَجَّ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي سَكَنِ الْمَدِينَةِ وَالصَّبْرِ عَلَى لَأْوَائِهَا، ١٠٠٣/٢ (١٣٧٦).

٦- الترمذي: أبواب المناقب، باب في فضل مكة، ٧٢٣/٥ (٣٩٢٦). قال الترمذي: "حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ".

أَنَّ الْوَطْنَ يُؤَلَّفُ أَيْضًا لِأَهْلِهِ الَّذِينَ هُمْ جُزْءٌ مِنْ هَذَا الْوَطَنِ، لَا غِنَى عَنْهُ.

٣. تَوْفِيرُ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ: مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ شَعُورَ الْمَرْءِ بِانْتِمَائِهِ إِلَى بُقْعَةٍ مُعَيَّنَةٍ، يَعِيشُ عَلَى أَرْضِهَا، وَيُمَارِسُ فِيهَا نَشَاطَاتِهِ الْمُنْتَوَعَةَ، يُحَقِّقُ فِيهَا ذَاتَهُ، وَيُحَطِّطُ مِنْ خِلَالِهَا لِامْتِقَابِهِ وَمُسْتَقْبَلِ أُنْبَاءِهِ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِوُجُودِ عُنْصُرٍ أَسَاسٍ يَضْمَنُ لَهُ تَحْقِيقَ كَامِلِ طُمُوحَاتِهِ، أَلَا وَهُوَ الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ، فَالْوَطَنُ الَّذِي يَتَوَفَّرُ فِيهِ الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ هُوَ جَنَّةُ الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ، وَهُوَ الَّذِي يَدْفَعُ بِعَجَلَةِ التَّطَوُّرِ وَالِازْدِهَارِ قُدَمَا إِلَى الْأَمَامِ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِمَّا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ هُوَ نِعْمَةُ الْأَمْنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ﴾ [قریش: ٣-٤]، وَفِي سُورَةِ الْقَصَصِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَّتُ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصاص: ٥٧]، كَمَا دَعَا سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ الْمَكَّةَ الَّتِي صَارَتْ وَطَنًا لِابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُرِّيَّتِهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فِيهِمَا حِكَاةٌ عَنْهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. وَفِي حَدِيثٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ ءَامِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَانِي فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حَيَّرَتْ لَهُ الدُّنْيَا»<sup>(١)</sup>. وَهُوَ مَا يُعَزِّرُ قِيَمَةَ الْأَمْنِ الَّتِي يُوفِّرُهَا الْوَطَنُ لِسَاكِنِيهِ.

٤. التَّمَتُّعُ بِرَعْدِ الْعَيْشِ: وَلَا يَنْفَكُ عَنِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ، طُمَأْنِينَةُ رَعْدِ الْعَيْشِ، فَالْوَطَنُ الْآمِنُ هُوَ فَرْصَةٌ مُنَاسِبَةٌ لِتَطْوِيرِ سُبُلِ الْعَيْشِ، وَتَوْفِيرِ قُوَّةِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، بَلْ وَالسُّنَّةِ، وَكَمْ مِنْ أَنَاسٍ اتَّخَذُوا لَهُمْ وَطَنًا غَيْرَ الْوَطَنِ الَّذِي وُلِدُوا فِيهِ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي وَطَنِهِمْ الثَّانِي مَصْدَرًا لِرِزْقِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ، وَبِالْعُودَةِ إِلَى سُورَةِ قُرَيْشٍ، فَالْآمِنَانِ عَلَى قُرَيْشٍ وَقَعَ بِالْأَمْنِ مِنْ خَوْفِ الْأَعْدَاءِ، وَبِأَمْنِ تَوْفِيرِ الْعَيْشِ مِنَ الْجُوعِ أَيْضًا، وَالَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ بِالْإِطْعَامِ، فِي قَوْلِهِ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ﴾ [قریش: ٣-٤]، وَفِي دُعَاءِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَذَلِكَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرَارِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]. كَمَا دَعَا نَبِيَّنَا الْكَرِيمَ ﷺ لِوَطَنِ الْجَدِيدِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ»<sup>(٢)</sup>،

١- أخرج من رواية سلمة بن عبید الله بن محصن الخطمي، عن أبيه: البخاري في الأدب المفرد، ص ١١٢ (٣٠٠)؛ والترمذي: أبواب الرُّهْدِ، ٥٧٤/٤ (٢٣٤٦)، وقال: حسنٌ غريبٌ.

٢- البخاري: فضائل المدينة، باب: المدينة تنفي الخبث، ٢٣/٣ (١٨٨٥).

قال الحافظ ابن حجر: "أي من بركة الدنيا"<sup>(١)</sup>. وفي الحديث السابق الذكر أيضا: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَانِي فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"<sup>(٢)</sup>، إشارة إلى هذه القيمة وهي الأمن العذائي، التي لطالما سعى إليها الناس جميعا؛ أفرادا ومجتمعات، دولاً وحكومات، ضمن حدود الوطن الذي يلتقي فيه ويعيش على أرضه هؤلاء وهؤلاء.

**٥. الاستقرار النفسي والأسري:** ففي طبيعة الإنسان حاجته إلى الاستقرار النفسي والأسري، وذلك لا يستقيم إلا بالانتماء إلى الوطن والسكن فيه، وهو المعنى الذي لفت إليه حديث النبي ﷺ فيما يرويه مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: "اتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا، فَظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، فَسَأَلَنَا عَنْ مَنْ تَرَكْنَا مِنْ أَهْلِنَا، فَأَحْبَرْنَا، فَقَالَ: "ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فليُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيُؤْمِكُمْ أَكْبَرُكُمْ"<sup>(٣)</sup>، فهؤلاء الفتية قام في أنفسهن الشوق إلى أهلهم، ومن لازمه الشوق إلى وطنهم الذي هو مكان إقامة أهلهم، لما فيه من الاستقرار النفسي والأسري، وإن كانت العودة إلى ديارهم تعني فيما تعنيه تعليم قومهم ما سمعوه من النبي ﷺ، وهو مُقَدِّمٌ على الشوق إليهم، ولكن كما قال الحافظ - رحمه الله -: "اقتصار الصحابي على ذكر سبب الأمر برُجوعهم بأنه الشوق إلى أهلهم دون قصد التعليم، هو لما قام عنده من القرينة الدالة على ذلك، ويمكن أن يكون عرف ذلك بتصريح القول منه ﷺ، وإن كان سبب تعليمهم قومهم أشرف في حقهم، لكنه أخبر بالواقع ولم يتزين بما ليس فيهم، ولما كانت نيّتهم صادقة، صادف شوقهم إلى أهلهم الحظ الكامل في الدين، وهو أهلية التعليم"<sup>(٤)</sup>. اهـ.

**٦. تحقيق مبدأ التعاون على الخير بين أفراد المجتمع الواحد:** فبالنظر إلى حديث مالك

١- فتح الباري، ٤/٩٨.

٢- سبق تخريجه وشيكا، في النقطة الثالثة: توفير الأمن والأمان.

٣- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ واللفظ لمسلم: البخاري في مواضع، منها: الأذان، بَابُ الْأَذَانِ لِلْمُسَافِرِ إِذَا كَانُوا جَمَاعَةً وَالْإِقَامَةَ، ١/١٢٨ (٦٣١)؛ ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة، بَابُ مَنْ أَحَقَّ بِالْإِمَامَةِ، ١/٤٦٥ (٦٧٤).

٤- ابن حجر، فتح الباري، ٢/١٧١.



بْنِ الْحَوْرِيثِ السَّابِقِ الذِّكْرُ، وَالَّذِي يَقُولُ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّنْ لَكُمْ أَحَدَكُمْ ثُمَّ لِيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرَكُمْ"، فَقَدْ أَشَارَ إِلَى مُنْتَهَى مَا يَرْبُطُ الْفَرْدَ بِمَجْتَمَعِهِ مِنْ عِلَاقٍ، أَلَا وَهُوَ التَّعْلِيمُ وَالتَّصْحُّحُ وَالإِشْرَادُ، وَإِقَامَةُ الدِّينِ، وَلِذَلِكَ نَجَدُ النَّبِيَّ ﷺ يَصِفُ الْإِبْتِعَادَ عَنِ الْوَطْنِ بِأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، لِمَا لَهُ مِنْ تَأْتِيرٍ سَلْبِي فِي الْمَسَافِرِ، وَفِي مَنْ تَرَكَ وَرَاءَهُ، قَالَ ﷺ: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ<sup>(١)</sup>، فَلْيَعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ"<sup>(٢)</sup>، أَي إِذَا قَضَى حَاجَتَهُ، فَلْيُسْرِعْ بِالرُّجُوعِ إِلَى أَهْلِهِ، لِمَا فِيهِ نَفْعُهُ هُوَ بِالِاسْتِقْرَارِ فِي بَلَدِهِ وَوَطْنِهِ وَاسْتِقَامَةِ عَيْشِهِ، وَأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ بِنَفْعِهِمْ بِجُهْدِهِ وَعِلْمِهِ وَخِبْرَاتِهِ.

٧. الكَرَامَةُ وَحِفْظُ الْحُقُوقِ: الْوَطْنُ هُوَ الْحِصْنُ الْحَصِينُ لِأَيِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَتِمَّتْ فِيهِ الْجَمِيعُ بِحُقُوقِهِمْ وَكَامِلِ كِرَامَتِهِمْ وَاحْتِرَامِهِمْ، فَقَدْ عَابَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ بِبَعْضِ بَنِي جِلْدَتِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالتَّهْجِيرِ مِنَ الدِّيَارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُّوْلَاءٌ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٥]، فَقَدْ كَانَ هَذَا التَّصَرُّفُ مِنْهُمْ إِغْلَالًا فِي الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ عَلَى مُوَاطِنِهِمْ، الَّذِينَ كَانُوا الْأَجْدَرُ بِهِمْ حِمَايَتِهِمْ وَالِدَّفَاعَ عَنْهُمْ، وَحِفْظَ كِرَامَتِهِمْ وَكَامِلِ حُقُوقِهِمْ، بَلْ إِنَّ الْحِجَّةَ تَقُومُ عَلَى مَنْ اسْتَضْعَفَ فِي أَرْضِهِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ إِقَامَةَ شَعَائِرِ دِينِهِ، فَلَمْ يُهَاجِرْ مِنْهَا إِلَى حَيْثُ يَتِمَّتْ بَجُرْبَةِ التَّدِينِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧) [النساء: ٩٧]، كَمَا أَنَّ هِجْرَةَ نَبِيِّنَا الْكَرِيمِ - صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ لَوْلَا إِبْدَاءُ قَوْمِهِ لَهُ وَلَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، حَيْثُ صَارَ الْعَيْشُ فِي مَكَّةَ وَهِيَ الْوَطْنُ الْأُمُّ خَالِيًا مِنَ الْكِرَامَةِ وَحِفْظِ الْحُقُوقِ، بَلْ إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ قَدْ أَمَرَ صَحَابَتَهُ

١- أي حاجته. انظر: شرح النووي على مسلم، ١٣/٧٠.

٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: أَبْوَابُ الْعُمْرَةِ، بَابُ: السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، ٣/٠٨ (١٨٠٤)؛ وَمُسْلِمٌ: الْإِمَارَةُ، بَابُ السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، وَاسْتِحْبَابِ تَعْجِيلِ الْمَسَافِرِ إِلَى أَهْلِهِ بَعْدَ قَضَائِ شُغْلِهِ، ٣/١٥٢٦ (١٩٢٧).

بالمهجرة إلى الحبشة، أين يتوفّر العيش الكريم، ويلقون التقدير والاحترام لإنسانيتهم، فكان مما قاله ﷺ: "إِنَّ بَارِضَ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحُقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرْجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ"<sup>(١)</sup>.

فهذه الأهمية للوطن تستدعي من كل إنسان يعيش في وطنه أن يزعى حقوقه، ويبادر لحمايته والدود عنه ضمن مبادئ ومُنطلقات، هي موضوع المبحث الثالث والأخير.

### المبحث الثالث: مبادئ حماية الوطن في السنة النبوية ومُنطلقاتها

إن الإخلاص للوطن ليس مجرد شعور أو كلام يُردّد، بل هو عمل دائم وسعي قائم لتحقيق أغنى الغايات وأرقى الدرجات للمكان الذي نعيش فيه ونأوي إليه، وهو بذل وعطاء مستمر، وهو أيضا في الدرجة الأولى دفاع عنه وحماية له من كل ما يُزعزع أمنه واستقراره، أو يُعزقل نموه وتقدمه، وقد قرّن المولى سبحانه وتعالى بين النفس والبلد الذي تعيش فيه، وجعل التضحية بهما من أعظم وأشقّ التكاليف، فقال عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبَنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

وعليه، يتوجّب على أبناء الوطن الواحد القيام بحقه وتأديته الواجب اتجاهه، وهو ما جاءت النصوص الشرعية مؤكدة وداعية إليه، لاسيما السنة النبوية، والتي يمكن من خلالها استخلاص عدّة مبادئ ومُنطلقات لحماية الوطن، نُحملها فيما يأتي:

١- من حديث أم سلمة رضي الله عنها، أخرجه: أحمد، المسند، ٣/٢٦٣ (١٧٤٠)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، ٩/٩ (١٨١٩٠). قال الهيثمي عن حديث أحمد: "رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ [محمد بن إسحاق] - أي عن مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَهَابٍ -، وَقَدْ صَرَّحَ بِالسَّمَاعِ". مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦/٢٤-٢٧ (٩٨٤٢).

١. عِبَادَةُ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ عَلَى أَرْضِهِ: وَيَتَضَحَّ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۗ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۗ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ذَلِكَ أَنَّ الشَّرْكَ مَدْعَاةٌ إِلَى كُلِّ ضَلَالٍ وَمُفْسَدَةٍ، وَقَدْ أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى الْحُجَّةَ عَلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ رَضَخُوا لَوَاقِعَ حَالِهِمْ مِنَ الشَّرْكَ وَتَرَكَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يُغَادِرُوا إِلَى حَيْثُ يُقِيمُونَ عِبَادَةَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، الْفَرْدِ الصَّمَدِ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفُ سِتٍّ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١٧﴾ [النساء: ٩٧]، وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وَيُعَضِّدُ هَذَا قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: "لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَانْفِرُوا"<sup>(١)</sup>، وَالْمَقْصُودُ بِ"لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ"، أَيِ فَتْحِ مَكَّةَ، لِأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْهِجْرَةِ مِنْهَا"<sup>(٢)</sup>، وَعَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَتَى مَا اسْتَطَاعَ الْمُسْلِمُ الْقِيَامَ بِحَقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا فَتَمَّةَ وَطَنِهِ الَّذِي يَلْزُمُهُ، وَكَذَلِكَ بَيَّنَّتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ (رضي الله عنها)، وَقَدْ سُئِلَتْ عَنِ الْهِجْرَةِ، قَالَتْ: "لَا هِجْرَةَ الْيَوْمَ، كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَفِرُّ أَحَدُهُمْ بِدِينِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ، مَخَافَةَ أَنْ يُفْتَنَ عَلَيْهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ، وَالْيَوْمَ يَعْبُدُ رَبَّهُ حَيْثُ شَاءَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ"<sup>(٣)</sup>، وَقَدْ شَرَحَهُ الْحَافِظُ بِقَوْلِهِ: "فَمُقْتَضَاهُ أَنَّ مِنْ قَدَرٍ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ اتَّفَقَ لَمْ تَجِبْ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ مِنْهُ، وَإِلَّا وَجِبَتْ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ الْمَاورِدِيُّ: إِذَا قَدَرَ عَلَى إِظْهَارِ الدِّينِ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ فَقَدْ صَارَتْ الْبَلَدُ بِهِ دَارَ إِسْلَامٍ، فَالِإِقَامَةُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ الرَّحْلَةِ مِنْهَا؛ لَمَا يَتَرَجَّى مِنْ دُخُولِ غَيْرِهِ فِي الْإِسْلَامِ"<sup>(٤)</sup>.

- ١- البخاري في مواضع، منها: الجهاد والسير، بَابُ فَضْلِ الْجِهَادِ وَالسَّيْرِ، ١٥/٤ (٢٧٨٣)؛ ومسلم: الحج، بَابُ تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلَاهَا وَشَجَرِهَا وَلَقَطَتِهَا، إِلَّا لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ، ٩٨٦/٢ (١٣٥٣).
- ٢- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٣٨/٦، ١٩٠.
- ٣- البخاري: مناقب الأنصار، بَابُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، ٥٧/٥ (٣٩٠٠).
- ٤- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٢٢٩/٧.

٢. حُبُّ الْوَطَنِ بِكَامِلِ مَكُونَاتِهِ: روى لنا الصَّحَابِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ السَّاعِدِيُّ رضي الله عنه، قَالَ: "أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: "هَذِهِ طَابَةٌ"<sup>(١)</sup>، وَهَذَا أُحُدٌ، جَبَلٌ يُجْبِنَا وَنُحْبُهُ"<sup>(٢)</sup>. ففي هذا الحديث إشارة إلى حُبِّ الْوَطَنِ بِمَعْلَمِهِ وَأَثَرِهِ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنْهُ، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا قَفَلَ رَاجِعًا، حَثَّ دَابَّتَهُ شَوْقًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مَا جَاءَ فِي الرَّوَايَةِ الْكَامِلَةِ لِلْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ، حَيْثُ قَالَ صلى الله عليه وسلم: "إِنِّي مُتَعَجِّلٌ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَعَجَّلَ مَعِي، فَلْيَتَعَجَّلْ"<sup>(٣)</sup>.

وَدَعَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُحِبَّ إِلَيْهِ وَلِصَحَابَتِهِ وَطَنَهُمُ الْجَدِيدَ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ"<sup>(٤)</sup>، فَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ حُبَّ الْوَطَنِ نِعْمَةٌ، وَإِلَّا لَمَا سَأَلَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ - صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - هَذَا الْحُبَّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ لَهُ وَطَنٌ وَبَلَدٌ يَعِيشُ فِيهِ، فَإِنَّ مِنَ الْبِرِّ بِهِ أَنْ يُحِبَّهُ بِمَا فِيهِ مِنْ أَمَاكِنَ وَمَا تَحْوِيهِ، وَهِيَ هُمْ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -، قَدْ تَغَنَّوْا بِأَوْطَانِهِمْ، فَتُرْوَى السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رضي الله عنها عَنْ بِلَالٍ رضي الله عنه عِنْدَمَا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ وَأُصِيبُوا بِبَوَائِحِهَا، تَقُولُ: "كَانَ بِلَالٌ إِذَا أُفْلِعَ عَنْهُ الْحُمَى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ"<sup>(٥)</sup> يَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً  
بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ حَرٌّ وَجَلِيلٌ،  
وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَحَنَّةٍ  
وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَامَةً وَطَفِيلٌ"<sup>(٦)</sup>

- ١- أي المدينة، وطابة من الطيب، وقيل: هو من الطيب، بمعنى الطاهر؛ لخلوصها من الشرك وتطهيرها منه. انظر: ابن الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/٣٣٣.
- ٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الْمَغَارِي، بَابٌ مِنْ بَابِ نُزُولِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الْحِجْرَ، ٨/٦ (٤٤٢٢)؛ وَمُسْلِمٌ: الْحَجَّ، بَابٌ أُحُدٌ جَبَلٌ يُجْبِنَا وَنُحْبُهُ، ١٠١١/٢ (١٣٩٢).
- ٣- الْبُخَارِيُّ: الزَّكَاةَ، بَابٌ حَرَصَ الثَّمَرِ، ١٢٥/٢ (١٤٨١)؛ وَهِيَ رِوَايَةٌ مُسْلِمٌ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ، وَفِي: الْحَجَّ، بَابٌ أُحُدٌ جَبَلٌ يُجْبِنَا وَنُحْبُهُ، ١٠١١/٢ (١٣٩٢).
- ٤- هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها الْآتِي فِي قِصَّةِ بِلَالٍ رضي الله عنه وَشِكَايَتِهِ مِنْ وِبَاءِ الْمَدِينَةِ.
- ٥- أَي: صَوْتَهُ بِبِكَاءٍ أَوْ بَغْءًا، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: أَصْلُهُ أَنَّ رَجُلًا انْعَقَرَتْ رِجْلُهُ فَرَفَعَهَا عَلَى الْأُخْرَى وَجَعَلَ يَصِيحُ، فَصَارَ كُلُّ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ يُقَالُ: رَفَعَ عَقِيرَتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَرْفَعْ رِجْلَهُ. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٧/٢٦٣؛ وَالزَّيْبِيدِي، تَاجُ الْعُرُوسِ مِنْ جَوَاهِرِ الْقَامُوسِ، ١٣/١٠٣.
- ٦- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: فَضَائِلُ الْمَدِينَةِ، بَابُ كَرَاهِيَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنْ تُعْرَى الْمَدِينَةُ، ٢٣/٣ (١٨٨٩)؛ وَمُسْلِمٌ بِاخْتِصَارٍ: الْحَجَّ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي سَكَنِ الْمَدِينَةِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَوَائِثِ، ١٠٠٣/٢ (١٣٧٦).

و"وادي": هو وادي مَكَّةَ، و"إذخر" بكسر الهمزة والحاء: الحشيش الأخضر، وهو حشيش معروف طيب الرائحة، و"جليل" بفتح الجيم: نبت ضعيف يُحشى به خصاص البيوت وغيرها، و"مياه مجنة": موضع على أميال من مَكَّةَ وكان به سوق<sup>(١)</sup>، وقيل: "مياه مجنة": بفتح الميم وكسرهما، هو موضع بأسفل مَكَّةَ<sup>(٢)</sup>، و"يبدوون لي شامةً وطفيلاً": أي يظهر شامةً وطفيلاً، وهما جبلان بقرب مَكَّةَ، وقيل: عثبان<sup>(٣)</sup>.

فَقَدْ تَغْنَى ﷺ بِكُلِّ مَا كَانَ فِي مَكَّةَ مِنْ وَادٍ وَشَجَرٍ وَحَجَرٍ، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى حُبِّ الْوَطْنِ بِكُلِّ مَا يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ الْمُسْلِمُ يَحِبُّ وَطَنَهُ بِمُخْتَلَفِ مَعَالِمِهِ، وَيَتَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمَاكِنِ وَالْآثَارِ.

٣. الدُّعَاءُ لِلْوَطَنِ: دَعَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ لِمَكَّةَ لَمَّا قَدِمَ إِلَيْهَا بِزَوْجَتِهِ هَاجِرَ وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِهِ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وَقَدْ حَفَلَتِ الْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ بِدُعَائِهِ ﷺ لِلْمَدِينَةِ، كَقَوْلِهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا، وَصَحْحَهَا لَنَا، وَأَنْقُلْ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ"<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ"<sup>(٥)</sup>، أَي بَرَكَةِ الدُّنْيَا

١- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٢٦٣/٧. وفي تعريف الإذخر، يُنظر: شرح النووي، ٧-٦/٧، ١٢٧/٩، والقاموس المحيط، ص ٣٦٩.

٢- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٨٦/١.

٣- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٢٦٣/٧.

٤- هو حديث السيدة عائشة ﷺ السابق الذكر قريباً.

٥- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البخاري: فضائل المدينة، باب: المدينة تُنْفِي الْحَبْثَ، ٢٣/٣ (١٨٨٥)؛ ومسلم: الحج، باب فضل المدينة، ودُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا، وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا، وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا، ٩٩٤/٢ (١٣٦٩).

أو ما هو أعظم، كما قال الحافظ ابن حجر<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُؤْتَى بِأَوَّلِ الثَّمَرِ، فَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَفِي ثَمَارِنَا، وَفِي مَدَنَّا، وَفِي صَاعِنَا، بَرَكَهً مَعَ بَرَكَه" <sup>(٢)</sup>.

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمُدَّهَا بِمِثْلِي مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ" <sup>(٣)</sup>.

كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في الدعاء لغير المدينة قوله: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي بَيْمِنَا" <sup>(٤)</sup>.

فهذه الأحاديث ظاهرة في أن من حقوق الوطن على أهله الدعاء له بكل خير وتوفيق وبركة، ذلك أن الأوطان هي مؤئل ومرجع كل إنسان حاضر أو باد، مقيم أو مسافر، ورحاؤها واستقرارها يعود على أهلها بالسعادة وطيب العيش.

٤. الدَّفَاعُ عَنْهُ ضِدُّ الْأَعْدَاءِ: أَدَانَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقِتَالِ لِلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ <sup>(٣٩)</sup> الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿ [الحج: ٣٩-٤٠]، وعليه، يُشْرَعُ الدَّفَاعُ عَنِ الْوَطَنِ بِالنَّفْسِ وَالنَّفِيسِ، صَوْنًا لَهُ مِنْ كُلِّ اعْتِدَاءٍ، أَوْ اسْتِبَاحَةٍ لِبَيْضَتِهِ، وَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ: "لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا" <sup>(٥)</sup>، ففيه

١- انظر: فتح الباري، ٩٨/٤.

٢- مسلم: الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحرير صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمها، ١٠٠٠/٢ (١٣٧٣).

٣- مسلم: الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحرير صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمها، ٩٩١/٢ (١٣٦٠).

٤- البخاري: الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الفتنة من قبل المشرق"، ٥٤/٩ (٧٠٩٤).

٥- البخاري في مواضع، منها: الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، ١٥/٤ (٢٧٨٣)؛ ومسلم: الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاتها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، ٩٨٦/٢ (١٣٥٣). وقد سبق تخريجه.

أَنَّ الْحَاكِمَ إِذَا دَعَا رَعِيَّتَهُ لِلْجِهَادِ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوا وَيُلبَّتُوا، وَخَاصَّةً إِذَا تَعَلَّقَ الْأَمْرُ بِحِمَايَةِ الْوَطَنِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْقِيَامِ بِالْأَمَانَةِ، وَعَدَمِ الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ الْجَاهِ الْأَيْمَةِ وَالْحُكَّامِ<sup>(١)</sup>.

وَكَذَلِكَ دَافَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَحَابَتُهُ عَنِ مَدِينَتِهِمْ، وَخَيْرٌ مِثَالٍ عَلَى ذَلِكَ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ، حَيْثُ شَارَكَ ﷺ بِنَفْسِهِ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَذَلِكَ فِيَا يَرُويهِ الْبَرَاءُ ﷺ، قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بِيَاضَ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: "لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا، أَنَّ الْأُلَى قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا"<sup>(٢)</sup>.

٥. المَحَافِظَةُ عَلَى الْمَكَاسِبِ وَالشَّرَوَاتِ وَالْمَمْتَلِكَاتِ: إِنَّ أُصُولَ الشَّرِيعَةِ الْعَرَاءِ إِذَا جَاءَتْ مُرَاعِيَةً لِحَاجَاتِ الْعِبَادِ، فَذَلَّتْ بِعُمُومِهَا وَخُصُوصِهَا عَلَى جَلْبِ كُلِّ مَصْلَحَةٍ، وَدَرْءِ كُلِّ مَفْسَدَةٍ، وَهَكَذَا هِيَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَاطِقَةٌ بِهَذِهِ الْقَوَاعِدِ الْجَلِيلَةِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَحْقِيقِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بِيَدِكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ لِكُلِّ مَسْجِدٍ كَرِيمٍ وَمِنْ قِبْلَتِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، كَمَا جَاءَتْ آيَاتُ الْكَرِيمَةِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْفَسَادِ وَالْمُفْسِدِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فَمِنَ الْحِمَايَةِ لِلْوَطَنِ أَنْ يُحَافِظَ أُنْبَاؤُهُ عَلَى مُقَدَّرَاتِهِ؛ مِنْ هَيْكَلِ وَمُؤَسَّسَاتٍ وَمَمْتَلِكَاتٍ؛ خَاصَّةً وَعَامَّةً؛ لِأَنَّهَا جَمِيعُهَا تُسَهِّمُ فِي نُمُوِّهِ وَتَطْوِيرِهِ وَالْإِرْتِقَاءِ بِهِ، وَضَمَانِ اسْتِقْرَارِهِ اجْتِمَاعِيًّا وَسِيَاسِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا، وَقَدْ أَرْشَدَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحِفَاظِ عَلَى الشَّرَوَاتِ الْمُتَاحَةِ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ ﷺ: "لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا

١- انظر: شرح النووي على مسلم، ١٣/٠٨؛ وفتح الباري، ٦/٢٨٤.

٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: الْجِهَادُ وَالسِّيَرُ، بَابُ حَفْرِ الْخَنْدَقِ، ٤/٢٦ (٢٨٣٧)؛ وَمُسْلِمٌ:

الْجِهَادُ وَالسِّيَرُ، بَابُ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ وَهِيَ الْخَنْدَقُ، ٣/١٤٣٠ (١٨٠٣).

فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا<sup>(١)</sup>، وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: "نَهَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ تُصَبَّرَ الْبَهَائِمُ<sup>(٢)</sup>"<sup>(٣)</sup>، وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: "أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، وَغُلَامٌ مِنْ بَنِي يَحْيَى رَابِطٌ دَجَاجَةٌ يَرْمِيهَا، فَمَشَى إِلَيْهَا ابْنُ عُمَرَ حَتَّى حَلَّهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا وَبِالْغُلَامِ مَعَهُ، فَقَالَ: ازْجُرُوا غُلَامَكُمْ عَنْ أَنْ يَصْبِرَ هَذَا الطَّيْرَ لِلْقَتْلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم "نَهَى أَنْ تُصَبَّرَ بِهَيْمَةً أَوْ غَيْرِهَا لِلْقَتْلِ"<sup>(٤)</sup>.

فهذه الأحاديث الشريفة أصل في عدم الإسرافِ والعبثِ والإفسادِ في الأرضِ، بمنعِ اتِّخَاذِ أَيِّ حَيَوَانٍ أَلِيفٍ وَغَيْرِهِ هَدَفًا لِلرَّمْيِ وَالْقَتْلِ؛ لِأَنَّ قَتْلَهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَعْدِيبٌ لَهُ مِنْ جِهَةٍ، وَإِهْدَارٌ لِمَنْفَعَتِهِ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ: "لِأَنَّهُ تَعْدِيبٌ لِلْحَيَوَانِ، وَإِتْلَافٌ لِنَفْسِهِ، وَتَضْيِيعٌ لِمَالِيَّتِهِ، وَتَفْوِيتٌ لِدَكَاتِهِ إِنْ كَانَ مُدَكِّي، وَلِمَنْفَعَتِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُدَكِّي"<sup>(٥)</sup>.

هذا بالإضافة إلى ما في ذلك من الإخلالِ بِتَوَازُنِ البَيْعَةِ، وَهُوَ ذَاتُ السَّبَبِ الَّذِي يُمْكِنُ اسْتِنْتَاجُهُ مِنْ قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: "عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ، لَا هِيَ

١- أخرجه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: مسلم: الصَّيْدُ وَالذَّبَائِحُ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ صَبْرِ الْبَهَائِمِ، ١٥٤٩/٣ (١٩٥٧).

٢- أَيُّ تُحْبَسَ لِثُرْمِي حَتَّى تَمُوتَ. فتح الباري، ٦٤٣/٩.

٣- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الذَّبَائِحُ وَالصَّيْدُ، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ الْمُثَلَّةِ وَالْمَصْبُورَةِ وَالْمُحْتَمَّةِ، ٩٤/٧ (٥٥١٣)؛ وَمُسْلِمٌ: الصَّيْدُ وَالذَّبَائِحُ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ صَبْرِ الْبَهَائِمِ، ١٥٤٩/٣ (١٩٥٦).

٤- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الذَّبَائِحُ وَالصَّيْدُ، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ الْمُثَلَّةِ وَالْمَصْبُورَةِ وَالْمُحْتَمَّةِ، ٩٤/٧ (٥٥١٤)؛ وَمُسْلِمٌ: الصَّيْدُ وَالذَّبَائِحُ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْهِرَّةِ، ١٥٤٩/٣ (١٩٥٨). وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ: "مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هَذَا".

٥- شرح النووي، ١٠٨/١٣.



أَطْعَمْتَهَا وَلَا سَقَّتْهَا إِذْ حَبَسْتَهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشٍ<sup>(١)</sup> الْأَرْضِ"<sup>(٢)</sup>؛ لِأَنَّ الْهَرَّةَ إِلَّا وَهِيَ دَوْرٌ فِي الْحِفَاظَةِ عَلَى تَوَازُنِ الْبَيْئَةِ وَبِقَاءِ الْأَنْوَاعِ، فَلَوْ عَمَدَ النَّاسُ إِلَى الْعَبَثِ بِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ لِأَذَى ذَلِكَ إِلَى فَسَادِ عَرِيضٍ يَنْجُمُ عَنْهُ اخْتِلَالُ بَيْئَتِي قَدْ يَتَسَبَّبُ فِي أَضْرَارٍ بِالْعِجَّةِ لِلْوَطَنِ وَأَهْلِهِ، وَقَسَّ عَلَى هَذَا كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُوَدِّيَ إِلَى تَضْيِيعِ ثَرَوَاتِ الْبِلَادِ، فَوَاجِبٌ إِذْنًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ الْحِفَاظَةَ عَلَى كُلِّ مَكَاسِبِ الْوَطَنِ؛ مِنْ بَيْئَةٍ مُتَوَازِنَةٍ، وَهِيَائِكِلَ، وَمُؤَسَّسَاتٍ، وَأَمْوَالٍ، وَثَرَوَاتٍ، بَلْ وَالْعَمَلُ عَلَى إِغْنَائِهَا وَتَطْوِيرِهَا وَازْدَهَارِهَا.

٦. الإِسْهَامُ فِي بِنَاءِ الْوَطَنِ وَخِدْمَتِهِ: فَإِلَى الْإِنْسَانِ إِتِمًا خُلِقَ لِعِمَارَةِ الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَشَأْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وَقَدْ أَمَرْنَا بِالِانْتِشَارِ وَالسَّعْيِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، فِي ذَلِكَ بِنَاءٌ لِلْوَطَنِ الَّذِي يَعْيشُ فِيهِ الْإِنْسَانُ، بِالسَّعْيِ فِي ابْتِغَاءِ الرِّزْقِ، وَالَّذِي يَعْنِي فِيهِمَا يَعْنِيهِ بِذَلِكَ الْجُهْدِ وَاسْتِغْرَافِ الْوُسْعِ فِيهِمَا يَعُودُ عَلَى الْوَطَنِ وَأَبْنَائِهِ بِالْخَيْرِ وَالْفَائِدَةِ، وَفِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى ذَلِكَ، حَيْثُ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا؛ فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ"<sup>(٣)</sup>، فَهَذَا الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ وَإِنْ كَانَ فِي فَضْلِ الْغَرْسِ خَاصَّةً، وَأَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَكَاسِبِ، إِلَّا

١- قال الجوهري في الصحاح: "الخشاش بالكسر: الحشرات، وقد يُفتح". الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ١٠٠٤/٣. وقال النووي: "هي هوائها وحشراتها، وقيل صغار الطير، وحكى القاضي -أي القاضي عياض- فتح الخاء وكسرها وضمها، والفتح هو المشهور". شرح النووي، ٢٠٧/٦، وانظر: ٢٤٠/١٤. وقول القاضي عياض المذكور، هو في: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، ٢٤٧/١. وقد حكى النووي عنه أيضا أن خشاش الأرض قيل: نباتها. انظر: المشارق، ٢١٤/١. قال النووي: "وهو ضعيف أو غلط". شرح النووي، ٢٤٠/١٤.

٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِي أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: أَحَادِيثُ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ حَدِيثِ الْغَارِ، ١٧٦/٤ (٣٤٨٢)؛ وَمُسْلِمٌ: السَّلَامُ، بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْهَرَّةِ، ١٧٦٠/٤ (٢٢٤٢).

٣- الْبُخَارِيُّ: الْمَزَارَعَةُ، بَابُ فَضْلِ الزَّرْعِ وَالغَرْسِ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ، ١٠٣/٣ (٢٣٢٠)؛ وَمُسْلِمٌ: الْمَسَاقَاةُ، بَابُ

أنه يُشيرُ إلى عِظَمِ فَوَائِدِ الرَّزْعِ وَالغَرَسِ عَلَى صَاحِبِهِ وَعَلَى مُجْتَمَعِهِ وَوَطَنِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِمَارَةِ الْأَرْضِ الَّتِي أَمَرْنَا بِهَا<sup>(١)</sup>؛ إِذْ إِنَّ الْغَرَسَ أَسَاسُ مَعَاشِ النَّاسِ وَتَأْمِينُ غِذَائِهِمُ الَّذِي يُحْفَظُهُمْ مِنَ الْفَقْرِ وَالْمَجَاعَاتِ، كَمَا أَنَّ رِبْطَهُ بِالصَّدَقَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَجْرِ تَشْجِيعٌ لِلنَّاسِ، وَحِصٌّ لَهُمْ عَلَى مُمَارَسَةِ هَذَا النَّشَاطِ الْحَيَوِيِّ لِكُلِّ مُجْتَمَعٍ، وَفِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

٧. **الالتزام بمبادئه وقوانينه:** إِنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ اسْتِقْرَارِ الدُّوَلِ وَالْأَوْطَانِ، الْإِلْتِزَامَ بِالْقَوَانِينِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهَا، وَعَدَمَ الرِّكَابِ الْمَخَالَفَاتِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا الْإِخْلَالُ بِالنِّظَامِ وَشُيُوعُ الْهَرْجِ وَالْمَرْجِ، مِمَّا يَوْقَعُ النَّاسَ فِي الْحَرْجِ وَضَنْكِ الْحَيَاةِ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَوَائِلِ الْمُنْجَزَاتِ الَّتِي قَامَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ، هُوَ وَضْعُ الْمَبَادِيءِ التَّنْظِيمِيَّةِ لِحَيَاةِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْجَدِيدِ، مِنْ حَيْثُ عِلَاقَةُ الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَكَذَلِكَ عِلَاقَتُهُمْ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ كَانَتْ كُتُبُ السِّيَرَةِ<sup>(٢)</sup> تَذَكُرُ صِغَةً عِدَّةً لِهَذِهِ الْمَبَادِيءِ وَالْقَوَانِينِ، فَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْهَا فِي الصَّحِيحِ، مِنْهَا حَدِيثٌ عَلِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: "مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئًا نَقْرُوهُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ وَهَذِهِ الصَّحِيفَةَ - قَالَ [الرَّوَايَةُ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ] وَهُوَ يَزِيدُ بْنُ شَرِيكِ التَّمِيمِي:] وَصَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ فِي قِرَابِ سَيْفِهِ<sup>(٣)</sup> - فَقَدْ كَذَبَ، فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ، وَأَشْيَاءٌ مِنَ الْجِرَاحَاتِ، وَفِيهَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ<sup>(٤)</sup>، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَذْنَاهُمْ، وَمَنْ أَدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ،

فَضَّلَ الْغَرَسَ وَالرَّزْعَ، ١١٨٩/٣ (١٥٥٣). وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، بَلْفِظٍ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَزْرَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ". مُسْلِمٌ: الْمُسَافَاةُ، بَابُ فَضَّلَ الْغَرَسِ وَالرَّزْعَ، ١١٨٨/٣ (١٥٥٢).

١- انظر: شرح النووي، ٢١٣/١٠؛ وفتح الباري، ٥/٤٠.

٢- انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١٤٣/٢.

٣- قال النووي: "قِرَابٌ، بِكَسْرِ الْقَافِ، وَهُوَ وَعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ، أَلْطَفُ مِنَ الْجِرَابِ، يَدْخُلُ فِيهِ السَّيْفُ بِغَمْدِهِ، وَمَا خَفَّ مِنَ الْأَلَةِ". شرح النووي، ١٤٢/١٣.

٤- أما عَيْرٌ: فقبيل جبل معروف بالمدينة، وأما ثور فاستشكل؛ لما اشتهر أنه جبل بمكة، حتى قيل: إنه وهم من الراوي، وقد فسّر بعدة تفسيرات، أحسنها أن يكون جبلا صغيرا خلف جبل أحد بالمدينة، ولم يكن معروفا. انظر: شرح النووي، ٨٢/٤؛ وفتح الباري، ٨٤/٤.

أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا" (١).

فالملاحظ أن هذه الصحيفة - وهي أُنْمُوذَجٌ للقوانين المنظمة لمجتمع المدينة - قد شملت عمدة مجالات، والتي من شأنها الحفاظ على تماسك المجتمع، والسيرُ قُدَمًا نحو رفعة البلاد، والمحافظة عليها من أيّ خللٍ في توازنها واستقرارها.

٨. **حِفْظُ الْأَمْنِ الْعَامِّ:** الْأَمْنُ الْعَامُّ مِنَ الْمَبَادِي شَدِيدَةُ الْخُطُورَةِ فِي ثَبَاتِ الْمُجْتَمَعِ وَاسْتِقْرَارِ أَيِّ دَوْلَةٍ، وَلِذَلِكَ جَاءَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالتَّغْلِيظِ فِي عُقُوبَةِ مَنْ يُعْرِضُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ إِلَى الْخَوْفِ وَالتَّرْهِيْبِ، مِنْ خِلَالِ آيَةِ الْحِرَابَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣]، وَذَلِكَ يَشْمَلُ كُلَّ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ مِنْ تَخْوِيفٍ وَتَرْهِيْبٍ لِلنَّاسِ، أَوْ قَتْلِهِمْ، أَوْ الْإِعْتِدَاءِ عَلَى أَمْوَالِهِمْ بِالسَّرِقَةِ وَخُحُوها، وَإِنَّمَا اسْتَحَقَّقُوا هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْعَذَابِ لِمَا فِي جِنَايَتِهِمْ مِنَ الطَّعْنِ فِي هَيْبَةِ الدَّوْلَةِ، وَتَغْرِيرِ غَيْرِهِمْ بِفِعْلَتِهِمْ (٢)، وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ تَعْظِيمُ جَزَاءِ مَنْ يَسْهَرُ عَلَى حِفْظِ أَمْنِ الْبِلَادِ، فَقَالَ ﷺ: "عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (٣)، بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضَرَبَ الْمَثَلَ فِي الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمِهْمَةِ، وَذَلِكَ فِيمَا يَرُويهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشَجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً، فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ اسْتَبْرَأَ الْحَبِيرَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي

١- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعٍ، مِنْهَا: فَضَائِلُ الْمَدِينَةِ، بَابُ حَرَمِ الْمَدِينَةِ، ٢٠/٣ (١٨٧٠)؛ وَمُسْلِمٍ: الْحَجَّ، بَابُ فَضْلِ الْمَدِينَةِ، وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبُرْكَ، وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا، وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا، وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا، ٩٩٤/٢ (١٣٧٠).

٢- انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٨٢/٦ وما بعدها.

٣- الترمذي وحسنه: فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، ١٧٥/٤ (١٦٣٩).

طَلْحَةَ عُرَيْبٍ<sup>(١)</sup>، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: "لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا"<sup>(٢)</sup>، ثُمَّ قَالَ: "وَجَدْنَاهُ بَحْرًا"<sup>(٣)</sup>، أَوْ قَالَ: "إِنَّهُ لَبَحْرٌ"<sup>(٤)</sup>. وقد استخلص الإمام النووي - رحمه الله - من فوائد هذا الحديث استحباب تبشير الناس بعدم الخوف<sup>(٥)</sup>، وهو ظاهر في الدلالة على أهمية الأمان في حياة الناس.

٩. التَعَايُشُ وَوَحْدَةُ الْمَجْتَمَعِ: وَلَعَلْنَا نَصِلُ الْآنَ إِلَى آخِرِ مَبْدَأِ فِي مَبَادِي حِمَايَةِ الْوَطَنِ، أَلَا وَهُوَ ضَمَانٌ وَحْدَةَ الْمَجْتَمَعِ، مَعَ مَا يَتَّبَعُهُ مِنَ التَّعَايُشِ السَّلْمِيِّ بَيْنَ مَخْتَلَفِ مُكُونَاتِهِ، فَقَدْ جَاءَتْ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ بِالْحَثِّ عَلَى وَحْدَةِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةٌ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾<sup>(٦)</sup> [المائدة: ٠٢]، وَقَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْدِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾<sup>(٧)</sup> [الحجرات: ١٠]، وَفِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ: "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحِمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى"<sup>(٨)</sup>. وَهَذِهِ لَبِنَةٌ أَسَاسِيَّةٌ فِي بِنَاءِ الْوَطَنِ وَحِمَايَتِهِ مِنْ أَيِّ تَصَدُّعَاتٍ أَوْ شِقَاقَاتٍ قَدْ تَعَصَّفَ بِهِ، وَتَجَعَّلُهُ غَرَضَةً لِلْفُرْقَةِ وَالتَّمَرُّقِ، مِمَّا يُضَعِّفُهُ وَيَتْرِكُهُ فَرِيْسَةً سَهْلَةً لِلْأَعْدَاءِ.

وكما أَنَّ لِلْمُسْلِمِينَ عِلَاقَاتِهِمُ الْمُوَحَّدَةَ، فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَعِيشُونَ عَلَى أَرْضِهِمْ وَفِي وَطَنِهِمْ عُهُودٌ وَمَوَاقِيقُ تَضَمَّنُ التَّعَايُشَ السَّلْمِيَّ، وَتَبَادُلُ الْمَنَافِعِ بِمَا يَكْفُلُ حُقُوقَ كُلِّ طَرَفٍ، وَلَا أَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ بِالْعَدْلِ مَعَ الْغَيْرِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٠٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

١- أي ما عليه سرج في عنقه. كذا قال الحافظ في الفتح، ٧٠/٦.

٢- قال الحافظ: "هي كلمة تقال عند تسكين الرُّوع؛ تأنيسا وإظهارا للرفق بالمخاطب". فتح الباري، ٥/٤٠٠.

٣- أي واسع الجري. انظر: شرح النووي، ٦٨/١٥.

٤- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: الْجِهَادُ وَالسَّيْرُ، بَابُ الْحَمَائِلِ وَتَعْلِيْقُ السَّيْفِ بِالْعُنُقِ، ٣٩/٤ (٢٩٠٨)؛ وَمُسْلِمٌ: الْفَضَائِلُ، بَابُ فِي شَجَاعَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَقَدُّمِهِ لِلْحَرْبِ، ١٨٠٢/٤ (٢٣٠٧).

٥- انظر: شرح النووي، ٦٨/١٥.

٦- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الْبُخَارِيُّ: الْأَدَبُ، بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ، ١٠/٨ (٦٠١١)؛ وَمُسْلِمٌ: الْبِرُّ وَالصَّلَاةُ وَالْأَدَابُ، بَابُ تَرَاحِمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاوُدِهِمْ، ١٩٩٩/٤ (٢٥٨٦).

ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا  
 ٨ ﴿٨﴾ [المائدة: ١٠٨].

بَلْ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَشْرَعُ الدِّيَةَ فِي قَتْلِ الْمُعَاهِدِ، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وجاء في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَوْلُهُ رضي الله عنه: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَّدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"<sup>(١)</sup>. والمُعَاهِدُ كما قال الحافظ: "من له عهدٌ مع المسلمين؛ سواءً كان بِعَقْدِ جَزِيَّةٍ، أو هُدْنَةٍ من سُلْطَانٍ، أو أَمَانٍ مِنْ مُسْلِمٍ"<sup>(٢)</sup>.

وهذا إنما يُدُلُّ على أَهْمِيَّةِ التَّعَايُشِ مَعَ مَنْ يَخَالِفُونَا، حِفَاظًا على الصَّالِحِ الْعَامِّ، وقيامًا بِحُقُوقِ الْوَطْنِ فِي الْإِسْهَامِ فِي بِنَائِهِ، وَحِمَايَتِهِ مِنَ الْقَلَاقِلِ وَالْفِتَنِ.

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ الْمَبَادِيِ وَالْمَنْطَلَقَاتِ فِي حِمَايَةِ الْوَطْنِ، كما يُمكنُ اسْتِخْلَاصُهَا مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَشْرُفَةِ.

وَأَصِلُ فِي خَآئِمَةِ هَذَا الْبَحْثِ إِلَى الْخَاتَمَةِ، وما تَضَمَّنَتْهُ مِنْ نَتَائِجٍ وَنَوْصِيَّاتٍ.

١- البخاري: الجزية، بَابُ إِثْمِ مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا بِغَيْرِ جُرْمٍ، ٩٩/٤ (٣١٦٦)؛ والديات، بَابُ إِثْمِ مَنْ قَتَلَ ذِمِّيًّا بِغَيْرِ جُرْمٍ، ١٢/٩ (٦٩١٤).  
 ٢- فتح الباري، ٢٥٩/١٢.

الخاتمة: في نهاية هذا البحث، نلخص إلى بعض النقاط الرئيسية، التي يمكن أن نستشفها مما تمت مناقشته في صفحاته، من خلال نتائج وتوصيات، أجملها فيما يأتي:

### أولاً: النتائج

١. إنَّ الوَطَنَ هو المكان الذي يتخذهُ المرءُ مكاناً ومُسْتَقَرّاً لِلعَيْشِ فِيهِ، بَعْضُ النَّظَرِ عَنِ أَصْلِ مَنْشَأِهِ.
٢. لِلْمُوَاطَنَةِ مَعْنَى عَامٌّ يَجْتَمِعُ فِيهِ سُكَّانُ الوَطَنِ الوَاحِدِ، وَيَعْمَلُونَ مِنْ خِلَالِهِ عَلَى خَيْرِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ.
٣. حُبُّ الوَطَنِ فِطْرَةٌ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ، وَهُوَ مَا يُعَزِّزُ قِيَمَةَ الْإِنْتِمَاءِ وَالتَّفَانِي فِي خِدْمَةِ الوَطَنِ وَأَبْنَائِهِ.
٤. لَا غِنَى لِكُلِّ إِنْسَانٍ عَنِ وَطَنِ يَأْلَفُهُ بِمَا فِيهِ مِنْ مَكْنُونَاتٍ، وَيُشَكِّلُ مَعَ قَوْمِهِ مُجْتَمَعًا قَوِيًّا وَمُتَماسِكًا.
٥. طُمَأْنِينَةُ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ وَرَعْدُ الْعَيْشِ أَسَاسُ اسْتِقْرَارِ الْأَوْطَانِ.
٦. الْإِقَامَةُ فِي وَطَنِ مَعْلُومٍ سَبَبٌ لِلِاسْتِقْرَارِ النَّفْسِيِّ وَالْأَسْرِيِّ.
٧. الوَطَنُ فُرْصَةٌ لِتَحْقِيقِ وَتَعْزِيزِ مَبْدَأِ التَّعَاوُنِ وَالتَّوَادُدِ وَالتَّرَاحُمِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ الْوَاحِدِ.
٨. وَطَنُ المرءِ هو الذي يُحْفَظُ فِيهِ حُقُوقُهُ وَكِرَامَتُهُ.
٩. إِنَّ أَسْمَى أُسَاسِيَّاتِ حِمَايَةِ الوَطَنِ وَمُنْتَطَلِقَاتِهَا هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاحِدِ الْأَحَدِ عَلَى أَرْضِهِ.
١٠. الوَطَنُ نِعْمَةٌ، وَحُبُّهُ بِكُلِّ مَا فِيهِ نِعْمَةٌ أُخْرَى، تَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ لِلَّهِ تَعَالَى.
١١. مِنْ حُقُوقِ الوَطَنِ عَلَى أَبْنَائِهِ الدُّعَاءُ لَهُ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَالدَّفَاعُ عَنْهُ بِالنَّفْسِ وَالتَّنْفِيسِ.
١٢. الْحِفَاظُ عَلَى مُقَدَّرَاتِ الوَطَنِ مَبْدَأٌ مِنْ مَبَادِي الْقِيَامِ بِوَجِبِ شُكْرِ النِّعْمَةِ لِلَّهِ تَعَالَى.
١٣. الْإِسْهَامُ فِي بِنَاءِ الوَطَنِ وَخِدْمَتِهِ شَرَفٌ لِكُلِّ مُنْتَمٍ إِلَيْهِ.
١٤. لِكُلِّ دَوْلَةٍ قَوَانِينُهَا الْمُنْتَظَمَةُ لَهَا، وَمِنْ وَاجِبِ الْمُنْتَمِينَ إِلَيْهَا الْإِتْرَامُ بِهَا، وَالْعَمَلُ عَلَى تَنْفِيدِهَا؛ حِفَاظًا عَلَى الْأَمْنِ الْعَامِّ، وَاسْتِقْرَارِ النَّاسِ فِي حَاضِرِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِهِمْ.

١٥. التَّعَايُشُ مِنْ أَهَمِّ مَبَادِيِ اسْتِقْرَارِ الْأَوْطَانِ وَالْمَجْتَمَعَاتِ، لِمَا لَهُ مِنْ دَوْرٍ فِي حِفْظِ الْحُقُوقِ وَأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ، وَتَنْظِيمِ الْعَلَاقَاتِ الْقَائِمَةِ عَلَى تَبَادُلِ الْمَنَافِعِ، وَخِدْمَةِ الصَّالِحِ الْعَامِّ.

#### ثَانِيَا: التَّوْصِيَاتِ

١. اعْتِمَادُ الْمَنَاهِجِ التَّرْبَوِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ الَّتِي تَعْرِسُ فِي نَفُوسِ الطُّلَابِ الْحِفَاظَ عَلَى الْوَطَنِ قَوْلًا وَعَمَلًا.
٢. بَثُّ الْوَعْيِ لَدَى الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ بِضُرُورَةِ غَرْسِ قِيَمَةِ حُبِّ الْوَطَنِ وَالتَّقَانِي فِي خِدْمَتِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى.
٣. تَوْجِيهُ النَّاشِئَةِ إِلَى خِدْمَةِ أَوْطَانِهِمْ بِمُخْتَلَفِ الْأَنْشِطَةِ التَّطَوُّعِيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّةِ؛ لِتَنْمِيَةِ الْحِسِّ الْوَطَنِيِّ فِي نَفُوسِهِمْ عَنْ طَرِيقِ مُؤَسَّسَاتِهِمِ التَّعْلِيمِيَّةِ وَالتَّرْبَوِيَّةِ.
٤. تَعَاهُدُ إِقَامَةِ الْمُؤْتَمَرَاتِ وَالنَّدَوَاتِ الَّتِي تُبَيِّنُ عِنَايَةَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السَّمْحَةَ قُرْآنًا وَسُنَّةً بِحُبِّ الْأَوْطَانِ، وَالْحِفَاظِ عَلَيْهَا، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا.

هَذَا، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ،

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

## فهرس المصادر والمراجع

- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط ٣، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٠هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، مرتضى، الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤هـ.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط ١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٦٥٤هـ)، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٠٤هـ.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وأخران، ط ٢، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ط ١، الهند - حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف النظامية، ١٣٤٤هـ.
- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط ٢، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري (ت ٢١٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط ٣، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ-١٩٩٠.
- شرح النووي على مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.



## حِمْيَاةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَبَادِي وَالْمُنْطَلَقَاتِ

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط ٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (المتوفى: ١٣٢٩هـ)، ط ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.
- القاموس المحيظ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- قاموس المصطلحات السياسية والدستورية، أحمد سُعيفان، ط ١، بيروت، مكتبة لبنان، ٢٠٠٤ م.
- الكليات (كتاب)، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري (ت ٧١١)، ط ١، بيروت: دار صادر، ١٤١٤ هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، غالب بن علي عواجي، ط ١، جدة، المكتبة العصرية الذهبيّة، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط ١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

- المعجم الفلسفي (بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية)، جميل صليبا (ت ١٩٧٦م)، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٢٩هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- المُوَاطَنَة في غير ديار الإسلام بين النافين والمثبتين - دراسة فقهية نقدية-، صلاح الدين سلطان، ط ١، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- موسوعة القانون الدولي العام، خليل حسين، ط ١، بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠١٢ م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد، ابن الأثير الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

تعزير الانتماء وأثره في حماية الوطن  
من خلال الهدي النبوي

الدكتور / شفيق لامة

أستاذ التعليم العالي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق - جامعة الحسن الثاني

الدار البيضاء - المملكة المغربية





## المقدمة:

خلق الله تعالى الإنسان محبوباً على حب الوسط الذي يحس فيه بالأمن والاستقرار، ويزداد حبه لهذا المحيط بتوسع دائرة علاقاته الاجتماعية المحافظة على هذا الأمن الذي تحتفي فيه مظاهر ودواعي التوتر والصراع والاختلاف، ويتحول بشكل أو بآخر إلى أداة تحول دون فقدانه لهذا المكسب، بل قد يدخل في علاقات تعاونية مع أفراد ومؤسسات قد لا يشاركها المعتقد نفسه للحفاظ على هذا الأمن الذي إذا ما فقدته يحس بفقدان وجوده وكيونته تبعاً.

وفي ظل تنامي ظاهرة ضعف الانتماء للوطن وحماية أمنه بين فئات من شباب الأمة في الأزمنة المتأخرة، ونشر أنواع من الخطاب السلبي اتجاه هذا الوطن؛ تبرز الحاجة إلى موضوع يبحث عن سبل تعزيز الانتماء للوطن في ضوء الهدي النبوي.

وسيكون من الإجحاف عدم الإشارة إلى من تناول هذا الموضوع بالدراسة وسبق إليه، أو على الأقل أثار أحد مباحثه وموضوعاته، وفي هذا الصدد نذكر جملة من الرسائل والمقالات لباحثين عالجوا الموضوع من زوايا مختلفة على النحو الآتي:

- "الانتماء إلى الوطن وأثره في حماية الشباب من الانحراف"<sup>(١)</sup>: وهو بحث للدكتور بدر بن علي بن عبد الله عبد القادر، أكثر فيه صاحبه من الشواهد القرآنية والحديثية التي تؤكد أهمية الانتماء للوطن، وانعكاس ذلك على فئة الشباب خاصة دون غيره من باقي أفراد المجتمع.

- "تعزيز الانتماء وأثره على الفرد والمجتمع"<sup>(٢)</sup>، وقد تناول فيه صاحبه مفهوم الانتماء

١- بحث تقدم به صاحبه ضمن مؤتمر واجب الجامعات السعودية وأثرها في حماية الشباب من الجماعات والأحزاب والانحراف، والذي نظّمته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتاريخ ١١-١٢ جمادى الأولى ١٤٣٩هـ الموافق لـ ٢٨-٢٩ يناير ٢٠١٨. المجلد الخامس/ ص١٥٥٧-١٥٩٣

٢- رسالة علمية تقدم بها صاحبها لنيل درجة الماجستير سنة ١٤٣٧هـ بكلية التربية التابعة لجامعة جدة بالمملكة العربية السعودية.

- وأهميته وموقف الإسلام منه، مستشهداً بنصوص شرعية كثيرة، من باب الاستدلال لا من باب الاستنباط والاستنتاج، مع بيان بواعث ودوافع الانتماء لدى الفرد والجماعة.
- "ضعف الانتماء، مظاهر وعلاج"<sup>(١)</sup>، للكاتب محمد الطائي وهو عبارة عن مقال في مجلة المجتمع الإسلامي، حاول فيه صاحبه مقارنة الموضوع من الجانب النفسي والاجتماعي.
- "دور إذاعة (أمن.إف.إم) في تعزيز الانتماء الوطني لدى الطلبة الجامعيين"<sup>(٢)</sup>: وهو عبارة عن رسالة علمية لنيل درجة الماجستير للطالب يوسف حمائل بكلية الإعلام التابعة لجامعة الشرق الأوسط، ويظهر من الوهلة الأولى أن الموضوع مقتصر فقط على الجانب الإعلامي، بما يطرح مسألة الحاجة إلى بحث يتناول الموضوع تناولاً جدياً وجديداً وشمولياً، يستحضر السيرة النبوية وقراءتها في سياق الأحداث المعاصرة، مع طرح السؤال الكبير: كيف كان تصرف رسول الله ﷺ لو كان بين ظهرانيها في خضم الوقائع الراهنة؟ وهكذا تأتي هذه الورقة لتشير سؤال البحث عن الآليات التي يمكنها بناء الإنسان المسلم الذي يعتز بالانتماء لوطنه، ويحرص على تصريف طاقاته ومهاراته في وطنه من خلال تفاعله الإيجابي مع من يشاركونه هذا الوطن، وإن اختلفت عقائدهم وتباينت أفكارهم وقناعاتهم، فالوطن وعاء مشترك يتسع للجميع.
- وفي هذا السياق، لا يسعنا إلا تلميح الجهود الحميدة التي تقوم بها الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية/ديب، خدمة لسنة رسول الله ﷺ، وكذا التنويه بالمواضيع العلمية التي تختارها وتنقيها لندواتها وأنشطتها العلمية، والتي توجت هذه السنة في إطار الندوة الدولية التاسعة، بعنوان: "حماية الوطن في السنة النبوية: مقصد شرعي وضرورة مجتمعية"، وذلك بمشاركةنا في هذه الندوة المباركة من خلال هذه الورقة البحثية التي اخترنا لها عنوان: "تعزيز الانتماء وأثره في حماية الوطن من خلال الهدى النبوي".

١- هو مقال بتاريخ ٢٤ فبراير ٢٠١٥ بمجلة المجتمع، الموقع

<http://mugtama.com/theme-showcase/item/14864>

٢- رسالة ماجستير تقدم بها صاحبها سنة ٢٠١١م بكلية الإعلام جامعة الشرق الأوسط.

## إضاءة مفاهيمية: (مفهوم الانتماء / مفهوم الوطن)

١. مفهوم الانتماء: وهو من الجذر اللغوي نَمِيَ نَمِيًا، ومعناه الزيادة و الكثرة والعلو والارتفاع<sup>(١)</sup>، وانتمى على صيغة افتعل، التي تدل على المطاوعة والمشاركة والعادة. وإذا عدي هذا الفعل بحرف الجر (إلى)، أصبح من معانيه الاعتزاء والانتساب إلى الشيء والالتصاق المعنوي به، فيقال: فلان ينتمي إلى قبيلة كذا أي ينتسب إليها وتجمعه بها روابط النسب، كما أنه يحس اتجاهها بشعور الالتصاق الفكري والعاطفي، وإن بانَت بينه وبينها الديار، وبه نفهم تلك القصائد في الجاهلية التي كان الشعراء يرتبطون بها عاطفيًا ووجدانيًا من خلال ذكر الأجدة والأوطان.

٢. مفهوم الوطن: الوطن من الثلاثي: وَطَنَ: وَالْوَطَنُ: هو "مَحَلُّ الْإِنْسَانِ وَالْمَكَانَ الَّذِي يَقِيمُ فِيهِ، وَيُقَالُ: أَوْطَنَ فُلَانٌ أَرْضَ كَذَا، أَيْ: اتَّخَذَهَا مَحَلًّا وَمَسْكَنًا يَقِيمُ بِهَا، وَالْمَوْطِنُ: كُلُّ مَكَانٍ أَقَامَ بِهِ الْإِنْسَانُ لِأَمْرٍ. ووَاطِنْتُ فُلَانًا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، أَيْ: جَعَلْتُمَا فِي أَنْفُسِكُمَا أَنْ تَعْمَلَاهُ وَتَفْعَلَاهُ، فَإِذَا أَرَدْتَ مُوَاَفَقَتَهُ قُلْتَ: وَاطَأْتُهُ. وتقول: وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى الْأَمْرِ فَتَوَطَّنْتُ، أَيْ: حَمَلْتُمَا عَلَيْهِ فَذَلَّتْ..."<sup>(٢)</sup>. وقد سعى بعضهم إلى التفريق بين الوطن والموطن الذي هو مصدر ميمي للوطن يجعل هذا الأخير يدل على الحروب والمواقع، واستدل له من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup>. وفي اعتقادي-والله أعلم- أن السياق هو الذي يحدد معنى الكلمة، والأصل فيه هو دلالته على محل إقامة الإنسان وسكناه، ويشترك معه في هذا المعنى على لغة العرب أحيانًا جنس الغنم والبقر والإبل، ففي لسان العرب: "الوطن: المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحلّه... وأوطان الغنم والبقر: مراتبها وأماكنها التي تأوي إليها."<sup>(٤)</sup> وفي الحديث عن عبد الرحمن بن شبل قال: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَفَرَةِ الْغُرَابِ،

١- الأزهري، تهذيب اللغة، ج ١٥/ص ٣٧١.

٢- الفراهيدي، العين، ج ٧/ص ٤٥٥.

٣- سورة التوبة: الآية ٢٥.

٤- ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣/ص ٤٥١.

وَأَفْتَرَأَشِ السَّبْعِ، وَأَنَّ يُوطَّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ فِي الْمَسْجِدِ كَمَا يُوطَّنُ الْبَعِيرُ<sup>(١)</sup>. فنهى أن يتخذ لنفسه من المسجد مكانا معنا لا يصلي إلا فيه. كالبعير لا يبرك من عطنه إلا في مبرك قلم.

وأما الموطن فكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موطن له، ومنه مواطن مكة؛ أي موافقها<sup>(٢)</sup>، وبهذا فهو أعم من الأول؛ إذ يعني (المكان أو الموضوع أو الموقف) بصورة عامة سواء أكان ذلك المكان وطنا أم كان غير ذلك، كما أن الموطن قد يتوسع فيه فيستعمل استعمالات أخرى بعضها مجازي، فيقصد به الموقعة الحربية كما تقدم أو المقام أو الموقف أو المنزل أو المجلس... إلخ، وكل ذلك يستدل عليه من السياق والقرائن، فإذا قلت: المغرب موطني، فالموطن هنا بمعنى الوطن، وإذا قلت: هذا الوادي موطن سوء، فالموطن بمعنى المكان أو الموضوع فحسب، وإذا قلت: ابتعد عن مواطن الذل، فالموطن بمعنى الموقف،... إلخ.

٣. الفرق بين الوطن والدولة: إذا كان من معاني الوطن الإقامة والتوطين والإذلال والاستقرار وحمل النفس على التعود على مكان معين كما تقدم ذكره؛ فإن مفهوم الدولة يفيد معنى التغيير والتبدل والتحول، إذ تعود في جذرها اللغوي إلى الثلاثي "دَالَ" بما يفيد من الانتقال والتداول، وعليه؛ فالوطن استقرار أكثر وثبات من خلال المجتمع المدني الذي يشكله، بينما تعني الدولة مفهوم الغلبة والقهر بما يؤديه مدلول التحكم والإدارة والتسلط السياسي الذي

١- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود. ج ١/ ص ٢٢٨ ح ٨٦٢. وقد ضعف سنده الأرنؤوط في المسند ج ٢٤/٢٩٢/ح ١٥٥٣٢ لتفرد تميم بن محمود عن عبد الرحمن بن شبل به، وقد ضعفه جماعة منهم البخاري والعقيلي، ووثقه آخرون، منهم ابن حبان، والحاكم بموافقة الذهبي له في التلخيص، و هذه الطريق وطريق عبد الحميد بن سلمة عن أبيه مرفوعا التي أخرجهما أحمد، جعلت الإمام الألباني يحسنه "ويقول: لكن له شاهد يتقوى به." (ينظر تخريجه للحديث في: سنن أبي داود ج ٤/ص ١٣، وفي الصحيحة ج ٣/ص ١٥٦/ح ١١٦٨) وذلك رغم جهالة عبد الحميد وأبيه كما صرح بذلك الحافظ في التهذيب ج ٦/ص ١١٦، وفي اعتقادي أن تخريج ابن حبان وابن خزيمة لهذه الطريق في صحيحيهما، جعل الإمام الألباني رحمه الله يحكم بحسن الحديث لما يتقوى به من شواهد أحاديث أخرى كحديث أبي هريرة وحديث عائشة رضي الله عنهما فلتنظر في مظانها، والله أعلم.

٢- ينظر لسان العرب: ج ١٣/ ص ٤٥١.



تمارسه فئة اجتماعية على فئة أخرى، ولذلك قالوا: إن الأيام دول، وهي عبارة توحى بالتغيير والحركة والتبدل، فبين الوطن والدولة تضاد من هذا الجانب وإن اتحد المدلول أحياناً، إذ لا غنى لأحدهما عن الآخر. كما أن هناك معياراً آخر للتفرقة، وهو المعيار الداخلي والخارجي للشعوب والأمم التي تعيش داخل هذه الوحدات السياسية، فلا تنظر إلى تلك الرقع الجغرافية المغايرة لأوطانها باعتبارها أوطاناً، بل هي دول وكيانات سياسية تحكم مواطنيها، بينما لا تجد الحرج نهائياً في اعتبار الدول التي تحكمها، وتنظم العلاقة بينها وبين حاكمها - كيفما كانت هذه العلاقة - أوطاناً، لكون الارتباط بينهم وبين أوطانهم ارتباط انتماء وولاء، وهم بهذا مواطنون، ومن خلال هذا المعيار، نفهم معنى قول بعضهم:

بلادي<sup>(١)</sup> وإن جارت علي عزيزة وأهلي وإن ضنوا علي كرام<sup>(٢)</sup>

٤. مفهوم الانتماء للوطن: بعدما عرفنا مفهوم الانتماء مفرداً، والوطن مفرداً يمكن تعريف الانتماء للوطن بأنه ذلك الانتساب الحقيقي للوطن بما يشكله هذا الأخير من مكان يجتمع فيه أفراد متشاركون من حيث الدين والفكر والوجدان، وإلا فهم متطاعون إن لم تكن لهم هذه الأمور التي توحدهم، لوجود قدر مشترك بينهم من حيث الحقوق الإنسانية التي يمتلكونها جميعاً داخل هذا الوطن، كالبحت عن الأمن والحق في الحياة، وتبادل المنافع، ما يجعلهم يعتزون بهذا الانتماء عن طريق الالتزام والثبات على المنهج والتفاعل مع احتياجاته، ويتجلى ذلك كله من خلال مواقف تظهر المحبة العميقة للوطن، وتدعو صاحبها إلى التعلق به، والتفاني في حمايته والتضحية لأجله.

١- ورد هذا البيت أيضاً بلفظ، " وطني وإن جارت علي عزيزة....، وقد نسب إلى أبي فراس الحمداني ووزنه لا يستقيم.

٢- لعل قائل البيت الأصلي هو: الشريف قتادة أبو عزيز بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم. تولى إمارة مكة المكرمة عام ٥٩٧ هـ وتوفي ٦١٧ هـ. وذلك بعد الاضطراب الشديد في القائل الأصلي له. من موقع

[/https://awraq-adbyah.tumblr.com](https://awraq-adbyah.tumblr.com)

## المبحث الأول:

### أسس تعزيز الانتماء للوطن من خلال نصوص السنة والسيرة النبوية

إن الدارس لتاريخ الأمة الإسلامية ليقف مندهشاً مشدوهاً، كيف لأمة انبعثت من أعماق الصحراء، ولم يكن لها ذكر لا في العير ولا في النفير؛ أن يكون لها هذا الشأن بعد حين من الدهر، وأن يكتب لها الاستمرار والصمود عبر تاريخ الوقائع والأحداث التي ما نالت من حضارة أو أمة، إلا جعلتها نسيًا منسيًا، وما فتئت يد الزمان تمزقها إربًا إربًا حتى تدعها شذر مذر، وتكون أحاديث لمن يأتي بعدها؟ لكن هذا العجب سرعان ما ينمحي حين نستحضر عناية السماء، ورسالة الوحي الإلهي التي حملها خير البشرية محمد ﷺ.

ولا نريد هنا أن نستعرض تاريخ هذه الأمة بقدر ما نريد أن نقف على تلك الأسس التي بنيت عليها، والأركان التي قامت عليها ركائزها، وخصوصا في مراحل البناء الأولى، ونقصد بذلك الفترة النبوية بمراحلها المكية والمدنية، فنستقرئ النصوص، ونقف مع الأحداث لنستخلص منها العبر والدروس التي توقفنا على معالم المنهج الأمثل لتحقيق مفهوم الانتماء للوطن؛ إذ إن رسول الله ﷺ في المرحلة المكية قام ببناء دولة الأفراد في قلوب أتباعه من المؤمنين، ولما هاجر إلى المدينة انتقل إلى بناء دولة المؤسسات، وبعبارة الوحي الإلهي، تجسدت تلك العقائد والقيم والتعليم في مدينة رسول الله ﷺ بعد مهاجره إليها، فبدأت الملامح الكبرى للوطن تظهر من خلال مجموعة من التشريعات والأسس التي وجدت الأرضية جاهزة لترجمتها على أرض الواقع.

وهكذا يمكننا الحديث عن أربعة أسس شكلت دعائم لتمتين و الروابط بين أفراد هذا الوطن في الدولة الفتية الناشئة وتعزيزها، يمكن لمخها من خلال الآتي:

### المطلب الأول: الأساس العقدي الإيماني

إن المقصود من إثارة العقيدة والإيمان في هذا المقام استنباط ما يمكن استنطاقه من نصوص الكتاب والسنة لتعزيز روح الانتماء للوطن لدى الشباب والناشئة في زمننا هذا، مع استحضار فعل النبي ﷺ في سنة الإخاء بين المهاجرين والأنصار، إثر مهاجره عليه الصلاة والسلام إلى طابة الطيبة، بعدما كانت موطنًا للأوس والخزرج الذين آمنوا برسول الله ﷺ وصدقوه، ووعده بنصرته إن

خرج إليهم، واستقر بين أظهرهم، فكان هذا هو الوطن الجديد للمسلمين في تلك الفترة يشتركون فيه مع أصحاب الملل والنحل الأخرى الموجودة فيه.

وعليه فقد وجد النبي ﷺ بعد هجرته تنوعاً عقدياً وقبلياً، وسيكون من مهامه بعد ذلك مواجهة هذا الواقع بالبحث عن الركائز والأسس التي ستقوم عليها الدولة الناشئة، فكان لا بد من ترتيب للبيت الداخلي، وبحث عن مشترك يوحد المجتمع المسلم فيما بين أفرادهِ أولاً، قبل التوجه إلى البحث عن المشترك مع باقي مكونات المجتمع الأخرى، لتكون سنة الإخاء في الله حلاً ربانياً ألهم الله إليه نبيه ﷺ باعتبارها ذلك الرباط الرباني المنبثق عن عقيدة الإيمان، فتزيد بزيادته وتنقص بنقصه، ولقد نص القرآن الكريم في العديد من آياته ورسول الله ﷺ في العديد من أحاديثه على ذلك صراحة قال تعال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾<sup>(١)</sup>. وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه"<sup>(٢)</sup>، فكان من شدة حرص النبي ﷺ عليها أن انتقل إليها مباشرة بعد بناء المسجد، ولما كان ﷺ يدركه من أهمية بالغة للزمان في سرعة إيجاد تلك اللحمة بين أولئك المسلمين الذين تركوا الأوطان والديار واغتربوا مهاجرين إلى الله ورسوله، وستتحرك أفئدتهم حتماً لما يطوف بخيالاتهم تلك الربوع وتلك الأطلال التي تركوها خلفهم في مكة وقد شكلت جزءاً كبيراً من شخصياتهم، وبين مسلمين لم يجربوا الإحساس نفسه لكنهم صادقون في النصره وفي الإيواء، فكان الإيمان بالله وقوته هو الحافظ المانع من كل ما قد يجعل الوافدين الجدد لا ينسجمون مع الأجواء الطبيعية الجديدة، ولا يندمجون بسهولة في النسيج الاجتماعي الجديد، باعتباره حبلاً سرياً عقدياً يربط بين الوافد الجديد والمقيم القديم، وأطلق عليه بين أفراد الجماعة الجديدة حبل الأخوة في الله، وحبل العقيدة في الله، والتي لو لم تنشأ على عهد رسول الله ﷺ وكانت واقعاً يمشي ويتحرك، لكانت ضرباً من الخيال ولعدت من أحلام الحالمين.

وهكذا وُجدت جماعة المسلمين الأولى وكونت لها وطناً جديداً، تسلل إلى قلبها حبه والاستعداد التام والصادق لبذل الغالي والنفيس للذود عنه وعن أهله، وقد ظهر هذا الحب في

١- سورة الحجرات الآية ١٠.

٢- متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، (ج ١/١٢ ح ١٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نفي الإيمان عن لا يحب لأخيه وجاره ما يحب لنفسه. (ج ١/ص ٤٩/ح ٧٩).

العديد من الأحداث التي زحرت بها سيرة رسول الله ﷺ، وخصوصاً تلك التي تطلبت التضحية بالنفس والمال والجهد، كالدفاع عن الدين والعرض والأرض، وسنقتبس في هذا المقام مشهدين معبرين:

**المشهد الأول:** وهو ثبوت الخبر عن رسول الله ﷺ أنه كلما كان خارج المدينة في سفر تعجل الرجوع إليها وعندما يطلعه جبل أحد، يقول ﷺ: " هذا جبل يحبنا ونحبه"<sup>(١)</sup>. وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس، " أن رسول الله ﷺ كان إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَكَهَا"<sup>(٢)</sup>. وعنه عن حميد قال: أي (من حبها)<sup>(٣)</sup>. قال ابن بطال: "يعني لأنها وطنه، وفيها أهله وولده الذين هم أحب الناس إليه، وقد جبل الله النفوس على حب الأوطان والحنين إليها، وفعل ذلك عليه السلام، وفيه أكرم الأسوة، وأمر أمته سرعة الرجوع إلى أهلهم عند انقضاء أسفارهم"<sup>(٤)</sup>.

**المشهد الثاني:** ما رواه الشيخان في صحيحهما من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم في شأن قسمة غنائم حنين، إذ برز جلياً ذلك الخطاب الإيماني الذي توجه به رسول الله ﷺ إلى الأنصار، ولم ينصرف إلا لسان حال القوم يردد: رضينا بالله ربا وبالنبي ﷺ رسولاً ونبيّاً، خاصة بعد شدة تأثرهم بالخطاب اللين والرقيق الذي خصهم به رسول الله ﷺ، ولنترك عبد الله بن زيد وهو من شهود الواقعة يرويها لنا كما نقلها حيث قال: "لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: "يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي" كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن، قال: "ما يمنعكم أن

١- فعن أبي حميد الساعدي قال: أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك، حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه "والحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في الصحيح واللفظ له: كتاب المغازي، باب من غزا بصبي الخدمة، ج ٦/ص ٨ (ح ٤٤٢٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه (ج ٢/ص ١٠١١/ح ١٣٩٢).

٢- أي زاد في سرعتها، "يقال أوضعت بعيري موضع، واسم السير الوضع، وهو سير حثيث دون الجهد." ينظر غريب الحديث لابن قتيبة ج ٢/ص ٣.

٣- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب مَنْ أَسْرَعَ نَاقَتَهُ إِذَا بَلَغَ الْمَدِينَةَ، ج ٣/ص ٧/ح ١٨٠٢.

٤- شرح ابن بطال: ج ٨/ص ٣٥ (ح ١٣٥).

تجيبوا رسول الله ﷺ". قال: كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمن، قال: "لو شتتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرئاً من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض"<sup>(١)</sup>. وعليه، فإن الإيمان إذا قر في القلب أثمر المحبة والألفة بين أفراد الوطن؛ فحافظوا عليه لأن ذلك معناه الحفاظ على أحوالهم وتضامنهم، وداوموا بالتالي على أمنهم واستقرارهم. ومن هنا ندرك لماذا تردد واشتهر ذلك الحديث على ألسنة الناس "حب الوطن من الإيمان"<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من عدم صحته، قال العجلوني في كشفه: "قال الصغاني: موضوع. وقال في المقاصد: "لم أفق عليه، ومعناه صحيح". وردَّ القاري: "قوله ومعناه صحيح" بأنه عجيب. قال: إذ لا تلازم بين حب الوطن وبين الإيمان. وردَّ أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> فإنها دلت على حبهم وطنهم، مع عدم تلبسهم بالإيمان؛ إذ ضمير "عليهم" للمنافقين، لكن انتصر له بعضهم بأنه ليس في كلامه أنه لا يجب الوطن إلا مؤمن، وإنما فيه أن حب الوطن لا ينافي الإيمان. "انتهى"<sup>(٤)</sup>.

**قلت:** وهذا الكلام الأخير هو الراجح بإذن الله تعالى لشواهد كثيرة، أما رده (أي القاري) صحة معنى الأثر فلا وجه معتبر له، ذلك أن هذه الصحة ليست على إطلاقها بدليل قوله بعد ذلك: "ومعناه صحيح نظراً إلى قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نُقْتِلَ فِي

١- متفق عليه: صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، ج ٥/ص ١٥٧/ح ٤٣٣٠، صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه. ج ٢/ص ٧٣٨/ح ١٠٦١.

٢- قال الألباني في الضعيفة: "موضوع. كما قال الصغاني وغيره. ومعناه غير مستقيم إذ إن حب الوطن كحب النفس والمال ونحوه، كل ذلك غريزي في الإنسان لا يمدح بحبه ولا هو من لوازم الإيمان، ألا ترى أن الناس كلهم مشتركون في هذا الحب لا فرق في ذلك بين مؤمنهم وكافرهم؟" ج ١/ص ١١٠/ح ٣٦.

٣- سورة النساء الآية ٦٦.

٤- العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ج ١/ص ٣٩٩.

سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا ﴿١﴾ فَصَحَّتْ مُعَارَضَتُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْتُمْ عَلَيْنَهُمْ أَنِ اقْتُلُوا﴾ ﴿٢﴾، ثم لكون الرابطة التي تربط بين المؤمن ووطنه إن كانت تنبني على ما يقام فيه من شعائر التوحيد، فهو من الإيمان، وإن كانت محبة إخوانه من المؤمنين، فهو من الإيمان، وإن كانت صلة لرحمه فهي من الإيمان، وإن كانت من أجل إحسانه إلى أهل بلده من فقرائه وأيتامه فهو من محض الإيمان، وذلك مختص حتمًا بالمؤمن دون غيره، ولا يوجد في غيره لكي لا يصلح أن يكون علامة. ألا ترى بأن المسجد، وهو أحب الأماكن إلى الله تعالى، هو أحب البقاع إلى نفس المؤمن، فلا يبغضه إلا مشرك أو منافق، فصح بأن حب هذا الموطن وهذه البقعة من الإيمان.

### المطلب الثاني: الأساس التعبدي الشعائري

إن أبرز سمة ظاهرة في هذا الأساس ذلك الحرص الشديد من دين الإسلام على المواظبة في أداء الشعائر الدينية

جماعة بين أتباعه وأنصاره، وهو ما يسمى بجماعية الطاعة، وفي هذا المقام نلاحظ أن شريعة الإسلام وحدت أهلها بالشهادتين قولاً واعتقاداً، فالداخل فيها داخل في حصن الأمان، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى عن كلمة التوحيد وما توجه لصاحبها: "هي الكلمة التي قامت عليها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله على جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار، وهي المنشور الذي لا يدخل الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان، وهي العمود الحامل للفرز والسنة، و"من كان آخر كلامه لا

١- سورة البقرة: الآية ٢٤٦.

٢- علي القاري، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة: ص ١٨١.

إله إلا الله دخل الجنة<sup>(١)</sup><sup>(٢)</sup>، ثم كرس الشارع هذه الوحدة بالممارسات التعبدية السلوكية من خلال الفرائض الأخرى من صلاة وزكاة وصيام وحج، وتأمل بسيط من العبد لهذه العبادات وما فيها من مظاهر الوحدة والتوجه نحو مصدر واحد يجعله موقنا ومعتقدا بمقصد الشارع الحكيم في إنشاء الجماعة المؤمنة التي يشملها وطن واحد تنتفي فيه مظاهر التفرقة والتشردم والبغض والحزبية أو كل ما يؤدي إلى التنطع في دين الله تعالى. ولعلنا نختصر الكلام عن عبادة الصلاة فقط، مشيرين إلى مصادر تبسط الحديث عن باقي الشعائر لمن يريد التفصيل في ذلك<sup>(٣)</sup>.

تعد الصلاة أول هذه العبادات، وهي باختصار تلك الصورة اليومية للوطن الإسلامي الذي يدعونا رب العزة أن نجعله واقعًا حقيقيًا، وقد جسده النبي ﷺ بجرسه عند بنائه أول مسجد بعد مهاجره إلى المدينة، ليتسنى للمسلمين بعدها اجتماعهم في هذا المكان الذي ستناقش فيه كبريات قضايا الوطن سواء في حالتي السلم أو الحرب، فيفزعون إلى الصلاة كلما ناداهم المنادي لذلك، في إشارة إلى المكان الذي لن يضيق بهذه الاجتماعات وهو المسجد، فكان مكانًا للعبادة ومكانًا للتعليم والتربية، ومكانًا لاتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الكبرى، وقد استدل بالصلاة أصحاب رسول الله ﷺ - لما اختلفوا في أمر الخلافة - على أن أولى الناس بها بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، مستدلين بأمر المصطفى عليه الصلاة والسلام أبا بكر أن يصلي بالناس قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، وقالوا: "رضينا لدنيانا من رضي رسول الله ﷺ لدينا"<sup>(٤)</sup>. إن الصلاة في الإسلام تعلمنا أن الإمام ومن يصلي وراءه من المسلمين إنما يخضعون لمنهج واحد في قراءتهم وركوعهم وسجودهم، وكذلك الأمة ومن يتولى أمرها إنما يخضعون لمنهج واحد من

١- حديث معاذ بن جبل أعلاه هو حديث صحيح: أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الجنائز، باب في التلقين ج٥/ص٣٤/ح٣١١٦. وينظر كلام الأرنؤوط في رجال السنن ومن رواه من الصحابة غير معاذ بن جبل، ثم من أخرجه من أصحاب الحديث في مصنفاتهم. ج٥/ص٣٤.

٢- ابن القيم، الداء والدواء: ص ١٩٦.

٣- ابن الجوزي في منهاج القاصدين ومفيد الصادقين ج١/١٢٣، ومختصره للمقدسي ص ٣١.

٤- أخرجه الآجري في الشريعة: كتاب الإيمان والتصديق بأن الجنة والنار مخلوقتان وأن نعيم الجنة لا ينقطع عن أهلها أبداً وأن عذاب النار لا ينقطع عن أهلها أبداً، باب بيان خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ. ج٤/ص١٧١٠.

عند الله تعالى يحكم الحاكم والمحكوم معاً؛ فالحاكم الإمام كما هو محكوم بهذا المنهج، فالمحكومون من شعبه أيضاً ملزمون باتباع هذا الحاكم فيما تولاه من أمور الحكم.

ومن أسرار الصلاة أيضاً ذلك النظام والانضباط الذي تربي عليه الجماعة عند هتاف المنادي لها، وعليه فهي تعلم المسلم وحدة الجماعة والحرص على تكامل الصف وعدم تمزيقه، وكذا تفقد أحوال الآخرين من أبناء الوطن المسلم والتضامن معهم عند غيابهم عن هذا الموعد الزماني المكاني الذي يجتمع فيه أبناء البقعة الواحدة من أبناء الوطن خمس مرات يومياً، فلا يتكون مجالاً أو هامشاً مهما ضاق نطاقه للعدو ليحدث التفرقة بينهم، وقد ورد العديد من الأحاديث التي تؤيد هذا المعنى وتشهد له، منها حديث المحاذاة بين المناكب وسد الخلل<sup>(١)</sup>، وأن يكون المسلم دائماً حريصاً على عدم تمزيق وحدة المسلمين، وألا يرى رأياً يخالف فيه إجماعهم لما في ذلك من الفساد العريض والشر المستطير، ولا يخفى أن هذه الوحدة من مقومات حماية الوطن، ومن ركائز ضمان أمنه واستقراره.

### المطلب الثالث: الأساس التشريعي والمعاملاتي

جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيق مصالح العباد وحفظ حقوقهم، وفي ذلك يقول ابن القيم: "إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ...، وهي العصمة للناس وقوام العالم...، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة"<sup>(٢)</sup>. وأي مصلحة أكبر من حفظ الأمة وهويتها من أي اختراق يؤدي إلى التفرقة وضياع الوطن الذي تعيش فيه، وأي عدل أكبر من وقوف

١- ففي حديث عبد الله بن عمر، قوله ﷺ: " أقيموا الصُّفوفَ، وحاذُّوا بين المناكبِ، وشُدُّوا الخَلَلَ، وليُنُوا بأيدي إخوانكم... ولا تَدْرُوا فُرُجَاتِ لِلشَّيْطَانِ، وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللهُ" صحيح الإسناد: سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف: ج ٢/ص ٨/ح ٦٦٦ (تحقيق الأرنؤوط).

٢- ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج ٣/ص ٣.



الجماعة أمام شرع واحد، وأي رحمة أكبر من رحمة ونعمة الأمن والسلم النفسي والاجتماعي، وأي حكمة أكبر من هذا التنظيم البديع الذي يضبط مختلف العلاقات التي تربط بين المسلم وربّه، ونفسه، وغيره من المسلمين وغير المسلمين، ثم بينه وبين هذا الكون وما فيه من المخلوقات.

وهذه أمة الإسلام لما كان أفرادها في علاقاتهم قد يعترتهم الاختلاف الذي يحكم التجمعات البشرية نظراً لتباين مقاصدهم، و تنوع مصالحهم، فقد جاءت الشريعة بمثابة القانون والميزان الذي يقيسون به سلوكاتهم، والمعيار الذي يحتكمون إليه في منازعاتهم؛ كل ذلك صوتاً للحقوق، وضماناً لاستقرارهم الاجتماعي الذي يحفظ على الناس الدماء والأعراض والأموال، وغيرها من الحقوق التي لا تكفل إلا وسط الجماعة. وهذا رسول ﷺ في حجة الوداع حذر من دواعي الافتراق والتنازع من خلال انتهاك تلك الحقوق، كما رواه الشيخان من حديث أبي بكر مرفوعاً وفيه "إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا"<sup>(١)</sup>. فشدد عليه الصلاة والسلام على حرمة سفك الدماء، وعلى حرمة غصب الأموال عامة كانت أم خاصة، وعلى انتهاك الأعراض بالزنا أو بالقذف أو بالغيبة أو بالنميمة أو غيرها، لتظهر مزايا هذه الشريعة على غيرها من القوانين الوضعية التي كانت حاکمة في ذلك الزمان حتى يومنا هذا؛ إذ لا مجال للمقارنة بين صنع الخالق وصنع المخلوق.

إن الاستقرار الاجتماعي الذي يتمتع به أي وطن من الأوطان منبثق يقيناً من ذلك الشعور بالعدالة النفسية والاجتماعية التي يحسها أفرادها وهي تعم مناخه وأجواءه، ولا تقيم تمييزاً بين أفرادها فلا تفرق بين القوي والضعيف، أو الشريف والوضيع أمام أحكامها، فيتحقق ما يسمى بقانونية معاملات الأفراد فيما بينهم وشرعيتها، وأهم هذه الحقوق التي يتم ضمانها في مثل هذه الأوطان، الحق في الحياة والسلم والاستقرار؛ فدون سلم لا حقوق، ودون حقوق لا سلم. وبذلك؛ فاحتكام الجماعة إلى شريعة منصفة لا تتحيز لأحد على آخر يشعرها بالطمأنينة النفسية التي تستجلب معها الأمن الفردي والاجتماعي، ولعل هذا هو الأساس الذي بنى عليه أصحاب نظرية العقد الاجتماعي نظريتهم، لما حاولوا تفسير ظهور القاعدة القانونية؛ فبعدما كانت الجماعة في حالتها

١- متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى: ج ٢/١٧٦ (ح ١٧٣٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب القسامة والمحاربن والقسامة والديات، باب تغليب تحريم الدماء والأعراض والأموال. ج ٣/ص ١٣٠٦/ح ١٦٧٩.

الطبيعية تعيش الصراع والنزاع مع نوع من التربص والخوف؛ تنازلت الجماعة عن بعض حقوقها لفرد داخلها، من أجل أن يحمل بعد ذلك بقية أفراد هذه الجماعة بالقوة على قانون ملزم للجميع ومرتبطة بالجانب الزجري، حفاظا على ما تبقى من الحقوق، بما يطرح إشكال انحراف هذا الفرد عن مبدأ العدل والإنصاف، وذلك باب يدخل في باب المقارنة بين الشريعة والقانون، ولا مجال للتفصيل فيه في هذا المقام.

من ههنا يتبين فضل الشريعة الإسلامية في أحكامها، من خلال وضعها لتصنيف يناسب فئات المكلفين؛ إذ ربطت أهل النفوس المحسنة بالجانب العقدي الإيماني، ووكلتهم إلى إيمانهم، وتعقبت بالعقاب لكل من تجاوز الحدود، ليكون عبرة لغيره، وهكذا.

### المطلب الرابع: الأساس الحقوقي

دعا الإسلام إلى حفظ الحقوق الإنسانية والحرمة الآدمية، باعتبارها مقومًا من مقومات حفظ الوطن بين المسلمين فيما بينهم ومع غيرهم، وكانت تلك مبادئه منذ فجر رسالة النبي محمد ﷺ لما كان وحيداً طريداً مضطهداً، وأصحابه من حوله قليلون مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس إلى أن خطب فيهم يوم حجة الوداع، وهم يومئذ زهاء مائة ألف أو يزيدون<sup>(١)</sup>؛ كانت تلك نفس المبادئ التي أعلنها منذ بداية الدعوة الإسلامية، والحقوق نفسها التي دعا الناس إلى المحافظة عليها، لم تتغير في القلة والكثرة، ولم تتفاوت من الحرب إلى السلم بل هي مبادئ راسخة لم يزلها مرور الأيام إلا رسوخاً وشموخاً وعمقاً وأصالةً، بل في ذلك اليوم كان يوصي أصحابه بنقلها إلى من وراءهم من العالمين لتظل منارة للإنسان، ومرفاً ترسو إليه سفنه النائية، كلما ثارت العواصف وهاجت الأمواج ولقوتها وصدقها لم تدبل مع الأيام، ولم تمت مع تعاقب الأجيال، وإنما بقيت راسخة تتجدد في الأقوال والأعمال على مدى الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وينظفئ سراج الحياة.

١- قال علي بن برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤هـ) في سيرته: " وعند خروجه ﷺ للحج أصاب الناس بالمدينة جدري بضم الجيم وفتح الدال وفتحهما أو حصبة منعت كثيرا من الناس من الحج معه ﷺ ومع ذلك كان معه جموع لا يعلمها إلا الله تعالى قيل كانوا أربعين ألفا وقيل كانوا سبعين ألفا وقيل كانوا تسعين ألفا وقيل كانوا مائة ألف وأربعة عشرة ألفا وقيل وعشرين ألفا وقيل كانوا أكثر من ذلك" ينظر: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون: المسمى بالسيرة الحلبية، ج ٣/ص ٣٠٨

ومن تلکم الحقوق حق الحياة، فقد عظم الإسلام أمر الدماء وغلظ العقوبة عند المساس بهذا الحق، وجعل حرمتها شريعة عامة مع بيان الاستثناءات، وأنكر أشد النكير، وشدد على ألا تستباح دماء المسلمين أو غير المسلمين بغير وجه حق، كما حمى حق التملك، وجعل التعرض له مستوجباً لأليم العقاب والعذاب؛ فنهى عن التعرض لأموال المسلمين وغيرهم بالفهم الفاسد والغلو المنكر، وأن على أهل الذمة من الأمان عهد الله و عهد رسوله وعهد المؤمنين إذا أودوا ما عليهم من الحقوق للوطن الذي يعيشون فيه.

وبهذا يترسخ الاستقرار في الوطن المسلم، ونفهم من خلاله قولة الشيخ عبد الله بن بيه<sup>(١)</sup>: "بدون سلام، لا حقوق، لأن فقدان السلم هو فقدان لكل الحقوق، بما فيها الحق في الوجود، فالسلام هو الحق الأول والمقصد الأعلى الذي يحكم على كل جزئيات الحقوق، ومن خلال الاستقرار الذي هو أوثق طريق لتأكيد المقصدية، يمكننا أن نؤكد أنه لا مقصد يعلو على مقصد السلم"<sup>(٢)</sup>.

فهذه القولة الوجيهة تحتزن معاني نفيسة تتمحور حول أهمية السلم في توفير الأرضية المناسبة الخصبة، لتمكين الفرد من كافة حقوقه. بل إن مبدأ السلم يحفظ للفرد كينونته وإنسانيته، ليتطلع إلى الشعور بوجوده ودوره تجاه الحياة من خلال الاستفادة من كافة حقوقه.

وإن تمتيع الفرد بحقوقه هو السبيل لجعله عنصراً إيجابياً في شتى علاقاته في مجتمعه، وحريراً على استتباب مبدأ السلم في وطنه، باعتبار هذا الأخير الإطار الحافظ لهذه الحقوق؛ إذ بصيانته تصان، وبإهداره تهدر، ولا يخفى ما لحفظ الحقوق من أثر بالغ في تعزيز الانتماء للوطن، وتنمية الغيرة في النفوس للحرص على حماية أمنه واستقراره.

وباستقراءنا لنصوص الكتاب والسنة، نجد أن دعوات الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام كلها كانت صريحة ضد الاضطهاد والقهر الذي كان يسلب الناس حقوقهم، فيضطرون إلى الهجرة من أوطانهم، ولذلك أوصى رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين الأوائل بالتوجه إلى

١- رئيس منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة.

٢- جاء ذلك من خلال كلمة توجيهية ضمن الملتقى الأول لمنتدى السلم العالمي بدولة الإمارات العربية المتحدة. ينظر مجلة السلم العدد الأول ص ٢٩.

الحبشة وقد كان فيها النجاشي وهو على دين النصرانية يومئذ، لما كان وطنه ملاذا تصان فيه أبسط الحقوق الإنسانية، فأواهم إثر حلولهم بأرضه لتخليصهم مما كانوا يتعرضون له من بطش أهل مكة الذين كانوا من أبناء جلدتهم وطغيانهم؛ قال ابن إسحاق: "فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر أن يمنعم مما هم فيه من البلاء قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه"<sup>(١)</sup>، وفي هذا النص من الإشارات البليغة أن الرسول ﷺ وجه أصحابه إلى الهجرة إلى أرض الحبشة، لما كان يسودها من السلم الذي يضمن لهم سلامتهم البدنية وممارسة شعائرهم الدينية.

وتشهد الوقائع التاريخية على مدى حرص الإسلام على ضمان حقوق غير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي في ظل أجواء يسودها السلم والاستقرار بين كافة مكوناته، ومن قبيل ذلك العهدة العمرية التي أعطى فيها عمر بن الخطاب الأمان لأهل بيت المقدس؛ حيث تضمنت صيانة حقوقهم، ومما جاء فيها: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم: سقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صلبهم، ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم..."<sup>(٢)</sup>.

فاستتباب السلم حفظ لاستقرار الوطن، كونه الخطوة الأولى في اتجاه رعاية الحقوق؛ إذ لا يجد الإنسان قيمة لحقوقه ولا طعمًا لها في وطن مملوء بالفتن، وأجواء ينعدم فيها السلم والاستقرار، وبه نستوعب قيمة التصرفات التي قام بها رسول الله ﷺ في مجتمع المدينة لما أصبح للدولة الإسلامية كيانها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ولعل العنوان الآتي يعالج بعضًا من هذه الجوانب.

### المبحث الثاني: السنة النبوية ومقومات حفظ الوطن على المستويين الداخلي والخارجي

قصدنا بمقومات حفظ الوطن تلك الأمور التي تحافظ على تماسك بنائه سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي، والمتتبع لسيرة رسول الله ﷺ، يرى في أحداثها ووقائعها

١- ابن إسحاق، كتاب السير والمغازي ص ١٧٤.

٢- محمد بن جرير الطبري (ت ٥٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، ذكر فتح بيت المقدس ج ٣/ص ٦٠٩.

محطات بارزة تجعله حتما يخرج بتصوّر واضح عن تلك المقومات التي يقوم على أساسها حفظ أمن الوطن واستقراره، وهي نفسها أركان الدولة بمفهومها المعاصر، ونعني بها المقومات الثلاث: الإقليم والسكان والسلطة الحاكمة، وفيما يلي بيان لها من منظور السنة النبوية:

١. على مستوى النطاق الجغرافي (الوطن): يقصد به الرقعة الجغرافية التي يستأثر بها سكان الوطن، وتمارس عليها الدولة سيادتها، ويقضي الأمر أن يكون لهذا الوطن حيز مكاني من الأرض يقيم فيه رعاياه بصفة دائمة، وتتعلق به حقوقهم، ويمد هذا الوطن بما يحتاج إليه من موارد ضرورية لحياته والمحافظة على بقائه وكيانه. وباستحضار سيرة رسول الله ﷺ، نجد أن دعوة الإسلام انطلقت من مكة، وقد دعا رسول الله ﷺ أهلها إلى دين التوحيد، ومن منطلق عالمية دين الإسلام فإن دعوته لم تقتصر على قريش فقط، بل توجهت إلى جميع من كان يحضر إلى مكة ويقصدها، لكن مواطني مكة وأهلها لم يكونوا يقبلوا جميعهم دعوة رسول الله ﷺ فرفضوا أن يكون الإسلام لهم ديناً بديلاً عما تركهم عليه الآباء والأجداد، فكان أن انقسم أهلها إلى مسلمين آمنوا برسول الله ﷺ هم في العدد قلة مقارنة مع الغالبية التي اختارت الشرك على التوحيد، فكان النبي ﷺ خلال المرحلة المكية يبني الوطن في نفوس هؤلاء المؤمنين، ويعلمهم أن كل مسلم يحمل عقيدة التوحيد يحمل حتماً في نفسه وطناً تحكمه شريعة، وأنه وغيره من المسلمين أينما كانوا على ظهر الأرض، هم رعايا هذا الوطن. وبعد مهاجره ﷺ إلى المدينة التي باتت وطناً للإسلام والمسلمين، أقدم أهلها على مبايعته ﷺ ورضوا بأن يحكم فيهم بشرع الله، وأن يجمع بينهم بهذه الشريعة التي فيها من الرحمة بهم ما ليس في غيرها من دين الشرك وأعراف الجاهلية، فتشكل للمسلمين وطن بمفهوم الوطن ودولة بمفهوم المعاصر للدولة؛ فكانت المدينة موطناً لهم والمسلمون مع غيرهم رعايا لها، ورسول الله ﷺ هو الحاكم الفعلي لهذه الدولة والراعي لشؤونها والقائم بأمرها، فانتقلوا بعدها من دولة الأفراد إلى أفراد الدولة. ومن البدهي أن يكون للدولة الناشئة حدود طبيعية، وهي تلك الحدود الجغرافية والحرمات التي لا ينبغي انتهاكها أو التعرض لشيء منها، ويعاقب كل من سولت له نفسه فعل ذلك، فيتمتع مواطنوها بالأمان النفسي والاستقرار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري، على غرار باقي البقاع والحواضر التي تتمتع بهذه الحقوق، وخصوصاً مكة المكرمة، وهي أقربها إليهم عهداً ومكاناً، وهم حديثو عهد بالأمان الذي كانت توفره لمواطنيها،

فكان لا بد من عهد يوفر للمكان الجديد مثل ما لمكة من حرمت، ويبين ما لها من مزايا على غيرها من البقاع، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أنس بن مالك قال: "خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعا وبدا له أخذ، قال: "هذا جبل يحبنا ونحبه" ثم أشار بيده إلى المدينة، قال: "اللهم إني أحرم ما بين لابتيها"<sup>(١)</sup>، كتحرير إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا"<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث إشارة إلى أن سبب وروده كان بعد واقعة خيبر؛ أي بعد لقاء عسكري بين المسلمين واليهود الذين نقضوا الصلح وتحالفوا مع أعداء الدولة، وفيه ما فيه من معاني الخيانة للوطن، وهي من أكبر الجرائم وأخطرها التي تمس أمن الدولة في الاصطلاح السياسي المعاصر. كما أن هذا الحديث جاء على لسان رسول الله ﷺ في السنة السابعة بعد الهجرة على الصحيح من وقائع السيرة وأحداثها من أن خيبر وقعت في ذلك التاريخ"<sup>(٣)</sup>، فتحدت بهذا الحديث الحدود الشرقية والغربية لمدينة رسول الله ﷺ علماً بأن العلاقات بين المسلمين وقريش آنذاك كانت في حالة تربص وحرب بين الطرفين، ولم يتغير الوضع إلا بعد أن تم صلح الحديبية الذي مهد للفتح الكبير؛ فتح مكة.

أما حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً: "المدينة حرم ما بين غير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً"<sup>(٤)</sup> فقد رسم به النبي ﷺ حدود الحرم الجغرافية من جهة الشمال إلى الجنوب، وفيه إشارة

١- مثنى لابة، قال القاضي عياض: "لابتي المدينة" أي جانبها لكثرة حرها، وما يصيب فيها من العطش سبب ذلك. وأصل اللابة. الحرة، وهي أرض ألبست حجارة سود. " ينظر في ذلك القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم ج٧/ص٢٦٧.

٢- متفق عليه: أخرجه البخاري في الصحيح واللفظ له، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الخدمة في الغزو. ج٤/ص٣٥/ح٢٨٨٩، وأخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمةها، ج٢/ص٩٩٣/ح١٣٦٥.

٣- قال ابن سعد في الطبقات ما نصه: " ثم غزوة رسول الله ﷺ خيبر في جمادى الأولى سنة سبع من مهاجرة، وهي ثمانية برد من المدينة." ج٢/ص١٠٦.

٤- متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الفرائض، باب إثم من تبرأ من مواليه، ج٨/ص١٥٤/ح٦٧٥٥، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمةها، ج٢/ص٩٩٤/ح١٣٧٠.

إلى وجوب تأمين الوطن من كل ما يتهدد أمنه واستقراره الفكري والعقدي سواء بإثارة الفتنة أو التكتّم على من قصّد العدوان عليه بأي شكل كان. و قد ورد في بعض الروايات بأن عليا ذكر هذا الحديث والمجتمع يومئذ يمجج في فتنة عظيمة<sup>(١)</sup>. وبالرجوع إلى الحدود الجغرافية يكون (ثور)<sup>(٢)</sup> جبلاً بالمدينة خلف أحدٍ من شماليه؛ كما رجح ذلك النووي لما ساق مجموع الروايات وأقوال أهل العلم فيها وسبب اختلافهم عليها، ثم لخص المسألة فقال: "وهذه الأحاديث كلها متفقة، ف (ما بين لابتيها) بيان لحد حرمة من جهتي المشرق والمغرب، و(ما بين جبليها) بيان لحد من جهة الجنوب والشمال، والله أعلم"<sup>(٣)</sup>.

٢. على مستوى العنصر البشري (المواطنون): يعتبر الوطن قبل كل شيء مجتمعا إنسانيا، ولا يمكن تصور وطن دون مواطنين، ويُقصد بهم مجموعة الأفراد الذين يستقرون بإقليم الدولة أو

١- أخرج البخاري في صحيحه: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع، والغلو في الدين والبدع، ج ٩/ص ٩٧/ح ٧٣٠٠، وأخرج مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمة، ج ٢/٩٩٤/ح ١٣٧٠ عن علي أنه قام على المنبر خطيبا فقال: "من زعم أن عندنا شيئا نقرؤه إلا كتاب الله وهذه الصحيفة - قال: وصحيفة معلقة في قراب سيفه - فقد كذب، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي ﷺ: "المدينة حرم ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثا، أو آوى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا، وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا، ولا عدلا" متفق عليه.

قلت: فبان بأنه لما سئل عن ما يوجد في الصحيفة التي تضمنته، أشار إلى أن فيها إضافة إلى الحديث النبوي المذكور أنفا نظام العقوبات الإسلامي في الدماء، وما يستوجب من الديات، ولا يخفى ما في ذلك من الارتباط بينهما، لما في التهديد بالعقوبة من سد لسبل الفتن والقتال داخل المجتمع.

٢- ذكر الحافظ في الفتح الخلاف الوارد بين من صحح الحديث ومن ذهب إلى تصحيحه، بإنكار لفظة ثور بدعوى عدم وجود بقعة جغرافية في المدينة بهذا الاسم، والمسألة فيها عرض ونقد لكثير من التوجيهات الحديثية والنكات الفقهيّة واللطائف اللغوية، التي ساقها الحافظ من كلام أهل العلم، فلتنظر في مظانها." فتح الباري: "كتاب الحج، باب حرم المدينة ج ٤/ص ٨٣.

٣- النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمة. ج ٧/ص ٢٠٣.

الوطن، ويخضعون لسلطانها ويخاطبون بأحكام دستورها وشريعتها، ويطلق على أفراد هذا الوطن اسم "الرعايا" بغض النظر عن أصلهم أو لغتهم أو ديانتهم أو تقاليدهم. وإذا كان الوضع الغالب في تشكل الدول؛ أن أفراد الدولة أو الوطن يرتبطون فيما بينهم برابطة الدين أو القومية التي تقوم على وحدة الأصل أو اللغة أو التاريخ المشترك، فيكونون أمة واحدة<sup>(١)</sup>؛ فإن ذلك ليس شرطاً ضرورياً ليطلق عليهم لفظ الأمة، بل لابد لهم من الرغبة المشتركة للعيش جنباً إلى جنب داخل الوطن، وعليه فقد يتكون أفراد الوطن من عناصر لا تنتمي إلى قومية واحدة، يشكلون ما يسمى حالياً في القانون الدولي المعاصر بالأقليات ووضعياتها داخل هذه الدول أو الأوطان. ثم إنه لا يشترط لقيام دولة أو وطن وجود عدد معين من السكان، فهذا مما تتباين فيه الدول والكيانات السياسية، وقدماً كانت الإمبراطوريات والدول والممالك والقبائل والعشائر، بقي منها ما بقي، واندر منها ما اندثر، ولكل من هذه الاصطلاحات معنى سياسي معين لا نريد التفصيل فيه، وإنما همنا في هذه الورقة فقط التنبيه على أهمية أعداد السكان في وضع الدولة وفرض هيبتها على المحيط الإقليمي والدولي.

**وبالرجوع إلى سيرة رسول الله ﷺ نجد أن عنصر السكان للدولة الإسلامية التي يجمع أفرادها عقيدة التوحيد قد بدأ برجل وامرأة و غلام عند بداية الإسلام، ثم بعد اثنتين وعشرين سنة كان تعداد أفرادها ورعاياها الذين شهدوا حجة الوداع قد زاد على أربعين ومائة ألف مواطن مسلم، يصفهم أنس رضي الله عنه بأنهم قد ملأوا بسيط الأرض بين يدي رسول الله ﷺ وخلفه وعن أيمانه وعن شمائله، يصدحون بالتلبية لرب العالمين، ورسول الله ﷺ يعلمهم مناسكهم<sup>(٢)</sup>. ولا شك أن المتتبع لسيرة النبي ﷺ سيقف عند أحداث عظام؛ فبعد استبدال عصبية الجاهلية والولاء للقبيلة**

١- الدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصر: ج ١/ص ١٢١.  
٢- قال ابن كثير رحمه الله تعالى: " وأهل بحجة و عمرة معاً. هذا الذي رواه بلفظه و معناه عنه ﷺ ستة عشر صحابياً، منهم خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه، و قد رواه عنه ﷺ ستة عشر تابعياً، و هو صريح لا يحتمل التأويل، إلا أن يكون بعيداً، و ما عدا ذلك مما جاء من الأحاديث الموهمة التمتع أو ما يدل على الأفراد، فلها محل غير هذا تذكر فيه... و ساق ﷺ الهدى من ذي الحليفة، وأمر من كان معه هدي أن يهل كما أهل ﷺ، و سار ﷺ والناس بين يديه وخلفه، وعن يمينه وشماله أمماً لا يحصون كثرة، كلهم قدم ليأتهم به ﷺ." الفصول في سيرة الرسول ص ١٤٥.



## تعزيز الانتماء وأثره في حماية الوطن من خلال الهدى النبوي

برابطة أخرى تجمع بين المسلمين هي رابطة العقيدة؛ أصبح لأفراد الدولة الناشئة ولاء واحد هو الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين أينما كانوا وحيثما وجدوا، وأثبتت الهجرة وسنة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار هذا التوجه الجديد للدولة الفتية بين قوى تقليدية بنيت على أساس البقاء للأقوى على حساب العناصر الضعيفة، لنلفي بعده تلاحماً منقطع النظير جمع بين أفراد كانوا ينتمون إلى أشد القبائل المتناحرة في الجاهلية<sup>(١)</sup>، يتعاطفون، ويتراحمون، ويتآلفون، ويتآزرون، ويتعاونون فيما بينهم في البأساء والضراء، يكاد جوع أحدهم تتمزق من ألمه أمعاء الآخر، وفقر الواحد منهم يعرف من جدة الآخر، وجهل هذا يداوى بسؤال في حضرته عند آخر؛ فتكوّن بذلك المجتمع الذي شبهه النبي ﷺ بالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى<sup>(٢)</sup>. وهكذا، فإن المتأمل في السيرة النبوية سيجد بأن مواطني الدولة الإسلامية هم رعايا هذه الدولة أينما وجدوا

١- وهو الحال الذي وصفه جعفر بن أبي طالب للنحاشي لما دعا أصحاب رسول الله ﷺ ليستوثق مما نسب إليهم وقد أرسلت قريش من يؤلّبه عليهم لكي يعيدهم إلى مكة، فجاء أسأفته: " فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك. حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، "فدعانا: إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ". قال: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وأمانا به، واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا ففتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واختزنك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.. الحديث. " أخرجه أحمد في المسند، مسند حديث جعفر بن أبي طالب وهو حديث أم سلمة زوج النبي. ج ٣٧/ص ١٧٣ / ح ٢٢٤٩٨، وصحح إسناده الأرنؤوط.

٢- حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ: " مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج ٨/ص ١٠/ح ٦٠١١، وأخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج ٤/ص ١٩٩٩/ح ٢٥٨٦.

فهم مرتبطون بها برابطة الولاء، والاعتداء عليهم اعتداء على هذا الوطن بكل عناصره، ومن شواهد ذلك أن فتح مكة كان بسبب استنصار قبيلة خزاعة المسلمة برسول الله ﷺ، لما تعرضت لغدر قريش وبنو بكر، وكان بينهما عهد الأمان في صلح الحديبية<sup>(١)</sup>، كما نجد بأن النصوص الحديثية الواردة عن حسن إسلام المرء منها "تركه ما لا يعنيه"<sup>(٢)</sup>، "وإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد"<sup>(٣)</sup>، وغيرها من النصوص التي تهدف إلى تمكين اللحمة بين أفراد الوطن، ليقف على معنى نفيس يشير إلى أن الإسلام يوجه نظر أتباعه إلى قاعدة عظيمة في تعميق الأخوة الإيمانية بين أفراد مجتمعه، ألا وهي إحسان الظن بالأخوة وسوء الظن بالنفس، باعتباره ركيزة في حسن التعامل مع باقي أفراد المجتمع بالستر على العباد وعدم فضحهم، وكذا الحيطة من إساءة الظن بهم، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تحسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا"<sup>(٤)</sup>. كما أن لهذه الرابطة الإيمانية العقديّة حقوق يضيق المقام عن التفصيل؛ فيها منها إقامة الحقوق لجميع أشكالها، وصدق التحمل لأذى الآخرين، والبذل لهم والعطاء والإحسان إليهم، والنصرة لهم والدفاع عنهم، وإيثارهم على النفس والأهل والولد، وقد ورد من النصوص الكثيرة ما يشهد لكل عنصر من هذه العناصر

١- حديث البراء بن عازب في صلح الحديبية متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا: ما صالح فلان بن فلان، وفلان بن فلان، وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه، ج ٣/ص ١٨٤/ح ٢٦٩٨، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية ج ٣/ص ١٤٠٩/ح ١٧٨٣.

٢- حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" أخرجه الترمذي في سننه: أبواب الزهد، باب من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، ج ٤/ص ٥٥٨/ح ٢٣١٧. وصححه الألباني.

٣- متفق عليه من طريق علي بن حسين عن صفية بنت حيي م مرفوعا، وقد أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ج ٣/ص ٢٠/ح ٥٠٣٨، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به. ج ٤/ص ١٧١٢/ح ٢١٧٤.

٤- متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، ج ٨/ص ١٩/ح ٦٠٦٤، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها، ج ٤/ص ١٩٨٥/ح ٢٥٦٣.

التي كانت واقعا ملموسا على عهد رسول الله ﷺ، وحققت مجتمع الخيرية الذي جاء ذكره في القرآن الكريم<sup>(١)</sup>. ولم يكن هذا فقط حال المسلمين بعضهم مع البعض بل كانت لهم علاقات حسن الجوار مع غيرهم من رعايا الدولة، بيّنت ذلك وثيقة المدينة التي عقدها النبي ﷺ مع يهودها لما هاجر إليها باعتبارهم أتباع كتاب سماوي، لهم دينهم وللمسلمين دينهم، يجمعهم وطن واحد. ومن واجبات كل أطراف هذه المعاهدة، الدفاع عنه وحمائته من أي اعتداء؛ لأن المعتدي بفعله روع الآمنين، وحمل السلاح على المسالمين، واستهدف أموال هؤلاء المواطنين وأعراضهم كيفما كانت عقيدتهم، فتعين الدفاع جنبًا إلى جنب تحقيقًا لأمن واستقرار الوطن والمواطنين<sup>(٢)</sup>. وقد جمعت دولة المدينة بداخلها مواطنين آخرين من غير المسلمين، وفُرض على النبي ﷺ وعلى المسلمين أن يكون لهم منهج خاص يتبعونه في معاملتهم، مثل دعوتهم بالحسنى، والتركيز على مواطن الاشتراك معهم، كوثقهم أقرب للمسلمين من المشركين، وكذا التعامل التجاري والصناعي والفلاحي معهم، إلى غير ذلك من المواطن المشتركة التي تجمع أكثر مما تفرق، ما يلفت النظر إلى إمكانية التعدد في المنزح والمعتقد في إطار وحدة الوطن. أما على المستوى الخارجي، فقد سعى عليه الصلاة والسلام إلى مسالمة القبائل المجاورة، وعقد العديد من موثيق الصلح والأمن معها، وأمن بذلك الطرق الرئيسية بين مكة والمدينة والمناطق المجاورة، وبث العيون حرصًا على الدولة الناشئة من أي خطر خارجي أو تهديد عسكري مفاجئ من إمبراطورية فارس أو إمبراطورية الروم، أو من القبائل الخليفة التابعة لهما، خصوصًا بعد أن انتشر ذكر فتوحاتها وانتصاراتها شرقًا وغربًا وازداد عدد أتباعها، بما أصبح

١- فاطمة بنت يحيى القحطاني، عقيدة الإخاء وأثرها في حياة الأمة الإسلامية، ص ٧٥ وما بعدها.  
٢- وقد نقل ابن هشام عهد رسول الله ﷺ إلى يهود المدينة أو ما يسميه بعض المحدثين بدستور المدينة وفيه: " قال ابن إسحاق وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم: " بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس... وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أذنانهم وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم... " سيرة ابن هشام ج ٣/ص ٣١-٣٣.

يشكل مصدر قلق للقوى التقليدية القديمة فانصبت اهتمامات النبي ﷺ انطلاقاً من شمولية وعالمية دين الإسلام على العلاقات الخارجية، فكانت رسائله عليه الصلاة والسلام إلى ملوك عصره<sup>(١)</sup>.

**٣. على مستوى ممارسة الدولة لسلطاتها، وفرض سيادتها:** أو السلطة الحاكمة ذات السيادة؛ ذلك "أن وجود مجموعة بشرية فوق مجال جغرافي معين لا يكفي لقيام الدولة؛ بل لابد لهذه الأخيرة من وجود هيئة حاكمة تمارس سلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية على مجال الدولة وسكانها دون وصاية أو تدخل خارجي"<sup>(٢)</sup>. فلا يكفي إذاً لوجود الدولة توفرها على هيئة حاكمة، بل لابد من ارتباط حكمها بعنصر السيادة، وهو ما يظهر في وجهين: "أولهما سيادة الدولة، وثانيهما السيادة داخل الدولة. ولسيادة الدولة شقان: داخلي وخارجي. أما الداخلي فهو المعبر عنه بالنظام الداخلي الذي تحدده الدولة لنفسها، وتلك السيطرة التامة على مواردها وسكانها، وعدم وجود سلطة أسمى من سلطتها وغير ذلك، كامتلاكها لوسائل الإكراه والقوة المسلحة دون غيرها من التجمعات البشرية الأخرى الموجودة على إقليمها من هيئات سياسية أو اجتماعية. أما الخارجي فيقصد به عدم خضوع الدولة لسلطة خارجية تحد من استقلالها، باستعمار أو وصاية أو انتداب أو حماية، وقدرتها على إبرامها لمعاهدات متكافئة برضاها"<sup>(٣)</sup>. ولابد من الإشارة إلى أن التطبيق العملي لمبدأ السيادة من الصعوبة بمكان، لخضوع الدول الصغرى إلى ضغوط الكيانات الكبرى المملوكة للموارد الاقتصادية والعسكرية وغيرها من وسائل الضغط، فينجح عن ذلك معاهدات غير متكافئة يتم فيها التنازل عن هذا المبدأ كرها. ثم بالتطور الذي تشهده الإنسانية اليوم؛ يتم الحديث عن مبدأ السيادة لمن يمتلك هذه الوسائل، فالمتمكن اليوم من وسائل الإعلام والتكنولوجيا يفهم جيداً لماذا تهاوى المفهوم التقليدي للسيادة، الذي يعتمد على امتلاك الثروات

١- قال ابن كثير في فصوله: "وتواترت الوفود هذه السنة وما بعدها على رسول الله ﷺ مدعنة بالإسلام وداخلين في دين الله أفواجاً... وبعث ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن ومعه أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما، وبعث الرسل إلى ملوك الأقطار يدعوهم إلى الإسلام. وانتشرت الدعوة، وعلت الكلمة، وجاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً". الفصول في سيرة الرسول ص ٩٠.

٢- الدكتور محمد معتصم، مختصر النظرية العامة للقانون الدستوري والمؤسسات السياسية، ص ٣٤.

٣- الدكتور محمد معتصم، مختصر النظرية العامة للقانون الدستوري والمؤسسات السياسية، ص ٣٤ وما بعدها

الاقتصادية الطبيعية، بل بامتلاك وسائل المعرفة وكيفية توظيفها.

وعن السيادة داخل الدولة فهي تعني الأشخاص الذين يمارسون السلطة داخل كيان الدولة سواء كانوا طبيعيين أو معنويين، ابتداءً من رئيس الدولة أو الملك أو الحكومة أو النواب أو غيرهم. وباستحضار سيرة رسول الله ﷺ نجد التطبيقات العملية للسلطة السياسية حاضرة في دولة المدينة الناشئة، مع ما تميزت به من الخصوصية الإسلامية في التطبيق، فالحاكمة لله ولرسوله ﷺ من خلال نصوص القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ في شكل أوامر ونواهٍ تقتضي الخضوع التام والمطلق من المحكومين لأحكامهما؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (٣٦) وقوله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٦٥) .<sup>(١)</sup>

وهكذا تضمنت سنة رسول الله ﷺ أحكاماً تشريعية تهتم بمختلف مجالات الحياة المتعلقة بالمؤمن المكلف، سواء في علاقته مع ربه أو مع نفسه أو مع الآخرين أو مع الكون أو ما يسمى بالبيئة و المحيط، كما حرص النبي ﷺ على تطبيق هذه الأحكام التشريعية بما يمثل السلطة التشريعية الوحيدة التي يخضع لها مواطنو ورعايا دولة الإسلام أينما كانوا، سواء ذلك في باب المعاملات، أو العقوبات<sup>(٢)</sup>. أما الحاكم والقاضي عند التنازع فهو رسول الله ﷺ حيث قضى عليه السلام في الكثير من القضايا التي رفعت إليه، وتناولت حقوقاً متنازعة فيها، نحو حديث العسيف<sup>(٤)</sup>، وحديث

١ - سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

٢- سورة النساء: الآية ٦٤.

٣- مثل حديث أبي هريرة: " من غش فليس مني." والذي أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: من غش فليس مني، ج ١/ص ٩٩/ح ١٠٢، فقد ذكره ﷺ بالسوق، أو حديث العسيف الآتي ذكره.

٤- ونصه كما في صحيح مسلم: عن أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني، أنهما قالوا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر: وهو أقره منه نعم، فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي، فقال رسول الله ﷺ: "قل"، قال: إن ابني كان عسيفا على هذا، فزني بامرأته، وإني أخبرتك أن على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أنما على ابني جلد مائة، وتعريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ

الغامدية<sup>(١)</sup>، وحديث اقتطاع حق المسلم بسبب لحن الحجة<sup>(٢)</sup>، وغيرها من الأحاديث، فقد جمعها أصحاب الصحاح والسنن تحت باب الأفضية والخصومات.

وقد كان النبي ﷺ حريصاً على إنفاذ هذه الأحكام بنفسه، باعتباره ممثلاً للسلطة التنفيذية؛ فقد أمره الله تعالى وكلفه بذلك، وهكذا كل من كلفه عليه الصلاة والسلام وأقامه نيابة عنه لتنفيذ حكم من هذه الأحكام في شأن من شؤون المسلمين، وقد قرن تعالى طاعته بطاعته وطاعة أولي الأمر؛ فقال سبحانه أمرًا للمؤمنين ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَردُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾<sup>(٣)</sup>، أما عن عنصر السيادة الذي تمتعت به هذه الدولة الناشئة، فهي تكاد تنادي على نفسها بالبيان والظهور، وسنقتطف من هذا العنصر مشاهد من سيرة رسول الله ﷺ نعرضها كالاتي:

"والذي نفسي بيده، لأقضي بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد، وعلى ابنك جلد مائة، وتغريب عام، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها"، قال: فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت. "متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ج ٣/ص ١٨٤/ح ٢٦٩٥، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، ج ٣/ص ١٣٢٤/ح ١٦٩٧.

١- حديث عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: "جاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إني قد زנית فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت معازا، فوالله إني لحبلى، قال: "إما لا فاذهبي حتى تلدي"، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: "اذهبي فأرضعيه حتى تفتميه"، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها.. الحديث" أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، ج ٣/ص ١٣٢٣/ح ١٦٩٥.

٢- ونصه كما في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة، أن رسول الله ﷺ قال: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة" فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: "وإن قضيا من أراك" صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، ج ١/ص ١٢٢/ح ١٣٧.

٣- سورة النساء: الآية ٥٩.

**المشهد الأول:** تطبيق أحكام الشريعة على المسلمين كلهم حاكمهم ومحكومهم، ومن ذلك حديث المرأة المخزومية<sup>(١)</sup> التي سرقت، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها تطبيقاً لحكم النص القرآني، فأرسل بعضهم أسامة بن زيد لمكانته من رسول الله ﷺ من أجل أن يشفع لها، فنهاه النبي ﷺ عن مثل هذا الفعل، وأن العدل يقتضي أن يطبق الحكم في الشريف والوضيع، بل لكي يبين له أن الأمر قد قضي، قال له: " لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. "

**المشهد الثاني:** الدولة الناشئة لكي تمارس سيادتها الكاملة عليها أن تتجاوز وسائل النقص في مجال من المجالات، بما في ذلك المجال المعرفي أو العلمي. وبما أن الدولة الإسلامية غالبية رعاياها من المستضعفين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، وأن هذا مجال من مجالات النقص، الذي قد يقوض أركان الدولة حتماً في المستقبل، فإن هذا الأمر لم يكن يخاف على رسول الله ﷺ، وهكذا وعلى الرغم مما سيوفره فداء أسرى بدر للدولة الناشئة من موارد مالية، فقد جعل فداء كل واحد منهم لا يملك ما يفدي به نفسه بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، وسنرى بأن هؤلاء كانوا يعلمون القرآن الكريم والسنة النبوية لآخرين في مراحل لاحقة، ولهذا الأمر شواهد كثيرة تغني عن التفصيل فيه في هذا المقام<sup>(٢)</sup>.

١- ونص الحديث كما هو في الصحيحين من حديث عائشة، أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: " أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ج ٤/ص ١٧٥/ح ٣٤٧٥، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، ج ٣/ص ١٣١٥/ح ١٦٨٨.

٢- ومن ذلك ما أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب الإيمان فضائل الصحابة والعلم، باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ، ج ١/ص ١٢/ح ٢١ عن قرظة بن كعب، قال: بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة وشيعنا، فمشى معنا إلى موضع يقال له صرار، فقال: "أتدرون لم مشيت معكم؟" قال: قلنا: لحق صحبة رسول الله ﷺ، ولحق الأنصار، قال " لكني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأردت أن تحفظوه لممشاي معكم، إنكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزيز كهزيز المرجل، فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم، وقالوا: أصحاب محمد، فأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ.

**المشهد الثالث:** عقد المعاهدات مع اليهود في المدينة، ومع القبائل المجاورة، ومع قريش في صلح الحديبية، ولا يمكن أن نتحدث عن معاهدة إلا بوجود كيانيين سياسيين يملك كل واحد منهما سيادة تحول له عقد هذه المعاهدة دون ضغط ولا إكراه من الخارج. ويستدعي ذلك استقلالاً تاماً ومطلقاً يخضع فقط لما يسمى بمشروعية التصرفات التي يقوم بها هذا الكيان السياسي المستقل، وسنلاحظ بأن جميع ما كانت تقوم به الدولة الناشئة بقيادة رسول الله ﷺ كله كان محكوماً بعدم مخالفة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ<sup>(1)</sup>، وخضوع كل من الحاكم والمحكوم لأحكام الوحي الإلهي باعتباره النص الأعلى. وهكذا فإن دولة الإسلام قد اجتمع لها من المقومات التي تحافظ على كيانها أكثر من أي كيان سياسي آخر، وهو ما برز واضحاً في سيرة رسول الله ﷺ، وإن فتور رابطة الانتماء للوطن لهي من أشد الأخطار التي تتهدد كيان المجتمعات اليوم، وفي مقدمتها المجتمعات الإسلامية، وذلك بفعل ما يريده مثيرو الفتن داخلياً وخارجياً من دعوات تستهدف عنصر الشباب الذي يعد القلب النابض لأي وطن، بما يطرح مسألة البحث عن الكيفية التي يمكن بها حماية هذه الشريحة الاجتماعية من أي استلاب فكري أو عقدي أو تربوي، يجعلها تنحرف عن مسار الاعتدال والتوازن الفكري والنفسي بما يشكل تهديداً للوطن وباقي المواطنين، ويؤدي بالتالي إلى فتور في المشاعر تجاه هذا الوطن.

ولعل هذه الورقة البحثية جاءت لإبراز تلك العلاجات التي قدمتها السنة النبوية في هذا الباب، وأبرزها عامل الإيمان والاعتقاد بأن الوطن هو جسم يتكون من نسيج اجتماعي، إذا تمزق بعضه تعرض للنزيف وعرض باقي الجسد للتلف والضياع؛ فوجب الحرص على ما يحفظ هذا النسيج من أية جروح داخلية أو خارجية، ونحن على يقين بأن السنة النبوية فيها من الحلول والعلاجات لمشاكلنا المعاصرة ما إن أحسنا استثماره واستغلاله، كان بمثابة الواقعي لسلامة الوطن والضامن لتماسكه ووحدته.

١- وأوضح مثال على ذلك أن النبي غفي صلح الحديبية ورغم المفاوضات العسيرة والبنود الظالمة في ظاهرها التي اشترطتها قريش للصلح، واعتراض بعض الصحابة على تلك البنود، فإن رسول الله ﷺ لم يزد على أن قال: " إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري." صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب. ج. ٣/ص ١٩٣/ ح ٢٧٣١



**الخاتمة:** لما كان الوطن هو المجال الذي يمارس فيه المسلم شعائر دينه، والنطاق الذي يعيش فيه أيام حياته، كان لابد من تقوية ارتباطه به، وتعزيز انتمائه إليه ليكون حريصًا على حفظ أمنه واستقراره. ولقد كانت السنة النبوية أتمودجا رائدا في رسم معالم منهج تعزيز انتماء المسلم إلى وطنه، وذلك من خلال ما اشتملت عليه السنة والسيرة النبوية من مواقف وقيم تزيد المسلم اعتزازا وحرصا على خدمة وطنه والتعلق به. ولقد أبانت هذه الورقة البحثية عن جوانب مضيئة من ذلكم الهدي النبوي بالكشف عن الأسس والمقومات التي يتحقق بها تنمية مشاعر المسلم في تعلقه بوطنه وتعزيز انتمائه إليه، وسعيه إلى حماية كيانه.

## النتائج والتوصيات التي أفضت إليها هذه الورقة البحثية:

١. من مقومات حماية الوطن وحفظ أمنه واستقراره، تعزيز الانتماء إليه في نفوس أهله.
٢. تمثل القيم الإسلامية التي جسدها المهدي النبوي دعامة أساسية لتنمية مشاعر انتماء المسلم إلى وطنه، وحمايته من كل ما يهدد أمنه وسلامته واستقراره.
٣. أهمية الشعائر الدينية الجماعية في تعزيز الانتماء للوطن، وذلك من خلال الحرص على وحدة الجماعة وضمان تماسكها.
٤. أهمية توعية المسلم بارتباط أمنه وقيمة وجوده بحمايته لأمن وطنه واستقراره.
٥. وجوب التصدي لكل ما من شأنه أن يكون سببا في فتور مشاعر انتماء المسلم إلى وطنه.

## المصادر والمراجع:

- أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ابن بطلال (المتوفى: ٤٤٩هـ) شرح صحيح البخاري ابن بطلال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض، مكتبة الرشد - السعودية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ج ١٠
- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي/ بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج ٥
- أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، (المتوفى: ١١٦٢هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هندواوي، لبنان، المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج ٢
- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، منهاج القاصدين ومفيد الصادقين، تحقيق: كامل محمد الخراط، دمشق، دار التوفيق للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ج ٣
- أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت ٨٥١هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، ١٣٧٩هـ، دارالمعرفة، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي/ قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب وعليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ج ١٣
- أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى السبتي، (المتوفى: ٥٤٤هـ) إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: الدكتور يحيى إسماعيل، مص، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ج ٨
- أبو الفضل، محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، لسان العرب، بيروت، دارصادر، ١٤١٤هـ، ج ١٥
- أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرئي البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، الشريعة، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، الرياض، دار الوطن، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م/ج ٥
- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك المعروف ب(تاريخ الطبري)، بيروت، دار التراث، ١٣٨٧هـ، ج ١١
- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي الرياض، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ج ٧

- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِسْتَانِي (المتوفى: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، ج ٤
- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ، ج ١٨ (في ٩ مجلدات)
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، مصر، دار ومكتبة الهلال، ج ٨
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون /إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الرياض، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ج ٥٢
- أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي (المتوفى: ٧٥١هـ)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ج ٤
- أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي (المتوفى: ٧٥١هـ) الداء والدواء، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، ١٤٢٩هـ.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن برزنية البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، بيروت، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ، ج ٩
- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، غريب الحديث، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، بغداد، مطبعة العاني، ١٣٩٧هـ، ج ٣
- أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م، ج ٨.
- أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، بيروت، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، ج ٤.
- فاطمة بنت يحيى عبد الله القحطاني، عقيدة الإخاء وأثرها في حياة الأمة الإسلامية، (رسالة دكتوراه بإشراف أ. د. سالم محمد القرني)، قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية للبنات - جامعة الملك خالد، بالمملكة العربية السعودية. الموسم الجامعي ١٤٣٠هـ-١٤٣١هـ

## تعزيز الانتماء وأثره في حماية الوطن من خلال الهدي النبوي

- عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ) السيرة النبوية المعروف ب(سيرة ابن هشام)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م، ج ٢
- علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (المتوفى: ١٠٤٤هـ) / إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروف ب(السيرة الحلبية)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٧هـ، ج ٣
- علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، تحقيق: محمد الصباغ، بيروت، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة ج ١
- محمد بن إسحاق بن يسار المطليبي بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١هـ)، سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دارالفكر، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- محمد معتصم (أستاذ العلوم السياسية بكلية الحقوق. جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء) مختصر النظرية العامة للقانون الدستوري والمرسسات السياسية، الدار البيضاء، مؤسسة إيزيس، ١٩٩٢م
- محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (السلسلة الصحيحة)، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥، ج ٧، وله: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- مجلة السلم مجلة فصلية محكمة تصدر عن منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة: العدد الأول: ربيع الأول ١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م.



## الفهرس

٩	كلمة السيد جمعة الماجد
١١	قصيدة الشاعر د. عارف الشيخ - رئيس مجلس أمناء المدارس الأهلية
١٥	- "الوطن في عصر العولمة، من جدلية الانتماء إلى مقتضيات الحماية والعمران، قراءة في ضوء الحديث النبوي". أ.د. إبراهيم أحمد محمد الكاروري (السودان).
٤٩	- "مقتضيات المواطنة في بلاد المهجر؛ نحو مقارنة تأسيسية لمداخل حماية الوطن من خلال السنة النبوية". أ.د. محمد علا (المغرب).
٨٣	- "مضامين المواطنة من المنظور الإسلامي، وأثرها في حماية الوطن: قراءة تحليلية في وثيقة المدينة المنورة". أ.شيخ أحمد جينغ (السنغال).
١٢١	- "الوطن والوطنية في السنة النبوية: حتمية الانتساب ومقصدية الحماية دلالات استقرائية في نصوص السنة وفقهها". د. عبدالله عبد المؤمن (المغرب).
١٦٧	- "أسس حماية الوطن، ومقوماتها في السنة النبوية". د. أيمن جبرين عطا الله جويلس (فلسطين).
٢٠٣	- "حماية الوطن في السنة النبوية ومقوماته السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية". د. بيدر محمد محمد حسن (اليمن).
٢٣٣	- "مقومات حماية الوطن ووسائل تفعيلها دراسة في السنة النبوية". د. عطا الله مدب حمادي الزوبعي (العراق).
٢٦٩	- "مقومات حماية الوطن في خطبة حجة الوداع". د. بوعبيد الأزدهار (المغرب).

٣٠٥	- "التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة وترقية حماية الوطن من خلال نصوص السنة النبوية". أ.د. نصر سلمان(الجزائر).
٣٤٧	- "حماية الوطن في السُّنَّة النَّبَوِيَّة - المبادئُ والمِنْطَلَقَات". د. كريمة محمد سوداني(الجزائر).
٣٧٩	- "تعزيز الانتماء وأثره في حماية الوطن من خلال الهدى النبوي". د. شفيق عبد القادر لامة(المغرب).





# حِمْيَةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضُرُورَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ

الندوة العلمية الدولية التاسعة

٤-٦ رجب ١٤٤٠ هـ

١٢-١٤/٣/٢٠١٩ م

بحوث الندوة محكمة

(الجزء الثاني)

الكتاب: حِمَايَةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضُرُورَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ

الرقم الدولي للكتاب: ISBN 978-9948-35-065-1

اللغة: العربية

التصنيف العمري: E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

رقم إذن الطباعة: MF-01-1103844

تمت الطباعة في مطبعة دبي، دبي - أ.ع.م.

جميع الحقوق محفوظة

يُمنع نشر أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي وسيلة من الوسائل الورقية أو الإلكترونية إلا بإذن خطي





الاعتدال الفكري وأثره في حماية الوطن  
دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية

الدكتور / سعيد بن أحمد بوعصاب  
جامعة ابن زهر - المغرب





## المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد؛ فلا يخفي على ذي لب أن حماية الوطن من مقاصد الدين؛ إذ بحفظه ورعايته يتم الاستقرار، ويفشو السلام، ويتحقق الأمان، ومع وجود هذه العناصر يُفسح المجال أمام التنمية الحضارية الشاملة بمفهومها الواسع، فيتحقق العمران والمدنية، ويتمثل مفهوم الاستخلاف كما أراده الله سبحانه وتعالى من عباده.

وحماية الوطن لا تتحقق بسد الثغور فحسب، ولا بالرباط على الحدود ودرء الخطر المادي المتمثل في الغازي والمعادي فقط، بل تتجلى في تنشئة المواطنين على الاعتدال والتسامح، والتساكن والتعايش، وقبول الآخر، والاعتراف بالمخالف، والاعتدال في الأفكار والمعتقدات، وحمل الناس على منهج الوسط، والنأي عن الغلو والتنطع والشطط، والانحلال والانفلات في الاجتهاد والفتوى، مع الاعتدال في النظر الشرعي أيضا، وقراءة التراث، والموقف من أولي الأمر وأهل الذكر، فلا يخفى ما جرته الأمور الفكرية المتنطعة من وبال على الوطن والمواطنين في كثير من البلدان المسلمة وغيرها؛ إذ أفضت إلى بذل جهود جبارة لمحاربة تلك الأفكار المغلقة ومحاصرتها، والحد من آثارها السلبية، ما يتطلب استنهاض الهمم، وتحريك العزائم، وتضافر الجهود، لبث الوعي العام بضرورة حماية الأوطان بشتى الوسائل والسبل المشروعة.

والناظر في متن السنة النبوية وفقهها يقف على الجرم الغفير من التوجيهات النبوية التي تعد بمثابة التأصيل لهذا الفقه الخاص، ولهذا المقصد السامي، فإن الحديث الشريف بوصفه البيان العام والشرح التطبيقي والعملي لنص القرآن الكريم من سماته العموم والشمول، فلم يدع النبي الكريم خيرا إلا وأمرنا به، ولم يترك شرا إلا ونهانا عنه، بيد أننا نحتاج إلى دراسة موضوعية لفقه السنة النبوية من أجل تصنيف نصوصها وشرحها وفق حاجيات العصر ومتطلباته.

وهذا ما يتطلب من الباحثين في العلوم الإسلامية بذل مزيد من الجهود في المصادر الشرعية

الأصلية لاستخراج الهدى المنهجي منها، وإفراغه في البرامج التربوية، والمناهج الدراسية العامة، بغية بث الوعي الشامل بفكر الوسطية والاعتدال، الذي هو منهج الإسلام العام، وسمته المميزة، وطبيعته الفطرية.

وفي هذا السبيل، تأتي هذه الدراسة المعدة من أجل المشاركة في ندوة: "حماية الوطن في السنة النبوية" التي تنظمها "الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي" قاصدا منها الإسهام في التثقيف العام لأبناء الأمة، لصنع وعي حضاري قائم على حب الوطن، والذود عنه، والدفاع عن مصالحه، والسعي من أجل استقراره، ونشر الفكر المعتدل المتسامح بين أبنائه.

وعمدتي فيها الوقوف مع الأحاديث النبوية الصحيحة والحسنة، من أجل استنباط فقهاها، ومقاصدها، ومحاولة الاستفادة منها في معالجة واقعا الذي يعج بالأخطاء الفكرية التي تستند في الغالب إلى المرجعية الشرعية، مع سوء في التأويل، وخلل في التنزيل. ولا غرو أن منهج "تكامل العلوم" يفيد حتما في ضبط "فقه الحديث"، وصياغته وفق رؤية شمولية صالحة للتنزيل على القضايا المعاصرة لإعادة تشكيلها وفق منهجية شرعية صحيحة سليمة.

وأؤكد في البداية أن هنالك دراسات أُجرت من قبل تدور حول "موضوع الوسطية والاعتدال".  
وأما هذا البحث فإني أراه يمتاز عن مجمل الدراسات السابقة بخصائص ثلاث، هي:

- الأولى: تخصيص الوسطية بمجال الفكر والنظر، وبخاصة الشرعي والديني.
- الثانية: توظيف الأحاديث النبوية وفق دراسة موضوعية منهجية.
- الثالثة: بيان أثر الاعتدال الفكري في السنة في استقرار الوطن، وسلامته وحمايته، استمداً من توجيهات نصوص السنة النبوية.

ولتحقيق هذه الأغراض ارتأيت تقسيمه إلى: تمهيد، عرفت به بمفاهيم العنوان ودلالاته. ثم مباحث ثلاثة: الأول: في ذكر ركائز الاعتدال الفكري في السنة النبوية. والثاني: في ذكر مجالات الاعتدال الفكري كما رسمتها السنة. ثم الثالث: في عرض نتائج آثار الاعتدال الفكري كما رسمتها السنة في المجال المعرفي، والاجتماعي والاقتصادي، والسياسي. ثم خاتمة عرضت أهم النتائج التي توصل إليها البحث، فعلى الله قصد السبيل ومنه نستمد العون والتوفيق.



### تمهيد: تحديد المفاهيم

- مفهوم الاعتدال: يرجع جذر "الاعتدال" ومادته في اللغة العربية إلى كلمة "العدل"، وله تصريفات ووجوه يأتي عليها لا تخرج في جملتها عن معنى "الاستقامة والوسط"؛ ففي القاموس المحيط: "العدل ضد الجور، وما قام في النفس أنه مستقيم. والاعتدال توسط حال بين حالين في كم أو كيف، وكل ما تناسب فقد اعتدل، وكل ما أقمته فقد عدلته وعدلته"<sup>(١)</sup>. وفي تعريفات الجرجاني: "العدل عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط... وقيل: العدل مصدر بمعنى العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق"<sup>(٢)</sup>. ومن معاني العدل - كما في القاموس - "الإقامة، كما تقول: عدل الحكم بمعنى أقامه، والتزكية، ومن ذلك قولهم: عدل فلانا بمعناه، ركاه، والتسوية: ومن ذلك عدل الميزان بمعنى سواه"<sup>(٣)</sup>.

وفسرت كلمة "وسطاً" الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة ١٤٣] في حديث مرفوع بمعنى "العدل"، ففي الحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: "والوسط العدل"<sup>(٤)</sup>. وفسر ابن عباس قوله تعالى ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ [القلم ٢٨] في سورة القلم، قال: "أعدلهم"، قال الطبري: "وقوله: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ يعني: أعدلهم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ثم روى الأثر المروي عن ابن عباس في ذلك"<sup>(٥)</sup>.

فالوسط، والقصد، والعدل، إنما هي ألفاظ تدل على "الاعتدال في الشيء والتوسط فيه"، مع اجتناب الإفراط، والتفريط، أو الإسراف والتقتير، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي

١- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة "عدل" ٥٩٤/٢.

٢- الجرجاني، التعريفات، ١٩٢/١.

٣- الفيروز، القاموس المحيط ٥٩٤/٢.

٤- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١] نوح: ١ إلى آخر السورة ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِبَايَتِ اللَّهِ ﴾ [٧١] يونس: ٧١، ح رقم: ٣٣٣٩.

٥- الطبري، جامع البيان، ٥٥٠/٢٣.

الله تعالى عنه عن النبي ﷺ .. "والقصد القصد تبلغوا"<sup>(١)</sup>. " أي عليكم بالقصد من الأمور، وهو الوسط بين الطرفين"<sup>(٢)</sup>.

- **مفهوم الفكر:** قال ابن منظور في لسان العرب: "الفكرُ والفِكرُ إعمالُ الخاطر في الشيء". والتَّفَكُّرُ اسمُ التَّفَكِيرِ، وقال الجوهري: "التَّفَكُّرُ التَّأَمُّلُ والاسمُ الفِكرُ، والفِكرَةُ والمصدرُ الفِكرُ بالفتح قال يعقوب: يقال ليس لي في هذا الأمرِ فِكرٌ أي ليس لي فيه حاجة"<sup>(٣)</sup>.

قال الراغب: "الفكرة قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكير جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب.. ورجل فكير كثير الفكرة، قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبجتها طلبا للوصول إلى حقيقتها"<sup>(٤)</sup>. والذي نعنيه بالفكر في هذه الدراسة هو: "المحاولات العقلية، والجهود العلمية التي تبذل لفهم الإسلام وعرضه، ومواجهة المشكلات الواقعة، في ضوء أصوله ومبادئه"<sup>(٥)</sup>.

- **مفهوم الوطن:** قال ابن منظور: "الوطن، المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان، ومحله، يقال: أوطن فلان أرض كذا وكذا، أي اتخذها محلا ومسكنا فيها"<sup>(٦)</sup>. وقال الزبيدي: "الوطن منزل الإقامة من الإنسان ومحله، وجمعه أوطان"<sup>(٧)</sup>. وقال الجرجاني: "الوطن الأصلي، هو مولد الرجل، والبلد الذي هو فيه"<sup>(٨)</sup>. ولا يتعد المفهوم السياسي والاجتماعي للوطن عن مفهومه عند علماء اللغة، فهو المكان الذي تسكنه جماعة من الناس، له حدود جغرافية، وقيم وأهداف مشتركة. وقد ورد في الكتاب والسنة ما يدل على تعلق الإنسان الغريزي بوطنه، وارتباطه به، فقد روى أنس بن مالك كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر فأبصر درجات

- ١- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ح رقم: ٦٤٦٣.
- ٢- الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١١١/٤.
- ٣- ابن منظور، لسان العرب، ٦٥/٥.
- ٤- الراغب الأصفهاني، معجم مفردات القرآن، ٣٨٤/١.
- ٥- رشيد شهوان، محاضرات في الثقافة الإسلامية، ص ٤٥.
- ٦- ابن منظور، لسان العرب، ٤٥١ / ١٣.
- ٧- الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٦١ / ٣٦.
- ٨- الجرجاني، التعريفات، ٣٢٧/ ١.

المدينة، أوضع ناقته، وإن كانت دابة حركها"<sup>(١)</sup>. قال ابن حجر: "وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه"<sup>(٢)</sup>.

- **مفهوم السنة النبوية:** تحدثت كثير من المصادر عن مفهوم السنة النبوية في اللغة والاصطلاح، ولذا فيأتي أبين المراد قصداً من هذا العنوان فأقول: إن السنة في هذه الدراسة يقصد بها معناها عند الأصوليين، وهي: "ما روي عن النبي ﷺ من قول أو فعل، أو تقرير"<sup>(٣)</sup>.

- **المعنى التركيبي المقصود:** وبعد هذه التعريفات الموجزة لمفردات العنوان، نقول: إن المراد منه هو: محاولة الوقوف على مسالك السنة النبوية، في بناء الفكر الوسطي المعتدل في تعامله مع المصادر الشرعية، وتنزيلها على الواقع، والاستفادة منها في هذا العصر، بعيداً عن منهجين مرفوضين مذمومين: المنهج الأول: متحلل، لا يراعي ثوابت الدين ولا أصوله، ولا يقف عند حدوده. المنهج الثاني: متنطع غال، يميل إلى التشدد، وينبذ التيسير، ويغفل روح النصوص، ويهمل مقاصدها!

### المبحث الأول: من ركائز الاعتدال الفكري في ضوء السنة النبوية

إن الاعتدال الفكري المنشود، ينبني حتماً على قواعد وأسس هامة، يمكن اعتبارها الحصن المنيح، والأعمدة الأساسية، والأصول المعنوية لفكر الاعتدال في السنة النبوية، وعلى ضوءها يتم النظر، ومن خلالها تتم المعالجة في حالة الوقوع في الإفراط أو التفريط، في التنطع، أو الانحلال، ويمكننا الإشارة إلى أبرز هذه الركائز والأسس، مع الاستدلال عليها من السنة النبوية، فمنها:

**أولاً: الفطرة.** الفطرة هي: "النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، ففطرة الإنسان هي ما فطر - أي خلق - عليه ظاهراً وباطناً، أي جسداً وعقلاً، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، فمحاولة أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية.. فالفطرة النفسية للإنسان هي الحالة التي خلق الله عليها عقل النوع الإنساني

١- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب العمرة، باب من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة، ح رقم: ١٨٠٢.

٢- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٣/٦٢١.

٣- علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، ص ٣٥.

سالما من الاختلاط بالرعونات والعادات الفاسدة<sup>(١)</sup>.

وقد بينت السنة النبوية أن الإنسان مجبول على الفطرة، والفطرة تعني الاعتدال في الخلق والنفس، والاستقامة في الصورة، وهذا ما أكده الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) [الروم ٣٠]. فإذا كان أصل الإنسان قائما على الفطرة، فإن الدين في حد ذاته هو "الفطرة"، يقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) [الروم ٣٠]. قال الحافظ ابن عبد البر في سياق شرحه "لحديث الفطرة": "وقال آخرون: الفطرة هاهنا "الإسلام" قالوا: وهو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل، قد أجمعوا في قول الله عز وجل: ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم ٣٠]، على أن قالوا: فطرة الله دين الله الإسلام<sup>(٢)</sup>، والإسلام هنا بمعناه الشرعي، وليس بمعناه اللغوي فحسب، بما يشمل العقائد، والأحكام، والأخلاق، في الكليات والجزئيات، في الأوامر بمختلف درجاتها، والنواهي، مع اختلاف مراتبها، فكل ذلك مصطبغ بمعنى "الفطرة" وهذا أمر باد من خلال التعبير بالعموم والشمول!

وهكذا يقع الانسجام والالتئام بين خلق الإنسان الصوري والطبعي والنفسي، وبين منهجه التعبدي والشرعي، فكل ذلك قائم على "الاعتدال السوي"، الذي هو الأصل في منهج الله، وسنته في الخلق والأمر، وإنما الدين هو "الصراط المستقيم"، ففي الحديث الذي يرويه عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: "خط لنا رسول الله ﷺ خطا فقال: "هذا سبيل الله"، ثم خط

١- محمد الطاهر بن عاشور مقاصد الشريعة، ص ٢٦١-٢٦٣، "بتصرف".

٢- أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب تفسير القرآن، سورة الروم، باب لا تبديل لخلق الله، لدين الله، خلق الأولين دين الأولين، والفطرة الإسلام، ح رقم: ٤٧٧٥، ومسلم في الصحيح، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار، وأطفال المسلمين، ح رقم: ٢٦٥٨.

٣- ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ١٨/٧٢.

خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال: وهذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [ الأنعام ١٥٣ ] إلى آخر الآية<sup>(١)</sup>. وفي الحديث الذي رواه مسلم عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه قال: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس"<sup>(٢)</sup>. قال صاحب مرقاة المفاتيح الملا علي القاري: "الأحسن في تحسين المقابلة بين القرينتين الحسنيتين أن يقال: المراد بحسن الخلق مستحسن الطبع الجبلي الفطري، العاري عن التعلقات التقليدية، والتقييدات العرفية، فإن الإنسان إذا خُلِّي وطبعه الأصلي اختار الأحسن من العقائد والأخلاق والأفعال وسائر الأحوال، كما حقق في حديث: "كل مولود يولد على الفطرة"<sup>(٣)</sup>، وحاصل الجواب على طريق الاستيعاب أن الأمر لا يخلو إما أن يجزم العقل باستحسانه أو باستقباحه، أو يتردد فيما بينهما، فالأول هو البر، وما عداه هو الإثم، وهذا تمهيد قاعدة كلية تحتها مسائل جزئية فيما لم يعرف من الشرع حسنه وقبحه على طريق اليقين في العلميات، وعلى سبيل الظن أيضا في العمليات"<sup>(٤)</sup>.

قلت: إن هذا النص مفيد في شرح هذا الحديث، ودال على ما نرمي إليه من التنبيه على شيئين عظيمين وجب أخذهما في الاعتبار والحسبان؛ **الشيء الأول**: تأثير الأعراف والعادات الاجتماعية والثقافات الإنسانية في التكوين النفسي والمعرفي للناس بصفة عامة، فالبينة الاجتماعية بما فيها من تداخلات وعلاقات وأحداث، لها دور هام في صنع التوجهات والأفكار والمعتقدات. **والشيء الثاني**: صفاء الفطرة مفض إلى الاعتدال في فهم الدين، فالفطرة النقية التي سلمت من العبث، والتأثير، والتشويه، مبنية على الاعتدال، ومتسمة به، والدين بما هو نظام رباني، وتشريع إلهي، قائم على الاعتدال.

١- صحيح ابن حبان، المقدمة، باب الاعتصام بالسنة وما يتعلق بها نقلا وأمرا وزجرا، ذكر الأخبار عما يجب على المرء من لزوم سنن المصطفى ﷺ، ح رقم ٦، ومسند أحمد، ح رقم: ٤١٤٢، ٧/٢٠٦، ومستدرک الحاكم، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنعام، شأن نزول آية، ويسألونك عن اليتامى، ح رقم: ٣٢٤١.

٢- أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب البر واصله والآداب، باب تفسير البر والإثم، ح رقم: ٢٥٥٣.

٣- سبق تخريجه.

٤- الملا علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١٤ / ٣٨٤.

ثانياً: **العقل**: تدل كلمة "العقل" في اللسان العربي على نوع من حالة التقييد والمنع والحبس، يقول ابن فارس ت ٣٩٥هـ: "العين والقاف واللام أصل واحد منقاس، يدل على حبسة في الشيء، أو ما يقارب الحبسة"<sup>(١)</sup>. ومن هذا المعنى يقال لما يشد الدابة أو البعير "عقال"، كما يقال للمكان الذي يتحصن فيه الناس "معقلا"، وقد لوحظت هذه المعاني ولا شك، في تسمية "العقل"، وذلك لما له من دور وأثر في الحيلولة بين الإنسان، وبين ما يوبقه ويهلكه؛ قال أبو منصور الأزهري: "سمي عقل الإنسان الذي فارق به الحيوان عقلا لأنه يعقله، أي يمنعه من التورط في الهلكة، كما يعقل العقال البعير عن ركوب رأسه"<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر ٥] "أي لذي عقل ولب وحجا ودين، وإنما سمي العقل حجرا، لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال"<sup>(٣)</sup>. ويفهم من هذا استلزام ضرورة العناية بالعقل من "منهاج السنة النبوية"، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"<sup>(٤)</sup>.

فقد أمر الحديث باجتناب "أصول المحرمات"، وعبر عنهن "بالموبقات"، وهن المهلكات في العاجلة والآجلة، وقد تضمن الحديث "الضروريات الخمس"، وأمر بالمحافظة عليها، واجتناب ما يضر بها، ومنها "العقل"، وقد أشير إليه في الحديث بالنهي عن "الشرك" و"السحر"، فإن هاتين الآفتين، من أهم الأسباب المعنوية الضارة بالعقل، ولذا فقد ركز الحديث على أصول المفسد المعنوية، ليتم حفظه باجتنابها، [أي من جهة العدم] وإنما تتم حمايته وحفظه بشكل عام من خلال بأمور ثلاثة:

**الأمر الأول**: حمايته من المؤثرات الحسية، كالمخدرات، والخمور، وغيرها مما يؤثر وجوده في

١- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (عقل)، ٦٩/٤.

٢- الأزهري، تهذيب اللغة، (عقل)، ٢٤٠/١.

٣- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٩٤/٨.

٤- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب رمي المحصنات، ح رقم:

السلم المدني، والإضرار بالوطن ومصالح المواطنين، فعن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "كل مسكر خمر، وكل خمر حرام...." (١)، فكلمة "الخمر" جامعة لكل المسكرات التي تفنن الناس في هذا الوقت في تصنيعها، وفي إضافة أسماء جديدة لها، فتبدل الأسماء لا يؤثر في تغير الذات، ولا في رفع الحكم. وإنما نهى النبي ﷺ عن هذه "المسكرات" بشتى أنواعها، لما يترتب عليها من أضرار صحية، واجتماعية، واقتصادية، وأمنية، وأبين هذه الأضرار تعطيل طاقة مجتمعية كان بالإمكان أن تساهم في التنمية، وتعمل على بناء الوطن، وتشارك طاقات أخرى في تحقيق الغايات السامية، والأهداف العليا التي تعمل على إيجادها كل دولة لها إرادة وعزيمة على فرض ذاتها وموقعها بين الأمم.

**الأمر الثاني:** حمايته من "المؤثرات المعنوية"، وهي من الكثرة بمكان، وإذ تزيد في وجودها على المؤثرات الحسية، ومن أخطرها: الأوهام، والخرافات، والجهل، والتقليد الأعمى، والظن السيء، والهوى، والأفكار المنحرفة المائعة المتحللة، أو المتشددة المتنطعة، التي توصل منافذ التفكير، وتسطح الفهم، وتحدد الرؤية، وتحجب نور المعارف عن الناس، بحجة أنها تتعارض مع الوحي، أو لا يقرها النقل، أو لم تكن على زمن النبوة، أو ليس مما اشتغل عليها علماء القرن الأول، أو غيرها من المسوغات، فكل هذه من "الموبقات"، ولا يخفى وجه ضررها على الوطن. فإن من استساغ هذه "الموبقات المعنوية" كان من الهين عليه، تقبل "الأفكار الغالية والمتشددة" التي تعد من أبين الآفات الضارة بمصالح الوطن مادة ومعنى.

كما يدخل في حماية العقل من المؤثرات ضرورة الاشتغال "بمصادر المعرفة" وأعني بها "كتب التراث"، فإن من المعلوم أن تلك المصادر تضم بين ثناياها الكثير من العلوم والمعارف، والحق والباطل، والصواب والخطأ، وفيها ما هو مستند إلى النقل وهو صحيح عمن أثر عنه، وفيها ما هو منقول لم يصح، وفيها ما هو رأي صحيح وسليم، وفيها ما كان رأياً صحيحاً وسليماً في وقت ما، ولكنه اليوم ليس كذلك، وفيها ما لم يكن صحيحاً في ذلك الوقت، ولا في الوقت الذي بعده، وهذه كلها أمور تدعو إلى ضرورة العناية بتلك المصادر، من حيث إخراجها إلى الوجود، وبيان

١- أخرجه: مسلم في الصحيح، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام، ح رقم:

قيمتها العلمية والمعرفية، ثم الإعراب عما فيها من أقوال ضعيفة، أو آراء غير صائبة.

**الأمر الثالث:** تنميته بالمعارف والعلوم النافعة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "فمن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة"<sup>(١)</sup>. فالحديث بيّن في التحفيز على سلوك طرق تحقيق "العلم" سلك طريقا يلتمس فيه "علما" فالطرق الموصلة إلى العلم بما يفهم من الحديث يجب أن تتعدد، وتنوع، لاحتواء المقبلين عليها، ففي هذا دعوة بينة إلى وجوب تعدد المؤسسات البانية والمقدمة للعلم وتنوعها بما هو علم نافع مؤصل، وهذا مسلك - ولا ريب - بين ظاهر في صون المجتمعات من تعليم الظلام، وعلم الخفافيش.

فإن الدول المسلمة إذا أقامت المؤسسات العلمية المقننة، الواضحة الظاهرة، ووضعت برامجها النافعة، وأقامت بها المؤطرين المؤهلين، واعترفت بخريجيتها، كان ذلك ولا شك مساهما في حماية الوطن على مستوى الفكر والنظر، والفهم لأصول الدين وفروعه، بيد أن المشكلة الكبرى تبدأ حينما يتولى التعليم والتثقيف من لا يوصف ولا يعرف، وإنما هو مجهول الحال والعين، ومثل هؤلاء هم من جاء منهم الشر، وصدر عنهم الهلاك، ولا أعلم فيمن ينتمي إلى المؤسسات العلمية الرصينة من يحمل فكرا شاذًا، أو منهجا منحرفا، اللهم ما شذ من ذلك وندر، والاستثناء كما هو معلوم يؤكد القاعدة ولا يلغيها.

والقصد من هذا كله، أن بناء العقل السليم، هو أساس من أسس الاعتدال الفكري المساهمة في حماية الوطن، وإنما يتوصل إلى هذه النتيجة من خلال ما أومأنا إليه آنفا.

**ثالثا: التفقه في الدين:** من أهم الأسس التي يبنى عليها "الاعتدال الفكري وأبرزها" الفقه في الدين؛ ففي الصحيح مرفوعا من حديث معاوية: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين"<sup>(٢)</sup>،

---

١- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل ٢٤/١ وأخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الذكر والدعاء، والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ح رقم: ٢٦٩٩.

٢- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ح رقم: ٧١، ومسلم في الصحيح، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، ح رقم: ١٠٣٧.



ومعنى يفقهه في الدين، "أي يفهمه ويبصره في كلام الله تعالى وكلام رسوله"<sup>(١)</sup>، وهذا الحديث يشكل أصلاً عظيماً وأساساً متيناً فيما نحن بصدده من بيان منهاج السنة النبوية في بناء الاعتدال الفكري، وذلك واضح من جملتين جليلتين وردتا في الحديث:

**الجملة الأولى:** "يرد الله به خيراً"، هذا على صيغة النكرة في سياق الشرط، التي تفيد بصيغتها العموم، كما استقر ذلك لدى علماء الأصول، ومعنى ذلك أن "الفقيه في الدين" أراد الله به خيراً عاماً، في حياته وبعد مماته، في علاقته بنفسه، وفي علاقته بالحيث به من حوله، فالفقه في الدين يجعله مدركاً لما يجب أن يكون عليه في تصرفاته العامة والخاصة، لأن بصره بأمور الدين يدفعه إلى جلب المصالح الجزئية والكلية، ويزعه عن المفاسد بنوعيتها أيضاً.

قال الحافظ ابن حجر: "ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين؛ أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع، فقد حرم الخير، وقد أخرج أبو يعلى حديث معاوية من وجه آخر ضعيف، وزاد في آخره: "ومن لم يتفقه في الدين لم يبال الله به"<sup>(٢)</sup>، والمعنى صحيح، لأن من لم يعرف أمور دينه، لا يكون فقيهاً، ولا طالب فقه، فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخير، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم"<sup>(٣)</sup>.

**الجملة الثانية:** تدل على أن ليس الفقه في الدين حمل العلم، وحفظ المتون والنصوص، والفروع والجزئيات، فهذا "حمل فقه ليس بفقيه"، ففي سنن الترمذي من حديث أبان بن عثمان عن أبيه عن النبي ﷺ: "...نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه"<sup>(٤)</sup>. وما ظهر في المجتمع والأوطان من انحراف، وتشدد، وتنطع، أو تحلل، إنما منشؤه صنفان من الناس؛ **الصنف الأول:** قوم تعلموا العلم، ودرسوا الأحكام، وضبطوا المسائل، ولكنهم قصرُوا في جانب التربية والتزكية والسلوك، فجاءهم الشر من

١- المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، ١/٦٨١.

٢- أخرجه: أبو يعلى في المسند، ٣٠٦/١٣، ح رقم: ٧٣٨١.

٣- ابن حجر، فتح الباري، ١/١٦٥.

٤- أخرجه: الترمذي في السنن، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، ح رقم: ٢٦٥٦، وقال عنه: حديث حسن.

هذا الباب، ودخل عليهم الفساد من هذه الوجهة. وأما الصنف الثاني: آخرون بالغوا في التعبد، وتمسكوا بظواهر السنن، وبدت عليهم سيماء التدين، لكنهم لا يفقهون في الدين شيئاً، ومع ذلك أعجبوا بأنفسهم، وتوسم الناس فيهم خيراً، فقدموهم لمواقع ليسوا بأهل لها، ولا هم منها في ورد ولا صدر، فصدرت عنهم العجائب، وبدت منهم الغرائب. ومعلوم لكل عاقل وبصير بالدين، أن حسن السمات، وكثرة العبادة، لا يخول كل ذلك لأحد القول في دين الله بما لا يعلم، فإن ذلك يعد من أعظم الموبقات، وموجبات العقوبة، لأنه يحرم القول في دين الله بغير علم؛ قال ابن القيم: "حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلَّا تُمَّ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف ٣٣]"

[الأعراف ٣٣] فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريماً منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريماً منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم رابع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه<sup>(١)</sup>.

إن الخطر الأكبر والقاصمة للظهر هو "التصدر" للإفتاء والقول في الدين "مع الجهل بحال السائل، وموضوع السؤال، وآثاره في الواقع، ولذلك كان شيوع هذه الظاهرة يفضي إلى الضلال، وهذا ما نبه عليه الحديث مما يحصل في "آخر الزمان"؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام، قال: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء"، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا"<sup>(٢)</sup>.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي: "فتدبر هذا الحديث فإنه يدل على أنه لا يؤتى الناس قط

١- ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١/ ٣٨.

٢- أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ح رقم: ١٠٠٠، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، ح رقم: ٢٦٧٣.

من قبل علمائهم، وإنما يؤتون من قبل أنه إذا مات علماؤهم، أفتى من ليس بعالم فيؤتى الناس من قبله، وقد صرّف عمر هذا المعنى تصريفا فقال: ما خان أمين قط، ولكنه أوّمن غير أمين فخان، ونحن نقول: ما ابتدع عالم قط، ولكنه استفتي من ليس بعالم، فضل وأضل"<sup>(١)</sup>.

إن هذه الأحاديث، تدل بشكل واضح على أن تحقيق مقصد "الفقه في الدين" بالمفهوم الذي أصلناه، يعد من أولى الأولويات، باعتباره ركيزة أساسية في إيجاد مجتمع الاعتدال، أما تكديس المعارف والنصوص، من غير فقه لها، ولا بصر بمقاصدها، ولا تزكية حاملة على الالتزام بمضامينها، فلا شك أن أضرار هؤلاء على الوطن أكثر من نفعهم.

**رابعاً: القيم الخلقية:** اهتمت السنة النبوية اهتماما كبيرا "بالأخلاق"، أمرا بمكارمها، ونهيا عن قبيحها، وبيانا لعظم درجة المتصف بها، وذلك لما لها من أهمية بالغة في ضبط سلوك الأفراد والجماعات، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام جعلها الغاية من بعثته، ففي حديث أبي هريرة: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"<sup>(٢)</sup>، قال ابن عبد البر: "هذا حديث مدني صحيح، ويدخل في هذا المعنى الصلاح، والخير كله، والدين، والفضل، والمروءة، والإحسان، والعدل، فبذلك بعث لتمامه ﷺ"<sup>(٣)</sup>. ومعلوم أن "صالح الأخلاق" التي دعا إليها النبي الكريم، إنما هي اعتدال وتوسط، لأن الشيء إذا خرج عن حده انقلب إلى ضده، فالشجاعة إذا زادت عن حدها انقلبت تهورا، والجدود إذا لم يكن له حد أصبح إسرافا، والتواضع إذا بالغ فيه صاحبه كان مذلة ومهانة وخضوعا. قال الإمام أبو حامد الغزالي: "ورد الشرع في الأخلاق بالتوسط بين كل طرفين متقابلين، فلا ينبغي أن يبالغ في إمساك المال فيستحكم فيه الحرص على المال، ولا في الإنفاق فيكون مبدرا، ولا أن يكون ممتنعا عن الأمور فيكون جبانا، ولا منهمكا في كل أمر فيكون متهورا بل يطلب الجود، فإنه الوسط بين البخل والتبذير، والشجاعة فإنها الوسط بين الجبن والتهور، وكذا في جميع الأخلاق"<sup>(٤)</sup>.

- ١- أبو بكر الطرطوشي، الحوادث والبدع، ص ٧٧.
- ٢- أخرجه: أحمد، المسند، ح رقم: ٨٩٥٢، البيهقي، شعب الإيمان، ٦/٢٣٠، ح رقم ٧٦٠٨، والحاكم في مستدركه، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ٢/٦١٢، ح رقم: ٤٢٢١، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد للبخاري، ١/١٢٢.
- ٣- ابن عبد البر، التمهيد، ٣٣٤/٢٤.
- ٤- أبو حامد الغزالي، ميزان العمل، ص ٢٥٨.

وهكذا، فإن "محاسن الأخلاق" هي تلك التي تقوم على الاعتدال والوسطية، فتلك التي أقرها الإسلام، وأكملها النبي الكريم، وبثها في المجتمع المسلم، كما جمع النبي عليه الصلاة والسلام معاني الخير كلها في "حسن الخلق"، فعن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: "البر حسن الخلق"<sup>(١)</sup>.

إن من أهم أسس البناء العام لنظام الأمة وحفظ كيائها يتجلى في بث "القيم والأخلاق" وإشاعتها وإعاشتها في ثنايا المجتمع، فهي كقيلة بحمايته من الإفراط والتفريط، فمن شأنها أن تجعل المواطن المسلم محبا للخير، وحريصا عليه، مؤثرا للسلام والعدل في معاملاته الخاصة والعامة، مبتعدا عن الإذابة، وإلحاق الضرر بالآخرين. وذلك لأن "القيم الخلقية" في ميزان الإسلام، لا تنفصل عن العقيدة والعبادة، بل يمكن القول بأنها ثمرة للمعتقدات الصحيحة، والعبادات السليمة، وعلى هذا المنهج ورد الحديث عن الأخلاق في الكتاب والسنة ﴿إِنَّ الصَّالِحِينَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت ٤٥] ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ١٨٣] ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة ١٠٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "الإيمان بضع وستون شعبة، فأعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"<sup>(٢)</sup>. إن هذا "الاقتران" بين المنظومة الخلقية، وبقية الأحكام الاعتقادية والشعائر التعبديّة كل ذلك يدل على أن "الاعتدال" في الفكر والسلوك لا يتناقض مع الدين، ولا يتعارض مع "التدين"، ولا ينافي الالتزام، بخلاف ما روج وشاع في بعض وسائل الإعلام المعاصرة من اقتزان بين التشدد والالتزام، والتنطع والتدين، وكأن الاعتدال لا يعني إلا التحلل من القيود الشرعية، وفتح الأبواب على مصراعيها أمام "الحداثة" الوافدة بكل سلباتها، حتى غدونا نسمع ونرى من يخشى أن يُعلم مكانته من الدين، ومنزلته في التقوى حتى لا يرمى بالتشدد، وينعت بالتطرف، وفي نظري أن إشاعة هذه الظاهرة قد حُطط لها بمكر شديد، وُيُت لها بليل، وأريد لها أن تستقر في الأذهان،

١- أخرجه: مسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، ح رقم: ٢٥٥٣.  
٢- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ح رقم: ٩، ومسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، ح رقم: ٣٥، واللفظ لمسلم.

وتثبت في العقول والنفوس، لتكون تلك الأوصاف حجابا ساترا بين المسلم ودينه، وبين العبد وربّه، حتى لو كانت جذوره الفطرية تجرّه إلى أصله المعتاد من التدين الصحيح، والعبادة الراشدة.

**خامسا: خطاب التكليف المباشر:** ونعني بـخطاب التكليف، الخطاب النبوي الموجه إلى المكلفين على جهة الطلب بنوعيه، طلب الفعل، وطلب الترك. وفي السنة النبوية - وهي تعنى ببناء الفكر الوسطي المعتدل - نقف على النوعين معا، الأمر والنهي، الأمر بالاعتدال وسلوك المنهج الوسط، والنهي عن الغلو والتشدد والتنطع، ولكلا المسلكين خصائص لغوية وبيانية خاصة، لا غرو وأن لها تأثيرها على قيمة الخطاب النبوي الباني "لمشروع الاعتدال الفكري"، ولو كان البحث يسمح بالتعرض لتلك الخصائص لأفضنا فيها بمقدار الطاقة، ولكننا سنلم بما يسمح به المقام.

**أولا: الأمر بالتيسير منهج عام في الدين كله:** دل على هذه الحقيقة طائفة من النصوص والأحاديث النبوية الواردة في الباب نذكر منها: عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا"<sup>(١)</sup>. "فقوله ﷺ: "يسروا" رسم لمنهج، وهو اختيار ما فيه "اليسر" من أمور الدين والدنيا، ومعلوم أن الشريعة مبنية على اليسر والسماحة، وما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار "أيسرهما"، وليس معنى "اليسر"، ما تهواه النفس، وتميل إليه وترتضيه، وإنما المقصود ما دل عليه الشرع، وأرشد إلى أنه السبيل الأيسر من الأمور، وبذلك تحقق "عموم الشريعة" فشمّل كل الناس في جميع الأزمنة والأمكنة، ولولا يسرها لما صلحت لذلك؛ قال ابن عاشور: "فعموم الشريعة سائر البشر في سائر العصور مما أجمع عليه المسلمون، وقد أجمعوا على أنّها مع عمومها صالحة للناس في كل زمان ومكان، ولم يبينوا كيفية هذه الصلوحية، وهي عندي تحتمل أن تتصور بكيفيتين: الكيفية الأولى: أن هذه الشريعة قابلة بأصولها وكلياتها للانطباق على مختلف الأحوال؛ بحيث تسير أحكامها مختلف الأحوال دون حرج، ولا مشقة ولا عسر. الكيفية الثانية: أن يكون مختلف الأحوال العصور والأمم قابلا للتشكيل وفق أحكام الإسلام، دون حرج ولا مشقة ولا عسر، كما أمكن تغيير الإسلام لبعض أحوال العرب والفرس والقبط، والبربر والروم، والتتار والهنود، والصين والترك من غير أن يجدوا حرجا ولا عسرا في الإقلاع عما نزعوه من قدّم

١- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، ح رقم ٦٩. ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ح رقم: ١٧٣٤، وهو عنده بلفظ: وسكنوا ولا تنفروا.

أحوالهم الباطلة<sup>(١)</sup>. وقوله: "ولا تعسروا" نهي عن سلوك منهج "العسر" وهو التشديد على الناس في أمور الدين والدنيا، والعبادات والمعاملات. وقوله: "بشروا ولا تنفروا" دعوة إلى إشاعة البشارة للنفس وللناس، ومعناها: فتح طريق الأمل في وجه الناس، فيبشر الجاد والمجتهد بالنجاح، والعامل المكتسب بالريح والرزق، والعابد بالفوز، والصالح بالنجاة، والمريض بالشفاء، والمتزوج بالإحسان، والطالب الدارس بتحقيق المبتغى، والمجتمع العامل الواعي بالتقدم والازدهار، والنماء والاستقرار، وهكذا تكون البشارة هي الهادية والقائدة إلى مراقي الخير والفلاح. وقوله: "ولا تنفروا"، نهي عن تنفير الناس من العبادات والإقبال على الدين، والتنفير يكون بأمر في الأقوال والأفعال، كالإطالة في صلاة الفرض، أو وصف الواقع في بعض المخالفات بأقبح النعوت والأوصاف، كأن تصفه "بعُدو الله"، أو "المحرم"، أو غيرها من الصفات الشنيعة القبيحة، بل المطلوب نهي عن الوقوع في المحذور، وبيان مغبة الفعل، وسوء أثره. ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا وأبا موسى الأشعري إلى اليمن أوصاهما بقوله: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطوعا ولا تختلفا"<sup>(٢)</sup>. فقوله ﷺ: "تطوعا ولا تختلفا" إرشاد وتوجيه منه عليه الصلاة والسلام إلى ضرورة إيثار الاتفاق على الاختلاف، لأن يد الله مع الجماعة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والاجتماع رحمة والفرقة عذاب، قال الإمام النووي وهو يلخص بكلام عميق دقيق فقه هذه الأحاديث: "في هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله، وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير، بذكر التخويف، وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير، وفيه تأليف من قرب إسلامه، وترك التشديد عليهم، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان ومن بلغ، ومن تاب من المعاصي، كلهم يتلطف بهم، ويدرجون في أنواع الطاعة قليلا قليلا، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدرج، فمتى يسر على الداخل في الطاعة أو المرید للدخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالبا التزايد منها، ومتى عسرت عليه أو شك أن لا يدخل فيها، وإن دخل أو شك أن لا يدوم، أو لا يستحليها، وفيه أمر الولاة بالرفق واتفاق المتشاركين في ولاية ونحوها، وهذا من المهمات، فإن غالب المصالح لا يتم إلا بالاتفاق، ومتى حصل الاختلاف فات، وفيه وصية الإمام الولاة، وإن

١- محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ٣٢٥/٣٢٦.

٢- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، ح رقم ٣٠٣٨ ومسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ح رقم: ١٧٣٣.

كانوا أهل فضل وصلاح كمعاذ وأبي موسى، فإن الذكرى تنفع المؤمنين"<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة"<sup>(٢)</sup>. قال ابن حجر: "قوله "فسددوا" أي الزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط؛ قال أهل اللغة: السداد التوسط في العمل، قوله: "وقاربوا"؛ أي إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه"<sup>(٣)</sup>.

**ثانيا: الشدة والتعسير مرفوضة في الدين كله:** ومن الضرب الثاني - وهو النهي عن الغلو والتشدد - الذي يضاد الاعتدال والوسط، وردت أحاديث كثيرة نذكر منها: عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين"<sup>(٤)</sup>. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: "هلك المنتطعون، ثلاثا"<sup>(٥)</sup>. قال الإمام النووي: "المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"<sup>(٦)</sup>.

## المبحث الثاني: سمات الاعتدال الفكري ومظاهره في السنة النبوية

المتتبع لمظاهر "الاعتدال الفكري" في نصوص السنة النبوية لا يعوزه أن يقف على حالات وصور متعددة، لا تمثل حالات معزولة، وإنما هي بناء عام، ومنهج نبوي شامل يرمي إلى جعل "الاعتدال الفكري" سمة خاصة من سمات هذا الدين، وخصيصة من أبرز خصائصه، ويمكن أن نذكر صورا من تجليات هذا المنهج ومنها:

- ١- النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٢ / ٤١.
- ٢- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ح رقم: ٣٩، وهو عند مسلم بلفظ: "سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يدخل الجنة أحدا عمله... الحديث. كتاب، صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أشحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، ح رقم: ٢٨١٨.
- ٣- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١ / ٩٥.
- ٤- أخرجه: ابن حبان في الصحيح، كتاب الحج، باب رمي جمرة العقبة، ذكر وصف الحصى التي ترمي بها الجمار، ح رقم: ٣٨٧١، والنسائي في السنن، كتاب الحج، باب التقاط الحصى، ح رقم: ٣٠٥٧.
- ٥- أخرجه: مسلم، الصحيح، كتاب العلم، باب هلك المنتطعون، ح رقم ٧٠٢٦.
- ٦- النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، ١٦ / ٢٢٠.

أولاً: في الوعي بوسطية الأحكام الشرعية: وما يلاحظ في "المنهاج النبائي" للسنّة النبوية، بث الوعي بحقيقة "الأحكام الشرعية"، وأهميتها، ومقاصدها، ومراتبها، وفقهها، وحسن التعامل معها، ويمكننا تفريع هذا الأصل إلى صور وتطبيقات نذكر منها:

أ - الوعي برتبة الأحكام الشرعية: فقد بينت السنّة النبوية أن ليست الأحكام التشريعية متساوية في الرتبة، ولا متشابهة في سلم "الألويات" وإن اتفقت من جهة المصدر، فحديث "الأركان الخمسة" الذي رواه البخاري ومسلم، فيه البداية بعد التوحيد بالصلاة، ثم الزكاة، ثم الصوم والحج، أو الحج والصوم على اختلاف الروايات، فهذا الترتيب وإن لم يكن له نوع من الخصوصية عند النحاة، لكنه من حيث "الأسلوب البلاغي"، والمنهاج النبوي في التعليم والتوجيه يحظى بفقّه خاص، وملمح دقيق، فهو إن دل على الترتيب العام لأحكام الدين وفرائضه، فهو يدل أيضاً على درجات الترتيب في مجال الأركان نفسها. قال الإمام الشاطبي: "إن القواعد الخمس أركان الدين، وهي متفاوتة في الترتيب، فليس الإخلال بالشهادتين كالإخلال بالصلاة، ولا الإخلال بالصلاة كالإخلال بالزكاة، ولا الإخلال بالزكاة كالإخلال برمضان، وكذلك سائرهما مع الإخلال"<sup>(١)</sup>.

إن من الغلو وترك الاعتدال الخلط بين هذه المراتب، ومعاملة الناس أو النفس من غير فقه لهذه الرتب، ومن آثار هذا الخلط أن يحمل البعض المندوب على الواجب فيتعامل على أساسه، أو يعامل من وقع في المكروه بمثابة من وقع في الحرم!!!

ب - الوعي بمقادير الأحكام الشرعية: إن التقليل من الحكم تقصير وتفريط، والزيادة فيه على الحد المطلوب غلو وتنطع وإفراط، وهذا ما وقع فيه الرهط الذين سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ، ففي الحديث الذي رواه أنس بن مالك: "أنهم لما أخبروا عنها "تقألوها"<sup>(٢)</sup>؛ أي عدّوها قليلة، ولذلك "تضخم" عند أحدهم "مفهوم الصوم"؛ فقرر أن يصوم الدهر ولا يفطر، "وتضخم" عند أحدهم مفهوم "القيام" فامتنع عن النوم بالليل، "وتضخم" عند الآخر مفهوم "الزهد"، فمال إلى العزلة والانقطاع عن الزواج، وسبب هذا الغلو هو "التقليل" من العبادة،

١ - أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، ١ / ٣٥٥

٢ - أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ح رقم: ٥٠٦٣.



"ففقها القلة والكثرة" في مجال الأحكام الشرعية، وضبط ميزانها من سمات الاعتدال في منهاج السنة النبوية، لأن توزيع الأحكام على المكلفين مع بيان مقاديرها، وحجمها، والتقليل منها أو التكاثر فيها، على جهة الإيجاب أو النذب؛ كل ذلك يخضع للنظام التشريعي العام الذي روعي فيه كثير من الأبعاد، ومنها: "تزامم الحقوق"، "فقلة وظائف النبي ﷺ كانت رحمة على الأمة، لئلا يتضرروا بالإقتداء؛ إذ إنَّ لأنفسهم عليهم حق، ولأزواجهم عليهم حق، فإنَّ الإنسان محتاج إلى الطعام ليتقوى صلبه، والرجال محتاجون إلى النساء لبقاء النسل"<sup>(١)</sup>.

### ج - الوعي بالثابت والمتغير في الأحكام الشرعية: فالمتبع لمنهج النبي عليه الصلاة والسلام

يلحظ أنه كان في بعض الأمور لا يقبل المساومة ولا التنازل، مهما كانت الأسباب والظروف، والعوامل والأحوال، ولكنه كان في بعض الأحيان يلين ويتسامح في بعض القضايا، وهذا من سمات "الاعتدال"، والتوسط في منهجه التبليغي والتوجيهي والإرشادي عليه الصلاة والسلام، فحينما ساوموه في أمر العقيدة والدين<sup>(٢)</sup>، كان جوابه قاطعاً حاسماً، لا يقبل أي تنازل ولا تغيير، فقد ذكر الواحدي في سبب نزول سورة "الكافرون" أنها نزلت في رهط من قريش قالوا: يا محمد هلم - اتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة<sup>(٣)</sup>.

ولكنه في مجال التدبير العام لأموار المعارك والغزوات، أو ما يتعلق "بمسالك السياسات"، قد يتنازل عن اختياره، ويأخذ برأي غيره، سواء كان مسلماً أو غير مسلم إذا كان ذلك مما يحقق "المصلحة للأمة"، فأخذ برأي سلمان الفارسي في غزوة الأحزاب وأمر بحفر الخندق<sup>(٤)</sup>، وأخذ برأي الحباب بن المنذر في غزوة بدر<sup>(٥)</sup>، فغير موقعه السابق، وفي صلح الحديبية، غير (باسم الله الرحمن

١ - الطيبي، شرح المشكاة الكاشف عن حقائق السنن، ٢ / ٦٠٩.

٢ - أخرجه: أحمد بن حنبل، المسند، ٣١ / ٢١٢، ح رقم ١٨٩١٠، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ١ / ١٣٢.

٣ - الواحدي، أسباب النزول، ١ / ٣٠٧.

٤ - القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ١ / ٢٨٢، ابن حجر، فتح الباري، ٧ / ٣٩٣.

٥ - أخرجه: البيهقي، السنن الكبرى، كتاب السير، باب قطع الشجر وحرق المنازل، ح رقم: ١٨٥٩٠، شرح صحيح البخاري لابن بطال، ١٠ / ٣٥٦.

الرحيم) وكتب بدلها باسمك اللهم<sup>(١)</sup>، ومنع من قتل المنافقين وعلل ذلك بقوله: "أخاف أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"<sup>(٢)</sup>، وقال لعائشة رضي الله تعالى عنها: "لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على أساس إبراهيم" ونهى النبي عن "زيارة القبور"، ثم أمر بها، ونهى عن "ادخار لحوم الأضاحي" ثم أباحه، ونهى عن "الانتباز في الأوعية" التي كان الصحابة يشربون فيها الخمر قبل تحريمها، ثم أباح لهم ذلك<sup>(٣)</sup>.

**ثالثا: في قبول الاختلاف والمخالف.** وقد أمرت السنة النبوية بالإحسان في التعامل مع المخالف في الدين، وبخاصة إذا كان "ذميا" أو "معاهدا"؛ حيث حفظت له كرامته، وأباحت له ممارسة عبادته وديانته، مع تمتعه بكافة الحقوق التي يتمتع بها المسلمون في المجتمع الإسلامي، وتوعدت بأشد العذاب من يتعرض له بأذى؛ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال عليه الصلاة والسلام: "من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما"<sup>(٤)</sup>، كما لا يجوز سب دينه وملته، ولا لعنه، فإن المؤمن ليس بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش البذيء.

وأما المخالف في "فروع الشريعة"، فقبوله، والتعايش معه، والاعتداد به، وتقدير رأيه، مما تواتر أمره في السنة النبوية، سواء كان الاختلاف معه في "جزئيات العقيدة"، أو في "فروع الشريعة"، فقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في بعض "الفروع العقيدية"، مثل: "رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه ليلة

- ١- صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في صلح الحديبية، ح رقم: ١٧٨٣.
- ٢- البخاري في الصحيح، كتاب التفسير باب باب قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦]
- ح رقم: ٤٩٠٥ ومسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما ح رقم: ٢٥٨٤
- ٣- أخرجه: مسلم في كتاب الأضاحي، باب ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث، ح رقم: ١٩٧٧
- من حديث عبد الله بن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكرا".
- ٤- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب الجزية، باب من قتل معاهدا بغير جرم، ح رقم: ٣١٦٦.

المعراج"<sup>(١)</sup>، وهل كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد، أم بالروح فقط؟ "وتكليم النبي عليه الصلاة والسلام لقتلى المشركين في بدر"<sup>(٢)</sup>، "وتعذيب الميت بكاء أهله عليه"<sup>(٣)</sup>، كما اختلفوا في كثير من "فروع الشريعة"<sup>(٤)</sup>، مما يمكن معه القول بأن اختلاف المذاهب الأربعة ما هو إلا ترجمة ظاهرة لاختلاف الصحابة -رضوان الله عليهم-، لأن كل واحد من الأئمة إنما نقل فقهه عن جماعة من الصحابة، ولم يثبت عن واحد منهم تكفير ولا تفسيق لمخالفه.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: "ولا بد أن نبه هنا أن الصحابة اختلفوا كما نوهنا، وأن التابعين اختلفوا كما قررنا، وأن الاختلاف في الفروع الفقهية لا ضرر فيه على المسلمين، ولا على الحقائق الإسلامية مادام القصد الوصول إلى الحق، وليس في واحد من الآراء هدم للنص، أو نقض لأصل، أو مصادمة لمقصد من المقاصد الشرعية"<sup>(٥)</sup>.

وإن مما ينبغي الانتباه له وأخذه في الحسبان، "قضية الاختلاف في العادات والأعراف والتقاليد"، فإن كثيراً من "المتسرعة" يضيق ذرعاً، ويتبرم بالمخالف له فيما اعتاده وألفه من قضايا الحياة، ولربما ألبست لبوس الدين، فجعل المتشدد "الولاء والبراء" عليها، ويمكن أن نمثل لهذا الأمر بالحديث الذي ترويه السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها، تقول: "رأيت النبي ﷺ يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، فزجرهم عمر، فقال النبي ﷺ: دعهم، أمنا بني أرفدة يعني من

١- ففي صحيح مسلم من حديث أبي ذر ﷺ قال: "سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: نور أنى أراه". صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: نور أنى أراه، وفي قوله: رأيت نورا، ح رقم: ١٧٨.

٢- أخرجه: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، ح رقم: ٣٩٧٦ وفيه: "أن النبي ﷺ جعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم.. الحديث".

٣- أخرجه: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، ح رقم: ١٢٨٦، وصحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب الميت يعذب بكاء أهله عليه، ح رقم: ٩٢٨.

٤- ينظر: اختلاف الصحابة أسبابه وآثاره في الفقه الإسلامي، أبو سريع محمد عبد الهادي.

٥- محمد أبو زهرة، مقدمة نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة للعلامة أحمد تيمور باشا، ص ٢٤.

الأمن"<sup>(١)</sup>. فلنقف مع هذه العبارات التي تشكل المفاتيح الأساسية لما نشرحه، [إلى الحبشة] [وهم يلعبون في المسجد] [فجزهم عمر] [دعهم].

فاسم "الحبشة"، يدل على أن هؤلاء من الوافدين على المدينة، وليسوا من سكانها، مما يعني أن عادة اللعب بالحرب على ذلك النحو الذي جرى تصويره في الحديث لم يكن مما شاع في المجتمع المدني، ولذلك أنكر عليهم عمر ذلك، لظنه أن مثل هذه الأمور مما لا يجوز فعله في المساجد، وقد قال ابن حجر: "وكان من عادتهم اللعب في الأعياد ففعلوا ذلك كعادتهم"<sup>(٢)</sup>.

وقول النبي عليه الصلاة والسلام: "دعهم"، وسماحه لعائشة رضي الله عنها وهي تستمتع بتلك الحركات القتالية الصادرة عن الحبشة، وفعل ذلك في المسجد، كل هذا يدل على مقاصد عظيمة في هذا الدين يغفل عنها كثير من المتنتهين، فالحديث يرشد إلى جانب الاحتفاء والاحتفال بالمناسبات الدينية، ويمكن أن يلحق بها "المناسبات الوطنية"، لما تحيي في نفوس الأمة من معاني العزة والإحساس بمكانة الوطن.

### المبحث الثالث: آثار الاعتدال الفكري في استقرار الوطن وسلامته

إذا ساد الفكر المعتدل في الوطن، وأصبح يشكل المنظومة الكلية للبلاد، والثقافة الأصلية فيه، فإنه ولا شك يثمر آثاراً إيجابية، يعود نفعها على المسلمين وعلى غير المسلمين في كل مكان، ومن باب التقريب يمكن أن نذكر أهم تلك الفوائد والنتائج.

أولاً: الآثار الفكرية والعلمية، ولها تجليات منها:

أ - حسن التعامل مع الثقافات الوافدة: ففي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"<sup>(٣)</sup>. فهذا الحديث الشريف فيه جواز الحديث عن بني إسرائيل،

- ١ - أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب العيدين، باب إذا فاته العيد يصلي ركعتين وكذلك النساء ومن كان في البيوت والقرى، ح رقم: ٩٨٧.
- ٢ - ابن حجر، فتح الباري، ٢/٤٤٣.
- ٣ - أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح رقم: ٣٤٦١.

أي نقل ما لديهم من معارف دينية وغيرها، إذا كانت صحيحة في نفسها، مفيدة للمجتمع، وهذه الإباحة حصلت بعد أن استقرت الثوابت الشرعية في عقول الصحابة رضوان الله عليهم، وقد نقل الحافظ ابن حجر في "الفتح" أقوالاً في نوع الأحاديث التي أبيحت روايتها عن بني إسرائيل، وأحسن تلك الأقوال في نظري، قوله: "وقال مالك: المراد جواز التحدث عنهم بما كان من أمر حسن، أما ما علم كذبه فلا"<sup>(١)</sup>، ويفهم من هذا أن أي ثقافة تفيد الأمة، يجوز نقلها وروايتها والاعتناء بها، وهو أمر ظاهر في تنمية الثقافات داخل أرض الوطن.

**ب - العناية بالمتقنين والعلماء وإن كانوا غير مسلمين:** ففي حديث معاذ المشهور لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن قال له: "إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه... الحديث"<sup>(٢)</sup>. فقوله ﷺ لمعاذ: "قوماً أهل كتاب" مع تخصيصهم بهذا التصدير يدل على العناية بهم، وأن التواصل معهم ليس كما هو مع غيرهم، وقد تنبه لهذه الفائدة الحافظ ابن حجر فقال رحمه الله: "قوله: "ستأتي قوماً أهل كتاب"، هي كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان، وليس فيه أن جميع من يقدم عليهم من أهل الكتاب، بل يجوز أن يكون فيهم من غيرهم، وإنما خصهم بالذكر تفضيلاً لهم على غيرهم"<sup>(٣)</sup>، ومن فقه الحديث ومقاصده، التنبيه على التعايش الثقافي العام داخل رقعة الوطن.

**ج - حق إبداء الرأي والمراجعة في الكلام:** فقد روى ابن أبي مليكة أن عائشة رضي الله تعالى عنها كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: "من نوقش الحساب عذب، قالت عائشة: فقلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق ٨] قالت: فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك"<sup>(٤)</sup>. وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنه أن حفصة أخبرته "أن رسول الله ﷺ أمر

١- ابن حجر، فتح الباري، ٤٩٩/٦.

٢- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ح رقم: ١٤٥٨. ومسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ح رقم: ١٩.

٣- ابن حجر، فتح الباري، ٣٥٨/٣.

٤- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب من سمع شيئاً فلم يفهمه، فراجع فيه حتى يعرفه ح رقم: ١٠٣، ومسلم في الصحيح كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب، ح رقم: ٢٨٧٦.

أزواجه أن يجللن عام حجة الوداع، قالت حفصة: قلت للنبي ﷺ: ما شأن الناس حلوا ولم تحل من عمرتك؟ قال: إني قلدت هديي، ولبدت رأسي، فلا أحل حتى أحل من الحج" (١).  
وعن عبد الله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢) [الأنعام: ٨٢] قلنا يا رسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون، أو ما قرأتم قول العبد الصالح ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان: ١٣].

إن هذه الأسئلة المتكررة من أزواج النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ومن الصحابة رضوان الله عليهم، كل ذلك يدل على أن "المجتمع النبوي"، كان يعيش في جو من "الأمن الفكري"، ولذلك كانوا يسألون، ويعيدون السؤال، ويبدون رأيهم فيما يرون ويظهر لهم، من غير شعور بالخوف أو الحرج.

ولا غرو أن حق السؤال والتعبير عما يدور في خلجات النفس من أسئلة عامة وخاصة؛ كل ذلك يسمح بشيوع ثقافة الحرية العلمية، والفكرية داخل الوطن بشكل عام.

ثانيا: الآثار الاجتماعية، وتظهر من وجوه، منها:

أ- التماسك الاجتماعي والشعور بالوحدة العقدية والوطنية: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه" (٣).  
إن هذا الحديث الشريف يجسد صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه "المجتمع المسلم" في

- ١- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب الحج، باب فتل القلائد للبدن والبقر، ح رقم: ١٦٩٧، ومسلم في الصحيح، كتاب الحج، باب بيان أن القارن لا يتحلل إلا في وقت تحلل الحاج المفرد، ح رقم: ١٢٢٩.
- ٢- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب التفسير، باب ما جاء في المتأولين، ح رقم: ٦٩٣٧.
- ٣- أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ (١٢) [الحجرات: ١٢]، ح رقم: ٦٠٦٦، ومسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، ح رقم: ٢٥٦٤ (واللفظ لمسلم).

علاقاته العامة بين مختلف مكوناته، مهما اختلفت مسؤولياتهم، ومواقع وجودهم داخل رقعة الوطن، ومهما وجدت أسباب التدافع الطبيعي والغريزي الكائنة في نفوس البشر، فيجب أن تظل محمية بهذه الأسس، والكل ينضم في بوتقة واحدة، هي الوطن الكبير أو الصغير، وكل يقوم بمهمته في حماية الوطن بقدر ما لديه من مؤهلات، والدم، والمال، والعرض، إنما هي خطوط حمراء في الوطن المسلم، لا يمكن أن تمس، أو ينال منها، إلا بحق الشرع والقانون، الذي هو موكول إلى أولي الأمر ممن جعل الله تعالى في عنقه حماية نظام الجماعة وسلامتها.

#### ب - الوقوع في المخالفات الشرعية غير مسوغ للاحتراب الداخلي: عن عمر بن الخطاب

-رضي الله تعالى عنه-: "أن رجلا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: "اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: لا تلعنوه فو الله ما علمت إلا أنه يجب الله ورسوله"<sup>(١)</sup>. قال ابن بطال شارح البخاري - وهو يعدد ما في الحديث من الفوائد: "قال المهلب: في هذا الحديث بيان قوله ﷺ: "لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" يريد وهو مستكمل الإيمان، وليس بخارج من الملة بشرها، ولا بمعصية من المعاصي، لأن النبي ﷺ قد شهد للشارب بحب الله ورسوله وبالإسلام، وقال فيه: "لا تعينوا الشيطان على أحيكم"، فسماه أحمًا في الإسلام، وأمرهم أن يدعوا له بالمغفرة والرحمة"<sup>(٢)</sup>.

#### ج - الوقوع في الخطأ لا يحط من مكانة المخطئ: وفي المنهاج التربوي للسنّة النبوية، أن

المخطئ ينبه على خطئه، ولكن ذلك لا يكون مدعاة لإقصائه، أو الحط من كرامته، أو إهدار ما لديه من كفاءات، وطمس ما معه من إيجابيات، مجرد أنه قد وقع في خطأ ما، فقد أخطأ أسامة بن زيد فقتل رجلا بعد أن قال: لا إله إلا الله<sup>(٣)</sup>، وظن أنه قالها نفاقا وخشية من الموت، فأثبته النبي عليه الصلاة والسلام تأنيبا شديدا ندم معه أسامة وتحسر على ما فعل،

١- أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة، ح رقم: ٦٧٨٠.

٢- ابن بطال، شرح صحيح البخاري، ٣٩٩/٨.

٣- أخرجه: مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، ح رقم: ٩٦.

ولكن ذلك لم يكن سببا في منعه من قيادة جيش كبير فيه كبار الصحابة مع صغر سنه، وذلك لمهارته القيادية، وحسن تدبيره لأمر المعارك والقتال. وقد أطل معاذ بن جبل بالناس في صلته اجتهادا منه، وبين له النبي عليه الصلاة والسلام خطأ اختياره، وأمره بالتوسط والاعتدال، والتخفيف بالناس في الصلاة<sup>(١)</sup>، ومع ذلك، فقد أرسله إلى اليمن قاضيا، وداعيا ومعلما<sup>(٢)</sup>، فكل هذه نماذج في السنة النبوية تعبر لنا عن سمة الاعتدال حينما تغدو من ثواب المجتمع في علاقاته الخاصة والعامة.

**ثالثا: الآثار الاقتصادية، وتتبعها في السنة النبوية يظهر من وجوه نشير إلى بعض منها، فمنها:**

**أ - الاعتدال في الوصية:** ففي حديث سعد بن أبي وقاص لما أراد أن يوصي بماله كله، قال له: "لا، قلت: فالشطر، قال: لا، قلت: الثلث؟ قال: فالثلث والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون، ولم يكن له يومئذ إلا ابنة"<sup>(٣)</sup>. ففي هذا الحديث أراد سعد بن أبي وقاص أن يوصي بماله كله، فأرشده النبي الكريم إلى مبدأ وسط، وهو الوصية بالثلث - مع كثرته - وأمره أن يقي ماله من مال لورثته، وهكذا جمع النص الكريم ما بين المصالح العامة والمصالح الخاصة، ففي المال ما يدفع إلى ذوي الحاجة في المجتمع، وفيه ما يقي للأسرة لتحفظ به ماء وجهها، وتدفع عن نفسها ذل المسألة، وشدة الحاجة.

**ب - الاعتدال في الهبة:** وجاء في صحيح مسلم من حديث النعمان بن بشير أنه قال: "إن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نحت ابني هذا غلاما كان لي، فقال رسول الله ﷺ: أكل ولدك نحتته مثل هذا؟ فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: فأرجعه".

- ١ - أخرجه: البخاري في الصحيح، كتاب العلم، باب الغضب في الموعدة والتعليم إذا رأى ما يكره، ح رقم: ٩٠.
- ٢ - سبق تخريجه.
- ٣ - أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، ح رقم: ٢٧٤٢.



وفي رواية أخرى في نفس الكتاب والباب، أن النبي ﷺ قال: "اتقوا الله واعدلوا في أولادكم، فرجع أبي فرد تلك الصدقة"<sup>(١)</sup>. فقد يظن الأب أو أحد الوالدين أن له أن يهب ما يشاء لفرد من أولاده، لاعتبارات يراها هو تسوغ له هذا التصرف، ولكن الشارع الحكيم القائم على العدل، نهي عن التمييز بين الأبناء، إعمالاً لمبدأ العدل العام، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: "إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم وما ولوا"<sup>(٢)</sup>.

**ج - الاعتدال مع العمال.** ومن جوانب الاعتدال في المجال الاقتصادي في منهاج السنة النبوية أن العامل - في أي مجال اقتصادي كان - لا يكلف فوق طاقته، ولا يؤمر بالعمل زيادة على ما هو مقرر في بنود الاتفاق بينه وبين أرباب العمل، مهما كانت المسوغات الاقتصادية لذلك، كالزيادة في الطلب، أو الإقبال على البضائع أو نحو ذلك؛ فقد روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "للملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق"<sup>(٣)</sup>.

**هـ - الاعتدال في البيوع:** ويظهر ذلك من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: إن الاعتدال الفكري يسمح بالحيوية في "الاجتهاد الاقتصادي"، ومراعاة المصالح الشرعية المعتبرة في التصرفات المالية، بخلاف "الغلو والتنطع" فإنه يشدد على الناس في معاملاتهم، ويضيّق عليهم الخناق في بيوعهم وتصرفاتهم، بسبب ضيق الأفق، والجمود مع ظواهر النصوص، مع إغفال لأصل الإباحة في المعاملات، ما لم تتعارض مع محظور شرعي، ولقد أطر النص الشرعي مختلف جوانب المعاملات؛ فعن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: "لا ضرر ولا ضرار"<sup>(٤)</sup>.

والوجه الثاني: إن الاعتدال الفكري، يكون سبباً في "الاستقرار السلمي"، والأمن المجتمعي، وهو ما ينتج عنه "الرواج الاقتصادي"، والتداول المالي، وحرية التملك المشروع، وهذا ظاهر في

- ١- مسلم في الصحيح، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، ح رقم: ١٦٢٣.
- ٢- مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، ح رقم: ١٨٢٧.
- ٣- مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس، ح رقم: ١٦٦٢.
- ٤- مالك في الموطأ، كتاب القضاء، باب القضاء في المرفق، ح رقم: ١٤٢٩.

منهج الإسلام في "باب الملكية".

الوجه الثالث: إن الاستقرار السياسي الناتج عن الاعتدال الفكري، يشجع على الاستثمار المحلي والأجنبي، ما يفسح المجال أمام حركة "رؤوس الأموال"، وتشغيل اليد العاملة، وهو ما يُسهم في معالجة "ظاهرة البطالة"، وتحريك "عجلة الاقتصاد"، والتنمية المحلية الشاملة، وهذا كله يعود على الوطن بالفوائد العامة التي تجعل المسلمين في مصافّ الدول الرائدة والمتقدمة؛ ففي حديث عروة البارقي "أن النبي ﷺ أعطاه ديناراً يشتري به أضحية أو شاة، فاشتري شاتين فباع إحداهما بدينار، فأثاء بشاة ودينار، فدعا له بالبركة في بيعه، فكان لو اشتري ترابا لربح فيه"<sup>(١)</sup>.

رابعاً: الآثار السياسية، وتبدو معالمها من وجوه، منها:

أولاً: على المستوى الداخلي للدولة المسلمة:

أ- "المصدرية والمرجعية". فلا تنحصر مصادر السياسة الشرعية في المنصوص عليه كتاباً وسنة، بل إنها تتعدد لتشمل: الكتاب، والسنة، ومسالك الاجتهاد المعروفة، نحو القياس، والمصلحة، وسدّ الذرائع أو فتحها، والاستحسان، والعرف، وتفعيل مجموعة من القواعد الشرعية الكلية، مثل: مبدأ "الإباحة الأصلية"، "وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"، "ولا ضرر ولا ضرار"، "وتغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والعوائد" و"المشقة تجلب التيسير" و"الضرورات تبيح المحظورات" و"الحاجة تنزل منزلة الضرورة" و"الحدود تدرأ بالشبهات" و"التصرف على الرعية منوط بالمصلحة"، وغير ذلك مما يطلق عليه الفقهاء "السياسة الشرعية"؛ قال ابن عقيل الحنبلي: "السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ، ولا نزل به الوحي"<sup>(٢)</sup>.

ب- حفظ النظام السياسي وطاعة أولي الأمر في المعروف: إن الاعتراف بالمشروعية السياسية، والتعاون مع ولاة الأمر في تنمية الوطن والبلاد، مع الالتزام بالقوانين المنظمة لشؤون الناس لجلب مصالحهم، ودرء المفساد عنهم، وترك الخروج على أولياء الأمور، وطاعتهم في المنشط

١- البخاري في الصحيح، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، ح رقم: ٣٤٤٣.

٢- ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ص ١٢.

والمكره، استحابة للتوجيهات النبوية الدالة على ذلك، من مثل قوله ﷺ فيما رواه عنه ابن عمر: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"<sup>(١)</sup>.

**ت- التعاون مع أجهزة الدولة للحفاظ على المصلحة العامة:** من مظاهر الاعتدال في حفظ النظام السياسي أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر بطاعة الولاة والأمراء والمدراء والمسؤولين الذين يعينهم الإمام، وذلك من أجل استقرار نظام الأمة، وقيام أمرها، وفي الوقت ذاته حرّم على هؤلاء استغلال مناصبهم في قضاء مصالح المواطنين؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني، ومن عصى أميرى فقد عصاني"<sup>(٢)</sup>.

**ث- النصيحة لأولي الأمر بشروطها:** فعن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: "الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم"<sup>(٣)</sup>؛ "فالنصيحة لأئمة المسلمين إعانتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم لحوائج العباد، ونصحهم في الرفق والعدل، ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم والجهاد معهم"<sup>(٤)</sup>.

وكما أمرت الشريعة بوجوب النصح للأئمة، وطاعتهم، والتعاون معهم في إقامة مصالح الخلق، والحفاظ على النظام العام، وإقامة كيان الأمة، جاءت نصوص أخرى تحذر من جعل الله الأمر في أيديهم من التهاون بالمسؤولية، أو الغش للرعية؛ فعن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم

١- مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ح رقم: ١٨٣٩.

٢- البخاري في الصحيح، كتاب الأحكام، باب ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ح رقم: ٧١٣٧.

٣- مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ح رقم: ٥٥.

٤- الصنعاني، سبل السلام شرح بلوغ المرام، ٢١٠/٤.

وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة"<sup>(١)</sup>. قال النووي: "وفي هذه الأحاديث وجوب النصيحة على الوالي لرعيته، والاجتهاد في مصالحهم، والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم"<sup>(٢)</sup>.

**ج- الأحق بتولي مناصب الدولة الأكفاء الأقوياء الأمناء:** ومنعها عن "الضعفاء" حتى وإن كانوا أتقياء؛ فقد روى أبو ذر رضي الله عنه قال: "قلت يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: ف ضرب بيده على منكبي ثم قال: يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها"<sup>(٣)</sup>. وفي ظل هذه التكاليف النبوية تأسست المذاهب الفكرية والفقهيّة الإسلامية التي تتخذ من "الوسطية" مرجعية لها في البناء الفكري والثقافي العام للأمم، يقول أبو جعفر الطحاوي الحنفي: "ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمرنا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة"<sup>(٤)</sup>. ويقول الشيخ أحمد زروق الفاسي المالكي في قواعده: "حفظ النظام واجب، ومراعاة المصلحة العامة لازمة، فلذلك أجمعوا على تحريم الخروج على الإمام بقول أو فعل، حتى انجر إجماعهم على الصلاة خلف كل بر وفاجر من الولاة وغيرهم، ما لم يكن فسقه في عين الصلاة"<sup>(٥)</sup>.

ثانيا: وعلى المستوى لخارجي، ويتجلى ذلك في:

**أ- قيام العلاقة مع الآخر على أساس من التعاون المشترك:** وأما على "مستوى العلاقات الخارجية"، فإن آثار الاعتدال الفكري تظهر في قيام العلاقات مع الآخر على أساس من التعاون على الخير، وتبادل المصالح النافعة للناس، واحترام المعاهدات والمواثيق الدولية، وضمن سلامة المواطنين الأجانب الذين يدخلون البلاد بموجب القانون، وتصريحات الدخول والخروج، فتحفظ لهم أمانتهم، وترعى حقوقهم وأعراضهم وأموالهم، وكل ذلك استجابة للأحاديث النبوية المستفيضة الدالة على وجوب ضمان سلامة المعاهد، والمستأمن،

١- مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، ح رقم: ١٤٢.

٢- النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، ٢١٥/١٢.

٣- أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة، بغير ضرورة، ح رقم: ١٨٢٥.

٤- أبو جعفر الطحاوي، العقيدة الطحاوية، ص ٢٤.

٥- أبو العباس أحمد بن أحمد زروق الفاسي، قواعد التصوف، ص ٦٧.

ومن يدخل بلد المسلمين ضمن الاتفاقات التي تعقدها الدول مع بعضها.

ب- الدعوة السلمية القائمة على الحكمة والموعظة والجدال والتي هي أحسن: وتكون على مستوى "دعوة الآخرين إلى الإسلام"، وإقناعهم بالدخول فيه، ويتم ذلك عبر إشاعة "قيم الاعتدال والتسامح"؛ ففي الحديث الذي يرويه عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه "أنه سمع النبي ﷺ أول ما دخل إلى المدينة يقول: "يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"<sup>(١)</sup>. وهذا هو المنهج الذي سلكه المسلمون الأوائل في فتوحاتهم للبلدان، فإنهم لم يُكرهوا أحدا على الدخول في دينهم، ولا أرغموه على اعتناق عقيدتهم وترك ديانتهم، بل دعوا إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلوهم والتي هي أحسن، فمن قبل الدخول في الدين الجديد اختار ذلك عن طواعية منه واختيار، ومن أبي بقي على دينه وملته. وهذا بخلاف صنيع النصارى بالمسلمين في "بلاد الأندلس"، فإنهم لما تغلبوا عليهم، أحرقوا تراثهم، وحولوا مساجدهم إلى كنائس، وأكرهوهم على الدخول في النصرانية، فمن أبي أجبر على الخروج ومغادرة البلاد، ومن آثر البقاء دخل في دينهم، أو بقي متخفيا حتى يُكتشف أمره، فيكون مصيره القتل بأسوأ ما عرفت البشرية من آلات التعذيب.

يقول أستاذنا الدكتور عبد السلام الهراس رحمه الله: "إن سر انتشار الإسلام في الأوساط الغربية، وكذا روسيا، وسطيته وتوازنه وتجاوبه مع الفطرة والعقل السليم انطلاقا من توحيد الله، إلى إمارة الأذى عن الطريق، ولما تحمله تعاليمه من قوة روحية نافذة قد تخترق الحجب لتستقر في الروح والوجدان.... لكن بقدر ما يعتز المسلم بما يحققه الإسلام من انتشار مبارك في العالم يشعر بالحزن والأسى للواجهات المشوهة التي تعرض على العالم غير المسلم بما يصدر عن بعض المسلمين من تصرفات مشينة، وأفكار سيئة، ومواقف منفرة"<sup>(٢)</sup>.

١- الترمذي في الجامع، كتاب صفة القيامة، والرقائق والورع، ح رقم: ٢٤٨٥، وقال: "حديث حسن صحيح".

٢- عبد السلام الهراس، الإسلام دين الوسطية والفضائل والقيم الخالدة، ص ١٥.

- خاتمة: في ختام هذا البحث، وبعد محاولتنا استخلاص أصول الاعتدال الفكري من منهاج السنة النبوية، يمكن القول أن هذه الدراسة قد انتهت إلى النتائج الآتية:
- المقصود بالاعتدال الفكري، هو الوسطية في الفكر عامة، والشرعي منه بصفة خاصة، وفهم مصادر الإسلام، بطريقة بعيدة عن التحلل، والغلو، والتنطع.
  - مداخل نشر الاعتدال الفكري، تقوم على الفطرية، والاهتمام، بالعقل، وحمانيته من المؤثرات السلبية، مع تنمية ملكة التفقه في الدين، والعناية بالقيم والأخلاق الإسلامية الصحيحة، وتوظيف الخطاب النبوي المباشر في الدعوة إلى الوسطية، والتحذير من الغلو، والتنطع.
  - الاعتدال الفكري يتجلى في العناية بالاجتهاد، وإعمال الفكر بشروطه، ونبذ التعصب، والتقليد الأعمى، والتيسير في الفتوى، وفقه وسطية الأحكام الشرعية، من خلال رتبته، ومرتبته، ومقدارها، والاشتغال بما تحته عمل منها، مع قبول الخلاف، وحسن التعامل مع المختلفين في الدين، والفكر، والنظر والاجتهاد.
  - إذا عمَّ الاعتدال الفكري وأصبح ثقافة في الوطن والمجتمع، عمَّ خيره البلاد كلها، وشمل المسلمين وغير المسلمين، وبدت آثاره ونتائجه في كل الميادين، وبخاصة الميدان الثقافي، والمعرفي والعلمي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي.
  - ضرورة توظيف السنة النبوية في المناهج الدراسية، مع فقه أحكامها، ودراساتها دراسة موضوعية، لتصحيح الفهم، وإزالة الالتباس، ودفع الأفكار المنحرفة، وسوء التأويل.

### قائمة المصادر والمراجع:

- أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، الاعتصام، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، مؤسسة القرطبة.
- أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، بيروت، دار الكتاب العربي.
- أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى، مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ.
- أبو بكر الطرطوشي، الحوادث والبدع، تحقيق: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٠ / ١٩٩٠م.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- أبو الفرج عبد الرحمان، بن علي الجوزي، تلبيس إبليس، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٢١ / ٢٠٠١م.
- أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣م.
- أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ابن قيم الجوزية، إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ - ١٩٧٥.

- أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاي، لبنان، دار المعرفة.
- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر الدار المصرية للتأليف غ والترجمة ١٩٦٤م / ١٩٦٧ / ١٣٨٤ / ١٣٨٧هـ.
- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ميزان العمل، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، ١٩٦٤م.
- أبو الفضل محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- أبو الحسين، مسلم بن الحجاج، القشيري، الجامع الصحيح، دار المغني، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- أبو الحسين علي بن خلف بن عبد الملك، ابن بطلال، شرح صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الرشد.
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- أبو جعفر الطحاوي، الحنفي، العقيدة الطحاوية، بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمان بن محمد بن قاسم، المكتب العلمي السعودي بالمغرب، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب.
- أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، بيروت، دار عالم الكتب، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، القاهرة، المكتبة التوفيقية.
- أحمد تيمور باشا، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة، وانتشارها عند جمهور المسلمين، تقديم العلامة محمد أبو زهرة، بيروت، دار القادري، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- أبو العباس أحمد بن أحمد زروق الفاسي، قواعد التصوف، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية.



## الاعتدال الفكري وأثره في حماية الوطن ...

- أبو محمد سهل بن عبد الله التستري، تفسير التستري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد علي الطبعة الأولى مايو ٢٠٠٤م.
- جمال الدين القاسمي، قواعد التحديث من فنون مصطلح لحديث، تحقيق: محمد بهجة البيطار، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية، ١٣٨٠/١٩٦١م.
- مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥/٢٠٠٤م.
- محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، جامع البيان، في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.
- محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، بيروت، دار الكتب العلمية.
- محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣.
- محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، لسان العرب بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى.
- محمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦.
- محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، دار الصديق، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ.
- محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية.
- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط. بدون تاريخ

- محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد طاهر الميساوي، الأردن، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٤٢١/١/٢٠٠١م.
- مجلة الإسلام في آسيا، المجلد ١١ / العدد ١ يونيو ٢٠١٤م.
- نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤١٨/١٩٩٧م.
- عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، تدريب الراوي، في شرح تقريب النواوي، الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة.
- علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٣٩١م / ١٩٧١م.
- عبد السلام المهراس، الإسلام دين الوسطية، والفضائل والقيم لخالدة، موقع جملة السكينة.
- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، شرح المشكاة الكاشف عن حقائق السنن، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز ١٤١٧ / ١٩٩٧م.

قيمة المسؤولية وأثرها في تعزيز  
الأمن الوطني وحمايته،  
"دراسة في ضوء الهدى النبوي"

الدكتورة/ ماريه بسام محمد عبابنه  
أستاذ مساعد في علم الحديث الشريف  
جامعة الحدود الشمالية / السعودية





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإنّ الأمن الوطنيّ يشكّل ركناً مهمّاً في بناء الأوطان، وعاملاً أساسياً في حمايتها، كما يعدّ من أهمّ المسؤوليات المنوطة بالقادة ومن ينوب منابهم. لذلك؛ فإنّ وعي مكوّنات المجتمع بعظم هذه المسؤولية أمرٌ مهمٌ في حماية الأوطان، وذلك من خلال قيامهم بواجباتهم المطلوبة تجاه أوطانهم قيادةً وحكومةً وشعباً، إلّا أنّ مفهوم المسؤولية وتطبيقاتها يحتاج إلى تقويم وتأييدٍ وتصحيح وتعزيز؛ ليؤدي دوره في حماية الوطن، ويقيه من الانعكاسات الخطيرة في حال الجهل بهذا المفهوم أو التنكّب والتخلي عنه.

ولقد جاءت السنّة النبوية الشريفة بنصوصها تقرّر هذا المبدأ وتوجّهه وتبيّن أهميته، لذلك جاء هذا البحث يهدف إلى تحرير مفهوم المسؤولية وتوضيح دلالاته، والكشف عن أبعاد الأمن الوطني؛ لبيان المنهج النبوي في تفعيل قيمة المسؤولية للقيام بدورها في تحقيق الأمن الوطني، من خلال دراسة استقرايئة استنباطية تحليلية في نصوص السنّة المشرفة.

وتأتي أهمية هذا البحث في ضرورة القيام بالمسؤوليات المنوطة بأفراد المجتمع، كلّ منهم في مكانه ومجال اختصاصه لحماية الأمن الوطنيّ في ظلّ ما تشهده المنطقة العربيّة جرّاء الفتن الداخليّة والخارجيّة، وتوالي الأزمات الاقتصادية، والتشويش الإعلاميّ، والتّصل من المسؤوليات أو التّساهل فيها؛ ليضع لبنة في بناء الأوطان من خلال التّوعية الموجهة لأهميّة المسؤولية وبيان دورها في حماية الأمن الوطنيّ، وذلك بالرجوع لأصول العلم الشرعيّ.

ولقد سُبقت هذه الدّراسة عدّة دراساتٍ تناولت موضوعي المسؤولية والأمن الوطنيّ؛ منها:

- دراسة بعنوان: "الأمن في السنّة النبوية"<sup>(١)</sup>، هدف من خلالها الباحث بيان التجربة الأمنيّة العسكرية في السنّة النبوية؛ حيث قام بتعريف الأمن وبيان أهميته، واستعراض التجربة الأمنيّة في العصر النبوي وعهد الخلفاء الراشدين، وقد تقاطعت دراستي مع هذه الدراسة في تعريف الأمن وبيان أهميته.

- دراسة بعنوان: "الأمن العسكري في السنّة النبوية"<sup>(٢)</sup>؛ حيث تتبعت الباحثة في دراستها تاريخ الأمن العسكري والوقائي، والاستخبارات العسكرية الداخلية، والمنهج النبوي في بثّ الأمن العسكري، وقد تقاطعت دراستي مع هذه الدراسة في بيان مفهوم الأمن في السنّة النبوية، ولم تتعرض هذه الدراسة لعلاقة الأمن بالمسؤولية.

- دراسة بعنوان: "وسائل تحقيق الأمن الاجتماعي"<sup>(٣)</sup>، عرض فيها الباحث مفهوم الأمن الاجتماعي ومقوماته ووسائل تحقيقه، ولم تخصّص هذه الدراسة في السنّة النبوية بل جاءت عامّة، ولم تتعرض هذه الدراسة لموضوع المسؤولية.

- دراسة بعنوان: "الأمن الاجتماعي، مفهومه وتأصيله الشرعي في ضوء مقاصد الشريعة"<sup>(٤)</sup>، عزّف الباحث من خلالها الأمن الاجتماعي بجميع أبعاده، مع التأصيل الشرعي للأمن الاجتماعي، وبيان صلته بمقاصد الشريعة، ولم تخصّص هذه الدراسة في السنّة النبوية بل

١- يُنظر: رضوان، يوسف إسماعيل سعيد، "الأمن في السنّة النبوية"، مجلة الجامعة الإسلامية في الدراسات الإسلامية، مجلد: ٢٠، عدد ١، ٢٠١٢م. الموقع الإلكتروني للمجلة، [journals.iugaza.edu](http://journals.iugaza.edu).  
ps\* ولم يتسنّ لي تحميل البحث عن الموقع بسبب تضمين بحث آخر تحت هذا العنوان، واكتفيت بالاطلاع على ملخص البحث.

٢- يُنظر: الثلاثيني، نهاد يوسف، "الأمن العسكري في السنّة النبوية"، رسالة ماجستير، إشراف: إسماعيل سعيد رضوان، جامعة غزة، ٢٠٠٧م.

٣- يُنظر: عبد السميع، أسامة السيّد، "وسائل تحقيق الأمن الاجتماعي"، مؤتمر الأمن الاجتماعي في التصور الإسلامي، جامعة آل البيت - الأردن، المؤتمر الثاني / ٣-٤ / ٧ / ٢٠١٢م، موقع المؤتمر على الشبكة الإلكترونية، [web2.aabu.edu.jo/](http://web2.aabu.edu.jo/)

٤- يُنظر: الكيلاني، رشاد صالح، "الأمن الاجتماعي، مفهومه وتأصيله الشرعي في ضوء مقاصد الشريعة"، مؤتمر الأمن الاجتماعي في التصور الإسلامي، جامعة آل البيت - الأردن، ٣-٤ / ٧ / ٢٠١٢م. موقع المؤتمر على الشبكة الإلكترونية، [web2.aabu.edu.jo/](http://web2.aabu.edu.jo/)

جاءت عامة، ولم تتعرض هذه الدراسة لعلاقة الأمن بالمسؤولية.

- دراسة بعنوان: "منهجية السنة النبوية في تعزيز المسؤولية الاجتماعية"<sup>(١)</sup>، قام الباحث من خلالها بتخريج حديث المسؤولية وبيان معانيه ودلالاته، ولم تتعرض هذه الدراسة لعلاقة الأمن بالمسؤولية.

ولأنّ هذه الدراسات لم تفرد موضوع ارتباط المسؤولية بالأمن الوطني من جهة، ولم تكشف عن دور السنّة النبوية في الربط بينهما لتأدية المسؤولية دورها في تعزيز الأمن الوطني، جاءت هذه الدراسة لتضيف إلى الدراسات السابقة بيان دور المسؤولية في تعزيز الأمن الوطني.

سائلاً المولى -عزّ وجلّ- أن يُلهمنا الرُّشد والصَّواب، وأن يجتنبنا الزَّلل، وأن يهبنا التَّوفيق، والله المستعان.

## المبحث الأول: دلالات المسؤولية والأمن الوطني في السنّة النبوية

يُقسم هذا المبحث إلى مطلبين:

- المطلب الأول: مفهوم المسؤولية ودلالاته في السنّة النبوية، ودورها في تنميته.

- المطلب الثاني: دلالة الأمن الوطني ودور السنّة في بيان أبعاده.

المطلب الأول: مفهوم المسؤولية ودلالاته في السنّة النبوية، ودورها في تنميته

### أولاً: مفهوم المسؤولية ودلالاته في السنّة النبوية

أ- **المسؤولية لغةً:** المسؤولية مصدرٌ من كلمة مشؤول؛ وترجع مادة المسؤولية إلى السّين والهمزة واللام، فيقال سؤال، ومسألة، والسؤال قد يكون للاستعلام، وقد يكون للتبكيك، وتارة يكون لتعريف المشؤول وتنبهه<sup>(٢)</sup>.

١- يُنظر: الهليل، عبد العزيز بن عبد الله، "منهجية السنّة النبوية في تعزيز المسؤولية الاجتماعية"، دار العلوم، الفيوم، ٢٠٠٩م.

٢- يُنظر: ابن فارس، أحمد القزويني الرازي(٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة (٣/١٢٤)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (باب السين والهمزة وما يثلاثهما)، دار الفكر، ١٩٧٩م، والراغب الأصفهاني؛ أبو القاسم

ب- المسؤولية اصطلاحاً: يعدّ مصطلح المسؤولية من المصطلحات حديثة الاستعمال؛ بمعنى أنّ ليس له وجود في استعمالات الأقدمين، ويعرّف الباحثون مصطلح المسؤولية بعدّة تعريفات منها: "المسؤولية هي كون الفرد مكلفاً بأن يقوم ببعض الأشياء وبأن يقدم عنها حساباً إلى غيره"<sup>(١)</sup>.

وإذا أردنا أن نتعرّف على المعنى الجامع للمسؤولية يجدر بنا الرجوع للقرآن الكريم الذي يقدم تجلية راقية للمفاهيم ولاستخدامات السنّة النبوية لمصطلح المسؤولية؛ فإذا تقرّر أنّ هذا المصطلح \_المسؤولية\_ حديث الاستعمال إلا أنّ القرآن والنصوص النبوية قد ورد فيهما لفظ السؤال.

### ١- المسؤولية في القرآن الكريم:

يُشير الأستاذ أفضل في دراسة له حول دلالة المسؤولية في القرآن الكريم؛ أن مادّة (سأل) ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع؛ تدور معناها حول الاستخبار كما في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ (سورة المعارج: الآية، ١)، والاسترشاد وطلب المعرفة كما في قوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ (سورة النحل: الآية، ٤٣)، وسؤال الطلب وعرض الحاجة في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾ (سورة الرحمن: الآية، ٢٩)، و سؤال المخاصمة والمجادلة. كقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١﴾ (سورة النبأ: الآية رقم، ١)، وسؤال الإجابة والاستجابة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۝١٨٦﴾ (سورة البقرة: الآية ١٨٦)، و سؤال المحاسبة والمناقشة كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ (سورة الحجر:

الحسين بن محمد (٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٣٧)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ، ويُنظر: الزبيدي: محمد بن محمد الحسيني، أبو الفيض، (١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، (٢٩/ ١٥٧)، مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.ت)، (د.ط).

١- دراز، عبد الله، دستور الأخلاق (ص: ١٣٦)، تعليق الدكتور عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٤، ١٤٠٢هـ.



(الآية، ٩٢)، وسؤال بمعنى المؤاخذة المجازة كقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة البقرة: الآية، ١٣٤). (١)

ويلفت ابن الأثير النظر إلى أن السؤال في كتاب الله - عز وجل - وحديث رسول الله - ﷺ - نوعان: أحدهما ما كان على وجه التبيين والتعليم لما تمس الحاجة إليه، والثاني ما كان على طريق التعتن. (٢)

## ٢- المسؤولية في السنة النبوية:

يتضمن مفهوم المسؤولية في السنة النبوية الدلالات اللغوية جميعها:

ففي الحديث المعروف عن ابن عمر رضي الله عنهما يقول: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ". (٣)

١- يُنظر: أفضل، سجاد أحمد بن محمد؛ المسؤولية والجزاء في القرآن الكريم" دراسة موضوعية" (ص: ١٠)، بحث تكميلي مقدّم لنيل درجة الماجستير، إشراف مصباح الله عبد الباقي، الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م. [www.alukah.net/](http://www.alukah.net/)

٢- يُنظر: ابن الأثير الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد (٦٠٦)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٣٢٨)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

٣- (متفق عليه) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) في صحيحه، الجامع الصحيح المختصر، كتاب الجمعة، باب الجمعة في المدن والقرى، حديث رقم (٨٩٢)، (٥/٢). وفي أبواب العمرة، باب العبد راع في مال سيده، حديث رقم (٢٤٠٩)، (٣/١٥٧)، وأخرجه في كتاب الوصايا، باب قوله تعالى: "من بعد وصية يوصي بها" حديث رقم ٤، ٦/٢٧٥١، وكتاب النكاح "باب قوا أنفسكم وأهلكم" حديث رقم ٥١٨٨، (٣٤/٧)، وكتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، حديث رقم (٥٢٠٠) (٧/٤١)، وكتاب الأحكام، باب قوله تعالى: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول"، حديث رقم ٧١٣٨ (٧٧/٩)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ، وأخرجه مسلم: بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ)، في صحيحه، المسند الصحيح، كتاب الإمارة، باب

وُشير ابن حجر إلى دلالة المحاسبة في مفهوم المسؤولية، وأن المكلف مسؤول عما قصر فيه، فيقول: "استدلّ به على أنّ المكلف يؤاخذ بالتقصير في أمر من هو في حكمه"<sup>(١)</sup>.

لذلك، اقترن لفظ الرعاية في هذا الحديث بلفظ المسؤولية (كلّكم راع وكلّكم مسؤول)؛ فالإمام ومن ينوب عنه، كلهم راع فيمن تولوا مسؤوليتهم بالعناية بهم على أكمل وجه دون تقصير أو تهاون في جميع أمورهم ومعاشهم وما يتعلق بأمنهم والقيام على حاجاتهم، وحسن التّعهد لهم في سياسة الدّين والدّنيا، وكذلك هو مسؤول عن رعيته في تنبيههم وزجرهم ومحاسبتهم وإقامة حدود الله فيهم<sup>(٢)</sup>.

وبالتّحليل لمفردة المسؤولية تأسيساً على المعنى اللّغوي؛ ودلالاتها في القرآن الكريم والسنة النبوية، تجد أنّها تتضمّن مايلي:

١ - معنى (توجيه السّؤال للمعرفة والاستعلام): وهذا له ارتباط بالمصدر؛ من حيث إنّ الذي يتولّى المسؤولية يجب أن يكون محيطاً وعارفاً بتفاصيل مسؤوليته التي وليّ عليها، سواء مسؤوليته أمام نفسه أو الواجبات الموكلة إليه أو فيمن استرعاه، وهذا يتضمّن دلالة الرّعاية.

٢ - معنى (التبكيك والزجر والوعظ).

٣ - معنى (التنبيه)، وهذا المعنى وسابقه يتضمّن دلالة المحاسبة، إذ لا بدّ مع الرعاية في المسؤولية من المتابعة والتّقويم من خلال التنبيه، والزجر في حالة ارتكاب المخالفة.

ونستطيع القول بعد هذه الجولة في الدلالات اللّغوية لمفهوم المسؤولية في اللّغة والقرآن الكريم

---

الأمير مسؤول عن رعيته، حديث رقم (٤٧٥١) (٥/ ١٤٧)، تحقيق مركز البحوث بدار التأصيل، دار التأصيل - القاهرة، (د.ت)، (د.ط).

١- العسقلاني: ابن حجر، أحمد بن علي (٨٥٢هـ-)، فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ١١٣)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

٢- يُنظر: القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك (المتوفى: ٩٢٣هـ)، شرح القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري- (٢/ ١٦٨) و(٤/ ٢٣٠)، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط٧، ١٣٢٣هـ.

والسنة المشرفة؛ بأن المسؤولية - اصطلاحاً - تشمل: كل ما يُسأل عنه ويحاسب المرء عليه في الدنيا والآخرة فيما كلف به، أو وُي عليه رعاية وأمانة.

### ثانياً: دور الهدي النبوي في تنمية المسؤولية لدى أفراد المجتمع

إنَّ تحمّل المسؤولية والقيام بها أمرٌ ضروريٌّ لحفظ الدين والأوطان؛ لذلك جاء الهدي النبوي في حديث المسؤولية لا يستثني أيّ مكلف منها للقيام بدوره في عمارة الأرض وتحقيق غاية الخلق؛ ومن هذه الغاية والمسؤولية الكبرى جاءت السنة النبوية لتنمي هذه القيمة في شخصية المسلم على المستويين الفردي والجماعي، رعاية للدين وأمن الأوطان؛ لذلك جاءت السنة النبوية تنمي هذه القيمة وتعززها من خلال إقرار مبدأ شمولية المسؤولية للمكلفين، ومن خلال التحذير من مظاهر التخلي عنها، بيان آثار ذلك على المجتمعات، وإيقاع العقوبة على المقصرين فيها.

#### ١ - شمولية المسؤولية ومستوياتها في الهدي النبوي:

انطلاقاً من قوله ﷺ " وكلّكم مسؤول عن رعيته"؛ فإنَّ المسؤولية الوطنية والمجتمعية لا تقع على عاتق الإمام فحسب؛ بل إنَّ المجتمع كله يشكل شبكة كحلقة متواصلة تبدأ برعاية تلك المسؤولية ومتطلباتها من الأسرة إلى أعلى قمة في التنظيم الوطني لها، كواجب ديني ووطني على كل مكلف؛ رجلاً ونساءً وعاملين في جميع المجالات والمؤسسات.

وتشكّل قيمة المسؤولية في السنة النبوية مبدأ لا ينفك عن كل مؤتمن بحيث توجب عليه حفظ والتزام إصلاح ما قام عليه؛ لذلك فإنَّ الحديث النبوي يعمّم أولاً، ثمَّ يُخصّص ثانياً. وقسم الخصوصية إلى أقسام: من جهة الرجل، ومن جهة المرأة، ومن جهة الخادم، ومن جهة النسب. ثم عمم ثالثاً " وكلّكم راع" تأكيداً، وردّاً للعجز إلى الصدر بياناً لعموم الحكم أولاً وآخرًا؛ وانطلاقاً من هذه المسؤولية فإنَّ كل مكلف محاسب على فعله؛ مسؤولية دنيوية وأخروية؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (٢٤) الصافات: ٢٤ (١).

١- يُنظر: القسطلاني، إرشاد الساري، (٢/ ١٦٨) و(٤/ ٢٣٠).

## ٢- التكليف بقدر الطاقة والتبصير بالمسؤوليات والتحذير من مظاهر التخلي عن المسؤولية:

إن من أهم مراحل التكليف هو مراعاة القدرات والطاقات؛ لذلك جاء المنهج النبوي يدعو إلى عدم التكليف فوق الطاقة، ويبيّن أنّ الناس مستويات في قدراتهم وفيما يطيقون. جاء في الحديث، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: "دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: فُلَانَةٌ، تَذُكِّرُ مِنْ صَلَاتِهَا، قَالَ: مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ"<sup>(١)</sup>.

إنّ منطوق هذا الحديث يدعو إلى الاشتغال بالأعمال التي يستطيع الإنسان أن يداوم عليها؛ وهذا يقتضي الأمر بالاعتصام على ما يطاق من العبادة وغيرها، ومفهومه يقتضي التّهي عن تكلف ما لا يُطاق.<sup>(٢)</sup>

ولهذا، فإنّ النبي ﷺ كان يراعي قيمة "الأمانة" في المسؤولية الكبرى، وهي قيادة هذه الأمة فيختار لهم الكفاء؛ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي، قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَيَّ مِنْكَ ثُمَّ قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِزْبِي وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"<sup>(٣)</sup>.

قال النووي: "هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلُ عَظِيمٍ فِي اجْتِنَابِ الْوَلَايَاتِ، لَا سِيَّمَا لِمَنْ كَانَ فِيهِ ضَعْفٌ عَنِ الْقِيَامِ بِوُظَائِفِ تِلْكَ الْوَلَايَةِ، وَأَمَّا الْحِزْبِيُّ وَالنَّدَامَةُ فَهُوَ حَقٌّ مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَهَا، أَوْ كَانَ أَهْلًا وَلَمْ يَعْدِلْ فِيهَا فَيُخْزِيهِ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَفْضَحُهُ، وَيَنْدَمُ عَلَى مَا فَرَطَ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْوَلَايَةِ، وَعَدَلَ فِيهَا، فَلَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ"<sup>(٤)</sup>.

١- (متفق عليه)، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أحب العمل إلى الله أدومه، حديث رقم ٤٣ (١٧/١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب خذوا من العمل ما تطيقون، حديث رقم (١٧٨٤٩)، (٥٤٢/١).

٢- يُنظر: العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري (١/ ١٠٢).

٣- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب التّهي عن طلب الإمارة، حديث رقم (٤٧٤٦)، (١٤٥/٥).

٤- النووي، شرف الدين، شرح النووي على مسلم (٢١٠ / ١٢)، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م.

كذلك كل الأعمال يمكن انتقاء أكفاء لها، بمراجعة تلك القيم، دون اللجوء إلى تقييمات ترعى حظوظ النفس أو يرافقها الجهل رعايةً للمسؤولية.

وأما المرحلة الثانية في التكليف بالمسؤولية فهي التبصير بها، بأن يعرف المسؤول ما له وما عليه في جميع التكليفات الموكلة له على الصعيدين الفردي والجماعي؛ لذلك قال النبي ﷺ - لمعاذ بن جبل: - وهو أعلم الناس بالحلال والحرام: "كفّ عليك هذا: وأخذ بلسان نفسه، قال: فقلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: "تكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم". (١)

وأخيراً، تأتي المرحلة الثالثة في المسؤولية وهي رعاية تلك المسؤولية، والمحاسبة عليها، والتحريض على تحملها، إذ بعد استطاعة المكلف على تلك المسؤولية المناطة به، و بعد التبصير فيها لا يبقى له عذر في تركها أو التخلي عنها "ألا وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته".

### المطلب الثاني: دلالة الأمن الوطني ودور السنة النبوية في بيان أبعاده.

#### أولاً: مفهوم الأمن ودلالاته في السنة النبوية

الأمن من الأمان والأمانة؛ فأمنت إذا أنا أمن، وأمنت غيري من الأمان، والأمن: طمأنينة النفس وسكون القلب، وضد الخوف. والأمانة: ضد الخيانة. (٢)

إن التأمل في المعاني اللغوية لمفردة الأمن؛ يسفر عن نتيجة مهمة، وهي أن الأمن يتضمن معانٍ عدة ترتبط ببعضها؛ فهو من الأمان ضد الخوف، وهو الأمانة ضد الخيانة؛ إذ لا بد من تحقيق الأمن من هذين الأمرين، أمانة في تحمل المسؤولية؛ وأمن ترعاه تلك المسؤولية أيضاً؛ الأمر الذي

١- أخرجه الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (٢٧٩هـ) في سننه (الجامع الكبير)، أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث رقم (٢٦١٦)، (٥/١٢)، وقال: "حديث حسن صحيح، تحقيق وتعليق أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٢- يُنظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، باب الهزرة والميم وما بعدهما في الثلاثي (١/١٣٣)، و الراغب الأصبهاني؛ المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٥)، وابن منظور الإفريقي: محمد بن مكرم، أبو الفضل، جمال الدين (٥٧١١هـ)، لسان العرب (١٣/٢١)، دار صادر - بيروت، ط ٣ - ١٤١٤ هـ.

يجعل تلك القيمتين لا تنفصلان عن بعضهما في أي حال من الأحوال.

ولذلك، جاءت السنّة النبوية رعاية للمكلفين، ومساندة لهم في تحمّل مسؤولياتهم، تعزّز هذه القيمة وتأمّر بالعمل على إحلالها، والسعي إليها في جميع أبعادها الدّينية، والفكرية، والاجتماعية، والسياسية، والعسكرية، والإيدلوجيّة.

يقول النبي ﷺ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حَيَّرَتْ لَهُ الدُّنْيَا".<sup>(١)</sup>

في هذا الحديث إشارة إلى الأمن بجميع أبعاده؛ الأمن العقديّ، والسياسيّ، والفكري، والاجتماعي، والصحيّ، والغذائي؛ التي تشكل بدورها الأمن الوطني المتكامل.

### ثانيًا: مفهوم الوطن ودلالاته.

يعرّف ابن منظور الوَطْنَ فيقول: "الْمَنْزِلُ تَقِيمُ بِهِ، وَهُوَ مَوْطِنُ الْإِنْسَانِ وَمَحَلُّهُ"<sup>(٢)</sup>. فالوطن، هو الذي ينشأ عليه الإنسان، وهو منزله وموطنه ومحله، وقد جُبلت النفوس على التعلّق بالمحلّ والأُنس به والانتماء له؛ فالإنسان لا يستطيع العيش دون وطن يحلّ به يكون مقرّه ومقامه، ولا شك أنّ هذا الوطن له عناصر ومكوّنات تشكّل كيانه وهي: الشعب، والقيادة، وتوفير اللوازم والاحتياجات للعيش على أرضه؛ طلبًا للاستقرار في منظومة متكاملة من الحقوق والواجبات، وتحمّل المسؤوليات والتبّعات الأمنية وغيرها، في ظل الدستور والتشريعات والقوانين والأخلاق والتّضحيات والانتماء، الذي عبّر عنه رسول الله ﷺ بكلمة الحبّ في أجهى صورها؛ وذلك في حبه لموطنه مكة؛ فقال يوم هاجر منها: "قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَكَّةُ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِمَّا خَرَجْتُ، لَلَّهِمْ اجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا مِنْ حُبِّ الْمَدِينَةِ مِثْلَ مَا جَعَلْتَ فِي قُلُوبِنَا مِنْ حُبِّ مَكَّةُ، وَمَا أَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ قَطُّ إِلَّا عَرَفَ فِي وَجْهِهِ الْبِشْرُ وَالْفَرْحُ"<sup>(٣)</sup>.

١- (أخرجه الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، في سننه، الجامع الكبير، كتاب أبواب الزهد، باب منه، حديث رقم (٢٣٤٦)، (٥٧٤/٤)، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ مَرْوَانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ".

٢- يُنْظَر: ابن منظور، لسان العرب (١٣/ ٤٥١).

٣- أخرجه الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد (٣٦٠ هـ)، في المعجم الكبير (١٢/ ٣٦٢)، تحقيق

وبهذا نلخص إلى أن الأمن الوطني هو: الأمان الذي يحمي الأرض التي يقطنها الإنسان بجميع مكوناتها، وبجميع أبعاد الأمان.

وتُعرَّفُ كلية الدفاع الوطني الملكية الأردنية الأمن الوطني بأنه: "التعبير السياسي والاجتماعي عن الحالة الحقيقية التي يعيشها المجتمع، وهو مفهوم ديناميكي متحرك يتفاعل ضمن دوائر ثلاث (محلية، وإقليمية، ودولية)، ويتضمن أمن المواطن وممتلكاته، وتاريخه، وتراثه، ومعتقداته وحرياته الأساسية، وكذلك سيادة الدولة وسلامة جغرافيتها، وحدودها السياسية والحرية النسبية لقرارها الوطني، واستقرارها الأمني والاجتماعي الداخلي، وقدرتها على النهوض بالمتطلبات التنموية الشاملة لمجتمعها، حيث يقوم المفهوم في أعلى درجاته على الدمج المتوازن لعناصر أساسية ثلاثة: (الحاجة إلى قدرة دفاعية عامة للدولة لردع التهديدات الاستراتيجية، وحاجة المواطن إلى الأمن والاستقرار الداخليين، حاجة المجتمع إلى النمو والتنمية الشاملة. إن الإخلال بهذه العلاقة لصالح أي من هذه العناصر، سيقود حتمًا إلى تشوهات عضوية في البنية العامة لأمن الدولة، فالأمن الوطني الحقيقي يكمن في هذا التوازن)<sup>(١)</sup>. وما سبق يشكل وصفًا لا تعريفًا.

وبعضهم يُطلق الأمن الاجتماعي على مفهوم الأمن الوطني ويعتبرهما مفهوماً واحداً، فيقول: "الأمن الوطني هو النظام الذي تتحمل فيه الجماعة الدولية المنظمة مسؤولية حماية كل عضو من أعضائها والسهر على أمنه من الاعتداء"<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: أبعاد الأمن الوطني في السنة النبوية

أشير في المطلب السابق إلى قول النبي ﷺ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَاقٍ فِي

حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية، ١٩٨٣م وقال ابن عبد الهادي: "وقال الدارقطني: هذه الأحاديث وغيرها في هذا الباب من وجوه صحاح، لا مطعن فيها، ولا في نقلها"، يُنظر: ابن عبد الهادي: شمس الدين الحلبي محمد بن أحمد (٧٤٤هـ)، تنقيح تحقيق أحاديث التعليق، (٤٥٢/٢)، تحقيق أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

١- الكيلاني، الأمن الاجتماعي (ص: ١٢) نقلاً عن كلية الدفاع الوطني الملكية الأردنية، كراسة الأمن الوطني (١، ص ١٨، ١٩).

٢- المرجع السابق (ص: ١٢).

جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حَيَّرَتْ لَهُ الدُّنْيَا"<sup>(١)</sup> إلى أن هذا الحديث فيه إشارة إلى الأمن بجميع أبعاده؛ الأمن العقدي، والسياسي، والفكري، والاجتماعي، والصحي، والغذائي؛ التي تشكل بدورها الأمن الوطني المتكامل:

## ١- البعد العسكري والسياسي:

يعتمد البعد العسكري للأمن الوطني على دور قوة القادة والجُند في حفظ الأمن الوطني، ضد أية اعتداءات خارجية، أو فتن داخلية، وهذا متضمن في قوله عليه السلام: "من بات آمناً في سره".

- فالأمان في السرب يعني عدم الخوف من العدو، وعدم الخوف من أسباب العذاب الدنيوي والأخروي في الجماعة التي يعيش بينها، والوطن الذي يسكنه؛ فلفظة ("في سره")؛ تعني جماعة المرء وأهله وعياله ومسلكه وطريقه وبيته، والأرض التي يعيش عليها ويستوطنها، وهذا دلالة على الأمن الوطني.

والبعد السياسي؛ الذي يُسهم في تعزيز المواطنة والانتماء، والذي يوفر الأمن الداخلي: "والله إنك لأحب البلاد إلي، ولولا أن قومي أخرجوني ما خرجت".

## ٢- البعد الاقتصادي (الأمن الغذائي والصحي)

وذلك بتوفير الاحتياجات اللازمة للأفراد من المأكل والمشرب والملبس والمداواة والتعليم، وإدارة الأزمات في المشاكل الاقتصادية: "معافى في بدنه، عنده قوت يومه"؛ أي: صحيحاً سالمًا من العيوب في بدنه ظاهراً وباطناً.

ولا شك أن هذه الأبعاد كلها تتكامل مع بعضها لتعزيز الأمن الوطني والحفاظ على سلامته؛ إذ إن توفير احتياجات المواطنين من الصّورات يحول بينهم وبين الاعتماد على الجهات الخارجية، التي تستغل تلك الحاجة وتجعلها مطية للإذلال والاستغلال والسيطرة، بعد إغراق تلك الشعوب بالديون التي تضعف القوى الداخلية، وتُعيق مسيرتها التّنموية، وتقف حاجزاً أمام العدالة المجتمعية، الأمر الذي يجعل تلك البيئات بيئة خصبة للفتن الداخلية، وتوليد الأزمات التي تهدد الأمن الداخلي الوطني بآثارها السلبية.

١- سبق تخريجه، (ص: ١٠).



#### ٤- البعد النفسي

لا شك أنّ الأمن النفسي متطلب يسعى الإنسان إليه منذ نعومة أظفاره، والوطن الذي ينشأ على أرضه هو المصدر الذي يؤمن له ذلك؛ فشعور الإنسان بالطمأنينة والانتماء نحو وطنه، يزداد كلما شعر بأنّ الوطن يقدم له الرعاية والأمن والعناصر الضرورية. (١) لذلك، جاءت الأحاديث النبوية تدعو إلى مراعاة المسؤولية تجاه الأمن الذي يشمل الأمن النفسي وغيره؛ يقول النبي ﷺ: "المؤمن من أمنه الناس". (٢)

بيّن هذا الحديث أهمية قيام جميع أفراد المجتمع بمسؤولياتهم تجاه الأمن النفسي؛ فإذا أعطى المؤمن الأمان في مجتمعه، وأمن الناس منه على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم؛ فإنه ذلك المؤمن حقاً، والتنكب عن هذه المسؤولية يؤدي إلى زعزعة الأمن النفسي بشيوع الظلم والفواحش التي تهدد أمن المجتمعات. ولرعاية هذه المسؤولية سُمي من يقوم بها بالمؤمن، ونفاها عن غيره من باب نفي كمال الإيمان دون الحقيقة. (٣)

إنّ مراعاة الأمن الوطني بجميع أبعاده المذكورة في الحديث الشريف، كفيلة بحماية الأمن الوطني على الوجه الأكمل، لذلك قال النبي ﷺ: "معقبا: فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"، والمعنى، فكأنما أعطي الدنيا بأسرها (٤).

١- يُنظر: عبد الله، تيسير محمد، والعرجا، ناهدة، الأمن النفسي وعلاقته بالانتماء الوطني لدى قوات الأمن الفلسطيني في منطقة بيت لحم (ص: ٨٣)، المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، المجلد ٣١، العدد (٦٢) ٧٥-١٢٢، الرياض، (٢٠١٥م).

٢- أخرجه ابن حبان، أو حاتم البستي، (٣٥٤)، في صحيحه (المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقلها)، باب ذكر الخبر الدال على أنّ مجانية الرجل أذى جيرانه من الإيمان، حديث رقم ٧٨٠، (١/٥١٦)، تحقيق: محمد علي سونمز، خالص دمير، دار ابن حزم، (د.ط)، (د.ت).

٣- يُنظر: المباركفوري، أبو الحسن عبيد الله، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ١٠٥)، إدارة البحوث العلميّة والدعوة، الجامعة السلفية- بنارس الهند، ط ٣، ١٤٠٤.

٤- يُنظر: الهروي، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/٣٢٥٨)، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

لذلك حرص النبي ﷺ على تحقيق الأمن الوطني في مفهومه الشامل، وفي جميع أبعاده منذ تأسيس الدولة النبوية على أرض المدينة المنورة؛ محل الأزمة الاقتصادية بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والتأليف بين أطراف المجتمع، وإعطائهم الأمان على دينهم وأموالهم من أصحاب الديانة وغيرها، بالوثيقة النبوية التي من أهم مبادئها الأمنية: "وَالْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى كَذَا، فَمَنْ أَحَدَتْ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى فِيهَا مُحَدَّثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ، وَلَا عَدْلٌ، وَمَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، فَمَنْ أَخْفَرَ<sup>(١)</sup> مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ."<sup>(٢)</sup>.

#### رابعاً: أهمية الأمن الوطني في السنة النبوية

لقد عبّر الحديث النبوي عن أهمية تحقيق الأمن بجميع أبعاده بعبارة: "فكأنما حيزت له الدنيا؛ لأن الأمن ركيزة مهمّة لاستقرار الأوطان والنهوض بها، ويتضمّن الأمن بإطلاقه العام في قوله ﷺ: "من بات آمناً في سربه" إلى الأمن بجانبه الداخلي بحمايته من الفتن والتفرق والفساد، والخارجي لحماية الوطن من الاعتداءات الخارجية.

وحرّمت السنة النبوية الاعتداء على الإنسان بأيّ نوع من الاعتداء سواء الاعتداء الواقع على النفس أو العرض أو الممتلكات، باعتبارها من الضرورات الخمس ولأنّ التّعدي عليها يهدّد الأمن الفرديّ والاجتماعي: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ."<sup>(٣)</sup>

١- نقض العهد، ابن حجر العسقلاني: فتح الباري (٤/٨٦).

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ذمة المسلمين وجوارهم، حديث رقم (٣١٧٢)، (٤/١٠٠).

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ (رب مبلغ أوعى من سامع)، حديث رقم ٦٧ (١/٢٤).

ولأنّ الأمن الاجتماعي يشكّل ركيزة مهمّة في تعزيز الأمن الوطني؛ فقد جاءت السنّة النبوية تدعو إلى الوحدة والتكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع؛ يقول النبي ﷺ: "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَائِحِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى" (١).

## المبحث الثاني:

### دور السنّة النبوية في تفعيل قيمة المسؤولية لتعزيز الأمن الوطني.

ويُقسم هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: دور السنّة النبوية في تفعيل مسؤولية الرعاية لتعزيز الأمن الوطني.

المطلب الثاني: دور السنّة النبوية في تفعيل مسؤولية المحاسبة لتعزيز الأمن الوطني.

لا شكّ أن الأمن الوطني هو مسؤولية جماعية تقع على كاهل القادة والمجتمع والأفراد، فالجميع يدخل في حديث: "كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته"، ومن ذلك مسؤولية الأمن الوطني التي تتناول جانبي الرّعاية والمحاسبة، على التّرتيب والأولويات المنوطة بأفرادها؛ التي تبدأ بقمة الهرم وهو إمام الدّولة في إقامة العدل وإحلال الأمن، وكذلك من ينوب عنه في عدم الحيانة إن كان مؤملياً، استناداً إلى الأولويات في الترتيب في المسؤوليات المنوطة، التي جاء ترتيبها على نحو متسلسل في الحديث الشريف: "فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع...". فالسلطان أكثر مسؤولية من غيره، إذ عليه حفظ جميع رعيته والذب عنهم، وكذا نوابه. (٢)

### المطلب الأول: دور السنّة النبوية في تفعيل مسؤولية الرعاية لتعزيز الأمن الوطني

تعدّ مسؤولية الرّعاية من أعظم المسؤوليات التي يُسأل عنها المكلف أمام الله عزّ وجلّ؛ لذلك أكّد الشّرع الحنيف على وجوب هذه القيمة المشتركة بين مكوّنات المجتمع، فذكر الإمام في

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم ٦٠١١ (٩/٨).  
٢- يُنظر: المراوي الشحاري: عبد الله بن سعيد بن محمد (١٠٤١ هـ)، منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (٣/ ٤٧١)، دار المنهاج - جدة، ط ٣، ١٤٢٦ هـ / م ٢٠٠٥.

بداية الحديث لأنه الأول وعماله منه؛ إذ بصلاح الحكام وعدلهم، وبقيامهم بمسؤولياتهم تصلح المجتمعات، ويعمّ فيها الأمن والسّلام؛ فالأمة في المنظومة الوطنية على شبيه الشجرة، وصلاح كلّ أصل منها سبب لصلاح من بعده. <sup>(١)</sup>

إنّ الرعاية المطلوبة من الحاكم للمواطنين ليست مطلوبة لذاتها، وإنما لحفظ ما استرعى عليه من القيام بأمور الدولة برعاية شؤونها والعناية بأمنها، بجميع أبعاده وقيام العدل فيها بما أذن به الشّارع الحكيم، لذلك جاء الحديث مجملاً ثم مفصلاً ومنبّهًا.

يقول ابن حجر: "قال الطّبي في هذا الحديث: إنّ الراعي ليس مطلوباً لذاته، وإنما أُقيم لحفظ ما استرعه المالك فينبغي أن لا يتصرّف إلاّ بما أذن الشّارع فيه؛ وهو تمثيل ليس في الباب اللطيف ولا أجمع ولا أبلغ منه، فإنّه أجمل أوّلاً ثم فضّل وأتى بحرف التنبيه مكرراً، قال والغاء في قوله: "ألا فكلّكم" جواب شرط محذوف، وختم ما يشبه الفذلكة إشارة إلى استيفاء التفصيل" <sup>(٢)</sup>.

وأصل الرّعاية في الكلام: حفظ الشّيء، وحسن التّعهد له، وأداء الأمانات التي أوّمن عليها فيما استرعه؛ فرعاية الإمام تشمل ولاية أمور الرعيّة والنصيحة لهم، والزجر والمساءلة، والحياطة من ورائهم وإقامة الحدود والأحكام فيهم، وعدم استعمال من يُعين على الجور والظلم وتضييع الأمانة، وغير ذلك من المظاهر التي تهدّد الأمن الوطني <sup>(٣)</sup>.

ولتعزيز الأمن الوطني وتمكين القائد من القيام بمسؤولياته، وجب على الأمة اتّباع السّلطان

١- يُنظر: أبو بكر بن العربي، محمد بن عبد الله الإشبيلي (٥٤٣هـ)، عارضة الأحوذى (٧/ ١٩٩)، دار الكتب العلمية بيروت. (د.ت)(د.ط)، ويُنظر: أبو المظفر، محمد بن هبيرة (٥٦٠هـ)، الإفصاح عن معاني الصحاح (٤/ ١٨)، تحقيق: فؤاد عبد المنعم، دار الوطن، ١٤١٧هـ.

٢- العسقلاني: ابن حجر، فتح الباري (١٣/ ١١٣).

٣- يُنظر: الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد (ت ٣٨٨هـ): "أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١/ ٥٧٩)، تحقيق: محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، و ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (٥٩٧هـ)، كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/ ٤٧٥)، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن - الرياض. (د.ت)(د.ط).

وجوبًا مجملًا في طاعة الله ورسوله<sup>(١)</sup>.

لذلك اقترن لفظ الرِّعاية في هذا الحديث بلفظ المسؤولية "كلكم راع وكلكم مسؤول"؛ فالإمام ومن ينوب عنه كلهم راع فيمن تولوا مسؤوليتهم بالعناية بهم على أكمل وجه دون تقصير أو تهاون في جميع أمورهم ومعاشهم، وما يتعلق بأمنهم والقيام على حاجاتهم، وحسن التعهد لهم في سياسة الدين والدنيا، وكذلك هو مسؤول عن رعيته في تنبيههم وزجرهم ومحاسبتهم وإقامة حدود الله فيهم<sup>(٢)</sup>.

وتأسيسًا على ما سبق؛ فإن مسؤولية الرعاية التي تقع على الحاكم في سياسة الدين والدنيا؛ مسؤولية تدعوه وتحركه لبذل الجهد حفاظًا على أمن الدولة الداخلي والخارجي وفق المبادئ الشرعية، بجميع أبعاد الأمن التي أشار إليها حديث المسؤولية.

إن رعاية الأمن الوطني مسؤولية عظمى تتطلب من الحاكم ومن ينوب مكانه العمل على حفظ الأمن واستقراره بتفعيل الخطط الأمنية الوقائية والدفاعية، وردّ العدوان الداخلي والخارجي؛ من خلال بث العدل والمساواة، ومن خلال الإعداد العسكري للقوة المادية والمعنوية، التي تتمثل بالعدة والعتاد والمال والسلاح، وكفالة الموائيق الداخلية والخارجية، والوحدة الوطنية، وبالقوة البشرية التي تنعم بالأمن النفسي والفكري والاقتصادي والاجتماعي، ولقد جاءت السنة النبوية تسعى لتحقيق ذلك من خلال مراعاة الآتي:

### أولاً: مسؤولية رعاية الأمن الداخلي بتطبيق مبادئ المساواة والعدل

إن العدل من القيم الحضارية التي تعدّ من أهم أسباب حفظ الأمن الداخلي والخارجي للأوطان؛ فالأوطان يقوّمها العدل قبل السيف؛ إذ بالعدل يُمنع الظلم، وبه يتمّ إيصال الحقوق لأصحابها مع المساواة العادلة بعيداً عن التفرقة والمحسوبية والفساد؛ لذلك أنكر النبي ﷺ على من أراد أن يشفع في حدود الله، لكون المحكوم عليه من عليّة القوم، فقال: "إِنَّمَا هَلْكَ مَنْ كَانَ

١- يُنظر: ابن بطّال، أبو الحسن علي بن خلف (٥٤٤٩هـ)، (٢٠٩/٨)، شرح صحيح البخاري لابن بطّال،

تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ٢٠٢٣، ٢٠٣ - ٢٠٠٣ م.

٢- يُنظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري - (١٦٨ / ٢) و(٢٣٠ / ٤).

قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحَدَّ عَلَى الْوَضِيعِ، وَيَتْرَكُونَ عَلَى الشَّرِيفِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ فَاطِمَةٌ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا".<sup>(١)</sup>

جاء الحديث صريحاً في بيان نتيجة عدم رعاية الحاكم لمسؤولية إقامة العدل والمساواة، وهي الهلاك "إنما هلك"، والهلاك متضمن تهديد كل سبيل الأمن المجتمعي الداخلي والخارجي؛ إذ إن الظلم يُوغر الصدور ويُشعل الفتن في المجتمعات؛ الأمر الذي يُضعف بُنيتهَا ويُزعزع وحدتها الداخلية بسبب تنصل الفرد من انتمائه وولائه؛ وبالتالي تصبح تلك المجتمعات فريسة سهلة لأعدائها، كما أنّ بتمكين الظالم من التعدي على حقوق الآخرين بانتهاك دمائهم وأعراضهم وأموالهم دون محاسبة، أو مراقبة، أو زجر، يؤدي إلى تهديد أمن المجتمعات.

يقول المناوي في شأن التفرقة في إقامة الحدود والعقوبات: "قال ابن تيمية: قد حذرنا المصطفى ﷺ عن مشاهجة من قبلنا في أنهم كانوا يفرقون في الحدود بين الأشراف والضعفاء، وأمر أن يسوى بين الناس في ذلك، وإن كان كثيراً من ذوي الرأي والسياسة قد يظن أن إعفاء الرؤساء أجود في السياسة".<sup>(٢)</sup>

**ثانياً: مسؤولية رعاية الأمن الداخلي بالموازنة بين الحقوق والواجبات وتلبية متطلبات المواطنين**

يقول النبي ﷺ: "ما من والٍ يلي رعيّة من المسلمين، فيموت وهو غاشٌّ<sup>(٣)</sup> لهم، إلاّ حرم الله عليه الجنة"<sup>(٤)</sup>. إنّ وليّ الأمر له حقّ الطّاعة ما لم يُظهر كفرًا بواحا، وبالمقابل فإنّه تُناط به مهام

١- (متفق عليه)، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء باب، حديث رقم (٣٤٧٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه، باب إقامة الحدود على الشريف والضعيف، حديث رقم (٤٤٨٢)، (٤/٤٣٩).

٢- المناوي: زين الدين محمد (١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٢/٥٦٨)، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

٣- "وهو غاشٌّ"؛ أي خائن، لا يعطي حقوقهم، ويأخذ منهم ما لم يجب عليهم، المُظهري، الحسين بن محمود الزيداني الحنفي، (٧٢٧هـ)، المفاتيح في شرح المصابيح (٤/٢٩٩)، تحقيق: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية - وزارة الأوقاف الكويتية، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٤- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأحكام، باب من استرعي في رعية فلم ينصح، حديث رقم ٧١٥١ (٦٤/٩).

قيمة المسؤولية وأثرها في تعزيز الأمن الوطني وحمايته...

ومسؤوليات أهمها رعاية الأمن الوطني بتلبية احتياجات المواطنين. وقد ذكر الماوردي<sup>(١)</sup> بأن الخليفة يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء، نذكر منها:

١- الدين على أصوله المستقرة، وبيان الحجة لكل مبتدع وزائع، وإقامة الحدود على الضال منهم لتكون الأمة ممنوعة من الزلل.

٢- تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، حتى نعم النصفة.

٣- حماية البيضة والذب عن الحريم؛ ليتصرف الناس في المعاش، وينتشرُوا في الأسفار آمنين..

٤- إقامة الحدود؛ لئلا يحارم الله تعالى عن الانتهاك، وتُحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

٥- تحصيل الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرّة ينتهكون فيها محرماً، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً.

٦- جباية الفئء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف.

٧- تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقثير، ودفعه في وقت لا تقدم فيه ولا تأخير.

٨- استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة.

### ثالثاً: مسؤولية رعاية الأمن الوطني بتعيين الكفاءات

إذ إن رعاية الوظيفة تتطلب القوي الأمين " قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ <sup>ط</sup> إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) ﴾ القصص: ٢٦؛ "فمسؤولية رعاية الحكم تتطلب مراقبة الله عز وجل في اختيار المشرفين على شؤون الدولة بأن يختارهم بدقة بحيث تتوافر فيهم

١- يُنظر: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (٤٥٠هـ) (ص: ٤٠)، الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث - القاهرة، ط ٢٠٠٦م. (بتصرف يسير).

الأمانة واليقظة والقوة وإجراء عملية التقييم والترقية؛ وأن لا تكون التولية للمحسوبية والمصالح الشخصية والواسطة ولا لمن حرص على طلبها؛ لذلك قال النبي ﷺ: ( يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سُمْرَةَ لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتِ إِلَيْهَا وَإِنْ أُوتِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنَتْ عَلَيْهَا )<sup>(١)</sup>.

قال النووي: "بيان أن من سأل الولاية لا يكون معه إعانة من الله تعالى، ولا تكون فيه كفاية لذلك العمل فينبغي أن لا يولى"<sup>(٢)</sup>.

إنّ عدم إيلاء الحاكم هذه المسؤولية اهتمامه قد يؤدي إلى إضعاف الأمن الوطني؛ إذ إن الولاية تحتاج لقوة، فإذا ما تولى أمور الوطن من لا يطبقون ذلك ضعفت الأجهزة الأمنية والإدارية؛ وكانت النتائج غير محمودة؛ لذلك جاء في الحديث عن أبي ذرّ قال: ( قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِزْبٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا )<sup>(٣)</sup>.

قال النووي: "هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلُ عَظِيمٍ فِي اجْتِنَابِ الْوِلَايَاتِ، لَا سِيَّمَا لِمَنْ كَانَ فِيهِ ضَعْفٌ عَنِ الْقِيَامِ بِوُظَائِفِ تِلْكَ الْوِلَايَةِ، وَأَمَّا الْحِزْبِيُّ وَالنَّدَامَةُ فَهُوَ حَقٌّ مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَهَا، أَوْ كَانَ أَهْلًا وَلَمْ يَعْدِلْ فِيهَا فَيُحْزِبِهِ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَفْضَحْهُ، وَيَنْدَمُ عَلَى مَا فَرَطَ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْوِلَايَةِ، وَعَدَلَ فِيهَا، فَلَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ"<sup>(٤)</sup>.

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها، حديث رقم (٦٣/٩ ٧١٤٦).

٢- النووي، شرح النووي على مسلم (١٢٣/٣).

٣- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب النهي عن طلب الإمارة، حديث رقم (٤٧٤٢)، (١٤٢/٥).

٤- النووي: شرح النووي على مسلم (١٢٣/٣). فنعم المرزعة "أي؛ فما أحسن الوظيفة عندما يتولاها صاحبها في الدنيا فيتمتع بعزها ومركزها ونفوذها، "ويست الفاطمة"؛ أي: وما أسوأ الوظيفة وما أشد ضررها على صاحبها يوم القيامة \_ إن لم يتم بواجباتها\_، فيكون حاله كحال الرضيع عند فطامه عن ثدي أمه. يُنظر: ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص (٨٠٤هـ)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣٢/٤٤٦)، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، دمشق \_ سوريا، ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.



وجاء في الحديث عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنَعَمَ الْمُرْضِعَةُ، وَبَيْتِ الْفَاطِمَةَ"<sup>(١)</sup>.

إنَّ الحرص على الإمارة فمن ليس هو أهلها من الذين يطلبونها توصلاً لذاتهم ورغباتهم يمهد طريقاً لزعة الأمن الوطني، بسفك الدماء واستباحة الحرمات والفساد في الأرض سعيًا لها، لذلك يجب أن لا يُعان من هذا صفة عليها؛ وأنَّ المسؤولية عظيمة أيًا كان نوعها، فكيف بولاية من تولى رعايتها وأمنها. يقول المهلب: "حرص الناس على الإمارة ظاهر للعيان، وهو الذي جعل الناس يسفكون عليها دماءهم، ويستبيحون حرمهم، ويفسدون في الأرض حتى يصلوا بالإمارة إلى لذاتهم ثم لا بد أن يكون فطامهم إلى السوء من الحال؛ لأنه لا يخلو أن يقتل عليها أو يعزل عنها وتلحقه الذلة، أو يموت عليها، فيطالب في الآخرة بالتبعات، فيندم حينئذٍ"<sup>(٢)</sup>.

#### رابعاً: مسؤولية الرعاية التي تتضمن النصح والتبصير بالمسؤوليات الأمنية وغيرها

قال رسول الله ﷺ: "ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يُحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة"<sup>(٣)</sup>. إن مسؤولية النصح والتبصير بالمسؤوليات تقي المواطن من مصارع الجهل ومدارك الفتن والسوء، وتُلزم جميع مكونات المجتمع بمسؤولياتها، التي سوف يحاسب عليها حتى لا يبقى للمسؤول حجة في التنصل من مسؤولياته أو التهاون بها أو إيقاع الظلم على الأفراد، أو التسبب في زعزعة الأمن الوطني بحجة عدم المعرفة.

يقول ابن حجر في شرح قوله "فلم يُحطها بنصيحة": "ويحصل ذلك بظلمه لهم بأخذ أموالهم أو سفك دمائهم أو انتهاك أعراضهم وحبس حقوقهم، وترك تعريفهم ما يجب عليهم في أمر دينهم وديارهم، وبإهمال إقامة الحدود فيهم وردع المفسدين منهم وترك حمايتهم ونحو ذلك"<sup>(٤)</sup>.

١-

٢- يُنظر، ابن الملقن: التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣٢/ ٤٤٥).

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، حديث رقم ٧١٥٠ (٦٤/٩).

٤- العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري (١٣/ ١٢٨).

### خامساً: مسؤولية رعاية الأمن العسكري

إن رعاية الأمن العسكري تتطلب أساسيّ لحفظ الأمن الوطني، يتطلّب من القادة والمجتمعات بذل الوسع والطاقة، وبذل الأموال وتضافر الجهود للحفاظ عليه.

وقد رعى النبي ﷺ هذه المسؤولية حقّ رعايتها بصفته القائد والمبلّغ، باتّخاذ الوسائل المعنويّة والماديّة بدءاً من الدّعاء والاستعانة بالله عز وجلّ. بطلب النّصرة والإعانة، ثمّ إعداد القوّة ورفع المعنويات، وتنمية العقيدة العسكرية بنفوس الجند والمواطنين والتحفيز.

ففي جانب طلب الدّعاء وسيلةً معنويّةً لتعزيز الأمن الوطني، وجاء في الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثمّ مدّ يديه، فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بربه، ماداً يديه مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه"<sup>(١)</sup>.

وأبرزت السنّة النبوية في حادثة بدر جانب الإعداد المعنوي؛ من خلال رفع معنويات الجند وتثبيت العقيدة العسكرية، والتحفيز كوسيلة لحفظ الأمن الوطني؛ إذ قال رسول الله ﷺ: "قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، يقول: عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ بخ<sup>(٢)</sup>، فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك: بخ بخ؟ فقال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه<sup>(٣)</sup>، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت، حتى أكل تمراتي هذه، إنها

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب أسرى بدر، حديث رقم ٤٦٠٩ (٤٤/٥).  
٢- كلمة تُقال لتعظيم الأمر وتهويله، القاضي عياض البحصبي، أبو الفضل (٥٤٤هـ)، إكمال المعلم بفوائد مسلم (٦/٣٢٣)، تحقيق يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط ١، ١٩٩٨م.  
٣- أي: من جعبته، القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (٦/٣٢٣).

لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم، حتى قتل<sup>(١)</sup>.

وفي جانب رعاية المسؤولية من خلال الإعداد المادي العسكري لحفظ الأمن الوطني:

فقد عدت السنة النبوية هذا الجانب مسؤولية مشتركة، لذلك جاءت الأحاديث تدعو أفراد المجتمع بجميع مكوناته إلى المشاركة الوطنية؛ من خلال البذل في تجهيز الجيوش، ورعاية أسر الشهداء الذين بذلوا أرواحهم لحفظ أمن الأوطان وأهلها، يقول النبي ﷺ: "من جهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا"<sup>(٢)</sup>.

إن المسؤولية العسكرية لحفظ الأمن الوطني تتطلب من القائد أن يكون في الطليعة في ذلك وأن يتقدم الصفوف، فالمسؤولية الأمنية منوطة عليه أولاً بحكم اختصاصه في توليها؛ لذلك كان النبي ﷺ يتقدم الصفوف، ويباشر الطليعة بنفسه، أو يُولي من هو على قدر من المسؤولية والكفاءة في حال انشغاله بأمر آخر من أمور الأمة.

عَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشَجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً، فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ. وَقَدِ اسْتَبْرَأَ الْحَبْرَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْمِي<sup>(٣)</sup>، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: لَمْ تُرَاعُوا<sup>(٤)</sup>، لَمْ تُرَاعُوا، ثُمَّ قَالَ: وَجَدْنَا بَحْرًا<sup>(٥)</sup>، أَوْ قَالَ: إِنَّهُ لَبَحْرٌ"<sup>(٦)</sup>.

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ثبوت الجنة للشهيد، حديث رقم ٤٩٥٠، (٢٢٥/٥).

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب من جهز غازیًا، أو خلفه بخير، حديث رقم ٢٨٤٣ (٢٧/٤).

٣- يقال: فرس عُرْمِي بالضم وسكون الراء: إذا لم يكن عليه سرج، ابن الملك الكرمانی: محمَّد بنُ عَزِّ الدِّينِ عبدِ اللطيف (٨٥٤ هـ)، شرح مصابيح السنة للإمام البغوي (٢٣١ / ٦)، تحقيق ودراسة لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، إدارة الثقافة الإسلامي، ط ١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م ٤- أي: لا فرع ولا روع فاسكنوا، ويروى: (لن تُراعوا) خبيراً بمعنى النهي. ابن الملك الكرمانی، شرح المصابيح (٢٣١ / ٦).

٥- أي: واسع الجري، يقال للفرس الذي لا ينقطع جريه: بحر؛ تشبيهاً له بالبحر الذي لا ينقطع ماؤه، ابن الملك: شرح المصابيح (٢٣١ / ٦).

٦- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق، حديث رقم ٢٩٠٨ (٣٩/٤).

ومن مسؤولية الرعاية للأمن الوطني العسكري التخطيط الجيد، وعدم الاستعانة بالعدو في الأجهزة الأمنية، وإرسال الاستطلاعات الداخلية والخارجية لوقاية الأمن بنوعيه، والاهتمام بأجهزة الحراسة الأمنية.

والشواهد في السنة النبوية على التخطيط العسكري كثيرة، وقد سبق أن أفردت لها دراسات مختصة<sup>(١)</sup>، لذلك أكتفي بالإشارة الموجزة؛ إذ يتضح ذلك جلياً في جميع المواجهات العسكرية الداخلية والخارجية التي تصدى لها النبي ﷺ في صلح الحديبية، وفي الهجرة النبوية، وغزوة أحد، وغيرها من المواجهات العسكرية.

ورفض النبي ﷺ الاستعانة بالمشركين في العمليات العسكرية، انطلاقاً من مسؤوليته في حفظ الأمن الوطني؛ عن عائشة ؓ أنها قالت: "خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحِجْرَةِ الْوَيْبَةِ<sup>(٢)</sup> أَذْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُدْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةً وَجَدَّةً، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَذْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ، وَأُصِيبَ مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تُوْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ"<sup>(٣)</sup>.

فهذا الحديث نصٌّ في أنّ مسؤولية ولي الأمر تجاه حفظ الأمن الوطني، تتطلب عدم جواز الاستعانة في الجهاد بمن لا يؤمن جانبهم من الأعداء والكفار، وهو مذهب أحمد، ويذهب أبو حنيفة والشافعي بجواز الاستعانة، إلا أن الشافعي يشترط ذلك عند الحاجة، وأن يكون المستعان

١- الثلاثيني، نهاد يوسف، الأمن العسكري في السنة النبوية" دراسة موضوعية تحليلية"، إشراف إسماعيل سعيد رضوان، ٢٠٠٧ جامعة غزة، ص ١٢٩-١٨٧.

٢- قال ابن قرقول: "موضع على نحو من أربعة أميال من المدينة"، ابن قرقول: إبراهيم بن يوسف بن أدهم الحمزي(٥٦٩هـ)، مطالع الأنوار على صحاح الآثار(٣٨٧/٢)، تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م، وهذا التعريف على زمن ابن قرقول أما الآن؛ فتُعرف باسم الحرّة الغربية؛ لأنها تقع في الجهة الغربية من المدينة، وتمتدّ من مسجد القبلتين شمالاً إلى محاذاة مسجد قباء جنوباً، وكانت تشكل حاجزاً طبيعياً يحمي المدينة من جهتها الغربية وجزء من جهتها الجنوبية، يُنظر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، مجلة البحوث الإسلامية - (أمكنة/٥٤٤)، [www.madinahnet.net](http://www.madinahnet.net)

٣- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المغازي، باب لن أستعين بمشرك، حديث رقم ٤٧٤٧(١٣٥/٥).

به منهم من حسن الرأي في المسلمين<sup>(١)</sup>.

ومن مسؤولية الرعاية للأمن الوطني في الجانب العسكري، إرسال الطلائع والاستخبارات لوقاية الأمن الوطني؛ فقد جاء في الحديث عن حذيفة رضي الله عنه قال: "لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: فَمَنْ يَا حَذِيفَةَ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: أَذْهَبُ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ"<sup>(٢)</sup>.

لقد كلف النبي صلى الله عليه وسلم حذيفة رضي الله عنه ليأتيه بخبر أهل قريش بعد أن جاءت الرياح فأفرعتهم وأوقعت خيامهم، وطلب منه أخذ الحيلة والحذر بأن لا يفرعهم ويحركهم؛ حتى لا يتنبهوا فيأخذوا حذيفة، ويتجسسوا من خلاله على المسلمين<sup>(٣)</sup>.

### سادساً: مسؤولية رعاية الأمن الاقتصادي

عرضنا فيما سبق أبعاد الأمن الوطني في السنة النبوية؛ ومنها البعد الاقتصادي بتوفير احتياجات المواطنين من الضرورات، وينضاف إلى أبعاد الأمن الاقتصادي مسؤولية رعايته من التعدي، وضرورة حفظ الممتلكات الخاصة؛ فسرعت الحدود والتعازير على من يتعدى على أموال الغير، وكذلك الممتلكات العامة، فلاشك أن القيام بمسؤولية رعايتها له دور كبير في تعزيز الأمن الوطني؛ لذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم بصفته النبي المبلغ، وقائد الأمة تواعد كل من تسول نفسه التعدي على الأموال العامة؛ من خلال التصرف فيه، واقتحام استحلاله، رعاية للأمن الاقتصادي، حيث

١- يُنظر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (٥٩٧هـ)، كشف المشكل من حديث الصحيحين

(٤/ ٤٠٤)، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن - الرياض (د.ت)، (د.ط).

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب، حديث رقم ٤٦٦٣، (٥/ ٨٤).

٣- يُنظر: الهروي الشافعي: محمد الأمين، الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (١٩/ ٣٠٦)، مراجعة لجنة

من العلماء برئاسة البرفسور هاشم محمد علي مهدي، (د.ن)، (د.ت) (د.ط).

يقول: "إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ<sup>(١)</sup> فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>.

يقول المظهري: "إن رجالاً يتخوَّضون-؛ أي: يُسرِّعون ويتصرفون في مال بيت المال، أو الرِّكَاةِ، أو الغنيمَةِ، أو الفِئَةِ بِغَيْرِ إِذْنِ الْإِمَامِ، ويأخذون منه أكثرَ من أُجْرَةِ عملهم، فلهم النار"<sup>(٣)</sup>.  
لذلك، فإنَّ كلَّ من وليَّ على رعاية أموال المسلمين قد أُبيح له ولمن وليَّ عليه قدر الحاجة، من غير زيادة إذا كان مستحقاً لذلك.

### المطلب الثاني: دور السنَّة النبوية في تفعيل مسؤولية المحاسبة لتعزيز الأمن الوطني.

إنَّ المحاسبة ركنٌ مهم من أركان المسؤولية، لذلك فإنَّ تطبيقها متطلَّب أساسي في حفظ الأمن الوطني لكل من يتولَّى مسؤولية الأمن الوطني الداخلي والخارجي؛ فمسؤولية المحاسبة تتطلب من الولاة ومن ينوب مناهم محاسبة كلَّ من يخلُّ بأمن الوطن؛ كمحاسبة من يقوم بترويج الشائعات، وإشاعة الفاحشة، ونشر الفساد، من خلال إقامة الحدود والتعزير، وتتطلب هذه المسؤولية أيضاً تشكيل هيئة المراقبة والمحاسبة (الحسبة)، التي تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

### أولاً: مسؤولية المحاسبة من خلال إقامة الحدود والتعزير، وأثرها في تعزيز الأمن الوطني

إذ يتوجَّب محاسبة من يقوم على الإخلال بالأمن الوطني بترويج الفتن والشائعات، أو القيام بالجاسوسية ضد أمن الوطن، أو الخرابة.

ففي الحادثة التي أثار فيها المنافقون وعلى رأسهم ابن أبي سلول شائعة الإفك؛ حيث أقلقَت أمن المجتمع النبوي شهراً كاملاً، وكادت تفتك بين الحيين من الأوس الخزرج، خرج القائد ليقوم

١- التَّخَوَّضُ: من الفعل خاض، ويقال: خاض الماء يخوضه خوَّضاً، وخياًضاً واختاضه، وتَخَوَّضه: مشى فيه؛ يُنظر: ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (٤٥٨هـ)، المحكم والمحيط الأعظم (٢٧٨/٥)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ويقول ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر: "أصل الخوض: المشي في الماء وتحريكه، ثم استعمل في التلبس بالأمر والتصرف فيه... وقيل هو التخليط في تحصيله من غير وجهه كيف أمكن" (٢/ ٨٨).

٢- صحيح، أخرجه البخاري في صحيح، كتاب فرض الخمس، باب "إن لله خمسته وللرسول"، حديث رقم (٣١١٨)، (٤/ ٨٥).

٣- المظهرى، المفاتيح في شرح المصابيح (٤/ ٣١٧).

بمسؤوليته في المحاسبة لتعزيزاً للأمن الوطني فقال: "مَنْ يَعْدِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي"<sup>(١)</sup>.

ومن مسؤولية المحاسبة لتعزيز الأمن الوطني، جاءت السنة النبوية تدعو إلى معاقبة الذين يتلاعبون في أمن الأوطان من خلال ترويع الأمنيين، والتعدي على دمايتهم وأموالهم وأعراضهم، بتطبيق حكم المحاربين فيهم من القصاص وغيره من أنواع العقوبات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاؤُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>  
المائدة: ٣٣ .

جاء في الحديث عن أنس -رضي الله عنه- قال: "قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ نَفَرٌ مِنْ عُكَلٍ"<sup>(٣)</sup>، فَاسْلَمُوا، فَاجْتَنَوْا<sup>(٤)</sup> الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ، فَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَالْبَانِهَا، فَفَعَلُوا، فَصُحُوا، فَارْتَدُّوا فَقَتَلُوا رِعَاتَهَا، وَاسْتَأْفُوا الْإِبِلَ، فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فَأَتَى بِمَنْ فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ<sup>(٥)</sup> أَعْيُنَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَخْسِئَهُمْ<sup>(٦)</sup> حَتَّى مَاتُوا"<sup>(٧)</sup>.

إنَّ مسؤولية الحفاظ على الأمن الوطني مسؤولية عظيمة، لذلك يتوجب على من ولي مسؤولية حفظ الأمن في الأوطان معاقبة كل من يخل بأمن المجتمع، وإيقاع أشد العقوبات عليه؛ كلُّ بمقدار الأذى والشر الذي يُوقعه على الأمنيين.

- ١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا عدل رجل رجلاً، حديث رقم ٢٦٣٧ (٣/١٦٧).
- ٢- عكل من عدنان، وعرينة من قحطان، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١/٢٩٩).
- ٣- (فاجتووا المدينة)، أي؛ أصابهم الجوى، وهو داء الجوف إذا تطاول، أو كرهوا الإقامة بها لما فيها من الوحم، أو لم يوافقهم طعامها، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١/٢٩٩).
- ٤- أي: نقأها وأذهب ما فيها، التوي: شرح النووي على مسلم (١١/١٥٥).
- ٥- أي: ولم يكوهم، والحسم في اللغة كي العرق بالنار لينقطع الدم، التوي: شرح النووي على مسلم (١١/١٥٦).
- ٦- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، باب لم يحسم النبي ﷺ المحاربين، حديث رقم ٦٨٠٣ (٨/١٦٣).

فهذا الحديث يدخل في معناه كل من يسعى في الأرض فسادًا، ويقطع الطريق وكل من فعل فعل العرنيين من المحاربة والفساد من أهل الكفر والمرتدين وغيرهم<sup>(١)</sup>.

ثانياً: مسؤولية المحاسبة بتشكيل هيئة المراقبة لتتبع الفاسدين الذين يهددون أمن الدولة

جاءت السنة النبوية تقرر مبدأ المسؤولية في نظام المحاسبة والرقابة؛ لوقف الفساد الإداري الذي قد يحدث في أجهزة الدولة، والذي يشكل في حال وقوعه نذير خطر، يهدد بإضعاف الأوطان من الداخل ونهب ثرواتها ويجعلها عرضة للسيطرة الخارجية؛ بسبب المديونية والعجز المالي الذي قد يقع بها بسبب النهب وقضايا الفساد، الأمر الذي يُوجب على المسؤولين حماية الأمن الوطني بتطبيق هذا المبدأ. يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ اسْتَعْمَلَنَا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكْتَمْنَا مَخِطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْبَلْ عَنِّي عَمَلِكَ قَالَ "وَمَا لَكَ". قَالَ سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا. قَالَ "وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ مَنْ اسْتَعْمَلَنَا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَحَدٌ وَمَا نُهِى عَنْهُ انْتَهَى"<sup>(٢)</sup>.

قال المناوي: "وهذا مسوق لتحريض العمال على الأمانة، وتحذيرهم من الخيانة ولو في تافه"<sup>(٣)</sup>.

وللقيام بمسؤولية المحاسبة، جاءت السنة النبوية تدعو إلى محاسبة كل من يخل بالأمن الوطني بارتكاب جريمة الجاسوسية، التي تعدّ اختراقاً أمينياً للأمن الوطني؛ ففي الحديث عن عليّ ﷺ - جاء خبر الظعينة التي أرسل معها حاطب بن أبي بلتعة كتاباً يخبر أهل قريش عن أمر النبي ﷺ - في عزمه على ملاقاتة المشاركين في غزوة بدر؛ وكيف أنّ النبي ﷺ - جاءه الخبر بذلك فأرسل طلّاح ليأخذوا منها الكتاب: "فإنّ بها ظعينة، ومعه كتاب، فخذوه منها، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا، حتّى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من

١- يُنظر: ابن حجر، فتح الباري (١٢/١١٠).

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمامة، باب تحريم هدايا العمال، حديث رقم ٤٧٧١ (١/٩).

٣- فيض القدير شرح الجامع الصغير: المناوي (٦/٥٦).



كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ التَّسَبُّ فِيهِمْ، أَنْ أَخْتَذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ صَدَقْتُمْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ." (١)

ففي هذا الحديث إشارة إلى مسؤولية الحاكم والأفراد بضرورة عدم كتم أمر الجاسوس، وضرورة رفع أمره للإمام، وضرورة محاسبة الإمام لمن يشترك في هذا الفعل واستجوابه حفظًا للأمن الوطني. يقول ابن حجر: "حكم جاسوس الكفار، فإذا طلع عليه بعض المسلمين لا يُكتم أمره، بل يرفعه إلى الإمام ليرى فيه رأيه." (٢)

### الخاتمة وأهم النتائج:

وفي الختام أسجل أهم النتائج:

- أولاً: المسؤولية تتضمن في دلالاتها أمرين هامين لا ينفصلان وهما: الرعاية، والمحاسبة.
- ثانياً: أقرت السنة النبوية مبدأ المسؤولية في حياة الفرد والمجتمعات، ورعته وعززته من خلال اعتبارها مسؤولية الجميع، وقدمت الوسائل للإعانة عليها ولضمان تطبيقها، من خلال التبصير بها، والتكليف قدر الطاقة، والتحذير من التنصل من واجباتها.
- ثالثاً: رعت السنة النبوية الأمن الوطني باعتباره مسؤولية في حفظ الأوطان؛ فجاءت تعزز هذه القيمة وتأمّر بالعمل على إحلالها والسعي إليها في جميع أبعادها الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والإيدلوجية.

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الجاسوس، حديث رقم ٣٠٠٧ (٥٩/٤).

٢- العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري (١٤٤/٦).

- رابعاً: مسؤولية الرعاية تقع على الحاكم ومن ينبو منابه، لبذل الجهد حفاظاً على الأمن الوطني واستقراره؛ لذلك جاءت السنّة النبوية تحدّد هذه المسؤوليات وتؤكدّه.
- خامساً: من أهم المسؤوليات التي جاءت في النصوص النبوية لحفظ الأمن الوطني: رعاية العدل والمساواة، ورعاية الأمن الداخلي، والموازنة بين الحقوق والواجبات وتلبية متطلبات المواطنين، وتعيين الكفاءات، والنصح والتبصير بالمسؤوليات الأمنية، ورعاية الأمن العسكري.
- سادساً: المحاسبة ركن مهم من أركان المسؤولية المطلوبة لحفظ الأمن الوطني، وتتطلب من الولاة محاسبة كلّ من يخلّ بأمن الأوطان؛ كترويج الفتن والشائعات وإشاعة الفتن ونشر الفساد، وذلك بتشكيل هيئة المراقبة لتتبع الذين يهدّدون أمن الأوطان، وبمعاينة من كل من يخلّ بأمن الأوطان بالتعزير وغيره من أنواع العقوبات المستحقّة.

### التوصيات:

- تُوصي الباحثة بتكثيف الجهود لنشر ثقافة الأمن الوطني، بغية التعريف بها على أنّها مسؤولية الجميع، يحاسب عليها في الدارين، بوصفها مسؤولية دينية وطنية، وذلك من خلال مؤسسات التعليم وأجهزة الإعلام.
  - تؤكد الباحثة على ضرورة نشر مثل هذه الندوات؛ التي تُعالج قضايا المجتمع من خلال التأصيل الديني لها بمطويات وملصقات بشكل دوريّ ومستمرّ.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

## قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الأثير الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد (٦٠٦)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩ م.
- البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) في صحيحه، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢ هـ.
- ابن بطلال، أبو الحسن علي بن خلف (٤٤٩هـ)، شرح صحيح البخاري لابن بطلال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط٢، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
- أبو بكر بن العربي، محمد بن عبد الله الإشبيلي (٥٤٣هـ)، عارضة الأحوزي، دار الكتب العلمية بيروت. (د.ت.د.ط.) - أبو المظفر، محمد بن هبيرة (٥٦٠هـ)، الإفصاح عن معاني الصحاح، تحقيق: فؤاد عبد المنعم، دار الوطن، ١٤١٧ هـ.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (٢٧٩هـ) في سننه (الجامع الكبير)، تحقيق وتعليق أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط٢، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
- الثلاثيني، نهاد يوسف، "الأمن العسكري في السنة النبوية"، رسالة ماجستير، إشراف: إسماعيل سعيد رضوان، جامعة غزة، ٢٠٠٧ م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (٥٩٧هـ)، كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن - الرياض. (د.ت.د.ط.).
- ابن حبان، أو حاتم البستي (٣٥٤)، صحيحه (المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقلها)، تحقيق: محمد علي سونمز، خالص بي ديمير، دار ابن حزم، (د.ط.د.ت.).
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد (٣٨٨ هـ): "أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري)، تحقيق: محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، ط١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.
- دراز: عبد الله، دستور القرآن، تحقيق: عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢ هـ.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان

- عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ.
- الزبيدي: محمد بن محمد الحسيني، أبو الفيض (١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.ت)، (د.ط).
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (٤٥٨هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندائي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
- الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد (٣٦٠هـ)، في المعجم الكبير (١٢ / ٣٦٢)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٩٨٣ م.
- عبد الله، تيسير محمد، والعرجا، ناهدة، الأمن النفسي وعلاقته بالانتماء الوطني لدى قوات الأمن الفلسطيني في منطقة بيت لحم، المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، المجلد ٣١، العدد (٦٢) ٧٥-١٢٢، الرياض (٢٠١٥م).
- ابن عبد الهادي: شمس الدين الحلبي محمد بن أحمد (٧٤٤هـ)، تنقيح تحقيق أحاديث التعليق، تحقيق: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- العسقلاني: ابن حجر، أحمد بن علي (٨٥٢هـ-)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن فارس، أحمد القزويني الرازي (٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (باب السين والهمزة وما يثلهما)، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- القاضي عياض اليحصبي، أبو الفضل (٥٤٤هـ)، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط ١، ١٩٩٨م.
- ابن قرقول: إبراهيم بن يوسف بن أدهم الحمزي (٥٦٩هـ)، مطالع الأنوار على صحاح الآثار، تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر، ط ١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
- القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك (المتوفى: ٩٢٣هـ)، شرح القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري - (٢ / ١٦٨) و (٤ / ٢٣٠)، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط ٧، ١٣٢٣ هـ.

## قيمة المسؤولية وأثرها في تعزيز الأمن الوطني وحمايته...

- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث - القاهرة، ط٢٠٠٦م.
- المباركفوري، أبو الحسن عبيد الله، مراعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، إدارة البحوث العلمية والدعوة، الجامعة السلفية- بنارس الهند، ط٣، ١٤٠٤هـ.
- المراوعي الشحاري: عبد الله بن سعيد بن محمد (١٤١٠هـ)، منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، دار المنهاج - جدة، ط٣، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .
- مسلم: بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ)، في صحيحه، المسند الصحيح، تحقيق مركز البحوث بدار التأصيل، دار التأصيل - القاهرة، (د.ت)، (د.ط).
- المظهري، الحسين بن محمود الزيداني الحنفي، (٧٢٧هـ)، المفاتيح في شرح المصابيح، تحقيق: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية - وزارة الأوقاف الكويتية، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.
- ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص (٨٠٤هـ)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، دمشق - سوريا، ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- ابن الملك الكرواني: محمّد بن عزّ الدين اللطيف (٨٥٤ هـ) شرح مصابيح السنة للإمام البغوي، تحقيق ودراسة لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، إدارة الثقافة الإسلامي، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.
- المتاوي: زين الدين محمد (١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.
- ابن منظور الإفريقي: محمد بن مكرم، أبو الفضل، جمال الدين (٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.
- النّووي: شرف الدين، شرح النووي على مسلم، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- الهروي، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

- المروي الشافعي: محمد الأمين، الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم، مراجعة لجنة من العلماء برئاسة البرفسور هاشم محمد علي مهدي، (د.ن)، (د.ت)، (د.ط).
- الهليل، عبد العزيز بن عبد الله، " منهجية السنّة النبوية في تعزيز المسؤولية الاجتماعية"، دار العلوم، الفيوم، ٢٠٠٩م.

### المواقع الالكترونية:

- أفضل، سجاد أحمد بن محمد؛ المسؤولية والجزاء في القرآن الكريم "دراسة موضوعية" بحث تكميلي مقدّم لنيل درجة الماجستير، إشراف مصباح الله عبد الباقي، الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م. [www.alukah.net/](http://www.alukah.net/)
- رضوان، يوسف إسماعيل سعيد، "الأمن في السنّة النبوية"، مجلة الجامعة الإسلامية في الدراسات الإسلامية، مجلد ٢٠، عدد ١، ٢٠١٢م، [journals.iugaza.edu.ps](http://journals.iugaza.edu.ps).
- الكيلاني، رشاد صالح، "الأمن الاجتماعي، مفهومه وتأصيله الشرعي في ضوء مقاصد الشريعة"، مؤتمر الأمن الاجتماعي في التصور الإسلامي، جامعة آل البيت- الأردن، ٣-٤/٧/٢٠١٢م. موقع المؤتمر على الشبكة الالكترونية، [web2.aabu.edu.jo/](http://web2.aabu.edu.jo/)
- الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلميّة، مجلة البحوث الإسلامية - (أمكنة/٥٤٤)، [www.madinahnet.net](http://www.madinahnet.net)
- عبد السميع، أسامة السيّد، "وسائل تحقيق الأمن الاجتماعي"، مؤتمر الأمن الاجتماعي في التصور الإسلامي، جامعة آل البيت- الأردن، ٣-٤/٧/٢٠١٢م. موقع المؤتمر على الشبكة الالكترونية، [web2.aabu.edu.jo/](http://web2.aabu.edu.jo/)

الهجرة في السنة النبوية الحدث الأبرز في تعزيز  
مقومات حماية الأوطان

الأستاذة/ لطيفة محمد علي الفارس  
باحثة في مرحلة الدكتوراه في الأدب والنقد  
جامعة الوصل - دبي







## تقديم

تُعدُّ حماية الأوطان هي الوضع الطبيعي الذي فُطر عليه الإنسان، وحين نربط الصلة الطبيعية بالنواحي العقدية تظهر فاعلية القيم في تعزيز صلة الإنسان بوطنه، تلك الصلة التي تؤكد ضمان حقّ الإنسان في العيش على أرضه في أمان وعزّة وكرامة ورخاء، وحقّ حرية العبودية؛ لذا يعدّ موضوع الندوة العلمية التاسعة "حماية الوطن في السنة النبوية؛ مقصد شرعيّ وضرورة مجتمعية"، من الموضوعات الملحّة في السياق المعاصر، وهي موضوعات لها تعزيزاتها العقدية في نصّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، اعتنت الشريعة بترسيخها مضموناً ووعياً وتطبيقاً؛ ذلك لأهميتها في بناء صرح الأمة الإسلامية الحضاري. وترتبط هذه الندوة بسابقتها ارتباطاً استلزام وتضمّن، بوصف السلم متضمناً حماية الأوطان في كافة مناحيه، وتستلزم حماية الأوطان إقرار السلم المضاييف لمفاهيم العدل والرحمة والمساواة، ومن هنا تبرز أهمية هذه الندوة في اتصالها الممتد بالندوة السابقة، وتخصّ الأخيرة في القراءة النموذجية لمشروعات السلم، وهي حماية الأوطان.

ويُعدّ "الوطن وحماية الأوطان" من المفاهيم التي أصّلتها الشريعة الإسلامية بمفهومات ومضامين أشمل، ما أسهم في تشكيل مساراتها واستثارة الوعي بها قبل المدنية المعاصرة؛ حرصاً على تحصين المجتمعات من مسببات زعزعة الأمن، وتشثيت الجهود، وتحييد الاتجاهات نحو طرقات مهدّدة للأمن والإيمان. ويحاول هذا البحث وفق محور: "أسس حماية الوطن ومقوماتها في السنة النبوية" أن يتبنّى افتراضاً مفاده: أنّ حدث الهجرة في السنة النبوية هو الحدث الأساس الذي يمكن أن يرفد موضوعات حماية الأوطان، ويستجلي أهمّ مقوماتها دلالة وتطبيقاً، بل هو الحدث الأمّودج الذي يمكن أن تستضيء به مؤسساتنا الاجتماعية والأمنية اليوم في ترسيخ مقومات حماية الوطن، عبر تبني هذه المقومات والعمل على تطبيقها تعزيزاً لأمن الوطن وعزّته ومنّعته.

وتكمن أهمية البحث في محاولته بيان أنّ حماية الوطن فعل طبيعيّ، مرتبط بواجب الإنسان تجاه المكان الذي يعيش فيه ويمارس فيه عقيدته، وأنّ حدث الهجرة في السنة النبوية هو السياق المؤسس لحماية الفرد، والسياق المعزز لحماية الأوطان داخله وخارجه، وهو ما يستوجب تقوية

شبكة العلاقات فيما بين أفراد المجتمع؛ وصولاً بما نحو تمكين الوحدة الوطنية من الاضطلاع بدور الحماية المطلوبة المتأسسة من هذه العلاقات، فيقوى فعل الحماية فيها ومن خلالها، إضافة إلى أنّ استقامة فكر الفرد ووعيه بأهمية دوره في تحقيق هذه الحماية معززةٌ لدور الحكومات في حماية أوطانها، والنظر إلى نصوص السنة النبوية من منظور التأسيس الحضاريّ يفعل دور الفهم في تطبيقه على الواقع، الأمر الذي يُسهم في انبناء أُنموذج حضاريّ صامد أمام المتغيرات الحاصلة في الواقع، والمهددة لسياق الأمن وحماية الأوطان.

يرمي هذا البحث إلى الوقوف على نصوص السنة النبوية الشريفة، واستكناه دلالاتها، والإفادة من مضامينها؛ لتمنح الموضوع أبعاداً قد تُسهم في معالجة الواقع المتغيّر، وتستشرف المستقبل فيما يتعلّق بقضايا الأمن وحماية الأوطان. وقد أفاد البحث من مناهج شرح الحديث النبويّ الشريف في فهم الخطاب النبويّ الشريف وتحليله، مفيداً في ذلك من كتاب الأستاذ الدكتور: أحمد عثمان رحماني - حفظه الله - وهو الجديد في مناهج تفسير الحديث الشريف وتطبيقاته. ولا أزعم أنّ البحث جديد في مضمونه، وإنما هو محاولة لربط المقومات بسياقها العقديّ، وإبراز مدى تأثير هذا الارتباط في إحداث مسألة الحماية، ومقاربة هذه المقومات لإظهار إمكانية تمثيلها في الواقع.

## المدخل: مقارنة المفاهيم في إطار موضوع حماية الأوطان

### أ. الحماية؛ مقارنة المفهوم والفعل

تظهر مسألة حماية الوطن بعدد الوطن كالبيت، لا يمكن أن تبدأ الحياة فيه إلا حين يكون مُسَيِّجاً؛ ليكون "عالم الإنسان الأول"<sup>(١)</sup>، يشترك فيه مع غيره من المخلوقات في حيّز مكانيّ يسعه؛ لذا يقولون: "وطن الإنسان، وعطن البعير، وعرين الأسد، ووجار الذئب والضبع، وكناس الظبي..."<sup>(٢)</sup>. ويشترك في هذا الحيّز كذلك مع بني جنسه؛ كونه المكان الذي وُطن فيه نفسه، وألفه، وسكن إليه، حتى صار به يُعرف، وإليه يُنسب؛ فيغدو المكان بذلك جزءاً من ملكيّته التي

١- جاستون باشلار، جمالية المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤م، ص ٣٨.

٢- ابن الحوزي (٥٩٧ هـ) أبو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر، المدهش، ضبطه وحرره: مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥م، ص ٤٤.

تستوجب الدفاع عنه وحمايته، ويتسع هذا الحيز باتساع نشاطاته ومجالات أفعاله فيه، فمن الغرفة، إلى البيت، وإلى المبنى، ثم الحمى، ثم المدينة، ثم المنطقة، ثم البلد، ثم العالم.<sup>(١)</sup> ومادام الاجتماع يستلزم الحماية، فإن لفظ الحماية حسب مدلوله اللغوي يشير إلى المعنى نفسه وهو معنى المنع، ودفع المكروه عن الشيء، وأن الحمى كل حمى من الشر وغيره، وهو ما لا يحتمل الضيم، والحمى ما حمى من الشيء،<sup>(٢)</sup> وهذا ما يؤكد التمثيل النبوي في قوله ﷺ: "كَرَاعَ يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى..."<sup>(٣)</sup> فالوضع الطبيعي لهذه الأوطان - من خلال الحديث - أن تكون محمية بسبب العلاقة الوطيدة التي تربط الإنسان بالمكان، علاقة ليست متعلقة بالمكان فحسب، بل بما يتوافر عليه المكان من أمن وطمأنينة وتمثيل لسلطة وتأثير الإنسان فيه، بوصف الإنسان متأثراً به مؤثراً فيه. هذه العلاقة التبادلية من التأثير والتأثير، تجعل المكان يفرض سلطته على الإنسان، ويمارس سلطته في إطار من الملكية والحماية. ويُعدُّ فعل الحماية منسجماً مع تحقيق وجود الجماعة التي اشتهرت بثبوت ملكية المكان إليها ملكية لم يسبق إليها قبلها؛ كموضع الكلا الذي يُمنع الناس فيه من الرعي بموجب نزول الحاكم أو رئيس القبيلة فيه، وتحديد حدوده بمدى ما يصله عواء الكلب - على عادة أهل الجاهلية - فلا يرعى في هذا الحمى أحد غيره وقيبلته؛<sup>(٤)</sup> فيصير حمى مستوجب الحماية بموجب ملكيته وممارسة السلطة عليه، ويعزز المفهوم قوله ﷺ: "لَا حِمَى

١- سيزا قاسم دراز، المكان ودلالته، تقديم لمقال ترجمته بعنوان: مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، في كتاب جماليات المكان، أحمد طاهر حسنين، يوري لوتمان وآخرون، عيون المقالات، الدار البيضاء - المغرب، ط٢، ١٩٨٨م، ص ٦٠.

٢- الزبيدي (١٢٠٥ هـ)، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم الغزناوي، راجعه: ضاحي عبد الباقي، خالد عبد الكريم جمعة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ٢٠٠١م، ج٣٧، ص ٢٦١ (مادة حمى، باب الباء، فصل الحاء).

٣- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، (ص ٢٠٥)، (رقم: ٥٢) الراوي: النعمان بن بشير ﷺ. [البخاري (٢٥٦ هـ) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، خرّج أحاديثه وعلّق عليه: عزّ الدين ضلي وآخرون، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط٣، ٢٠١٥م، ص ٢٠٥].

٤- ابن الأثير الجزري (٥٥٥ هـ)، المبارك بن محمد بن عبد الكريم، الشافي في شرح مسند الشافعي، تحقيق: أحمد بن سليمان، أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ٢٠٠٥م، ج٤، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ"<sup>(١)</sup>، فإذا كانت الحماية لا تكون إلا بما حماه الله ورسوله للمسلمين؛ فإن للخليفة ولولي الأمر الحق في القيام بهذه المهمة، وقد ثبت عن رسول الله - ﷺ - أنه حمى النقيع<sup>(٢)</sup>، وأن عمر بن الخطاب - رضِيَ اللهُ عنه - حمى السرف والرئذة<sup>(٣)</sup>.

ومن البدهي أن فعل التمركز المكاني للإنسان وجماعته في المكان الذي استوطنه، يستوجب حقوقاً وواجبات: فأما الحقوق، فمنها الحق الأولي في أن يكون للإنسان وطن يسكن فيه، وينتمي ويُنسب إليه، "فكل أمة لا بد لهم من وطن، وهو منشؤهم، ومنه أولية ملكهم"<sup>(٤)</sup>. وحق هذه الملكية مستوجب الدفاع والحماية؛ لضمان استمرار فعل التملك والتوطن، والتحرر من أي عدوان، وهو ما قرره ابن خلدون (٨٠٨ هـ) بقوله: "ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر - كما قررناه - وتم عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم، وليست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم"<sup>(٥)</sup>.

ومن الواجبات التي تقرها الشريعة الإسلامية على الإنسان المستوطن للأرض، الإحسان المبين في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ

١- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لا حمى إلا لله ورسوله ﷺ، (ص ٦٦١)، (رقم: ٢٣٧٠) رواه: الصَّعْبُ بْنُ جَثَّامَةَ.

٢- النقيع: موضع يبعد عشرين فرسخاً عن المدينة. وأصل دلالة اللفظ على كل موضع يستنقع فيه الماء. [ينظر: ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تعليق: عبد الرحمن بن ناصر البراك، اعتنى به: أبو قتيبة نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، ط١، ٢٠٠٥، ج٦، ص ١٧٩].

٣- سرف: أن الشرف هو اللفظ الأصوب عند بعض رواة الإمام البخاري وعند ابن حجر وغيره، أما سرف: فموضع بقرب مكة. وأما الرئذة فموضع معروف بين مكة والمدينة. [ينظر: ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٦، ص ١٨٠].

٤- ابن خلدون (٨٠٨ هـ)، مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول من تاريخه الموسوم ب: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبطه وراجعته: خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠١م، ج١، ص ٤٧٠.

٥- ابن خلدون (٨٠٨ هـ)، مقدمة ابن خلدون، ج١، ص ٥٥ - ٥٦.

وَأَلْتَمَعَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ  
السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ... ﴿٣٦﴾؛ (النساء: ٣٦)، وهي واجبات تقرر قيمة الإحسان التي  
تفتح على كل أشكال الحفاظ على المكان وعمارته، واتخاذ كافة السبل لاستدامة العيش فيه،  
ويتعدى فعل الإحسان القرب المكاني إلى الجوار في أوطان أخرى، مع شمولية هذه المجاورة المسلم  
والكافر، والعابد والفاسق، والصديق والعدو، والنافع والغريب، والقريب والأجنبي، والأقرب داراً  
والأبعد<sup>(١)</sup>. وحفظ الجوار مجلبة للأمن في الأوطان، وحماية من مكر الجوار لقوله ﷺ: "وَاللَّهِ لَا  
يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، قِيلَ وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ"<sup>(٢)</sup>.  
فنفي الإيمان عمّن يؤذي جاره دالٌّ على الحماية التي يكفلها الدين للجوار، وتغليظ الزجر عن  
الإيذاء والتسبب في إلقاء الرعب في النفوس بانتفاء أمن المجاورة، ويقاس عليه تعدي الحماية إلى  
حماية الوطن المجاور من الإيذاء؛ نخلص من ذلك إلى أنّ العلاقة الدلالية بين الحماية والحمى علاقة  
تضمنية، وأنّ الحماية ما كانت لولا وجود حمى، وأنّ الحماية تستوجب الحمى لضمان ديمومة  
العيش في كنفه.

## ب. الوطن؛ مقارنة للمفاهيم اللغوية والدلالية

إنّ فهم حيثيات مفهوم "الوطن" وتعيين امتداداته وتعالقاته بالحماية لا تكون إلاّ بمعرفة دلالاته  
الاصطلاحية اللغوية التي تموقعه في نسقه السياقيّ الخاصّ به، وتشبي بواقع التطور الدلاليّ الذي  
سار فيه المفهوم نحو آفاق جديدة معاصرة؛ ف"الوطن" أفقٌ مفهوميّ معاصر لمفاهيم سبقته وكانت  
أشمل منه من حيث الأبعاد الدلالية، يستلزم ذلك الرجوع إلى مظانه الدلالية ضمن المنظومة اللغوية  
التي اصطلح عليها؛ وتحيل على دلالة واحدة هي الدلالة المكانيّة اللصيقة بالإنسان، فالوطن: منزل  
الإقامة من الإنسان، ومحله، ومسكنه، أو هو مربيط البقر والغنم الذي تأوي إليه. وقد يكون بمعنى:  
موقف أو مجلس، ومواطن الحرب مشاهدها، ومن ناحية معنوية يظهر مفهوم توطين النفس: الذي

١- ابن حجر العسقلاني ( ٨٥٢ هـ )، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص  
٥٥٩.

٢- أخرجه البخاريّ، في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، (ص ١٤٤٥)، (رقم:  
٦٠١٦)، عن أبي شريح رضي الله عنه.

يعني حملها على شيء معين، ووطنه: تعني واقفه.<sup>(١)</sup> وفعل التوطن في المكان الدال على الطبيعة التي جبل عليها الإنسان من تفضيل الاجتماع مع بني جنسه؛ إذ بهم يُتعاون على القوت، وبناء المسكن، وتسيير شؤون الحياة، والدفاع عن بعضهم بعضاً،<sup>(٢)</sup> هذا الحضور الإنساني الإرادي له تأثيره في الإنسان نفسه، بإكسابه الخبرات، وزيادة المعارف، وتوسيع المدركات الحسية المتشكلة فيه وبسببه، "فالقرب والبعد، والارتفاع والانخفاض، علاقات مألوفة تربط الإنسان ارتباطاً بدائياً بالمحيط الذي يعيش فيه."<sup>(٣)</sup> وتمتد هذه العلاقات إلى امتدادات أبعد في مد الإنسان بمفاهيم وتصورات تشكل إدراكه للأخلاق في "السمو والتدني" والمظاهر الاجتماعية المتمثلة في "الرفيع والوضيع" والظواهر النفسية في "صغير النفس وكبير القلب"<sup>(٤)</sup>، وعن هذه الظواهر تنبثق أفعال الإنسان التي تمنح المكان قيمته، وتختلف هذه القيمة باختلاف أفعاله الممارسة في الحيز المكاني الذي وطن نفسه فيه ليغدو الوطن: "كل مكان قام به الإنسان لأمر فهو موطن له."<sup>(٥)</sup> ومن ذلك يتوصل إلى أن الارتفاع المكاني والانخفاض كفيلاً بتشكيل سلوك الإنسان الذي يحمله على الارتفاع بنفسه إلى أن يصل مراقبي صيانتها عن الضيم والذل بحماية حيزه الذي درج فيه وأمن، فكانت الحماية سلوكاً فطرياً متأثراً بفعل المكان في نفس الإنسان.

١- ينظر: الزبيدي ( ١٢٠٥ هـ )، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، راجعه: ضاحي عبد الباقي، خالد عبد الكريم جمعة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٣٦، ص ٢٦١ ( مادة وطن، باب النون، فصل الواو ) + الجوهري ( ٣٩٣ هـ )، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٩٠م، ج ٥، ص ٢٢١٤ ( مادة: وطن )، و المناوي ( ٩٥٢ هـ )، عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٣٣٨ ( مادة: وطن )

٢- ابن خلدون ( ٨٠٨ هـ )، مقدمة ابن خلدون، ج ١، ص ٥٤.

٣- سيزا قاسم دراز، المكان ودلالته، تقديم لمقال ترجمته بعنوان: مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ص ٥٩.

٤- المرجع السابق.

٥- الأزهري ( ٣٧٠ هـ )، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، مراجعة: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بلا طبعة، ١٩٦٧م، ج ١٤، ص ٢٨.

يعزز المعاني السالفة الذكر ما جاء من المفاهيم الرديفة لـ "الوطن"، الواردة في كتاب الله العزيز ومنها "الأرض"، و"الديار"، و"المواطن". فأما لفظ (الأرض) فقد ورد على وجه العموم وعلى وجه الخصوص والتعيين، وما كان على وجه العموم نجد في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ (البقرة: ٣٦)، والقرار والاستقرار من معاني الإقامة ومحلها الذي يستوطنه الإنسان ويعيش فيه ويألفه.<sup>(١)</sup> وهو الاستيطان الأول للإنسان على الأرض التي جعلت فيه فطرة إلف المكان والسكون إليه، فصارت الأرض وطناً يقيم عليها ويعمرها بتسخيرها له في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ (الملك: ١٥). وأما ما ورد على وجه الخصوص، فإنه ورد على جهة التعيين المكاني المخصوص في قوله عز وجل: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا...﴾ (الإسراء: ٧٦) والمراد: مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>؛ فكان فعل الاستفزاز الوارد في الآية الكريمة فعلاً قوياً أريد به إخراج النبي - ﷺ - الأمر الذي أحدث فيه التعبير عن حب الوطن، واستعمار تركه، وفعل الاستفزاز يناهض فعل التوطن بل يعارضه ويعاديه؛ فكان هذا الفعل أن حمله ﷺ على الخروج من بلده، وكان التعريف في "الأرض" دالاً أشدّ الدلالة على حقه في هذا البلد وانتمائه إليها.<sup>(٣)</sup>

كما تتجلى دلالات الوطن في مرادفها الثاني وهو "الدار والديار" في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ (الحشر: ٩)، ويأتي فعل "تَبَوَّءُوا" ليؤكد معنى الاستيطان والإقامة تارة، وليضيف دلالة اللوازم وحُلُوص ملكية المكان إليهم تارة أخرى؛ تلك الملكية التي تكفل لهم حرية العمل والحركة والعيش، إضافة إلى حُلُوص عبادتهم لله تعالى، فالتَّبَوُّؤُ هنا تَبَوَّؤُ للديار، وتَبَوَّؤُ للإيمان الذي يعود صاحبه إليه في الرخاء والشدة.<sup>(٤)</sup>

- ١- الزبيدي (١٢٠٥ هـ)، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣٦، ص ٢٦١.
- ٢- ابن كثير (٧٧٤ هـ)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشيّ الدمشقيّ، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٢، ١٩٩٩م، ج ٥، ص ١٠١.
- ٣- الطاهر ابن عاشور (١٩٧٣ م)، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ط ١، ١٩٨٤م، ج ١٥، ص ١٧٨.
- ٤- المرجع السابق.

أما المرادف الثالث وهو "المواطن" فوارد في موضع واحد في كتاب الله العزيز، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ (التوبة: ٢٥)، فالمواطن هنا: دلّت على التوطن والإقامة فيها أيام الحرب، ويظهر التلازم في معنى الوطن بين الزمان والمكان جلياً؛ إذ دلّ لفظ "مواطن" على الأيام التي وقعت فيها الحرب،<sup>(١)</sup> فطول المكوث الزمني رغم موضعية الصراعات والتوترات فيها، ينافي الاطمئنان والسكون الذي تعكسه المرادفات السابقة؛ إلا أنّ جعلها كالوطن؛ دالّ على ظهور الأثر البشري فيها المتمثل في وجوده وفعله الحضاري،<sup>(٢)</sup> والمائل في الدفاع عنه كما تظهره المعاني الأخرى، لكنّ معنى التوطن نجده هنا أقوى دلاليّاً عما ورد من مرادفات؛ لإظهاره معنى الحفاظ على الوطن في هذه المواطن العسير على النفس شهودها، إذ لا تكفي السكنى والعمارة للأرض في الدلالة على معنى التوطن، بل إنّ القتال للحفاظ عليه دالّ دلالة عليا وبيّنة على عمق الشعور والتمسك به، وأنّ سبيل بقائه حمايته، وتأكيد ملكيته.

ويرد فعل "التوطن" في السنة النبوية بمعنى مماثل للمعنى السابق، مع اختلاف السياق الدلاليّ في قوله ﷺ: "مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، إِلَّا تَبَشَّبَشَ اللَّهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشَّبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ".<sup>(٣)</sup> ويقصد بفعل التوطن هنا اللزوم المكاني والاشتهار به،

١- المرجع السابق.

٢- نعني بالفعل الحضاري: هو الفعل الذي تصنعه الجماعة الإنسانية التي نعني بها المجتمع، تهدف فيه إلى تغيير نفسها وواقعها الذي يصل تأثيره إلى التاريخ وصولاً إلى تحقيق غاياتها، على أسس إيمانية راسخة، تقوم على الدين الإسلامي؛ فينتج فعلاً مُستمرّاً ذا إنتاجية دائمة، تحفّزه الغايات الروحية التي تتناسب مع جهد الإنسان وطاقته وتتطابق مع الأوامر الرسالية الإسلامية، هذا الفعل تشترك فيه عوالم ثلاثة كلّ يشغل في الآخر، وأولها عالم الأشخاص الذي يصدر عن عالم الأفكار التي تستحث الفعل السامي فيه المشفع بالرسالية الإسلامية، للتأثير في عالم الأشياء من حوله. [مستلهم من: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بإشراف: ندوة مالك بن نبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٨٦م، ص ١٨ و ٢٣ و ٢٥].

٣- أخرجه ابن ماجه، في سننه، كتاب المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، (ص ١٢٤)، (رقم: ٨٠٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. حكم الحديث: صحيح، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح، ورواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد، ورواه الحاكم عن عبدان بن يزيد، ورواه ابن خزيمة في صحيحة وابن أبي شيبة. [ينظر: ينظر: ابن ماجه (٢٧٣ هـ)، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢،



فلما كانت المساجد المأوى الذي يئوب إليه المسلم للذكر وللعبادة؛ كان فعله ملازمًا للمكان، وتحصّلت له هذه المثوبة بملازمته له. كما يرد في السنة النبوية مفهوم "الديار" بمعنى الوطن في قول النبي - ﷺ - حين قال لعائشة رضي الله عنها -: "إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصَلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَحُسْنُ الْجَوَارِ، يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ"<sup>(١)</sup>. ولا يختلف هذا المفهوم عما دلّت عليه الآية السابقة الواردة في لفظ الديار، ويزيد في دلالته ارتباطه بأهمية الرفق، والصلة، وحسن الخلق والحوار؛ بوصفها سببًا في تعمير الديار عمرانًا ماديًا ومعنويًا؛ فأما العمران المادي: فإنه لما تنبني المجتمعات على القيم الخلقية الواردة في الحديث، فإن ذلك يعزز من حركتها في النفع، ويحفزها نحو النشاط المشترك في دفع حركة العمران الحضاري للأمة، لتنشأ لدى الفرد الرغبة في تقديم ما يتييسر له ليكفل له ولمجتمعه حياة آمنة وقوية وعزيزة. وأما العمران المعنوي: فهو إنساء عمره، وعمران العمر يكون بالقيم التي تجعل للإنسان أثرًا حضاريًا لوجوده وما بعد فنائه؛ وبذا يظهر لنا أثر سيادة القوانين الخلقية التي تعزز شبكة العلاقات الاجتماعية، وتحمي المجتمع من فتنة الفرقة، وبالتالي يقوى المجتمع ويتحد في مواجهة أي خطر.

### ج. الهجرة؛ من دلالة الفعل إلى القيم المعنوية

يأتي فعل الهجرة حركة انتقالية قد يكون الطابع القسري دافعًا ومحركًا لها، يتوسّط الفعل - أي فعل الهجرة - "من" و "إلى"؛ إذ الهجرة: "الخروج من الأرض إلى أخرى"<sup>(٢)</sup>. ليصار فاعله مهاجرًا من فضاء إلى فضاء، وإذا كان "أصل المهاجرة عند العرب: خروج البدوي من باديته إلى المدين؛"<sup>(٣)</sup> فإنّ الدلالة تنزاح بعد تأييدها بالقيمة العقدية لمفهوم الهجرة في سبيل الله، وتقتضي ترك المهاجر

[٢٠١٥م، ص ١٢٤].

١- أخرجه أحمد، في مسنده، من حديث عائشة رضي الله عنها، (ج ٤٢ - ص ١٥٣)، (رقم: ٢٥٢٥٩)، قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه ثقات، إلا أنّ عبد الرحمن بن القاسم لم يسمع من عائشة رضي الله عنها. [ينظر: المنذري (٦٥٦ هـ)، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، حققه وعلق عليه: مصطفى محمد عمارة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، بيروت، ط ٣، ١٩٦٨م، ج ٣، ص ٣٣٧].

٢- الزبيدي (١٢٠٥ هـ)، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٤، ص ٣٩٧.  
٣- المرجع السابق.

لماله وأهله ووطنه وولده، في سبيل الاستبقاء على دينه؛ يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء: ١٠٠)، وارتباط فعل الهجرة بسبيل الله، مغيرٌ لدلالاتها من إرادة الفعل الدنيوي إلى إرادة الفعل الأخروي، وبانقضاء حدث الهجرة؛ تنزاح دلالة الهجرة الظاهرية إلى دلالة أخرى هي الهجرة الباطنية الواردة في قول النبي - ﷺ -: "وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ"<sup>(١)</sup>، فلو كان في الهجرة الظاهرية تحوّل مكانيّ بسبب العقيدة، فإنّ في الهجرة الباطنية<sup>(٢)</sup> تحوّلًا قيمياً بسبب العقيدة أيضاً، وتصبح الهجرة بذلك فعلاً له سيرورته الدائمة المشروطة بالإيمان الذي يؤهل حضورها في كلّ وقت.

## المبحث الأول: "الهجرة" الحدث الحضاريّ الأول في السنة النبوية المعززة لمقومات حماية الأوطان

### ١. الهجرة إلى الحبشة السياق الأول المؤكّد لحماية الفرد

شُرعت الهجرة حمايةً للفرد؛ وذلك حقّ من حقوق تمكينه في دياره ووطنه، للحفاظ على حرّيته في ممارسة عقيدته، وهو - أي فعل الهجرة في السنة النبوية - فعل متناسل عن أفعال مماثلة سبقت فعل الهجرة في الإسلام، دلّ عليها قول الله - ﷻ -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمًا أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا...﴾ (النساء: ٩٧)، فالاستضعاف - الموجب للهجرة - فعل لا يقبل به الإسلام؛ إذ هو منافٍ للكرامة الإنسانية التي لا تقبل بحال الضعف الإنساني الذي سببه الاستضعاف الرامي إلى فقد حق الإنسان في العبودية لله تعالى وإظهار دينه الإسلامي، فلا يُقبل الرجوع إلى الشرك بعد الإسلام مع وجود الداعي للحفاظ عليه وهو الهجرة كما بينته الآية الكريمة؛ لذا جاء التصريح

١- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، (ص ١٩٦ - ١٩٧)، (رقم: ١٠)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

٢- قسم ابن حجر (٨٥٢ هـ) الهجرة إلى قسمين: هجرة ظاهرة: وهي الفرار بالدين من الفتن، والهجرة الباطنة: وهي ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، وأنّ هذا الحديث جاء بعد الهجرة إلى المدينة؛ لكيلا يتكل المهاجرون على التحول المكانيّ فقط، بل إنّ امتثال أوامر الشرع، وترك نواهيه هي الهجرة الحقيقية. [ينظر: ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١، ص ١٠٧].

بالأمر بالقتال من بعد الهجرة النبوية إلى المدينة في قتال من استوجب العداوة بما فعلوه من قتال المسلمين لأجل دينهم، وإخراجهم من ديارهم، والإعانة على إخراجهم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تُولَّوهُمْ وَمَنْ يُوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (المتحنة: ٩)؛ فحماية الدين وتأكيد أحقية الفرد في ممارسة عبادته كما دلّت عليه الآية الكريمة، تعدّ الأصل في حماية الأوطان والديار، وأنّ الهجرة سياقٌ ممهّدٌ للدفاع الصريح بالقتال عن الدين والأوطان.

ويُعدُّ حدث الهجرة سواء أكانت الهجرة الأولى أم الثانية إلى الحبشة<sup>(١)</sup>، حدثاً مهمّاً في تاريخ الإسلام؛ إذ بسببه بدأت دولة الإسلام من الفرد المكوّن لها والحامي لدمارها، فكانت حمايته بالنوع الأول من الهجرة - أي إلى الحبشة - حماية للمكوّن الأول للدولة الإسلامية والأساس في تشييدها وحمايتها من بعد. ويعدّ هذا الحدث هو السبب المهيئاً من الله تعالى لتمكين دينه في الأرض، بتحقيق وعده سبحانه للمؤمنين: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (النور: ٥٥)، فالهجرة في الوقت ذاته اختبار للإيمان المستقرّ في نفوس المؤمنين، وإعلانٌ صريحٌ للمشركين عن موقف المسلمين الثابت على الإيمان، وهو إعلان كافٍ في بدء ظهور الإسلام ينبئ عن قوة تعاليم الدين التي تجعل من أفرادها قوة لا يمكن أن تُقهر أمام الإيذاء أو التعذيب أو الغربة، هذا الحدث كان غاية في الأهمية لتتوالى التغيرات التي أحدثتها الإسلام في وجه التاريخ من بعد. وقد أفصحت الهجرة إلى الحبشة في قول

١- كانت الهجرة إلى الحبشة مرتين: الأولى كان عدد المهاجرين فيها أحد عشر رجلاً وأربع نساء، فأقاموا فيها شهرين، ولما سمعوا عن انتشار الإسلام في مكة عادوا، ولقوا من المشركين أشد ما لقوا من قبل، ثم عادوا إلى الحبشة. وقد بقي النبي - ﷺ - وبعض المسلمين بمكة، وكانت هذه الهجرة بإذن النبي - ﷺ -، ولم تكن هذه الهجرة واجبة كما هو الحال في الهجرة إلى المدينة. وكان عدد المسلمين في الهجرة الثانية إلى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً، وثمانية عشرة امرأة. [ ينظر: ابن عبد البرّ (٤٦٣ هـ)، يوسف النمرّي، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٦٦م، ص ٥٠، و ابن سعد (٢٣٠ هـ)، محمد بن سعد بن منيع الزهرّي، الطبقات الكبرى، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ج١، ص ١٧٢ - ١٧٧].

عَائِشَةَ رضي الله عنها: "هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ..."<sup>(١)</sup>، عن سياق أولي انعكست منه ضرورة حماية الفرد في الإسلام، فالأمن مطلب ضروريّ به تتحقق مقاصد الشريعة في حفظ نظام المجتمعات من استلاب أمنها، وتحقيق صلاح الفرد فيها، وقد ذكرت أُمُّ سَلَمَةَ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ بِنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله - رضي الله عنه -: "لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ؛ جَاوَزْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيِّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى، لَا نُؤَدَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ..."<sup>(٢)</sup>.

فقد اتضح من تأمين النجاشي للمسلمين في دياره أنّ سياق الحماية سياق مشترك بين الأمم، وأنّ حقّ الفرد في ممارسة عبادته أمرٌ يقوّه العقل قبل النقل، فقد كان النجاشي - رحمه الله - في تلك الفترة على دين النصرانية، وهذا ما أجلاه سؤاله للمهاجرين حين دعاهم: "مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟"<sup>(٣)</sup> وقد حكّت عائشة عن أبي بكر - رضي الله عنه - قصة عزمه على الهجرة قائلة: "حَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قَبْلَ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرَكَ الْعِمَادِ، لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ، فَأَعْبُدَ رَبِّي."<sup>(٤)</sup> فقولته صلى الله عليه وآله " أَخْرَجَنِي قَوْمِي " دليل على أنّ التسبب في الإخراج بالإيذاء في الدين، أكبر ما يجعل المسلم في حال الخوف على دينه، فكانت الهجرة الحلّ الذي يحفظ للمسلم دينه، وحقه في العبادة، وكرامته، وكانت الحبشة الدار المحمية التي جذبت إليها المسلمين. ثمّ تكمل عائشة - رضي الله عنها - الحديث فتقول: " قَالَ ابْنُ

- ١- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب اللباس، باب التتّع، (ص ١٤١٣)، (رقم: ٥٨٠٧).
- ٢- أخرجه الإمام أحمد، في مسنده، مسند الأنصار رضي الله عنه، حديث جعفر بن أبي طالب، وهو حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله، (ج ١٦ - ص ٣٢٧)، (رقم: ٢٢٣٩٧)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد": رجاله رجال الصحيح غير إسحاق، وقد صرح بالسماع. [ ينظر: أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ)، المسند، شرحه وصنع فهرسه: حمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥، ج ١٦، ص ٣٢٧، وينظر: الهيثمي (٨٠٧ هـ)، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٩٤م، ج ٦، ص ٢٧ ].
- ٣- أخرجه الإمام أحمد، في مسنده، مسند الأنصار رضي الله عنه، حديث جعفر بن أبي طالب، وهو حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله، (ج ١٦ - ص ٣٢٨)، (رقم: ٢٢٣٩٧)، سبق تخريجه.
- ٤- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر رضي الله عنه في عهد النبي صلى الله عليه وآله وعقده، (ص ٦٤٥ - ٦٤٦)، (رقم: ٢٢٩٧).

الدَّغْنَةَ: إِنَّ مِثْلَكَ لَا يُخْرَجُ وَلَا يُخْرَجُ؛ فَإِنَّكَ تُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَأَعْبُدْ رَبَّكَ بِيْلَادِكَ، فَارْتَحِلْ ابْنَ الدَّغْنَةَ، فَارْجِعْ مَعَ أَبِي بَكْرٍ فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يُخْرَجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؟ فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشُ جِوَارَ ابْنِ الدَّغْنَةَ وَأَمَّنُوا أَبَا بَكْرٍ،...<sup>(١)</sup> وَيُظْهِرُ الْحَدِيثَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْحَمَايَةِ تَجْعَلُ الْمَرْءَ فِي مَأْمَنٍ مِنْ غَيْرِهِ: أَوْلَهُمَا: فَعَالَ الْمَرْءِ وَخِصَالَ الْخَيْرِ الْبَادِيَةِ عَلَى أَفْعَالِهِ الْمُتَعَدِيَةِ إِلَى غَيْرِهِ، مِمَّا يَحْمِيهِ وَيَعْظُمُ لَهُ الْقَدْرُ فِي تَمَكِينِ نَفْسِهِ مِنْ مِمَارَسَةِ الْعِبَادَةِ فِي وَطَنِهِ. وَثَانِيهِمَا: أَنَّ الْكِفَالََةَ حَمَايَةَ لِلْفَرْدِ، وَحِفْظَ لِكِرَامَتِهِ، وَاسْتِرْضَاءَ لَهُ مِمَّا حَصَلَ لَهُ، وَأَنَّ الْكَفِيلَ يُمْكِنُ أَنْ يَجِيرَ بِمَكَانَتِهِ بَيْنَ قَوْمِهِ الْمَكْفُولِ، وَاتْتِقَالَ الْجَوَارِ مِنَ الْفَرْدِ إِلَى الْاسْتِجَارَةِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ - ﷺ -، يَظْهَرُ عَظَمَ أَثَرِ الْيَقِينِ، وَأَنَّهُ الْحَامِي لِلْمُؤْمِنِ بِحَسَنِ ظَنِّهِ بِاللَّهِ تَعَالَى. وَفِي قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ - ﷺ -: "إِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضِي بِجِوَارِ اللَّهِ وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ".<sup>(٢)</sup> نَوْعٌ مِنَ الْحَمَايَةِ الْعَقْدِيَةِ الَّتِي يَتَكَيُّ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُ: وَهُوَ الْيَقِينُ الَّذِي لَازِمُهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - ﷺ - حِينَ رَدَّ جِوَارَ ابْنِ الدَّغْنَةَ وَالتَّجَاؤَ إِلَى اللَّهِ - ﷻ - وَرَسُولِهِ - ﷺ - وَفِي اللِّجْوَةِ إِلَيْهِمَا أَمَانٌ وَحَمَايَةٌ وَثِقَةٌ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَحَقِّقِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَنزَلْتُ إِلَيْكَ جِوَارَكَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الحج: ٣٨)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِإِنْتِهَابِ ظُلْمِهِمْ أَنْ يُقَاتِلُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩)، وَفِي ارْتِفَاعِ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِ إِلَى مَقَامِ الْيَقِينِ بِنَصْرِهِ وَحَمَايَتِهِ قُوَّةٌ فَعَلِيَّةٌ فِي نَفْسِهِ؛ فَيَسْعَى إِلَى اسْتِجْلَابِ أَسْبَابِ الْحَمَايَةِ النَّفْسِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ، وَإِقْفَافِ نَفْسِهِ عَلَى التَّقْوَى. وَبِهَذَا، يَظْهَرُ مِنَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ مَقَوِّمَاتٌ دَاخِلِيَّةٌ هِيَ الْأَسَاسُ فِي تَكْوِينِ الْفَرْدِ بِوَصْفِهِ دَرْعًا حَامِيَةً لِلْوَطَنِ مِنَ الْمَخَاطِرِ الْخَارِجِيَّةِ.

١- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر ﷺ في عهد النبي ﷺ وعقده، (ص ٦٤٥ - ٦٤٦)، (رقم: ٢٢٩٧).

٢- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر ﷺ في عهد النبي ﷺ وعقده، (ص ٦٤٥ - ٦٤٦)، (رقم: ٢٢٩٧).

## ٢. الهجرة إلى المدينة؛ السياق الثاني المؤسس للدولة والحامي لها ولل فرد

كانت الهجرة النبوية الحدثَ المفصليَّ الحضاريَّ الأهم في تاريخ الإسلام والمسلمين، وبه شهد المسلمون التحوُّلَ الجذريَّ من إبداء المشركين في مكة وغريبتهم بالهجرة إلى الحبشة؛ إلى الهجرة إلى المدينة وتأسيس الدولة الإسلامية التي احتضى المسلمون بظلمها، وحفظت فيها حقوقهم وكرامتهم، فتمخّضت الهجرة إلى المدينة عن موقف الغلبة والسلطان تحت حكم الله ورسوله - ﷺ - .<sup>(١)</sup>

وقد بشر بذلك رسولُ الله - ﷺ - صحابته بقوله: "قَدْ أُرِيْتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، رَأَيْتُ سَبِيحَةَ دَاتٍ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ وَهُمَا الْحَرَّتَانِ. فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قَبْلَ الْمَدِينَةِ حِينَ ذَكَرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْضُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: عَلَيَّ رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤَدَّنَ لِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأبي أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - لِيَصْحَبَهُ وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَّ السَّمُرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ"<sup>(٢)</sup>. فقوله: "قَدْ أُرِيْتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ دَالٌ عَلَى أَنَّ حِمَاةَ اللَّهِ - ﷻ - لِلنَّبِيِّ - ﷺ - وللمسلمين اقتضت الهجرة إلى المدينة بوحى من الله تعالى، وتعيينُ المدينة دارًا تؤوي المسلمين مُفَضًّا إلى حمايتهم بإنعام الاستخلاف عليهم الممثل في إقامة دولتهم، وتمكين دينهم في الأرض، وحصول الأمن المتحقق من الهجرة، الأمر الذي يحيل على مقومات أخرى لحماية الأوطان منها: تنفيذ حكم الله تعالى بإقامة شرعه الذي يكفل استحقاق حماية الله تعالى المتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنَّا رِيْبَهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴾ (الطلاق: ٨)، فعتوّ تلك القرى عن أمر ربها أوجب لها العذاب الذي زعزع عيشها وأمانها، ويضمّر المعنى عكس ذلك في جزاء القرى الممثلة لأمر الله وشرعه في استحقاق النصر والتأييد والحماية منه سبحانه.

وقد كانت مقاصد هذا الحدث - أي الهجرة - بيّنة في الحرص على حماية الفرد الذي هو أساس تمثل العقيدة فيه وبلوغ الرسالة إليه، ومن ثمّ فهو أساس الدولة التي ستنشأ على هذا الدين من بعد، وهو أساس في حماية دينه ووطنه الذي نخض بهذا الدين، وسينهض فيما بعد بالتكوين

١- ابن خلدون ( ٨٠٨ هـ )، مقدمة ابن خلدون، ج ١، ص ١٩٨.

٢- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر ﷺ في عهد النبي ﷺ وعقده، ( ص

٦٤٥ - ٦٤٦ )، ( رقم: ٢٢٩٧).

الأول للحضارة الإسلامية، وهو استشراف مستند إلى العلم الإلهي بضرورة تحقق الهجرة، وترك الديار، وانتفاء تحققها بعد فتح مكة، هذا ما أكدته النبي ﷺ حين قال يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: "لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا"<sup>(١)</sup>. وسقوط فرض الهجرة استشراف لحماية أكبر كانت بفرض الجهاد،<sup>(٢)</sup> واستشراف لحدث أكبر سيعزز من أمر الحماية وهو ظهور الدين تحقيقاً للمهمة النبوية في قوله تعالى: ﴿وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الأنعام: ٩٢)، وظهور الدين حماية لديار المسلمين من العدوان وما يمكن أن يهدد أمنهم.

### المبحث الثاني:

## المقومات التي اضطلع بها حدث "الهجرة" وعززت من حماية الأوطان

### أولاً: بناء المسجد وأثره في تشكيل الوعي وتوحيد الصف

إنَّ إنعام النظر في فعل ابتناء مسجد قباء بوصفه أول مسجد بُني في الإسلام مُوصلٌ إلى إدراك جوهر الحدث الفاعل في نفوس المسلمين؛ فالهجرة سببها الإيذاء في العقيدة، وفعلُ ابتناء المسجد من بعد الهجرة موصل إلى إظهار الدين بإعلان العبادة في أماكنها، وهو الحق الذي حرم المسلمون منه في مكة، كما يجلي الأمن الديني الذي تحصّل عليه المسلمون في المدينة، وتحقيق وعد الله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ﴾ (التوبة: ٣٣). ويعدّ المسجد البؤرة التي تركز عليها المدن في نموّها وتطوّرها وإظهار نموّها السكانيّ، والمسجد وإن كان وحدة عمرانية لها فرادتها الشكلية، فإنه ينهض بالدور الحضاريّ المهمّ في الأمة، بالقيام بوظائف عقديّة واجتماعية وإدارية،

١- أخرجه البخاريّ، في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، (ص ٧٥٣)، (رقم: ٢٧٨٣)، الراوي: ابن عباس رضي الله عنهما.

٢- سقوط فرض الهجرة عن المسلمين كان بعد فتح مكة، لكنّ حكم الهجرة يظلّ باقياً لمن هم في مثل سياق المسلمين ممن أسلم في ديار الكفر تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ كَمَا ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَهُمْ قَالُوا فِيكُمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا...﴾ النساء: ٩٧. [ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تعليق: عبد الرحمن بن ناصر البرّاك، اعتنى به: أبو قتيبة نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، ط ١، ٢٠٠٥ ج ٧، ص ٩٣].

ابتداء من العبادة التي هي الوظيفة الأساس، وصولاً به إلى تهذيب السلوك ونشر العلم والتواصل الاجتماعي، وتحقيق الترابط المجتمعي<sup>(١)</sup>، فعن أنس قال: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَنَزَلَ أَعْلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَأَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى بَنِي النَّجَّارِ، فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَبُو بَكْرٍ رَدُّهُ، وَمَلَأَ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ، حَتَّى أَلْقَى بِفَنَاءِ أَبِي أَيُّوبَ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ حَيْثُ أَدْرَكَتُهُ الصَّلَاةُ، وَيُصَلِّيَ فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، وَأَنَّهُ أَمَرَ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، فَقَالَ: يَا بَنِي النَّجَّارِ، ثَامِنُونِي بِجَائِطِكُمْ هَذَا. قَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ...<sup>(٢)</sup>. وكان هذا الفعل أول فعل تم للإسلام من بعد الهجرة، واضطلع بحماية الدولة التي كانت المدينة عاصمتها ومبدأ تكوينها حماية داخلية، وإذا كان المسجد قد شهد أولى التنظيمات الإدارية للدولة الإسلامية في مبدئها، فإنه أسهم إسهاماً مباشراً في توحيد صفوف المسلمين، وفض النزاعات، وتأليف القلوب التي هي مناط الحماية الداخلية للمجتمع، وهو ما دلَّ عليه قول كعب - ﷺ - أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنُ أَبِي حَدَرِدٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، فَنَادَى: يَا كَعْبُ، قَالَ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ضَعْ مِنْ دَيْنِكَ هَذَا، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ أَيْ الشَّطْرَ، قَالَ: لَقَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: قُمْ فَأَقْضِهِ"<sup>(٣)</sup>. وفي ذلك أبلغ الأثر في إخماد فتيل الفرقة والشقاق بين المسلمين، وأصبح المسجد بذلك المركز الذي يحتوي هذه النزاعات، ويشهد الإصلاح بين المتخاصمين، فيتشكَّل الوعي فيه بأهمية ترك الخصام وكل ما يمكن أن يحدث الصدع بين أفراد المجتمع، ونبذ الفرقة وترك

١- وليد عبد الله عبد العزيز المنيس، أثر وجود المسجد في تكوين المدن وتأصيل نموها، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، العدد: ١٥٩، أكتوبر، ٢٠١٥م، ص ٢٦ - ٣٠.  
 ٢- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد؟، (ص ٢٨١)، (رقم: ٤٢٨)، رواه أنس ﷺ.  
 ٣- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، (ص ٦٧٠)، (رقم: ٢٤١٨)، رواه: كعب بن مالك ﷺ.



أسباب الخلاف، ويؤثر تأثيراً مضاعفاً في تشكيل البنية الذهنية<sup>(١)</sup> العقدية للمسلمين، ليرسخ في الأذهان أنّ الوحدة فعلٌ طبيعيٌّ، وأنّ الاختلافَ أو الفرقة فعلٌ طارئٌ ومرضٌ لا بدّ من مقاومته وعلاجه، فعن أبي مسعودٍ قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسُحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ،<sup>(٢)</sup> وَيَقُولُ: اسْتَوْوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلْبِي مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، قَالَ: أَبُو مَسْعُودٍ فَأَنْتُمْ الْيَوْمَ أَشَدُّ اخْتِلَافًا."<sup>(٣)</sup> وفي رواية أخرى عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - مثله وزاد: "وَأَيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ"<sup>(٤)</sup>.

يتضمن الحديث ثلاث بُنى دلالية يمكن أن تُسهّم في تشكيل وعي الفرد، والتأثير فيه: الأولى: تضمّن الحديث دلالةً وفعلاً مسألة تسوية الصفّ، وما تحقّقه من أهمية في انعكاس صورة الوحدة والاتّلاف بين المسلمين التي تنغرس في أذهان المجتمع فتعتاد الفعل وتنعكس الصورة على الأعداء فيرهّبونهم ويقطعون آمالهم في إحداث الشقاق بينهم، وأنّ في تكرار الفعل، تكراراً للمعنى الدالّ عليه، وهو معنى خفيّ يمكن أن يُدرس من نواح روحية ونفسية، وفهم متربّتها التداولية بين الناس. والثانية: فهو في فعل تصدّر أولي الرأي والعقل صفوف الصلاة، الأمر الذي يحمل المسلمين على التحلّي بخصال العقلانية والرشاد، وتصدّر مراقي الاقتداء؛ ما يؤدي إلى بناء وعي جمعيّ بأهمية القدوة والاقتداء، وأهمية الائتثار بأمر ولاة الأمر، والصدور عن أمرهم، والاتّفاف بهم، والرجوع

١- البنية الذهنية: المخزون من الأفكار التي توجه الفرد وتتحكم في تفكيره وأفعاله، وتنعكس على المجتمع فيتأثر بها وتحدد طابعه الخاص ومساره. وهي بنية الوعي التي تؤثر في أقوال الإنسان وأفعاله، وتشكل من قيمه العقديّة، وقيم مجتمعه وعاداته وتقاليده ومتغيرات العصر التي يعيشه. [ ينظر: ياسين اليحياوي، البنية الذهنية ونظرية الوظائف الثلاث عند جورج دوميزيل، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة - قطر، العدد ١٩، شتاء ٢٠١٧م، ص ٤ ].

٢- "يَمْسُحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ": أي يسوّيها ويعدلّها في الصفوف. [ النووي (٦٧٦ هـ)، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري، صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، ط ١، ١٩٢٩م، ج ٤، ص ١٥٥ ].

٣- أخرجه مسلم، في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصفّ الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام، (ص ١١٤)، (رقم: ٣٤٢)، رواه: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٤- المرجع السابق.

إليهم فيما يستجد من الأمور وما يستعسر فيها، فُتحمى كلمتهم ويُوحّد صفّهم. وتصدّر أولي النهي الصفوف فعل له قيمته التي تحمل المسلم على توطين النفس في بلوغ مراتب التزكية والكمال بالأقوال والفعال. أما الثالثة ففي: فعل التأدّب عند ارتياد المساجد بترك هيشات الأسواق، وهو فعل آخر مُهَيَّبٌ للانسجام المتوخى بخفوت الصوت، وهو أدعى إلى تعزيز هذه اللحمة بانزياحه إلى التأدّب في حوار المسلمين بعضهم مع البعض بما يفرضه المكان من احترام، الأمر الذي يؤدي إلى التخفيف من حدّة التوتر والنزاعات التي تثيرها الحياة خارج المسجد، كما أنّه مفضّ إلى تلمّس العقلانية في إيجاد سبل أكثر جدوى في الحوار.

وما تزال السنة النبوية تؤكّد دور المسجد الفاعل في تشكيل وعي الجماعة، وتقوية الإدراك بأهمية الاجتماع وترك الفرقة فيما أكّده قوله ﷺ: " مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ، لَا تَقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ، إِلَّا قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ الْقَاصِيَةَ قَالَ السَّائِبُ: يَعْنِي بِالْجَمَاعَةِ: الْجَمَاعَةَ فِي الصَّلَاةِ."<sup>(٥)</sup> فالمسجد له تأثيره في توحيد فكر الجماعة على ضرورة لزوم أمرها، وحمائته من شتات ما يمكن أن يشكل الخطر عليها وعلى الأوطان، فيصبح المجتمع في سياق داخلي محميّ بقوة العقيدة والتعاليم السمحة، وبذلك يتضح أنّ " الفكرة الدينية تحدث تغييرها حتى في سمت الفرد ومظاهره، حين تعبّر في نفسه."<sup>(٦)</sup>

### ثانيا: الحبّ المؤيد بارتباطاته العقدية مقوم داخلي متصل بحدث الهجرة ومعزز للحمة الوطنية المؤدية إلى حماية الأوطان

إنّ الحبّ عاطفة مؤثرة في تشكيل موقف الفرد من القضايا الكبرى في الحياة، ولا يمكن أن يترسّخ فعله السويّ إلّا بتعالقه العقديّ المندمج مع الشعور الطبيعيّ المتولّد من الميل للأشياء العريضة والنافعة والجذابة، وطول إقامة المرء في مكان معيّن مع قومه معزّز لشعور الانتماء إليه والألفة

٥- أخرجه النسائيّ، في السنن، كتاب الإمامة، باب التشديد في ترك الجماعة، (ص ١٢٢)، (رقم: ٨٤٧)، رواه: أبو الدرداء رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم، في المستدرک، كتاب الصلاة، ومن كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، (ص ٣١٧ - ٣١٨)، (رقم: ٧٦٨)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال عنه: "هذا حديث صحيح، صدوق رواه، شاهد لما تقدمه، متفق على الاحتجاج برواياته إلّا السائب بن حبيش، وقد عرف من مذهب زائدة أنّه لا يحدث إلّا عن الثقات." .

٦- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ص ٨٠.

والسكن فيه؛ فيعدّ الأساس في تشكيل الفعل الحضاريّ، والبناء العمرانيّ، وتشكيل شبكة العلاقات الاجتماعية<sup>(١)</sup>، وأدلّ طريق على عضوية العلاقة بين عاطفة الحبّ وارتباط الإنسان بالمكان ما أورده عبْدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ بْنِ الْحَمْرَاءِ قَالَ لَهُ: "رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ<sup>(٢)</sup> يَقُولُ: " وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ. "<sup>(٣)</sup>

فإلّف الإنسان للمكان مع ما يضاف إليه من ارتباطات عقدية به تُعزّز فعل الانتماء، الذي هو أساس الحماية والدفاع عنه، لكن موقع المكان في الذات يظلّ محتفظاً بحضوره وانتماءات الفرد له وتأثيره فيه؛ لذا يظهر التمسك به في قوله ﷺ: " وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ. " فالهجرة التي هي في الحقيقة بُعدٌ عن الوطن لأسباب متعلّقة بحقّ تبليغ الرسالة النبوية، وتحقيق معنى العبودية لله عزّ وجلّ الفعلية في أرض آمنة، كان حبّ الله تعالى أكبر وأعمق من حبّ المكان، وهو ما صرح به رسول الله - ﷺ - بقوله: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدَّفَ فِي النَّارِ"<sup>(٤)</sup>. وفي هذا الحبّ اتساع للفعل الناجم عنه، وارتباط بالقيم العقدية، وتكوين لكلّ غربة ومفارقة للأهل وللولد. ومن أشكال الحبّ الموجبة لحماية الوطن والدفاع عنه:

- ١- أحمد عثمان رحمانى، الجديد في مناهج تفسير الحديث الشريف وتطبيقاته، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط١، ٢٠١١، ص ١٩٢ - ١٩٥ (بتصرف يسير).
- ٢- الحَزْوَرَةُ: موضع بمكة عند باب الحناطين. قاله: الشافعيّ ( ٢٠٤ هـ )، والدارقطنيّ ( ٣٨٥ هـ ) رحمهما الله. [ ينظر: جلال الدين السيوطي ( ٩١١ هـ ) وآخرون، شروح سنن ابن ماجه، قدم له وحققه: رائد بن صبري بن أبي علفه، بيت الأفكار الدولية، عمّان - الأردن، ط١، ٢٠٠٧م، ص ١١٧١ - ١١٧٢ ].
- ٣- أخرجه ابن ماجه، في سننه، كتاب المناسك، باب فضل مكة، (ص ٤٧٧)، (رقم: ٣١٠٨)، حكمه: صحيح، قال البوصيريّ في مصباح الزجاجة: هذا إسناد صحيح.
- ٤- أخرجه البخاريّ، في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (ص ١٩٨)، (رقم: ١٦) الراوي: أنس بن مالك ﷺ.

## أ. حبّ الوطن الحاضن للعقيدة والممثل لها موجب لحمايته:

فأن يكون الحبّ مقومًا عقديًّا؛ فإنّ ذلك مما يعزز الانتماء إلى المكان، الانتماء المنتج الفاعل؛ فالحبّ المنغرس في العقيدة تُظهره الأفعال الناجمة عنه المتوخية للصواب والنفع والخير، وفي قول رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ، كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ."<sup>(١)</sup> تظهر ثنائية الحب لمكانين اثنين: مكة، والمدينة، وتظهر مكة المكان المضادّ - في أول الأمر - في عدم قدرتها على احتواء الرسالة والمسلمين. ويظهر شعورٌ إنسانيّ في محبتها؛ حيث استوطنت قلب النبي - ﷺ وصحابته، ويصبح من بعد ذلك حبًّا مرتبطًا بالقيم العقديّة. كما تظهر المدينة المكان الذي استطاع أن يتحمل أعباء الرسالة واحتضان المسلمين. وبعد الفتح تتوحد الأمكنة في هذا الاحتواء، مع احتفاظ المكانين بأفضليتهما في خدمة الرسالة وضمّ المسلمين فيهما، لكنّ المدينة انفردت بفضل وجود النبي - ﷺ بين جناتها، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى فيها، وبفعل التأسّيّ تصبح مكة والمدينة من ثوابت حبّ الأمكنة في نفوس المسلمين.

## ب. الحبّ فيما بين أفراد المجتمع موجب للحماية:

والشكل الثاني من أشكال الحبّ التي تستصحب حماية الوطن، هو تعميق الحبّ بين أفراد المجتمع بوصفه رابطًا يربط الفرد بالفرد، والفرد بمجمعه، والفرد بقيادته، وبدولته، ومن ثمّ يربطه بأمّته؛ الأمر الذي يعمّق الوحدة القائمة على ائتلاف القلوب ووحدة الصفوف، وتقويض أشكال الفرقة النفسية التي يمكن أن يحاول الأعداء بثها في صفوفهم، وهو ما نجده في قول النبي - ﷺ - حائثًا عليه، ومرغّبًا فيه بالنفي المبنيّ على الشرط: "لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ؛ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ."<sup>(٢)</sup> فتوثيق الحبّ في نفوس المؤمنين وربطه بالإيمان أمر يدلّ على أهمية ارتكاز المجتمع على الحبّ المقوي للعلاقة والجامع للكلمة، والموجه لأفعال الفرد في توحيّ الحب فيما يصدر عنه؛ فيصبح المجتمع من بعد مصانًا برابط قويّ عسير على أيّ سبيل من سبل الفرقة الممزقة لوحدة الصفّ. وكان لتقوية العلاقات التفاعلية

١- أخرجه البخاريّ، في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب، (ص ٥٦٠ - ٥٦١)، (رقم: ١٨٨٩).

٢- أخرجه مسلم، في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنّه لا يدخل الجنة إلاّ المؤمنون وأنّ محبة المؤمنین

من الإيمان وأنّ إفاء السلام سبب لحصولها، (ص ٣٣)، (رقم: ٥٤)، رواه: أبو هريرة ؓ .

القائمة على المحبة فيما بين المهاجرين والأنصار، الأثر البالغ في جعل هذه العلاقات الفعل الناجح الذي أسهم في تقوية آصرة المجتمع، ما أشعر المهاجرين باللفة المكان وحرية الحركة فيه، وأنّ المحبة وإن كانت متوجهة من المهاجرين فإنّ عودها عليهم أمر محتوم بموجب العقيدة والارتباط الاجتماعيّ، وفي تسمية جماعة الأفراد الذين هاجروا بدينهم إلى المدينة ب ( المهاجرين ) إشعار لهم بفضل الله تعالى عليهم أن جعلهم من أصحاب هذه الآية: ﴿... فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

وأما إطلاق تسمية (الأنصار) على جماعة الأوس الذين ينتسبون إلى أوس بن حارثة، وجماعة الخزرج الذين ينتسبون إلى الخزرج بن حارثة<sup>(١)</sup> من بعد أن كانوا أشتاتاً متحاربين؛ فقد أورثهم الاتحاد والاجتماع والائتلاف تحت اسم واحد الذي هو رمز لاجتماعهم على فعل واحد، وهو نصره رسول الله - ﷺ - . وفي الدعوة إلى محبة الأنصار وجعلها آية من آيات الإيمان؛ اعتراف بفضلهم في نصرتهم لرسول الله - ﷺ - ، وسابق محبتهم للمهاجرين، فعن عبد الله بن عبد الله ابن جبر، قال: سَمِعْتُ أَنَسًا، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: " آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ وَآيَةُ التَّفَاقُ بُغْضُ الْأَنْصَارِ. " (١) وقد صرح القرآن الكريم بهذه المحبة في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ الحشر: ٩، وَعَنِ الْبَرَاءِ - ﷺ - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - أَوْ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: " الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ. " (٣) وفي ذلك إضمار التحذير من مغبة معاداتهم، وأن اجتماع القلوب على محبتهم مما يتحقق به أمن العداوة، وأمن العقوبة، ويعزز اللحمة في الإطار المكاني الواحد، ما يؤكد الوحدة الدينية التي تشتمل على الوحدة الوطنية.

١- ابن حجر العسقلاني ( ٨٥٢ هـ )، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تعليق: عبد الرحمن بن ناصر البراك، اعتنى به: أبو قتيبة نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، ط ١، ٢٠٠٥ ج ٨، ص ٤٨٣.

٢- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حبّ الأنصار، ( ص ١٩٨ )، ( رقم: ١٧ ) .

٣- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب حبّ الأنصار، ( ص ٩٥٦ )، ( رقم: ٣٧٨٣ ) .

ويتمظهر الحبّ كذلك في رغبته ﷺ في أن يكون واحداً منهم؛ استطابة لنفوسهم، وثناءً عليهم، وعرفاناً بفضلهم، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي -ﷺ- أو قال أبو القاسم -ﷺ-: "لو أنّ الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً؛ لسلكت في وادي الأنصار. ولولا الهجرة لكنتُ امرأ من الأنصار. فقال أبو هريرة: ما ظلمَ بأبي وأمي آووه ونصروه أو كلمة أخرى." (١) ومعلوم أنّ نسبة الإنسان تقع على وجوه منها: الولادة، والبلادية، والاعتقادية، والصناعية. (٢) والانتقال عن النسبة إلى الآباء ممتنع قطعاً، وليس هذا هو المراد من النصّ، فكانت المدينة داراً للأنصار، والهجرة امرأً واجباً، والنسبة إلى الهجرة نسبةً دينيةً، لا يسعه ﷺ ترك الانتساب إليها، وهو انتساب إلى دار الأنصار الذين نصروا الدين وآووا إخوانهم من المهاجرين، لكنّ نسبة الهجرة وقعت وهي أعلى وأشرف، ولا يمكن التبديل بغيرها.

وتمتاز قيمة الانتماء بالعلاقة التبادلية بينها وبين الحبّ القائم على أساس عقديّ، فترسخ قيمة الانتماء مقوم الحبّ، وتعلو به إلى قيم لها ديمومتها واستمراريتها؛ أعلاها الانتماء وآخرها الاتباع الذي يثبت الأول بالمقوم نفسه ويدكي عطاءه. ومن هذه القيمة - أي قيمة الحبّ - الموصولة بالعقيدة تتحقق قيم الولاء والبراء والانتماء، والتعاون والتعاقد في شبكة العلاقات الاجتماعية، كما ينحدر من هذا المقوم كلّ أشكال النصر والحمية والدفاع عن الوطن. أضف إلى ذلك أنّ حدث الهجرة أثر في عاطفة الحبّ التي ارتبطت بالعقيدة، فتحول الحبّ من حبّ الوطن لذاته، إلى حبّ الوطن للعقيدة المقامة فيه؛ وهذا ما جعل للوطن مفهوماً أوسع.

### ثالثاً: المؤاخاة بوصفها مقوماً داخلياً معززاً لحماية الأوطان

تعدّ المؤاخاة أهمّ قيمة إسلامية متمخّضة عن الحبّ العقدي، أسهمت في شدّ عماد الدولة التي تأسست على أرض المدينة، بله إنّها كانت الضماد القويّ لما استتبع من مفارقة الأهل والوطن، ولأنّ عماد هذه الدولة هو الإنسان، كان أمر توحيد الصفوف بين فئات هذا المجتمع

١- أخرجه البخاريّ، في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي -ﷺ-: "لولا الهجرة لكنتُ من الأنصار"، (ص ٩٥٥)، (رقم: ٣٧٧٩).

٢- ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٩، ص ٤٦٢.

مسألة ضرورية في صياغة أول مقومات الوحدة الوطنية، ليصبح الحدثُ أُمُودًا حضاريًا إسلاميًا في انصهار جميع الأعراق البشرية في بوتقة واحدة هي بوتقة الإسلام. وتعدّ المؤاخاة ظاهرة عقدية إسلامية فريدة لو درست من نواحٍ أنثروبولوجية<sup>(١)</sup> لأسهمت في الوقوف على أهم المقومات المؤثرة التي تتيح تأليف الشعوب تحت كلمة واحدة، ولها فاعلية في تحريك المجتمعات لإحداث الحراك الحضاري في أممهم، كما أنّها تُظهر كيف أنّ سلوك الصراط المستقيم يحوّل المجتمع إلى صفّ واحد تجمعهم عقيدة، وقيمًا، ورؤى واحدة، فكان الترجمان العمليّ لآصرة الأخوة في أول عمل صنعه النبي - ﷺ - قبيل الهجرة وبُعدها؛ فقبيل الهجرة آخى ﷺ بين المهاجرين في مكة؛<sup>(٢)</sup> وذلك لنفي الغربة والوحشة عنهم في أول أمر الدين. أما بُعيد الهجرة فقد آخى النبي - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار في المدينة على مبدأ المواسة والحقّ، فعن أنس - رضي الله عنه - قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتِ الْأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ وَيَا امْرَأَتَانِ فَاَنْظُرِي

١- علم الإناسة، أو الأنثروبولوجيا ( Anthropology ): من أصل يوناني ويطلق لفظ: "Anthropos" على الإنسان، ومن ثمّ فكلمة الأنثروبولوجيا: هي علم الإنسان، أو الدراسة العامة للإنسان، مجالها واسع، إذ تهتم بدراسة الإنسان من حيث هو كائن حضاريّ، من الناحيتين الفيزيائية والثقافية، سواء في ماضي الإنسان أو حاضره. علم الإنسان، والمصطلح الإنجليزي مشتق من: ( Anthropos ) الإغريقية بمعنى: الإنسان، و ( Logos ) بمعنى: علم، وهو علم مناطه الإنسان ككائن اجتماعي فيزيقي، وهو جزء من الوجود ومن الطبيعة، وقد أصبحت الأنثروبولوجيا اتجاهًا فكريًا يعتبر الإنسان أسمى وأعلى ما في الطبيعة. والأنثروبولوجية أي: علم الإناسة الاجتماعي -على وجه الخصوص-: هو علم دراسة الإنسان في بيئته الاجتماعية، وتتبع تطوره مع تطور المجتمعات التي ينتمي إليها، وتدرس اللغة التي يتفاهم بها، والأشكال الفكرية والأدبية والفنية التي يعبر بها عن نفسه. [ ينظر على الترتيب: عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٠م، ص ١١٥ ]، و [ ينظر: جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، ص ٥٦ ] .

٢- آخى النبي - ﷺ - بين أبي بكر وعمر بن الخطاب، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وعبد الله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال - رضي الله عنهم - .

أَعَجَبَهُمَا إِلَيْكَ؛ فَأُطْلِقُهَا حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجَتْهَا...<sup>(١)</sup> وكان منطلق الفعل، مبدأ أساس أسهم في دعم فاعلية المؤاخاة، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)، يعزّزه مبدأ آخر ويتضمنه وهو مبدأ المساواة الذي جاء في قوله ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالْتَّقْوَى."<sup>(٢)</sup> فمبدأ المساواة الذي ترسخه العقيدة محقق للعدالة الاجتماعية التي كان المجتمع الجاهليّ يفتقدها إذ كان قائماً على الحمية والعصبية والرتب، وإقرار مثل هذا المبدأ - أي المساواة - لا يمكن أن يتحقق إلا بفعل قويّ يحركه ويدفعه نحو التأثير الحضاريّ الممتدّ زماناً ومكاناً، وهو فعل المؤاخاة "فأخى ﷺ بين الأعلى والأدنى؛ ليرتفع الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى."<sup>(٣)</sup> وبالمؤاخاة حُلّت المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وتوحّدت الصفوف في تشييد صرح الإسلام في المدينة ومكة وما حولهما، وفي هذا الفعل إنكار للذات، واعتراف بأهمية الاجتماع والوحدة، حتى بلغت المؤاخاة أوج الإيثارة؛ إذ: "كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، يَرِثُ الْمُهَاجِرُ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحْمَةٍ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ - بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: (وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا) نَسَخَتْ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِينَ عَاقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ إِلَّا النَّصْرَ وَالرِّقَادَةَ وَالنَّصِيحَةَ وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ وَيُوصَى لَهُ."<sup>(٤)</sup> فارتقاء المؤاخاة إلى الإرث دالٌّ على فاعليتها، وفاعلية المبادئ المتأسسة عليها، حتى نُسخ الحكم مع بقاء النصرة والنصيحة وجواز الوصية، وهذا أبلغ ما يمكن أن تصل فيه شبكة العلاقات الاجتماعية من كثافة وتكاتف، وبلوغها طاقتها الحيوية في أتمّ تنظيماتها " هذا

- ١- أخرجه البخاريّ، في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب إحياء النبيّ ﷺ - بين المهاجرين والأنصار، (ص ٩٥٦)، (رقم: ٣٧٨١).
- ٢- أخرجه أحمد، في مسنده، مسند الأنصار ﷺ، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ - (ج ٣٨، ص ٤٧٤)، (رقم: ٢٣٤٨٩)، من حديث نضرة. قال الهيثميّ في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح. [ ينظر: الهيثميّ (٨٠٧ هـ)، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسيّ، مكتبة القدسيّ، القاهرة، ١٩٩٤م، ج ٣، ص ٢٦٦ ].
- ٣- ابن حجر العسقلانيّ (٨٥٢ هـ)، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح، ج ٨، ص ٧٣٤.
- ٤- أخرجه البخاريّ، في صحيحه، كتاب الكفالة، باب قول الله تعالى: ( وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيحَتَهُمْ )، (ص ٦٤٤)، (رقم: ٢٢٩٢)، رواه ابن عباس ﷺ.



هو العصر الذهبي بالنسبة لأيّ مجتمع، لا من أجل أنه يبلغ آتخذ أوج ازدهاره، وإنما لأنه يتمتع بميزتين: فقواه جميعاً في حركة، وهذه الحركة دائمة صاعدة.<sup>(١)</sup> وظلت السنة النبوية تدور في فلك القيمة نفسها، وتضمنها المعاني نفسها في أشكال أخرى معززة في قوله ﷺ: " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ."<sup>(٢)</sup> لتظهر اللام في (للمؤمن) اختصاص المؤمن بالمؤمن اختصاص استحقاق<sup>(٣)</sup>، والاستحقاق هنا استحقاق حقوق وواجبات يؤديها الطرف للآخر، من تآزر، ووحدة صفّ، ووحدة كلمة، وولاء، وتعاون، ودفاع وعلاقات تشد هذه الأصرة. وتكشف مبدأ مفاده: أنّ تقوية البنيان لا يكون إلاّ بأنّ يستمسك المؤمن بأخيه في الرخاء وفي الشدة، وأنّ الإيمان الذي يؤلف بين المؤمنين، فيجعل المؤمن صنو أخيه يكمل أحدهما الآخر ويشدّ بعضهما الآخر كالبنيان، أمرٌ يجعل من شبكة العلاقات الاجتماعية شبكة نامية ما يجعل بنيان المجتمع بنياناً متيناً متسقاً. ويظهر هذا المقوم بوصفه شكلاً من أشكال الحماية المعنوية التي تؤكّد مفهوماً حديثاً، وهو: "المواطنة الصالحة"<sup>(٤)</sup> الذي يرتقي بالفرد إلى تعزيز وطنيته تجاه وطنه، بإبراز القدرة على المشاركة الفاعلة في إطار الصلة الواحدة الموحّدة للمجتمع، وينهض هذا المقوم بالفرد

١- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط ٣، ١٩٨٦م، ص ٧٦ - ٧٧.

٢- أخرجه البخاريّ، في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، (ص ٢٩١)، (رقم: ٤٨١)، رواه أبو موسى الأشعريّ عن جدّه.

٣- يقول ابن يعيش (٦٤٣ هـ): "اعلم أنّ اللام من الحروف الحارّة لا تكون إلاّ كذلك، نحو قولك: المال لزيد، والغلام لعمر، وموضعها في الكلام الإضافة، ولها في الإضافة معنيان: الملك والاستحقاق، وإنما قلنا: الملك والاستحقاق؛ لأنها تدخل على ما لا يملك وما يملك... والمعنى بالاستحقاق اختصاصه بذلك... [ ينظر: ابن يعيش (٦٤٣ هـ)، موفق الدين يعيش بن عليّ، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بلا طبعة ولا تاريخ، ج ٨، ص ٢٥ ]."

٤- المواطنة: علاقة الفرد بالدولة حسب قانون تلك الدولة، وما تقتضي هذه العلاقة من حقوق وواجبات، وغالبا تعدّ الجنسية مرادفة للمواطنة من حيث تنظيم العلاقة فيما بين الفرد والدولة، إلاّ أنّها تضيف امتيازات أخرى للفرد كالحماية في الخارج، وتعدّ المواطنة تجسيدا للعلاقة بين الفرد والآخر في إطار من التسامح والاحترام. [ ينظر: بشير نافع وآخرون، المواطنة والديمقراطية في البلدان العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ص ٣٠ - ٣١، نقلا عن دائرة المعارف البريطانية ].

من رتبة المنفعة إلى رتبة الواجب.<sup>(١)</sup>

يعدّ مقومّ المؤاخاة والحبّ من المقومّات التي تؤكد حماية الوطن الحماية الداخلية المعززة للحمة الصفّ بين أفرادها، مع ما تكتنف هذه المقومّات من مبادئ عقدية تركز على الإنسان في ذاته وفي فعله؛ فتصلحه وتصلح بها جماعته، لينشأ المجتمع درعاً حامية للوطن من الداخل، فمتى ما كانت هذه المبادئ مترسخة بين أفراد المجتمع متداولة بينهم؛ تتشكّل منظومته القيمية التي يحيا الفرد في دائرتها بخصائص وسماتٍ مجتمعية ذات أسس ربانية متميّزة؛ لتولّد فعل الحماية الداخلية التي يُتوسّل بها في الحماية الخارجية بأرقى صورها القيمية. وبهذين المقومّين يظهر لنا أنّ حماية الوطن تتجلى من خطرين اثنين: الأول: الخطر المتحقق من الأفراد أنفسهم، وهو ما بيناه في المقومّين السابقين اللذين يعدّان الأساس في حماية الوطن من الخطر الثاني: وهو أعداؤه، فكلما كان المجتمع متوحّداً الصفوف، و متحد القيم والتصورات، كان دفعه نحو حماية وطنه أيسر وأقوى.

#### رابعا: فرض الجهاد والإعداد العسكريّ سبيل الحماية المباشرة للأوطان

أظهرت السنة النبوية الشريفة فيما يتعلّق بفضائل الأمكنة ما يدل على أنّ في أفضليتها حماية لها، وهو ما يمكن أن نقيس عليه مسألة حماية الأوطان في أمكنة أخرى لم ترد فيها فضيلة غير اعتبار أفضلية المكان بالنسبة إلى الإنسان كونه مستقرّاً له، ومكاناً يعيش فيه وينتمي إليه، وفضاء يُعبّد الله تعالى فيه، فهو محميّ بهذه الفضائل كما أسلفنا في مفهوم "الحمي". إلا أنّ الفضائل المرتبطة بالعقيدة المنعكسة من قول النبيّ - ﷺ -: "إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمَهُ اللَّهُ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا."<sup>(٢)</sup> تتعدى هذه الفضيلة إلى مكانتها العقدية والتعبدية في نفوس المسلمين الأمر الذي يسلم إلى أنّ مسألة حمايتها وصيانتها من العبث والتدمير والاقتيال فيها مطلب شرعيّ عالميّ وهذا الحديث، وإنّ دلّ على أفضلية مكة على سائر البقاع، فإنه دالّ على أنّ فضل مكة كونها وطناً آخر للمسلمين، ومستقبل قبلتهم، ومهوى أفئدتهم، وأنّ

١- طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط ٤، ٢٠١٦م، ص ٢١٣ - ٢١٤.

٢- أخرجه البخاريّ، في صحيحه، كتاب الحجّ، باب فضل الحرم، (ص ٥٠٤)، (رقم: ١٥٨٧)، رواه: ابن عباس رضي الله عنهما.

حمائته مستوجبة عليهم، ومنه يقاس على أنّ لأوطانهم حقّ الحماية بقيامها على الدين الإسلامي؛ إذ كلّ وطن دينه الإسلام مستوجب للحماية عقيدة وفطرة من قبل، كما أنّ الأوطان التي تكفل لهم حرية ممارسة العبادة والعقيدة، يمكن أن يُشارك في الدفاع عنها، فيكون عندئذ وطنًا مستوجبًا الحماية والدفاع عن أرضه، فتكون الحماية، وفق ما سبق، لثلاثة أنواع من الأوطان: وطن تعدّد حمايته مطلبًا عقديًا شرعيًا بأفضليته الدينية، ووطن تعدّد حمايته مطلبًا عقديًا شرعيًا بموجب إقامته للدين، ووطن تعدّد حمايته مطلبًا إنسانيًا أخلاقيًا بموجب إيوائه للمسلمين ومنحهم الحرية في ممارسة دينهم، وتتأتى هذه الحماية التي تعدّد في الأساس الحماية المباشرة والقوة الكبرى في صدّ أيّ عدوان، من أمرين:

أولها: فرض الجهاد وقتال المعتدين حماية خارجية مباشرة للوطن: يتمظهر عنه أشكال:

منها: فرض القتال ضدّ كلّ أشكال الاعتداء، فقد كان أول تمكين القتال بعد الهجرة النبوية، الأمر الذي يدلنا على أنّ سياق الهجرة كان السياق الذي استتبعه قيام الدولة الإسلامية والبدء بالتكوين العسكريّ الحامي للدين ولالأرض وللمسلمين، فكانت أول آية نزلت في القتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩)، ثمّ نزل الإذن الصريح بالقتال في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠)،<sup>(١)</sup> وكان قتال الذين يقاتلونهم دفاعًا وحمايةً وتكوينًا دفاعيًا في المستقبل؛ لكيلا يغرر بهم على حين غفلة، وأن يكون مقتصر القتال على سبيل الله وبغية مرضاته؛ حمايةً للوطن من أسباب أخرى مستدعية للقتال، وهو ما أكده سؤال الرجل للنبي ﷺ فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً،... فَقَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ."<sup>(٢)</sup> فأنّ بيتعد القتال عن الغضب والحمية هي الحماية التي يقررها الشرع للوطن وللأوطان الأخرى، حماية للنفس من اتباع الهوى الموقع في التهلكة، وحماية للأوطان من أيّ اعتداء أو قتال بغير وجه حقّ، وهو ما عناه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، حين قيل له: "يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَدِّثْنَا عَنِ

١- ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح، ج ٩، ص ٧.  
٢- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالما جالسًا، (ص ٢٢٢)، (رقم: ١٢٣) رواه: أبو موسى الأشعريّ ﷺ.

الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ( وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ) فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ تَكَلُّكَ أُمَّكَ؟ إِنَّمَا كَانَ مُحَمَّدٌ - ﷺ - يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ الدُّخُولُ فِي دِينِهِمْ فِتْنَةً، وَلَيْسَ كَقِتَالِكُمْ عَلَى الْمَلِكِ. <sup>(١)</sup> فإِذَا أَمَرَ بِالْقِتَالِ لِأَجْلِ الْوَقَايَةِ مِنْ فِتْنَةِ الْكُفْرِ، مِنْعًا مِنْ أَنْ يُفْعَلَ بِهِمْ مَا فُعِلَ بِأَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلِ، فَكَانَ الْقِتَالُ حِمَايَةً لَهُمْ وَلِدِينِهِمْ مِنْ أَنْ يُفْتَنُوا، وَلَيْسَ الْقِتَالُ تَغَالِبًا مِنْ أَجْلِ الْمَلِكِ فَإِنَّ فِيهِ اعْتِدَاءً وَبِعْيًا.

وإنَّ الحِمَايَةَ مَا كَانَتْ لِتَكُونَ لَوْلَا الْإِعْدَادُ الْفِعْلِيُّ إِعْدَادًا فَرْدِيًّا وَجَمَاعِيًّا، فَأَمَّا الْإِعْدَادُ الْفَرْدِيُّ فَفِيهِ شَكْلَانِ: الشَّكْلُ الْأَوَّلُ، الْإِعْدَادُ الْمَعْنَوِيُّ: وَقَدْ تَرَجَّمَهُ قَوْلُهُ ﷺ: " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، أَحْرَصُ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَأَسْتَعِينُ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجِزُ... " <sup>(٢)</sup> فَالْحِمَايَةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُسْتَجْلَى لَوْلَا الْقُوَّةُ الَّتِي تَعَدُّهَا الْعَقِيدَةُ فِي نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ وَفِي أَبْدَانِهِمْ، وَأَنَّ الضَّعْفَ وَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَإِنَّهُ أَقْلُ رَتَبَةً؛ لِذَلِكَ كَانَ الْحِرْصُ عَلَى مَا يَنْفَعُ سَبِيلَ هَذِهِ الْقُوَّةِ، وَأَنَّ الْإِسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ مِمَّا يَقْوِي النَّفْسَ عَلَى اسْتِكْمَالِ قُوَّتِهَا الْبَدَنِيَّةِ بِالْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ، وَأَنَّ تَرْكَ الْعِزْزِ مِمَّا يَعِينُ النَّفْسَ عَلَى اسْتِكْمَالِ فِضَائِلِ الْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ بِالْقُوَّةِ الْبَدَنِيَّةِ الَّتِي تَمْنَحُهَا الثِّقَةُ فِي الْقُوَّةِ الَّتِي تَكْتَنِفُهَا.

وَأَمَّا الشَّكْلُ الثَّانِي فَهُوَ الْإِعْدَادُ الْبَدَنِيُّ: فِي كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْوِيَ الْبَدَنَ وَيَجْعَلَ لَهُ الْقُدْرَةَ عَلَى وَقَايَةِ نَفْسِهِ وَجَمَاعَتِهِ مِنْ أَيِّ اعْتِدَاءٍ، وَقَدْ فَسَّرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْقُوَّةَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُعَدَّ هِيَ "الرَّمِي" بِقَوْلِهِ: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ. " <sup>(٣)</sup> وَالْقُوَّةُ الَّتِي هِيَ "كَمَالُ صِلَاحِيَّةِ الْأَعْضَاءِ لِعَمَلِهَا" لَا تَكْتَمِلُ إِلَّا إِنْ كَانَ لَهَا فِعْلُهَا فِي شِدَّةٍ وَقَعَهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَفِي اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ بِمَا يَحْقُقُ نَفْعِيَّتَهَا فِي تَحْرِيكِ آلَاتِ الدِّفَاعِ وَالْقِتَالِ كَالرَّمِي لَا يَرَادُ لَهُ الْحِصْرُ فِي الرَّمِي؛ إِذْ إِنْ لَكُلِّ عَصْرٍ قُوَّةٌ تَنْتَاسِبُ مَعَهُ، <sup>(٤)</sup> وَيُمْكِنُ أَنْ

١- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: "الفتنة من قبل المشرق"، (١٦٤٠)، (رقم: ٧٠٩٥)، رواه: سعيد بن جبير ﷺ.

٢- أخرجه مسلم، في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، (ص ٦٦٣)، (رقم: ٢٦٦٤)، رواه: أبو هريرة ﷺ.

٣- أخرجه مسلم، في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، (ص ٤٩٣)، (رقم: ١٩١٧)، عن عقبه بن عامر ﷺ.

٤- الطاهر بن عاشور (١٩٧٣ م)، تفسير التحرير والتنوير، ج ١٠، ص ٥٥.

يقاس الرمي على سائر الآلات التي تشابه في طبيعتها الأولية ويمكن للمرء المران عليها كراجمات الصواريخ، والمدافع، والدبابات وغيرها من آلات الحرب.

وأما الإعداد الجماعي الذي لا بد للمجتمع أن يُستَنفَر له فهو الإعداد العسكري الذي جاء في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا حُدُودًا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا نُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ (النساء: ٧١)، فكان التحذير من ترصص العدو، هذا التحذير مهيب للأمر بالنفير جميعاً؛ إذ في مرأى الكثرة غلبة معنوية قبل الغلبة العسكرية، وإن كان الأمر بالنفير للجماعة من أوكد الطرق للحماية وتحقيق الإرهاب للعدو المستدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ءَعَدُوا لِلَّهِ وَعَدُّوْكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠)، فقبل أن يكون الإعداد سبباً من أسباب حماية الأوطان والديار من الأعداء، فإنه سبب إلى توحيد كلمة المسلمين وتوحيد الصفوف نحو غاية واحدة هي الحماية، فإن في الاجتماع على كلمة واحدة قوة ومُرْهَبَةٌ وَمَفْرَعَةٌ للأعداء، وبها يكون المسلمون في أمن الكلمة الواحدة، فلا يجرؤ عليهم عدوهم في إحداث ثلثة في صُفُوفِهِمْ، وإن في رهبة عدوهم تجنباً لإعانة عدوهم عليهم، فتكون الحماية بذلك حمايتين: حماية من جانب العدو بإرهابه فلا يحصل منه اعتداء أو بغي، وحماية من مكر العدو باستشارة عدو آخر.

ويأتزر الإعداد بالإنفاق؛ في كون أن الأول لا يمكن أن يتحقق إلا بالثاني الذي هو سببه المتصل به، فكان عطف الإنفاق على الإعداد في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠، ومجيئه - أي الإنفاق - بصيغة المضارع تقرير بعضوية السبب الذي لا يمكن أن يحوج إلى الأمر به، على خلاف ما ورد في مواضع أخرى بصيغة الأمر التي في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى النَّهْكَةِ ...﴾ البقرة: ١٩٥، إذ دلّ الأمر بالإنفاق والنهي عما يمكن أن يلحق الضرر بالتفريط من اتخاذ وسائل الحذر من العدو بالغ التحذير، والتوبيخ من مغبة التفريط في الأمر، وهو ما دل عليه فعل الإلقاء باليد في قوله تعالى ﴿تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ﴾ فقد دلّ على أن قصور الإعداد هو من ذات أيديكم التي منحت العدو مراده، وجُعِلَت اليد معبرة عن ذات الإنسان نفسه؛ ولهذا جاءت السنة النبوية مستحثة لكل من يسهم في التجهيز والإعداد بقوله ﷺ: "مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ

غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا"<sup>(١)</sup>؛ فانقسام الأجر بين الغازي والمجهز توحيد معنوي للصف، يؤكد قوله ﷺ: " من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله"<sup>(٢)</sup>، باعتباره مبدأ عامًا يؤسس لبنية المجتمع الذهبية لأن يكون مقصدها في سائر أعمالها الخير؛ فالدلالة عليه مثوبته كمثوبة فاعله بشكل عام، وعلى الخصوص تجهيز الغازي وخلفته في أهله، ولا ينحصر الإعداد على إنفاق المال.

ومن أشكال الحماية الخارجية للوطن: هو النهي عن الاعتداء المؤدي إلى الظلم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَإِيحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠)، وهو - في الأساس - حماية أخرى من أشكال الاعتداء التي لا يمكن أن تُتصوّر فعالها من قبل الأعداء، وأشكال الاعتداء هي التي نهى عنها النبي - ﷺ - في استيصائه أمراء الجيوش، إذ " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ: بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَ لَا تَعْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ، فَأَيْتُهُنَّ مَا أَحَابُوكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَحَابُوكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ..."<sup>(٣)</sup> والأمر بتقوى الله تعالى معين على ترك المنهي عنه في الحديث، وتفصيل النهي الوارد باستثناء النساء والأطفال وغيرهم من العجزة والرهبان، دالٌّ على عدل الإسلام ورحمته في قتال من قاتلهم، وأن هذه الفئات الضعيفة مراعاة من قبل الإسلام بحمايتهم. وحماية هذه الفئات تعكس الصورة الحسنة للدين الذي يحفظ كرامة الإنسان. كما أنّ النهي عن الغلول يحفظ النفس من طمعها وتعديها للجماعة التي تشترك معهم في صف واحد، وحبسها تحت مظلتها والائتمار بأمرها. والنهي عن الغدر سبيل حماية لهم من مكر عدوهم وبغيه؛ إذ الغدر يستشيط العدو عليهم

١- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير، (ص ٧٦٥)، ( رقم: ٢٨٤٣)، عن زيد بن خالد ﷺ.  
٢- أخرجه الترمذي، في سننه، كتاب الجهاد والسير، باب ما جاء الدال على الخير كفاعله، ( ص ٤٠٤ - ٤٠٥ )، ( رقم: ٢٦٧١)، عن أبي مسعود البدري ﷺ. قال عنه الترمذي: " هذا حديث حسن صحيح."

٣- أخرجه مسلم، في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها، (ص ٤٤٥ - ٤٤٦ )، ( رقم: ١٧٣١ ) رواه: سليمان بن بريدة عن أبيه ﷺ.

ويقوي فيه حمية الثأر، فالوفاء بالعهود يكفّ كيد العدو. وأما النهي عن التمثيل فهو حافظ للنفس من استفراغ غضبها وبطشه. كلّ هذه الأسباب معينة على استتباب سبل الحماية التي يمكن أن تنقضها اشتعال شرارة الفتنة باحتراق واحد منها.

### المبحث الثالث: فاعلية المقومات في تعزيز حماية الأوطان

يتجلى بمسألة حماية الأوطان مقاصد الشريعة<sup>(١)</sup> في حفظ النظام، وضبط تصرف الإنسان في مكانه بما يكفل درء المفاسد والهلاك، ودروها لا يكون إلا بتحصيل المصلحة المتمثلة في الحماية المعينة على حفظ الضرورات الخمس، وحفظ مصالح الناس التي لا يمكن لها أن تتحقق إلا في ظلّ الحماية بتعالقاتها الشرطية بها؛ ما يجتّم على العقول إدراك أهميتها، والسعي إلى تحصيلها وترك ما يضادها.<sup>(٢)</sup>

وتظهر هذه المسألة بوصفها فعلاً مقصوداً على الرغم من كونه فعلاً طبيعياً يصدر عن انتماء الإنسان إلى مكانه، إلا أنه لا بدّ من أن يكون فعلاً منظماً متوجّهاً من سلطة عليا تحكم الأفراد وتنظّم شؤونهم نحو ولاة الأمر، الذين يستعينون برعيتهم في تحقيق هذه المسألة وهي مسألة الحماية؛ لذا جاء حدث الهجرة كاشفاً عن المقومات التي تكفل للوطن الحماية، وتعزّز وجود الفرد فيه آمناً مطمئناً، وما كان لهذه المقومات الظهور والتأثير لولا ارتباطاتها العقديّة التي جعلت لها حضوراً مستمرّاً بفاعلية التأثير الحضاري؛ إذ لا يمكن للمجتمع أن يتحرّك في إنتاج قيمه ومقوماته التي تثبت أركانه وتنظّم حياته، لولا العقيدة الربانية التي تمنح هذه المقومات الرسوخ والاستقلالية والحياة والإبداعية والإنتاجية، ومن ثمّ الديمومة وفق سياقات وأزمنة شتى، وتفسر هذه السمات سبب فاعلية هذه المقومات وقدرتها على الحضور تاريخياً وحضارياً في الأمة، كما تفسّر الحاجة إليها، والدعوة إلى التمسك بها، وتلاؤمها مع كافة السياقات والأمكنة، وقدرتها على العطاء مع كافة المتغيرات الحاصلة، ومن سماتها:

١- مقاصد الشريعة: هي الأعمال والتصرفات المقصودة لذاتها، والتي تسعى النفوس إلى تحصيلها بمساع شتى، أو تحمل على السعي إليها امثالاً. [ الطاهر ابن عاشور (١٩٧٣ م)، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ومراجعة: الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ط١، ٢٠٠٤م، ج٣، ص ٤٠٢ ].

٢- الطاهر ابن عاشور (١٩٧٣ م)، مقاصد الشريعة الإسلامية، ج٣، ص ١٦٥ - ١٦٦.

- الثبات الراسخ<sup>(١)</sup> رسوخًا يجعل الروح الإسلامية هوية مميزة لها، مدعمة بالنصين القرآن الكريم والحديث النبوي، فتعمل هذه المقومات المنبثقة عن العقيدة على ترسيخ فعلها بأمر ثلاثة: بنص ترتبط به وتخلد فيه، وسياق يحركها ويعمل على تحقيق فاعليتها في سياقات أخرى تتقدم بالمقوم زمنيًا ومكانيًا، وعمل بالقيمة المتخللة للمقوم لتمييزها وإظهارها، وهو ما نجده في السنة النبوية من ترسيخ عمليّ وتمثيل لها على أرض الواقع، لتشهد الأمم المتتالية على ظهور هذه المقومات وبروزها، وهو ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ التوبة: ٣٣، فظهور الدين بظهور مقوماته التي تظهر راسخة بفعل ما تحويه من قيم عقدية ثابتة.

-وثاني هذه السمات الاستقلالية الموسومة بالاختصاص، الخصوصية المتأتية من مصدره، فتزاح إلى زمانه، وقدره، وشكله، وماهيته، فتحقق هذه الخصوصية في المقوم إمكانات التواصل معه من خارج منظومته المكوّنة له، لتجعله متفاعلا مع كلّ العناصر المتداخلة معه والمنفتحة على تحقيق مرام ذات قصدية رسالية ربانية، واختصاص المقوم بالاستقلال لا يجعله منعزلاً أو مقصي عن فعله، بل إنّها تزيد ثراء في أثره المتعدي إلى غيره، و تجعل له فعلاً امتدادياً لغيره من العناصر المتصلة به والمتحققة من خلاله؛ ما يثري خصوصيته ويعدّدها، فيكون مقومًا كونيًا صالحًا للتطبيق في كلّ الأنساق الخارجة عنه، فضلاً عن أنساقه الداخلية المتشكلة منه<sup>(٢)</sup>. وتظهر استقلالية هذه المقومات في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وهذا ما يمكن تلمّسه في عود الضمير على الله - ﷻ - في لفظة (صِرَاطِي) ووسم الإسلام بالصرراط من جهة، والاستقامة من جهة أخرى، الأمر الذي يدل على أنّ الأسس التي تكتنف هذا الدين هي أسس مغايرة عن أسس السبل الأخرى؛ لذا قال في تنمة الآية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ الأنعام: ١٥٣.

-وثالث هذه السمات الحياة؛ وهي السمة التي تضمن للمقوم حفظ السمات السالفة ثباتاً ورسوخاً واستقلالية تسمها بميسم الاختصاص؛ حتى يكون عنصراً له حيويته التي تملك القدرة

١- ينظر المبادئ الفلسفية للنظرية التربوية الإسلامية: طه عبد الرحمن، من الإنسان الأبر إلى الإنسان

الكوثر، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط٢، ٢٠١٦م، ص ٢٩ - ٣٠.

٢- طه عبد الرحمن، من الإنسان الأبر إلى الإنسان الكوثر، ص ٣٠ - ٣١.



على القلب مع مختلف السياقات الفاعل فيها، بما يحفظ سماته الجوهرية لمضمونه، مع اختلاف الصور التي يتخذها، كما تجعل هذه السمة المقوم محتفظا بكامل فاعليته وقدرته الإنتاجية العالية بما يتناسب ومتطلبات العصر المستجدة، والتصدّي لكل الإشكالات الواقعة والتحديات فيُسهم المقوم فيها إسهاماً حيويّاً تجعل منه - سمة الحياة - الأنموذج الحاضر بقوة في غياب المقومات الهشة الأخرى،<sup>(١)</sup> وهو ما أكّده الله - ﷻ - في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ (الأنفال: ٢٤)؛ فسمة الحياة في المقومات تمنح الفعل المترتب على تطبيقها الحياة أيضاً التي هي: "القوة التي بها يكون الإدراك والتحرّك بالاختيار، والإحياء - هنا - مستعار لما يشبه إحياء الميت، وهو إعطاء الإنسان ما به كمال الإنسان."<sup>(٢)</sup> فالحياة حفظ لحركة هذه المقومات في واقع الإنسان، وإثبات صلاحيتها في مواكبة المستجدات.

-أما آخر هذه السمات فمائل في الإبداع الذي يكشف عن سرّ الحياة في هذه المقومات العقدية، فيجعلها منتجة للمضمون القيمي والآلة التي بها نتج هذا المضمون، وتتوسّع بهذه الصفة إمكانات الاجتهاد والتجديد، وتظهر بها طاقة المقومات العقدية الإسلامية على الإنتاج،<sup>(٣)</sup> هذه السمة تضمن بقاء المقومات وقدرتها على التجدد مع كافة السياقات والأزمنة؛ لذا اتسمت بالتمام والتعدّر على التبدّل، لما تحمله من سمة الكمال وسمة التمام، وهو ما عبر الله تعالى عنه في قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ (الصف: ٨)، وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، والتمام في الآية الأولى والكمال في الآية الثانية، دالانّ دلالة قطعية على خلود هذه المقومات الخلود المفضي إلى استمراريتها الإنتاجية في كلّ الأزمنة التي يمكن أن تمرّ بها، وأنّ هذه المقومات تمتلك من التجديد ما يكفل لها البقاء بصفة التمام، والعطاء بصفة الكمال.

وتُظهر هذه السمات قدرتها على تحقيق فعلها في الذات الإنسانية التي تنتمي إلى العقيدة الإسلامية، وديمومة حضورها في الواقع وحاجته إليها باستمرار رغم تغيّر السياقات وتقادم الأزمنة

١- طه عبد الرحمن، من الإنسان الأبر إلى الإنسان الكوثر، ص ٣٢.

٢- الطاهر ابن عاشور (١٩٧٣ م)، تفسير التحرير والتنوير، ج٩، ص ٣١٢ - ٣١٣.

٣- طه عبد الرحمن، من الإنسان الأبر إلى الإنسان الكوثر، ص ٣٣.

واختلاف الأمكنة، وتُظهر البناء الحضاريّ الذي تشيّدته حال حضورها البيّن في الذات الممثلة بالبنية الذهنية المنفصلة فهما والفاعلة بها تطبيقاً، وأنّ هذا الحضور يستوجب التعبير عنها، وإن تعددت الأفهام، واختلفت مشارب الذوات الفاعلة في المجتمع الإسلاميّ.

نُخلص إلى أنّ مسألة حماية الوطن من المسائل الداخلة في حضور الصرح الإسلامي على أرضية التاريخ، باعتبار أنّ الحماية هي المقوي الأول للحضارة الإسلامية ووسيلتها في التمكين، بتأمل الأحداث التي أخذت صورها منها وتشكلاتها التي أظهرت قوتها في استجلاء قيمة هذا التشكيل الحضاريّ للأمة، كما أظهرت هذه المقومات أنّ الحماية تستهدف الفكرة الإسلامية العقدية التي تعدّ هي أصل الاطراد الحضاري الإسلامي وسرّ بقاء هذه الحضارة، وأنّ ذات الفرد هي الجوهر الملموس في تفعيل هذه الفكرة والمستهدفة في وقوع فعل الحماية عليه،<sup>(١)</sup> فتُظهر هذه الأحداث التاريخية الإسلامية أنّ الحماية ليست موكولة إلى القوة العسكرية فحسب، بل إنّ منطلقها وارتكازها على الحماية الداخلية التي تبدأ من الفرد الذي هو أساس الدولة، والعنصر الفاعل في تحقيق القوة والمنعة، وأنّ الحماية ليست الحماية من أشكال العنف والإرهاب، بل يمكن أنّ تكون الحماية مما يمكن أنّ يستلب فكره، وصراطه القويم، وعلاقاته الطبيعية ببيئته الاجتماعية، التي يمكن أنّ تؤدي - إن تفاقم ضدها - إلى تهديد أمنه وإيمانه.

### ختاماً

أظهر حدث الهجرة أنّ مسألة حماية الأوطان لا بدّ أنّ تبدأ عبر المقومات الداخلية، وتنتهي إلى الفعل الخارجي المباشر. وإذا نظرنا إلى الجهاد بوصف فعلاً مباشراً تتكئ عليه هذه المسألة، فإنّ هذا الفعل لا يمكن أنّ تظهر فاعليته دون الوحدة والتكاتف والتآلف، وحفظ الحقوق فيما بين الأفراد، وتأديتهم للواجبات التي أظهرها سياق الهجرة في المؤاخاة، وتقوية شبكة العلاقات الاجتماعية بالحبّ فيما بين المسلمين، وتفعيل دور المسجد الذي يظهر في تعزيز وحدة الصفّ وطاعة ولاة الأمر والرجوع إليهم، فيقوى فعل الحماية المستجلى بواسطتها، كما يتمظهر عن المقومات الداخلية حقّ الفرد في الممارسة الطبيعية تجاه وطنه بحمايته، ويصرف الوهم عند البعض

١- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، عمر كامل مستقوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ١، ١٩٨٦م، ص ٦٦.

من أنّ فعل الحماية ينبغي أن يُتوسل بالحكومات والقيادات فقط. وهذا كله لابدّ فيه من الإدراك الواعي لأمر التأسيس الذي حصل في المدينة، والذي يعدّ النموذج في تكوين دولة لها أثرها الحضاري في العالم أجمع، ومتى ما انصرفت مسألة حماية الوطن إلى المقوّمات العقدية بما فيها من حقوق وواجبات؛ نضمن بذلك مجتمعاً يتدرّع بقوة هذه الأسس الفاعلة فيه، وقوة الأفكار التي تكوّن المناعة ضدّ أيّ فكر مشتت لجهود الحماية.

### النتائج المستخلصة:

نصل في نهاية الأمر إلى أمور مهمة، هي:

- إنّ الهجرة فعل حضاريّ يمكن لمؤسساتنا الاجتماعية والأمنية الاستفادة منه في تقوية شبكة العلاقات الاجتماعية فيما بين الأفراد على اختلاف جنسياتهم وأعرافهم، الأمر الذي يسهم في توسيع مفهوم حبّ الأوطان، وتعزيز قيم الحماية فيهم.
- إنّ المطّلع على الأحداث الكبرى التي تلت حدث الهجرة يدرك جيداً قيمة التكوين الواعي للفرد في الدولة التي تأسست في المدينة من بعد الهجرة، ويجد أثر الهجرة نفسها فيه، في حضور الداعي العقديّ قبل كلّ عمل متوسلاً بـ: " سبيل الله " الذي يرسّخه هذا الدين في كلّ فعل، كما يدرك جيداً أنّ للهجرة امتداداتها المعنوية في نفوس المسلمين، بوصف القوة الإيمانية المترسخة فيهم، وهذا ما نجد آثاره متجليّة في ظهور الدين بالهجرة ومن بعدها من مثل: النصر الذي تحقّق في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة، كما يمكن أن نستشرف بحدث الهجرة ما يمكن الدول الإسلامية من الاستفادة من المقوّمات المذكورة سالفاً في تعزيز حماية أوطانها عبرها، وتأكيد أنّ الهجرة - وإن انتهت من قبل - فإنّ مقوّماتها قائمة فاعلة.
- إنّ حماية الأوطان مسألة طبيعية بضمائها تتحقّق مصالح الإنسان، وتهض بحقوقه الدينية خاصة والدينية على أرضه والمتعلّقة بمقاصد الشريعة القاضية بحفظ الضرورات الخمس، المسألة التي يمكن أن يضطلع بها المقيمون على أرض تلك الدول التي توطنوها من بعد أوطانهم على اختلاف جنسياتهم وانتماءاتهم.

- وأنه وإن كان المسجد هو المنبر القائم بدور تأسيس الوعي بأهمية دور الفرد في حماية مجتمعه الحماية العقديّة والفكرية والأمنية؛ فإنّه لا بدّ من تفعيل دوره الحالي في التصديّ للأفكار المنحرفة والمتطرّفة والملحدة، وكافة ما يمكن أن يشكّل الخطر في زعزعة أمن الأوطان، والتأليب ضدّ استقرارها، وتفعيل دور القنوات الأخرى التي يمكن أن تكون نافذة لأفكار هادمة مثل مواقع التواصل الاجتماعية التي باتت المنبر المؤثر في المجتمعات.
- إنّ تأدية الحقوق والواجبات تجاه الأوطان يمكن أن تصبّ في مصلحة الوطن التي تستجلب الأمن والحماية بتحقيق المسؤولية المجتمعية التي تنهض بهذه الحقوق والواجبات، ما يترتب عليها حماية مضاعفة من قبل الفرد لا الحكومة وحدها.
- إنّ دور الفرد الفاعل في عمارة أرضه ووطنه، رسالة تُضمّر أنّ فعل الحماية مستمرّ بفعل التعالق السببيّ بالعمارة الذي يوسّع من صورة الحمى ويمنحه كيانه، إضافة إلى أنّ دراسة هذا الدور من ناحية سوسيولوجية مشفوعة بالارتباطات العقدية، يمكن أن يفضي إلى تكوين صورة مهمة عما يمكن أن تسهم فيه المؤسسات في الدولة من تفعيل أدوار الفرد.
- إنّ الكفالة في الإسلام صورة من صور الحماية التي استثمرت في واقعنا المعاصر، بتكفّل دول حماية دول أخرى لأسباب أمنية وسياسية واقتصادية، وهو ما نلمسه في اتحاد الدول العربية في التصدي للحرب الواقعة على أرض اليمن الشقيق.
- أظهرت المؤاخاة مفهوم المواطنة الصالحة في صورتها الواقعية اليوم، المظهرة للجانب النفعيّ في علاقة الفرد بدولته، بل إنّها عززت مفهوم المواطنة القائم على تحقيق النفع للوطن في مقابل الانتفاع، الوظيفة النفعية التي تجعل الفرد الحامي الأول لوطنه بعد الله تعالى.
- يُظهر موضوع الندوة الحالي التعالق السببي بين موضوعات الندوة الثامنة والندوة التاسعة، كون السلم نتيجة منبثقة عن حماية الأوطان، وأنّ الحماية سببه وسبيله، الأمر الذي يمكن أن يعكس دور الندوة في تحقيق المشاركة المجتمعية فيما يتعلق بموضوعات الأمن الوطنيّ، وما يمكن أن يرفد المجتمع بأفكار من شأنها أن تُسهم بفاعلية في توضيح السبل الكفيلة بالنهوض الأمنيّ المتكاتف نحو حماية الأوطان.

- وآخر هذه النتائج، توصل البحث إلى أنّ "أمن الكلمة" الكلمة الواحدة التي منبعها الفكر الصحيح المرتكز على الصراط المستقيم من شأنه أن يجمع المجتمع في صفّ واحد، وتحت إمرة ولاة الأمر، الأمر الذي يدعو إلى تعزيز ما يعمّق فاعلية توحيد الكلمة الموحدة لصفّ المسلمين، وإشراك الفرد في تحقيقها.

### التوصيات:

- ينبغي إعادة قراءة النموذج الإسلاميّ الممثل بالدولة الإسلامية المتأسسة في المدينة المنورة، من لحظة الهجرة وحتى وفاة النبي - ﷺ - واستخلاص سبل الحماية التي فعّلتها السنة النبوية في تطبيقها للقيم العقديّة المتأصلة بالقرآن الكريم، ووضع سبل الحماية التي يمكن أن تكفل للأوطان أمنها من الشر الأخطر من العنف العسكريّ وهو العنف الفكريّ، وأفكار العنف المؤدية إلى الإرهاب.

- حماية الوطن واجب على كلّ فرد مواطن ومقيم، بموجب الحقّ العقديّ والأخلاقيّ والإنسانيّ تجاه هذه الأوطان، وإشراك الأفراد في تفعيل أدوارهم في الحماية بشكل فاعل في المجتمع تجاه الوطن؛ لذا لا بدّ من تفعيل أدوار المقيمين فيما يتعلّق بالحماية الداخلية والخارجية المباشرة للأوطان؛ إشعاراً لهم بأنهم جزء لا يتجزأ من هذه المجتمعات.

- توعية الأفراد بأهمية الاضطلاع بدور الحماية الفكرية التي توحد الصفّ عبر مواقع التواصل الاجتماعيّة التي ظهر دور الفرد من خلالها في توحيد الجهود ضدّ دولهم، وأهمية القيام بدور الحصانة ضدّ ما يمكن أن يزعزع الأمن في الأوطان.

- أن يكون موضوع الندوة القادمة يعالج مسألة "الأمن الفكريّ في السنة النبوية" وأهميته وصور تحقّقه في السنة النبوية، وأثره في تكوين درع الحماية للأوطان من العبثية والفوضى والعنف والإرهاب.

## ثبت المصادر والمراجع:

- أحمد بن حنبل ( ٢٤١ هـ )، المسند، شرحه وصنع فهارسه: حمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م
- أحمد عثمان رحمانى، الجديد في مناهج تفسير الحديث الشريف وتطبيقاته، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط١، ٢٠١١م
- ابن الأثير الجزريّ ( ٥٥٥ هـ )، المبارك بن محمد بن عبد الكريم، الشافى في شرح مسند الشافعيّ، تحقيق: أحمد بن سليمان، أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ٢٠٠٥م
- الأزهريّ ( ٣٧٠ هـ )، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، مراجعة: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بلا طبعة، ١٩٦٧م
- ابن تيمية ( ٧٢٨ هـ )، تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحزاني، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، محمد عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، دون طبعة، ٢٠٠٤م
- ابن الجوزيّ ( ٥٩٧ هـ ) أبو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر، المدهش، ضبطه وحرره: مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م
- ابن حجر العسقلاني ( ٨٥٢ هـ )، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تعليق: عبد الرحمن بن ناصر البراك، اعتنى به: أبو قتيبة نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، ط١، ٢٠٠٥م
- ابن خلدون ( ٨٠٨ هـ )، مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول من تاريخه الموسوم ب: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبطه وراجعته: خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠١م
- ابن سعد ( ٢٣٠ هـ )، محمد بن سعد بن منيع الزهريّ، الطبقات الكبير، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م
- ابن عبد البرّ ( ٤٦٣ هـ )، يوسف النمريّ، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٦٦م

## الهجرة في السنة النبوية الحدث الأبرز ...

- ابن القيم الجوزية ( ٧٥١ هـ )، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعبيّ الدمشقيّ، زاد المعاد في هدي خير العباد، حققه وخرّج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٨م
- ابن كثير ( ٧٧٤ هـ )، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشيّ الدمشقيّ، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي ابن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م
- ابن ماجة ( ٢٧٣ هـ )، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ٢٠١٥م
- ابن منظور ( ٧١١ هـ )، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بلا طبعة ولا تاريخ
- ابن يعيش ( ٦٤٣ هـ )، موفق الدين ابن عليّ، شرح المفصّل، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بلا طبعة ولا تاريخ
- أبو داود ( ٢٧٥ هـ )، سليمان بن الأشعث الأزديّ السجستانيّ، سنن أبي داود، حققه وضبطه: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قروبللي، دار الرسالة العالمية، دمشق، طبعة خاصة، ٢٠٠٩م
- بشير نافع وآخرون، المواطنة والديمقراطية في البلدان العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م
- الإمام البخاري ( ٢٥٦ هـ ) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، خرّج أحاديثه وعلّق عليه: عزّ الدين ضلي وآخرون، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط٣، ٢٠١٥م
- البوصيريّ ( ٨٤٠ هـ )، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان الكنايّي، مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م
- الترمذيّ ( ٢٧٩ هـ )، أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الكبير، تحقيق: بشّار عواد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط١، ١٩٩٦م
- الجزائري، طاهر الدمشقيّ ( ١٣٣٨ هـ )، توجيه النظر إلى أصول أهل الأثر، حققه: أبو همام محمد بن علي الصومعيّ البيضاوي، دار الإمام أحمد، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م

- جاستون باشلار، جمالية المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤م
- جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب، تونس، ط ٥، ٢٠١٦م
- الجوهرّي ( ٣٩٣ هـ )، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٩٠م
- الحاكم ( ٤٠٥ هـ )، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، دار الحرمین للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م
- الراغب الأصفهاني ( ٤٢٥ هـ )، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط ٤، ٢٠٠٩م
- الزبيدي ( ١٢٠٥ هـ )، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، راجعه: ضاحي عبد الباقي، خالد عبد الكريم جمعة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط ١، ٢٠٠١م
- السبكيّ ( ٧٧٣ هـ ) بهاء الدين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م
- السيوطي ( ٩١١ هـ ) وآخرون، شروح سنن ابن ماجه، قدم له وحققه: رائد بن صبري بن أبي علفة، بيت الأفكار الدولية، عمان - الأردن، ط ١، ٢٠٠٧م
- عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٠م
- طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط ٤، ٢٠١٦م
- طه عبد الرحمن، من الإنسان الأبتز إلى الإنسان الكوثر، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط ٢، ٢٠١٦م
- الطاهر ابن عاشور ( ١٩٧٣ م )، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ط ١، ١٩٨٤م
- الطاهر ابن عاشور ( ١٩٧٣ م )، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ومراجعة: الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ط ١، ٢٠٠٤م



## الهجرة في السنة النبوية الحدث الأبرز ...

- الإمام مسلم ( ٢٦١هـ)، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، اعتنى به: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ط ٢، ٢٠١٢م
- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، عمر كامل مسقاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ١١، ١٩٨٦م
- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بإشراف: ندوة مالك ابن نبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ١، ١٩٨٦م
- المنذري ( ٦٥٦ هـ )، أبو محمد زكيّ الدين عبد العظيم بن عبد القويّ بن عبد الله، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، حققه وعلق عليه: مصطفى محمد عمارة، مكتبة مصطفى الباي الحلبي، بيروت، ط ٣، ١٩٦٨م
- المناوي ( ٩٥٢ هـ )، عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٠م
- المناوي ( ١٠٣١ هـ )، محمد عبد الرؤوف، قيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٢م
- النسائي ( ٣٠٣ هـ )، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن عليّ بن سنان، السنن، حققه: رائد بن صبري ابن أبي علفة، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٢، ٢٠١٦م
- النووي ( ٦٧٦ هـ )، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، ط ١، ١٩٢٩م
- ٤١- الهيثمي ( ٨٠٧ هـ )، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٩٤م
- يوري لوتمان، جماليات المكان، أحمد طاهر حسنين، يوري لوتمان وآخرون، عيون المقالات، الدار البيضاء - المغرب، ط ٢، ١٩٨٨م

**- الدوريات**

- ٤٣ - وليد عبد الله عبد العزيز المنيس، أثر وجود المسجد في تكوين المدن وتأصيل نموّها، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، العدد: ١٥٩، أكتوبر، ٢٠١٥م
- ياسين اليحياوي، البنية الذهنية ونظرية الوظائف الثلاث عند جورج دوميزيل، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة - قطر، العدد ١٩، شتاء ٢٠١٧م

طاعة ولاة الأمر في السنّة النبويّة  
وأثرها في حماية الوطن

الدكتورة/ مريم بنت راشد صالح التميمي  
أستاذ الفقه وأصوله المشارك  
كلية الآداب-جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل  
الدمام/ السعودية





## المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونسئره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا، أما بعد.

فإن الإسلام دين الوقاية والرعاية، ودين السعادة والهداية، دين الاستقرار والأمان، والحماية للإنسان والأوطان.

حمى هذا الدين الإنسان من ضلالات التيه والضياع، بتوحيد الله ﷻ الذي بيّنه المرسلون عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم فقال كل واحد منهم لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود: ٨٤).

وحماه من أن يكون ظالمًا أو مظلومًا بما أوجبه من تكليفات، وما اشتملت عليه الشريعة العظيمة من حقوق وواجبات، بعضها يتعلق بالإنسان، وبعضها يتعلق بالجماعة والأوطان. كل ذلك ليسعد الإنسان في الدنيا والآخرة، ويُسهّم في تعمير الأرض وبنائها بالخير، ويضمن له العيش الرغيد والمستقبل السعيد. فلم تكتفِ الشريعة بحماية الإنسان، وإنما حرصت أيضًا على حماية المكان الذي يحوي الإنسان ويعيش على أرضه، ويأكل من خيراته، ويشرب من مائه، ويتنفس من هوائه ذلك المكان هو الوطن، البيت الكبير الذي بدونه يتعب الإنسان ويشقى، فجاءت النصوص الشرعية ضامنة الحماية الوطنية؛ بما اشتملت عليه من أوامر ونواهٍ تحفظ الوطن والمواطن، وتحميها من الشرور والآفات.

ومما يدل على حماية النصوص الشرعية للوطن ما ورد عن رسول الله ﷺ من أوامر ونواهٍ تتعلق بطاعة ولاة الأمر، وتحريم الخروج عليهم، وشق عصا الطاعة. فالعلاقة وثيقة بين طاعة ولاة الأمر وحماية الوطن.

والأمة بحاجة لمثل هذه الدراسات والأبحاث لا سيما وأنها تعاني من أفكار تدعو إلى شعارات زائفة ينخدع بها كثير من الناس من تلك الشعارات: المساواة، وحقوق الشعوب، وتقرير مصيرها، والحرية السياسية، فإن كل هذه الشعارات تتفق على مبدأ واحد تدعو إليه، وهو سقوط طاعة الولاة، والخروج عليهم، والنتيجة هي تدمير الأوطان، وتشريد الإنسان.

#### الدراسات السابقة: قُدمت دراسات في طاعة ولاة الأمر منها:

- طاعة ولاة الأمر في السنة النبوية، للدكتور خالد بن إبراهيم بن سليمان الرومي، وهو بحث في بضع وثلاثين صفحة.
  - طاعة أولي الأمر، للأستاذ الدكتور عبد الله بن إبراهيم الطريقي، مكون من ٧٩ صفحة، ذكر آثار طاعة ولاة الأمر المشروعة وغير المشروعة.
  - طاعة ولاة الأمر وأثرها في الوقاية من الجريمة، لماجد بن حسن القحطاني وهي رسالة ماجستير.
  - طاعة ولي الأمر وأثرها في تحقيق أمن الوطن، للدكتور أحمد الدريويش، تناول البحث الموضوع في عشرة مباحث، جعل المبحث العاشر في أثر السمع والطاعة على أمن الوطن.
  - الخروج على الحكام وأثره في تفريق الأمة دراسة في ضوء السنة النبوية، للدكتور أحمد إبراهيم سعدي، والدكتور السيد حمدان سعد وهو بحث من ٤٧ صفحة.
- هذه بعض النماذج لدراسات سابقة بعضها اقتصر على طاعة ولاة الأمر، وبعضها ربط الطاعة في الوقاية من الجريمة وحفظ أمن الوطن، ولم أعتز على دراسة ربطت بين حرص السنة النبوية على طاعة أولي الأمر وأثر ذلك في حماية الوطن.

#### ما ستضيفه هذه الدراسة:

- ١- ذكر الثمرات التي تُجنى من طاعة ولاة الأمر فيما يُحقق حماية الوطن وعزته.
- ٢- الربط بين ما جاء في السنة النبوية من أحاديث توجب طاعة ولاة الأمر وما يقوله بعض

أصحاب الفكر الضال الذين يجعلون آية طاعة ولاة الأمر خاصة في الولاية الذين يتقون الله في الرعية، ويتعامون عن الأحاديث الصحيحة الصريحة التي جاءت لتبيّن وتجلّي المراد من الآية، وتسد كل تأويل لها وتخصيص مما يقوله الخوارج وغيرهم من الطوائف الضالة.

وإن كان في الآية تخصيص فإن الذي يخصها الدليل وليس التأويل.

### المبحث الأول: بيان السنة النبويّة لقول الله عز وجل

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

#### المطلب الأول: تعريف البيان، وأوجه بيان السنة للقرآن

##### أولاً: تعريف البيان:

أ- البيان لغة: مصدر من الفعل بَانَ يبين بياناً، واسم مصدر للفعل بَيَّنَّ.

تقول العرب: بان الشيء بياناً، وأبان، واستبان، وبيّن، وتبيّن: إذا ظهر واتضح. ومنه بان الهلال: إذا ظهر، ويّنت لك الأمر وضحته وأظهرته<sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتِ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأحقاف: ٧) أي آيات واضحات، فزعم الكافرون أنها سحر واضح<sup>(٢)</sup>.

ويأتي بان بمعنى انفصل "بان منه، وعنه بان بيّنا وبئونا، وبينونة بعد انفصل"<sup>(٣)</sup>، "المباينة: المفارقة"<sup>(٤)</sup>، وبانت المرأة من الرجل فهي بائن أي انفصلت<sup>(٥)</sup> والمعنى المرتبط بالبيان الشرعي هو المعنى الأول، وهو الظهور والوضوح.

١- ينظر: الجوهري/مختار الصحاح (بين)، وابن منظور، لسان العرب (بين) (٦٧/١٣).

٢- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥٥/٤).

٣- مجمع اللغة العربية/المعجم الوسيط (بان).

٤- الجوهري، مختار الصحاح (بين) (٦٩/١).

٥- ينظر: الفيومي، المصباح المنير (بان).

ب- البيان اصطلاحاً:

البيان في معناه العام: كل كلام صادر وموجه إلى الآخرين يُعد بياناً، وبهذا أخبر الله تعالى فقال: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٨)، وقال: ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (الرحمن: ٤) وهو المسمى بالبيان الابتدائي، وقد وضع الأصوليون هذا المعنى للبيان بقولهم:

وليس من شرط البيان أن يكون بياناً لمشكل؛ لأن النصوص المفصحة عن الأمور بداية بيان، وإن لم يتقدم فيها إشكال<sup>(١)</sup>.

أما البيان في معناه الخاص: فهو ما جاء بياناً لغيره<sup>(٢)</sup> وهو المقصود هنا. والبيان بهذا المعنى عرفه العلماء بتعريفات متقاربة:

١- فمنهم من عرفه بأنه: إظهار المعنى وإيضاحه للمخاطب منفصلاً عن كل ما يلتبس ويشتبه به<sup>(٣)</sup>.

٢- ومنهم من يرى أن البيان هو: إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيز التجلي<sup>(٤)</sup>.

٣- وبعضهم البيان عندهم هو: الدليل الذي يتبين منه الحكم<sup>(٥)</sup>.

- 
- ١- ينظر: الغزالي، المستصفى (٣٩/٢)، البخاري، كشف الأسرار على أصول البزدوي (١٦١/٣).
  - ٢- ينظر: أبو الحسين البصري، المعتمد (٢٩٣/١)، التفتازاني، التلويح على التوضيح (٤٤/٢).
  - ٣- ينظر: السرخسي، أصول السرخسي (٢٦/٢)، الجويني، البرهان (١٣٦/١)، السمعاني، قواطع الأدلة (٢٥٨/١)، الكلوزاني، التمهيد (٥٩/١-٦٠)، الزركشي، البحر المحيط (٦٥/٣)، ابن أمير حاج، التقرير والتحبير (٤٦/٣)، ابن زكريا الأنصاري، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة (١٦٩/١)، الشوكاني، إرشاد الفحول (٢٨٤/١).
  - ٤- ينظر: الجويني، البرهان (١٣٦/١)، السمعاني، قواطع الأدلة (٢٥٨/١)، الكلوزاني، التمهيد (٥٩/١)، السيوطي، الكوكب الساطع (٣٩٦/١)، ابن بدران، نزهة الخاطر العاطر شرح روضة الناظر لابن قدامة (٤٦/١).
  - ٥- ينظر: أبو الحسين البصري، المعتمد (٢٩٣/١)، الغزالي، المستصفى (٣٨/٢)، الكلوزاني، التمهيد (٦٠/١)، أبو البقاء، الكليات (٢٣٠/١)، الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام (٣٠/٣).



٤ - وعرفه الشافعي بأنه: "اسم جامع لمعان متفقة الأصول متشعبة الفروع"<sup>(١)</sup>.

وبالنظر في التعريفات السابقة، يمكن القول بأن: البيان هو دليل به يظهر الأمر ويتضح فيخرج من حيز الإشكال إلى حيز التجلي.

وبيان السنة للقرآن يعتمد على دليل وهو قول رسول الله ﷺ، أو فعله، أو تقريره يظهر به المراد ويتضح، ويزول اللبس والإشكال.

ثانياً: أوجه بيان السنة النبوية للقرآن:

مما ميّز الله به ﷺ شريعة الإسلام أنه لم يجعلها تقتصر على آيات القرآن، وإنما جعل السنة النبوية مصدرًا من مصادر التشريع، فقامت أحكام الشريعة الإسلامية على ما قاله الله وما قاله رسول الله ﷺ، والرد إلى الله والرسول فيما حصل فيه اختلاف ونزاع ﴿فَإِنْ نُنزِعْكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ٥٩) وأمر الله عز وجل بطاعة رسوله ﷺ فيما أمر ونهى فقال سبحانه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧) أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه ﷺ إنما يأمر بخير، وينهى عن شر<sup>(٢)</sup> "فما أمركم به من طاعتي فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه"<sup>(٣)</sup>.

فأصبحت السنة تجلّي آيات القرآن وتوضحها وتفسرها؛ فيما هو محتاج منها إلى بيان لأنه قد يتبادر إلى الذهن خلاف ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى في كلامه.

وبيان السنة للقرآن يكون بأحد ثلاثة أوجه:

(١) أن تأتي السنة موافقة لما جاء في القرآن في أمره ونهيه.

أ- ومن أمثلة الموافقة في الأمر:

قوله ﷺ (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ،

١- الرسالة (٢١/١).

٢- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٦/٨).

٣- ابن العربي، أحكام القرآن (١٨١/٤).

وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ<sup>(١)</sup> فهو مؤكد لوجوب الصلاة والزكاة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٨٣)، ومؤكد لوجوب الصيام في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣) ومؤكد لوجوب الحج في قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧).

ب- ومن أمثلة الموافقة في النهي قوله ﷺ: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشَّرْكَ بِاللَّهِ وَالسُّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ)<sup>(٢)</sup> فجميعها حرّمها الله ﷻ في كتابه. وجاءت السنة تؤكّد ذلك.

(٢) أن تأتي السنة مبيّنة للقرآن، وبيانها إما أن يكون بيان إجمال بتفسيره، أو بيان عام بتخصيصه، أو مطلق بتقييده، أو مشكل بتوضيحه.

أ- أما بيان الحمل فمثاله كل ما ورد عن رسول الله ﷺ مما يفسّر ما أجمله الله في كتابه كالصلاة، والزكاة، والحج، والطهارة، فبيّن رسول الله ﷺ كيفيتها وقال ﷺ في الصلاة (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي)<sup>(٣)</sup> وفي الحج (خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ)<sup>(٤)</sup> وبيّن رسول الله ﷺ أحكام الطهارة وغيرها كالبيوع والصيد والذبائح والحدود.

ب- وأما تخصيص العام، فإنه إما أن يكون بمخصص واحد، أو أكثر من مخصص، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِكُمْ لِذَكَرِمْ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (النساء: ١١) خصصها قوله ﷺ: (لَا نُورُثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ)<sup>(٥)</sup> بغير الأنبياء،

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس ح: ٧.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب الحدود/باب رمي المحصنات، ح: ٦٤٦٥.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة، ح: ٦٣١.

٤- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر ركبًا... ح: ١٢٩٧.

٥- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا صدقة، ح: ٣٠٩٢،

ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير باب قول النبي ﷺ لا نورث ما تركنا فهو صدقة، ح: ١٧٥٨.

وخصصها قوله ﷺ: (لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ) <sup>(١)</sup> بالمسلمين فلا توارث إذا كان الولد أو الوالد غير مسلم، وخصصتها بغير القتالين بقوله ﷺ: (لَيْسَ لِلْقَاتِلِ مِنَ الْمِيرَاثِ شَيْءٌ) <sup>(٢)</sup>.

ج- البيان بتقييد المطلق؛ حيث ورد في القرآن آيات مطلقة قيدها السنة، ومن ذلك تقييد الوصية بالثلث فما دون في قوله تعالى ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيكُ بِهَا أَوْ دِينٍ ﴾ (النساء: ١٢) قوله ﷺ: (الْثُلُثُ وَالْثُلُثُ كَثِيرٌ) <sup>(٣)</sup>.

د- وأما البيان بتوضيح المشكل: فقد وضحت السنة النبوية ما كان مشكلاً ففهمه ومن ذلك: أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ (الأنعام: ٨٢) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أئينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ أَلَّا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ ﴿ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣) <sup>(٤)</sup>) فعرف الصحابة ﷺ من رسول الله ﷺ المراد بالظلم وأن المقصود به الشرك، وليس عموم الظلم حيث أزال رسول الله ﷺ الإشكال الذي حصل معهم في المقصود من الظلم.

٣) أن تأتي السنة بأحكام زائدة على ما في القرآن، فتوجب ما سكت عنه القرآن، أو تحرمه، ومن ذلك تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، وتحريم الحمر الأهلية وغير ذلك مما

١- متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، ح: ٦٣٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فأولى رجل ذكر، ح: ١٦١٤.

٢- أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب الفرائض، باب توريث القتال، ح: ٦٣٦٧ والبيهقي في سننه، كتاب الفرائض، باب لا يرث القتال (٦/٢٢٠). والدارقطني في سننه، كتاب الفرائض والسير، ح: ٨٧، والطبراني في الأوسط (٨٨٤) وقال ابن عبد البر في التمهيد (٤٤٣/٢٣): إسناده صحيح بالاتفاق، وله شواهد كثيرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٢٢).

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، ح: ٢٥٩١.

٤- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة لقمان، ح: ٤٤٢٨.

نهى عنه رسول الله ﷺ وحذر منه، وما أوجبه وألزم به، ويجب طاعته في ذلك؛ لأن طاعته طاعة لله عز وجل ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)

وبالنظر في بيان السنة النبوية لقول الله ﷻ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يمكن القول بأن ما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث في طاعة ولاية الأمر بيّنت ووضحت وأظهرت المراد من الآية وهل هي عامة في جميع ولاية المسلمين وإن حصل منهم تقصير أو ظلم أم أنها خاصة بمن سار على منهج رسول الله ﷺ والتزم سنته وهداه، وبيّنت السنة أيضاً الحال التي يجوز فيها الخروج على الحاكم وهي الكفر البواح الذي فيه عندنا من الله برهان ولكن كيف بيّنت السنة تلك الآية؟

المطلب الثاني: كيفية بيان السنة النبوية لقول الله تعالى:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

أمر الله تعالى بطاعة ولاية الأمر في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، وورد عن رسول الله ﷺ: العديد من الأحاديث التي تؤكد هذه الطاعة، وتبيّن المراد منها، وهل الآية عامة في كل ولاية المسلمين المطيعين والمخالفين أم أنها خاصة بالولاية الذين أطاعوا الله ورسوله؟

فجاءت سنة المصطفى ﷺ بالدليل القاطع، والبرهان الساطع الذي يُجَلِّي، ويُظهِر، ويوضح، ويبيّن المراد منها، بما لا يدع مجالاً للاشتباه، والالتباس، والفهم الخاطيء، والتأويل الضال الذي وقع فيه - مع وجود البيان الجلي ووضوحه - بعض من الفرق الضالة.

(١) فجاء البيان النبوي يأمرنا بطاعة ولاية الأمر في الرخاء والشدة، وفيما نحب ونكره، ولو كانت لهم أثره علينا.

أ- فيما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي غُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرِ عَلَيْكَ)<sup>(١)</sup>.

ب- وما رواه عبادة بن الصامت ﷺ قال: (بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الناس الإمام، ح: ٧١٩٩.

العُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَىٰ أَثَرِ عَلَيْنَا، وَعَلَىٰ أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ<sup>(١)</sup>.  
وجه الاستدلال: بيّن الحديثان أن الطاعة تجب في اليسر والعسر، والمنشط والمكراه، وفي حال الاستئثار على الرعية؛ فإن الطاعة إنما تتحقق عندما تكون عامة، فمن أطاع والديه في حال الرضا عنهم وعصاهم في حال عدم الرضا لا يكون باراً بهما، والمطيع هو من أطاعهما في الرضى عنهم وعدم الرضى، وكذلك طاعة أولي الأمر لو خصصت في حال الرضى عنهم ما تحققت طاعة. وهذا البيان من رسول الله ﷺ فيه رد على من يقول: إنما تجب الطاعة للولادة في حال إقامتهم للعدل، وتحقيق المساواة، وعدم الاستئثار بالأموال والثروات.

٢) وجاء البيان النبوي أمراً بالسمع والطاعة لولادة الأمر ولو لم يتحقق الرضا بتوليهم أمر المسلمين:

أ- بما رواه أنس عن النبي ﷺ قال: (اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتَعْمِلَ عَلَيْكُمْ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ زَبِيئَةً)<sup>(٢)</sup>.

ب- وما قاله رسول الله ﷺ لأبي ذر ﷺ (اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ لِحَبَشِيٍّ كَانَ رَأْسُهُ زَبِيئَةً)<sup>(٣)</sup>.

ج- وبما رواه أبو ذر ﷺ قال: (إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأَطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدِّعَ الْأَطْرَافِ)<sup>(٤)</sup>.

وجه الاستدلال: الأحاديث واضحة الدلالة في وجوب السمع والطاعة لولي الأمر وإن

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ح: ٤٧٥٤.  
٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها بالمعصية، ح: ٤٧٥٥.

٣- ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، للنووي (٣٢٥/١٢).

٤- متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ح: ٧١٤٢، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ح: ٣٤٢٦.

كان ديني النسب ولو كان عبداً أسود مقطوع الأطراف فطاعته واجبة<sup>(١)</sup> وبَيَّنَّت بجلاء أن طاعة ولي الأمر، واحترامه وتوقيره وحفظ هيئته ومنزلته واجب<sup>(٢)</sup> وأن على المسلم تخلية قلبه بما يشوبه من استنقاص ولاية الأمر واحتقارهم؛ لأنه إن شاب القلب شيء من ذلك فإن ذلك مدعاة لإسقاط حق الولاية من الاحترام والتوقير، وحفظ الهيبة والاحترام من الرعية. وفي ذلك رد على من يقول: تجب الطاعة لمن يستحق الطاعة، ومن ارتضيناه حاكماً، واخترناه والياً، وتحققت فيه شروط الإمامة كاملة.

(٣) وجاء البيان النبوي ناهياً عن نزع يد الطاعة ولو ظهر من الولاية شر، ولو حصل بغض لهم حيث جاء ذلك:

أ- في قوله ﷺ: (خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَحُبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَادِيهِمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَآكِرْهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ)<sup>(٣)</sup>.

وجه الاستدلال: دل الحديث بصريح العبارة على أن وجود المعاصي منهم لا يسقط طاعتهم. فالحديث واضح الدلالة بيّن العبارة على وجوب طاعة ولاية الأمور ولو وجدت منهم المنكرات ما دامت شعيرة الإسلام (الصلاة) تقام. وفي ذلك رد على من يقول بسقوط طاعة الولاية بعضيائهم وحصول المنكرات منهم، وأن الطاعة لا تكون إلا لمن أطاع الله ورسوله. فإن قيل: طاعة الولاية مع وجود المعاصي والمنكرات منهم وبهم تتناقض مع ما هو معروف لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. يُجاب عن ذلك: بأنه لا طاعة لمخلوق إذا طلب منك معصية؛ أي لا طاعة للأمر إذا أمرك بمعصية، لكن تجب طاعته عليك ولو وجدت فيه المعاصي وفرق كبير بين المسألتين، فإن الأب إذا أمر ولده بمعصية فلا طاعة للأب، ولكن لا يجوز للولد أن يخلع طاعة والده لكون والده فاجراً أو عاصياً أو ظالماً، وكذلك ولي الأمر تُكره منه المعصية

١- ينظر: النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥٠٣/٤).

٢- ينظر: ابن عابدين في حاشيته (٥٩٠/١)، القرافي، الذخيرة (٢٣٤/١٣).

٣- أخرجه مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، ح: ١٨٥٥.

وتبقى طاعته، يؤيد ذلك ما رواه عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ وُلِّيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيُكْرِهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ)<sup>(١)</sup>، وما رواه ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ قال: (عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ)<sup>(٢)</sup> فالحديث واضح الدلالة في وجوب السمع والطاعة فيما أحب وكره، ووقوع الظلم والمعاصي مكروه. واستثنى رسول الله ﷺ من السمع والطاعة الأمر بمعصية، فعندئذ لا سمع ولا طاعة إلا إذا كان سيترتب على عدم السمع والطاعة مفسدة أعظم منها؛ نحو أن يأمر حاكمٌ رجلاً بشرب الخمر معه، فإن لم يفعل قتله، فهنا ترفع أعظم المفسدتين بأخفهما؛ فيسمع ويطيع للحاكم سداً لوقوع ما هو أعظم من شرب الخمر وهو القتل.

ب- قوله ﷺ: (إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمْرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِيءٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لَا، مَا صَلَّوْا)<sup>(٣)</sup>.

وجه الاستدلال: بيّن الحديث الشريف أنه في حال وجود المنكرات من الأُمراء فإنها تتركه أو تنكر، وتبقى طاعتهم، وتمتنع منازعتهم ما دامت شعيرة الصلاة قائمة.

٤) وجاء البيان النبوي أمراً بطاعة ولاة الأمر ولو حصل منهم تقصير وظلم وجور فيما تحملوه من أمانة، يدل على ذلك:

أ- أن سلمة الجعفي سأل رسول الله ﷺ فقال: (يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألون حقهم ويمنعون حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو في الثالثة، فجذبه الأشعث بن قيس فقال: قال رسول الله ﷺ (اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ)<sup>(٤)</sup>.

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، ح: ٤٧٨٢.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، ح: ٤٨٠٥.

٣- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأُمراء فيما يخالف الشرع ترك قتالهم ما صلوا، ح: ٤٨٠١.

٤- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب في طاعة الأُمراء وإن منعوا الحقوق، ح: ٤٧٨٢.

وجه الاستدلال: دل الحديث النبوي الشريف على وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر، ولو قصروا ومنعوا حقوق الرعية "فإن الله ﷻ حَمَلَ الْوَلَاةَ وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمُ الْعَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ فَإِذَا لَمْ يَقِيمُوهُ أَثَمُوا، وَحَمَلَ الرِّعِيَةَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ لَهُمْ؛ فَإِنْ قَامُوا بِذَلِكَ أَثَبُوا وَإِلَّا أَثَمُوا"<sup>(١)</sup>، فمن أطاع ولاة الأمر امتثالاً لأمر الله ورسوله فأجره على الله، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال فإن أعطوه أطاعهم، وإن منعه عصاهم فما له في الآخرة من خلاق"<sup>(٢)</sup> والموفق من يصبر على جورهم وظلمهم؛ فإن في ذلك تكفيراً للسيئات، ومضاعفة للأجر، وإذا أرادت الرعية التخلص من ظلم الأمير فليتركوا الظلم"<sup>(٣)</sup>.

ب- أن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- قال: قلت يا رسول الله إنا كنا بشر فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل من وراء ذلك الخير شر؟ قال: نعم، قلت: كيف؟ قال: (يَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدَايَ، وَلَا يَسْتُنُونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانَ إِنْسٍ. قَالَ حَذِيفَةُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتَطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ)<sup>(٤)</sup>.

وهذا البيان فيه رد على من يقول إنما تجب طاعتهم إذا حققوا العدل والمساواة، ولم يكونوا ظالمين، ولم يقع بهم ظلم أو جور وأدوا حقوق الرعية، فقوله ﷻ واضح جلي في وجوب طاعة أولي الأمر ولو كانوا ظالمين، وجائزين ولم يتقوا الله في حقوق الرعية.

وقد أول أهل الضلال هذا الحديث بأنه معناه: إن جلد ظهرك بحق، وأخذ مالك بحق. ولا يصح قولهم لمنافاته ما ذكره رسول الله ﷻ في وصفهم حيث إنهم لا يهتدون بهدي رسول الله ولا يستنون بسنته، ويقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، فكيف بعد هذا الوصف الذي يبين فسادهم يأتي من يقول جلد ظهرك بحق!

١- النووي، شرح صحيح مسلم، (٣/١٤٧٤).

٢- ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٦/٣٥-١٧).

٣- ينظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص ٣٧٩.

٤- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن ح: ٤٧٨٤.



وأكل مالك بحق!

فإن قيل: طاعة ولاية الأمر مع وجود الظلم والجور منهم يتعارض مع أمر الله عز وجل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم، وهذا يقتضي عدم السكوت على ظلمهم، وضرورة محاسبتهم.

تأتي السنة النبوية لتبين ذلك في قوله ﷺ: (اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ)<sup>(١)</sup>. فرسول الله ﷺ أمرنا بالسمع والطاعة لهم، والله عز وجل هو من يحاسبهم بما تحمّلوا وليست الشعوب؛ كالأب فإن له الطاعة، وليس من البر أن يأتي أولاده لمحاسبته على تقصيره أو إضاعته لحقوقهم وإنما حسابه على الله، ولا يبقى في حقه سوى النصح بالدين والحكمة.

وليس كل أحد تجوز منه النصيحة؛ وإنما تكون ممن يعرفه أدبها، فينصح ولا يفضح برفق ولين وليس بفظاظة وعنف، بتوقير واحترام للمنصوح وليس بدم وتوبيخ وهذا مع الناس جميعاً، فكيف إذا كان المنصوح حاكماً؟! لا شك أن التزام أدب النصيحة في حقه يكون أوكد وأوجب.

٥) لم تكتفِ السنة بتأكيد طاعتهم ولو كانوا ظالمين. وإنما بيّنت السنة عقوبة من يعصيههم ويخرج عليهم:

أ- فقد بيّن رسول الله ﷺ أن من يخرج على ولي الأمر ويشق عصا الطاعة فإنه يقتل؛ يدل على ذلك:

١- قوله ﷺ: (مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَأَقْتُلُوهُ)<sup>(٢)</sup>.

٢- قوله ﷺ: (إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ

١- سبق تخريجه، ص ١٣.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع ح: ٤٧٩٨.

فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَأَنَّ مَن كَانَ<sup>(١)</sup>.

ب- وبين رسول الله ﷺ عقوبة من يخرج على ولي الأمر، ويشق عصا الطاعة:

١- حيث قال ﷺ: (مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ)<sup>(٢)</sup>.

٢- وقال ﷺ: (مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةِ لِقِيَّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)<sup>(٣)</sup>.

قد يسأل سائل ويقول لماذا حرصت السنة النبوية كل هذا الحرص على طاعة ولاية الأمر ولو ظلموا ولو جاروا واستأثروا بالأموال؟ لأن في طاعتهم حفظ للبلاد والعباد من شر أعظم وفساد أكبر من الشر والفساد الحاصل بهم، واستثنى رسول الله ﷺ حالاً واحداً يجوز فيها الخروج وهي: (أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)<sup>(٤)</sup>.

فالسنة أكدت العموم في آية طاعة ولاية الأمر ولم تخصصه إلا في حال حصول:

١- الكفر البواح، يدل على ذلك ما رواه عبادة بن الصامت قال: (دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعَنَا، فَكَانَ فِيْمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةِ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ. قَالَ: إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)<sup>(٥)</sup> فإن كان الكفر غير بواح فلا يجوز الخروج، ولا بد أن يكون عندنا فيه من الله برهان، فإن عُدِمَ البرهان فلا يجوز الخروج.

- 
- ١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع ح: ٤٧٩٦.
  - ٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن ح: ٤٧٨٦.
  - ٣- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعات المسلمين عند ظهور الفتن ح: ٤٧٩٣.
  - ٤- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ح: ٤٧٧١.
  - ٥- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء ح: ٣٤٣٣.

٢- إذا أمرك الأمير بمعصية حيث قال ﷺ: (عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ)<sup>(١)</sup>. فولي الأمر مثل الأب، لا تسقط طاعته بمعصيانته، أو وجود المعاصي بسببه، فإن الأب إذا أمر ابنه بمعصية فلا سمع ولا طاعة وكذلك الحاكم.

ومن عظمة هذه الشريعة أنها لم تجعل طاعة ولاة الأمر مشروطة بعدلهم، ورضى الرعية عنهم، ولو كان الأمر كذلك لكانت الدنيا هرجاً ومرجاً فالحمد لله على لطفه بعباده<sup>(٢)</sup>. ومن الثمرات العظيمة التي تتحصل بطاعة ولاة الأمر، وإن ظلموا أو جاروا، حماية الوطن، وسيين المبحث الثاني كيف تكون طاعة ولاة الأمر التي وضحها لنا رسول الله ﷺ سبباً في حماية الوطن.

### المبحث الثاني: أثر طاعة ولاة الأمر في السنة النبوية في حماية الوطن

تقدم في المبحث الأول بعض مما ورد عن رسول الله ﷺ في وجوب طاعة ولاة الأمر، وتبين من أقواله ﷺ أن طاعة أولي الأمر لازمة وإن ظلموا، وإن جاروا، وإن لم ينتهجوا نهج رسول ﷺ في حق الرعية، وإن استأثروا وقصروا. ولكن:

- ١- لماذا حرصت سنة المصطفى ﷺ حرصاً شديداً على طاعة ولاة الأمر في جميع الأحوال في العسر واليسر والمنشط والمكره، ولو استأثروا وظلموا أو جاروا وحصلت بهم المنكرات والمعاصي، ولم تستثن من ذلك سوى الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان.
- ٢- ولماذا حذرت السنة النبوية من شق عصا الطاعة، والخروج على ولاة الأمر، وأمرت بقتل من يخرج على الجماعة والولاية؟

إن مما لا شك فيه أنه ما من أمر جاء في شريعة الإسلام إلا ويحقق مصالح وتحصل به منافع، وما من نهي جاء من الله أو من رسوله ﷺ إلا لمنع المفاسد ووقوع الضرر.

وعندما أمر الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر وإن حصل منهم ظلم أو جور أو تقصير أراد بذلك

١- سبق تخريجه، ص ١٢.

٢- ينظر: النووي، شرح صحيح مسلم (٢٣٢/١٢)، عبدالسلام بن برجس، معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة، ص ١٢٠.

المحافظة على مصالح الأمة العظيمة ومنها حماية الوطن؛ لذلك جاء النهي عن منازعتهم، والخروج عليهم؛ لأن في ذلك شرًّا عظيمًا وفسادًا جسيمًا، والواقع خير شاهد على ذلك، فما نراه اليوم من تدمير للأوطان، وتشريد للإنسان كان منشؤه الخروج على الحكام بما يسمى بالثورات والمظاهرات التي حصل بها ظلم وفساد أعظم وأكبر وأشنع من الفساد والظلم الذي كان بالحكام. فهل يدرك ذلك من مازال يؤيدها ويدعمها.

وسيبين هذا المبحث أثر طاعة ولاية الأمر في حماية الوطن في مطلبين: الأول: أثر طاعة ولاية الأمر في حماية الوطن داخليًا. الثاني: أثر طاعة ولاية الأمر في حماية الوطن خارجيًا.

### المطلب الأول: أثر طاعة ولاية الأمر في حماية الوطن داخليًا

الوطن هو البيت الكبير الذي يعيش فيه الإنسان، وحمائته حماية للإنسان، ولذلك اهتمت سنة المصطفى ﷺ بما يحفظ سلامته ويؤكد حمايته، ومما يساهم في حماية الوطن طاعة ولاية الأمر، فإن طاعتهم حماية للوطن من:

#### ١- الفتنة والافتراق:

إن من أعظم الحقوق وأهمها في المجتمع بعد حق الله تعالى، وحق رسوله ﷺ ما افترضه الله من حق الطاعة لولاية الأمر.

ومعلوم بالضرورة أنه "لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة"<sup>(١)</sup>. وغرس رسول الله ﷺ مبادئ الوحدة، وكل ما يحافظ على اللحمة وأمر بها، وحذر من التفرق والتشردم، وكل ما يؤدي إلى الشقاق والافتراق، حيث نهى عن نزع اليد من الطاعة ولو كان الحاكم عاصيا بظلم أو جور أو فساد فقال ﷺ: (مَنْ وُلِّيَ عَلَيْهِ وَالِ فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيُكْرِهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ)<sup>(٢)</sup> ففي طاعتهم محافظة على اتفاق

١- أخرجه الدارمي في المقدمة، باب ذهاب العلم، ح: ٢٥٣، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، ح: ٣٢٦.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، ح: ٣٤٤٨.

الكلمة، ودرء الفساد الذي يحصل في الافتراق<sup>(١)</sup>.

فإن من أسباب الفتن وتفكك الوطن، واللحمة الوطنية منازعة الولاة والخروج عليهم. فعن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خبائه<sup>(٢)</sup>، ومنا من ينتضل<sup>(٣)</sup>، ومنا من هو في جشده<sup>(٤)</sup>، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: (إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنذِرُهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنْ أُمَّتُكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوْلَاهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرْفِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْزَخَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِئِبَتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ وَثَمَرَةً قَلْبِهِ، فَلْيَطِئْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرٌ يُنَازِعُهُ فَأَضْرِبُوا عُنُقَ الْآخِرِ فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ: أَنْشُدْكَ اللَّهَ، أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ: سَمِعْتُهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي)<sup>(٥)</sup>.

إن في طاعة ولاة الأمر حماية للوطن من الفرقة، وحصول الفتنة، وظهور النزاع على السلطة وفي طاعتهم سد للعصبية القبلية، والتعصبات الجاهلية، والأحزاب السياسية. إن التفرق والاختلاف سبب في وقوع الضرر العظيم بالأمة، وأوطانها، وأراضيها فتصبح مجالاً للطامعين والحاقدين

- ١- ينظر: ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (١١٢/١٣).
- ٢- الخبائه: أحد بيوت العرب من وبر وصوف، ولا يكون من شعر، ويكون على عمودين أو ثلاثة، والجمع أخبية. ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٩/٢)، ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (خبأ).
- ٣- ينتضل: أي يترامون بالسهم، يقال: انتضل القوم وتناضلوا؛ أي رموا للسبق ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٧٢/٥).
- ٤- جشده: بفتح الجيم والشين، وهي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها، يريد أنهم أخرجوا دوابهم من المنزل الذي نزلوه يرعونها قرب البيوت، ينظر: النووي، شرح صحيح مسلم (٢٣٣/١٢) ابن قتيبة، غريب الحديث (٦٨/٢).
- ٥- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول، ح: ٣٤٣٧.

والحاسدين والمفسدين في الأرض إذا نُزعت يد الطاعة من ولي الأمر.

## ٢- حماية الوطن من تعطيل المصالح العامة التي تنظم حياة الناس وبدونها يحصل الفساد والخلل:

وبالنظر في المصالح التي لا تقوم إلا بوجود الولاية والتزام طاعتهم، يمكن القول بأنها نوعين من المصالح؛ مصالح تتعلق بالدين، ومصالح تتعلق بالدنيا.

أ- أما المصالح التي تتعلق بالدين: فقد بيّنها الحسن البصري -رحمه الله- عندما قال في الأمراء: "هم يلون أموراً خمسة: الجمعة، والجماعة، والعيد والثغور، والحدود، والله لا يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا أو ظلموا لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون مع أن طاعتهم والله لغبطة وأن فرقتهم لكفر"<sup>(١)</sup>.

إن إقامة الدين، وتحقيق المصالح التي تقصدها الشريعة مرتبط بطاعة ولاة الأمر والاستقرار، والاستقرار لا يكون إلا بوجود حاكم مطاع، ولهذا قيل: الدين والملك توأمان، ارتفاع أحدهما ارتفاع للآخر، لأن الدين أس والملك حارس، وما لا أس له فمهذوم، وما لا حارس له فضائع "فنظام أمر الدين والدنيا مقصود، ولا يحصل ذلك إلا بإمام موجود"<sup>(٢)</sup>.

ب- وأما المصالح التي تتعلق بالدنيا فأهمها (التعليم، والصحة، والاقتصاد): إن الشريعة الإسلامية شريعة الكمال والتمام، والشمول والعموم، لم تأت لتحقيق مصالح الدين فحسب، بل جاءت لتحقيق مصالح الدنيا والآخرة. وطاعة ولي الأمر تسهم في المحافظة على المصالح الدنيوية، والخروج عليه ومنازحته سبب في فقدانها وعدم تحصيلها.

إن الناظر اليوم فيمن خرج على ولاة الأمر عن طريق الثورات والمظاهرات يرى أثرها واضحاً جلياً في توقف المصالح العامة وحرمان الوطن من البناء العلمي والمعرفي والاقتصادي.

فتعطلت كثير من المصالح الكبرى وأبرزها:

١- ابن الجوزي، آداب الحسن البصري، ص ١٢١، وينظر: ابن رجب، جامع العلوم والحكم (١١٧/٢)،

كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ح: ٣٦٤١.

٢- القلعي، تهذيب الرياسة، ص ٩٤.

١- التعليم: لا قيمة للإنسان والأوطان إذا تعطل التعليم، جعله الله ميراث الأنبياء، وجعل التماسه سبباً في دخول الجنة، قال ﷺ: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)<sup>(١)</sup>.

ومما يساهم في استمرار العلم واستقراره طاعة ولاة الأمر؛ لأن في الخروج عليهم ظهور النزاع والتصادم وقد يصل إلى حرب داخلية وانفتاح جبهات مدعومة من الخارج تزعزع الاستقرار فتعطل مصلحة عظيمة وهي التعليم فتغلق المدارس لانفلات النظام والأمن. وإذا تعطل التعليم تعطلت عجلة تقدم الوطن ونموه وازدهاره. فطاعة ولاة الأمر تحمي الوطن من توقف التعليم أو تعطيله أو تعليقه.

٢- الصحة: كما تعطل مصلحة التعليم بعدم طاعة ولاة الأمر والخروج عليهم كذلك مصلحة الصحة إذا وقعت المنازعة واستشرت، فإن ذلك يؤثر في النظام الصحي وتعطل الخدمات التي يتم تقديمها للمرضى والمواطنين من المستشفيات والمراكز الصحية، إما بسبب كثرة المصابين والجرحى بسبب نشوب الصدام والقتال بين البغاة والخارجين وبين ولي الأمر، وإما بسبب خلوها من الأطباء والمسعفين بسبب عدم استقرار الوضع، وإما بقصفها وتدميرها ممن يريد الفساد في الأرض، فتصبح هدمًا بعد أن كانت معمورة، أو تكون متوقفة مهجورة.

٣- الاقتصاد: من المصالح العظيمة التي حرصت الشريعة عليها الاقتصاد من خلال ما جاء فيها من أحكام وتشريعات تتعلق بالأموال وكيفية التعامل معها، ولا شك أن الاقتصاد يتأثر كثيراً بما يجري من أحداث في العالم ومنها الثورات والمظاهرات.

والواقع خير شاهد كيف تدهور الاقتصاد في بعض الدول العربية بسبب ما حصل فيها من ثورات ومظاهرات ومطالبة بخلع الحاكم ورحيله، ومن عظمة هذه الشريعة أنها أمرت بطاعة ولاة الأمر ولو وقع منهم ظلم أو جور حفاظاً على المصالح العظمى للوطن، وحماية له من أن يكون دماراً بعد أن كان عماراً بالحركة الاقتصادية سواء الداخلية أو الخارجية.

---

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، ح: ٤٨٧٣.

يقول أحد المختصين في الاقتصاد: "حاولت بكل قوة أن أبحث بين ثنايا البيانات والإحصاءات عن رقم أو معلومة ترشدني إلى اكتشاف أثر اقتصادي إيجابي واحد أفرزته الثورات العربية ولكن دون جدوى"<sup>(١)</sup>. فطاعة ولاة الأمر فيها حماية للوطن من أن يخسر قوته إن كان قوياً أو يزداد ضعفه إن كان ضعيفاً.

### ٣- حماية الوطن من وقوع المفاسد العظيمة:

جاءت السنة النبوية بتأكيد طاعة ولاة الأمر؛ لما في طاعتهم من حماية للوطن من وقوع المفاسد العظيمة، ومن أبرزها:

أ) حماية الوطن من الاعتداء على الضروريات<sup>(٢)</sup> الخمس: فإنه لا يحصل بالعصيان والخروج شيء من الخير، بل تزداد المظالم والمفاسد، وذكر ابن تيمية - رحمه الله - أنه لا يكاد يُعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد أعظم من الفساد الحاصل<sup>(٣)</sup>.

والأمن على الدين، والنفس، والمال، والعرض، والعقل، لا ينتظم إلا بسلطان مطاع، بل إن الدين لا يُقام إلا بسلطان، فوجود السلطان ولو كان ظالماً يحمي الوطن والمواطنين من الاعتداء على دينهم، وأنفسهم، وأعراضهم، وأموالهم، وعقولهم.

يمكن القول إذاً: إن طاعة ولي الأمر تُسهم في بناء التنمية البشرية، وتحمي الوطن من المفسدين في الأرض الذي يسعون فيها قتلاً ونهباً وغصباً وسرقة، واعتداءً على الأعراض وتأثيراً في العقول بالتخويف والترجيع والتعذيب لا سيما على الأطفال، وتغيير الفكر من المعتدل إلى المتطرف، ومن السلام والتعايش إلى الإجرام وتكفير الناس واستباحة أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

١- جواد كاظم البكري، الثورات العربية، ص ٤.

٢- الضروريات هي: التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فُقدت لم تحر مصالح الدنيا على استقامته، بل على فساد، وتهارج، وفوت حياة، وفي الآخرة فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين.

ينظر: الشاطبي، الموافقات، (٨/٢).

٣- ينظر: منهاج السنة النبوية (٣/٣٩١).



(ب) حماية الوطن من الجريمة والإرهاب: أكدت السنة النبوية طاعة ولاة الأمر التي أمر الله بها حماية للإنسان والأوطان من خطر الجريمة والإرهاب، فإن طاعة ولي الأمر جعلها الله وقاية ممن يريد الإجرام والإفساد قال ﷺ: (إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ، يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيَتَّقَى بِهِ)<sup>(١)</sup>؛ أي كالستر لأنه يمنع العدو من الأذى، ويمنع الناس بعضهم من بعض، ويحمي بيضة الإسلام، ويتقيه الناس، ويخافون سطوته، ويُقاتل معه الكفار، والبغاة، والخوارج، وسائر أهل الفساد<sup>(٢)</sup>. "ولولا السلطان لكان الناس فوضى، ولأكل بعضهم بعضًا"<sup>(٣)</sup>.

وما حصل في واقع الدول التي عرفت ثورات على ولاة أمورها سببت انتشار الإرهاب والجريمة وشيوع الخوف في أراضي الوطن وفقدان الأمان والاستقرار دليل على ماسبق، لذلك كانت طاعة الولاة ولو ظلموا وجاروا كما بيّنت سنة المصطفى ﷺ سببًا في حماية الوطن من شرور الجريمة، والإرهاب.

(ج) حماية الوطن من الأعداء في الداخل: لا يخلو وطن ممن يعاديه في الداخل، ممن يقابلون عيشتهم على أرضه، وتحت سمائه، وشربهم من مائه، وأكلهم من خيراتهم بنكران الجميل، وخيانتته والوقوف مع أعدائه في الخارج، وهؤلاء يخونون عندما يجدون المجال مفتوحًا، ومن الأمور التي تفتح المجال أمامهم شق عصا الطاعة، ومفارقة الجماعة وهذه الفئة يغيظها ويغضبها كل من ينتهج سنة محمد ﷺ في وجوب طاعة ولاة الأمر ولو ظلموا وجاروا؛ لأن التزام الناس طاعة ولاة الأمر يقيدهم فلا يستطيعون الانطلاق في تنفيذ مخططاتهم الضالة من تكفير وتفجير إذا وجدوا الناس تسمع وتطيع لولي الأمر، وهم لا يريدون ذلك؛ لأنه يسد باب الفساد عنهم، فتجدهم مع الثورات وتأييد المظاهرات والتناول على الحكام، وإذا قيل لهم إنكم بالمظاهرات والثورات تفسدون قالوا إنما نحن مصلحون، إنما نريد تحقيق العدالة والمساواة، والحرية السياسية وغيرها من الشعارات الزائفة التي تفسد ولا تصلح، وهؤلاء أشد خطرًا على الوطن من العدو الخارجي الظاهر.

١- أخرجه مسلم في صحيحه، باب الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به، ح: ٤٧٧٢.

٢- ينظر: النووي، شرح صحيح مسلم، (٢٣٠/١٢).

٣- القلعي، تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، ص ٩٥.

## المطلب الثاني: أثر طاعة ولاية الأمر في حماية الوطن خارجياً

إن مما يسد الباب على الأعداء من التدخل في الوطن طاعة ولاية الأمر، فإن في طاعتهم استقرار الوطن وحمايته ممن يريد به الشر والتدمير؛ فإن في وجود الحاكم ولو ظلم وجرار إخافة لأعداء الوطن في الخارج قال ﷺ: (إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ، يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ)<sup>(١)</sup>.

ولمكانة طاعة ولاية الأمر في حماية الدين والوطن خصَّهم أئمة الإسلام بالدعاء؛ ومنهم الفضيل بن عياض، والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها للسلطان، لأن جعلها في السلطان يؤدي إلى صلاحه؛ فتصلح بصلاحه العباد والبلاد<sup>(٢)</sup>.

إن الالتزام بما أمر الله به من طاعة ولاية الأمر، وما جاء في سنة نبيه ﷺ من وجوب طاعتهم ولو ظلموا أو جاروا فيه:

(١) حماية للوطن من تدخل أعدائه في الخارج سواء كان التدخل من أجل الاحتلال، أو من أجل التخريب والتدمير.

أ- أما التدخل من أجل الاحتلال، فإن الخروج على الحاكم يسهم في تدخل الأعداء من خارج الوطن لاحتلاله، ولذلك يُلاحظ أن كثيراً ممن ثاروا ضد الحكام تم دعمهم من جهات تريد الاحتلال والتحكم في مصير الوطن.

ب- التدخل من أجل التخريب والتدمير من المتربصين به في الخارج، وعصيان ولي الأمر، وشق عصا الطاعة، والخروج عليه يفتح المجال أمام المفسدين والمخربين والمدمرين ليمارسوا التخريب والتدمير حيث يمكنهم ذلك إذا وجدوا من يعلن العصيان على الحاكم، ويقود الثورة، ويشعل نار الفتنة في الوطن وأهله.

(٢) حفظ هيبة الوطن ومنزلته في المجتمع الدولي.

إذا التزمت الرعية السمع والطاعة لولي الأمر، وتوقيره، وحفظ هيئته؛ فإن في ذلك حفظ لهيبة

١- سبق تخريجه، ص ٢١.

٢- ينظر: أبو نعيم، الحلية (٩١/٨)، ابن عبد البر، جامع العلم وفضله (٦٤١/١)، أبو يعلى، طبقات الحنابلة (٣٦/٢)، ابن تيمية، الفتاوى، (٣٩١/٢٨)، البيهوتي، كشف القناع (٣٢/٢).

الوطن في المجتمع الدولي، والعكس صحيح، فإن التطاول على الحكام وإثارة الدهماء ضدهم وزرع الشحناء بينهم وبين الشعب هذا كله يتسبب في هوان الوطن وضعف هيئته وسقوط كلمته في المجتمع الدولي؛ وحتى تحفظ هيبة الأمة في الخارج لابد من حفظ هيبة الحاكم في الداخل، وهيئته لا تتحقق إلا بطاعته وتوقيره، ولذلك جاءت السنة النبوية بطاعة ولاة الأمر وعدم الخروج عليهم، وقتل من يريد تفريق الكلمة، ومفارقة الجماعة؛ حيث قال ﷺ: (إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاصْرُبُوهُ بِالسَّيْفِ كَأَنَّ مَنْ كَانَ<sup>(١)</sup>). فالملاحظ أن العقوبة هي القتل وذلك لعظم الجرم؛ حيث إنه يترتب على من سعى في تفريق الكلمة ومفارقة الجماعة مفساد عظيمة سبق الإشارة إليها، ويضاف لها سقوط هيبة الحاكم وهيبة الدولة؛ وهذا يُجْرِي الأعداء والسفهاء على التطاول على الحاكم والدولة، ومحاولة إسقاطها لتنفيذ ما يسعى له الأعداء من مخططات إضعاف الأمة، والنيل من هيبتها وكرامتها.

(٣) حماية الوطن ممن يريد هدم العقيدة الإسلامية القائمة على توحيد الله، وطاعته وطاعة رسوله، وولاية أمره، فإن هناك من يسعى في تشويه صورة الإسلام والمسلمين من الأعداء في الخارج شرقاً أو غرباً سواء أكانوا من غير المسلمين أو من المنتسبين للإسلام والإسلام منهم بريء بما ينتهجونه من ضلال وباطل، وتكفير وتفجير، فهؤلاء يفرحون عندما تشتعل نار الفتنة، ويسود النزاع بين الحاكم والشعب، بل إنهم يحاولون ليلاً ونهاراً بدعاويهم الزائفة والباطلة إفساد العلاقات بين الراعي والرعية، والدعوة إلى الثورات، ومخالفة هدي محمد ﷺ في طاعة ولاة الأمر، ولا يكتفون بذلك بل يسعون إلى إفساد علاقات الدول فيما بينها، وتغيظهم الاتحادات والتحالفات سواء كانت اقتصادية أو سياسية خاصة بين الدول الإسلامية أو بينها وبين الدول المسالمة.

إن التزام طاعة ولاة الأمر كما أراد الله عز وجل وبين رسوله ﷺ ليست عقيدة يثاب من يلتزمها، ويعاقب من يخالفها فحسب وإنما هي حماية ووقاية للأوطان والإنسان من التفرق والتشردم، والدمار وشيوع الفساد وعظيم الأضرار.

١- سبق تخريجه، ص ١٥.

## الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على من بيّن لنا الدين فكان واضحاً ظاهراً، وعلى من كان على نهجه ﷺ سائراً. أما بعد..

فإن مما تجدر الإشارة إليه في خاتمة البحث ما يأتي:

١- إن ما ورد عن رسول الله ﷺ من أدلة صحيحة صريحة تأمر بطاعة ولاة الأمر وتؤكد أمر الله ﷻ بما دليل على أن طاعة ولاة الأمر من الدين؛ إذ بما تتحقق المصالح العظمى وتُدرء المفاسد الكبرى، والسير عليها يحمي الوطن ويحفظه، وتستمر عجلة التنمية فيه، وعدم الطاعة لهم تتحقق بها المفاسد العظام، وتُدمر الأوطان.

أ- جاءت السنة النبوية لتبين ما جاء في القرآن، وبيانها إما أن يكون بتخصيص عام، أو تقييد مطلق أو توضيح مشكل. ومن الأحكام التي بيّنتها السنة النبوية بياناً مفصلاً لا مجال فيه للتأويل طاعة ولاة الأمر، فأمرت بطاعتهم في العسر واليسر والمنشط والمكره، والأثرة. وأمرت بطاعتهم ولو وجدت منهم المنكرات والمعاصي. وأمرت بطاعتهم ولو قصروا في حقوق الرعية. وأمرت بطاعتهم ولو ظلموا وجاروا. وأمرت بطاعتهم ولو لم يتم الرضا بولايتهم.

ب- وحذرت من عصيانهم والخروج عليهم إلا في حال حصول الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان، فالكفر لا بد أن يكون بواحاً، ولا يكفي تحقق الكفر البواح بل لا بد من أن يكون هناك برهان وقوة وقدرة حتى لا تتعرض البلاد والعباد لمفاسد أعظم.

والسير على الهدى النبوي في طاعة ولاة الأمر يحمي الوطن من شرور عظيمة منها:

١- حماية الوطن من الفتنة والفرقة.

٢- حماية الوطن من الفوضى وانفلات الأمن والنظام.

٣- حماية الوطن من تعطيل المصالح المتعلقة بالدين، والمتعلقة بالدنيا.

٤- حماية الوطن من وقوع المفاسد العظيمة ومنها:

- أ- الاعتداء على الأنفس والأعراض والأموال.
- ب- انتشار الجريمة والإرهاب.
- ٥- حماية الوطن من تدخل الأعداء في الخارج سواء كان التدخل من أجل الاحتلال، أو التخريب والتدمير.
- ٦- حماية الوطن من أعدائه في الداخل من الخائنين والمنافقين.
- ٧- حماية الوطن ممن يريد هدم العقيدة الإسلامية وتشويه صورة الإسلام والمسلمين.

### التوصيات:

- ١- حماية الوطن مسؤولية الجميع، وطاعة ولاية الأمر حصن يحمي الوطن والمواطن.
- ٢- تنبيه الناس وتوعيتهم مما يتم تداوله من شعارات زائفة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، مما تتبناه بعض الجماعات الضالة من شعارات كاذبة: كالحريات السياسية، وتحقيق العدالة والمساواة، ومحاربة ظلم الحكام وجورهم، وحق الشعب في محاسبة الولاة.
- ٣- العمل على محاصرة الفكر الضال المتطرف بما ورد عن رسول الله ﷺ من أقوال صحيحة صريحة تأمر بطاعة ولاية الأمر ولو ظلموا أو جاروا.
- ٤- ضرورة بيان المفاسد العظيمة التي تحصل بشق عصا الطاعة، ومفارقة الجماعة.
- ٥- على الإعلام مسؤولية عظيمة، وله دور مؤثر في حماية الوطن أو تدميره من خلال ما يتم نشره، فإنه بكل أسف نادرًا ما نسمع عن الأضرار التي حصدتها الأوطان بسبب الثورات، بل إنه قد يقف الإعلام مع الثورة، وهذا يساهم في تخريب الأوطان وتدميرها.
- ٦- كثير من وسائل الإعلام الإسلامي وغير الإسلامي يديرها أشخاص يؤيدون الثورات، والاعتصامات والمظاهرات، وهؤلاء ساهموا في تدمير الأوطان، وتشريد الإنسان، فينبغي التنبه لذلك، ومعالجته بالوسائل المناسبة.

## المصادر والمراجع

- إبراهيم بن موسى بن محمد اللخيمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط ١، دار ابن عفان ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، السنن الكبرى، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.
- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلبة الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة مصر (د.ت).
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة ١٣٧٩ هـ.
- أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط ١، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- أبو العباس، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب شرح الكبير، بيروت، المكتبة العلمية.
- أبو نصر، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط ٤، بيروت، دار العلم للملايين ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، بيروت ط ٣، دار الكتب العلمية ١٤١٩ هـ.
- أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات، تحقيق: عدنان درويش، بيروت، مؤسسة الرسالة (د.ت).
- أبو يحيى، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، الحدود الأنيفة والتعريفات الدقيقة، تحقيق: د. مازن المبارك، بيروت، ط ١، دار الفكر المعاصر ١٤١١ هـ.
- أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الشامى الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن الحسيني، ط ١، دار الحرمين، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، حكم على أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، ط ١، مكتبة المعروف (د.ت).
- عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلمي البغدادي الدمشقي الحنبلي، جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، إبراهيم باجس، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٢٢ هـ.
- أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، آداب الحسن البصري، تحقيق: سليمان الحرش ط ٣ ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- عبد الرحمن بن كمال الدين المشهور بجلال الدين السيوطي، شرح الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع، تحقيق: محمد الحفناوي.
- عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري، كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، دار الكتاب العربي (د.ت).
- عبد السلام بن برجس العبد الكريم، معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة، ط ٧، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن بدران الرومي، نزهة الخاطر العاطر شرح كتاب روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة المقدسي، ط ١، دار الحديث - بيروت.
- أبو محمد، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي، مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، تحقيق: حسين سليم الداراني، ط ١، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، غريب الحديث، بغداد، مطبعة العاني، ط ١، ١٣٩٧ هـ.
- أبو المعالي، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، الملقب بإمام الحرمين، البرهان في أصول الفقه، تحقيق: صلاح بن محمد عويضة، بيروت، ط ١، دار الكتب العلمية ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: أبو عبد الله مصطفى العدوي مصر، دار ابن رجب، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- أبو الحسن، علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدارقطني، سنن الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- أبو الحسن، علي بن محمد الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: د. سيد الجحيلي، بيروت، ط ١، دار الكتاب العربي ١٤٠٤ هـ.

- أبو السعادات، المبارك بن محمد بن محمد الجزري ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، بيروت، المكتبة العلمية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوزاني، التمهيد في أصول الفقه تحقيق: مفيد محمد أبو عمشة، محمد بن علي بن إبراهيم مكة المكرمة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م.
- أبو الحسين، محمد بن أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي، طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة (د.ت).
- أبو سهل، محمد بن أحمد، شمس الأئمة السرخسي، أصول السرخسي، بيروت، دار المعرفة (د.ت).
- أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، بيروت، دار الفكر.
- محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، رد المختار على الدر المختار، ط٢، بيروت، دار الفكر، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- أبو حاتم، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معبد التميمي، الدارمي البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، ط١، دار الكتبي، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- أبوبكر، محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأشبيلي المالكي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسن القلعي الشافعي، تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، تحقيق: إبراهيم عجو، الأردن، مكتبة المنار (د.ت).
- أبو الحسين، محمد بن علي الطيب المعتزلي، المعتمد في أصول الفقه، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ.
- أبو عيسى، محمد بن عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت).
- أبو حامد، محمد بن محمد الغزالي الطوسي، المستصفى، تحقيق: محمد عبد السلام الشافعي، ط١، دار الكتب العلمية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.



## طاعة ولاة الأمر في السنّة النبويّة ...

- أبو عبد الله، محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن أمير حاج، التقرير والتجبير على تحرير الكمال بن الهمام، ط ٢، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- أبو الفضل، محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، لسان العرب، بيروت، دار صادر ط ٣ ١٤١٤ هـ.
- أبو عبد الله، محمد بن يزيد بن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (د.ت).
- أبو عبد الرحمن، محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الكبير، المكتب الإسلامي ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- مسعود بن عمر التفتازاني، شرح التلويح على التوضيح، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- أبو الحسن، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت).
- منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، كشاف القناع عن متن الإقناع، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- أبو زكريا، يحيى بن شرف النووي، منهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه، تحقيق: عوض قاسم أحمد عوض، ط ١، دار الفكر ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.
- أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم النمري القرطبي.
- جامع بيان العلم وفضله، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي ١٤١٤ هـ - ١٩٩٥ م.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب ١٤١٢ هـ.



أثر طاعة وليّ الأمر في حماية الوطن  
(ضوابطها، أسسها، مقوماتها)  
دراسة تحليلية في السنة النبوية

الأستاذة الدكتورة/ سلوى محمد المحمادي  
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة  
جامعة أم القرى/ المملكة العربية السعودية





## المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد..

يدعو الدين الإسلامي الحنيف إلى الدعوة إلى اجتماع الكلمة ووحدة الصف، والالتفاف حول الأئمة وولاة الأمور، والبيعة لهم وطاعتهم بالمعروف، لما في الاجتماع من عز وسعادة، وفي الطاعة استقرار وأمن.

وكل أمة تحتاج إلى قائد تلتف حوله، وتجاهد تحت رايته، ويحمي حوزتها، ويدافع عن حقوقها ومكتسباتها، ويقوم فيها شعائر دينها ويحفظ ضرورياتها، ويقمع عنها أهل الشر والفساد والطغيان حتى لا تتفرق كلمتها وتذهب ريحها، وينقلب عزها ذلاً، ويطمع فيها الأعداء، وتكثر فيها الفتن والأهواء.

لذا شرع الله الإمامة، وأوجب السمع والطاعة في غير معصية، إذ المعلوم من الدين بالضرورة أنه لا دين إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمامة ولا إمامة إلا بالسمع والطاعة، وأن الخروج عن الطاعة من أعظم أسباب الفساد في البلاد والعباد والضلال من طريق الهدى والإرشاد.

ولما للطاعة من دور هام في تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية، قرن الله طاعته وطاعة رسوله ﷺ بطاعة وليّ الأمر قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٥٩).

وقد أعلنت الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف بكلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي عزمها على عقد الندوة العلمية التاسعة بعنوان "حماية الوطن في السنة النبوية مقصد شرعي وضرورة

مجتمعية وكان من محاوره: المحور الثاني: أسس حماية الوطن، ومقوماتها في السنة النبوية، وكان من عناصره: طاعة وليّ الأمر فرغبت الباحثة المشاركة في هذا العنصر للأسباب التالية:

١. أهمية الموضوع، فهو لازم من لوازم طاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ. وله الدور الكبير في حماية الوطن من الفتن.

٢. يؤدي عدم الفهم الصحيح لمفهوم طاعة وليّ الأمر إلى أضرار كبيرة بالمجتمع.

٣. إن في الطاعة تماسكاً وتلاحماً بين الراعي والرعية، وإظهاراً للدولة بمظهر القوة والعزة والغلبة والرهبة أمام الأعداء.

**مشكلة البحث:** تتحدد مشكلة البحث في الإجابة عن التساؤلين التاليين:

١- ما ضوابط طاعة وليّ الأمر، وما أسسها ومقوماتها في السنة النبوية؟

٢- ما دور طاعة وليّ الأمر في حماية أمن الوطن؟

**أهمية البحث:** تكمن أهمية البحث في الآتي:

- إن طاعة وليّ الأمر أصل من أصول عقيدة السلف الصالح.
- إن طاعة وليّ الأمر تعمل على ترسيخ أسس الاستقرار في المجتمع.
- من مقاصد الإسلام العظيمة: حفظ الدين، والعقل، والنفس والعرض، والمال، وكل هذه الأمور
- لا تتحقق إلا بطاعة ولاة الأمر.

- إن الطاعة لوليّ الأمر بالمعروف لها علاقة بأطراف متعددة من طبقات المجتمع عامة فيحتاج إليها طالب العلم والعامي والحاكم والمحكوم والمفتي والمستفتي فنفعها عام والحاجة إليها داعية فتعين صرف الهمم إليها. قال ابن جماعة: "والأولى أن يُعنى بما يعم نفعه وتكثر الحاجة إليه"<sup>(١)</sup>.

١- ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، ٣٠.

### أهداف البحث: يهدف البحث إلى:

- بيان مفهوم الطاعة وتصحيح خطأ مهم لدى كثير من الناس في فهم هذا الأصل العظيم.
- بيان ضوابط طاعة وليّ الأمر وأسسها ومقوماتها.
- بيان أهمية النصيحة لولاة الأمر وأنها من مقتضى مقاصد الشريعة الإسلامية.
- الالتفاف حول وليّ الأمر لضمان سلامة المجتمع وحفظ الأمن وانتظام مصالح الناس ومعايشهم
- ترسيخ الوعي بمدى إسهام السنة النبوية في تحصين المجتمع من الانحرافات الفكرية والإخلال بالأمن العام.

### الدراسات السابقة:

١. طاعة ولاة الأمر في السنة النبوية، لخالد بن إبراهيم بن سليمان الرومي<sup>(١)</sup>، اتفق بحثي مع البحث السابق في ثلاث مسائل، هي: من هم ولاة الأمر، ضوابط الطاعة، النصيحة لولاة الأمر، وانفرد بحثي عنه في مسألة جوهرية وهي: أسس ومقومات الطاعة.
٢. طاعة ولاة الأمر في ضوء الكتاب والسنة، لمحمد بن حسن المريخي وهو بحث قصير منشور على الشبكة العنكبوتية، تطرق فيه الباحث لإظهار مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة طاعة وليّ الأمر ومناصحته وتطرق لقضية الخروج على الحاكم وسرد الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف في ذلك، وخلص إلى أن السلامة في طاعة الحكام وعدم الخروج عليهم ومناصحتهم سرًا.
٣. طاعة وليّ الأمر وأثرها في تحقيق أمن الوطن دراسة شرعية، لأحمد بن يوسف أحمد الدريويش<sup>(٢)</sup>، وهو عبارة عن عشرة مباحث، تحدث في المبحث الأول: عن معنى الطاعة لغة واصطلاحًا.

١- قسم السنة وعلومها، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، يقع البحث في ست وثلاثين صفحة، نشر في مجلة العلوم الشرعية العدد الثامن عشر محرم ١٤٣٢هـ.

٢- يقع في ١٧٥ صفحة نشرته دار كنوز إشبيليا، سنة النشر ٢٠٠٥م.

والمبحث الثاني: المقصود بوليّ الأمر، والمبحث الثالث: حاجة الأمة إلى إمام وحكم نصبه، والمبحث الرابع: حقوق وليّ الأمر ومهامه ومسؤولياته، والمبحث الخامس: حكم طاعة وليّ الأمر، والمبحث السادس: عمل وليّ الأمر بالسياسة الشرعية، والمبحث السابع: ضابط تصرف وليّ الأمر على الرعية، والمبحث الثامن: التعامل مع غير المسلمين من أهل الذمة ومن في حكمهم، والمبحث التاسع: لزوم الجماعة ونبذ الفرقة والاختلاف، والمبحث العاشر: أثر السمع والطاعة على أمن الوطن.

٤. الطاعة السياسية في الفكر الإسلامي: النص والاجتهاد والممارسة، لهاني عبادي محمد سيف المغلس. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ١٤٠١هـ/١٩٨١م، وقد ناقش فيه المؤلف إطار الطاعة السياسية في الفكر الإسلامي، ومفهوم الطاعة السياسية في المصادر الإسلامية، محاولة تأصيل، وتشكل المفهوم وسلطته. ودراسي - وإن التقت معه في بعض الألفاظ - إلا أنها تختلف عنه اختلافاً جذرياً لكونه ناقش هذه الموضوعات من منظور فكري خالص يظهر مسألة طاعة وليّ الأمر على أنها مسألة فكرية فقهية ولا علاقة لها بالعقيدة؛ وعليه فطرحي للموضوع يختلف عن طرحه تماماً.

٥. أحاديث السمع والطاعة لولاة الأمر وأثرها في تحقيق الأمن الفكري، لإبراهيم بني سلامة<sup>(١)</sup>، أورد الباحث فيه الأحاديث الواردة في طاعة وليّ الأمر، وقام بدراستها دراسة فقهية حديثة.

٦. مفهوم "طاعة الحاكم" في الفكر السياسي الإسلامي دراسة أحاديث الطاعة، لبشار بكور، وعبد العزيز برغوث<sup>(٢)</sup>، وقد تطرق الباحثان لمناقشة ما يسمى بالربيع العربي، ومناقشة مسألة الطاعة هل هي مطلقة وإن جار الحاكم، أم مقيدة بالعدالة الاجتماعية، وتطرقا أيضاً لقضية الإنكار على الحاكم علانية مهما كلف الإنكار من تبعات؛ وعليه فبحثي يختلف عما طرحه الباحثان؛ لأن أدلة أهل السنة والجماعة تحث على مناصحة الحاكم سرّاً لكيلا تحدث فتنة ويتألب العوام على الحاكم.

١- عدد صفحاته ٦١ صفحة وكان مشاركة من الباحث في مؤتمر الحسبة بجامعة أم القرى.

٢- بحث منشور في مجلة التجديد، المجلد ٢١، العدد ٤٢، (١٤٣٩هـ/٢٠١٧م) الجامعة العالمية ماليزيا.



### الإضافة العلمية:

- حاولت في هذا البحث تصحيح مفهوم كثير من الناس في فهم طاعة وليّ الأمر على أنّها واجبة فقط في حال أن أحكام الإمام موافقة لهواه، وليس فيها ضرر على مصالحه ودنياه والصحيح أن الطاعة فيما أحب وكره في منشطه ومكرهه وعسره ويسره.
- جمع ما تناثر وتفرق في الأبحاث السابقة بعبارة أوجز ليكون في متناول الجميع.
- التركيز على ضوابط طاعة وليّ الأمر وأسسها ومقوماتها في السنة النبوية ومدى إسهامها في حماية أمن الوطن.

**تساؤلات البحث:** حاولت الباحثة الإجابة على التساؤلات التالية: ما المقصود بوليّ الأمر؟ ما ضوابط طاعة وليّ الأمر وما أسسها ومقوماتها في السنة النبوية؟ ما أثر طاعة وليّ الأمر في حماية أمن الوطن؟

### التمهيد:

#### تعريف الطاعة لغة واصطلاحًا:

**الطاعة في اللغة:** (طَوَعَ) الطاء والواو والعين أصل صحيح واحد يدل على الإصحاب والانقياد، يقال: طاعه يطوعه إذا انقاد معه ومضى لأمره وأطاعه بمعنى طاع له، ويقال لمن وافق غيره قد طاعه، والطاعة: ضد الكره<sup>(١)</sup>.

**الطاعة اصطلاحًا:** الامتثال ظاهرًا وباطنًا لحكم الله ورسوله وما يقوله من دعا إلى ذلك<sup>(٢)</sup>. ورود لفظ الطاعة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية؛ أما في القرآن الكريم فقد وردت مادة "طوع" في عشرات المواضع بدلالات متقاربة تعود في جملتها إلى المعنى اللغوي. قال الراغب: "الطوع: الانقياد وبضاده الكره. قال تعالى: ﴿أَتَتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (سورة فصلت: ١١)، ﴿وَلَهُمْ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ

١- ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٤٣١/٣. ابن منظور، لسان العرب، ٢٤٠/٨.

٢- ابن علان، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٤٣٠/١.

﴿يُرْجَعُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٨٣]. والطاعة مثله لكن أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر والارتسام فيما رُسم. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [سورة النساء: ٨١] ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [سورة محمد: ٢١] أي أطيعوا وقد طاع له يطوع وأطاعه يطيعه قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [سورة النساء: ٥٩]"<sup>(١)</sup>.

وجاء في المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث "قوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَئِنَّمَا طَاعِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١] يقال: طاع له يطوع ويطيع ويَطَاع: إذا انقاد له وأقر بما يريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَالَتَا أَئِنَّمَا طَاعِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١]، لأنه إذا مضى لأمره فقد أطاعه وهو مطيع والاسم الطاعة فإذا وافقه فقد طاعه"<sup>(٢)</sup>.

وأما في السنة فقد ورد لفظ الطاعة في عشرات الأحاديث وهي تعود في جملتها إلى المعنى اللغوي، وإلى المعنى الشرعي في القرآن الكريم. والمراد بالطاعة هنا: الاستجابة والانقياد لما يأمر به وينهى عنه ولي الأمر، وذلك بامتنال الأمر والنهي دون منازعة ومعارضة سواء أمر بما يوافق الطبع أم لم يوافق بشرط أن لا يأمر بمعصية"<sup>(٣)</sup>.

وورد استعمال الشرع للفظ الطاعة مقرونًا بلفظة أخرى هي السمع فيقال: السمع والطاعة وسمعنا وأطعنا وذلك في مواضع كثيرة جدًا. منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [سورة النساء: ٤٦]. وفي الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"<sup>(٤)</sup>.

معنى ولي الأمر لغةً واصطلاحًا:

- ١- الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، ج/٢/٤٠٤، وينظر: الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، ٣/٥١٩.
- ٢- الأصفهاني، المغيث في غربي القرآن والحديث، ٢/٣٧٠.
- ٣- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٥/٢٦١. والقاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٧/٢٢٥.
- ٤- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ٦/١٥، ح/١٨٣٩.

**أولاً: تعريف الوليّ لغة:** الوليّ: هو كل من وليّ أمرًا أو قام به<sup>(١)</sup>. والولاية: الإمارة، والسلطان، والملك<sup>(٢)</sup>. يقال: ولّاه الأمير عمل كذا، أي تقلد<sup>(٣)</sup>. والوليّ اصطلاحًا: "من توالى طاعته من غير تخلل عصيان"<sup>(٤)</sup>. والولاية: "تنفيذ القول على الغير، شاء الغير أم أبي"<sup>(٥)</sup>.

**ثانيًا: تعريف الأمر: الأمر لغة:** استعمال صيغة دالة على طلب من المخاطب على طريق الاستعلاء<sup>(٦)</sup>. والأمر: نقيض النهي<sup>(٧)</sup>. والأمر: الطلب، والجمع: أوامر<sup>(٨)</sup>. تعريف الأمر اصطلاحًا: "القول المقتضي طاعة المأمور بفعل المأثور به"<sup>(٩)</sup>.

**ثالثًا: تعريف وليّ الأمر: أولو الأمر في اللغة هم:** الرؤساء، والعلماء<sup>(١٠)</sup>. وأما وليّ الأمر اصطلاحًا: فقد وردت تعريفات كثيرة من أشهرها: قال ابن عباس وجابر رضي الله عنهما: "هم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس معالم دينهم". وقال أبو هريرة: "هم الأمراء والولاة"<sup>(١١)</sup>. قال الإمام النووي: "المراد بأولي الأمر من أوجب الله طاعته من الولاة والأمراء هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم، وقيل: هم العلماء، وقيل: هم الأمراء والعلماء"<sup>(١٢)</sup>. وقال ابن جماعة: "أولو الأمر هم: الإمام ونوابه عند الأكثرين"<sup>(١٣)</sup>. أما شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول: "وأولو الأمر هم أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهل اليد

- ١- مصطفى إبراهيم، المعجم الوسيط، ١٠٥٨/٢.
- ٢- الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ٢٥٣٠/٦. والكفوي، الكليات، ٩٤٠.
- ٣- الجوهري، الصحاح تاج اللغة، ٢٥٢٩ / ٦.
- ٤- المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ٣٤٠.
- ٥- الجرجاني، التعريفات، ٢٥٤.
- ٦- الكفوي، الكليات، ١٧٦.
- ٧- ابن منظور، لسان العرب، ٢٦/٤. وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١٣٧/١.
- ٨- مصطفى، المعجم الوسيط، ٢٦/١. الجوهري، الصحاح، ٥٨١/٢.
- ٩- قلنجي، محمد رواس. وقتبي، حامد صادق، معجم لغة الفقهاء، ٨٩.
- ١٠- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ٣٤٤/١.
- ١١- الزيد، عبد الله بن أحمد بن علي، مختصر تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، ١٨٧/١.
- ١٢- النووي، شرح صحيح مسلم، ٢٢٣/١٢.
- ١٣- ابن جماعة، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ٦٢.

والقدرة وأهل العلم والكلام ولهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء، والأمرء فإذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما سئل: ما بقاؤنا على هذا الأمر قال "ما استقامت لكم أئمتكم"، ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان، وكل من كان متبوعاً فإنه من أولي الأمر"<sup>(١)</sup>. وقال الشيخ السعدي: "هم الولاة على الناس من الأمرء والحكام والمفتين"<sup>(٢)</sup>. ويقول الشيخ محمد العثيمين: "أما العلماء فهم ولاة أمور المسلمين في بيان الشرع وتعليمه وهداية الخلق إلى الحق. وأما الأمرء فهم ولاة الأمور في ضبط الأمن وحماية الشريعة وإلزام الناس بها"<sup>(٣)</sup>. ويؤكد الإمام الماوردي على أن أولي الأمر هم: الأئمة حيث يقول عن المراد بهم، في قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء: ٥٩]. قال: "ففرض علينا طاعة أولي الأمر فينا، وهم الأئمة المتأمرون علينا"<sup>(٤)</sup>. وجاء في صحيح البخاري في كتاب الأحكام "باب قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء: ٥٩] فعلق على ذلك الإمام ابن حجر -رحمه الله- فقال: "في هذا إشارة من المصنف إلى ترجيح القول الصادر إلى أن الآية نزلت في طاعة الأمرء خلافاً لمن قال نزلت في العلماء.."<sup>(٥)</sup>. ورجح ذلك الإمام الطبري في تفسيره بعد عرضه أقوال السلف في المراد بأولي الأمر في الآية الكريمة فقال: "وأولي الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الأمرء والولاة لصحة الأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم بطاعة الأئمة والولاة فيما كان طاعة، وللمسلمين مصلحة"<sup>(٦)</sup>. يقول أحمد الدريوش: "أما القول المختار بعد عرض آراء أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم في المراد بأولي الأمر الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ الذي يظهر لي أن القول الراجح في ذلك أنهم الولاة والأئمة، وهو ما رجحه الإمام الطبري، والماوردي -رحمهما الله- وغيرهما وإن كان ينبغي ألا يهمل دور العلماء في بيان الأحكام الشرعية للأئمة، وما يجوز، وما

١- ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ١٧٠/٢٨.

٢- السعدي، تيسير الرحمن في تفسير كلام المنان، ١٨٤.

٣- العثيمين، شرح رياض الصالحين، ٦٥١/٣.

٤- الماوردي، الأحكام السلطانية، ٣٠.

٥- ابن حجر، فتح الباري، ١١٩/١٣.

٦- الطبري، جامع البيان، ١٨٢/٧.

لا يجوز، فيدخلون معهم في عموم الإطلاق لا في خصوصه"<sup>(١)</sup>.

ومرادي في هذا البحث من مصطلح "أولي الأمر" هم الأمراء والولاة خاصة بدءًا بالإمام ومرورًا بالوزراء وانتهاءً بمديري الإدارات والمسؤولين من قبل الدولة ويمكن اختصارهم بالإمام ونوابه.

### المبحث الأول: ضوابط طاعة وليّ الأمر

أوجبت الشريعة طاعة ولاة الأمر في المعروف إذ لا يمكن تحقيق مقاصد الشريعة الدينية والدنيوية إلا بطاعتهم ويعتقد كثير من الناس أن الطاعة مطلقة وليس لها ضوابط، إلا أن كنوز السنة النبوية ذكرت ضوابط طاعة ولاة الأمر منها:

١- الإخلاص لله: ينبغي أن تكون العلاقة مع ولاة الأمر خالصة لوجه الله تعالى، ويكون الدافع فيها: الدين أولًا ومن ثم منافع العباد واستقرارهم. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ، وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ، وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهِ كَذَا وَكَذَا، فَأَخَذَهَا"<sup>(٢)</sup>.

٢- الطاعة تكون في المعروف وليس في معصية الله. تأمل قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء: ٥٩]. ففي الآية السابقة نجد أن الله بدأها بالنداء للمؤمنين؛ ليرعوا سمعهم لما بعدها، وأن ما بعدها أمر عظيم مهم وهو طاعة الله، وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام وأولي الأمر، وتأمل "كيف قال: "وأطيعوا الرسول" ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم؟ لأن أولي الأمر لا يفردون بالطاعة، بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله. وأعاد الفعل مع الرسول لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله، فإن الرسول لا يأمر بغير طاعة الله، بل هو معصوم في ذلك، وأما وليّ الأمر فقد يأمر بغير طاعة

١- الدرر، طاعة وليّ الأمر وأثرها في أمن الوطن، ٢٩-٣٠.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب اليمين بعد العصر، ٣/١٧٨، ح/٢٦٧٢.

الله فلا يطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله"<sup>(١)</sup>. وقد صرح بهذه القاعدة العظيمة خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر رضي الله عنه عندما قال: "أما بعد: أيها الناس فقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"<sup>(٢)</sup>.

ولم يجعل المصطفى عليه الصلاة والسلام طاعة ولي الأمر مطلقة بل قيدها بإقامة شرع الله وعدم الأمر بالمعصية؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما ما عن النبي ﷺ قال: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"<sup>(٣)</sup>.

٣- السمع والطاعة لولي الأمر ولو خالفت أوامره ميول النفس ما دام لم يأمر بمعصية. لما في ذلك من حفاظ على العباد والبلاد وما ينتج عنه من حماية للوطن؛ فعن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"<sup>(٤)</sup>. فأمر النبي ﷺ بالسمع والطاعة لولي الأمر ولو خالفت أوامره ميول النفس ما لم يأمر بمعصية. ويشهد لذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ"<sup>(٥)</sup>. قال القرطبي: "إن طاعة الأمير واجبة على كل حال، سواء كان المأمور به موافقاً لنشاط الإنسان وهو، أو مخالفاً له ما لم يأمر بمعصية"<sup>(٦)</sup>. فحق ولي الأمر أن يطاع في كل ما أمر به إذا وافق شرع الله تعالى والتوقف فيما يخالف الشرع؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فعن علي رضي الله عنه قال: "بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَعَضِبَ فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمْرُكُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطْبًا فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقِدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا،

١- الطحاوي، شرح العقيدة الطحاوية، ٥٤٣/٢.

٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ٤١١/٤.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب السمع والطاعة للإمام، ٤٩/٤، ح ٢٩٥٥.

٤- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب السمع والطاعة للإمام، ٤٩/٤، ح ٢٩٥٥.

٥- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ٦٣/٩، ح ٧١٤٤.

٦- القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ٨٩/١٢.

وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنَ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"<sup>(١)</sup>. وفي صحيح ابن حبان أنه قال لِلْآخِرِينَ: "خَيْرًا" وَقَالَ: "أَحْسَنْتُمْ، لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"<sup>(٢)</sup>. ويقول الحافظ في الفتح: " أَنَّ الَّذِينَ هُمُوا أَنْ يُطِيعُوهُ وَقَفُوا عِنْدَ امْتِنَالِ الْأَمْرِ بِالطَّاعَةِ وَالَّذِينَ امْتَنَعُوا عَارِضَهُ عِنْدَهُمْ الْفِرَارُ مِنَ النَّارِ فَنَاسَبَ أَنْ يَنْزَلَ فِي ذَلِكَ مَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى مَا يَفْعَلُونَهُ عِنْدَ التَّنَازُعِ وَهُوَ الرُّدُّ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ أَيُّ إِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي جَوَازِ الشَّيْءِ وَعَدَمَ جَوَازِهِ فَارْجِعُوا إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ"<sup>(٣)</sup>. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "... ولم يأمر بطاعة الأئمة مطلقًا بل أمر بطاعتهم في طاعة الله دون معصيته، وهذا يبين أن الأئمة الذين أمر بطاعتهم في طاعة الله ليسوا معصومين"<sup>(٤)</sup>. وقال ابن القيم: "والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف، وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء"<sup>(٥)</sup>.

### المبحث الثاني: أسس ومقومات طاعة وليّ الأمر

لم يترك الإسلام شيئًا يهم المسلم في دينه ودنياه إلا بينه، خاصة ما يتعلق بطاعة ولاة الأمر؛ لما ينتج عن طاعتهم من حماية للبلاد والعباد، فقد ورد عن النبي ﷺ في كتب الصحاح والمسانيد أحاديث كثيرة ومستفيضة تأمر بطاعة وليّ الأمر عادلاً كان أم جائراً؛ إذ في طاعته حماية للوطن والمواطن<sup>(٦)</sup>. وقد تعددت الأساليب النبوية حيث لم تترك مجالاً لأي تأويل أو غموض أو لبس فتأتي

- ١- أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي، ج ٥/١٦١، ح/ ٤٣٤٠.
- ٢- صحيح ابن حبان، ٤٢٩/١٠.
- ٣- ابن حجر، فتح الباري، ٢٥٤/٨.
- ٤- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ١١٦/١١٥/١.
- ٥- ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين، ٨/١.
- ٦- ينظر الأحاديث: في ابن الأثير، جامع الأصول، ٤/ ٦١-٧٢. والبيهقي، الجامع لشعب الإيمان، ٣٠-٥/١٠، والهيتمي، مجمع الزوائد، ٥، ٢١٦-٢٢٥.

تارة بصيغة الأمر خطاباً للجماعة عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا..."<sup>(١)</sup>، وتارة للفرد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ."<sup>(٢)</sup>، وتارة للغائب عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ"<sup>(٣)</sup>، ومرة بصيغة النهي: "وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ"<sup>(٤)</sup>، ومرة بصيغة الوعيد: "مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"<sup>(٥)</sup>، وتارة بصيغة الإخبار "تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ"<sup>(٦)</sup>. وتأكيداً لهذه الطاعة وأهميتها في الحفاظ على أمن الوطن والمواطن وضع المصطفى ﷺ أسساً هي:

١- جعل طاعة ولي الأمر سبباً من أسباب دخول الجنة: عن أبي أمامة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ"<sup>(٧)</sup>.

٢- عد النبي طاعة ولي الأمر من طاعة لله: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ "مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي"<sup>(٨)</sup>. قال الإمام النووي: "قال العلماء: معناه تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس، وغيره مما ليس بمعصية، فإن كانت لمعصية فلا سمع ولا طاعة كما صرح به

١- أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب إمامة العبد والمولّي، ١/١٤٠، ح ٦٩٣.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأُمراء في غير معصية، ٦/١٦، ح ١٨٣٦.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ٩/٦٣،

ح ٧١٤٤

٤- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشروطهم، ٦/٢٤، ح ١٨٥٥.

٥- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، ٦/٦،

٩. ح ١٨٥١

٦- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن،

٢٠/٦. ح ١٨٤٧

٧- أخرجه الترمذي، أبواب السفر، باب منه، ج ١/٦٠٢، ح ٦١٦. قال عنه حديث صحيح.

٨- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأُمراء في غير معصية، ٦/١٣، ح/

١٨٣٥



في الأحاديث الباقية<sup>(١)</sup>. عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ حَدِيثِي تُحَدِّثُ: أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يَقُولُ: وَلَوْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا<sup>(٢)</sup>. فالطاعة مقيدة بما لم يأمر بمعصية، وكان يقودهم بكتاب الله. ثم يأتي الصحابة رضوان الله عليهم ليزيدوا الأمر بياناً فوق بيانه فيقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: "بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ"<sup>(٣)</sup>. وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله "تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِع"<sup>(٤)</sup>، ففي الحديث السابق وصف دقيق لأسوأ حالات الظلم من الوالي لرعيته، ومع ذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالطاعة والصبر ولم يأذن بالخروج عليه أو قتاله. وإن تكلم بعض أهل العلم في إسناده، ولكن هذا الحديث ثابت في الصحيح، وليس فيه إشكال، وحاشا للرسول صلى الله عليه وسلم أن يسوغ للظلم أو يرضاه.

بل إن هذا الحديث وأمثاله يتضمن أصلاً عظيمًا من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة في لزوم جماعة المسلمين والصبر على جور الولاة وظلمهم لما يترتب على ذلك من المصالح العظيمة من حقن دماء المسلمين وحماية أعراضهم وأمنهم واستقرارهم وهي مصالح تفوق بكثير ما يلحق من الضرر في الصبر على جورهم، وأشد منها ضرر الخروج وشق عصا الطاعة، وهذا من ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما وهي قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام.

جاء في صحيح البخاري عن الزبير بن عدي رضي الله عنه: "قَالَ: أَتَيْتَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فَشَكَّوْنَا إِلَيْهِ مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْحَجَّاجِ فَقَالَ: "اضْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقُوا رَبَّكُمْ سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم"<sup>(٥)</sup>. وقال ابن تيمية: "فهذا أمر بالطاعة مع ظلم الأمير"<sup>(٦)</sup>.

- ١- النووي شرح النووي، ٢٤٢/١٢.
- ٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ١٤/٦، ح ١٨٣٨.
- ٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، ٧٧/٩، ح ٧١٩٩.
- ٤- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، ٢٠/٦، ح ١٨٤٧.
- ٥- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، ج ٩/٤٩، ح ٧٠٦٨.
- ٦- ابن تيمية، منهاج السنة، ٣/٣٩٣.

ويقول أبو الحسن الأشعري: "وأجمعوا - أي العلماء - على السمع والطاعة لأئمة المسلمين"<sup>(١)</sup>. وما ذاك إلا لأن في الطاعة لولاة الأمر سعادة الدنيا. واستقامة مصالح العباد في معاشهم. وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يبحث على طاعة ولاة الأمر: "طاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد، وطاعة ولاة الأمر واجبة لأمر الله بطاعتهم، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله"<sup>(٢)</sup>، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا، ولو كان عبداً حبشياً فبين النبي ﷺ هذا بياناً شائعاً ذائعاً بكل وجه من أنواع البيان شرعاً وقدرًا ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعى العلم.."<sup>(٣)</sup>.

نلاحظ من الأحاديث السابقة حث النبي ﷺ وحرصه على الطاعة بوصفها قاعدة أساسية في بناء المجتمع السياسي الإسلامي، يتوقف عليها انتظام سيره وتحقيق مصالحه، إلا أن سبباً اجتماعياً رئيساً يكشف عنه الإمام الخطابي يفسر اهتمام الرسول ﷺ بالتشديد على طاعة أولي الأمر ويرتبط ذلك السبب بضمور فكرة الطاعة عند العرب فيقول: "كانت قريش ومن يليهم من العرب لا يعرفون الإمارة ولا يدينون لغير رؤساء قبائلهم، فلما كان الإسلام ووليّ عليهم الأمراء أنكرت نفوسهم، وامتنع بعضهم عن الطاعة فأعلمهم ﷺ أن طاعتهم مربوطة بطاعته ومعصيتهم بمعصيته حثاً لهم على طاعة أمرائهم لئلا تتفرق الكلمة"<sup>(٤)</sup>.

وجاء في كتاب الرسالة: "لأن كل من كان حول مكة من العرب لم يكن يعرف إمارة وكانت تأنف أن يعطى بعضها بعضاً طاعة الإمارة"<sup>(٥)</sup>.

ومن المعلوم أن العرب كانت في غاية العصبية والعنصرية قبل الإسلام يتعالون على غيرهم من الأمم، وينظرون إلى غيرهم من الشعوب نظرة الاحتقار والازدراء وبالأخص إلى الأحباش والسودان، فجاء النص الشرعي مشدداً على وجوب السمع والطاعة حتى للعبد الأسود الحبشي،

١- الأشعري، رسالة إلى أهل الثغر، ٢٩٦.

٢- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٦/٣٥.

٣- ابن عبد الوهاب، مجموعة التوحيد الندية، ١٨٣.

٤- ينظر: صحيح مسلم، ١٤٦٦/٣.

٥- الشافعي، الرسالة، ٧٩.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأَطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ"<sup>(١)</sup>. ويقول ابن الأزرق: "إن الطاعة أصل عظيم من أصول الواجبات الدينية حتى أدرجها الأئمة في جملة العقائد الإيمانية"<sup>(٢)</sup>.

٣- الصبر على الأمير: أرشد النبي ﷺ أمته في أحاديث كثيرة إلى الصبر على هفوات وزلات وليّ الأمر إن بدر منه ذلك، وعدم مبادرته بالعصيان والخروج عليه لأقل الأسباب، والصبر إزاء ظلمه، والنظر لما أعدده الله للمؤمنين جزاء صبرهم. ولما في الصبر عليهم من حماية للوطن؛ فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شَبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"<sup>(٣)</sup>.

ولقد أمر ﷺ بالصبر على وليّ الأمر وعدم مفارقة الجماعة، وعد مفارقة الجماعة من عمل الجاهلية. لما في الاجتماع من حماية للأوطان. جاء في فتح الباري: "وقوله شبرًا بكسر المعجمة وسكون الموحدة وهي كناية عن معصية السلطان ومحاربتة، والمراد بالميتة الجاهلية بكسر الميم حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال وليّس له إمام مطاع؛ لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليّس المراد أنه يموت كافرًا بل يموت عاصيًا، ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره ومعناه أنه يموت مثل موت الجاهلي وإن لم يكن هو جاهليًا أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير وظاهره غير مراد"<sup>(٤)</sup>.

قال ابن تيمية: "يجب على الرعية الصبر على جور الأئمة وظلمهم إذا لم يكن في ترك الصبر مفسدة راجحة"<sup>(٥)</sup>، وقال العيني: قوله "من خرج من السلطان أي: من طاعته. وقوله: فليصبر يعني فليصبر على ذلك المكروه، ولا يخرج عن طاعته؛ لأن في ذلك حقن الدماء وتسكين الفتنة إلا أن يكفر الإمام ويظهر خلاف دعوة الإسلام فلا طاعة لمخلوق عليه، وفيه: دليل على أن السلطان

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهية الصلاة عن وقتها المختار، ١٢٠/٢، ح ٦٤٨.

٢- ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ٧٧/١.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي سترون بعدي أمورًا تنكرونها، ٤٧/٩، ح ٧٠٥٣، وأخرجه مسلم كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، ٢١/٦، ح ١٨٤٩.

٤- ابن حجر، فتح الباري، ٧/١٣.

٥- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٨٠/٢٨.

لا ينعزل بالفسق والظلم ولا تجوز منازعته في السلطنة بذلك. قوله: شبراً أي: قدر شبر وهو كناية عن خروجه ولو كان بأدنى شيء"<sup>(١)</sup>. وقال ابن بطلال: "في هذا الحديث حجة في ترك الخروج على أئمة الجور، ولزوم السمع والطاعة لهم، والفقهاء مجمعون على أن الإمام المتغلب طاعته لازمة ما أقام الجمعات والجهاد، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء"<sup>(٢)</sup>. وقد أمر النبي ﷺ بالصبر على جور ولاة الأمر في كل الأحوال وعلى مدى الحياة فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْأَنْصَارِ: "إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثْرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي وَمَوْعِدِكُمْ الْحَوْضُ"<sup>(٣)</sup>.

ففي الحديث: "ستلقون بعدى أثره" أي يستأثر عليكم بما لكم فيه اشتراك من الاستحقاق (فاصبروا) على ذلك (حتى تلقوني على الحوض) يوم القيامة فيحصل لكم الانتصاف ممن ظلمكم مع الثواب الجزيل على الصبر"<sup>(٤)</sup>، ومما يؤكد على ضرورة وأهمية الصبر على ولاة الأمر ما روي عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَاثِلِ الْحَضْرَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَأَلَ سَلْمَةَ بْنَ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتِ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّلَاثَةِ فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ: اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ"<sup>(٥)</sup>. وَعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا؟ قَالَ: سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثْرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ"<sup>(٦)</sup>. هذه وصية المصطفى عليه الصلاة والسلام بالصبر عليهم؛ لأن في عدم الصبر عليهم ضرراً كبيراً يدمر المجتمعات، ويحرق البركات، ويخلف الدمار. قال النووي: "الاستئثار: المراد

١- العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ١٧٨/٢٤.

٢- ابن بطلال، شرح صحيح البخاري، ٨/١٠.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي ﷺ للأنصار اصبروا حتى تلقوني على الحوض، ٣٣/٥، ح ٣٧٩٣.

٤- القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٤١٢/٦.

٥- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب في طاعة الأئمة وإن منعوا الحقوق، ١٩/٦، ح ١٨٤٦.

٦- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار باب قول النبي ﷺ للأنصار اصبروا حتى تلقوني على الحوض، ٣٣/٥، ح ٣٧٩٢.

به هنا استشار الأُمراء بأموال بيت المال"، والأثر: الاختصاص في أمور الدنيا عليكم: أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأُمراء بالدنيا ولم يوصلوا لكم حقكم مما عندهم. وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال، وسببها اجتماع كلمة المسلمين؛ فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم<sup>(١)</sup>، وقد عد ابن تيمية -رحمه الله-: "الصبر على جور وليّ الأمر أصل من أصول السنة فقال" الصبر على ظلم وجور الأئمة أصل من أصول أهل السنة"<sup>(٢)</sup>، وعن سُؤيد بن غفلة، قال: قال لي عُمَرُ: "يَا أَبَا أُمَيَّةَ، إِيَّيْ لَا أَدْرِي، لَعَلِّي لَا أَلْفَاكَ بَعْدَ عَامِي هَذَا، فَإِنْ أَمُرَ عَلَيْكَ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدِّعٌ فَاسْمَعْ لَهُ وَأَطِعْ، وَإِنْ ضَرَبَكَ فَاصْبِرْ، وَإِنْ حَرَمَكَ فَاصْبِرْ، وَإِنْ أَرَادَ أَمْرًا يُنْفِصُ دِينَكَ، فَقُلْ: سَمْعًا وَطَاعَةً، دَمِي دُونَ دِينِي، وَلَا تُفَارِقِ الْجَمَاعَةَ"<sup>(٣)</sup>، وعن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كَيْفَ أَنْتُمْ وَأُمَّةٌ مِنْ بَعْدِي يَسْتَأْثِرُونَ بِهَذَا الْفِيءِ؟ قُلْتُ: أَمَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ أَضْعُ سِنْفِي عَلَى عَاتِقِي ثُمَّ أَضْرِبُ بِهِ حَتَّى أَلْفَاكَ أَوْ أَلْحَقَكَ. قَالَ: أَوْ لَا أَذُكُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ تَصْبِرُ حَتَّى تَلْقَانِي"<sup>(٤)</sup>.

٤- الأمر بوجوب بيعة وليّ الأمر وعدم الخروج عليه: البيعة هي التي تربط بين الحاكم والمحكوم، وتؤسس العلاقة بينهما، فالبيعة مسؤولية عظيمة، ومهمة جلييلة، وهي أصل عقدي، وواجب شرعي، لذا وجه النبي ﷺ أمته إلى وجوب البيعة وأهميتها والأحكام المتعلقة بها وتحريم خلعها، ووجوب الوفاء بها؛ لما في ذلك من استقرار الجماعة ففي الحديث: "وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"<sup>(٥)</sup>. والخروج على الحاكم من أخطر الأمور التي لا يمكن تجاهل ما قد ينتج عنها من فتنة وقتال وسفك دماء بين أفراد الأمة ولكمال هدي الإسلام منع الخروج على الحاكم. فعن زَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ نَافِعٍ قَالَ: جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُطِيعٍ حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: اطْرَحُوا لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَسَادَّةً، فَقَالَ: إِيَّيْ لَمْ آتِكَ لِأَجْلِلسَ، أَتَيْتُكَ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُهُ،

١- النووي، شرح صحيح مسلم، ١٢/٢٤٠.

٢- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠٢/٢٨.

٣- الخلال، السنة، ١/١٥٠.

٤- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، ٢٢/٦، ١٨٥١.

٥- أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، ٢٢/٦، ح ١٨٥١.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةِ لِقِيَّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"<sup>(١)</sup>. قال الطحاوي: "ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمرنا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافة"<sup>(٢)</sup>، وقال ابن حجر: "وفي الحديث وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة والمنع من الخروج عليه ولو جار في حكمه وأنه لا ينخلع بالفسق"<sup>(٣)</sup>. وقد أجمع أهل السنة والجماعة على تحريم الخروج على ولاة الأمر وممن ذكر هذا الإجماع الإمام النووي حيث قال: "وَأَمَّا الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ وَقِتَالُهُمْ فَحَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانُوا فَسَقَةً ظَالِمِينَ"<sup>(٤)</sup>.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعَنَا فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: "أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةَ عَلَيْنَا وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"<sup>(٥)</sup>. فالنبي عليه الصلاة والسلام استثنى حالة واحدة يجوز فيها الخروج على ولي الأمر فقال عليه السلام: "إلا أن تروا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بَرَهَانٌ". يقول الشيخ ابن عثيمين: "إلا أن تروا": والرؤية إما بالعين أو بالقلب، الرؤية بالعين بصرية، وبالقلب علمية بمعنى: أننا لا نعمل بالظن أو بالتقديرات أو بالاحتمالات بل لا بد أن نعلم علم اليقين. وأن نرى كُفْرًا لا فسوقًا فمثلاً: الحاكم لو كان أفسق عباد الله عنده شرب خمر وغيره من المحرمات وهو فاسق، لكن لم يخرج من الإسلام، فإنه لا يجوز الخروج عليه، وإن فُسِّقَ لَأَنَّ مَفْسِدَةَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ مَفْسِدَةِ مَعْصِيَتِهِ الَّتِي هِيَ خَاصَّةٌ بِهِ. الثالث: قال "بَوَاحًا": البواح يعني: الصريح، والأرض البواح: هي الواسعة التي ليس فيها شجر ولا مدر ولا جبل، بل هي واضحة للرؤية لا بد أن يكون الكفر بواحا ظاهرا ما يشك فيه أحد مثل: أن يدعو إلى نَبْدِ الشريعة،

١- المصدر السابق

٢- الطحاوي، شرح العقيدة الطحاوية، ٣٧٩

٣- ابن حجر، فتح الباري، ٧١/١٣.

٤- النووي، شرح صحيح مسلم، ٢٢٩/١٢.

٥- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سترون بعدى أموراً تنكرونها، ٤٧/٩، ح/ ٧٠٥٥. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ١٦/٦،

ح/ ١٧٠٩.

أو أن يدعو إلى ترك الصلاة، وما أشبه ذلك من الكفر الواضح الذي لا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ. فأما ما يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ فلا يجوز الخروج عليه، وإن كُنَّا نرى نحن أنه كفر وبعض الناس يرى أنه ليس بكفر فإنه لا يجوز لنا الخروج عليه؛ لأن هذا ليس بواحدًا. الرابع: "عندكم من الله فيه برهان" أي دليل واضح، ليس مجرد اجتهاد أو قياس بل هو بيّن واضح أنه كفر، حينئذ يجوز الخروج. ولكن هل معنى جواز الخروج أنه جائز بكل حال أو واجب على كل حال؟ الجواب: لا. لا بدّ من قُدرة على مُنَابَذَةِ هذا الوالي الذي رأينا فيه الكفر البواح. أما أن نخرج عليه بسكاكين المطبخ وعواميل البقر ولديه دبابات وصواريخ فهذا سَفَهٌ في العقل وضلال في الدين؛ لأن الله لم يُوجب الجهاد على المسلمين حين كانوا ضُعفاء في مكة ما قال: اخرجوا على قريش وهم عندهم، ولو شاءوا لاغتلوا كُبراءهم وقتلوهم، لكنه لم يأمرهم بهذا، ولم يأذن لهم به؛ لماذا؟ لعدم القدرة. وإذا كانت الواجبات الشرعية التي لله عز وجل تسقط بالعجز فكيف هذا الذي سيكون فيه دماء. يعني: ليس إزالة الحاكم بالأمر الهين، أو مجرد ريشة تنفخها وتروح، لا بدّ من قتال منك وقتال منه، وإذا قُتِلَ فله أعوان، فالمسألة ليست بالأمر الهين حتى نقول بكل سهولة: نزيل الحاكم ونقضي عليه وينتهي كل شيء، فلا بد من القدرة<sup>(١)</sup>. وجاء في فتح الباري معنى: "عندكم من الله فيه برهان" أي نَصُّ آيَةٍ أَوْ خَبَرٌ صَحِيحٌ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ وَمُقْتَضَاهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ مَا دَامَ فِعْلُهُمْ يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ"<sup>(٢)</sup>. والحديث السابق ارتكز عليه أهل العلم فاجتهدوا ووضعوا شروطا لجواز الخروج على الحاكم إذا فقد شرط منها لا يجوز الخروج عليه بحال من الأحوال.

وقد أطلال النفس ابن تيمية في مواضع عدة من الفتاوى في بيان حقوق ولاية الأمر وحرمة الخروج عليهم قال: "من أعظم الغدر، الغدر بإمام المسلمين. وقال: وأما أهل العلم والدين والفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه من معصية ولاية الأمور، وغشهم والخروج عليهم بوجه من الوجوه، كما قد عرف من عادات أهل السنة والدين قديماً وحديثاً ومن سيرة غيرهم"<sup>(٣)</sup>، وقال عليه الصلاة والسلام: "وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطْعَمْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ

١- العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، لقاء الباب المفتوح، ١٥/٩٤.

٢- ابن حجر، فتح الباري، ٨/١٣.

٣- ابن تيمية، الفتاوى، ١٨/٣٥.

جَاءَ آخَرَ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخِرِ"<sup>(١)</sup>، وقوله (وَمَثَرَةَ قَلْبِهِ كِنَايَةً عَنِ الْإِخْلَاصِ فِي الْعَهْدِ وَالْتِزَامِهِ وقوله: "فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر" معناه: ادفعوا الثاني فإنه خارج على الإمام، فإن لم يندفع إلا بحرب وقتال فقاتلوه، فإن دعت المقاتلة إلى قتله ولا ضمان فيه؛ لأنه ظالم متعد في قتاله"<sup>(٢)</sup>. وعن أم سلمة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنَكِّرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِيءًا، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِيمًا، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ" قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ "قَالَ: لَا، مَا صَلَّوْا"<sup>(٣)</sup>. وجاء في فيض القدير: قال القاضي: "إنما منع من مقاتلتهم ما داموا يقيمون الصلاة، التي هي عماد الدين، وعنوان الإسلام، والفارق بين الكفر والإيمان، حذرًا من تهيج الفتن، واختلاف الكلمة وغير ذلك مما هو أشد نكارة من احتمال نكرهم والمصابرة على ما ينكرون منهم"<sup>(٤)</sup>.

فالقاعدة هي: إقامة الصلاة ما دام الإمام يأمر بها ولا ينهى عن إقامتها فيحرم الخروج عليه، أو الخروج على الجماعة ولو كان الوالي يأتي شيئًا من معصية الله. قال النووي: "فيه أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق، ما لم يغيروا شيئًا من قواعد الإسلام"<sup>(٥)</sup>.

ومما يدل على تحريم الخروج على ولي الأمر أيضًا ما روي عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَانْكُرُوهُ عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ"<sup>(٦)</sup>. فهذا نص صريح واضح كفلق الصبح؛ في أنه لا يخرج على الإمام لكراهية عمله ولا تنزع اليد من الطاعة مادام أنه يأمر بالصلاة أول لم ينه عنها. قال الماوردي: "هذا صحيح، فإن الإمام إذا كان ذا خير أحبهم وأحبوه، وإذا كان ذا شر أبغضهم وأبغضوه، وأصل

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ١٤٧٢/٣ ح ١٨٤٤.

٢- النووي، شرح صحيح مسلم، ٢٤٤/١٢، ٢٤٣. والعظيم آبادي، عون المعبود، ١٤٨/١١.

٣- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، ٢٣/٦، ١٨٥٤.

٤- المناوي، فيض القدير، ٩٩/٤.

٥- النووي، شرح صحيح مسلم، ٢٤٤/١٢، ٢٤٣.

٦- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، ٢٤/٦، ح ١٨٥٥.



ذلك أن خشية الله تبعث على طاعته في خلقه، وطاعته فيهم تبعثهم على محبته، فلذلك كانت محبته دليلاً على خيره وبغضهم له دليلاً على شره وقلة مراقبته" (١). وقال ابن حجر: "وَفِي الْحَدِيثِ وَجُوبُ طَاعَةِ الْإِمَامِ الَّذِي انْعَقَدَتْ لَهُ الْبَيْعَةُ وَالْمَنْعُ مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ وَلَوْ جَارَ فِي حُكْمِهِ وَأَنَّهُ لَا يَنْخَلَعُ بِالْفِسْقِ" (٢). وقال ابن عبد البر: "فَالصَّبْرُ عَلَى طَاعَةِ الْجَائِرِينَ مِنَ الْأَيْمَةِ أَوْلَى مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ فِي مُنَارَعَتِهِ وَالْخُرُوجِ عَلَيْهِ اسْتِبْدَالَ الْأَمْنِ بِالْخَوْفِ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ يَحْمِلُ عَلَى هِرَاقِ الدِّمَاءِ وَشَرِّ الْغَارَاتِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَذَلِكَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى جَوْرِهِ وَفَسْقِهِ وَالْأُصُولُ تَشْهَدُ وَالْعَقْلُ وَالذِّينُ أَنَّ أَعْظَمَ الْمَكْرُوهِينِ أَوْلَاهُمَا بِالْتَرَكِ" (٣). وقال ابن تيمية: "ولهذا كان مذهب أهل الحديث ترك الخروج بالقتال على الملوك البغاة والصبر على ظلمهم إلى أن يستريح بر، أو يستراح من فاجر" (٤). وقال البر بهاري: "ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه وإن جار، وذلك لقول رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفاري: "اصبر وإن كان عبداً حبشياً" (٥)، وقوله للأنصار: "اصبروا حتى تلقوني على الحوض" (٦) وليس من السنة قتال السلطان؛ فإن فيه فساد الدنيا والدين" (٧).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةِ لِقِيَّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً" (٨). قال النووي: لا حجة له: أي: لا حجة له في فعله ولا عذر له ينفعه (٩). والمبالغة في التشديد من الرسول ﷺ على عدم الخروج على وليّ الأمر فسببه ما يترتب على الخروج عليهم من الفتن، وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقاءه. وقال القرطبي في مفاصد الخروج على

١- المناوي، فيض القدير، ٤٠٦/٣.

٢- ابن حجر، فتح الباري، ٧٢/١٣، ٧١.

٣- ابن عبد البر، التمهيد، ١٥٣/٢٣.

٤- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٤٤٤/٤.

٥- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية الله، ٣/٤٦٧،

ح ١٨٣٧

٦- أخرجه البخاري في صحيحه، ٣١٦١/٨. وليس من السنة قتل السلطان؛ لأنه فيه فساد الدنيا والدين.»

٧- البر بهاري، شرح السنة، ٢٩.

٨- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ملازمة جماعة المسلمين، ٢٢/٦، ح ١٨٥١.

٩- النووي، شرح صحيح مسلم، ٢٤٠/١٢.

الإمام: " استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشن الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض"<sup>(١)</sup>.

قال الإمام أحمد بن حنبل: "ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق"<sup>(٢)</sup>. وقال ابن تيمية: "ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان، وإلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته، وقد أخبر النبي ﷺ أن الأمراء يظلمون ويفعلون أموراً منكراً، ومع هذا فأمرنا أن نؤتيهم الحق الذي لهم، ونسأل الله تعالى الحق الذي لنا، ولم يأذن في أخذ الحق بالقتال، ولم يرخص في ترك الحق الذي لهم"<sup>(٣)</sup>. وقال ابن القيم: "أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - شَرَعَ لِأُمَّتِهِ إِجَابَ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ لِيَحْصَلَ بِإِنْكَارِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا كَانَ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ وَأَبْغَضُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ لَا يَسُوغُ إِنْكَارَهُ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ يُبْغِضُهُ وَيَمْتَقُّ أَهْلَهُ، وَهَذَا كَمَا لِإِنْكَارِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُ أَسَاسُ كُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ وَقَدْ اسْتَأْذَنَ الصَّحَابَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي قِتَالِ الْأَمْرَاءِ الَّذِينَ يُؤَخَّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا، وَقَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ فَقَالَ: لَا مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ" وَقَالَ: "مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ مَا يَكْرَهُهُ فَلْيُضْبِرْ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ" وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا جَرَى عَلَى الْإِسْلَامِ فِي الْفِتَنِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ رَأَاهَا مِنْ إِضَاعَةِ هَذَا الْأَصْلِ وَعَدَمِ الصَّبْرِ عَلَى مُنْكَرٍ؛ فَطَلَبَ إِزَالَتَهُ فَتَوَلَّدَ مِنْهُ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ؛ فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَرَى بِمَكَّةَ أَكْبَرَ الْمُنْكَرَاتِ وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهَا، بَلْ لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ وَصَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ عَزَمَ عَلَى تَغْيِيرِ الْبَيْتِ وَرَدَّهُ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْعَهُ مِنْ ذَلِكَ - مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ - حَشِيَّةٌ وَقُوعٌ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ عَدَمِ احْتِمَالِ قُرَيْشٍ لِذَلِكَ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ وَكَوْنِهِمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِهَذَا لَمْ يَأْذَنْ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى الْأَمْرَاءِ بِالْيَدِ؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ وَقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ كَمَا وَجَدَ سَوَاءً"<sup>(٤)</sup>.

وعرض المعلمي في كتابه التنكيل بعض أحداث التاريخ التي خرج فيها طائفة عن الجماعة وعلى إمام المسلمين فباؤوا بالندامة والخسران<sup>(٥)</sup>.

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٠٩/٢.

٢- اللالكائي، شرح السنة، ١٧٥/١.

٣- ابن تيمية، منهاج السنة، ٣٩١/٣.

٤- ابن القيم، إعلام الموقعين، ١٢/٣.

٥- المعلمي اليماني، عبد الرحمن بن يحيى، التنكيل ٢٨٨/١.

٤- النصيحة لوليّ الأمر: من الأمور التي تؤكد التفاف الرعية حول وليّ الأمر النصيح له، وقد بين النبي ﷺ أن من مجالات النصيح التي يجب ألا يغفل عنها النصيح لولاة الأمر فعن تميم الداربيّ أنّ النبيّ ﷺ قال: "الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"<sup>(١)</sup>، وأكد النبي عليه الصلاة والسلام على نصيح ولاة الأمر. عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول وهو بالحنيف من منى: "رحم الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل، ومناصحة ذوي الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإن دعوتهم تكون من ورائهم"<sup>(٢)</sup>. قال الفضيل بن عياض: "لزوم جماعتهم: أي موافقة المسلمين في الاعتقاد والعمل الصالح"<sup>(٣)</sup>، وقال الشيخ السعدي: "أي لا يبقى في القلب غل، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة بل تنفي عنه غله، وتنفيه منه، وتخرجه منه، أي أن من أخلص أعماله كلها ونصح في أموره كلها لعباد الله ولزم الجماعة بالائتلاف وعدم الاختلاف، صار قلبه صافياً نقياً"<sup>(٤)</sup>، وقد شرح الإمام ابن القيم -رحمه الله- هذا الحديث شرحاً موجزاً وذكر فيه قوله: "ومناصحة ولاة الأمر" منافٍ للغل والغش، فإن النصيحة لا تجامع الغل؛ إذ هي ضده، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل، وقوله: "ولزوم جماعة المسلمين" هذا أيضاً مما يطهر القلب من الغل والغش فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يجب لهم ما يجب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسره ما يسرهم، وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم لهم، كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم، فإن قلوبهم ممتلئة نحلاً وغشاً؛ ولهذا نجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص أغشهم للأئمة والأمة وأشدهم بعداً عن جماعة المسلمين، فهؤلاء أشد الناس غلاً وغشاً بشهادة الرسول والأمة عليهم، وشهادتهم على أنفسهم بذلك، فإنهم لا يكونون قط إلا أعواناً وظهراً على أهل الإسلام، فأبي عدو قام للمسلمين كأنوا أعوان ذلك العدو وبطانته، وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم، ومن لم يشاهد فقد سمع منه ما يصم الأذان

- ١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، ٥٣/١، ح ٥٥.
- ٢- الحاكم، المستدرک على الصحيحين، كتاب العلم، باب رب حامل فقه لا فقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ١٦٣/١، ح ٢٩٦.
- ٣- شرح سنن الترمذي، ٨٤/١.
- ٤- السعدي، بهجة قلوب الأبرار، ١٨٥.

ويشحي القلوب. وقوله " فَإِنْ دَعَوْتُمْ تَحِيطُ مِنْ وِرَائِهِمْ " هَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْكَلَامِ وَأَوْجِزِهِ وَأَفْخَمِهِ مَعْنَى، شَبِهَ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ بِالسُّورِ وَالسِّيَاحِ الْمُحِيطِ بِهِمْ، الْمَانِعِ مِنْ دُخُولِ عَدُوهِمْ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ الدَّعْوَةُ الَّتِي هِيَ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ وَهُمْ دَاخِلُونَهَا، لِمَا كَانَتْ سُورًا وَسِيَاحًا عَلَيْهِمْ أَخْبَرَ أَنْ مِنْ لَزِمِ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ أَحَاطَتْ بِهِ تِلْكَ الدَّعْوَةُ الَّتِي هِيَ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ كَمَا أَحَاطَتْ بِهِمْ، فَالدَّعْوَةُ تَجْمَعُ شَمْلَ الْأُمَّةِ وَتَلْمُ شَعَثَهَا وَتَحِيطُ بِهَا، فَمَنْ دَخَلَ فِي جَمَاعَتِهَا أَحَاطَتْ بِهِ وَشَمَلَتْهُ"<sup>(١)</sup>. قال الإمام النووي: "وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وأمرهم به وتنبههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ويبلغهم من حقوق المسلمين"<sup>(٢)</sup>. وأما ابن رجب الحنبلي فقال: " وأما النصيحة لأئمة المسلمين فحب صلاحهم ورشدهم، وعدلهم وحب اجتماع الأمة عليهم ومعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه وتذكيرهم به"<sup>(٣)</sup>. وقال ابن تيمية: "وهذه الثلاث: يعنى إخلاص العمل ومناصحة أولي الأمر ولزوم جماعة المسلمين: تجمع أصول الدين وقواعده وتجمع الحقوق التي لله ولعباده وتتنظم مصالح الدنيا والآخرة"<sup>(٤)</sup>.

إلا أن هذه النصيحة لها آداب يجب أن تراعى، منها:

- أن تكون سرًّا لا جهراً، وهذه للناس عامة، لكن تتأكد في حق وليّ الأمر، وهذا كان منهج الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم؛ وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر فقال: "إن كنت فاعلاً ولا بد فيبينك وبينه"<sup>(٥)</sup>، ومناصحة ولاة الأمر سرًّا يحقق مقاصد الشريعة في جلب المصالح ودرء المفاسد. وكتبت عائشة رضي الله عنها لمعاوية رضي الله عنه: "إلى معاوية، أما بعد فإنه من يعمل بسخط الله يعد حامده من الناس ذامًّا"<sup>(٦)</sup>. وعن أبي وائل قال: قيل لأسماء رضي الله عنها: لو أتيت فلاناً فكلمته، قال: إنكم لترون أني لأكلمه إلا

١- ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ٧٣، ٧٢.

٢- النووي، شرح صحيح مسلم، ٣٩/١.

٣- ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ٢٢٣/١، ٢٢٢.

٤- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٨٤/١.

٥- ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ٩١.

٦- أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الأمراء، باب ما ذكر من حديث الأمراء والدخول عليهم،

أسمعكم: إني أكلمه في السر دون أن أفتح بابًا لا أكون أول من فتحه...<sup>(١)</sup>. قال الإمام النووي موضحةً قصد أسامة رضي الله عنه: "قوله: "افتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من افتتحه" يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ كما جرى لقتلة عثمان رضي الله عنه"<sup>(٢)</sup>. وقال الحافظ ابن حجر: "قال المهلب: أرادوا من أسامة رضي الله عنه أن يكلم عثمان... فقال أسامة: "قد كلمته سرًا دون أن أفتح بابًا" أي: باب الإنكار على الأئمة علانية، خشية أن تفترق الكلمة، ثم قال الحافظ: وقال عياض: مراد أسامة: أنه لا يفتح باب المجاهرة بالنكير على الإمام؛ لما يخشى من عاقبة ذلك، بل يتلطف به، وينصحه سرًا، فذلك أجدر بالقبول"<sup>(٣)</sup>. وقال حذيفة رضي الله عنه "ما مشى قوم إلى سلطان الله في الأرض ليدلوه إلا أذهم الله قبل أن يموتوا"<sup>(٤)</sup>، وقال الإمام الشوكاني: "ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن ينصحه، ولا يظهر الشناعة عليه على رؤوس الأشهاد بل يأخذ بيده ويخلو به، ويذلل له النصيحة"<sup>(٥)</sup>. وقال الشيخ عبد العزيز بن باز: "ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة، وذكر ذلك على المنابر، لأن ذلك يفضي إلى الفوضى، وعدم السمع والطاعة في المعروف، ويفضي إلى الخوض الذي يضر ولا ينفع، ولكن الطريقة المتبعة عند السلف النصيحة فيما بينهم وبين السلطان والكتابة إليه أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يوجهه إلى الخير... إلى أن قال -رحمه الله- ولما فتحوا الشر في زمن عثمان رضي الله عنه وأنكروا على عثمان جبهة نمت الفتنة والقتال والفساد الذي لا يزال الناس في آثاره إلى اليوم، حتى حصلت الفتنة بين علي ومعاوية، وقتل عثمان وعلي بأسباب ذلك وقتل جم كثير من الصحابة وغيرهم بأسباب الإنكار العلني وذكر العيوب علنًا حتى أبغض الناس وليّ أمرهم وحتى قتلوه"<sup>(٦)</sup>.

- ألاّ تتخذ سببًا لإثارة الناس فإن ملء القلوب على ولاة الأمر يحدث أمورًا لا تحمد عقباها. فالحكمة ألاّ تنشر لعامة الناس بل فقط لأهل العلم لأجل مناصحته والأخذ بيده. قال الشيخ

- ١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة، ج ٤/١٢١، ح/٣٢٦٧.
- ٢- النووي، شرح مسلم، ٤١٦٠/١٨.
- ٣- ابن حجر، فتح الباري، ٥١/١٣.
- ٤- أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجامع باب من أذل السلطان، ٣٤٤/١١.
- ٥- الشوكاني، السيل الجرار المتدفق على طريق الأزهار، ٩٦٥.
- ٦- ابن العثيمين، حقوق الراعي والرعية، مجموعة خطب للشيخ ابن عثيمين، ٢٨، ٢٧.

ابن عثيمين: "فإن الله في فهم منهج السلف، وألا تتخذ من أخطاء السلطان سبيلاً لإثارة الناس، وإلى تنفير القلوب عن ولاة الأمر، فهذا عين المفسدة، وأحد الأسس التي تحصل بها الفتنة بين الناس"<sup>(١)</sup>. ويقول في موضع آخر: "والنصيحة لهم هي أن نكف عن مساوئهم وألا ننشرها بين الناس، وأن نبذل لهم النصيحة ما استطعنا بالمباشرة إذا كنا نستطيع أن نباشرهم أو بالكتابة إذا كنا لا نستطيع أو بالاتصال بمن يتصل بهم إذا كنا لا نستطيع الكتابة؛ لأنه أحياناً لا يستطيع الإنسان الكتابة لهم ولو كتب لم تصل إلى المسؤول فيتصل بأحد يتصل بالمسؤول وينبهه فهذا من النصح"<sup>(٢)</sup>.

- تكون برفق ولطف: قال ابن رجب -رحمه الله-: "وتذكيرهم وتنبههم في رفق ولطف"<sup>(٣)</sup>؛ فعن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَرْضِي لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضِي لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَّلَاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ"<sup>(٤)</sup>.  
عدَّ النبي ﷺ النصح لولاية الأمر من الأمور التي يرضاها الله تعالى لعباده وذلك لأهميتها في تحقيق مصالح الأمة. وقال عياض بن غنم: "يَا هِشَامُ بْنَ حَكِيمٍ قَدْ سَمِعْنَا مَا سَمِعْتَ وَرَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ أَوْ لَمْ تَسْمَعْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبْدِ لَهُ عِلَانِيَةً وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ فَيَخْلُو بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ"<sup>(٥)</sup>. نلاحظ في الحديث دلالة على أن النصح لولي الأمر لا يكون بالعلن، بل العاقل من يتحين أفضل السبل لنصيحة الإمام، وفي الحديث إشارة للطريقة التي ينصح بها فقال "فلا يبد له علانية... فيخلو به"؛ أي يكون النصح سرّاً فيما بينهما لا على الملأ ثم دلّ الحديث على أدب النصيحة "فيأخذ بيده" كناية عن المحبة وإرادة الخير. ولهذه الطريقة في المناصحة أثر عظيم في الوقاية من الانحرافات بأنواعها: فكرية وعقدية وسلوكية. وبها يتم حفظ العقيدة وإقامة

١- خطب الشيخ نقلا من موقعه. <http://binothaimeen.net/site/index>.

٢- ابن العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، شرح رياض الصالحين، ٢/٣٩٦.

٣- ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ١٠٦.

٤- أخرجه أحمد في مسنده، ١٨٤٧/٢، ح ٨٩٢١.

٥- أخرجه أحمد في مسنده، ٦/٣٢٣٤، ح ٥٤٩٦.

الجماعة ونبد الفرقة ونشر الأمن والأمان؛ ومن ثم يأمن كل فرد في المجتمع على الضروريات الأساسية: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. ويؤكد الشيخ ابن باز على النصيحة لولاة الأمر فيقول: "فالواجب على الغيورين لله، وعلى دعاة الهدى أن يلتزموا حدود الشرع، وأن يناصحوا من ولاهم الله الأمور بالكلام الطيب والحكمة والأسلوب الحسن حتى يكثر الخير ويقل الشر إلى أن قال: ويهدى الله لولاة الأمور للخير والاستقامة عليه، تكون العاقبة حميدة للجميع"<sup>(١)</sup>.

٥- الدعاء لهم بالصالح: يجب على الرعية الدعاء لوليّ الأمر، لأن في صلاحه واستقامته، تجتمع الكلمة وتتوحد الأمة ويسودها الأمن والاستقرار. ولقد أمر المسلمون بالدعاء لولاة الأمر بالصلاح، ولم يؤمروا بالدعاء عليهم وإن جاروا وظلموا؛ لأن جورهم وظلمهم على أنفسهم وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين. عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَسُبُّوا الْأَئِمَّةَ، وَادْعُوا اللَّهَ لَهُمْ، فَإِنَّ صَلَاحَهُمْ لَكُمْ صَلَاحٌ"<sup>(٢)</sup>. وجه الدلالة: أن الحديث الشريف صريح الدلالة في تحريم سب وليّ الأمر، بل جاء الأمر بالدعاء له؛ لما في ذلك من صلاح الفرد والمجتمع. مما يسهم في حماية الوطن؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نُهانا كبراًؤنا من أصحاب رسول الله ﷺ قال: "لا تسبوا أمراءكم ولا تبغضوهم واتقوا الله واصبروا فإن الأمر قريب"<sup>(٣)</sup>. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: "إياكم ولعن الولاة، فإن لعنهم الحالقة، وبغضهم العاقرة، قيل: يا أبا الدرداء فكيف نصنع إذا رأينا منهم ما لا نحب؟ قال: "اصبروا فإن الله إذا رأى ذلك منهم حبسهم عنكم بالموت"<sup>(٤)</sup>. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: "إن أول نفاق المرء طعنه على إمامه"<sup>(٥)</sup>. قال ابن جماعة في حقوق الإمام: "رد القلوب النافرة إليه وجمع محبة الناس عليه، لما في ذلك من مصالح الأمة وانتظام أمور الملة"<sup>(٦)</sup>. وكان حرص السلف شديداً على

١- ابن باز، مجموع فتاوى ومقالات الشيخ، ٢٠٦/٨، وينظر: د/عبد الله الرفاعي، مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري، ٢٨، ٢٧.

٢- المعجم الكبير، ١٣٤/٨.

٣- رواه ابن أبي عاصم في السنة، ٤٨٨/٢. إسناده جيد ورجاله ثقات وفي بعضهم كلام لا يضر.

٤- ابن أبي عاصم، أبو بكر الشيباني، السنة ٤٨٨/٢ ح ١٠١٦

٥- ابن عبد البر، أبو عمر القرطبي، التمهيد ٢٨٧/٢١

٦- ابن جماعة، تحرير الأحكام ٦٤/١

الدعاء لولاية الأمر قال الفضيل بن عياض: "لو أن لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا في السلطان. فقيل له: يا أبا علي فسر لنا هذا، قال: إذا جعلتها في نفسي لم تعدني وإذا جعلتها في السلطان صلح: فصلح بصلاحه العباد والبلاد فأمرنا أن ندعو لهم بالصلاح ولم نؤمر أن ندعو عليهم وإن ظلموا، وإن جاروا؛ لأن ظلمهم وجورهم على أنفسهم وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين"<sup>(١)</sup>. عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "خَيْرُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ"<sup>(٢)</sup>. قال الإمام النووي: "معنى يصلون عليكم وتصلون عليهم أي يدعون لكم، وتدعون لهم"<sup>(٣)</sup>. جاء في الجامع لشعب الإيمان: "فانصح للسلطان وأكثر له من الدعاء بالصلاح والرشاد بالقول والعمل والحكم فإنهم إذا صلحوا صلح العباد بصلاحهم، وإياك أن تدعو عليهم باللعة فيزدادوا شرًا ويزداد البلاء على المسلمين، ولكن ادع لهم بالتوبة؛ فيتركوا الشر فيرتفع البلاء عن المؤمنين"<sup>(٤)</sup>. وقال الشيخ ابن باز: "الدعاء لولي الأمر من أعظم القربات ومن أفضل الطاعات ومن النصيحة لله ولعباده، والنيبي ﷺ لما قيل له: إن دوسًا عصت وهم كفار قال: "اللهم اهد دوسًا وأت بهم"<sup>(٥)</sup>، فهداهم الله وأتوه مسلمين. فالؤمن يدعو للناس بالخير والسلطان أولي من يدعى له؛ لأن صلاحه صلاح للأمة، فالدعاء له من أهم الدعاء ومن أهم النصح أن يوفق للحق وأن يعان عليه، وأن يصلح الله له البطانة، وأن يكفيه الله شر نفسه وشر جلساء السوء فالدعاء له بالتوفيق والهداية وبصلاح القلب والعمل وصلاح البطانة من أهم المهمات ومن أفضل القربات"<sup>(٦)</sup>. مما سبق يتضح حرص النبي ﷺ على حماية الأوطان فأخبر أن خيار الناس من يدعو للإمام بالصلاح والفلاح، إذ إن في صلاحه صلاحًا للأمة والبلاد.

- ١- البر بهاري، أبو محمد الحسن بن علي بن خلف، شرح السنة، وينظر: ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، ٦٤١/١.
- ٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، ٢٤/٦، ح ١٨٥٥.
- ٣- النووي، شرح صحيح مسلم، ٢٥٧/٦.
- ٤- البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، ٤٩٨/٩.
- ٥- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء للمشركين بالهدى لتألفهم، ج ٤/٤٤، ح ٢٩٣٧.
- ٦- ابن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ٢١٠ / ٨.



### الخاتمة:

إن من تمام فضل الله على الأمة أن جعل طاعة ولاة الأمر في الإسلام واجبة بالمعروف؛ وجعل طاعته سبباً لحماية الأوطان فبطاعته يسود الأمن والأمان وتصان الشريعة ويعلو نظامها وتنفذ أحكامها ويتأدب بآدابها ولم يرحل المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى إلا وقد بين ضوابط هذه الطاعة وأسسها ومقوماتها التي تمت الإشارة إليها في هذا البحث. الذي خلصت فيه إلى عدد من النتائج:

- إن الالتفاف حول وليّ الأمر من أعظم الأسباب للحفاظ على أمن الوطن.
- إن السمع والطاعة حق لوليّ الأمر وإن جار وظلم وفسق وفجر، لما يترتب عليها من حفظ الأمن والأمان.
- إن في الصبر على ولاة الأمر خيراً كثيراً، وبعداً بالأمة عن الفوضى وسفك الدماء.
- التأكيد على حرمة الخروج على وليّ الأمر بأي حال من الأحوال لما يترتب على ذلك من شق الصف وتمزيق الأمة واختلال مصالح البلاد والعباد.
- إن من مقومات الطاعة النصيحة لوليّ الأمر سرّاً وعدم إظهار عيوبه أمام العامة.
- الدعاء لوليّ الأمر مسلك الصالحين وأهل العلم لأن صلاحه صلاح للبلاد والعباد.

## المصادر والمراجع:

- أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: د/أحمد مبارك البغدادي، ط ١، مكتبة دار ابن قتيبة - الكويت ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م
- أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميتسو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري بن كثير ثم دمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصطفى نزار البار.
- أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد البغدادي الحنبلي الخلال، السنة، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م.
- أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، كتاب السنة (ومعه ظلال الحنة في تخريج السنة بقلم: محمد ناصر الدين الألباني)، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى.
- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢.
- أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنايني الحموي الشافعي بدر الدين، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق: قدم له: الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، تحقيق ودراسة وتعليق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الثقافة بتفويض من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر - قطر/ الدوحة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم النمري القرطبي بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

## أثر طاعة وليّ الأمر في حماية الوطن...

- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٣٨٧ هـ.
- أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بدر الدين العيني، الغيتابي الحنفي، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي - بيروت
- أبو موسى محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى الأصفهاني المدني، المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث، تحقيق/ عبد الكريم القرباوي، جامعة أم القرى، ط، ١، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م.
- أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
- أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي الجامع لأحكام القرآن، تحقيق/أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط/٢، دار الكتب المصرية/القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤.
- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريره أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسر وجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريره أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ
- أيوب بن موسى الحسيني القريني، أبو البقاء الحنفي الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت

- بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبوحاتم، الدارمي، البُستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣
- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.
- زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م
- سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية.
- صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن الأذري أبو العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ.
- عبد الله بن أحمد بن علي الزيد، مختصر تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، دار السلام للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق د: عبد الرحمن اللويحق.
- عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن محمد المعلمي العتمي اليماني، التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، مع تخریجات وتعليقات: محمد ناصر الدين الألباني - زهير الشاويش - عبد الرزاق حمزة- الناشر: المكتب الإسلامي - الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
- على بن سلطان القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تحقيق/الشيخ جمال عيتاني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م

## أثر طاعة وليّ الأمر في حماية الوطن...

- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
- مجد الدين المبارك بن محمد ابن الأثير، جامع الأصول، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الحلواني، دمشق، مطبعة الملاح ١٩٧٢ م.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق/محمد علي النجار، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٤١٦ هـ/١٩٩٦ م.
- محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ
- محمد بن إبراهيم عبد الله التويجري، مختصر الفقه الإسلامي في ضوء القرآن والسنة، دار أصدقاء المجتمع الإسلامي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الحادية عشر، ١٤٣١ هـ.
- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين
- محمد بن صالح العثيمين، شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، دار الوطن للنشر، الرياض ١٤٢٦ هـ.
- محمد بن صالح بن محمد العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السلیمان، دار الوطن - دار الثريا، الطبعة الأخيرة - ١٤١٣ هـ
- محمد بن صالح بن محمد العثيمين، لقاء الباب المفتوح، لقاءات كان يعقدها الشيخ بمنزله كل خميس. بدأت في أواخر شوال ١٤١٢ هـ وانتهت في الخميس ١٤ صفر، عام ١٤٢١ هـ، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.
- محمد بن علان الصديقي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، دار الريان، ١٤٠٧ هـ.
- محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي أبو عبد الله ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: د. علي سامي النشار، وزارة الإعلام - العراق، الطبعة: الأولى.
- محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

- محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر - بيروت.
- محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨.

## حماية الوطن

### رؤى مستقبلية وأبعاد استراتيجية في السنة النبوية

الدكتور / إبراهيم طاهر البرزنجي

مدير الدراسات والبحوث والإرشاد بوزارة الأوقاف بكوردستان/ العراق

والأستاذ الدكتور / محمود رشاد محمد

كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة. جامعة الأزهر

مبعوث مشيخة الأزهر الشريف لكوردستان العراق لتدعيم قيم التعايش السلمى







## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،،،

فإن الوطن نعمة عظيمة لا يعرف قدرها إلا من حرمها؛ ففيه ينعم الإنسان بالأمن على نفسه، وماله، وعرضه، وفيه يعيش، ومن خيراته يأكل، وبين جناته ينمو ويكبر؛ وإزاء هذا الحب فإن المرء مأمور بحمايته بالنفس والنفيس، ووضع الرؤى المستقبلية والخطط الاستراتيجية لتنميته وازدهاره، وصرف الأخطار عنه، وتوفير البيئة المناسبة للطاعة والعبادة.

وتكمن أهمية الموضوع في الوقاية مما نراه في العصر الحديث من تمزق بعض الأوطان، وكثرة المهرج والمرج فيها، وتشتت أهلها يميناً وشمالاً، وتوقف عجلة التنمية، وانتشار العوز والحاجة كنتيجة طبيعية للمفاهيم المغلوطة، والأفكار السقيمة، مما يستوجب تجلية الحق، وردّ الشبهات.

**الدراسات السابقة:** تعددت الدراسات السابقة حول موضوع الأوطان، واتخذت جوانب متعددة في الحديث عنها، فمنها من درس الجانب القانوني لحمايتها، ومنها من درس الجانب التاريخي فيها، ومنها من درس الطرق العلمية والعملية لحفظها ورعايتها؛ لذا سنأتي بنماذج لهذه الجوانب المتعددة؛ لنبيّن في النهاية ما سينفرد به هذا البحث عن غيره:

١- "حب الوطن نظرة تأصيلية شرعية". د. أسامة السيد الأزهري<sup>(١)</sup>: تناول فيه فطرة حب الوطن، وبيّن أن دائرة حب الوطن لا تتعارض مع دائرة انتماء المسلم لدينه أو أمته الإسلامية بل تتكامل معهما، وتناول البحث كلام بعض المفسرين والمحدثين في ذلك؛ ويفترق هذا البحث عنه في كثير من القضايا المعاصرة؛ حيث تم ذكر مرتكزات الرؤى المستقبلية والأبعاد الاستراتيجية لحماية الوطن في السنة النبوية؛ وقام البحث بتفنيد المزاعم الفاسدة التي يتخذها البعض سبيلاً لتدمير

١- مستشار رئيس الجمهورية للشئون الدينية/ مصر- موقع مجلة حراء. العدد ٦٠- قضايا فكرية.

الأوطان، واستحلال محارمها، وتناول ارتباط رؤى التقدم الاستراتيجية بالوطن الآمن، وبيان محاربة الإسلام لكل ما يزعزع الأمن والاستقرار.

٢- "هل حب الوطن من الإيمان؟" أيمن السعداوي<sup>(١)</sup> - ويقع في ست وثلاثين صفحة غير مقسمة إلى أبواب وفصول، تناول فيه الباحث مسألة واحدة فقط وهي الحب للوطن بين الحب الفطري والحب الشرعي، وبحثنا هذا يختلف عنه في تناوله كثيراً من القضايا لم يتناولها هذا الكتاب مثل قضايا مرتكزات الرؤى المستقبلية لحماية الوطن في السنة النبوية، وتنفيذه المزاعم الفاسدة التي تزعزع الأمن والاستقرار، وإزالة معوقات حماية الوطن لتحقيق البعد الاستراتيجي في التقدم... إلخ.

٣- "دور تدريس مادة التربية الوطنية في تنمية قيم المواطنة لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية دراسة من وجهة نظر معلمي التربية الوطنية بمحافظة الليث" أ. عطية بن حامد بن ذياب المالكي<sup>(٢)</sup>. تناولت الدراسة جانبين: الجانب النظري والجانب الميداني، أما الجانب النظري فتناول فيه مفهوم الوطن والمواطنة، ومبادئ وقيم المواطنة، والتربية الوطنية وأثرها في طلاب المرحلة الابتدائية، والتعليق على ذلك، وتناول الجانب الميداني الإجابة على أسئلة الاستبيان المطروحة، وتحليل ذلك. وهذه الدراسة تختلف عن موضوع بحثنا ولا تتفق معه إلا في جزء مفهوم، ومبادئ، وقيم الوطن والمواطنة؛ وإن كان التناول مختلفاً.

### مفهوم عنوان البحث:

١- (حماية): تدور كلمة حماية حول المنع، والدفاع، والذود عن الشيء، يقول ابن منظور - رحمه الله: (حَمَى الشَّيْءَ حَمِيًّا وَحَمَى حَمِيًّا وَحَمِيَّةً مَنَعَهُ وَدَفَعَ عَنْهُ.. وَالْحَمِيَّةُ وَالْحِمَى مَا حَمَى مِنْ شَيْءٍ وَكَأَنَّ حَمِيًّا حَمِيًّا.. وَحَمَى الْمَرِيضَ مَا يَضُرُّهُ حَمِيَّةً مَنَعَهُ إِيَّاهُ.. وَحَمَى أَهْلَهُ فِي الْقِتَالِ حِمَايَةً... وَالْحَامِيَةُ الرَّجُلُ يَحْمِي أَصْحَابَهُ فِي الْحَرْبِ وَهُمْ أَيْضًا الْجَمَاعَةُ يَحْمُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَفُلَانٌ عَلَى حَامِيَةِ الْقَوْمِ أَيْ آخِرٌ مِنْ يَحْمِيهِمْ فِي أَنْهَارِهِمْ، وَأَحْمَى الْمَكَانَ جَعَلَهُ حَمِيًّا لَا يُقْرَبُ، الْحِمَى مَوْضِعٌ فِيهِ كَأَنَّ يَحْمَى مِنْ

١- شبكة الألوكة - يناير ٢٠١٧م.

٢- رسالة بإشراف د/ فوزى بن بنجر الأستاذ المشارك بقسم المناهج وطرق التدريس بكلية التربية - جامعة أم القرى ١٤٢٩ هـ / ١٤٣٠ هـ.

الناس أن يُرعى، وفلان حامي الحقيقة مثل حامي الدمار والجمع حُمأة وحامية<sup>(١)</sup>.

## ٢- الوطن:

**أولاً: الوطن في اللغة:** جاء في لسان العرب: ( وطن ) ( الوطن المنزلُ تقيم به وهو موطنُ الإنسان ومحلّه، والجمع أوطان، وأوطانُ الغنم والبقر مَرابضُها وأماكنها التي تأوي إليها، وَطَنَ بالمكان وأوطَنَ أقام، يقال أوطَنَ فلانٌ أرضَ كذا وكذا أي اتخذها محلاً ومُسكناً يقيم فيه، وأوطنتُ الأرضَ ووطنتُها توطيئاً واستوطنتُها أي اتخذتها وَطناً وكذلك الاتِّطَانُ)<sup>(٢)</sup>.

**ثانياً: الوطن في الاصطلاح:** (الوطن الأصلي هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه، ووطن الإقامة موضع ينوي أن يستقر فيه خمسة عشر يوماً أو أكثر من غير أن يتخذ مسكناً)<sup>(٣)</sup>.

### مما سبق يتبين:

١- اتفاق التعريف اللغوي مع الاصطلاح في كون الوطن المكان الذي ولد فيه الإنسان، ويعيش بين ربوعه، وهو يختلف عن وطن الإقامة الذي لا يستقر فيه الإنسان بل يعيش فيه مدة معينة ثم يغادره.

٢- حماية الوطن تعني: الدفاع عنه، والذود عن بيضته، ومنع أي مكروه أن يحدث فيه؛ واجتهاد الإنسان في ذلك بكل ما أوتي من قوة.

٣- ومما يجب بيانه أن "العرب تفرق في الأوطان فتقول لسكن الإنسان وطن، وللإبل عطن، وللأسد عرين وغابة، وللطي كناس، وللذئب وجار، وللطائر عش، وللزنبور كور، ولليربوع نافقاء، وللنملة قرية"<sup>(٤)</sup>.

١- محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري- لسان العرب- مادة حما- ج١ ص١٤٧-١٩٧- دار صادر بيروت- بدون.

٢- المرجع السابق: مادة وطن- ج١ ص١٣٤٥١ المرجع السابق.

٣- علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات- تحقيق: إبراهيم الأبياري - باب الواو ج١ ص٣٢٧- دار الكتاب العربي - بيروت ط١، ١٤٠٥ هـ

٤- فيض القدير- ج٤ ص٦٧٣- دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ط١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

## الفصل الأول:

حماية الوطن في السنة النبوية، بعد استراتيجي لتحقيق التقدم في شتى المجالات

### المبحث الأول: حبّ الوطن أمر فطري

يجب الإنسان وطنه الذي نشأ وترعرع فيه حباً طبيعياً مركزاً في فطرته، لا يتخلى عنه مهما قابل من المتاعب، أو صادف من المشكلات، وهذا الحب الفطري للوطن بيّنته الأدلة الشرعية:

- فالقرآن الكريم في حديثه عن الأنبياء مع أقوامهم؛ بين أن من أهم أسباب رفض دعوات الأنبياء عليهم السلام هو ظنّ بعض المدعويين السيء بأن الأنبياء يبعثون من دعوتهم هذه إخراجهم من أرضهم التي أحبوها واختلطت بعروقهم ودمائهم وأخذها منهم، والسيطرة عليهم.

مثال ذلك: ما جاء من ردّ فرعون وملئه على سيدنا موسى عليه السلام عندما دعاهم إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ، ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَانزَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾<sup>(١)</sup>. يقول الإمام الرازي - رحمه الله -:

(وتركيب هذه الشبهة عجيب؛ وذلك لأنه ألقى في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جداً وهو قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾؛ وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان في النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساوياً للقتل في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله: ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ نهاية في التنفير لأن المفارقة عن المنشأ، والمولد شديدة على القلوب، وهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون في قوله:

١- سورة طه: الآيات من ٥٦ إلى ٦٤

٢- سورة النساء: الآية ٦٦.

﴿أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ وكأن السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها<sup>(١)</sup> وإنما قال فرعون تلك المقالة (ليحمل قومه على السخط على موسى والغضب منه، بإظهار أن مراده ليس مجرد إنجاء بنى إسرائيل من أيديهم، بل مقصوده إخراج القبط من أوطانهم، وحياسة أموالهم وأملاكهم جملة، وبذا يسدّ عليه الباب فلا يتوجه أحد إلى اتباع دعوته، مبالغة في المدافعة عن بلادهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولا ينظرون إلى معجزاته، ولا يلتفتون إلى ما يدعو إليه من الخير)<sup>(٢)</sup>.

أكدت السنة النبوية المطهرة أن حبّ الوطن أمر فطري؛ يظهر ذلك في موقف خروج النبي (ﷺ) من مكة مهاجراً إلى المدينة (فعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري: قال: رأيت رسول الله (ﷺ) وهو على راحلته بالخزوة يقول: والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)<sup>(٣)</sup>.

وهذا سيدنا بلال بن رباح -رضي الله عنه- عندما هاجر إلى المدينة وأصيب بالحمى أخذ يتذكر موطنه الأصلي، ويذكر سهوله، وهضابه، وجباله، وأشجاره،... (فَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) الْمَدِينَةَ وَعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ - قَالَتْ - فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمَا فَقُلْتُ يَا أَبَتِ كَيْفَ بَجِدْكَ وَيَا بِلَالُ، كَيْفَ بَجِدْكَ؟ قَالَتْ: فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَى يَقُولُ: كُلُّ أَمْرٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنِي مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أَقْلَعَ عَنْهُ الْحُمَى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ، وَيَقُولُ أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً بَوَادٍ وَحَوَى إِذْخِرَ وَجَلِيلٌ وَهَلْ أَرَدَنَ يَوْمًا مِيَاهَ بَحْنَةٍ وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلٌ قَالَتْ عَائِشَةُ فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَأَنْقِلْ حُمَاهَا

١- محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي - مفاتيح الغيب - ج ١ ص ٦٧، ٣٠٦٧ - ٣٠٧٣ دار إحياء التراث العربي.

٢- أحمد مصطفى المراغي - تفسير المراغي - ج ١٦ ص ١٢٢ - مكتبة البايع الحلبي بمصر - بدون.

٣- محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري - المستدرک علی الصحیحین - تحقیق: مصطفی عبد القادر عطا - کتاب الهجرة - حدیث رقم ٤٢٧٠ ج ٣ ص ٨، والحديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه دار الكتب العلمية - بيروت ط ١، ١٤١١ - ١٩٩٠.

فَجَعَلَهَا بِالْجُحْفَةِ<sup>(١)</sup> .

قال ابن عبد البر: إذخر وجليل نبتان من الكالأ طيب الرائحة يكونان بمكة وأوديتها لا يكادان يوجدان في غيرها وقيل: (الجليل) نبت ضعيف أصفر يحشى بها خصاص البيوت وغيرها، و (مجنة) بفتح الميم وكسر الجيم وتشديد النون موضع بأعلى مكة على أميال كان يقام للعرب بها سوق وبعضهم يكسر ميمها والفتح أكثر، وهي زائدة، و(شامة وطفيل) جبلان على نحو ثلاثين ميلاً من مكة في وجهة اليمن، وقيل جبلان مشرفان على مجنة على بريرين من مكة، وقيل عينان عندها، قال الزرقاني: وجمع باحتمال أن العينين بقرب الجبلين أو فيهما، وحاصل ما قال بلال: إنه كان يذكر مكة وصحة هوائها وعذوبة مائها ولطافة جبالها ونباتها ونفحة رياح نباتها الذي بمنزلة نباتها وأبنائها<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث الشريف استحباب أن يدعو المسلم لوطنه، بالسلم، والأمن، وزيادة الخير والبركة كما كان يدعو النبي (ﷺ) لوطنه المدينة المنورة؛ والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٣- أكد التاريخ أن حبّ الوطن فطري في النفوس؛ فلقد ذكر ابن الجوزي- رحمه الله-: (أن الإسكندر أوصى إذا مات أن يحمل إلى بلده حباً لوطنه، واعتلّ اسفنديار في بعض غزواته فقبل له ما تشتهي؟ قال: شمة من تربة بلخ، وشربة من ماء واديها، واعتلّ سابور ذو الأكتاف بالروم وكان مأسوراً وكانت بنت ملكهم قد عشقته فقالت له ما تشتهي؟ فقال: شربة من ماء دجلة، وشيما من تراب اصطخر، فغيرت عنه أياماً ثم أتت بماء من الفرات، وقبضة من شاطئه؛ وقالت: هذا من دجلة، وهذه من تربة أرضك، فشرب بالوهم، واشتم تلك التربة فنقه من علته<sup>(٣)</sup>).

١- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي- الجامع الصحيح المختصر- تحقيق: د. مصطفى

ديب البغا - كتاب فضائل الصحابة - باب مقدم النبي (ﷺ) وأصحابه المدينة حديث رقم ٣٧١١

ج ٣ ص ١٤٢٨- دار ابن كثير، اليمامة - بيروت ط٣، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٢- أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن أمان الله بن حسام الدين المباركفوري - مرعاة المفاتيح شرح

مشكاة المصابيح- ٩٦ ص ٥٢٢-٥٣٢- إدارة البحوث والدعوة والإفتاء - بنارس الهند ط٣، ١٤٠٤ هـ،

١٩٨٤ م.

٣- أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي- كشف المشكل من حديث الصحيحين- تحقيق: علي حسين

البواب- ج١ ص ١٢٣- دار الوطن الرياض ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

٤- ركزت الأحكام الشرعية على الحب الفطري للوطن لدى المكلف فحكمت بالتغريب سنة على الزاني غير المحسن كعقوبة من تمام الحد؛ ليستشعر الغربة النفسية، وينزجر عما يفعل؛ ولو لم يكن لغرفته عن وطنه أثر نفسى ما حكم الشرع بها (عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهْنًا سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفِي سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ )<sup>(١)</sup>.

(وقوله نفي سنة فيه دليل على وجوب التغريب للزاني البكر عامًا، وأنه من تمام الحد، وإليه ذهب الخلفاء الأربعة ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق وغيرهم... وأما مسافة التغريب فقالوا أقلها مسافة القصر لتحصل الغربة، وغرب عمر من المدينة إلى الشام، وغرب عثمان إلى مصر، ومن كان غريبًا لا وطن له غرب إلى غير البلد التي واقع فيها المعصية)<sup>(٢)</sup>.

## المبحث الثاني: ارتباط رؤى التقدم الاستراتيجية بالأمن والاستقرار في الوطن

### المطلب الأول: الأمن والاستقرار في الوطن دافع للنهضة بشتى صورها

لا يخفى على ذي لب أن رسم الخطط الاستراتيجية وتنفيذها لتحقيق التقدم في شتى المجالات يرتبط بتحقيق الأمن في الوطن، وحمايته من جميع الأخطار؛ فالوطن الآمن نعمة عظيمة لا يعرفها إلا المشردون، واللاجئون، والنازحون؛ لذا نجد القرآن الكريم يبين أن من أعظم النعم التي يمتن الله بها على عباده نعمة الأمن، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

فلا تقدم، ولا ازدهار، ولا تنمية بدون أن يشعر الفرد بالأمن والأمان؛ لذا نجد القرآن الكريم ينعى على قريش تكذيبهم وعصيانهم مع ما امتن الله عليهم من نعمتي الإطعام من جوع، والأمن من خوف؛ قال تعالى: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ۙ إِلَّا لَيْفٌ قُرَيْشٍ ۙ ۝١١٠ إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝١١١﴾<sup>(٤)</sup>

- ١- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري- صحيح مسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي- كتاب الحدود باب حد الزنا- ٤٥٠٩ ج٥ ص: دار الجيل والآفاق بيروت بدون.
- ٢- محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني (المتوفي: ١١٨٢هـ) - سبل السلام- باب حد الزاني - ج٤ ص٥- مكتبة مصطفى البابي الحلبي- ط٤، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م.
- ٣- سورة الأنعام: الآية (٨٢).

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿١﴾ .

والرسول الكريم (ﷺ) يبين أن نعمة الوطن الآمن الذي ينعم فيه الإنسان بالأمن في حركاته، وسكناته، وأكله، وشربه، ونومه...، نعمة تستحق تجديده الشكر عليها كل يوم لأثرها العظيم، وفضلها العميم: (عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَنَا وَأَوَّأَنَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِي) <sup>(١)</sup> وشرح السنة بينوا أن من معاني قوله (ﷺ): (فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي) أي: لا وطن له ولا سكن يأوي إليه) <sup>(٣)</sup>.

### المطلب الثاني: نهي الإسلام عن كل ما يزعزع الاستقرار

يدعو الدين الإسلامي إلى تحقيق الأمن والاستقرار في الأوطان بغية تحقيق الرؤى الحالية والمستقبلية للتقدم، والازدهار؛ وفي سبيل ذلك نهي عن كل ما يزعزع الأمن والاستقرار؛ ومن ذلك:

أ- تكفير المسلمين، واستحلال دمائهم، ومحارمهم، واعتبار بلادهم بلاد كفر: يزعم بعض المتشددین، والمتنطعين، "أن أحكام الكفر تعلو بلادنا؛ وإن كان أكثر أهلها مسلمين" <sup>(٤)</sup> لذا يرفعون السلاح على المسلمين؛ ويستحلون دماءهم ومحارمهم؛ وهذا بلا شك يشيع الفوضى والفساد، ويوقف حركة التنمية، ويمنع تحقيق خطط التقدم الاستراتيجية.

وهذا القول مناقض للواقع، "فهذه الصلاة تؤدي، وهذه المساجد مفتوحة وتبني، وهذه الزكاة يؤديها المسلمون، ويحجون بيت الله، وحكم الإسلام ماض إلا في بعض الأمور كالحودود، والتعامل بالربا، وغير هذا مما شملته القوانين الوضعية؛ وهذا لا يخرج الأمة والدولة عن أنها دولة مسلمة وشعب مسلم، لأننا - حاكما ومحكومين - نؤمن بتحريم الربا، والزنا، والسرقه، وغير هذا، ونعتقد صادقين أن حكم الله خير وهو الأحق بالاتباع، فلم نعتقد حل الربا وإن تعاملنا به؛ ولم نعتقد حلّ

١- سورة قريش: الآيات ١ - ٤ .

٢- صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع - حديث رقم ٤٦٤٤ - ص ٢٠٨٥ - م.س.

٣- المرجع السابق ج ٤ ص ٢٠٨٥ .

٤- جاد الحق علي جاد الحق - كتيب الفريضة الغائبة والرد عليه - ص ١١ فتاوى دار الإفتاء المصرية - ربيع الأول ١٤٠٢ هجرية - يناير ١٩٨٢ م - موقع وزارة الأوقاف المصرية.



الزنا، والسرقه، وغير هذا من الكبائر وإن وقع كل ذلك بيننا"<sup>(١)</sup> وهناك فرق بين اعتقاد حل الشيء وهو محرم، وفعله دون اعتقاد حله.

**ب- الفهم الخاطئ لمفهوم دار الكفر ودار الإسلام:** المتأمل في حقل الدعوة إلى الله يجد بعض الشباب المنوط بهم تحقيق التقدم، والخير للبلاد والعباد، يهجرون بلادهم وأهليهم بحجة أنهم يتركون دار الكفر إلى دار الإسلام؛ ويتخلّون عن واجبهـم تجاه وطنهم، بل إنهم يتحولون إلى كارهين لأوطانهم، وأهليهم!!

وهذا الأمر من الخطورة بمكان؛ لأنه اعتمد على الفهم السقيم لمفهوم دار الكفر ودار الإسلام؛ ومن ثمّ يجب توضيح ذلك المفهوم حتى لا يفهمه البعض خطأ؛ وبينوا عليه أحكاماً خاطئة تعكّر صفو الوطن، وتحوّل البناء إلى معاول هدم.

ذكر المحققون من العلماء أن مفهوم دار الكفر ودار الإسلام أمر اجتهادي، و أن مدار الحكم على بلد بأنه بلد إسلام أو بلد كفر هو الأمن على الدين، وكفالة الحرية في أداء شعائره، وعدم التضييق على المسلمين فيها؛ فلو عاش المسلم في بلد ليس له دين أو دينه غير دين الإسلام واستطاع أن يمارس شعائره دينه في حرية فهو في دار إسلام بمعنى أنه لا يجب عليه الهجرة منها كما كانت الهجرة واجبة على المسلمين من مكة قبل فتحها؛ نظراً لتعرض القلة المسلمة فيها للفتنة حيث كانوا لا يأمنون على دينهم فأمرهم الرسول (ﷺ) بالهجرة إلى الحبشة وهو بلد لا يدين بالإسلام لكن المسلمين فيه أمنوا على دينهم.

ومن العلماء الذين ذكروا ذلك الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله - حيث ذكر رأيين للفقهاء في دار الإسلام ودار الحرب ثم اختار رأي الإمام أبي حنيفة - رضي الله عنه - في أنّ مدار الحكم هو أمن المسلم؛ فإن كان آمناً بوصف كونه مسلماً فالدار دار إسلام وإلا فهي دار حرب.. وقال: (إنه الأقرب إلى معنى الإسلام، ويوافق الأصل في فكرة الحروب الإسلامية وأنها للدفع الاعتداء)<sup>(٢)</sup>.

١- جاد الحق علي جاد الحق - فتاوى دار الإفتاء المصرية- الردّ على كتيب الفريضة الغائبة - ص ١١ ربيع

الأول ١٤٠٢ هجرية - يناير ١٩٨٢ م- موقع وزارة الأوقاف المصرية.

٢- الشيخ محمد أبو زهرة - نظرية الحرب في الإسلام - ص ٢٨.

فكيف تكون بلاد المسلمين التي يرفع فيها الأذان، وتقام فيها الصلوات، وتمارس فيها شعائر الدين في أمن واطمئنان وغالب أهلها على هذا الحال... كيف تكون هذه الدار دار كفر يدعى إلى الهجرة منها، وإلى حرب أهلها والقائمين على الأمن فيها بزعم أنها دار كفر؟!<sup>(١)</sup> إن الفهم القويم لهذا المصطلح يمنع هجرة العقول، ويمنع من خراب الديار، وهلاك الضرع، والنسل، ويمنع من الاقتتال، ويدفع إلى حماية الوطن، والعمل على تقدمه، وتحقيق رؤى التقدم.

### المبحث الثالث:

#### إزالة معوقات حماية الوطن لتحقيق البعد الاستراتيجي في التقدم

من أهم معوقات البعد الاستراتيجي للتقدم والازدهار إشاعة الفوضى بالقتل، والتفجير، وبثّ الذعر والفوضى بين أبناء المجتمع الواحد اعتماداً على الفهم الخاطئ لبعض ما ورد في القرآن الكريم وسنة النبي (ﷺ) وهذا يتطلب قيام العلماء بدورهم في بيان الأفهام السقيمة التي تنشر الجهل، والضلال، وتمنع من تحقيق استراتيجية التقدم؛ ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك والتي أوقعت الفساد، والقتل، والذعر في المجتمعات باسم الدين؛ والإسلام منه برأء:

١- الفهم الخاطئ لقوله (ﷺ): (بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي، وَجُعِلَ الدَّلَّةُ، وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ)<sup>(٢)</sup> فهذا الحديث الذي يتخذ البعض تكأة للقتل، والتخريب، وإشاعة الفوضى حكم عليه علماء الحديث بأنّ (إسناده ضعيف على نكارة في بعض ألفاظه فابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان اختلفت فيه أقوال المرححين والمعدلين، فمنهم من قوّى أمره، ومنهم من ضعفه، وقد تغير بآخره، وخلاصة القول فيه أنه حسن الحديث إذا لم يتفرد بما ينكر، فقد أشار الإمام أحمد إلى أن له أحاديث منكورة، وهذا منها)<sup>(٣)</sup>.

- ١- وزارة الأوقاف المصرية- العهود والمواثيق في الإسلام- ص١٠٢- مطابع وزارة الأوقاف- ١٩٩٥م.
- ٢- أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن أسد الشيباني- مسند الإمام أحمد بن حنبل: تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون - مُسْنَدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (ﷺ) عَنْهُمَا حَدِيثٌ رَقْمٌ ٥١١٤ ج٩ ص١٢٤- مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- ٣- تحقيق: شعيب الأرنؤوط و عادل مرشد، وآخرون لهذا الحديث في المسند- مُسْنَدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَدِيثٌ رَقْمٌ ٥١١٤ ج٩ ص١٢٤- مرجع سابق.

وهذا الحديث مع ضعفه وجهه العلماء الثقات توجيهًا يتفق مع دلالاته، يقول فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر السابق جاد الحق علي جاد الحق - رحمه الله: (هذا الحديث ما مدلوله؟ وهل تؤخذ ألفاظه هكذا وحدها دون النظر إلى الأحاديث الأخرى وإلى سير الدعوة منذ بدأت؟ إن ما قال به أصحاب ذلك الفكر هو ما قال به المستشرقون، حيث عابوا على الإسلام فقالوا إنه انتشر بالسيف؛ ألا ساء ما قال هؤلاء وأولئك، فإن القرآن قد فصل في هذه القضية وما كان رسول الله (ﷺ) إلا مبلغًا ومنفدًا للوحي، ولا يصدر منه ما يناقض القرآن الذي يقول: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)<sup>(١)</sup>، ويقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، ويقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، ويقول: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ فَأَنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾<sup>(٤)</sup>، ويقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(٥)</sup> ذلك القرآن أصل الإسلام، والسنة مفسرة له لا تختلف معه، وحديث بعثت بالسيف مع هذه الآيات لا يؤخذ على ظاهره، فقد جاء بيانًا لوسيلة حماية الدعوة عند التعدي عليها، أو التصدي للمسلمين، وإلا فهل استعمل الرسول (ﷺ) السيف لإكراه أحد على الإسلام؟ اللهم لا؛ وما كان له أن يخالف القرآن الذي نزل على قلبه. وقوله الشريف: (وجعل رزقي في ظل رحمي) إشارة إلى آية الغنائم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ

١- سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

٢- سورة النحل: الآية ١٢٥.

٣- سورة يونس: الآية ٩٩.

٤- سورة آل عمران: الآية ٢٠.

٥- سورة القصص: الآية ٥٦.

عَبْدَنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ وقسمتها، وأنَّ له رزقاً في بيت مال المسلمين، حتى لا ينشغل عن الدعوة بكسب الرزق؛ وكان هذا مبدأ في الإسلام، فأصبح لولي أمر المسلمين مرتباً في بيت مال المسلمين حتى يتفرغ لشؤونهم، وهذا هو ما فهمه أصحاب رسول الله (ﷺ)، فإن أبا بكر (رضي الله عنه) بعد أنه اختاره المسلمون خليفة توجه إلى السوق كعادته للتجارة، فقابله عمر (رضي الله عنه) وقال له ماذا تصنع في السوق؟ قال أعمل لرزقي وزرق عيالي، فقال له قد كفيناك ذلك، أو قد كفاك الله ذلك؛ مشيراً إلى هذه الآية، فإن فيها قول الله (فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ) فمرتب الخليفة من هذا الخمس<sup>(١)</sup>.

فأصحاب ذلك الفكر يضعون الحديث في غير موضعه، ويوردون النص في غير ما جاء فيه ولا يحتمله؛ وهذا ما يجعل الحديث مناقضاً للقرآن؛ وهذا ما لا يقول به مسلم.

**٢- الفهم لخطأ لحديث:** (لقد جئكم بالذبح)<sup>(٢)</sup> والذي يحدث الرعب والذعر في المجتمع، ويمنع الاستثمار في البلاد الإسلامية، وينفر الناس من الدين؛ فهذا الحديث الشريف تتوقف معرفته على معرفة سبب وروده، وعلى المعنى المراد من كلمة "الذبح" فيه؛ والرجوع في ذلك إلى العلماء الثقات؛ فسبب ورود الحديث هو ما رواه عبد الله بن عمرو، قال: قلت: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله (ﷺ)، فيما كانت تُظهِر من عداوته؟ قال: قد حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم في الحجر، فذكروا رسول الله (ﷺ)، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفة أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب أهلتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا، فبيننا هم في ذلك، إذ طلع رسول الله (ﷺ)، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، فمر بهم طائفاً بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: وعرفت ذلك في

١- سورة الأنفال: الآية ٤١.

٢- ينظر: رد فضيلة المفتي: جاد الحق على جاد الحق على كتيب الفريضة الغائبة ص ١١ - م. س.

٣- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البستي (المتوفي: ٣٥٤هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط - كتاب التاريخ - باب كُتِبَ النَّبِيِّ (ﷺ) - ذَكَرَ بَعْضُ أَذَى الْمُشْرِكِينَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)، عِنْدَ دَعْوَتِهِ إِلَيْهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ - حديث رقم ٦٥٦٧ ج ١ ص ٥٢٦ - ٥٢٧ - مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م، والحديث حسن.

وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى (ﷺ)، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى (ﷺ)، فَمَرَّ بِهِمُ الثَّلَاثَةَ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، ثُمَّ قَالَ: "أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ" قَالَ: فَأَخَذَتِ الْقَوْمُ كَلِمَتَهُ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا لَكَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَقَعَ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَطَاءَةً قَبْلَ ذَلِكَ يَتَوَقَّأَهُ بِأَحْسَنِ مَا يُجِيبُ مِنَ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، انصَرِفْ راشِداً، فَوَ اللَّهُ مَا كُنْتُ جَهُولاً، فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) (١).

ثم استطردت الرواية إلى ما كان بين الرسول (ﷺ) وهؤلاء الذين غمزوه بالقول ثلاث مرات وهو يطوف حول البيت في ذات اليوم واليوم التالي.

فما معنى هذه العبارة الأخيرة في قول الرسول (ﷺ) حسبما جاء في هذه الرواية (لقد جئتكم بالذبح)؟ نعود إلى اللغة نجدها تقول: (ذبحت الحيوان ذبحاً قطعت العروق المعروفة في موضع الذبح بالسكين، والذبح الهلاك، وهو مجاز، فإنه من أسرع أسبابه، وبه فسّر حديث ولاية القضاء (فكأنما ذبح بغير بسكين) ويطلق الذبح للتذكية، وفي الحديث (كل شيء في البحر مذبوح) أي ذكي لا يحتاج إلى الذبح، ويستعار الذبح للإحلال، أي لجعل الشيء المحرم حلالاً، وفي هذا حديث أبي الدرداء (ﷺ) (ذبح الخمر، الملح والشمس) أي أن وضع الملح في الخمر مع وضعها في الشمس يذبحها أي يحولها حلالاً فتصبح حلالاً) (٢).

فأي معنى لغوى للفظ الذبح في هذه القصة يعتد به؟ " لا يجوز أن يكون المراد المعنى الأصلي للذبح، وهو قطع العنق من الموضع المعروف، لأن الله أبلغ الرسول في القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (٣)، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٤)، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

١- صحيح ابن حبان - كِتَابُ التَّارِيخِ - بَابُ كُتُبِ النَّبِيِّ (ﷺ) - ذَكَرَ بَعْضُ أَذَى الْمُشْرِكِينَ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)، عِنْدَ دَعْوَتِهِ إِلَيْهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ - حَدِيثٌ رَقْمٌ ٦٥٦٧ ج ١٤ ص ٥٢٦ - ٥٢٧ م. ق.

٢- محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي - تاج العروس من جواهر القاموس: - مادة ذبح ج ٦ ص ٣٦٧ دار الهداية بدون.

٣- سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

٤- سورة القصص: الآية ٥٦.

﴿الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾<sup>(٢)</sup> والنبي (ﷺ) لم يفعل ذلك، يعني لم يذبح أحدا لا في مكة ولا في غيرها، ولم يكره أحدا على أتباعه، فيستبعد المعنى الأصلي لمعارضته للقرآن؛ وإذا يكون المعنى المجازي هو المراد بهذا التهديد فإنهم قد غمزوه، وعابوه، وشتموه، وهو يطوف بالبيت فهددهم بالهلاك؛ بأن يدعو الله عليهم كما فعل السابقون من الأنبياء، أو بالتطهير مما هم فيه من الشرك؛ يعني أنه جاءهم بالدين الصحيح الذي يتطهرون باتباعه، وهذا المعنى الأخير هو المتفق مع ما أثر عنه (ﷺ) أنه كان يدعو لقومه بالهداية إلى الإسلام؛ وتفسير الذبح في هذا التهديد بالمعنى المتبادر لهذا اللفظ يتعارض مع ما عرف عن رسول الله (ﷺ) من خلق وحكمة ورحمة بالناس، وقد أكد القرآن كل هذه الصفات لرسول الله (ﷺ)، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال سبحانه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِن حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(٥)</sup>.

## الفصل الثاني:

مرتكزات الرؤى المستقبلية والأبعاد الاستراتيجية لحماية الوطن في السنة النبوية

### المبحث الأول: المحافظة على النسيج الداخلي للمجتمع

إن تحقيق الرؤى المستقبلية والأبعاد الاستراتيجية لأي تقدم يتوقف على مدى انسجام النسيج الداخلي للمجتمع؛ فإن كان مترابطاً منسجماً مع التعدد والتنوع تحققت عوامل النجاح والازدهار، وتحققت الخطط المستقبلية للتقدم والنماء؛ وإن كان التناحر، والتقاتل، وفقد الأمن، وانتهاك بيضة

١- سورة المائدة: الآية ٩٢.

٢- سورة التغابن: الآية ١٢.

٣- سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

٤- سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٥- سورة القلم: الآية ٤.

الأوطان عدمت التنمية، وفقد الازدهار، وتحول الوطن إلى أطلال وخراب؛ لذا جاء الإسلام بالمحافظة على النسيج الداخلي للمجتمع من التآكل والانهيار، فقرر أن:

١- علاقة أفراد المجتمع تقوم على التعارف، والتعاون، والبر، والعدل، قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ عَنِ اللَّهِ مَنَافٍ وَلَا أَسَفٌ إِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجْرًا﴾ (١)، وأكد النبي (ﷺ) على هذه الحقيقة وسط جموع المسلمين فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى. أَبْلَغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ. قَالَ: وَلَا أَدْرِي. قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. أَبْلَغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ (٢).

٢- أقام العلاقة بين المسلمين وغيرهم على المسالمة، والمعاشرة الجميلة، والمعاملة بالحسنى، وتبادل المصالح، والتعاون على البر والتقوى، قال تعالى:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٣) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَنَّهُمْ وَأَعْلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَتَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤)، يقول الفقهاء: (الموالاتة بمعنى المسالمة، والمعاشرة الجميلة، والمعاملة بالحسنى، وتبادل المصالح، والتعاون على البر والتقوى، مما دعا إليه الإسلام، ولا يدخل في نطاق النهي عن موالاتة الكافرين، أما النهي عن موالاتة الكافرين فيقصد به النهي عن مخالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، كما يقصد به النهي عن الرضى بما هم فيه من كفر؛ إذ إن مناصرة الكافرين على المسلمين فيه ضرر بالغ بالكيان الإسلامي، وإضعاف لقوة الجماعة المؤمنة) (٤).

١- سورة الحجرات آية: (١٣).

٢- المسند - الإمام أحمد بن حنبل (ﷺ) ج ٣٨٨ ص ٤٧٤ حديث رقم ٢٣٤٨٩.

٣- سورة الممتحنة: الآيتان (٨)، (٩).

٤- فقه السنة ج ٢ ص ٦٠٣، ٦٠٤.

## والسنة النبوية مليئة بصور البرّ مع أهل الكتاب، منها على سبيل المثال:

- ما رواه البخاري في صحيحه: (كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجِنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لُهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَيِّ مِنْ أَهْلِ الدِّمَّةِ، فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةٌ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا<sup>(١)</sup>).

- ما رواه البخاري في صحيحه: (عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ)، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: "أَسْلِمَ"، فَنظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ)، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ<sup>(٢)</sup>.

- أباح الإسلام زيارتهم، وعبادة مرضاهم، وتقديم الهدايا لهم، ومبادلتهم البيع والشراء ونحو ذلك من المعاملات، فمن الثابت أن الرسول ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي في دين له عليه، وكان بعض الصحابة إذا ذبح شاة يقول لخادمه ابدأ بجارنا اليهودي.

- **عدم التعرض لمعبودهم بسوء:** فلقد أوجب الإسلام على المسلم ألا يسبَّ معبودات الآخرين؛ لأن ذلك يدفع الآخرين إلى سبِّ الله والعياذ بالله، كما يدفع المخالفين إلى العناد والتعصب؛ لأن أي مدعو يجب معتقده ويتمسك به وإن كان باطلاً، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

يقول الإمام القرطبي - رحمه الله: (نهي سبحانه المؤمنين أن يسبوا أوثان الذين يدعون من دون الله؛ لأنه علم إذا سبوا نفر الكفار وازدادوا كفرًا. قال ابن عباس: قالت كفار قريش لأبي طالب إما أن تنهي محمدًا وأصحابه عن سبِّ آهتنا والغضب منها؛ وإما أن نسبَّ إلهه ونهجوهم؛

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز باب مَنْ قَامَ لِحِنَاةِ يَهُودِيٍّ حديث رقم ١٣١٢ ج ٢ ص ٨٥ .

٢- صحيح البخاري، كتاب الجنائز باب إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ، هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الْإِسْلَامُ حديث رقم ١٣٥٦ ج ٢ ص ٩٤ .

٣- سورة الأنعام الآية: ١٠٨ .



فنزلت الآية... قال العلماء: الآية حكمها باق في هذه الأمة على كل حال؛ فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله عز وجل، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية...<sup>(١)</sup>.

### وأقر الإسلام جملة من الحقوق لليهود والنصارى؛ أهمها:

١ - حماية الدولة لهم، بدفع الظلم عنهم، روى أبو داود عن عِدَّةٍ مِنْ أبنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - عَنْ آبَائِهِمْ دِنِيَّةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>.

٢ - حق الإقامة والتنقل في دار الإسلام أينما يشاءون للتجارة وغيرها، لكن الفقهاء اتفقوا على عدم جواز إقامة الذمي واستيطانه في مكة والمدينة.

٣ - عدم التعرض لهم في عقيدتهم وعبادتهم، ويكون دخول الذمي الإسلام عن طريق الدعوة لا عن طريق الإكراه.

٤ - النهي عن سبِّ معبوداتهم حتى لا يسبوا الله عدوًّا بغير علم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

٥ - يتمتع الذمي باختيار العمل الذي يراه مناسبًا للتكسب فيشتغل بالتجارة والصناعة كما يشاء، أما الوظائف العامة فيما يشترط فيه الإسلام كالخلافة والإمارة على الجهاد فلا يجوز أن يعهد بذلك إلى ذمي. واشترط الإسلام عليهم عدة شروط احتراماً لعقائد المسلمين، وضمانة لتحقيق التعايش السلمي بين الطرفين؛ ومن أهم هذه الشروط ما ذكره الإمام الماوردي - رحمه الله - حيث

١- تفسير القرطبي ج٧ ص٦٠.

٢- سنن أبي داود- كتاب الخراج - باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارا « حديث رقم ٣٠٥٤ ج٣ ص١٣٦ والحديث صحيح.

٣- سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

قال: يشترط عليهم ستة أشياء<sup>(١)</sup>:

- ١ - ألا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن ولا تحريف له.
- ٢ - وألا يذكروا رسول الله (ﷺ) بتكذيب له ولا ازدراء.
- ٣ - وألا يذكروا دين الإسلام بدم له ولا قدح فيه.
- ٤ - وألا يصيبوا مسلمة بزنا.
- ٥ - وألا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله.
- ٦ - وألا يعينوا أهل الحرب ولا يؤووا للحريين عيناً (جاسوساً).

وهذه الحقوق والواجبات لأهل الكتاب ومن في حكمهم تكون بالعقد أو القرائن أو التبعية، ويقوم بتطبيقها وحمايتها الإمام، أو ممن ينوب عنه، وهذا العقد يشترط أن يكون مؤبداً، وفي قول عند الشافعية: يصح مؤقتاً<sup>(٢)</sup>.

وهذه الشروط التي ذكرها العلماء تضمن أن يتمتع كل فرد بالحرية المسؤولة، والحق المشروع، وأن يتعايش الجميع في جو من الاحترام المتبادل، والعمل البناء.

### المبحث الثاني: الاستفادة من ماضي الأمة للانطلاق نحو المستقبل المزهر

التاريخ وعاء الزمن، والأمة التي لم تستفد بخبرات الماضي لم تفز بشمرات المستقبل، لذا دعا الله المؤمنين إلى السير في الأرض والنظر في أحوال السابقين للاتعاظ والاعتبار، قال تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾<sup>(٣)</sup>؛ فهذه الآية الكريمة ونظائرها تحث المرء على استعمال البصر، والقلب، والعقل والنظر في آثار السابقين، للاستفادة من أحوالهم؛ يقول

١- الأحكام السلطانية للمواردى ص ١٨٤ وما بعدها.

٢- موسوعة المفاهيم: ص ٢٩٧ بتصرف. مرجع سابق

٣- سورة الحج آية (٤٦)

الإمام القرطبي - رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾<sup>(١)</sup> قال: (ببصائرهم وقلوبهم)<sup>(٢)</sup>؛ لذا نعى الله على كفار قريش قعودهم في ديارهم، وعدم سيرهم في الأرض سير المتأملين المعتبرين، واستنطاق آثار السالفين كعاد، وثمود لإدراك صحة ما يدعوهم إليه النبي (ﷺ)؛ قال تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ثم كان عاقبة الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوَأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ<sup>(٤)</sup>، ودعا النبي (ﷺ) إلى الاعتاض بأحوال السابقين للانطلاق نحو المستقبل بخطى ثابتة؛ وأكبر مثال على ذلك قصة مروره بديار قوم سيدنا صالح (عليه السلام) وتوجيهه الصحابة إلى الاستفادة من أحواله مع قومه، عن جابر: قَالَ لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ صَالِحٌ فَكَانَتْ تَرُدُّ مِنْ هَذَا الْفَجِّ وَتَصُدُّرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ فَعَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا فَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا فَعَقَرُوهَا فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهَمَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَيْلٍ مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ هُوَ أَبُو رِغَالٍ فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ<sup>(٥)</sup>.

فالنبي الكريم (ﷺ) في هذا الحديث أشار إلى موضع ورود الناقة، وصدورها كدلالة عملية لقصة سيدنا صالح (عليه السلام) ولم يأمر بتغيير معالمها، أو تسويتها؛ بل أمر بالتصديق، والبعد عن سؤال الآيات للتكذيب، و(عن نافع أن عبد الله بن عمر - (رضي الله عنهما) - أخبره: أن الناس نزلوا مع رسول الله (ﷺ) أرض ثمود الحجر فاستقوا من بئرها واعتجنوا به فأمرهم رسول الله (ﷺ) أن يهريقوا ما استقوا من بئرها وأن يعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت ترددها الناقة)<sup>(٥)</sup>.

١- سورة الروم جزء من الآية: ٩.

٢- تفسير القرطبي ج٤ ص٩٦ مرجع سابق.

٣- سورة الروم الآيات (٩، ١٠).

٤- المسند - مسند جابر بن عبد الله - ج٢٢ ص٦٦ - الرسالة - الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م - تحقيق الأرنؤوط وآخرون وقال المحققون: حديث قوي، وهذا إسناد على شرط مسلم.

٥- صحيح البخاري - كتاب الأنبياء - باب قول الله تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحا) حديث رقم ٣١٩٩ ج٣ ص١٢٣٧.

والنبي الكريم (ﷺ) في هذا الحديث لم يأمر بتغيير هذه الآبار أو ردمها أو تغيير معالمها؛ بل أبقاها كما هي؛ ثم شرع في بيان حكم الشرب والعجن منها؛ فنهى عن استعمال مياه بئار الحجر إلا بئر الناقة؛ ففعل النبي (ﷺ) دعوة للاتعاظ والاعتبار من أحوال السابقين حتى لانفعل مثلهم فتكون الانطلاقة للمستقبل عن بيّنة وبصيرة: (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله (ﷺ) قال (لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم)<sup>(١)</sup> يقول الإمام النووي - رحمه الله: (فَيَنْبَغِي لِلْمَارِّ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ الْمُرَاقِبَةَ، وَالْحَوْفَ، وَالْبُكَاءَ، وَالِاعْتِبَارَ بِهِمْ وَمِصْارِعِهِمْ، وَأَنْ يَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ)<sup>(٢)</sup> فالعبرة في أمر النبي (ﷺ) الداخل والمار بهذه الأماكن باكيًا هو الاتعاظ والاعتبار؛ لأنه إن لم يتعظ ويعتبر كان قاسي القلب، فيخشى عليه أن يصنع مثل صنيعهم فيصيبه الله بعذاب مثل ما أصابهم؛ فالانطلاق إذن نحو تحقيق رؤى المستقبل يحتاج التعرف إلى الماضي لتفادي سلبياته، والاستفادة من إيجابياته، فآثار الأوطان دليل واقعي مشاهد محسوس على الاستفادة من سلبيات الماضي لتفاديها في المستقبل لتحقيق غد مشرق؛ لذا نجد العلماء اعتبروا السفر لرؤية آثار السابقين للاتعاظ والاعتبار محبوبًا ومطلوبًا شرعًا؛ لكونه سفر عبرة، يقول ابن العربي رحمه الله: (المَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: فِي السَّفَرِ فِي الْأَرْضِ: تَتَعَدَّدُ أَقْسَامُهُ مِنْ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، فَتَنْقَسِمُ مِنْ جِهَةِ الْمَقْصُودِ بِهِ إِلَى هَرَبٍ أَوْ طَلَبٍ... وَأَمَّا قِسْمُ الطَّلَبِ فَيَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: طَلَبُ دِينٍ وَطَلَبُ دُنْيَا؛ فَأَمَّا طَلَبُ الدِّينِ فَيَتَعَدَّدُ بِتَعَدُّدِ أَنْوَاعِهِ، وَلَكِنَّ أَمَهَاتِهِ الْحَاضِرَةَ عِنْدِي الْأَن تِسْعَةٌ: الْأَوَّلُ: سَفَرُ الْعِبْرَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)<sup>(٣)</sup> وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَيُقَالُ: إِنَّ ذَا الْقُرْنَيْنِ إِذَا طَافَ الْأَرْضَ لِيَرَى عَجَائِبَهَا وَقِيلَ: لِيُنْفِذَ الْحَقَّ فِيهَا...)<sup>(٤)</sup>.

١- أخرجه البخاري - كتاب الصلاة - باب ٢١ - باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب - ج ١ ص ١٦٧ حديث رقم ٤٢٣ - هؤلاء المعذنين بفتح الذال المعجمة يعني ديار هؤلاء وهم أصحاب الحجر قوم ثمود وهؤلاء قوم صالح عليه السلام.

٢- شرح النووي - باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين - ج ١٨ ص ١١١.

٣- سورة يوسف: ١٠٩.

٤- القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي - أحكام القرآن - ج ١ ص ٦١٠-٦١٣ - بتصرف يسير - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - ط ٣، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

## المبحث الثالث: العمل على قوة الوطن وتقدمه

ينبغي على المسلم أن يحافظ على وطنه بالنفس والنفيس، وأن يسهم في تحقيق النماء، وأن يشارك في تنفيذ الرؤى المستقبلية له؛ لأنه المكان الذي يأمن فيه على ماله، وعرضه، ودمه؛ والعمل على قوة الوطن وتقدمه يتمثل في فعل كل شيء نافع، والبعد عن كل شيء ضار، وصور ذلك في السنة النبوية كثيرة؛ منها:

١- التعاون مع ولاة الأمر و البعد عن الحزبية والتفرق: إن قوة الوطن وتقدمه ترتكز على قاعدة أساسية هي: طاعة أولي الأمر، وتوقيرهم من جانب الحكوميين، والشفقة والرأفة من جانب أولي الأمر؛ وكله في دائرة طاعة الله ورسوله (ﷺ)، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾<sup>(١)</sup>، (وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأَطِيعَ وَإِن كَانَ عَبْدًا مُجَدِّعَ الْأَطْرَافِ)<sup>(٢)</sup>، (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): "عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ"<sup>(٣)</sup>)، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) أَنَّهُ قَالَ " عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَإِن أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"<sup>(٤)</sup>، ومما لا شك فيه أن طاعة أولي الأمر، والبعد عن الحزبية والتفرق تدفع قاطرة التنمية والتقدم إلى الأمام، فإن يد الله مع الجماعة، والاتحاد قوة، والتفرق نقمة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ

١- النساء: ٥٩.

٢- صحيح مسلم- كتاب الإمارة- باب وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ. حديث رقم ٤٨٦١ ج٦ ص ١٤، والمجدع: مقطوع الأطراف.

٣- صحيح مسلم- كتاب الإمارة- باب وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ. حديث رقم ٤٨٦٠- المرجع السابق.

٤- صحيح مسلم- كتاب الإمارة- باب وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ. حديث رقم ٤٨٦٩ المرجع السابق.

النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١﴾، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله (ﷺ): (يد الله مع الجماعة)<sup>(٢)</sup>. والثابت تاريخياً أن الدول التي يتحقق فيها الطاعة، والاتحاد ترقى إلى المكانة السامقة، وأن الأمم التي تعاني من التفرق، والتشرذم تهوي إلى مكان سحيق.

٢- العمل الجادّ المثمر الذي يفيد الوطن إلى آخر لحظة في الحياة: يدعو الإسلام أتباعه إلى العمل المثمر البناء الذي يحقق الخير والرخاء، ويدعم أواصر الوطن الذي ينعم أبناءه فيه بالخير والأمان، وينهاهم عن الكسل، والخمول، والاتكالية، والبطالة المقنعة؛ حتى ينهض الاقتصاد، ويرتفع مستوى المعيشة، ويحجم الفقر الذي ينتج الجرائم والشور. ودعوة الإسلام أبناءه إلى العمل لا تتوقف حتى آخر لحظة؛ عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (ﷺ): (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل)<sup>(٣)</sup>.

٣- استجلاب المستجدات التي تخدم الوطن ولا تتعارض مع الدين: إن الرؤى المستقبلية لتحقيق التقدم للأوطان تعتمد على استجلاب كل نافع ومفيد؛ فالإسلام لا يرفض الاستفادة من علوم الآخرين وحضارتهم طالما لا تتعارض مع الدين، وخير مثال على ذلك ما تمّ في غزوة الأحزاب حيث استفاد المسلمون بفكرة (حفر الخندق) حول المدينة لحمايتها من المشركين، وكانت فكرة مستفادة من الفرس وأقرها الرسول (ﷺ) ولم يمنعها لأن فيها حماية الوطن، ولا تتعارض مع الدين.

يقول الأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار- رحمه الله: (يطلع سلمان الفارسي -ﷺ- على الرسول (ﷺ) والمسلمين برأي سديد وفكرة صائبة تشرق لها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم، ذلك

١- سورة آل عمران: ١٠٣

٢- سنن الترمذى - تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون- كتاب الفتن عن رسول الله (ﷺ) - باب ما جاء في لزوم الجماعة حديث رقم ٢١٦٦ ج ٤ ص ٤٦٦ - دار إحياء التراث العربي - بيروت، قال

المحققون: الحديث صحيح

٣- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني- مسند الإمام أحمد بن حنبل بتعليق شعيب الأرنؤوط - مسند أنس بن مالك (ﷺ) - حديث رقم ١٣٠٠٤- ج ٣ ص ١٩١ مؤسسة قرطبة القاهرة، والحديث صحيح على شرط مسلم، وفسيلة: صغار النخل وهي التي تقطع من الأم أو تقلع من الأرض فتغرس.

أنه أشار عليهم بحفر الخندق في الجهة التي يخشى منها خطر الزحف على المدينة، وكانت فكرة حفر الخندق فكرة عجيبة لم يعرفها العرب قبل ذلك، وإنما عرفها الفرس في حروبهم، وأخذها عنهم سلمان الفارسي - رضي الله عنه - وحينما رأى الرسول الكريم ﷺ قوة هذا الرأي واقتنع بصوابه، أمر بوضعه موضع التنفيذ وقام يياشر بنفسه هذا العمل الكبير<sup>(٤)</sup>.

**٤ - المساهمة في كَفِّ الأذى عنه بجميع أنواعه:** حماية الوطن أساس تقدمه وازدهاره؛ فبأمنه واستقراره تحفظ الدماء، والأعراض، والأموال، وتحقق الخطط المستقبلية للتنمية والتطور، ولعلّ هذا وأكثر يستفاد من بشارة النبي ﷺ لمن يحمى دمه وماله وعرضه في قوله: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)<sup>(٥)</sup>.

## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، فبعد المعاشة لأجزاء البحث يمكن أن نخرج بأهم النتائج والتوصيات .

### أولاً: أهم النتائج:

١- أكدت دلالات القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وشواهد الأحداث والتاريخ أن حب الوطن الذي نشأ فيه الإنسان وترعرع أمر فطري.

٢- حماية الأوطان أمر ضروري لصيانة الدماء، والأموال، والأعراض، ولتحقيق الرؤى المستقبلية للتقدم والازدهار.

٣- حماية الأوطان تبدأ من المحافظة على النسيج الداخلي للمجتمعات، وإزالة الشبه الفكرية التي

---

٤- محمد الطيب النجار- القول المبين في سيرة سيد المرسلين - ص٢٦٧ - ٢٦٨ دار الندوة الجديدة بيروت لبنان- بدون.

٥- محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي- سنن الترمذي - تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون- بابُ ما جاءَ فيمن قُتلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ حديث رقم ١٤٢١ ج٤ ص٣٠ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر ط١٩٧٥، ٢٠٢١، والحديثُ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

تقوض أمن المجتمعات، وتعمل إشاعة الفوضى، وزعزعة الأمن والاستقرار.

ثانياً: أهم التوصيات:

- ١- العمل على تصحيح المفاهيم الخاطئة التي يروجها البعض؛ وتعمل على تكدير السلم المجتمعي، ونشر المفاهيم المصححة التي تعمل على المحافظة على النسيج الداخلي في وسائل الإعلام المتعددة.
- ٢- قيام الجهات المعنية بدورها في بيان أن وحدة الوطن وقوته تحتاج إلى مجهود ومثابرة من جميع أبنائه، وعدم الانصياع إلى الأفكار الهدامة.
- ٣- لا يجب أن يؤثر حب الوطن والمحافظة عليه في أخوة الدين بين جميع المسلمين، بل يجب أن تكون منطلقاً للتعاون، والتراحم.
- ٤- بيان أن نشر الصورة الصحيحة للإسلام تعين على انتشاره، ودخول الناس في رحابه، بينما صورة هتك الأعراض، وسفك الدماء، وذبح الأحياء، وترويع الأمنين تجعل حجاباً حاجزاً يمنع الناس من الدخول في دين الله أفواجاً؛ لذا يجب على المسلمين جميعاً الانتباه إلى هذا الأمر، ونشره بكل ما أوتوه من قوة حتى يحذر الناس ذلك؛ ويعلموا أن أخطاء البعض في سوء الفهم والتطبيق لاتعبّر عن الإسلام الصحيح. وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



## المصادر والمراجع

- أبو زكريا يحيى بن شرف النووي: شرح النووي على صحيح مسلم- دار إحياء التراث العربي بيروت ١٣٩٢هـ.
- أبو الحسن عبيد الله بن أمان الله المباركفوري - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح- إدارة البحوث والدعوة والإفتاء- بنارس الهند ط٣، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤م.
- أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي- كشف المشكل من حديث الصحيحين- تحقيق: علي حسين البواب - دار الوطن الرياض ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.
- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني- مسند الإمام أحمد بن حنبل بتعليق شعيب الأرنؤوط - مسند أنس ابن مالك رضي الله عنه - مؤسسة قرطبة القاهرة.
- أحمد مصطفى المراغي- تفسير المراغي - مكتبة البابي الحلبي بمصر- بدون.
- القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي - أحكام القرآن- دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان- ط٣، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- جاد الحق على جاد الحق مفتي جمهورية مصر العربية الأسبق- فتاوى دار الإفتاء المصرية- الردّ على كتيب الفريضة الغائبة - ربيع الأول ١٤٠٢ هجرية - يناير ١٩٨٢م- موقع وزارة الأوقاف المصرية.
- حلمي صابر - مناهج البحث العلمي وضوابطه في الإسلام- ايجيت للطباعة ط٢ ٢٠٠٠م.
- ذوقان عبيدات وآخرون- البحث العلمي مفهومه وأدواته وأساليبه - دار الفكر ط١٨٤١ هـ-١٩٩٨م.
- عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي- طبقات المفسرين - تحقيق: علي محمد عمر- مكتبة وهبة -القاهرة ط١ سنة ١٣٩٦هـ.
- علي سامي النشار- مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي- دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٨م.
- ١٢- علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات- تحقيق: إبراهيم الأبياري -دار الكتاب العربي - بيروت ط١، ١٤٠٥هـ.
- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي- الجامع الصحيح المختصر- تحقيق: د. مصطفى ديب البغا - بيروت ط٣، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م.

- محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني (المتوفى: ١١٨٢هـ) - سبل السلام - مكتبة مصطفى البابي الحلبي - ط ٤، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م.
- محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ) - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: تحقيق: شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري - المستدرك على الصحيحين - تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١، ١٤١١ - ١٩٩٠م.
- محمد بن عيسى بن سَوْرَة بن الضحاك، الترمذي - سنن الترمذي - تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون - مكتبة مصطفى البابي الحلبي - مصر ط ٢، ١٩٧٥م.
- محمد بن عمر بن الحسين الرازي المعروف بالفخر الرازي - مفاتيح الغيب دار إحياء التراث العربي.
- محمد الطيب النجار - القول المبين في سيرة سيد المرسلين - دار الندوة الجديدة بيروت لبنان - بدون.
- محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي - تاج العروس من جواهر القاموس: - دار الهداية - بدون.
- محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري - لسان العرب - دار صادر بيروت - بدون.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري - صحيح مسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - دار الجيل والآفاق بيروت - بدون.
- وزارة الأوقاف المصرية - العهود والمواثيق في الإسلام - مطابع وزارة الأوقاف - ١٩٩٥م.

كيف يُصنَعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟  
مسالكُ التميّةِ المركّبةِ وذُلُلُ السُّنّةِ النبويّةِ

الدكتور / ناصر يوسف (الجزائر)

رئيس قسم الكتب بوحدة النشر العلمي - الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا





## مقدمة

يستدعي حب الوطن توافر فعل الانتماء من منطلق أنه إذا لم يكن الإنسان منتمياً قد لا يكون محباً؛ فمن يجب أن يفنى في محبوبه ويدافع عنه ويحميه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ حتى إذا انتمى المواطن إلى الوطن فإنه ينتمي إليه انتماء المتفانين في حبه غير الظانين برجالته ظن السوء؛ ما يستدعي الإخلاص له وللقائمين عليه، والذب عنه وما حوالبه. إذاً حماية الشيء تشترط حب الشيء والانتماء إليه، لاسيما إذا كان هذا الشيء من نضح الأرض بعد أن استقرَّ في حوض الوطن.

وإذ إن الحبَّ افتقادٌ وأملٌ في امتلاك؛ فإن حبَّ الشيء الذي افتقده الإنسان في طفولته، يشترط امتلاكه للشيء وهو في ريعان شبابه وافتتانه برحولته. كما أن حماية الشيء تشترط امتلاك الشيء؛ ومن ثم فإن حبَّ الشيء يدفع الإنسان غريزياً - وشرعياً - إلى حمايته، علاوة على أن الرسول ﷺ قدَّم درساً تاريخياً وحضارياً في حب الوطن والشوق إليه والتعلق به، والعمل على إصلاحه وإعماره وتنميته، والإحسان إلى أهله؛ إذ قال الرسول ﷺ عن بلدته مكة التي غادرها مكرهاً وقد أخرج منها: (وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ).<sup>(١)</sup>

طبعاً، هناك تسلسل منطقي بين حبَّ الشيء وحمايته. هذا الحبُّ للشيء يقترن بمدى امتلاكه وتوظيفه والانتفاع به والإفادة منه، ومن ثم الدفاع عنه ضد القاصي منه والداني متى استدعت الحاجة إلى ذلك؛ إذ يعد صاحبه شهيداً، سواء أكان هذا الشيء الممتلك عرضاً أم أرضاً أم بيتاً أم مالاً أم وطناً؛ تعززه السنة النبوية؛ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ).<sup>(٢)</sup>

١- أخرجه الترمذي في سننه وصحَّحه، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل مكة، رقم ٣٩٢٥، ٢٠٧/٦.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، رقم ٢٤٨٠، ١٣٦/٣.

من وجهة أخرى، فإن الوطن غرس بيئي طيب؛ حيث يعد المواطن ثمرة هذا الغرس الطيب. وإذا يأتي الغرس طيباً، فإن الثمرة تأتي هي الأخرى طيبة؛ حيث إن الطيبة صفة ملازمة للوطن على مرّ العصور والدهور. وإذا كان للإنسان أن ينتقل ويتقلّب إلى درجة خيانة الوطن؛ فإن الوطن لا ينتقل؛ لأنه بيئة وأرض، ولا يتقلّب؛ بل يبقى صامداً يحتضن الإنسان ولا يمتنعه، وإن هو خانه أو أهانه. فالوطن هو الذي يحمي الإنسان من شر ضيره وغدر غيره.

وقد تعلمون أن الإنسان له قابلية غريزية للخيانة إذا شعر أنه يفقد الشيء ولا يمتلكه، وهو يرى أن هذا الشيء مشاع للجميع (=العامّة)؛ لكنه متاع رفيع لا يبلغه إلا من ارتفع (=السلطة) أو اندفع (=النخبة). ومع ذلك فإن الإنسان لا يخون عندما يكون موصولاً بربه؛ فالخيانة مقرونة بالمنافق المنفصل عن مجتمع المسلمين؛ لأن من علامات المنافق خيانة الأمانة؛ فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ).<sup>(١)</sup> إن الوطن أمانة، وخيانتته نفاق ومروق من الصف المرصوص. ومع ذلك إذا كان المواطن المنتمي معارضاً للقيادة؛ فإنه لا يعد بالضرورة خائناً للسيادة.

من هذه القابلية للخيانة باتت مسألة كيفية حماية الأوطان مسألة مثارة بشدّة للنقاش، وعصيّة على الحل لدى صنّاع القرار ممن أصابت أوطانهم مصيبة الإرهاب والعذاب، لا سيما في وقتنا الراهن؛ حيث تكثرت الأزمات والفتن التي ترهق من في قلبه مرض، وتقلق من في عقله غرض. لقد بات الوطن في عصر العولمة معرضاً للخيانة وفاقداً للحماية من مواطن ضعيف الابتغاء وقليل الانتماء، قد يفقد ولاءه الوطني لأسباب شيعة ومعرفية ودينية. وعليه نجزم أنه لا يمكن الحديث عن الوطن وحمايته وإيجاد الحلول له من غير التطرق إلى الثلاثية الإنسانية: السلطة والعامّة والنخبة، التي تعد مسؤولة عن الوطن وحمايته بحكم القيادة أو الإفادة أو الريادة.

نحتاج بأن ثلاثة عناصر رئيسة، الناس فيها شركاء، هي التي تحفظ الوطن: الشيء، والدين، والمعرفة (=ش، د، م)، كما نعتقد أن هذه العناصر إذا ما اشتطت على الإنسان واستعصت على التنمية، قد تكون سبباً في تعاسة الوطن ويؤس المواطن. كما سندافع عن فرضيتنا القائلة بأن تركيب السلطة والعامّة والنخبة (=س، ع، ن) فيه تركيب للوطن وحمايته، علاوة على أنه مسلك من

١- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣، ١٦/١.

مسالك صناعة المواطن المنتمي حامي الوطن من الفتن. وإذ يحصل التوزيع الإنمائي العادل للشيء والدين والمعرفة على مستوى أطراف المجتمع من غير استثناء؛ فإنه يسهل صنع المواطن المنتمي المركب. إن التركيب الإنساني هو الذي يحمي؛ بينما المنتمي الإنمائي هو الذي ينمي.

نجادل، أيضاً، بأن الدين يحفظ الوطن؛ إذ إن حفظ الدين من حفظ الوطن، وإن الإنسان المبتغي لهذا الدين هو إنسان منتم للوطن؛ إلا إذا كان فهم هذا الإنسان للدين فهماً مختلفاً يرقى إلى مرتبة الخلاف مع الأمة التي قد لا تجتمع على خطأ. فعن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله لا يجمع أمتي أو قال: أمة محمد ﷺ على ضلالة، ويد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ إلى النار).<sup>(١)</sup> وعليه فإن الانتماء للوطن يشترط حصول الدين في حياة الإنسان الخاصة والعامة عبادةً ومعاملةً؛ لأن ابتغاء دين الوطن يقوي من الانتماء للوطن ويحميه، وذلك نظراً إلى أن المنتمي للوطن هو إنسان يفترض أن يتراحم مع دينه، أو يحترم دين غيره في مجتمع متعدد الأديان والأعراق والمذاهب، أو يكون فيه شيء من الدين الذي يكبح جماح رغبته في الخيانة والتمرد والعنف؛ حيث إن اللامنتمي هو إنسان متمرد على دينه ووطنه. ويفترض في مسألة التخطيط لحماية الوطن واستشراف مستقبله، أن يكون الدين لباس (س، ع، ن). هذه الثلاثية الإنسانية قد لا يحصل لها الاستمرار في الاستقرار إلا بالتراحم مع الدين كحالة طبيعية، أو احترامه من غير التضيق عليه، أو الرفق بالإنسان الذي أتسع له.

كما ندفع بالقول إن الدين لا يكفي بمفرده لتأسيس دولة وترخيص أمة، لأن الوطن لا يُحفظ بالدين وحده؛ فذلك رهان خاسر أثبت الاستعمار عدم التعويل عليه إذا أتى معزولاً عن حامله ومفصلاً عن محموله، لاسيما إذا كان هذا الدين يحمله إنسان خامل غير فاعل، أو سافل غير عاقل، أو مكافح غير مسامح. يكون حامل الدين نافعاً للأمة وللعالم إذا كان يسير جنباً لجنب مع التنمية؛ وذلك برهان كوني وسني مبسوط في صفحات التاريخ والأحداث والوقائع، تشهد على ذلك الحضارة العربية والإسلامية التي وصلت بتوأم الدين والتنمية إلى قيادة شطر كبير من العالم في فترة وجيزة وعزيزة.

١ - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم ٢١٦٧، ٤/٣٩.

فرضيتنا تقف على أن الوطن يُستعصى حفظه وحمايته من غير تنمية مركّبة. إن كل الدول المتخلفة وإن تديّنت فقد استبيحت أوطانها كما حدث مع الاستعمار القديم والحديث كليهما؛ فالاستعمار القديم استباحها بمنطق الشيء رمز القوة العاشمة؛ أما الاستعمار الجديد فيستبيحها بمنطق المعرفة علامة القوة الناعمة. وفي كلتا الحالتين يكون الدين هو الضحيّة والجاني معاً؛ ضحيّةً عندما يُنعت بأنه سبب بئس في التخلف، وجانٍ عندما يُنعت بأنه سبب تعيس في العنف؛ إلا أن الخاسر الأكبر هو الوطن الذي تصيبه لعنة الانقسامات فتفشل الدولة في إدارة الأزمات. وإذ تعد الدولة القوية رمز الوطن المتماسك؛ فإن "أول ما يقع الهرم في الدولة انقسامها".<sup>(١)</sup>

ومن هنا سنناقش إشكالية مفادها أن التركيب -أو الترصيص- الإنساني يحمي، والمواطن المنتمي ينمي؛ ولكن المواطن لا يكون منتمياً ومنمياً وحامياً إلا إذا شعر بالعدالة؛ حيث إن العدالة تُتجرّح من نسيج التركيب الإنساني الإنمائي. فإن لم يكن الإنسان مركّباً لا يكون عادلاً، وإذ لا يكون عادلاً فإنه لا يكون متّقياً لقوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٨). إن في التقوى مسالكاً مذلّةً للحفظ والوقاية والحماية؛ فمن يتقي يقي. وعليه سنقف على أن المواطن المنتمي هو المواطن المركّب إنسانياً على مستوى (س، ع، ن)، والعاقل إنمائياً في محتوى (ش، د، م).

وعلى الرغم من أن هناك كتابات سابقة وعابقة، عاجلت مسائل التنمية وبناء الإنسان وحماية الأوطان؛ إلا أن مصطلح (التنمية المركّبة) هو من نسجنا، ولم نطلع عليه في الأولين؛ حيث انكبنا على استقصاء معنى التنمية المركّبة وأهميتها ومؤشّراتها ومخرجاتها بعد أن أحطنها بالتحليل واستقريناها بالتعليل في مشروع إنمائي نعكف عليه ونستكشف ما فيه، وقد خلصنا منه، للآن، إلى ثلاثة كتب<sup>(٢)</sup> تطرقت إلى الدينامية، والمسالك، والتجسيم. وهذا البحث هو استمرار لما جاء

١- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٩٩٩م، ج ١، ص ٢٩٢.

٢- انظر كتبنا: دينامية التجرية اليابانية في التنمية المركّبة: دراسة مقارنة بالجزائر وماليزيا، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ٢٠١٠م؛ مسالك التنمية المركّبة: الأنموذج الياباني والمستقبل العربي، هيرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م؛ التجسيم الحضاري من منظور التنمية المركّبة: دراسة نقدية تطبيقية لمشروع مالك بن نبي، الرياض: دار نماء للبحوث والدراسات، ط ١، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.



في كتبنا السابقة؛ إلا أنه يقارب بين المسالك الإنمائية والإنسانية، وبين الدلل الربانية والنبوية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَسْأَلُكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ (النحل: ٦٩)؛ حيث تكون الجماعة الإنسانية المركبة أشبه بخلية النحل الفاعلة والعاملة. وعليه فإن الجدة العلمية لهذا البحث تكمن في كيفية الإفادة من السنة النبوية ومدى أهمية تعزيزها لفرضية التنمية المركبة التي فيها خير الوطن والمواطن، والإشادة بها على مستوى النص والحدث، وإن بشكل مختصر؛ عسى أن يولد هذا البحث، الذي يجمع بين فصوص التنمية المركبة ونصوص السنة النبوية، كتاباً مقروءاً يكون أكثر توازناً، وأحكم تفصيلاً، وأعمق تحليلاً، وأرجح حكماً، وأوسع نفعاً.

### أولاً: التنمية المركبة: المقصود والمرصود والمنشود

١- ما المقصود بالتنمية المركبة؟ وكيف تعزز نصوص السنة النبوية هذا المفهوم الإنمائي؟

إن في السنة النبوية ما يقرب الفهم، لدى العامة والخاصة، من مراد التنمية المركبة؛ فهي البنيان المرصوص الذي لا يخترقه الأعداء، وذلك تراكباً مع قوله ﷺ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)؛<sup>(١)</sup> حيث إن الحشرات لا تنحشر خلال الجدران إلا بعد أن تتشقق ويصيبها التصدع. فكلما كان البنيان مرصوصاً، كان أهل البيت أو الوطن في منعة من العدو أو الخائن أو المنافق. علاوة على أن التنمية المركبة تتشوّف إلى حصول إجماع إنساني من القوم داخل الوطن لحبه أكثر وحمايته بشكل أفضل، وهم ثلاثة: سلطة، وعامة، ونخبة؛ حتى يكونوا يداً واحدة، ويؤمنوا أعداءهم عن قوس واحد، إذا هم هبوا دفاعاً عن الوطن والمواطن في موقعة الحرب، أو قاموا لخدمة الوطن وتنميته في معركة السلم. إن التنمية المختزلة في سلطة ونخبة دون العامة هي تنمية قاصية وعصية، تستبعد المواطن وتهدد الوطن؛ فلا تقيمه أو تحميه؛ بل تكون مطمئناً للمترصنين الدوائر، والمتحيين لفرص الانقضاض على الأوطان الممزقة بتمزيق نسيجها الاجتماعي والاقتصادي لقوله ﷺ: (فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ الْقَاصِيَةَ).<sup>(٢)</sup>

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، رقم ٦٠٢٦، ١٢/٨.

٢- أخرجه أبو داود في سننه بإسناد حسن، كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، رقم ٥٤٧،

إن في السُّنَّة النبويَّة أقوالاً وأفعالاً سبق أن دعت إلى التركيب الإنساني؛ فَعَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى).<sup>(١)</sup> إن التركيب الإنساني هنا هو شكل من أشكال التضامن والتكافل والنصرة والحماية، وقد تجسَّد هذا التركيب في عصر الرسول ﷺ، وكان الصحابة رضوان الله عنهم خير من جسَّد ذلك وفعلَه في مجتمع يثرب الذي كان يعاني من القبليَّة والافتتال ومهانة الإنسان لأنفه الأسباب؛ حيث عاجلت السُّنَّة النبويَّة هذا الوضع المأسوي، فغيَّرت الأسوأ إلى الأحسن، وغيَّرت كل فعل قبيح قد يكون سبباً في إذلال الإنسان؛ في ممتلكاته الوطنية والنفسية والجسدية، وذلك باتِّباع ما جاء في تعاليم الرسول ﷺ؛ حيث قال: (بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ).<sup>(٢)</sup>

من وجهة أخرى كان النبي ﷺ بوصفه القائد الأعلى، يحرص كل الحرص على الأخذ برأي الأمة، وعلى رأسها النخبة، ويستشيرها في أمور دنيوية؛ ففي غزوة ضد الوطن يثرب، عُذَّت خطيرة وهي غزوة الأحزاب، ألقى الرسول ﷺ السمع إلى أحد النخبة في مجتمع يثرب، الذي نصح بحفر خندق لمواجهة الأعداء وحماية الوطن، فكان الأخذ بالرأي أحد الأسباب في ميل المعركة لصالح المؤمنين المركَّبين؛ إذ أشار سلمان الفارسي ﷺ إلى حفر الخندق كما كانت تفعل فارس إذا حوصرت واشتدَّ عليها الخطب؛ حتى أن الرسول ﷺ قد كافأه بأن جعله من أهل البيت الطيبين؛ حيث جاء في السيرة النبويَّة عن ابن هشام: "حدثني بعض أهل العلم، أن المهاجرين يوم الخندق، قالوا سلمان منا، وقالت الأنصار، سلمان منا، فقال الرسول ﷺ: سلمان منا أهل البيت".<sup>(٣)</sup>

الأنبياء يبدؤون بقلة فيعانون، وينتهون إلى كثرة فلا يهانون. كانت العامة التي تتبعهم وتتركب معهم مهمَّة لهم ولنجاح دعوتهم وخططهم واستراتيجيتهم، وذلك مهما كان مستواها التعليمي

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٦، ٢٠/٨.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم ٢٥٦٤، ١٠/٨.

٣- لمزيد التفصيل، انظر: اجتهاد الرسول ﷺ، نادية شريف العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ٩٥.

أو المادي أو الاجتماعي؛ حيث رفض الأنبياء أن يطردوا أتباعهم لإرضاءِ عليّةِ القوم؛ كما صَوَّرَ ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا زَرْنَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا زَرْنَاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِنَا وَإِنَّا لَكُمُ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (هود: ٢٧). فالرسول ﷺ لم يطرد أتباعه مثله مثل الأنبياء من قبل، فقد كان رحيماً بهم وحكيماً في تربيته؛ حتى صاروا سادة العالم وقادته. وأن ما جاء في (سورة عبس) يعزِّز التركيب الإنساني، ولا يهمل أي عضو في المجتمع يريد أن يحمي وطنه ويخدمه في دينه وقادته ونخبته وعامته. فقد جاء في تفسير الآيات الأولى من سورة عبس أن الرسول ﷺ انشغل بمحادثة قوم من أشرف قريش كان يطمع في إسلامهم، ولما أقبل عليه عبد الله بن مكتوم، اعتقد الرسول ﷺ أنه سيقطع عليه كلامه فأعرض عنه، وتدور الأيام دورتها ليكون عبد الله بن مكتوم ﷺ مستخلفاً على المدينة وحامياً بأمر من الرسول ﷺ، وفي هذا تكريم عظيم لعبد الله بن مكتوم، ينمُّ عن محبة الرسول ﷺ لأصحابه الذين يحبونه ويرغبون في التركيب معه، لإنجاح الدعوة وتنمية المجتمع تنميةً مستقيمةً بالمواطن، ومستديمةً لأجل الوطن.

هؤلاء القلة أصبحوا كثرة؛ تركبوا وكونوا أمة مرصوصة لا تُهان أمام إنسان مركب نداء لها؛ حيث إن تركيبهم الإنساني بجس تركيباً إنمائياً. وإذ يبدأ الرسل مهمتهم الدعوية بالتركيب الإنساني؛ فإن الرسول ﷺ بدأ دعوته سرّاً وفي هذا تركيب أسري، ثم جهري وفي هذا تركيب مجتمعي، إلى أن شمل الوطن يشرب ليمتد خارجه؛ فكان أن أتى تركيباً عالمياً تحض بالمواطن وحفظ الوطن وحماه، ومن ثم احتضن دولاً كانت بلا تنمية فنمت واغتنت. إن التركيب الإنساني كما ألفيناه في السيرة النبويّة وسيرة الصحابة ﷺ، يعد وسيلة أصيلة ونبيلة لبناء وطن يُشيد على أسس صحيحة من تلقاء ترصيصه الإنساني القويم؛ بحيث يجرسه التوحيد (=الدين)، وتقييمه العدالة (=التنمية)، ويديمه الاستخلاف (=الإنسان).

نجزم أن التركيب الإنساني كان سبباً عجباً في التركيب الإنمائي لدى الأمم الناجحة التي استعادت وعيمها الحضاري المفقود بعد أن اكتشفت أسرار التركيب الإنساني وأهميته الإنمائية، وهذا ما حصل بامتياز في زمن الرعيل الإسلامي الأول الذي سلك هدي النبي ﷺ، واقتدى بأقواله الحميدة، ووقف على أفعاله الرشيدة؛ فقد دعا ﷺ إلى الالتزام بالجماعة في قوله: (وَيَدُ اللَّهِ مَعَ

الجماعة<sup>(١)</sup>. من عمق هذا الترتيب، تحصل التنمية المركبة إنسانياً قبل أي تركيب شيئي آخر. إن المواطن المسؤول والمنتمي للوطن والحامي له، يكون أولاً في أية معادلة إنمائية؛ ثم التنمية المتساءل عنها والمحصلة وطنياً، تكون ثانياً أو ثالثاً.

تأسيساً على ما قرّره ووفقاً لما بسطناه بشكل موجز من سيرة الرسول ﷺ مع أتباعه النخبة والعامّة؛ فإننا لا نعني بالتنمية المركبة القول بأنها التنمية الشاملة، أو أنها شكل من أشكالها؛ أي تشمل الاقتصاد السياسي، والاجتماعي والثقافي؛ فهذا تعريف لا يعيننا، نظراً إلى أن التنمية الشاملة هي تحصيل حاصل للتنمية المركبة، وإلا جاءت تنمية فاشلة وليست شاملة.

فالتنمية المركبة إذا تُسهّل بالمواطن الموجود، وتسهّل بالشيء غير المفقود. وإذا لا يكون المواطن حراً مسؤولاً؛ فإنه لا معنى للحديث عن التنمية المركبة. إن الحرية المسؤولة، بوصفها قيمة حضارية، هي الشرط الأول لتفعيل وجودية المواطن وانتمائه الوطني وجاهزيته لحماية وطنه. الحرية المسؤولة قيمة إنمائية إذا أخذت بها أمة من الأمم، تكون إذاً قد شارفت التنمية المركبة، واستشرفت مستقبل الإنسان والأوطان.

قصدنا بالتنمية المركبة كل ما بدأ بتنمية المواطن أولاً. وإذا تُسهّل التنمية المركبة بالسلطة بوصفها إنساناً مواطناً، والعامّة بوصفها إنساناً مواطناً، والنخبة بوصفها إنساناً مواطناً [التنمية المركبة = سلطة + عامّة + نخبة]؛ فإن هذه التنمية المركبة أو ما شاكلها، كانت موجودة قبل حصول التخلف ووصول الاستعمار؛ لكن التخلف الذي كان له قابلية للاستعمار قد فكّكها واختزلها، وشتت جهود المواطن كلما فكّر في حماية وطنه من هذا العبث الاستعماري وإرثه؛ حيث إن الاستعمار هو أعلى أشكال التخلف. إن الاستعمار -أو التخلف- الذي يجرم الإنسان الحر من حقّه في الوجود الإنمائي هو قيمة غير مسؤولة، تبث في إنسان القابلية للتخلف روح اللامسؤولية والالانتماء. وإذا تركن الأوطان إلى الحرمان؛ فإنها تنفصل عن التنمية المركبة وما تصل.

قد تعلمون أن الاستعمار كان سبباً رئيساً وبنيئاً وتعيساً فيما وصلت إليه الأوطان العربية والإسلامية من اختزال إنساني وابتدال إنمائي وانتقال عن الوطنية حتى لا يحمي وطنه بشكل مركّب. فالاستعمار ماضٍ ولّى؛ ولكنه حاضر معيش استولى على المستقبل، وحلّ المختزل محلّه.

١ - سبق تخريجه.

كيف يُصنَعُ المواطن المنتمي والحامي للوطن؟ ...

لقد فكَّك الحرمان الذي هو شكل أعلى من أشكال الاستعمار كل ما يمثُّ للتنمية المركَّبة من صلة. وإذْ يعد الحرمان أشدَّ خطرًا من غياب الحرية؛ فإن للحرمان مستويات: حرمان امتلاكٍ لأسباب بيولوجية لا يؤدي الإنسان الزاهد الذي رضي بالقضاء، وحرمان قدرةٍ لأسباب اجتماعية يؤلم الإنسان الرائد القادر على العطاء؛ حيث يعد حرمان القدرات صناعة استعمارية غير مسؤولة.

أتى حين من الدهر كانت فيه التنمية المركَّبة هي سر خروج العرب من البداوة إلى الحضارة؛ فأقبل الاستعمار يسعى لإخراج العرب من الحضارة - وهم قد خرجوا بأنفسهم لأسباب داخلية - ليغرقهم في البداوة بفعل قابليتهم وجاهزيتهم لكل ما يمث بصلة للكسل الإنساني والفشل الإنمائي.

لنفرض جدلاً مع أنصار الاستعمار أنه المستعمر جاء بالتنمية؛ إلا أنها أتت تنمية مختزلة ومفكَّكة ومنضغطة، وهو نفسه الحرمان الناجم من التوزيع غير العادل. لقد وزَّع الاستعمار الشيء والدينَ والمعرفةَ (=ش، د، م) توزيعاً شططاً على السلطة والعامَّة والنخبة (=س، ع، ن)؛ وتلك إذاً قسمة ضيزى، استمر سلطانها نشطاً في معظم دول ما بعد الاستعمار التي أزهقها الاختزال وأزهقها.

افترضنا أن التنمية المركَّبة حصلت في لحظة زمنية معطاءة استفادت منها أجيال ذلك العصر؛ ولكن لما جاء التخلف ومخلفاته من استعمار، حصلت التنمية المختزلة التي تأسست زمن الاستعمار وتأسست في دول ما بعد الاستعمار؛ إذ لا يزال المواطن يعاني من قسمتها غير العادلة؛ وهذا كله ليس في مصلحة الوطن الذي يصيبه العنف والتمرد والثورات جراء ذلك.

### - كيف حدث هذا التقسيم المختزل؟

ما هو معلوم أن السلطة تمتلك (الشيء) جاهزاً أو مجهَّزاً؛ فهو جاهزٌ تحت الأرض كثرات طبيعية ومعديّة، أو مجهَّزٌ على شكل تكنولوجيا ما فوق الأرض يأتي مستورداً حيناً ومجاناً حيناً آخر من الناجحين إلى الفاشلين لأسباب إيولوجية. وبهذا الشيء الذي لا تمتلكه السلطة امتلاك المبتكرين له، تدخل السلطة حقل التنمية وتشارك في عوائده إن لم تستحوذ عليه كله. تدخل السلطة التنمية بشيء لا تنتجه بشكل مباشر؛ ومن ثم فإن هذا الدخول إلى حقل التنمية هو دخول غير مسؤول فيه الكثير من الاحتكار للشيء، وليس فيه أدنى لمسة من الابتكار. إنه من

غير هذا الشيء تفقد السلطة سلطتها. ومن هنا تصر السلطة على الاحتفاظ بهذا الشيء لنفسها وتحتله في دائرتها، ولا يصل إلا القليل منه للعامّة والنخبة. كل ذلك يحصل على عكس ما حصل مع (الغنيمة) التي كانت تمثّل (الشيء) الممتلك لعهد الرسول ﷺ وعصور الخلفاء الراشدين، ومن صار على منوالهم من أمراء الإسلام والمسلمين؛ حيث كان هذا الشيء قائماً على التسوية لأن السلطة والعامّة والنخبة فيه شركاء. لقد كان النبي ﷺ يسوّي بين الناس في قسم الغنيمة، ولا يفضل فيه أحداً على أحد: لشرف، ولا لشجاعة، ولا لتقديم هجرة، ولا غير ذلك من الصفات المحمودة. وكان أبو بكر وعلي رضي الله عنهما يريان التسوية بين الناس في العطاء، ولا يفضلان بسابقة ولا غيرها<sup>(١)</sup>. كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في عطايا حماة الوطن من سلطة وعامّة ونخبة: "لئن كثر المال لأفرض لكل واحد أربعة آلاف درهم: ألفاً لفرسه، وألفاً لسلاحه، وألفاً لسفره، وألفاً يخلفها عن أهله"<sup>(٢)</sup>.

من وجهة أخرى، تمتلك النخبة (المعرفة)، وفي الغالب هي معرفة غير بيئية ومنفصلة عن اهتمامات المواطن وحاجات الوطن، كونها معرفة منبّئة ومنفصلة عن جذورها الحضارية وبلا تاريخانية. تدخل هذه النخبة -المتنفذة في المجتمع- إلى ساحة التنمية دخولاً غير مسؤول هو الآخر. إنه من غير هذه المعرفة اللابيئية تفقد النخبة المنفصلة عن المجتمع حظوتها. ومن هنا تضطر هذه النخبة المتعاملة إلى الاحتفاظ بمعرفة هي خليط بين الإيمانية والعلمانية، قد لا يفيد منها العامّة في شيء. إن هذه المعرفة غير البيئية التي لا تضيف للبيئة ولا تفيض على الوطن، تُختزل في دائرة النخبة؛ لأنها مفصولة عن العامّة التي لا تفقه فيها، علاوة على أن السلطة تتعامل بهذه المعرفة على أنها مجرد ترف معرفي يُسعد النخبة نفسها ويبهجها، ويُبعد العامّة من حقل التنمية ويقصيها؛ فلا تحمي السلطة والنخبة وطنها إذا حصل مكروه. إن المعرفة السيئة والشيعية غير البيئية التي تُسعد النخبة وتُشقي العامّة، هي خطر داهم على الوطن والمواطن. لقد حذر الرسول ﷺ من هذه المعرفة الجاهلة بحاجات المواطن واحتياجات الوطن، والتي تنشط في غياب المعرفة العاملة أو

- ١- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ووليّه مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، تحقيق أحمد فريد المزدي ومحمد حسن إسماعيل الشافعي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٤٤.
- ٢- أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق وتعليق عبد الرحمن عميرة، القاهرة، دار الاعتصام، د. ت.، ج ٢، ص ٤٢٢-٤٢٣.

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

موت أصحابها؛ إذ صحَّ عن الرسول ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتَرَاكَ يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا).<sup>(١)</sup>

في الجانب الآخر، تمتلك العامة (الدين) لكونها أغلبية ومتديّنة بطبعها، علاوة على أن السلطة تغازلها دينيًا في مناسبات حاسمات مثل الانتخابات والحروب والثورات؛ ولكن هذا الدين الذي اختزل عمداً في العامة - واستبعد من السلطة والنخبة عمداً أيضاً لأسباب إيديولوجية علمانية - هو دين غير مفعّل في حقل التنمية، وغير مستثمر. وما هو غير مفعّل فهو غير معوّل عليه. هذا اللاتفعيل ناجم من الحرمان؛ ما يحرم العامة من المشاركة في ساحة التنمية، وهو حرمان غير مسؤول أيضاً، يجعل العامة المحرومة غير مسؤولة عن حماية وطنها. هذا الاختزال للدين في العامة أدى إلى استبعاد السلطة والنخبة من الدين، كما أدى إلى تعطيل جهود العامة نتيجة عدم تفعيل الدين - الذي تملكه - في ساحة التنمية. وهذا التعطيل نراه يحصل في ظل تملُّص النخبة من أداء مسؤوليتها التي قد تصل إلى درجة الجهل بحال العامة؛ فعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَاعَةٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّؤْيِيضَةُ. قِيلَ: وَمَا الرُّؤْيِيضَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: السَّنْفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ).<sup>(٢)</sup>

هذا التقسيم المختزل يختزن بداخله حرماناً جماعياً وإن أتى متفاوتاً؛ فالسلطة التي تملك الشيء نراها محرومة من الدين والمعرفة، والنخبة التي تملك المعرفة نلغيها محرومة من الشيء والدين، والعامة التي تملك الدين تكون محرومة من الشيء والمعرفة، ومحرومة أيضاً من تفعيل ما تملك من دين. كل هؤلاء الثلاثة (س، ع، ن) يتقاسمون الحرمان بأشكال مؤسسية ومأسوية.

نفترض في التنمية المركّبة أن هناك ثلاث دوائر: دائرة السلطة، ودائرة العامة، ودائرة النخبة؛ دائرة تعلق دائرة لتكوّن بناءً حلزونيّاً عمودياً، تعلوه دائرة السلطة، وتتوسطه دائرة النخبة، وتستقر أسفله دائرة العامة.

١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، رقم ١٠٠، ٣١/١.

٢ - صحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ١٨٨٧، ٤/٥٠٨-٥٠٩.

في زمن الاستعمار؛ حيث التأسيس للتنمية المختزلة، كانت الدوائر الثلاث دائرة واحدة منضغطة ومتداخلة؛ الكل فيها سواء، وهي أقرب إلى التكديس؛ فلا أحد من العناصر الثلاثة -السلطة والعامّة والنخبة- مسؤول عن البعض أو منتمٍ للاستعمار؛ لأن الاستعمار حشر نفسه في وضعية المسؤول عن الثلاثة المهتمّشين، وعدّ نفسه منتمياً للأرض المغتصبة وحامياً لها؛ ومتى كان الاستعمار مسؤولاً ومنتمياً وحامياً؟ إنه في غياب المسؤولية واللائاتماء لا تحصل تنمية. إذاً اللامسؤولية واللائاتماء إرثان استعماريان، ومن يقف عليهما لا يجلب تنمية أبداً أو غداً.

ما بعد الاستعمار؛ تأسست التنمية المختزلة، وحدث انفراج في الدائرة المنضغطة بحكم الاستقلال؛ فاستحالت إلى دوائر ثلاث؛ حيث يحصل انفصال بين السلطة والعامّة والنخبة، ومن ثم تستقل كل دائرة بنفسها بحيث يعلو بعضها بعضاً كالبنيان المهزوز غير المرصوص؛ فلا تنشغل بحماية الوطن وتنميته، بل تنشغل بأهوائها وملذاتها. وهذا لأن النخبة تعلّمت ووعت فيكون دورها إما أن تنصح السلطة أو تمادها؛ ولكن في غياب الحرية المسؤولة تكون درجة النصح أقل من درجة المهادنة، وفي المهادنة خراب الوطن بله حمايته. هذا الاختزال الإنمائي غير المسؤول بين السلطة والنخبة، تكون العامّة ضحيّة له بوصفها مواطناً لا يستفيد من عوائد التنمية، لأن السلطة لا تسمع إلى النخبة نظراً إلى أن السلطة شكل أعلى من أشكال النخبة؛ فتختزل الشيء في دائرتها وتنسبه لنفسها؛ فلا تكون حماية الوطن لديها إلا بقدر ما تمتلك. أما النخبة فتتأفف من العيش مع العامّة ومخالطتها لأنها تراها غير متحضرة؛ فتختزل المعرفة في دائرتها وتحتكرها لأنها لا تبتكرها. وكل هذا يرجع إلى تلاشي الحس الإنمائي والفضائل الإنمائي وغياب الحرية المسؤولة التي هي من مخلفات الإرث الاستعماري، التي تفكك أي تفكير جماعي يتوجه نحو حماية الوطن واستعادته من غير شروط. وعليه فإن البنيان الإنمائي المختزل والهش وغير المرصوص قائم على دائرتين متصارعتين ومتصدّعتين، هما: السلطة والنخبة، يستفيدان بمفردهما من التنمية، وقد تكونان عالة على حماية الوطن إذا أصابه مكروه؛ أما العامّة فتخرج صفر اليدين، لأن الدين الذي يمتلكه لا زال غائباً عن ساحة التنمية في ظل حضور شيء السلطة ومعرفة النخبة اللذين بهما تدخلان ساحة التنمية وتفيد من عوائدها، ومن ثم تغيب العامّة عن المشاركة في التنمية والإفادة المباشرة من فوائدها. إن عوائد التنمية وفوائدها تُختزل في السلطة إلى حد كبير، وفي النخبة إلى حد ما، وتُحرم منها العامّة؛ حيث إن في الحرمان تنعدم الحماية لشيء هي محرومة منه.



## - كيف يحصل تفادي التقسيم المختزل؟ وما هي مؤشراتته؟

في حالة تراجع الإرث الاستعماري غير المسؤول وغير المنتمي، وحضور المسؤولية الوطنية التي هي مسؤولية بيئية؛ في ظل ذلك كله يحصل التخصيص الإنساني والإنمائي بين السلطة العامة والنخبة (=س، ع، ن). وإن لم تحضر قيم المسؤولية الحضارية وقيم الانتماء الوطني وغيرها من القيم، فلن يحصل التخصيص. وإذا استُبعد الإرث الاستعماري، اتَّحد (س، ن) وكانا في خدمة العامة (ع)؛ فتسهل حماية الوطن مهما كانت صلابة أساليب الأعداء والطامعين.

هذا التركيب الإنساني والإنمائي بوصفه خلاصة التنمية المركبة، يحصل في إطار الدين الذي تمتلكه العامة، ويتوجَّس الإرث الاستعماري منه خيفة. فالعامة هي الأكثرية، علاوة على أنها الأكثر تهميشًا إنسانيًا وإنمائيًا؛ ما ينعكس هذا الاستبعاد للعامة من المشروعات الإنمائية سلبيًا على المواطن والوطن؛ فتتكفى وتراجع، وتتضاءل وتقل بحجم أقلية السلطة والنخبة المستفيدة مقارنة بأكثرية العامة المستبعدة؛ وفقًا للحديث المشهور حول القلَّة والكثرة؛ فَعَن ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ).<sup>(١)</sup>

نعتقد أن الدين هو الذي يحوِّل القلَّة إلى كثرة، لا سيما أن القليل في الكثير كثير. فالقلَّة في زمن الرعيل العربي والإسلامي الأول كانت كثيرة بانتصاراتها وإنجازاتها وآليات تحضرها وحماية أوطانها؛ لأنه لم يكن للشيء حضور في تشكيل وعيها الإنساني ورسم مسارها الإنمائي؛ بل كان الشيء في شكل غنيمة يعد طريقًا إلى الدعوة والتحضر، وإذا انتفت الحرب غابت الغنيمة وحضرت الدعوة؛ حيث إن الدعوة حاضرة في كل الأحوال، والغنيمة ليست حاضرة في كل حال. وذلك بخلاف ما نراه منذ قرون من كثرة غثائية شيعية لا تستحلب النفع لنفسها ولأوطانها كما جاء في الحديث النبوي الذي سقناه أعلاه، نظرًا إلى الحضور السلبي للشيء في واقع الإنسان وغياب

١- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم ٤٢٩٧، ١٨٤/٤. صحَّحه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، رقم ٨١٨٣، ١٣٥٩/٢.

القيم الكابحة له؛ إذ إن هذا الغناء هو الشيء الذي يتحوّل إلى جفاء فلا ينفع الإنسان الذي كان مستمسكاً به ومركباً معه. إن التركيب الإنساني-الإنمائي الأصل تجلّى في أجمي صورته في الفترة التي نزل فيها الوحي وزاد عليها قليلاً، وكان التركيب يتكرّر في محطات تاريخية.. إنه واقع لا مفر من نكرانه؛ حيث أسهم الدين في تشكيله بوعي سليم ساعد على حماية الأوطان من كيد الكائدين.

إنه بتوظيف الدين في التنمية تكون للعامة مكانة أو دور في التنمية؛ لأنها تشارك في التنمية بالدين الذي لا تمتلك غيره. ومع ذلك فعلى العامة أيضاً أن تمتلك الشيء والمعرفة بجهودها وبمزيد من التعليم لها ولأبنائها، كي تدخل إلى التنمية وتشارك فيها بشكل إيجابي مركّب غير مختزل، يحمي الوطن ويحرس الثغرات. على النخبة والسلطة، أيضاً، أن تتصفا بالدين وتتراحا معه، كي تديرا التنمية باقتدار ومسؤولية، يكون فيها الكثير من احترام العامة المتديّنة، وذلك بتقدير جهودها، وعدم نجسها حقها في عوائد التنمية وفوائدها. إذاً يفترض تبادل الشيء والدين والمعرفة (=ش، د، م) بين الدوائر الثلاث (=س، ع، ن) لحصول تنمية مركّبة، ومن ثم تفادي التقسيم المختزل على أقل تقدير.

قد لا تكمن المشكلة في السلطة والنخبة والعامة فهي مُنشئ طبيعي، إلا أن المعضلة تكمن في المعرفة والشيء؛ فهما بمثابة المنشأ الاصطناعي. بينما القيم الدينية العاملة قد تكون وسيطاً فاعلاً بين المنشئ والمنشأ، الطبيعي والاصطناعي؛ ما يجعل العامة المركوزة في الدين ذات ثقل وأهمية. إن احترام العامة وعدم حرمانها من المشاركة في التنمية والإفادة منها، يجعل الدين اللصيق بالعامة وسيطاً وسطاً؛ وإلا كان المنشئ الطبيعي أمره فرطاً، والمنشأ الاصطناعي أكثر شططاً.

أما مؤشرات تفادي التقسيم المختزل للمواطن (=س، ع، ن) لحصول تنمية مركّبة، فهي على النحو الآتي:

- مواطن متحرّر من سلطة الشيء؛ لأن الشيء تحصل له قيمة مدمّرة إذا كانت له سلطة على الإنسان. فسلطة الشيء والتعلق به على حساب الوطن مثلاً؛ يجعل مسألة الحماية ليست من أولويات هذا المواطن المغلوب على أمره بفعل غلبة الشيء عليه.
- مواطن بوصفه موجوداً بقيم الحرية المسؤولة؛ إذ إنه في غياب هذه الحرية يعدم الإنسان الوجود

## كيف يُصنَعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

المعنوي، ويعجز عن الإبداع، بل ويعجز أيضًا عن حماية وطنه إذا وقعت واقعة الحروب وادهمَّت الفتن.

■ الشيء بوصفه مفقودًا ليست له سلطة على المواطن الموجود؛ لأن الشيء في الأصل كان مفقودًا، وبفعل جهد الإنسان بات موجودًا؛ لأن المواطن عندما يطمئن للشيء الموجود، الذي لم يكن سببًا في إيجاده؛ فإنه يتناقل عن أداء الواجب الوطني، ويعجزه هذا الشيء الجاهز عن الدفاع عن الوطن وحمايته؛ فيستحيل عميلًا ومناقفًا وخائنًا.

■ وإذ يعد الشيء الجاهز أو المجهَّز طاقة تؤثر سلبًا في المواطن والدين؛ فإنه يفترض عدم التعلق به والارتكان إليه، لأن للشيء وقعًا ماديًا خالصًا، بينما للإنسان أو الدين وقع معنوي. إن القابض على دينه - كما يُقبَضُ على الجمر - هو المعوَّل عليه في حماية الوطن.

■ دين متحرَّر من سلطة المواطن؛ لأن الإنسان ثانيًا والدين أولاً، نظرًا إلى أن الدين هو الذي يحمي الوطن، وليس الإنسان الذي هو تحصيل تربية دينية.

■ حيث توجد هُويَّةُ المواطن توجد تنمية الوطن؛ إذ يمكن مراجعة سجلات الأمم الناجحة التي سلكت هذا المسلك الهُووي لتذليل سبل التنمية.

■ كل استدامة تستدعي استقامة، والقيم أن تقيم الشيء مستقيمًا؛ حيث إن القيم التي تقيم الشيء مستقيمًا هي قيم العبودية، فالعبادة تعد أول مسالك التنمية التي تكبح قيم الحرية المنفلتة، وتذلل المسالك أمام الحرية المسؤولة والواعية.

■ معرفة ليست لها سلطة على الدين؛ لأن المعرفة ليست بيئية أو وطنية كلها، بينما الدين بيئي علاوة على أنه يحرس المواطن والوطن.

■ التخطيط لمستقبل إنمائي يتراحم فيه الشيء والدين والمعرفة والوقت الإضافي؛ لأنه في ظل الاشتغال في دائرة الوقت الإضافي، يعني أن الجهود تتشَوَّف إلى الأفضل، وليس أمامها الوقت الكافي للصراعات وحصول انقسامات.

## ٢- المرصود من القرآن الكريم والسنة النبوية وتجارب الأمم

قد تعلمون أن التركيب فعل إنساني تاريخي، وما يهمننا طبعاً التاريخ العربي والإسلامي؛ حيث إن أول ما حصل التركيب حصل في يثرب؛ فتركت السلطة والعامه والنخبة (=س، ع، ن). الرسول ﷺ بوصفه سلطة، والصحابة بوصفهم نخبة، وباقي المسلمين بوصفه عامة؛ إذ كلهم مواطنون، أنصار ومهاجرون.

التركيب الإنساني هو مفهوم مدني يعبر عن التضامن والإخاء والإيثار والتعاون والحماية، ومن ثم هو مفهوم إنساني إنمائي، نستشفه من قول الرسول ﷺ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا).<sup>(١)</sup> بعد تجربة ثرية انتقل هذا التركيب الإنساني إلى تركيب إنمائي وحضاري وعسكري واستراتيجي يحمي المواطن والوطن لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوعٌ﴾ (الصف: ٤). لقد حصل هذا التحول الناجح بامتياز في غزوة بدر التاريخية، ثم في غزوة أحد المشهورة؛ حيث خالف رماة الجبل أوامر النبي ﷺ، فتصدع البنيان المرصوص إلى حد ما. لقد تجسد التركيب في غزوة بدر فانتصروا؛ بينما حصل الاختزال في غزوة أحد فانكسروا.

لقد جاء الحرص الإسلامي على البنيان المرصوص في المعارك المدنية الإنمائية والعسكرية التوسعية؛ إذ ما فتى التركيب يلهم الأمم كما رأينا في يثرب؛ حيث التزمت السلطة في شخص الرسول ﷺ بالمسؤولية والتراحم؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: (أَلَا كَلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).<sup>(٢)</sup>

١- سبق تخريجه.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، رقم ٧١٣٨، ٣٣٠/٤.

لقد احتفظ التركيب بمفهومه الإنساني الإنمائي الذي يتكرَّر يوميًّا بخلاف مفهومه العسكري الذي لا يتكرَّر دائمًا؛ لأن الحروب العسكرية ليست يومية. طبعًا مثل هذا التركيب الإنساني الذي نبغيه إنمائيًّا ونستدعيه من واقع السُّنَّة النبويَّة، لا تربطه علاقة بالشيء. لقد كان هناك إنسان ودينًا في عصر الرعيل الإسلامي الأول الذي تربَّى على يد الرسول ﷺ؛ وهي عناصر البناء. إنسان يلتحم مع إنسان مثله بحيث يكون الدين هو اللُّحمة التي تسدُّ ثغرات هذا البنيان الذي إن التحم دينيًّا سمي بنيانًا مرصوصًا. وإذ نلغي البنيان هو الإنسان؛ فإن المرصَّص هو الدين؛ ومن ثم فإنه من غير ترصيص الوطن بالدين لا يكون للحماية أثر.

من وجهة أخرى أكثر أهمية، نحاول أن نعزِّز الجانب النظري من بحثنا بنماذج تطبيقية مستقاة من القرآن الكريم، ومستوحاة من السُّنَّة النبويَّة، ومختارات من أحداث التاريخ. لقد ألهمتنا الآية الكريمة في تقسيم القوم إلى قسمين؛ قسم متراص يغيِّر ما بنفسه إذ لا ترصيص من غير تغيير (القوم)، وقسم مختزل يعبِّر عما بنفسه فيبتعد من سُنَّة التغيير فتكون وبالأعلى عليه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد: ١١). إن هناك فريقًا أول يغيِّر ما بنفسه نحو الأحسن كما هو في الشطر الأول من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (١١)، وهذا الفريق الأحسن ينمِّي نفسه وينمِّي غيره، وهذه هي التنمية المستدامة التي تفيد منها الأجيال على الأقل لمدة مائة وعشرين سنة وفق حسابات ابن خلدون؛ إنه تغيير مركَّب من السلطة والنخبة والعامَّة (س، ع، ن)، وهم القوم جميعهم.

علينا أن نتفق على أن التركيب لن يحصل من غير تغيير؛ فالتركيب تركيبان، كما أن التغيير تغييران. تركيب إنساني حسن، وتركيب إنمائي أحسن؛ أما التغيير فتغيير حسن يكون على مستوى القوم كلهم، وهو نفسه (التغيير ما بالذات) كما جاء في الشطر الأول من الآية الآنفة الذكر، وتغيير سيِّء يكون على مستوى الفئة المؤثرة غير المنتمية، وهو نفسه (التعبير عما بالذات) كما جاء في الشطر الثاني من الآية: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد: ١١).

- نماذج حسنة عن تغيير المواطن ما بنفسه وتركيبه إنسانياً وإنمائياً لإعمار الوطن وحمايته

- قوم يونس عليه السلام لما تغيروا تركبوا؛ فانتفعوا لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَازَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ (يونس: ٩٨)؛ فبعد أن نجَّاه الله من الحوت، حدث تغيير حسن على مستوى (القوم) ابتداءً من القائد السلطة الذي هو النبي يونس عليه السلام، والنخبة من أصحابه، والعامه من الناس الذين اتبعوه؛ فهو ترخيص نافع كانت ثمرته تنمية طيبة للجميع، ورفع الضنك والخزي عنهم.

- مجتمع يوسف عليه السلام؛ تغيَّر الملك بعد تأويل المنام، ثم تغيَّرت زوجته، فخرج يوسف من السجن، وتغيَّر إخوته لمواجهة السنين العجاف فسمنت أعوامهم. إن تفسير الرؤيا ﴿سَبَّحَ بِقَرَاتِ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبَّحٌ عُجَافٌ وَسَبَّحٌ سُنْبُلَاتٍ خُضِرَ وَأَخْرَأَ يَأْسُتِ ﴿٤٦﴾﴾ (يوسف: ٤٦)، قد التزم بها (القوم)؛ فسلكوا طريق التقشف جميعهم، على مستوى الملك السلطة، والنخبة التي يقودها يوسف عليه السلام، والعامه من الناس.

- ملاً بلقيس لما استشارتهم كلهم، تغيَّروا فتركبوا فلم يهلكوا لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: ٣٢]. لقد استشارت بلقيس (الملأ) من النخبة والعامه قبل الإقدام على التغيير الكبير في حياتهم؛ فاتفق رأيهم مع رأيها.

- قوم الأوس والخزرج لما تغيَّروا تركبوا، فانتفت بينهم العداوة؛ فخرجوا من البداوة إلى الحضارة. في نموذج يثرب، حصل التغيير على مستوى أقوام مبدعة تاريخياً ذابوا في اسم الأنصار، واستقام الترخيص بحضور الرسول ﷺ والنخبة من الصحابة وعامه الناس. وقد تجلَّت صور التركيب في أول قدوم للرسول ﷺ إلى المدينة، وسطعت في حادثة البيعة المشهورة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ (الفتح: ١٨).

- فترة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه جاءت بعد فترة بئيسة في حياة المسلمين؛ فزهّد عمر واقتدى به العامه والنخبة. لقد قضى عمر على الفساد المالي والاجتماعي، وجرد نفسه وأسرته من كل ما يتعلّق بالتعبير عما بالنفس من خلجات وشهوات ولذات، فغيَّر العامه ما بأنفسهم اقتداء

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

بقائدهم؛ حتى أن الخوارج نزلوا من الجبال إذ جنحوا للسلم فنجحوا، وتحاور معهم عمر حيث أقنعهم فتجاوروا، ومن ثم كان عام التركيب والجماعة.

ولا شك في أن هناك نماذج تاريخية كثيرة يفترض الاقتداء بها في التركيب الإنساني والإيماني.

- نماذج سيئة عن تعبير المواطن عما بنفسه واختزاله إنسانياً وإنمائياً مآله خراب الوطن:

لقد اختار الفريق الثاني التعبير عما بنفسه من ترمذ وعصيان وانشقاق؛ فانطبق عليه الشطر الثاني من الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ (الرعد: ١١)؛ فلم يأت التغيير مركباً بل جاء مختزلاً، كما هو مبسوط في الآتي:

- الفئة الفاسدة والمؤثرة اختزلت حياتها في السخرية من نوح عليه السلام؛ فجاءهم الطوفان وفجأهم، ﴿ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤). في قصة قوم نوح عليه السلام، نلني التغيير يحدث على مستوى أتباع نوح النبي القائد وهم قلة قليلة، حيث إن شطراً عظيماً من القيادة والنخبة والعامّة رفض التغيير والترخيص؛ فكان الطوفان -الذي يأتي على كل تنمية من القواعد- هو عاقبة هذا العصيان من قوم نوح الظالمين لأنفسهم، وهم يرفضون الترخيص مع نوح عليه السلام، ومن تبعه من عامة الناس.

- الفئة الفاسدة والمؤثرة اختزلت حياتها في المنكرات، ورأت أن الطهارة أمر لا يليق بها؛ فأحجمت عن التركيب مع لوط عليه السلام؛ فكان صباحهم قريباً: ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (هود: ٨١)؛ فلم يستجيبوا لنبيهم وقائدهم واعتبروا الترخيص معه ليس في مصلحتهم؛ فكانت النتيجة مطر السوء، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴾ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٢-٨٤).

- فرعون والفئة الفاسدة والمؤثرة اختزلوا حياتهم في الاستخفاف بقومهم فكان اليوم المشهود،

﴿يَسْأَلُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩) (هود: ٩٩). لقد استخفَّ قومه ورفض الترخيص مع موسى عليه السلام؛ فكان التعبير عما بالنفس - من بطش وملاحقات وعدوان - نتيجة الغرق له ولقومه ﴿يَسْتَفِرُّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (١٠٣) (الإسراء: ١٠٣).

وهناك حالات كثر جاءت في سورة الأعراف وسجلات التاريخ والوقائع ليس هذا مقام التفصيل فيها.

### ٣- المنشود من التنمية المركبة: في استقامة المواطن تنمية للوطن وحماية له

قد تعلمون أن (الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها)؛<sup>(١)</sup> وعليه فإن مشاكل الوطن والمواطن لا تحل إلا بالحكمة؛ لأن التنمية حكمة ينشدها عقلاء الأمة وبصراؤها، وذلك بوعيهم وسعيهم. التنمية المركبة حكمة لأنها من صنع نبي أو حكيم، من صنع فيلسوف أو مفكر، من صنع مصلح أو مثقف. وفي كل الأحوال هي من إبداع ثلاثة لا نرى لها تحتها رابعاً، هم: سلطة وعمامة ونخبة (=س، ع، ن). تركبوا على وعي، وسعوا إلى حل مشاكلهم بلا عي ولا غي؛ مثلما هو الحال مع الإنسان المواطن في اليابان وأمم الغرب وبلاد الآسيان.

وإذ تنقص المواطن الحكمة؛ فإنه ينقصه الوعي. وإذ تنقص الوطن التنمية؛ فإن المواطن ينقصه السعي. فليس كل من سعى وعي؛ ولكن كل من وعى سعى. إن الذي سعى احتكم إلى السنن الكونية والإلهية كما احتكم إليها الأنبياء من قبل، وعلى رأسهم نبينا ﷺ؛ هذا النبي الذي لقي ما لقي، وعانى ما عانى، وقاسى ما قاسى؛ ومع ذلك حفظ ووعى، سمع فسعى. وإن الذي سعى، أيضاً، قد نَمَى السنن العجاف وحوّنها إلى سمان كما فعل يوسف عليه السلام؛ فقد وعى الأزمة وسعى إلى حلها بالتعفف حيناً، وبالتقشف حيناً آخر.

إن قولنا (ليس كل من سعى وعى) ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) (الكهف: ١٠٤)، وهذا ما يفترض من المواطن تجنّبه. وأما كل (من وعى سعى) ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ (٨) ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ (٩) (عبس: ٨-٩). فالخشية وعي بالأمر الجلل، والسعي إلى تجاوزه والتغلب عليه وتحويله من جلال في الحياة إلى أمل في النجاة.



## كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

ومثل هذا السعي الذي يسبقه الوعي، هو ما ينبغي على المواطن التحلي به وركوب صعبه للظفر بوطن مكتمل الأركان إنسانيًا وإيمانيًا؛ لأن الوعي بالمسألة جزء من حلها، والجزء الباقي من حلها هو السعي إلى حلها. منطقيًا حل الأزمات وتجاوز الفتن، يشترط حصول السعي والوعي معًا.

إن ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لخير المواطن والوطن، كان على وعي برسالة موسى عليه السلام؛ فنجح هو ومن استجاب لتحذيره. أما فرعون الذي جاء يسعى لقتال موسى وإيقاعه في الشر لم يكن على وعي برسالة موسى عليه السلام، فاستخفَّ بعظمة البحر وخطورته، ومن ثم أغرق نفسه وأهلك جنده.

والمنشود أن تنمية الرجل المواطن الذي انتمى إلى الوطن وحماه، كانت تنمية واعية مستقيمة؛ لأن تنميته أتت تنمية ساعية مستديمة. أما تنمية فرعون الذي اختصر الوطن في دائرته وقزّم المواطن في حاشيته، لم تأت تنميته ساعية مستديمة، فخرّب الوطن؛ لأن تنميته لم تكن تنمية واعية مستقيمة.

إذاً الوعي بالشيء وخطورته أمر مهم لتحصيل تنمية مركّبة مستديمة لا تحرّن في منتصف الطريق. إن منتصف الطريق هو من شرّد المواطن وما أرشده، وهو من أوّاهه وجوّعه ثم ضيّعه. هذا الجليل البئيس التعيس رسم منتصف الطريق الآخر بنفسه فأتى طريقًا بئيسًا تعيسًا؛ جاء طريقًا ضائعًا مائعًا. لقد عبّدوا الطريق بأنفسهم وما أصلحوه، وعبّدوا على كيفهم من غير وعي؛ فتشددوا وتشرّدوا وتمدّدوا وبدّدوا، ثم تبدّدوا؛ ولا شيء بعد ذلك غير السراب؛ وهل بعد السراب إلا الخراب؟ وإذا تأتى دنياهم سرايا؛ فمن الطبيعي أن تأتى آخرتهم خرابًا.

من وجهة أخرى، نرى أن المواطن (=السلطة) قد يُعدّب بالشيء مرتين؛ مرّةً عندما يحتكر (الشيء) لنفسه فلا يعدل في توزيعه فيفقر غيره، ويزيحه من دائرة الانتماء، ومن ثم يسعى اللامتمون إلى تطبيق العدالة على كيفهم من غير وعي منهم؛ فيخرّبون أوطانهم بأيديهم. ومرّةً عندما لا يحسن هذا المواطنُ السلطةَ التصرفَ في الشيء فيُشقي نفسه وغيره؛ فلا تحصل تنمية مستديمة أبدًا؛ إذ من أحشاء الشقاء والفقر يجبل المواطن المنتمي بفجوره وبجوره، وينسل ويسل؛ فتأتي فكرة حماية الوطن من الأعداء فكرةً عقيمة غير مستحسنة.

والمنشود أيضاً مما أوردناه آنفاً، أن هؤلاء اللامنتمين والمفرّدين، يفترض أن يواجهوا بإنسان مركّب وتنمية مركّبة؛ بحيث يُمنح لكل ذي حق حقه، ولا يخس جهده، وأن لا يشعر المواطن بالاستبعاد من وطنه، والالانتماء إليه. صحيح أن الإنسان والشيء يصنعان تنمية قد تستقيم؛ ولكن الإنسان والشيء قد يصنعان التنمية فلا تستدسم، من منطلق قوله تعالى: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ﴾ (آل عمران: ١٤). إذا لَرَّ المواطن الواعي سواء أكان سلطة أم عامة أم نخبة إلى (الباقيات الصالحات) حوّل الشهوات إلى تنميات مستديمت، وانطبق عليه قول القائل: أعلاه مثمر وأسفله مغدق. فإذا كانت التنمية مستقيمة فهي مثمرة، وإذا أتت التنمية مستديمة فهي مغدقة.

إن (حب الدنيا) ينبجس من مستنقع التنمية غير المستقيمة التي هي زينة الحياة الدنيا بشهواتها وهفواتها. ومن تغريه هذه التنمية يلقي نفسه معارضاً للدين؛ لأن الدين يكبح التنمية إن هي ازينت أو خرجت للعامة في زينتها لتغريها بشهواتها. ولهذا فإن دين العامة في استبعاد مستدسم، وكل من يطالب بتوظيف الدين في التنمية يُستبعد هو الآخر، نظراً إلى أن الدين يلطف من التنمية بالعدالة إن هي اشتطت وتطرقت. إن التنمية المتطرقة التي تصيب الوطن والمواطن، تجعل المواطن يتعلّق بالحياة ويتطرّف مع غيره ممن يذكّره بآخرته. وكما يرجع ضياع الوطن والمواطن إلى التدنّين المتطرّف الذي يتعلّق قلب صاحبه بالآخرة ويهمل الدنيا التي فيها معاشه ووطنه - إذ في مثل هؤلاء الذين يرفضون من هو على غير شاكلتهم ويلفظونه، قال فيهم الرسول ﷺ: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدُّوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرُّوحَةِ، وَشَيْءٍ مِّنَ الدُّلْجَةِ)<sup>(١)</sup> - فإن ضياع الوطن والمواطن يعود أيضاً إلى التنمية المتطرقة التي يتعلّق صاحبها بالدنيا فيحبها حبّاً جمّاً، تجعله مترقفاً؛ ما قد يُعجزه عن الذود عن دينه ووطنه؛ حيث نجد في السُنّة النبويّة ما يحذّر المواطن المسلم من تبعات هذا الحب لشهوات التنمية غير المستقيمة في فجورها وبجورها، كما جاء في حديث الرسول ﷺ حول حب الدنيا وكراهية الموت الذي سبق وأن أشرنا إليه آنفاً.

لقد كان الرسول ﷺ بوصفه سلطة ينصح للمواطن بخاصة وللإنسان بعامة، فيثمره وينضجه،

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم ٣٩، ١٧/١.

## كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

وهذا هو حال السلطة والنخبة مع العامة كما تجلّى ذلك في قوله ﷺ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ).<sup>(١)</sup> وكان الرسول ﷺ يفسح في الإحسان فيُرفق ويُعَدِّق، كما كان يجرّض المواطنين على ذلك، قائلاً ﷺ: (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ)<sup>(٢)</sup> وهذا هو حال السلطة الرحيمة والنخبة المتراحمة مع العامة.

إذا الوعي المقرون بالسعي يفضي إلى التركيب، والسعي من غير وعي يؤدي إلى الاختزال؛ فبالتركيب حصلت حضارة عربية وإسلامية أغنت العالم وأغرته، وبالتركيب أيضاً خرج العرب من البداوة إلى الحضارة، من اللانتماء إلى الانتماء. وعليه ففي التركيب ترتيبٌ وتقريبٌ وتجددٌ وانتماءٌ وحماية، وفي الاختزال اعتلالٌ واختلالٌ وتمرُّدٌ وخرابٌ ووصاية.

إذا كان الابتغاء الديني يجعل الواحد كلاً، مثل إبراهيم ﷺ؛ فإن الانتماء الوطني يجعل الكل واحداً مثل التعايش العرقي في ماليزيا وسنغافورة ونماذج عرقية عالمية أخرى ناجحة ومتسامحة، لأن التنمية التي يستفيد منها الأعراق في ماليزيا -مثلاً- وحثهم وطنياً، وجعلت كلهم المختلف واحداً غير مخالف. إن الاختلاف يكون في المعنويات مثل الدين لأن المواطن هنا يستعيد ماضيه لحاضره؛ بينما في الماديات لا يكون هناك مخالف لأن المواطن يستفيد من حاضره لمستقبله. وهنا يأتي دور التنمية في الحفاظ على الوطن من الفتن، ومن ثم الاستعداد الذاتي لحمايته. إبراهيم ﷺ كان أمةً من غير أن يتركب مع آخرين كانوا مركبين ب: (شيء) آخر، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ۖ﴾ (النحل: ١٢٠). لقد كان إبراهيم ﷺ يمثل الجزء بالمفهوم المادي وهو نفسه الكثير بالمفهوم الديني. أيضاً ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ﴾ (البقرة: ٢١٣)، لكنهم اختلفوا حول الشيء فدعروا منه ثم ابدعوا؛ فالناس هم جزء بتفرقهم حول (الشيء)، والأمة كثرة بتفاهمها حول طبيعة الشيء المادية وخطورته الاختزالية. يكمن سر تفرق الناس في هذا (الشيء) الذي يشيئ الإنسان ويفككه، فيصير الشيء هو الكثرة والناس هم القلة، فلا يكثر الناس إلا بالشيء كثرةً شيعيةً غثائية، وما ذلك بكثرة بها قوة، بل قلة بها ضعف؛ ما يجعل التركيب غير متوازن يميل إلى التفكيك كلما اقتضت الحاجة. أما سر وحدة الناس وتركيبهم في شكل أمة فيكمن في الإنسان

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٥٥، ٥٣/١.  
٢- أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب لا يشبع دون جاره، رقم ١١٢، وهو حديث صحيح بشواهده، صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٤٩/٦٧).

نفسه الذي يبذل الشيء بنفسه فيكون في خدمة الإنسان الذي من نوعه، من غير أن يكون هذا الشيء عنصراً في التركيب؛ وإنما يأخذ مكان الشاهد المادي على حيوية التركيب الإنساني واستدامته. فكلما كانت الأشياء المادية حاضرة ومبدعة ومبتكرة، كانت التنمية المركبة شاهدة على التراص الإنساني الذي لا تغريه زينة الأشياء، ولا تلقي به في هوة التفكيك؛ بل تتوجه نحو اهتمام الإنسان بأخيه الإنسان الذي حصل بامتياز لعصر الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عنهم. إن الملك أو السلطان أو الأمير أو الرئيس أو الحاكم أو القائد هو ما أضاف إلى المواطن وما أفاض في الوطن، يقول ابن خلدون: "اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحه وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقوب ذهنه وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم".<sup>(١)</sup> وهذا القول المستقيم والفخيم ينطبق أيضاً على النخبة تجاه السلطة العامة، كما ينطبق على العامة تجاه السلطة والنخبة؛ فالكل سواء في الإضافة والإفاضة حسب المكانة، حتى يكون الكل سواء في العدالة والاستطالة من غير استمالة قد يعقبها استكانة.

تعد التنمية المركبة وسيلة نبيلة للحفاظ على نبالة الوطن ونبيل المواطن، وحمائتهما معاً. قال كونفوشيوس: "إنك لو أبدت رغبة صادقة بالخير؛ فإن شعبك سيكون خيراً صالحاً أيضاً. إن فضيلة واستقامة الأمير كالريح، وفضيلة واستقامة الشعب كالعشب، ومن طبيعة العشب أن ينحني عندما تهب عليه الريح."<sup>(٢)</sup> فالوطن لا يكون بخير إذا كان الحاكم والشعب في مفترق طرق؛ لأن الوصول إلى الهدف الإنمائي سيكون صعباً وشاقاً ومتأخراً، وربما لن تتحقق السعادة. يتطلب اختصار الطريق بناء طريق جديد يجعل معالم التنمية واضحة الأهداف؛ ما يستدعي وجود الحاكم والشعب معاً في صف واحد مرصوص، فلا يتعد الحاكم من الشعب فتبتعد رؤاهما وأهدافهما؛ فتختلف طريقة البناء بله طرق الهدم.

لا يكون المنتمي على الصورة التي بسطناها آنفاً إن هو عاش في بيئة مصابة بداء الاختزال، وهو يرى أن السلطة كانت سبباً عذاباً فيما آلت إليه أحواله وأوضاع وطنه من تزلف إنساني وتخلّف

١- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ج ١، ص ١٨٨.

٢- أديان العالم: دراسة روحية تحليلية معمقة لأديان العالم الكبرى توضح فلسفة تعاليمها وجواهر حكمتها، هوستن سميث، ترجمة سعد رستم، حلب، دار الجسور الثقافية، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٢٧٥.

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

إنمائي؛ بحيث إن التخلف الإنمائي لا يصنع وطنًا طبيعيًا، والتزلف الإنساني يجعل الإنسان منافقًا ينافق من يرافقه؛ لا سيما أن النفاق خصلة غير رفيقة بالمحيط الذي يعيش فيه المرافق إن أتيحت لهذا المنافق فرصة للغدر والطعن في الظهر.

والمنشود من المحصول أن التنمية المركبة نسق متسق ورتق لما انفتق. إن التنمية المركبة بوصفها حماية للمواطن هي وسيلة أصيلة لحماية الأوطان من الافتتان بالشيء والمعرفة، ولتجنب الفتن التي تخرج من عبادة الدين المرعقة. علاوة على أن التنمية المركبة تستهدف تحصيل العدالة بوصفها مدخلًا مهمًا لرد الحقوق إلى أصحابها الذين هم أنفسهم حماة الوطن، إلى جانب تفعيل الدين في التنمية حتى لا يكون سببًا في التطرف وتخريب الأوطان. إن إشباع طموحات المواطن (=س، ع، ن) هي ما تحفظ الوطن وتحميه من التمرد عليه؛ لأنه يحتضن هذه الطموحات ويرعاها؛ حيث "إن أفضل وسيلة للمحافظة على النظام العام على أفضل وجه لا تكون - بل لا يمكن المحافظة عليه - إلا عندما تتوفر فيه الوسائل التي تتيح للبشر العمل لتحقيق مطامحهم. وهذا ليس حكمًا أخلاقيًا، أو بالأحرى ليس مجرد حكم أخلاقي، بل إنه يكاد يكون قانونًا علميًا للتنظيم الاجتماعي".<sup>(١)</sup>

**ثانيًا: ما المنتمي؟ ومتى ينتمي ويحمي؟**

**١- ما المنتمي والحامي؟: إنا نخدمكم فانتبهوا إلينا**

المواطن المنتمي هو مواطن مسؤول يعيش لهدف نبيل؛ بحيث إن سلوكه الديني والدينيوي المتوازن يتطور داخل محيط المسؤولية الملقاة على عاتقه، وذلك في إطار ما يؤديه من واجبات وما يحصل عليه من حقوق. إن مسؤولية المنتمي تجعل للحياة لها معنى في تصرفاته وتوجهاته؛ فيراها ذات قيمة تحتزن بداخلها فائدة، فيتطلع إلى عيش إيجابياتها ونفث سلبياتها حتى تحتفي ولا تبين. ومن ثم فإن المواطن المنتمي هو إنسان هادف يستهدف هدفًا نبيلًا إن استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ لأن "حب الوطن لا يدخل في إطار التكليف الشرعي، ولا يترتب عليه ثواب أو عقاب، ولا مدح أو ذم، ولا يؤاخذ عليه المسلم إذا تعارض مع الحب الشرعي، أو أدى إلى تضييع واجب أو حق

١- لماذا يتمرد البشر؟، تيد روبرت غير، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، دبي، مركز الخليج للأبحاث، ط ١،

٢٠٠٤م، ص ٢١.

شرعي، أو فعل محرم).<sup>(١)</sup>

المنتمي هو الذي ينتمي انتماءً طبيعيًا إلى جنس الإنسان وحس الأرض وهمس الدين، من غير اختزال الإنسان في سلطة أو نخبة بحيث تُستبعد العامة بغير وجه حق، أو اختزال الدين في جماعة يتبعها المواطن ويتعصب لها فتكون وبالأعلى على المواطن والوطن معًا إذا اعتلت إنسانيًا وفشلت إنمائيًا، أو اختزال الأرض في ملكية ينتفع بها كبيرهم ولا يفيد منها صغيرهم؛ بحيث إذا تبدلت السلطة أو النخبة تبدل انتماءه، وإذا نكست الجماعة أو ارتكست خالف غيره وإن كانوا على حق، وإذا فسدت ملكيته أو أفلست نكر ما جادت عليه الأرض وكفر بأنعمها.

المنتمي هو الذي يحب وطنه ويتفانى في خدمته ويسعى قصاره إلى تنميته. إن المنتمي هو الذي ينمي وطنه سواء أكان سلطة أم عامة أم نخبة؛ حيث إن الانتماء يتشوّف إلى الإنماء؛ بينما الإنماء يجعل الانتماء فاعلاً وعاقلاً؛ فهو فاعل من حيث العطاء وعاقل من حيث الوفاء، وأن يكون معطاءً لوطنه وأكثر وفاءً له. ويعني الانتماء أيضًا "المشاركة الفعالة مع الآخرين على التعاون معهم لرفع مستوى الإيجابيات الذاتية والسياسية والاقتصادية للفرد والوطن، والعمل على إيجاد المشكلات وكيفية حلها وإدارتها".<sup>(٢)</sup>

المنتمي هو من يتواصل مع الآخرين ولا يفصل نفسه عن أبناء وطنه؛ فلا يخالفهم في الانتماء الوطني والأنطولوجي، وإن اختلف معهم في الابتغاء الديني أو الإيديولوجي. قد يحصل تواصل في الابتغاء بين المواطنين المتعددين دينيًا؛ ولكن المنتمي العاقل يرى أن الضرورة المجتمعية تستدعي حصول تواصل في الانتماء لحفظ الوطن من الفتن؛ حيث يعد "حفظ الوطن والانتماء إليه من المقاصد الشرعية والمعتبرة، والتي تؤثر في حفظ المقاصد الضرورية، وتحقيق الأمن والاستقرار العام".<sup>(٣)</sup>

١- هل حب الوطن من الإيمان، أيمن السعداوي، شبكة الألوكة، ٢٠١٧/٢/٧م، ص ٣١.

٢- حفظ الوطن والانتماء إليه بين الحريات والرفض العقدي: دراسة في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية، هيمن عزيز برايم، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الأربعون (٢)، كانون الأول

٢٠١٦م، ص ١٦٢.

٣- المرجع السابق، ص ١٧٧.

## كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

المنتمي هو الذي يكون حبه للوطن كحبه لأسرته التي انتمى إليها منذ الطفولة، وأن الوطن ليس مجرد للعيش مع المؤتلف كما تعود على ذلك في أسرته الصغيرة، بل هو مكان للعيش مع المختلف، ومن ثم عليه أن يتدرّب على ذلك في الوطن الكبير؛ فيكون إنسانياً في حبه لوطنه حتى يتعايش مع الآخرين بإنسانية أيضاً، ويكون إنمائياً في خدمة وطنه حتى يهنأ بالعيش فلا يغدر بوطنه أو يغادره. وقد لا يعيش المواطن المنتمي عيشة طيبة إذا افتقر إلى التنمية المحترمة لانتمائه، كما أنه قد لا يتعايش تعايشاً إنسانياً إذا افتقر إلى التنمية المتراخمة.

ومن ثم فإن المنتمي هو الذي يرى وطنه جديراً بالعيش فيه، وأنه لا يضيع حياته في العيش في وطنه، وأن الأرض التي ينتمي إليها ويتبعي دينها فيها ما يستنشق الحياة، وأن يتعشق مستقبله في هذه الأرض، وأن فيها ما يستبق الأمل، وما يستحق تكثيف العمل.

المنتمي يحترم وطنه إنمائياً ويتراحم معه دينياً؛ فهو في كل الأحوال يتراحم معه دينياً بحكم الابتغاء، ولكن قد يفقد احترامه لوطنه بحكم الانتماء إذا ما شعر أنه لا يستفيد من فوائد الإنماء وعوائده، أو إذا شعر أن العدالة الإنمائية لا تنصفه. إن الابتغاء الديني لدى المنتمي غير كافٍ للحفاظ على الوطن وحمايته؛ إلا أن الانتماء الإنمائي يجعله يشعر بقيمة الوطن، وهو يستفيد من ثرواته وإمكاناته التي جعلتها العدالة في متناوله.

المنتمي هو الذي يميل إلى التنمية التي جلبتها العدالة، وينفر من الحرمان الذي يكون عائلاً أمام تفعيل قدراته لأسباب سياسية. فإذا شعر المنتمي أنه لا يستفيد من التنمية فإنه يستحيل إلى لا منتم يتوجه نحو التطرف والإرهاب مهما كانت درجته الدينية عالية؛ حيث إن قوة الابتغاء الديني لديه لا تعني أن الانتماء الوطني سيكون أقوى هو الآخر.

المنتمي للوطن هو الذي يعيش لهدف وطني ذي معنى، يقبل الاختلاف ويتجنب الخلاف. المنتمي أيضاً هو من يؤدي واجبه، ويكافح من أجل الحصول على حقوقه من غير تحايل أو تمايل غير مشروعين؛ وإلا تحوّل إلى لا منتمٍ عنيف يتسبّب في تدمير وطنه وتخريب بيته.

## ٢- متى ينتمي للوطن ويحمي؟: ما قيمة الأرض إن لم يكن للإنسان قيمة؟

لا نعتقد أن حماية الوطن من قبل المواطن المنتمي قد تستمر من غير حصول التنمية المركّبة.

فإذا حصلت التنمية المركّبة فإن المواطن يشعر باتمائيته؛ فهو ينتمي عندما يترّك بأمانة مع المنتفعين بحكم المكانة، ويشعر بأنه يستفيد استفادة مباشرة من الشيء والدين والمعرفة. من خلال التنمية المركّبة يمارس هذا المنتمي واجباته في ظل الاحترام الإنمائي، ويحصل على حقوقه في ظل التراحم الإنساني. في ظل التنمية المركّبة تكون الحقوق والواجبات مركّبة؛ بحيث يؤدي الجميع الواجب الوطني، ويحصل الجميع على الحقوق الوطنية. إن السلطة العادلة هي التي تحفظ حقوق مواطنيها، والقائد الناجح هو الذي يرد على الناس حقوقهم. يقول القاضي أبو يعلى الفراء: "إذا قام الإمام بحقوق الأمة وجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة".<sup>(١)</sup>

كما هو معلوم بالضرورة أن الإشكال الإنمائي يكمن في السلطة، وذلك "لأن الرعايا تبع للدولة فيرجعون إلى خلق الدولة إما طوعاً لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم أو كرهاً لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض على الترف في جميع الأحوال وقلة الفوائد التي مادة العوائد فتتصر لذلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصر".<sup>(٢)</sup> وعليه فإن السلطة رأس الدولة هي من ترّك، وهي من تختزل. فإذا تمكّنت السلطة من توزيع الشيء الذي تمتلكه توزيعاً عادلاً، حصلت العامة على حقوقها إن هي أنتجت وفعلت. ولن تستطيع هذه العامة أن تفعل قدراتها إذا لم تمنحها السلطة الحرية المسؤولة في تفعيل ما تمتلكه -الذي هو الدين- تفعيلاً أميناً؛ حتى تشعر العامة أنها تستفيد من الشيء وتفيد بالدين، علاوة على ضرورة امتلاك العامة للمعرفة عسى أن تعينها على التمييز بين الشيء والدين في حياتها الخاصة؛ فلا تخلط بينهما بالتفريط أو الإفراط.

إذا السلطة تعين على صناعة المواطن المنتمي بتوزيع الشيء توزيعاً عادلاً، وليس الشيء وحسب، بل واجب السلطة أن تسعى إلى احترام الدين والتراحم مع العامة في توظيف الدين الذي تمتلكه توظيفاً إنمائيًا. وإذ يكون هذا الدين في خدمة حفظ الوطن؛ فإنه لا يشتط على الوطن أو ينشط ضده؛ حيث إن المزيد من التنمية هو مزيد من التعاون والحرية المسؤولة. وإذ تحصل التنمية

١- الأحكام السلطانية، أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء، تصحيح وتعليق محمد حامد الفقهي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٢٨.

٢- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٧٤-٣٧٥.



## كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحمامي للوطن؟ ...

المركبة؛ فإن السلطة تكون أكثر قرباً من العامة؛ حيث إن هذا التعاون يؤدي إلى تشجيع العامة على أداء الواجب وحب الوطن، وتفضيل البقاء فيه كما هو حاصل مع المواطن في ماليزيا -مثلاً- الذي لا يعاني من الخروج القسري من وطنه بحثاً عن الرزق الواسع، أو هرباً لاستنشاق هواء الحرية في مكان رائع. وعليه فإن التنمية المركبة تدفع إلى المزيد من احترام السلطة للنخبة، وتراحم السلطة مع العامة، ومن ثم تبادل الاحترام والتراحم بين العامة والنخبة.

إن استفادة المواطن من وطنه إنمائيًا يجعل منه أكثر إنسانية وإنمائية تجاه وطنه. فالتنمية المركبة تحتزن بداخلها المسؤولية الفردية والاجتماعية تجاه الوطن والمواطن. فكلما كان المواطن مرتاحاً إنمائيًا، كان منتمياً ومسؤولاً؛ لأنه يشعر بقيمة الامتلاك فيجتهد في حب ما يمتلك، وفي حب الوطن الذي يحتضن ممتلكاته، ومن ثم احترام السلطة التي تسهر على أمن ممتلكاته، سواء بتسهيل سبل أداء الواجب وعدم حرمانه من تفعيل قدراته وتشغيل طاقاته، أو بحصوله على حقوقه المشروعة بإنصاف من غير إجحاف.

إن عدو المنتمي هو التخلف الحضاري والحرمان الاقتصادي والاستبعاد الاجتماعي والإهمال المنظم. وإذا رأى في وطنه هذه العلامات السيئة؛ فإنه يتخذ وطنه عدوًّا فلا يحميه، ومن ثم لا يكون منتمياً، لا إنسانياً ولا إنمائيًا؛ بحيث يبحث عن فرص للانقضاض على من قض مضجعه، والانتصاف ممن أنقص من قدره، والانسحاق عن وطن سرق لقمته وجوعه؛ فتنتفي الطاعة في المواطن ويقل الأمن في الوطن، ويكثر التمرد على المؤسسات الحاكمة. يورد أبو الحسن بن هذيل رواية أحد عقلاء بني أمية عن زوال ملكهم، ويقول: "إنا تشاغلنا بلدتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، ووثقنا بوزراء أثروا مرافقهم، وأبرموا أموراً أسروها عنا، وظلمت رعيتنا، ففسدت نياتهم لنا، وجذب معاشنا فخلت بيوت أموالنا، وقلّ جندنا، فزالت هيبتهم لنا، واستدعاهم أعداؤنا، فظافروهم علينا، وكان أكبر الأسباب في ذلك استتار الأخبار عنا".<sup>(١)</sup>

المنتمي هو الذي يقبل وطنه ويقبله، وإذا شعر بأن السلطة تحونه فإنه يتحوّل إلى لا منتم، لا يطيق العيش في وطنه ولا يشفق على حاله؛ فيعادي وطنه كما يعادي السلطة أيضاً، ويسلك

١- عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، د.ت.، ص ١٦٢-١٦٣.

سلوكًا عدائيًا وليس إنمائيًا. يشعر المنتمي بالخبية إذا وجد وطنه عدوًّا له يسرق منه بسمة الحياة ونضارة العيش؛ ما يؤدي به إلى الكفر بالوطن وتكفير كل من يختلف معه. فلا يكون منتميًا وطنيًا وإن بقي مبتغيًا دينيًا؛ حيث إن الابتغاء الديني - المنقوص من الانتماء الوطني - لا يحقق أهداف الإنماء الوطني وغاياته.

### ثالثًا: الدين بوصفه شريكًا ذكيًا للتنمية: كيف يُصنع المواطن المركب والمنتمي للوطن والحامي له

كما هو معلوم فإن مشكلة العالم العربي والإسلامي هي مشكلة دينية أعمق أثرًا من المشاكل الأخرى؛ لأن حقبة الدين طويلة ومسيرتها عريضة. إن فهم المواطن (=س، ع، ن) للدين فهمًا صحيحًا، يحل كثيرًا من المشاكل الإنسانية والإنمائية. عندما يفهم القوم الدين ينصلح حالهم، وإن من يفهم لا يستمر في طغيانه وعصيانه؛ فلا يعكّر على المواطن صفو حياته، ولا يدمّر الأوطان، أو يجرب بيوت أصحابها. كيف يتعامل هذا المواطن مع الدين إنمائيًا؟ كيف يستفيد منه في السوق كما يستفيد منه في المسجد؟ فالدين في زمن الرسول ﷺ كان حاضرًا في السوق؛ فأول ما قدم الرسول ﷺ إلى المدينة، بنى مسجدًا وفتح سوقًا، وكان يراقب عماله ويتفقد أحواله، ويمنع الغش والتحايل والغبن؛ فعن أبي هريرة: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ عَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي).<sup>(١)</sup> ومن ثم فإن الدين ليس في منأى عن السوق إذا وجدت سلطة تنظمه مؤسسيًا وتقيمه دينيًا.

هذا الاختلاف في توظيف الدين في التنمية، تحوّل إلى خلاف مؤسسي مأسوي ينسف كل محاولة جادة وإن أتت مختلفة عما درج عليه الخلاف المؤسسي الميئوس منه؛ حتى أنه بات لا يلقي السمع إلى الاختلاف بصفته مجرد وجهة نظر قد تكون مخطئة، وقد تكون محقّة؛ ما جعل المواطن يشعر بالاستبعاد لما يمتلك من دين؛ فلا يرى شيئًا في التنمية يمت للدين بصلة؛ تنمية غريبة على بيئته تتوجه نحو إفساد حياته وأسرته ومجتمعه، وأنه لا فرق لديه بينها وبين التخلف كونها تنمية

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غشنا فليس من، رقم ١٠٢، ١/٦٩.

## كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والهامي للوطن؟ ...

مختزلة في شيء ينتفع به مالك الشيء بحكم القيادة، أو مالك المعرفة بحكم الريادة. إن "الديمقراطية لا تصبح أكثر وظيفة كلما صارت المجتمعات أكثر تعقيداً واختلافاً. في الواقع تفشل الديمقراطية عندما يتجاوز الاختلاف في المجتمع حدًا معينًا"<sup>(١)</sup> وعندما تفشل الديمقراطية تتفكك الأوطان.

وإن بدا الدين يشقُّ طريقه إنمائيًا بحضوره المحتشم والتابع في شكل مصارف إسلامية لأسباب مادية نفعية لا يعارضها الاختلاف المؤسسي الذي يرى فيها مصلحة ومنفعة لجميع الأطراف بشكل متباين؛ إلا أن المصارف الإسلامية بمفردها لا تكفي، وليست تعني الاقتصاد الإسلامي كما يشاع حولها ويروج لها؛ بحيث إن توظيف الدين في التنمية اختزل في المصارف الإسلامية، وعُدَّ أنه الاقتصاد الإسلامي كله. بينما المواطن يتشوّف إلى تنمية فيها روح الدين، ليس على مستوى الحلال والحرام وحسب، ولكن على مستوى الرفق والرحمة بالاحتاجين والفقراء. وإذ يحتاج الوطن إلى مؤسسات اقتصادية عالمية ربحية ونفعية تتوجّه نحو الخارج لا شأن للدين بها إلا ما أحلَّ حرامًا؛ فإن المواطن بحاجة إلى مؤسسات إحسانية تتوجّه نحو الداخل تعطف عليه وتشفق لحاله في ظل تغوُّل التنمية المعولة التي تتمسّح ببلسم التنمية البشرية المستديمة وترتّج بسمّها؛ هذه التنمية الأعجوبة في الغرب والأكذوبة لدى العرب.

كما هو معلوم بالضرورة أن الدين الذي يدين به جل العالم العربي هو الإسلام. وإن هذا الإسلام الذي يتجاوز مع السلام لا يمكن أن يكون عنيفًا بطبعه؛ ففكرة العنف مرفوضة في الدين؛ إذ لا إكراه فيه. إن هذا اللا إكراه هو الذي يجعل الدين لطيفًا. وإذا كان المواطن لا يُكره على قبول الدين في حياته بوصفه عقيدة ونظامًا، فلماذا يُكره على قبول نماذج إنمائية تقوم على قطيعة مع الدين؟ وإذا كان في اللا إكراه لمسة حضارية؛ فإن في الإكراه مسحة بدوية. إن توظيف الدين في التنمية يعد مسلكًا من مسالك الحضارة؛ حيث إن "هناك إقرارًا واسعًا بأن الدين هو أحد المميزات المركزية للمجتمعات الحضارية. ففي القرن الثامن عشر كان ميرابو الشيخ أحد أوائل منظري الحضارة. كان يقول إن الدين مصدر رئيسي للحضارة لأنه يساهم في تلطيف السلوك"<sup>(٢)</sup>. فإذا

١- نهاية التاريخ، فرانسيس فوكوياما، ترجمة وتعليق حسين الشيخ، بيروت، دار العلوم العربية، ط ١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ١٤١.

٢- الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعوية وتعددية، تحرير بيتر جي كاتزنشتاين، ترجمة فاضل جتكر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٢م، ص ١٧.

حصل هذا التوظيف فأنتي للمواطن أن يكون عنيفاً؛ حيث إن العنف بداوة، لا سيما أن العنف يقف في الفجوة الحاصلة بين الدين والتنمية. كلما تقلصت هذه الفجوة، قلَّ العنف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وتركَّب الإنسان (=س، ع، ن)، وخرج من البداوة إلى الحضارة. لاسيما "أن الشر أقرب الخلال إليه - أي البشر - إذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهدِّبه الاقتداء بالدين".<sup>(١)</sup>

وإذا كانت السلطة والنخبة توظِّف (الفكرة الدينية المغلوبة) في التنمية؛ فلماذا ترفض أن توظِّف العامة (الدينَ الغالب) في التنمية؟ هذا سؤال مشروع؛ لأن العامة في ظل هذا الرفض باتت تتوجه نحو الهدم وليس البناء نظراً إلى حرمانها الاقتصادي واستبعادها الاجتماعي من المشاركة الإنمائية بما تستطيعه وتمتلكه. لماذا لا يُمنَح للمواطن فرصة المشاركة في التنمية بالأدوات المشروعة والمؤسسية التي يقتنع بها؟ إن "الاستبعاد بوصفه حرماناً مستمراً وليس شأناً عارضاً، وبوصفه أزمة متعددة الأبعاد والمكونات تنطوي على: حرمان من المشاركة في مجالات العمل والإنتاج، ومن الاستهلاك الحقيقي الذي تتطلع إليه الكثرة، ومن المشاركة في الاهتمام من الشأن العام (أو الممارسة السياسية اليومية)، وأخيراً من كثير من عمليات التفاعل الاجتماعي".<sup>(٢)</sup>

في مرابع الحضارة العربية والإسلامية لم يكن الدين في منأى عن التنمية فهما صنوان. وعندما احتكرت السلطة التنمية وفصلتها عن الدين لم تعد هناك تنمية؛ فالتوأم التنمية ينتقم لتوأمه الدين على شكل فتنة ومعيشة ضنك؛ فتصاب السلطة بمرض الطغيان، والنخبة بألم الفساد، والمواطن بضيق المعيشة وضحكها؛ فيتقاعس جميعهم عن الحماية.

إن ابتعاد الدين من التنمية فتنة، والتوظيف الخطأ للدين أيضاً فتنة؛ لأن الفتنة لا تخرج من التوظيف الخاطئ وحسب، وإنما أيضاً في فهم التوظيف بشكل خاطئ. إن للفهم فنيّات كما أن للتوظيف آليات. بمعنى أن المواطن لا يستطيع فهم الدين في أبعاده المادية إلا إذا وظَّفه في التنمية وتعاطى معه. وإذا لم يوظَّفه ويتعاطى معه فستتسع فجوة سوء الفهم؛ ما يعمِّق من حفرة القلق والخوف من الدين. خوف يرجع إلى بيئة غير دينية؛ بيئة الغرب التي فصلت الدين عن التنمية.

١- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٧.

٢- الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم، تحرير جون هيلز وآخرون، ترجمة وتقديم محمد الجوهري، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٧م، ص ١٢.

إن عدم الفهم لهذا الفصل بين الدين والتنمية هو الذي أساء لفهم التوظيف والشراكة في العالم العربي والإسلامي.

إن الدين يحتزن بداخله تنمية لا تُمنَح إلا لمن يأتيها دينياً؛ يفهمها دينياً ويوظف هذا الفهم إنمائياً. إن الدين يمارس في العبادة؛ ولكن (فهمه) يمارس في التنمية ويوظف في التنمية باعتبار الدين منظومة كلية تحقق مقاصد الدين والتنمية بشكل مستديم؛ بحيث يكون للمواطن رأي شعاع ومستطاع ومطاع في الطريقة التي ينبغي أن تكون عليها التنمية. إن "العملية التنموية في مجملها مقاصد ووسائل ومحددات؛ فالمقاصد تتعلق بالحياة الطيبة التي يطمع مجتمع ما أن يحققها لأفرادها، أيًا كانت مكوناتها ومستواها؛ وقد أثبت القرآن الكريم للكافرين طيباتهم في هذه الدنيا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا...﴾ الخ. والوسائل هي جملة الترتيبات المجتمعية، والعمليات الفردية والجمعية، التي يرى المجتمع أنها ما يلزم اتخاذه للسير قدماً نحو تحقيق تلك الحياة. والقيود هي تلك العوائق التي تقف في طريق المسير نحو الهدف، والتي لا بد من أخذها في الاعتبار، فمنها ما يمكن إزاحته أو تجاوزه، لا سيما تلك التي من صنع البشر، ومنها ما يصبح محددًا للمسيرة التنموية كالسنن الإلهية؛ تشريعية وطبيعية. أما الاستدامة فهي حال يرجى أن تصبح سمة للمسيرة التنموية متى تحقق شروطها".<sup>(١)</sup>

ليس مقصودنا من توظيف الدين في التنمية، أن يحتزل الدين في المبادئ الأخلاقية، مثل (الصدق والوفاء والرفق والشفقة والإنصاف)، وليس في القيم، مثل: (الصحة والثروة والسعادة والحرية والعدالة)، وليس في الفضائل، مثل: (الحكمة والشجاعة وضبط النفس)؛ وإنما قصدنا من ذلك المنظومة الدينية الكلية بمعناها الواسع التي تشمل المبادئ الأخلاقية والواجبات والقيم والفضائل؛ أي صلة الدين وعلاقته النظرية، وكيف يعمل في الممارسة التطبيقية والعملية.<sup>(٢)</sup> لا سيما أن "الأصل الأول من أصلي علم الاقتصاد، الذي ارتبط بعلم الأخلاق وبنظرة أخلاقية عن

١- التنمية المستدامة: تأسيس مقاصدي، محمد الحسن بريمة إبراهيم، الخرطوم، مركز التنوير المعرفي، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ٤٩.

٢- نحو شركات خضراء: مسؤولية مؤسسات الأعمال نحو الطبيعة، ليزا هـ. نيوتن، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦م، ص ٢٨-٢٩.

السياسة، يشير فعلاً بهذه الطريقة إلى مهام معينة غير قابلة للاختزال بحيث يتعذر إنقاصها لعلم الاقتصاد".<sup>(١)</sup>

إن توظيف الدين في التنمية يبشّر بتجديد حضاري لروح المواطن التي ران عليها فساد التنمية وغبنها، لا سيما تجديد روح السلطة والنخبة التي تحتكر هذه التنمية بحكم ما تمتلكه من شيء ومعرفة. إن المواطن قد يلقي في الدين ما ينقذه من لاعدالة التنمية المادية؛ حيث إن الدين يجد حلاً للعدالة؛ لأن العدالة شكل من أشكال الدين، وإن توظيف الدين في التنمية هو نفسه توظيف العدالة في التنمية، علاوة على أن التنمية التي لا يفيد منها المواطن تتوجه نحو تدمير البيئة والاستهانة بالدين وتضنيك المجتمع.

كيف تتغيّر السلطة من الأسوأ إلى الأحسن؟ ومتى لا تقف السلطة عقبة كأداء أمام التغيير الذي ترسمه النخبة المسؤولة والواعية؟ هذه أسئلة لا يفترض أن نجيب عنها بوصفنا نخبة وعامة، بل تجيب عنها السلطة نفسها، ومن ييدهم صناعة القرار؛ أما النخبة العاقلة والمسؤولة التي تهتم بقضايا الأمة، فمهمتها المساعدة على توسيع دائرة الإجابة. الحلول العميقة داخلية وليست خارجية؛ وإلا أتت سطحية. إن فشل النخبة المسؤولة في تقديم الإجابة ليس ناتجاً عن عجز، بل لأن الإجابة مسلوبة منها ومصروفة عنها.. إن الإجابة عن السؤال الأكبر والأخطر (لماذا نخاف من أنفسنا ونحجر أوطاننا؟)، ينبغي أن تأتي من الذي فرض على النخبة والعامة هذا السؤال المخيف والرجيف. إن الذي أوصل الوطن والمواطن إلى الأسوأ هو نفسه من يعيدهما إلى الأحسن. ومهمة النخبة الواعية أنها تقدم المساعدة لا غير؛ إذ لا ينبغي للنخبة العاقلة أن تحشر أنفسها في كل أمر فتدل نفسها، لا سيما إذا كانت لا تستطيعه. إن المسائل تحل في إطار الاستطاعة، بينما النخبة غير مستطاعة كونها غير مطيعة لجل أفعال السلطة السيئة، فلا تمكّنها السلطة من الإجابة. إن الإرادة مسلوبة من النخبة، ومن ثم فإن النخبة مغلوبة أمام سلطة غالبية تتوجه بغلبها نحو الأسوأ، كما تتخذ من الظلم أداة سليطة؛ حيث إن الظلم مؤذن بخراب العمران على نحو ما حصل ابن خلدون وفصل. يقول خير الدين التونسي: "فرجال السياسة يدركون المصالح ومناشئ الضرر،

1- Amartya Sen, On Ethics and Economics (Oxford: Basil Blackwell Ltd, 1990), p4.

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

والعلماء يطبقون العمل بمقتضاه على أصول الشريعة، وأنت إذا أحطت خبراً بما قررناه علمت أن مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد المذكور من أهم الواجبات شرعاً لعموم المصلحة وشدة مدخلية الخطة المذكورة في اطلاع العلماء على الحوادث التي تتوقف إدارة الشريعة على معرفتها".<sup>(١)</sup>

طبعاً، الظلم لا يزيحه إلا ظالم وفي الغالب يكون من السلطة فيستحيل عادلاً، والدولة لا يصلح من حالها إلا عالم وفي الغالب يكون من النخبة فيستحيل عاملاً، والتنمية لا يديرها إلا إنسان محترم وصارم وفي الغالب يكون مواطناً بسيطاً ومتعلماً من العامة فيستحيل فاعلاً. إذا نحن أمام ظلم ودولة وتنمية. إن الظلم خراب للوطن والسلطة، والسلطة تفسد التنمية بالظلم، والتنمية لا تستديم بسلطة ظالمة. إن شقاء المواطن يكمن في خراب الظلم وفساد السلطة واختزال التنمية في دائرتها المقرّبة. وهذه العلات الثلاث: الفساد والظلم والاختزال، هي ما ينبغي الإفادة منها ومعرفة كيف تجاوزتها الأوطان التي يُحترم فيها المواطن البسيط والنشيط معاً. الظلم يكون خراباً إن لم يتحوّل إلى عدالة؛ إذ لا توجد حلول موازية للخروج من الظلم غير تعميم العدالة، والعدالة فعل لا تقدر عليه إلا السلطة التي تظهر عدالتها فيما تحصله من تنمية؛ وإلا فإن فساد القضاء يفضي إلى نهاية الدولة، وأن العامة المقهورة تسوء أخلاقها كما يستقري ابن خلدون ويفري القول: "العدل بإصلاح العمال وإصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه".<sup>(٢)</sup>

إن المواطن المنتمي هو المواطن الذي يُحترم دينه إنمائيًا ويُتراحم معه إنسانياً من قبل السلطة والنخبة؛ ففي توظيف الدين في التنمية يُصنعُ المواطن المنتمي كما صنع لزمان الرسول ﷺ. لقد كان هذا المواطن -من الأنصار والمهاجرين- يرى الدين في كل مكان يقصده، سواء في المسجد أو السوق.

وعليه فهذه اقتراحات مواطن يتشوّف إلى مسؤولية السلطة ووعي النخبة قبل حصول فتنة

١- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ويليّه مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، مرجع سابق، ص ٣٥.

٢- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩.

في الوطن تنكس المواطن وتركسه. إن الحلول مركبة بتركيب (س، ع، ن)، ولا أحد بمفرده يمتلك مفتاح الانطلاقة الإنمائية وكيفية إدارتها في غياب الإرادة الجماعية؛ لا سيما أنه "وفي الأحوال العادية، عندما يتحدى المرء الحكمة المستقرة -القائلة بأن النظام الاقتصادي والسياسي الراهن هو الوحيد الممكن- فأول رد فعل يحتمل أن تواجهه هو مطالبتك بمخطط معماري تفصيلي لكيفية عمل النظام البديل... تاريخياً هذا مضحك. متى تأتي للتحويل الاجتماعي أن يحدث، إطلاقاً، وفقاً لمخطط أي أحد".<sup>(١)</sup>

إن منطلقات اقتراحنا الذي نأمل أن يشاركنا فيه غيرنا، هو أن المواطن المنتمي يُصنَع على أعين السلطة العادلة والنخبة المسؤولة تجاه هذا المواطن الذي يبحث عن وطن يأويه، لا أن يُلقى في أحضان أوطان تستفيد منه سلباً في استغلاله في خراب بيته الأكبر، أو إيجاباً في إعمار أوطان الغير ممن رحّبت به مواطناً منتمياً.

رؤيتنا أن المواطن المنتمي يُصنَع في ظل توظيف الدين -الذي يمتلكه- في عملية البناء بشكل مؤسسي ترعاه السلطة وتتغياها النخبة، علاوة على مستتبعاته كما سنرى، طبعاً إلى جانب توافر الشروط المسلكية التي يُصنَع من داخلها هذا المنتمي؛ فيُبدع من خارجها، وأهمها: الحريات السياسية، والتسهيلات الاقتصادية، والفرص الاجتماعية، وضمانات الشفافية، والأمن الوقائي.

وكما بسطنا القول أعلاه؛ فإننا نمدُّ أذناه بإقرارنا أن توظيف الدين في التنمية توظيفاً قد يفيد المواطن في حياته وأسرته ومجتمعه، يعد مسلكاً مذلاً وآمناً ومطمئناً لصناعة المواطن المنتمي حامي الوطن من الفتن، وذلك على النحو الآتي:

**-المواطن المنتمي هو الحل وليس الدين وحسب: الدين ليس هو الحل الوحيد لتحصيل التنمية، بل هو مشارك وجزء من الحل. وإذا كنا نقصد بالدين الإسلام؛ فإن الإسلام هو الحَقُّ والخَيْرُ، بينما المسلم (المتدين العاقل) بوصفه إنساناً هو الحُلُّ والسيرُ؛ أي أن الحل يأتي من الذي يخطئ ويصيب؛ لأن "الخطأ يحتاج على الأقل إلى إنسان يرتكبه".<sup>(٢)</sup> وعليه فإن المواطن يفترض أن**

١- مشروع الديمقراطية: التاريخ، الأزمة، الحركة، ديفيد غريير، ترجمة أسامة الغزولي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٤م، ص ٢٧١.

٢- حكمة الغرب: الفلسفة الحديثة والمعاصرة، برتراند رسل، ترجمة فؤاد زكريا، الكويت، المجلس الوطني



كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

يتدرَّب على الخطأ في ساحة التنمية التي تتراحم مع الدين؛ حتى يكتسب المزيد من الخبرة فلا يقع في الأخطاء الكبرى على المدى البعيد، ومن ثمَّ يجنَّب الوطن كوارث الثورات المطالبة بحقوق ضائعة أو مؤجَّلة وعلى رأسها توظيف الدين إنمائيًا. وإذ غابت النصوص الدينية الصريحة في كيفية التعامل بالتنمية؛ فإن الاجتهاد هو الحل في تجاوز الأزمات.

**-المواطن المنتمي هو الحل وليست التنمية:** المواطن أولاً ثم التنمية ثانياً. وإذ يُحترَم المواطن؛ فإن التنمية تتراحم معه، وترضى بأن تشاركه في الدين الذي يمتلكه، كما رضيت بأن تشارك السلطة في الشيء الذي يمتلكه. وإذ لا تضمن التنمية في حد ذاتها مستقبلاً أفضل للمواطن؛ فإننا نعتقد أن توظيفات التنمية التي من تصنع المستقبل؛ أي أن الأشكال الموظفة من أفكار وتصورات ودين ولغة وثقافة تنهل من الإرث الحضاري، هي التي تصنع مستقبل التنمية وتجعله واضحاً. تتواجد التنمية بمواطن منتم لوطن تخدمه السلطة والنخبة؛ فالتنمية لا تأتي عبثاً من غير مواطن تحترمه السلطة وتتراحم معه النخبة. التنمية الوطنية هي صناعة مواطن مسؤول يشعر بأنه يستفيد من العدالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. فإذا كانت التنمية مصنوعة وقادمة من خارج الوطن ومعتمدة على الشيء الجاهز والمجهَّز، فهي ليست تنمية في متناول المواطن، ولا تصنع الإنسان المنتمي مهما أوتيت من إجراءات ووقفت على استثناءات؛ وإنما المواطن المنتمي هو الذي يوجِد التنمية إنَّ هو شعر بأن الشيء الجاهز في متناوله أيضاً. فالمواطن أولاً لضمان انتمائه، ثم التنمية ثانياً للتأكد من أهمية المواطن المنتمي في عملية إعادة البناء.

**- إعادة الاعتبار الإنمائي للمواطن من طريق الدين الذي يمتلكه:** إن توظيف الدين في التنمية هو نفسه توظيف العامة في التنمية؛ فالدين أكثرية والعامة أيضاً. وإن المخاطر الكبرى التي تواجه التنمية تستدعي مواجهة الأكثرية لها التي هي العامة، وليست الأقلية -السلطة والنخبة- وحسب. ولعل وجود المخاطر واستحكامها يُستدَل باستبعاد العامة والدين من هذه المواجهة. إن التوظيف الديني هنا هو محاولة جادة للمواجهة ودرأ المخاطر؛ حيث إن معظم هذه المخاطر تأتي من التجاوزات وتنوع الحرام وتداخل الحلال، علاوة على المنتجات غير البيئية وغير الصحية، إلى جانب غياب العدالة. وهذه مهمة الدين في التنمية؛ لأن هذه المخاطر تأتي من التنمية نفسها.

لثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٩م، ج ٢، ص ٢٦٨.

إن توظيف الدين في التنمية الذي يسبقه التعليم الديني والوعي الديني هو من قبيل تهيئة "أرضية سليمة للأشخاص لمعرفة قيم مجتمعاتهم، ورفع كفاءاتهم وقدراتهم للتمكن من كسب عيشهم على نحو حلال، واكتساب القدرة على المشاركة الكاملة في تطوير العلوم والتكنولوجيا وتحقيق المقاصد".<sup>(١)</sup>

**- في توظيف الدين إنمائيًا إخمادًا للفتنة:** يتضمن توظيف الدين في التنمية دعوة لإغلاق منافذ تبريرات العنف والفوضى والثورة التي تصيب الوطن والمواطن بحجة إقصاء الدين من الحياة المادية، في الوقت الذي "لا تخلو الرعية من ناسك أحق، يظن أنه يغضب للدين، فيحمله حمقه وجهله على الخروج من واجب الطاعة، فيكون أمره في الرعية أنفذ من أمر الملك في الجند".<sup>(٢)</sup> إنه بتوظيف الدين إنمائيًا يتحقق المواطن المنتمي الذي يشعر بأنه يسترد حقوقه؛ حيث إن توظيف الدين في التنمية حق مشروع يطالب به المواطن في ظل تغوّل التنمية المادية القائمة على التنافس والإلغاء والاستبعاد؛ ما يجعله محرومًا من أداء الواجب بله الحصول على الحقوق. فكلما تقدمت التنمية المادية خطوة إلى الأمام، تراجع المواطن عن انتمائه لوطنه خطوتين إلى الوراء؛ إذ في تراجعهم وبالأعلى الوطن، وخيبة للسلطة في الأمد البعيد، وهي ترى المواطن المنتمي يعاديه بالبحث عن سلطة أخرى بديلة وعظيمة، تعمق من جراح الوطن، وتضيّق على معيشة المواطن.

**- التعليم بوصفه صناعة روحية مبكرة للمواطن المنتمي:** يحصل توظيف الدين في التنمية بالعلاقة المتلازمة بين التعليم والدين؛ فلا تنمية من غير تعليم يتراحم مع الدين؛ حيث إن هذين الحقلين "يقدمان ذاتيهما كمرشدين من أجل تأسيس قيمنا وشارحين لأهمية حياتنا. يجب على البحث في حقلَي العلم والدين أن يوقظ الوعي بالعالم الذي نحيا فيه، كيف يعمل، وكيف ينسجم الإنسان مع مجتمع الحياة الأوسع، والدور الذي يؤديه الإنسان في رواية الكون الكبرى، والعاقبة التاريخية للتطورات التي شكّلت منظرنا المادي والثقافي. وإلى جانب الوعي بالماضي والحاضر ينبغي

- ١- الرؤية الإسلامية للتنمية في ضوء مقاصد الشريعة، محمد عمر شابرا، ترجمة أحمد مهدي، هرنند، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ٢٠١١م، ص ٦٥.
- ٢- كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، ويلي النهج المسلك في سياسة الملوك، ويلي نهاية الرتبة في طلب الحسبة، أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٤٥.

على التعلم والدين أن يقودا المستقبل".<sup>(١)</sup> إن التعليم المزدوج الديني والدينيوي للجميع (س، ع، ن) بلا استثناء، في الداخل والخارج، يصنع مواطنًا منتميًا في مرحلة مبكرة.

**- الحرية المسؤولة:** لا يمكن توظيف الدين في التنمية أو مشاركته لها إلا بوجود حرية مكفولة ومسؤولة ل (س، ع، ن) من قبل دولة المؤسسات. فإذا كانت النخبة توظف المعرفة، والسلطة توظف الشيء؛ فلم لا يوظف المواطن الدين؟ إن توظيف الدين في التنمية هو أن تكون لهذه المشاركة قابلية إنمائية من السلطة والنخبة؛ حتى تنصف المواطن ولا تحرمه من عوائد التنمية. يقول ستيجليتز الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد: "التنمية هي تحويل المجتمع، هي تحسين حياة الفقراء، هي إتاحة فرصة النجاح أمام كل فرد، وهي الحصول على الخدمات الصحية والتربوية. إن هذه التنمية لن تتحقق إذا كان بضعة أشخاص فقط يملون على البلد سياسته. ويجب أن تُتخذ القرارات بصورة ديمقراطية. وهذا يعني أن تُتخذ ليس فقط بتدخل نشيط من جانب فئة واسعة من الاقتصاديين والمسؤولين والخبراء في البلدان النامية، ولكن أيضًا بمشاركة أوسع بكثير، تتعدى الخبراء والسياسيين".<sup>(٢)</sup>

**- تنمية الوعي الإنمائي والديني:** لا يكون توظيف الدين في التنمية عملاً مشروعاً إلا عندما يمارس بأشكال مؤسسية؛ حيث إن المواطن الذي يوظف الدين في التنمية يُفترض أن يكون واعياً بمسؤولياته، وعلى السلطة أن تكون في مستوى هذه المسؤولية. إن توظيف الدين في التنمية هو مسؤولية (س، ع، ن) المركبة؛ إذ "يجب أن نكون واعين بالحاجة إلى تحقيق نمو متوازن ومتكامل. بمعنى أن عملية التخطيط والتنمية يجب أن تأخذ في اعتبارها الحاجة إلى السمو الروحي منذ البداية، وأن تتجنب تأجيلها حتى النهاية. لقد قمنا حتى الآن بتجاهل هذا المكون الهام من مكونات التطور، وخصوصاً خلال مرحلة التخطيط المبدئي. وحتى إذا ما قمنا بإدماجه فإننا نقوم بذلك بأثر رجعي أو كفكرة تطراً على الذهن بعد الانتهاء من العمل.. أي إننا نسينا إدماج الحاجة

---

١- الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، تحرير مايكل زيرمان، ترجمة معين شفيق رومية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦م، ج١، ص٢٦٣.

٢- خيبات العولمة، جوزيف إ. ستيجليتز، ترجمة ميشال كرم، بيروت، دار الفارابي، ط١، ٢٠٠٣م، ص٣٤٤.

للسمو الروحي في الخطة المرسومة، فنقوم بإدماجها متأخرين استكمالاً للشكل فقط".<sup>(١)</sup>

**- احترام آراء المواطن الإنمائية:** توظيف الدين في التنمية يكون باحترام رأي المواطن ومشاركته في المشروعات الإنمائية المعترض عليها بيئياً ولغوياً وتربوياً وصحياً، والتي لا تنجس مع الإرث الحضاري للأمة، الذي هو الآخر إرث السلطة والنخبة؛ إرث يركب بشكل معقد يستجيب للتحدي، ولا يختزل بشكل سهل يتماهى مع التراخي. فالرسول ﷺ كان يشارو القوم ويطلب مشورتهم، وكان يث فيهم روح المسؤولية تجاه الآخر، والمراقبة للذات، والتغيير من الحسن إلى الأحسن.

**- المساواة الإنسانية بين السلطة والعامّة والنخبة:** إن المساواة في الترتاب من طريق التراكب تهيئ طريقاً ييسر لتوظيف الدين في التنمية، وذلك بأن تجعل السلطة والنخبة تنظر إلى الدين بوصفه حالة إنمائية مؤسسية مشروعة لا تتناقض مع الشيء والمعرفة. من "الناحية الاقتصادية، فما أحب أن أراه حقاً هو ضمان تأمين الحياة على نحو يسمح للناس بالسعي وراء أنواع من القيمة التي يعتبرون، بالفعل، أنها جديرة بأن يسعوا وراءها-على المستوى الفردي أو مع الآخرين".<sup>(٢)</sup>

**- المساواة الإنمائية بين الشيء والدين والمعرفة:** يحصل توظيف الدين في التنمية في ظل وجود التركيب بين (س، ع، ن)، باعتبار أن الأطراف الثلاثة متساوية، ليس في المراتب طبغاً؛ ولكن متساوية في الترتاب؛ إذ في التركيب ترتيب. وهذا فعل يحققه الدين الإنمائي وهو أن يساوي بين أشياء غير متساوية في الامتلاك: الشيء والدين والمعرفة، بحيث يجعلها متساوية في التوظيف والمشاركة، بغض النظر عن حجة الفعالية؛ وإلا متى كانت النخبة والسلطة وحدها فعالة في العالم العربي والإسلامي، لا سيما أن "كلمة معنى فعالية تنح إلى التضييق من معنى إنسانية الإنسان إلى حد ما".<sup>(٣)</sup>

## رابعاً: خاتمة: أين الحلُّ؟ وأنى لنا بمأسسة مشاكل الوطن وحمائته في ظل تنطع

١- الإسلام والأمة الإسلامية: خطب وكلمات مختارة، محضير محمد، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٣١٠.

٢- مشروع الديمقراطية: التاريخ، الأزمة، الحركة، غيرير، ص ٢٨٤-٢٨٥.

٣- تأملات، مالك بن نبي، دمشق، دار الفكر، ط ١٠، ٢٠١٢م، ص ٢٦-٢٧.

## المؤسسات وتصدعُ الأساسات؟

نحن العرب؛ بيننا وبين التنمية المركبة أمدٌ بعيدٌ لا يطوى بعده إلا بالاستقامة التي تجمع بين قيم العبودية وقيم الحرية؛ فتكبح الأولى جماح الثانية إن هي اشتطت أو نشطت في غير موضعها. فالتنمية دين كما يرى ابن خلدون، والتنمية إنسان كما يرى مالك بن نبي، والتنمية حرية كما يرى أمارتيا صن الحاصل على جائزة نوبل للاقتصاد؛ حيث إن القيم أن تقيم الشيء مستقيماً حتى يأتي مركباً ومستديماً.

بيننا وبين التنمية ليل مظلم لا ينيره إلا الوعي، ونهار مرهق لا يريحه إلا السعي؛ فأئني لنا أن تكون لنا تنمية مستديمة، وليس للوطن مواطن منتهم يجتهد، وأرض تستثمر، ووقت يتضاعف؛ لا سيما أن التنمية تأتي بالوقت الإضافي وليس الطبيعي وحسب، فهو وحده لا يكفي. إذاً التنمية المركبة تقيمها أمة تحترم إنسانها، وتتراحم مع عامتها، وتفيد من أرضها، وتتحكم في وقتها، وترصص بنياها؛ لا شيء من ذلك. كما أن التنمية المركبة ليست لعباً أو لهواً، بل هي عتق للإنسان، ورفق بالأوطان، ورتق لما انفتق في ديننا؛ فديننا ممزق وتميتنا مرقعة، أو كما قال القائل: نرقعُ ديانا بتمزيق ديننا؛ فلا ديننا يبقى ولا ما نرقعُ.

أين الخلل؟ أين الزلل؟ أين الحل؟ أين الكُلُّ؟ لا شك في أن الحلَّ يكمن في الكُلِّ؛ حيث إن الجزء ليس هو الحلُّ؛ في الوقت الذي نلفي فيه أن الكُلَّ جزءٌ من الحل. لقد ضاقت على المواطن الأرض بما رحبت. فالأرض بوصفها كُلاًّ تضيق بالجزء باعتبارها كلاًّ. فالثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت لأنهم تجزأوا داخل الكُلِّ؛ فأتوا الكُلَّ أجزاءً حيث كانت عاقبتهم الرفض من جماعة المؤمنين المركبة، واللفظ من الأرض على الرغم من وسعها.

الحلُّ يكمن في ذات المواطن المحترم وبيته. الحلُّ في نيته ومفتاحه؛ فلكل ذات نية يفترض أن يعيد إصلاحها، ولكل باب مفتاح يفترض صناعته. إذاً على المواطن (=س، ع، ن) أن يحمل مشاكله فوق كتفه، ويرتقي بها إلى عقله حيث الجانب المضيء فيها، هو الوعي بها، ثم يبحث عن حل لها عبر السعي إليها، والوقوف عليها من غير ملل أو كلل؛ بمعنى مأسسة المشاكل تمهيداً

للبحث في أسبابها والحفر في علاقتها؛ أي أن توفر السلطة لمشاكل الأمة مؤسسة استراتيجية وتخطيطية وبحثة تحيط بالتحديات وتحصرها، أملاً في حصارها للتغلب عليها، وتحويل السلبيات إلى إيجابيات. إن السلبيات ليست كلها قاتلة، بل هي جزء من اللعبة الإنمائية، ومن يحسن التعامل معها بذكاء عقل ونقاء قلب؛ فإنه يحوّلها من سلبيات قاتلة إلى إيجابيات فاعلة؛ حيث إن مسالك الوعي والمسؤولية والانتماء الإنساني المركّب، تدلّل السبيل إلى ترجمة السلبيات إلى إيجابيات، والقضاء ما أمكن على ما استعصى منها وعصى. إن السلطة مطالبة بتوظيف ذكائها المؤسسي في تحويل رذيلة المواطن إلى فضيلة. لقد "كان (مكيا فيلي) يسعى إلى خلق نظام سياسي جيد من رذالة الإنسان أو شره، فهذه الرذيلة أو الشر يمكن أن تخدم غايات طيبة إذا مرت من خلال مؤسسات مناسبة"<sup>(١)</sup>.

إن مفاتحننا في ذاتنا؛ ولكن مع ذلك نعتقد أن مفاتحننا ينبغي أن تكون من صنع أيدي المواطن المنتمي النزيه الأمين أيضاً، وإلا فلا تكون في أيدي السلطة والدولة. وإذا ضاعت أو انتقلت إلى أيدي الغير ضاع البيت واستبيح الوطن. يقول كونفوشيوس: "إذا لم يكن بمقدور المرء أن يشرف اسم والديه، فعليه أن لا يجلب لهما الخزي والعار، على الأقل."<sup>(٢)</sup> فالذي يتشدّد يمهد للغريب الطريق إلى اغتصاب الوطن؛ فيؤذي أسرته ويدمي وطنه، ومن ثم يجلب له التخلف والدمار؛ بينما المواطن المنتمي المركّب هو صناعة احترام وتراحم، وليس صناعة انتقام واصطدام؛ فلنجنّب المواطن الاصطدام بالبيئة حتى لا يفسدها، ومن الارتطام بالدين حتى يحافظ على سماحته، ومن الانتقام من الإنسان حتى يحافظ على إنسانيته نقيّة وتقيّة.

الوقت كله ضائع من الإنسان المستخلف إن لم يكن مصحوباً بقيادة الخلق نحو الخلق والابتكار والإبداع. كما أن الوقت ضائع من الإنسان المستخلف إن لم يكن مصحوباً بعبادة الخالق؛ وكلاهما جهدان عظيمان؛ الاقتراب من الخلق والابتكار، والتقرب إلى الله الخالق. التنمية المركّبة تخاطب المستقبل وتطلبه حثيثاً، ومن يخاطب المستقبل عليه أن يكون قد خطب ود الحاضر؛

١- نهاية التاريخ، فرانسيس فوكوياما، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

٢- الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، جمال المرزوقي، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط ١،

١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ٢٥١.

فأين حاضر المواطن حتى نتحدّث عن مستقبل الوطن؟ أليس بذل الجهد بوعي وسعي يدلّان الطريق نحو مستقبل آمن للوطن والمواطن؟

وفقاً لما قرّرنا؛ فقد استقرينا من البحث النتائج الآتية:

١- التنمية الشبيئية الجاهزة وغير العادلة ليست هي الحل لمشاكل الوطن والمواطن، وليس فيها ما يشجع المواطن تشجيعاً ذاتياً على حماية الوطن، لأنها تجعل المواطن شيئاً جاهزاً هو الآخر من غير إحساس ولا انتماء؛ إلا أن التنمية المركّبة مسؤولة عن صناعة المواطن المنتمي انتماءً يخلو من النفاق والخوف والاستكانة؛ حيث من هذه المخاوف قد تنبع عناصر الخوف الأخرى على شكل دفاع عن النفس كاستبداد السلطة، وتطرّف النخبة، وعنف العامة؛ وكل ذلك يصيب الوطن بشورره وشرارته.

٢- إن تنامي الحرمان والتشدّد في ظل التنمية الشبيئية المختزلة في السلطة والنخبة، يزيد المواطن المنتمي يقيناً بأهمية توظيف الدين في التنمية أكثر من أي وقت مضى؛ لأن التنمية التي تقصي الدين لا تولي للحلول الدينية أهمية، ولا تكون سبباً في الإقبال على حب الوطن وحمانيته؛ بينما التنمية المتراحة مع الدين تحل الكثير من مشاكل الحرمان والتشدّد، لأن الدين بوصفه منظومة كلية يتوجه نحو حفظ المواطن والوطن؛ حيث إن التشدّد مواطن والحرمان مواطن أيضاً. إن توظيف الدين في التنمية يصب في مصلحة المواطن والأرض، في عصر يتمرّد فيه المواطن اللامنتمي على دينه، ويُنتقص وطنه من أطرافه.

٣- إن في احترام السلطة والنخبة (=س، ن) للعامة (=ع) ضمناً بأن يؤتي الدين أكله في التنمية المركّبة؛ لأن في هذه الحالة تكون المعرفة في خدمة الدين، كما يكون الشيء أيضاً في خدمة الدين. ومن يخدم الدين (=د) فهو يخدم العامة (=ع)، لا سيما أن التركيب بين (س، ع، ن) يضمن عدم حصول العنف في الدين؛ لأن التفكيك صناعة مواطن لا يتراحم مع الدين ولا يحمي وطنه، والتركيب صناعة دين يتراحم مع المواطن. وإذ ندعو إلى توظيف الدين في التنمية؛ فلأننا نحرض على إبعاد الدين من العنف الذي يقوم به مواطن عاطل غير عاقل. إن التوظيف الإنمائي للدين في التنمية هو دعوة حضارية عربية وإسلامية. وإن الامتناع عن ذلك هو امتناع عن التحضر،

ومن ثم العيش الضنك في بداوة متشدّدة.

٤- قد يكون (حب الوطن من الإيمان) كما جاء في الأثر؛ إلا أن حب الأوطان أيضًا من الإحسان، وحب الوطن من التنمية كذلك؛ حيث إن التنمية إحسان للوطن وحب له وذود عنه. وإذ لا يحصل الإحسان للإنسان؛ فإنه لا يحصل الإحسان للأوطان. وكما هو معلوم فإن الوطن أرض يُعبّر عنها بالسيادة، والسلطة إنسان يُعبّر عنه بالقيادة؛ فالسيادة ثابتة، والقيادة متبدّلة؛ حيث إن التبديل يكون في خدمة الثابت. مثل هذه القيادة ينبغي أن تحسن للمواطن حتى تحافظ على السيادة التي تجاهر بحبها والتفاني في خدمتها. فإذا كانت القيادة (=السلطة) ضد العامة؛ فإن السيادة لن تستقر، والقيادة لن تستمر. وإذا استمرت السلطة على هذا المنوال الخاطيء، تكون قد أفسدت في الأرض والمؤسسات، وأساءت للمواطن والوطن. إن الإحسان شكل أعلى من أشكال العدالة التي هي من اختصاص القيادة للحفاظ على سيادة الوطن وسادته من سلطة ونخبة وعامة. يفترض أن تكون السلطة -بوصفها فردًا أو أفرادًا نافذين في المجتمع- وقيّة للقيم المجتمعية باعتبار أن "القيم في الواقع عادات اجتماعية وليدة اتفاق بين الفرد والمجتمع، فالمجتمع يرفده ببعض الفوائد كالأمن والإحساس بالانتماء، وربما الشعور بالتفوق، إذا اتفق لشخص ما، أصابه الحظ، وقُذف إلى منصب قيادي، ولكن المجتمع يطالب مقابل هذا أن يضع الفرد بعض القيم الاجتماعية قبل الفائدة الذاتية. وفي هذه التضحية يصبح لحياة الفرد معنى إذ تجعله يؤمن بالقيم الخارجية".<sup>(١)</sup>

٥- إن تتبّع أثر السُنّة النبويّة فيما يتعلق بتربية المواطن على حب وطنه والإخلاص له وتنميته وإعمارهِ وحمايته، نراه يحقق الكثير من الفوائد في مجتمعات تعاني من الانقسامات في الداخل، والتهديدات في الخارج؛ ففي السُنّة النبويّة علامات واضحات تُخبر بأهمية التلاحم لصناعة الملاحم التي تحمي الوطن، علاوة على التضامن والإخاء والإيثار في التحام أوطان ممزّقة، والاهتمام بمواطن محروم.

أما عن التوصيات؛ فنحملها في القول معقوله ومنقوله: ما بمنعنا أن نكون أمّة مركبة تتقدّم فتنصّر، وليس أمة مختزلة تتأخّر فتنتحّر؟ بينما لهذه الأمة دروس وعبر تستقيها من السُنّة النبويّة؛

١- ما بعد اللامنتمي، كولن ولسن، نقلها إلى العربية يوسف شرورو وعمر يمق، بيروت، منشورات دار الآداب، ط ٥، ١٩٨١م، ص ٢٧.



إذ فيها ما يحمي أوطانها وينجيها من ويلات المواطن اللامنتمي، وعلى رأسها طاعة الرسول ﷺ في كل صغيرة وكبيرة ما أمكن ذلك. إن في قول الرسول ﷺ عبرة لمن يعتبر؛ فلا ينتظر أحدنا للغد حتى يأتيه النصر من غير أن يبذل أدنى جهد؛ ففي كل غدٍ غدر لا ينفع معه ألف عذر. فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمِثْلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالْنَّجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذْجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَّوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاكَهُمْ، فَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمِثْلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ).<sup>(١)</sup>

١- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم ٧٢٨٣، ٩/٩٣.

## قائمة المصادر والمراجع

- اجتهاد الرسول ﷺ، نادية شريف العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- الأحكام السلطانية، أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء، تصحيح وتعليق محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- أديان العالم: دراسة روحية تحليلية معمّقة لأديان العالم الكبرى توضح فلسفة تعاليمها وجواهر حكمتها، هوستن سميث، ترجمة سعد رستم، حلب، دار الجسور الثقافية، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم، تحرير جون هيلز وآخرون، ترجمة وتقديم محمد الجوهري، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٧م.
- الإسلام والأمة الإسلامية: خطب وكلمات مختارة، محضير محمد، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط ١، ٢٠٠٢م.
- تأملات، مالك بن نبي، دمشق، دار الفكر، ط ١٠، ٢٠١٢م.
- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ويلييه مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، بدر الدين محمد ابن إبراهيم بن جماعة، تحقيق أحمد فريد المزيدي ومحمد حسن إسماعيل الشافعي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٣م.
- التنمية المستدامة: تأسيس مقاصدي، محمد الحسن برمجة إبراهيم، الخرطوم، مركز التنوير المعرفي، ط ١، ٢٠٠٤م.
- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، تحقيق محمود محمد حسن نصار، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية، تحرير بيتر جي كاتزنشتاين، ترجمة فاضل حتكر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٢م.
- حفظ الوطن والانتماء إليه بين الحريات والرفض العقدي: دراسة في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية، هيمن عزيز برايم، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الأربعون (٢)، كانون الأول ٢٠١٦م.

## كيف يُصنَعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

- حكمة الغرب: الفلسفة الحديثة والمعاصرة، بتراند رسل، ترجمة فؤاد زكريا، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٩م.
- خيبات العولمة، جوزيف إ. ستيجليتز، ترجمة ميشال كرم، بيروت، دار الفارابي، ط١، ٢٠٠٣م.
- الرؤية الإسلامية للتنمية في ضوء مقاصد الشريعة، محمد عمر شابرا، ترجمة أحمد مهدي، هزندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١١م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان السيجستاني، إعداد وتعليق عزت عبید الدعّاس وعادل السيد، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ١٨- صحیح الأدب المفرد للإمام البخاري، محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة الدليل، ط٤، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- صحیح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، حقق أصولها وأجازها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، طبعة محققة على عدة نسخ وعن نسخة فتح الباري، القاهرة، المكتبة التوفيقية، د.ط.، د.ت.
- صحیح مسلم بشرح الإمام يحيى بن شرف النووي، مسلم بن الحجاج، ضبط محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، د.ت.
- الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، جمال المرزوقي، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، تحرير مايكل زهرمان، ترجمة معين شفيق رومية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦م.
- كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، ويليه النهج المسلوك في سياسة الملوك، ويليه نهاية الرتبة في طلب الحسبة، أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد الزبيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٣م.

- لماذا يتمرد البشر؟، تيد روبرت غير، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، دبي، مركز الخليج للأبحاث، ط ١، م ٢٠٠٤.
  - ما بعد اللامنتمي، كولن ولسن، نقلها إلى العربية يوسف شرورو وعمر يمق، بيروت، منشورات دار الآداب، ط ٥، م ١٩٨١.
  - مشروع الديمقراطية: التاريخ، الأزمة، الحركة، ديفيد غريير، ترجمة أسامة الغزولي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، م ٢٠١٤.
  - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، م ١٩٩٩.
  - نحو شركات خضراء: مسؤولية مؤسسات الأعمال نحو الطبيعة، ليزا هـ. نيوتن، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، م ٢٠٠٦.
  - نهاية التاريخ، فرانسيس فوكوياما، ترجمة وتعليق حسين الشيخ، بيروت، دار العلوم العربية، ط ١، م ١٤١٣هـ/ م ١٩٩٢.
  - هل حب الوطن من الإيمان، أيمن السعداوي، شبكة الألوكة، م ٢٠١٧/٢/٧.
- Amartya Sen, On Ethics and Economics, Oxford: Basil Blackwell Ltd, 1990, p4 .32-

استشراف المستقبل لعمارة الأوطان، وحماتها  
كما تصوره السنة النبوية المباركة

الدكتور/ علي حافظ السيد سليمان  
أستاذ الحديث وعلومه المشارك بجامعة  
الأزهر، والمجموعة بالمملكة العربية السعودية





## مقدمة

نحمد الله تعالى؛ خصّنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بأفضل نبي أرسل، سبحانه!! باعث الهمم، وصانع القمم، وواهب النعم، ودافع النقم، وشاحذ العزائم.

ونصلي ونسلم على قدوة أولي الحزم الأصفياء، وإمام أهل العزم الأقوياء، وسيد المخلصين الأمناء، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأخيار، والتابعين الأبرار، وتابعيهم من أولي الضبط، والأبصار، صلاة دائمة ما تعاقب ليل ونهار.

وبعد

فحب الأوطان والولاء لها نعمة إلهية، ومنة ربانية غرسها المولى سبحانه في الجبلية الإنسانية حتى صار الإنسان يحنُّ إلى وطنه كما يحن العصفور إلى وكره، وجاءت الشريعة الغراء فأعلت من شأن الأوطان، وجعلت حبها والولاء لها والعمل على رفعتها من الإيمان، والنصوص في ذلك مستكثرة منشورة، ومتعددة مسطورة - كما سنعرف طرفاً منها لاحقاً إن شاء الله تعالى - مما يوجب على أبناء الوطن السعي لتحقيق المواطنة الصالحة والتي من متطلباتها: استشراف المستقبل واستبصاره لأجل بناء الوطن وعمارته، وكذا حمايته وصيانتة.

**مشكلة البحث:** يعالج البحث الحاجة الملحة إلى إعمال الدراسات الاستشرافية من أجل النهوض بأوطاننا العربية والإسلامية في كثير من المجالات، وذلك من خلال تلمس نماذج من الهدي النبوي الكريم فيها.

**الدراسات السابقة:** طالعت في الشبكة العنكبوتية جملة من الكتابات، والأبحاث في الدراسات الاستشرافية لعل من أبرزها:

- الدراسات المستقبلية: ماهيتها، وأهمية توطينها عربيًا. للدكتور: محمد إبراهيم منصور.
- نماذج من استشراف المستقبل في السيرة النبوية. للدكتور: حاتم فزع شنيتر.

- أهمية استشراف المستقبل وضوابطه، دراسة تأصيلية، للدكتور: محمد البشير.
  - اهتمام السنة بالاستشراف والتخطيط في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، للدكتور: كايد يوسف.
  - استراتيجيات النبي ﷺ في إدارة أزمة الحصار العسكري واستشراف المستقبل - غزوة الأحزاب - نموذجًا، للدكتور: محمد أحمد يعقوب.
- أما عن دور وتوظيف الدراسات الاستشرافية في عمارة الأوطان وحماتها، كما تصوره السنة النبوية المباركة، فلم أقف - فيما تسنى لي - على من خصه بالتصنيف وخدمه بالتأليف قبلي والله أعلم.

**أهداف البحث:** سأبذل وسعي - بعون الله تعالى- كي أصل إلى الأهداف الآتية:

- ١- بيان موقع الدراسات الاستشرافية من عمارة الأوطان وحماتها.
- ٢- إبراز التأصيل الشرعي للدراسات الاستشرافية من خلال النماذج الحديثية في كثير من مجالاتها.

**منهجي في البحث:**

- ١- اتباع المنهج الجامع بين الطريقة الاستقرائية، والاستنتاجية؛ القائم على استقراء، وجمع المعلومات، ثم استنتاج النتائج، واستخراج الفوائد، والفرائد منها.
  - ٢- توثيق النصوص من مصادرها الأصلية، مع ذكر درجة النص النبوي إذا لم يكن في صحيح البخاري ومسلم.
  - ٣- تعريف المصطلحات، وبيان معاني غريبها.
  - ٤- الالتزام بقواعد الإملاء، وأدوات الترقيم، وما هو متبع في كتابة الأبحاث العلمية.
- هذا! والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير.



## المبحث الأول: استشراف المستقبل: تعريفه، وأهميته

### المطلب الأول: تعريف " الاستشراف " ودلالاته

قبل التطواف حول تعريف " الاستشراف " ودلالاته يجمل بي أن أقول: إن استشراف المستقبل ليس نوع كهانة، ولا رجماً بالغيب إنما هو حلقة طبيعية في مسيرة الزمن: الماضي؛ الحاضر؛ المستقبل.

فإن كنتُ أقرأ الماضي للتعاطف والاعتبار كما قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾<sup>(١)</sup>، وأعيش الحاضر متأثراً به، ومؤثراً فيه، ومتفاعلاً مع أحداثه، ويوميته سلبيًا، وإيجابيًا. فإني كذلك أستطلع المستقبل، وأرقبه، وأستشرفه مخططاً له، ودارساً لمستجداته، كي أمضي مع الزمن، ولا أكون رهن ماضيه، وحبس حاضره، لعلي بذلك أسفرت عن المقصود وأبنت عن المطلوب من "استشراف المستقبل"، لكن تُرى!! هل المعاجم اللغوية في تناولها المادة الكلمة أعطتنا ما يُشير إلى أصالة المصطلح لدى العرب الأقباح؟ هذا ما أطوف حوله الآن والله المستعان.

- تعريف " الاستشراف " لغةً: الاستشراف في اللغة من مادة " شَرَفٌ " والشَرَفُ: العلوُّ، والمكان العالي. يقال: جبل مُشْرِفٌ عالٍ. ورجلٌ شَرِيفٌ. وأشرفت عليه، أي اطلعت عليه من فوق. ومشارفُ الأرض: أعاليها. اسْتَشْرَفَ الشَّيْءُ: رَفَعَ بَصْرَهُ إِلَيْهِ، وَبَسَطَ كَفَّهُ فَوْقَ حَاجِبِهِ، كَالْمُسْتَظَلِّ مِنَ الشَّمْسِ. ومنه قول ابن مُطَيْرٍ:

فَيَا عَجَبًا لِلنَّاسِ يَسْتَشْرِفُونَنِي.. كَأَنْ لَمْ يَرَوْا بَعْدِي مُحِبًّا وَلَا قَبْلِي<sup>(٢)</sup>

قال الكفوي: استشرف واستطلع رأي فلان: نظر ما عنده وما الذي يبرز إليه من أمره<sup>(٣)</sup>.

فتحصل أن " الاستشراف " لغة هو: النظر ورفع البصر من علو لمعرفة ما هو آت.

١- يوسف، آية (١١١)

٢- الجوهري إسماعيل بن حماد، الصحاح (٤/١٣٧٩-١٣٨٠) مادة " شرف " ط. دار العلم للملايين. وانظر: مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (٢٣/٥٠٥) مادة " شرف " ط. دار الهداية.

٣- الكفوي أبو البقاء، الكليات (ص ١٤١) ط. الرسالة.

- تعريف " الاستشراف " اصطلاحاً: من خلال المضمون اللغوي للكلمة يمكننا أن ننسج تعريفاً اصطلاحياً لها - سيما ولم أقف لها على تعريف اصطلاحى فيما تسنى لي اللهم إلا ما ذكره مَنْ كتب في الدراسات الاستشرافية - فإن كان الاستشراف يحمل في مضمونه اللغوي كما تقدم معاني النظر إلى شيء قادم من بعيد، والتطلع إليه، ومحاولة التعرف عليه، واتخاذ أسباب التوصل إلى ذلك بدقة كالصعود إلى مكان مرتفع يتيح فرصة استطلاع قبل وصوله. فهو اصطلاحاً- كما نقصده من هذه الدراسة- لا يبارح مضمونه اللغوي إذ هو: استطلاع مبكر للمستقبل في ضوء أحداث الماضي، ومعطيات الحاضر، واستكشاف وتوقع لما هو آت على إثر مقدمات الواقع وسنن الله الكونية فيه.

- دلالاته: يدل مصطلح " الاستشراف " على كثير من المعاني، ويرادف كثيراً من المصطلحات، كالأستطلاع، والأستكشاف، والتوقع، والتحري، والتنبؤ، والترقب، والتبصر، والحدس، والتطلع، والتحسب.. وغيرها من المصطلحات التي يجمع بينها جميعاً خيط رابط واحد، هو مجال موضوعها: المستقبل.

إن استشراف المستقبل الذي نعنيه في هذه الأطروحة هو نوع استعداد لما هو آت، أو هو فقه التوقع وحسن الاستعداد للنازلة قبل وقوعها، أو الاستعداد لآثارها بعد وقوعها، وهو بهذا ليس من الكهانة الممنوعة، أو السؤال عن الغيب.

ومن هذا المنطلق جاء سؤال الصحابة للنبي ﷺ استشرافاً لما هو آت؛ فعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَأَقْوَى الْعُدُوِّ غَدًا، وَلَيْسَتْ مَعَنَا مُدَى، فَقَالَ: " اِعْجَلْ، أَوْ أَرِنْ، مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ، لَيْسَ السِّنُّ وَالظُّفْرُ، وَسَأُحَدِّثُكَ: أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمُدَى الْحَبَشَةِ " (١).

وأخيراً أقول: إن استبصار القادم، وتوقعه، واستكشاف الآتي وتنبؤه، واستشراف المستقبل

١- متفق عليه: رواه البخاري في كتاب الدَّبَائِحِ وَالصَّيْدِ - بَابُ مَا نَدَّ مِنَ الْبَهَائِمِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْوَحْشِ (٩٣/٧) (٥٥٠٩) واللفظ له. ورواه مسلم في الأضاحي - بَابُ جَوَازِ الدَّبْحِ بِكُلِّ مَا أَنْهَرَ الدَّمَ. (١٥٥٨/٣) (١٩٦٨) بنحوه.

وتحسسه ضرورة حياتية، وجبلة نفسية، وكما قال ابن خلدون: "اعلم أنّ من خواصّ النفوس البشريّة التّشوّق إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشرّ سيّما الحوادث العامّة كمعرفة ما بقي من الدّنيا؛ ومعرفة مدد الدّول أو تفاوتها والتّطلع إلى هذا طبيعة مجبولون عليها"<sup>(١)</sup>. هذا، وأعني بقولي: " كما تصوره السنة النبوية" أي مطوف حول الأحاديث الشريفة، مستلهماً منها الهدي المحمدي الكريم الذي يرسم لنا بجلاء صورة استشراف المستقبل واستبصاره من أجل عمارة الأوطان، وحماية مقدراتها، ومكتسباتها بما يحقق مقصد الإسلام من عمارة الأكوان، وعبادة الرحمن، وتهذيب الوجدان.

إنّ من المقرر لذوي الأفهام أن خير من أقام الدين وطبق شرعه المتين هو نبينا محمد ﷺ لذلك يتحتم علينا تلمس هديه وتتبع أثره ﷺ سيّما فيما يتعلق بقضية هي من أهم القضايا ألا وهي: قضية الوطن، واستشراف المستقبل لعمارته وحمايته، وهو ما أدندن حوله في الصفحات القادمة بعون الله وفضله..

## المطلب الثاني:

### أهمية الاستشراف في عمارة الأوطان، وحماية البلدان في ضوء السنة النبوية

لا يخفى ما للأوطان من قيمة عالية، ومنزلة سامية لدى الإنسان، ولم لا؟ والوطن محضن الإنسان، ومنبته، ومستقره، ومنشأه، ولد على ثراه، وترعرع في حماه؛ افترش مهاده، والتحف سماءه. لذلك لم يجد فرعون ذريعةً في تأليب وتهييج قومه على موسى عليه السلام أكبر من قضية الوطن والمواطنة لما لها من مكانة في النفوس، فاستخدمها أداة في الحض على عداوة موسى عليه السلام ومحاربتة زاعماً أنه يريد أن يخرجهم من وطنهم، قال الله تعالى حاكياً عنه: ﴿ قَالَ لِمَلَأَ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥ ﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٣٦ يَا تُولَكُ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ۝٣٧ ﴿١﴾ وتفاعل الملأ مع زعمه لما للأوطان من عميق المحبة في القلوب!

١- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (١/٤١١) ط. دار الفكر.

٢- سورة الشعراء، آية (٣٤ - ٣٧).

وفي مشهد قرآني آخر يبرز مكانة الأوطان وقيمتها يطلب الملاء من بني إسرائيل من نبي لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، وبرروا ذلك بقولهم كما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ (٢٤٦)، فجعلوا سبب طلبهم للقتال: قضية وطنهم الذي أخرجوا منه.

وهذا أيضاً ما قرره شريعة الإسلام الغراء حيث جعلت من أسباب الجهاد والباعث عليه: الذود عن الأوطان والدفاع عن البلدان، كما جاء في القرآن: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ (٤٠). (٢).

روى الترمذي في سننه بسنده عن ابن عباس، قال: لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ! لِيَهْلِكُنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فقال أبو بكر ﷺ: لقد علمت أنه سيكون قتال (٣).

ولا أدل على مكانة الوطن ومنزلته لدى أبنائه مما جاء في السيرة النبوية؛ فعن عبد الله بن عدي بن حمراء قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَقِفًا عَلَى الْحَزْوَرَةِ (٤)، فَقَالَ: "وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرٌ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ" (٥). وفي هذا الموقف يفيض ﷺ

١- سورة البقرة، آية (٢٤٦).

٢- سورة الحج، آية (٣٩-٤٠).

٣- أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الحج (١٦٩/٥) (٣١٧١) واللفظ له، وقال: حديث حسن، والنسائي - كتاب الجهاد - باب وجوب الجهاد (٦٠٨/١) (٣٠٨٧) بلفظ مقارب، وأحمد في المسند (٣٥٨/٣) (١٨٦٥) بلفظ مقارب، والحاكم في المستدرک کتاب الجهاد (٧٦/٢) (٢٣٧٦) بلفظ مقارب، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي. الحكم على الإسناد: إسناد الترمذي ضعيف لضعف سفيان بن وكيع لكن تابعه: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ سَلَامٍ كَمَا عِنْدَ النَّسَائِيِّ، وَهُوَ لَا بَأْسَ بِهِ، قَالَ النَّسَائِيُّ: لَا بَأْسَ بِهِ. وقال في موضع آخر: ثقة. تهذيب الكمال: (٣٩٠/١٧)، وقال عنه ابن حجر: لا بأس به. تقريب التهذيب: (١ / ٥٩٨)، فارتقى بذلك الحديث وصار حسناً لغيره، والله أعلم.

٤- الحزورة: هو موضع بمكة عند باب الحناطين، وهو بوزن قسورة. النهاية في غريب الحديث (٣٨٠/١).

٥- أخرجه الترمذي في أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ - باب في فضل مكة (٢٠٧/٦) (٤٣١٢) واللفظ

حناناً، وحباً، وإجلالاً للبلد الأمين، والموطن المكين: مكة المكرمة، ليعطينا درساً في حب البلدان وقيمة الأوطان!

وبعد هذا التطواف الموجز حول بعض النصوص التي تُبرز قيمة الوطن وأهمية المواطنة الصالحة، لعله يشحن الهمم، ويقوي العزائم في ضرورة إعمال الاستشراف لحماية للأوطان وتعميراً للبلدان، أجدني أقول: إن إعمال الاستشراف المستقبلي لحماية الأوطان وتعمير البلدان ضرورة شرعية لا تُحتمل، وحاجة واقعية لا تُغفل، ولم لا؟! والنبي الأكرم ﷺ يوجهنا إلى هذا الهدى المبارك، فيقول ﷺ: "إِنَّ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فِئِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا"<sup>(١)</sup>. وَالْفِئِيلَةُ: الصَّغِيرَةُ مِنَ النَّخْلِ<sup>(٢)</sup>.

فتأمل - يا رعاك الله - هذا الأمر النبوي الكريم بوجوب العمل للمستقبل تعميراً وتنميةً واستثماراً، بغض النظر عن إدراك نتيجه، أو قطف ثمرته، إذ المسلم مطالب ببذل الجهد، وحسن السعي، وتواصل العمل، ولو في مظنة عدم الانتفاع بما يعمل. تُرى! أي دين أعظم من هذا الدين، وأرقى من شرعه الحكيم في الدعوة إلى الفقه الحضاري؟!

إن المسلم إذا طرق أمرًا يجهله وطلب حاجة لا يعرف مستقبلها، علمته السنة النبوية دعاء الاستخارة لها جلباً للخير الذي يحمله مراد الله له، وهذا في شأن قاصر على الفرد، فمن باب أولى ما يتعلق بالأوطان، وذلك لكبير أثره، وتعدد نفعه.

---

له، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، غَرِيبٌ. ورواه ابن ماجه في أبواب المناسك - باب فضل مكة (٢٨٩/٤) (٣٢١٠) بنحوه. ورواه أحمد في المسند (٤٢٦٣/٨) (١٨٩٥٢) بنحوه. ورواه الحاكم في المستدرک (٨/٣) (٤٢٧٠) بنحوه، وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي. الحكم على الإسناد: إسناد الحديث صحيح.

١- أخرجه أحمد في المسند من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (٢٥١/٢٠) (١٢٩٠٢) واللفظ له. وأخرجه البزار في مسنده (١٧/١٤) (٧٤٠٨) بنحوه. وابن الأعرابي في معجمه (١١٦/١) (١٨١) بنحوه.

الحكم على الإسناد: إسناده صحيح. فهشام بن زيد وإن قال فيه أبو حاتم: صالح الحديث. كما في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: (٩ / ٥٨) لكن وثقه ابن معين، وقال عنه ابن حجر: ثقة. تقريب التهذيب: (١ / ١٠٢١).

٢- ابن منظور، لسان العرب (٥١٩/١١) مادة "فسل".

إن استشراف المستقبل المؤيد بالكتاب والسنة النبوية حتمٌ لازمٌ على الأمة المسلمة الآن كي تحافظ على نفسها وتمضي إلى نهضتها وريادتها، فالأمم حولها ومنذ عقود مضت أنشأت مراكز لدراسات المستقبل تستشرف بها مستقبلها على جميع الأصعدة.

تعدد مجالات استشراف المستقبل وتنوع صورها التي من خلالها تُصان الأوطان، وتقوى شوكتها، نحو المجال الاجتماعي، والمجال الفكري، والمجال الاقتصادي، والمجال العسكري، والمجال السياسي.

ولعل الصفحات القادمة تتناول هذه المجالات بشيء من التفصيل والبيان، كما تعالجها السنة النبوية السنية.

### المبحث الثاني:

الاستشراف في المجال الفكري والاجتماعي، وأثره في عمارة الأوطان وحمائتها

المطلب الأول: الاستشراف في المجال الفكري، وأثره في عمارة الأوطان وحمائتها

ولما كان المجال الفكري من الأهمية بمكان في صيانة الأوطان ونهضتها إذ من المقرر أن الوعي قبل السعي، والعلم قبل العمل أضحى الاستشراف فيه ضرورة ملحة لمن ينشد لوطنه مجداً، ولأتمته محتدًا.

وأعني بالاستشراف في المجال الفكري: وضع الأطروحات العلمية، والأبحاث المتخصصة التي من شأنها النهوض بالفكر، ورفع مستوى الوعي لدى أفراد من أجل المحافظة على الوطن، والصعود به على الأصعدة كافة، أو تحسس أزماته ومشكلاته، وتقديم الحلول المناسبة لها قبل وقوعها.

ولله در الإمام أبي حنيفة رحمه الله فقد استشراف المستقبل في المجال الفقهي، وتوقع الكثير من القضايا، والنوازل التي لم تقع في عصره، وأعد لها الأجوبة والحلول الفقهية فقدم بذلك خدمة جليلة لدينه وشريعته، ووطنه وأتمته وعندما عورض في ذلك اعتذر قائلاً: نَسْتَعِدُّ لِلْبَلَاءِ قَبْلَ نُزُولِهِ.

جاء في غمز عيون البصائر لشهاب الدين الحموي: "حَكِيٌّ أَنْ قَتَادَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - صَاحِبَ التَّفْسِيرِ قَدِمَ الْكُوفَةَ وَجَلَسَ لِلنَّاسِ وَقَالَ: سَلُونِي عَنِ الْفِقْهِ فَقَامَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ

اللَّهِ تَعَالَى - وَقَالَ مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ غَابَ عَنِّ امْرَأَتِهِ فَنَعِيَّ إِلَيْهَا زَوْجَهَا وَتَزَوَّجَتْ بِزَوْجٍ آخَرَ وَوَلَدَتْ لَهُ أَوْلَادًا ثُمَّ جَاءَ الزَّوْجُ الْأَوَّلُ فَقَالَ لَهَا: يَا زَانِيَةٌ تَزَوَّجْتِ وَأَنَا زَوْجُكَ وَقَالَ الْآخَرُ: يَا زَانِيَةٌ تَزَوَّجْتِ وَلَكَ زَوْجٌ. هَلْ يَجِبُ الْحُدُ؟ وَلِمَنْ تَكُونُ الْأَوْلَادُ؟ فَبَقِيَ مُتَّفَكِّرًا ثُمَّ قَالَ: هَلْ وَقَعَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ؟ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: لَا وَلَكِنْ نَسْتَعِدُّ لِلْبَلَاءِ قَبْلَ نُزُولِهِ فَقَالَ قَتَادَةُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: لَا أَجْلِسُ فِي الْكُوفَةِ مَا دَامَ هَذَا الْعُلَامُ فِيهَا فَمَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا يَسْأَلُنِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ - أَنْتَهَى" (١).

ومن أهم صور الاستشراف في المجال الفكري لحماية الأوطان: تعليم الناس المنهج الوسطي المعتدل لهذه الشريعة، ثم مراقبة فهم الناس لها مخافة الغلو فيها، أو عنها حتى لا تضل سفينة الوطن بين أمواج التحلل، وأمواج التشدد، ولا شك أن شريعتنا الإسلامية الغراء وسط بين الغالي فيها، والنجافي عنها.

إن من أكبر ما منيت به أوطاننا، وزلزلت به بلداننا - سيما في هذه الأزمنة المتأخرة - اضطراب الفهم، واعوجاج الفكر، وهل جماعات التشدد والتطرف إلا نتاج ذلك وثمرته !!؟

لقد راقب النبي ﷺ المسيرة الفكرية التي أرسى دعائمها في المجتمع الإسلامي، و صوب محاولات الجنوح بها عن جادتها واعتدالها مستشرفاً بذلك أخطار الحيف بها المدمرة للأوطان؛ فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَن عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غَفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي. (٢)

وفي هذه الواقعة أراد الرهط الثلاثة ﷺ مزيداً من التحنث، والتعبد، وهم البشر المقصرون، لكن النبي الأكرم ﷺ ردهم إلى الفهم الأجمع، والطريق الأقوم، وحذرهم، وحذر الأمة من بعدهم

١- شهاب الدين الحموي، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، (٣٠٧/٤) ط. دار الكتب العلمية.  
٢- متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب النكاح - باب الترغيب في النكاح (٢/٧) (٥٠٦٣) واللفظ له. وأخرجه مسلم في النكاح (١٢٩/٤) (١٤٠١) بلفظ مقارب.

بقوله: " فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي " .

ولما تناول الخارجي الأول ذو الخويصرة التميمي على الجنب النبوي والمقام الحمدي بقوله:  
 اعدل، استشرفه ﷺ واستشرف جماعته مبيناً صفاتهم المعوجة، ومحدراً من طريقتهم المنحرفة؛ فعن  
 أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا آتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ  
 وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ. فَقَالَ وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ حَبِثَ  
 وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْتِدَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ: دَعَهُ فَإِنَّ  
 لَهُ أَصْحَابًا يَحْفَرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ  
 يَمْزُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْزُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ (١) فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى  
 رِصَافِهِ (٢) فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضْبِهِ وَهُوَ قَدْ حُفَّ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُدْذِهِ  
 (٣) فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالِدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدٌ إِحْدَى عَضْدِيهِ مِثْلُ تَدْيِ الْمَرْأَةِ  
 أَوْ مِثْلِ الْبُضْعَةِ تَدْرُدُرُ (٤)، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ  
 هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ  
 فَالْتَمَسَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي نَعْتُهُ (٥).

لقد جلى رسول الله ﷺ بواطنهم، وكشف دواخلهم، وأظهر طرفاً من صفاتهم، وأبان عن  
 بعض أحوالهم. وجرى كله، ووقع جلّه كفلق الصبح، فصلاة وسلاماً على المؤيد بالمعجزات،  
 والحجج البينات ﷺ.

١- النصل: كُلُّ حَدِيدَةٍ مِنْ حَدَائِدِ السَّهَامِ. والنَّصْلُ السَّهْمُ الْعَرِيضُ الطَّوِيلُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب  
 (٦٦٢/١١) مادة " نصل " .

٢- الرصف: الشد والضم. ورفف السهم إذا شده بالرفاف، وهو عقب يلوى على مدخل النصل فيه. ابن  
 الأثير، النهاية في غريب الحديث (٢٢٧/٢).

٣- القُدْذُ: ريشُ السَّهْمِ، وَجَمْعُهَا قُدْدٌ وَقِدَادٌ. ابن منظور، لسان العرب (٥٠٣/٣) مادة " قذذ " .

٤- تَدْرُدُرُ: أَي تَمَزَّمُرُ وَتَرَجْرَجُ تَجِيءُ وَتَذْهَبُ، وَالْأَصْلُ تَتَدْرُدُرُ فَحَذَفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ تَخْفِيفًا. ابن منظور،  
 لسان العرب (٢٨٣/٤) مادة " درر " .

٥- متفق عليه: رواه البخاري في كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام (٢٠٠/٤) (٣٦١٠)  
 واللفظ له. ورواه مسلم في كتاب الزكاة - باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١١٢/٣) (١٠٦٤) بنحوه.



هذا والأمة الآن تصطلي بنار هؤلاء الخوارج المارقين، فدمروا أوطاناً، وخرّبوا عمراناً، وأزهقوا أرواحاً، كل هذا باسم الدين، والدين منهم براء..

### المطلب الثاني: الاستشراف في المجال الاجتماعي، وأثره في عمارة الأوطان وحمائيتها

من أهم أوجه الاستشراف لحماية الوطن: الاستشراف في المجال الاجتماعي، ومن صورته: استكشاف ما يهدد النسيج الاجتماعي للوطن، وما يعرض لحمته ووحدته للخطر. مثل: النزعات الطائفية، والنزاعات القبلية، والدعوات المذهبية، والتحزبات العصبية.

إن هذه الأخطار الاجتماعية هي القاصمة المضیعة للأوطان، ومن ثم حرص المتربصون من أعداء الأمة على إثارتها وإشاعتها وقولهم: "فرق تَسُد" منهج سلوكه في الماضي والحاضر لتعزيز هيمنتهم على الأوطان المسلمة وسلب مقدراتها.

لذلك جاءت الشريعة منذ شروق شمسها بالدعوة إلى الوحدة ونبذ الفرقة في وحيها المتلو والمروي، والنصوص في ذلك مستكثرة.

ولما شرع النبي الأكرم ﷺ في تأسيس دولة الإسلام وموطن الإيمان في دار هجرته كان مما بدأ به توطيد الأخوة، وترسيخ التآلف، وشمع الشمّل بين أطراف المجتمع الجديد، فكان بناء المسجد المبتدأ، ثم التآخي بين المهاجرين والأنصار، ثم دستور المدينة والمعاهدة مع اليهود، وذلك كله لبناء دولة قوية من أكبر دعائمها: تقوية الجبهة الداخلية، واللحمة الوطنية.

لقد واجه النبي ﷺ بحسم بالغ ما عساه يصدع البنيان الاجتماعي للوطن، ويشقق صرحه، ويوهن نسيجه بل وجاءت مواجهته ﷺ - كما في المثال الآتي - مستشرفة للمستقبل؛ فعن جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنه)، قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ<sup>(١)</sup> رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: "دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ" فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ، فَقَالَ: فَعَلَوْهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ

١- "كَسَعَ" أي ضرب دبره بيده. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٤/١٧٣).

لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "دَعُهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ" وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدُ.<sup>(١)</sup>

فتأمل \_ رعاك الله \_ كيف تعامل ﷺ مع هذه النزعة الشيطانية العصبية؟ أولاً: عدّها من أعمال الجاهلية، فَقَالَ: "مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ". ثانياً: أمر بتركها فوراً حيث قال: "دَعُوهَا". ثالثاً: وصفها وصفاً مقززاً مستكرهاً فقال: "فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ" أي: قَبِيحَةٌ كَرِيهَةٌ مُؤْذِيَةٌ. رابعاً: ولما طلب عمر ﷺ الإذن بقتل رأس النفاق عبد الله بن أبي قَالٍ له النَّبِيُّ ﷺ: "دَعُهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ".

ويُعد هذا منه ﷺ استشرافاً للمستقبل من أجل حماية النسيج الاجتماعي للدولة الإسلامية الناشئة، حيث علل ﷺ ترك قتله بقوله: "لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"، وفي هذا التعليل منه ﷺ ما يفيد:

- تعزيز مقصد الشريعة في جمع الشمل، وتوحد الصف، وتماسك البنيان الاجتماعي لأبناء الوطن الواحد لما له من الأثر البالغ في العمل على عمارة الأوطان وحمايتها.
- أن المعول عليه في التعامل والتعايش هو الظاهر، أما أمر السرائر فموكول إلى الله تعالى.
- ضرورة استشراف المستقبل واستبصاره فيما يخص المجال الاجتماعي للأوطان من أجل حمايتها مما يهدد نسيجها، ويوهن صفها.
- إن وطناً تفرق أتباعه، وتناحر أصحابه، وتقاتلوا فيما بينهم أتى له أن ينهض فضلاً عن أن يبقى!!؟

١- متفق عليه: رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن - سورة المنافقين - باب قوله ﷺ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﷻ (١٥٤/٦) (٤٩٠٥) واللفظ له. وباب قوله "يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا". حديث "٤٩٠٧" ورواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً (١٩/٨) (٢٥٨٤) بنحوه.

### المبحث الثالث:

## الاستشراف في المجال العسكري، وأثره في عمارة الأوطان وحمائتها

حماية الوطن والذود عن حياضه يستلزم إعداد القوة، وقوة الإعداد امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾ (٦٠) (١)، ولا يقف الأمر عند الإعداد إنما لا بد من استكشاف قدرات العدو، واستشراف سُبل مواجهته، ووضع التدابير اللازمة لصدده ودحره، كما فعل النبي ﷺ في غزوة أحد؛ فعن البراء رضي الله عنه، قال: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاءِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ، وَقَالَ: "لَا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا" فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: عَهْدٌ إِلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لَا تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، فَأَصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا.. (الحديث) (٢).

لقد أسند النبي القائد ﷺ مهمة عسكرية محددة إلى مجموعة محددة مستشرفاً في تعليماته لهم ما قد تؤول إليه الأحداث، فلما خالفوا أمره - إلا قليلاً منهم - وقع ما استشرفه، وتحقق ما توقعه ﷺ، وفي هذه الغزوة وما وقع فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة، منها:

- تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول أن لا يبرحوا منه.
- ومنها أن عادة الرسل أن تبلى وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب. (٣)

ومن استشرفه ﷺ للمستقبل قوله حِينَ أَجَلَى اللَّهُ ﷻ الْأَحْزَابَ عَنْهُ: "الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ" (٤)، أي: لا ننتظر حتى يأتوننا في موطننا، بل نخرج لهم. قال البدر العيني

١- الأنفال، آية (٦٠).

٢- أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب غزوة أحد (٩٤/٥) (٤٠٤٣).

٣- انظر: ابن حجر، فتح الباري (٣٤٧/٧).

٤- أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (١١٠/٥) (٥١١٠) من حديث سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَيْدٍ.

رحمه الله: "وكان يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله عليه مكة"<sup>(١)</sup>.

ومن الاستشراف النبوي في المجال العسكري تعيين القائد البديل كما جرى في غزوة مؤتة؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعَفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعَفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ"<sup>(٢)</sup>.

وقد وقع ما استشرفه، وأخبر به ﷺ؛ فعن أنس رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا، وَجَعَفَرًا، وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبْرُهُمْ، فَقَالَ: "أَخَذَ الرَّأْيَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعَفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ" وَعَيْنَاهُ تَدْرِفَانِ: "حَتَّى أَخَذَ الرَّأْيَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ"<sup>(٣)</sup>، ونستفيد من هذا التوجيه النبوي في تلك الغزوة ما يلي:

- استشراف عواقب الأمور، وما تقول إليه الأحداث.

- توقع الأحداث الصعبة، ووضع الخطط لمواجهتها.

ومن استشرافه ﷺ للمستقبل تجهيز سرية كبيرة لترهيب أعداء الإسلام، وبيان قوة الدولة الإسلامية، وتأمين حدودها، وتأمير أسامة بن زيد رضي الله عنه عليها، وذلك في مرضه الذي توفي فيه ﷺ؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَطَعَنَ النَّاسُ فِي إِمَارَتِهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "إِنْ تَطَعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطَعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنْ كَانَ خَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ"<sup>(٤)</sup>.

ويبدو لي من صنيعه ﷺ ذلك ما يأتي:

- استشراف رسول الله ﷺ للمستقبل في هذه السرية التي جهزها آخر حياته حيث أُرهب

١- بدر الدين العيني، عمدة القاري (١٨٦/١٧).

٢- أخرجه البخاري في كتاب المَغَازِي - بَابُ غَزْوَةِ مُؤْتَةَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ (١٤٣/٥) (٤٢٦١).

٣- أخرجه البخاري في كتاب المَغَازِي - بَابُ غَزْوَةِ مُؤْتَةَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ (١٤٣/٥) (٤٢٦٢).

٤- أخرجه البخاري في كتاب المَغَازِي - بَابُ بَعَثِ النَّبِيِّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِيَ فِيهِ (١٦/٦)

(٤٤٦٩).

بها أعداء الله، وأثبت لهم قوة الدولة المسلمة، وقدرتها على كبح جماح عدوها، والدفاع عن نفسها.

- توظيف الشباب ذوي الطاقات والقدرات في مراكز القيادة والريادة، لما لهم من القدرة على العطاء والبذل أكثر من غيرهم في سبيل عمارة الأوطان وحمايتها من الأخطار.
- عدّ الكفاءة معياراً مقدماً على غيره من المعايير في اختيار القادة وتكليفهم بما يفيد في نهضة الأوطان ورفعتها، وصونها وحمايتها.

ما أحوجنا وأحوج ولاة أمرنا إلى هذا الهدي النبوي الكريم الذي يحمل إلى استشراف المستقبل العسكري لأوطاننا من خلال صناعة القادة الأكفاء من الشباب، ومن خلال ديمومة الجاهزية الدفاعية العسكرية.

### المبحث الرابع:

#### الاستشراف في المجال الاقتصادي، وأثره في عمارة الأوطان وحمايتها

لا يخفى ما للاقتصاد من أهمية وأثر في حركة حياة الناس إذ هو عصب الحياة، ومحور قوتها، وتطورها. ومن ثم عُني الإسلام به ووضع له من التشريعات، والتدابير، والضوابط ما يجعله دافعاً للتعاون، والتكافل، ومحركاً للإنتاج، ومنبعاً للثروة، ومصدراً للقوة.

ولأجل ذلك فإن استشراف مستقبل الأمة الاقتصادي وتوظيف ما لديها من موارد، وما يستجد من حاجيات ضرورة لا تُغفل، وحاجة لا تُهمَل، ولنا في هديه ﷺ القدوة، فقد استشرَف ﷺ في هذا الجانب كما في الأمثلة الآتية:

- عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعِ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلَّغْنِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِيئُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِي مَالِي؟ قَالَ: لَا. قَالَ: قُلْتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: لَا، الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللَّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ. قَالَ:

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُخْلَفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أزدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ تُخْلَفُ حَتَّى يُنْفَعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ، اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، لَكِنَّ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ حَوْلَةَ. قَالَ: رَأَيْتَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَنْ تُؤَيِّيَ بِمَكَّةَ<sup>(١)</sup>. وفي هذا الحديث الكريم:

- يستشرف رسول الله ﷺ حال الورثة، ومصالحتهم فينهاى عن الإضرار بهم معللاً بقوله: "إِنَّكَ أَنْ تَدَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللَّفْمَةُ تَجْعَلَهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ".

- يرشد الحديث الكريم إلى العمل على بقاء الجانب الاقتصادي قوياً لدى الأفراد؛ إذ إن قوة اقتصاد الوطن من قوة اقتصاد أبنائه وأفراده.

- إن الكفاية والاستغناء خير من الحاجة والسؤال وذلك في كل الأصعدة.

- لن تقوم للأوطان نخضة من واقع اقتصاد مهلهل ضعيف.

- إن الأوطان الضعيفة في مجالها الاقتصادي تُعَرِّضُ أَمْنَهَا القومي للخطر.

- ضرورة إعمال النظرة الاستشرافية المستقبلية فيما يخص الجانب الاقتصادي للأوطان من أجل عمارتها، ونخضتها.

ولعل من استشراف المستقبل امتهان المهنة، واحتراف الحرف طلباً للكسب، وهرباً من البطالة، ومذلة سؤال الناس، أو مشاركة في صنع اقتصاد قوي للوطن الذي نستوطنه.

وهذا ما دعا إليه النبي الأكرم ﷺ كما جاء من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِجُرْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيَكْفِيَ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ"<sup>(٢)</sup>. ويرشد هديه ﷺ فيه إلى ما يأتي:

١- متفق عليه: رواه البخاري في كتاب الوصايا - باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (٣/٤) (٢٧٤٢)، ورواه مسلم في كتاب الوصية - باب الوصية بالثلث (٧١/٥) (١٦٢٨) واللفظ له.

٢- رواه البخاري في كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة (١٢٣/٢) (١٤٣٣) واللفظ له. ورواه ابن ماجه في الزكاة - باب كراهية المسألة (٤٦/٣) (١٩٠٦) بلفظ مقارب.

- إن المواطن في وطنه إن لم يجد من الحرف إلا جمع الحطب من البراري، أو الفيافي، وبيعه، والتكسب بثمنه الزهيد، فإن ذلك خير له من إراقة ماء وجهه في سؤال الناس، أو أن يصير عالة على غيره، أو فارغاً في وطنه.
- إن كل عملٍ وكدٍ وسعيٍّ مشروعٍ لجلب الرزق وتحصيل القوت يُعد من المواطنة الصالحة، كما يُعد من الإسهام في بناء اقتصادٍ قوِيٍّ للأوطان به تحصل النهضة وتتم المنفعة.

ولقد استشرّف رسول الله ﷺ عن طريق الوحي مستقبل الأمة لمن شكّا إليه الفاقة، ولمن شكّا إليه قطع الطريق؛ فعن عديّ بن حاتم، قال: بيّنا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكّا إليه الفاقة<sup>(١)</sup>، ثم أتاه آخرٌ فشكّا إليه قطع السبيل، فقال: "يا عديّ، هل رأيت الحيرة<sup>(٢)</sup>؟" قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال "فإن طالت بك حياة، لترين الطعينة<sup>(٣)</sup> ترجل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله، - قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دُعار<sup>(٤)</sup> طيبي الذين قد سعروا البلاد<sup>(٥)</sup> -، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى"، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: "كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة، لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه.. الحديث"<sup>(٦)</sup>. ومن فوائد الحديث ما يأتي:

- ١- الفاقة: الحاجة والفقير. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٤٨٠/٣).
- ٢- الحيرة: بالكسر ثم السكون وراء، مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له التحف زعموا أن بحر فارس كان يتصل به. ياقوت الحموي، معجم البلدان (٣٢٨/٢).
- ٣- الطعينة: بالمعجمة، المرأة في اليهودج، وأصل الطعينة: الراحلة التي يرحل ويظعن عليها. انظر: ابن الأثير، النهاية (١٥٧/٣).
- ٤- دُعار: جمع داعر، بمهملتين، وهو الشاطر الخبيث المفسد، والدعارة: الفساد والشّر، والمراد قُطاع الطريق. انظر: ابن منظور، لسان العرب (٢٨٦/٤) مادة (دعر).
- ٥- سعروا البلاد: أي: أوقدوا نار الفتنة، أي ملؤوا الأرض شرًا وفسادًا. ابن حجر، فتح الباري (٧٠٨/٦).
- ٦- أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام (١٩٧/٤) (٣٥٩٥) واللفظ له. وأخرجه البيهقي في الكبرى، كتاب الحج، باب المرأة يلزمها الحج بوجود السبيل إليه وكانت مع ثقة من النساء في طريق مأهولة آمنة (٢٢٥/٥) رقم (١٠٢٤٤) بنحوه.

- يستشرف النبي ﷺ للشاكين - عن طريق الوحي - زماناً راغداً آمناً للأمة المسلمة يأتيها بعد فقر وفاقه، وفساد وخوف، ففيه تسافر المرأة آمنة مطمئنة لا تخاف أحداً إلا الله، وفيه يفيض المال ولا يقبله أحد.
- استدعاء الأمل، واستجلابه للناس عند الأزمات، والمدلهمات، كي تتواصل مسيرة العطاء والعمل من أجل بناء الأوطان ورفعتها.
- العمل على تغيير الواقع البائس لأوطاننا، فهذا الزمان الآمن الذي استشرفه رسول الله ﷺ للشاكين جزم البيهقي بأن ذلك في زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وذلك لما رواه من حديث عُمَرَ بْنِ أُسَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: " إِنَّمَا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ سَنَتَيْنِ وَنِصْفًا، ثَلَاثِينَ شَهْرًا، لَا وَاللَّهِ مَا مَاتَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَأْتِينَا بِالْمَالِ الْعَظِيمِ، فَيَقُولُونَ: اجْعَلُوا هَذَا حَيْثُ تَرَوْنَ فِي الْفُقَرَاءِ، فَمَا يَبْرُحُ حَتَّى يَرْجِعَ بِمَالِهِ يَتَذَكَّرُ مَنْ يَضَعُهُ فِيهِمْ فَلَا يَجِدُهُ فَيَرْجِعُ بِمَالِهِ، قَدْ أَعْنَى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ النَّاسَ"<sup>(١)</sup>. قال البيهقي رحمه الله معقباً على الحديث: وَفِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ تَصْدِيقُ مَا رَوَيْنَا فِي حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: "وَلَيْنَ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَى الرَّجُلَ يُخْرَجُ مِلءُ كَفِّهِ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً يَلْتَمِسُ مَنْ يَقْبَلُهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ"<sup>(٢)</sup>. فسحائب الرحمة وشآبيب المغفرة على الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أرسى دعائم الدولة القوية، والخلافة الأبية، حتى قطفت ثمارها الرعية عدلاً، وسعة، ورغداً، وأمناً.

وفي ختام هذا المبحث أقول: إن من منطلق حق أوطاننا علينا في عمارتها، وحماتها يجب استكناه هدي نبينا الكريم ﷺ فيما يخص الجانب الاقتصادي، وذلك بإعمال الدراسات الاستشرافية التي تُحَلِّقُ في آفاق اقتصاد الأوطان لتستكشف المبشرات، وتستبصر المعوقات، كي يتم التعامل مع هذه، أو تلك بما يعود على الأوطان بالنفع.

١- أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، كتاب الشمائل، بَابُ مَا جَاءَ فِي إِخْبَارِهِ ﷺ بِالشَّرِّ الَّذِي يُكُونُ بَعْدَ الْخَيْرِ الَّذِي جَاءَ بِهِ ثُمَّ بِالْخَيْرِ الَّذِي يُكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ. (٤٩٣/٦) بهذا اللفظ.  
٢- البيهقي، دلائل النبوة (٤٩٣/٦).



### المبحث الخامس:

#### الاستشراف في المجال السياسي، وأثره في عمارة الأوطان وحمائتها

إن صور الاستشراف في المجال السياسي متعددة ومتنوعة، ولعل من أهمها في عمارة الأوطان وحمائتها: قضية الحاكمية؛ إذ من المقرر أن الحاكم رأس الدولة، وسائسها الموجه، وعقلها المدبر، الذي قوته قوة لها، وضعفه ضعفًا لها لذلك عُتيت الشريعة به بدايةً من وجوب تنصيبه ومبايعته، ثم طاعته، والصبر عليه، ثم أخيراً حرمة الخروج عليه، وذلك كله محافظةً على الوطن من التيه والضياع.

- ولعل هدي النبي ﷺ القويم فيما يتعلق بالأمير والإمارة يُعد استشرافاً للمستقبل في جلب المصالح ودرء المفاسد، كما فيما يأتي:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَزْبِي وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"<sup>(١)</sup>. وفي رواية أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ إِيَّيْ أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِيَّيْ أَحَبُّ لَكَ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَيَّ اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ"<sup>(٢)</sup>. ومن خلال هذين الروایتين يسوغ لنا أن نقول:

- إن إجابته ﷺ أبا ذرٍّ لا تخلو من استشرافٍ للمستقبل واستبصار له، وذلك لأن الحاكم الضعيف لا يُنتج القوة للبلدان، ولا يصنع المجد للأوطان، وإنما يجلب لنفسه مساءلة الله له، وحسابه على تقصيره، كما يجلب للأوطان الوهن، والضعف.

- وإن في الروایتين ما يدل على اجتناب الولايات لا سيما في حق الضعفاء، ومن في حكمهم ممن لا يستطيع القيام بحقوقها، ومتطلباتها.

- وفي الحديث: أن مَنْ لا يستأنس في نفسه قوةً ولا في إمكانياته مهارةً عليه ديانةً ألا يطلب القيادة والريادة حتى لا يعرض مسيرة الوطن للخطر.

- هذا، والحزبي والندامة إنما هو لمن لم يعدل فيها، ولا قام بما يجب عليه، فيفضحه الله ويخزيه

١- رواه مسلم في كتاب الإمامة - باب كراهة الإمامة بغير ضرورة (١٢/٥٢٦) (١٨٢٥).

٢- رواه مسلم في كتاب الإمامة - باب كراهة الإمامة بغير ضرورة (١٢/٥٢٦) (١٨٢٦).

يوم القيامة، ويندم على ما فرط منه، وإلا فقد جاء في الإمام العادل من الفضل والثواب ما جاء<sup>(١)</sup>.

وفي هدي كريم آخر يستشرف ﷺ عن طريق الوحي كثرة الخلفاء فيأمر بوجوب الوفاء لبيعة الأول؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ تَكْثُرُ، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، وَأَعْطَوْهُمْ حَقَّهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ"<sup>(٢)</sup>. وقوله ﷺ: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ) أي: يتولون أمورهم، كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية، والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه. ويرشد الحديث إلى الآتي:

- أنه ﷺ استشرف مستقبل الأمة السياسي فأخبر عن كثرة الخلفاء بعده.
- وأنه إذا بُويعَ خَلِيفَةً بَعْدَ خَلِيفَةٍ فَبَيْعَةُ الْأَوَّلِ صَحِيحَةٌ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهَا، وَبَيْعَةُ الثَّانِي بَاطِلَةٌ يَحْرُمُ الْوَفَاءُ بِهَا، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ طَلِبُهَا، وَسَوَاءٌ عَقَدُوا لِلثَّانِي عَالِمِينَ بَعْدَ الْأَوَّلِ أَوْ جَاهِلِينَ، وَسَوَاءٌ كَانَا فِي بِلَدَيْنِ أَوْ بِلَدٍ، أَوْ أَحَدُهُمَا فِي بِلَدٍ الْإِمَامِ الْمُنْفَصِلِ وَالْآخَرَ فِي غَيْرِهِ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ<sup>(٣)</sup>.

- تقديم مصلحة الأوطان على ما سواها، وهذه المصلحة متمثلة في القيام بحقوق الولاة والحكام كالطاعة والولاء؛ لأن ذلك يعود على الأوطان بالاستقرار، ومن ثم عمارتها، وحمايتها.

ولما كان العقد لإمامين في عصر واحد لا يجوز لما يترتب عليه من الفتن، وسفك الدماء، وضياح البلاد والعباد وجه ﷺ إلى مقاتلة الخليفة الثاني إذا ما استقر الأمر للأول؛ فعن أبي سعيد الخدري قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِذَا بُويعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا"<sup>(٤)</sup>. وفي الحديث:

- أنه أراد بالقتل المقاتلة؛ لأنها تؤدي إليه من حيث إنه غايتها. وقيل: أراد بإبطال بيعته وتوهين

١- انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢٢٥/٦)، ط. دار الوفاء بمصر.  
 ٢- أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (٥٤٢/١٢) (١٨٤٢).  
 ٣- انظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥٤٢/١٢).  
 ٤- أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب إذا بُويعَ لِخَلِيفَتَيْنِ (٢٣/٦) (١٨٥٣).

- أمره من قولهم: قتلت الشراب إذا مزجته، وكسرت ثورته بالماء<sup>(١)</sup>.
- هذا ومحمل الحديث على أنّ الثَّانِي امتنع من العزلة ودعا إلى طاعته حتى صار ذلك سببا للفتنة وشقَّ العصا فإنه يقاتل لينخلع وإن أدَّى قتاله إلى قتله<sup>(٢)</sup>.
- واستشرافه ﷺ للمستقبل في هذا الجانب يبدو واضحًا إذ إنه ﷺ ما أمر بقتل الآخر منهما إلا وقايةً من آثار التنازع على الملك والحكم المدمرة للأوطان.
- ولما لأمر الملك من أهمية في حفظ البيضة، وحراسة الدين، وعمارة الوطن، ونخصته، وحمائته، وصيانيته أمر رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة للأمير، وإن جاءت به أقدار الله تعالى على غير المراد خَلْقَةٌ وَخُلُقًا.

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَانَ رَأْسَهُ زَيْبَةً"<sup>(٣)</sup>.

ومن طريق يحيى بن حصين عن جدته أم الحصين، قال: سمعتها تقول: حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع. قالت: فقال رسول الله ﷺ قولاً كثيراً، ثم سمعته يقول: "إن أمر عليكم عبدٌ مُجَدِّعٌ (حسبها قالت) أسود، يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا"<sup>(٤)</sup>. وهذا من باب المبالغة في الإذعان والطاعة لأمر الحاكم.

ومن وجدت فيه هذه الصفات فهو في نهاية الخسة، والعادة أن يكون ممتهنًا في أزدل الأعمال فأمر ﷺ بطاعة ولي الأمر ولو كان بهذه الخساسة ما دام يقودنا بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ

قال العلماء: معناه ما داموا متمسكين بالإسلام والدعاء إلى كتاب الله تعالى على أي حال كانوا في أنفسهم وأديانهم وأخلاقهم ولا يُشَقُّ عليهم العصا، بل إذا ظهرت منهم المنكرات وعُظِّوا

١- الطيبي، شرح مشكاة المصابيح المسمى ب (الكاشف عن حقائق السنن) (٢٥٦٥/٨).

٢- انظر: المازري، المُعَلِّمُ بفوائد مسلم، (٥٥/٣).

٣- أخرجه البخاري في الأحكام/ باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (١٣٠/١٣) (٧١٤٢).

٤- أخرجه مسلم في الإمارة / باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (٤٦٥/٦) (١٨٣٨).

وَدُّكُرُوا فَإِن قِيلَ: كيف يؤمر بالسمع والطاعة للبعد مع أن شرط الخليفة كونه قرشيًّا؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن المراد بعض الولاة الذين يوليهم الخليفة ونوابه، لا أن الخليفة يكون عبدًا.

والثاني: أن المراد لو قهر عبدٌ مسلمٌ واستولى بالقهر نفذت أحكامه، ووجبت طاعته، ولم يجز شق العصا عليه والله أعلم<sup>(١)</sup>.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا ما يأتي:

- أن النبي ﷺ أرسى دعائم الولاية، واستشرف المستقبل فيما يطل على الأمة من أمراء وحكام، وأمر بالسمع والطاعة لهم ما أقاموا الصلاة وحفظوا لنا الدين، وذلك لاستقرار الأوطان وحمائتها من الفوضى.
- لو أن الناس في زماننا هذا فقهوا هذا الفقه، وسلكوا مسلك نبيهم (ﷺ) وامتثلوا أمره وهدية ما تجاسروا على ولاة الأمر، وخرجوا عليهم.
- إن اهتمام الشريعة بأمر الولاية والولاة هو اهتمام بأصل استقرار الأوطان وجوهر ومنبع نهضتها وعمارتها.

ومن نماذج استشراف المستقبل للنبي الأكرم ﷺ في المجال السياسي: استشرافه (ﷺ) - عن طريق الوحي - ضعف الأمة ووهنها، وتداعي الأمم عليها؛ فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يوشك أن تداعي عليكم الأمم من كل أفق كما تداعي الأكلة على قصعتها" قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: "أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غناء كغناء السيل، تنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن". قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: "حُب الحياة وكرهية الموت"<sup>(٢)</sup>.

١- انظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٤٧/٩).

٢- أخرجه أحمد في المسند (٨٢/٣٧) رقم (٢٢٣٩٧) واللفظ له، بإسناد صحيح وإن كان فيه المبارك بن فضالة وهو صدوق يدلّس، لكنه صرح بالتحديث وكما قال أبو زرعة وأبو داود عنه: يدلّس كثيرا، وإذا قال حدثنا فهو ثقة. يُنظر: ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٨٣٨/٨)، والمزي، تهذيب الكمال (١٨٠/٢٧).

وفي الحديث ما يأتي:

- أنه ﷺ استشرَف طرفاً من حال ضعف الأمة وتكالب الأعداء عليها بسبب تركها للجهاد وكرهها للموت، وتعلقها بالدنيا، والبقاء فيها.
- وفي الحديث ما يدل على مشروعية النظر في عواقب الأمور، وما تؤول إليه الأحداث، فضعف الأوطان وعجزها عن ركب النهضة والرفعة نتيجة أسباب أدت إلى هذا الضعف والعجز، ولا سبيل إلى العمارة، والحماية إلا بالتخلي عن هذه الأسباب، والتخلي بأضدادها من عوامل النهوض والصعود.
- ويُستلهم من الحديث ضرورة استشراف مستقبل الصراع بين الأمة المسلمة والأمم الباغية استشرافاً يحمل على حسن الإعداد، وتواصل الاستعداد.

ويستشرف ﷺ عن طريق الوحي غلبة الإسلام وتمكنه وانتشاره في كثير من الأقطار ما بلغ الليل والنهار؛ فعن تميم الداري، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بَعِزٌّ عَزِيزٌ أَوْ بَذَلٌ ذَلِيلٌ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ"<sup>(١)</sup>. وفي هذا النص الكريم:

- يستشرف رسول الله ﷺ - عن طريق الوحي - مستقبل علو الإسلام، وانتشاره بين الأنام، ليغرس ﷺ في النفوس التفاؤل والبشر، والأمل والرجاء.
- إن استشراف هذا الموعود النبوي في واقع أمتنا المؤلم ضرورة لتبديد اليأس المتسلل إلى كثير من الناس، لكن ينبغي أن يكون استشرافاً يحدوه العمل، والسعي إلى تحقيقه.
- إن من بين وظائف الدراسات الاستشرافية للمستقبل تسليط الضوء على الآمال الواعدة من أجل تحسين بيئة العمل والسعي على عمارة الأوطان، وحماتها.

١- رواه أحمد في المسند (١٥٤/٢٨) (١٦٩٥٧) واللفظ له. ورواه الحاكم في المستدرک (٤/٤٧٧) (٨٣٢٦) بنحوه، وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى (٣٠٥/٩) (١٨٦١٩) بنحوه. وأوردته الهيثمي في "المجمع" ١٤/٦، وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

## الخاتمة:

الحمد لله على الدوام، والشكر له في البدء والختام، والصلاة والسلام على خير الأنام، وعلى آله الكرام. وبعد

فقد جرى توفيق الله تعالى بإتمام هذا البحث، والوصول إلى خاتمته، فما كان فيه من سداد ورشاد فمن الكريم الرحمن، وما كان فيه من زيغ وزلل، فمني ومن الشيطان.

وقبل أن يبرح القلم مكانه، ويجف على القرطاس مداده، أُطلق له العنان ليسطر أهم النتائج، والتوصيات التي جادت بها القريحة، وأراها مستحسنةً مليحة:

### أولاً: أهم نتائج البحث:

- إن استشراف المستقبل المشروع هو استبصار واستكشاف ما هو آتٍ استعداداً لوقوعه، ويستهدف العمل الجيد لمستقبل الأوطان، وتقديم الحلول لمشاكلها المرتقبة، والاستعداد الأمثل لما يحمله لها من آمال وآلام.
- قيمة الأوطان في الإسلام معلومة مشهورة، ومنزلتها في النصوص الشرعية مسطورة منشورة يتحتم على أبنائها العمل لنهضتها، واستشراف المستقبل لتقدمها وريادتها.
- أضحى إعمال استشراف المستقبل لحماية الأوطان في زماننا المعاصر ضرورة لا تُهمَل وحاجة لا تُغفل.
- إهمال استشراف المستقبل تعطيل لمسيرة الاستعداد لما هو آتٍ لا يجلب للأوطان إلا جموداً وتحلفاً.
- في السيرة النبوية والأحاديث المصطفوية نماذج متنوعة لاستشراف المستقبل تعالج مجالات عدة، كالمجال الفكري، والاقتصادي، والعسكري، والسياسي، والاجتماعي.
- يتعين على أوطان أمتنا العربية والإسلامية الاهتمام بالدراسات الاستشرافية على كافة الأصعدة، وفي شتى المجالات اقتداءً بهدي نبيها ﷺ، ومسايرةً للأمم حولها.

ثانيًا: بعض التوصيات والمقترحات:

- أوصي القائمين على الندوة بطرح مزيد من الموضوعات المتعلقة بتحقيق الأمن العربي، وطلب تأصيلها شرعًا.
- أقترح نشر أبحاث الندوة وترجمتها إسهامًا في إثراء القرائح، وتشكيل العقول بما يحقق الوعي الأمثل للمواطن المسلم.

وختامًا أمتثل قول أبي هلال العسكري:

عَزَّ الكَمَالُ، فما يحظى به أحدٌ فكلُّ خلقٍ، وإن لم يدُرْ ذو عَاب<sup>(١)</sup>

فالله أسأل أن يقيل العثرات، ويغفر الزلات؛ إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

سبحانك اللهم، وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك، وأتوب إليك.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

---

١- أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال (٧٢/١) ط. دار الفكر- بيروت.

## ثَبَّتَ المَصَادِرَ والمَرَاجِعَ

- ابن أبي حاتم الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الحنظلي ت ٣٢٧هـ، الجرح والتعديل. ط. مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند، وعنها ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، الأولى ١٢٧١هـ.
- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ت ٦٠٦هـ، النهاية في غريب الحديث والأثر، ط. دار الباز بمكة المكرمة، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي.
- ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي ت ٨٠٨هـ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. ط، دار الفكر، بيروت، الثانية، ١٤٠٨ هـ، المحقق: خليل شحادة.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني ت ٢٧٥هـ، السنن. ط. دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، وط. دار الحديث بالقاهرة، أولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ت ٧١١هـ، لسان العرب. ط. دار صادر - بيروت، الثالثة ١٤١٤هـ.
- أبو العباس، أحمد بن محمد الحسيني الحموي الحنفي ت ١٠٩٨هـ، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر. ط. دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٠٥هـ.
- أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ، تقريب التهذيب، ط. دار ابن حزم، بيروت، أولى ١٤٢٠هـ، تحقيق: محمد عوامة.
- أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ط. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٢٧٥هـ، السنن. ط. دار الرسالة العالمية - بيروت الأولى ١٤٣٠هـ، المحقق: شعيب الأرناؤوط.
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ت ٢٤١هـ، المسند. ط. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢١هـ تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ورفاقه.
- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل ت ٣٩٥هـ، جمهرة الأمثال. ط. دار الفكر - بيروت.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ، الجامع المسند الصحيح، وهو مطبوع بمامش فتح



## استشراق المستقبل لعمارة الأوطان...

- الباري، ط. المكتبة السلفية بالقاهرة، الثالثة ١٤٠٧ هـ. تحقيق: محب الدين الخطيب، ومحمد فؤاد عبد الباقي.
- البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو العتكي ت ٢٩٢ هـ، المسند المنشور باسم " البحر الزخار ". ط. مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، الأولى ١٩٨٨ م. المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، ورفاقه.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين ت ٤٥٨ هـ، السنن الكبرى، ط. دار المعرفة، بيروت ١٤١٣ هـ.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين ت ٤٥٨ هـ، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى ١٤٠٥ هـ.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩ هـ، السنن. ط. مصطفى الباني الحلبي - مصر، الثانية ١٣٩٥ هـ.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد ت ٣٩٣ هـ، الصحاح، ط. دار العلم للملايين-بيروت ١٤٠٧ هـ،
- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن البيع ت ٤٠٥ هـ، المستدرک علی الصحیحین . ط. مكتبة النصر الحديثة بالرياض.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي ت ٧٤٨ هـ، تلخيص المستدرک، ط. مكتبة النصر بالرياض بمأمش مستدرک الحاكم.
- الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي ٧٤٣ هـ، شرح مشكاة المصابيح المسمى: " الكاشف عن حقائق السنن"، ط. مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض) الأولى ١٤١٧ هـ المحقق: د/ عبد الحميد هندراوي.
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد العيتابي ت ٩٥٥ هـ، عمدة القاري بشرح صحيح البخاري. ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي، أبو الفضل ت ٥٤٤ هـ، إِكْمَالُ الْمُعْلِمِ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ. ط. دار الوفاء بمصر، الأولى ١٤١٩ هـ، تحقيق: الدكتور يَحْيَى إِسْمَاعِيل.
- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ت ١٠٩٤ هـ، الكليات، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري.
- المازري، أبو عبد الله المازري المالكي ت ٥٦٣ هـ، المُعْلِمُ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ. ط. الدار التونسية للنشر، الثانية ١٩٨٨ هـ. المحقق: محمد الشاذلي النيفر.

- مرتضى الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ت ١٢٠٥هـ، تاج العروس من جواهر القاموس، ط. دار الهداية.
- المزني، أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن ت ٧٤٢ هـ، تهذيب الكمال. ط. الرسالة، بيروت ١٤١٣ هـ، تحقيق: بشار عواد.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١ هـ، الجامع الصحيح، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي.
- المناوي، زين الدين عبد الرؤوف المناوي ت ١٠٣١ هـ، فيض القدير شرح الجامع الصغير. ط. المكتبة التجارية بالقاهرة، أولى ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م.
- النسائي، أحمد بن شعيب ت ٣٠٣ هـ، السنن الصغرى (المتبى)، ط. مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الثانية ١٤٠٦ هـ. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.
- النووي، محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي ت ٦٧٦ هـ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، الثانية ١٣٩٢ هـ.
- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان ت ٨٠٧ هـ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط. دار الكتاب بيروت ١٩٦٧ م.

التخطيط

استراتيجية نبوية لحماية الوطن

الدكتور / علي محمد أسمر أبو شحادة

الجامعة الأردنية / الأردن





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وبعد؛ فإن الإسلام دين الله سبحانه المتكامل، فيه كل ما يهم البشرية من أنظمة ومنافع، ومن أعظمها العناية بالأوطان، وقد ضرب لنا رسولنا ﷺ أقوى الأدلة على ذلك؛ حيث في توجيهاته لصحابته الكرام رضي الله عنهم، وإرشاداته لهم، وفي سيرته العملية، وحوادث حياته، حضور قيمة الوطن، ومحبته، وضرورة حمايته، والمحافظة عليه، وبنائه، وتطويره. ويقع في قلب هذه الدائرة من الاهتمام بناء الخطط لحمايته، ودرء المخاطر عنه؛ حيث إن للنبي عليه الصلاة والسلام كثيرًا من الأحاديث الشريفة، والإرشادات الهامة، والتطبيقات الضرورية، في بيان كيفية التخطيط لحماية الوطن سياسيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، وأخلاقيًا.

ويحاول هذا البحث تسليط الضوء على موضوع التخطيط من حيث هو استراتيجية نبوية لحماية الوطن، وذلك من خلال الأحاديث النبوية الشريفة التي بيّنت العناصر الأساسية للتخطيط النبوي، وعبر السنة العملية المتمثلة بسيرة النبي ﷺ؛ والتي هي بمثابة التطبيق العملي لهذه الاستراتيجية المهمة في حماية الوطن.

وفيما يأتي توضيح مشكلة البحث وأسئلته، وأهميته، وأهدافه، ومنهجه، والدراسات السابقة له، وخطته.

**مشكلة البحث وأسئلته:** يحاول هذا البحث بيان ماهية التخطيط من حيث هو استراتيجية نبوية لحماية الوطن، ويضطلع بمهمة بناء العناصر الرئيسة لهذه الاستراتيجية المتمثلة بأهداف التخطيط، وأركانه، ووسائله، وثماره، ويظهر كيفية الانتفاع بهذه الاستراتيجية لحماية أوطاننا في هذا الزمن، وجاء البحث لهذا مجيبًا عن الأسئلة الآتية:

١. ما المقصود باستراتيجية التخطيط النبوية؟ وما أهميتها في حماية الوطن؟

٢. ما أركان استراتيجية التخطيط النبوية؟ وما وسائلها؟ وأهدافها؟ وثمارها؟

٣. كيف يمكن تطبيق استراتيجية التخطيط النبوية في واقعنا المعاصر؟

**أهمية البحث:** تنبع أهمية هذا البحث من شدة الحاجة إلى بيان أهمية التخطيط، وضرورته لحماية الوطن، وما في هذا الموضوع من تجلية للتطبيق النبوي الشريف لهذه الاستراتيجية من خلال الأحاديث الصحيحة الثابتة، الدالة على سبق رسالة الإسلام وأوليتها في بناء الأوطان على مثل هذه الاستراتيجيات الراسخة القويمة.

**أهداف البحث:** يهدف هذا البحث إلى ما يأتي:

١. بيان المقصود باستراتيجية التخطيط النبوية، وأهميتها في حماية الوطن.

٢. استخراج العناصر الأساسية لاستراتيجية التخطيط النبوية المتمثلة بأركانها ووسائلها وأهدافها وثمارها.

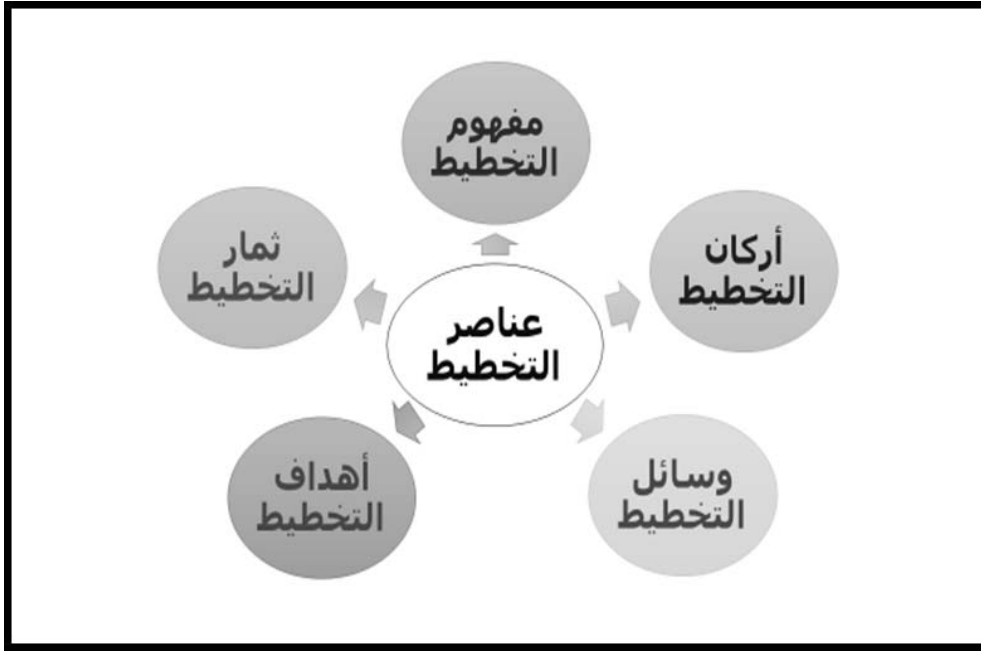
٣. بيان منهجية تطبيق استراتيجية التخطيط وتمثلاتها في الواقع المعاصر.

**الدراسات السابقة:** لم أجد فيما اطلعت عليه من دراسات استراتيجية بحثت موضوع التخطيط من تناوله بحسب تأصيل السنة النبوية له. لذا خصصت هذا البحث لتغطية هذا الجانب الذي افتقدت الدراسات السابقة \_ بحسب منهجيته ومضمونه <sup>(١)</sup>.

وبعد؛ فهذه الورقات جهد المقل، وطاقة الباحث، فما فيها من خير وفضل، فهو من توفيق الله وتسديده، فله الحمد والإحسان، وما فيها من نقص أو خلل فمن ضعف النفس وتسويل الشيطان، فليعذر القارئ الكاتب، وليرشده إلى الصواب ويدله عليه مشكوراً ممنوناً. وأسأل الله سبحانه أن يكون هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزل عليه العطاء والأجر، وأن يغفر التقصير فيه والزلل، وأن يجعله في ميزان حسنات كاتبه وقارئه، آمين.

---

١- علمت مؤخراً أنه أقيمت ندوة علمية دولية في كلية الدراسات الإسلامية والعربية/ دبي، بعنوان: "الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية"، ولم أستطع الحصول على الأوراق العلمية التي بحثت ونوقشت فيها..



### المطلب الأول: مفهوم التخطيط النبوي لحماية الوطن

التخطيط لغة: من الأصل (خَ طَ طَ) وهو أصل يدل على أثر يمتد امتداداً،<sup>(١)</sup> وهي دلالة تصاحب استعماله المتعددة في اللغة، منها على سبيل المثال: الخَطُّ وهو رقم الكتابة ورسمها، واختَطَّ لنفسه داراً إذا ضرب لها حدوداً ليعلم أنها له،<sup>(٢)</sup> وكل مكان يخطه الإنسان لنفسه ويحفره يقال له خِطَّةٌ.<sup>(٣)</sup>

ومن المجاز قولهم فلان يبني خطط المكارم؛<sup>(٤)</sup> أي ينشئ لنفسه في المكرمات مكاناً، ويقابله قولهم هو بخطة سوء؛ أي بأمر سوء أو حال سيئة.<sup>(٥)</sup> والخطة هي الحال أو الأمر،<sup>(٦)</sup> وتأتي بمعنى

١- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (١٥٤/٢)، وابن منظور، لسان العرب، (٢٨٧/٧) مادة (خ ط ط).

٢- الزمخشري، أساس البلاغة، (٢٥٦/١).

٣- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (٢٨٦).

٤- الزمخشري، أساس البلاغة، (٢٥٦/١).

٥- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (١٥٤/٢).

٦- الفراهيدي، معجم العين، (١٣٧/٤)، وابن منظور، لسان العرب، (٢٨٩/٧) مادة (خ ط ط).

الخصلة من الخير كما يدل عليه حديث النبي ﷺ في الحديثية: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا". أي "خصلة خير وصلاح وإنصاف"،<sup>(١)</sup> فيها تعظيم للحرمات، أو أمر فيه خير.<sup>(٢)</sup>

ويظهر مما سبق أن التخطيط مصطلح مأخوذ من أصل يدل على التحضير والتجهيز والعناية؛ فالكتابة، والبناء، وأمور الخير كلها تحتاج إلى التخطيط لها، بمعنى التدبير الخفي المحكم لإنجاز الأمر على وجهه الأكمل،<sup>(٣)</sup> وهي الدلالة الاصطلاحية للتخطيط التي يقصد إليها البحث.

وإذا ما نسب هذا التخطيط إلى السنة النبوية الشريفة \_ في قولنا: التخطيط النبوي \_ فالقصد من إطلاق هذا المصطلح المركب بيان مهمة الباحث المتمثلة باستنفاد الوسع والاجتهاد في تلمس تلك التدابير النبوية، والخطط التي نقلها لنا أهل الحديث والسير عن سيد الخلق عليه الصلاة والسلام مما تعلق بمنهجيته \_ إن جاز التعبير \_ وهديه عليه الصلاة والسلام في إرشادنا إلى أفضل الطرق، وأحسن السبل لبناء التدابير وإحكام الخطط وفق التوجيه النبوي الشريف.

وليس الحديث هنا عن التخطيط بعمومه، فهذا موضوع عريض عميق يحتاج إلى رسائل جامعية أكاديمية، وأبحاث متخصصة ومتعددة للغوص في جزئياته، ودراسة تركيبه، وتناول عناصره، وإنما هذا البحث مخصوص في باب من أبواب التخطيط النبوي من أهم أبوابه، ذلك هو التخطيط من حيث هو استراتيجية عملية لحماية الوطن.

والناظر في سنة رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، يجد كثيراً من الأحاديث الشريفة والمواقف المحفوظة في ثناياها؛ تكشف لنا عن بعض العناصر الأساسية لتخطيط النبي عليه الصلاة والسلام لحماية الوطن، يظهر من خلالها أركان هذا التخطيط الرئيسة وأسسها التي قام عليها، كما أنها تبرز لنا تلك الوسائل التي تم بها وعبرها تنفيذ تلك الخطط، وتوضح لنا أهداف هذا التخطيط ومقاصده، وما آتته هذه الخطط من ثمار، وما نتج عنها من آثار على الوطن.

١- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (٣٣٩/٥).

٢- أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٧٣١).

٣- عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، (١/٦٦٥)، مادة رقم (١٦٤٦).

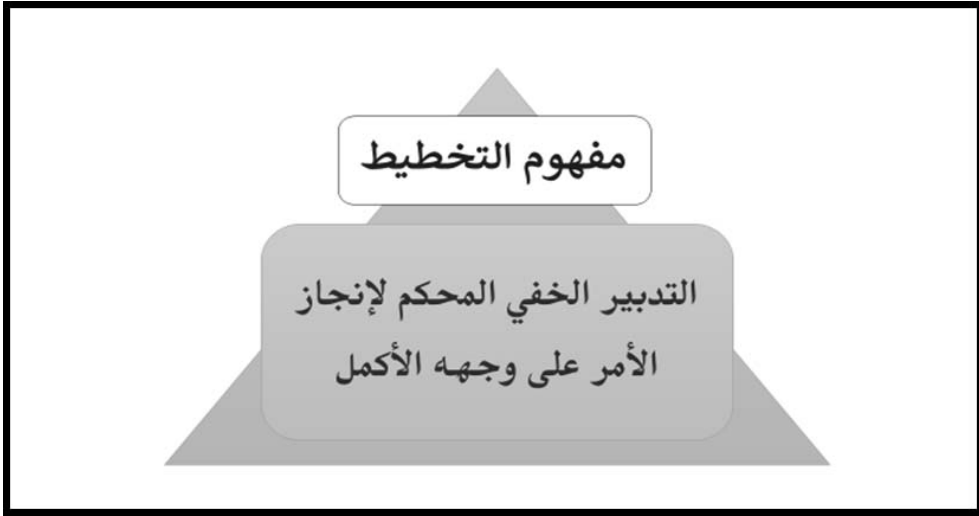


وما هذه الأركان والوسائل والأهداف والثمار إلا عناصر هذه الاستراتيجية النبوية التي سيستنبطها هذا البحث بحول الله وقوته، فهي ليست إرشادات واضحة محددة، ولا مواقف معينة ملقاة على قارعة الطريق؛ وإنما هي إشارات خفية، وملامح دقيقة، ونكات لطيفة، مبثوثة في ثنايا أحاديث المصطفى ﷺ، ومكنونة في طوايا مواقف حياته القدوة، للباحث فخر التشرف بالانشغال بها والاشتغال باستنباطها وتحليلتها.

والجميل في الموضوع أنك لا تبحث عن استراتيجية لتخطيط ضائع، أو نظير هوائي لا أساس له؛ وإنما أنت باحث في استراتيجية انعكست تطبيقاً حقيقياً، وفي تخطيطٍ تأصل في واقع حياتي، وتأكد في حقبة زمنية حُفظت أحوالها وشؤونها بدقة وعناية، عاشها وطننا الأول الذي بناه رسولنا عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة، وهي إن لم تكن المدينة الفاضلة، فأين هي المدن الفاضلة؟! بلى إنها المدينة الفضلى، مدينة الرسول ﷺ التي تشكل لنا مثلاً أعلى لما ينبغي أن يكون عليه التخطيط لحماية الوطن وإقامته واستقراره.

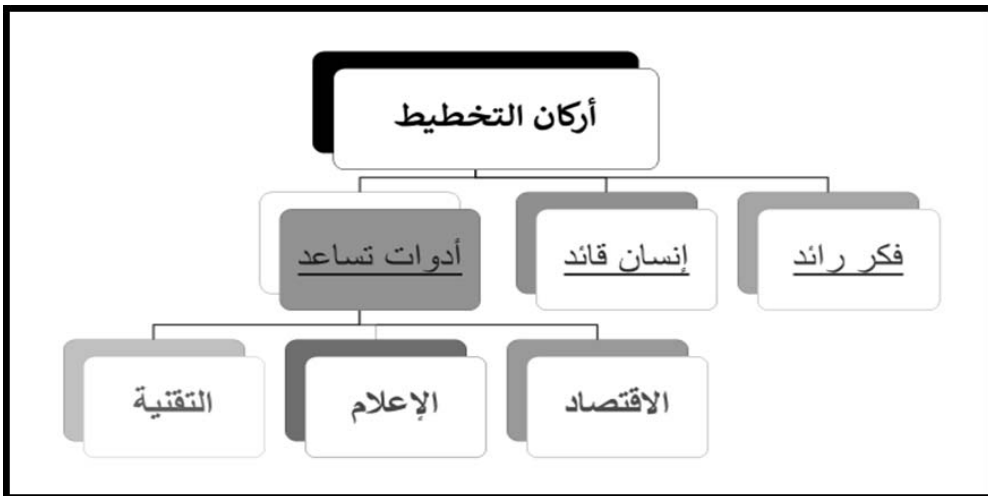
وأن تكون استراتيجية التخطيط النبوي لحماية الوطن قد كوّنت نموذجاً عملياً، فإن هذا يشكل لك عنصراً مُعيناً، ومعيناً لا ينضب من الخطط الناجحة التي لا تحتاج إلى اختبار أو تقييم أو تقويم، وإنما هي خطط جاهزة، أثبتت فعاليتها، وآتت أكلها، وأنتجت ثمرتها، فلا يمكن بحال تجاوزها، أو النكوص عنها، أو البحث عن غيرها شرقاً أو غرباً؛ هذا فضلاً عن كونها واجبة التحقيق، ملزمة لأتباع هذا الدين، فهي جزء لا يتجزأ منه، نابعة من دستوره القرآني، ومن النموذج العملي له، المتمثل بالسنة الشريفة لنبينا عليه الصلاة والسلام.

وخلاصة المطلب أن مفهوم التخطيط من حيث هو استراتيجية نبوية لحماية الوطن، يقصد بها ذلك التدبير الخفي المحكم لإنجاز أمر حماية الوطن على وجهها الأكمل، وستدرس عناصر هذه الاستراتيجية تالياً بالتفصيل.



### المطلب الثاني: أركان التخطيط النبوي لحماية الوطن

أول ما ينبغي النظر فيه ومعرفته من عناصر التخطيط النبوي لحماية الوطن هو أركان هذا التخطيط؛ والتي يقصد بها تلك الأسس والقواعد التي تقوم عليها منظومة التخطيط، والتي بدونها لا يقوم هذا التخطيط، فهي بمثابة أركان الصلاة للصلاة، وفيما يأتي تفصيل هذه الأركان ...



## • الركن الأول: فكر رائد

أساس تكوّن الأمم، وباعث وجود الدول، هو تكوّن فكرة أساسية مُحفّزة تنبثق منها حركة تلك الأمة النهضوية، وانبعاتها الحضاري، وليس من أمة قامت إلا ولها مجموعة من الأفكار والمبادئ والتصورات التي أسهمت بانطلاقها، وأمتنا ليست بمعزل عن هذا؛ فقد قامت حضارتها الراسخة الممتدة عبر القرون على أصليّ الكتاب والسنة اللذين شكّلا للأمة فكرة راسخة لقيامها واستمراريتها، وفق ما حمله هذان الأصلان من عناصر بناءة، وقيم أساسية لرفع سوية الوجود الإنساني، وإعمار الأرض، وسياسة الدين والدنيا معًا.

وما زال القرآن الكريم، وسنة النبي الحكيم عليه الصلاة والسلام حاضرين، قويين، نابضين بالحياة، بوسعهما اليوم \_ كما كانا دومًا \_ أن يحققا للأمة نهضتها المنشودة، في شتى مجالات الحياة وجوانبها المتعددة. وتقع حماية الوطن والمحافظة على مقدراته، والإسهام في بنائه، وتمثيته في رأس قائمة المبادئ الأساسية لفكر هذا الدين، ولو قال قائل: إن حماية الوطن من أهم الأصول التي جاء القرآن الكريم والسنة الشريفة لتعزيزها وإقامتها لصدقت بصيرته ونظرته، ولكن محسنًا في وعيه لمقاصد هذا الدين وإدراكه لأساسياته.

والفكر الرائد هنا \_ من حيث هو ركن أساسي لاستراتيجية التخطيط النبوي لحماية الوطن \_ يقصد به تلك المبادئ الأساسية التي جاء القرآن والسنة لإقامتها لحماية الأوطان. ويمكن ملاحظة أساسين هامين، أو مبدئين رئيسين يقوم عليهما هذا الفكر فيما يتعلق بالتخطيط لحماية الوطن:

١. **ريانية هذا الفكر**، فالتخطيط للمحافظة على الوطن تكليف رباني، تُعقد عليه الأجور، ويباركه الله، ويعين عليه ويؤيده، وما تسديد الله لخطة النبي ﷺ في الهجرة،<sup>(١)</sup> وفي فتح مكة؛<sup>(٢)</sup> إلا نماذج عملية تدل على ريانية هذا التخطيط الناجع لحماية الوطن.

٢. **إنسانية هذا الفكر وواقعيته**، فهو بتماسه مع سمات الإنسان وطبيعته التي خلقه الله عليها، وانعدام النزعة المثالية الخيالية غير المقدر عليها، أقول بهذه السمة يكون هذا الفكر واقعيًا

١- صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار رضي الله عنهم، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، (٣٩٠٦)، وكتاب التفسير، باب قوله تعالى "ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن"، (٤٦٦٣).

٢- ينظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، (١٧٨٠).

سهل التحقيق، لا خيالياً صعب الإيجاد، إقامة أوامر الدين، والتزام تعاليمه ميسورة، مستطاعة، قائمة على الوسع والقدرة، في تفاوت إمكانات الناس وطاقاتهم، وانظر في أخذ النبي ﷺ بتعاليم هذا الدين الآمرة بالمحافظة على الأوطان بشتى الوسائل والطرق المتاحة، فشرع الجهاد لذلك والقتال،<sup>(١)</sup> وأبيحت المعاهدات لأجله والتحالفات،<sup>(٢)</sup> وهذا للملاحظ خط واضح في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد كان فكر النبي ﷺ الرائد في تخطيطه لحماية الوطن، سابقاً لعصره، ملتزماً بتعاليم دينه، رباني الاستمداد، واقعي التطبيق، إنساني الغاية، يشهد لذلك ما مارسه من وسائل لحماية الوطن، وما سعى لتحقيقه من أهداف انعكست ثماراً يانعة، مما ستره في بحثنا تالياً.

### • الركن الثاني: إنسان قائد

التخطيط عمل إنساني؛ الإنسان أساسه وصانعه، والفكر الرائد سابق الذكر يحتاج أشخاصاً ذوي صفات مميزة ليكونوا مستلهمين له، حاملين لواءه، ونبينا عليه الصلاة والسلام رائد هذا الركن، والقدوة الذي يتبع ويتأسى في هذا الجانب \_ وكل جانب \_، فهو أنموذج القائد صاحب التخطيط البارِع، والخطة المحكمة، لحماية الوطن ومقدراته.

وسيرة المصطفى ﷺ أنموذج واضح لشخصية الإنسان القائد المُخَطِّط، فكل ما قام به عليه الصلاة والسلام في حياته مما يشهد بجودة تخطيطه، وحسن إدارته لمخططاته، وإتقان تنفيذ خطته، ولم يعهد عنه عليه أركى الصلوات وأتم التسليم أي عشوائية أو غوغائية، ولا يوصف في أدنى حادثة بأي تشتت أو تخبط، بل كانت حياته تسير بوتيرة تصاعديّة ثابتة راسخة، تعينه معية الله سبحانه وتأييده، ويثبته التزامه وأمر الله سبحانه وتعاليمه، فكان مثلاً أعلى لما ينبغي أن يكون عليه إنسان

١- أخرج حديث الإذن بالقتال الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الجهاد، (٢٣٧٦)، وحسنه الترمذي في سننه، كتاب جماع أبواب القراءات، باب "ومن سورة الحج"، (٣١٧١)، والنسائي، السنن الكبرى، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، (٣٠٨٥)، وأحمد في المسند، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١٨٦٥).

٢- ينظر مثلاً صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، (٤١٨٠)، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، (١٧٨٣، ١٧٨٤).

التخطيط، الحامي لوطنه، الباني لمجد أمته، وخذ مثال ذلك إن شئت في تفاصيل هجرته ﷺ. (١)  
ولا بد أن يتميز هذا الإنسان (ركن التخطيط الصانع) بميزات عدة تؤهله لأن يكون  
عنصر حماية لوطنه من خلال خطط حياته الفردية المتعلقة بذاته، أو الجمعية المتعلقة بمجمعه  
على حد سواء، أبرزها الاطلاع على واقع الحال، والإلمام بعلوم العصر، وسعة الاطلاع المعرفي،  
وامتلاك المهارات العملية اللازمة لهذه الاستراتيجية، وسيأتي تفصيل هذه المميزات لاحقاً بحول الله  
وتيسيره. (٢)

ويتجلى مثال هذا القائد بلا شك في شخصية نبينا وقدوتنا محمد ﷺ، كما لا نغفل دور  
من كان حوله من القادة والعظماء من الصحابة رضوان الله عليهم، والذين اختص كل منهم  
بخصائص وميزات، جعلت لكل منهم مكانةً ودوراً واهتماماً مختلفاً عن غيره، وأنعم بذلك من دور  
وأ نموذج لتنوع شخصيات القادة الذين يحتاج إليهم التخطيط؛ حيث تنوع مهامهم، وقاداتهم،  
وإمكاناتهم، وتوزع أدوارهم لتغطي مجالات التخطيط المتنوعة واحتياجات المجتمع في كل ميادينه،  
يقول النبي ﷺ موزعاً هذه الأدوار، ومنبهاً على خصائص كل قائد من الذين ذكرهم: "أَرْحَمُ أُمَّتِي  
بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْرَبُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أَبِي بَنْ  
كَعْبٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ  
أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ". (٣)

### ● الركن الثالث: أدوات تساعد

إذا اجتمع الإنسان القائد مع الفكر الرائد لأجل حماية الوطن لا بد من وجود أدوات

- ١- صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار رضي الله عنهم، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، (٣٩٠٦)،  
وينظر صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، هجرة النبي ﷺ، (١٥٣ - ١٦٣).
- ٢- ينظر "المطلب الثالث: وسائل التخطيط النبوي"، من هذا البحث.
- ٣- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، حديث رقم (٣٧٩١)، والنسائي  
في سننه الكبرى، كتاب المناقب، باب أبي بن كعب، حديث رقم (٨١٨٥)، والحاكم في المستدرک،  
كتاب معرفة الصحابة، باب مناقب زيد بن ثابت، حديث (٥٧٨٤)، والجزء المختص بأمانة أبي عبيدة  
للأمة متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي عبيدة، حديث  
(٣٧٤٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة، حديث (٢٤١٩).

يستخدمها هذا الإنسان لتحقيق هذا الفكر في الواقع، والتخطيط لحماية الوطن لا يستغني عن مجموعة من الأدوات الأساسية التي تستخدم بمثابة أركان تؤسس للتخطيط وتبنيه بناءً راسخاً قوياً، وفيما يأتي بيان أهم هذه الأدوات:

#### ○ الاقتصاد (الثروة المادية)

المال عصب الحياة، والاقتصاد من أهم مقومات الدول، وحسن إدارة المال العام من أساسيات حماية الوطن والمحافظة على مقدراته، والتخطيط لإنماء الاقتصاد والثروة المادية للوطن ركن هام من أركان حماية الوطن، وقد رسم لنا النبي ﷺ خطوطاً عريضة لكيفية التخطيط لحماية اقتصاد الوطن وبناءه ونمائه، فيما يأتي بيانها:

١. **التخطيط لتَشَارِكِ أبناء الوطن وتَعَاوِنِهِم المادي**، فيعين الغني منهم الفقير، ويساعد منهم المقتدر غيره، وشاهد ذلك تلك المؤاخاة النادرة التي ضربت بها أروع الأمثلة بالإيثار والبر والصلة، وصيانة أبناء الوطن مادياً.<sup>(١)</sup>

٢. **بناء اقتصاد قوي للوطن** قائم على النظام المالي الرباني، والمتمثل بوضع أسس فقه المعاملات المالية من بيع وإجارة ورهن ووقف وما إلى ذلك، إلى جانب تكليف لجان جمع أموال الزكاة،<sup>(٢)</sup> وإقامة بيت مال المسلمين، وحسن توزيع المال، وإعطاء المحتاجين منه.<sup>(٣)</sup>

٣. **فتح أبواب التخطيط للانتفاع من الموارد الاقتصادية جميعها**، فهي أساس نهضة الوطن وقوته، كالتجارة، والزراعة، وغيرها؛ يمثل لذلك باهتمامه عليه الصلاة والسلام بمجال الزراعة مثلاً.<sup>(٤)</sup>

---

١- صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم.

٢- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، وترد في الفقراء حيث كانوا، (١٤٩٦)، وباب قول الله تعالى "والعاملين عليها"، (١٥٠٠)، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة، (١٠٧٢).

٣- ينظر مثلاً صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، والأبواب التي تليه.

٤- صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، (٢٣٢٠)، وصحيح مسلم،

٤. إنفاق المال لصالح الوطن واستشرافاً لنهضته، وخذ مثالها من توزيع غنائم معركة حنين على الطلقاء من قريش والمؤلفة قلوبهم، لكسب تعاطفهم، وولائهم، ودمجهم في المجتمع.<sup>(١)</sup>

#### ٥. الإعلام (الثروة المعنوية)

يقابل قوة الاقتصاد (القوة المادية) للوطن قوة الإعلام، التي تمثل القوة المعنوية له، وليس الإعلام قوة طارئة في عصرنا الحالي كما قد يظن البعض، وإنما كانت له السلطة والقوة، والأثر الواضح في نهضة الأوطان، وتنبع أهميته من ضرورة وحدة أبناء الوطن من حكومة وشعب، وحسن توافقهما معاً، وتكاملهما، وحصول كلا الطرفين على المعلومة والمعرفة الصحيحة، اللازمة لخدمة وطنهم، وحسن صيانتهم، والإعلام هو حامل راية هذا التوافق، وركنه الأول.

ولا أدل على أهمية الإعلام لحماية الوطن من نذب النبي ﷺ لحسان بن ثابت على مناجزة أعداء الإسلام الذين استعانوا بالشعراء لهجاء النبي ﷺ والمسلمين، فقال عليه الصلاة والسلام: "أَهْجُهُمْ، أَوْ هَاجِهِمْ، وَجَبْرِيلُ مَعَكَ"<sup>(٢)</sup>، وهذا باب في الإعلام ومدافعة إعلام العدو، إذ كان الشعر ديوان العرب في ذلك العصر، وناقل أخبارهم، ومذيع حوادثهم، وحافظ وقائعهم، فهو بمثابة صحافة هذا العصر وإعلامه.

#### ٦. التقنية (التكنولوجيا)

قد لا تكون التقنية أو (التكنولوجيا) مما يتحدث به عن عصر النبوة، لاعتقادنا أنها من سمات العصور الحديثة؛ إلا أننا نلاحظ أن لكل عصر نوعاً ما من التقنية والتطور الذي يسبق به ما قبله

كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، (١٥٥٢)، وفيه "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرِزُوهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ".

١- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، (١٠٥٩)، وبوب البخاري في صحيحه باب "المؤلفة قلوبهم".

٢- الحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث (٣٢١٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت، حديث (٢٤٨٦).

من العصور، والذي يكون ميزة ذلك العصر وسمته التقنية، وعليه فلم يخل عصر من تطور تقني في مجال حيوي ما.

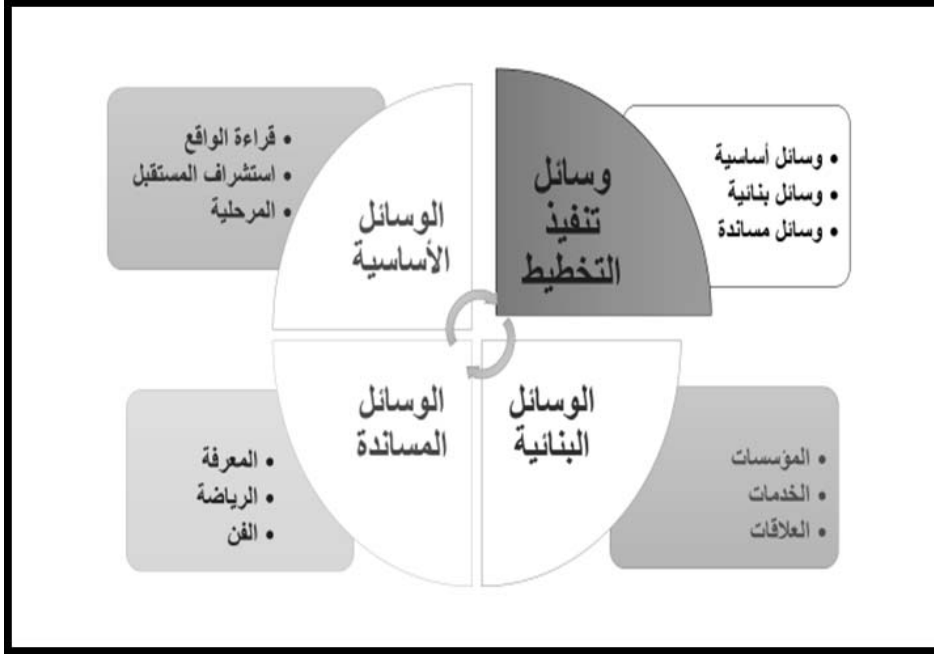
وواجبنا هنا أن نبرز التقنية التي برزت في زمن النبوة وكانت بمثابة "تكنولوجيا" متطورة وجديدة لم تؤلف من قبل، هذا شرط أساس يضاف إليه وجوب كون هذه التقنية التي نتحدث عنها مكرسة كذلك في تخطيط النبي ﷺ لحماية الوطن، فلسنا معنيين ببيان تقنيات العصر كلها، وليس هذا مكان ذلك ...

فاستخدام النبي ﷺ للهجرة من أجل إنشاء وطن جديد،<sup>(١)</sup> وللمؤاخاة من أجل شد أواصر أبناء هذا المجتمع المتشكل،<sup>(٢)</sup> والبيعة للتعاهد على الدفاع عن هذا الوطن أمام أعدائه،<sup>(٣)</sup> وحفر الخندق \_ الذي لم يكن معتاداً ولا مألوفاً عند العرب \_ لحماية المدينة،<sup>(٤)</sup> وإرسال رسائل دعوة الإسلام إلى ملوك الأرض،<sup>(٥)</sup> وكل ذلك من التخطيط لحماية الوطن \_ إلى جانب الهدف الأسمى المتمثل بنشر رسالة الإسلام وحميته \_ من خلال تقنيات وآليات غير معروفة عند العرب في ذلك الزمان.

ولقد كانت ممارسة النبي ﷺ لهذه التقنيات وغيرها توطيداً لأركان مبدأ هام، يقوم على جواز استعمال كل المتاح من وسائل \_ مشروعة \_ لتحقيق الغاية المرجوة، وأصل بذلك لأصل وجوب الانتفاع من أي وسيلة \_ مباحة قطعاً \_ من شأنها تحقيق حماية الوطن ونشر دعوته السامية.

- ١- صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار رضي الله عنهم، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، (٣٩٠٦)، وينظر صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، هجرة النبي ﷺ، (١٥٣ - ١٦٣).
- ٢- صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم.
- ٣- صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، (١٤٣).
- ٤- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، (٢٨٣٥ - ٢٨٣٧).
- ٥- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، (٤٤٢٤)، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل، (١٧٧٤).





### المطلب الثالث: وسائل تنفيذ الخطط النبوية لحماية الوطن

لا تستغني الأركان سابقة الذكر ولا تستقل بنفسها إلا بواسطة تحققها في واقع المجتمع عبر وسائل عملية؛ تؤصل للتخطيط البارح لحماية الوطن، ومن خلال خطوات إجرائية، تسعى لتحويل هذه الخطط إلى تطبيق حياتي معيش؛ وفيما يأتي تفصيل تلك الوسائل التي يتم بها تفعيل التخطيط وتنفيذه عملياً ...

#### • أولاً: وسائل أساسية

وهذه الوسائل بمثابة الخطوات الإجرائية التي من خلالها يكتمل تكوّن استراتيجية التخطيط وتشكلها، ولا يستغنى عنها بحال؛ إذ هي سمات بارزة، وعلامات واضحة لهذه الاستراتيجية، وفيما يأتي بيانها:

### ○ قراءة الواقع

لا يعقل أن يهّم أحد ليخطط لأمر ما، دون أن يكون مطلعاً على الواقع الذي سيخطط له، فإن من أسس التخطيط معرفة الميدان الذي سيتحقق فيه التخطيط، ولقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام خير من يفهم واقعه، ويطلع على أحواله، ويعرف كيف يتحرك فيه، وكيف يتفاعل معه؛ تشهد له بذلك تلك المراحل التي اتخذها في دعوته لأهل مكة.

وفيما يتعلق بقراءة الواقع لحماية الوطن فلننظر في خروج النبي عليه الصلاة والسلام للدفاع عن المدينة في عزو أحد، وفي حفره الخندق لحماية المدينة من هجوم الأحزاب.

### ○ استشراف المستقبل

بما أن تعريف التخطيط الذي يدور الحديث حوله هو كما سلف ذكره: "التدبير الخفي المحكم لإنجاز أمر حماية الوطن على وجهها الأكمل"، فإن من لوازم هذا التعريف أن يكون التخطيط تدبيراً لإنجاز شيء مستشرَف لم يأت بعد، بمعنى أن التخطيط استراتيجية قائمة على الإعداد للمستقبل، والتحصُّر للقادم، وبهذا يكون استشراف المستقبل وحدة أساسية لهذا التخطيط، وجزءاً رئيساً من بنيته.

وغير خاف ما ورد عن النبي ﷺ من أحاديث تستشرَف مستقبل دعوة الإسلام، وكيف كان عليه الصلاة والسلام يخطط لحماية المدينة المنورة أثناء حربه للمشركين واليهود من أهل الجزيرة، وفي التخطيط لقتل بعض أعداء الإسلام، ككعب بن الأشرف وغيره،<sup>(١)</sup> مثلاً للاستشراف الدفاعي لحماية الوطن، إلى جانب إرسال الرسل إلى ملوك الأرض يحملون دعوة الإسلام أمموجاً للاستشراف الدعوي<sup>(٢)</sup>، وهذان مثالان على استعمال الوسائل التي من شأنها استشراف المستقبل حماية للوطن، وبياناً لرسالته، ونشرًا لمبادئه، ومنعاً للإضرار به، وتحريراً لخيرته وأبنائه، ومدافعة عنه أمام أعدائه.

١- ينظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، (٤٠٣٧)، وباب قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق، (٤٠٣٨)، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، (١٨٠١).

٢- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، (٤٤٢٤)، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل، (١٧٧٤).

## ○ المرحلية والتدرج

ليس التخطيط من حيث هو استراتيجية لحماية الوطن بالفعل العشوائي، أو بمثابة الطفرة الفجائية، أو بالتخبط في أمور لا رابط بينها ولا نظام؛ وإنما هو عمل منظم فاعل، يقوم على الانتباه إلى أهمية الوقت، ولوازمه، وحاجاته، ومراعاة أولوياته، ومراقبة تدرجاته، والمراحل التي ينبغي أن يمر فيها ليتم كما يريد أبناء الوطن ويسعون لتحقيقه.

وأكبر أنموذج على هذه المرحلية والتدرج النبوي هي تلك الفروق الجوهرية والأساسية ما بين المرحلتين المكية والمدنية من الدعوة، فلكل مرحلة منهما خصائصها، وميزاتها، ومنهجياتها، وأساليبها، وخططها، ويمثل لذلك بما تدرج به الوحي من تعامل مع أعداء هذا الدين، فقد بدأهم بالتعامل السلمي بالدعوة اللسانية، وكف الأذى، ثم بتحمل التعذيب، والهجرة، ثم أذن للمسلمين بقتال أعدائهم؛<sup>(١)</sup> فبدأت مرحلة الجهاد. وكل ذلك ضمن إطار عملي يقوم على مبدأ السعي لتحقيق تمكين الدين ووطنه بتدرج ودون تعسف أو شطط، أو ميل إلى التطرف، أو الإفراط، وإنما استخدام الوسيلة اللازمة بالقدر اللازم الموفى بتحقيق المصلحة، مع التزام الشروط الإنسانية \_ الربانية أصلاً \_ في كل ذلك، وانظر مثلاً شروط الحرب ووصايا النبي ﷺ للغزاة المجاهدين.<sup>(٢)</sup>

## ● ثانيًا: وسائل بنائية

حتى لا يكون التخطيط لحماية الوطن فرديًا شخصيًا، وبطريقة عشوائية مشتتة؛ لا بد من روابط وأنظمة تجمع عناصره، وتؤلف أجزائه لتقدمه متكاملًا متناسقًا يستحق الإعجاب والانبهار بما ينتج عنه من آثار وثمار، وفي سبيل ذلك يمكن الحديث هنا عن ثلاث وسائل لبناء هذا التخطيط بقوة ورسوخ جدير باستراتيجية حماية الوطن التي نرجوها:

١- ينظر الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الجهاد، (٢٣٧٦)، والترمذي في سننه، كتاب جماع أبواب القراءات، باب "ومن سورة الحج"، (٣١٧١)، وحكم عليه الترمذي بالحسن، والنسائي، السنن الكبرى، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، (٣٠٨٥)، وأحمد في المسند، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١٨٦٥).

٢- صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب "تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها".

○ المؤسسات (البنية الأساسية)

كان أول ما بدأ به النبي ﷺ إقامة وطن المسلمين الأول في المدينة المنورة هو بناء المسجد،<sup>(١)</sup> ذلك المسجد الذي لم يكن مركز عبادة وتقرب إلى الله فحسب، وإنما كان عبارة عن مركز القيادة (قوات الأمن)، ودار الحكم (الحكومة)، وبيت القضاء (المحكمة)،<sup>(٢)</sup> ومنزل الثقافة والعلم (المدرسة والجامعة)،<sup>(٣)</sup> وديوان استقبال الوفود (وزارة الخارجية)؛<sup>(٤)</sup> وعليه، فهو الممثل الأنموذج لمؤسسات الدولة فيما ينبغي أن تكون عليه من القداسة والمكانة.

ولقد كان للمسجد في عصر النبوة تلك القدسية والمكانة، التي جعلته يجمع مؤسسات الدولة الناشئة بين جدرانها، وفيما تلا ذلك من عصور انفصلت تلك المؤسسات مكانياً عن المسجد، وبسبب ازدياد مهامها وأدوارها، وصعوبة استمرارها على الشكل الأول متضمنة داخل المساجد، مما أدى إلى نشوء دار الحكم، ودار القضاء، وبيت المال، والمستشفيات، والمدارس، وما إلى ذلك؛ تلك المؤسسات التي كانت نواة تشكيل الوزارات الخاصة بكل مجال فيما بعد.

وبما يختص بموضوعنا \_ التخطيط لحماية الوطن \_ فقد كان بناء الرسول ﷺ للمسجد في أوائل خطوات بناء المدينة المنورة دليلاً واضحاً، لما للمؤسسات الدولة من أهمية مركزية في حماية الوطن، فالمؤسسة \_ المسجد، أو ما انبثق عنه \_ هي المكان الخاص الذي يمارس فيه رجال الوطن استراتيجيات التخطيط لحماية الوطن، إلى جانب مهمّاته الأخرى الأساسية المتمثلة بحماية الدين، ونشر دعوة الإسلام، الأصل الذي تنفرع عنه حماية الوطن بوضعه سبيلاً من سبل إقامته.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا والتنبية عليه لأهميته، أن تلك المؤسسات التي تقوم على حماية الوطن والاهتمام بمجالاته المختلفة من وزارات وهيئات ومؤسسات لها من القدسية والمكانة ما للمسجد في حياة المسلم، فوقتها، وأبنيتها، والعمل فيها، والانتماء إليها، والاهتمام بها، كله له من الشرف والأهمية النصيب الوافر، كما أن له بالتالي الأجر العظيم.<sup>(٥)</sup>

- ١- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ابتناء مسجد النبي ﷺ، (٥٢٤).
- ٢- صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من قضى ولاعن في المسجد، (٧١٦٦)، وفيه "فتلاعنا في المسجد"، وباب من حكم في المسجد، (٧١٦٧).
- ٣- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم والفتيا في المسجد، (١٣٣).
- ٤- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، وحديث ثمامة بن أنال، (٤٣٧٢).
- ٥- هذا الرأي اجتهاد الباحث، ولم أجد في قراءاتي من أشار إلى قدسية هذه الأماكن والمؤسسات وحرمتها

○ الخدمات (البنية التحتية)

يختص جزء من بناء المسجد النبوي في أول مرحلة تكوين دولة الإسلام الأولى بالخدمات، فقد كان المسجد يقدم لمرتديه العلم، والاستشارة، والنصح.<sup>(١)</sup> وفي أحيان كثيرة كان يمددهم بالطعام والشراب خاصة للضعفاء والمحتاجين (أهل الصفة مثلاً)،<sup>(٢)</sup> وأحياناً كان يتحول جزء من المسجد لمستشفى ميداني لعلاج جرحى معارك المسلمين،<sup>(٣)</sup> وربما غدا معسكراً تدريبياً لمنافسات الجنود،<sup>(٤)</sup> ومن خلاله كان يتم توزيع الصدقات وأموال الزكاة على محتاجيها.<sup>(٥)</sup>

وكل ذلك وغيره هو من أهم الخدمات التي ما فتئت مؤسسة الدولة تقدمها لأبنائها، وقد كان النبي ﷺ أول من أسس أطرها، وأقام بناءها، وذلك من خلال بنائه للمسجد \_ الممثل لمؤسسات الدولة الحديثة \_ وعبر ما كان يقدم فيه للمسلمين وغيرهم \_ أبناء الوطن \_ من خدمات، ومن خلال السوق الذي ورد في بعض الآثار أنه أسسه كذلك في بداية قدومه \_ عليه الصلاة والسلام \_ إلى المدينة.<sup>(٦)</sup>

كقدسية المسجد وحرمة، مع التأكيد على الفارق بينها وبين المسجد في المكانة والقدسية، ويمكن القول بحرمتها ومكانتها بناءً على ما ذكرته من أن المسجد كان يحتويها كلها، وأنها انفصلت عنه، بالإضافة إلى ما هو مقرر في الشريعة عن حرمة المسلم، وماله، ووقته، وما قامت هذه المؤسسات إلا بجهود هؤلاء، فلها حرمة مستمدة من حرمتهم.

- ١- صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، (٢٢٠).
- ٢- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، وتخليهم عن الدنيا، (٦٤٥٢)، وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، (٢٠٥٥).
- ٣- صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الخيمة في المسجد للمرضى وغيرهم، (٤٦٣).
- ٤- صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب أصحاب الحراب في المسجد، (٤٥٤، ٤٥٥).
- ٥- صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب القسمة وتعليق القنو في المسجد، (٤٢١).
- ٦- أخرج ابن شبة بسنده في كتابه "تاريخ المدينة" أثرًا عن عطاء بن يسار قال: "لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لِلْمَدِينَةِ سُوقًا أَتَى سُوقَ بَنِي قَيْنُقَاعَ، ثُمَّ جَاءَ سُوقَ الْمَدِينَةِ فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ: "هَذَا سُوقُكُمْ، فَلَا يُضَيِّقُ، وَلَا يُؤْخَذُ فِيهِ حَرَجٌ"، ابن شبة، تاريخ المدينة، (٣٠٤/١).

كما أن نظام جمع الزكاة، وتوزيعها، وتكليف الرجال القادرين على ذلك،<sup>(١)</sup> ومحاسبتهم،<sup>(٢)</sup> بما يشابهه — إن لم يفق — نظام الضرائب في الدول الأولى عالمياً، هذا النظام أُنمذج على حسن التخطيط والتنفيذ لتقدم الخدمات لأبناء الوطن، وزد على ذلك ما فعله النبي ﷺ من توزيع لغنائم المعارك، والفيء، وإعطائه للمؤلفة قلوبهم العطاء الكثير<sup>(٣)</sup> لكسب ودّهم، واستمالة ولأئهم، وكل ذلك من خدمات — مادية — تعزز من قوة الوطن وحمانيته واستقراره.

### ○ العلاقات (البنية الاجتماعية)

إذا كانت الخدمات تختص بالجانب المادي الذي تقدمه الدولة لأبنائها، فإن قوة العلاقات تتعلق بالجانب المعنوي منه، وتشكل البنية الاجتماعية للدولة، وقد كانت من أوضح النقاط التي خطط النبي ﷺ لإقامتها، ونفذها في المدينة المنورة، تلك المؤاخاة الخالدة بين المهاجرين والأنصار.<sup>(٤)</sup> نعم؛ فزيادة على حل تلك المؤاخاة للإشكال الناجم عن هجرة مجموعة كبيرة من البشر، ودخولهم إلى مجتمع المدينة دون موارد تذكر، فقد تركوا أموالهم وبيوتهم وراءهم في مكة، وهو إشكال وجودي هام، وزيادة على حل هذا الإشكال أسست تلك المؤاخاة لمجتمع قوي متماسك، ضرب أروع الأمثلة في الإيثار، والكرم، والتكافل، والتعاون،<sup>(٥)</sup> مما كان له الدور الأهم في قوة الدولة الناشئة، وفي تلاحم أبنائها وتفوقها.

ومهمة التخطيط لحماية الوطن لا غنى لها عن تقوية روابط المجتمع، وإقامة العلاقات الغنية

١- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، وترد في الفقراء حيث كانوا، (١٤٩٦)، وباب قول الله تعالى "والعاملين عليها"، (١٥٠٠)، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة، (١٠٧٢).

٢- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى "والعاملين عليها"، (١٥٠٠)، وفيه "اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنَ الْأَسَدِ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، يُدْعَى ابْنَ اللَّبْتِيَّةِ فَلَمَّا جَاءَ حَاسِبُهُ".

٣- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، (١٠٥٩)، وباب البخاري في صحيحه باب "المؤلفة قلوبهم".

٤- صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم.

٥- ينظر مثلاً صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، (٣٩٣٧).

بين أفرادهِ وفئاتهِ المختلفة. وغير بعيد عن ذلك تلك المعاهدة التي وضعها النبي ﷺ لتنظيم علاقات مجتمع المدينة المنورة بين فئاتهِ؛<sup>(١)</sup> داخليًا \_ المسلمين (مهاجرين وأنصار) واليهود والمشركين \_ وخارجيًا مع المحيطين بالمدينة من الأعراب والقبائل.

كذلك، ليست المؤاخاة والمعاهدة هي ما رسخ علاقات مجتمع المدينة فحسب؛ بل إن الأخلاق الإسلامية الرفيعة التي جاء النبي ﷺ متممًا لها،<sup>(٢)</sup> ولما تحمله من قيم بنائية؛ كان لها الدور الأهم في شد أواصر الروابط بين أفراد المجتمع، كالصدق، والأمانة، والوفاء، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وسلامة الصدر، والعفة، وغيرها، مما لها القيمة الكبرى في استقرار المجتمع، وتعايش أفرادهِ وفئاتهِ، وهي وسيلة رئيسة في التخطيط لحماية الوطن وتقويته.

### ● ثالثًا: وسائل مساندة

تلك الوسائل الأساسية من قراءة للواقع، واستشراف للمستقبل، ومرحلية للتخطيط، وتدرج فيه، تبنيتها تلك المؤسسات، وتؤسس لها الخدمات، وتنظمها العلاقات، تحتاج إلى مجموعة من الوسائل المساندة ليتم التخطيط ويتنفذ بأروع صورهِ، وأكمل أمثلته الواقعية في حياة المجتمع والوطن، فللمعرفة دورها، وللرياضة سهمها، وللفن حاجته، وفيما يأتي بيان هذه الوسائل المساندة ...

### ○ المعرفة (سمة الثقافة والتربية)

لم يكن النبي ﷺ غائبًا \_ حاشاه \_ عن حاجة المجتمع للمعرفة، ودور المعرفة في بناء الوطن وتقويته، كيف لا؟ وأول كلمة أنزلت عليه من كتاب ربه "اقرأ". وهو الذي نقل الله به العرب من أميين إلى أهل كتاب: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ الجمعة: ٢.

١- ينظر صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، (١٧٦ - ١٧٧).

٢- أخرجه الحاكم، المستدرک على الصحيحين، كتاب تاريخ المتقدمين من الأنبياء، باب "ومن كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوة"، (٤٢٢١)، وقال عنه: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، والبيهقي، شعب الإيمان، صلة الأرحام، (٧٦٠٩)، والإمام أحمد، المسند، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، (٨٩٥٢).

ولذا نجد النبي ﷺ يتخذ كتابًا للوحي،<sup>(١)</sup> ويحض زيد بن ثابت على تعلم العبرية،<sup>(٢)</sup> بل ويأخذ فدية أسرى بدر بأن يجعل على كل منهم تعليم عشرة من المسلمين الكتابة والقراءة مقابل فك أسره،<sup>(٣)</sup> وكل ذلك من ممارسات وغيرها، تشكل مجموعة من الخطوات الواضحة في طريق بناء المعرفة في أبناء المجتمع، لما لهذه المعرفة من دور في تقويته وحمايته.

وللمعرفة الدور الأكبر في رقد التخطيط ومساندته، فالعلم سبيل التخطيط الأمثل، والمعين على حسن تنفيذ الخطط اللازمة لتقوية المجتمع، والعلم سبب أساس في رقي الأوطان وتكميلها، يقوم التخطيط عليه، وتتشكل عناصره من خلاله، والجهل بالمقابل عدو الوطن، وسبب في ضعفه. وعليه، فالمعرفة أساس من أساسات التخطيط لحماية الوطن.

#### ○ الرياضة (طريق القوة والقدرة)

قالوا: العقل السليم في الجسم السليم، وهي مقولة صحيحة تؤكد ضرورة بناء الأجساد، وتجعلها كأهمية بناء العقول، وإن كانت العقول تبنى في ساحات العلم والمعرفة، فإن الأجساد تبنى في مجالات الرياضة والصحة، والوطن الذي يخلو أبناءه من الأمراض والأوباء، ويتحلون بالصحة والقوة والقدرة، هو وطن قوي متقدم حيوي.

ولهذا جاء في تعاليم الإسلام \_ وتم تطبيقه في المدينة \_ ما جاء من الاهتمام بالنظافة،

١- ينظر مثلاً البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله "لقد جاءكم رسول من أنفسكم...، حديث (٤٦٧٩).

٢- (قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ)، أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، حديث (٣٦٤٥)، والترمذي في سننه، كتاب أبواب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في تعليم السريانية، حديث (٢٧١٥)، وقال عنه حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده، مسند زيد بن ثابت، حديث (٢١٥٨٧)، غيرهم.

٣- أخرج ابن زنجويه في كتاب الأموال، باب الحكم في رقاب أهل الذمة من الأسارى، حديث (٤٧٣) بسنده عن الشعبي قال: "كَانَ فِدَاءُ أُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَمْرُهُ أَنْ يُعَلَّمَ عَشْرَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْكِتَابَةَ"، وأخرجه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن عباس، حديث (٢٢١٦)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط.



والصحة،<sup>(١)</sup> والتداوي،<sup>(٢)</sup> وبناء الأجساد من خلال السباحة، وركوب الخيل، والرماية،<sup>(٣)</sup> والسباقات والتنافس في القوة،<sup>(٤)</sup> وممارسة أعمال الزراعة،<sup>(٥)</sup> والرعي، وتسيير قوافل التجارة،<sup>(٦)</sup> وتكريم أصحاب الحرف اليدوية،<sup>(٧)</sup> والدعوة إلى العمل، ودفع الكسل،<sup>(٨)</sup> وذم التسول،<sup>(٩)</sup> ومحاربة

١- في الحديث الشريف "إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ"، أخرجه الترمذي في سننه، كتاب جماع أبواب الأدب، باب ما جاء في النظافة، (٢٧٩٩)، وقال عنه حديث غريب.

٢- لكثرة ما ورد في السنة الشريفة من أحاديث تحض على التداوي نجد البخاري قد عنون كتاباً خاصاً بالطب النبوي، ينظر صحيح البخاري، كتاب الطب، وفي صحيح مسلم كثير من الأحاديث كذلك في فضل التداوي، ينظر مثلاً كتاب الأشربة.

٣- ينظر في الرماية مثلاً صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، (٢٨٩٩)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، (١٩١٧)، وأما السباحة فقد أخرج البيهقي بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "عَلِّمُوا أَبْنَاءَكُمْ السَّبَّاحَةَ وَالرَّمِيَّ"، البيهقي، شعب الإيمان، حقوق الوالدين والأهلين، (٨٢٩٧)، وفي الرواية عبيد العطار وهو منكر الحديث، ينظر تخريج الندوي على شعب الإيمان، (١٣٥/١١)، وأما ركوب الخيل ففي صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، (٢٨٤٩)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، (١٨٧١)، (١٨٧٢).

٤- ينظر مثلاً صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب السبق بين الخيل، (٢٨٦٨)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب المسابقة بين الخيل وتضميرها، (١٨٧٠).

٥- صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، (٢٣٢٠)، وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، (١٥٥٢)، وفيه "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزُقُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ".

٦- يستأنس لذلك بما في صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب في قوله تعالى "وإذا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً"، (٨٦٣).

٧- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمل يده، (٢٠٧٢)، وفيه "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ".

٨- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، (١٤٧٠)، وفيه "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَبِطَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا، فَيَسْأَلَهُ أَوْ مَنَعَهُ".

٩- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، (١٠٣٨)، وباب كراهة المسألة للناس، (١٠٤٠)، وفيه "لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ، وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُرَعَةٌ لَحْمٍ".

التواكل، والضعف،<sup>(١)</sup> وما إلى ذلك من وسائل تقوية الأجساد؛ للتخطيط لبناء رجال الوطن، وحملة لواء قوته، وثروته البشرية.

وفي كل ما سبق تفصيل وتأكيد أهمية الرياضة، وكونها وسيلة من أهم الوسائل المعينة للتخطيط لحماية الوطن، تسهم في قوة أبنائه، ومنعة جانبه، وترسيخ هيبته، وتمكينه في الأرض.

### ○ الفن (سبيل الوعي والتميز)

قد يظن ظان أن الفن اختراع غربي ليس فيه من الإسلام شيء، وكثير من أبناء المسلمين يجارونه علناً \_ ولعلمهم يتابعونه بشغف سرّاً \_ وذلك لجهلهم برأي الشرع فيه، ولخلطهم بين ما يرونه من انحطاط في بعض مجالات الفن، ما يجعلهم يرمونه كاملاً بسبب هذه الممارسات أو التوصيفات، والأمر ليس كذلك!

ونحن نجد في مجتمع المدينة، وفي حياة النبي ﷺ اهتماماً ورعاية لمجالات الفن التي كانت معروفة في ذلك الزمان، كالشعر، والخطابة،<sup>(٢)</sup> وهو ديدن الإسلام، ودأب نبيه عليه الصلاة والسلام، بعدم إغفال أي جانب إنساني يهتم به البشر، وله شأن حيوي في وجودهم، ونحن نرى بأم أعيننا دور الفن اليوم، وأثره في المجتمعات وميادين الحياة المختلفة، والحديث بلا شك عن الفن المنضبط الملتزم الخالي من المحاذير الشرعية بالقطع وليس هو الفن المطلق المنفلت الذي نراه في عصرنا، بل هو الفن الراقى، الدافع للمعالي، المهذب للنفوس، والمروح عن الأرواح، والمنضبط بصراط الله وشرعه.

ولا يحسن بمن يخطط لحماية وطنه وتقويته، وترسيخ مكانته في عالم اليوم أن يتغافل، أو يتكاسل عن الاهتمام بدور هذا الفن، واستعماله بوصفه وسيلة ضرورية من وسائل تنفيذ استراتيجيات حماية الوطن؛ إذ يجدر بنا تفعيل دور الشعر، والمسرح، والخطابة، والتمثيل، والإنشاد،

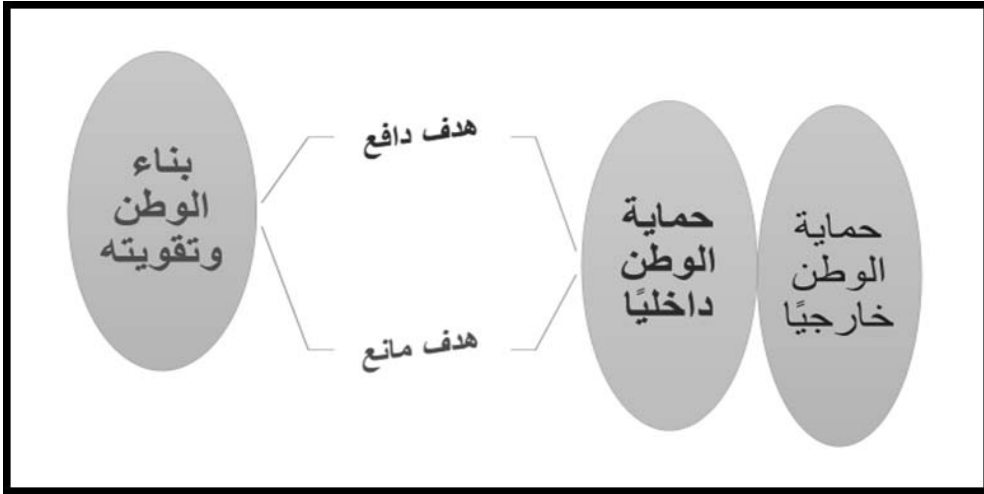
١- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، (٢٦٦٤)، وفيه "المؤمنُ القويُّ، خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خيرٍ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ ...".

٢- ينظر مثلاً صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضل حسان بن ثابت رضي الله عنه، (٢٤٨٥).

والقصة، والرواية، والمسابقات والمنافسات في كل مجال منها، وتشجيع المميزين في هذه المجالات،<sup>(١)</sup> ودعم القائمين عليها، لأجل إشباع هذا الميدان بالعمل الجاد الهادف، واستخدامه لنشر الوعي، وتقوية أفراد المجتمع، وتهذيب أحاسيسهم، وعواطفهم، فالفن غدا دليل الرقي، ومقياس التقدم، وهذا ما يجعله من أولويات ما يجب الاهتمام به من وسائل للتخطيط لحماية الوطن.

### المطلب الرابع: أهداف التخطيط النبوي لحماية الوطن

حتى لا تكون أركان التخطيط تلك ووسائل تنفيذها مجرد تنظير علمي جاف، أو وقائع عملية وتصرفات سلوكية عشوائية لا يحكمها هدف أو مقصد؛ فإنه لا بد من أهداف سامية تقف من وراء هذا التخطيط، تكون بمثابة رؤية شاملة واعية، وأفكار محفزة ودافعة تقوم الأركان والوسائل بترجمتها واقعاً في مفاصلها المتعددة للحصول عليها، وفيما يأتي تفصيل هذه الأهداف الباعثة والحركة لخطط حماية الوطن ...



#### • أولاً: بناء الوطن وتقويته (هدف دافع)

بناء الوطن وتقويته تقع بلا شك في رأس قائمة أهداف التخطيط لحماية الوطن؛ فالوطن

١- ينظر مثلاً تشجيعه عليه الصلاة والسلام لكعب بن زهير لما أنشده برده المشهورة "بانت سعاد"، أخرج القصة الحاكم، المستدرک على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر كعب وبحير ابني زهير رضي الله عنهما، (٦٤٧٨)، وصححه.

القوي ذو البناء الماكن القويم، وصاحب الخطط المحكمة، والتخطيط المتقن هو أعلى مطالب أبناء هذا الوطن، وأعظم مقاصدهم، وأحوج ضروراتهم، ولذا فإن هدف التخطيط الرئيس \_ من حيث هو استراتيجية لحماية الوطن \_ هو بناء الوطن القوي.

كذلك لا شك أن هذا يتطلب في استراتيجية التخطيط لحماية الوطن مجموعة من السمات اللازمة لإنجاز هذا الهدف العظيم "هدف بناء الوطن القوي"، ومن هذه السمات أن يكون هذا التخطيط شاملاً لكل مناحي الحياة؛ إذ لا يحسن أن يكون في جانب دون الآخر، فقوة الوطن وبنائه تتطلب نهضته ونموه واستقراره في كل قطاعاته، السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وخذ مثال ذلك ودليله ما أقامه النبي ﷺ من نظام مدني لدولته في المدينة المنورة، قام على كيان سياسي يخطط لتحركاته فيه بدقة، وكيان اقتصادي للمدينة معتمد على مقوماتها من تجارة وزراعة، كما لم يغفل ﷺ أي جانب مهم آخر كالنظام الاجتماعي، أو الأخلاقي، أو نظام العقوبات، ... إلخ.<sup>(١)</sup>

وينبغي مراعاة التخطيط لحماية الوطن ليس بتقوية جميع مجالاته فحسب، دون تقديم أحدها على الآخر، بل أيضاً بالسعي لتكامل هذه المجالات جميعها، دون إغفال جانب منها، ولقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام مثال هذا التكامل والتوازن في تخطيطه، حيث حرص عليه الصلاة والسلام على بناء القيم الأخلاقية، والقيم الاجتماعية، إلى جانب تقوية الوطن عسكرياً وسياسياً بتكامل وتوافق.

كما أن من سمات هدف تقوية الوطن أنه يستلزم أن يكون التخطيط مستفيداً من كل مقومات الوطن وثرواته، وأن تكون خططه متوائمة ومتوافقة مع ما في الوطن من مقدرات وإمكانات، بل وما يمكن استقدامه كذلك وتفعيله من غيرنا، كحفر الخندق مثلاً.<sup>(٢)</sup>

#### ● ثانياً: حماية الوطن من الأعداء والدفاع عنه (هدف مانع)

وكما أن تقوية الوطن هدف التخطيط الأول، فإن حمايته داخلياً وخارجياً هي الهدف الثاني؛

١- يحتاج موضوع تكامل النظم الإسلامية، واهتمام النبي ﷺ جميعاً دون إغفال أحدها، أو تفضيله على غيره، يحتاج إلى بحث متكامل، بله رسالة ماجستير أو أطروحة دكتوراه.

٢- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، (٢٨٣٥ \_ ٢٨٣٧).

إذ لا بد لقيام الوطن بدوره وتمكينه في وسط صراع التنافس الحضاري على الأرض من قدرة على الوقوف في وجه أعداء الداخل والخارج، منعاً لهم من تحقيق مآربهم، ومقاصدهم، ومخططاتهم، التي بلا شك ستستخدم مصالحهم لا مصالح الوطن. ولذا، فإن من الأهمية بمكان أن يفصل الحديث في كل جانب من جانبي الحماية هذين كما يأتي ...

### ○ داخلياً (من الدخلاء والمنافقين)

لم يخل حتى مجتمع المدينة المنورة في عصر النبي ﷺ من المنافقين والدخلاء، بل إنه يمكن القول: إن المجتمع القوي المتمكن هو الذي تبرز فيه فئة المنافقين،<sup>(١)</sup> فما الحاجة لنفاق دولة ضعيفة يمكن المجاهرة بعداوتها ومخالفتها؟!، لكن الدولة القوية والوطن المتماسك يغيظ أصحاب النفوس الضعيفة والنوايا السيئة والمصالح المييبة؛ إذ هو يمنعهم من ممارسة اتجاهاتهم السلبية، وسلوكياتهم الخاطئة، فينتقلوا من العداوة المعلنة \_ لانعدام القدرة عليها \_ إلى النفاق والعداء الخفي.

ومن أهم أهداف التخطيط حماية الوطن من هؤلاء الدخلاء؛ فخطرهم أشد من أعداء الخارج، وهم أقدر على الإيذاء، فإنهم أعرف بمواطن الضعف من ناحية، وخفائهم وعدم معرفتهم بعنصر قوة في صالحهم من ناحية أخرى، لكي أسارع القول إن هذه القوة مدحورة مغلوبة، وبمنهجين منضبطين ناجحين، أحدهما رباني مستقى من القرآن الكريم، والآخر نبوي مستمد من السنة؛ فيما يأتي بياهما:

١. عدم الاهتمام بتحركاتهم، وإهمال مناوشاتهم، والاستمرار في إتمام الخطط العملية لمصلحة الوطن، يقول الله سبحانه: ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الحجر: ٩٤ - ٩٥، فاستناف اتجاهك الإيجابي، وعملك الصحيح، وإنفاذ تخطيطك، وتحقيق برامجك، وتطبيق ما تصبو إليه، كل ذلك هو أكبر رد على نفاق المنافقين، واستهزاء المستهزئين، وهو ما يكتهم، ويرد كيدهم، ويبطل مؤامراتهم، وهذا هو الرد العملي الفعال.

٢. فضح مآربهم، وكشف مقاصدهم، وإعلان طرقهم، للحذر منها وأخذ الحيطة، وللتنبية عليها

١- ينظر مثلاً صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، (٢٢٩، ٢٥٦، ٢٨٦-٢٩٠، ٣٧٤).

ووعيتها، لما لذلك من تمكن وقدرة على مواجهتها وردھا، وهذا كان حال النبي عليه الصلاة والسلام مع المنافقين، فإن تبيكته لهم، وإفشاله لخططهم، من مثل هدمه لمسجد "الضرار"<sup>(١)</sup>، وإقامة الحد على المتكلمين في حادثة الإفك<sup>(٢)</sup>، وفضح مكائدهم بالامتناع عن الصلاة عمن مات منهم<sup>(٣)</sup>، وعدم إشراكهم في القتال بعد تخلفهم عنه<sup>(٤)</sup>، وتبليغ أسمائهم لحذيفة بن اليمان كاتم سر النبي عليه الصلاة والسلام<sup>(٥)</sup>، وما إلى ذلك، كله من باب إبطال كيدهم، وردّه إلى نحورهم، والله الموفق.

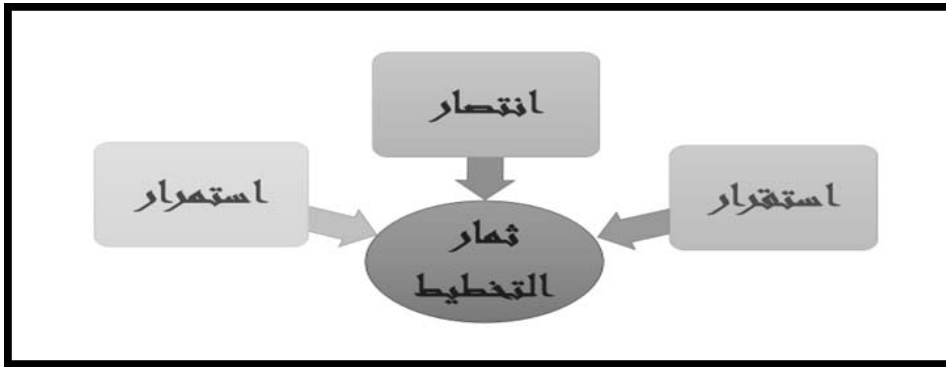
### ○ خارجياً (من الأعداء والمنافسين)

الوطن القوي المتماسك داخلياً هو الأقدر على مواجهة التحديات الخارجية، ولا يخلو العالم الخارجي من صراع وتنافس في المصالح والسيطرة، وليس مثل التخطيط لقوة الوطن الداخلية في تمكين الوطن خارجياً عند المنافسين، كما عند الأعداء على حد سواء. ولذا، فإن من أعظم أهداف التخطيط لحماية الوطن هو منع الأذى عنه، ورد أطماع الأعداء فيه، والإسهام في جعله في مصاف الدول الكبرى التي لها المكانة والأهمية والتفوق الحضاري.

وما انفكت أوطان الإسلام معرضة لهجمات الأعداء، وأطماع المنافسين، على مر العصور، وما زالت أوضاعنا تتذبذب بين تفوق وانتصار، أو هزيمة وتشنت، تنتصر أوطاننا تارة فتبكت أعداءها، وتَهْزَم أحياناً فينال منها عدوها بعض النيل، وهكذا هي الأيام دول ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾<sup>(١٤٠)</sup> آل عمران: ١٤٠.

- ١- عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، أمر مسجد الضرار عند القفول من غزوة تبوك، (٣٩٤).
- ٢- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى "لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً"، (٤٧٥٠).
- ٣- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى "ولا تصل على أحد منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره"، (٤٦٧٢).
- ٤- إشارة لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجَ مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ نُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾<sup>(٨٣)</sup> التوبة: ٨٣.
- ٥- صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما، (٣٧٤٣).

ومن أهم واجبات التخطيط لحماية الوطن: الانتباه إلى دوامة الصراع الحضاري بين الدول، وعدم الغفلة عن كيد الأعداء، ومخططات المنافسين، والاستعانة لأجل ذلك بكل ما سبق بيانه من أركان ووسائل للتخطيط لحماية الوطن بوعي ودقة وحزم وقوة، إيماناً في ذلك وقدوتنا سجل غزوات النبي ﷺ ومعاركه مع أعداء الإسلام على اختلاف مشاربهم من مشركين ويهود وروم.<sup>(١)</sup>



### المطلب الخامس: ثمار التخطيط النبوي لحماية الوطن

رأينا سابقاً انسجام عناصر التخطيط لحماية الوطن، وامتزاجها معاً، وتناغمها فيما بينها، فالأركان تحقق الأهداف عبر تطبيق الوسائل، والأهداف ضابطة للأركان، وموجهة للوسائل، والأهداف محرّكة للأركان، ومفعّلة للوسائل، وكل ذلك يشكل المشروع الشامل لحماية الوطن من خلال استراتيجية التخطيط؛ إلا أن هذه الاستراتيجية لا تكتمل إلا بأخر عناصرها المتمثل بشمارها؛ والتي هي انعكاس عن الأهداف سابقة الذكر، ولكن بعد تحقيقها في الواقع، وهذا بيت القصيد، والنتيجة النهائية التي نرى من خلالها فعلياً نجاح هذه الاستراتيجية وآثارها الواقعية. وفيما يأتي بيان هذه الثمار المتحصلة من استراتيجية التخطيط النبوي.

١- ينظر في ذلك مثلاً صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب كم غزا النبي ﷺ، وتأمل في ترتيب الغزوات تصاعدياً خلال أبواب الكتاب؛ كدلالة تمكين الله لدينه وأتباعه، وينظر كذلك صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب عدد غزوات رسول الله ﷺ.

## ● الاستقرار

الوطن المستقر حلم جميع الأمم وأمنيتها، وهو عنوان التقدم، ودليل التحضر، وبرهان النجاح، وهو منتهى طموح أبناء الوطن، وغاية مخططاتهم ومشاريعهم، ومادة هذا الاستقرار هي تحقيق الأمن والأمان لأبناء الوطن، الأمن الاجتماعي والطمأنينة على الضرورات الوجودية من نفس ودين وعقل ومال وعرض، والأمان الإنساني بتحقيق الحياة الكريمة المصونة من جميع جوانبها، وفي كافة مجالاتها، وخذ مثال ذلك ما تحقق في مدينة الرسول ﷺ من نماء وتقدم وتوسع.<sup>(١)</sup>

وليس المقصود بالاستقرار خلو الوطن من الإشكالات، أو المعيقات، أو حوادث السلبية، أو حتى الجرائم والكبائر، فلم يخل من ذلك مجتمع حتى مجتمع المدينة المنورة الأنموذج، لكن المقصود هو أن يكون وضع المجتمع العام مستقرًا مطمئنًا ثابتًا، حتى وإن تغشته مجموعة من الظروف، أو تعرض لبعض الإشكالات، شرط ألا تكون هذه العوارض غير مستمرة، ولا دائمة؛ أي ألا تعد ظواهر منتشرة في المجتمع بمعنى آخر.

والاستقرار من حيث هو ثمرة التخطيط لحماية الوطن وأثره الواضح في واقع المجتمع؛ يمكن اعتباره بمثابة معيار لقياس مقدار تقدم الوطن وتحضره، وينبغي أن تبرز مظاهره في ميادين الوطن ومجالات بنائه كافة، فنمو اقتصاد الوطن، واستقلاله السياسي، وتقدم الخدمات فيه، وتفوقه العلمي، وتطوره تكنولوجياً، ورقيةً فنيًا وإعلاميًا، وقوة أبنائه صحياً ورياضياً، كل هذا وغيره يشكل حقولاً معيارية لقياس مقدار تقدم الوطن وقوته، وكلها جوانب يجمعها "الاستقرار" بوصفه ثمرة لإتقان التخطيط، وحسن تنفيذه، وتحقيق هدفه الأول المتمثل بقوة الوطن وبنائه المستقر.

## ● الانتصار

من أهم دلائل قوة الأوطان وتقدمها انتصارها على أعدائها ومنافسيها، ومن أعظم ثمار التخطيط لحماية الوطن هي نصره في معركة التمكين، وثباته في ظل الصراع الحضاري على الأرض، وقد مر بيان هدف من أهداف استراتيجية التخطيط يتمثل بحماية الوطن من الدخلاء والمنافقين

١- يشهد بذلك قدوم الوفود رغبة أو رهبة إلى مدينة رسول الله ﷺ، إما متابعين مسلمين، أو مستأمنين معاهدين، وتنامي عدد المسلمين حتى عدوا بالآلاف في حجة الوداع، ينظر صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، (٣٨٠ - ٣٩٥).



داخليًا، ومن الأعداء والمنافسين خارجيًا، وتحقيق هذا الهدف يتجلى في ثمرة الانتصار على كل هؤلاء وتبكيتهم والتفوق عليهم.

ولو أعدنا النظر في سيرة المصطفى ﷺ لتبين لنا بوضوح خاتمة مسيرته الدعوية، وقمة تحقيق انتصاره على أعدائه، والتي تمثلت في انتصاره على مشركي مكة الذين نافسوه وحاربوه السنين الطوال فاننصر عليهم أخيرًا بفتح مكة الفاصل،<sup>(١)</sup> كما نرى تمثل هذا الانتصار وتحقيق أهداف حماية الوطن في قضاء المسلمين على أعدائهم اليهود وإنهاء وجودهم في الجزيرة العربية بغزوة خيبر،<sup>(٢)</sup> ولقد كانت غزوتنا خيبر وفتح مكة في سنتين متتاليتين (السابعة والثامنة للهجرة)، تلاهما مباشرة عام الوفود<sup>(٣)</sup> الذي ظهر فيه تمكن دولة النبي ﷺ، والاعتراف بسيادتها، وترسخ جذور انتصارها، وثبوت شجرتها وفرعها، فكان الانتصار بذلك مهمة قد حققت ثمار تخطيط النبي لسيادة هذا الدين، وحماية وطنه.

### • الاستمرار

استقرار الوطن وانتصاره ثمرتان أساسيتان للتخطيط، وهما أساسا تقييم قوة الوطن وتقدمه، إلا أنهما لا يكفیان إن انقطعوا وما داما؛ فاكتمال ثمار التخطيط لحماية الوطن لا يتم إلا بكون هذه الحماية المتمثلة باستقرار الوطن وانتصاره مستمرة دائمة باقية لا تنقطع ولا تنتهي.

فدوام قوة الوطن، وبقاء استقراره، وتصاعد مسيرته، وتنامي مكانته وتمكينه، وازدياد طمأنينة أبنائه وسعادتهم، وثبات أوضاعه في شتى المجالات \_ السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ... كل ذلك مظاهر لاستمرارية تقدمه ونموه، وهي دلائل حسن التخطيط لحمايته، وثمارها الدانية المتحصلة للوطن وأبنائه.

ولنعد إلى سيرة المصطفى ﷺ حتى نرى مثال هذه الاستمرارية؛ حيث نجد الفرق واضحًا

١- ينظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة.

٢- ينظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر.

٣- ينظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني تميم، والأبواب التي تليه في تفصيل أخبار وفود قبائل العرب إلى المدينة.

بين خطته في مكة، ومخططاته في المدينة، وسنجد النقلة النوعية من مرحلة الخوف والفرع و ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ﴿١٠﴾ الأحزاب: ١٠، إلى مرحلة "اذهبوا فأنتم الطلقاء"،<sup>(١)</sup> ومن طور استئمان اليهود وموادعتهم، إلى إخراجهم من الجزيرة بعد غزوة خيبر،<sup>(٢)</sup> وقس على ذلك تصاعد مسيرة الإسلام في عصر النبوة وتناميها واستمراريتها التي أسهمت في إتمام المسيرة فيما بعد في عصر الخلفاء الراشدين وما تلاه من عصور الإسلام حتى وصلت دولة الإسلام إلى سدة العالمية، والتفوق الحضاري والإنساني.

ولقد ظهر هذا الاستمرار بوصفه ثمرة لاستراتيجية التخطيط النبوي في المدينة المنورة \_ وطن الإسلام الأول \_ زمن النبي ﷺ؛ فما زالت المدينة تنتقل من طور استقرار إلى طور انتصار، ومن مرحلة حرجة إلى مرحلة مطمئنة، ومن زمن صعوبة وعسر إلى عصر رخاء ويسر، ومن ضعف إلى قوة، ومن ثبات إلى رسوخ، ومن تمكين إلى حضارة، حتى نشرت \_ المدينة المنورة \_ أشعة نورها على العالم كله فيما بعد، مستمرةً في توسيع دائرة خيرها ورسالتها، استمرارية البقاء والنماء.

### الخاتمة

بعد هذا التجوال الممتع في رحاب السيرة النبوية العطرة، وعلى مائدة السنة النبوية الشريفة، لاقتطاف عناصر استراتيجية التخطيط لحماية الوطن، والاجتهاد في تجلية دقائقها، وإبراز أسسها ومبادئها، يخلص البحث إلى تقرير مجموعة من النتائج فيما يأتي بيانها:

- التخطيط من حيث هو استراتيجية نبوية لحماية الوطن يقصد به "التدبير الخفي المحكم لإنجاز أمر حماية الوطن على وجهها الأكمل" ولهذا الاستراتيجية عناصرها المتمثلة بأركانها ووسائلها وأهدافها وثمارها.

١- أخرجه البيهقي، السنن الكبرى، كتاب جماع أبواب السير، باب فتح مكة حرسها الله تعالى، (١٨٢٧٦)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (١١٦٣).  
٢- ينظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إجماع اليهود من الحجاز، وباب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب.

## التخطيط استراتيجية نبوية لحماية الوطن

- أركان هذا التخطيط ثلاثة هي: فكر رائد بمثابة الفكرة المحفزة والمرجعية له، وإنسان قائد متفاعل يحمل مهمته، وأدوات تساعد هذا التخطيط كالثروة المادية المتمثلة بقوة الاقتصاد، والثروة المعنوية التي يشكلها الإعلام، إضافة إلى استخدام وسائل التقنية وآليات "التكنولوجيا" للمساعدة في التخطيط لحماية الوطن.
  - لهذه الاستراتيجية وسائل لإتقان خططها وضمان حسن تنفيذها، وهي تنقسم إلى ثلاث مجموعات: (وسائل أساسية، ووسائل بنائية، ووسائل مساندة)، فالوسائل الأساسية للتخطيط تتجلى في وعي قراءة الواقع، والرؤيا الثاقبة لاستشراف المستقبل، وتدرج التخطيط مرحلياً، والوسائل البنائية تقوم على مؤسسات تؤسس للتخطيط، وخدمات ضرورية لتنفيذه، وعلاقات اجتماعية وثيقة تشد من أزره وتقويه، وأما الوسائل المساندة للتخطيط فتكوّنها المعرفة بوصفها سمة ثقافية وتربوية لأفراد المجتمع، والرياضة بَعْدَهَا طريقاً لقوة التخطيط وقدرته، والفن؛ لأنه سبيلٌ لوعي الوطن وتميز أبنائه.
  - لاستراتيجية التخطيط هدفان تسعى لتحقيقهما؛ أولهما هدف على مستوى دافع يقوم على بناء الوطن وتقويته، لينمو ويزدهر ويتقدم، وثانيهما هدف على مستوى مانع يحمي الوطن من الأعداء ويدافع عنه، ولهذا الهدف اتجاهان؛ الأول حماية الوطن داخلياً من الدخلاء والمنافقين، والثاني حمايته خارجياً من الأعداء والمنافسين.
  - وللتخطيط أخيراً ثمار يجنيها الوطن وأبناؤه تتلخص في استقراره الداخلي، وانتصاره على الأعداء، واستمرار تقدمه.
- ويوصي البحث ختاماً، بضرورة تكثيف الدراسات المنهجية والاستنباطية في حقل السنة النبوية، لاستخراج المبادئ الأساسية لموضوع حماية الوطن واستلهاً عناصره النبوية الشريفة، لإثراء الموضوع وبناءه وفق الإرشاد النبوي والتوجيهات الربانية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## المراجع

- الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق بيروت، دار القلم، الدار الشامية، ط ١ - ١٤١٢هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله (ت: ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري = الجامع الصحيح، القاهرة، دار الشعب، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني (ت: ٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، (تحقيق: محمد عبد القادر عطا)، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني (ت: ٤٥٨هـ)، شعب الإيمان، (حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخرجه أحاديثه مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية بيومباي - الهند)، الرياض - السعودية، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية بيومباي بالهند، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك (ت: ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، (تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر "ج ١، ٢"، ومحمد فؤاد عبد الباقي "ج ٣"، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف "ج ٤، ٥")، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ)، المستدرک علی الصحیحین، (تحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، نشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن

## التخطيط استراتيجية نبوية لحماية الوطن

- حنبل، (تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي)، الأردن، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد)، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، (تحقيق: محمد باسل عيون السود)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٨ م.
- ابن زنجويه أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني (ت: ٢٥١هـ)، الأموال، تحقيق: شاعر ذيب فياض، السعودية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ابن شبة، عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبدة بن ربيعة النميري البصري، أبو زيد (ت: ٢٦٢هـ)، تاريخ المدينة، تحقيق: فهمي محمد شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد، جدة، ١٣٩٩ هـ.
- صفي الرحمن المباركفوري (ت: ١٤٢٧هـ)، الرحيق المختوم، (مع تعديلات وزيادات علاء الدين زعتري وغسان محمد رشيد الحموي)، دمشق، دار العصماء، ط ١، ١٤٢٧ هـ.
- عمر، أحمد مختار عبد الحميد (ت: ١٤٢٤هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٩٧٩ م.
- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (ت: ١٧٠هـ)، العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مصر، دار ومكتبة الهلال.
- مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، صحيح مسلم = المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م.
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت:

- ١٤١٤ هـ - ٣ - دار صادر، بيروت، لسان العرب، ١٤١٤ هـ.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت: ٣٠٣ هـ)، السنن الكبرى، ط ١، (حقيقه وخرج أحاديثه حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه شعيب الأرنؤوط، قدم له عبد الله بن عبد المحسن التركي)، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- هارون، عبد السلام محمد، تهذيب سيرة ابن هشام، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٧ م.

حماية الأمن الوطني في السنة النبوية  
"مكافحة الفساد الإداري أنموذجاً"

الأستاذ الدكتور / عبد المحسن بن عبد الله التخيفي  
قسم الدراسات الإسلامية/جامعة الملك سعود- السعودية







## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد،

فإن مفهوم الوطن تطور من مجرد المكان الذي يستوطنه الإنسان، إلى مفهوم سياسي يرادف مفهوم "الدولة" المعاصر. وتبعاً لهذا التطور؛ تطوّر مفهوم المواطنة من مجرد الانتماء والشعور بالشوق والحنين إليه. إلى عقد اجتماعي يقوم على الالتزام بالواجبات، والحفاظة على المكتسبات.

ويشمل هذا العقد جميع المنتمين إلى الوطن سواء كانوا في موقع السلطة أو خارجها؛ فالكل يشملهم وصف المواطنة، وجميعهم مشتركون في وجوب الحماية، ومتفاوتون في قدر المسؤولية، بحسب ما لديهم من السلطات والإمكانات، فإنّ الأمانة على قدر المسؤولية والتمكين.

وتتعرض الأوطان إلى أنواع من المهددات التي تترىص بها شرّاً، وتستهدف دينها، وأمنها، وقيمها الاجتماعية، ومنظومتها الأخلاقية، ومقدراتها الاقتصادية. وهي مهددات تتجدد بحسب ما يجد لدى الناس من أحوال.

ومن جملة المهددات البالغة الضرر: الفساد؛ فإنه أشدها خطراً وأعظمها أثراً، بل هو المسؤول عن غيره من المهددات التي تنشأ في كنفه، وتتكاثر بسببه.

والفساد منظومة متصلة الحلقات، يؤثر بعضها في بعض، ويرقق بعضها بعضاً، فكل سلوك فاسد وراءه نفس تشرت الفساد، وبيئة موبوءة تنمو فيها الظواهر الفاسدة، ونظام إداري فاسد يمارس الفساد، أو يعجز عن إصلاحه.

ومن حلقات هذه المنظومة من الفساد: الفساد الإداري، فإنه المعوق الرئيس لخطط التنمية في جمع الدول، والمهدد الأبرز للسلم والأمن فيها.

فالدول لا يستقيم أمرها ويقوى شأنها إلا بوجود نظام صالح يحكمها، ولا يكون النظام مؤثراً

إلا أن يقوم عليه أكفاء ناصحون.

وحيثما أبصرت عينك جهلاً، وتخلّفاً، وتبديداً للثروات، واختلالاً في الأمن، فاعلم أن هذه الظواهر وراءها فساد إداري هذه بعض تجلياته.

وفي عالم اليوم تتنادى الدول إلى وضع الأنظمة واللوائح التي تحول دون استشراف الفساد الإداري، ومحاسبة المسؤولين المقصرين.

بل إن الأمر تجاوز الجهود المحلية إلى الجهود الدولية، فأنشئت هيئات ومنظمات دولية للتعريف بالفساد، ومراقبة أداء الدول. وأصبح مبدأ الشفافية أحد المعايير المهمة في تقييم الدول.

ويأتي موضوع الندوة في دورتها التاسعة بعنوان: "حماية الوطن في السنة النبوية، مقصد شرعي وضرورة مجتمعية" استجابة لحاجة المجتمع المسلم في حل مشكلاته المعاصرة على هدي من سنة النبي ﷺ.

وبهذه المناسبة، فإني أتوجه بالشكر الجزيل للأمانة العامة لندوة الحديث الشريف على عنايتها بحسن انتقاء موضوعات الندوات التي تفتح أمام الباحثين المجال للبحث عن حل لمشكلات الواقع في ضوء هدي من السنة النبوية.

**مشكلة الدراسة:** يُعد الفساد الإداري أحد أبرز المشكلات التي تُهدد الأمن والسلم في الأوطان والمجتمعات، وللسنة النبوية سبق ظاهر في بيان مظاهر الفساد الإداري وأسبابه ووسائل علاجه، فكان من المهم إبراز معالم المنهج النبوي في معالجة ظاهرة الفساد الإداري، وبيان أصوله ومرتكزاته التي يتميز بها.

**أسباب الاختيار:** خطورة الفساد الإداري، وضرره البالغ على أمن الدول واستقرارها. وإبراز الأسس التي يقوم عليها المنهج النبوي في مكافحة الفساد الإداري. والإسهام في استكمال عناصر المهيدات في هذه الندوة المباركة.

من الدراسات السابقة: الفساد الإداري أنماطه وأسبابه، لخالد آل الشيخ، ومفهوم الفساد الإداري ومعاييرته في التشريع الإسلامي لآدم نوح، والفساد الإداري وعلاجه من منظور إسلامي

لهناء يماني، والفساد الإداري كمعوق لعمليات التنمية لصالح الدين فهمي، وتطبيقات الإدارة الإسلامية في الوقاية من الفساد، لمحمد عبد الله، وعبد الله الفروان، والإصلاح الإداري من المنظور الإسلامي لعبد الرحمن الجويبر، ونحو نظرية إسلامية لمكافحة الفساد الإداري لآدم نوح القضاة، ومنهج النبي ﷺ في مكافحة الفساد لنوال العيد، والفساد وأثره الجهاز الحكومي لعبد الرحمن هيجان، والفساد وأثره في القطاع الخاص للحسن أبو نعامة.

وهذه مؤلفات نافعة في مكافحة الفساد الإداري، وأقرب هذه المؤلفات صلة بهذا البحث: منهج النبي ﷺ في مكافحة الفساد د. نوال العيد<sup>(١)</sup>.

وقد أوردت الدراسة ثلاثة أنواع من الفساد: الفساد الإداري، والفساد الأخلاقي، والفساد الاقتصادي. ثم ذكرت منهج النبي ﷺ في مكافحة الفساد: المنهج الوقائي، والمنهج الجزائي. فحاء ذكر منهج مكافحة شاملاً الأنواع الثلاثة، ولم تفصل الفساد الإداري عن غيره من أنواع الفساد؛ وذلك أن بحثها كان متعلقاً بالفساد عمومًا وليس الفساد الإداري تحديداً.

### التمهيد: مفهوم الفساد الإداري:

"الفساد الإداري" مركب إضافي، وتعريفه بتعريف جزئيه، ثم تعريفه باعتبار اللقب المركب منهما.

### تعريف الفساد:

لغة: فَسَدَ يَفْسُدُ وَيَفْسُدُ، وَفَسَدَ فَسَادًا وَفُسُودًا، فَهُوَ فَاسِدٌ وَفَسِيدٌ فِيهِمَا، مِنْ قَوْمٍ فَسَدِي، وَالْمَفْسَدَةُ: ضِدُّ الْمَصْلَحَةِ، وَفَسَدَهُ تَفْسِيدًا: أَفْسَدَهُ. وَلَمْ يُسْمَعْ: انْفَسَدَ.

وأما الإفساد فهو من الفعل الرباعي أفسد يُفسد إفسادًا، فهو مفسد، وهم مفسدون.

الفساد: نقيض الصّلاح، وقد جاء الفساد في استعمالات العرب واسعاً ليشمل كل المعاني المضادة للصّلاح، فمن ذلك: أخذ المال ظلماً، والجدب، والضرر، والتقاطع والتدابير، والإنتان

١- مثبت على موق الدكتور على الرابط: <http://nawalaleid.com/cnt/lib> .٨٢٧.

والعطب، والخلل والاضطراب، والإساءة<sup>(١)</sup>.

### اصطلاحًا:

قال الراغب: "الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عليه أو كثيرا، ويُستعمل في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة"<sup>(٢)</sup>. وقال المناوي: "الفساد: هو انتقاض صورة الشيء"<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن الجوزي: "والفساد: تغير الشيء عما كان عليه من الصلاح... ويُذكر في الدين كما يُذكر في الذات. فتارة يكون بالعصيان، وتارة يكون بالكفر، ويقال في الأقوال: إنها فاسدة إذا كانت غير منتظمة، وفي الأفعال إذا لم يُعتد بها"<sup>(٤)</sup>.

وهذه التعريفات لم تتجاوز الصورة الذهنية التي توافق الدلالة اللغوية لمفردة الفساد؛ فإن الصلاح هو بقاء الشيء على صورته الصحيحة، وأداؤه وظيفته التي خلق من أجلها، والفساد خروج عن هذين الأمرين.

وقد كثر في كلام العرب استعمال لفظة "الفساد" أو إحدى مرادفاتها، لكل شيء خرج عن حد الاعتدال والاستقامة. فعُرف المرض بأنه "فساد المزاج"<sup>(٥)</sup>؛ لأنه خرج عن حد الاعتدال. وعُرف الخمش بأنه: "فساد في الجفون تضيق له العيون من غير وجع ولا قرح"<sup>(٦)</sup>. وعُدَّ سوء تدبير المال فسادًا، يُقال: عاث في ماله عيثًا إذا أفسده"<sup>(٧)</sup>. ولما غلب على الفأرة الإتلاف والإفساد سُميت "أم فساد"<sup>(٨)</sup>.

١- والشواهد على هذه الاستعمالات في القرآن الكريم، وفي أشعار العرب، وأعرضت عن ذكرها خشية الإطالة.

٢- المفردات (٦٣٦).

٣- التوقيف (٢٦٠).

٤- نزهة الأعين النواظر (٤٧٠).

٥- التعريفات الفقهية (ص ٢٠١).

٦- العين (١٧٢/٤).

٧- البارع في اللغة (١٥٨/١).

٨- المنتخب من كلام العرب (٣٧٠/١).

وقد عرّف ابن عقيل الفساد في اصطلاح الأصوليين، بقوله: "إنما يُريدونَ بالفعل أنه فاسد وباطل: أنه قبيحٌ، وأنه مفعولٌ على مُخَالَفَةِ الشرع"<sup>(١)</sup>، وهو مرادف للبطلان عند الجمهور. وفرّق بينهما الحنفية، فجعلوا الباطل ما رجع الخلل فيه إلى أركان العقد، والفاسد ما رجع الخلل فيه إلى أوصاف العقد.

والفساد عند الفقهاء "في العبادات: هو عدم الإجزاء، وعدم إسقاط القضاء، وكل عبادة فعلت على وجه لم يجزئ ولم يسقط القضاء فهي فاسدة. وفي المعاملات: عدم ترتب الأثر المقصود من العقد على العقد، فكل نكاح لم ينفذ بإباحة التلذذ بالمنكوحه فهو فاسد، وكل شراء لم ينفذ بإباحة التصرف في المشتري فهو فاسد"<sup>(٢)</sup>.

إلا أن الاستعمال الشرعي للفساد أعم من هذين المصطلحين، وبهذا وردت الآيات في الكتاب العزيز، وجرى عليه عُرف أهل العلم في مختلف فروع الشريعة، بأنّ الفساد يقابل الصلاح، وقد جاءت المقابلة بين الصلاح والفساد في نصوص كثيرة في القرآن العزيز والسنة المطهرة ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [سورة الشعراء: ١٥٢]. عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((وَأَنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ))<sup>(٣)</sup>. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر))<sup>(٤)</sup>، قال ابن عاشور: "وَالْفَسَادُ: ضِدُّ الصَّلَاحِ، وَهُوَ كُلُّ فِعْلٍ مَذْمُومٍ فِي الشَّرِيعَةِ أَوْ لَدَى أَهْلِ الْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ"<sup>(٥)</sup>.

الإدارة: هي عملية التوجيه والتخطيط والتنظيم والتنسيق ودعم العاملين وتشجيعهم، والرقابة على الموارد المادية والبشرية بهدف الوصول إلى أقصى النتائج بأفضل الطرق وأقل التكاليف. وهو

١- الواضح في أصول الفقه (١/١٦٢).

٢- مذكرة في أصول الفقه (ص ٥٤).

٣- أخرجه البخاري (حديث ٥٢) ومسلم (حديث ١٥٩٩).

٤- أخرجه الترمذي (حديث ٤١٣)، والنسائي (حديث ٤٦٥)، وقال الترمذي: "حديث حسن غريب"، وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٠٢٠).

٥- التحرير والتنوير (١٩٠/٢٠).

يشمل الإدارة بكل مستوياتها العليا والوسطى والتنفيذية.

وهي علم قائم بذاته، ويتفرع إلى فروع تخصصية متعددة. وله مناهج متنوعة: المنهج الكلاسيكي، والمنهج السلوكي، والمناهج الحديثة.

وحسن الإدارة من أهم أسباب تفوق الدول والمؤسسات والأفراد. فإن الناظر في واقع الدول المتقدمة، يجد أن أحد أهم أسرار نجاحها؛ هو تفوقها بحسن الإدارة. وإن لم تكن غنية من جهة مواردها الطبيعية.

وهذا ينطبق أيضاً على المؤسسات والهيئات، فسر تميزها، واستدامة نجاحها هو الإدارة الواعية، التي تحسن إدارة العمل، وترسم الخطط التي تضبط أعمالها الحاضرة، وتستشرف آفاق المستقبل.

ولما كانت الإدارة بهذه الأهمية، فإن فسادها من أخطر أنواع الفساد، وأشدّه تأثيراً في بقاء الدولة ونمائها، كما أنه المسؤول عن كافة أنواع الفساد التي تقع في المجتمع. وقد عرفته منظمة الشفافية الدولية: "كل عمل يتضمن سوء استخدام المنصب العام لتحقيق مكاسب شخصية"<sup>(١)</sup>.

وفي هذا التعريف أمران:

الأول: أنه يشمل جميع المناصب الإدارية، ولا يستثني من الهرم الإداري أحداً.

الثاني: أنه يُعرّف الفساد بوصفه ممارسة إدارية، بقطع النظر عن الممارس<sup>(٢)</sup>.

### مظاهر الفساد الإداري:

عند تتبع النصوص النبوية، نجد أنها تذكر مظاهر الفساد الإداري في: عدم القيام بأعباء الإدارة، وسوء استغلال السلطة، وعدم النصح للرعية، وإلحاق الأذى بهم. وهذه المظاهر هي أصول الفساد الإداري، وإليها ترجع كافة صوره.

وتتعلق هذه المظاهر بأصحاب الولايات العامة، وغيرهم من أصحاب الولايات الخاصة

١- منظمة الشفافية الدولية: [translate.google.com.sa](http://translate.google.com.sa).

٢- ولعل السبب أن بعض صور الفساد الإداري ناتجة عن الضعف الإداري، أو عدم الاختصاص، وليس عن سوء طوية أو قصد للفساد.

داخلون في هذه النصوص تبعًا.

وأصحاب الولايات العامة أو الخاصة لهم حقوق وعليهم واجبات، فمن حقوقهم: السمع والطاعة لهم في غير معصية الله، والنصح له، وعدم منازعتهم، أو تأليب الناس عليهم. وعليهم واجبات لا تبرأ ذمهم إلا بأدائها، وكل تقصير في هذه الواجبات هو مظهر من مظاهر الفساد الإداري.

وهذه المظاهر لا ينبغي النظر إليها على أنها ممارسة إدارية فاسدة فحسب، بل هي تمثل خروق في منظومة الأمن الوطني، من خلال تضييع المسؤولية، وتوهين بناء مؤسسات الدولة الإدارية، وفتح ثغرات في حصون الوطن الداخلية ينفذ من خلالها الأعداء.

العلاقة بين الفساد الإداري، واختلال الأمن علاقة سببية، فإن الفساد الإداري ينتج عنه اختلال الأمن، واختلال الأمن يُعمق الفساد الإداري.

وإليك مظاهر الفساد الإداري التي جاء ذكرها في النصوص النبوية:

إعنات الرعية والتشديد عليهم: هذا المظهر من مظاهر الفساد الإداري جاء ذكره في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا: ((اللَّهُمَّ مَنْ وُلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْتَقُّ عَلَيْهِ، وَمَنْ وُلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَّقَ بِهِمْ فَارْتَفُقْ بِهِ))<sup>(١)</sup>.

ولو لم يكن إعنات الرعية والتشديد عليهم فسادًا إداريًا؛ لما استحق فاعله الدعاء عليه من النبي صلى الله عليه وسلم بأن يُجزى من جنس عمله. قال الطيبي: "هذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس، وأعظم الحث على الرفق بهم، وقد تظاهرت الأحاديث في هذا المعنى"<sup>(٢)</sup>. وقد عدَّ النبي صلى الله عليه وسلم الوالي الذي لا يرفق برعيته ويشفق عليهم شرَّ الولاة فقال صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ شَرَّ الرَّعَاءِ الحُطْمَةُ))<sup>(٣)</sup>.

ويتنزل هذا الحكم على كل مسؤول بحسب ما تولى من المسؤوليات؛ فإن تولى المسؤولية غاية

١- أخرجه مسلم (حديث ١٨٢٨).

٢- الكاشف عن حقائق السنن (٨/٢٥٧٠)..

٣- أخرجه مسلم (حديث ١٨٣٠).

خدمة الناس وتسهيل مهماتهم بالعدل والإحسان، فإذا جعل المسؤول من عمله سبباً للإضرار بالناس وإيقاع المشقة عليهم، فقد أفسدهم، وملاً قلوبهم كراهية له.

ولا يقف هذا النوع من الفساد على مجرد كراهية المسؤول، بل يتجاوز ذلك إلى الوطن كله بمؤسساته وهيئاته، فتصبح مقدرات الأوطان تُبنا بين أيدي من يُؤمل منهم حمايته.

وفي بيئات الذل والقهر، تُقتل الكرامة والعزة في النفوس، ويضعف الولاء للوطن، ويصبح الأفراد صيداً سهلاً للأعداء يمدون إليهم جبالهم لاستمالتهم وإغوائهم، تحت ذريعة الخلوص من الحرمان.

**الاحتجاج عن الرعية:** الاحتجاج عن الرعية، وعدم القيام بشؤونهم؛ عن أبي مريم الأزدي عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لِمَعَاوِيَةَ رضي الله عنه سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ((مَنْ وُلِّهُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقَرِهِمْ، احْتَجَبَ اللَّهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقَرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَجَعَلَ مَعَاوِيَةَ رَجُلًا عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ<sup>(١)</sup>). وفي لفظ: مَنْ وُلِيَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ النَّاسِ، ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونَ الْمُسْكِينِ، وَالْمَظْلُومِ، أَوْ ذِي الْحَاجَةِ، أَغْلَقَ اللَّهُ - عز وجل - دُونَهُ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ عِنْدَ حَاجَتِهِ وَفَقَرِهِ، أَفْقَرُ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا قَالَ الطَّبِي: "والمراد باحتجاج الوالي أن يمنع أرباب الحوائج والمهمات، أن يلجوا عليه فيعرضوها ويعسر عليهم إنهاؤها"<sup>(٢)</sup>.

إن واجب المسؤول هو القيام بالمهمات الموكلة إليه، فإذا امتنع عن مقابلة ذوي الحاجات، الذين لا تُقضى حوائجهم إلا من خلاله، فأبى له معرفة مطالبهم، وحوائجهم.

وهذا المظهر يشمل أصحاب المسؤوليات في جميع المستويات الوظيفية، بحسب طبيعة الوظيفة ومسؤولياتها.

ويلاحظ في النص النبوي أن العقوبة المترتبة على هذا الفعل عقوبة أليمة، فإن الله يغلق دونه

١- أخرجه أبو داود (حديث ٢٩٤٨) والترمذي (حديث ١٣٣٢)، والحاكم (حديث ٧٠٢٧)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وإسناده شامي صحيح" وله شاهد بإسناد البصريين صحيح، عن عمرو بن مرة الجهني، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "ووافقته الذهبي.

٢- الكاشف عن حقائق السنن (٢٥٩٢/٩).



باب الرحمة أحوج ما يكون إليها.

وإذا حيل بين المرء وبين الوصول إلى صاحب الصلاحية، ربما دفعته الحاجة إلى ولوج المسالك غير المشروعة، فيحدث الإخلال بالأمني الوطني، والتهديد للسلم المدني.

**غش الرعية وعدم النصح لهم:** من واجب صاحب الولاية: حفظ الدين، وسياسة الدولة به، والنصح للرعية، وبذل الجهد في مصالحهم؛ وفي حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ((مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ، وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ))<sup>(١)</sup>.

وفساد الولاية يكون بتعطيل مصالح الولاية، وقد عبّر عنه النبي ﷺ بلفظ "الغش"، قال ﷺ: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ))<sup>(٢)</sup>.

الغش لفظ يشمل كل أنواع الفساد؛ قال الصنعاني: "ويتحقق غشه بظلمه لهم: بأخذ أموالهم، وسفك دمائهم، وانتهاك أعراضهم، واحتجابه عن خلّتهم وحاجتهم، وحبسه عنهم ما جعله الله من مال الله سبحانه المعين للمصارف، وترك تعريفهم بما يجب عليهم من أمر دينهم وديناهم، وإهمال الحدود وردع أهل الفساد وإضاعة الجهاد وغير ذلك مما فيه مصالح العباد، ومن ذلك توليته لمن لا يحوطهم ولا يُراقب أمر الله فيهم وتوليئه من غيره أَرْضَى اللهُ عَنْهُ مع وجوده"<sup>(٣)</sup>.

**قبول الهبات:** عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أن النبي ﷺ استعمل رجلاً من الأسد، يُقَالُ لَهُ: ابْنُ التُّبَيْبَةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا لِي، أَهْدِي لِي، قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: ((مَا بَالُ عَامِلٍ أْبَعْتَهُ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أَهْدِي لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ، حَتَّى يَنْظُرَ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَبَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقْرَةٌ لَهَا حَوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَبْعُرُ - ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتِي إِنْطِيهِ -، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَّغْتُ؟))<sup>(٤)</sup>.

١- أخرجه مسلم (حديث ٢٢٩).

٢- أخرجه البخاري (حديث ٧١٥٠)، ومسلم (حديث ٢٢٧) واللفظ له.

٣- سبل السلام (٦٦٦/٢).

٤- أخرجه البخاري (حديث ٦٦٣٦)، ومسلم (حديث ١٨٣٢).

قال الخطابي: "في هذا بيان أن هدايا العمال سُحَّتْ، وأنه ليس سبيلها سائر الهدايا المباحة، وإنما يُهدَى إليه للمحابة، وليخفف عن المُهدِي، ويُسوِّغ له بعض الواجب عليه. وهو خيانة منه، وبُخس للحق الواجب عليه استيفاؤه لأهله"<sup>(١)</sup>.

وقال ابن الملقن: "فيه: أن الهدية إلى العامل سحت ولا تملك عندنا، وكذا الأمير في إمارته شكراً لمعروف صنعه أو تحبباً إليه؛ لأنه كآحاد المسلمين لا فضل له عليهم فيه، لولايته عليهم نال ذلك، فإن استأثر به فهو سحت كما قررناه، والسحت: كل ما يأخذه العامل والحاكم على إبطال حق أو تحقيق باطل، وكذلك ما يأخذه على القضاء بالحق"<sup>(٢)</sup>.

والهبة التي تُعطى للمسؤول لإبطال حق أو إحقاق باطل<sup>(٣)</sup>، هي الرشوة، وهي مكسب فاسد، ومن كبائر الإثم، والباذل والآخذ ملعونان على لسان رسول الله ﷺ؛ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ))<sup>(٤)</sup>.

والرشوة أمانة على اختلال منظومة القيم داخل المجتمع، فيتجلى فيها الفساد الإداري من خلال خيانة المسؤول لأمانته، وتقصير الجهاز الرقابي في القيام بواجبه، وهي أيضاً دليل على الفساد الأخلاقي؛ حيث تغيب الرحمة ويفشو البغي، وتستولي الأثرة والأنانية على النفوس. والرشوة تفعل فعلها في نفس المسؤول، فتأخذ بسمعه وبصره، وتحمله على المحابة في الحكم، فيترتب على ذلك بخس الحقوق، وظلم الضعفاء.

**تولية المناصب غير الأكفاء:** عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)) قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ"<sup>(٥)</sup>، فهذا الحديث تضمن مظهراً من مظاهر الفساد الإداري، وهو تولية غير الأكفاء.

١- معالم السنن (٨/٣).

٢- التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٠٣/٣٢).

٣- التعريفات (ص ١١١).

٤- أخرجه أبو داود (حديث ٣٨٥٠)، والترمذي (حديث ١٣٣٧)، وقال: "حديث حسن صحيح"، وابن حبان (حديث ٥٠٧٧)، والحاكم (حديث ٧٠٦٦)، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي.

٥- أخرجه البخاري (حديث ٦٤٩٦).

فالكفاءة تستلزم اختيار الأمناء القادرين من أهل الاختصاص في كل ميدان من ميادين العمل. وقد عدَّ النبي ﷺ تولية غير الكفاء إضاعة الأمانة، فإن المسؤول مؤتمن على ما تحت يده من شؤون الدولة العامة والخاصة، فإذا اختار غير كفاءٍ لعمل ليس أهلاً له، فقد خان الأمانة، وأوقع الشر في الأمة.

فما ظنك بعمل تولى كبره غير كفاء له!؟

إن الضعف الذي يلحق بالمؤسسة التي يتولى إدارتها غير كفاءٍ، لا يقف عند حدودها فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى الدوائر التي ترتبط بها، فإن العلاقة التكاملية بين مؤسسات الدولة، تجعل الفساد في إحدى مؤسساتها يمتد ضرره إلى باقي المؤسسات، ومن ثم ضعف الأداء الحكومي كله.

ولهذا المعنى لم يول النبي ﷺ أبا ذر؛ لما علمه ﷺ بضعفه وعدم قدرته على القيام بأعباء الولاية.

وإذا دبَّ الضعف في مؤسسات الدولة، تجرأ المجرمون على انتهاك الحرمات، والإخلال بالأمن.

**المحسوبية:** هي مصدر صناعي من "محسوب"، وتعني إسناد الوظائف أو منح الترقّيات على أساس الرّعاية والنّفوذ، لا على أساس الكفاءة<sup>(١)</sup>.

وهي مظهر من مظاهر الفساد الإداري؛ حيث تُمنح الفرص الوظيفية لمن لا يستحقها، مراعاةً لجانب القرابة، أو الجاه والنّفوذ.

وفي هذا تغليب للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة، وظلمٌ للأكفاء، وحرمان للمجتمع من المتميزين، وإضعاف لهيبة النظام.

وفي حديث ابن الزبير - رضي الله عنه - أنه خاصم رجلاً من الأنصارٍ قد شهد بدرًا إلى رسول الله

١- معجم اللغة العربية المعاصر (١/٤٩٢).

ﷺ في شِراجٍ<sup>(١)</sup> مِنَ الْحَرَّةِ، كَانَا يَسْقِيَانِ بِهِ كِلَاهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: "اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسَلْ إِلَى جَارِكَ"، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوْنَ وَجْهَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: "اسْقِ، ثُمَّ أَحْبَسَ حَتَّى يَبْلُغَ الْجَدْرَ"، فَاسْتَوْعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَئِذٍ حَقَّهُ لِلزُّبَيْرِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ أَشَارَ عَلَى الزُّبَيْرِ بِرَأْيِ سَعَةَ لَهُ وَلِأَنْصَارِيِّ، فَلَمَّا أَحْفَظَ<sup>(٢)</sup> الْأَنْصَارِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، اسْتَوْعَى لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الْحُكْمِ، قَالَ عُرْوَةُ: قَالَ الزُّبَيْرُ: "وَاللَّهِ مَا أَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ إِلَّا فِي ذَلِكَ": ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة النساء: ٦٥]<sup>(٣)</sup>.

لقد غفل هذا الصحابي عن حكم النبي ﷺ، وأنه قائم على الفضل والعدل، فالنبي ﷺ "حَضَّ أَوْلَى الزُّبَيْرِ عَلَى فِعْلِ الْمَعْرُوفِ، فَلَمَّا بَدَأَ مِنَ الْأَنْصَارِيِّ مَا بَدَأَ اسْتَوْعَى لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ، وَلَمْ يَحْمِلْهُ غَضَبُهُ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ أَنَّهُ اسْتَوْعَى لَهُ حَقَّهُ"<sup>(٤)</sup>؛ فهذا الصحابي لم يقع نظره إلا معنى قرابة ابن الزبير من النبي ﷺ، فحملة ذلك الظن على التلطف بتلك الكلمة الجارحة التي مضمونها اتهام النبي ﷺ بمحاباة ابن الزبير لأجل القرابة. وإنما حملة على إلقاء هذه التهمة ما استقر لديهم أن المحاباة في الحكم تهمة للحاكم.

### أسباب الفساد الإداري:

**ضعف المسؤول:** ضعف المسؤول يولد عجزاً عن القيام بأعباء العمل، والمسؤول لا بد أن يكون قوياً مهيباً؛ فإن الضعيف يجترئ الناس عليه، ولا يقوى على ردع الظالم ولا نصرة المظلوم، ولما سأل أبو ذر رسول الله ﷺ أن يستعمله، امتنع وعلل ذلك بقوله: إني أراك ضعيفاً؛ أي عاجزاً عن القيام بأعباء الوظيفة، وليس قصوراً في عدالته وأمانته، وتأمل جمال التوجيه النبوي حين صرف أبا ذر عن تولي كل إمارة وإن قل أفرادها ((يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ

١- الشَّرْحَةُ: مَسِيلُ الْمَاءِ مِنَ الْحَرَّةِ إِلَى السَّهْلِ. وَالشَّرْحُ جُنْسٌ لَهَا، وَالشَّرَاحُ جَمْعُهَا. النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ (٢/٤٥٦).

٢- أَحْفَظُ: أَغْضَبُ، مِنَ الْحَفْظَةِ: الْغَضَبِ. النِّهَايَةُ (١/٤٠٨).

٣- أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (حَدِيثٌ ٢٧٠٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٥٧).

٤- التَّوْضِيحُ شَرْحُ الْجَامِعِ الصَّحِيحِ (١٧/٨٨).

لِنَفْسِي لَا تَأْمُرَنَّ عَلَيَّ أَثْنَيْنِ وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ))<sup>(١)</sup>.

**تولية غير الأكفاء<sup>(٢)</sup>:** إن تولية غير الكفاء الذي ليس أهلاً للقيام بأعباء العمل، مظنة لوقوع الفساد في عمله. فهو مظهر للفساد الإداري وسبب له أيضاً، وقد عدَّ النبي ﷺ ذلك من إضاعة الأمانة؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)) قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ" ((٣)) وهو أيضاً غش للرعية، قال ﷺ: ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيَهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ))<sup>(٤)</sup> وقد ورد حديث في التحذير من تولية غير الكفاء محاباةً له، عن يزيد بن سفيان قال لي أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين بعثني إلى الشام: يَا زَيْدُ، إِنَّ لَكَ قَرَابَةً عَسَيْتَ أَنْ تُؤَثِّرَهُمْ بِالْإِمَارَةِ ذَلِكَ أَكْثَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ؛ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ وُلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً؛ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، حَتَّى يَدْخُلَهُ جَهَنَّمَ))<sup>(٥)</sup>، وهذا الحديث، وإن كان ضعيفاً، إلا أن الحديثين المتقدمين دالان على معناه.

والمسؤول إذا لم يكن كفاءً، أحاط نفسه بغير الأكفاء، وربما مارس الفساد بنفسه، وفي واقع الدول التي اختل فيها الأمن، تجد أن من أسباب ذلك أن الذين تسنموا المناصب القيادية لم يكونوا أكفاء.

**تقصير المسؤول في اختيار المستشارين الأمناء:** كل مسؤول له بطانة يستشيرها ويأخذ برأيها، وكلما عظمت المسؤولية واتسع نطاقها عظمت الحاجة إلى المستشارين الأمناء؛ فإن المسؤول لن يكون محيطاً بكل اختصاصات عمله. ومن توفيق الله للمسؤول أن يُرزق ببطانة ناصحة تُرشده إلى الخير وتُعينه على فعله، ومن الخذلان للمسؤول أن تكون الفئة المحيطة به بطانة تُزين له السوء

١- أخرجه مسلم (حديث ١٢٠٣).

٢- تولية غير الكفاء مظهر على الفساد الإداري وسبب للفساد أيضاً، وفي مثل هذه الموضوعات تتداخل بعض الجزئيات، فتتفق في المسمى وتختلف من جهة النظر والاعتبار.

٣- أخرجه البخاري (حديث ٦٤٩٦).

٤- أخرجه مسلم (حديث ٢٢٧).

٥- أخرجه الحاكم (حديث ٧٠٢٤) وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وتعقبه الذهبي بقوله: (بكر بن حنيس) قال الدارقطني: "متروك".

وتحضره عليه، وقد جاء هذا المعنى صريحاً في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ؛ بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ، وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومَ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ))<sup>(١)</sup>، وفي حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه قال: ((مَا مِنْ وَاَلٍ إِلَّا وَلَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبَطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ حَبَالًا، فَمَنْ وَقِيَ شَرَّهَا فَقَدْ وَقِيَ، وَهُوَ مِنَ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا))<sup>(٢)</sup>.

فالمسؤول الحريص على نجاته عند الله، يسعى لاختيار المستشارين الأمناء الذين يُحفظونه النصيح، ويرشدونه إلى خير الأمور وأصلحها.

**ضعف اللوائح المنظمة:** تعتبر البيئة الإدارية التي تفتقد اللوائح الواضحة المنظمة للعمل، بيئة ملائمة لممارسة السلوك الإداري الفاسد، وحجة الإداري أن تصرفاته لا تُخالف نصاً، أو تتجاوز نهيًا. ولذا كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم عند تولية بعض أصحابه في بعض المهام أن يذكر لهم بعض التعليمات التي تحدد المعالم العامة لأعمالهم.

وكلما ضُغِفَ سلطان الدين في النفوس كانت الحاجة ماسة إلى تلك اللوائح التفصيلية، بشرط أن لا تكون كاجحة للإبداع الإداري، علمًا بأن ضوابط الشريعة العامة الآمرة بالعدل، والناهية عن الظلم ترسم إطارًا شاملاً لسلطات عمل الإداري بمختلف مستوياته.

عن ابن عباس - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: ((إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خُمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))<sup>(٣)</sup>.

في هذا الحديث تفصيل لمراحل الدعوة، وبيان من أين يؤخذ المال وأين يُصرف، وملازمة

١- أخرجه البخاري(حديث ٦٦١١).

٢- أخرجه النسائي(حديث ٤٢٠١) واللفظ له.

٣- أخرجه البخاري(حديث ١٤٦٩)، ومسلم(حديث ٢٩).

العدل، ومجانبة الظلم، وافتاء دعوة المظلوم. وفي وصايا النبي ﷺ لقادة الجند تفاصيل لمهمات عملهم.

**تقصير المجتمع في واجب النصح: النصيحة:** إخلاص في تقديم المشورة، وهي حق للمسؤول على الرعية، دلَّ على ذلك حديث تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((الدين النصيحة قلنا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))<sup>(١)</sup> وهي عمل جليل يرضاه الله تعالى؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً...، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم...))<sup>(٢)</sup>. وترك النصيحة غش للمسؤول، وخيانة للأمانة، وتخلية بينه وبين مشتبهات نفسه وأهوائها.

عدم الاحتساب على المسؤولين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم بحسب الاستطاعة، لقوله ﷺ: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسهه، فإن لم يستطع فليقلبه، وذلك أضعف الإيمان)) وهذا عام لكل منكر من كل أحد، مع الأخذ بالضوابط الشرعية في معاملة المسؤولين.

وكلما علا منصب المسؤول واتسعت دائرة صلاحيته، كان محتاجاً إلى من يسدده ويرشده؛ لكثرة أسباب الافتتان، ومع الغفلة وقلة الوعظ، وغلبة سلطان النفس الأمارة بالسوء يقع الزلل، فكان من دلائل توفيق الله للمسؤول وإرادة الخير له أن يهيئ له من يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر.

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً بديعاً لترك الاحتساب، وأنه سبب لهلاك المجتمع، عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: ((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً))<sup>(٣)</sup>.

١- أخرجه مسلم (حديث ١٢٠٩).

٢- أخرجه مسلم (حديث ١٧١٥).

٣- أخرجه البخاري (حديث ٢٤٩٣).

**فساد الرعية:** فإن البيئة الفاسدة مرتع للفساد الإداري فهي مؤثرة ومتأثرة، والمسؤول الفاسد لا يمكنه ممارسة فساده وحده، فلا بد له من أعوان على ذلك، وفُشُو الفساد بين أفراد المجتمع يُسهل له ممارسة فساده، ومما يُستشهد به قوله ﷺ: ((الْأئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ، أَبْرَارُهَا أَمْرَاءُ أَبْرَارِهَا، وَفُجَّارُهَا أَمْرَاءُ فُجَّارِهَا))<sup>(١)</sup> قال ابن الأثير: "هذا على جهة الإخبار عنهم لا على طريق الحكم فيهم، أي إذا صلح الناس وبروا وليهم الأخيار، وإذا فسدوا وفجروا وليهم الأشرار، وهو كحديثه الآخر ((كما تكونوا يولى عليكم))<sup>(٢)</sup>"<sup>(٣)</sup>.

وقال الطرطوشي: "لم أزل أسمع الناس يقولون: أعمالكم عمالكم، كما تكونوا يولى عليكم إلى أن ظفرت بهذا المعنى في القرآن قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٩]، وكان يقال: ما أنكرت من زمانك فإنما أفسده عليك عمالك. وقال عبد الملك بن مروان: "ما أنصفتمونا يا معشر الرعية؛ تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم"<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن القيم: "وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمرائهم وولاةم من جنس أعمالهم،... فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاةم،.... وليس في الحكمة الإلهية أن يُؤلَّى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم، ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاةم كذلك"<sup>(٥)</sup>.

١- أخرجه الحاكم (حديث ٦٩٦٢)، وسكت عنه، والبخاري (حديث ٧٤٩) وقال ابن رجب: "وإسناده جيد ولكنه زوي عن علي موقوفاً. وقال الدارقطني: هو أشبه".

٢- هذا الحديث لا يثبت.

٣- النهاية (١/١١٦).

٤- سراج الملوك (ص ١٩٧).

٥- مفتاح دار السعادة (١/٢٥٣).



**وسائل العلاج:** لم تخل الأحاديث النبوية السالفة في أسباب الفساد من الإشارة إلى سبل العلاج، وإليك أبرز تلك الوسائل:

**التنبية على ثقل أمانة تولي المسؤوليات:** عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّكُمْ سَتَحْرُصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُونَ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ))<sup>(١)</sup>. فهذا الحديث يُخاطب وجدان المسؤول لئذكره بخطورة المنصب، وسوء عاقبته؛ حتى لا تتطلع نفسه إليه، وليكون قائماً بواجباته إذا أسند إليه. ومثله قوله ﷺ: ((مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ))<sup>(٢)</sup>، فإن منصب الولاية يُعري النفس الضعيفة بالاستعلاء والطغيان، ولا أليق من خطاب يُذكر بالمال، والوقوف بين يدي الله، والسؤال عن الأمانات التي تحملها، وأنه لا يُنجيه إلا عمله الصالح.

وهذه الوسيلة تنفرع على أصل عظيم من أصول المنهج النبوي في الإصلاح، وهو أن الأصل في الإنسان هو الصلاح والاستقامة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((كُلُّ إِنْسَانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ عَلَى الْفِطْرَةِ))<sup>(٣)</sup>. فتذكير المسؤول بثقل الأمانة هو إثارة لكوامن الخير في نفسه، ليستشعر مراقبة الله له في كل أعماله. فيحمله ذلك على ملازمة الخير ومجانبة السوء.

وهذه الوسيلة من أنجع الوسائل وأنفعها، فإن كافة الوسائل لا تكاد تؤتي ثمارها إذا كانت المسؤولية بيد فاسد؛ فإنها يستسهل تجاوز الأنظمة وتأويلها لمصالحه الخاصة.

ومن نظر في أحوال الفاسدين، فإنهم يعيشون في بيئات تحكمها الأنظمة، إلا أن النظام بذاته لا يستصلح فاسداً، ولا يقوم معوجاً، إذا لم تكن الأنظمة بأيدي أتقياء صالحين.

إن الموعظة والذكرى تُخاطب وجدان المسؤول لتذكركه بعظيم المسؤولية، وأن النجاة لا تحصل إلا بأداء الأمانة.

عدم تولية الأعمال من يطلبها: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا

١- أخرجه البخاري (حديث ٧١٤٨).

٢- أخرجه مسلم (حديث ٢٢٩).

٣- أخرجه البخاري (حديث ١٣٥٨)، ومسلم (حديث ٢٦٥٨) واللفظ له.

وَرَجُلَانِ مِنْ قَوْمِي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: أَمَرْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَهُ، فَقَالَ: ((إِنَّا لَا نُؤَلِّي هَذَا مِنْ سَأَلِهِ، وَلَا مَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ))<sup>(١)</sup>، فالنفوس المسكونة بحب العلو والسيطرة، هي التي تسعى لطلب الولاية، فكانت الحكمة أن لا يولى العمل من طلبه، وفي حديث عبد الرحمن بن سمرة أن السائل للإمارة يوكل إلى نفسه، ومن وكل إلى نفسه أدركه الخذلان؛ عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ! لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ، وَكَلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، أُعِنْتَ عَلَيْهَا.)) قال المهلب: "فيه دليل على أنه من تعاطي أمرًا وسولت له نفسه أنه قائم به أنه يُخْذَلُ فيه في أغلب الأحوال.... والتعاطي أبدًا مقرون بالخذلان، فإن من دُعِيَ إلى عمل أو إمارة في الدين فقصر نفسه عن تلك المنزلة، وهاب أمرًا فيه، رزقه الله المعونة، وهذا إنما هو مبني على أن من تواضع لله رفعه"<sup>(٢)</sup>. وقال ابن الجوزي: "وهذا لأن الحرص على الولاية فيه تُهْمَةٌ ودليلٌ على حب الدنيا، فينبغي أن يحذر خاطب الولاية"<sup>(٣)</sup>، وقال القسطلاني: "وفي الحديث كراهة سؤال الإمارة والحرص عليها ومنع الحريص منها لأن فيه تهمّة ويوكل إليها ولا يعان عليها فينجر إلى تضييع الحقوق لعجزه"<sup>(٤)</sup>.

**اختيار الأكفاء لتولي المهام:** فيكف يُرجى للعمل أن يتم على وجهه الصحيح، إذا وليه عاجز، ولما سأل أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعمله، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))<sup>(٥)</sup> والمراد بالضعف العجز عن القيام بمقتضيات العمل، قال الإمام النووي: "هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات، لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية"<sup>(٦)</sup>. وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يول أبا ذر لضعفه مع تمام عدالته وأمانته، فإنَّ مخروم العدالة من باب أولى.

إن تحقق شروط الكفاءة في المسؤول أمانة من الفساد الإداري، ويتحقق الصلاح في المسؤول

١- أخرجه البخاري (حديث ٧١٤٩).

٢- التوضيح (٤٤٤/٣٢).

٣- كشف المشكل من حديث الصحيحين (٤٠٢/١).

٤- إرشاد الساري (٨١/١٠).

٥- أخرجه مسلم (حديث ١٢٠٤).

٦- المنهاج (٢١٠/١٢).

فإنه يؤدي عمله على الوجه الأكمل، وتنتفي أسباب التمرد على النظام والإخلال بالأمن.

**تحديد مهام العمل:** إن خلو التكليف من بيان حدود الصلاحيات ونطاق المسؤوليات يتيح المجال للفساد أن ينمو في المناطق المسكوت عنها؛ بالتأويل الباطل بحجة خلوها من الأمر والنهي، ولذا بادر النبي ﷺ إلى بيان ما يستحقه العامل وما لا يستحقه، عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ اسْتَعْمَلَنَا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكْتَمْنَا مَخِطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُوبًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْبَلْ عَنِّي عَمَلِكَ. قَالَ: وَمَا لَكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلْبِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَحَدًا، وَمَا نُحِي عَنْهُ أَنْتَهَى))<sup>(١)</sup>، وهذه المسؤوليات، وإن كانت محدودة باعتبار نشأة الدولة، فإنها أصل لكل المهام الإدارية التي توكل إلى المسؤولين.

ومثال آخر: حديث ابن عباس - (رضي الله عنهما) - أن معاذ بن جبل ﷺ قال: ((بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ، فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ، فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَلِّكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَآتَقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))<sup>(٢)</sup>.

فتجد في هذا الحديث أن النبي ﷺ وضع لمعاذ ﷺ المعالم الكبرى لمهمته التي انتدبه إليها، وأخبره بدرجات التعامل مع أهل اليمن. وفي وصايا النبي ﷺ لأمرأء الجيوش تفصيل دقيق للمهام التي أوكلت لهم<sup>(٣)</sup>.

**قطع الوسائل المفضية إلى الفساد:** الهدية مباحة في الأصل، وهي من أسباب جلب المودة، لكنها في حق المسؤول حرام؛ لأنها سبب للمحاباة، وتفتح بابا لإساءة الظن بالمسؤول، عن أبي حميد الساعدي ﷺ أن رسول الله ﷺ استعمل عاملاً على صدقات بني سليم، يدعى ابن

١- أخرجه مسلم (حديث ١٢١٤).

٢- أخرجه البخاري (حديث ٤٣٤٧)، ومسلم (حديث ٢٩).

٣- ينظر: حديث بريدة بن الحصيب فيه ذكر تفاصيل دقيقة لمسؤوليات القائد (ص ٢٢٣).

اللُّبِّيَّةَ فِجَاءَهُ الْعَامِلُ حِينَ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَاسَبَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي لِي، فَقَالَ لَهُ: أَفَلَا قَعَدْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمَّكَ فَانظَرْتَ أَيُّهُدَى لَكَ أَمْ لَا إِنْ كُنْتَ صَادِقًا؟! ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشِيَّةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَتَشَهَّدَ، وَأَتَنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: "أَمَّا بَعْدُ؛ فَمَا بَالُ الْعَامِلِ نَسْتَعْمِلُهُ عَلَى أُمُورٍ مِمَّا وَلَا بِيَّ اللَّهَ، فَيَأْتِينَا فَيَقُولُ: هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي لِي؟ أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَانظَرَ هَلْ يُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَغُلُّ أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا بغيرِ حَقِّهِ، إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ..."<sup>(١)</sup>. قَالَ الْبَغَوِيُّ: "وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هُدَايَا الْعَمَالِ وَالْوَلَاةَ وَالْقَضَاةَ سَحَتْ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَهْدَى إِلَى الْعَامِلِ؛ لِيُغْمِضَ لَهُ فِي بَعْضِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَدَاؤُهُ، وَيَخْسُ بِحَقِّ الْمَسَاكِينِ، وَيُهْدَى إِلَى الْقَاضِي لِيَمِيلَ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ، أَوْ لَا يُؤْمِنُ مِنْ أَنَّ تَحْمِلَهُ الْهُدْيَةَ عَلَيْهِ"<sup>(٢)</sup>. وَمَا يُؤَكِّدُ خَطُورَةَ أَمْرِ الْهُدْيَةِ لِلْمَسْئُولِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَشْهَدَ الصَّحَابَةَ عَلَى إبْلَاغِهِمْ هَذَا الْحُكْمَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتِي إِيْطِيهِ: "أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟" ثَلَاثًا<sup>(٣)</sup>.

**محاسبة المسؤولين:** جاء في بعض ألفاظ حديث ابن اللببية أنه لما جاء بالصدقات إلى رسول الله ﷺ "حاسبه"<sup>(٤)</sup>، وقد بوب عليه البخاري: "باب محاسبة الإمام عماله"، قال ابن خزيمة: "بَابُ صِفَةِ إِيْتَانِ السَّاعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا غَلَّ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَأَمْرِ الْإِمَامِ بِمُحَاسَبَةِ السَّاعِي إِذَا قَدِمَ مِنْ سِعَاتِيهِ". وَفِي رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّزَاقِ: فَلَمَّا حَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذِهِ أُهْدِيَتْ لِي<sup>(٥)</sup> قَالَ الْإِمَامُ الطَّحَاوِيُّ: "فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مُحَاسَبَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ابْنَ اللَّبْبِيَّةِ عَلَى مَا جَرَى عَلَى يَدِهِ مِمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلَهُ عَلَيْهِ"<sup>(٦)</sup>.

فَعَلِمَ الْمَسْئُولُ أَنَّهُ مُحَاسَبٌ عَلَى عَمَلِهِ خَيْرٌ مَعِينٌ لَهُ عَلَى اتِّقَانِ الْعَمَلِ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ إِغْوَاءِ النَّفْسِ وَتَزْيِينِهَا. وَلَيْسَ فِي الْمَحَاسَبَةِ تَخْوِينٌ لِلْمَسْئُولِ، وَلَكِنَّهَا إِعَانَةٌ لَهُ عَلَى ضَبْطِ عَمَلِهِ وَإِتْقَانِهِ، وَمَحَافَظَةِ عَلَى الْمَالِ الْعَامِ.

١- أخرجه البخاري (حديث ٦٦٣٦)، ومسلم (حديث ١٨٣٢).

٢- شرح السنة (٤٩٨/٥).

٣- أخرجه البخاري (حديث ٧١٧٤)، ومسلم (حديث ١٨٣٢).

٤- البخاري (حديث ٧١٩٧)، ومسلم (حديث ١٨٣٢)، وابن خزيمة (حديث ٢٣٤٠) وغيرهما.

٥- المصنف (حديث ٦٩٥٠).

٦- شرح مشكل الآثار (١١٨/١١).

تأكيد عدم التهاون في إقامة شرع الله: مهمة المسؤول هي إقامة شرع الله بين العباد دون محاباة، وأشهر مثال على ذلك: حديث عائشة - رضي الله عنها - أن قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَاحْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَنْتُمْ اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا<sup>(١)</sup>.

إن شرع الله فيه الأمن والخير والنماء، وإن واجب المسؤول إقامة شرع الله على الجميع دون تمييز أو محاباة.

ولا يتسلل الفساد إلى المجتمع إلا بفقدان العدل، فإن الضعيف إذا بیس من أخذ حقه بيد الدولة سعى لأخذه بيده، وعندها يحدث اختلال الأمن وتُفتَح دائرة الفساد.

**تذكير الولاية بفضيلة العدل:** عدل الولاية أساس لحصول الأمن، فإن للسلطة وهجًا يُغري النفوس بالظلم، ويوقعها في الترف والملدات، فتغفل عن واجباتها، فيأتي الوعظ والتذكير ليُوقظ القلوب من غفلتها، ويجتذبها من الاسترسال وراء شهواتها، ويذكرها بجزيل الثواب المترتب على قيامهم بواجبات المسؤولية التي تقلدوها.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكَلْنَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا))<sup>(٢)</sup>. والأمر بالعدل في الحديث يشمل كل مسؤولية وليها المسلم، قال الإمام النووي: "فمعناه أن هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيهما تقلده من خلافة، أو إمارة، أو قضاء، أو حِسبة، أو نظر على يتيم، أو صدقة، أو وقف، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله، ونحو ذلك، والله أعلم"<sup>(٣)</sup>.

ومن تأمل أحوال الأمم وجد أن الأمن ينزل حيث يقيم العدل، وأن الدول العادلة دول آمنة

١- أخرجه البخاري(حديث٣٢١٦).

٢- أخرجه مسلم(حديث١٨٢٧).

٣- شرح صحيح مسلم(٢١١/١٢).

مستقرة، وإن كانت محدودة الموارد، وأن الخوف والاضطراب قرين الظلم والاستبداد، فإن كان للأمن في الأوطان عنوان، فإن عنوانه العدل.

### الخاتمة:

الحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً. والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد،

فقد اشتمل البحث على ذكر الأحاديث التي تتضمن الإشارة إلى مظاهر الفساد الإداري، وأسبابه، ووسائل علاجه. وقد بلغ عددها ٣٢ حديثاً.

وقد حاول الباحث استنباط ما احتوته من المعاني التي تمثل أصولاً في باب مكافحة الفساد. من أبرز النتائج التي ظهر للباحث:

١. إن مكافحة الفساد الإداري، من أهم متطلبات حماية الأمن الوطني؛ للعلاقة السببية بين الفساد الإداري وبين اختلال الأمن الوطني.

٢. إن المنهج النبوي في مكافحة الفساد يركز على الإصلاح الذاتي للفرد، فهو محور الإصلاح، وإليه تتجه النداءات الشرعية التي تتنوع أساليبها، وتتحد غايتها في تزكية نفسه، وحثه على لزوم التقوى، ومجانبة الفساد. وتذكره أنه خلق على الاستقامة.

٣. إن الفساد الإداري بيئة تنشأ فيها أنواع من التجاوزات وما يترتب على ذلك من إخلال بالأمن، وإشاعة للخوف.

٤. إن اللوائح والأنظمة نصوص جامدة لا تُحدث صلاحاً بذاتها، ربما جعلها المسؤول أداة لممارسة فساد، ولوى أعناق نصوصها لتتفق مع رغباته. فلا بد من صلاح المسؤول ليجعل اللوائح؛ فإذا كان المسؤول صالحاً مستقيماً سخر الأنظمة لتحقيق آثارها.

٥. إن الفساد الإداري حلقة في منظومة الفساد، تشمل الفساد الأخلاقي والتربوي والمجتمعي والمالي، وهي حلقات تتفاعل فيما بينها، ويؤثر بعضها في بعض، ومكافحة

الفساد لا بد أن تكون شاملة لجميع تلك الحلقات.

٦. إن الرقابة المجتمعية وسيلة فاعلة في مكافحة الفساد، وهي أمانة على عافية المجتمع وصلاح أفراده؛ فإن المجتمع كالسفينة يركبها الرشيد والسفيه، فإذا خُلّي بين السفهاء وأفعالهم، تكاثرت الخروق في بنائها، وأذن ذلك بغرقها وهلاك من فيها.
٧. مبدأ المحاسبة أصل عظيم في المحافظة على المال العام، وتنمية الإحساس بالمسؤولية، وليس فيه تخوين للمسؤول بل إعانة له على ضبط عمله، وإتقانه.
٨. إن بذل النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمانة على محبة العدل والخير، وهي وسيلة لبقاء ذائقة المجتمع حية يقظة تكره الفساد، وتمقت الفاسدين.
٩. تأكيد قطع السبل الموصلة إلى الفساد، فإنّ النفس لا تقتحم الحرام إلا بعد مقارنة حماه، فيزول منها شناعته، وَيَسْهَلُ عليها الجراءة على مقارفته.

هذه النتائج تمثل أبرز المرتكزات التي يقوم عليها المنهج النبوي في مكافحة الفساد.

والحمد لله على فضله وتوفيقه.

### فهرس المراجع:

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني، نشر المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة سنة ١٣٢٣ هـ.
- البارغ في اللغة، لأبي علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي، تحقيق هشام الطعان، نشر مكتبة النهضة بغداد - دار الحضارة العربية بيروت، الطبعة: الأولى سنة ١٩٧٥ م.
- التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، نشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة ١٩٨٤ هـ.
- التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤ هـ.
- التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لسراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن الملقن، تحقيق دار الفلاح للبحث

- العلمي وتحقيق التراث، نشر دار النوادر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.
- التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، نشر عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠هـ.
- سراج الملوك، لأبي بكر محمد بن محمد بن الوليد الطرطوشي، مصر، سنة ١٢٨٩هـ.
- سنن الترمذي، لأبي عيسى، محمد بن عيسى بن سؤرة الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاکر وآخرين، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٥هـ.
- السنن الصغرى للإمام النسائي، بعناية الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، سورية-حلب، الطبعة الرابعة عام ١٤١٤هـ.
- شرح السنة، للإمام البغوي، تحقيق زهير الشاويش، وشعيب الأرنؤوط، نشر المكتب الإسلامي، لبنان-بيروت، الطبعة الثانية عام ١٤٠٣هـ.
- شرح مشكل الآثار للإمام أبي جعفر الطحاوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، لبنان-بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١٥هـ.
- الصحيح للإمام ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي، لبنان-بيروت، الطبعة الأولى عام ١٣٩٥هـ.
- الصحيح للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار الحديث، مصر-القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤١٢هـ.
- الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، نشر دار الكتب العلمية، لبنان-بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١٢هـ.
- الكاشف عن حقائق السنن، للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي. نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى سنة ١٤١٧هـ.
- كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، تحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، نشر دار ومكتبة الهلال.
- كشف المشكل من حديث الصحيحين، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق علي حسين البواب، نشر دار الوطن، الرياض



## حماية الأمن الوطني في السنة النبوية...

- مذكرة في أصول الفقه، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، نشر مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الخامسة سنة ٢٠٠١.
- المستدرک علی الصحیحین، للحاکم أبي عبد الله النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، لبنان-بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤١١هـ.
- المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثانية، سنة ١٤٠٣هـ.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، نشر عالم الكتب، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٩هـ.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية، نشر دار الكتب العلمية - بيروت.
- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، نشر دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى سنة ١٤١٢هـ.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، نشر دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٢هـ.
- زهرة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، نشر مؤسسة الرسالة، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري، نشر المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ.
- الواضح في أصول الفقه، لأبي الوفاء، علي بن عقيل البغدادي، تحقيق أ.د عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ.



دور سيادة القانون في حماية الوطن ومعالمتها  
في السنّة النبويّة وإشكاليّاتها،  
دراسة تأصيليّة ونقدية،

الأستاذ/ مأمون محمّد الدحيّم (مأمون الخالدي)  
المملكة الأردنية الهاشمية





## المقدمة:

الحمد لله ربّ العلمين والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، وبعد؛

فإنّ علاقة كلّ إنسان بوطنه لا تتمثل بمجرد تعلق ببقعة جغرافيّة محدودة فقط، وإنّما تتمثل تاريخاً وحضارةً وعيشاً مشتركاً وعلاقاتٍ مترابطةً وأياماً وذكرياتٍ ولقاءاتٍ ومناسباتٍ ونحو هذه المعاني العميقة التي تتشكّل بمجموعها في حروف معدودة تسمّى: (وطناً)، ويبقى المرء مدينا إلى هذه الحروف بما تحمله من معانٍ قد لا يستطيع التعبير عن مكنونها، إلا أنّه يعلم يقينا بأنّها تعبّر عن وطنه، ولو خانته ظروف وطنه في مراحل زمنيّة معيّنة فإنّه لن يخون انتماءه إليه وحبّه له وتعلقه به، ليكون لسان حاله ومقاله بيت الشعر المشهور:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزةٌ  
وأهلي وإن ضنوا عليّ كرامٌ (الطويل)<sup>(١)</sup>

وإنّ الانتماء إلى الوطن على الحقيقة يظهر من خلال ترجمة عمليّة في السير في تطويره وتنميته في سبيل الالتحاق بالأمم المتطوّرة والمزدهرة، وكذلك في حمايته من كلّ عقبة تقف أمام منطلقات ازدهاره، أو تحول بين الوطن والتّعايش السّلمي بين شرائحه المتنوّعة، أو بينه وبين أمنه؛ سواء على الإطار الداخلي أو الخارجي. ونستطيع أن نقول: (انتماءك للوطن يقتضي حمايته) على سياق قول القائل: "الوطنية تعمل ولا تتكلم"<sup>(٢)</sup> في سبيل الانتقال خطوة من التنظير إلى العمليّة، ومن دعاوى الانتماء إلى ترجمتها وبرهنتها.

وإنّ وجود القانون ابتداء في الأوطان التي تسعى لتطوير ذاتها ورفقيها وفي سيادة ذلك القانون على جميع مواطنيها تُعدّ من أهمّ سبل حماية الوطن من عواقب الصّراعات الداخليّة والتي قد تمتدّ خارجياً، وكذلك في وقايته من تفشّي الفساد في مؤسّساته وانتشار الوساطات وتوظيف غير ذوي الكفاءات، وكذلك في الحدّ من تكرار وقوع الجرائم أو في عدم وقوعها أساساً لوجود تغذية راجعة

١- قائل البيت: الشريف قتادة أبو عزيز، تولى إمارة مكة المكرمة عام ٥٩٧ هـ، وتوفي عام ٦١٧ هـ، ينظر: ثقافة أونلاين، [http://www.thaqafaonline.com/2012/blog-post\\_1987.html/03](http://www.thaqafaonline.com/2012/blog-post_1987.html/03)

٢- هذه العبارة: «الوطنية تعمل ولا تتكلم» مشهورة على الشبكة العنكبوتيّة ومجهولٌ هويّة قائلها.

لدى المواطنين في فرض قانون رادع وعقوبات لا سبيل إلى عدم تطبيقها أو عدم المساواة في تنفيذها أو الشفاعة في تجاوزها.

وإذا نظرنا إلى التشريعات الإسلاميّة المتمثّلة بالقرآن الكريم والسنة النبويّة؛ حيث إنّها تعدّ بمنزلة القانون الإسلاميّ، وتتبعنا سيرة القائد لهذه الدولة الإسلاميّة التي تعدّ المدينة المنورة عاصمتها الكبرى والملاذ الأكبر لمواطنيها، فإننا نجدُ النبيّ الكريم ﷺ قد راعى مبدأ تطبيق سيادة القانون في المجتمع الإسلاميّ من خلال سنّه لقواعد عامّة تعبّر عن جوهرها وتؤكد على أهمّيّتها في الأحاديث النبويّة.

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة تؤصّل مبادئ سيادة القانون في السنة النبويّة، وتبيّن مدى أثرها في حماية الوطن والمواطنين، وكذلك في مناقشة عدد من الإشكالات التي قد ينظر إليها بعض الناس أنّها منافية لمبدأ سيادة القانون التي تعدّ رمزا للأوطان المتحضّرة والتي لا تميّز بين أيّ فرد من أفراد مواطنيها وترفع شعار: (القانون فوق الجميع).

**مشكلة الدراسة:** تأتي هذه الدراسة لتجيب عن الأسئلة الآتية: ما مفهوم سيادة القانون ودلالاتها في المواثيق الدوليّة؟ كيف تسهم سيادة القانون في حماية الأوطان ومواطنيها؟ ما معالم سيادة القانون في السنة النبويّة؟ هل يوجد أحاديث نبويّة تنافي مبدأ تطبيق سيادة القانون؟

**أهداف الدراسة:** تهدف هذه الدراسة لتحقيق الآتي:

١. بيان مفهوم سيادة القانون ودلالاتها في المواثيق الدوليّة من خلال ميثاق الأمم المتحدّة والورقة الملكيّة التّقاشيّة السادسة والدراسات الحديثة.
٢. إبراز دور سيادة القانون في حماية الأوطان والمواطنين وأثرها في تطويرها وازدهارها وتوفير بيئة حماية مواتية لتقدّمها وتنميتها والسعي برقيّها نحو الأمام.
٣. تأصيل معالم سيادة القانون في السنة النبويّة في عدد من الحوادث في العهد النبويّ التي تترجم جوهرها وتؤكد معانيها.

٤. مناقشة الإشكاليات المتقدمة على عدد من الأحاديث المتقدمة بدعاوى قد تناهى مبدأ تطبيق النبي ﷺ لسيادة القانون، وإبراز الجوانب الصحيحة من الخاطئة لمعاني هذه الأحاديث المشكّلة.

**أهمية الدراسة:** تظهر أهمية هذه الدراسة من خلال الأمور الآتية:

١. تسهم في تعزيز سبل حماية الأوطان، وتمد أصحاب القرار بالقواعد الأساسية لتنفيذها على أرض الواقع.
  ٢. تربط السنّة النبويّة بالمصطلحات المعاصرة، فالربط بين العلوم يُعدُّ أحد أسس التجديد ومقوماته.
  ٣. تعزز ثقة المسلمين بالسنّة النبوية وحجيتها، وترد على الشبهات المثارة حول بعض الأحاديث.
- الدراسات السابقة:** لم يطلع الباحث في حدود بحثه على دراسة سابقة تناولت هذا الموضوع، أو أصّلت له من السنّة النبويّة، أو ردت على الشبهات المثارة. فهذه المحاور الثلاثة الرئيسة لهذه الدراسة، غابت عن الدراسات السابقة.

## المبحث الأوّل: سيادة القانون ودورها في حماية الوطن

### المطلب الأوّل: التعريف بسيادة القانون

**أوّلاً: التعريف بالقانون:** اختلف في أصل كلمة (قانون) إن كانت لفظة عربيّة أو معرّبة<sup>(١)</sup>، ومن جعلوها معرّبة اختلفوا إن كانت يونانيّة أو لاتينيّة أو عبريّة أو فارسيّة<sup>(٢)</sup>، وعلى الرّغم من وجود لفظة القانون في بعض كتب العلماء القدامى<sup>(٣)</sup> إلّا أنّنا لا نجد في كتب اللّغة الأصيلة كثير اهتمام بهذه اللّفظه ممّا يؤكّد على أنّ أصل اللّفظه غير عربيّ، وهو ما رجّحه الجوهريّ، إذ قال: "القوانين: الأصول، الواحد: قانون، وليس بعربيّ"<sup>(٤)</sup>، ورأى بعضهم بأنّه العصا المستقيمة والتي تستخدم في اللغة اليونانيّة مجازاً للتعبير عن معنى القاعدة أو القدوة، في إشارة إلى الاستقامة في القواعد والمبادئ القانونيّة وليس عصا الضرب والتأديب<sup>(٥)</sup>.

**ويعرّف القانون اصطلاحاً بأنّه:** "قواعدٌ وأحكامٌ تتبّعها النّاسُ في علاقاتهم المختلفة، وتنفّذها الدّولة بواسطة المحاكم"<sup>(٦)</sup>، وقيل بأنّه: "مجموعة من القواعد القانونيّة النّافذة التي تنظّم سلوك الأفراد في المجتمع تنظيمًا ملزمًا ومن يخالفها يعاقب"<sup>(٧)</sup>، وعلى الرّغم من الدّور الذي في التعريف الثّاني إلّا أنّ كلا التعريفين يؤكّدان على أنّه مجموعة قواعد تمّهد إلى تنظيم الحياة الاجتماعيّة للنّاس في كلّ مجالاتها، ويكون فيه عامل الإلزام من الدّولة وترتيب العقوبة، وباختصار فإنّ القانون: (قواعد منظّمة ملزمة)، وعليه يرتبط التعريف الاصطلاحي بأصل الكلمة اليونانيّ على معنى قاعدة أو أصل.

١- ينظر: العاني، الضوابط الأصوليّة للاجتهاد في السياسة الشرعيّة، (٣٣).

٢- مجمع اللغة العربيّة (القاهرة)، المعجم الوسيط، (٧٦٣/٢).

٣- لقد خصّص ابن خلدون فصلاً بعنوان: (بالاستدلال على ما في الصّمائر الخفيّة بالقوانين الحرفيّة) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، (٣٢٠)، وكذلك كتاب القوانين الفقهية لابن جرّي (٥٧٤١هـ).

٤- الجوهريّ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيّة، (٢١٨٥/٦).

٥- ينظر: اللّوز، تعريف القانون وخصائص القاعدة القانونيّة من منظور اجتماعي، يوميات تونسيّ، تاريخ الدّخول إلى الموقع: ٢٧/٩/٢٠١٨م، الساعة: ٥١:٥٠م.

٦- عمر، معجم اللغة العربيّة المعاصرة، (٣/١٨٦٤).

٧- عيد، سيادة القانون، (٣٠-٣٧).



**ثانيا: التعريف بالسيادة:** تطلق السيادة لغة على المقدم على غيره جاها أو مكانة، وتدلّ على الغلبة<sup>(١)</sup>، فيقال: "فُلانٌ أَسودُّ مِنْ فُلانٍ، أَي أَعلى سِيادةً مِنْهُ" ويقال: "سادَ قومَه.. فَهُوَ سيِّدٌ"<sup>(٢)</sup>، وأمّا اصطلاحا فقد عرّفت بأكثر من تعريف، وإنّ الأقرب إلى الواقع بأنّ السيادة ذات مفهومين، الأول: (مفهوم السيادة الداخليّة الإيجابي) المتعلّقة بالسلطة العليا وهيمنتها، والثاني: (مفهوم السيادة الخارجيّة السلبي) التي هي مرادفة للاستقلال والتي تقتضي عدم خضوع الدولة صاحبة السيادة إلى الخارجيّة إلى سلطة دولة أجنبيّة، والمساواة في جميع الدّول في السيادة<sup>(٣)</sup>، وعليه يرتبط تعريف السيادة لغة بالمعنى الاصطلاحيّ، والذي يقتضي الهيمنة إمّا على إطار داخليّ وإمّا على إطار خارجيّ.

**ثالثا: التعريف بسيادة القانون:** لقد أشار متخصصون قانونيون بأنّ فكرة سيادة القانون ظهرت في أشكال متعدّدة في النّظم القانونيّة المختلفة، وإنّ كلّ هذه الأشكال تهدف إلى غرض واحد مشترك، وهو: "تحقيق الحرّيّة الشخصيّة للأفراد والحفاظ عليها من تعسف السلّطة العامّة وسوء تصرفها تجاه الأفراد"<sup>(٤)</sup>، ومن باب إبراز المفهوم بصورة مفصّلة يجدر التأكيد بأنّ سيادة القانون تطلق على عدّة معانٍ بناء على تفسيرين أساسيين لمفهومها، وفيما يأتي بيان التفسيرين:

**التفسير الأوّل: التفسير الشكلي لسيادة القانون:** يتمحور هذا التفسير لسيادة القانون بأنّها ضدّ الفوضى، التي يتطلّب انتفاؤها وجود قانون مكتوب ثمّ تطبيقه ثمّ احترامه من قبل السلّطات العامّة، وأنّ القانون مصدر الصّلاحيّات والتقييدات المفروضة على المواطنين، فلا يعترف بحقّ للسلطة لم ينبع من القانون<sup>(٥)</sup>، وعليه يتبيّن بأنّ مفهوم سيادة القانون على التفسير الشكليّ يدور حول وجود القانون أو عدمه وأنّه المصدر الأساسيّ في القرارات.

- ١- ينظر: فرج الله، مبدأ السيادة في القانون الدوليّ العام، (٣١٢-٣٨٧).
- ٢- ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، (٣/١١٤)، ابن منظور، لسان العرب، (٣/٢٣٠).
- ٣- ينظر: فرج الله، مبدأ السيادة في القانون الدوليّ العام، (٣١٢-٣٨٧)، نقلا عن: متولي، الوجيز في التّظريّات والأنظمة السياسيّة.
- ٤- ينظر: كليكاتسي، والأعظمي، نظرات في سيادة القانون، (٤٨-٦٣).
- ٥- ينظر: سامر أحمد موسى، مبدأ سيادة القانون، تاريخ الدخول إلى الموقع، ٢٥/٩/٢٠١٨م، الساعة: ٤:٠٠ م، و خيربي، مفهوم سيادة القانون في الفكر القانوني المقارن، تاريخ الدخول إلى الموقع، ٢٥/٩/٢٠١٨م، الساعة: ٢٧:٣٠م.

**التفسير الثّاني: التفسير الجوهريّ لسيادة القانون:** يتمحور هذا التفسير لسيادة القانون في جعل الهيمنة للقانون داخل المجتمع المنظمّ قانوناً، ولا يتعلّق في وجود القانون أو عدمه لأنّ القانون موجود ولكنّ تنقصه السيادة، وعليه فإنّ سيادة القانون وفقاً لهذا التفسير لا يكفي بوجود قانون ينص على قاعدة قانونية تحكم موضوعاً معيناً بل يتطلب فحص النصّ القانونيّ وكيفية تطبيقه وتقييمه وفق مبادئ ومعايير وقيم معينة<sup>(١)</sup>.

وإنّ أهمّ المعايير التي تمثّل التفسير الجوهريّ لسيادة القانون: أن يتساوى جميع المواطنين أمام القانون بحيث يخضع جميعهم إلى القانون، وعلانية القانون بحيث يُضمن وصوله إلى أفراد المجتمع، وأن لا تتمّ معاقبة إنسان دون إجراء قانونيّ سليم يتمّ أمام محكمة علنيّة تابعة لجهاز قضائيّ مستقل غير خاضعة لتأثير أيّ سلطة أخرى، وأن يكون القانون وتفسيره ثابتين وأكيدتين في إشارة إلى القاعدة اللاتينيّة المهمّة في القانون الجنائيّ: (لا مخالفة بدون قانون)<sup>(٢)</sup>، ومما يقارب تلك القاعدة اللاتينيّة العبارة الآتية: (إنّ من أسوأ المصائب على الإنسان أن يحاكم بدون قانون) التي وشّحها كليكاتسي تحت عنوان مفهوم سيادة القانون ونسبها إلى البرت كاموس<sup>(٣)</sup>، وكأنّ أبرز مقوّمات سيادة القانون بالإضافة إلى المساواة هو الاحتكام إلى القانون وليس إلى المحاكمات العشوائية.

ويّخذ الباحث تعريفاً إجرائياً لسيادة القانون في دراسته بأنّها: "التّحاكم إلى قانون وتطبيقه على الجميع بعدالة ومساواة".

### المطلب الثّاني: دور سيادة القانون في حماية الوطن

إذا نظرنا إلى بداية تشكّل مصطلح: (سيادة القانون) - التي تحتمت الحاجة إلى تأصيل معاملة بعد الحربين العالميتين الأولى والثّانية إثر التقلّبات الاجتماعية والسياسيّة الكبيرة، اللّتين أدرك البشر عقبهما بأنّ مبادئ سيادة القانون تحتاج إلى تعريف وتطبيق بصورة شاملة<sup>(٤)</sup> - يتبيّن لدينا بأنّ ظروف الحاجة إلى هذا المصطلح كانت عقب انعدام الاستقرار في تلك الأوطان ذات الحروب

١- ينظر: المرجعان السّابقان.

٢- ينظر: سامر أحمد موسى، مبدأ سيادة القانون، موقع إلكتروني.

٣- ينظر: كليكاتسي، نظرات في سيادة القانون، (٤٨-٦٣).

٤- سامر أحمد موسى، مبدأ سيادة القانون، موقع إلكتروني.

العالمية وكأنها إشارة إلى أنّ تفعيل مبادئ سيادة القانون سيكون سببا في المحافظة على استقرار تلك الأوطان على الصّعيدين الداخليّ والخارجيّ، وذلك في سبيل عدم تكرار تلك التجربة التي كانت وبالا على الأوطان.

ويأتي هذا المطلب كي يبرز أهمية سيادة القانون في حماية الأوطان على الصّعيدين الداخليّ والخارجيّ، ويحاول الباحث استقصاء معالم دور سيادة القانون في حماية الوطن من خلال قراءة في ميثاق الأمم المتحدّة ومقالاتها حول سيادة القانون، والتي تمثل حماية الأوطان على الصّعيد الخارجيّ، وكذلك من خلال قراءة في الورقة النقاشية الملكية السادسة لجلالة الملك عبد الله الثاني بن الحسين، وبعض الدراسات التطبيقية لدور سيادة القانون على أوطان محدّدة، والتي تمثل معالم هامة لحماية الوطن على الصّعيد الداخليّ بصورة أعمق، وفيما يأتي بيان أهمّ ما يجعل سيادة القانون دعامة في حماية الأوطان:

**أولا: حماية الأوطان من النزاعات والحروب:** تعدّ سيادة القانون سببا رئيسا في جعل الأوطان تنعم بالأمن والسّلام وتحميها من النزاعات والحروب، وترسيخا لهذا المبدأ نجد شعار الموقع الرسميّ للأمم المتحدّة بعنوان: "نحو عالم ينعم بالسّلام والأمن والعدل وتحكمه سيادة القانون"<sup>(١)</sup>، وربطها بالأمن والسّلام في مقالة بعنوان: (سيادة القانون والسّلام والأمن) مع التأكيد على أنّ احترام سيادة القانون يهيئ بيئة مؤاتية لتحقيق مقاصد الميثاق في حلّ النزاعات والحالات التي قد تتسبب في الإخلال بالسّلم من خلال تطبيق مبادئ العدالة بصورة متساوية بين الدول<sup>(٢)</sup>، ولقد ربط جلاله الملك عبد الله الثاني بن الحسين الحديث عن سيادة القانون بالنزاعات والتطوّرات الإقليمية التي عقبها تحولات جذرية أنتجت عواقب وخيمة على دول الإقليم، ولقد أرجع جلالته العامل الرئيسيّ في الوصول إلى هذه الحالة المرّوعة التي مسّت المنطقة بسبب غياب سيادة القانون والتطبيق العادل له<sup>(٣)</sup>.

وإنّ ربط سيادة القانون بالسّلام والأمن وإرجاع التحولات الإقليمية والنزاعات إلى انعدامها

١- ينظر: الأمم المتحدّة، الأمم المتحدّة وسيادة القانون، سيادة القانون والسّلام والأمن، موقع إلكتروني..

٢- ينظر: المرجع السابق.

٣- الملك عبد الله الثاني بن الحسين، سيادة القانون أساس الدولة المدنية، موقع إلكتروني.

يضع إشارة بالغة الأهميّة في دور سيادة القانون في توفيره الحماية للأوطان، سواءً على الإطار الداخليّ للوطن الواحد أو على الإطار الخارجيّ على مستوى الأوطان المتعدّدة.

**ثانياً: كفالة حقوق المواطنين والحدّ من الجرائم والعنف:** إنّ حماية حقوق المواطنين ركن الوطن الأكبر والدالّ على القيم الشريفة لمبادئ المواطنة التي تتفق عليها الأوطان المستقرّة، وترسيخها لهذا المبدأ نجد الأمم المتحدّة تركز على ضرورة التنفيذ القويّ لسيادة القانون، لغاية حماية حقوق الإنسان ومنع الجرائم والحد من التّزاعات العنيفة من خلال توفير عمليّات مشروعة لتسوية المظالم ومثبّطات للجريمة والعنف، ولأجله أولت العناية بإنشاء مؤسّسات معنيّة بسيادة القانون لتقديم مرتكبي الجرائم إلى العدالة، وتسلم بالحاجة إلى تطبيق نهج عام من خلال دعم سلسلة العدالة الجنائيّة بأكملها<sup>(١)</sup>.

ومّا يؤكّد على أهميّة سيادة القانون في الحدّ من الجرائم توجّه بعض الباحثين إلى دراسة مبدأ سيادة القانون كآلية وقائيّة من الجريمة، وعلى سبيل المثال قد قامت الباحثة: (بيظام، سميرة) بعمل دراسة: (سيادة القانون كآلة وقائيّة من الجريمة: دولة كندا أنموذجاً)<sup>(٢)</sup> مؤكّدة في نتائجها على أنّ تفعيل القوانين يعد الحلّ الأنجع في تطويق الجريمة والأنسب في ظاهرة باتت تنخر استقرار الدول المتطوّرة، وأنّ كندا التي أعلنت حرباً على الجريمة من خلال فكرة تطبيق القوانين وفق ما يعيد للمتضرّرين حقوقهم.

**ثالثاً: المحافظة على الأوطان من استبداد الأنظمة السياسيّة:** إنّ أبرز معاني سيادة القانون هو وجود القانون والتحاكم إليه الذي هو ضدّ الاستبداد، وإنّ أميز دلالة على النّظام السياسيّ الاستبداديّ عدم الالتزام بالنّظام القانونيّ السائد في المجتمع، وإنّما الاستناد إلى قوته الباطشة<sup>(٣)</sup>، وهو ما أشار إليه كليكاتسي بأنّ القانون والمؤسّسات القانونيّة جاءت للتعويض عن الفرق الشّاسع وعدم التّوازن بين ضعف الفرد وقوّة السّلطة العامّة، وذلك بخلق مجال يقف فيه

١- ينظر: الأمم المتحدّة، سيادة القانون والسلام والأمن، موقع إلكتروني.

٢- ينظر: بيطام، سيادة القانون كآلة وقائيّة من الجريمة: دولة كندا أنموذجاً، (١٠١-١١٤).

٣- ينظر: خيرى، صبري محمّد خليل، مفهوم سيادة القانون في الفكر القانوني المقارن، موقع إلكتروني.

الفرد والسلطة على قدم المساواة<sup>(١)</sup>، ونستطيع القول بناء عليه بأن سيادة القانون تهدف إلى حماية الأوطان من استبداد الأنظمة الظالمة، وحفظها من الفوضى المقتعة باسم (السلطوية).

وإذا علمنا بأن سيادة القانون بكافة أشكالها القانونية تهدف إلى غرض المحافظة على الحرية الشخصية للأفراد على وجه آكد، فإن الحرية الشخصية لا يمكن أن توجد إلا إذا كان الفرد يعيش في مجتمع تتوفر فيه الضمانات القانونية لحرية في العمل والنشاط، ويكون قادرا على الدفاع عن هذه الحرية في حدود القانون، وإن حفظ الحريات يعدّ لونا من ألوان حماية الوطن إذا علمنا بأن الوطن المكبوت أهله عن ممارسة حريته لا يتطور لا يوفر الفرصة لمواطنيه كي يسعوا في تطويره، ولعلّه يهدم جسور الثقة بين المواطن والمواطن ويهدم معاني الولاء والانتماء.

ولقد كان من أولى الحريات التي أولت الأمم المتحدة العناية بها وربطتها بسيادة القانون وحقوق الإنسان هي حرية العيش بكرامة، وكذلك لقد جعلت العلاقة بينهما علاقة أصيلة لا تنفصم، وحظيت باعتراف كامل من الدول الأعضاء منذ اعتماد الاعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي ينص على أنه من الضروري: "أن يتولّى القانون حماية حقوق الإنسان لكي لا يضطرّ المرء آخر الأمر إلى التمرد على الاستبداد والظلم"<sup>(٢)</sup>.

وعليه تتأكد أهمية سيادة القانون في وقاية الاوطان من لعنة الفوضى الناتجة عن تمرّد المواطنين الرافضين لسياسة اللاقانون والمنهج الانتقائي في تطبيقه، مما سيجعل الآثار سلبية على الجميع وبدون استثناءات، وهو ما يحتم اتخاذ الإجراءات الوقائية اللازمة والتي تعدّ سيادة القانون من أنجعها.

**رابعا: الإدارة الحصيفة للأوطان ذات الانتماءات المتعدّدة:** تعد سيادة القانون العامل الرئيس في حسن الإدارة التعدّدية لحماية الأوطان ذات الانتماءات المتعدّدة من حيث الدين أو العرق أو القبيلة، وإن المجتمعات العربية على سبيل المثال تتنوع بها تلك الانتماءات التي قد تكون عاملا للازدهار ورافدا للاقتصاد أو شعلة للفتنة العنصرية، وإن وجود سيادة القانون أو غيابها

١- ينظر: كليكاتسي، والأعظمي، نظرات في سيادة القانون، (٤٨-٦٣).

٢- ينظر: الأمم المتحدة، سيادة القانون وحقوق الإنسان، الدخول إلى الموقع: ٢٥/٩/٢٠٠٨م، الساعة:

ما يفصل بين هذين الواقعين<sup>(١)</sup>، ومّا يتفرّع عن حماية حقوق المواطنين ويعدّ لونا مصغّرا من الانتماءات المتعدّدة في الوطن الواحد ويشكّل قلّقا في بعض الأوطان هو الأقليّيات، وإنّ بأنّ أيّ مواطن في الوطن بالخوف والظلم لأنه ينتمي إلى أقلية يجعل الوطن أمام واقع يستند إلى أساس مهزوز، وإنّ سيادة القانون هي الضمان لهذه الحقوق<sup>(٢)</sup>.

**خامسا: حماية الأوطان من عوائق التّهوض والازدهار:** ترتبط سيادة القانون بازدهار الوطن وتعدّ عاملا رئيسا لتحقيق تنمية الوطن وحمايته من مهدّات التنمية ومن وباء الفقر، وهو ما أكّدت عليه الأمم المتحدّدة في الورقة المعنونة بـ (سيادة القانون والتنمية)، التي أوضحت من خلالها دور سيادة القانون في تهيئة بيئة ملائمة لتوفير سبل العيش المستدامة والقضاء على الفقر، من خلال تعزيز أصوات الأفراد والمجتمعات وإتاحة سبل الاحتكام إلى القضاء<sup>(٣)</sup>، وكذلك تُسهم في القضاء على العوائق التي تحول دون التّهوض بالأوطان، وتنخر فيما تمّ إنجازها وبنائها، فلا يمكن الحديث عن سيادة القانون دون الإقرار بأنّ الوساطة والمحسوبة سلوكيات تفتك بالمسيرة التّنمويّة للوطن من خلال تفويضها لقيم العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص وقيم المواطنة الصالحة، فلا يمكن لأيّ جيل أن يحمي سيادة القانون وقد ترسّخت لديه الولاءات الفرعية على حساب وطنه<sup>(٤)</sup>، وفي سبيل تحقيق مبادئ العدالة والقضاء على هذه السلوكيات تحتم سيادة القانون وجود جهاز قضائيّ نزيه يكون مرجعا للمواطنين وفيصلا في حلّ النزاعات الداخليّة للوطن، ولقد أكّدت الورقة الملكية السادسة على أنّ مبدأ سيادة القانون لا يمكن أن يترسّخ إلا بوجود جهاز قضائيّ كفء وفاعل، وذلك كي يلجأ إليه المواطن بثقته بقدرة هذا الجهاز على إنصافه وإن غاب هذا الأمر تزعزعت ثقة المواطن بالقضاء<sup>(٥)</sup>، وهكذا يتبيّن بأنّ سيادة القانون تساهم في التأثير على الوطن إيجابا وتساهم في حمايته من عواقب الفوضى والنزاعات وعوامل الفقر، وذلك من خلال تطبيق القانون بعدالة على الجميع وكفالة حقوق المواطنين، ممّا سيجعل الوطن بيئة مهية للأمن والسّلام والتطوّر والازدهار.

١- ينظر: الملك عبد الله الثاني بن الحسين، سيادة القانون أساس الدولة المدنية، موقع إلكتروني.

٢- ينظر: المرجع السابق.

٣- ينظر: الأمم المتحدّدة، سيادة القانون والتنمية، الدخول إلى الموقع: ٢٥/٩/٢٠٠٨م، الساعة: ٢٣:٢٠م.

٤- ينظر: المرجع السابق.

٥- ينظر: المرجع السابق.

## المبحث الثاني: معالم سيادة القانون في السنة النبوية ودورها في حماية الوطن

يعدّ التشريع الربّاني المتمثّل بالوحي المنزل على الرسول ﷺ قرآنا وسنة بمنزلة قانون المجتمع الإسلاميّ، ولقد بدأت تتضح معالم هذا القانون الإسلاميّ في الفترة المدنيّة بحكم بداية تشكّل معالم الدولة الإسلاميّة متمثلة بالقائد الأكبر: (رسول الله ﷺ) والمجتمع ذي الانتماءات المتعدّدة الدينيّة والقبلية، و"يتسق الفكر القانوني الاسلامي في أصوله مع مفهوم سيادة القانون طبقا لدلالته العامة المشتركة، فهو يتفق مع التفسير الشكلي للمفهوم والمتعلّق بوجود قانون ينظّم شؤون المجتمع ووجود قواعد تحكم العلاقات بين الناس"<sup>(١)</sup>، وعلى الرّغم من تأصل مبادئ سيادة القانون في القرآن الكريم ابتداء من خلال الأمر بالتحاكم إلى الله والرّسول في شؤون الحياة وظروفها؛ إلا أنّ هذا المطلب يُسلّط الضوء على معالم سيادة القانون في التطبيق العمليّ لإدارة المجتمع الإسلاميّ من خلال ما جاء من قواعد تدعمها وتؤكدّها الأحاديث النبويّة، وإنّ في تلك المعالم القانونيّة النبويّة دلالة على السبق العملي القانونيّ في تنظيم المجتمع الإسلاميّ، وتأصيل أسس سيادة القانون وقواعدها، وبذور مبادئها التي تتمحور حولها، ولا تكتمل إلا من خلالها.

وتتضح مبادئ سيادة القانون في السنة النبوية من خلال عدد من الأحاديث في المعالم الآتية:

**المعلم الأوّل: مبدأ المساواة بين الجميع:** يُقصد بالمساواة أمام القانون أن يكون جميع أفراد المجتمع طائفة واحدة بغير تمييز لأحد منهم على الآخر في تطبيق القانون<sup>(٢)</sup>، وإنّ المساواة بين أفراد المجتمع من جهة وبين الأفراد والمسؤولين في الدولة من جهة أخرى أسس سيادة القانون والكفيل بحفظ حقّ المواطنين وتطبيق القوانين، وكذلك يعدّ عدم تطبيقها بين المواطنين أو تطبيقها بصورة انتقائيّة بوابةً إلى تفشّي الفساد وإعاقة الوطن، ولقد أصل النبيّ محمد ﷺ مبدأ سيادة القانون المتمثّل بـ (المساواة) في المجتمع النبويّ بصورة جليّة، وفي موقف مشرف لتطبيق القانون ولو كان على ابن القائد، وعدم المحاباة والنظر في شفاعة أحبّ الناس ومراعاة ظروف الواجهة المجتمعيّة، ويتضح هذا المبدأ النبويّ العظيم في الحديث الآتي: **عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَحْزُومَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟، فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ**

١- ينظر بتصرف: خيرى، مفهوم سيادة القانون في الفكر القانوني المقارن، موقع إلكتروني.

٢- عيد، سيادة القانون، (٣٠-٣٧).

بُنْ زَيْدٍ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلُكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا<sup>(١)</sup>.

ولقد أظهر الحديث مدى تأكيد النبي ﷺ وحرصه لتطبيق مبدأ سيادة القانون من خلال إنكاره على أسامة وهو الملقب ب (حب رسول الله) بقوله: "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟" في إشارة إلى عدم التهاون في تطبيق حدود الله (القانون الرباني)، وعدم قبول الشفاعة على حساب تطبيق الحدود (القانون)، ولقد أظهرت روايات الحديث مدى تأثر النبي ﷺ بهذه الشفاعة لتعلقها بحدود الله؛ فلقد جاء في رواية مسلم: "فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ" <sup>(٢)</sup> في إشارة إلى غضبه، وفي قولهم: "وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ" دلالة على تغذيتهم الرجعة بأن رسول الله ﷺ لا يتساهل في تطبيق الحدود، وليس الأمر حادثاً في هذه القصة وحسب وإنما هو نهج عرفوه من سيرته ومواقفه فكون لديهم انطباعاً عاماً.

وكذلك لم يكتفِ رسول الله ﷺ بالإنكار على المستوى الفردي وإنما قام وخطب في مثابة إعلان لقانون عام وقاعدة هامة تعدّ أساساً هاماً في المساواة في تطبيق القانون: "وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن هذا الإعلان جاء على وجه التأكيد والتغليظ من خلال اليمين: "وَإِنَّمَا اللَّهُ" وفي رواية: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ" <sup>(٣)</sup>، ولقد جعل شراح الحديث سبب تخصيصه فاطمة بالذكر لأنها أعزّ أهلها عنده ولأنه لم يبق من بناته حينئذٍ غيرها فأراد المبالغة في إثبات إقامة الحد على كلّ مكلف دون محاباة<sup>(٤)</sup>، مع التأكيد على أن الرسول ﷺ لم يكن يخطب إلا في الأمور ذوات الشأن والجلل وليس في كلّ حادثة عابرة مما يؤكّد على أهميّة الأمر لدى النبي ﷺ وخطورته.

- ١- البخاري، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حدثنا أبو اليمان، ٣٤٧٥، (٤/١٧٥).
- ٢- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، ١٦٨٨، (٥/١١٤).
- ٣- ينظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، ٦٧٨٧، (٨/١٦٠).
- ٤- ابن حجر، فتح الباري، (١٢/٨٧).



الإضافة إلى أنّ الرسول ﷺ أشار إلى أنّ سبب هلاك الأمم (الأوطان) السابقة هو تطبيقهم القانون على الضعيف وتركهم للشريف، في رسالة تحذيرية بأنّ سبب هلاك الأوطان عدم تطبيق سيادة القانون على الجميع دون تمييز، فلم يُلَقِ بالا بشأن المخزومية التي أشارت روايات الحديث إلى أنّها صارت محطّ اهتمام الرأي العامّ لموقع بني مخزوم في القبيلة حيث جاء في حديث الدراسة: "أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ، وَكَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ أُمَّتَهُ: بِأَنَّ الْقَوَانِينَ لَا تَكُونُ قَوَانِينَ إِذَا ارْتَبَطَ تَنْفِيذُهَا بِقَرَبِ النَّاسِ أَوْ بَعْدَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ أَوْ بِمَقْدَارِ حَظِّهِمْ مِنَ الشَّرْفِ وَالْوَجَاهَةِ أَوْ الضَّعْفِ وَالْهَوَانِ"<sup>(١)</sup>، وفي موقفه ﷺ يجلي سيادة القانون بالتطبيق وليس مجرد شعارات ليس منها على أرض الواقع نصيب.

ويجدر التنبيه إلى وجود عدد من الشواهد في السيرة النبوية تؤكّد على مبدأ المساواة بين جميع طوائف المجتمع، وعلى سبيل المثال: (صحيفة المدينة) التي نظّمت العلاقات بين سكّان المدينة ووضّحت التزامات جميع الأطراف داخل المدينة وحدّدت الحقوق والواجبات<sup>(٢)</sup>، ولقد عدّها الكثير إنجازاً هاماً للدولة الإسلامية ومعلماً رئيساً في تاريخها السياسيّ وأوّل دستور مدنيّ في التاريخ الذي رسّخ مبدأ المواطنة الكاملة وساوى بين المسلمين وغير المسلمين من حيث الحقوق والواجبات تحت حماية الدولة<sup>(٣)</sup>، وإنّ هذه شهادة من أرباب السياسة في العصر الحديث تؤكّد مدى السبق التنظيمي للمجتمع الإسلاميّ في تنظيم العلاقات في إطار الوطن الواحد متعدّد الانتماءات.

**المعلم الثاني: الحرّم في تطبيق القوانين ونزاهة القضاء:** إنّ وجود القانون وحده لا يكفي لتحقيق سيادة القانون إن لم يترجم القانون على أرض الواقع تطبيقاً وتنفيذاً، وإنّ من مستلزمات تطبيق القوانين وتنفيذها وجود قضاء حازم ونزيه يطبقها بحقّها ولا يتبع أهواء خاصّة أو تصفية حسابات، ولقد أصل النبي ﷺ هذا المبدأ في حياته والذي ترجمه عدد من الأحاديث التي تؤكّد بأنّ هذا المبدأ كان نوحاً يسير عليه ويُعرف به، ويتّضح هذا المبدأ بصورة جليّة في الحديث الآتي: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "وَاللَّهِ مَا أَنْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ، حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ

١- جمعة، الإسلام وسيادة القانون، (٥١-٦٢).

٢- ينظر: العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (١/٢٧٢).

٣- ينظر: الملك عبد الله الثاني بن الحسين، سيادة القانون أساس الدولة المدنيّ، موقع إلكترونيّ.

فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ<sup>(١)</sup>.

أظهر الحديث أنّ النبيّ ﷺ كان يتساهل إذا هضم حقّه ولا ينتقم، ولم يؤثر عنه أنّه انتقم لنفسه، ولكن إذا تعلق الأمر بجرمات الله التي تعدّ بالنسبة إلى المسلم انتهاكا للقانون الربّاني فإنّه لا يتهاون فيه ويشتدّ غضبه من بعد اللين والرأفة الذين عرف بهما، وإنّ هذه نتيجة استقرائية ذات أهميّة بالغة من أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي تعدّ أعرف الناس بحياة الرسول ﷺ بصورة مباشرة، والتي تشكل لديها انطباع عامّ حول هذه المسألة في شخصيّة الرسول ﷺ.

ولقد فهم شراح الحديث بأنّ في الحديث رسالة إلى القضاة والمسؤولين في التخلّق بهذا الخلق الكريم في عدم الانتقام للنفس وعدم إهمال حقّ الله، وأنّ العلماء أجمعوا على أنّ القاضي لا يقضي لنفسه ولا لمن لا يجوز شهادته له<sup>(٢)</sup>، وإنّ في تطبيق هذا المبدأ تحصينا للأوطان من انتهاك الحرمات (المحظورات القانونيّة) وعاملا هاما في ازدهار الوطن والأخذ به نحو الرقيّ والكمال.

**المعلم الثالث: تفعيل مبدأ المحاسبة والمساءلة:** يُعدّ تفعيل مبدأ محاسبة المسؤولين في الوظائف العامّة ومساءلتهم من الأمور المهمّة في سيادة القانون في سبيل المحافظة على حقوق المواطنين وضمان تطبيق القانون على الجميع، وذلك لأنّ بعض المسؤولين يحاول استغلال موقعه الوظيفي للتلاعب في القوانين أو تطبيقها بناء على تحقيق مصالحهم، ولقد تأكّد في المبحث الأوّل مدى أهميّة تفعيل مبدأ المحاسبة لأجل محاربة الفساد وتعميق مبدأ سيادة القانون، ولقد أصّل النبيّ ﷺ هذا المبدأ في حياته بصورة جليّة وعلنيّة أمام الناس في الحديث الآتي: عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ السَّاعِدِيِّ: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَعْمَلَ ابْنَ الْأُنْبِيَّةِ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَاسِبُهُ قَالَ: هَذَا الَّذِي لَكُمْ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَبَيْتِ أُمَّكَ حَتَّى تَأْتِيكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا. ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخَطَبَ النَّاسَ وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي اسْتَعْمَلُ رَجُلًا مِنْكُمْ عَلَى أُمُورٍ مِمَّا وَلَا بِيَّ اللَّهَ، فَيَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَبَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ

١- ينظر: البخاريّ، صحيح البخاري، كتاب الحدود وما يحذّر من الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، ٦٧٨٦، (١٦٠/٨).

٢- ينظر: التّووي، شرح التّوويّ على مسلم، (٨٤/١٥).

إِنْ كَانَ صَادِقًا، فَوَاللَّهِ، لَا يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا - قَالَ هِشَامٌ: بَغَيْرِ حَقِّهِ -، إِلَّا جَاءَ اللَّهُ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا فَلَا عَرَفَنَّ مَا جَاءَ اللَّهُ رَجُلٌ بَبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَبَقْرَةٍ لَهَا خُورًا، أَوْ شَاةٍ تَبَعَّرُ. ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ: أَلَا هَلْ بَلَغْتُ" (١).

أكد الحديث مدى اهتمام الرسول ﷺ في محاسبة المسؤولين على أموال الصدقات التي وكل في إحضارها وهو موضوع حساس لتعلقه بالأموال، وإن في قوله: "فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَاسِبُهُ" يشير إلى أنه أمر من يحاسبه ويقبض منه الذي توضّحه رواية أبي نعيم: " فَجَعَلَ يَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي حَتَّى مَيَّزَهُ، قَالَ: يَقُولُونَ: مِنْ أَيْنَ هَذَا لَكَ؟، قَالَ: أَهْدِي لِي، فَجَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِمَا أَعْطَاهُمْ" (٢)، وبغض النظر إن كان الرسول ﷺ هو المحاسب أو من وكلهم فإن الأمر دائر في إطار المحاسبة، وإن الذين وكلوا كانوا على قدر من الأمانة بحيث لم يتركوا الأمر لما شكوا فيه وإنما ذهبوا به إلى صاحب الولاية الأكبر ليحسم القضية ويبت في المسألة.

ولقد بالغ النبي ﷺ في الإنكار عليه إذ برّر بأن ما أخذه داخل في إطار الهدايا وليست إلى بيت أموال المسلمين، فقال رسول الله ﷺ تلك العبارة التي صارت بمنزلة شعار ويصلح لأن يكون في لوحة قبل كل موظف في مكتبه وأمام عينه في كل يوم وظيفي، قال: "هَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَبَيْتِ أُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيكَ هَدِيَّتُكَ"، ولقد فهم شرح الحديث بأن هذه العبارة دالة على أن الهدايا قد تكون ذريعة بأن يسامح بعض من عليه الحق من باب الطمع في موقعه الوظيفي، وذلك لأن الهدية للعامل تكون لشكر معروفة أو للتحبب إليه أو للطمع في وضعه من الحق (٣)، وبعبارة أخرى: فإن الهدايا قد تكون سببا في التسامح في تطبيق القوانين على أصحاب تلك الهدايا وإعفائهم من الضرائب، وعليه أوجب الرسول ﷺ ضم الهدايا إلى أموال المسلمين (٤).

ولم يكتف رسول الله ﷺ في الإنكار الفردي على المسؤول وحسب، وإنما قام وخطب بين الناس في تلك الواقعة المهمة والحساسة؛ بحكم أن الهدايا قد تفتح بابا خطيرا في التسامح في تطبيق

١- ينظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب محاسبة الإمام عماله، ٧١٩٧، (٧٦/٩).

٢- ينظر: ابن حجر، فتح الباري، (١٦٥/١٣).

٣- ينظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (٢٤٨/٨)، وابن حجر، فتح الباري، (٣٤٩/١٢).

٤- ينظر: نقل ابن حجر هذا الفهم عن المهلب، وأشار إلى أنه لم يقف على نص صريح في أن الرسول ﷺ أمر بضم تلك الهدايا إلى بيت مال المسلمين. ابن حجر، فتح الباري، (٣٤٩/١٢).

القوانين على الجميع، ولم يكتفِ رسول ﷺ بالتحذير الدينيّ فقط وإنما أتبعه بالتحذير الأخرويّ والذي قد ينميّ مبدأ المحاسبة الذاتية لكلّ شخص وإن لم يحاسبه مسؤول أعلى.

**المعلم الرابع: لا محاكمة بلا قانون:** يعدّ التّحاكم إلى القانون وعدم إجراء حكم دونه من شروط المحاكمة العادلة، والتي تعدّ حقاً من الحقوق الأساسيّة للإنسان، وتنصّ المادّة (١٤) من القانون الدوليّ لحقوق الإنسان على: "من حقّ كلّ فردٍ أن تكون قضيّته محلّ نظرٍ مُنصفٍ وعلنيّ من قبل محكمة مختصّة مستقلّة حياديّة ومنشأةٍ بحكم القانون"<sup>(١)</sup>، ولقد سبقت الإشارة إلى القاعدة اللاتينيّة المشهورة: (لا مخالفة بدون قانون)<sup>(٢)</sup> وإلى عبارة ألبرت كاموس التي وشّحها كليكاستسي مفهوم سيادة القانون: (إنّ من أسوأ المصائب على الإنسان أن يحاكم بدون قانون)<sup>(٣)</sup>، فإنّ التّحاكم إلى القانون يمثّل جوهر سيادة القانون التي تقتضي الرّجوع إلى القانون وليس إلى الأهواء والآراء الشخصية.

ولقد أصّل النبيّ ﷺ هذا المبدأ من خلال عدد من الأحاديث التي تؤكّد بأنّ الرسول ﷺ في أكثر من حادثة لم يحاكم أصحابها دون نزول وحي فاصلٍ في الحادثة، وإنّ الوحي في الشريعة الإسلاميّة يعدّ بمنزلة القانون المنظّم لشؤون الحياة والمرجع في المنازعات والخصومات والقضايا المستحدّة في المجتمع الإسلاميّ، وفيما يأتي تفاصيل حادتين حول الموضوع:

**الحادثة الأولى:** أخرج البخاريّ ومسلم قصّة تحلّف الثلاثة من صحابة رسول ﷺ عن غزوة تبوك، وعلى الرّغم من مدى حساسيّة القصّة لتعلّقها بقضيّة شغلت المجتمع الإسلاميّ لمُدّة خمسين يوماً؛ وإطّلاع المجتمع على كلّ من تحلّف عن تلك الغزوة؛ وبالرّغم من قبول الرسول ﷺ لأعداء مجموعة من المتخلّفين بعد أن قدّموها على أطباق من الأيمان، إلا أنّ في تأخّر حكم الرسول ﷺ على هؤلاء الثلاثة درساً عظيماً يتجلّى فيه مبدأ سيادة القانون في عدم المخالفة دون قانون.

وتتضح معالم مبدأ سيادة القانون في الحديث من خلال قول الرسول ﷺ لكعب رضي الله عنه: "أمّا

١- ينظر: هائل سلام، الحقّ في المحاكمة العادلة، تاريخ الدّخول إلى الموقع: (٧/١٠/٢٠١٨م)، الساعة: (٥٤:٥٥م).

٢- ينظر: سامر أحمد، مبدأ سيادة القانون، الحوار المتمدن، موقع إلكترونيّ.

٣- ينظر: كليكاتسي، نظرات في سيادة القانون، (٤٨-٦٣).

هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ" (١) وفيه إشارة صريحة إلى أن رسول الله ﷺ تفرّس فيه الصدق، ولكن لم يحكم في شأنه حتى ينزل الحكم الإلهي (القانون)، وإنّ الإجراءات التي اتخذها رسول الله ﷺ في حقهم لا تعدو أن تكون اجراءات روتينية في سبيل انتظار الحكم الذي تأخر لحكمة مقصودة، ولعلّ أحد مقاصد التأخر الإشارة إلى أنه: (لا حكم على أحد دون قانون، وأنّ الحكم بالقانون ولو تأخر خير من الحكم بدون قانون)؛ ولو كان التأخر على حساب الضغوط النفسية التي تعرّض لها هؤلاء الثلاثة من خلال التعامل القاسي من المجتمع حين نزول الوحي بالحكم الرباني الفيصل في المسألة.

**الحادثة الثانية:** لقد أخرج البخاري ومسلم قصة حادثة الإفك، وما مسّ أهله في عائشة ﷺ من كلام المتربصين وتوتّر بيته والمجتمع الإسلاميّ طيلة شهر كامل بحكم أنّ هذه قضية حساسة، وتعلّق بجناب قائد الدولة وعرضه، ويظهر الحديث بأنّ الرسول ﷺ لم يتضح لديه الأمر في المسألة حتى صار يسأل فلانا وفلانا عن أهله، وإنّ مدّة شهر كامل كافية بقدر كبير لأن يأخذ كلّ متربص فرصته في بثّ سمومه في المجتمع وإيذاء رسول الله ﷺ، وتقتضي حساسية المسألة البتّ في الأمر وحسم القضية، لئلا تزداد الأمور سوءا وتفتك في الإدارة العليا للوطن، وبالرغم من هذه المسوغات في الاستعجال في الحكم إلا أنّ الرسول ﷺ لم يحكم في المسألة وأمر عائشة في الانتظار حين نزول الحكم الرباني الفيصل في المسألة، وقال: "أَمَا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيَّةً فَسَيُبْرِئُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَّتْ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهُ" (٢).

وإنّ في قول عائشة ﷺ الآتي لدلالة مهمّة، قالت: "وَأَنَا وَاللَّهِ حِينَدِ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيَّةٌ؛ وَأَنَّ اللَّهَ مُبْرِئِي بِرَّاءَتِي؛ وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى، وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ ﷻ فِي بَأْمَرٍ يُتْلَى، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا

١- ينظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ (التوبة: ١١٨)، ٤٤١٨، (٣/٦)، مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب الركعتين في المسجد لمن قدم من سفر أول قدمه، ٧١٦، (١٥٦/٢).  
٢- ينظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ٤١٤١، (١١٦/٥)، مسلم، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب: فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ، وَقَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاذِفِ، ٢٧٧٠، (١١٢/٨).

يُبْرِئُ اللهُ بِهَا<sup>(١)</sup>، حيث يدلّ على أنّ لدى عائشة رضي الله عنها تغذية راجعة بأنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان يفصل في بعض المسائل إمّا بوحي من عند الله أو برؤيا صادقة والتي تعدّ وحيًا غير مباشر ولم يكن بيت المسائل من تلقاء نفسه، حتّى جاء الفصل من الله في أمرها، قالت: "فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبِرْحَاءِ عِنْدَ الْوَحْيِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجَمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي الْيَوْمِ الشَّاتِ مِنْ ثَقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْهِ... فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ أَمَا اللهُ فَقَدْ بَرَكَ..."<sup>(٢)</sup>.

وبكلّ حال فإنّ الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن يحكم في المسائل ذات الشأن المعقّد والتي يخفى عليه تفاصيلها إلاّ بأمر ربّاني من الله، وهو ما يؤكّد بأنّ الرسول صلى الله عليه وآله راعى مسألة سيادة القانون الربّاني في القضايا المجتمعيّة، ولم يحكم فيها بناء على غلبة الظنّ وحسب وإمّا وفق تشريعات تعدّ بمنزلة القانون المعتمد في الدّولة.

**المعلم الخامس: التحذير من التحايل على القانون:** إنّ بعض ما يهدّد سيادة القانون هي وجود ثغرات في بعض القوانين واستثناءات يعلمها الخبراء في القانون ويستثمرونها للتحايل على القانون والتّهرب من تطبيقه، حتّى قامت نداءات في العصر الحديث تنادي بالقضاء على هذه الظّاهرة: (لا للتحايل على القانون)<sup>(٣)</sup>، ولقد حدّرت بعض الأحاديث من التّحايل على القانون في سبيل تأكيد مبدأ سيادته؛ فعن أمّ سلمة رضي الله عنها عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله: أَنَّهُ سَمِعَ خُصُومَةً بِيَابِ حُجْرَتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخُصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَفْضِي لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ فَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرِكْهَا<sup>(٤)</sup>.

يحدّر الحديث من التّحايل على الإمام الذي يعدّ موكلًا في تطبيق القانون، وإنّ صورة التّحايل في الحديث: (التّحايل بالكلام) والتي تتأكّد في الحديث في قوله: "فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ"

١- ينظر: المرجعان السابقان.

٢- ينظر: المرجعان السابقان.

٣- ينظر: خالد الخميس، لا للتحايل على القانون، تاريخ الدّخول: (٧/١٠/١٨٠١م)، السّاعة: (٣٣:٣٨م).

٤- البخاريّ، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، ٢٤٥٨،

(٣/١٣١).

بَعْضٍ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ" وجاءت في بعض الروايات: "وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ"<sup>(١)</sup>.

ولقد أشار شراح الحديث إلى أن المراد بأن أحدهما أفطن من الآخر فيكون أبلغ في الحجّة والأدلة<sup>(٢)</sup>، ممّا يدلّ على أن الأقوى على البيان البليغ قد يغلب بالباطل ببيانه فيقضى له على خصمه وليس بمحلّ ما حرّم الله<sup>(٣)</sup>، وإنّ الحديث يدلّ على أنّ الرسول ﷺ أوكل الأمر إلى ضمير الإنسان بعد أن أيقظه أحياء بسوط الآخرة<sup>(٤)</sup>، ولعلّه ولأنّ مسائل التّحاييل يصعب السيطرة عليها من قبل المسؤولين لحفائها ومجيئها من أبواب خفيّة كانت الحاجة ماسّة إلى إحياء الضمير والوازع الداخليّ لدى المرء لحظة تطبيق القانون، وإنّ في الحديث رسالة لأولئك الذين استغلّوا مهنة المحاماة بطريقة سلبية لتبرئة ظالم أو تظليم بريء؛ وكلّ ذلك باسم القانون وما هو إلاّ تحاييل على القانون.

ويعدّ الحديث أصلاً في ترتيب الوعيد الأخرويّ على من لم يطبّق مبدأ سيادة القانون وتحاييل على القانون، وذلك في قوله في حديث الدّراسة: "فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ" الذي فهمه شراح الحديث بأنّه يعني: أنّ من قضى له بظاهرٍ يُخالف الباطن فإنّ مآله إلى النار، وإنّ معنى قوله: "فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرِكْهَا" على التّهديد وليس على التّخيير<sup>(٥)</sup>، وكلّ هذه الإشارات تدلّ على أنّ العبرة بالجواهر في السنّة النبويّة وليس على الظواهر، ولعلّ هذا الأسلوب يكون رادعاً في عدم التّحاييل وسبباً في إحياء ضمائر المتحاييلين.

ويجدر التأكيد على أنّ البخاريّ خصّص كتاباً كاملاً في صحيحه بعنوان: (كتاب الحيل)، وأدرج تحته عدداً من الأبواب في التحذير من التّحاييل في العبادات والتّكاح والبيوع وتحاييل العمّال لأجل الهدايا، وهي رسالة تحذيريّة شاملة في كلّ مناحي الحياة بدم التّحاييل سواء في العبادات أو المعاملات.

١- البخاريّ، صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، ٢٦٨٠، (٣/١٨٠).

٢- ابن حجر، فتح الباريّ، (١٢/٣٣٩).

٣- ابن بطّال، شرح صحيح البخاريّ، (٦/٥٨٢).

٤- جمعة، الإسلام وسيادة القانون، (٥١-٦٢).

٥- التّووي، شرح التّووي على مسلم، (٦/١٢)، ابن حجر، فتح الباريّ، (١٣/١٧٤).

### المبحث الثالث:

## إشكاليّات مبدأ سيادة القانون في السنّة النبويّة (الحدود والكفّارات أنموذجا)

تجلّت مبادئ سيادة القانون في عدد من الأحاديث النبويّة كما تبين في المبحث السابق، وعلى صعيد آخر فإنّه تمسك عدد من المنتقدين بأحاديث أخرى اتّهموا من خلالها الحديث النبويّ بأنّه يخالف مبدأ العدالة في تطبيق الحدود والأحكام والكفّارات بين كافّة النّاس على اختلاف أجناسهم وأديانهم، وبعبارة أخرى: فإنّ تلك الأحاديث تخالف مبدأ تطبيق سيادة القانون من خلال وجهة نظر المنتقدين، وعلى سبيل التمثيل فلقد جعل أوزون في كتابه: (جناية البخاريّ) عنوانا عريضا باسم: (الرّسول وتطبيق الحدود والأحكام) الذي بثّ من خلاله إشكاليّاته على عدد من الأحاديث المتعلّقة بالقضاء بين النّاس في الحقوق والقضاء<sup>(١)</sup>، ويركّز هذا المبحث عن مناقشة تلك الإشكاليّات على الأحاديث الخاصّة بالحدود والأحكام والكفّارات بحكم تعلّقها بسيادة القانون بصورة أعمق.

### المطلب الأوّل: إشكاليّة التلاعب بالقانون بالزيادة

لقد كانت أحد أبرز الانتقادات أنّ الرّسول ﷺ لم يكتفِ بتطبيق حدود الله في المجتمع، وإنّما تعدّاه زيادة على أصحاب الحدود وليست نقصانا أو رحمة لتصير سنّة من بعده يطبّقها الآخرون، ولقد تبين في المبحث الأوّل بأنّ ثبات القانون من أهمّ ما يعبر عن مبدأ سيادة القانون، وفيما يأتي المناقشة:

**الحديث:** عن أنس رضي الله عنه: **أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكَلٍ ثَمَانِيَّةٍ، قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَاسْتَوْحَمُوا الْأَرْضَ فَسَقِمَتِ أَجْسَامُهُمْ، فَشَكُوا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: أَفَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيْنَا فِي إِبِلِهِ، فَتُصِيبُونَ مِنَ الْبَآئِحَاتِ وَأَبْوَالِهَا قَالُوا: بَلَى، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنَ الْبَآئِحَاتِ وَأَبْوَالِهَا، فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا رَاعِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَطْرَدُوا النَّعَمَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمْ، فَأُدْرِكُوا فَجِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَفُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَنَمَرَ أَعْيُنُهُمْ، ثُمَّ نَبَذَهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا<sup>(٢)</sup>.**

١- أوزون، زكريّا، جناية البخاري - إنقاذ الدين من إمام المحدثين-، (٧٢).

٢- البخاريّ، صحيح البخاري، كتاب الديات، باب القسامة، ٦٨٩٩، (٩/٩).



**وجه الإشكال:** لقد أنكر أوزون الحديث وجعله يسنّ سنة نبويّة في جعله عقوبةً لهؤلاء الذين قتلوا الرّاعي وسلبوا إبله حدّ الحراية ثمّ فقأ عيونهم وتركهم في الشّمس حتّى موتهم، ويرى أوزون بأنّ الأصل أن تكون عقوبة قتل النّفس هي القتل من باب العدالة<sup>(١)</sup>، وأنكر نيازي مسألة جمع العقوبات الواردة في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ (المائدة: ٣٣)، حيث إنّ الحديث جمع العقوبات الواردة في الحديث من خلال حذف حرف (الألف) الواردة في الآية واستبدالها بال (الواو) تحريفاً<sup>(٢)</sup>، وهو يعدّ زيادة على الحدّ، وفيما يأتي الإجابة والمناقشة من وجوه:

**الوجه الأوّل:** يلاحظ بأنّ المشكلة الأساسيّة عند نيازي وأوزون هي تقطيع أيدي هؤلاء القتلة وأرجلهم ثمّ سمل عيونهم عوضاً عن الاكتفاء بقتلهم فقط، والسّمّل: "أنّ تُفَقَأَ العين بحديدة محمّاة أو بشوك"<sup>(٣)</sup>، وترك القتلة حتّى موتهم سمّته روايات الحديث ب (الحسّم)<sup>(٤)</sup> وهو: عدم قطع الدّم بالكي<sup>(٥)</sup>، بالإضافة إلى أنّ روايات أخرى أشارت إلى عدم سقيهم من الماء حتّى ماتوا<sup>(٦)</sup>، وعليه يتبيّن بأنّ هناك تقطيعاً للأيدي والأرجل وسّملاً وعدم حَسْمٍ وعدم سَقْيٍ للماء ثمّ النتيجة المتوقّعة الموت بسبب عدم الحسّم والعطش.

**الوجه الثّاني:** تُعدّ مسائل هذا الحديث من الأمور الحسّاسة والشائكة والمتعلّقة بأكثر من محور وقضيّة في آن واحد وصارت مصدر إشكال لدى التّاقدين، ويرى الباحث بأنّ هناك ثلاثة أمور تعين في استيعاب الإشكاليّات لتفتح المجال للإجابات، فأما الأمر الأوّل: إنّ كان فعل النّبيّ ﷺ بهؤلاء القتلة قصاصاً، وأما الأمر الثّاني: إنّ كان فعل النّبيّ ﷺ بهؤلاء القتلة مثلاً، وأما الأمر

١- أوزون، جناية البخاري، (٧٣-٧٤).

٢- نيازي، دين السلطان «البرهان»، (ط١)، (٤٢٢).

٣- ابن سلام، غريب الحديث، - ١٩٦٤ م، (١/١٧٣).

٤- ينظر: البخاريّ، صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب لم يحسم النّبيّ I المحاربين من أهل الرّدة حتّى هلكوا، ٦٨٠٣، (٨/١٦٣).

٥- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (١/٣٨٦).

٦- ينظر: البخاريّ، صحيح البخاريّ، كتاب الحدود، باب: لَمْ يُسَقَّ الْمُرْتَدُونَ الْمُحَارِبُونَ حَتَّى مَاتُوا، ٦٨٠٤، (٨/١٦٣).

الثالث: إن كان فعل النبي ﷺ بهؤلاء القتلة قبل آية الحراة أو بعدها، ويناقدش الباحث فيما يُستقبل من وجوه الأمور الثلاثة.

**الوجه الثالث:** تبين بعض ألفاظ الحديث بأن النبي ﷺ سمل أعين هؤلاء القتلة قاصا لأهم سملوا أعين الراعي، ونصّ الرواية في صحيح مسلم: "عَنْ أَنَسٍ قَالَ: إِنَّمَا سَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْيُنَ أَوْلِيكَ لِأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرَّعَاءِ"<sup>(١)</sup>، ولم تنصّ ألفاظ الحديث في الصحيحين وكتب السنة على أنهم مثلوا بالراعي أو بالرعاة فقطعوا أيديهم وأرجلهم، إلا أن شراح الحديث وبعض العلماء أشاروا إلى أن أبا إسحاق ذكر بأنهم قد مثلوا وقطعوا أيدي الراعي وأرجله وقرزوا الشوك في عينيه فأدخل المدينة ميتا على هذه الصفة<sup>(٢)</sup>، فإن صحّت الرواية فلم يبق مشكلا على أن ما فعله بهم قاصا إلا عدم سقيهم للماء وعدم حسمهم.

فأما الماء فاحتمل أن يكون عدم سقيهم قاصا لأهم سرقوا ناقة الماء الخاصة برسول الله ﷺ فدعا عليهم: "اللَّهُمَّ عَطِّشْ مَنْ عَطَّشَ آلَ مُحَمَّدٍ اللَّيْلَةَ"<sup>(٣)</sup>، ولكنّ ممّا يُضعف هذا الرأي بأن العلماء أجمعوا على أن من وجب عليه حدّ سواء كان ذلك الحدّ يبلغ النفس أم لا أنه لا يمنع شرب الماء لئلا يجتمع عليه عذابان<sup>(٤)</sup>، ويبقى ترك الحسم مشكلا لعدم وجود ما يدلّ على إن كان هؤلاء القتلة تركوا حسم الراعي أو الرعاة أو لا، وفي الإجمال نستطيع أن نقول بأن تلك الإشارات تدلّ على أن ما فعله النبي ﷺ بهم كان قاصا.

**الوجه الرابع:** إذا تبين بأن فعل النبي ﷺ كان قاصا فإنه لا يعني القول بأنه لم يمثل بهم، لأنه باختصار: مثل بهم قاصا كما مثلوا بذلك الراعي أو بالرعاة، وإنّ هذا الرأي يحلّ إشكاليات

١- مسلم، صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديّات، باب حكم المحاربين والمرتبدين، ١٦٧١، (١٠٣/٥).

٢- ينظر حاشية ابن القيم: العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه: حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، (١٨/١٢)، ولم أجد نصّ الكلام في السيرة النبوية لابن إسحاق.

٣- ينظر: التّسائي، سنن التّسائي، كتاب تحريم الدم، باب ذكر اختلاف طلحة بن مصرف ومعاوية بن صالح على يحيى بن سعيد في هذا الحديث، ٤٠٤٧ - ٢، (٧٩٧/١)، وينظر: محمّد أنور شاه، فيض الباري على صحيح البخاري، (٤٣٢/١).

٤- ينظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (٤٢٤/٨).

في الاختلاف بين العلماء، فإن من عدّه قصاصاً لم يعدّه مثله ومن عدّه مثله لم يعدّه قصاصاً، والذي يحلّ الإشكال أنّ نعدّ تمثيله بهم قصاصاً، وهو من باب المعاملة بالمثل، ولم ير الباحث في حدود اطلاعه من تبني هذا الرأي في توجيه الحديث إلا ما أشار إليه ابن تيمية في مناقشة المسألة في سبيل العموم حيث بين حرمة التمثيل في القتل إلا إذا جاء على وجه القصاص<sup>(١)</sup>، ويدعمه بخصوص حديث الدراسة ما روي عن سليمان التيمي في تفسير القطعة من الحديث: "إِنَّمَا سَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْيُنَ أَوْلَيْكَ لِأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرَّعَاءِ"<sup>(٢)</sup>، قال: "يريد أنه إنما اقتص منهم على أمثال فعلهم"<sup>(٣)</sup>.

**الوجه الخامس:** لقد وردت بعض الزيادات في الحديث عند البخاري ما يشير إلى أنّ هذه الحادثة كانت قبل نزول الحدود في القرآن الكريم، ونصّ الزيادة: "قَالَ قَتَادَةُ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ الْحُدُودُ"<sup>(٤)</sup>، وإنّ في الزيادة إشارة مهمة تؤكد بأن الحادثة كانت قبل سنّ قانون ثابت في المسألة ممّا جعل النبي ﷺ يجتهد في المسألة، ويعاقبهم قصاصاً، وبناء عليه فهم بعض شراح الحديث بأن الحديث منسوخ بحكم أنّ الحادثة كانت قبل الآية<sup>(٥)</sup>، ومما يدعم المسألة بأنّ بعض ألفاظ الحديث تدلّ على أنّ الرسول ﷺ نهي عن المثلة بعد هذه الحادثة ونزول آية الحرابة<sup>(٦)</sup>، وكأنّه إشارة إلى النهي عن المثلة وإن كانت قصاصاً، والالتزام بتطبيق الحدود الواردة في الآية.

**الوجه السادس:** إنّ (أو) في الآية الكريمة تحتمل إمّا التخيير وإمّا التقسيم، وإنّ التخيير يجعل الأمر في تحديد العقوبة حسب اختيار الحاكم، بخلاف التقسيم الذي يجعل تحديد العقوبة تختلف باختلاف الجنايات، فمن اقتصر على القتل قُتِلَ؛ ومن قَتَلَ وأخذَ المال قُتِلَ وصلبَ، ومن اقتصر

١- ينظر: ابن تيمية، السياسة الشرعية، (٦٥).

٢- مسلم، صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقتال والديات، باب حكم المحاربين والمرتبدين، ١٦٧١، (١٠٣/٥).

٣- ينظر: الخطابي، معالم السنن، (٢٩٩/٣).


٤- ينظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الدواء بأبوال الإبل، ٥٦٨٦، (١٢٣/٧).

٥- ينظر: النووي، شرح النووي على مسلم، (١٥٣/١١).

٦- ينظر: أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الحدود، باب ما جاء في المحاربة، (٢٢٩/٤)، وينظر: العيني، عمدة القاري، (٢٣٥/٢١).

على أخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف، ومّا يدلّ على ضعف الحمل على التخيير بأنّه ليس للإمام أن يكتفي بالاقتصار على النّفي إجماعاً<sup>(١)</sup>، وعليه يتبيّن ضعف رأي المنتقد في حصره معنى (أو) على التخيير، وتجدر الإشارة إلى أنّه ليس في روايات الأحاديث ما يؤكّد قطعاً بأنّ الرّسول ﷺ جمع بين العقوبات لهؤلاء القتلة في تلك الحادثة، وذلك أنّ روايات الأحاديث تحتمل أنّها تشير إلى مجموع تلك العقوبات على جميع هؤلاء القتلة كلّ بحسب عقوبته المناسبة، مع الأخذ بعين الاعتبار وعلى فرضيّة الجمع بين أكثر من عقوبة بأنّه في إطار القصاص وليس قسوة ولا إرهاباً ولا تعطّشاً للدماء.

**الوجه السابع:** لقد جاء في بعض روايات الحديث ما يؤكّد الاحتمال بأنّ النبيّ ﷺ وزّع العقوبات ولم يجمعها على هؤلاء القتلة، ونصّ الرواية فيما استخرجه أبو عوانة على صحيح مسلم: "فَصَلَبَ اثْنَيْنِ وَقَطَعَ اثْنَيْنِ وَسَمَلَ اثْنَيْنِ"<sup>(٢)</sup>، وعلى الرّغم من أنّ هذه الرواية لم تذكر جزاء القاتل السابع والقاتل الثامن إلا أنّها تؤكّد على مبدأ توزيع العقوبات، وإلى هذا الرأي مال ابن حجر معتمداً على هذه الرواية: "فَإِنْ كَانَ مَحْفُوظًا فَعُقُوبَتُهُمْ كَانَتْ مَوْزَعَةً"<sup>(٣)</sup>، وإنّ التوزيع يوافق مبدأ التقسيم في الآية الكريمة ممّا يضعف القول بأنّ الآية جاءت عتاباً للنبيّ ﷺ مع التأكيد على أنّ مفهوم الآية لا تؤيّد المثلة، وهو ما طبّقه الرّسول ﷺ في نهيّه عن المثلة بعد نزول آية الحدود الخاصّة بالحرابة في صورة مثالية في الالتزام بالقانون الرّباني، وإنّ هذا النّهي يبيّن مدى ضعف المنتقد في اتّهامه الحديث بأنّه يسنّ سنّة سيئة في القتل والتّمثيل في تطبيق الحدود.

وبناء على ما سبق يتبيّن ضعف رأي المنتقد الذي لم يطّلع على حيثيات الحادثة بصورة مفصّلة جامعة بين جميع الروايات للقصة، والذي يهّم في إطار تطبيق مبدأ سيادة القانون بأنّ معالم الحدّ لم تكن معلومة وقت الحادثة حتّى يزيد فيها النبيّ ﷺ على الحدّ، بالإضافة إلى أنّ الرّسول ﷺ لم يزد وإنّما عامل بالمثل وحسب، فجاءت الآية مؤكّدة على القانون العامّ في أمثال هذه الحوادث والذي ينبغي التقيّد فيه فيما يستقبل من حوادث مستجدّة، وتجدر الإشارة أنّ البخاريّ في صحيحه ترجم باباً بعنوان: **بَابُ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** 

١- ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (٣٤٦/١١).

٢- أبو عوانة، مستخرج أبي عوانة، بابُ بَيَانِ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَى مَنْ يَرْتَدُّ عَنِ الْإِسْلَامِ، ٦١٢٢، (٤/٨٨).

٣- ابن حجر، فتح الباري، (٣٤٠/١).

(المائدة: ٣٣) (١) مما يدل على الترابط بين الآية والحادثة في تأصيل الحدِّ.

### المطلب الثاني: إشكالية عدم التثبُّت في تطبيق القوانين وخضوعها إلى تقدير الرسول ﷺ

كانت أحد أبرز الانتقادات أن أحكام الرسول ﷺ فيما تصوّره الأحاديث كانت ترجع إلى تقديره وليس إلى الله، وأنّه لم يكن بالمتبثِّت في تطبيق الحدود على سائر أفراد المجتمع، وفيه إشارة منافية لتطبيق سيادة القانون التي تقتضي ثبات القانون والتثبُّت في تطبيقه وعدم خضوعه إلى الأهواء، وفيما يأتي المناقشة:

**الحديثان:** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى رَدَدَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا شَهِدَ عَلَيَّ نَفْسِي أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، دَعَاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: أَيْبَكَ جُنُونَ؟، قَالَ: لَا، قَالَ: فَهَلْ أَحْصَنْتَ؟، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: أَذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ (٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمَّهُ عَلَيَّ، قَالَ: وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْهُ، قَالَ: وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الصَّلَاةَ، قَامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْ لِي كِتَابَ اللَّهِ، قَالَ: أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ، أَوْ قَالَ: حَدَّكَ (٣).

**وجه الإشكال:** لقد جعل ابن قرناس عنوانا عريضا باسم: "إقامة حدود الله تخضع لتقدير الرسول ﷺ" (٤)، وجعل تحتها هذين الحديثين اللذين جعلهما بصوران الرسول ﷺ بأنه يقيم الحدود ويعفو عنها بحسب ما أراد، وذلك لأنّه في الحديث الأوّل تحقّق أنّه ليس مجنوناً قبل أن

١- البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المائدة، باب ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (المائدة: ٣٣)، ٤٦١٠، (٥٢/٦).

٢- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب لا يرحم المجنون والمجنونة، ٦٨١٥، ٦٨١٦، (١٦٥/٨).

٣- المرجع السابق، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب إذا أقر بالحد ولم يبين هل للإمام أن يستتر عليه، ٦٨٢٣، (١٦٦/٨).

٤- ينظر: ابن قرناس، الحديث والقرآن، (٢٩١).

يقيم عليه الحدّ المقرّر، وفي الحديث الثّاني لا يسأل الرّجل ولا يتحقّق ممّا فعل ويخبره بأنّ كفّارة الحدّ هي صلّاته مع رسول الله ﷺ، وأشار إلى أنّ ما فعله السّلاطينُ بعدُ من وقف تنفيذ حدود الله بمسّتحقيّها هو سنّة الرّسول ﷺ بناءً على هذين الحديثين<sup>(١)</sup>، وفيما يأتي الإجابة والمناقشة من وجوه:

**الوجه الأوّل:** يصوّر الحديثان منهجا نبويّاً راقياً في التّعامل مع أصحاب الحدود على مبدأ السّتر ومحاولة تطبيقيّها وفقاً لمبدأ التّثبت، ولقد أشار شراح الحديث في سياق شرح حديث الدّراسة وتحليل مسأله إلى أنّ مبنى الحدّ على الاحتياط في تركه ودرئه بالشّبهات<sup>(٢)</sup>، وإنّ كلا الحديثين يؤكّدان على أنّ الكشف عن الحدود لا يحلّ وأنّ السّتر أولى، فإذا ما ثبتت البيّنة على صاحب الحدّ لدى المسؤول صار لزاماً عليه تطبيقيّه وتنفيذه على صاحبه.

**الوجه الثّاني:** لقد صوّر الحديث الأوّل بصورة جليّة إعراض الرّسول ﷺ عن الرّجل أربع مرّات، وصوّرت الروايات الأخرى مشهد الإعراض بدقّة: "فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَتَنَحَّى لِشِقِّ وَجْهِهِ الَّذِي أَعْرَضَ قَبْلَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْأَخْرَ قَدْ زَنَى، فَأَعْرَضَ عَنْهُ فَتَنَحَّى لِشِقِّ وَجْهِهِ الَّذِي أَعْرَضَ قَبْلَهُ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ فَأَعْرَضَ عَنْهُ فَتَنَحَّى لَهُ الرَّابِعَةَ"<sup>(٣)</sup>، وتوضّح روايات حديث بريدة بأنّ الرّسول ﷺ رده إلى اليوم الثّاني فلمّا جاءه في اليوم الثّاني رده إلى اليوم الذي بعده<sup>(٤)</sup>، وإنّ في الإعراض والتأخير إشارة هامّة إلى أنّ الرّسول يريد تفادي الرّجل إلا أنّ الرّجل مصرّ على تطبيقي الحدّ.

ولم يزل الرّسول ﷺ حتّى بعد أن شهد الرّجل على نفسه بالزّنى أربع شهاداتٍ يُحاولُ تفاديّه وإبعاده ويسأله: (أبك جنون؟)، وأشار شراح الحديث إلى إجماع العلماء في أنّ المجنون إذا أصاب حدّاً في حال جنونه لا يجب عليه حدٌّ<sup>(٥)</sup>، ولا يشكّل عليه بأنّ إقرار المجنون غير معتبر إذ لو كان مجنوناً لم يُفد<sup>(٦)</sup>، لأنّه من المحتمل أنّ الرّسول ﷺ أراد سؤال من حوله ولم يسأله هو كما جاء في

١- ابن قريّن، الحديث والقرآن، (٢٩١).

٢- ابن بطّال، شرح صحيح البخاريّ، (٤٤٤/٨).

٣- البخاريّ، صحيح البخاريّ، كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق، ٥٢٧١، (٤٦/٧).

٤- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزّنى، ١٦٩٥، (١٢٠/٥).

٥- ابن بطّال، شرح صحيح البخاريّ، (٤٤٤/٨).

٦- ينظر: ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ٢م، مطبعة السنة المحمدية، (٢٤١/٢).

بعض ألفاظ الحديث: "بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ: أَيَسْتَكِي، أَبِي جِنَّةٌ؟ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَصَحِيحٌ"<sup>(١)</sup>، ولعله قَصَدَ بآنِهِ تَصْيِيهُ نَوَابَاتِ جَنُونٍ أَوْ صَرَعَ تَفْقَدَ الْمَرْءَ تَرْكِيْزَهُ وَلَعَلَّهَا تَفْقَدُهُ عَقْلَهُ بِصُورَةٍ جَزَائِيَّةٍ، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ سُؤْلَهُ لِتَبْيِيْنِ بِمُخَاطَبَتِهِ وَمِرَاجَعَتِهِ تَثْبِيْتَهُ وَتَعْقُلَهُ<sup>(٢)</sup>، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ تَوْبِيْخَهُ قَاصِدًا تَفَادِيَهُ لِيَفْهَمَ بِأَنَّ إِصْرَارَهُ عَلَيَّ تَطْبِيْقِ الْحَدِّ بَعْدَ إِعْرَاضِهِ عَدَّةً مَرَّاتٍ يَحْتَمِلُ أَنَّ فِي عَقْلِهِ شَيْئًا<sup>(٣)</sup>.

ولقد جاء في حديث بريدة الذي يروي ذات الحادثة بأن الرسول ﷺ سأل: "أَشْرَبَ خَمْرًا؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَ"<sup>(٤)</sup>، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيْحَ خَمْرٍ<sup>(٥)</sup>، وَإِنَّ سُؤْلَهُ هَذَا السُّؤْلَ بَعْدَ سُؤْلِ الْجَنُونِ فِي اِحْتِمَالِيَّةٍ إِلَى أَنَّهُ وَقَعَ الْحَدَّ بِسَبَبِ سُكْرِهِ، وَأَشَارَ التَّوْوِيَّ إِلَى أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ سُكْرَانٌ لَمْ يُقَمَّ عَلَيْهِ الْحَدُّ<sup>(٦)</sup>، وَفِي كُلِّ هَذِهِ الْاِحْتِمَالَاتِ وَكُلِّ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ دَلَالَةٌ هَامَّةٌ وَجَلِيَّةٌ عَلَيَّ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَكُنْ حَرِيصًا عَلَيَّ تَطْبِيْقِ الْحَدِّ عَلَيَّ الرَّجُلِ.

**الوجه الثالث:** أشار الحديث الثاني إلى أن الرسول ﷺ لم يحاول الكشف عما فعله الرجل لما طلبه إقامة الحد، ويظهر الأمر بصورة جليّة من خلال ما حكاها أنس رضي الله عنه: "وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْهُ" إِذْ أَنَّ عَدَمَ السُّؤْلِ دَلِيلٌ عَلَيَّ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ الْأَمْرَ عَلَيَّ مَحْمَلِ الْحَدِّ، وَاسْتَنْتَجَ شَرَّاحَ الْحَدِيثِ بِنَاءِ عَلَيْهِ بِأَنَّ كَشْفَ الْحُدُودِ ضَرْبٌ مِنَ التَّجَسُّسِ الْمَحْرَمِ، وَأَنَّ عَدَمَ إِفْصَاحِ الرَّجُلِ عَنْ حَدِّهِ يَعْدُّ شَبْهَةً يُدْرَأُ بِهَا الْحَدِّ، وَأَنَّ الْحُدُودَ لَمَّا لَمْ تَجْزِ إِقَامَتُهَا بِالْكِنَايَةِ دُونَ الْإِفْصَاحِ كَانَ لِرِزَامِ عَلَيَّ السُّلْطَانِ الْأَلَّا يَكْشِفَ

١- ابن حبان، صحيح ابن حبان، كتاب الحدود، ذكر إباحتها التوقف في إمضاء الحدود، ٤٣٩٩، (٢٤٤/١٠).

٢- ينظر: ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، (٢٤١/٢).

٣- أشار ابن عبد البر في سياق شرح الحديث إلى أن إظهار المرء ما يأتي من الفواحش حمق لا يفعله إلا المجانين، وأنه ليس من شأن ذوي العقول كشف ما واقعه من حدود... وإنما يكتفون بالتوبة والستر على أنفسهم. ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، (١٢١/٢٣).

٤- معنى «فاستنكهه»: شم ريح فمه. ينظر: ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، (٢٤/٢).

٥- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، ١٦٩٥، (١١٨/٥).

٦- التووي، شرح التووي على مسلم، (٢٠٠/١١).

عنها<sup>(١)</sup>، مما يؤكد بأن المنهج النبوي في كلا الحادثتين واحد لم يتغير من شخص إلى شخص.

**الوجه الرابع:** إن من أساسيات سيادة القانون تطبيق الحدود وعدم التهاون في تنفيذها، وإن هذين الحديتين لا ينافيان منهج الرسول ﷺ الصارم في تطبيق الحدود كما في قصة المخزومية التي سرفت، لأن الأمر في قصة المخزومية غدا مجزوما به، وصار أمرا علنا يستوجب على صاحب القرار تطبيق العقوبة المناسبة، إلا أن الأمر في هذين الحديتين مغاير لاحتمالية أن يظن صاحب الحد أنه ارتكب حدا وهو لم يرتكبه وإنما قارب فقط، فلقد أشارت رواية إلى أن الرسول ﷺ سأله: "فَلَعَلَّكَ؟"<sup>(٢)</sup>، وفي رواية: "فَهَلْ تَدْرِي مَا الزَّيْنِي؟"، ثم قال: "أَتَيْتُ مِنْهَا حَرَامًا مِثْلَ مَا يَأْتِي الرَّجُلُ مِنْ امْرَأَتِهِ حَلَالًا؟"<sup>(٣)</sup>، وكله يؤكد على أن الرسول ﷺ يحاول معرفة إن كان الرجل يعي جيدا ما فعل ولم يختلط الأمر عليه حتى لا يقع في العقوبة وهو لا يستحقها، ولو أراد الرسول ﷺ التحري ثم تبين عدم تحققه للوقوع للحد فإنه يُدخله في إطار الفضيحة وهي ليست من منهج الرسول ﷺ القائم على الستر، فكان الأسلم عدم التحري والكشف عن حده. وترجم ابن حبان في صحيحه بابا بعنوان: "ذَكَرُ إِبَاحَةِ التَّوَقُّفِ فِي إِمْضَاءِ الْحُدُودِ، وَاسْتِنَافِ سَبَابِهَا بِمَا فِيهِ الْإِحْتِيَاطُ لِلرَّعِيَّةِ"<sup>(٤)</sup> الذي يؤكد فحوى المنهج النبوي في التفريق بين الحد ومظنة الحد.

**الوجه الخامس:** لقد جاء حديث عن ابن مسعود يبيّن ما قد يفهمه بعض الناس عما يقترفونه، ونصّها: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَاجَلْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمْسَهَا، فَأَنَا هَذَا فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ"<sup>(٥)</sup>، ولم يردّ عليه الرسول ﷺ حتى قال عمر: "لَقَدْ سَتَرَكَ اللَّهُ لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ"<sup>(٦)</sup>، وتوضّح الروايات الأخرى بأنه لم يأخذ من المرأة

١- ينظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (٤٤٤/٨)، وابن حجر، فتح الباري، (١٣٤/١٢).

٢- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، ١٦٩٢، (١١٧/٥).

٣- ابن حبان، صحيح ابن حبان، كتاب الحدود، ذكر إباحت التوقف في إمضاء الحدود، ٤٣٩٩، (٢٤٤/١٠).

٤- المرجع السابق، كتاب الحدود، ذكر إباحت التوقف في إمضاء الحدود، ٤٣٩٩، (٢٤٤/١٠).

٥- مسلم، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ﴾ (١١٣) ﴿هود: ١١٤﴾، (١١٤)، ٢٧٦٣، (١٠٢/٨).

٦- المرجع السابق، كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ﴾ (١١٣) ﴿هود: ١١٤﴾، (١١٤)، ٢٧٦٣، (١٠٢/٨).



غير القبلة وفي رواية: "أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً"<sup>(١)</sup>، ولقد أشار الشراح في سياق شرح الحديث الثاني إلى أنّ الرجل قد يصيب صغيرة ويظنّها كبيرة توجب الحدّ، وأنّ الرسول ﷺ لم يكشفه لأنّ موجب الحدّ لا يثبت بالاحتمال<sup>(٢)</sup>، ممّا يجلي الجانب الأجل في المسألة بأنّ الرسول ﷺ لم يكن متشوقاً إلى إقامة تلك الحدود<sup>(٣)</sup>، وإمّا هو منهنج قائم على الاحتياط وليس على المحاباة بين المواطنين.

**الحديث الثالث:** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: "جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَامَ حَصْمُهُ فَقَالَ: صَدَقَ، أَفْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا فَزِنِّي بِامْرَأَتِهِ، فَقَالُوا لِي: عَلَى ابْنِكَ الرَّجْمُ، فَفَدَيْتُ ابْنِي مِنْهُ بِمِائَةِ مِنَ الْغَنَمِ وَوَلِيدَةٍ، ثُمَّ سَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ، فَقَالُوا: إِنَّمَا عَلَى ابْنِكَ جَلْدٌ مِائَةً وَتَغْرِيبٌ عَامٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا فَضِيرٌ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ، أَمَّا الْوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ فَرُدُّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدٌ مِائَةً وَتَغْرِيبٌ عَامٌ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا أُنَيْسُ لِرَجُلٍ فَاغْدُ عَلَى امْرَأَةٍ هَذَا فَارْجُمَهَا، فَعَدَا عَلَيْهَا أُنَيْسٌ فَرَجَمَهَا"<sup>(٤)</sup>.

**وجه الإشكال:** لقد جعل ابن قرناس عنوانا عريضا باسم: (يحكم بغير ما أنزل الله، وقبل أن يتبين)<sup>(٥)</sup>، وجعل الحديثين بصوران الرسول ﷺ أنه يحكم باستعجال ودون تثبّت، بخلاف النهج القرآني الذي يأمره بالتثبّت<sup>(٦)</sup>، وأنّه حكم بإزهاق روح واحدة بمجرد الاستماع للمدعي في جلسة واحدة خاطفة ولم يتثبّت من صدق قوله أو يسأل المتهمين، ولم يعتمد على كتاب الله في حكمه عليه بتغريب عام وليس في كتاب الله تغريب عام ولا رجم، وممّا يؤكّد بطلان القصة عدم التعريف بأسماء أبطالها<sup>(٧)</sup>، وفيما يأتي الإجابة والمناقشة من وجوه:

- ١- البخاري، صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة، ٥٢٦، (١١١/١).
- ٢- ينظر: ابن حجر، فتح الباري، (١٣٤/١٢).
- ٣- ينظر: السرحاني، رفق النبي بالمذنبين، تاريخ الدخول إلى الموقع: ٢٠/١٠/٢٠١٨م، (الساعة: ٢٦:٠٢م).
- ٤- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحو على صلح جور فالصلح مردود، ٢٦٩٥، ٢٦٩٦، (١٨٤/٣)، والعسيف: الأجير. ينظر: ابن سلام، غريب الحديث، (١٥٩/١).
- ٥- ينظر: ابن قرناس (٢٠٠٨م)، الحديث والقرآن، (ط١)، كولونيا (ألمان) - بغداد، منشورات الجمل، ٢٩١.
- ٦- يقصد قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي فَتَيَبُوا﴾ (الحجرات: ٦).
- ٧- ابن قرناس، الحديث والقرآن، (٢٩٦).

**الوجه الأول:** بداية لا تنص رواية الحديث إلى أن الرسول ﷺ حكم بدون وجود الطرف الآخر ودون أن تثبت، لأن نص رواية الحديث تشير إلى أن الخصمين مواجدان في حضرة الرسول ﷺ، وهو ما يتأكد من خلال قول الراوي: "فَقَامَ خَصْمُهُ فَقَالَ: صَدَقَ" وفي قول الأعرابي: "إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا"، وإن حضور زوجها مجلس القضاء ودفاعه عن حقوقها يعد بمنزلة المحاماة والوكالة في عصرنا، خاصة بأن الظروف البيئية في ذلك الوقت والأعراف القبليّة السائدة تحتم على المرأة عدم دفاعها عن نفسها في مثل هذه القضايا التي قد تلصق العار والفضيحة بزوجها وأهلها وقبيلتها، وبناء عليه لا نجد أن الرواية تشير إلى أسماء بعينها خوفا من هتك أسرار الناس ولأجل تغليب مصلحة الستّر.

**الوجه الثاني:** إن عدم إنكار زوج المرأة يؤكد بأن الرسول ﷺ لم يكن بحاجة إلى التثبيت من دعوى الأعرابي في تلك الجلسة، وإن الروايات الأخرى تشير إلى أن الاختلاف بينهما كان على العقوبة وليس على وقوع الحادثة، ومما جاء في إحدى الروايات: فَأَخْبَرُونِي أَنَّ عَلِيَّ ابْنَ الرَّحْمِ، فَأَفْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ مَنَ الْعَنَمِ وَوَلِيدَةٍ، ثُمَّ سَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ، فَأَخْبَرُونِي أَنَّ عَلِيَّ امْرَأَتَهُ الرَّحْمِ، وَأَمَّا عَلِيَّ ابْنِي جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبُ عَامٍ<sup>(١)</sup>، وإن هذا المقطع من القصة يبيّن بأن هناك اختلافا على رأيين حول عقوبتهما، مما اضطرهما إلى اللجوء إلى الرسول ﷺ لأخذ الحكم الشافي.

**الوجه الثالث:** لم يُصدر النبي ﷺ حكما مطلقا على زوجة الرجل دون التثبيت، وإن الاطلاع على مجمل روايات القصة يؤكد بأن الرسول ﷺ أصدر حكم الرّجم مشروطا بشرط في غاية الأهمية ويبطل دعوى المنتقد، فلقد جاء في إحدى روايات الحديث: "وَأَمَرَ أُتَيْسًا الْأَسْلَمِيَّ أَنْ تَأْتِيَ امْرَأَةَ الْآخَرِ، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ، رَجَمَهَا، فَاعْتَرَفَتْ، فَرَجَمَهَا"<sup>(٢)</sup> الذي يؤكد بأن الرسول ﷺ اشترط اعتراف المرأة لتطبيق عقوبة الرّجم؛ فإن انتفى الشرط فلا عقوبة، مما يؤكد بأن الرسول ﷺ لم يكتفِ بعدم إنكار زوجها للحادثة وإنما أراد السماع من الطرف الآخر على سبيل التثبيت، ومما يجدر التنبيه إليه بأن الروايات الأخرى تشير إلى أن الموكل في التثبيت (أُنَيْسًا) لم يصدر قرار الرّجم بعد الاعتراف وإنما رجع إلى الرسول ﷺ للتأكد من تطبيق القرار لأهميته وتعلقه بإزهاق روح، ونص الرواية: "فَعَدَا

١- البخاري، صحيح البخاري، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد، ٧٢٦٠، (٨٨/٩).

٢- المرجع السابق، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد، ٧٢٦٠، (٨٨/٩).

عَلَيْهَا فَأَعْتَرَفْتُ، فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَجِمْتُ"<sup>(١)</sup>، وكلّ هذه الإشارات من مجموع الروايات تؤكد على أنّ الرسول ﷺ راعى مبدأ الثبوت في تطبيق الحدود، ويتأكد به أهمية مراعاة جمع الروايات للوقوف على تفاصيلها التي أحدثت نقصانها إشكالا عند المنتقد.

**الوجه الرابع:** لقد أخرج البخاري الحديث بزيادة شرط الاعتراف تحت باب بترجمة: (بَابُ: الاعْتِرَافِ بِالزَّانَا)<sup>(٢)</sup> مما يؤكد على فحوى الشرط واعتباره في القصة، وأخرجه بزيادة الشرط تحت باب بترجمة: (بَابُ: الْوَكَالَةِ فِي الْحُدُودِ)<sup>(٣)</sup> في إشارة إلى أنّ الرسول ﷺ لم يصدر حكما مطلقا في الحد وإنما أرسل وكيله للثبوت.

**الوجه الخامس:** لقد سبق قديما طرح شبهة (عدم ورود عقوبتي الرجم وتغريب عام) في القرآن الكريم وناقشها أهل الحديث نقاشا موسعا، وإنّ أهمّ جواب في المسألة أن نعلم بأنّ لفظة: (كُتِبَ) تأتي بمعنى: (فرض)، ومما يشهد له في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ (البقرة: ١٧٨)، وقوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ (النساء: ٧٧)، بمعنى: فرض عليكم القتال والقيصاص<sup>(٤)</sup>، وعليه يتأكد بأنّ المنتقد لم يأت بجديد في نقده لحديث الدراسة.

### المطلب الثالث: إشكالية التسامح في تطبيق القوانين

لقد كان أحد أبرز الانتقادات على الأحاديث المتعلقة بالحدود بأنّ الرسول ﷺ كان يتسامح في الحدود، وإنّ هذا التسامح يتنافى مع مبدأ سيادة القانون التي تقتضي التطبيق والتنفيذ، وفيما يأتي المناقشة:

**الحديث:** عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: اقْتَسَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هُذَيْلٍ، فَرَمَتِ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ قَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَضَى أَنْ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ، عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ،

- ١- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، ١٦٩٨، (١٢١/٥).
- ٢- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب الاعتراف بالزنا، ٦٨٢٧، (١٦٧/٨)، ٦٨٢٨.
- ٣- المرجع السابق، كتاب الوكالة، باب الوكالة في الحدود، ٢٣١٥، ٢٣١٤، (١٠٢/٣).
- ٤- ينظر: ابن قتيبة، غريب الحديث، (٢٦٩/١).

وَقَضَى دِيَةَ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا<sup>(١)</sup>.

**وجه الإشكال:** جعل ابن قرناس عنوانا عريضا باسم: (القاتل لا يدفع الدية)، وتساءل كيف يمكن أن يلزم البريء بدفع دية قتيل قتلته غيره بينما القاتل لا يدفع شيئا عن جنايته؟!، وأشار إلى تعارضه مع القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَدَعُ مُثْقَلَةً إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ ۗ﴾ (فاطر: ١٨)<sup>(٢)</sup>، وفيما يأتي الإجابة والمناقشة من وجوه:

**الوجه الأوّل:** تعرّف العاقلة بأنّها: "العصبة والأقارب من قبيل الأب الذين يُعطون دية قتيل الخطأ"<sup>(٣)</sup>، ويعدّ تقييد التعريف بالخطأ بعدا رئيسيّا في الجواب عن الإشكال الذي أثاره المنتقد حول حديث الدراسة، ويشير إلى دلالة تعريف العاقلة وإخراج القتل بالعمد من دائرتها الأثر المروي عن الشعبيّ بقوله: "لَا تَعْقِلُ الْعَاقِلَةُ عَمْدًا"<sup>(٤)</sup>.

**الوجه الثاني:** تبين فائدة تقييد العاقلة بالخطأ من خلال نفي المؤاخذه عن القاتل الذي يؤكده القرآن الكريم: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ۗ﴾ (الاحزاب: ٥)، إلا أنّ عدم مؤاخذته لا ينفي ضمانه لدم المقتول، ولقد جاءت العاقلة لتأمين ضماناته على الوجه الأكمل وبطريقة آمنة تتوافق مع التصوص الشرعيّة التي تحثّ على التعاون على الخير، علما بأنّه لا توجد إشارة صريحة في الأحاديث تؤكّد على فرضية المساعدة في الدية لكلّ فرد من العاقلة، وكأنّها مطلوبة من العاقلة بالجملة، بحكم أنّها أمر تشاركيّ تعاونيّ.

**الوجه الثالث:** لقد أشار شرح الحديث في سياق تأكيدهم على قيد الخطأ في العاقلة بأنّ الخطأ قد يتكرّر ولا يؤمن عدم وقوعه في المستقبل، ويضاف إليه بأنّ احتمال فقر الواحد أكثر من احتمال فقر الجماعة، فكان ترتيب الدية على العاقلة مصلحة للطرفين: (القاتل والمقتول)، فأما مصلحة القاتل في أن لا تأتي الدية على جميع ماله سواء تكرّرت الحادثة أم لم تتكرّر، وأما مصلحة المقتول في أن لا يضيع دمه هدرا في حال عدم استطاعة الواحد على دفع الدية، وإنّ

١- البخاريّ، صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب نفقة المعسر على أهله، ٥٣٦٨، (٦٦/٧).

٢- ينظر: ابن قرناس (٢٠٠٨م)، الحديث والقرآن، (١٨٢).

٣- ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (٢٧٨/٣).

٤- البيهقيّ، السنن الكبرى، كتاب الديات، باب من قال لا تحمل العاقلة عمدا، ١٦٤٥٧، (١٠٤/٨).

هذه خلاصة ما حكاه شراح الحديث<sup>(١)</sup>، وهو قول جمهور الفقهاء<sup>(٢)</sup>، وبناء على عدم إهدار دم المحني عليه فإنّ في دفع العاقلة للدية تحقيقاً لمعنى العدالة والمساواة بين الجاني والعاقلة، وذلك لو تمّ تطبيق القاعدة العامّة في أنّ كلّ مخطئ يتحمّل مسؤولية أخطائه لكانت النتيجة تحقيق الدية من الأغنياء فقط الذين يمثّلون الشريحة الأقلّ في المجتمعات وامتنع تحصيلها من الفقراء الذين يمثّلون الشريحة الأكثر في المجتمعات، فكان ترك القاعدة العامّة واللجوء إلى الاستثناء أمراً مهماً لتحقيق العدالة والمساواة بين الجناة.

ولا يرى الباحث الحديث معارضا للآية الكريمة، بحكم أنّه لا تلازم بين مساعدة العاقلة أحد أبنائها في مصابه وبين تحمّل الجاني لوزره، علماً بأنّ المسألة خارجة عن الوزر لأنّها في إطار القتل الخطأ، وعليه يتأكد بأنّه ليس في الحديث تحميلٌ للبريء ما لم يقترفه وإنّما هو تفعيل لنظام تعاوني وأمان للدماء المهذرة، وإنّ في هذا النظام والأمان دعامة للوطن من هدرٍ لدماء مستحقة وتفعيلاً لمبدأ الحيطة والحذر لتفادي وقوع حوادث أخرى مماثلة.

#### المطلب الرابع: إشكالية عدم المساواة في تطبيق القوانين

لقد كانت أحد أبرز الانتقادات على الأحاديث المتعلقة بالحدود بأنّ الرسول ﷺ كان لا يساوي بين الناس في تطبيق الحدود، وإنّ عدم المساواة في تطبيق القانون يتنافى مع مبدأ سيادة القانون الذي يجعل القانون فوق الجميع، وفيما يأتي المناقشة:

**الحديث الأول:** عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ: عَدَا يَهُودِيٌّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَارِيَةٍ، فَأَخَذَ أَوْضًا حَاكَانَتْ عَلَيْهَا وَرَضَخَ رَأْسَهَا، فَأَتَى بِهَا أَهْلَهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ فِي آخِرِ رَمَقٍ وَقَدْ أُصِمَّتْ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ قَتَلَكَ؟ فُلَانٌ؟ لِعَيْرِ الَّذِي قَتَلَهَا، فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لَا، قَالَ: فَقَالَ لِرَجُلٍ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي قَتَلَهَا، فَأَشَارَتْ أَنْ لَا، فَقَالَ فُلَانٌ لِقَاتِلِهَا، فَأَشَارَتْ أَنْ نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَضَخَ رَأْسَهُ بَيْنَ حَجْرَيْنِ<sup>(٣)</sup>.

١- ابن حجر، فتح الباري، (٢٤٦/١٢)، القسطلاني، شرح صحيح البخاري، (٦٨/١٠).

٢- المجالي، مسؤولية العاقلة في دفع الدية، (١٠٦-٦٣).

٣- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق، ٥٢٩٥، (٥١/٧).

**وجه الإشكال:** لقد أشار أوزون إلى أنّ الحديث يظهر بأنّ عقوبة القاتل هي القتل (النفس بالنفس)، علماً بأنّ القاتل قد سلب وسرق ولم يطبّق عليه حدّ الحراة ولم يشهّر به مثلما فعل في العربيّين في إشارة إلى عدم المساواة في تطبيق الحدود على أفراد المجتمع الإسلاميّ<sup>(١)</sup>، وفيما يأتي الإجابة والمناقشة:

**الوجه الأوّل:** يتبيّن من خلال استقراء ألفاظ روايات الحديث في الصحيحين وخارجهما بأنّ آية قتل اليهوديّ لم تخرج عن الرّضخ والرّض والرّجم، وأشار شراح الحديث بأنّ الاختلاف بالألفاظ لا بالمعاني لأنّ كلّ هذه الأمور تعدّ ضرباً بالحجارة<sup>(٢)</sup>، وبناء عليه يتبيّن بأنّ النبيّ ﷺ راعى القصاص في الحادثة، ولقد اعتمد بعض شراح الحديث بناء على حديث الدراسة في الرّدّ على من أنكر القصاص بغير السيّف، وتعقّب ابن التين بعض الحنفية الذي أشار بأنّ الحديث لا دلالة فيه على المماثلة في القصاص لأنّ المرأة كانت حيّة والقود لا يكون في حيّ بأنّه إنّما أمر بقتله بعد موتها فاقتص منه<sup>(٣)</sup>، ممّا يؤكّد بأنّ تصرف الرّسول ﷺ مع اليهوديّ كان قصاصاً وفق الطريقة التي قتل بها الجارية.

**الوجه الثّاني:** لقد أشار الحديث إلى أنّ الأوضاح كانت أساس المشكلة التي وقعت بين اليهوديّ والجارية، وهي: "نَوْعٌ مِنَ الْحُلِيِّ يُعْمَلُ مِنَ الْفِصَّةِ"<sup>(٤)</sup>، ولا يسلم للمنتقد بأنّ الرّسول ﷺ لم يقم على اليهوديّ حدّ السرقة؛ لأنّه لا يوجد أيّ إشارة في ألفاظ الأحاديث تدلّ على أنّ الرّسول ﷺ لم يأمر باسترداد ما أخذه اليهوديّ من الأوضاح على افتراض أنّه أخذها؛ وإنّ مجرد عدم الذكر لا يدلّ على عدم تحقّق الفعل ما دام أنّ إشارات القصّة بالجملة تدلّ مراعاته للقصاص.

ويضاف إليه بأنّه لا يسلم للمنتقد تحقّق مقصود اليهوديّ في السرقة لحدوث الخصام بينهما بسبب احتمال أن تكون الجارية قاومت عن نفسها في سبيل الحفاظ على ممتلكاتها، وجاء في

١- أوزون، جناية البخاري، (٧٣-٧٤).

٢- العينيّ، عمدة القاري، (١٢-٢٥٣).

٣- ابن حجر، فتح الباري، (١٢-١٩٩).

٤- واحدها: وضّح، ينظر: ابن الأثير، التّهاية في غريب الحديث والأثر، (١٩٦/٥).

رواية: " قَتَلَهَا عَلَى أَوْضَاحِ لَهَا" <sup>(١)</sup> وفسرها الشراح بأن المقصود: (بسبب الأوضاح) <sup>(٢)</sup>، وإن مجرد الاقتتال على شيء لا يلزم فيه تحقق ماهية الشيء للطرف المقاتل مما يجعل الأمر في إطار الاحتمال ما بين الأخذ ونية الأخذ، وعليه لا يسلم للمنتقد بأن اليهودي سرق على الوجه القاطع.

**الوجه الثالث:** إذا تبين بأن الحادثة كانت على وجه القصاص فإنه لا تغاير بين هذه الحادثة وحادثة العرينين، التي تبين خلال مناقشتها بأن تصرف الرسول ﷺ معهم كان قصاصا على الوجه الذي فعلوه بالراعي، وكذلك فعل الرسول ﷺ مع اليهودي على الوجه الذي فعله بالجارية، مما يبطل بأن الرسول ﷺ لم يراع المساواة في تطبيق الحدود.

**الحديث الثاني:** عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كَسَرَتِ الرَّبِيعُ، وَهِيَ عَمَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، نَبِيَّةَ جَارِيَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَطَلَبَ الْقَوْمُ الْقِصَاصَ، فَأَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ، عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: لَا وَاللَّهِ لَا تُكْسِرُ سِنُّهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: يَا أَنَسُ، كِتَابَ اللَّهِ الْقِصَاصُ، فَرَضِيَ الْقَوْمُ وَقَبِلُوا الْأَرْضَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ" <sup>(٣)</sup>.

**وجه الإشكال:** لقد أشار أوزون إلى تغاير تعامل الرسول ﷺ بين هذه الحادثة التي اعترض فيها ابن التضر على القصاص وقبله، وبين حادثة العرينين التي سارع في تطبيق القصاص ولم يساوم <sup>(٤)</sup>، وفيما يأتي الإجابة والمناقشة من وجوه:

**الوجه الأول:** إن قياس المنتقد هذه الحادثة على حادثة العرينين قياس مع الفارق، وذلك لأنه حصلت المساومة في هذا الحديث بين قوم الجارية وبين أنس رضي الله عنه التي يدل عليها قول الراوي: "فَرَضِيَ الْقَوْمُ وَقَبِلُوا الْأَرْضَ" <sup>(٥)</sup>، ولم تدل ألفاظ روايات حادثة العرينين على وجود مساومة بين

١- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قَتْلِ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ، ٦٨٨٥، (٧/٩).

٢- ابن حجر، فتح الباري، (١٢-١٩٩).

٣- البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المائدة، باب قوله: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ <sup>(٤٥)</sup>.

(المائدة: ٤٥)، ٤٦١١، (٥٢/٦).

٤- أوزون، جناية البخاري، (٧٥).

٥- الأثر: ما يَأْخُذُهُ الْمُشْتَرِي مِنَ الْبَائِعِ إِذَا أَطْلَعَ عَلَى عَيْبٍ فِي الْمَبِيعِ، وَأُزُوشِ الْجِنَايَاتِ وَالْجِرَاحَاتِ مِنْ

الجنّة وأهالي الرّعاة أو الرّاعي، بالإضافة إلى أنّ حادثة العرينين شكّلت خطراً مهدّداً لأمن المجتمع الإسلاميّ وجُعِلت الحادثة تحت حدّ (الحرابة) نظراً لبشاعة ما فعلوه بخلاف هذه الحادثة التي لم تتعدّ كسر ثنيّة الجارية.

**الوجه الثّاني:** يعدّ صنيع البخاريّ في إخراج حديث الدّراسة تحت باب بعنوان: (باب: الصُّلح في الدّيّة) تأكيداً على أمر التّسوية التي حصلت بين الطرفين في هذه الحادثة، وتشير الروايات الأخرى إلى أنّ القوم طلبوا الأرش قبل التّحاكم إلى الرّسول ﷺ إلا أنّهم رفضوا ولم يقبلوا غير القصاص ابتداءً، ولقد جاءت الرواية في باب: (الصُّلح في الدّيّة) بلفظ أكمل وأوضح: "فَطَلَبُوا الأرشَ وَطَلَبُوا العَفْوَ فَأَبَوْا" <sup>(١)</sup>، ويجدر التنبيه إلى أنّ رفض أنس أن تكسر ثنيّة الرّبيع لم يكن رفضاً لتطبيق حدّ الله ﷻ في القصاص، فلقد أشار شرح الحديث بأنّ قوله: "ألا والله لا تُكسّر سنّها يا رَسولَ اللهِ" يدلّ على ثقته في الله بأنّ يجعل له مخرجاً <sup>(٢)</sup>، وإنّ سياق الحديث يدلّ على هذا المعنى إذ جعله الرّسول ﷺ في مقام الذين يبرّ الله أقسامهم ولم يجعله في مقام المتألّي على الله ﷻ.

**الوجه الثّالث:** يؤكّد الحديث بأنّ الرّسول ﷺ عزم على تطبيق القصاص في تأكيده لأنس بن النّضر بأنّ كتاب الله القصاص، إلاّ أنّه لم يطبّقه بسبب التّصالح بين الطرفين، وبناء عليه تتأكّد المغايرة بين الحادثتين ويبطل ما حكاه المنتقد في أنّ الأحاديث تصوّر الرّسول ﷺ لا يساوي بين أفراد المجتمع في تطبيق الحدود.

ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا جَابِرَةٌ لَهَا عَمَّا حَصَلَ فِيهَا مِنَ التَّقْصِ، وَسُمِّيَ أَرشًا لِأَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ التَّرَاعِ، ينظر: ابن الأثير، التّهاية في غريب الحديث، (٣٩/١).

- ١- البخاريّ، صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب الصُّلح في الدّيّة، ٢٧٠٣، (٣/١٨٦).
- ٢- ابن بطّال، شرح صحيح البخاري، (٨/٩٤)، ولقد أشار العيني بالإضافة إلى احتمال الثقة بالله بأنّه يحتمل أنّ أنس لم يكن يعلم حكم كتاب الله أو أراد الاستشفاع لدى رسول الله ﷺ إلا أنّ سياق الحديث يضعفها ويرجح الاحتمال الأوّل فقط، ينظر: العيني، عمدة القاريّ، (١٣/٢٨١).



### نتائج الدراسة:

توصّلت الدراسة إلى عدد من النتائج، وكان من أبرزها:

أولاً: تبين مدى أهمية سيادة القانون في حماية الوطن من عواقب الصراعات الداخلية والنزاعات والحروب على صعيد خارجي، وتعدّ كفيلاً أميناً لحقوق المواطنين والحدّ من الجرائم وتسلّط الأنظمة السلطوية وتفسي الفساد بكافة أشكاله، وتعزّز الإدارة الحصيفة للأوطان ذات الانتماءات المتعدّدة من حيث الدين أو العرق أو القبيلة أو الأقليات، وتسهم في حماية الوطن من عوائق تقدّمه ورفقّه وازدهاره.

ثانياً: لقد أولت المنظمات الدولية والخطابات السياسية العناية الكبيرة بسيادة القانون وربطتها بأمن الأوطان وتحقيق السلام، وحمايتها من ويلات الحروب والنزاعات والتحوّلات الجذرية الإقليمية التي كان أحد أسبابها انعدام سيادة القانون، وفي الموقع الرسمي للأمم المتحدة والورقة الملكية السادسة لجلالة الملك عبد الله تجسيدا لهذه الإشارات وتأصيلاً لمعانيها.

ثالثاً: تبين أثر تطبيق سيادة القانون في حماية الأوطان المتحضّرة في الحدّ من الجرائم والعنف، وأنّ تفعيل القوانين كان الحلّ الأنجع في تطويق الجريمة لمعالجة ظاهرة باتت تنخر استقرار الدول المتطوّرة (كندا أمودجا).

رابعاً: تأصّلت معالم مبادئ سيادة القانون في السنّة النبوية في قواعد تدعمها وتؤكّدها في عدد من الأحاديث، وإنّ في تلك المعالم القانونية النبوية دلالة على السبق العلمي القانوني في تنظيم المجتمع الإسلامي وتأصيل أسس سيادة القانون وقواعدها وبذور مبادئها التي تتمحور حولها ولا تكتمل إلا من خلالها، ولقد أكّد أرباب السياسة في العصر الحديث بوادر هذا السبق في تأصيل السيرة النبوية لمعالم سيادة القانون وأثره في حماية الأوطان ووقايتها.

خامساً: لقد تبين معالم السيادة للقانون في السنّة النبوية من خلال سنّ شعار يجعل القانون فوق الجميع وتطبيقه وفق مبدأ المساواة، وكذلك في الحزم في تنفيذ القوانين ونزاهة القضاء وتفعيل مبدأ المحاسبة والمساءلة، وكذلك في عدم التّحاكم دون قانون أو التّحاييل عليه.

سادسا: انتفى وجود أحاديث تنافي تطبيق مبادئ سيادة القانون، وتأكّد عدم صحّة الإشكالات والانتقادات على عدد من الأحاديث التي أتممت الرّسول ﷺ في التلاعب في الحدود بالزيادة أو إرجاعها إلى تقديره أو عدم تثبّته في تطبيقها أو تسامحه أو عدم المساواة في تنفيذها، وأنّ منهجه كان جامعا بين الحزم في تطبيق القانون وإعلانه وعدم قبول الشّفاعات في سبيله وبين المرونة والسّتر إذا وجدت شبهة في عدم تحقّق مستلزمات القانون.

### توصيات الدّراسة:

أولا: العناية التّأصيليّة والتطبيقيّة لمبادئ سيادة القانون في السنّة النبويّة من خلال دراسات موسّعة ومفصّلة، وإبراز دور شراح الحديث في تأصيل معالمها.

ثانيا: ربط المعاني النبويّة في سيادة القانون بالقوانين الدوليّة وتعميم نتائجها على المختصّين وذوي القرار كي تساهم في تفعيل دورها في حماية الأوطان على أرض الواقع وتنميتها ورفقيّها وتطويرها.

## المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، أبو السعادات (ت: ٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، ت: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، ط ١، م ٥، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- الأمم المتحدة، الأمم المتحدة وسيادة القانون، سيادة القانون والتنمية،  
. <https://www.un.org/ruleoflaw/ar/rule-of-law-and-peace-and-security>
- .....، سيادة القانون والسلام والأمن،  
. <https://www.un.org/ruleoflaw/ar/rule-of-law-and-peace-and-security>
- .....، سيادة القانون وحقوق الإنسان،  
. <https://www.un.org/ruleoflaw/ar/rule-of-law-and-peace-and-security>
- .....، ما هي سيادة القانون؟،  
. <https://www.un.org/ruleoflaw/ar/rule-of-law-and-peace-and-security>
- أبو بكر الأبياري، محمد بن القاسم (ت: ٣٢٨هـ)، الزاهر في معاني كلمات الناس، ت: د. حاتم صالح الضامن، ط ١، م ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- أوزون، زكريّا (٢٠٠٤م)، جناية البخاري - إنقاذ الدين من إمام المحدثين-، (ط ١)، بيروت، رياض الريس للكتب والنشر.
- البخاري، صحيح البخاري، ط ١، م ٩، دار طوق النجاة، بيروت، ١٤٢٢هـ.
- برنامج مراجعات، (أويد أبا زهرة في موقفه من حد رجم الزاني)، موقع عربي ٢١، تاريخ المقطع على الموقع: ٢٢ يونيو، ٢٠١٦، الساعة: ٥٩:٥٥ م .
- ابن بطّال، شرح صحيح البخاري، ت: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط ٢، م ١٠، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- بيطام، سميرة (٢٠١٧م)، سيادة القانون كآلة وقائية من الجريمة: دولة كندا أمودجا، المؤتمر الدولي المحكم، (الجريمة والمجتمع، مركز البحث وتطوير الموارد البشرية، الأردن، رماح.
- البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، ط ١، م ١٠، مجلس دائرة المعارف العمانية، حيدر آباد الدكن - الهند، ١٣٥٢هـ - ١٣٥٥ هـ .
- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت: ٧٢٨هـ)، السياسة الشرعية، ط ١، م ١، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ.

- جلالة الملك عبد الله الثاني بن الحسين (٢٠١٦م)، سيادة القانون أساس الدولة المدنية، الرؤية الملكية، أوراق للنقاش (الورقة الملكيّة السادسة)، <https://kingabdullah.jo>.
- جمعة، فتحي محمّد (١٩٧١م)، الإسلام وسيادة القانون، مجلّة الوعي الإسلاميّ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الكويت، س٧، ع٨٢٤.
- ابن الجوزيّ، جمال الدين أبو الفرج (ت: ٥٩٧هـ)، كشف المشكل من حديث الصحيحين، م٤، ت: علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض.
- الجوهريّ، أبو نصر إسماعيل (ت: ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، م٦، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ابن حبان، صحيح ابن حبان، ط٢، م١٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- ابن حجر، فتح الباري، ت: محمد فؤاد، م١٣، دار المعرفة، بيروت.
- خالد عبد الرحيم السيّد الخميس، لا للتحايل على القانون، بوابة الشرق الإلكترونيّة، <https://www.al-sharq.com>، تاريخ التّشر: (١٢:٠٠، ١٥/١٢/٢٠١١).
- الخطّابيّ، أبو سليمان حمد بن محمد (ت: ٣٨٨هـ)، معالم السنن، ط١، م٤، المطبعة العلمية، حلب، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.
- خيرى، صبري محمّد خليل، مفهوم سيادة القانون في الفكر القانوني المقارن، أبحاث سياسية، الفكر القومي العربي، <https://drsabrikhalil.wordpress.com>.
- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مصدر الكتاب: <http://www.alwarraq.com>، ربط مع ط الشرفية، المكتبة الشاملة، بدون معلومات نشر.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، م٤، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، م٢، مطبعة السنة المحمدية.
- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت: ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠ هـ.
- أبو زهرة، محمّد، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي، م١، دار الفكر العربي.
- زيد، مصطفى، النسخ في القرآن الكريم، دراسة تشريعية تاريخيّة نقدية، ط٣، م٢، دار الوفاء للطباعة والتّوزيع، ١٩٨٧/١٤٠٨ م.
- سامر أحمد موسى (٢٠٠٧م)، مبدأ سيادة القانون، الحوار المتمدن، العدد: ١٩٧٥، <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=102607&nm=1>

- السرجاني، راغب (٢٠١٤م)، رفق النبي بالمذنبين، طريق الإسلام، رابط المادة: <http://iswy.co/e11uo5> تاريخ النشر: ٢٠١٤/٤/٧م.
- الظفيري، عبدالعزيز بن جليدان، حديث حاطب بن أبي بلتعة <: دراسة عقدية، مج ٧، ع ١٤٤، ٢٠١٥ م، ١٤٣٦هـ.
- العاني، عبد الكريم عمر (٢٠١٢م)، الضوابط الأصولية للاجتihad في السياسة الشرعية، ط ١، م ١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف (ت: ٤٦٣هـ)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ت: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، م ٢٤، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧ هـ.
- أبو عُبيد، القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ)، غريب الحديث، د. محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، م ٤، حيدر آباد، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
- العظيم آبادي، محمد أشرف (ت: ١٣٢٩هـ)، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه: حاشية ابن القيم، ط ٢، م ١٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ.
- عمر، أحمد مختار (ت: ١٤٢٤هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط ١، م ٤، عالم الكتب، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، ط ٦، م ٢، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- أبو عوانة، يعقوب بن إسحاق (ت: ٣١٦هـ)، مستخرج أبي عوانة، ت: أيمن بن عارف الدمشقي، ط ١، م ٥، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- عيّد، مأمون حسن خالد (٢٠١٧م)، سيادة القانون، هدي الإسلام، الأردنّ، مج ٦٢ (٢).
- العيني، عمدة القاري، م ٢٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- غازي، خالد محمد (٢٠١٥م)، الأصابع الخفية: التوظيف الإعلامي السياسي لشخصية الجاسوس، وكالة الصحافة العربية (ناشرون)، مصر.
- فرج الله، فيصل إيباد جعفر (٢٠١٢م)، مبدأ السيادة في القانون الدولي العام، مجلة الكوفة للعلوم القانونية والسياسية، العراق، مج ٥ (١٤)، (٣١٢-٣٨٧).
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت: ٢٧٦هـ)، غريب الحديث، ت: د. عبد الله الجبوري، ط ١، م ٣، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٩٧هـ.

- ابن قرناس (٢٠٠٨م)، الحديث والقرآن، (ط١)، كولونيا (ألمان) - بغداد، منشورات الجمل.
- القسطلانيّ، أحمد بن محمد (ت: ٩٢٣هـ)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ط٧، ١٠م، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ١٣٢٣ هـ.
- كليكاتسي، هانس، والأعظمي، فؤاد عبد المجيد (مترجم) (١٩٦٤م)، نظرات في سيادة القانون، الأقلام.
- اللّوز، أنيس (٢٠١٣م)، تعريف القانون وخصائص القاعدة القانونية من منظور اجتماعي، يوميات تونسيّ،
- المحالي، عبد الحميد إبراهيم، مسؤوليّة العاقلة في دفع الدية، مؤتة للبحوث والدراسات، العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، الأردنّ، مج ١٣، ع (٢)، ١٩٩٨م.
- مجمع اللغة العربية(القاهرة)، مصطفى، إبراهيم، والزيات، أحمد، وعبد القادر، حامد، والنجار، محمّد، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، بدون معلومات نشر، المكتبة الشاملة (موافق للمطبوع).
- مسلم، صحيح مسلم، دار الجليل، بيروت، مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة ١٣٣٤ هـ.
- ابن الملّقن، سراج الدين أبو حفص (ت: ٨٠٤هـ)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ت: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، ط١، ٣٦م، دار النوادر، دمشق، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.
- من القائل: (بلادني وإن جارت عليّ عزيزةٌ \*\*\* وأهلني وإن ضنّوا عليّ كرامٌ)؟ ثقافة أونلاين، [http://www.thaqafaonline.com/2012/blog-post\\_1987.html/03](http://www.thaqafaonline.com/2012/blog-post_1987.html/03)
- النّسائيّ، أبو عبد الرحمن أحمد، سنن النّسائي، ط١، ١م، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م.
- النّووي، أبو زكريا محيي الدين(ت: ٦٧٦هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط٢، ٩م، ١٨ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢ هـ.
- نيازي، عز الدين (١٩٩٧م)، دين السلطان "البرهان"، (ط١)، لبنان، بيسان للنشر والتوزيع الإعلام.
- هائل سلام، الحقّ في المحاكمة العادلة، الموقع بوست، كتابات، الموقع، تاريخ نشر المقال: (الأحد، ١٦ أبريل، ٢٠١٧: ٢٨:١٢ صباحًا).
- ثاميدى، (٢٠١٧م)، صهيب مصطفى، عقوبة الرّجم في الفكر الإسلامي المعاصر بين الرفض والقبول، الحوار، ع ٢٨، <http://alhiwarmagazine.blogspot.com>.

## الفهرس

٤٢١	- "الاعتدال الفكري وأثره في حماية الوطن دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية". د. سعيد بن أحمد بوعصاب. (المغرب)
٤٥٩	- "قيمة المسؤولية وأثرها في تعزيز الأمن الوطنيّ وحمايته،" دراسة في ضوء الهدى النبويّ". د. ماريه بسام عباينه (الأردن).
٤٩٥	- "الهجرة في السنة النبوية، الحدث الأبرز في تعزيز مقومات حماية الأوطان". أ. لطيفة محمد علي الفارسي (الإمارات).
٥٣٩	- "طاعة ولاة الأمر في السنة النبوية وأثرها في الحماية الوطنية". د. مريم راشد التميمي (السعودية).
٥٧١	- "أثر طاعة وليّ الأمر في حماية الوطن، (ضوابطها، أسسها، مقوماتها). دراسة تحليلية في السنة النبوية". أ. د. سلوى محمد الحمادي (السعودية).
٦٠٧	- "حماية الوطن رؤى مستقبلية وأبعاد استراتيجية في السنة النبوية". د. إبراهيم البرزنجي (العراق).
٦٣٥	- "كيف يُصنَع المواطن المنتمي والحامي للوطن؟ مسالكُ التّئمّة المركّبة ودُللُ السُّنة النبويّة". د. ناصر يوسف (الجزائر).
٦٨٥	- "استشراف المستقبل لعمارة الأوطان، وحمايتها كما تصوره السنة النبوية المباركة". د. علي حافظ السيد سليمان. (مصر).

٧١٥	- "التخطيط: استراتيجية نبوية لحماية الوطن". د.علي محمد أسمر أبوشحادة (الأردن).
٧٥١	- "حماية الأمن الوطني في السنة النبوية، مكافحة الفساد الإداري أمودجًا". أ.د عبد المحسن بن عبد الله التحيفي(السعودية).
٧٧٩	- "أثر سيادة القانون في حماية الوطن ومعالها في السنّة النبويّة وإشكالياتها، دراسة تأصيليّة ونقدية". أ.مأمون محمد الدحيم (الأردن).





# حِمَايَةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضُرُورَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ

الندوة العلمية الدولية التاسعة

٤-٦ رجب ١٤٤٠ هـ

١٢-١٤/٣/٢٠١٩ م

بحوث الندوة محكمة

(الجزء الثالث)

الكتاب: حِمَايَةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضُرُورَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ

الرقم الدولي للكتاب: ISBN 978-9948-35-065-1

اللغة: العربية

التصنيف العمري: E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

رقم إذن الطباعة: MF-01-1103844

تمت الطباعة في مطبعة دبي، دبي - أ.ع.م.

جميع الحقوق محفوظة

يُمنع نشر أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي وسيلة من الوسائل الورقية أو الإلكترونية إلا بإذن خطي





# السنة وحماية الوطن من خلال تأمين النشاط الاقتصادي للمجتمع

الدكتور / عزالدين بن زغبية

رئيس قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - دبي





## المقدمة

تعد حماية الوطن من كل ما يؤدي إلى اختلال أمنه وانهيار اقتصاده وتفكك نسيج مجتمعه من أوكّد ضروريات الحياة وأعظمها خطراً، وبخاصة أمنه الاقتصادي منها، فهو ركنها الركين، وأسهما المتين، وهو مطلب فطري، يسعى الناس لتحقيقه وإقامته أفراداً وجماعات وأممًا، لأن به تطمئن النفوس، وتنشط به الهمم، ويمكن فيه البريء، ويأنس فيه الضعيف.

وتتأكد هذه الحماية للوطن بتوفير الأمن لأبنائه والمقيمين فيه لأنه إذا فقد الأمن حل محل الخوف الذي يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قيام نفوسهم، وانتظام جمعهم، واستمرار حياتهم، فتضيق سبل معاشهم، وتسوء بذلك حالهم، ما يفضي إلى تبدل طبائعهم، فيكونون بذلك إلى الفتنة أقرب، وعن السلامة أبعد.

وتبلغ حماية الوطن تمامها عندما يستولي حبه على قلوب الناس فتصير نفوسهم رخيصة من أجل سلامته، فيبدلون لها وما يملكون دون تردد.

إلا أن الإنسان لا يدرك نعمة الأمن وقيمتها التي يوفرها له وطنه وخصوصاً إذا كان محمياً من كل اعتداء خارجي أو فتنة داخلية إلا إذا مسه خوف أو فتنة انعدام الأمن، كما أنه لا يعرف قدر الصحة إلا إذا مسه المرض، لأن قدر أي نعمة مهما كانت طبيعتها لا تعرف إلا بمقاساة ضدها وفي هذا المعنى قال أبو تمام:

والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذي أنباك كيف نعيمها

ولما كان نماء الأموال وإصلاحها بالتجار والاستثمار، وتنقلها بين الأمصار، ورواجها في الأسواق، مرهونا بمدى تحقق الأمن في تلك الأمصار والأسواق والطرق الموصلة إليها، كان الأمن شرطاً أساسياً لنجاح أي نشاط اقتصادي، مهما كان نوعه، وعنصرًا ضروريًا لازدهار البلدان وتطورها، فأصبح بذلك الأمن والاقتصاد أمران متلازمان فلا تنمية اقتصادية بدون أمن، ولا أمن

بدون رخاء اقتصادي.

وسنسى في هذا البحث لإثبات هذا التلازم بين (الأمن والاقتصاد)، من خلال نصوص السنة النبوية المطهرة

### أولاً: أهمية إقامة الأمن ودوره في حماية الوطن

إن لإقامة الأمن في حياة الأمم والشعوب أهمية بالغة ومكانة خطيرة، لما له من أثر حاسم في حماية الأوطان واستقرارها من كل يد عادية أو عابثة خارجية كانت أم داخلية، فلذلك جعله الله تعالى وصفاً لبيته الحرام وخاصة من خصائصه، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۗ﴾ (١)، ولما أقسم سبحانه بمكة المكرمة وصفها بالأمن، فقال: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۗ﴾ (٢)؛ لأنها موضع البيت الحرام الذي جعل أمناً للناس، كما أنه تعالى جعل جزاء الذين أخلصوا في إيمانهم ولم يخلطوه بظلم أن يمنحهم الأمن في الحياة الدنيا، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ۗ﴾ (٣) وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۗ﴾ (٤).

بل جعل الأمن صفة من صفات المؤمن، وعلامة مميزة له، فقال ﷺ: (ألا أخبركم بالمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم) (٥).

وقد أثنى الله تعالى على المتصددين للتجارة والمتلقبين بأموالهم في الأسفار، ورفع من منزلتهم وقدرهم، حتى قرن بينهم وبين المقاتلين في سبيل الله، فقال: ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ

١- البقرة: ١٢٥.

٢- التين: ٣.

٣- الأنعام: ٨٢.

٤- النور: ٥٥.

٥- أخرجه ابن ماجه كتاب الفتن" باب (حرمة دم المؤمن و ماله)، حديث رقم: ٣٩٣٤. ١٧٩٨/٢ - صححه الألباني في سلسلته: حديث رقم ٥٤٩: ٨١/٢



يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٠﴾ ﴿١﴾.

وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال: " ما موت أحب إليّ بعد الشهادة في سبيل الله من أن أموت متجراً؛ لأن الله قرن بين التجارة والجهاد في قوله تعالى: (وآخرون يضربون في الأرض...) (٢)، واعتماداً على المعنى الذي يجعل من إقامة التجارة - التي هي عمود الاقتصاد في كل حضارة - وتحقيق الأمن لها أمرين متلازمين.

ويدلنا على صحة ما سبق أنه سبحانه وتعالى قد جمع بين الأمن وعناصر النشاط الاقتصادي في آيات عديدة، فقال سبحانه مذكراً قريشاً بنعمته: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٣)، وقال: ﴿ وَقَالُوا إِن تَبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُخَخِّطُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٤).

وقد جعل الله الأمن والمال معاً وسيلة من وسائل الابتلاء التي يتم بها اختبار المؤمنين؛ ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه فقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (٥). والسر في الابتلاء بنقصها وفقدائها راجع إلى سرعة ظهور أثر ذلك في الأفراد والمجتمع (٦).

ونظراً لأهمية الأمن والاقتصاد في حياة الناس، واستقرار البلدان وأمن الأوطان، أن جعلها إبراهيم عليه السلام مضمون دعائه لمكة المكرمة؛ حيث قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٧)، وبمثل ذلك دعا رسول الله ﷺ

١- المزمّل: ٢٠.

٢- ابن عاشور: مقاصد: ١٧٥-١٧٦.

٣- قريش: ٣-٤.

٤- القصص: ٥٧.

٥- البقرة: ١٥٥.

٦- انظر: ابن كثير: تفسير القرآن، ١/١٨٧.

٧- البقرة: ١٢٦.

للمدينة، فقال: " اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه"<sup>(١)</sup>.

والذي تبين لي من خلال الأدلة السابقة وغيرها من نظائرها أن قصد الشريعة منها إشاعة الأمن في الأمة وعده مقصدًا قطعيًا من مقاصدها.

ومن أهم العناصر التي يركز عليها مقصد الأمن هو تلبية حاجات الناس الضرورية والحاجية وتأمين أسواقهم وجميع مسالك نشاطاتهم الاقتصادية.

ولما كان النشاط الاقتصادي هو عصب الحياة، وسببًا من أسباب استمرار العمران، وأمن الأوطان، واستقرار المجتمعات ورفاهة الإنسان، حرصت الشريعة على ضبط كل التصرفات وأوجه المعاملات المتعلقة به بجملة من الأحكام والضوابط والشروط، تقيم بها مقصد الأمن للعباد والبلاد، وتحقق للناس مصالحهم الخاصة في إقامة المصلحة العامة، وتقطع بها بينهم مادة الخصومات والمنازعات والبغضاء والمشاحنات، وتقوي بها جهة التعاون على البر المطلوب طلبا حثيثا من قبل الشريعة، وتتصدى بها بصرامة لكل عمل ينقض هذه المقصد أو يعود عليه بالإبطال، ولذلك كان تطهير الأرض من المحارِبين والمفسدين وتأمين البلاد والسبل والطرق من القتل للأنفس والأخذ للأموال وإخافة الناس من أعظم الحسنات وأجل الطاعات ويعد هذا العمل إصلاحا في الأرض، كما أن الحراية إفساد فيها، ولأجل هذا عد "مالك" وأصحابه قتال المحارِبين جهاد<sup>(٢)</sup>، ونقل أشهب عنه أنه أفضل الجهاد وأعظمه أجرا<sup>(٣)</sup>، والأدلة على ذلك كثيرة.

## ثانيا: حماية ثروة الأمة والمال العام والخاص وأثرها في حماية الوطن.

إن صيانة الأوطان وازدهارها وتحقيق رغد العيش في أكنافها للمقيمين بها وزائرها مرهون بتأمين ثروة الأمة وحماية المال العام والخاص وصيانتته عن الأيدي العادية والعاثية، فقد ورد في ذلك

١- أخرجه مسلم: كتاب، الحج باب (الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوتها)، حديث رقم: ٤٧٠، ١١٠٠١.

٢- ابن شاس: عقد الجواهر، ٣/٣٤١ - المكناسي: مجالس القضاة والحكام، ٥٨٧/٢.

٣- المكناسي: مجالس القضاة والحكام، ٥٨٧/٢.

أحاديث كثيرة، منها ما هو بصيغة العموم فيتناول الأموال عموماً، ومنها ما هو خاص، فيتناول نوعاً منها بعينه فقط.

لقد دعت السنة المطهرة المسلمين إلى الاقتصاد في إنفاق المال وحسن تديره وإصلاحه والقيام عليه؛ لأن في ذلك وقاية من العالة والفاقة وحفظاً للمجتمع من ضيق العيش المؤدي إلى اختلال النظام وانحرام العمران، فقال ﷺ: "لا عال من اقتصد"<sup>(١)</sup>، وقبل: (حسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف)،<sup>(٢)</sup> قال الإمام المقرئ في قواعده: "من مقاصد الشريعة صون الأموال عن الناس، فمن ثم نهي عن إضاعتها، وعن بيع الغرر والمجهول"<sup>(٣)</sup>.

وكان عمر بن الخطاب يحذر أصحابه من الإسراف، ويدعوهم إلى إصلاح المال ولو كان قليلاً؛ لأنه في رأيه أن القليل مع الإصلاح لا ينقص، لكن الكثير مع السرف لا يبقى منه شيء، حيث قال: "الخرق في المعيشة أخوف عندي عليكم من العوز، لا يقل شيء مع الإصلاح ولا يبقى شيء مع الفساد"<sup>(٤)</sup>؛ لأن تسلل الفساد إلى الموكلين بإدارة النشاط الاقتصادي للمجتمع والمشرفين على تسيير ثروته، يؤدي حتماً إلى سوء توزيع الثروة، وانحصار عدد المستفيدين بها، مما يؤدي بدوره إلى ثورة الفاقدين على الواجد، والتي تنعكس بشكل مباشر على انتظام المجتمع واختلال أمن البلاد والعباد وتعطل عجلة التنمية وانحسارها وركود النشاط الاقتصادي وتراجعها، مما يورث في نفوس المواطنين الإحباط وفقدان الأمل والخوف من المستقبل مما يؤدي إلى تناقص الروح الوطنية المؤدية إلى تعاضم المخاطر المحدقة بالوطن.

وفي الجملة فإن المقصد الشرعي من النهي عن إضاعة ثروة الأمة، واستفحال الفساد في تسييرها، وغياب الأمانة في إدارة التصرفات المالية والنشاطات الاقتصادية المتعلقة بها، هو أن تكون ثروة الأمة عدة لها وقوة لا يبتناء أساس مجدها والحفاظ على مكانتها، حتى تكون مرهوبة الجانب،

١- أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٤٤٧/١، بلفظ (لا عال من اقتصد) - أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال: بلفظ « ما عال مقتصد»، ٣٠٩.

٢- ابن أبي الدنيا: إصلاح المال، ٢٣٧.

٣- القواعد، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ١٤٦٨٢ ورقة ١١١.

٤- أبو بكر الخلال: الحث على التجارة والصناعة، ٣٣ - ابن رشد: البيان والتحصيل، ١٧ / ٥٩٨.

مرموقة بعين الاعتبار، غير محتاجة إلى من قد يستغل حاجتها فيبتز منافعها ويدخلها تحت نير سلطانه<sup>(١)</sup>.

ولذلك لما كان أخذ أموال الناس بغير حق وبغير رضاهم من أعظم الظلم والمحرمات، كان جزاء مرتكبه عقاب دنيوي وعذاب أخروي، فقد جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه حيث قال: " أن ناسا من عرينة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فاجتووها، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: (إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة فتشربوا من ألبانها وأبوالها... ففعلوا فصحوا ثم مالوا على الرعاة فقتلوهم وارتدوا عن الاسلام، وساقوا ذود رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث في أثرهم، فأتي بهم، فقتع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحر حتى ماتوا)<sup>(٢)</sup>.

والمقصود من هذا الحديث هو حماية الأنفس والأموال وتأمين حركة الأشخاص ورؤوس الأموال والسلع، وتأمين مسالك التجارة وطرق المواصلات؛ لأن في قطع الطريق تهديدا للناس في أسفارهم وكسادا لتجارهم، وتعطيلا لمصالحهم، ما يعود على الوطن والرعية بفقدان الأمن واختلال النظام، ومن ثم كانت مفسدة الحرابة<sup>(٣)</sup> أعظم من السرقة؛ لأن أهل الأموال بإمكانهم حفظ أموالهم من السراق ولا يتمكن أهل الطريق من التمتع من قطاع الطرق، ولا يتيسر لولاة الأمور وجماعة المسلمين نصرتهم في ذلك المكان والزمان ولأن داعية الفعل من قطاع الطرق أشد وأغلظ<sup>(٤)</sup>، ولهذا لم يراع مالك في المال الذي يأخذه المحارب نصاب السرقة، وإنما حكم على أخذه بحكم المحارب، وذهب أصحاب الرأي والشافعية والحنابلة إلى أنه لا يقطع منهم إلا من أخذ ما يقطع السارق في مثله<sup>(٥)</sup>.

١- انظر ابن عاشور: التحرير والتنوير: ١٥ / ٧٩.

٢- أخرجه مسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب (حكم المحاربين والمرتدين)، حديث رقم: ١٦٧١، ١٣٩٦/٢.

٣- الحرابة: قال ابن عرفة: هي الخروج لإخافة سبيل لأخذ محترم بمكابرة قتال: أو خوفه أو لذهاب عقل أو قتل خفية، أو لمجرد الطريق، لا لإمرة ولا نائرة ولا عداوة. الرصاع: شرح الحدود، ٢ / ٦٥٤.

٤- انظر: الدهوي: حجة الله البالغة، ٢ / ٤٣٦.

٥- انظر: ابن قدامه المقنع، ٣ / ٥٠٣، -، ١٠ / ٣١٢ - ٣١٣ محمد الغمراوي، السراج الوهاج، ٥٣٢ - القرطبي: الجامع للأحكام، ٦ / ١٥٤.

وبناء عليه ذهب ابن شاس من المالكية إلى عد كل من أشهر السلاح قصد السلب، محاربا، كان ذلك في مصر أو قفر صدر من ذي شوكة، أم من لا شوكة له، ولا تشتط الذكورة ولا آلة مخصوصه<sup>(١)</sup>.

وقد ضمن المقري هذا المعنى إحدى قواعده فقال: "كل فعل يقصد به أخذ المال المعصوم من فاعله، على وجه تتعذر فيه الاستغاثة غالبًا، فهو حراة"<sup>(٢)</sup>.

ولا خلاف بين الأئمة في أن الحراة يقتل فيها من قتل، وإن لم يكن المقتول مكافئا للقاتل؛ لأن القتل هنا ليس على القتل فقط وإنما على الفساد العام الذي يلحق البلاد والعباد بسبب اختلال مقصد الأمن وجراء التخويف وسلب المال<sup>(٣)</sup>، ولذلك تصدت له السنة النبوية بأقصى أنواع الصرامة في اتخاذ العقوبات ضد مرتكبيه.

ولما كانت هذه الجريمة على قدر كبير من الخطورة، كان تطهير الأرض من المحاربين والمفسدين وتأمين البلاد والسبل والطرق من القتل للأنفس والأخذ للأموال وإخافة الناس من أعظم الحسنات وأجل الطاعات ويعد هذا العمل إصلاحا في الأرض، كما أن الحراة إفساد فيها، ولأجل هذا عد مالك وأصحابه قتال المحاربين جهاد<sup>(٤)</sup>، ونقل أشهب عنه أنه أفضل الجهاد وأعظمه أجرا<sup>(٥)</sup>.

ولم تكتف الشريعة بما شرعته من النواهي الكثيرة والمتكررة عن الاعتداء على أموال الغير، لأن ذلك قد لا يكون له أثر في نفوس كثيرة، ضعف فيها الوازع الديني، أو فقد تمامًا، ومن ثم طالبت من المالكين حماية أموالهم من أطماع تلك النفوس وعدم تسليمها لهم، مهما كانت الوسائل المستعملة في ترهيبهم وتخويفهم، ودعتهم إلى المقاتلة من أجل صيانتها إن لزم الأمر ذلك، ولو قدر أن مات المالك دفاعا عن ماله فهو شهيد عند الله عز وجل، ويكون المعتدي إذا قتل في

١- عقد الجواهر: ٣/٣٤١ - ابن قدامة: المقنع، ٣/٥٠٠، ٥٠١ - ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٦/١٨١.

٢- عمل من طب لم حب: مخطوط، ورقه رقم: ٤٩ وجه.

٣- المصدر نفسه: ٦/١٥٤.

٤- ابن شاس: عقد الجواهر، ٣/٣٤١ - المكناسي: مجالس القضاة والحكام، ٢/٥٨٧.

٥- المكناسي: مجالس القضاة والحكام: ٢/٥٨٧.

النار جزاء ظلمه وعدوانه، قال ﷺ: (من قُتل دون ماله فهو شهيد)<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: لما جاءه رجل، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي قال: (فلا تعطه مالك)، قال: أرأيت إن قاتلني، قال: (قاتله)، قال: أرأيت إن قتلني، قال: (فأنت شهيد) قال: أرأيت إن قتلته، قال: (هو في النار)<sup>(٢)</sup>، وقد ذكر الإمام النووي في ترجمة الباب من صحيح مسلم بقوله: باب (الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم)، والذي ينبغي الإشارة إليه هنا أن مالك المال أو الدافع عنه لا يقصد القتل ابتداءً، وإنما ينبغي أن يقصد الدفع، فإن أدى إلى القتل فذلك، إلا أن يعلم أنه لا يندفع عنه إلا بقتله فجائز له أن يقصد القتل ابتداءً، ولا شيء عليه وإن قتل كان شهيداً<sup>(٣)</sup>.

بل إن الشريعة الغراء قد ترخص في إباحة الممنوع، إذا ما توقعته انحرافاً في أمن الأموال والتصرفات المتعلقة بها، إذا ما التزم ذلك الممنوع، ومن ثم أبيض الكذب في ستر مال مسلم أو عرضه ولو لنفسه إذا سئل عن مال أريد غضبه منه، أو من غيره، لأن مفسدة الصدق أعظم من مفسدة الكذب<sup>(٤)</sup>.

ولا يتعلق هذا الأمر بأموال الأفراد فحسب بل يسري على الأموال العامة أيضاً، فلا يحل لأي شخص أن يأخذ شيئاً إلا بإذن إمامه؛ لأن أمر حفظها وصيانتها والتصرف فيها وإدارتها وتوزيعها على الرعية بالعدل راجع إليه نيابة عن الأمة في ذلك، قال ﷺ: (ليس لأحد إلا ما طابت به نفس إمامه). ومن ثم كان نهب الأموال أمراً ممنوعاً في الشريعة سواء كانت هذه الاموال عامة أو خاصة، ولولي الأمر أن يتخذ كافة الإجراءات التي يراها رادعة وكفيلة بحفظ المال العام والخاص، كما أن هذه التصرفات قد تؤدي بصاحبها إلى الخروج عن الأمة وملتها، قال ﷺ:

١- أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب (من قاتل دون ماله)، ١٠٨/٣.

٢- أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب (الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم)، حديث رقم: ٢٢٥، ١٢٤/١.

٣- ابن سريج: الودائع، ٥٩٤/٢ - ابن شاس: عقد الجواهر، ٣٥٤/٣ - ابن قدامة: المقنع، ٥٠٥/٣ - الشعراني: الميزان، ٣٦٢/٣.

٤- ابن القيم: إعلام الموقعين، ٢٣٥/٣ - زروق: قواعد التصوف، ٥٧.

(....) وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ<sup>(١)</sup>.

وفي مقابل هذا عدت السنة المسؤول الأمين، الذي يؤدي ما كلفه به إمامه أو من هو دونه في الولاية كما طلب منه من غير زيادة ولا نقصان، أحد المتصدقين، قال عليه السلام: (الخازن الأمين الذي يؤدي ما أمر به طيبة نفسه أحد المتصدقين)<sup>(٢)</sup> وفي هذا الحديث ترغيب للمؤمنين في أداء أماناتهم وتحمل مسؤولياتهم بصدق وإخلاص.

ومن تمام عدل الشريعة في هذا الباب أنها كما حمت وصانت أموال المسلمين حفظت أموال الدمييين وأوجبت الضمان على من أتلّفها من المسلمين، حتى لو كان المتلف مما لا يجوز امتلاكه في شريعتنا، قال ابن حارث الخشني: من تعدى على ذمي فكسر له خمرا، أو قتل له خنزيرا وجب عليه قيمة ذلك.<sup>(٣)</sup>

بل ذهب الشريعة أبعد من ذلك عندما لم تجعل نقض أهل الذمة لعهدهم سببا في استباحة غنم أموالهم أو مسها بسوء ما لم يقاتلوا، وألزمت المسلمين أن يخرجوهم من بلاد الإسلام مع تأمين أنفسهم وأموالهم وأولادهم طول طريق خروجهم حتى يبلغوا مأمنهم من أدنى بلاد الكفر، قال الماوردي: "وإذا نقض أهل الذمة عهدهم لم يستبح بذلك قتلهم ولا غنم أموالهم ولا سبي ذرارهم ما لم يقاتلوا، ووجب إخراجهم من بلاد المؤمنين آمنين، حتى يلحقوا مأمنهم من أدنى بلاد الشرك فإن لم يخرجوا طوعا أخرجوا كرها"<sup>(٤)</sup>.

ونظرا إلى أن مقصد تأمين الأموال مقصد قطعي في الشريعة اتخذه العلماء مسلّكا في فهم النصوص والآثار وتفسيرها، من ذلك قوله عليه السلام في ضالة الإبل: (مالك ولها معها غذاؤها وسقاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها)<sup>(٥)</sup>.

١- أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب (النهي بغير إذن صاحبه)، ١٠٧/٣.

٢- أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب (في الإجارة واستجار الرجل الصالح وقول الله تعالى: «إن خير من استأجرت القوي الأمين»)، ٤٧/٣ - ٤٨.

٣- ابن حارث: أصول الفتيا، ٤٣٢.

٤- الأحكام السلطانية: ١٨٦.

٥- أخرجه مسلم: كتاب اللقطة، (مقدمة الكتاب) حديث رقم: ١٧٢٢، ١٣٤٦/٢.

إن هذا النص من الرسول ﷺ يدلنا على الدرجة التي بلغها الأمن على الأنفس والأموال وتحركها في البلاد دون عوائق أمنية في عهده ﷺ، وبناء عليه فإن مناخ الأمن كان هو سبب تغير حكم التقاط الضوال بين الخليفين عمر وعثمان (رضي الله عنهما) والأئمة من بعدهم.

فقد جاء عن عمر رضي الله عنه في تفسير هذا الحديث: أنه لا تأخذ ضوال الإبل وإن أخذت عرفت، فإن لم تعرف ردت حيث وجدت<sup>(١)</sup>، وجاء عن عثمان رضي الله عنه: أنها تؤخذ وتعرف، فإن لم تعرف بيعت ووقف ثمنها لصاحبها، فإن لم يأت وآيس منه تصدق به عنه<sup>(٢)</sup>.

والظاهر أن ما وقع من التباين بين التفسيرين للحديث لا يرجع لذاته ولا لطرق روايته، وإنما يستند إلى الوضع العام في زمان كل منهما من حيث الأمن على الأموال، وفساد الذمم، قال ابن رشد: "وإنما اختلف الحكم في ذلك بين عمر وعثمان (رضي الله عنهما)، لاختلاف الأزمان، وفساد الناس، فكان الحكم فيها في زمن النبي ﷺ وخلافة عمر رضي الله عنه: أن لا تؤخذ، فإن أخذت عرفت فإن لم تعرف ردت حيث وجدت، ثم كان الحكم فيها في زمن عثمان رضي الله عنه لما ظهر من فساد الناس أن تؤخذ وتعرف، فإن لم تعرف بيعت ووقفت أثمانها، وكذلك ينبغي أن يكون الحكم فيها اليوم"<sup>(٣)</sup>.

والمأمل في الشريعة يجدها لم تكتف في إقامة مقصدها في تأمين الأموال بالاعتماد على الوازع الديني فقط، وذلك بتشريع جملة من القوانين والأحكام، التي تنظم علاقات التعامل والتعاون بين الناس، وتضبط المسالك والوسائل، التي ينبغي أن يتم وفقها ذلك التعاون والتعامل، وإنما عمدت

١- ابن رشد: البيان والتحصيل: ١٢/١٨.

٢- المصدر نفسه: ١٢/١٨ - ١٣.

٣- المصدر نفسه: ١٣/١٨.



على تعزيره بالوازع السلطاني<sup>(١)</sup>، وذلك بتشريع جملة من العقوبات والتعزيرات<sup>(٢)</sup> الزجرية والردعية لكل من سولت له نفسه خرق تلك القوانين والأحكام والاعتداء عليها، قال: الخليفة عثمان رضي الله عنه: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"<sup>(٣)</sup>.

لكن الشريعة الإسلامية تسعى دائما إلى تمكين الوازع الديني من النفوس، وتهدف إلى قطع كل الأسباب المؤدية إلى استدعاء الوازع السلطاني - إلا في حالة الضرورة - وذلك يحفظ للمكلفين حريتهم وكرامتهم، لأن الوازع السلطاني عند استخدامه وتدخله يكون من توابعه إهدار بعض الحريات ومصادرتها، وإهانة بعض الكرامات وإسقاطها، وذلك تحت ضغوط ظروف الحال وما استدعته الواقعة من الاحتياط حفاظا على المصلحة العامة فتفتت في جانبها بعض المصالح الخاصة، وإن كانت سليمة من حيث المشروعية.

وحتى لا تحيد هذه العقوبات عن غايتها، وتنحرف عن غرضها، فتتقلب ضد مقصود الشريعة منها، فتصير وسيلة للفتنة بعدما أريد بها أن تكون وسيلة للأمن، جعلت تلك العقوبات مفتقرة إلى حكم الحاكم وإن كانت مقاديرها معلومة، لأن تفويضها لجميع الناس يؤدي إلى الفتن والشحناء والإقتتال وفساد في الأنفس والأموال<sup>(٤)</sup>.

ولعل من أعظم المهددات خطرا على حمى البلاد، وأكثرها تدميرا لثروة الأمة ونشاطها الاقتصادي وعلى النظام العام للمجتمع عموما هو تزوير النقود، ولذلك نجد العلماء يشددون

١- الوازع في معناه الاصطلاحي لا يخرج عن معناه اللغوي، بل مطابق له تماما، إلا ما يقيد به الشرع، طبيعة الكف التي يجب أن تتجه إلى أعمال السوء فقط، وهذا ما عبر عنه الشيخ ابن عاشور عند تعريفه للوازع: «الوازع: اسم غلب إطلاقه على ما يزع من عمل السوء»، أصول النظام الاجتماعي: ٨٠.

إن هذا الوازع تستدعي الحاجة إليه عند ضعف الوازع الديني في النفوس، وذلك إذا حلت ظروف، ووقعت وقائع، يظن الناس أنه لا بد من مسيرتها بمنكراتها وحرامها ومكروها بحجة أنها أقوى على النفوس من الوازع الديني، هنا يصر إلى الوازع السلطاني لإلزام المكلفين بتنفيذ الأحكام الشرعية بعد إخفاق الوازع الديني في التمكّن من نفوسهم.

٢- التعزير: قال الأنصاري: هو تأديب على ذنب لا حد فيه ولا كفارة غالبا - انظر: سعيد أبو جيب: القاموس الفقهي، ٨٨.

٣- الماوردي: أدب الدنيا والدين، ١٣٧ - انظر: ابن عاشور: مقاصد، ١٢٨.

٤- ابن فرحون: تبصرة الحكام، ١١٢/١.

في عقوبتها، وبطالون الحكام والولاة بالتغليط على مرتكبيها، والمداومة في تفقد الأسواق ومراقبة النقود.

وقد سئل يحيى بن عمر بن لبابة<sup>(١)</sup> عما يجب على الوالي أن يفعله إزاء مرتكبي جريمة التزوير في النقود:

فأجاب: لا يغفل النظر في سوقهم إن ظهرت فيها دراهم مبهرجة ومخلوطة بالنحاس، بأن يشتد فيها، ويبحث عن أحدثها، فإذا ظفر به أناله من شدة العقوبة، وأمر أن يطاف به في الأسواق، لينكله ويشرد به من خلفه، لعلهم يتقون عظيم ما نزل به من العقوبة، ويجبسه بعد ذلك على قدر ما يرى، ويأمر أوثق من يجد بتعهد ذلك من السوق حتى تطيب دراهمهم ودنانيرهم، ويجرزوا نقودهم، فإن هذا أفضل ما يحوط رعيته فيه، ويعمهم نفعه في دينهم ودنياهم، ويرتحي لهم الزلفى عند ربحهم والقربة إليه إن شاء الله<sup>(٢)</sup>.

والذي ينبغي الإشارة إليه أن تحقيق الأمن للنشاط الاقتصادي والمساهمة في استقرار النظام العام لا يتحقق إلا بتوافر ثلاثة عناصر هي:

أولاً: شريعة متبعة تصرف النفوس عن شهواتها، وتعطف القلوب عن إراداتها حتى يصير الالتزام بها والتقيّد بمقتضاها قاهرًا للسرائر، وزاجرًا للضمائر، ورفيقًا على النفوس في خلواتها، وهذه الأمور لا يوصل إليها غير شريعة متبعة، وقانون محكم ومحترم، لا يصلح الناس إلا عليه، فيكون الالتزام بتلك الشريعة وأحكامها أقوى قاعدة في سلامة التصرفات واستقامة المعاملات، وأم الأمور نفعًا في انتظامها.

ثانيًا: سلطان قاهر، تتألف برهبتة الأهواء المختلفة، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة، وتنكف بسطوته الأيدي المتعالية عن غمط حقوق غيرها، وأكلها بالباطل، وتنقمع من خوفه النفوس العادية عن ظلمها وبطشها، والإضرار بأموال غيرها، وإتلافها وتضييعها، لأن في طباع الناس

١- يحيى بن عمر بن لبابة: هو محمد أبو عبد الله مولى آل عبيد الله القرطبي، دارت عليه الأحكام نحو ستين سنة، قال الباجي: أبو لبابة فقيه الأندلس، وأعرف أهلها باختلاف أصحاب مالك، توفي رحمه الله سنة: ٣١٤ هـ - انظر: الديباج: ١٨٩/٢ - الفكر السامي: ١٠٤/٢.

٢- الونشريسي: المعيار، ٤٠٧/٦.

المغالبة والمنافسة على ما آثروه، والقهر لمن عاندوه، ما لا ينفك عنه إلا مانع قوي، وراذع ملي، وقد أفصح المتنبي بذلك عندما قال:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى      حتى يراق على جوانبه الدم  
والظلم من شيم النفوس فإن تجد      ذا عفة فلعلة لا يظلم<sup>(١)</sup>

ثالثاً: عدل شامل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال وتصان به أملاك الناس، ويأمن السلطان على حكمه، وتأمين الرعية على حقوقها، ولا يخاف فيه الضعيف من ضياع حقه، ولا يجرؤ القوي على ملك غيره، وقد قال الهرمزان لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه، حين رآه قد نام مبتذلاً: "حكمت فعدلت فأمنت، فنمت"<sup>(٢)</sup>، ولا شيء أسرع في خراب العمران ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور<sup>(٣)</sup>.

### ثالثاً: السنة وتأمين النشاط الاقتصادي وأثرها في حماية الوطن

إن تحقيق الأمن للنشاط الاقتصادي في أي أمة يعزز في أفرادها روح المبادرة والابتكار، ويزيد في قوة الفاعلية والأداء لديهم ويكسبهم القدرة على التحمل، كما انه يعزز في الوقت نفسه النمو والتنمية.

ولا يمكن أن يتصف أي اقتصاد بالفاعلية وبالإنسانية ما لم تتوفر فيه تدابير وإجراءات كافية لتأمين نشاطات الفاعلين فيه والمحركين له؛ حيث يكون بمقدور الناس أن يستجيبوا لتحديات الحياة، ويتكيفوا مع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي تحيط بهم، ويدبروا عن أنفسهم خطر الكوارث والآفات، ويتمكنوا من تنمية إمكاناتهم البشرية لتوفير حياة أفضل وسبل معيشة أكثر أماناً، ويدعم الاستقرار الاجتماعي الذي يكسب الوطن حصناً منيعاً من أي خطر داخلي أو تهديد خارجي.

١- ديوان المتنبي: ٥٧١.

٢- الماوردي: أدب الدنيا والدين، ١٤١.

٣- انظر: الماوردي: أدب الدنيا والدين، ١٤٧-١٤٦ - صبحي المحمصاني، الدعائم الخلقية، ٣٣٥ -

وبناء عليه كان لمقصد الأمن في النشاط الاقتصادي أثرٌ بالغٌ في سلاسة ذلك النشاط وسيورته ببسر وسهولة؛ سواء من جهة رواج السلع والخدمات وانتعاش الأسواق وازدهارها أو حركة رأس المال بكامل حريته دون خوف من أمر واقع، أو هاجس من أمر متوقع، أو صحة تصرفات المكلفين الاقتصادية وفسادها، وذلك لدخول معنى الأمن في شروطها، وعللها، وأوصافها، فهو شرط في صحة بعض التصرفات ونفاذها، وعلّة في تشريع بعض الأحكام، كما أنه صفة لازمة للأشخاص حتى تصح أفعالهم وأقوالهم في بعض الحالات.

وتحصل هذه الحماية للاقتصاد الوطني بأمرين مهمين:

١ - حسم كل العوائق المعطلة لمسالك الرواج الاقتصادي.

٢ - تقييد تصرفات المكلفين لتأمين النشاط الاقتصادي.

وسأتعرض فيما هو آت لهذين العنصرين بالشرح والتفصيل.

١ - حسم كل العوائق المعطلة لمسالك الرواج الاقتصادي.

والمقصود بالرواج ليس نقل السلع من سوق، إلى سوق أو من مصر إلى مصر فحسب، وإنما الرواج الحقيقي هو إنتاج تلك السلع وإيجادها سواء بطريق الزراعة أو بطريق الصناعة؛ لأنه إذا انعدم الإنتاج فلن تكون هناك سلع، وإذا انعدمت السلع فليس هناك ما يتم ترويجه، حينها تكون البلاد عالة على غيرها من البلدان، وتكون سيادتها مرهونة بيد الدول المزودة لها باحتياجاتها، ما يؤدي إلى انخراط عنصر الحماية واستقلال القرار الوطني، ومن أجل ذلك حثّت السنة المسلمین على الاهتمام بالإنتاج والعناية بمسالكه؛ حيث قال ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فبأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"<sup>(١)</sup>، وجاء في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: "ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يزرؤه أحد إلا كان له صدقة"<sup>(٢)</sup>، وقال

١- أخرجه البخاري: كتاب المزارعة: باب (فضل الزرع والغرس إذا أكل منه) ٤٥/٢ - مسلم: كتاب المساقاة:

باب (فضل الزرع والغرس): ١١٨٨/٣

٢- أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب المساقاة، الحديث رقم: ٧، ١٨٨/٣.

أيضا: " إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، واستطاع ألا تقوم حتى يغرستها فليغرستها"<sup>(١)</sup>، ولما كان زمن عمر، فكثرت المال، وحدثت الأغطية، فكف الناس عن طلب المعيشة وإصلاح أموالهم، وتعطل إنتاجهم شعر عمر رضي الله عنه بخطر هذا التصرف من أصحابه، وأن مارج بأيديهم من أموال غير دائم، وإنما الذي يدوم إنتاجهم واصطناعهم في أموالهم، فدعاهم لذلك، فقال: " أيها الناس أصلحوا معاشكم؛ فإن فيها صلاحكم وصلة لغيركم"<sup>(٢)</sup>.

ولقد فقه الصحابة، رضي الله عنهم، والتابعون، وأئمة الإسلام من بعدهم، هذا المعنى من الشريعة، فجعلوه أساسا لأحكامهم وتصرفاتهم، فقد كان عمر رضي الله عنه يسقط نصف العشر عن بعض السلع؛ لكي يكثر رواجها في أسواق المدينة، فعن عبد الله ابن عمر قال: " كان عمر يأخذ من النبط من الزيت والحنطة نصف العشر لكي يكثر الحمل إلى المدينة، ويأخذ، ومن القطينة العشر"<sup>(٣)</sup>، وهذا الحط من العشر في الحنطة والزيت، حتى يتمكن من تأمين قوت أهل المدينة، وذكر ابن العربي؛ أن كل من جلب من المعاهدين إلى بلاد الإسلام أخذ منه العشر إلا أن يجلب إلى مكة، فإنه يؤخذ منه نصف العشر مصلحة سببها التحريض والتحضيض على جلب الأقوات إليها، وفائدته كثرته فيها. <sup>(٤)</sup>

واعتبارا لهذا المعنى، ولفعل عمر رضي الله عنه ذهب ابن عبد السلام إلى منع زيادة على العشر في أموال الكفار، وأن لا تؤخذ في السنة إلا مرة واحدة، معللا ذلك بأنه لو خالفنا ذلك لزهدوا في التجارة إلى بلادنا، وانقطع ارتفاق المسلمين بالعشور وبما يجلبونه، مما يحتاج إليه من أموال التجارة والأقوات وغير ذلك<sup>(٥)</sup>.

إن تخفيض عمر رضي الله عنه ما كان يأخذه من النبط من العشر إلى نصف العشر، وكذلك ما قام به أئمة الإسلام من بعد في هذا السياق، فالمقصود به هو تحقيق المصلحة العليا التي تعني الجميع

١- أخرجه البخاري: كتاب المزارعة: باب (فضل الزرع والغرس إذا أكل منه) ٤٥/٢ - مسلم: كتاب المساقاة:

باب (فضل الزرع والغرس): ١١٨٨/٣

٢- ابن أبي الدنيا: إصلاح المال، ١٧٥.

٣- أبو عبيد: الأموال، ٥٦٦ - وانظر ابن عربي: القبس، ٢ / ٨٣٨.

٤- انظر ابن العربي: القبس، ٢ / ٨٣٨.

٥- ابن عبد السلام: قواعد الأحكام، ٢ / ١٥١.

والمتمثلة في الحفاظ على النشاط الاقتصادي متنعشا ومزدهرا، وإقامة حاجات الناس، وتحقيق ارتفاق المسلمين بالعشور، مما يؤدي إلى الاستقرار الاقتصادي والسلم الاجتماعي.

ولإقامة مقصد الرواج والتداول منعت الشريعة أن يكون المال دولة بين فئة قليلة من الناس، يتلقاه الفرع عن الأصل قال تعالى: "كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم"<sup>(١)</sup>؛ لأن انحصار حركة الأموال في دائرة أيادي معينة لا يخدم المصلحة العامة المرجوة من وراء ذلك التداول، ولا يتماشى ومقاصد التشريع ومبادئها لما فيه من حقوق الضرر بالفقراء والمحتاجين، وإفضائه إلى الاختلال الاقتصادي بانحصار ثروة في أيدي محدودة من الناس، والتفكك الاجتماعي بظهور الطبقة الصارخة التي تؤدي إلى الفساد الأخلاقي ما ينعكس على اختلال أمن البلاد والعباد، لنقمة الأغلبية الساحقة المسحوقة على الأقلية المكثرة المتغولة، وهذا ما يحاربه الإسلام بكل الوسائل؛ لأنه مضاد لمصالح الدين ومنافع الأمة، ويهدم كيانها ومقوماتها، ومن هنا جاء تحريم الربا؛ لكونه يؤدي إلى جعل الأموال دولة بين فئة قليلة من الناس وعائقا في وجه التداول الشامل والعام الذي تنشده الشريعة.

وحرصا من الشريعة على إقامة مقصد الرواج وتأمينه في النشاط الاقتصادي عمدت إلى قطع كل الأسباب المفضية إلى انحرامه أو تعطيله، ولعل من أقوى تلك الأسباب حصول الخصومات والمنازعات بين المتعاملين الاقتصاديين والتجار وأرباب السلع والمنتجين لها، وبناء عليه جاء إقرار الشريعة لجملة من الشروط والإجراءات قصد قطع أسبابها وحسم مادتها، بالأمر بتوثيق المعاملات وتخصيص الديون بالذكر في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ)<sup>(٢)</sup>، راجع لكونها من أعظم صور المعاملات، ومن أقوى أسباب رواج الأموال وتداولها بين الأشخاص، ومن هذا القبيل ما جاء عن زيد بن ثابت أنه قال: كان الناس في عهد رسول الله ﷺ يتاعون الثمار، فإذا جذ الناس وحضر تقاضيههم، قال المبتاع إنه أصاب الثمر الدمان، أصابه مرض، أصابه قشام، عاهات يحتاجون بها فقال رسول الله ﷺ، لما كثرت عنده الخصومة (... فلا تتبايعوا حتى يبدو صلاح الثمر)

١- الحشر: ٧.

٢- البقرة: ٢٨٢.

قال زيد بن ثابت كالمشورة يشير بها عليهم لكثرة خصوماتهم<sup>(١)</sup>.

فهذا الحديث يبين لنا أن الرسول ﷺ لما بدأت الخصومات تتزايد عنده وتعاظم، شعر بأن هذا النوع من التعامل قد يؤدي إلى اختلال مقصد رواج الأموال وتداولها.

ونظراً لأهمية مقصد الرواج في تحقيق الأمن الاقتصادي للدولة والمجتمع لم تحصر الشريعة التعامل بالبيع والشراء وغيره من عقود المعاوضات في دائرة المسلمين فقط، مثل ما فعلت في النكاح، بل سمحت للمسلمين بالتعامل مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى ومتاجرهم إذا قدموا بأمان<sup>(٢)</sup>، فقد روي عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال: "بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل مشرك مشعار طويل بغنم يسوقها فقال له رسول الله ﷺ: "أبيعا أم عطيه أم هبة" فقال: بل بيع، فاشتري ﷺ شاه<sup>(٣)</sup>، وبوب البخاري رحمه الله تعالى على هذا الحديث باب (البيع والشراء مع المشركين وأهل الحرب).

## ٢ - منع الاحتكار.

إن جريمة الاحتكار هي من أكثر الجرائم قدمًا وأبعدها إيغالاً في تاريخ التبادل التجاري البشري، نظراً لارتباطها بالمعاملات اليومية للناس كافة والمتعلقة بالبيع والشراء للسلع الضرورية والكمالية.

والمقصود بالاحتكار اختزان السلعة وحبسها عن طلابها، والترصص بها حتى يتحكم المحتزن في رفع سعرها؛ لقلة المعروض منها وانعدامه فيتسنى له أن يغلبيها كيفما شاء<sup>(٤)</sup>.

١- أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب (بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها)، ٣٣/٣ - مسلم: كتاب البيوع،

باب (النهي عن بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها)، حديث رقم ١٥٣٤، ١١٦٥/٢.

٢- ابن رشد: المقدمات، ١٥٤-١٥٦ - الونشريسي: المعيار، ٤٣٣/٦ - بدران: العلاقات الاجتماعية،

٢٣٢٢- ابن عبد السلام: قواعد الأحكام، ١٥١ / ٢ - ابن المنذر: الإشراف، ٧٠/١.

٣- أخرجه البخاري: (باب البيع والشراء مع المشركين وأهل الحرب)، ٣٨/٣.

٤- النووي: المجموع: ٤٦ / ١٣.

والاحتكار بهذا المعنى منع السلع الضرورية لحياة الناس، وما يحتاجون إليه، من الوصول إلى أسواق الاستهلاك، كما أنه عمل مضاد لتحقيق مقصد رواج الأموال وتداولها ودورانها بين أيدي الناس، فالاحتكار إذاً أمر يهدد أمن المجتمع وسلامتها إلى حد كبير، وله تأثيرات سلبية على النشاط الاقتصادي وكذلك على الناحية الاجتماعية برمتها، بل إن بعض الدول الكبرى أصبحت تستخدم أسلوب الاحتكار من أجل التحكم في الشؤون السياسية والاقتصادية بل الاجتماعية، في كثير من الحالات للدول الأخرى، ما يؤدي إلى انخراط السيادة الوطنية أو تلاشيها

ومن هنا جاءت النصوص الشرعية ناهية عن هذا التصرف ومحدرة من عواقبه الأخرى؛ حيث قال ﷺ: "لا يحتكر إلا خاطئ"<sup>(١)</sup>، وقال: "الجالب مرزوق والمحتكر ملعون"<sup>(٢)</sup>، وجاء عن مالك، أنه بلغه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "لا حكرة في سوقنا، لا يعتمد رجال بأيديهم فضول من إذهاب إلى رزق من رزق الله نزل بساحتنا فيحتكرونه علينا ولكن أيما جالب جلب على عمود كبده في الشتاء والصيف فذلك ضيف عمر، فليبع كيف شاء الله، وليمسك كيف شاء الله"<sup>(٣)</sup>، وعن مالك أنه بلغه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان ينهى عن الحكرة<sup>(٤)</sup>.

وفي سلم هذه المعاني يندرج ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى المسجد، فرأى طعاماً منشوراً فقال: ما هذا؟ فقالوا: طعام جلب إلينا، قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه، قالوا: قد احتكره فلان وفلان، فدعاها، فقالا له: نشترى بأموالنا ونبيع، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بإفلاس أو الجذام"<sup>(٥)</sup>.  
فقول الصحابي: نشترى بأموالنا ونبيع؛ لأنهما كانا يريدان أن هذا العمل مما تقتضيه حرية

١- أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب (تحريم الاحتكار في الأقوات)، ١٢٢٨/٣ - الإمام أحمد: المسند، ٣٥٣/٣.

٢- أخرجه الدارمي: كتاب البيوع، (باب في النهي عن الاحتكار)، ٢ / ٢٤٩ - سنن ابن ماجه: كتاب التجارات، (باب الحكرة والجلب)، ٧٢٨/٢ - أخرجه الحاكم: المستدرک، كتاب البيوع، ١١/٢.

٣- كتاب الموطأ: كتاب البيوع، باب، (الحكرة والترص)، ٦٥١/٢.

٤- كتاب الموطأ: كتاب البيوع، باب، (الحكرة والترص)، ٦٥١/٢.

٥- أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٢١/١ - سنن ابن ماجه: كتاب التجارات، باب، (الحكرة والجلب)، ٧٢٩/٢.



التصرف في أموالهما، وليس لأحد تقييدها، حتى ولو كان ولي الأمر، فرد عليهما عمر رضي الله عنه بقوله رضي الله عنه السابق الذكر.

وانطلاقاً من هذه النصوص وأمثالها، اتفق علماء الأمة على منع الاحتكار في الأقوات وما يحتاج إليه الناس من الطعام ما أضر ذلك بهم، ووجه ذلك عندهم أن هذا مما تدعو الحاجة إليه لمصالح الناس، فوجب أن يمنع من إدخال المضرة عليهم باحتكاره.<sup>(١)</sup>

بل أجازت الشريعة لولي الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه، مثل من عنده طعام زائد عن كفايته وكفاية من يعولهم، فهو لا يحتاج إليه والناس في مخمصة.<sup>(٢)</sup>

ووسع المالكية والظاهرية وأبو يوسف من الحنفية والثوري من سلطة ولي الأمر في تقييد حرية التصرف في هذا الباب، وذهبوا إلى أن الحكرة إذا أضرت بأهل البلد ممنوعة في كل ما لهم حاجة إليه، وضرورة إلى شرائه وكثرته، سواء كان طعاماً أو ثياباً أو أي شيء كان من أنواع الأموال.<sup>(٣)</sup>

وإما أن يكون جالبا للسوق من غير أهل البلد فهذا لا يتعرض له ولا يجبر على بيعه، ولا يمنع من اختزانه وحركته؛ لأنه لم يضر الناس ولا رفع عليهم سعراً، ولا استبد بشيء كان لابد أن يساويهم فيه، بل في منعه من ذلك إضرار به وافتيات عليه؛ لأنه إنما تكلف جلبه وسافر في تخليصه ليبقيه لنفسه فليس لأحد الاعتراض عليه، ومستند هذا قول عمر رضي الله عنه: "ولكن أيما جالب

١- انظر: المعونة: القاضي عبد الوهاب، ١٠٣٥/٢ - المنتقى: الباجي، ١٦/٥ - البيان والتحصيل: ابن رشد، ٢٧٥/١٧ - عارضة الأحوذى: ابن العربي، ٢٢/٦، ٢٣ - المغني: ابن قدامة، ٧٤/٤ - المحموم: النووي، ٤٦/١٣ - شرح مسلم: النووي، ٤٣/١١ - إعلام الموقعين: ابن القيم، ١٥٤/٣ - تحرير الكلام في مسائل الالتزام: الحطاب، ١٤٧، ١٤٨ - إكمال إكمال المعلم: الأبي، ٣٠٥/٤ - مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ١٩٢/٢٩ - نيل الأوطار: الشوكاني، ٢٥١/٥.

٢- انظر: الموافقات: الشاطبي، ٢٦٠/٢ - الطرق الحكمية: ابن القيم، ٢٤٣ - غمز عيون البصائر: الحموي، ٢٨٢/١ - الأموال: العابدي، ٧ - أحكام السوق: أحمد الدريوش، ١٥٧ - مقاصد الشريعة الخاصة بالتصرفات المالية: عز الدين بن زغبة، ٢٦٧.

٣- انظر: المعونة: القاضي عبد الوهاب، ١٠٣٥/٢ - المنتقى: الباجي، ١٦/٥ - عارضة الأحوذى: ابن العربي، ٢٢/٦، ٢٣ - نيل الأوطار: الشوكاني، ٢٥١/٥.

جلب على عمود كبده في الشتاء والصيف، فذلك ضيف عمر، فليبع كيف شاء الله وليمسك كيف شاء الله<sup>(١)</sup>.

ويرى ابن العربي: أن هذا الحكم الخاص بالجالب مبني على قاعدة المصلحة (مصلحة رواج الأموال والسلع اللازمة لحاجة الناس)، فإن الجالب لو قيل له كما يقال للرجل من أهل السوق إما أن تبيع بسرنا، وإما أن تقوم من سوقنا، لانقطع الجلب واستضر الناس وعلى هذا انبت مسألة التسعير، ولما لاحظ ابن حبيب من أصحابنا هذه المصلحة وفهم المقصود قال: إن الجالب للطعام لا يمكن أن يبيع إلا بسعر الناس ما خلا القمح والشعير، فانه يكون فيه بحكم نفسه للحاجة ولتمام المصلحة بهما<sup>(٢)</sup>.

فتحريم الاحتكار ومنعه من قبل الشريعة لأنه يؤدي إلى أمور لا تحمد عقباها من تضخم ورداءة السلع وإهدار صحة المستهلكين وضرر مباشر على النشاط الاقتصادي للناس وفيه حد من حرية تدفق المنتجات إلى الأسواق وعرقلة أصحاب القدرات الذين يريدون المنافسة في المجالات المختلفة، ناهيك عن الفساد الاجتماعي الذي يتسبب فيه من انتشار الرشوة وذلك بما يبذلونه من أموال طائلة كي لا يدخل غيرهم في السوق مما يؤدي إلى ظهر الطبقة في المجتمع وشيوع الكراهية المفضية للاختلال الأمن الاجتماعي.

### ٣ - تقييد تصرفات المكلفين لتأمين النشاط الاقتصادي.

ومما يدخل في هذا الباب تقييد الشريعة لحرية التصرف بقيود راجعة إلى حفظ مقاصد الشريعة في الأمة، إما لدرء مفسدة عامة أو مضرة خاصة، ويحصل هذا عندما يكون التصرف نفسه فيه إضرار بالغير، ودليل هذا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا يمنع فضل الماء ليمنع به فضل الكلاء)<sup>(٣)</sup>، فمنع فضل الماء المملوك جائز؛ لأنه تصرف في المملوك بناء على عدم وجوب المعروف، وهو قول المالكية، ولكن لما اتخذ حيلة لمنع الكلاء الذي حوله، صار منع الماء منهياً عنه؛ لأن الرعاة لا يراعون

١- الإمام مالك: الموطأ، كتاب الحكرة والتريص، ٦٥١/٢.

٢- انظر ابن العربي: القبس، ٨٣٨/٢.

٣- أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب (تحريم فضل بيع الماء)، ٤٠٨٩، ٢٠٨/١٠.

مكاناً لا ماء فيه لسقي ماشيتهم.<sup>(١)</sup>

ومما يدخل في هذا الباب؛ رفع التاجر سعر سلعته في السوق فوق سعر عامة تجار السوق، أو الحط من سعرها دون سعرهم، مما يضر بمصالح أهل السوق، فهذا من حق ولي الأمر تقييد حرите في البيع، ويأمره بالبيع بسعر السوق أو الرفع منه، قال ابن رشد: "إن جالب السلع لا خلاف أنه لا يسعر عليه شيء مما جلب للبيع، وإنما يقال لمن اشترى منهم وباع بأعلى مما يبيع به عامة من يجلب، بع بما تبيع به العامة أو ارتفع من السوق، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحاطب بن أبي بلتعة، إذ مر به وهو يبيع زيبيا له في السوق، فقال له: (إما أن تزيد في السعر، وإما أن ترفع من سوقنا) <sup>(٢)</sup>؛ لأنه كان يبيع بدرهم أقل مما كان يبيع به أهل السوق، <sup>(٣)</sup> وبناء على هذا قال مالك رضي الله عنه: "لا خير في التسعير على الناس، ومن حط من سعر الناس أقيم".<sup>(٤)</sup>

والذي يتضح لنا من خلال هذه النازلة أنه ليس لولي الأمر الإقدام على تقييد حرية تصرف الخاصة في أموالهم بالمنع وإكراههم على بذلها لصالح العامة إلا بعد استنفاد الوسائل الممكنة كافة، لبلوغ تلك المصلحة العامة من غير إكراه لأحد، فإن تعذر ذلك صار إلى تقييد حرية الامتناع وإكراه من تقوم المصلحة العامة بما أكره عليه، مع تعويضه عن حقه، وجبر ضرره ما أمكن.

وهذا المعنى مستفاد من حديثه رضي الله عنه المتعلق بصاحب النخلة الموجودة في أرض غيره، وكان غيره يتضرر بدخوله إليها، فأمره رضي الله عنه أن يبيع فأبي، فأمره أن ينافل فأبي، فأمره أن يهب فأبي، فقال: (أنت مضار، اذهب فاقلع نخله)،<sup>(٥)</sup> وعلق الإمام أحمد على هذا الحديث فقال: "كل ما كان من هذه الجهة، وفيه ضرر يمنع من ذلك، فإن أجاب وإلا أجبره السلطان، ولا يضر بأخيه إذا كان ذلك فيه مرفق له".<sup>(٦)</sup>

ومما يندرج من النصوص في هذا السياق وينتظم في عقده ما أخرجه مالك في الموطأ أن

١- انظر: مقاصد الشريعة: ابن عاشور، ٢٩٥.

٢- المعيار: الونشريسي، ٨٤/٥.

٣- المصدر نفسه: ٨٤/٥.

٤- المصدر نفسه: ٤٠٩/٦.

٥- أخرجه أبو داود: كتاب الأقضية، باب (أبواب القضاء)، حديث رقم: ٣٦٣٦: ٥٠/٤.

٦- القواعد: ابن رجب الحنبلي، ١٤٠ - انظر: معالم السنن: الخطابي، ٥٠/٤.

الضحاك بن خليفة ساق خليجاً له من العريض، فأراد أن يمر به في أرض محمد بن مسلمة فأبى محمد، فقال له الضحاك: لم تمنعني وهو لك منفعةٌ تشرب به أولاً وآخرًا، ولا يضرك؟ فأبى محمد، فكلّم فيه الضحاك عمر بن الخطاب فدعا عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة، فأمره أن يخلي سبيله، فقال محمد: لا، فقال عمر: لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافعٌ تسقي به أولاً وآخرًا وهو لا يضرك؟ فقال محمد: لا والله، فقال عمر: والله، ليمرن به ولو على بطنك، فأمره عمر أن يمر به، ففعل الضحاك<sup>(١)</sup>.

### الخاتمة

وفي الأخير أظن أنني قد أتيت على المقصود من الموضوع، وقد بذلت فيه غاية المجهود، وبهذا العمل آمل أن أكون قد أسهمت إسهاماً متواضعاً في تحقيق رسالة هذه الندوة وكذا المشاركة في إجاز بعض أهدافها.

ومن خلال المدة التي قضيتها في البحث مع هذا الموضوع أجمع شوارده، وأقيد أوابده، وألم أطرافه، وأستخرج أصوله وفروعه، وأحرر معانيه وأفكاره، خرجت بهذه الخلاصة التي اعتبرها نتيجة، وفي الوقت نفسه هي توصية لهذه الندوة الموقرة.

١ - يعد الأمن من أوكذ ضرورات الحياة وأعظمها خطراً، ومطلباً فطرياً يسعى الناس إلى تحقيقه وإقامته أفراداً وجماعات؛ لأنه إذا فقد المجتمع الأمن حل محلّه الخوف الذي يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفاتهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قيام نفوسهم وانتظام جمعهم، ولما كان نماء الأموال وإصلاحها بالتجار والاستثمار وانتقالها بين أسواق الأقطار والأمصار مرهون بمدى تحقق الأمن في تلك البقاع والطرق الموصلة إليها كان الأمن شرطاً أساسياً لنجاح أي نشاط اقتصادي مهما كان نوعه، وعنصر ضرورياً لتطور البلدان وازدهارها، فأصبح بذلك الأمن والاقتصاد أمرين متلازمين؛ فلا تنمية اقتصادية دون أمن ولا أمن دون رخاء اقتصادي.

٢ - وللأمن الاقتصادي أهمية عظمى تتعدى أهمية الأمن الصحي والثقافي والغذائي في حماية الوطن وهو ما حرصت عليه السنة النبوية كما بيناه في البحث.

١-الموطأ: كتاب الأفضية، باب (القضاء في المرفق) الأثر رقم: ١٤٦٨.

## فهرس المصادر والمراجع

### أولاً: المخطوطات.

- ١ - عمل من طب لمن حب: مخطوط، (تونس: مكتبة الدكتور محمد أبو الأجفان عليه رحمة الله).
- ٢ - القواعد: مخطوط، (تونس: دار الكتب الوطنية تحت رقم: ١٤٦٨٢).
- ٣ - المقرئ: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد، (ت: ٧٥٨هـ).

### ثانياً: المطبوعات.

- الإمام أحمد بن حنبل، (ت: ٢٤١ هـ): المسند، سلسلة الكتب الستة، (إسطنبول: دار الدعوة).
- الآبي: عبد الله بن محمد خلفه، (ت: ٨٢٧ هـ): إكمال المعلم، (مصر: مطبعة السعادة، ط. ١، ١٣٢٨هـ).
- الباجي: أبو الوليد سليمان بن خلف، (ت: ٤٧٤ هـ): المنتقى في شرح الموطأ: (بيروت: دار الكتاب العربي، ط. ١، ١٣٣٢ هـ - ١٩٥٢ م).
- البخاري: محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، سلسلة الكتب الستة، (إسطنبول: دار الدعوة).
- الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى: السنن، سلسلة الكتب الستة، (إسطنبول: دار الدعوة).
- ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس، (ت: ٧٢٨هـ).
- مجموع الفتاوى: جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المغرب، مكتبة المعارف.
- رسالة المظالم المشتركة. السعودية: الادارة العامة للطبع والترجمة بالرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط(١)، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- الحجوي: محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي، (ت: ١٣٧٦هـ): الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي القاهرة: دار التراث، ط(١)، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
- الخطاب: محمد بن محمد، (ت: ٩٥٤هـ): تحرير الكلام في مسائل الالتزام، تحقيق عبد السلام محمد الشريف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: ١، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ ك).

- الحشني: ابن حارث: محمد، (ت: ٣٦١هـ): أصول الفتيا في الفقه على مذهب مالك حقه وعلق عليه محمد المجدوب وأبو الأحناف وعثمان بطيخ. تونس: الدار العربية للكتاب، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط(١) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م
- الخطابي: حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، (ت: ٣٨٨هـ): معالم السنن مع سنن أبي داود، (إستنبول: دار الدعوة).
- الخلال: أبو بكر أحمد بن محمد البغدادي الحنبلي (ت: ٣١١هـ): الحث على التجارة والصناعة والعمل، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة. حلب سوريا: مكتبة المطبوعات الاسلامية، ط(١) ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- أبو داود سليمان بن الاشعث السجستاني (ت: ٢٧٥هـ).
- مسائل الامام أحمد، قدم له وعرف بن رشيد رضا. بيروت: نشر محمد أمين دمج، ط(٢)
- السنن، سلسلة الكتب الستة، (إسطنبول: دار الدعوة).
- الدريوش: أحمد بن يوسف بن أحمد: أحكام السوق، (الرياض: دار العالم الكتب، ط: ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
- الدمشقي: أبو الفضل مسلم بن علي (ت: في القرن الخامس الهجري): الفروق الفقهية، تحقيق أبو الأحناف وحمزة أبو فارس. بيروت: دار الغرب الاسلامي. ط(١) ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ابن أبي الدنيا: أبو بكر القرشي البغدادي (ت: ٢٨١هـ): في إصلاح المال، تحقيق ودراسة مصطفى مفلح القضاة. المنصورة: مصر: دار الوفاء للطباعة. ط(١)، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م
- الدهلوي: ولي الله أحمد شاه، (ت: ١١٧٦هـ): حجة الله البالغة، قدم له وشرحه وعلق عليه محمد شريف سكر، (بيروت: دار إحياء العلوم، ط. ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
- الرازي: محمد بن عمر بن الحسن أبو عبد الله فخر الدين، (ت: ٦٠٦هـ): التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب. مصر: المطبعة البهية: ط(١)، ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م.
- ابن رجب: أبو الفرج عبد الرحمن الحنبلي، (ت: ٧٩٥هـ): القواعد في الفقه الإسلامي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).

## السنة وحماية الوطن من خلال تأمين النشاط الاقتصادي للمجتمع

- ابن رشد: الحفيد/ محمد بن أحمد بن محمد أبو الوليد، (ت: ٥٩٥هـ): بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مراجعة الاستاذ محمد شاکر. القاهرة: مطبعة محمد علي صبيح: ط(١).
- ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي، (ت: ٥٢٠هـ).
- البيان والتحصيل، تحقيق مجموعة من الأساتذة. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط (١)، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- المقدمات الممهدة: تحقيق محمد حاجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١).
- الرصاع:، شرح حدود ابن عرفة، تحقيق محمد أبو الأحفان، ومحمد الطاهر المعموري، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: ١).
- زروق: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد البرنسي، (ت: ٨٩٩هـ): قواعد التصوف، تحقيق عثمان الحويدي (تونس: المطابع الموحدة، ط. ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- ابن سريج: أبو العباس أحمد بن عمر، (ت: ٣٠٦هـ): الودائع لمنصوص الشرائع، دراسة وتحقيق صالح بن عبد الله بن إبراهيم الدويش. نسخة مصورة توجد في المركز الثقافي السعودي بتونس.
- السعدي: عبد الرحمن بن ناصر: القواعد والأصول الجامعة، سلسلة مؤلفات السعدي رقم: ٤، (السعودية: مركز صالح بن صالح الثقافي، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م).
- سعيد أبو حبيب: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا. دمشق: دار الفكر، ط(١)، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
- ابن سلام: أبو عبيد القاسم، (ت: ٢٢٤هـ): كتاب الأموال، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس قطر: مطبعة الدوحة الحديثة.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، (ت: ٩١١هـ): الأشباه والنظائر، (مصر: مطبعة مصطفى محمد، ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م).
- ابن شاس: جلال الدين عبد الله ابن نجم: عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة، تحقيق محمد أبو الأحفان، عبد الحفيظ منصور، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط / ١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م).
- الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، (ت: ٧٩٠هـ): الموافقات في أصول الشريعة: شرح وتحقيق عبد الله دراز، (بيروت: دار المعرفة).

- الشعراي: عبد الوهاب: الميزان: تحقيق وتعليق عبد الرحمن عميرة، (بيروت: دار عالم الكتب، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م).
- العابدي: محمد العلوي: الأموال في الفقه المالكي، (المغرب: دار إفريقيا الشرق، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م).
- ابن عاشور: محمد الطاهر، (ت: ١٣٩٤ هـ).
- التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للتوزيع، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط(١)، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- مقاصد الشريعة الإسلامية، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط. ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).
- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ط: ٢، (الشركة التونسية للتوزيع: تونس، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).
- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي، (ت: ٤٦٣ هـ): الكافي في فقه أهل المدينة، تحقيق وتعليق وتقديم محمد أحمد ولد ساريك الموريتاني. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، ط(١)، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ابن عبد الرفيع: أبو إسحاق إبراهيم بن حسن، (ت: ٧٣٣ هـ): معين الحكام على القضايا والأحكام: تحقيق محمد بن قاسم بن عياد، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: ١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م).
- عبد الوهاب: القاضي أبو محمد بن علي بن ناصر البغدادي: المعونة على مذهب عالم المدينة، تحقيق حميش عبد الحق، (مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط. ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م).
- ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله المالكي الإشبيلي، (ت: ٥٤٣ هـ):
- عارضة الأحوذى شرح صحيح الترمذي، (بيروت: دار العلم للجميع).
- القبس في شرح موطأ مالك بن أنس: دراسة وتحقيق: محمد عبد الله ولد كريم، ط: ١، (دار الغرب الإسلامي: بيروت - لبنان، ٢١٤١ هـ - ١٩٩٢ م).
- عز الدين بن زغبية:
- مقاصد الشريعة الخاصة بالتصرفات المالية، (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط / ١ / ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م).



## السنة وحماية الوطن من خلال تأمين النشاط الاقتصادي للمجتمع

- تبرع غير المسلمين في مصالح المسلمين التأصيل الشرعي: ط: ١ (دي: دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م).
- عز الدين بن عبد السلام، (ت: ٦٦٠هـ): قواعد الأحكام في مصالح الأنام:، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- الغمراوي: محمد: السراج الوهاج، (بيروت: دار الجيل، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م)،
- عياض: أبو موسى اليحصبي، (ت: ٥٤٤هـ): ترتيب المدارك، تحقيق أحمد بكير، بيروت: دار مكتبة الحياة، طرابلس: دار مكتبة الفكر.
- ابن فرحون: القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن أبي القاسم، (ت: ٧٩٩هـ): تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد. مصر: مكتبة الكليات الأزهرية، ط (١)، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م وكذلك الطبعة الموجودة على هامش كتاب فتح العلي المالك محمد عليش.
- ابن قدامة: شمس الدين أبو الفرج أبو عبد الرحمن المقدسي، (ت: ٦٨٢هـ): الشرح الكبير على متن المقنع، (بيروت: دار الكتاب العربية، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).
- ابن قدامة: موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي، (ت: ٦٣٠هـ).
- المقنع في الفقه: طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، (ط: ١)، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
- المغني مع الشرح الكبير: (بيروت: دار الكتاب العربية، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).
- القرافي شهاب الدين بن أحمد بن إدريس، (ت: ٦٨٤هـ):
- الذخيرة في الفقه، تحقيق مجموعة من الأساتذة، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: ١)، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- الفروق، قدم له وحققه وعلق عليه عمر حسن القيام، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط: ١)، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنساري: الجامع لأحكام القرآن، (القاهرة: دار الكتب العربية، ١٣٨٧هـ - ١٩١٢م).

- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن الجوزية (ت: ٥١٧هـ):
- إعلام الموقعين، حققه محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الفكر، ط. ١، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: تحقيق محمد حامد الفقي، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن عمر (ت: ٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الجليل).
- ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: السنن، سلسلة الكتب الستة، (إسطنبول: دار الدعوة).
- الإمام مالك بن أنس: الموطأ، برواية يحيى بن يحيى الليثي، صححه ورقمه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي. (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م).
- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد البصري: (ت: ٤٥٠هـ): أدب الدنيا والدين، حققه وعلق عليه مصطفى السقا، بيروت: المكتبة الثقافية.
- محمد علي بن حسين: تهذيب الفروق، مطبوع على حاشية الفروق، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٤٦هـ)،
- المحمضاني: الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٩٧٩
- مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم، سلسلة الكتب الستة، (إسطنبول: دار الدعوة).
- المقرئ: أبو عبد الله: القواعد، تحقيق أحمد بن عبد الله بن حميد، ط: ١، (مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وحياء التراث).
- المكناسي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله: مجالس القضاة والحكام والتنبيه والإعلام فيما أفناه المفتون وحكم به القضاة من الأوهام، تحقيق نعيم سالم الكثيري، (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط / ١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م).
- ابن المناصف: محمد بن عيسى، أعده للنشر عبد الحفيظ منصور: تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام، (تونس: دار التركي للنشر، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).

## السنة وحماية الوطن من خلال تأمين النشاط الاقتصادي للمجتمع

- ابن المنذر: محمد بن إبراهيم النيسابوري، (ت: ٣١٨هـ): الاشراف على مذاهب أهل العلم، تحقيق محمد نجيب سراج الدين. قطر: طبع إدارة إحياء التراث الاسلامي، ط(١)، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب: السنن، سلسلة الكتب الستة، (إسطنبول: دار الدعوة).
- النووي: يحيى بن شرف، محيي الدين، (ت: ٦٦٧هـ):
  - شرح مسلم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م).
  - المجموع شرح التهذيب للشيرازي: طبع بمصر.
- الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى، (ت: ٩١٤هـ): المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حاجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط. ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- أبو يعلى: القاضي محمد بن الحسن الفراء، (ت: ٤٥٨هـ): الأحكام السلطانية، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).



"حماية الدخل القومي في السنة النبوية  
وأثر ذلك في حماية الوطن"

الدكتور / محمود فهد أحمد مهيدات  
مدير مكتب إفتاء الكورة/ الأردن





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين، سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

مما لا شك فيه أن دراسة سنة النبي - ﷺ - وسيرته هي الطريق الذي ينير لنا معالم الحياة بجميع جوانبها، وتحتدي بها إلى أرشد أمورنا، قال تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ (٥٤) (النور). ويُعدّ الجانب الاقتصادي من الجوانب التي رعتها السنّة، هذا الجانب الذي ينظم حياة الناس الاقتصادية معيشتهم؛ ليحقق لهم حياة كريمة وطيبة، توصل المسلم إلى القناعة، والرضا، والسعادة، والفلاح، والحياة الطيبة في الدنيا وفي الآخرة. قال ﷺ: "قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه"<sup>(١)</sup> وبالتالي تجعل صاحبها يُعِفُّ نفسه ويده عن العبث بمدخرات الوطن، التي تعدُّ من مقومات حماية أمن الوطن والمواطن والمحافظة عليهما.

وبما أن الدخل القومي هو جزء من مدخرات الوطن، فذلك يعني أنّه يدخل تحت الجانب الاقتصادي الذي رعته السنة النبوية الشريفة، وسيوضح ذلك من خلال ما جاء في السنة النبوية من نصوص تكفل المحافظة عليه من العبث به، أو الاعتداء عليه، وبالتالي حماية الوطن من أي انحراف في سلوك الأفراد، الذي قد يؤثر سلبيًا على زعزعة الوطن وأمنه.

وإضافة إلى ما سبق، فإننا نلاحظ أنّ هناك ارتباطاً بين ما جاءت به السنة من نصوص تحافظ بها على دخول الأفراد "أموالهم" وبين حماية الوطن، بمعنى أنّ حماية السنة لدخل الأفراد من الاعتداء عليها والعبث بها وأخذها بغير حق هو حماية للوطن من الاعتداء عليه سواء على أمنه أو مدخراته أو مواطنيه.

وتأتي هذه الورقة لبيان دور السنة النبوية في حماية الدخل القومي، من خلال ما جاء فيها

١- مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، حديث رقم ١٠٥٤.

لحماية دخول الأفراد . التي تشكل مجموعها الدخل القومي . من الاعتداء عليها، وأثر ذلك في توفير الحياة الطيبة التي من شأنها أن تجعل الفرد المسلم مستقيمًا في أخلاقه ومحافظًا على وطنه.

**مشكلة الدراسة:** جاءت هذه الدراسة للإجابة على الأسئلة الآتية:

١ . هل كفلت السنة النبوية حماية دخول الأفراد من الاعتداء عليها؟

٢ . هل كفلت السنة النبوية حماية الدخل القومي؟

٣ . هل حماية السنة النبوية للدخل الوطني حماية للوطن؟

**أهداف الدراسة:** تهدف هذه الدراسة إلى:

١ . بيان النصوص النبوية الشريفة التي تكفل حماية دخول الأفراد من الاعتداء عليها.

٢ . توضيح أثر السنة النبوية في حماية الدخل القومي والمحافظة عليه.

٣ . بيان أنّ حماية الدخل الوطني حماية للوطن.

**أهمية الدراسة:** تبرز أهمية الدراسة من خلال الوقوف على أثر السنة النبوية في حماية الدخل القومي للدولة من خلال بيان النصوص النبوية التي من شأنها حماية دخول الأفراد من الاعتداء عليها، وأنّ حماية الدخل الوطني هو حماية للوطن، وذلك من خلال تحليل تلك النصوص لبيان دورها في حماية الوطن.

**منهج البحث:** تقتضي طبيعة البحث من حيث أهدافه وأهميته اتباع المنهج الاستقرائي أولاً؛ للوقوف على النصوص النبوية ذات العلاقة في موضوع الدراسة. وكذلك اتباع المنهج التحليلي؛ لبيان وجه الارتباط بين حماية دخول الأفراد و حماية الدخل الوطني، وأن حماية دخول الأفراد هي حماية للدخل الوطني.

**الدراسات السابقة:** في حدود بحثي واطلاعي، لم أجد دراسة تناولت هذا الموضوع، وجلّ ما اطلعت عليه من دراسات ومقالات وأبحاث، كانت في حب الوطن، وما يتعلق بذلك من أحكام. لذلك سيكون السبق لهذه الدراسة التي تتناول هذا الموضوع من خلال استقراء للنصوص النبوية ذات الصلة والعلاقة المباشرة، وتحليلها اقتصاديًا دون تكلف أو ربط بما ليس له صلة فيها.



## المبحث الأول: الدخل القومي: مفهومه وأهميته ومصادر دخل الأفراد

يتناول الباحث مفهوم الدخل القومي وأهميته للوطن، ومصادر دخل الأفراد وعلاقتها بالدخل القومي؛ فهو دياحة لمفردات موضوع البحث، وذلك ضمن المطالب الآتية:  
المطلب الأول: مفهوم الدخل القومي وأهميته للوطن:

يُعرف الدخل القومي (national Income) NI لأي اقتصاد على أنه "مجموع الدخول التي يحصل عليها أفراد المجتمع مقابل مساهمتهم في عملية الإنتاج خلال فترة زمنية معينة غالبًا ما تكون سنة. أو بعبارة أخرى، أنه يمثل مجموع دخول الأفراد أو عوائد أصحاب عناصر الإنتاج متمثلة في الربح، والأجور، والفوائد، والأرباح"<sup>(١)</sup>.

والمقصود بأفراد الوطن هم الذين يتمتعون بصفة المواطنة، ويحملون جنسية الوطن من غير الأفراد الأجانب المقيمين داخل الوطن، فدخول هؤلاء الأجانب غير محسوبة في الدخل القومي. وأما الأفراد فهم جميع أفراد الوطن بصفتهم الطبيعية والاعتبارية، مثل: الشركات الخاصة أو لمشروعات العامة نتيجة إسهامهم في العمليات الإنتاجية داخل الوطن.

والدخل القومي نوعان:

أولاً: الدخل القومي النقدي (money national Income) MNI، وهو مقدار ما يكسبه الفرد من دخل مُقاسًا بوحدة نقدية كالدرهم الإماراتي مثلاً.

ثانيًا: الدخل القومي الحقيقي (real national Income) RNI، وهو مقدار ما يحصل عليه الفرد من خدمات و سلع بدخله النقدي<sup>(٢)</sup>.

وبناء على ذلك، فإنّ الأهمية تكمن في ما يمكن أن يحصل عليه الفرد- بوساطة دخله النقدي- من سلع وخدمات، و ليس ما يكسبه من دخله النقدي. ومثال على ذلك، نفترض أن

١- . حسين، مجيد علي، سعيد، عفاف عبد الجبار، مقدمة في التحليل الاقتصادي الكلي، دار وائل،

عمان، ط ١ ٢٠٠٤م، ص ٩٣.

٢- . المرجع السابق، ص ٩٤.

ثمن الشاة الواحدة ١٠٠ دينار، فإنّ الفرد سينفق ١٠٠ دينار من دخله لشراء شاة واحدة. فإذا ارتفع ثمن الشاة، وأصبح ١٢٠ ديناراً؛ فإنّه سيضطر إلى إنفاق ٢٠ ديناراً إضافية لشراء الشاة. فالسلعة ثابتة لم تتغير، ولكن القيمة السوقية ارتفعت بمقدار ٢٠ ديناراً، وهذا يعني أنّ دخله النقدي قد انخفضت قيمته الشرائية، وإن زاد دخله؛ فالعبرة في إشباع الحاجات هي بالدخل الحقيقي، وليس بمقدار الدخل النقدي.

### المطلب الثاني: أهمية الدخل القومي للوطن

تكمن أهمية الدخل القومي لأي دولة في المحاور الآتية:

١. إنه مؤشر لقياس مدى التطور والنمو والتقدم الاقتصادي في أيّ وطن، وقياس ذلك يكون من خلال المقارنة بين حجم النمو الاقتصادي في البلد من سنة لأخرى. وبهذا تستطيع الدولة أن تتبين مدى الزيادة أو النقصان في نموها الاقتصادي.

٢. إنه يوفر قاعدة بيانات تستخدمها الجهات التخطيطية والحكومية؛ لتطبيق سياساتها الاقتصادية المستقبلية وذلك من خلال: تقديرات الدخل القومي، وتحليلها، ودراسة العوامل المؤثرة فيها<sup>(١)</sup>. بمعنى أنّ الدولة التي تهتم بسياساتها الاقتصادية المستقبلية: السياسة المالية، والسياسة النقدية، وسياسة الموارد الطبيعية. الخ لتعزز الأنشطة الاقتصادية في مجتمعها، ودعمها وتوجيهها نحو تحقيق الأهداف الاقتصادية المطلوبة "كالنمية الاقتصادية مثلاً أو علاج التضخم أو تحقيق العمالة الكاملة" - لا بد أن يتوفر لديها البيانات المتعلقة بالدخل القومي من حيث: إجمالي قيمة الدخل القومي، وقيمة الدخل الكلي للدولة، وقيمة الاستهلاك، ومقدار التغير الإيجابي أو السلبي، وكذلك معرفة معدل التغير في الأسعار بين السنة الماضية والحاضرة؛ لمعرفة حجم الدخل القومي الحقيقي. وعلى ضوء تلك البيانات يمكن للدولة تعديل سياساتها الاقتصادية بما يحقق مصالح المجتمع.

٣. له مدلولات اقتصادية هامة في مجالات الرفاهية الاقتصادية<sup>(٢)</sup>، بمعنى أنه مقياس لمستوى

١- صالح، تومي، مبادئ التحليل الاقتصادي الكلي، (د، ت) (د، ط)، ص، ٤٥ بتصرف.

٢- المرجع السابق، ص ٤٥.

رفاهية الأفراد، وذلك من خلال معرفة معدل نمو متوسط دخل الفرد الحقيقي، الذي هو عبارة عن خارج قسمة الدخل الوطني على عدد السكان، باعتبار أن متوسط الدخل الحقيقي للفرد يَبِّن الصورة الأدق للتغيرات التي طرأت على مستوى المعيشة<sup>(١)</sup>، فالعلاقة بينهما علاقة طردية: يرتفع مستوى الرفاهية والمعيشية للأفراد بارتفاع مستوى الدخل القومي، وهذا من شأنه أن يسد منافذ الشهوات والتطلعات الضارة للاستهلاك.

٤. إنه يساعد على تحقيق عدالة التوزيع، وذلك من خلال استعانة الدولة بإحصاءات الدخل القومي وبياناته، وبخاصة الأجور والأرباح، أي النصيب الذي يعود لعوامل الإنتاج نتيجة لمساهمتها في الناتج الوطني المتمثل في العوائد التي تتلقها من رواتب وفوائد وريع وأرباح<sup>(٢)</sup>. وهذا مما يساعد الدولة على اتخاذ التدابير المناسبة لمعالجة عدم المساواة في توزيع الدخل.

### المطلب الثالث: مصادر دخل الأفراد وعلاقتها بالدخل القومي

أشرنا سابقاً إلى أن الدخل القومي هو "مجموع الدخول التي يحصل عليها أفراد المجتمع مقابل مساهمتهم في عملية الإنتاج خلال فترة زمنية معينة سنة في الغالب. أو بعبارة أخرى، أنه يمثل مجموع دخول الأفراد أو عوائد أصحاب عناصر الإنتاج متمثلة في الربح والأجور والفوائد والأرباح"<sup>(٣)</sup>.

من خلال هذا التعريف، يتبين أن مصادر دخل الفرد أو الأفراد في أي مجتمع هي بمقدار مساهمته في عناصر الإنتاج، وهذا ما يسمى بالتوزيع الوظيفي الذي يقصد به تحديد عناصر الإنتاج في الدخل القومي على أساس الوظيفة التي أداها كل عنصر في تحقيق هذا الدخل<sup>(٤)</sup>، أي عملية قسمة قيمة الناتج المتحقق بين المساهمين في العملية الإنتاجية كل بحسب إسهامه "وظيفته"<sup>(٥)</sup>.

١- صخري عمر، التحليل الاقتصادي الكلي ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط ٥، ٢٠٠٥، ص ٣١.

٢- المرجع السابق، ص ٣١.

٣- حسين، مجيد علي، وسعيد، عفاف عبد الجبار، مرجع سابق، ص ٩٣.

٤- الشباني، محمد عبد الله، المشكلة الاقتصادية وعلاجها من المنظور الإسلامي ٣، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي عدد ٧٩٥، ص ٣٤.

٥- الشباني، عبد الجبار، الاقتصاد الإسلامي: التوزيع، الموقع الشخصي، al-sabhany.com

ص (١).

وبهذا يتّضح لنا أنّ عوائد عناصر الإنتاج تعدّ من مكونات الدخل القومي، وقد حصر اقتصاد السوق عناصر الإنتاج بالعمل، ورأس المال، والأرض، والتنظيم والإدارة. وبالطبع لكل منها عائد يعود على كل من يساهم في عملية الإنتاج، كل بحسب مساهمته في العملية الإنتاجية، وهذا لا خلاف عليه بين النظرية الاقتصادية الإسلامية والنظرية الاقتصادية التقليدية من حيث الكم والنوع أي أنّها أربع ومحددة بالعمل، والأرض، ورأس المال، والتنظيم والإدارة. ولكن النظرية الاقتصادية الإسلامية ضبطتها بضوابط شرعية؛ تحقيقاً لعدالة التوزيع الوظيفي بين دخول الأفراد، ومن ثمّ أضافت عليها "التوزيع الابتدائي، وهو نشأة حق التملك أو الاختصاص بالموارد قبل عملية الإنتاج كنظام الإقطاع، وإحياء الموات. ويقصد بإعادة التوزيع هو عملية سحب جزء من الدخل الموزعة وظيفياً، وإعادة دفعها إلى مستحقين آخرين وفق اعتبارات غير وظيفية: اجتماعية أو إنسانية مثل الزكاة والصدقات. . الخ<sup>(١)</sup>.

**وخلاصة القول:** إنّ مصادر دخل الأفراد في الاقتصاد الإسلامي غير محصورة في عوائد عناصر الإنتاج "التوزيع الوظيفي" إنّما في عوائد عمليات التوزيع كلها: الابتدائي، والوظيفي، وإعادة التوزيع، والتي تشكل مجموعها حجم الدخل القومي للدولة.

**أما العلاقة** بين حماية مصادر دخول الأفراد، وحماية الدخل الوطني فيمكن توضيحها على النحو الآتي:

الدخل القومي هو "مجموع الدخول التي يحصل عليها أفراد المجتمع مقابل مساهمتهم في عملية الإنتاج خلال فترة زمنية معينة سنة في الغالب. أو بعبارة أخرى، أنه يمثل مجموع دخول الأفراد أو عوائد أصحاب عناصر الإنتاج متمثلة في الربح، والأجور، والفوائد والأرباح"<sup>(٢)</sup>، وأنّ مصادر دخل الأفراد في الاقتصاد الإسلامي ليس منحصراً فقط في عوائد عناصر الإنتاج "التوزيع الوظيفي" إنّما في عوائد عمليات التوزيع كلها: الابتدائي، والوظيفي و إعادة التوزيع. وأنّ السنة النبوية قد شرعت لها أحكاماً تحافظ عليها، وتضبطها، فإنه يتبين لنا أنّ حماية السنة لمصادر دخول الأفراد هي حماية للدخول نفسها. وعليه يمكن القول: إنّ حماية السنة النبوية لمصادر دخول الأفراد هي حماية للدخل القومي. وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

١- المرجع السابق، ص ٢.

٢- حسين، مجيد علي، سعيد، عفاف عبد الجبار، مقدمة في التحليل الاقتصادي الكلي، مرجع سابق، ص ٩٣.

## المبحث الثاني:

### حماية السنة النبوية لمصادر دخول الأفراد من جانبي الوجود والعدم

بعد بيان ما يتعلق بالدخل القومي من حيث: مفهومه، وأهميته للوطن، ومصادر دخل الأفراد وعلاقتها بالدخل القومي، سنتناول في هذا المبحث دور السنة النبوية في حماية مصادر دخول الأفراد من جانبي الوجود والعدم، وذلك من خلال استقراء مصادر السنة ومظاهرها، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

#### المطلب الأول: حماية السنة النبوية لدخول الأفراد من جانب الوجود:

حماية السنة النبوية لدخول الأفراد من جانب الوجود يكون بفعل ما به قيامها وثباتها<sup>(١)</sup>، أي أنّ السنة النبوية شرعت أحكاماً من شأنها أن تحافظ على بقاء مصالح العباد وثباتها التي دخول الأفراد جزءاً منها، وذلك من خلال ما جاءت به السنة النبوية من نصوص نبوية كفلت هذا المقصد، وهي ما يلي:

١. ثبوت الحق للفقراء في أموال الأغنياء؛ فقد أثبتت السنة النبوية للفقراء حقاً مالياً في مال الأغنياء عبر آلية الزكاة، وجاء ذلك على لسان النبي - ﷺ - حينما بعث معاذاً - ﷺ - إلى اليمن قائلاً له: "فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم"<sup>(٢)</sup>. فإثبات هذا الحق للفقراء في مال الأغنياء، هو حفظ السنة لدخول الفقراء من جهة الوجود.

٢. كفالة حق العامل "الموظف العام" لمقومات الحياة؛ قال عليه الصلاة والسلام: "من كان لنا عاملاً، فلم يكن له زوجة فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً، فإن لم يكن له مسكن، فليكتسب مسكناً، ومن اتخذ غير ذلك فهو غالٍ وسارق"<sup>(٣)</sup>.

١- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، دار عفان، ط ١، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ١٨.

٢- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ج ٢، ص ١٠٤، حديث رقم ١٤٩٩.

٣- ابن خزيمة أبو بكر محمد بن إسحاق، صحيح ابن خزيمة، كتاب الزكاة، باب إذن الإمام للعامل بالتزويج واتخاذ الخادم والمسكن ج ٤، ص ٧٠، رقم الحديث ٢٣٧٠، تحقيق الأعظمي، وقال: حديث صحيح.

مقومات الحياة هي: الزوجة، والمسكن، والمركب، والخادم. ولا شك أنّ لهذه المقومات تكلفة مالية تكون على حساب دخل العمال. وعليه فحينما تكفل الدولة هذه المقومات لعمالها، فإنّ تلك التكلفة التي كان سيدفعها العمال من دخلوهم - في حال عدم توفيرها من قبل الدولة لهم - هي حفظ لجزء من دخلوهم، وبالتالي حفظ لجزء من مصادر الدخل القومي.

٣. وضع الجائحة؛ قال عليه الصلاة والسلام: " لو بعت من أخيك ثمراً فأصابته جائحة، فلا يجل لك أن تأخذ منه شيئاً، بم تأخذ مال أخيك بغير حق؟<sup>(١)</sup>. و(الجائحة) هي تلف الثمر أو الزرع قبل موعد الجذاذ بأفة سماوية كالبرد الشديد ونحوه. وفي هذه الحالة أوجبت السنة النبوية على البائع - في حال باع الثمر قبل بدو صلاحه فأصابه تلف قبل الجذاذ- أن يرد الثمن إلى المشتري، وهذا يعني أنّه استرد جزءاً من دخله الذي سبق أن دفعه إلى البائع، وهذا الاسترداد حفظ للدخل، وبالتالي لمصادر الدخل القومي.

٤. الحث على العمل؛ قال عليه الصلاة والسلام: " ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من يده"<sup>(٢)</sup>. ويعدّ العمل من أهم عناصر الإنتاج، الذي هو مصدر رئيس من مصادر دخول الأفراد. لذلك نجد السنة النبوية قد جعلت ريعه من أفضل الكسب للإنسان؛ فحثت عليه، ورغبت به، ورفعت مكانته، وعظمت من شأنه. وهذا الترغيب هو توجيه لكل فرد من أفراد المجتمع أن يعمل وينتج؛ ليأكل من كسب يده. ويؤكد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: "لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو- أحسبه قال إلى الجبل - فيحتطب، فيبيع، فيأكل، ويتصدق خير من أن يسأل الناس"<sup>(٣)</sup>. وكل هذا من شأنه زيادة الدخل للفرد، الذي هو مصدر من مصادر الدخل.

٥. الحث على استغلال الأرض واستثمارها؛ قال عليه الصلاة والسلام: " من كانت له أرض

١- مسلم، صحيح مسلم، كتاب البيوع، باب فضل الغرس والزرع، ج٢، ص١٩٩٠، حديث رقم ١٥٥٤.

٢- البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ج٣، ص٥٧، حديث رقم ٢٠٧٢.

٣- البخاري، صحيح البخار، كتاب الزكاة، باب في قول الله تعالى «لا يسألون الناس إلحافاً» ج٢، ص١٢٣، حديث رقم ١٤٨٠.

فليزرعها أو ليمنحها أخاه، فإن لم يفعل فليمسك أرضه"<sup>(١)</sup>. تعدّ الأرض -كذلك- عنصراً من عناصر الإنتاج، وبالتالي فإن ريعها مصدر من مصادر الدخل للفرد. ومن هنا نجد السنة قد وجّهت أصحاب الأراضي إلى استغلال الأرض واستثمارها بالزراعة، سواءً بنفسه أو من خلال أخيه في حال عجزه عن استثمارها، وذلك للبقاء على استمرار ريع الأرض بالتدفق على صاحبها أو على أخيه، وليس هذا فحسب، بل إنّ السنة حثت على إحياء الأرض الموات، قال عليه الصلاة والسلام: "من أعمار أرضاً ليست لأحدٍ فهو أحقُّ" (البخاري، صحيح البخاري، كتاب المزارعة باب من أحيا أرضاً مواتاً، ج ٣، ص ١٠٦، حديث رقم ٢٣٣٥). وإحياء الموات هو استصلاح الأراضي الموات، التي لم يجر عليها ملك سابق لأحد، وجعلها أرضاً صالحة للزراعة. وفي هذا الإحياء إيجاد مصدر دخل جديد لمن ليس له رأس مال؛ لأنّ بالإحياء استعادة قدرة الأرض على الإنتاج، ولإنتاج ريع آخر لأفراد المجتمع. وفي كل الأحوال تشجيع للإنسان على العمل والكسب، وهما من مصادر الدخل. وبذلك زيادة وحماية لمصادر دخول الأفراد.

٦. تحريم الكنز؛ قال عليه الصلاة والسلام: "يكون كنز أحدكم يوم القيامة شجاعاً أقرع"<sup>(٢)</sup>. وكنز المال هو المال الذي يؤدي زكاته الواجبة، وهو منافٍ للحكمة التي خلق الله تعالى المال لأجلها؛ ولأجل هذا حرمت السنة كنز المال إلا إذا أدى زكاته. وفي هذا زيادة لدخول الأفراد من ناحيتين:

- الأولى: أنّ صاحب المال سيدفع الزكاة لمستحقيها، وهم بدورهم سيضخونها في الأسواق؛ مما سيكون له دور في زيادة الدخل من خلال زيادة الطلب الفعال على السلع والخدمات، وبالتالي يزيد الإنتاج. الخ.
- الثانية: أنّ دفع الزكاة ستدفع أصحاب الأموال إلى استثمار أموالهم حتى لا تستهلكها الزكاة، وبالطبع سيكون للاستثمار ريع يعود على كل من ساهم في عمليات الاستثمار من الأفراد. وكل هذا يصب في وعاء دخولهم، وبالتالي في وعاء الدخل القومي.

---

١- البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كراء الأرض، ج ٣، ص ١٠٧، حديث رقم ٢٣٤١.  
٢- البخاري، صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن، باب قول الله والذين يكنزون الذهب، ج ٦، ص ٦٥، حديث رقم ٤٦٥٩.

## المطلب الثاني: حماية السنة لدخول الأفراد من جانب العدم

حماية السنة النبوية لدخول الأفراد من جانب العدم، يكون بترك ما به تنعدم، أي بما يدرأ عنها الإخلال الواقع عليها أو المتوقع فيها<sup>(١)</sup>. بمعنى أنه جاء في السنة نصوص من شأنها حماية دخول الأفراد من انعدامها وتلاشيها، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

١. تحريم الاعتداء على أموال الناس؛ قال عليه الصلاة والسلام: "إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا"<sup>(٢)</sup>. ولأهمية المال في حياة الناس، حذر النبي - عليه الصلاة والسلام - من الاعتداء عليه؛ فلا يحل لأحد أن يأخذ من مال أخيه المسلم شيئاً دون حق بغض النظر عن نوع المال أو قيمته. وما هذا التحريم إلا حماية لأموال الناس "دخولهم" من الاعتداء عليها.

٢. وجوب الوفاء بالأجر؛ عن أبي هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره"<sup>(٣)</sup>. الإجارة من أنواع ما يكون على عمل معلوم بعوض معلوم، فهي مصدر من مصادر دخول الأفراد؛ لذلك فالله تعالى يعلن الحرب على أي مستأجر استوفى من الأجير ولم يعطه أجرته؛ وذلك حماية لأجور المُستأجرين "العمال" من الاعتداء عليها.

٣. تحريم الغش والتدليس ولو من غير قصد؛ مرّ النبي ﷺ على صبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنال أصابعه بللاً فقال: "ما هذا يا صاحب الطعام؟ فقال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام؛ كي يراه الناس. من غش فليس مني"<sup>(٤)</sup>. حينما يحذر النبي - عليه السلام - من الغش والتدليس في عمليات البيع، فذلك لأنّ الغش سيكون سبباً من أسباب ضياع لجزءٍ من دخول الأفراد، ويتمثل ذلك بعدم مساواة البضاعة للثمن الذي دفعة؛ مما قد

١- الشاطبي، الموافقات، ج ٢، ص ١٨.

٢- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ج ٢، ص ١٧٦، حديث رقم ١٤٧١.

٣- البخاري، كتاب الإجارة، باب إثم من منع أجر الأجير، ج ٣، ص ٨٩، حديث رقم ٢٢٧٠.

٤- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي: من غشنا فليس منا، ج ١، ص ٩٩، رقم ١٠٢.



يضطر إلى شراء كمية أخرى لسد حاجته من تلك البضاعة، والتمن الذي دفعه مرة ثانية هو نقص من دخله. وعليه فانتهاء الغش من جميع عمليات البيع هو وسيلة من وسائل حماية دخول الأفراد من الاعتداء عليها. ومما يؤكد هذا كذلك إرشاده - ﷺ - للذي يرغب بالبيع أن يشترط عدم الخديعة عند البيع، فعن ابن عمر - ﷺ - أن رجلاً ذكر للنبي - ﷺ - أنه يخدع في البيوع، فقال: "إذا بايعت فقل: لا خلافة"<sup>(١)</sup>. والخلافة: الخديعة، والمقصود أن النبي ﷺ أرشد الرجل الذي يخدع في البيع، وغالبًا في الثمن، إلى التحوط من المخادعة في البيع، وهذا يعني أنه سيشتري حاجاته بسعر المثل دون زيادة. وبهذا التحوط حماية لدخله الحقيقي، وهو مقدار ما يستطيع أن يحصل عليه من خدمات وسلع بدخله النقدي.

٤. النهي عن مماطلة الدائن؛ قال ﷺ: "مطل الغني ظلم، وإذا أتبع أحدكم على مليّ فليتبع"<sup>(٢)</sup>. المماطلة في سداد الدين هو التأخر بالسداد من غير عذر. لذلك اعتبرت السنة مماطلة الدائن، وإن كان غنيًا، ظلمًا من المدين للدائن؛ لأنّ المماطلة تعني تجميد أموال الدائن، ومن ثم تعطيله عن الاستثمار، فضلًا عن تحميل الدائن تكاليف باهظة بسبب قلة الربحية من جهة، وعدم قدرته عن التوسع بتجارته لقلة السيولة، وكلتا الحالتين فيهما إضاعة لفرص استثمارية للدائن، وبالتالي يفوت عليه جزء كبير من العوائد؛ لذا منعت السنة المماطلة؛ حماية لدخول الدائنين، ومحافظة عليها من انعدامها وضياعها.

٥. قطع يد السارق؛ قال ﷺ: "تقطع يد السارق في ربع دينار"<sup>(٣)</sup>. يد الإنسان فيها نصف الدية، ولكنها تقطع بربع دينار إذا سرقه صاحبها، فالعقل يعفُّ يده عن أموال الناس؛ محافظة على يده من القطع، وحينما يصبح هذا الخوف عند أفراد المجتمع خوفًا من القطع تحفظ الأموال من الاعتداء عليها.

١- البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما يكره من الخداع في البيع، ج ٣ ص ٦٥، حديث رقم ٢١١٧.

٢- البخاري، صحيح البخاري كتاب الحوالات، باب الحوالة، ج ٣، ص ٩٤، حديث رقم ٢٢٨٧.

٣- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب قول الله تعالى «والسارق والسارقة» ج ٨، ص ١٦٠، حديث رقم ٦٧٩١.

٦. تحريم الاحتكار؛ قال ﷺ: "لا يحتكر إلا خاطئ"<sup>(١)</sup>. والاحتكار شرعاً هو إمساك الطعام عن البيع، وانتظار الغلاء مع الاستغناء عنه وحاجة الناس إليه<sup>(٢)</sup>. فالاحتكار إذاً سبب في ارتفاع الأسعار، وارتفاع الأسعار يعني انخفاض القوة الشرائية للنقود، وبالتالي انخفاض حجم الدخل الحقيقي للأفراد؛ لذا فمنع الاحتكار والتحذير منه حماية للقوة الشرائية للنقود، وبالتالي حماية دخول الأفراد من الانعدام.

٧. النهي عن تلقي الركبان وعن بيع الحاضر لباد؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما "أن رسول الله ﷺ نهى أن تتلقى السلع حتى تبلغ الأسواق"<sup>(٣)</sup>. الركبان هم من يأتون بالسلع إلى سوق البلد من غير أهله، ويتلقاهم بعض التجار قبل وصولهم إلى السوق، فيشترون منه سلعتهم، دون أن يعلموهم بسعر السوق الحقيقي غالباً، وفي هذا ضرر من ناحيتين: الأولى يقع على "الركبان"، وهو حرمانهم من جزء من الثمن الحقيقي لسلعتهم، والثاني يقع على أهل السوق لاحتمالية أن يحتكر المشتري السلع، فيمنع غيره ممن يريد الشراء فيضره، ومن ثم يتحكم بالسعر الذي يريد، وهذا ضرر على عامة الناس. لذا، فالسنة راعت هذه المصلحة؛ فمنعت هذا النشاط، وذلك حماية لدخول الفرد وصيانتها من الانعدام، وكذلك الحال بالنسبة لبيع الحاضر للبادي، قال ﷺ: "لا يبيع حاضر لباد"<sup>(٤)</sup>. لما سُئِلَ ابن عباس عن بيع الحاضر لباد قال: لا يكون له سمساراً<sup>(٥)</sup>، فكما أنه يمكن أن يخدع الجالب بالثمن، يمكن السمسار أن يخدع البادي بالثمن، وبهذا يقع الضرر عليه، وعلى أهل السوق، وعلى عامة الناس، كما بينا في مسألة تلقي الركبان، لذا فهذا النهي من شأنه حماية دخول الأفراد من الاعتداء عليها، والأخذ منها بغير حق.

١- مسلم، صحيح مسلم، كتاب البيوع، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، ج ٣، ص ١٢٢٧، حديث رقم ١٦٠٥.

٢- ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب ما يذكر في بيع الطعام والحكرة، ج ٤، ص ٢٤٨.

٣- مسلم، صحيح مسلم، كتاب البيوع، باب تحريم تلقي الجلب، ج ٣، ص ١١٥٦، رقم الحديث ١٥١٧.

٤- مسلم، صحيح مسلم، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للباد، ج ٣، ص ١١٥٧، حديث رقم ١٥٢٠.

٥- ابن بطلان، شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٠٠.

٨. النهي عن الإسراف؛ قال النبي ﷺ: "كلوا، واشربوا، والبسوا، وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة"<sup>(١)</sup>، حقيقة الإسراف: "مجاوزه الحد في كل فعل أو قول وهو في الإنفاق أشهر. والحديث مأخوذ من قوله تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الاعراف ٣١)"<sup>(٢)</sup>، وعليه، فإن الفرد حينما يتجاوز الحد في مأكله وملبسه ومسكنه، فهو تكلفة زائدة، وهذه التكلفة هي في الأصل جزء من دخله، وبالتالي حينما ينفقها في غير محلها يكون قد هدر وأضاع جزءاً من دخله، فضلاً عن أنه قد يحتاج إلى الاقتراض ليسد حاجة طرأت له لا يملك ثمنها، فيصبح عندئذ عجزاً في دخله. فنهى السنة عن هذا السلوك في الإنفاق حماية وحفظ لدخله من الهدر والضياع.

### المبحث الثالث:

## دور التشريعات الاقتصادية لحماية الدخل القومي في حماية الوطن

بعد الانتهاء من استعراض النصوص النبوية الشريفة، ودورها في حماية مصادر دخول الأفراد من جانبي: الوجود والعدم؛ نتبين في هذا المبحث دور التشريعات النبوية الاقتصادية ذات العلاقة بحماية الدخل القومي وأثرها في حماية الوطن. ولكن قبل ذلك لا بد أن نتبين مفهوم كل من: الوطن، وحماية الوطن، والأمن الفكري، والأمن الاقتصادي؛ وذلك توطئة لفهم علاقة حماية السنة للدخل الوطني لحماية لأمن الوطن. وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

### المطلب الأول: مفهوم حماية الوطن والمصطلحات المترادفة

الوطن هو المنزل الذي تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحلّه. والجمع أوطان، ومنه أوطن فلان أرض كذا وكذا أي اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيها.

أما المَواطن فكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موطن<sup>(٣)</sup>، فالوطن إذاً هو المكان الذي ينتمي إليه الإنسان، ويقوم فيه، ويعيش على ترابه، ويتربى فيه.

١- البخاري، صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده»، ج٧، ص١٤٠.

٢- الصنعاني، محمد بن إسماعيل، سبل السلام، ج٢، ص٦٢١.

٣- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ج١٣، ص٤٥١.

حماية الوطن، فالحماية تعني إبعاد الخطر عن الوجود الإنساني أو عن شيء موضوع الحماية<sup>(١)</sup>. وعليه فحماية الوطن تعني إبعاد كافة الأخطار. الأمنية والسياسية والدينية "التطرف" والاقتصادية. التي تخل بأمن الوطن، وتُضيق على المواطنين معيشتهم.

أما الأمن الفكري فهو "الاطمئنان إلى سلامة الفكر من الانحراف الذي يشكل تهديداً للأمن الوطني، أو أحد مقوماته الفكرية، والعقدية، والثقافية، والأخلاقية، والأمنية"<sup>(٢)</sup> لذا "فصحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله تعالى التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما"<sup>(٣)</sup>.

الأمن الاقتصادي هو أن يتحقق للفرد المستوى المعيشي الملائم "حد الكفاية" بحيث يملك الوسائل التي تمكنه من إشباع حاجاته الأساسية، وتهيئ له حياة آمنة ومستقرة<sup>(٤)</sup>. وعرف كذلك بأنه "تأمين الموارد والاحتياجات والمستلزمات التي تعطي الأمن والاستقرار، وتحفظ النفس، وتأمين وسائلها وطرق وصولها"<sup>(٥)</sup>. وعليه، يمكن القول: إن الأمن الاقتصادي يعني توفر مستوى جيد من الرفاهية والعيش الكريم لأفراد الدولة، وطريق تحقيق هذا وجود حجم دخل قومي مرتفع ومستقر. فالأمن الاقتصادي مرتبط بدخل قومي حقيقي ومرتفع وجوداً وعدمًا؛ فالعلاقة عكسية بينهما، لذا فحينما نتكلم عن الأمن الاقتصادي، فإننا نتكلم عن دخل قومي حقيقي إيجابي.

١- وردا، باسكال، الحماية: السبب الأساسي في انعدام الحماية هو الأحزاب السياسية، مؤتمر الأمم المتحدة، حماية الأقليات، ٢٠١٤، ص ١.

٢- المالكي، عبدا لحفيظ، نحو مجتمع آمن فكريًا، المؤتمر الأول للأمن الفكري «شعار المفاهيم والمصطلحات»، جامعة الملك سعود، ١٤٣٠هـ، ص ٥٣.

٣- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩١، ج ١، ص ٦٨.

٤- الحارثي، جريفة بن أحمد، العلاقة بين الأمن الاقتصادي والأمن الفكري «مدخل إسلامي» مجلة الاستراتيجية والتنمية، ٢٠١٦، ص ١٠٢.

٥- سقا، مرهف عبد الجبار، قراءة في مفهوم الأمن الاقتصادي في القرآن الكريم، مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية، ٢٠١٨، ص ٣.

## المطلب الثاني : دور حماية الدخل الوطني في حماية الوطن

بعد بيان مفهوم كل من الوطن، وحماية الوطن، والأمن الفكري، والأمن الاقتصادي؛ نتبين في هذا المطلب أثر حماية السنة للدخل القومي في حماية الوطن، وذلك على النحو الآتي:

إذا ما أمعنا النظر في الكتاب والسنة النبوية، سنجد ارتباطاً وثيقاً بين الأمن الاقتصادي - المتحقق بحجم واستقرار الدخل القومي - وبين الأمن من الخوف من أي خطر يهدد أمن الوطن والمواطن، قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۚ ﴾ (قریش ٤٣). ففي الآية جمع بين إطعامهم من جوع وآمنهم من خوف نعمة عظيمة؛ لأن الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين معاً، إذ لا عيش مع الجوع، ولا أمن مع الخوف، وتكمل النعمة باجتماعهما<sup>(١)</sup>. وجاءت السنة النبوية تؤكد هذا الارتباط بقوله ﷺ: "من أصبح آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا"<sup>(٢)</sup>. وعليه فإن هذا الارتباط يبين لنا أن العلاقة بين تحقق الأمن الاقتصادي . توفر مستوى عيش كريم "حد الكفاية" وبين تحقق الأمن من الخوف . حماية الوطن من الأخطار . علاقة تكاملية بمعنى أن كلاً منهما شرط ضروري للآخر، فلا عيش كريم إلا بتوفر الأمن، ولا أمن إلا بتوفر العيش الكريم. وتفصيل ذلك من خلال تحليل النصوص النبوية التي كفلت حماية دخول الأفراد "الدخل القومي" من خلال حماية مصادرها التي سبق بيانها سابقاً، وبيان ذلك على النحو الآتي:

بيننا سابقاً أن أي دولة - حتى يتسنى لها وضع سياستها الاقتصادية المستقبلية "كالسياسة المالية، والسياسة النقدية، وسياسة الموارد الطبيعية. . الخ" لتؤثر في الأنشطة الاقتصادية في مجتمعها وتوجيهها؛ لتحقيق الأهداف الاقتصادية المطلوبة "كالتنمية الاقتصادية مثلاً أو علاج التضخم أو تحقيق العمالة الكاملة - لا بد من الاعتماد على البيانات التي تبين حجم الدخل القومي، وأنّ الدخل القومي هو مؤشر لقياس مدى التطور والنمو والتقدم الاقتصادي لأي دولة، وأنه مقياس مستوى رفاهية الأفراد من خلال معرفة معدل نمو متوسط دخل الفرد الحقيقي، وأنه يساعد على

١- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، (د)، ط ١٩٩٥، ج ٩، ص ١١٢.

٢- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، ج ٤، ص ٥٧٤.

تحقيق عدالة التوزيع- كل هذه الأهداف يعتمد تحقيقها على حجم الدخل القومي الحقيقي. وبالتالي، فكلما كان حجم الدخل القومي الحقيقي مرتفعاً كلما تحقق أعلى مستوى من رفاهية الأفراد، وتوفّر العيش الكريم لهم، ولا شك أنّ ذلك سينعكس أثره على فكر المواطنين، فيصلح فهمهم، ويحسن قصدهم، لأنّ من أهم الأخطار التي تخل بأمن الوطن والمواطن الخطر الاقتصادي الذي يتمثل بعدم توفر أسباب العيش الكريم. لكن حينما ينعدم هذا الخطر ويتلاشى بتوفر دخل حقيقي يفي بكافة ضرورتهم وحاجاتهم؛ فلا يوجد لديهم مسوغ للتفكير فيما فيه إخلال بأمن الوطن واستقراره، إنّما يتولد لديهم الرضا عن أداء دولتهم والولاء للوطن، فيحرصوا على أمنه واستقراره، وذلك محافظة منهم على أمنهم وحرصهم وعلى مستوى عيشهم الكريم ورفاهيتهم، التي هي مطمع كل مواطن. وطريق هذا من خلال التزام الدولة والأفراد من خلال النظام الاقتصادي الرباني، الذي جاء بأحكامه الشرعية لتحمي أموال الأمة والأفراد " الدخل القومي " كسبا وإنفاقاً وتحافظ عليها.

وتأكيداً لهذه النتيجة، وزيادة في التوضيح، نعمد إلى تحليل ما جاءت به السنة النبوية من التشريعات الاقتصادية؛ لحماية دخول الأفراد " الدخل القومي "، وذلك على النحو الآتي:

بالعودة إلى النصوص النبوية التي سبق بيانها في المبحث الثاني نجد أنّها تضمنت خمس وسائل رئيسة هي:

١. عدالة التوزيع، من خلال نظام إعادة التوزيع المتمثل في الزكاة.
٢. تشجيع الاستثمار والتحذير من الاكتناز.
٣. الحث على العمل.
٤. ضبط الإنفاق وضبط الاستهلاك نموذجاً.
٥. حماية الأموال من الاعتداء عليها من كل أنواع الاعتداء: سرقة وغش ومخادعة في البيع ومماثلة... الخ

هذه الوسائل كلها تصب في وعاء الدخل القومي حماية لمدخله وحماية لمخرجه، وتحليل ذلك علة النحو الآتي:

١. **عدالة التوزيع:** تتحقق عدالة التوزيع بإعطاء كل ذي حق حقه دون بحس ولا تأخير، ومنع الظلم بجميع صورته وأشكاله<sup>(١)</sup>. ومن وسائل تحقيق عدالة التوزيع نظام إعادة التوزيع وهو: عبارة عن سحب جزء من الدخل الموزعة وظيفياً، وإعادة دفعها إلى مستحقين آخرين حسب اعتبارات غير وظيفية اجتماعية أو إنسانية، من خلال آلية الزكاة التي تعيد توزيع الدخل وبعض الثروات حولياً "كل عام" على أساس الحاجة، وتترك الزكاة آثاراً اقتصادية بالغة في البناء الاقتصادي والاجتماعي لعل من أبرزها: زيادة في الطلب الاستهلاكي بسبب نقل الدخل إلى الشرائح ذات الميول الحدية العالية للاستهلاك، وهذا هو الأثر المباشر، وفيه إشباع لحاجات الفقراء. وبهذا تحقق الزكاة التجانس في التركيب الاجتماعي، وتقلل من الفوارق الطبقيّة بين أبنائه معززة بذلك التكافل الاجتماعي، ومستلّة دواعي الحسد والضغينة من نفوس الفقراء حين يرون خير الأغنياء موصولاً إليهم<sup>(٢)</sup>؛ فتنشأ بين الطرفين المحبة والألفة، وتُحد من أسباب التشاحن والتباغض، ويتحقق الأمن والاستقرار<sup>(٣)</sup>.

٢. **تشجيع الاستثمار والتحذير من الاكتناز:** الاستثمار هو: توظيف الفرد المسلم. أو الجماعة المسلمة. ماله الزائد عن حاجاته الضرورية بشكل مباشر أو غير مباشر في نشاط اقتصادي لا يتعارض مع مبادئ الشرع ومقاصده العامة؛ وذلك بغية الحصول على عائد منه يستعين به ذلك الفرد المستثمر. أو الجماعة المستثمرة. على القيام بمهمة خلافة الله، وعمارة الأرض<sup>(٤)</sup>. والاكتناز هو الاحتفاظ بالثروة بغير استثمار سواء كانت عينية أو نقدية<sup>(٥)</sup>، وبما أنّ من المقاصد الرئيسية للاستثمار تحقيق الرفاهية الشاملة للفرد والمجتمع، فإنّ مهمة الاستثمار لا تتوقف عند تنمية المال وتداوله فحسب، وإنما تتجاوز إلى دائرة تحقيق الرفاهية والسعادة للفرد والمجتمع، وتحقيق هذا من خلال تمكن ناتج الاستثمار من إشباع الحاجات الأساسية، وإزالة

١- الحارثي، جريبة بن أحمد، العلاقة بين الأمن الاقتصادي والأمن الفكري "مدخل إسلامي، ص ٩٩.

٢- السبهاني، عبد الجبار، الوجيز في الفكر الاقتصادي الوضعي والإسلامي، دار وائل، عمان، ط ١، ٢٠٠١، ص ٢٨٠ - ٢٨٤ "تصرف".

٣- الطاهر، عبد الله الشيخ محمود، مقدمة في اقتصاديات المالية العامة، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٨هـ، ص ٨٩ - ٩٠.

٤- سانو، قطب مصطفى، الاستثمار أحكامه وضوابطه في الفقه الإسلامي، ص ٢٤.

٥- المرجع نفسه، ص ٤٥.

كافة الأسباب الرئيسة للمتاعب وتحسين نوعية الحياة معنوياً ومادياً<sup>(١)</sup>. وأي مجتمع يتحقق له هذه النعم لن يفكر أبناؤه إلا بما يحمي وطنهم من كل خطر يتهدد أمنه، لذلك حذرت الشريعة من كثر المال وحجبه عن السوق؛ لأنّ الاكتناز يحول دون تحقيق استدامة تنمية المال، وبالتالي سيحرم المجتمع من مقصد الاستثمار، مما يعني حرمان أفراد من تلك النعم، وعندها سيتسلل إليهم فكر الإرهاب والتدمير، والعبث في أمن الوطن ومدخراته.

٣. **الحث على العمل والكسب:** العمل هو أحد عناصر التوزيع الوظيفي، وهو بذل الجهد البدني أو العقلي للحصول على عائد يستعين به الفرد على إشباع حاجاته وضرورياته، ومتطلبات حياته. لذلك اهتمت الشريعة بالعمل، ودعت إليه، بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: ١٠)، ويقوله ﷺ: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بجزمة حطب على ظهره، فيبيعها، فيكفّ بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"<sup>(٢)</sup>. ولا شك أنّ بالعمل زيادة لدخول الأفراد، وزيادة للدخل القومي، ورفعاً للمستوى المعيشي لهم، وتحقيقاً للأمن الاجتماعي، وتقليلاً للجرمة بكل أنواعها، وبالتالي حماية للوطن من كل ما يهدد أمنه واستقراره.

٤. **ضبط الإنفاق (الاستهلاك) نموذجاً:** الاستهلاك في الاقتصاد الإسلامي هو "مجموعة التصرفات التي تشكل سلة السلع، والخدمات من الطيبات التي توجه إلى الوفاء بالحاجات والرغبات المتعلقة بأفراد المجتمع، التي تتحدد طبيعتها وأولوياتها باعتماد على القواعد والمبادئ الإسلامية، وذلك لغرض التمتع والاستعانة بها على طاعة الله تعالى<sup>(٣)</sup>. وما ينفقه المستهلك على السلع والخدمات؛ سعياً لتحقيق منفعة أو إشباع حاجة<sup>(٤)</sup>. وهو الشرط المادي لاستمرار حياة الإنسان. لذلك أوجبت الشريعة عليه أن يستهلك بالقدر الذي يكفل له هذا المقصد

١- شابرا، عمر، نحو نظام نقدي عادل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٢، ١٩٩٠، ص ٤٧.

٢- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة، ج ٢، ص ١٢٣.

٣- عبد الحميد، بوخاري، وزرفون محمد، دور الاقتصاد الإسلامي في ترشيد السلوك الاستهلاكي، بحث منشور في Iefpedia. com تاريخ ٢٠١١، ص ٩.

٤- مؤمن، أبو سليمان، المحتار بن العربي، الاستهلاك، شبكة الألوكة، ٢٠١٢.



دون إسراف ولا تجاوز في الحد. ومن هنا اعتنت الشريعة بتثقيف الاستهلاك، ودعت إلى الاعتدال في الإنفاق، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (٦٧) (الفرقان ٦٧). وقد أكدت السنة هذا المبدأ بقوله ﷺ: "كلوا، واشربوا، والبسوا، وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة"<sup>(١)</sup>. لذلك فالإنسان مأمور بالاعتدال، منهي عن الإسراف الذي هو تجاوز الحد في الكمية، فهو جهل بمقادير الحقوق<sup>(٢)</sup>، وبناءً على ما سبق فإن الزيادة في الاستهلاك فوق الحاجة سيكون له أثر على تدني دخله النقدي الحقيقي؛ لأنه أنفق جزءاً من دخله في حاجة أو ضرورة، هذا النقصان سيكون على حساب حاجات أخرى هو بحاجة لإشباعها؛ فيضطر عندها إلى سلوك تصرفات سلبية، كالسرقة أو الاحتيال أو الغش. . . الخ وغيرها من التصرفات التي فيها اعتداء على أموال الآخرين، فضلاً عن الأثر الصحي الذي سيكون سبباً في تدني مستواه الصحي، فيلحق الضرر بنفسه، لما سيصيبه من الأمراض<sup>(٣)</sup>، فيترتب عليه نفقات علاجية، ستكون على حساب مخصصات إنفاقه على حاجاته، وكلها في النهاية ستتسبب في تدني مستوى الرفاهية ومستوى العيش الكريم، وبالتالي سيكون لها الأثر في الإخلال بأمن الوطن والمواطنين.

٥. **صيانة المال من الاعتداء عليه:** تتمثل صيانة المال من الاعتداء عليه بتحريم أي تصرف أو أسلوب أو طريقة - غير ما شرع الله تعالى - يأخذ بها الإنسان مال الغير، وجماع ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٨) (البقرة ١٨٨)، وبقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٢٩) (النساء ٢٩)، وبقوله ﷺ: "إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم

١- البخاري، صحيح البخاري، ج٧، ص ١٤٠.

٢- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ج ١، ص ٢٤.

٣- انظر: للباحث السلوك الاستهلاكي ودوره في المحافظة على الصحة وتحقيق السعادة، بحث مقدم إلى منتدى فقه الاقتصاد الإسلامي الرابع: الابتكار والسعادة في نمط الحياة الإسلامي. رؤية استشرافية، المنعقد في دبي: ٢٢-٢٣/٤/٢٠١٨، ص ٢٣.

هذا<sup>(١)</sup>. إذا فلا يجوز لأي شخص أن يأخذ من مال الغير بالباطل: سرقة، ماطلة في سداد الدين، رشوة، منع الأجرة، غش. . . الخ، إنما يحلُّ له بما شرع الله تعالى كما في قوله تعالى: "إِلَّا أَنْ تَكُونُ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ . . . الْآيَةَ" وكما في قوله ﷺ: "ولا يحل لإمرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس"<sup>(٢)</sup>. وكما سبق بيانه أن الشريعة أوجبت العقوبة على كل من يعتدي على مال الغير، كقطع يد السارق مثلاً؛ وما ذاك إلا صيانة للمال عن الاعتداء عليه بغير حق، ولا شك أن هذه الصيانة للأموال هي حماية لدخول الأفراد، وحماية للدخل القومي، وبالتالي زيادة في رفع مستوى الرفاهية للأفراد، فيشعر كل فرد بالطمأنينة على مصدر عيشه، فيتولد لديهم ثقافة الانتماء لوطنه، مما يدفعه إلى كف فكره وجوارحه عن كل ما من شأنه أن يخل بأمن وطنه.

خلاصة القول، إن من مستلزمات حماية الوطن: حماية الدخل الوطني، وذلك بتحسين الأوضاع الاقتصادية للمواطنين؛ وصولاً إلى تحقيق الاستقرار الاقتصادي، وذلك من خلال تنمية اقتصادية حقيقية في الدولة تؤدي إلى توفير الأمن الاقتصادي أي توفير كافة متطلبات رفاهيتهم ومعيشتهم من ضرورات وحاجيات. وهذا ما جاءت به السنة النبوية، وقررت في تشريعاتها كما تم بيانه آنفاً.

**النتائج والتوصيات:** بعد هذا المنع من الله تعالى علينا بالانتهاء من بيان مفردات هذه الدراسة نخلص إلى النتائج التالية:

١. ليس العبرة فيما يكسبه الفرد من عدد الوحدات النقدية، إنما العبرة في كمية السلع والخدمات التي يمكن الحصول عليها من إنفاق دخله النقدي.
٢. إن مستوى الدخل القومي وتوزيعه على الأفراد هو من يحدد مستوى المعيشية للأفراد إيجاباً أو سلباً.
٣. كفلت السنة النبوية حماية دخول الأفراد من جانب الوجود ومن جانب العدم.

١- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ج ٢، ص ١٧٦، حديث رقم ١٤٧١.

٢- الحاكم، محمد بن عبدالله، المستدرک علی الصحیحین، ج ١، ص ١٧١، حديث رقم ٣١٨.

٤. حماية الوطن مرتبط بتحقيق الأمن الاقتصادي "حد الكفاية" وهو نوع من أنواع الأمن العام الذي يحفظ للوطن كيانه واستقراره وأمنه.
٥. العدالة الاجتماعية تتحقق بإعطاء كل ذي حق حقه دون بحس ولا تأخير، ومنع الظلم بجميع صوره وأشكاله.
٦. حماية الدخل الوطني من مستلزمات حماية الوطن، وذلك بتحسين الأوضاع الاقتصادية للمواطنين وصولاً إلى تحقيق الاستقرار الاقتصادي.
٧. الأمن الفكري هو أساس الأمن في كل مجالات الحياة، ولا يتحقق دون وجود الأمن الاقتصادي

#### التوصيات: يمكن للباحث أن يوصي بما يلي:

١. أن تسعى الدولة من خلال مؤسساتها التعليمية والتربوية إلى ترشيد السلوك الاقتصادي للأفراد من خلال تعليمهم الأحكام الشرعية للنشاط الاقتصادي: كسباً وإنتاجاً وإنفاقاً.
٢. العمل على نشر الوعي الفكري وأنّ من أسس حماية المجتمع توفر الأمن الفكري والفكر الاقتصادي، وهما مسؤولية الفرد والدولة.
٣. العمل على إدخال مقررات تعنى بالتربية الاقتصادية في المراحل التعليمية الأولية.

## المراجع

- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار طوق، ط ١، ١٤٢٢ هـ.
- ابن بطال، علي بن خلف، شرح صحيح البخاري، مكتبة الرشد. الرياض، ط ٢، ٢٠٠٣ م.
- ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة. بيروت، (د، ط) ١٣٧٩ هـ.
- ابن خزيمة أبو بكر محمد بن إسحاق، صحيح ابن خزيمة، تحقيق الأعظمي، المكتب الإسلامي. بيروت، (د، ط) (د، ت).
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية. بيروت، ط ١، ١٩٩١.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر. بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبو داود، المكتبة العصرية صيدا. بيروت، (د، ط) (د، ت).
- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. مصر، ط ٢، ١٩٧٥ م.
- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٩٨٣ م.
- الحارثي، جريبة بن أحمد، العلاقة بين المن الاقتصادي والأمن الفكري "مدخل إسلامي، مجلة الاستراتيجية والتنمية، ٢٠١٦ م.
- الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفی عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١١ - ١٩٩٠.
- حسين، م جيد علي، سعيد، عفان عبد الجبار، مقدمة في التحليل الاقتصادي الكلي، دار وائل، عمان، ط ١، ٢٠٠٤ م.
- سانو، قطب، الاستثمار "أحكامه وضوابطه في الفقه الإسلامي"، دار النفائس، عمان، ط ١، ٢٠٠٠ م.
- السبهاني، عبد الجبار، الوجيز في الفكر الاقتصادي الوضعي والإسلامي، دار وائل للنشر، عمان ط ١، ٢٠٠١ م.
- السبهاني، عبد الجبار، الاقتصاد الإسلامي: التوزيع، الموقع الشخصي، al-sabhany. Com.

## "حماية الدخل القومي في السنة النبوية..."

- سقا، مرهف عبد الجبار، قراءة في مفهوم الأمن الاقتصادي في القرآن الكريم، مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية، ٢٠١٨.
- شابرا، عمر، نحو نظام نقدي عادل ترجمة: سيد سكر، مراجعة: رفيق المصري، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٩٩٩م.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، دار عفان، ط١، ١٩٩٧م.
- الشباني، محمد عبدالله، المشكلة الاقتصادية وعلاجها من المنظور الإسلامي ٣، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي عدد ٧٩.
- الشمري، حسين عباس، أهمية دراسة الدخل القومي في البلد، شبكة جامعة بابل، ٢٠١٧م.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر - بيروت، (د)، ط١ ١٩٩٥م.
- صالح، تومي، مبادئ تحليل الاقتصادي الكلي، (د، ت)، (د، ط) صخري عمر، التحليل الاقتصادي الكلي ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط٥، ٢٠٠٥.
- الصنعاني، محمد بن إسماعيل، سبل السلام، دار الحديث، (د، ت) (د، ط).
- الطاهر، عبد الله الشيخ محمود، مقدمة في اقتصاديات المالية العامة، نشر جامعة الملك سعود. الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.
- عبد الحميد، بوخاري، وزرفون محمد، دور الاقتصاد الإسلامي في ترشيد السلوك الاستهلاكي، بحث منشور في Iefpedia. com تاريخ ٢٠١١م.
- كاسو، هالة جريدة الوحدة، الاستثمار والتنمية، ٢٠١٦، عدد "٨٦٩٢".
- المالكي، عبد الحفيظ عبدالله، نحو مجتمع آمن فكرياً كنموذج مقترح لبناء استراتيجية وطنية شاملة لتحقيق الأمن الفكري، دراسة مقدمة للمؤتمر الأول للأمن الفكري، تحت شعار "المفاهيم والمصطلحات" بجامعة الملك سعود، ١٤٣٠هـ.
- محمد بن فتوح بن عبد الله، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: علي حسين البواب، دار ابن حزم - لبنان/ بيروت ط٢، ٢٠٠٢م.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسن، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي -

بيروت، (د)،(د، ط).

- مهيدات، محمود فهد، السلوك الاستهلاكي ودوره في المحافظة على الصحة وتحقيق السعادة، بحث مقدم إلى منتدى فقه الاقتصاد الإسلامي الرابع: الابتكار والسعادة في نمط الحياة الإسلامي . رؤية استشرافية، المنعقد في دبي: ٢٣.٢٢ / ٤/ ٢٠١٨.
- مؤمن، أبو سليمان، المختار بن العربي، الاستهلاك، شبكة الألوكة، ٢٠١٢
- وردا، باسكال، الحماية: السبب الأساسي في انعدام الحماية هو الأحزاب السياسية، مؤتمر الأمم المتحدة عن حماية الأقليات، ٢٠١٤.
- uomustansiriyah. edu. iq ، الاستثمار المفهوم - الأهمية - الأصناف - المبادئ، ٢٠١٧م.

مكانة حماة الوطن والشهداء وحقوقهم في السنة  
النبوية وأثر ذلك في حماية الوطن

الدكتور / باسم حسن وردة  
وزارة الأوقاف - المملكة الأردنية الهاشمية







## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:

أوطاننا هي أرض الله التي استخلفنا فيها لعمارها بأفضل شكل ممكن وفق منهج الله عز وجل، وهذه الأوطان تحتاج إلى حماة يحمونها من كيد الأعداء الذين يخالفون شريعتنا ويتربصون بنا ويطمعون بثرواتنا، وما أكثرهم في هذا الزمان.

يجب على كل دولة إسلامية أن تهيئ حماة الوطن، وأن تحسن اختيارهم وإعدادهم وتدريبهم وإعطائهم حقوقهم حتى يقوموا بواجبهم في حماية الوطن خير قيام، كما يجب على الدولة في حال استشهادهم أن تكرمهم وترعى أولادهم وأسرتهم خير رعاية.

لقد اهتمت السنة النبوية المطهرة بهذا الموضوع وأولته عناية فائقة، ويهدف هذا البحث إلى بيان مدى اهتمام السنة النبوية المطهرة في إبراز مكانة حماة الوطن والمجاهدين والمرابطين، وصفات الجندي المسلم وواجباته وحقوقه التي تكفل له القيام بواجبه خير قيام في حماية الوطن، وكذلك يهدف البحث إلى إبراز مكانة الشهداء وميزاتهم وفضائلهم، وما أعده الله لهم من نعيم وكرامة، وكذلك بيان حقوق أولادهم وأسرتهم التي تكفل لهم العيش الكريم بعد فقدان معيلهم، وبيان أثر كل ذلك في حماية الوطن.

**الدراسات السابقة:** وجدت بعض الدراسات التي لها صلة بهذا الموضوع منها:

- (١) (القيادة والجنودية في السنة النبوية) رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية بغزة للباحث طاهر النحال، منشورة على الشبكة العالمية.
- (٢) (التعبئة الجهادية في الإسلام) كتاب للكاتب أحمد المومني، دار الأرقم عمان.
- (٣) (أحكام الشهيد في الفقه الإسلامي) كتاب تأليف: عبدالرحمن بن غرمان بن عبدالله، دار البيان الحديثة، السعودية.

(٤) (إتحاف النبلاء بفضل الشهادة وأنواع الشهداء) كتاب للكاتب عبدالله الغماري، عالم الكتب، بيروت.

هذه الدراسات تطرقت إلى بعض جوانب البحث كصفات وواجبات الجندي المسلم، وحقوق الجندي ومكانة الشهداء وحقوقهم، لكن لم تتطرق إلى أثر كل ذلك في حماية الوطن، وهو ما أضافه هذا البحث.

## المبحث الأول: مكانة حماة الوطن وحقوقهم في السنة النبوية

### المطلب الأول: أهمية الجيش لحماية الوطن في ضوء السنة النبوية

الوطن هو: مكان إقامة الإنسان ومقره، وإليه انتماؤه ولد فيه أم لم يولد<sup>(١)</sup>، وهو المكان الذي يعيش فيه جماعة من الناس لفترة تاريخية طويلة، وهو مستقر الآباء والأجداد، وفيه ترعرع الأبناء، وارتباط هويتهم به، وانتماءهم ومحبتهم له.

وقد عبر النبي ﷺ عن حبه لوطنه مكة بقوله: "مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ"<sup>(٢)</sup>.

والوطن بحاجة إلى حماة له من كل المخاطر التي تواجهه خارجيًا وداخليًا، فكل وطن له أعداء، وقد كان هذا الأمر في بداية العهد الإسلامي يقع على عاتق كل المسلمين، حيث كان الصحابة - رضوان الله عليهم - جميعًا تحت قيادة الرسول ﷺ إذا شعروا بأي خطر يهدد وطنهم يهبون جميعًا للدفاع عنه كما حصل في غزوات أحد والخندق وتبوك وغيرها، ويعد ذلك من أوجب واجبات الإسلام، لكن بعد أن توسعت الدولة الإسلامية توجه الخلفاء إلى تشكيل جيوش إسلامية متخصصة للدفاع عن دولة الإسلام من كيد الكائدين وتآمر المتآمرين.

وإن الصراع بين الحق والباطل قدس قدم البشرية، ولا بد لكل أمة تطمح في أن تعيش حياة عزيزة وكريمة أن يكون لها قوة تعتمد عليها وتحميها من أعدائها، وقوة الأمة تكون بجيشها المكون

١- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ١٠٤٢/٢.

٢- الترمذي، السنن، أبواب المناقب، باب فضل مكة، حديث رقم ٣٩٢٦. صححه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، ٢/٨٣٢، حديث رقم ٢٧٢٤.

من أبنائها الأشداء.

ويمكن بيان أهمية الجيش في حماية الوطن بما يأتي:

**أولاً: الجيش يحفظ للأمة هيبتها:** إن وجود جيش قوي للدولة يجعل أعداءها يهابونها، ويحسبون لها ألف حساب، ويجعل للأمة القدرة على فرض إرادتها على الآخرين، وأن يكون قولها مسموعاً وأمرها مطاعاً، بينما الأمة إن كانت بلا جيش أو بجيش ضعيف تكون عرضة للعدوان والذل والهوان، ويطمع بها المعتدون، ولا يسمع لها قول، ولا يطاع لها أمر.

وقد اعتنى الرسول ﷺ بتكوين جيش إسلامي بعد الهجرة من مجموع الصحابة - رضوان الله عليهم - ليكون حارساً أميناً للدولة الإسلامية متمثلاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٦٠) (١)، وحرص النبي ﷺ على أن يكون الجيش قوياً متدرّباً على أحدث فنون القتال، ولم يكتف بما عند العرب من فنون القتال فقد روي عنه ﷺ أنه أرسل خالد بن سعيد بن العاص ﷺ إلى مدينة جرش والتي كانت تحت حكم الرومان ليتعلم صناعة الدبابات (٢)، وما لبثوا أن أتقنوا هذا الفن من فنون القتال، واستخدموا الدبابات في حصار الطائف (٣).

وقد كان لهذا الجيش بالغ الأثر في المحافظة على الدولة الإسلامية الفتية، حيث ملأ أعداء المسلمين رعباً، وقطع عليهم سبل الاعتداء عليها والنيل منها، فلولا الله ثم هذا الجيش لانقض عليهم أعداؤهم من المشركين واليهود والمنافقين وقضوا على دولتهم الفتية، ولما أذعنت قبائل يهود قينقاع وقريظة وخيير إلى أمر الرسول ﷺ، ولما استسلم أهل مكة يوم فتحها وهم الذين أخرجوا الرسول ﷺ وصحابته منها.

**ثانياً: الجيش يوطد أركان الدولة ويحافظ على مقومات الأمة:** الجيش سياج الأمة

١ - سورة الأنفال، آية (٦٠).

٢ - الدبابة: الدبابة تتخذ من خشب يغشى بالجلد يحتمي بها الرجال ويتقدمون بها إلى الحصون لدق جدرانها ونقبها (المعجم الوسيط ١/٥٣٣).

٣ - الواقدي، المغازي، ٩٢٣-٩٢٧/٣. ومحمود شيت خطاب، العسكرية العربية الإسلامية، ص ١٦٦.

وحصنها المنيع وحارسها الأمين، فهو يحفظ للأمة دينها ويهيئ لها حرية ممارسة عباداتها وتطبيق شريعتها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (٤٠).<sup>(١)</sup>

والجيش يحفظ للأمة أرضها من الاحتلال، وأموالها من السلب والنهب، وأعراضها من الانتهاك، وأبناءها من القتل والأسر، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (٢١).<sup>(٢)</sup> وأمتنا مستهدفة من أعدائها عبر التاريخ الإسلامي، يتربصون بها الدوائر كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (٢٧).<sup>(٣)</sup>

والدليل على استهداف أمتنا من قبل أعدائها تلك الغزوات التي خاضها النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم دفاعاً عن هذه الأمة، وفي مقدمتها غزوات بدر وأحد والخندق وتبوك، وغزوات اليهود المتتالية، وتلك المعارك التي خاضها سلفنا الصالح بعد رسول الله ﷺ دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وفي طليعتها معركة عين جالوت التي تصدى فيها المسلمون للتتار الذين غزوا ديار المسلمين وأفسدوا فيها شر الفساد، فرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وأعز الإسلام ونصر المسلمين<sup>(٤)</sup>.

ثالثاً: تحقيق فريضة الجهاد في سبيل الله: الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، شرع للذود عن الدين والدفاع عن الأوطان والحرمات وصد العدوان، وقد حث القرآن الكريم على الجهاد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيقِ نُجُومِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

١- سورة الحج، آية (٤٠).

٢- سورة البقرة، آية (٢٥١).

٣- سورة البقرة، آية (٢١٧).

٤- انظر: أحمد سالم ملحم، دراسات إسلامية في الفكر والثقافة والسلوك، ص ٤٧٤.

﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرَ مَنْ آتَى اللَّهَ وَفَنَحْ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾<sup>(١)</sup>، وذكر ابن كثير في تفسير هذه الآيات أن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليتعلموه، فأنزل الله تعالى هذه السورة، ومنها هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَقٍ يُجِيعُكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

كما وحث النبي ﷺ على الجهاد والرباط في أحاديث كثيرة، وبوبت كتب الحديث كتباً وأبواباً لأحاديث الجهاد، ومن هذه الأحاديث: حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: "سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ"<sup>(٣)</sup>. وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصَدِيقُ كَلِمَاتِهِ، بَأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ"<sup>(٤)</sup>.

**رابعاً: الرباط وحراسة الحدود:** من أهم واجبات الجيش الرباط وحراسة الحدود من الأعداء، ومن المهربين المجرمين، الذين يقومون بتهريب مواد ضارة ومدمرة للمجتمع كالمخدرات وغيرها.

وقد حث النبي ﷺ على الرباط وحراسة الحدود في أحاديث كثيرة منها: حديث سلمان رضي الله عنه قال: "رِبَاطٌ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ"<sup>(٥)</sup>. وحديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "رِبَاطٌ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا"<sup>(٦)</sup>.

**خامساً: المحافظة على الأمن الداخلي:** فكما أن من مسؤوليات الجيش المحافظة على الدولة ودرء الأخطار الخارجية عنها، فإن من مسؤولياته أيضاً تأمين الأمن والعيش الكريم على الصعيد الداخلي، وفي حالة خروج فئة من المسلمين على النظام العام وهم (البغاة) كما أطلق عليهم الفقهاء، فالواجب حل هذا الخلاف بالطرق السلمية، أولاً بالحكمة والموعظة الحسنة

١- سورة الصف، الآيات (١٠-١٣).

٢- ابن كثير، التفسير، ٤/٣٦١.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل، حديث رقم ٢٥١٨.

٤- المصدر السابق، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، حديث رقم ٣٦. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم ١٨٧٦.

٥- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله، حديث رقم ١٩١٣.

٦- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٩٢.

والمجادلة والتي هي أحسن، فإذا تعذر ذلك معهم فيجب قتال تلك الفئة حتى ترجع إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١).

وقال ابن عاشور في تفسير هذه الآية "وإنما جعل حكم قتال الباغية أن تكون طائفة لأن الجماعة يعسر الأخذ على أيدي ظلمهم بأفراد من الناس وأعوان الشرطة، فتعين أن يكون كفهم عن البغي بالجيش والسلاح، وهذا في التقاتل بين الجماعات والقبائل، فأما خروج فئة عن جماعة المسلمين فهو أشد وليس هو مورد هذه الآية ولكنها أصل له في التشريع". (٢)

وقد حذر النبي ﷺ من الخروج عن طاعة ولي الأمر ومخالفة جماعة المسلمين فقال ﷺ: "مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً" (٣).

مما سبق يتبين لنا أهمية الجيش في حماية أوطاننا في هذا الزمان الذي اشتدت فيه الخطوب، وكثر فيه الأعداء الذين يطمعون ببلادنا وثرواتنا ومقدساتنا، فيجب على بلداننا الإسلامية أن تكون جيوشها على مستوى عالٍ من الإعداد والتدريب والتسليح لمواجهة كل الأخطاء المحتملة، للحفاظ على هيبة الأمة، وتوطيد أركان الدولة ومقومات الأمة، ويجب أن يكون الجيش قادراً على حراسة كل حدود الدولة البرية والجوية والبحرية، وحمايتها من الاختراق بأي شكل من الأشكال من الأعداء المتربصين بها.

ويجب على جيوشنا حماية أوطاننا من المهربين المجرمين الذي يهربون المخدرات والسلاح وجميع الممنوعات التي تضر بالمجتمع، وتؤثر في استقرار الوطن، وكذلك يجب على الجيش والأجهزة الأمنية المختلفة المحافظة على الأمن الداخلي والسلم المجتمعي، ومنع حدوث الفتن والصراعات بين عناصر المجتمع من جهة، وبين المجتمع والدولة من جهة أخرى.

١- سورة الحجرات، آية (٩).

٢- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ٢٤٠/٢٥.

٣- مسلم، الصحيح، كتاب الإمامة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، حديث رقم: ١٨٤٨.

خلاصة الأمر كلما كان الجيش قويا بمختلف فروع وأجهزته وأفراده تدريبا وتسليحا، كان قادرا على مواجهة كل الصعاب والخطوب التي تواجه الوطن، وكلما كان ضعيفا إعدادا وتدريباً وتسليحاً تزداد المشاكلات التي تواجه الوطن، ويسهل على أعداء الخارج والداخل زعزعة استقرار الوطن ونشر الفوضى فيه، وربما التمكن من احتلال بعض أجزائه وسرقة ثرواته وإذلال أفراده.

### المطلب الثاني: صفات وواجبات الجندي في السنة النبوية

يجب أن يتصف الجندي المسلم بصفات كثيرة أهمها:

**أولاً: الولاء والإخلاص لله عز وجل:** الولاء هو "النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً"<sup>(١)</sup>، وهي كلمة جامعة واسعة تجمع معاني التصور والفكر والعاطفة والشعور والعمل والسعي.

من أجل هذا كان الولاء من أوسع الأمور التي اهتم القرآن والسنة به، من جميع الجوانب الفكرية والنفسية والعملية، وربطها ربطاً موثقاً مع جميع قضايا الإيمان والتوحيد، وامتد عرض قضية الولاء في منهاج الله لتدخل كل ميادين الممارسة الإيمانية في واقع المؤمن الفرد وواقع الأمة المسلمة، حيث امتد هذا العرض من خطرات النفس إلى البيت والأسرة، إلى التجارة والمعاملات وإلى السياسة والحروب وميادين القتال<sup>(٢)</sup>.

والجندي المسلم يجب أن يكون ولاؤه خالصاً لله عز وجل وللمؤمنين ولا يجوز أن يعطي ولاءه لغير المسلمين أعداء أمته ووطنه، ويجب أن يكون هدفه الأسمى إرضاء الله عز وجل وإعلاء راية الحق، وأن تكون كلمة الله هي العليا، ففي الحديث الشريف الذي رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيرى مكانه فمن في سبيل الله قال: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"<sup>(٣)</sup>.

١- محمد بن سعيد القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام، ص ٨٩-٩٠.

٢- انظر: عدنان علي النحوي، الولاء بين منهاج الله والواقع، ص ١٠-١١.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد السير، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، حديث رقم ١٩٠٤.

هذه الصفة؛ صفة الولاء والإخلاص لله عز وجل، تدفع الجندي إلى الالتزام بتقوى الله عز وجل في عمله وعدم الغفلة في أداء واجباته في حماية وطنه، وبذل قصارى جهده في ذلك بما يرضي الله عز وجل.

**ثانياً: الإكثار من الذكر والدعاء:** ينبغي للجندي المسلم خاصة عند لقاء العدو أن يكثر من الذكر والدعاء، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) .<sup>(١)</sup>

وقد كان النبي ﷺ القدوة بالإكثار من الذكر والدعاء عند لقاء العدو والأمثلة على ذلك كثيرة منها في غزوة بدر حيث كان يكثر من الدعاء ويقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أُنشِدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعَبِّدْ بَعْدَ الْيَوْمِ. فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ أَحْحَتْ عَلَيَّ رَبِّكَ<sup>(٢)</sup>. وفي غزوة الأحزاب دعا على الأحزاب الذين جاؤوا لغزو المدينة وقال: (اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِي السَّحَابِ وَهَازِمِ الْأَحْزَابِ اهْزِمِهِمْ وَأَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ).<sup>(٣)</sup>

إن الدعاء الصادر من قلب مخلص من أقوى الأسلحة التي يمتلكها المسلم؛ لذا على الجندي أن يكثر من الدعاء بقلب مخلص - خاصة عندما تشتد الخطوب- بأن يحمي الله أوطاننا من كيد الأعداء، وأن يرد كيدهم إلى نحورهم، مع تحري الأوقات التي يستجاب فيها الدعاء كجوف الليل وفي السجود ودبر الصلوات المكتوبات.

**ثالثاً: الصبر:** فقد كان الصبر من وصية النبي ﷺ لجنوده خاصة عند لقاء العدو، كما جاء في حديث عبدالله بن أبي أوفى (رضي الله عنه) "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا، أَنْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ. ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَاقِبَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّيُوفِ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِي

١- سورة الأنفال، آية (٤٥).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، حديث رقم ٢٩١٥.

٣- المصدر السابق، كتاب الجهاد والسير، باب لا تتمنوا لقاء العدو، حديث رقم ٣٠٢٥. وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو، حديث رقم ١٧٤٢.



السَّحَابِ وَهَازِمِ الْأَحْزَابِ اهْزَمَهُمْ وَأَنْصَرْنَا عَلَيْهِمْ"<sup>(١)</sup>.

وبشر النبي ﷺ الذي يقاتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر أن يكفر الله عن خطاياها، وذلك ليؤكد لنا على أهمية الصبر في القتال، كما جاء في حديث أبي قتادة ﷺ "أن رسول الله ﷺ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ: أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٍ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ قُلْتَ؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدِّينَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ"<sup>(٢)</sup>.

هذه الصفة العظيمة التي يجب أن يتصف بها جند الإسلام، لها بالغ الأثر في حماية الوطن، لأن الوطن ربما يتعرض في لحظة ما لخطر محقق، وهذا يتطلب من الجندي الصبر وعدم التخاذل والاستسلام، لأن النصر مع الصبر.

**رابعاً: الطاعة والانضباط العسكري:** وهو التزام الجندي بأوامر قيادته التزاماً دقيقاً، لأن عدم التزام الجنود بأوامر قيادتهم قد يحول النصر إلى هزيمة، كما حصل في غزوة أحد عندما أمر النبي ﷺ الرماة بأن لا يتركوا مكائهم مهما كان الأمر، وقال لهم: "لا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا"<sup>(٣)</sup> لكنهم لما رأوا هزيمة المشركين تركوا مكائهم، إلا أميرهم عبدالله بن جبير مع عدد قليل منهم ﷺ، وشاهد ذلك خالد بن الوليد، وكان مع المشركين فالتف من ورائهم وقتل من تبقى من الرماة ﷺ، وباغت المسلمين من الخلف، وتحول نصر المسلمين إلى هزيمة نتيجة مخالفة الرماة<sup>(٤)</sup>.

١- تخريج الحديث: مثل الحديث السابق لأنه جزء منه.

(٤) مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياها إلا الدين، حديث رقم

١٨٨٥.

٢- (٥) البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، حديث رقم ٤٠٤٣.

٣-

٤- انظر: محمد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ص ١٥٢-١٥٤.

ما حدث في غزوة أحد كان حالة نادرة، حيث كان الوضع الطبيعي لجند الصحابة رضوان الله عليهم قمة الانضباط والسمع والطاعة، والذي كان له بالغ الأثر في انتصار المسلمين في مواقع كثيرة، وأضرب مثلاً على الانضباط العسكري ما حصل في غزوة مؤتة حيث نظم النبي ﷺ الجيش، وأمر عليهم زيد بن حارثة رضي الله عنه وقال لهم: "إِنَّ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعَفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ"<sup>(١)</sup> فالتزم الجيش بأمر النبي ﷺ فكانت النتائج باهرة.

وقد أمر النبي ﷺ بالسمع والطاعة للقائد المسلم ما لم يأمر بمعصية بغض النظر عن أصله ولونه فقال: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيئَةٌ"<sup>(٢)</sup>.

واهتمت الأنظمة العسكرية الحديثة بهذه الصفة، ولكنها تستخدم القوة والقهر والقسوة في الحصول على الطاعة، وربما قتل الجندي إذا رفض الأمر وهو على العكس في الإسلام، فإن القائد يأمر جنده بالطاعة ضمن حدود الاستطاعة، والجنود يلبون أوامر القادة تنفيذاً لأمر الله عز وجل ورسوله ﷺ وبذلك تبقى الروح المعنوية عندهم عالية، وقد ظهر هذا جلياً في الغزوات والفتوحات الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

إن الطاعة والانضباط العسكري من أهم الصفات التي يجب أن يتصف بها الجندي من أجل حماية الوطن، لأنه في حالة عدم انضباط الجنود بتنفيذ أوامر قيادتهم، فإن ذلك يؤدي إلى الفوضى في البلاد، وسهولة اختراق الأعداء للوطن، ويترتب على ذلك أخطار محدقة بالمجتمع والوطن.

**خامساً: أن يكون الجندي صاحب همة عالية:** ينبغي للجندي أن يكون صاحب همة عالية، لأنه بمقدار ما تكون همته عالية يستطيع القيام بالواجبات الموكلة له بشكل أفضل وأسرع، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى في الحديث "مَنْ خَيْرٍ مَعَاشٍ<sup>(٤)</sup> النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمَسِّكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً<sup>(٥)</sup> أَوْ فِرْعَةً طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ

١- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، حديث رقم ٤٢٦١.

٢- المصدر السابق، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث رقم ٧١٤٢.

٣- انظر: أحمد المومني، التعبئة الجهادية في الإسلام، ص ٦٩.

٤- معاش: أي من خير أحوال عيشهم (شرح النووي على مسلم، ١٣٧/١٣).

٥- هية: الصوت الذي تفرع منه وتخافه من عدو (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ص ١٠٠٤).

مَظَانَّةٌ<sup>(١)</sup>. قال النووي: "أي يطلب الموت في موطنه التي يرجى فيها لشدة رغبته في الشهادة"<sup>(٢)</sup>.

وقد أرشد النبي ﷺ إلى أن المؤمن القوي بجسده وعزمته، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف فقال ﷺ: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ"<sup>(٣)</sup>، وقال النووي: " المراد بالقوة هنا عزيمة النفس، والقريحة في الأمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه، وذهابًا في طلبه"<sup>(٤)</sup>.

عندما يكون جند الوطن يتصفون بالهمم العالية، فإن هذا الأمر يدفعهم إلى التفاني في أداء واجباتهم، واليقظة لمؤامرات أعدائهم، والاستبسال في حماية وطنهم والدفاع عنه بشتى السبل الممكنة.

**سادسًا: الحرص على التدريب العسكري باستمرار:** يجب على الجندي التدريب على الفنون العسكرية، خاصة التخصص الذي تم وضعه فيه، وذلك لا يكون إلا بالحرص على ممارسة التدريب باستمرار حتى يكون دائمًا على أهبة الاستعداد للقيام بواجبه إذا تم توكيل مهمة له من المهمات العسكرية، أو حصل اعتداء على وطنه.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم حريصين على التدريب العسكري على الفنون العسكرية المعروفة آنذاك، والتي كان من أهمها الرماية "رماية الرماح والسهام والنبل"، ومما يدل على ذلك حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: "مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ<sup>(٥)</sup> يَنْتَضِلُونَ<sup>(٦)</sup> فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ" قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ" قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ

١- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، حديث رقم ١٨٨٩.

٢- النووي، شرح صحيح مسلم، ١٣/٣٨.

٣- مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير إلى الله، حديث رقم ٢٦٦٤.

٤- النووي، شرح صحيح مسلم، ١٦/٤٣١.

٥- أي من بني أسلم، قبيلة مشهورة (فتح الباري، ٦/١٨٨).

٦- انتضل القوم وتناضلوا: أي رموا للسبق (مختار الصحاح، ص ٦٦٥).

مَعَهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ"<sup>(١)</sup>.

فهذا الحديث يدل على أن الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا حريصين على التدريب على الرماية، التي كانت من أهم الفنون العسكرية في ذلك الوقت.

إن التحديات الكثيرة والكبيرة، التي تواجهها الدول الإسلامية في هذا الزمان، تتطلب من حماة الوطن أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لمواجهة هذه التحديات، وهذا الأمر يستلزم التدريب العسكري باستمرار ليكونوا دائماً جاهزين للدفاع عن الوطن وحمايته من الأخطار التي قد يتعرض لها في أي لحظة.

**سابعاً: حماية القيادة:** من أهم واجبات الجنود حماية القيادة، وقد ضرب لنا الصحابة رضوان الله عليهم أروع الأمثلة في هذا الجانب، في مواقف كثيرة خاصة ما حصل في غزوة أحد حينما انقلب نصر المسلمين إلى هزيمة بسبب مخالفة الرماة، وحاول المشركون قتل النبي ﷺ، لكن استبسل الصحابة رضوان الله عليهم بالدفاع عن النبي ﷺ وقد ورد في ذلك أحاديث عديدة، منها:

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَهَقُوهُ<sup>(٢)</sup> قَالَ: مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ. فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهَقُوهُ أَيْضًا، فَقَالَ: مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ. فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ"<sup>(٣)</sup>.

- عَنْ أَنَسِ بْنِ رَضِيٍّ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ

١- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، وقول الله عز وجل:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾<sup>(٦٠)</sup>

الأنفال: ٦٠، حديث رقم ٢٨٩٩

٢- رهقوه: أي غشوه وقرّبوا منه (النووي، شرح صحيح مسلم، ١٢/٣٥٨).

٣- مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، حديث رقم ١٧٨٩.

يَدِي النَّبِيِّ ﷺ مُجَوَّبٌ<sup>(١)</sup> بِهِ عَلَيْهِ بِحَجْفَةٍ<sup>(٢)</sup> لَهُ، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلًا رَامِيًا شَدِيدَ الْقَدِّ<sup>(٣)</sup>، يَكْسِرُ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الْجَعْبَةُ مِنَ النَّبْلِ، فَيَقُولُ: انْشُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ فَأَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ، فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، لَا تُشْرِفْ يُصَيِّكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نُحْرِي دُونَ نَحْرِكَ<sup>(٤)</sup>.

- بقي طلحة بن عبيد الله ﷺ يدافع عن النبي ﷺ يوم أحد حتى شلت يده كما جاء في حديث قيس بن أبي حازم ﷺ قال: "رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَاءً، وَفَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ"<sup>(٥)</sup>.

إن القيادة بالنسبة إلى الجيش، وبالنسبة للوطن كالرأس للجسد، فهي العقل المدبر للجيش والوطن، وهي التي تضع الخطط والأهداف وتدير المعركة، لذا كان من أهم واجبات حماة الوطن هو حماية القيادة، لأنه إن أصيبت القيادة فإن ذلك يزعزع صفوف الجنود، وينشر الفوضى في البلاد، مما يسهل على الأعداء تنفيذ مؤامراتهم تجاه الوطن.

هذه الصفات العظيمة التي اتصف بها جند الإسلام في عصر النبوة وما بعدها، هي التي مكنتهم من الانتصار على أعدائهم في معظم المعارك التي خاضوها على الرغم أنهم كانوا في أغلب الأحيان أقل عددًا وعتادًا من أعدائهم، كما حدث في معارك بدر وتبوك ومؤتة واليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت وغيرها.

### المطلب الثالث: حقوق الجندي في السنة النبوية

اهتمت السنة النبوية المطهرة ببيان حقوق الجندي، ولعل من أهم هذه الحقوق:

**أولاً: مراعاة أحوالهم والرفق بهم والحرص على سلامتهم:** القائد الناجح يجب أن يراعي أحوال جنوده، فيحافظ عليهم وعلى سلامتهم ويرفق بهم، كما كان يفعل النبي ﷺ حيث

١- محبوب: مترس عليه يقبه بها (ابن حجر، فتح الباري، ٧/٥٠٧).

٢- الححفة: الترس (فتح الباري، ٧/٥٠٧).

٣- القد: سير من جلد غير مدبوغ، ويريد أنه شديد وتر القوس (فتح الباري، ٧/٥٠٧).

٤- البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب أبي طلحة رضي الله عنه، حديث رقم ٣٨١١.

٥- (٧) المصدر السابق، كتاب المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ (١٤٣) آل عمران: ١٢٢، حديث رقم ٤٠٦٣.

روى جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ، فَيُرْجَى <sup>(١)</sup> الضَّعِيفَ وَيُرْدَفُ <sup>(٢)</sup>، وَيَدْعُو لَهُمْ <sup>(٣)</sup>."

كما كان النبي ﷺ يعتني بالجنود المصابين، ويحرص على أن يكون قريباً منهم حتى يطمئن على أحوالهم باستمرار، كما فعل مع سعد بن معاذ رضي الله عنه يوم الخندق، حيث روت السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: "أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي الْأَكْحَلِ <sup>(٤)</sup>، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ لِيُعَوِّدَهُ مِنْ قَرِيبٍ" <sup>(٥)</sup>.

وكذلك كان القادة بعد رسول الله ﷺ يراعون أحوال جندهم، ومثال على ذلك الكتاب الذي أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النعمان بن مقرن أمير الجيوش في معركة نهاوند وجاء فيه: "فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَسِرْ بِأَمْرِ اللَّهِ وَبِعَوْنِ اللَّهِ وَبِنَصْرِ اللَّهِ بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُؤْطِئْهُمْ وَعَرًّا فَتُؤْذِيَهُمْ، وَلَا تَمْنَعُهُمْ حَقَّهُمْ فَتُكْفِرَهُمْ، وَلَا تُدْخِلْهُمْ غِيْضَةً <sup>(٦)</sup>، فَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ" <sup>(٧)</sup>.

إن مراعاة القيادة لأحوال الجنود والرفق بهم تدفعهم إلى حب قيادتهم والإخلاص في طاعتهم وتنفيذ أواميرهم، وكل ذلك ينعكس إيجابياً لمصلحة حماية الوطن، بينما في حالة عدم مراعاة القيادة لأحوال الجنود وعدم الرفق بهم، فإن ذلك يشعرهم بالسخط والامتعاض وعدم احترام أوامر القيادة، وربما يدفعهم إلى الانقلاب على القيادة كما يحصل في بعض الانقلابات العسكرية في هذا الزمان، وكل ذلك ينعكس سلباً على حماية الوطن.

١- فيرجى الضعيف: أي يسوقه ليلحقه بالرفاق (النهاية في غريب الحديث، ٢/٧١٧).

٢- يردف: يركبه خلفه (المعجم الوسيط، ١/٣٣٩).

٣- أبو داود، السنن، كتاب الجهاد، باب في لزوم الساقة، حديث رقم ٢٦٣٩. سكت عنه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ٢/٥٢٧، ح ٢٢٩٨. وفي السلسلة الصحيحة، ٥/١٥٥، ح ٢١٢٠.

٤- الأكحل: عرق في وسط الذراع (النهاية في غريب الحديث، ص ٧٨١).

٥- البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة، باب الخيمة في المسجد للمرضى وغيرهم، حديث رقم ٤٦٣.

٦- الغيضة: الشجر الملتف، (النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٦٧٤).

٧- ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/١٠٥.

**ثانياً: استشارتهم واحترام آرائهم:** القائد الناجح يحترم آراء جنده ويستشيرهم، ويشركهم في قراراته، ورسولنا ﷺ كان القدوة في ذلك، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، منها ما حصل قبيل غزوة أحد بعد ما علم النبي ﷺ بخروج المشركين باتجاه المدينة لقتال المسلمين، فشاور النبي ﷺ أصحابه بالبقاء في المدينة والدفاع عنها، أم الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة، فكان رأي الأغلبية - وهم الشباب - الخروج خارج المدينة، فاحترم النبي ﷺ رأيهم وأخذ به، كما جاء الخبر في صحيح البخاري معلقاً "وشاور النبي ﷺ أصحابه يوم أُحُدٍ في المقام والخروج، فَرَأَوْا لَهُ الْخُرُوجَ، فَلَمَّا لَبَسَ لِأُمَّتِهِ<sup>(١)</sup> وَعَزَمَ قَالُوا: أَقِمْ، فَلَمْ يُجِبْ لَهُمْ بَعْدَ الْعَزْمِ وَقَالَ: لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ يَلْبَسُ لِأُمَّتِهِ فَيَضَعُهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ"<sup>(٢)</sup>.

وكان القادة بعد رسول الله ﷺ يشاورون جنودهم ويحترمون آراءهم، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها على سبيل المثال في معركة نهاوند التي كان قائدها النعمان بن مقرن، وبعد أن طال الحصار جمع النعمان أهل الرأي من الجيش فأشار عليه طلحة بن خويلد الأسدي وقال: "إني أرى أن تبعث سرية فتحدق بهم ويناوشوهم بالقتال ويحمسوهم، فإذا برزوا إليهم فليفروا إلينا هرباً، فإذا استطردوا وراءهم وانتموا إلينا عزمنا أيضاً على الفرار كلنا، فإنهم حينئذ لا يشكون في الهزيمة فيخرجون من حصونهم عن بكرة أبيهم، فإذا تكامل خروجهم رجعنا إليهم فجالدناهم حتى يقضي الله بيننا"<sup>(٣)</sup>، فاستحسن النعمان هذا الرأي وأمر بتنفيذه وتمكنوا من الانتصار على أعدائهم وهزيمتهم.

إن استشارة القيادة لجنده واحترام آرائهم يرفع من معنوياتهم، ويدفعهم لتنفيذ أوامرها بكل إخلاص، وهذا ينعكس إيجابياً في مصلحة حماية الوطن.

**ثالثاً: توفير العيش الكريم لهم:** في بداية العهد الإسلامي كان النبي ﷺ يوزع أربعة أخماس الغنائم على الجيش الذي شارك بتلك الغزوة، كما حصل في غزوة حنين<sup>(٤)</sup>، وغزوة الطائف<sup>(٥)</sup> وغيرها. وكان كل الصحابة رضوان الله عليهم جنداً للإسلام، فكان كل ما يأتي بيت المال من مال

١- الدرر وقيل الآلة من درع وبيضة وغيرها من السلاح (فتح الباري ٢٨٦/١٥).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَىٰ يَنْتَهُمُ﴾.

٣- ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠٦-١٠٧/٧.

٤- ابن هشام، السيرة النبوية، ٢٧٠-٢٧٢/٣.

٥- انظر: المصدر السابق، ١٠٣/٤.

يوزعه النبي ﷺ على صحابته حتى يؤمن العيش الكريم لهم.

وقد سار الخلفاء والقادة بعد النبي ﷺ على نهجه في توفير العيش الكريم للجند، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب أنشأ (ديوان الجند) سجل فيه أسماء الجند، وفرض لهم العطايا بما يكفيهم ويؤمن لهم العيش الكريم، وقال ﷺ: "لئن كثر المال لأفرض لكل رجل أربعة آلاف درهم: ألفا لسفره، وألفا لسلاحه، وألفا يخلفه لأهله، وألفا لفرسه ونعله"<sup>(١)</sup>.

وقال عمر أيضا: "أربع من أمر الإسلام لست مضيعهن ولا تاركهن لشيء أبداً، وذكر من إحداهن: المهاجرون الذين تحت ظلال السيوف ألا يجسوا ولا يجمروا"<sup>(٢)</sup>، وأن يوفر فيء الله عليهم وعلى عيالاتهم، وأكون أنا للعيال حتى يقدموا"<sup>(٣)</sup>.

إن توفير العيش الكريم للجندي يشعره بالأمان والاستقرار، ويدفعه إلى الإخلاص في عمله والتفاني بأداء واجباته في حماية الوطن، بينما إذا شعر الجندي بالظلم وعدم توفير العيش الكريم له ولأهله فإن ذلك يؤثر في نفسيته وفي تنفيذه لواجباته وإخلاصه لقيادته وحماية وطنه.

**رابعاً: حماية أهلهم في غيابهم وعدم خيانتهم:** حث النبي ﷺ على العناية بأهل المجاهدين والغزاة أثناء غيابهم، والاعتناء بهم، ووعد كل من يفعل ذلك بالأجر العظيم كالغزاة فقال ﷺ: "مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ حَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا"<sup>(٤)</sup> وحذر تحذيراً شديداً من الاعتداء على حرمات نساء المجاهدين وحيانتهم فقال ﷺ: "حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ"<sup>(٥)</sup>.

- ١- البلاذري، فتوح البلدان، ذكر العطاء في خلافة عمر، ص ٦٣٣.
- ٢- تجمير الجيش: جمعهم في الثغور وحبسهم عن العودة إلى أهلهم (النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ١٦١).
- ٣- الطبري، التاريخ، ٢/١٢٠٧.
- ٤- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، باب فضل من جهز غازیاً أو خلفه بخير، حديث رقم ٢٨٤٣. وأخرجه مسلم، كتاب الأمانة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير، حديث رقم ١٨٩٥، واللفظ له.
- ٥- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهم فيهن، حديث رقم ١٨٩٧.



وفي غزوة الخندق أمر النبي ﷺ بوضع ذراري المقاتلين ونسائهم في حصن بني حارثة ليكونوا في مأمن من خطر الأعداء، كما جاء في مجمع الزوائد: "لم يكن حصن أحسن من حصن بني حارثة فجعل النبي ﷺ النساء والصبيان والذراري فيه"<sup>(١)</sup>.

إن حماية أهل الجندي في غيابه سواء وهو في وحدته العسكرية، أو في ساحة القتال يشعره بالطمأنينة والأمن النفسي، ويدفعه إلى القيام بواجباته في حماية الوطن خير قيام، بينما إن كان الجندي لا يشعر بالطمأنينة على أهله في غيابه، فهذا يثير في نفسه القلق وشروذ الذهن، وينعكس ذلك سلبًا على القيام بواجباته ومهامه في حماية الوطن.

خامسًا: يجب على القيادة تدريب الجندي والارتقاء بمستواه العسكري: كان النبي ﷺ يحرص على أن يكون جند الصحابة رضوان الله عليهم على درجة عالية من الاستعداد العسكري، والإلمام بالفنون العسكرية والقتالية، وقد كانت أهم الوسائل آنذاك الرماية والفروسية، فكان ﷺ يحثهم على تعلم الرمي، وقد جاء ذلك في أحاديث كثيرة منها ما رواه عقبه بن عامر ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ يَقُولُ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ"<sup>(٢)</sup>.

كما وكان ﷺ يحثهم على الفروسية، والاهتمام بالخيال الذي هو من أهم الأسلحة التي كانت في ذلك الوقت والاعتناء بها، وكان ﷺ يعمل لهم مسابقات للخيال، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي أُضْمِرَتْ"<sup>(٣)</sup>، مِنَ الْحَفِيَاءِ<sup>(٤)</sup> وَأَمَدَهَا ثَنِيَّةُ الْوُدَاعِ<sup>(٥)</sup>، وَسَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضْمَرْ مِنَ الثَّنِيَّةِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ

- ١- الهيثمي، مجمع الزوائد، باب غزوة الخندق وقریظة، ٦/١٣٦. وقال: رجاله ثقات.
- ٢- مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، حديث رقم ١٩١٧.
- ٣- الإضمار: أن تعلق الخيل حتى تسمن وتقوى ثم يقلل علفها بقدر القوت وتدخل بيتا وتغشى بالجلال حتى تحمي فتعرق فإذا جف عرقها خف لحمها وقويت على الجري، (فتح الباري، ٦/١٦٤).
- ٤- الحفيا: مكان خارج المدينة (فتح الباري، ٦/٦٣).
- ٥- ثنية الوداع عند المدينة؛ سميت بذلك لأن الخارج من المدينة يمشي معه المودعون إليها (شرح محمد فؤاد عبد الباقي، صحيح مسلم، شرح النووي، ١٣/١٨).

فِيمَنْ سَابَقَ بِهَا<sup>(١)</sup>.

من حق الجندي على قيادته أن تحرص على تدريبه على الفنون العسكرية، والارتقاء بمستواه العسكري باستمرار، حتى يتمكن من القيام بواجبه في حماية الوطن، وتنفيذ الواجبات الموكلة إليه خير قيام.

إن هذه الحقوق العظيمة التي أعطاها الإسلام لحماية الوطن؛ من مراعاة أحوالهم والرفق بهم، والحرص على سلامتهم، واستشارتهم واحترام آرائهم، وتوفير العيش الكريم لهم، وحماية أهلهم في غيابهم وعدم خيانتهم، والحرص على تدريبهم والارتقاء بمستواهم العسكري، هذه الحقوق لم يعطها أي مذهب من المذاهب الغربية والشرقية المعاصرة، وبهذا يكون للإسلام السبق الحضاري في احترام حماة الوطن وتكريمهم، وإعطائهم حقوقاً تدفعهم إلى الإبداع والاستبسال في حماية الوطن، وبذل الغالي والنفيس من أجله، والقيام بواجبهم خير قيام.

## المبحث الثاني: مكانة الشهداء وحقوقهم في السنة النبوية

### المطلب الأول: فضل الشهادة والشهداء في السنة النبوية

الشهادة في سبيل الله من أعظم الدرجات عند الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به. وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم: "أخبر سبحانه أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وأعضاهم عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوراة والانجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهد منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقده عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم، فليتأمل

١- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب السبق في الخيل، حديث رقم ٢٨٦٨. وأخرجه مسلم،

كتاب الجهاد والسير، باب المسابقة في الخيل وتضميرها، حديث رقم ١٨٧٠.

٢- سورة التوبة، آية (١١١).

العاقد مع ربه عقد هذا التبائع ما أعظم خطره وأجله، فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جنات النعيم والفوز برضاه، والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخطب جسيم<sup>(١)</sup>.

وقد بين لنا النبي ﷺ من هو الشهيد؛ كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَعْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"<sup>(٢)</sup>. وقد بينت السنة النبوية المطهرة أن للشهداء فضائل عظيمة كثيرة، منها:

**أولاً: الشهيد لا يجد ألم القتل:** الشهيد لا يشعر بالآلام النزاع الشديدة عند الموت والتي يشعر بها بقية الناس كما جاء في حديث النبي ﷺ: "مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ"<sup>(٣)</sup>.

**ثانياً: تمنى الشهيد أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما وجد من الكرامة:** كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُجِبُّ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكِرَامَةِ"<sup>(٤)</sup>.

**ثالثاً: الشهيد جزاؤه الجنة:** والأدلة على ذلك كثيرة من آيات وأحاديث منها الحديث الذي

- ١- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ٢/٥٩.
- ٢- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم ٢٨١٠. وأخرجه مسلم، كتاب الإمامة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، حديث رقم ١٩٠٤.
- ٣- الترمذي، السنن، كتاب الجهاد، باب فضل المرابط، حديث رقم ١٦٦٨. وأخرجه النسائي، كتاب الجهاد، باب ما يجد الشهيد، حديث رقم ٣١٦١. وأخرجه ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٠٢. صححه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. و صححه الألباني في صحيح الترمذي، ٢/١٣٣.
- ٤- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، باب تمنى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا، حديث رقم ٢٨١٧. وأخرجه مسلم، كتاب الإمامة، باب فضل الشهادة في سبيل الله، حديث رقم ١٨٧٧.

رواه أنس "أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَدَ هَلَكَ حَارِثُهُ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ غَرْبٌ سَهْمٌ<sup>(١)</sup>، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْتُ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ، وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ لَهَا: هَبِلْتِ، أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا جَنَّاتٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى"<sup>(٢)</sup>.

**رابعاً: الشهيد تكفر عنه كل خطاياهم إلا الدين:** كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: "يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدِّينَ"<sup>(٣)</sup>.

**خامساً: الشهيد رائحة دمه مسك يوم القيامة:** نحو ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكَلِّمُ<sup>(٤)</sup> أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللُّونُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ"<sup>(٥)</sup>.

**سادساً: الشهيد تظلمه الملائكة بأجنتها:** ويؤكد هذا حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "أَصِيبَ أَبِي يَوْمَ أَحَدٍ فَجَعَلْتُ أَكْشِفُ الثُّوبَ عَنْ وَجْهِهِ وَأَبْكِي، وَجَعَلُوا يَنْهَوْنِي، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَنْهَانِي، قَالَ وَجَعَلْتُ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرٍو تَبْكِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تَبْكِيهِ أَوْ لَا تَبْكِيهِ، مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تَظْلُمُهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ"<sup>(٦)</sup>.

**سابعاً: جسد الشهيد لا تأكله الأرض:** روايات كثيرة من عهد الصحابة رضوان الله عليهم ومن مشاهدات الواقع المعاصر تؤكد أن أجساد الشهداء لا تأكلها الأرض وتبقى كما هي، ومن هذه الروايات حديث جابر بن عبد الله وهو يتحدث عن أبيه الذي استشهد يوم أحد، وجاء في

١- سهم غرب: أي لا يعرف راميهِ (النهاية في غريب الحديث، ص ٦٥٢).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، حديث رقم ٦٥٦٧.

٣- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياهم إلا الدين، حديث رقم ١٨٨٦.

٤- يكلم: أي يجرح (النهاية في غريب الحديث، ص ٨٠٠).

٥- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، باب من يجرح في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٠٣. وأخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم ١٨٧٩.

٦- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، باب ظل الملائكة على الشهيد، حديث رقم ٢٨١٦. وأخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضي الله عنهما، حديث رقم ٢٤٧١، واللفظ له.

حديثه الطويل: "... فَأَصْبَحْنَا، فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ، وَدُفِنَ مَعَهُ آخَرٌ فِي قَبْرِ، ثُمَّ لَمْ تَطْبُ نَفْسِي أَنْ أَتْرَكُهُ مَعَ الْآخَرِ، فَاسْتَحْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا هُوَ كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ هُنَيْئَةً<sup>(١)</sup>، غَيْرَ أُذُنِهِ"<sup>(٢)</sup>. وذكر ابن حجر في شرح الحديث أن المشركين مثلوا بأبيه وقطعوا بعض أذنه<sup>(٣)</sup>.

**ثامنًا: الشهيد ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويجار من فتنة وعذاب القبر:** وقد جاء ذلك في الحديث الذي رواه فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: "كُلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُّ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ"<sup>(٤)</sup>.

**تاسعًا: الشهيد يرى مقعده من الجنة، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه.** وكل ذلك جاء في حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ؛ يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ"<sup>(٥)</sup>.

عندما يعلم الجندي بأنه إذا استشهد فإن له هذه الفضائل العظيمة، فهذا يدفعه للإقدام والاستبسال في حماية الوطن، فيكسب شرف الشهادة في سبيل الله.

- ١- هنية: أي قليلا من الزمان وهو تصغير هنة (النهاية في غريب الحديث، ص ١٠٠٠).
- ٢- البخاري، الصحيح، كتاب الجنائز، باب هل يخرج الميت من القبر واللحد لعله؟، حديث رقم ١٣٥١.
- ٣- انظر: ابن حجر (فتح الباري ٥٨٠-٥٨١/٣).
- ٤- الترمذي، السنن، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطا، حديث رقم ١٦٢١. وأخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في فضل الرباط، حديث رقم ٢٥٠٠.
- صحيحه الترمذي وقال: حديث فضالة بن عبيد حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٤٧٤).
- ٥- الترمذي، السنن، أبواب فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد، حديث رقم ١٦٦١. وأخرجه ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، حديث رقم ٢٧٩٩. صححه الترمذي وقال: حديث صحيح غريب، وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٦/٢٠) وصححه الألباني في أحكام الجنائز، ص ٣٦، وفي صحيح الترمذي (٢/١٣٢).

هذه الفضائل العظيمة للشهادة في سبيل الله، ينبغي في هذا الزمان أن تدفعنا لتكون نحن وأولادنا من حماة أوطاننا والدفاع عنها في زمن تكالبت فيه علينا الأمم كما تتكالب الأكلة على قصبتها، وكي نكسب شرف الشهادة في سبيل الله تعالى.

وينبغي لهذه الفضائل العظيمة للشهادة والشهداء أن تُبين للناس من قبل الخطباء والوعاظ في المساجد، والمعلمين في المدارس، والإعلاميين في مختلف وسائل الإعلام، حتى يتمنى كل المسلمين الشهادة في سبيل الله، ويسعوا إليها من خلال حماية الوطن والدفاع عنه بشتى السبل الممكنة، وكل في موقعه.

### المطلب الثاني: حقوق الشهداء وأسرههم في السنة النبوية

إن للشهداء وأسرههم حقوقاً يجب على القادة العسكريين وولاة الأمور مراعاتها، ومن أهم هذه الحقوق:

أولاً: دفنهم في ثيابهم ودمائهم دون غسل، ودفنهم مكان استشهادهم إن أمكن: من حق الشهداء أن يدفنوا في ثيابهم ودمائهم دون غسل، لتكون هذه الثياب والدماء شاهدة عليهم يوم القيامة، ولأن كل جرح ودم يفوح مسكا يوم القيامة.

ومما يؤكد هذا حديث جابر عن شهداء أحد أن النبي ﷺ قال: "ادْفِنُوهُمْ فِي دِمَائِهِمْ. وَمَلِّمْ يُغَسَّلُوهُمْ"<sup>(١)</sup>. وفي رواية أخرى: "لَا تُغَسَّلُوهُمْ، فَإِنَّ كُلَّ جُرْحٍ أَوْ كُلَّ دَمٍ، يَفُوحُ مِسْكَاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>.

ويستحب أن يدفن الشهيد في مكان استشهاده لتشهد له الأرض التي استشهاد عليها، حيث أمر النبي ﷺ بأن يدفن الشهداء في مكان استشهادهم، كما روى جابر بن عبد الله قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ جَاءَتْ عَمَّتِي بِأَبِي لِتَدْفِنَهُ فِي مَقَابِرِنَا فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "رُدُّوا الْقَتْلَى

١- البخاري، الصحيح، كتاب الجنائز، باب من لم ير غسل الشهداء، حديث رقم ١٣٤٦.

٢- أحمد، المسند، حديث رقم ١٤١٨٩. وحسنه ابن حجر في الفتح (٢/٣٣٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٣/١٦٤)، وفي أحكام الجنائز ص ٥٤. وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند (٢٢/٩٧).

إِلَى مَضَاجِعِهَا"<sup>(١)</sup>.

عندما يعلم الجندي بأنه إذا استشهد سيكرم هذا التكريم في الدنيا، بالإضافة إلى ما له من تكريم عظيم في الآخرة، فإن في ذلك حافزاً كبيراً له ليبذل قصارى جهده في حماية الوطن، والسعي لكسب شرف الشهادة في سبيل الله، وهذا الأمر له تأثير كبير في نفوس أسر الشهداء بل وفي نفوس المسلمين جميعاً، يدفعهم لبذل الجهد في حماية الوطن وتمني الشهادة في سبيل الله.

**ثانياً: زيارة أسر الشهداء وتفقد أحوالهم، وجبر خواتمهم وتبشيرهم:** فقد كان النبي ﷺ يزور أسر الشهداء ويواسيهم، ومما يدل على ذلك أحاديث كثيرة منها حديث أنس رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَدْخُلُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِ، إِلَّا أُمَّ سُلَيْمٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهَا فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: "إِنِّي أَرْحَمُهَا قَتَلَ أَخُوهَا مَعِيَ"<sup>(٢)</sup>. وأخوها هو حرام بن ملحان استشهد في غزوة بئر معونة<sup>(٣)</sup>.

وروى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَهَلَ آلَ جَعْفَرٍ ثَلَاثًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَالَ: لَا تَبْكُوا عَلَيَّ أَحْيَى بَعْدَ الْيَوْمِ، ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي بَنِي أَحْيَى. فَجِيءَ بِنَاكَاثًا أَفْرُخٌ فَقَالَ: ادْعُوا لِي الْحَلَّاقِ. فَأَمَرَهُ فَحَلَقَ رُؤُوسَنَا"<sup>(٤)</sup>.

١- الترمذي، السنن، أبواب الجهاد، باب ما جاء في دفن القتيل في مقتله، حديث رقم ١٧١٧ واللفظ له. وأخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في الميت يحمل من أرض إلى أرض وكراهة ذلك، حديث رقم ٣١٦٥. وأخرجه النسائي، كتاب الجنائز، باب أين يدفن الشهيد، حديث رقم ٢٠٤. صححه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/١٤٢)، حديث رقم ١٤٠١.

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، باب فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير، حديث رقم ٢٨٤٤. وأخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم سليم أم أنس بن مالك، حديث رقم ٢٤٥٥.

٣- ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/١٤٧.

٤- أبو داود، السنن، كتاب الترجل، باب في حلق الرأس، حديث رقم ٤١٩٢. وأخرجه النسائي، كتاب الزينة، باب حلق رؤوس الصبيان، حديث رقم ٥٢٣٧. وأخرجه أحمد في المسند، حديث رقم ١٧٥٠. صححه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رجاله رجال الصحيح (٤/١٥٩). وصححه الألباني في أحكام الجنائز (ص ٢١)، وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣/١٩٢)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند وقال: صحيح على شرط مسلم (٣/٢٧٨).

وكان النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم يجرون خواطر أهل الشهداء ويشروهم، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه عبدالله بن جعفر (رضي الله عنه) قال: قال لي رسول الله ﷺ: "هَنِيئًا لَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَبُوكَ يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ"<sup>(١)</sup>. وكان عبدالله بن عمر (رضي الله عنه) إذا سلم على ابنِ جَعْفَرٍ قَالَ: "السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ ذِي الْجَنَاحَيْنِ"<sup>(٢)</sup>.

حينما ينظر حماة الوطن إلى ما تبينه السنة النبوية لأبناء الشهداء وأسره من الرعاية والعناية، فإنهم يشعرون بالطمأنينة على أبنائهم وأسره من بعدهم، وهذا يدفعهم إلى بذل الغالي والنفيس من أجل حماية الوطن.

وهذه العناية والرعاية ترفع من معنويات أبناء الشهداء وأسره وتشعرهم بالأمن والأمان، وتدفعهم إلى لسير على خطى شهيدهم بالدفاع عن الوطن بشتى السبل الممكنة.

**ثالثاً: الإنفاق على أسر الشهداء، وتوفير العيش الكريم لهم، وقضاء دينهم:** كان في بداية العهد الإسلامي إذا استشهد أحد الصحابة رضوان الله عليهم لا يتركون زوجته وأولاده، بل يسارعون إلى كفالتهم، من خلال الزواج من زوجة الشهيد ورعاية وكفالة أولاده، والأمثلة كثيرة منها ما فعله النبي ﷺ عندما استشهد الصحابي عبدة بن الحارث (رضي الله عنه) في غزوة بدر فقام النبي ﷺ بضم زوجته زينب بنت خزيمة للبيت النبوي بعد انقضاء عدتها وشرفها بلقب أم المؤمنين، ورعى ولدها<sup>(٣)</sup>.

وحدث النبي ﷺ على كفالة اليتامى وقال: "أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا"، وقال بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى<sup>(٤)</sup>.

١- الطبراني، المعجم الكبير، كما أكد ابن حجر بالفتح (٧/٤٤١) وكما أكد الهيثمي بمجمع الزوائد (٩/٢٧٣)، وبحثت عنه بالأجزاء المطبوعة فلم أجده ويبدو أنه بالأجزاء المفقودة. وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/١٩١).

حسنه ابن حجر بالفتح (٧/٤١)، وحسنه الهيثمي بمجمع الزوائد (٩/٢٧٣)، وحسنه المنذري بالترغيب (٢/١٩١).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض بلاد الشام، حديث رقم ٤٢٦٤.

٣- انظر: تاريخ الطبري (١١/٥٩٦-٥٩٥). وانظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق (٣/٢٠٦).

٤- البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً، حديث رقم ٦٠٠٥.



كما حث ﷺ أيضا على مساعدة الأرمال وقال: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يهزم النهار ويقوم الليل"<sup>(١)</sup>، وكان النبي ﷺ ينفق على الأرمال واليتامى مما يأتيه من غنائم وزكاة وصدقات.

وبعد النبي ﷺ كان الخلفاء يهتمون بأسر الشهداء ويكرمونه؛ فعلى سبيل المثال كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يكرم أبناء الشهداء ويفضلهم على غيرهم في العطاء؛ فقد روى أنه "لَمَّا فَرَضَ لِلنَّاسِ فَرَضَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ الْعَسِيلِ"<sup>(٢)</sup> ألفي درهم فأتاه طلحة بائن أخ له ففرض له دون ذلك فقال له: يا أمير المؤمنين فضلت هذا الأنصاري على ابن أخي! فقال: نعم لأني رأيت أباه يستن<sup>(٣)</sup> يوم أحد بسيفه كما يستن الحمل<sup>(٤)</sup>.

وقد ذكر الفقهاء أن من مات أو قتل من جنود المسلمين، فإنه ينفق على امرأته حتى تتزوج، وعلى ابنته الصغيرة حتى تتزوج، وعلى ابنه الصغير حتى يبلغ، ثم يجعل من المقاتلة إن كان يصلح للقتال، لأن في ذلك تطيباً لقلوب المجاهدين، فإنهم متى علموا أن عيالهم يكفون المؤونة بعد موتهم تحمسوا للجهاد والقتال<sup>(٥)</sup>.

ويجب على ولاة الأمور قضاء ديون الشهداء من بيت مال المسلمين، كما بين النبي ﷺ في الحديث "أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفيت من المؤمنين فترك ديناً، فعلي فضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته"<sup>(٦)</sup>.

- ١- المصدر السابق،، كتاب الأدب، باب الساعي على الأرملة، حديث رقم ٦٠٠٦ واللفظ له. وأخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، حديث رقم ٢٩٥٢.
- ٢- الصحابي حنظلة بن أبي عامر استشهد في غزوة أحد (انظر: سيرة ابن هشام، ٣/٦٠).
- ٣- يستن: أي يمرح ويخطر به- دلالة على الشجاعة- (النهاية في غريب الحديث، ص ٤٤٠).
- ٤- الحاكم، المستدرک، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب حنظلة بن عبد الله، حديث رقم ٤٩١٨. وأخرجه ابن المبارك في كتاب الجهاد، حديث رقم ٨٧، وأخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق، ١٢/١٢٦.
- ٥- انظر: ابن قدامة، الكافي في فقه ابن حنبل، (٣١٩-٤/٣٢٠)، وانظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١٤/٥٨٦).
- ٦- البخاري، الصحيح، كتاب النفقات، باب قول النبي ﷺ (من ترك كلا أو ضياعا فإلي)، حديث رقم ٥٣٧١.

وقال ابن حجر في شرح الحديث " وأراد المصنف بإدخاله في أبواب النفقات الإشارة إلى أن من مات وله أولاد ولم يترك لهم شيئاً، فإن نفقتهم تجب في بيت مال المسلمين"<sup>(١)</sup>.

حين تتحقق الرعاية والكفالة لأسر الشهداء بعد موت معيهم في الدفاع عن الوطن، فإن ذلك يحقق الأمن الاجتماعي لهم، لأنهم إن لم يجدوا الرعاية والكفالة فربما تدفعهم الحاجة لسلوك مسالك خاطئة لتحصيل حاجاتهم المادية.

إن شعور أبناء الشهداء وأسرههم بأن الدولة تنفق عليهم وتؤمن لهم العيش الكريم، فإن ذلك يدفعهم إلى السير على خطى شهيدهم والانخراط في سلك حماة الوطن، والدفاع عنه بشتى السبل الممكنة.

وإن هذه الحقوق العظيمة التي أعطاها الإسلام للشهداء وأسرههم، فيها حافز ودافع عظيم لأبناء الشهداء وأسرههم وللمسلمين جميعاً للاقتداء بهم، والسير على نهجهم في حماية الوطن والاستبسال في الدفاع عنه بشتى السبل الممكنة، كل في مكانه وموقعه وحسب إمكانياته.

وينبغي في هذا الزمان أن يكون في بلداننا الإسلامية مؤسسات رسمية وخيرية لرعاية أسر الشهداء، في مجالات متعددة:

١. في الجانب المادي: بتوفير كل ما يلزمهم من مال ومسكن وغذاء ولباس.
٢. في الجانب التعليمي: بالعناية بتعليم أبنائهم من المرحلة الأساسية إلى المرحلة الجامعية.
٣. في الجانب المعنوي والنفسي: بالمداومة على زيارتهم، ورفع معنوياتهم، وتفقد أحوالهم، وتقديم الإرشادات اللازمة لهم.

١- ابن حجر، فتح الباري (٩/٥١٦).

### نتائج البحث:

- ١- بينت السنة النبوية أهمية وجود جيش وحماة للوطن يدافعون عنه، ويصدون مؤامرات ومخططات الأعداء.
- ٢- الأمة التي لها جيش قوي تعيش بكرامة، وتكون كلمتها مسموعة، وأمرها مطاع، والأمة التي ليس لها جيش، أو جيشها ضعيف، تكون ذليلة ومهانة، ويطمع بها الأعداء من كل جانب.
- ٣- بينت السنة النبوية صفات الجندي المسلم التي ينبغي أن يتصف بها حتى يقوم بواجبه بحماية الوطن خير قيام.
- ٤- أكدت السنة النبوية حقوق الجنود وأسرهم وبينتها، حيث إن إعطاء الجنود حقوقهم يعينهم على أداء واجبهم خير قيام.
- ٥- بينت السنة النبوية مكانة الشهداء، وفضل الشهادة في سبيل الله، حيث أعطت الشريعة الإسلامية للشهداء ميزات عظيمة كثيرة لم يحظ بها غيرهم من الأموات غير الأنبياء والرسل.
- ٦- ضمنت السنة النبوية حقوق الشهداء وأسرهم وبينتها، هذه الحقوق التي تكفل لأسرهم حياة كريمة بعد استشهاد معيهم.
- ٧- سبق الحضاري للشريعة الإسلامية في الاهتمام بالجندي، وإعطاء الجنود وأسر الشهداء حقوقاً لم تصل إلى مستواها أي حضارة أخرى.
- ٨- الحقوق العظيمة التي أعطاها الإسلام للشهداء وأسرهم، فيها دافع عظيم لأبناء الشهداء للاقتداء بهم والسير على نهجهم في حماية الوطن، والاستبسال في الدفاع عنه.

## قائمة المصادر والمراجع

- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، استانبول، ط ٢، ١٩٧٢ م.
- أحمد بن تيمية الحراني، مجموعة الفتاوى، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ١٩٩٨ م.
- أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٩٥ م.
- أحمد سالم ملحم، دراسات إسلامية في الفكر والثقافة والسلوك، ط ١، ٢٠٠٥ م.
- أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي (المجتبى)، تحقيق صدقي العطار، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ٢٠٠١ م.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق ابن باز، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ.
- أحمد المومني، التعبئة الجهادية في الإسلام، دار الأرقم، عمان، ط ١، ١٩٨٦ م.
- أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله الطباع وعمر الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧ م.
- إسماعيل بن كثير القرشي:
- البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٢ م.
- تفسير القرآن العظيم، دار الجليل، بيروت، ط بدون.
- سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيقي حمدي السلفي، مكتبة التوعية الإسلامية، العراق، ط ٢، ١٩٨٥ م.
- سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق مشهور حسن، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١.
- طاهر النحال، القيادة والجنودية في السنة النبوية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٧ م.
- عبدالرحمن بن غرمان العمري، أحكام الشهيد في الفقه الإسلامي، دار البيان الحديث، السعودية، ط ١، ١٤٢٢ هـ.
- عبد العظيم المنذري، الترغيب والترهيب، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط بدون.
- عبدالله بن المبارك، الجهاد، تحقيق نزيه حماد، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ط بدون.
- عدنان علي النحوي، الولاء بين منهاج الله والواقع، دار النحوي، الرياض، ط ١، ١٩٩٢ م.

## مكانة حماة الوطن والشهداء وحقوقهم في السنة النبوية...

- علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٢م.
- علي بن الحسين (ابن عساكر)، تاريخ دمشق، تحقيق عمر العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- ابن قدامة المقدسي، الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢م.
- ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، إدارات البحوث العلمية، الرياض، ط بدون.
- المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق رائد صبري، بيت الأفكار الدولية، ط بدون.
- محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دار المعارف مصر، ط بدون.
- محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار السلام، الرياض، ط ٢، ١٩٩٩م.
- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط ٦.
- محمد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م.
- محمد بن سعيد القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام، دار طيبة، السعودية، ط ٩، ١٤٢٠هـ.
- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، ١٩٨٤م.
- محمد بن عبدالله التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩م.
- محمد بن عبدالله الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، دار الکتب العلمیة، ط بدون.
- محمد بن عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار الخير، بيروت، ط ١، ١٩٩٢م.
- محمد بن عمر الواقدي، المغازي، عالم الكتب، بيروت، ط بدون.
- محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، تحقيق عادل مرشد، دار الأعلام، عمان، ط ١، ٢٠٠١م.
- محمد ناصر الدين الألباني:
- أحكام الجنائز، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٨٨هـ.
- إرواء الغليل وتخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥م.
- صحيح سنن أبي داود، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط ١، ١٩٨٩م.
- صحيح سنن الترمذي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط ١، ١٩٧٨م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٩٩٥م.

- محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق صدقي العطار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- محمود شيت خطاب، العسكرية العربية الإسلامية، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر، ١٤٠٣هـ.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، دار المغني، الرياض، ط ١، ١٩٩٨م.
- يحيى بن شرف النووي، صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، تحقيق خليل شما، دار المعرفة، بيروت، ط ٦، ١٩٩٩م.

الرباط فضله وأثره في حماية الوطن  
في ضوء السنة النبوية

الأستاذ / عمران محمد المزوري  
باحث في مرحلة الدكتوراه في الحديث النبوي الشريف  
كلية العلوم الإسلامية - جامعة صلاح الدين / أربيل العراق







## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، أما بعد:

فإن الإسلام نظام شامل لجميع مناحي الحياة. لم يهمل في تشريعاته وقوانينه أي أمر يمس حياة الناس إلا وقد وضع له قواعد ضابطة له، ولم يترك غاية إلا بين لها وسائل كفيلة للوصول إليها.

فحماية الوطن - إذا - من شرّ الأشرار، وتوفير حياة آمنة ومريحة لأهله غاية سامية للشريعة الإسلامية، أكدت على تحقيقها في نصوصها ولا سيما السنة النبوية الشريفة، وذلك بالترغيب في هذا العمل العظيم والحث على القيام به، وبيان فضل القائمين بهذه الوظيفة المباركة ومنزلتهم عند الله تعالى، ومن ثمّ وضع ضوابط ووسائل موصلة لذلك الهدف السامي، وهذا يدل على مكانة الوطن ومنزلته في الإسلام؛ لأنه لا يخفى على أحد أن الدين وشعائره لا يمكن أن تمارس بشكل طبيعي وحقيقي بدون وجود وطن آمن للمتدينين؛ لذا فإن من أولى خطوات نشر أي فكرة أو دين وترسيخ مبادئه بين الناس توفير موطن محروس لأتباعه ومعتنقيه ولو كانت زاوية صغيرة في قرية أو مدينة.

ومن الوسائل التي جعلها الإسلام أساساً لحماية الوطن حماية حدود الوطن وتغوره من تسلل الأعداء والأشرار ليشكلوا خطراً على أمنه وسلامته وذلك بتشريع الرباط، وتجنيد الجنود الخاصة لملازمة تغور البلاد والإقامة فيها لمراقبة أي حركة أو خطر يهدد الوطن وأهله، ومن ثمّ مواجهته بكل قوة وثبات ليرهبوا بذلك عدو العباد والبلاد.

وانطلاقاً من ذلك تأتي هذه الوريقات البحثية لتسلط الضوء على الرباط ببيان مفهومه وفضله وأثره في حماية الوطن، وحفظه من شرّ الأعداء بالاستناد إلى ما ورد في ذلك من الأحاديث النبوية الشريفة، ولذلك وُسم البحث بـ "الرباط فضله وأثره في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية".

**إشكالية البحث:** تكمن إشكالية البحث في صياغة السؤالين الآتيين: ما هو مفهوم الرباط وفضله في الإسلام؟ وما أثره في حماية الوطن من شرّ الأشرار؟

**الهدف من البحث:** يهدف البحث إلى بيان مفهوم الرباط وفضله ومكانته في السنة النبوية، ومن ثم إبراز أثره في حماية الوطن وحفظه من شرّ الأعداء، وكذا دوره في ازدهار البلاد في المناحي السياسية والاقتصادية والمعيشية.

**منهجية البحث:** قام البحث على أعمال المنهج الاستقرائي التحليلي، وذلك بتتبع الأحاديث الواردة في الرباط وجمعها ومن ثم بيان فضل الرباط ومكانته واستلهاً أبرز آثاره في حماية الوطن في ضوء تلكم الأحاديث النبوية الشريفة وما ذكره العلماء في معنى الرباط وبيان مفهومه ووظيفته.

**الدراسات السابقة:** ما وقفت عليه من البحوث والدراسات السابقة المتعلقة بموضوعنا هو بحثان فقط:

**الأول:** بعنوان "الرباط في سبيل الله ومجالاته المعاصرة" للدكتور محمد جميل محمد ديب المصطفى، الاستاذ المشارك في كلية الشريعة وأصول الدين، قسم الفقه، بجامعة الملك خالد، وهو منشور على موقع صيد الفوائد، حاول الأستاذ في بحثه أن يوسع في معنى الرباط ليشمل مجالات أخرى غير ما ذكره الفقهاء القدامى بأنه يخص بتخوم الدولة الإسلامية وحدودها وثغورها، وذكر من ضمن مجالاته المعاصرة الثغور الأمنية والفكرية والصحية والإعلامية وغيرها، وقد أحسن في ذلك.

**والثاني:** بعنوان "الرباط مكانه ومكانته وفضله ومدته" ومؤلفه رأفت بن محمد مرسي آل أبو يوسف، بين فيه مفهوم الرباط في اللغة والقرآن والسنة وأقوال الفقهاء، ثم أتى بما ورد في الرباط من الأحاديث النبوية صحيحتها وضعيفها مع تخريجها وبيان درجتها فأحسن في ذلك وأجاد، كما أنه وسع في ذكر أقوال الفقهاء والمفسرين والمحدثين في مفهوم الرباط ومكانه ومكانته ومدته، وحاول في نهاية كل مسألة أن يبين ما يبدو له راجحاً إذا اقتضى الأمر ذلك.

ما يختلف هذا البحث عن الباحثين المذكورين جانبان، هما:

أولاً: الاقتصار على ما صحّ وثبت من الأحاديث النبوية الشريفة فيما يتعلق ببيان فضل الرباط ومكانته.

وثانياً: بيان أثر الرباط في حماية الوطن من شرّ الأعداء ودوره في ازدهاره في النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية والمعيشية.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

## المطلب الأول: مفهوم الرباط

يُعرض هنا معنى الرباط من الناحية اللغوية واستعمالاته في الكتاب والسنة، وتعريفات الفقهاء له ومن ثم ذكر مفهوم حديث للرباط يناسب مقتضيات هذا العصر ليشمل مجالات آخر غير ما ذكره القدامى، وذلك بالصورة الآتية:

### الرباط في اللغة:

أصل كلمة الرباط الجذر الثلاثي لمادة "ربط"، وهو بالأصل يعني الشدّ والثبات كما جاء في مقاييس اللغة بأن "الراء والباء والطاء أصل واحد يدل على شد وثبات. من ذلك ربطت الشيء أربطه ربطاً."<sup>(١)</sup>

ومنه الرباط وهو ما ربط به، والجمع رُبط، وربط الدابة يربطها ويربُطها ربطاً وارتبَطَها. وفلان يرتبِط كذا رأساً من الدواب، ودابة ربيط: مربوطة. والمربِط والمربِطة: ما ربطها به<sup>(٢)</sup>.

كما أن الرباط يراد به الإقامة في الثغور تجاه العدو، وأصله مأخوذ من مرابطة الخيل، فقد وردَ في اللسان: "والرباط والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً. والرباط: المواظبة على الأمر"<sup>(٣)</sup>.

وفي تهذيب اللغة: "وأصل الرباط من مرابطة الخيل وهو ارتباطها بإزاء العدو في بعض الثغور، والعرب تسمي الخيل إذا ربطت بالأفنية وعلفت: رُبطاً، واحدها ربيط، ويجمع الرُبط رباطاً، وهو جمع الجمع"<sup>(٤)</sup>.

تبين لنا مما سبق أن الرباط في اللغة استخدم لمعان عدة وهي:

الشد والثبات. وما تُربِطُ به الدابة. ومرابطة الخيل، بأن يربط كل فريق خيله تجاه الآخر. ولزوم الثغور تجاه العدو. والمواظبة على الأمر. وربط الخيل بالأفنية.

١- ابن فارس، مقاييس اللغة، ٤٧٨/٢.

٢- ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ٤٧٨/٢، وابن منظور، لسان العرب ٣٠٢/٧.

٣- ابن منظور، لسان العرب ٣٠٢/٧.

٤- الأزهرى، تهذيب اللغة ٢٣٠/١٣.

## الرباط في القرآن الكريم:

استعمل القرآن الكريم لفظة "الرباط" بصيغ مختلفة وبمعان متعددة، منها:

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾ على قولين<sup>(١)</sup>:

القول الأول: هو بمعنى مرابطة العدو، أي رابطوا أهل الكفر والشرك، أو رابطوا عدوكم.

القول الثاني: المراد به رابطوا على الصلوات أي انتظروها واحدة بعد واحدة.

ورجح الطبري التأويل الأول قائلاً: " وإنما قلنا معنى: (ورابطوا)، ورابطوا أعداءكم وأعداء دينكم، لأن ذلك هو المعنى المعروف من معاني (الرباط). وإنما يوجه الكلام إلى الأغلب المعروف في استعمال الناس من معانيه، دون الخفي، حتى تأتي بخلاف ذلك مما يوجب صرفه إلى الخفي من معانيه حجة يجب التسليم لها من كتاب، أو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو إجماع من أهل التأويل"<sup>(٢)</sup>.

ويقول تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ ءَعَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وذكر المفسرون أن (الرباط) في الآية: اسم للخيل التي تربط في سبيل الله فعال بمعنى مفعول، ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة، كما يمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به، لأن ربط الخيل كان من أقوى آلات الجهاد حينذاك.<sup>(٣)</sup> ويقول تعالى: ﴿وَرَبَّطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِن دُونِهِ ؕ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]، قال الزمخشري: " وقويها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والفرار بالدين إلى بعض الغيران،

١- الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن ٥٠٩/٧.

٢- المصدر نفسه.

٣- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٢٣٢/٢، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٤٩٩/١٥.

وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام".<sup>(١)</sup>

ويقول القرطبي: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدة عزم وقوة صبر، أعطها الله لهم حتى قالوا بين يدي الكفار: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ ۗ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾<sup>(٢)</sup>. ولما كان الفزع وخور النفس يُشبهه بالتناسُبِ الانحلالِ حَسُنَ في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط، ومنه يقال: فلان رابط الجأش، إذا كان لا تَفْرُقُ نفسه عند الفزع والحرب وغيرها. ومنه الربط على قلب أم موسى. وقوله تعالى: ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾<sup>(٣)</sup> [الأنفال: ١١].

نخلص مما سبق إلى أن القرآن الكريم استخدم "الرباط" بمشتقاته المختلفة لمعان وهي:

١. المرابطة، أو الإقامة في الثغور بإزاء العدو.
٢. الخيل التي تربط في سبيل الله.
٣. المواظبة على العبادات والأعمال الصالحة - على قول طائفة من المفسرين -.
٤. الصبر والثبات والشدة في القلب والنفس.

### الرباط في السنة النبوية:

استخدمت السنة النبوية المطهرة أيضا الرباط بمعان:

**فجاء فيها بمعنى المرابطة** وملازمة ثغور البلاد لدفع الشرور عنها، وذلك في الأحاديث التي ترغب في الرباط وتحث المسلمين عليه ببيان فضله وأجره عند الله تعالى، فمنها قوله "رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا: وَمَوْضِعٌ سَوِّطٌ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا"<sup>(٤)</sup>.

١- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٧٠٧/٢.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٣٦٥/١٠.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم (٢٨٩٢).

واستعملت أيضا بمعنى المواظبة على الأمر: كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ"<sup>(١)</sup>. حيث شبه فيه النبي صلى الله عليه وسلم المواظبة على الأعمال الصالحة والثبات عليها بالرباط<sup>(٢)</sup>.

### الرباط في اصطلاح الفقهاء:

عرف الفقهاء الرباط بتعريفات مختلفة في الألفاظ ومتقاربة في المعنى إلا ما ندر، وفيما يأتي بعضها:

عرفه ابن عرفة المالكي بأنه: "المقام حيث يخشى العدو بأرض الإسلام لدفعه"<sup>(٣)</sup>.

وقال الأزهري المالكي أنه: "الإقامة في الثغور لحراستها أي حراسة من بها وهو يشمل المال وغيره والذمي والمسلم وحراسة غيرها تتبع حراستها والثغور موضع المخافة من فروج البلدان"<sup>(٤)</sup>.

أما ابن الهمام الحنفي فقال: "الرباط، هو الإقامة في مكان يتوقع هجوم العدو فيه لقصد دفع الله تعالى"<sup>(٥)</sup>.

وبقريب منه قاله السرخسي الحنفي بأنه: "عبارة عن المقام في ثغر العدو لإعزاز الدين، ودفع شر المشركين عن المسلمين"<sup>(٦)</sup>.

وعرفه ابن حجر العسقلاني الشافعي بقوله: "ملازمة المكان الذي بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين منهم"<sup>(٧)</sup>.

١- مسلم، الصحيح، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، حديث رقم: ٢٥١.

٢- ينظر: ابن القيم، مدارج السالكين ١٥٨/٢.

٣- ابن عرفة، المختصر الفقهي ١٧/٣.

٤- الأزهري، الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي يزيد القيرواني، ص ٤٢٠.

٥- ابن الهمام، فتح القدير ٤٣٦/٥.

٦- السرخسي، شرح السير الكبير، ص ٧.

٧- ابن حجر، فتح الباري ٨٥/٦.

وقال القسطلاني الشافعي في تعريفه: "مراقبة العدو في الثغور المتاخمة لبلادهم بحراسة من بها من المسلمين"<sup>(١)</sup>.

وجاء في (الشرح الكبير) لابن قدامة المقدسي الحنبلي بأن الرباط: "الإقامة بالثغر، مقويا للمسلمين على الكفار. والثغر، كل مكان يُخيف أهله العدو ويُخيفهم"<sup>(٢)</sup>.

وقد عرفه ابن تيمية بأنه: "المقام بمكان يُخيفه العدو ويُخيف العدو فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط والأعمال بالنيات"<sup>(٣)</sup>.

يفهم من تعريفات العلماء بمذاهبهم المختلفة بأن الرباط يدور حول معان دلالية يمكن أن يسوّغ البحث منها التعريف الآتي:

الإقامة في ثغر أو مكان يخاف تسلل العدو منه إلى البلاد والمهجوم عليها ليشكل خطراً على مواطنيها ومصالحها، والقصد من الرباط هو حماية البلاد وأهلها بمختلف أديانهم ومعتقداتهم من شرّ الأشرار وحفظ أرواحهم وأعراضهم وأموالهم من التعدي عليها، ولإعزاز دين الله عز وجل وجعل كلمة الله تعالى هي العليا.

### مكان الرباط (أو أين يتحقق الرباط؟):

لدى استشراف كتب الفقه الإسلامي نجد أن كثيراً من الفقهاء خصّوا الرباط بتخوم الدولة الإسلامية وحدودها مع العدو<sup>(٤)</sup>؛ ويرجح البحث أن هذا التحديد منهم كان على ضوء الظروف السائدة حينذاك حيث كان التهديد غالباً ما يأتي من الحدود البرية والبحرية للدولة ولذا شاع الرباط اسماً خاصاً بملازمة الثغور في أقصى ما تنتهي إليه أرض الدولة الإسلامية.

١- القسطلاني، إرشاد الساري ٨٩/٥.

٢- ابن قدامة، الشرح الكبير على المقنع ٢٦/١٠.

٣- ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٤١٨/٢٨.

٤- ينظر على سبيل المثال: السرخسي، شرح السير الكبير، ص٧، وابن حجر، فتح الباري ٨٥/٦.



## المفهوم الحديث للرباط:

ما قاله الفقهاء بتحديد مكان الرباط بحدود الدولة - كما سبق أنفاً - لا ينفي التوسع في معناه في ضوء ظروفنا الحالية ومقتضيات عصرنا هذا ليشمل الحراسة في أي مكان يخاف منه التهديد على مصالح البلاد وأهلها وإن كان داخل أسوار عاصمة البلاد وذلك لأن الظروف الجغرافية والسياسية قد تغيرت، والتهديدات قد تعددت وتنوعت، والثغور والفروج إلى البلاد لم تعد مقصورة على الحدود البرية والبحرية فحسب؛ بل توسعت لتشمل سور كل بيت من بيوت المسلمين عن طريق التكنولوجيا والإلكترونيات المعاصرة كالإنترنت وما حوى من خطر على الشعوب والدول من تجسس وغزو فكري ونشر الفساد بكل أشكاله ليفت في عضد الشعوب الإسلامية ويمزقها ويجعلها أوزاعاً متفرقة هائمة على وجه البسيطة فيسهل مقادها والسيطرة عليها وتوجيهها كيفما شاءوا وأينما شاءوا، ولذا فالمرابح والمرابط على شبكات الإنترنت مثلاً ليمنع المواقع المضرة بالمجتمع، وكذا القوائم على الأجهزة الحديثة كالرادار مثلاً لصد ما يضر بأمن الوطن من تجسس وغيره من التحركات الخفية والأجسام الغريبة التي قد تخرق حدود الوطن براً وبحراً وجواً وهي لا ترى بالعين المجردة لغرض الإضرار به وأهله فهؤلاء لا يقلون أجرًا ومنزلة من حراس الحدود الذين يلازمون ويرابطون في تخوم الدولة ليدفعوا عنها وأهلها أي خطر آتٍ من العدو المعتدي<sup>(١)</sup>.

وعليه فتحديد الرباط بمكان معين فإن كان صحيحًا بالنسبة للزمن الماضي فلا يكون دقيقًا لعصرنا الحاضر بالنظر في مقاصده وحكمه التي تتمحور في حفظ البلاد والعباد من خطر العدو وشراً الأشرار، وفي عبارات الفقهاء ما يستفاد ذلك كما في قول الحنابلة السابق في تعريف الرباط: "الإقامة بالثغر، مقويا للمسلمين على الكفار، والثغر كل مكان يُخيف أهله العدو ويُخيفهم" أي أن الثغر يشمل كل مكان يخاف منه التهديد والخطر وإن كان في قلب الدولة بحيث يؤدي المرابطة فيه إلى إخافة العدو ودفع شروره عن المواطنين وأموالهم وأعراضهم.

ونحن نقول ذلك لأننا لا نجد في الكتاب والسنة ما يفيد تحديد الرباط بمكان دون آخر، سوى ما روي عن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله ﷺ: "مَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتَطَوِّعًا، لَا يَأْخُذُهُ سُلْطَانٌ، لَمْ يَرِ النَّارَ بَعَيْنَيْهِ، إِلَّا نَحَلَهُ الْقَسَمَ فَإِنَّ

١- ينظر: المصطفى، الرباط في سبيل الله ومجالاته المعاصرة، ص ١٨-١٩.

اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَإِنْ مَنَكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مریم: ٧١] <sup>(١)</sup>. حيث استدل به الحنفية بأنه لا يتحقق الرباط إلا في مكان ليس وراءه إسلام أي سلطة الدولة الإسلامية لأن ما دونه لو كان رباطاً فكل المسلمين في بلادهم مرابطون. <sup>(٢)</sup> إلا أن الحديث فيه ضعف، حيث قال البوصيري: "مدار طرق حديث معاذ هذا على زبان بن فائد المصري، وهو ضعيف، وضعفه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم" <sup>(٣)</sup>، وعليه فلا ينهض دليلاً على ما ذهبوا إليه. وبناء على ما سبق يمكننا القول بأن: الإقامة في أي مكان يخاف منه التهديد والخطر على الوطن وأهله ومصالحه فهو رباط والملازم فيه مرابط وينال ما للمرابط من أجر وفضل ومنزلة. والله أعلم.

#### مجالاته الحديثة:

بناء على المعنى الحديث الأنف الذكر للرباط، يمكن في يومنا هذا أن نجد له مجالات حديثة أيضاً ولا نحصره في المجالي العسكري والأمني فقط، ولابن العربي المالكي كلمة جميلة في معنى الرباط حيث يقول: "والرباط: حمل النفس على النية الحسنة والجسم على فعل الطاعة، ومن أعظمه ارتباط الخيل في سبيل الله" <sup>(٤)</sup> وهذا يعني أن ارتباط الخيل في سبيل الله هو من أفضل أنواع الرباط وليس كله؛ بل إنه يشمل مجالات أخرى و يمكن أن يتحقق في مناح شتى غير ما ذكره القدامى؛ وقد أحسن الدكتور محمد جميل المصطفى في ذكر مجالات الرباط المعاصرة <sup>(٥)</sup>، ومن تلك المجالات هي: المجال الأمني. والمجال الفكري. والمجال الصحي. والمجال الإعلامي.

وغيرها من المجالات الأخرى التي تتعلق بأمن الوطن والمواطنين من النواحي الثقافية والاجتماعية والعلمية، والعاملين في تلكم الثغور والمرابطين فيها للحفاظ على عقيدة المواطنين ودينهم وعقولهم

١- أحمد، المسند، حديث معاذ بن أنس الجهني، حديث رقم (١٥٨٥٢). وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده

ضعيف. وضعفه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ١٢٦/٥.

٢- ابن الهمام، فتح القدير ٤٣٦/٥.

٣- البوصيري، إتحاف الخيرة المهرة ١٢٦/٥.

٤- ابن العربي، أحكام القرآن ٤٠٠/١.

٥- ينظر: المصطفى، الرباط في سبيل الله ومجالاته المعاصرة، ص ٢٠ وما بعدها.

وأَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ مَا يَسْمَى فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالضَّرُورِيَّاتِ الْخَمْسِ<sup>(١)</sup>، فَلَا تَقَلُّ مَنْزِلَتُهُمْ مِنْ مَنْزِلَةِ الْمُرَابِطِينَ فِي الثَّغُورِ الْمِتَاخِمَةِ لِحُدُودِ الْوَطَنِ، وَلَا تَنْزِلُ أَهْمِيَّةُ عَمَلِهِمْ فِي حِمَايَةِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ مِنْ عَمَلِ حِرَّاسِ الْحُدُودِ "المرابطين"، وَلَكِنْ بِشَرَطِ أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُونَ فِي تَلَكُمُ الْمَجَالَاتِ مُرَابِطِينَ وَمُثَابِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ فِيهَا بِكُلِّ مَعْنَى الْمُرَابِطَةِ مِنَ الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ وَالْمُؤَابَاظَةِ وَالْمُثَابَرَةِ وَالْمُؤَابَاظَةَ.

## المطلب الثاني: فضل الرباط والمرابطين في السنة النبوية

وردت عن النبي ﷺ أحاديث عديدة تؤكد على فضل الرباط ومكانة المرابطين عند الله تعالى وما لهم من أجر عظيم وثواب جزيل، وذلك لما في الرباط من إقامة دين الله تعالى، وحماية البلاد والعباد من شر الأشرار، وفيما يأتي بعض تلكم الأحاديث النبوية التي تحث على الرباط والمرابطة في سبيل الله تعالى:

### ١. الرباط في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها:

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا: وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْعُدُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا" <sup>(٢)</sup>.

والمقصود أن الإنسان لو ملك الدنيا كلها وتنعم بها فيما زائلة فإنها لا تساوي النعم التي يحصل عليها المرء برباط يوم في سبيل الله تعالى في الآخرة لأنها باقية وأبدية، فالزائل مهما كان كبيراً وكثيراً فلا يبلغ مبلغ الباقي والأبدية، وعبر عنه بـ "على" دون "في" لأنه أعم منها وأقوى<sup>(٣)</sup>. وقال المَهَلَّب بن أحمد بن أبي صفرة: "إنما صار رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها؛ لأنه عمل يؤدي إلى الجنة، وصار موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها من أجل أن الدنيا فانية، وكل شيء في الجنة وإن صغر في التمثيل لنا وليس فيها صغير فهو أديم وأبقى من الدنيا

١- ينظر: الشاطبي، الموافقات ٣١/١.

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم (٢٨٩٢).

٣- ينظر: الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير ٦/٢٢٠.

الفانية المنقطعة فكان الدائم الباقي خيراً من المنقطع"<sup>(١)</sup>.

و يقول ابن دقيق العيد: " وفي قوله ﷺ: " خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا " وجهان:

أحدهما: أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس، تحقيقاً له، وتشبيهاً في النفوس فإن ملك الدنيا، ونعيمها، ولذاتها محسوسة، مستعظمة في طباع النفوس فحقق عندها أن ثواب اليوم الواحد في الرباط - وهو من المغيبات - خير من المحسوسات التي عهدتموها من لذات الدنيا.

والثاني: أنه قد استبعد بعضهم أن يوازن شيء من نعيم الآخرة بالدنيا كلها، فحمل الحديث أو ما هو معناه: على أن هذا الذي رتب عليه الثواب خير من الدنيا كلها لو أنفقت في طاعة الله تعالى وكأنه قصد بهذا أن تحصل الموازنة بين ثوابين أخريين، لاستحقاقه الدنيا في مقابلة شيء من الأخرى، ولو على سبيل التفضيل.

والأول عندي: أَوْجَهُ وأظهر"<sup>(٢)</sup>.

## ٢. الرباط خير من صيام التطوع وصلاته:

عن سلمان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " رِبَاطُ يَوْمٍ وَكَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ"<sup>(٣)</sup>. يريد به صيام التطوع بدليل قوله " وقيامه"<sup>(٤)</sup>.

وعن عثمان بن عفان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيَمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ " <sup>(٥)</sup>. أي فيما سوى الرباط، أو فيما سوى سبيل الله عز

١- ابن بطل، شرح صحيح البخاري ٨٦/٥.

٢- ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ٣٠٢/٢.

٣- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، حديث رقم (١٩١٣).

٤- ينظر: الهَرَزِي، الكوكب الوهاج والروض البهّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٢٧٠/٢٠.

٥- الترمذي، السنن، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل المرابط، حديث رقم (١٦٦٧)، وقال: حسن غريب، والنسائي، السنن، كتاب الجهاد، فضل الرباط، حديث رقم (٣١٦٩)، وأحمد، المسند، مسند عثمان بن عفان، حديث رقم (٤٧٧)، وابن حبان، الصحيح، كتاب السير، باب فضل الجهاد، ذكر البيان بأن يوماً في سبيل الله خير من ألف يوم في غيره من الطاعات، حديث رقم (٤٦٠٩).

وجل. (١)

فالحديثان يدلان بوضوح على أن الرباط في سبيل الله أفضل من الاشتغال بالنوافل والعبادات التطوعية، وذلك لأن الرباط يعود بالفوائد العظيمة والمنافع الجليلة على الإسلام والمسلمين؛ بل حتى على غير المسلمين القاطنين في بلاد المسلمين بخلاف العبادات التطوعية والنوافل حيث كاد نفعها أن يكون حصرًا على صاحبها خصوصًا إذا لم ينتفع بها لتهديب أخلاقه وتعامله مع الناس الذي هو من إحدى أكبر مقاصد العبادات في الإسلام.

ويقول ابن تيمية: " قال العلماء: إن الرباط بالثغور أفضل من المجاورة بالحرمين الشريفين، لأن المرابطة من جنس الجهاد، والمجاورة من جنس الحج وجنس الجهاد أفضل باتفاق المسلمين من جنس الحج. كما قال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ [التوبة: ١٩ - ٢٢]" (٢)

وبخصوص اختلاف أجر المرابط في الحديثين وحديث البخاري الذي سبقهما فقد نقل ابن حجر عن ابن بزيرة (٣) بأنه قال: "ولا تعارض بينهما لأنه يحمل على الإعلام بالزيادة في الثواب عن الأول أو باختلاف العاملين. قلت - يعني ابن حجر - : أو باختلاف العمل بالنسبة إلى الكثرة والقلّة ولا يعارضان حديث الباب - وهو حديث البخاري السابق - أيضا لأن صيام شهر وقيامه

والحاكم، المستدرک علی الصحیحین، کتاب الجهاد، حدیث رقم (٢٦٥١)، وقال: صحیح علی شرط البخاری ولم یخرجاه، ووافقہ الذہبی.

١- مسلم، الصحیح ٣/١٥٢٠، کتاب الإمارة، باب فضل الرباط فی سبیل اللہ عز وجل، حدیث رقم (١٩١٣).

٢- ابن تيمية، الفتاوى الكبرى ٢/٤٤٤.

٣- هو أبو محمد، عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد القرشي التميمي التونسي المعروف بابن بزيرة، توفي سنة ٦٧٣هـ.

خير من الدنيا وما عليها".<sup>(١)</sup>

### ٣. الرباط أمان من عذاب القبر، وأجره جارٍ لا ينقطع:

عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفِتَانَ"<sup>(٢)</sup>.

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كُلُّ الْمَيِّتِ يُحْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ مِنْ فِتَانِ الْقَبْرِ"<sup>(٣)</sup>.

يبدو جلياً أن الحديثين حَوياً فضائل عديدة للرباط والمرابطين منها:

أنه أفضل من صلاة التطوع وصيامه - كما سبق بيانه آنفاً -.

وأن المرابط لا ينقطع عمله حتى بعد موته؛ بل يصل إليه ثواب عمله أبداً وينمي ويضاعف له أجره حتى يوم القيامة<sup>(٤)</sup>، وهذه فضيلة خاصة بالمرابط ليس لأحد غيره، كما يقول النووي: "هذه فضيلة ظاهرة للمرابطين وجريان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد"<sup>(٥)</sup>.

ويقول القرطبي: "إن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"<sup>(٦)</sup>، فإن الصدقة الجارية،

١- ابن حجر، فتح الباري ٦/٨٦.

٢- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، حديث رقم (١٩١٣).

٣- أبوداود، السنن، أول كتاب الجهاد، باب فضل الرباط، حديث رقم (٢٥٠٠). واللفظ له، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح. والترمذي، السنن، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً في سبيل الله، حديث رقم (١٦٢١). وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان، الصحيح، باب فضل الجهاد، ذكر انقطاع الأعمال عن الموتى وبقاء عمل المرابط إلى يوم القيامة مع أمنه من عذاب القبر، حديث رقم (٤٦٢٦).

٤- ينظر: علي القاري، مرآة المفاتيح ٦/٢٤٥٨.

٥- النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/٦١.

٦- مسلم، الصحيح، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد موته، حديث رقم (١٦٣١).

والعلم المنتفع به، والولد الصالح الذي يدعو لأبويه؛ ينقطع ذلك بنفاد الصدقات، وذهاب العلم، وموت الولد، والرباط يضاعف أجره لصاحبه إلى يوم القيامة؛ لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة وهي غير موقوفة على سبب فتقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة، وهذا لأن أعمال البر كلها لا يُتمكن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرز منه بحراسة بيضة الدين، وإقامة شعائر الإسلام، وهذا العمل الذي يجري عليه ثوابه هو ما كان يعمل به من الأعمال الصالحة".<sup>(١)</sup>

وينال المرابط مرتبة الشهيد إذا مات في الرباط؛ وإن لم يكن موته في ساحة المعركة والقتال ويدل عليه قوله ﷺ " وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقَهُ " ففيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [ آل عمران: ١٦٩ ] أي استمر رزقه بعد موته في الجنة كالشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون، وتكون أرواحهم في حواصل الطير تأكل من ثمر الجنة. <sup>(٢)</sup>

وأخيراً يؤمن من فتنة القبر وعذابه، وقوله ﷺ " وَأَمِنَ الْفِتَانَ " قال النووي: "ضبطوا (أمن) بوجهين:

أحدهما: أمن بفتح الهمزة وكسر الميم من غير واو. والثاني: (أومن) بضم الهمزة وبواو"<sup>(٣)</sup>.  
وأما (الفتان) فقال القاضي عياض: رواية الأكثرين بضم الفاء جمع فاتن قال ورواية الطبري

١- القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٤١٦.

٢- ينظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم ٣٤٢/٦، والطبي، الكاشف عن حقائق السنن ٢٦٢٧/٨، والصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير ٢٢١/٦، ولاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم ٥٨٥/٧.

٣- النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٦١/١٣.

بالفتح وفي رواية أبي داود في سننه (أُؤْمِنَ مِنْ فَتْنَانِي الْقَبْرِ<sup>(١)</sup>)<sup>(٢)</sup>. وعلى هذه الرواية يكون المراد بالأمن من فتنة القبر هو منكر ونكير أي لا يأتيانه ولا يختبرانه بل يكفي بموته مرابطاً شاهداً على إيمانه. لكن الأصح هو كما أشار إليه القاضي هو رواية "الفتان" وهو جمع فتن، ويكون للجنس أي يكون المرابط في مأمن من كل فتنة من فتن القبر كعذابه وشدّه وسؤاله واختباره وغير ذلك<sup>(٣)</sup>.

#### ٤. الرباط أمان من النار:

فكما أُؤْمِنَ من فتنة القبر الذي هو أول منزلة من منازل القيامة، فيؤمن المرابط أيضاً من عذاب النار يوم القيامة، فالله تعالى بعد أن يعثه فيؤمنه ويطمئنه بإنزال رحمته على قلبه حتى لا يشعر بأي خوف في هذا اليوم، الذي هو يوم الفرع الأكبر؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"<sup>(٤)</sup>. وهو شامل لجميع أنواع الحراسة في الجيش أو الثغر بالرباط فيه أو نحوهما لتحرس الغزاة والمسلمين وأموالهم.<sup>(٥)</sup>

#### ٥. يبعث المرابط على ما مات عليه:

عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، يحدث عن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ مَاتَ عَلَى مَرْتَبَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ بُعِثَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٦)</sup>. قال حيوة بن شريح - راوي الحديث -: "رِبَاطٌ أَوْ حَجٌّ أَوْ

١- ولا يوجد عند أبي داود بهذا اللفظ؛ بل ما عنده هو ما ذكرناه في بداية الفقرة ولفظه: "وَيُؤْمِنُ مِنْ فَتَانِ الْقَبْرِ" وأما ما أشار إليه القاضي فهو عند الطبراني، المعجم الأوسط، حديث رقم (٥٣١٢). عن أبي هريرة رضي الله عنه: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَرَى عَلَيْهِ رِزْقُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَنَمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَوُفِّيَ فَتْنَانِي الْقَبْرِ".

٢- ينظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم ٣٤٢/٦.

٣- ينظر: المناوي، فيض القدير ٣٤/٥.

٤- الترمذي، السنن ١٧٥/٤، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، حديث رقم (١٦٣٩). وقال: حديث حسن غريب.

٥- المناوي، فيض القدير ٣٦٩/٤، والصدريقي، دليل الفالحين ١٠٦/٧، والصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير ٣٥٨/٧.

٦- أحمد، المسند، مسند فضالة بن عبيد الأنصاري، حديث رقم (٢٤٥١٥). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.



نَحْوُ ذَلِكَ " فكما أن المحرم يبعث ملبيا، فالمرابط يبعث مرابطاً، والمجاهد يبعث مجاهدًا بالكيفية التي يريدّها الله عز وجل.

هذا ما وقفنا عليه فيما ثبت من السنة النبوية الشريفة في فضل الرباط والمرابطين. والله تعالى أعلم.

### المطلب الثالث: أثر الرباط في حماية الوطن

أشير فيما سلف في مفهوم الرباط بأن له معنى قديماً وآخر حديثاً. فالقديم: هو ملازمة الثغور والحدود بين المسلمين والكافرين أو حراسة الحدود بالمصطلح المعاصر. والحديث: بأنه لا يخص بمكان معين؛ بل من رابط في أي مكان يخاف منه التهديد على البلاد فهو مرابط ولو كان داخل أسوار العاصمة.

فبالنظر في كلا المعنيين نتلمس حقيقة واضحة للعيان وهي أن الرباط والمرابطة أساس متين من أسس حماية الوطن من شرّ الأشرار ومكر الماكزين ومكيدة الحاقدين، وفيما يأتي نعرض أهم معالم الرباط في حماية الوطن التي استلهمناها من مفهوم الرباط ووظيفته:

١. إنه تعزيز لجيش المسلمين وشدّ أزر له: الرباط أمان للجيش الذي يحمي الوطن ويقاوم من أجل حفظه وحمايته حيث يشعر بأنه مؤزر بقوة أمينة حافظة، فهذا الشعور يمنحه الطمأنينة ويعطيه القوة والعزة والعزيمة ليقوم بما عليه من دفع شرّ المعتدين على الوطن؛ حيث لا يخفى على أهل الشأن ما للقوة النفسية للجيش من أثر بالغ في ثبوته وصموده تجاه العدو فإن أولى نقطة الهزيمة في أغلب الجيوش هي الهزيمة النفسية والمعنوية ثم تليها الهزيمة على أرض الواقع والانسحاب من ساحة الوغى، والرباط هو من أهم الحوافز النفسية والمعنوية للجيش بعد العقيدة الراسخة في القلوب؛ ولذلك نجد النبي ﷺ يدعو للمرابط بالرحمة الإلهية والنفحات الربانية؛ ويقول: "رَحِمَ اللَّهُ حَارِسَ الْحَرْسِ" <sup>(١)</sup>. أي حارس الجيش. ويقول السندي: "المراد

١- ابن ماجه، السنن، أبواب الجهاد، باب فضل الحرس والتكبير، حديث رقم (٢٨٦٢)، والدارمي، السنن، كتاب الجهاد، باب في الذي يسهر في سبيل الله حارساً، حديث رقم (٢٤٤٠)، وأبو يعلى الموصلي، المسند، مسند عقبة بن عامر الجهني، حديث رقم (١٧٤٨)، والحاكم، المستدرک، كتاب الجهاد، حديث رقم (٢٤٥٢)، وصححه ووافقه الذهبي، إلا أن الدارمي أعله بالانقطاع، وضعفه أيضاً البوصيري

العسكر فإنهم يجرسون المسلمين فحارس العسكر صار حارسا للحرس"<sup>(١)</sup>. فيما أن المرابط بنفسه أصبح رحمة للجيش والمواطنين برياطه وملازمته الثغور ليكون لهم قوة وأمنا معنويًا وطمأنة نفسية، وعليه فهو حري برحمة الله عز وجل ويقول ﷺ: "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"<sup>(٢)</sup> ومن لم يكن راحمًا بأهله ووطنه فلا يمكنه القيام بهذا العمل الشاق الخطر.

ومما يحسن ذكره أن حارس الجيش كما يكون شدّ أزر للعسكر والجيش بالحراسة والمرابطة في الثغور، فيمكن أن يتحقق هذا التعزيز والتقوية للجيش بالتقنيات العسكرية الحديثة المعاصرة أيضا وذلك مثل القائمين على جهاز الرادار<sup>(٣)</sup> وغيره من الأجهزة الحديثة التي ترصد التحركات الخفية للعدو برًا وبحرًا وجوًا لصدها والحيلولة دون تحقيق أهدافها المضرة بالجيش والوطن، فهم أيضا مرابطون ولهم ما للمرابط في الثغور المتاخمة للحدود من الأجر والمنزلة وإن كانوا في غرفة أو زاوية في قلب عاصمة الوطن، فالنبي ﷺ حينما رجع من غزوة ودنا من المدينة فقال لأصحابه: "إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا فَطَعْتُمْ وَاذِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ"<sup>(٤)</sup> فهؤلاء نالوا أجر المجاهدين بنياتهم الصادقة فكيف بمن يسانداهم بالعمل مع النية الحسنة فهم أخرى بهذا الأجر ولا يخفى أن الرباط من جنس الجهاد أو نوع منه، ومما ينبغي أن نشير إليه هنا أنه من واجب الحكام وأصحاب السلطة في الديار الإسلامية تزويد جيوش المسلمين بأحدث

في مصباح الزجاجة ١٥٧/٣، لأجل صالح بن محمد في سنده حيث ضعفه غير واحد من الأئمة.

١- السندي، كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه ١٧٦/٢.

٢- أبوداود، السنن، كتاب الأدب، باب في الرحمة، حديث رقم (٤٩٢٦)، والترمذي، السنن، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، حديث رقم (٢٠٦٠)، وقال: حديث حسن صحيح.

٣- الرادار: نظام إلكتروني يستخدم لكشف أهداف ثابتة أو متحركة وتحديد مواقعها، يمكن له أن يحدد اتجاه أهداف بعيدة عن رؤية العين البشرية وتحديد مسافتها وارتفاعها، ويعمل الرادار بكفاءة في الليل، وحتى في الضباب الكثيف والمطر أو الثلج. (الموسوعة العربية العالمية ١١ / ٢٢، مادة «الرادار»).

٤- البخاري، الصحيح، واللفظ له كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجْر، حديث رقم (٤٤٢٣)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، حديث رقم (١٩١١).

التقنيات العسكرية العصرية ليتمكنوا من حفظ الوطن بما يناسب مقتضيات العصر، فإنه من القوة والرباط اللذين أشار إليهما الله عز وجل في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ۚ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مَن دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [ الأنفال: ٦٠ ] . وفسره النبي ﷺ بقوله: "أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ" (١). وقال القاضي عياض في شرحه: "أنه العدة والسلاح" (٢)، وقال النووي: " وفيه وفي الأحاديث بعده فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى وكذلك المشاجعة وسائر أنواع استعمال السلاح" (٣). وهذا يعني أن الرمي يشمل التدريب على جميع أنواع الأسلحة بنية الاستعداد لمواجهة العدو المعتدي، ويتجدد مفهومه بتجدد الزمان والمكان ليناسب والتقنيات الموجودة في كل عصر، وفي عصرنا هذا عبارة عن التدريب على الأسلحة والتقنيات العسكرية الحديثة لحماية الوطن من شرّ الأشرار.

٢. سدّ الباب أمام تسلل العدو: الرباط بتقنياته القديمة والحديثة سدّ منيع لحدود الوطن حتى لا يتمكن العدو من خرقها والتسلل منها لتحقيق مرامه من تجسس وتخريب ونشر الشرّ في بلاد المسلمين، فالرباط تخويف للعدو وتعزيز للحدود وسدّ للشغور والفروج المؤدية إلى الوطن، وبذلك تتّم حمايته من كلّ شرّ آت من خارج أسواره، ولا يخفى أن كل ذلك لا يحصل بغير الرباط والمرابطين في سبيل الله وهذا من أظهر آثار الرباط في حماية الوطن وحفظه من كلّ أنواع الشرور.

٣. تأمين المواطنين على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم: حماية الوطن هي من أجل المواطنين، فلا وطن بدون مواطن، ومن العوامل الأساسية التي توفر الأمن والأمان للمواطنين حماية حدود الوطن من أن تخترق من قبل المعتدين. والرباط وحراسة الحدود هي ما يوفر هذه الحماية، ويثّشر المواطنين بالأمان ويمنحهم الطمأنينة في القلوب والراحة في البال ليعيشوا

١- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، حديث رقم (١٩١٧).

٢- القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم ٦/٣٤٦.

٣- النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/٦٤.

بسلام ويجولوا في الوطن ويجوبوا بحرية، وعلاوة على ذلك فهناك أيضاً قوات أخرى تكمل مهمة حراس الحدود في توفير الأمن وهي القوات الأمنية الداخلية والشرطة والبوليس الذين يسهرون الليالي لأجل الحفاظ على أرواح المواطنين وأعراضهم وأموالهم، فهؤلاء أيضاً مرابطون وهكذا يجب أن نعلمهم ونربيهم بأن ما يقومون به رباط في سبيل الله تعالى ترغيباً لهم في عملهم هذا، وحثاً على أن يخلصوا نياتهم لله تعالى ويحسنوا في مهمتهم، وهذا يُعدّ من المجالات الحديثة للرباط ومن الثغور المعاصرة للمرابطة فيها، لأننا ذكرنا في بيان مفهوم الرباط بأنه لا يخص بمكان معين؛ بل إنه يتحقق في أي مكان يخاف منه التهديد على أمن الوطن وأهله سواء أكان على الحدود أو داخل مدن الوطن وقراه<sup>(١)</sup>.

ولا يخفى أن شعور الإنسان في نفسه وماله وعرضه من أعظم نعم الله تعالى على عباده، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا" <sup>(٢)</sup>. فمما يلاحظ من هذا الحديث الشريف أنه ﷺ ذكر الأمان في السُّرْب أولاً أي في النفس، وروي بفتح السين أيضاً أي في مسلكه وطريقه<sup>(٣)</sup> ثم ثنى بذكر العافية في البدن وثلث بالقوت، فهذا يدل على أن الشعور بالأمان في النفس والمال والمسلك سبب رئيس يُجْعَلُ من المرء أن يكون معافياً في بدنه وقادراً على توفير قوت نفسه وأهله حيث لا يخفى ما للقلق في النفس واضطراب في الحياة من أثر بالغ على الحالة الصحية والمعيشية للناس، وهذا يعني أن ازدهار الوطن وتطوره مرهون بوجود الأمان فأينما حلّ الأمان حلّت الحياة الهنيئة والعيش الرغيد، والرباط بتوفيره ذلك للوطن وأهله يكون سبباً لازدهار الوطن وتطوره وتقدمه، وهذا أيضاً يعدّ من إحدى معاني حماية الوطن الذي يتحصل من الرباط وعمل المرابطين.

#### ٤. حماية تجارة الوطن واقتصاده: الاقتصاد المستقر والمزدهر يشكل العمود الفقري لكل دولة

١- راجع مفهوم الرباط في المطلب الأول من هذا البحث.  
٢- الترمذي، السنن، أبواب الزهد، حديث رقم (٢٣٤٦)، وابن ماجه، السنن، أبواب الزهد، باب القناعة، حديث رقم (٤١٤١)، وقال شعيب الأرنؤوط وزملاؤه في تعليقه على ابن ماجه: حسن بمجموع شواهد.

٣- الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن ١٠/٣٢٩٢، القاري، مرقاة المفاتيح ٨/٣٢٥٠.

يراد لها القيام والدوام لا سيما في العصر الحاضر، وأساس هذا الاقتصاد هي التجارة المستقرة التي تعتمد على طريق آمن ومسلك محروس من الخوف واعتداء المعتدين، وشرّ الأشرار، وهذا ما يقوم به المرابط في ثغره ورباطه من حماية حدود الوطن وطرقه الخارجية وتأمين التجار على تجارتهم، وهذا بدوره يؤدي إلى ازدهار تجارة الوطن واقتصاده ومن ثمّ كونه وطنًا من بين الأوطان ذات القوة والعزة والتي يحسب لها كل حساب؛ ذلك أن الاقتصاد القوي يعدّ من إحدى الركائز الأساسية للدولة القوية والمزدهرة وذات الكلمة النافذة في العالم، وبذلك تتم حماية الوطن من كونه ألعوبة بيد الآخرين كما هو شأن الأوطان والدول التي ليس لها اقتصاد قوي وتجارة رائجة مستقرة، والسنة النبوية الشريفة مليئة بالتوجيهات القيمة والأسس الراسخة لبناء اقتصاد مستقر يستفيد منه كل المواطنين، ومن ذلك نهي ﷺ عن المعاملات التي من شأنها خلق الاضطراب والتشويش في تجارة البلد واقتصاده ومنها: ما روي عن أبي هريرة أنه قال: "نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ التَّلَقِّي، وَأَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ" <sup>(١)</sup>. وعنه ﷺ أنه ﷺ قال: "لَا يُتَلَقَّى الرَّكْبَانُ لِبَيْعٍ، وَلَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَلَا تَنَاحَشُوا، وَلَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ، وَلَا تُصْرُوا الْإِبِلَ وَالْغَنَمَ، فَمَنْ ائْتَاعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ بِحَيْرِ النَّظَرَيْنِ، بَعْدَ أَنْ يَحْلُبَهَا، فَإِنْ رَضِيَهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ سَخِطَهَا رَدَّهَا، وَصَاعًا مِنْ تَمْرٍ" <sup>(٢)</sup>. وغير ذلك من التوجيهات النبوية لحماية الوطن من الناحية الاقتصادية وسدّ هذه النافذة الخطرة بوجه الذين يريدون النيل من الوطن وأهله.

٥. تعزيز الوطن من الناحية السياسية: الحدود رمز لسيادة الأوطان والبلاد، فهي لها بمثابة العرض من الإنسان، ولذا حمايتها من خرقها والتعدي عليها يعدّ نقطة قوة وعزة للوطن تجاه مقابله ويجعله قويًا وذا كلمة نافذة من الناحية السياسية على مستوى جيرانه والعالم بأسره، ويحسب لمواقفه من أي قضية أو حدث يواجه المنطقة أو العالم ألف حساب؛ وذلك بخلاف الأوطان التي لم تعدّ لحدودها وتخومها حرمة، حيث يجوب فيها ويجول من يشاء وكيف شاء دون أن يحسب له و للقائمين عليه أي حساب، وهذا أمر لا يختلف

١- البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، باب النهي عن تلقي الركبان، حديث رقم (٢١٦٢).

٢- مسلم، الصحيح، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه وسومه على سومه، حديث رقم (١٥١٥).

عليه اثنان، وظاهر للعيان ظهور الشمس في رابعة النهار، ولا يخفى أن حماية الحدود بدون تلاحم واتحاد داخلي بين أطراف المجتمع المختلفة لا تفيد كثيراً في التعزيز السياسي للوطن، ولذا نجد النبي ﷺ علاوة على عنايته بحماية الحدود الخارجية توجه بشدة لحماية الثغور الداخلية وهذا ما يظهر جلياً في وثيقة المدينة<sup>(1)</sup> التي عقدها بين المهاجرين والأنصار، وبين المسلمين وغيرهم ليكون الوطن مسؤولية الجميع، ولا تنفرد طائفة دون الأخرى بالقرارات المصيرية التي تتعلق بالمصالح العليا للبلد مثل السلم والحرب وغيرهما، وما قيام النبي ﷺ بهذا الأمر العظيم الشأن إلا لأجل حماية الوطن من التفكيك الداخلي و ليكون دعماً مادياً ومعنوياً لحراس الثغور الخارجية، وبهذا أصبحت المدينة النبوية ذات عزة سياسية وكلمة نافذة في المنطقة واضطرّ الأعداء وأصحاب الإمبراطوريات العظيمة أن تحسب لها حسابات جادة.

٦. **حماية الوطن من الناحية الفكرية**، من المجالات الحديثة في حماية الوطن التي يمكن أن يتحقق فيها الرباط بتجنيد الجنود الخاصة لها هي حمايتها وأهلها من الناحية الفكرية وتحصينها ضد الهجمات الفكرية والثقافية التي تترى اليوم على بلادنا الإسلامية لتغزوا عقيدتنا وثقافتنا وحضارتنا وتشوه فكر أبنائنا وأجيالنا تجاهها وتمسخ عقولهم ولتهدد كياننا ووجودنا ما يسمى اليوم بالغزو الفكري<sup>(2)</sup>، فأمر بهذه الخطورة جدير بأن يكون له مرابطون مخصوصون ومختصون في شتى الاختصاصات العلمية ليكونوا بالمرصاد لتلك الهجمات الشرسة التي لا تقل خطورتها من الهجمات العسكرية؛ بل تفوقها في خبثها وضررها على الوطن وأهله لأن الأخيرة تحتل الأرض فمن الممكن تحريرها بوجود عقول حرة مدركة وقلوب نقية من الشبهات والشهوات؛ لكن إذا تم احتلال العقول والقلوب فتحريرها من أغلال الباطل الغارسة فيها أمر في غاية الصعوبة قد يستغرق عصوراً ودهوراً، وتغير المنكرات وإزالة الأباطيل واجب شرعي نصت عليه السنة النبوية في نصوص عديدة منها قوله ﷺ في حديثه المشهور: "مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ

١- لمزيد من التفصيل حول بنودها وتحليلها ينظر: العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ٣١٠ وما بعدها.

٢- محمود، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص ٩.

الإيمان<sup>(١)</sup>، ولا يخفى أن تشويه الحقائق وتلبيس الحق بالباطل من أنكر المنكرات، ومواجهة هذه الحرب الخفية القاتلة الفتاكة بالوطن وأهله يتحقق ببيان حقيقة تلكم الإشاعات والتشويشات العقديّة والفكرية والثقافية للمواطنين وكشف عوارها ليكونوا على بصيرة من أمرها ولا يقعوا فريسة بين يدي العدو، وأكدّ الشيخ الشعراوي على هذه الحقيقة ونصّ على أن الرباط لا يقتصر على رباط الخيل أو ما في معناه بل آفاقه أرحب ومجالاته أوسع فتتجدد بتحدد الزمان والمكان والمقتضيات ويقول: "والرباط لا يكون فقط أن ترابط بالخيل للعدو المهاجم هجوما ماديا، بل المرابطة تعني: الإعداد لكل ما يمكن أن يُرَدُّ عن الحق صحيحة الباطل، فمن المرابطة أن تعد الناشئة الإسلامية لوفادات الإلحاد قبل أن تفد، لماذا؟ لأن المسألة ليست كلها غزواً بخيل وسلاح وعُدَد، فقد يكون الغزو بالفكر الذي يتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر، فإذن لا بد أن تكون أيضاً في الرباط الذي يمد المؤمن بقدره وطاقة المواجهة بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التي قد تفد على المؤمنين، يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها"<sup>(٢)</sup>

٧. **حماية الوطن من الناحية الصحية:** في ظل التطورات العلمية تمكن الفكر البشري من الابداع في التقنيات العسكرية وابتكر وسائل فتاكة بالإنسان والحيوان والبيئة، ومن أحببها هو تصنيع الجراثيم الممرضة في المختبرات واستخدامها كوسيلة هجومية في الحروب ما يسمى بالحرب البيولوجية أو الجرثومية<sup>(٣)</sup>، وليس في حال الحرب فقط؛ بل قد يكون ذلك في حال السلم أيضاً بنشر جراثيم الأمراض المعدية في البلاد بواسطة الدماء الملوثة بها كمرض فقدان المناعة (الإيدز)، والسرطان وغيرهما، وأحياناً بإفساد الهواء بالغازات السامة، وأحياناً أخرى بتصدير المواد الغذائية غير الصالحة للاقتيات سواء أكان باسم الإغاثة وإعانة الفقراء والمُعوزين والمصابين بالكوارث بواسطة المنظمات المشبوهة، أو بواسطة الخونة من التجار ورجال الأعمال؛ كل ذلك من أجل إخضاع الشعوب والسيطرة عليها وعلى أوطانهم وسلب خيراتهم.

١- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، حديث رقم (٤٩).

٢- الشعراوي، تفسير الشعراوي ٤/١٩٧٦.

٣- عنان و الحميدي، وقفات بين الحرب البيولوجية وشبح الجمرة الخبيثة، ص ٣١ وما بعدها.

وهذا أيضا مجال آخر من المجالات المعاصرة البارزة للرباط، فعمل القائمين على المؤسسات الصحية التي تتولى أمر هذه الهجمات الجرثومية على الوطن لا يقل أهمية ومنزلةً من عمل المرابطين في الثغور إذا أحسنوا النية والعمل وكرسوا أنفسهم للبحث والدراسة والفحص والتحليل لمآكل المواطنين ومشاريهم ومآويهم، وكذا الذين يقيمون على المنافذ الحدودية والمطارات لمراقبة المواد الغذائية وغيرها مما يستورد للوطن للحيلولة دون دخول أي مادة ضارة بالوطن والمواطنين، ويجعلون من أنفسهم أعيُنًا ساهرة لأجل حماية الوطن من كل ما يمس أمنه الصحي والغذائي بسوء.

٨. **حماية الوطن من الناحية الإعلامية:** وهي أيضا من المجالات الحديثة للرباط، ولا يخفى أن الإعلام بأنواعه الثلاثة ( المسموع، والمقروء، والمرئي) في يومنا هذا له دور بارز سلبيًا وإيجابيًا على المجتمع توجيهًا وتثقيفًا وبالتالي على الأمن الوطني والقومي؛ ولذا فحماية المواطنين من الإعلام الرامي لإفساد أذهانهم وأفكارهم تجاه دينهم وعقيدتهم وحضارتهم ووطنهم أمر في غاية الأهمية، ويعدّ هذا من أحد أبرز معاني حماية الوطن، وذلك بتأسيس إعلام هادف يربي الأجيال على الاعتزاز بدينهم وعقيدتهم ووطنهم وحضارتهم ولا يشعرون بالنقص، الداء العضال، الذي أصاب كثيرًا من الشباب \_ مع الأسف \_ لانبهاره بالتطور العلمي والمعرفي الغربي. وكذا بوجود لجان ومؤسسات مختصة لمراقبة ما تعرضه القنوات الفضائية وما ينشر اليوم فيما يسمى بمواقع التواصل الاجتماعي وهي الطامة الكبرى التي عمت بها البلوى وتعلم الناس كل أفانين الشر المزين والباطل المزخرف مع وجود بعض الخير فيها لكن أتمها أكبر من نفعها؛ وذلك بهدف منع كل ما يضرّ بالعقول والقلوب والنفوس من الأفلام والبرامج والمنشورات، وكذا لصدّ الإشاعات الإعلامية والرد عليها التي تُشاع بها وتُروّج لها ضد أمن البلد وسيادته ومصالحه، وعلى الدولة توفير ما تحتاج إليه تلك المؤسسات من أجهزة وأدوات لازمة ليكون العاملون فيها والقائمون عليها مرابطين لصدّ كل ما يعرض وينشر في هذه المنافذ والوسائل الإعلامية من أنواع الشرّ التي تمس الأمن الوطني والقومي، ومن هنا تأتي الوصية النبوية التي تحذر المؤمنين تحذيرًا شديدًا من قبول أي خبر أو قول يسمعونه دون التحقق فيه حيث يقول ﷺ: "كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ" (١). فينبغي أن نتخذ من

١- مسلم، الصحيح، المقدمة ١/١٠، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، حديث رقم (٥).



## الرباط فضله وأثره في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية

---

هذه الوصية النبوية وأمثالها نبراسًا نربي بها أبناءنا وأهلنا كي لا يقعوا فريسة للوسائل الإعلامية الفاسدة، والصيحات الباطلة التي تنذر بشر مستطير إذا لم يتم معالجتها ومواجهتها.

وعليه فعمل الإعلاميين الذين يندرون أنفسهم لهذا الغرض النبيل ويرابطون في مؤسساتهم ويعملون ليل نهار لحماية الوطن من هذه الناحية الخطرة فإنه يوافق الرباط الذي نصّت عليه السنة النبوية الشريفة وما يقتضيه مفهومه -الذي بيناه فيما سبق- حيث الغرض الأسمى والأعلى لتشريع الرباط الذي هو حماية الوطن وأهله. فكلّ عمل يهدف لتحقيق ذلك فهو رباط في أي زاوية كان من زوايا الوطن.

فهذه هي أهم آثار الرباط في حماية الوطن من مناحي شتى، واعتبارات متعددة استنبطناها من مفهوم الرباط ووظيفته، وفي ضوء الأحاديث النبوية المذكورة في الرباط وفضله (١).

---

١- اعترافاً بالفضل لأهله وحفاظاً على الأمانة العلمية، أقول قد استلهمت فكرة النقاط الثلاث الأخيرة من كتاب: الرباط في سبيل الله ومجالاته المعاصرة، للأستاذ محمد جميل محمد ديب المصطفى.

## الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً، فبعد هذه الجولة الشائقة في رحاب هذا الموضوع الشيق الذي هو الرباط في سبيل الله وبيان فضله وأثره في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية الشريفة، توصل البحث إلى جملة من النتائج نوجز أهمها على الوجه الآتي:

١. كشف البحث أن أصل معنى الرباط مأخوذ من مرابطة الخيل، أي ارتباطها بإزاء العدو في الثغور، والرباط في اللغة يراد به الشد والثبات، كما يطلق أيضاً على معنى الصبر والشدة في القلب والنفس والمواظبة على الأمر، وكأن المرابط ينبغي أن يتحلى بالصبر والشدة في القلب والمواظبة وملازمة مكانه وإلا لا يكون مرابطاً.

٢. ورد لفظ (الرباط) بمشتقاته المختلفة في الكتاب والسنة بمعنى المرابطة، والصبر الجميل والشدة في النفس والقلب، والمواظبة على العبادات والأعمال الصالحة.

٣. عرف الفقهاء الرباط بتعريفات متعددة يمكن أن يفهم من مجموعها بأن الرباط عبارة عن الإقامة في مكان يخاف تسلل العدو منه إلى البلاد والهجوم عليها ليشكل خطراً على مواطنيها ومصالحها.

٤. خلاص البحث إلى أن القصد من الرباط حماية البلاد وأهلها بمختلف أديانهم ومعتقداتهم من شرّ الأشرار وحفظ أرواحهم وأعراضهم وأموالهم من التعدي عليها، وإعزاز دين الله عز وجل وجعل كلمة الله تعالى هي العليا.

٥. تبين بالبحث والتحري من كتب الفقه الإسلامي أنه خصّ كثير من الفقهاء الرباط بحدود الدولة الإسلامية وتخومها مع العدو، وكان ذلك منهم لأن غالباً ما كان خطر العدو على البلاد في زمانهم يطرأ عبر الحدود والثغور.

٦. يمكننا اليوم أن نوسع في معنى الرباط ليشمل الحدود وغيرها حتى ولو كان في قلب عاصمة البلد لأن الظروف قد تغيرت، والتهديدات قد تعددت، والثغور قد تنوعت، فالمرابط والمراقب

على شبكات الإنترنت مثلاً لدفع شرورها عن الوطن وأهله لا يقل أجرًا ومنزلة من الحارس الذي يحمي حدود الوطن من أن يخترقها العدو أو يتعدها.

٧. للرباط مكانة عظيمة في السنة النبوية حيث وردت في فضله ومكانته أحاديث عديدة تؤكد على القيام به وتحث عليه بشدة وتبين ما له من أجر عظيم وثواب جزيل عند الله تعالى.

وهذا الاعتناء من السنة الشريفة بالرباط وعمل المرابطين يعود لما له من فوائد عظيمة، ومنافع جليلة للإسلام والمسلمين بل وغير المسلمين القاطنين في البلاد الإسلامية، فله أثر كبير في حماية العباد والبلاد من شرّ الحاقدين، ومكر الماكرين، ونشر السلام والأمان في الوطن.

٨. للرباط آثار عظيمة في حماية الوطن من نواحي شتى كحماية حدوده من أن يتسلل منها شرّ إلى البلاد، وتعزيز لجيش المسلمين وشدّ أزرهم، كما أن له أثرًا كبيرًا في حماية الوطن من الناحية الأمنية والاقتصادية والسياسية والتجارية، وكذا الفكرية والصحية والإعلامية، وتوفير حياة سعيدة هنيئة للمواطنين.

٩. وبذلك يكون للرباط أثر بارز في ازدهار الوطن وتعزيزه من النواحي العسكرية والاقتصادية والسياسية والإعلامية والفكرية والمعيشية.

## المصادر والمراجع

- أبو إبراهيم محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكحلاني ثم الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير، الرياض، مكتبة دار السلام. ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، بيروت، مؤسسة الرسالة. ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد التميمي الدارمي البُستي، صحيح ابن حبان، بيروت، مؤسسة الرسالة. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِسْتَانِي، سنن أبوداود، بيروت، المكتبة العصرية. بدون تاريخ.
- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي. ١٣٩٢هـ.
- أبو الحسن علي بن (سلطان) محمد، نور الدين الملا الهروي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، بيروت، دار الفكر. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك المعروف بابن بطلال، شرح صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- أبو الحسن محمد بن عبد الهادي التتوي نور الدين السندي، كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، بيروت، دار الجيل. بدون تاريخ.
- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بيروت، دار إحياء التراث العربي. بدون تاريخ.
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، مقاييس اللغة، بيروت، دار الفكر. ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، شهاب الدين، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية. ١٣٢٣هـ.
- أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الفتاوى

## الرباط فضله وأثره في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية

- الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، الرياض، دار الوطن للنشر. ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، بيروت، دار العربية. ١٤٠٣هـ.
- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، سنن النسائي، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية. ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند أحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة. ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، المستدرك على الصحيحين، بيروت، دار الكتب العلمية. ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، الرياض، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع. ١٤٢٥هـ.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الكتب المصرية. ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، مفاتيح الغيب، بيروت، دار إحياء التراث العربي. ١٤٢٠هـ.
- أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، المختصر الفقهي، الإمارات، مؤسسة خلف أحمد الخبتور للأعمال الخيرية. ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه، سنن ابن ماجه، بيروت، دار الرسالة العالمية. ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، بيروت، دار طوق النجاة. ١٤٢٢هـ.
- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، سنن الترمذي، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع تقي الدين القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، إتحاف الأحكام

- شرح عمدة الأحكام، القاهرة، مطبعة السنة الحمديدية. بدون تاريخ.
- أبو الفرج شمس الدين عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، الشرح الكبير على المقنع، القاهرة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ١٩٩٥م.
- أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة. ١٣٧٩هـ.
- أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، إكمال المعلم بفوائد مسلم، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، بيروت، دار صادر. ١٤١٤هـ.
- أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى، الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت، دار الهداية. بدون تاريخ.
- أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللحمي الشامي الطبراني، المعجم الأوسط، القاهرة، دار الحرمين. بدون تاريخ.
- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت، دار الكتاب العربي. ١٤٠٧هـ.
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بخرام بن عبد الصمد الدارمي التميمي السمرقندي، سنن الدارمي، السعودية، دار المغني للنشر والتوزيع. ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.
- أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، تهذيب اللغة، بيروت، دار إحياء التراث العربي. ٢٠٠١م.
- أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلية، مسند أبي يعلى الموصلية، دمشق، دار المأمون للتراث. ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- جمال عبدالعزيز عنان وعبد العزيز بن عبد الله الحميدي، وقفات بين الحرب البيولوجية وشبح الجمره الخبيثة، بدون موقع نشر، ١٤٢٣هـ، وهو متاح على موقع جمال عبد العزيز ووصلة البحث هي:
- [https://www.researchgate.net/profile/Gamal\\_Enan/publication/270215898\\_Views\\_between\\_the\\_biological\\_warefare\\_and\\_the\\_fear\\_of\\_anthrax/links/54c0ef730cf28a6324a45a78/Views-between-the-biological-warefare-and-the-fear-of-anthrax](https://www.researchgate.net/profile/Gamal_Enan/publication/270215898_Views_between_the_biological_warefare_and_the_fear_of_anthrax/links/54c0ef730cf28a6324a45a78/Views-between-the-biological-warefare-and-the-fear-of-anthrax).

## الرباط فضله وأثره في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية

- زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، فيض القدير شرح الجامع الصغير، مصر، المكتبة التجارية الكبرى. ١٣٥٦هـ.
- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن، الرياض، مكتبة نزار مصطفى الباز. ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- صالح بن عبد السميع الآبي الأزهرى، الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي يزيد القيرواني، بيروت، المكتبة الثقافية. بدون تاريخ.
- علي عبد الحليم محمود، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام، فتح القدير، بيروت، دار الفكر. بدون تاريخ.
- محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الحرزي الشافعي، الكوكب الوهاج والروض البهّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار طوق النجاة. ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بيروت، دار الكتاب العربي. ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، شرح السير الكبير، القاهرة، الشركة الشرقية للإعلانات. ١٩٧١م.
- محمد جميل محمد ديب المصطفى، الرباط في سبيل الله ومجالاته المعاصرة، متاح على موقع صيد الفوائد، ووصلة البحث هي: <http://saaid.net/book/20.pdf>.
- محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشيلي المالكي، أحكام القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع. ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصر، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.
- موسى شاهين لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، القاهرة، دار الشروق. ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.





# أثر الأسرة في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية

الأستاذ الدكتور / مفرح بن سليمان القوسي  
أستاذ الدراسات العليا بكلية الشريعة بجامعة  
الإمام محمد بن سعود الإسلامية / السعودية - الرياض





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فتعد الأسرة أساس المجتمع واللبنة الأولى في بنائه، ومتى ما كانت هذه اللبنة قوية، قام صرح بناء المجتمع قويًا شامخًا، ومتى ما كانت ضعيفة، قام صرح بناء المجتمع ضعيفًا واهيئًا يُسرِع إليه التفكك والانحلال، كما تعد الأسرة الأساس الاجتماعي في تشكيل وبناء شخصيات أفراد المجتمع، حيث تُضفي على أبنائها خصائصها ووظيفتها.

ومن أشد ما يضر بالمجتمع في وقتنا الحاضر عدم شعور كثير من الشباب بالانتماء إلى وطنهم، وعدم غيرتهم عليه، بل وخذلانه في كثير من الأحيان، وانسياقهم خلف أفكار منحرفة ضالة تؤثر سلبيًا في وحدة الوطن وأمنه واستقراره.

ولا شك أن قيام الأسرة بمهامها الأساسية المنوطة بها، ولا سيما في مجال التربية والتنشئة السليمة سيسهم حتمًا في حماية الوطن ومحبتة والولاء له وحُسن الانتماء إليه والذود عنه .

ولدراسة تفاصيل هذه المهام وبيان آثارها تلك في ضوء هدي السنة النبوية وتوجيهاتها يجيء هذا البحث للمشاركة به في الندوة العلمية الدولية التاسعة (حماية الوطن في السنة النبوية: مقصد شرعي وضرورة مجتمعية).

## الدراسات السابقة:

تتمثل أبرز الدراسات السابقة المقاربة لدراستي هذه فيما يأتي:

- ١- (حب الوطن في ضوء السنة النبوية)، وهو بحث علمي للدكتورة ليلي محمد أسليم، تتضمن: مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، تناولت فيه الباحثة مسائل عديدة، منها: (الحنين إلى الوطن)، و(الدعاء له)، و(الرباط فيه)، و(السعي إلى رفعته)، وختمته بذكر وصيتين تخص

حب الوطن، إحداهما عامة، والأخرى خاصة بمناهج التعليم في فلسطين.

ويتفق بحثي مع هذا البحث في أمرين:

**أحدهما:** دراسة بعض المسائل التي هي من لوازم حماية الوطن، أمثال: حب الوطن والحنين إليه، والسعي إلى رفعته، وتنمية روح المحبة بين المواطنين.

**الثاني:** منهج الدراسة، حيث يغلب على الباحثين السعي إلى استنباط المسائل المتعلقة بالوطن من نصوص السنة النبوية.

ويختلف بحثي عن هذا البحث في كون موضوع بحثي أكثر شمولية من موضوعه؛ حيث إن بحثي يُعنى بدراسة حماية الوطن، بينما هذا البحث يُعنى بدراسة حب الوطن، ولا شك أن حب الوطن إنما هو جزء يسير من حمايته، وأحد لوازمه ومستتبعاته.

٢- (دور الأسرة في أمن المجتمع)، وهو بحث موجز للدكتور إدريس بن حامد محمد، تتضمن: مقدمة وصلب للبحث وخاتمة، تناول فيها المُعد - بإيجاز - مفهوم الأسرة وأهميتها وتكوينها وأهدافها، ومفهوم الأمن وأهميته وأقسامه، وأثر الأسرة في تحقيق الأمن النفسي والجسدي والغذائي والعقدي والاقتصادي والصحي.

ويختلف بحثي عن هذا البحث في عدة أمور هي:

أ- إني ركزتُ في البحث على الآثار التي تُحدثها الأسرة في تحقيق حماية الوطن، وهو ما يتطابق مع العنوان الرئيس للبحث، بينما تشتت جهد الباحث في الدراسة السابقة في الحديث عن الأسرة ذاتها ونشأتها وتكوينها، وعن الأمن وأقسامه، مع أن هذه المسائل لم يُنص عليها في العنوان الرئيس للبحث.

ب- إن بحثي أكثر شمولية من هذه الدراسة السابقة، ذلك أن موضوع الدراسة السابقة منحصر على بيان أثر الأسرة في تحقيق أمن المجتمع، وهو ما يُشكل جزئية واحدة من جزئيات موضوع بحثي (أثر الأسرة في حماية الوطن).

ج- إن موضوع بحثي جاء مقيداً ببيان أثر الأسرة في حماية الوطن في ضوء هدي السنة

النبوية وتوجيهاتها، بينما لم يُعن مُعد الدراسة السابقة بتوجيهات السنة النبوية في موضوعها.

د- هناك جانب منهجي، يتمثل في أن الباحث في الدراسة السابقة لم يُقسم صلب بحثه إلى فصول أو مباحث أو مطالب - كما هو العُرف المنهجي في البحوث العلمية الجادة - بل جاء على شكل فقرات متناثرة متفرقة، بينما جاء صلب بحثي مقسماً إلى مبحثين اثنين، كل مبحث منهما يختص بمسألة مستقلة.

٣- (دور الأسرة في تنمية قيم المواطنة لدى الشباب في ظل تحديات العولمة - رؤية اجتماعية تحليلية)، وهو بحث علمي للدكتور سعيد بن سعيد ناصر حمدان، تناول فيه بالدراسة المفاهيم الأساسية للدراسة، وهي مفاهيم: الأسرة، والقيم، والشباب، والعولمة، والمواطنة. ثم تحدث عن ثلاث مسائل، هي: (الشباب وثقافة العولمة)، و(المواطنة رؤية اجتماعية تاريخية)، و(دعائم المواطنة). ثم انتقل بعد ذلك كله إلى المسألة الرئيسة للدراسة، وهي (دور الأسرة في تنمية قيم المواطنة لدى الشباب في ظل تحديات العولمة). ثم ختم الدراسة بمجموعة من التوصيات والمقترحات المهمة.

وتتفق دراستي مع هذه الدراسة في تعريف مصطلحي (الأسرة) و(المواطنة)، وفي تناول العديد من الآثار التي تُحدثها الأسرة في تعزيز القيم المثلى للانتماء للوطن في نفوس الأبناء وتنشئتهم على تحقيق الأمن فيه.

وتختلف عنها في الأمور التالية:

أ) إن هذه الدراسة إنما تدرس آثار الأسرة في تنمية قيم المواطنة لدى الشباب في ظل تحديات العولمة، بينما دراستي تدرس هذه الآثار في ضوء هدي السنة النبوية وتوجيهاتها.

ب) إني ركزتُ في دراستي على الآثار التي تُحدثها الأسرة في تحقيق حماية الوطن، وهو ما يتطابق مع العنوان الرئيس لها، بينما تشتت جهد الباحث في هذه الدراسة في الحديث عن مسائل لم يرد لها ذكر في عنوانها الرئيس، وأعني بها مسائل (الشباب وثقافة العولمة)، و(المواطنة رؤية اجتماعية تاريخية)، و(دعائم المواطنة).

ج) هناك جانب منهجي، يتمثل في أن الباحث في الدراسة السابقة لم يُقسم صلب بحثه إلى فصول أو مباحث أو مطالب - كما هو العُرف المنهجي في البحوث العلمية الجادة - بل جاء على شكل فقرات متناثرة متفرقة، كما أن هذه الدراسة خلت من وجود مقدمة وخاتمة، بينما جاءت دراستي منضبطة منهجياً، من حيث تقسيمها إلى: مقدمة، وصلب للبحث ينقسم إلى مبحثين اثنين يختص كل مبحث منهما بمسألة مستقلة، وخاتمة.

### أهداف البحث:

يهدف البحث إلى ما يأتي:

- أ- تسليط الضوء على أهمية دراسة قضية (حب الوطن) في وقتنا الحاضر.
- ب- ترسيخ الوعي بمدى إسهام السنة النبوية في حماية الوطن، وأسبقيتها في تحصين المجتمع من الانحراف الفكري والضلال العقدي.
- ج- الإسهام في ترسيخ قيم الانتماء الوطني والأمن الفكري.
- د- رد الجميل للوطن، ببيان حقوقه، ووجوب المحافظة عليه والذود عنه.

### منهج البحث:

اقتضت طبيعة موضوع البحث ودراسة مسائله اتباع المنهجين التحليلي والاستنباطي في إعدادده، مع العناية بما يأتي:

- ١- الرجوع إلى المصادر الأصلية الخاصة بموضوع البحث.
- ٢- ترقيم الآيات القرآنية وبيان سورها، وضبطها وفق مصحف المدينة الإلكتروني.
- ٣- تخريج الأحاديث النبوية وبيان ما ذكره أهل الشأن في درجتها إذا لم تكن في الصحيحين أو أحدهما، فإن كانت كذلك اكتفيتُ حينئذ بتخريجها.

٤- تزويد البحث بفهرس للمصادر والمراجع، مرتبًا على حروف المعجم.

٥- أما بالنسبة للنقول والإحالات في الحواشي، فهي على النحو الآتي:

أ- إذا تصرفت في النص المنقول تصرفًا يسيرًا أوردته بين قوسي تنصيص وأشرت في الحاشية إلى أن النقل كان بتصرف يسير، وإذا تصرفت فيه تصرفًا كثيرًا ذكرت في الحاشية كلمة (انظر)، أما إذا لم أتصرف فيه مطلقًا بأن كان نقلًا حرفيًا أوردته بين قوسي تنصيص واكتفيت بالإشارة إلى المرجع دون كلمة (انظر).

ب- إذا كررت النقل من المرجع دون أن يفصل بين النقلين نقل من مرجع آخر، ذكرت في الحاشية عبارة (المرجع السابق)، أو (المصدر السابق).

والله أسأل العون والتوفيق والسداد،،،

## التمهيد

### التعريف بالمصطلحات الأساسية للبحث

لاشك في أن التعريف في مطلع أي بحث علمي بمصطلحاته الأساسية مهم جدًا لتحديد إطار البحث وحدوده، ولمعرفة مراد الباحث فيه ومقصوده، ولدينا في هذا البحث أربعة مصطلحات أساسية، هي: الأثر، والأسرة، والحماية، والوطن؛ أعرف بكل واحد منها على حدة فيما يلي:

#### ١- الأثر:

الأثر في اللغة العربية: بقية الشيء، والجمع آثار وأثور، يقال: خرجت في إثره وفي أثره، أي: بعده، وتأثرته: تتبعت أثره. والأثر بالتحريك: ما بقي من رسم الشيء، والتأثير: إبقاء الأثر في الشيء. وأثر في الشيء: ترك فيه أثرًا<sup>(١)</sup>.

ونستنتج مما تقدم أن كلمة (الأثر) تستخدم في اللغة بمعنى: نتيجة الشيء وما يترتب عليه من أحوال وأموار.

١- يُنظَرُ: ابن منظور، لسان العرب، مادة (أثر).

ولم يخرج استخدام العلماء لكلمة (الأثر) في الاصطلاح عن معناها في اللغة، فهم يستخدمونها في الاصطلاح على ما يترتب عليه الشيء، وهو المسمى بالحكم عندهم، كما أنهم يضيفون الأثر إلى الشيء، فيقولون مثلاً: أثر العقد، وأثر الفسخ، وأثر النكاح.

ويذكر الجرجاني أن الأثر يطلق في الاصطلاح على ثلاثة معاني، هي: النتيجة وهو الحاصل من الشيء، والعلامة، والجزاء<sup>(١)</sup>.

## ٢- الأسرة:

الأسرة في اللغة: مفرد جمعها أسر، وهي الدرع الحصينة<sup>(٢)</sup>.

وهي في الاصطلاح: عشيرة الإنسان ورهطه الأذنون لأنه يتقوى بهما.

أما مفهومها في الإسلام فيشمل الزوجين والأولاد وفروعهم، كما يشمل الأصول من الآباء والأمهات، ويدخل فيهم الأجداد والجدات<sup>(٣)</sup>.

## ٣- الحماية:

ترد كلمة (الحماية) في اللغة العربية بمعانٍ عدة متقاربة، منها: المنع، يقال: حمى الشيء يحميه حمايةً بالكسر: أي منعه، وحمى المريض ما يضره: منعه إياه، واحتمى هو من ذلك وتحمى: امتنع، ويقال: حميت المكان: منعته من أن يقرب. والحمي: المريض الممنوع من الطعام والشراب. والحميم: القريب المشفق، سمي بذلك لأنه يحتد حمايةً لذويه، فهو يدافع عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾<sup>(٤)</sup>.

ومنها: الحظر، يقال: هذا شيء حمي، أي: محظور لا يقرب.

ومنها: الاتقاء، وهو قريب من (المنع) حيث إن من احتتمى من شيء اتقاه، واتقاؤه امتناعه

منه.

١- يُنظَرُ: التعريفات، ص ١٣.

٢- يُنظَرُ: ابن منظور، لسان العرب، مادة (أسر).

٣- يُنظَرُ: محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ص ٦٢.

٤- سورة المعارج، الآية ١٠.



ومنها: الدفاع والنصرة: وهو أيضًا يدخل تحت المنع؛ إذ إنَّ المدافع عن الشيء يمنع عنه ما يضره، ولأنَّ النصرَ منع الغير من الإضرار بالمنصور، يقال: حَمَيْتُهُ حمايةً: إذا دافعت عنه، ومنعت منه من يقرَّبُهُ، ويقال: حَمَيْتُ القومَ حمايةً، أي: نصرتهم<sup>(١)</sup>.

ولا يختلف المعنى الاصطلاحي لكلمة (الحماية) عن معانيها اللغوية، فحماية المريض اصطلاحًا على سبيل المثال: منعه مما يضره من طعام أو شراب أو غيره، وحماية المدنيين: الدفاع عنهم، ومنع كل ما من شأنه إلحاق الضرر بهم.

#### ٤-الوطن:

الوطن - بحسب القواميس اللغوية - هو المنزل والمحل الذي يقيم فيه الإنسان، والجمع أوطان، يُقال: وطن بالمكان وأوطن، أي: أقام، وأوطنه: اتخذهُ وطنًا، وأوطن فلانٌ أرض كذا وكذا، أي اتخذها محلًا ومسكنًا يُقيم فيه، وأوطان الغنم والبقر: مراتبها وأماكنها التي تأوي إليها، وكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موطن له، والموطن المشهد من مشاهد الحرب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

ومن المصطلحات التي لها صلة وثيقة بمصطلح (الوطن)، ويكثر استخدامها لدى الباحثين المعاصرين، مصطلحات: (المواطن)، و(المواطنة)، و(الوطنية).

ولذا نجد الزمخشري يُضيف بُعدًا عاطفيًا للمعنى اللغوي لكلمة (الوطن)، فيقول: "وطن: كلُّ يُحب وطنه، وأوطان وموطن ومواطنة، والإبل تحن إلى أوطانها، ومن المجاز استعمالها في مراتب الغنم ومشاهد القتال"<sup>(٣)</sup>.

ونجد محمد العدناني يرى أن الفعل (واطنه) يعني وُجد معه في وطن واحد، مثلما يعني الفعل

١- يُنظَرُ: ابن منظور، لسان العرب، مادة (حمى). والفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة (حمى).

والزمخشري، أساس البلاغة، ص ٩٦. والراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص ٢٥٥.

٢- سورة التوبة، الآية ٢٥.

٣- القاضي الأحمد نكري، موسوعة مصطلحات جامع العلوم، ص ٩٨٢.

(عايشه): عاش معه، ومثلما يعني الفعل (ساكنه): سكن معه<sup>(١)</sup>.

ومصطلح (المواطن): مفاعلة من الفعل (وَأَطَنَ) الذي يعني وافق واتفق، فقولك واطنتُ فلاناً على هذا الأمر يعني اتفقتُ معه عليه<sup>(٢)</sup>.

وقد عُرفت (المواطنة) اصطلاحاً بأنها: "انتماء وولاء لعقيدة ووطن وقيم ومبادئ، والتزام من المواطن بتحمل مسؤولياته تجاه وطنه مقابل الحقوق التي يتمتع فيها بما"<sup>(٣)</sup>.

وأما مصطلح (الوطنية) فقد عرّفها الموسوعة العربية العالمية بأنها: حب الفرد وإخلاصه لوطنه والانتماء لأرضه وعاداته وتقاليده والفخر بتاريخه والتفاني في خدمته<sup>(٤)</sup>.

وبناءً على ما تقدم يكون المراد ب(أثر الأسرة في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية): نتائج جهود الأسرة في نصرته والذود عنه حسناً ومعنى، وحماية مقدراته ومنع كل ما من شأنه إلحاق الضرر به، والحفاظ على مكوناته وأصالته وثقافته النوعية ومنظومته الفكرية، والتصدي لكل العوائق والصعوبات والعقبات التي تحول دون كل ذلك، وذلك في ضوء توجيهات نصوص السنة النبوية، على صاحبها أتم الصلاة وأزكى التسليم.

## أثر الأسرة في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية

توطئة:

عند النظر والتأمل في الآثار التي تُحدثها الأسرة في تحقيق حماية الوطن، تبين لي أنها آثار كثيرة متعددة ومتنوعة، إلا أنه يُمكن تصنيف أبرزها في جانبين رئيسيين:

**الأول:** جانب إعدادي تأسيسي، يتمثل في تعزيز القيم المثلى للانتماء للوطن في نفوس الأبناء وتنشئتهم على تحقيق الأمن فيه، ولا سيما الأمن الفكري.

١- يُنظر: معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، ص ٧٢٥.

٢- يُنظر: الجوهرى، الصحاح. وابن منظور، لسان العرب، مادة (وطن).

٣- محمود سفريين وآخرين، الوطنية كائن هلامي، ص ٨٩-٩٠.

٤- يُنظر: مجموعة من الباحثين، الموسوعة العربية العالمية، ١١٣/٢٧.

**والثاني:** جانب وقائي تحصيلي، يتمثل في مواجهة التحديات التي تواجه حماية الوطن وتحقيق الأمن فيه، وتحول دون حمايته والولاء له والذود عنه.

ولذا سأخصص لكل جانب من هذين الجانبين مبحثاً مستقلاً، وذلك على النحو الآتي:

### المبحث الأول: تعزيز قيم الانتماء للوطن وتحقيق الأمن الفكري فيه

هناك العديد من المؤسسات والجهات التي لها أثر مهم في تعزيز قيم الانتماء الوطني والأمن الفكري، أمثال: الجامعات، والمساجد، ووسائل الإعلام، والسلطة الحاكمة...، إلا أن الأسرة تُعدّ من أهم المؤسسات في إعداد الناشئة عمومًا، والشباب منهم خصوصًا وتربيتهم على حب الوطن وحمايته والذود عنه، وتنمية روح المواطنة الصالحة لديهم فيه، حيث يقع على عاتق الأسرة مهمة كبيرة في هذا الجانب، لكونها المؤسسة الاجتماعية التي تُعنى بالتماسك الاجتماعي، والمصدر الأساس لتكوين الشخصية الإنسانية والانتماء والهوية الوطنية، ومفرز المُثل السلوكية والتكيف مع المجتمع والاندماج والتعايش مع أفراد من خلال المهام التي تقوم بها في تربية النشء.

كما أن الأسرة تُعدّ نواة المجتمع، والبيئة الأولى لتنشئة الطفل، فمن خلالها تتم أهم مراحل التربية والتوجيه للأبناء، وغرس القيم والأعراف والأفكار والمعتقدات فيهم، وبها تبدأ العلاقات بين الأفراد، ومن خلالها يعرف الإنسان كيف يعيش وكيف يتعامل مع الآخرين.

والأسرة أيضًا المحطة الأولى التي يتزود منها الأبناء بأهم أسس التربية السليمة ومقوماتها، وينبثق منها صلاح أو إغوجاج سلوكهم وأنماط تفكيرهم، وتحديد مهاراتهم ومعاييرهم.

وتُعدّ التنشئة الاجتماعية العملية المهمة التي يكتسب الفرد من خلالها قيم المجتمع الذي يعيش فيه وملامح هويته، والأسرة هي من يتولى هذه التنشئة لدى أبنائها في سنين نشأتهم الأولى، ثم تأتي مهام المدرسة والمناهج الدراسية - التي تُعدّ امتدادًا لمهام الأسرة في هذه التنشئة -، ومهام الزملاء والصحة ووسائل الإعلام والسلطة الحاكمة...، فالأسرة أهم المؤسسات التي تقع على عاتقها مسؤولية التنشئة الاجتماعية لأفرادها منذ مرحلة الطفولة وحتى مرحلة المراهقة والشباب وما بعدها من مراحل<sup>(١)</sup>، والقيم الصالحة المكتسبة عن طريقها هي قيم أساسية راسخة، لتلقي الفرد لها في

١- يُنظرُ: ماجد الزويد، الشباب والقيم في عالم متغير، ص ٤٥.

سني عمره الأولى، ولأن الفرد يبني عليها بعد ذلك كل ما يتلقاه - من وسائل التنشئة الاجتماعية الأخرى - من مبادئ ومعتقدات ومفاهيم وقناعات ومعايير ونحو ذلك، وقد بين رسول الله ﷺ ذلك في قوله: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)<sup>(١)</sup>.

والتنشئة الوطنية جزء لا يتجزأ من التنشئة الاجتماعية، حيث يتم عن طريقها غرس قيم المواطنة الصالحة ومقوماتها في نفوس الناشئة والشباب، وقد أشار الحكيم والفيلسوف الصيني (كنفشيوس) إلى أهمية التنشئة الوطنية في تحقيق استقرار البلاد، وأرجع أسباب الحكم في زمنه - في القرن السادس قبل الميلاد - إلى غياب روح المواطنة الصالحة لعجز الأسر عن تلقين أبنائها القيم الفاضلة واحترام المصلحة العامة<sup>(٢)</sup>.

ومن أبرز مقومات الانتماء الوطني والأمن الفكري، التي للأسرة أثر في تعريف الشباب بها وتنشئتهم عليها ما يلي:

#### ١- ترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة:

لا شك في أن رسوخ عقيدة الإيمان والتوحيد لها أثر كبير وفاعل في تحقيق الأمن عمومًا، والأمن الفكري خصوصًا، فقد كفل الله لأهل الإيمان الحصول على الأمن والهداية، حيث يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، ولأن (الأمن) هو جوهر (الإيمان)، فهما من جذر لغوي واحد مادته الألف والميم والنون، ويؤكد العلماء على أن من لوازم (الإيمان) حصول الطمأنينة والتحرر من مصادر الخوف والاضطراب، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث يعد رحمه الله (الإيمان) بمعنى الأمن حقيقة مؤكدة، لأن الإيمان في نظره مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة، وكما أن لفظ (الإقرار) مأخوذ من قرَّ

١- رواه الإمام البخاري في صحيحه - واللفظ له - من حديث أبي هريرة t في كتاب (الجنائز)، باب (ما قيل في أولاد المشركين)، الحديث رقم (١٣٨٥)، ص ٢٢٢. ورواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (القدر)، باب (معنى كل مولود يولد على الفطرة)، الحديث رقم (٦٧٥٥)، ص ١١٥٧.

٢- يُنظَرُ: بدر حمد الصلال، دور الفضائيات الكويتية الرسمية والخاصة في تعزيز المواطنة لدى الشباب الكويتي، ص ٣٧.

٣- سورة الأنعام، الآية ٨٢.

يَقْرُ، فَإِنْ لَفِظَ (الإيمان) مأخوذ من آمن يأمن، فالمؤمن داخل في الأمن، كما أن المُقِرَّ داخل في الإقرار<sup>(١)</sup>.

ولذا إذا حرصت الأسرة المسلمة على ترسيخ العقيدة الصحيحة في نفوس أبنائها فسيكون لذلك أثر بالغ في تحقيق الأمن الفكري في المجتمع، فالمواطن لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا جَسَدَ إيمانه في كفالة الأمن وإشاعته له في الحياة، لنفسه ولغيره، ويُؤكِّد ذلك قول النبي ﷺ: (المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)<sup>(٢)</sup>، كما أن الالتزام بعقيدة التوحيد هو التزام في الوقت نفسه بتوحيد الوجهة، ومن توحدت وجهته زال عنه الخوف والاضطراب، لقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، ولا مجال في ضلال عقيدة التوحيد لما يُسمى بأزمة الهوية الفكرية أو الثقافية التي تعاني منها كثير من النظم البشرية والمجتمعات المعاصرة، لتعدد هوياتها وتنوع انتماءاتها وتقلب أحوالها، فيكون ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مَوْلِيَا﴾<sup>(٤)</sup>.

كما أن رسوخ عقيدة الإيمان بالله تعالى في نفس المسلم يُمثِّلُ حصانة عقديّة وفكريّة له، فلا تزل قدمه في التزامه بدينه، ويسلم من الانحراف عن محجة الحق؛ إفراطاً وتفلاً أو غلواً وتطرفاً، ولا تتحاذبه الأهواء، ولا تُؤثِّرُ فيه الشكوك والشبهات التي يثيرها أهل البدع والضلال والأهواء.

١- يُنْظَرُ: مجموع الفتاوى، ٥٢٩/٧.

٢- رواه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي هريرة، الحديث رقم (٨٩١٨)، ٣٧٩/٢، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند: "إسناده قوي"، ورواه النسائي أيضاً في سننه، الحديث رقم (٤٩٩٥)، ٨/١٠٤، وقال عنه العلامة الألباني في تحقيقه لهذه السنن: "حسن صحيح".

٣- سورة البقرة، الآية ١١٢.

٤- سورة البقرة، الآية ١٤٨.

## ٢- تربية الأبناء على الاستقامة على منهج الإسلام وهدية:

يقول تعالى في الحث على الاستقامة على منهج الإسلام وهدية: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾<sup>(١)</sup>، ويقول سبحانه أيضًا: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾<sup>(٢)</sup>، ويقول عليه الصلاة والسلام في الحث على هذه الاستقامة: (اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْضُوا وَأَعْمَلُوا، وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ)<sup>(٣)</sup>.

ويُراد بالاستقامة هنا: الإقامة والدوام على هدي الله ﷻ وهدى رسوله ﷺ، والاستمرار بالانضباط بضوابط الإسلام، والوقوف عند حدوده، والاستجابة لأوامر الله والانتهاز عن محارمه<sup>(٤)</sup>.

يقول ابن القيم: "الاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، وهي تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، وتكون الاستقامة فيها بوقوعها لله، وعلى أمر الله"<sup>(٥)</sup>.

وإذا دأبت الأسرة على تربية أبنائها منذ الصغر على هذه الاستقامة المطلوبة وعلى الالتزام بهدي الله وشرعه وصراطه المستقيم المبرأ من كل عوج، فإنه حتمًا لن تتقاذفهم المذاهب والمناهج الفكرية المعوجّة، ولن تتجاوزهم البدع العقدية ولا الأهواء الفكرية، وسيسلمون من التخبط في تحديد وجهتهم في العبادة والتدين، يقول تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾<sup>(٦)</sup>، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٧)</sup>.

١- سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

٢- سورة هود، الآية ١١٢.

٣- رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (١٢٠٤)، ٢٧٧/٥، كما رواه ابن ماجه في سننه في كتاب (الطهارة)، باب (المحافظة على الموضوع)، الحديث رقم (٢٧٣)، ١٠٠/١، وحسنه ابن حجر في (هداية

الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة)، ١٨١/١.

٤- يُنظَرُ: أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، ١/١٦٥.

٥- مدارج السالكين، ٢/١٠٤.

٦- سورة طه، الآية ١٢٣.

٧- سورة الأحقاف، الآية ١٣.

كما أن من شأن هذه التربية أن تنمّي في الأبناء فضيلة محاسبة النفس على الدوام، ومراقبة الله في السر والعلن، وعمارة الفكر والسلوك بخلوص النية وصدق التوجه إليه سبحانه، فتكون الاستقامة هذه نوراً يسعى بين أيديهم يهديهم الطريق المستقيم، وروحاً تُضيء جوانب أرواحهم، وقيمة تُكسبهم السكينة والطمأنينة في معتقداتهم وأفكارهم<sup>(١)</sup>.

### ٣- حب الوطن:

لا يتحقق الانتماء الصحيح للوطن وحمانيته والحفاظ على أمنه الفكري لدى الأبناء إلا إذا استقر حب الوطن في أنفسهم، فهذا الحب لازم مهم جداً من لوازم المواطنة الحقة ومقوم أساس من مقوماتها، ولن يكون هذا الحب إلا إذا تأصلت بذرته في نفوس الأبناء منذ الصغر، وكلما كبروا واشتد عودهم كبر فيهم هذا الحب وامتألت به عقولهم واطمأنت إليه قلوبهم، وهذا مما يؤكد أثر الأسرة في تأصيل حب الوطن وتعهده ورعايته لدى الشباب. ويتمثل هذا الأثر في أمور عديدة لعل من أهمها ما يأتي:

**أولاً:** إقناع الأبناء بأن حب الوطن قيمة مهمة من القيم العليا التي جاء بها ديننا الحنيف وتمثلها نبينا محمد ﷺ في حياته في حبه لمكة المكرمة والمدينة المنورة؛ فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ عن مكة: (مَا أَطْيَبَ مِنْ بَلَدَةٍ، وَأَحَبَّ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنْ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ)<sup>(٢)</sup>، وقال عن المدينة: (اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحَبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ)<sup>(٣)</sup>.

**ثانياً:** إظهار محبة الوطن وتقديره واحترامه والشوق إليه لدى الأبناء، إذ إن مشاعر الحب

١- يُنظَرُ: أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، ١/١٦٥.

٢- رواه الترمذي في سننه في كتاب (المناقب)، باب (في فضل مكة)، الحديث رقم (٣٩٢٦)، ص ٨٨٣، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وصححه الحاكم في المستدرک، الحديث رقم (١٧٨٧)، ١/٦٦١، والبيهقي في شعب الإيمان، الحديث رقم (٤٠١٣)، ٣/٤٤٣، والألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي.

٣- رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب (الدعوات)، باب (الدعاء برفع الوباء والوجع)، الحديث رقم (٦٣٧٢)، ص ١١٠٧، ورواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب (الحج)، باب (الترغيب في سكنى المدينة)، الحديث رقم (٣٣٤٢)، ص ٥٧٨.

والرضا أو الكره والسخط أو غيرها من المشاعر والانفعالات يفهمها الأبناء ويستشعرونها، وربما يتشربونها فتصبح جزءاً من توجهاتهم وقناعاتهم. وهذا ما كان عليه النبي محمد ﷺ في إظهار محبته وتقديره للمدينة المنورة، وفي حرصه على غرس ذلك في صحابته الكرام؛ فقد جاء في حديث أبي حميد الساعدي ﷺ أنه قال: أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: (هَذِهِ طَابَةٌ، وَهَذَا أَحَدٌ، جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)<sup>(١)</sup>، حيث يظهر هذا الحديث تقديره ﷺ للمدينة المنورة، وتسميتها بأجمل الأسماء (طابة) بدلاً من اسم (يثرب) الذي كان شائعاً بين العرب في الجاهلية، لما فيه من التشريب، وهو اللوم والتعيير<sup>(٢)</sup>، أما طابة وطيبة فهي - كما يقول ابن بطال - "مشتقة من الطيب"<sup>(٣)</sup>.

ويؤكد النبي ﷺ بفعله على أهمية مشاعر الشوق إلى الوطن، فقد كان إذا أشرف على المدينة قادماً من سفر حرك دابته بيده الشريفة أو بعضاً ليحثها على السير من شدة شوقه إليها، يقول أنس بن مالك ﷺ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ<sup>(٤)</sup>، أَوْضَعَ نَاقَتَهُ<sup>(٥)</sup>، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَكَهَا)<sup>(٦)</sup>.

**ثالثاً:** تعريف الأبناء بأهمية الوطن ومزاياه وأمجاده وفضائله والجوانب المشرقة من تاريخه، وقيمه وقدره بين سائر الأوطان، وكذا مقدراته وإنجازاته وخيراته، وما أنعم الله على المواطنين فيه من نعم كثيرة، ومنها نعم الأمن والأمان والاستقرار.

١- رواه الإمام البخاري في صحيحه واللفظ له، في كتاب (المغازي)، الباب (٨٢)، الحديث رقم (٤٤٢٢)، ص ٧٥٢-٧٥٣، ورواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب (الحج)، باب (فضل أحد)، الحديث رقم (٣٣٧١)، ص ٥٨٢.

٢- يُنظَرُ: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثرب).

٣- أبو الحسن بن بطال القرطبي، شرح صحيح البخاري، ٥٤٤/٤.

٤- درجات المدينة، أي: طرقها المرتفعة. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٦٢٠/٣.

٥- أوضع ناقته، أي: أسرع في السير. يُنظَرُ: القاضي عياض بن موسى اليحصبي، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، ٢٩٠/٢.

٦- رواه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب (العمرة)، باب (من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة)، الحديث رقم (١٨٠٢)، ص ٢٩٠.



#### ٤- الولاء للوطن:

يُعدُّ الولاء للوطن من أهم مقومات حماية الوطن والذود عنه، وهذا الولاء لا بد أن ينعكس على سلوك الشباب، من حيث الاعتزاز بالوطن وقيمه وثوابته، والحرص على ممتلكاته ومقدراته ومنجزاته والحفاظ عليها، وتقدير رموزه وعدم الإساءة إليها، ومن حيث الدعاء للوطن وحب الخير له والاسهام في تطوره ورفقيه، والدفاع والذود عنه حسيًا ومعنويًا، والتضحية بالغالي والنفيس من أجله، وشاهد ذلك ما جاء في السنة النبوية من أن النبي ﷺ دعا بالخير والأمن والازدهار للمدينة المنورة حين سكنها، فقال: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبِرَّةِ)<sup>(١)</sup>، وقال: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدَّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ، وَخَلِيلُكَ، وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ، وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمَثَلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ، قَالَ: ثُمَّ يَدْعُو أَصْعَرَ وَلِيْدِ لَهُ، فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ)<sup>(٢)</sup>، وقال أيضًا في رواية أخرى: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَفِي ثَمَارِنَا، وَفِي مُدَّنَا، وَفِي صَاعِنَا بِرَكَّةً مَعَ بَرَكَةِ، ثُمَّ يُعْطِيهِ أَصْعَرَ مَنْ يَحْضُرُهُ مِنَ الْوِلْدَانِ)<sup>(٣)</sup>، وذلك لأن المدينة هي التي احتضنت الدعوة الإسلامية، واستقبلته عليه الصلاة والسلام، فكان من حقها أن يجبها كما أحب مكة وأن يدعو لها بالخير والنماء.

ولا شك أن للأسرة الأثر البالغ في غرس هذا الإحساس والشعور لدى الأبناء منذ نعومة أظفارهم، وتقديم القدوة الحسنة لهم فيها.

١- رواه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب (فضائل المدينة)، باب (المدينة تنفي النخب)، الحديث رقم (١٨٨٥)، ص ٣٠٣. ورواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب (الحج)، باب (فضل المدينة)، الحديث رقم (٣٣٢٦)، ص ٥٧٥.

٢- رواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب (الحج)، باب (فضل المدينة)، الحديث رقم (٣٣٣٤)، ص ٥٧٦.

٣- رواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب (الحج)، باب (فضل المدينة)، الحديث رقم (٣٣٣٥)، ص ٥٧٦.

## ٥- الالتزام بالأنظمة والقوانين:

الالتزام بأنظمة الوطن وقوانينه من أهم صفات المواطن المسؤول، فهذه الأنظمة والقوانين لم توجد إلا لتنظيم شؤون الوطن وتطويره وتحسين أحواله وأوضاعه في كل مجالات الحياة، ولا شك أن أي إخلال بهذه الأنظمة والقوانين يؤثر تأثيراً سلبياً في أمن الوطن واستقراره.

إن احترام الشباب لأنظمة الوطن وقوانينه من أهم سمات رقيهم وتحضرهم، فالأنظمة والقوانين أحد أبرز جوانب الانتقال من الحالة البدائية إلى الحالة الحضارية للمجتمعات في التاريخ الإنساني، وأمام الأسرة الكثير من الفرص لتربية الأبناء على احترام الأنظمة والقوانين والالتزام بها، انطلاقاً من قناعاتهم بضرورتها وأهميتها، لا خوفاً ووجلاً من العقاب على خرقها وإهمالها، ومتابعة تقييد الأبناء بهذه الأنظمة والقوانين ومدى تنفيذهم واحترامهم لها.

وقد جاءت الشريعة الإسلامية داعية إلى الالتزام بالأنظمة والقوانين في كل مناحي الحياة الإنسانية، في جانب العقيدة والعبادة والأخلاق والسلوك والعلاقات الاجتماعية...، وذلك للحفاظ على الضرورات الخمس، وهي: الدين والنفس والعرض والمال والعقل.

ويربي الإسلام المسلم على الالتزام بالأنظمة والقوانين ويُعوّده على احترامها، وذلك من خلال نظام العبادة الإسلامية فيه؛ فالصلاة مثلاً من أعظم شعائر الإسلام التي تحت على الالتزام بالنظام، فهي عبادة لا تؤدّى إلا في وقت محدد معلوم، وبهيئة مخصوصة، ولهذا جاء في الحديث: (إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِنْ صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا)<sup>(١)</sup>، فلا يسوغ للمأموم أن يتقدم أو يتأخر على إمامه، بل عليه أن ينتظم في الصلاة، ويقتدي بإمامه في أدائها.

وكذلك إذا صف المصلي في الصلاة فعلية أن يقيم هذا الصف، ولا يتقدم على إخوانه ولا يتأخر، ولا يترك فراغاً بينه وبين إخوانه في الصلاة، بل على المصلين جميعاً أن يسوا الصفوف،

---

١- رواه الإمام البخاري في صحيحه واللفظ له، في كتاب (الصلاة)، باب (الصلاة في السطوح والمنبر والخشب)، الحديث رقم (٣٧٨)، ص ٦٧. ورواه الإمام مسلم في كتاب (الصلاة)، باب (إتتمام المأموم بالإمام)، الحديث رقم (٩٢١)، ص ١٧٤.

كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: ( لَتَسُوَنَّ صُفُوفُكُمْ، أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ <sup>(١)</sup> )، وكذلك الحال في سائر أركان الإسلام الأخرى.

واحترام الأنظمة وتطبيقها وعدم مخالفتها دليل على الاجتماع والائتلاف والحرص على مصلحة الوطن والحفاظ عليه، فلا يُقبل من المواطن تحقيق الخير والمصلحة لنفسه على حساب إخوانه المواطنين؛ لأن تحقيق المصلحة الشخصية على حساب الجماعة مخالف لأمر الله جل وعلا الذي أمر بالتعاون والمحبة بين المسلمين، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (اللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْمَرْءُ فِي عَوْنِ أَحِيهِ) <sup>(٢)</sup>، ويقول كذلك: (لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَجُلْ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ) <sup>(٣)</sup>؛ ففي ظل هذا النظام يسود التعاون والمحبة، وينتفي البغض والحسد والخصام والخداع والخيانة.

## ٦ - التسليح بالعلم والمعرفة:

يُعدّ التسليح بالعلم والمعرفة، وتنمية العقول وتطوير المهارات لخدمة الوطن من أهم مقومات حمايته والذود عنه، فالعلم يجرّ العقول من الأوهام، ويقضي على الكساد والفساد، ويدير حركة الإنتاج، ولا بد منه لتحقيق الرقي والنهضة، وهو شرط لتحقيق النصر على الأعداء.

ويُعد العلم والمعرفة من أهم العوامل الأساسية لتقدم المجتمعات الإنسانية وتحضرها، ومظهر من مظاهر قوة الأمم وعظمتها وقدرات أبنائها، ودعامة كبرى لاقتصادها، ومن ثمّ قدرتها على تحقيق رفاهية شعوبها، ولذا نجد تنافسًا شديدًا بين دول عالمنا المعاصر في العناية والاهتمام بتحصيل العلوم والمعارف، ممثلة بمؤسساتها التعليمية ومراكز بحوثها الأكاديمية <sup>(٤)</sup>.

١- رواه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب (الأذان)، باب (تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها)، الحديث رقم (٧١٧)، ص ١١٧.

٢- رواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب (الذكر والدعاء)، باب (فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر)، الحديث رقم (٦٨٥٣)، ص ١١٧٣.

٣- رواه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب (الأدب)، باب (ما ينهى عن التحاسد والتدابير)، الحديث رقم (٦٠٦٥)، ص ١٠٥٩. ورواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب (البر والصلة والأدب)، باب (تحريم التحاسد والتباغض والتدابير)، الحديث رقم (٦٥٢٦)، ص ١١٢٢.

٤- يُنظَرُ: الأستاذ الدكتور مفرح القوسي، مدخل في العلم والمعرفة والبحث العلمي، ص ١٥٥-١٥٦.

والعلم أيضاً أرض خصبة لتكوين رجال المستقبل الذين هم عماد الوطن وحماته، الذين يعرفون بالعلم والمعرفة الصحيحة ما لهم وما عليهم، وتتكون لديهم القدرة على مواجهة الأفكار الفاسدة والثقافات الضالة التي تأتي من الأعداء، والقدرة على تصحيح العقول الفاسدة، وهداية القلوب الضالة، وإمداد الوطن بدلائل الخير والإرشاد والأخذ بالقوة، وتوجيهه إلى الطريق المستقيم والوجهة السليمة.

وقد أكدت السنة النبوية على فضل العلم وأهمية طلبه، ومن ذلك على سبيل المثال: ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)<sup>(١)</sup>، وقوله ﷺ: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتَها رضى لطلب العلم، وإنَّ العالمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ)<sup>(٢)</sup>، وقوله ﷺ: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)<sup>(٣)</sup>.

ولا شك في أن الناشئة من الطلاب والطالبات في المدارس والمعاهد والجامعات هم أولى الناس اليوم بالتزود بالعلوم والمعارف في مختلف المجالات، من خلال جدّهم واجتهادهم في التحصيل الدراسي؛ دراسة وفهماً وتطبيقاً، ومهارات ذهنية وعملية، ليكونوا - بتمكّنهم من هذه العلوم

١- رواه ابن ماجه في سننه، في باب (فضل العلماء والحث على طلب العلم)، الحديث رقم (٢٢٤)، ص ٥٦، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، باب (قوله ﷺ: طلب العلم فريضة على كل مسلم)، ١/٨، وقد حسّنه العجلوني في كشف الخفاء، برقم (١٦٦٥)، ٢/٤٣ - ٤٥، وصححه الشيخ الألباني في تحقيقه لسنن ابن ماجه.

٢- رواه أبو داود في سننه في (كتاب العلم)، باب (الحث على طلب العلم)، الحديث رقم (٣٦٤١)، ٣/٣١٧، ورواه الترمذي في سننه واللفظ له، في كتاب (العلم)، باب (ما جاء في فضل الفقه على العبادة)، الحديث رقم (٢٦٨٢)، وصححه الألباني في تحقيقه لسنن أبي داود، وحسّنه عبدالقادر الأرناؤوط في تحقيقه ل(جامع الأصول في أحاديث الرسول)، ٧/٨.

٣- رواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب (الوصية)، باب (ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته)، الحديث رقم (٤٢٢٣)، ص ٧١٦.

والمعارف - خير جنود لهذا الوطن يسعون إلى بنائه وتحقيق تطوره ورفقيه.

ولن يتحقق هذا التسليح بالعلم والمعرفة إلا بجهود الآباء في تعليم أولادهم، وذلك بغرس حب العلم وطلبه في أنفسهم منذ الصغر، وإقناعهم بقيمته وفضله وكذا فضل العلماء والمبدعين، والمبادرة إلى تعليمهم، وتذليل كل الصعاب والعقبات التي تعترض طريقهم في هذا التعلم، وتخفيفهم وتشجيعهم على خوض غمار كل العلوم والمعارف التي توافق ميولهم وتناسب قدراتهم، وتهيئة كل الإمكانيات والسبل التي تمكنهم من ذلك.

#### ٧- التمسك بملامح الهوية الوطنية:

يُقصد بالهوية الوطنية هنا: السمات والقسمات العامة المشتركة والثوابت التي تمثل شخصية الوطن وذاتيته، ويعتز بها المنتسبون إليه، ويمتاز بها عما سواه من الأوطان الأخرى.

"وتتمثل مكونات هوية أي أمة في: الدين والعقيدة، واللغة، والأرض، والجنس، والتاريخ، والعادات والتقاليد، والمصالح المشتركة"<sup>(١)</sup>.

ومن الأحاديث الشريفة التي تؤكد على الأمة الإسلامية وجوب المحافظة على دينها - بصفته أول مكونات الهوية - ما جاء في التحذير من التشبه بالمشركين، فقد روي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ)<sup>(٢)</sup>، وذلك لتبقى أمة الإسلام محافظة على هويتها مستقلة بذاتها، ولذا كان عليه الصلاة والسلام حريصاً في توجيهاته لأمته في أمور دينها وديناها على ضرورة حفاظها على مكونات هويتها التي تمتاز بها عن سائر الأمم الأخرى، حتى أن اليهود قالوا عنه: (مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ)<sup>(٣)</sup>.

ولا شك أن للأسرة أثرًا كبيرًا في تمسك أبنائها بمكونات هذه الهوية وملاحمها، من خلال

١- أ.د. مفرح بن سليمان القوسي، ملامح الهوية التي ينبغي أن يتميز بها المسلم في حاضره المعاصر، ص ١٥.

٢- رواه أبو داود في سننه، في كتاب (اللباس)، باب (في لبس الشهرة)، الحديث رقم (٤٠٣١)، ج ٤/ص ٤٤. وقد أورده الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب) برقم (٢٠٨٩).

٣- رواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب (الحيض)، باب (جواز غسل الخائض رأس زوجها وترجيله)، الحديث رقم (٦٩٤)، ص ١٣٨.

تشبث الأسرة بهذه المكونات والملامح والحفاظ عليها، وتنمية ذلك كله في الأبناء وحفزهم عليها، ومن حيث عدم التفريط في هذه المكونات بحجة اللحاق بكل ما هو عصري وجديد.

#### ٨- الشعور بالمسؤولية وتحملها:

يتفاوت المواطنون في درجة تحملهم للمسؤولية، ولذا يظهر في أدبيات المواطنة مصطلح (المواطن المسؤول - Responsible Citizen)، والفرد لا يولد مسؤولاً، وإنما يتربى على تحمل المسؤولية من خلال التربية والتنشئة الاجتماعية، ويُقصد بالمسؤولية هنا إدراك الفرد لأثر تصرفاته في الآخرين، وهو واجب يقوم به الإنسان على المستوى الشخصي، وكذا على المستوى العام، وتستطيع الأسرة أن تنمي هذا الشعور عند أبنائها من خلال تعويدهم بالتدرج منذ الصغر على التمسك بأركان العقيدة الإسلامية الصحيحة وأصولها، والاهتمام بأداء العبادات الدينية، ومراعاة المبادئ والقيم الخلقية، والاهتمام بالمقررات والواجبات المدرسية، والمحافظة على ممتلكاتهم وأغراضهم الشخصية، واحترام المواعيد في حياتهم اليومية، مثل: مواعيد الأكل والشرب والنوم والذهاب إلى المدرسة، وإدارة مصروفاتهم اليومية، ونحو ذلك مما ينمي لديهم روح الشعور بالمسؤولية. ومن خلال تكليفهم بالمهام الأسرية بحسب ظروفهم وإمكاناتهم، وتشجيعهم ومكافأهم عند الإصابة، وتصويبهم عند التعثر والوقوع في الأخطاء، ومنحهم الثقة والأمل والتصميم على النجاح. كل ذلك انطلاقاً من قول النبي ﷺ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)<sup>(١)</sup>.

#### ٩- العناية بالعمل وتقديره:

من أهم واجبات المواطن أن يعمل، وأن يكون فرداً منتجاً في وطنه؛ للإسهام في نمو الوطن ورفعته وتحقيق استقلاله الاقتصادي؛ وللنأي بالمواطن عن أن يكون عالة على غيره في المجتمع، كما أن العمل هو السبيل لعمارة الأرض التي أمر الإنسان بها بصفته خليفة الله تعالى في أرضه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال أيضاً: ﴿هُوَ

١- رواه البخاري في صحيحه في كتاب (الجمعة)، باب (الجمعة في القرى والمدن)، الحديث رقم (٨٩٣)، ص ١٤٣-١٤٤. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب (الإمارة)، باب (فضيلة الأمير العادل)، الحديث رقم (٤٧٢٤)، ص ٨٢٠.

٢- سورة البقرة، الآية ٣٠.

أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿١﴾.

ومن لوازم العناية بالعمل وتقديره: إحسان العمل وإتقانه والإجادة فيه، ذلك أن الإسلام يحض على إتقان العمل وزيادة الإنتاج، ويُعدّ ذلك أمانة ومسؤولية، فليس المطلوب في الإسلام مجرد القيام بالعمل، بل لا بد من الإحسان والإجادة فيه وأدائه بمهارة وإحكام، فذلك مدعاة لنيل محبة الله ومرضاته سبحانه، يقول النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ)<sup>(١)</sup>، ويقول كذلك: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ)<sup>(٢)</sup>.

ويمكن للأسرة أن تدعم ذلك كله بتربية أبنائها ليكونوا أفرادًا منتجين في وطنهم لا مستهلكين؛ فتنمية الوطن لا تتم إلا بسواعد أبنائه ولا سيما الشباب منهم، فهم طاقة الوطن وجنوده الذين لا يستغنى عنهم في هذه التنمية.

#### ١٠ - تقوية الروابط والصلات بين أفراد الوطن وفئاته:

من أهم مقومات حماية الوطن والذود عنه: تقوية الروابط بين أفراد الوطن، وتوثيق عرى الصلات بين فئاته وأطيافه المختلفة، والقضاء على الطائفية المقيتة، وكل أشكال التفرقة العنصرية، سواءً كانت دينية أم مذهبية أم قبلية أم جهوية أم غيرها، استجابة لقوله ﷺ: (دَعَوْهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ)<sup>(٣)</sup>.

وذلك لتحقيق تماسك المجتمع وتضامنه وتحقيق التكامل التفاعلي بين أفرادهِ. ولا شك أن للأسرة أثرًا بالغ الأهمية في ذلك، من حيث تربية أبنائها على مبادئ المحبة والتواضع والاحترام

١- سورة هود، الآية ٦١.

٢- رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٥٣١٢)، ٣٣٤/٤، وصححه الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) برقم (١١١٣)، ١٠٦/٣.

٣- رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (الصيد والذبائح)، باب (الأمر بإحسان الذبح والقتل)، الحديث رقم (٥٠٥٥)، ص ٨٧٣.

٤- رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب (التفسير)، باب (يقولون لأن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)، الحديث رقم (٤٩٠٧)، ص ٨٧١. ورواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب (البر والصلة والأدب)، باب (نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا)، الحديث رقم (٦٥٨٣)، ص ١١٣٠.

والتسامح والتعايش والتكاتف مع الآخرين في منظومة الوطن الواحد، ونبذ كل مظاهر العنف والشقاق والكراهية والاستعلاء على المواطنين الآخرين أو ازدرائهم والخط من قيمتهم وقدرهم أو غمطهم حقوقهم التي تكفلها لهم أنظمة الوطن وقوانينه، وكذا تربية الأبناء على مبادئ الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية، وكرامة بني البشر التي منحهم الله عز وجل إياها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾<sup>(١)</sup>، ومبدأ التوازن بين الحقوق والواجبات، وتكافؤ الفرص بين سائر المواطنين في العمل للوطن وخدمته، فهو وطن للجميع، لا لفئة دون أخرى.

### المبحث الثاني:

### مواجهة تحديات قيم الانتماء للوطن وتحقيق الأمن الفكري فيه

يواجه الانتماء الوطني والأمن الفكري في المجتمع المسلم المعاصر تحديات كثيرة ومتنوعة، لعل من أبرزها مما له علاقة مباشرة بموضوع البحث هنا ما يلي:

١- ما تبثه وسائل الإعلام المختلفة - ولاسيما القنوات الفضائية - ووسائل التواصل الاجتماعي من أفكار وطروحات كثيرة تروج لعقائد باطلة، وأفكار هدامة، ودعوات مغرضة لإثارة الفتن وبث روح الخلاف، والشقاق، والنزاع بين أبناء الوطن وفتاته، وإثارة العصبية المذهبية، والنعرات الطائفية، والانقسامات الحزبية، ونحو ذلك مما يؤدي إلى تفتيت الوطن والقضاء على وحدته.

٢- ولع كثير من الشباب بالتمرد على الأنظمة والقوانين والقيم والأعراف الاجتماعية المعتمدة في المجتمع، وسعيهم إلى تبني العنف والثورات على ساسة الوطن وقياداته الأمنية بدعوى تغيير المجتمع وتطويره، وانخداعهم بالكثير من الشعارات والوعود المقدمة لهم - غالباً - من جهات خارجية تترصد بالوطن الدوائر وتكيد له.

٣- عزوف كثير من الشباب عن التفاعل الإيجابي المثمر مع مؤسسات الوطن وتطلعاته، وبرامجه، وخططه التنموية، وإنجازاته الحضارية، وانصرافهم عن خدمته ونصرة قضاياه.

١- سورة الإسراء، الآية ٧٠.



٤- تخلي كثير من الآباء عن واجباتهم في توجيه الأبناء وإرشادهم إلى السلوك السليم، وضعف مهمتهم الرقابية على أبنائهم أو انعدامها، نتيجة انشغالهم بأعمالهم وغيابهم فترات طويلة عن المنزل، ومن ثمَّ غياب الحوار البناء داخل الأسرة بين الآباء والأبناء، وتأثر كثير من هؤلاء الأبناء برفقاء السوء.

٥- وجود فجوة كبيرة بين كثير من الآباء وأبنائهم، حيث تشعر أعداد متزايدة من الشباب بوجود فاصل زمني ومساحة كبيرة في أنماط التفكير والسلوك بين جيلهم وجيل من سبقهم من الآباء والمربين والمسؤولين في وطنهم، تؤدي - في كثير من الأحيان - إلى اختلافات كثيرة بين الجيلين واحتفاظ كل طرف منهما بنظرة نمطية مسبقة عن الطرف الآخر تحتوي على العديد من الأحكام الجاهزة غير القابلة للنقاش والتغيير؛ فبينما ينظر كثير من الشباب إلى الجيل الذي سبقهم على أنهم محافظون وجامدون ومتشبثون بالأعراف والضوابط الاجتماعية، ومتسلطون في التعامل معهم عبر الاكتفاء بإصدار الأوامر والنواهي، وممارسة الوصاية عليهم والتدخل في اختياراتهم الشخصية في مجالات التعليم والمهنة والزواج، وربما في الملبس والمظهر ... الخ. لا يرى كثير من جيل الآباء والمربين في الشباب إلا الاندفاع، والسفه، والطيش، وعدم المبالاة، وقلة الخبرة، والتهرب من تحمل المسؤولية.

٦- هيمنة العولمة الغربية، وسعيها إلى محو الهويات الوطنية وإزالة الحواجز والخصوصيات بكل أنواعها بين شعوب العالم، وفرض النمط الغربي عمومًا والأمريكي خصوصًا على حياة الناس وثقافتهم وسلوكهم.

٧- فشو ظاهرة التكفير والغلو في الدين والخروج على ولاة الأمر فيها لدى كثير من الشباب في البلاد الإسلامية، تأثرًا بجهات خارجية مغرضة، وانحرافًا عن محجة الحق في منهج التلقي من نصوص الكتاب والسنة.

وتستطيع الأسرة مواجهة هذه التحديات ونحوها من خلال القيام بما يأتي:

أولاً: توجيه الأبناء إلى حسن استخدام وسائل الإعلام والاتصال وترشيده، والتنبيه على أنها وسائل ذات حدين إيجابي وسلبي، ولها أثر مزدوج، فهي تحمل في طياتها نفعًا عميمًا أو شرًا عميمًا،

يكمن - هذا الشر - فيما تحدته من أضرار عقدية وثقافية واجتماعية وأخلاقية، وتحذيرهم من هذه الأضرار وتنبههم على خطورتها بأسلوب واضح سلس قائم على الحجة والإقناع مع احترام عقولهم ووجهات نظرهم، وتوجيههم إلى الاستفادة من وسائل الإعلام المتزنة ذات الأهداف السليمة، التي يقوم عليها المهنيون الأخيار الذين يستشعرون رقابة الله عليهم فيما يثبونه من مواد إعلامية مختلفة مرئية ومسموعة ومقروءة.

ثانياً: السعي إلى إيجاد وزع ديني وضابط أخلاقي لدى الأبناء، وتحسينهم بالقيم الفاضلة والأخلاق الحسنة الحميدة، ليستطيعوا التمييز بين النافع والضار، والغلث والسمين، مما تنتجه وسائل الإعلام من مواد إعلامية مختلفة، وعدم أخذ ما يروونه ويسمعونه منها بمأخذ القبول والتسليم، بل لا بد من عرض كل ذلك على موازين الدين والعقل وقيم الوطن وأمنه ووحدته، فما وافق منها لها أخذ وقُبل، وما عارض رُدُّ ورُفض، يقول النبي ﷺ: (لَا تَكُونُوا إِمَّةً ؛ تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِنُوا أَنْفُسَكُمْ؛ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا)<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: ربط الأبناء عموماً والشباب منهم خصوصاً بقضايا مجتمعتهم وتعويدهم على الاهتمام بها، انطلاقاً من قوله ﷺ: (الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)<sup>(٢)</sup>، وقوله: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى)<sup>(٣)</sup>، وقوله أيضاً: (الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُوا دِمَائِهِمْ، وَيَسْعَى بِلِدْمَتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ)<sup>(٤)</sup>. والاستثمار الجيد لأوقات الفراغ لدى هؤلاء الأبناء، والسعي إلى

١- رواه الإمام الترمذي في سننه في كتاب (البر والصلة)، الباب (٦٣)، الحديث رقم (٢٠١٢)، ج ٤/ ص ٣٦٤، وقال: (حديث حسن غريب). وأورد ابن الأثير نحوه في (جامع الأصول)، وقال محققه الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط: (حديث حسن)، ج ١١/ هامش ص ٦٩٩.

٢- رواه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب (الأدب)، باب (تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً)، الحديث رقم (٦٠٢٦)، ص ١٠٥٣. ورواه مسلم في صحيحه، في كتاب (البر والصلة والأدب)، باب (تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم)، الحديث رقم (٦٥٨٥)، ص ١١٣١.

٣- رواه مسلم في صحيحه، في كتاب (البر والصلة والأدب)، باب (تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم)، الحديث رقم (٦٥٨٦)، ص ١١٣١.

٤- رواه أبو داود في سننه، في كتاب (الديات)، باب (إيقاد المسلم من الكافر)، الحديث رقم (٤٥٣٠)،

تجنيبهم الوقوع في السلوكيات المنحرفة عن طريق حثهم على الانخراط في الأعمال التطوعية والخيرية، ولا شك أن " العمل على ربطهم بمجتمعهم ومنحهم فرصة في بناء المجتمع من خلال إسهامهم في العمل التطوعي سيزيد من إحساسهم بقيمتهم وأثرهم في بناء مجتمعهم، وهذا بالتالي سيغرس في نفوسهم المحافظة على مكتسبات المجتمع"<sup>(١)</sup>.

رابعاً: العناية بالحوار الهادف البناء مع الأبناء داخل محيط الأسرة، لكونه من أهم وسائل الاتصال الفعالة بين أفراد الأسرة وتعزيز العلاقات الأسرية، ومن أفضل طرق غرس المحبة والمودة والألفة وإشاعة روح التفاهم بين الآباء والأبناء، وإزالة حواجز العزلة وكسر أسوار الوحدة بين أفراد الأسرة الواحدة، وهو دعامة أساسية من دعائم استقرار الأسرة وتماسكها وعامل أساسي في بناء الشخصية المتوازنة للأبناء وبناء مجتمع إيجابي أفراده متحابون متعاونون ومنتجون في مجتمعهم.

ولأهمية الحوار مع الأبناء والناشئة حاور النبي ﷺ العديد منهم واستمع إليهم، ولاطفهم وداعبهم، ولم يستصغر عقولهم، ولم يهمل مشاعرهم، ومن ذلك على سبيل المثال: ما روي عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه قال: (أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِقَدَحٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ أَصْعَرُ الْقَوْمِ، وَالْأَشْيَاحُ عَنْ يَسَارِهِ، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الْأَشْيَاحَ. قَالَ: مَا كُنْتُ لِأَوْثَرِ بَفْضِلِي مِنْكَ أَحَدًا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ)<sup>(٢)</sup>، فقد كان الغلام جالساً عن يمين النبي والشيوخ عن يساره، ومن السنة البدء باليمين، وأيضاً من المتعارف عليه احترام الكبار، وتقديمهم في مثل هذا الأمر على الصغار، فاستأذن النبي الغلام أن يبدأ بتقديم الماء للكبار، ولكن الغلام آثر أن يفوز بشرف الشرب من يد الرسول، فأعطاه النبي ﷺ الماء بادئاً به.

ومن ذلك أيضاً: ما روي عن رافع بن عمرو الغفاري رضي الله عنه أنه قال: كنت وأنا غلام أرمي نخلاً للأنصار، فأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقِيلَ: إِنَّ هَا هُنَا غُلَامًا يَرْمِي نَخْلَنَا، فَأُتِيَ بِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: (يَا

ص ٦٤٠-٦٤١. ورواه النسائي في سننه، في كتاب (القسماء)، باب (القود بين الأحرار والمماليك في النفس)، الحديث رقم (٤٧٣٨)، ص ٦٥٣. كما رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (٩٩١)، ٢/٢٨٥، وقد صححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

١- د. راشد بن سعد الباز، أزمة الشباب الخليجي واستراتيجيات المواجهة، ص ١٢٤.  
٢- رواه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب (المساقاة)، باب (من رأى أن صاحب الحوض أو القرية أحق بمائه)، الحديث رقم (٢٣٦٦)، ص ٣٨٠.

عُلاَمُ، لَمْ تَرْمِي النَّخْلَ؟)، قال: قلت: أَكُلُ، قال: (فَلَا تَرْمِ النَّخْلَ، وَكُلْ مِمَّا يَسْقُطُ فِي أَسْفَلِهَا)، ثم مسح رأسي وقال: (اللَّهُمَّ أَشْبِعْ بَطْنَهُ)<sup>(١)</sup>، فقد بين له ﷺ ما يباح وما يحرم في الأكل من ثمار الآخرين، ووجهه إلى تحري الحلال واجتناب الحرام بأسلوب رقيق حانٍ.

وقد أجمعت الكثير من الدراسات العلمية على أن إتاحة الفرصة للأبناء في الحوار داخل محيط الأسرة، وتشجيعهم على إبداء وجهات نظرهم في الموضوعات المختلفة وتمكينهم من ذلك له ثمرات إيجابية كثيرة، لعل من أبرزها ما يأتي:

١- أنه يتيح الفرصة للآباء لتفوية الوازع الديني لدى الأبناء عن طريق القدوة الحسنة، وبنائهم فكريًا بناءً سليماً.

٢- أنه يساعد في احتوائهم وعلاج مشكلاتهم، ويسهم في إشباعهم إشباعاً عاطفياً، وفي قطع الطريق على المتربصين بهم الدوائر من أهل الأهواء والضلالات الذين يريدون بهم وبأمتهم ومجتمعهم الشر والفساد وإثارة الفتن.

٣- أنه يعزز ثقتهم بأنفسهم وتحقيقهم لذواتهم، ويتيح الفرصة لهم للتعبير عما يجول بخواطرهم من أفكار ومشاعر.

٤- أنه يحررهم من مشاعر الخوف، والقلق، والانطواء، والكبت لديهم، ومشاعر العدائية تجاه المخالفين لهم في الرأي.

٥- أنه يتيح الفرصة للآباء لمناقشة أفكارهم وتصحيحها، وتصويب مسارهم، وتغيير قناعاتهم الخاطئة، وتقويم سلوكهم.

٦- أنه يتيح الفرصة أيضاً للآباء لغرس القيم الفاضلة فيهم، أمثال: قيم الوسطية والاعتدال التي جاء بها الإسلام وخص بها هذه الأمة دون سائر الأمم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

---

١- رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث رقم (٢٠٣٤٣)، ٤٥٢/٣٣. ورواه ابن ماجه في سننه، في أبواب (التجارات)، باب (من مر على ماشية قوم أو حائط هل يصيب منه)، الحديث رقم (٢٢٩٩)، ص ٣٢٩. وروى نحوه الترمذي في سننه، في أبواب (البيوع)، باب (ما جاء في الرخصة في أكل الثمرة للمار بها)، الحديث رقم (١٢٨٨)، ص ٣١٣، وقال: "هذا حديث حسن غريب صحيح".

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿١﴾، والوفاء بحقوق ولاية أمور المسلمين، ولاسيما السمع والطاعة لهم بالمعروف، وتنمية روح المواطنة الحقة فيهم، واحترام آراء الآخرين ووجهات نظرهم المخالفة، والالتزام بالنقد الموضوعي للمفاهيم والأفكار، واحترام العلماء الموثوقين الراسخين في العلم، العارفين بشرع الله، المتفقهين في دينه، العاملين بعلمهم على هدى وبصيرة، وتلقي العلم الشرعي الصحيح منهم دون غيرهم، يقول تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾.

**خامساً:** السعي إلى احتواء الشباب وتفهم متطلباتهم واحتياجاتهم، والإصغاء إليهم واحترام وجهات نظرهم، واجتنب التعالي عليهم، ومنحهم مساحة مناسبة للحرية المنضبطة في اختيار ما تميل إليه أنفسهم في مجالات الحياة المختلفة ما دام أن ذلك يحقق أهدافاً مشروعة لهم وليس فيه شيء يتعارض من الأصول والثوابت الدينية والقيم الخلقية ومصالح الوطن وأمنه واستقراره.

**سادساً:** التصدي للتيار الجارف للعوامة عن طريق بناء شخصية سوية متزنة للشباب، معتزة بهويتها الوطنية، متحررة من التقليد والتبعية، مستقلة بفكرها وسلوكها، رابانية في وجهتها وغايتها ومرجعيتها، تأخذ من الواقع المحيط بها والوافد إليها ما كان صالحاً ولو تركه أكثر الناس، وترك ما كان فاسداً ولو أخذ به معظم الناس، وتعمل على إصلاح ما كان قابلاً للإصلاح، يقول النبي ﷺ: (لَا تَكُونُوا إِمْعَةً؛ تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطْنَا أَنْفُسَكُمْ؛ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا) ﴿٣﴾ (٤).

**سابعاً:** حماية أفكار الأبناء من الغلو والتطرف، لما فيهما من تعدٍ على حدود الشرع، وخروج على مقتضيات العقل السليم والفترة القويمية، واتباع لنزغات الشيطان وتلبيساته، ولذا نهي الله سبحانه وتعالى عنه في آيات عديدة، منها: قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا

١- سورة البقرة، الآية ١٤٣.

٢- سورة النحل، الآية ٤٣.

٣- تقدم تخريجه قبل بضع صفحات.

٤- يُنظَرُ: أ.د. مفرح القوسي، ملامح الهوية التي ينبغي أن يتميز بها المسلم في حاضره المعاصر، ص ١٠٢.

فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴿١﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾<sup>(٢)</sup>.

كما حذر النبي ﷺ من الغلو في أحاديث كثيرة، منها قوله: (يَأْكُمُ وَالْغُلُوُّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ)<sup>(٣)</sup>، وقوله ﷺ: لَا تُشَدِّدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدِّدَ عَلَيْكُمْ<sup>(٤)</sup>، وقوله كذلك: (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) قَالَهَا ثَلَاثًا<sup>(٥)</sup>.

وقد انعقد إجماع أهل العلم على تحريم الغلو في الدين والتحذير منه، والتحذير من عواقبه.

ومن المعلوم أن من أهم أسباب الغلو ضعف البصيرة بحقيقة الدين، وعدم التعمق في فقهه، وعدم الإحاطة بأسراره ومقاصده، والتمسك بالمظاهر وجعلها المقياس الوحيد لتدين الفرد من عدمه، وغالبًا ما يكون هذا الجهل شائعًا بين أنصاف المتعلمين، أو من تلقوا العلم بالدين عن مصادر تُصدّر الغلو والتطرف، أو ممن تغذوا على الثقافات المعادية للدين.

وكما نهي الإسلام عن الغلو، حذر من آثاره السلبية ونهى عنها؛ فنهى - مثلاً - عن التكفير بأنواعه، ونهى عن كل أعمال القتل والتفجير، أمثال: اتخاذ بلاد المسلمين مسرحًا لقتل المسلمين والمعاهدين باسم الجهاد، واستباحة دماء رجال الأمن واتخاذهم غرضًا ظلمًا وعدوانًا، والإخلال بأمن البلاد، وتدمير المنشآت العامة، وإتلاف أموال المسلمين، وقتل الأبرياء من المواطنين والمقيمين، أو إثارة الرعب في قلوبهم، ونشر الكراهية بين غير المسلمين للإسلام وأهله، والإضرار بالأقليات المسلمة في البلاد غير الإسلامية، ونحو ذلك مما فيه تشويه لصورة الإسلام وسماحته، والصد عن

١- سورة النساء، الآية ١٧١.

٢- سورة المائدة، الآية ٧٧.

٣- رواه النسائي في سننه، في كتاب (مناسك الحج)، باب (التقاط الحصى)، الحديث رقم (٣٠٥٩)، ص ٤١٩-٤٢٠، وصححه الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة)، الحديث رقم (١٢٨٣)، ٣/٢٧٨.

٤- رواه أبو داود في سننه، في كتاب (الأدب)، باب (في الحسد)، الحديث رقم (٤٩٠٤)، ٥/٢٠٩.

٥- رواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب (العلم)، باب (هلك المتنطعون)، الحديث رقم (٦٧٨٤)، ص ١١٦٢.

دين الله.

وبما أن الأسرة هي الأساس الاجتماعي في تشكيل شخصيات أفراد المجتمع وبنائها، فإنها إن قامت بهذا الواجب، وهو حماية أفكار الأبناء من الغلو والتطرف، فستُسهم حتمًا في وقاية الأبناء من الوقوع في هذه المزالق العقديّة والفكرية، وتجنّب البلاد والعباد مخاطرها وشروها، ومن ثمّ تحقيق قيم الأمن الفكري المنشود في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

### الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وفي ختام هذا البحث أُبين - فيما يلي - أبرز نتائجه العلمية، وأبرز توصياته.

#### أولاً: أبرز النتائج العلمية للبحث:

- ١- إن المراد بالأثر: نتيجة الشيء وما يترتب عليه من أحوال وأمور.
- ٢- إن مفهوم الأسرة في الإسلام يتضمن الزوجين والأولاد وفروعهم، كما يشمل الأصول من الآباء والأمهات، ويدخل فيهم الأجداد والجدات.
- ٣- إن المراد بحماية الوطن: نصرته، والدفاع والذود عنه ومنع كل ما من شأنه إلحاق الضرر به.
- ٤- إن الأسرة هي المدرسة الأولى للأبناء، واللبنة الأساسية في بنائهم العقدي وتكوينهم الفكري ومنهجهم الخلق والسلوكي، ولذا كان لها الأثر الفاعل في حمايته والذود عنه.
- ٥- إن أبرز مهام الأسرة في تعزيز قيم الانتماء للوطن وتحقيق الأمن الفكري تتمثل في الأمور الآتية:

- ترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة.
- تربية الأبناء على الاستقامة على منهج الإسلام وهديه.
- تأصيل حب الوطن والولاء له وصدق الانتماء إليه في نفوس الأبناء.

- احترام أنظمة الوطن وقوانينه وتطبيقها في واقع حياتهم.
  - التسلح بالعلم والمعرفة.
  - التمسك بملامح الهوية الوطنية.
  - الشعور بالمسؤولية وتحملها.
  - العناية بالعمل وتقديره وإتقانه.
  - تقوية الروابط والصلات بين أفراد الوطن ووفاته.
- ٦- إن أبرز مهام الأسرة في مواجهة تحديات قيم الانتماء للوطن وتحقيق الأمن الفكري فيه تتمثل في الأمور التالية:

- توجيه الأبناء إلى حسن استخدام وسائل الإعلام والاتصال وترشيده.
- السعي لإيجاد وازع ديني وضابط أخلاقي لدى الأبناء.
- ربط الأبناء بقضايا مجتمعهم وتعويدهم على الاهتمام بها.
- العناية بالحوار الهادف البناء داخل محيط الأسرة.
- السعي إلى احتواء الأبناء وتفهم متطلباتهم واحتياجاتهم.
- التصدي التيار الجارف للعملة.
- حماية أفكار الأبناء من الغلو والتطرف.

#### ثانيًا: أبرز المقترحات والتوصيات:

- ١- قيام الجهات المعنية بالشؤون الاجتماعية بتزويد الأسر بمهارات غرس قيم الانتماء للوطن وتحقيق الأمن الفكري فيه في نفوس الأبناء، وتفعيل مهام هذه الأسر في تدريب الناشئة والشباب على الالتزام بأنظمة الوطن وقوانينه وعلى تحمل المسؤولية الاجتماعية، وتذليل كل



الصعاب التي تواجه الأسرة للقيام بهذه المهام.

- ٢- إنشاء وتطوير مراكز وهيئات ترعى قضايا الناشئة والشباب، والعمل على تفعيلها لتدعيم قيم الانتماء الوطني والأمن الفكري لديهم.
- ٣- عناية الأجهزة المعنية بالدولة على تدريب الشباب على مهارات التواصل الاجتماعي بالاستخدام الأمثل للتقنيات الحديثة وتلافي الأخطار والسلبيات فيها.
- ٤- تسخير وسائل الإعلام المختلفة لترسخ قيم حب الوطن ونصرتة والذود عنه في أنفس المواطنين عمومًا، والشباب منهم خصوصًا.
- ٥- حث المؤسسات التعليمية الاهتمام بتعزيز مكانة الوطن وحبه والولاء له لدى الأبناء، من خلال المعلمين والمربين ومناهج التدريس ومقرراته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،،

## فهرس المصادر والمراجع

### أولاً: الكتب المطبوعة:

- ابن الأثير الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، بيروت، مكتبة دار البيان ومكتبة الحلواني. ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، مكتبة بحر العلوم، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- أحمد بن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن قاسم وابنه محمد، مكة المكرمة، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. والرياض، دار السلام للنشر والتوزيع. ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحصاص، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، بيروت، دار إحياء التراث. ١٤٠٥هـ.
- أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري، الرياض، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- أحمد بن علي العسقلاني، هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصاييح والمشكاة، دار ابن القيم ودار ابن عوفان. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- إسماعيل الجوهري، الصحاح، بيروت، دار إحياء التراث العربي. ١٩٩٩م.
- إسماعيل بن محمد العجلوني، بيروت، دار إحياء التراث العربي. ١٣٥٢هـ.
- أنيس فتحي، الإمارات إلى أين: استشراف التحديات والمخاطر على مدى ٢٥ عامًا، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والإعلام. ٢٠٠٥م.
- تامر إبراهيم هاشم، الصراع بين الولايات المتحدة والصين وروسيا، المكتب العربي للمعارف، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).

## أثر الأسرة في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية

- جمال الدين بن منظور، لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي. ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- راشد بن سعد الباز، أزمة الشباب الخليجي واستراتيجية المواجهة، الرياض، جامعة نايف للعلوم الأمنية. ٢٠٠٤م.
- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دمشق، دار القلم. ١٤١٨هـ.
- الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، لبنان، دار المعرفة.
- سامح فوزي، المواطنة، القاهرة، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان. ٢٠٠٧م.
- سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تعليق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- عبد الحفيظ المالكي، نحو مجتمع آمن فكرياً، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، (بدون ذكر الناشر).
- عبدالرحمن الزيندي، المواطنة ومفهوم الأمة الإسلامية، الرياض، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية. ١٤٢٦هـ.
- علي بن خلف بن بطال القرطبي، شرح صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، بيروت، مكتبة لبنان. ١٩٨٥م.
- عيسى رباح، موسوعة القانون الدولي، (بدون ذكر معلومات النشر).
- القاضي الأحمد نكري، موسوعة مصطلحات جامع العلوم، بيروت، مكتبة لبنان. ١٩٩٧م.
- القاضي عياض بن موسى اليحصبي، مشارق الأنوار على صحيح الآثار، تونس، المكتبة العتيقة، والقاهرة، دار التراث، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتاب العربي. ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- لطيفة حسين الكندري، نحو بناء هوية وطنية للناشئة، الكويت، المركز الإقليمي للطفولة والأمومة (بدون ذكر تاريخ الطباعة).

- ماجد الزيود، الشباب والقيم في عالم متغير، عمان، دار الشروق. ٢٠٠٦م.
- مجموعة من الباحثين، الموسوعة العربية العالمية، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة، دار الفكر العربي. ١٩٧٥م.
- محمد العدناني، معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، بيروت، مكتبة لبنان (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، الرياض، دار السلام للطباعة والنشر. ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، المدينة المنورة، المكتبة السلفية. والرياض، دار السلام للنشر والتوزيع. ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة المعارف، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- محمد سعيد القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام، الرياض، دار طيبة. ١٩٨٢م.
- محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، بيروت، المكتب الإسلامي، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- محمود سفر وآخرين، الوطنية كائن هلامي، الرياض، وزارة المعارف ورونا للإعلام. ٢٠١١م.
- مركز الدراسات والبحوث بجامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الأمن الفكري، الرياض، جامعة نايف للعلوم الأمنية. ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، الرياض، دار السلام للطباعة والنشر. ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- مفرح بن سليمان القوسي، مدخل في المعرفة والعلم والبحث العلمي، الرياض، مطبعة سفير. ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- مفرح بن سليمان القوسي، ملامح الهوية التي ينبغي أن يتميز بها المسلم في حاضره المعاصر، الرياض، دار زدني. ٢٠٠٦م.
- موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، المغني، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي والدكتور عبد

الفتاح الحلو، دار عالم الكتب. ١٤١٩هـ.

- وزارة التربية والتعليم بدولة الكويت، استراتيجية تكريس مفاهيم المواطنة والولاء والانتماء لدى النشء في المناهج الدراسية بدولة الكويت، الكويت، وزارة التربية والتعليم. ٢٠١١م.
- يوسف بن عبدالبر القرطبي الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، بيروت، دار الفكر، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).
- يوسف عبدالحמיד أبو حميدان، تعديل السلوك: النظرية والتطبيق، الأردن، مركز يزيد، (بدون ذكر تاريخ الطباعة).

#### - ثانيًا: البحوث والرسائل الجامعية:

- بدر حمد الصلال، دور الفضائيات الكويتية الرسمية والخاصة في تعزيز المواطنة لدى الشباب الكويتي، رسالة ماجستير مخطوطة مقدمة إلى جامعة الشرق الأوسط عام ٢٠١٢م.
- زياد بركات وليلى أبو علي، مظاهر المواطنة المجتمعية في المقررات الدراسية في العلوم الاجتماعية من وجهة نظر المعلمين، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الرابع لجامعة جرش الأهلية بالأردن بعنوان (التربية والمجتمع: الحاضر والمستقبل) عام ٢٠١١م.
- عبد الله بن محمد العمرو، قيم الإسلام الخلقية وآثارها، رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم الثقافة الإسلامية بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٩هـ.

#### - ثالثًا: الدوريات:

- مجلة (الأمن والحياة) الصادرة عن مركز الدراسات والبحوث بجامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، العدد (١٨٧)، الصادر عام ١٤١٨هـ.
- مجلة (دراسات استراتيجية) الصادرة عن مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في أبو ظبي، العدد (٦٦)، الصادر عام ٢٠٠١م.

#### رابعًا: المواقع الإلكترونية:

- [www.alwihdah.com/print.php](http://www.alwihdah.com/print.php)



تقصيد وسائل التواصل الاجتماعي  
نحو خدمة القيم النبوية؛  
قيمة حماية الوطن نموذجاً

الأستاذ/ يونس الخمليشي  
المملكة المغربية







## مقدمة:

إن تبليغ القيم النبوية لأمرٌ في غاية الأهمية على مستوى نشرها في العالم، وقد حاول هذا البحث أن يدرس طرائق هذا التبليغ وفقاً لما تقرر في "الندوة العلمية الدولية الثامنة؛ حماية الوطن في السنة النبوية مقصد شرعي وضرورة مجتمعية" والمندرج ضمن "المحور السابع: وسائل التواصل الاجتماعي وأثرها في حماية الوطن من منظور السنة النبوية".

ويسعى هذا البحث إلى معالجة إشكال صيغته: "كيف يمكن إشغال كافة الوسائل -وسيقصر هذا البحث على وسائل التواصل الاجتماعي- في سبيل تبليغ القيم النبوية -وسيقصر هذا البحث كذلك على قيمة حماية الوطن باعتبارها قيمةً نبويةً- والإمعان في إيصالها للناس والأفراد وتعميق تأثيراتها وآثارها في النفوس الإنسانية والسلوك البشري والمجتمعات العامة والمسلمة"؟ انطلاقاً من هذا الإعضال هدف هذا البحث إلى:

١. افتراض؛ أ- أن حماية الوطن قيمة نبوية. ب- إظهار كيفيات جعل قيمة حماية الوطن تفترض أنها مادة ممكنة في وسائل التواصل الاجتماعي مع أنها مكان لحضور مختلف الأغراض والمقاصد. ج- تحقيق مصالح لامتناهية جراء تسليك قيمة حماية الوطن النبوية في الذهن عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وتسطير استراتيجيات عملية جراء ذلك.

٢. تفصيل معالم هذا الافتراض تبييناً لكل ما يحتمله واستدلالاً على كل ما يمكن فيه، من أجل أن يبني البحث بكل ذلك أطروحته بما يضمن صحة نتائجه.

إن الدراسات الشرعية المتعلقة بتبيان القيم النبوية في الأوساط الإسلامية لها أهمية خاصة، ليس من حيث إحياء القيم النبوية وإبرازها للعالم وحسب؛ وإنما حتى لاحتياج المجتمعات الإسلامية لها في حاضرها واستلهاها في أفعالها لتغيير حاضرها وتجميل مستقبلها. ومن هنا تبلور هذا البحث حول ضرورة القيام بواجب التبليغ للرسالة الشرعية، قرآناً وسنةً. وقد أمر الحق تعالى بالتبليغ صراحة، إذ الواجب هو الكلمة لله رب العالمين.

## في المبحث الأول تنوع إلى مطلبين:

مطلب أول؛ وينص على أن قيمة حماية الوطن قيمة شرعية نبوية متأصلة في الحديث النبوي ومتواترة فيه تواتراً معنوياً. ومن ثم وجب تبليغها بالكلمة وعدم الصمت عنها مادام الصمت قد عمل ضدًا على النطق بالقيم النبوية الشريفة.

ومطلب ثانٍ؛ وينص على تسجيل وسائل التواصل الاجتماعي بوصفها وسيلة فريدة لتبليغ قيمة حماية الوطن النبوية لكونها ذات دلالات نفسية تتوزع في النفس البشرية والمجتمعات المتنوعة وتلبي احتياجاتها بغرض بث قيمة حماية الوطن في النفوس والمجتمعات عبرها. ثم يسطر البحث أنواع الاحتياجات - وقد حصرها في نحو أحد عشر - التي يريدها متصفح وسائل التواصل الاجتماعي وطرائق استثمار هذه الاحتياجات لجعلها مكتسبات لصالح القيمة النبوية عمومًا، وقيمة حماية الوطن خصوصًا، لبث هذه الأخيرة في دواخل الأذهان وخوارج النفوس وسلوكات الأبدان ومنطقيات الألسن.

وفي المبحث الثاني يهيكل البحث المصالح الشرعية وراء قيمة حماية الوطن النبوية والمراد تسليكها في الذهن والسلوك عبر وسائل التواصل الاجتماعي. وهذا المبحث يفترض ذاته في مطلبين:

مطلب أول؛ ويسطر استراتيجيات تسليك قيمة حماية الوطن في الذهن والسلوك، والتي عددها في: ١- استراتيجية استثمار كل صالح لجعله سبيلًا لغرز قيمة حماية الوطن في اللاوعي. ٢- استراتيجية تهديف الاحتياج البشري لوسائل التواصل الاجتماعي نحو قيمة حماية الوطن. ٣- استراتيجية تحفيز حالاته الذهنية عبر تنشيط أفعال وأعمال القلوب التي تثيرها مواد النصوص النبوية عمومًا والنصوص الخاصة بحماية الوطن. ٤- استراتيجية العمل على كل المناحي ومضاعفة العمل على المنحى الأهم على المستوى النفسي - السيكولوجي وعلى المستوى الاجتماعي - السوسولوجي.

مطلب ثانٍ؛ ويعدد البحث هنا المصالح الممكنة والمرجو تحقيقها جراء بذل الجهد عبر وسائل التواصل الاجتماعي لنشر قيمة حماية الوطن، والمفاسد الممكنة المرجو درؤها جراء ذلك كذلك.

ثم يختتم البحث ذاته بخاتمة متلوة بتوصيات جادة تبرز أهمية هذا البحث من حيث كون وسائل التبليغ للقيم الشرعية ولقيمة حماية الوطن النبوية غير معدودة، وينبغي استثمار كل الوسائل الصالحة والناجعة في سبيل هذا التبليغ مادام إيصال المضمون للعالمين هو القصد. وأن وسائل التواصل الاجتماعي تشكل مجتمعاً شبه قائم بذاته وموازيا للمجتمع الحقيقي، والإغفال عن كون الوحي فيه هو تضييع لأرض معنوية خصبة لتبليغ القرآن الكريم والقيم الشرعية وقيمة حماية الوطن النبوية. كما أن وسائل التواصل الاجتماعي تقدم هويةً جديدةً لروادها، وهذه الهوية لا بد أن تشارك السنة النبوية وقيمها وقيمة حماية الوطن في بلورتها وتعاين تأسيسها.

ومن هنا، فإنه حسب بحثنا -القاصر- في المتاح الحالي من المكتبات المتوفرة واطلاعنا السابق حول الموضوع؛ لم نجد أي دراسةٍ تتناول الموضوع من الجهات التي عاجلناه فيها، والمنظورات التي شاهدناها ووصفناها من خلالها، عدا موضوعات متفرقة بين بطون الكتب في تخصصات مختلفة والتي لا تعالج موضوع "تقصيد وسائل التواصل الاجتماعي نحو خدمة حماية الوطن كقيمة من قيم السنة النبوية" بشكل قاصد ومباشر، ومن ثم؛ فإننا لا نزعم أنه بحث أصيل جداً في موضوعه لكن البحث حاول مقارنة جوانب مهمة في ذلك.

## المبحث الأول:

### نحو تبليغ القيم النبوية وقيمة حماية الوطن نموذجًا؛ بالكلمة والصمت

أمر القرآن الكريم باتخاذ وسيلة البلاغ طريقةً لتعريف الخلق بالقرآن الكريم والسنن النبوية. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧). وإذا كان الله تعالى قد أمر بتبليغ الوحي بالفعل والصنع، فإن من مفاعيل التبليغ هو الصمت الذي هو فعل وصنع. ذلك أن القرآن الكريم قد سمي الترك فعلًا وصنعًا، قال عز من قائل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩). فعدم نهي الكفار من بني إسرائيل عن المنكر فعل بئس ذميم. وإذا استنتقنا مجموع هذه الآيات نتيقن أنها تأمر بتبليغ القرآن الكريم والقيم النبوية بالفعل والصنع سواء أكان هذا الصنع باللفظ والنطق، أم بالصمت والسكوت.

أمر الحق تعالى بتبليغ القرآن الكريم والقيم النبوية تبليغًا تامًا، تبليغًا يكون وفيّ البيان ميسرًا للفهم والعرفان، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧). وإذا كان هذا الأمر مقصودًا به النبي ﷺ وأُمَّته؛ فإن:

١- الواجب هو الكلمة والتكلم بالقرآن والسنة كلاً ما دائماً، إذ الصمت -عنهما هنا- يصنع الكوارث والمنكرات والمآسي والفتن والآلام وكافة تنويكات المفسد، كما أن الكلمة بهما تصنع مجمل المحاسن ومظاهر السلم وأجواء الاستقرار ونعم اللذات ونشاطات التنمية وكافة تنويكات المصالح.

وعدم اتخاذ وسائل الإعلام مضمونًا ووسيلةً لتبليغ الوحي هو تحمل لجريمة الصمت وتحمل لكافة المشقات التي سيصنعها الصمت عن القرآن والسنة الشريفين. بينما الصدع بالقرآن الكريم والسنة النبوية -في الإعلام بالخصوص، وبالأخص في وسائل التواصل الاجتماعي كما

هو موضوع بحثنا هذا- هو درء لمفاسد الصمت وذنوبه، وجلب لمصالح الكلام وأجوره شرط أن يكون الكلام لله مستحضرًا كلام الله.

٢- البلاغ يقتضي وسائل للتبليغ. وبالنسبة إلى أمته فقد تتخذ أشكالًا مختلفة مادامت تحافظ على قصد تبليغ القرآن الكريم والقيم النبوية للناس. وتلوا لذلك؛ فمن بين أجمع وسائل التبليغ هو الإعلام بمختلف تشكيلاته. ومن بين أبرز أنواعه هو التشكيل الشبكي، ومنه خصوصًا، وسائل التواصل الاجتماعي.

٣- البلاغ يقتضي تسليك القرآن والسنة وما يتضمنانه من القيم النبوية في كافة المناطات وجميع الجهات ومختلف المناحي ومتنوع الأنماط. ومن بين هذه المناطات، المراد تبليغ القرآن والقيم النبوية جهتها، هي؛ الذهن والسلوك البشريان.

المطلب الأول: حماية الوطن قيمة نبوية؛ الكلام والصمت ووسائل التواصل الاجتماعي

(١)

### تأطير نظري لقيمة حماية الوطن في السنة النبوية الكريمة

إن قيمة حماية الوطن ترجع في الأساس إلى جذر لغوي (في العربية مثلاً) يحدد الوطن على أنه مكان إقامة الإنسان الذي ألفه وانتمى إليه. فالوطن يضاف الألفة أي الحب لغويًا، والحب يضاف الحماية لزومياً. لكن هذه القيمة، وهي الحب فالحماية، عندما تسند إلى المكان لا تكتمل تأسيسًا إلا عند تطعيمها بالنصوص الشرعية، ولاسيما النصوص النبوية منها. وذلك عند تجديدها لأسس حماية الوطن في الفرد والأمة.

إذا كان الوطن يضاف حمايته بالضرورة، وإذا كان الشرع قد كرم هذا حب حمايته للبلد عبر دلالات نصوص متواترة تواترًا معنويًا؛ فإنه يكفي للتمثيل على ذلك إيراد ثلاثة (مثلاً) من النصوص النبوية الشرعية التي تدلل على أن قيمة الحماية للوطن هي قيمة نبوية خالصة. فعن أنس رضي الله عنه، أنه كان يقول: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَكَهَا"، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: زَادَ الْحَارِثُ بْنُ عُمَيْرٍ، عَنْ حُمَيْدٍ: حَرَكَهَا

مِنْ حُبِّهَا. (١)

فهذا الحديث يدل على جمال استعجال القدوم للبلد وجلال استعجال الحب والوَحْشَة للوطن وحمائته من الأضرار، وخصوصاً عند ظهور محفزات نحوه تتجلى في فورة الشوق إليه أو رؤيته والاقتراب منه أو تعرضه لمكيدة أو دسياسة أو حرب.. أو ما شابه ذلك من مختلف المحفزات.

وطالما عكس الوطن حضن الحامي الموفر الأمان الذي يرتاح المرء عنده، فعن عائشة رضي الله عنها :  
 أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: بِسْمِ اللَّهِ تَرَبُّهُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةٍ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا (٢). فترية البلد تعكس دواخل أهله من الحب وتُفَصِّلُ حماية لأبنائه من العلل والمهالك لدرجة أن المريض عند وضع تراب بلده على مكان ألمه مع ذكر اسم الله تعالى قد يكون أداة فعالة في طلب الشفاء من الله تعالى له، ربما لحنين المريض للأرض التي جاء منها عموماً، وحبه وشوقه وحنينه لأرضه التي استوطنها خصوصاً كالأم أو كأمه التي يستطيع حضنها ويستأمن جانباها ويستكين بحجرها ويلزم من حماية الوطن لأبنائه البرور به وحمائتهم له جدلاً بالضرورة.

وقد صرح النبي ﷺ بحبه لبلده مكة ودعا بأن يرزقه الله تعالى حبه لوطنه الجديد وهي المدينة كحبه لوطنه الأم أو أشد. فعن عائشة رضي الله عنها ، أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ، قَالَتْ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمَا، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ كَيْفَ بَجَدُكَ؟ وَيَا بِلَالُ كَيْفَ بَجَدُكَ؟ قَالَتْ: وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَى يَقُولُ: كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ... وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أَقْلَعَ عَنْهُ يَرْفَعُ عَقْبِرَتَهُ فَيَقُولُ: أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ خَرَّ وَجَلِيلٌ وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجْنَّةٍ... وَهَلْ تَبْدُونَ لِي شَامَةً وَطَفِيلٌ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَأَنْقِلْ حُمَاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ". (٣) وإن الحب يقتضي لب الحماية للمحبيب وخطاية الذات وفق مقاسات الوطن حمايةً ودفاعاً.

١- أخرجه: البخاري، كتاب العمرة، باب من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة، حديث رقم: ١٨٠٢.

٢- أخرجه: البخاري، كتاب الطب، باب رُقِيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم: ١١٢٤٠.

٣- أخرجه: البخاري، كتاب المرضى، باب من دعا برفع الوباء والحمى، حديث رقم: ٥٦٧٧.

من خلال هذه الأمثلة المختصرة جداً من دلالة نصوص نبوية على أن حماية الوطن من السنة النبوية الشريفة وأنها قيمة شرعية نبوية رائعة؛ وجب أن نقوم بتطبيق قيمة حماية الوطن كقيمة نبوية عملياً على تفعيل وسائل التواصل الاجتماعي كوسيلة تبليغ لهذه القيمة النبيلة.

لكن هذا التقرير لقيمة حماية الوطن النبوية يحتاج لمسنود منهجي يكون تكثفاً له حتى ينبلج بشكل واضح، وهذا المسنود هو أن القيمة النبوية كقيمة حماية الوطن مثلاً قد يكون غرزها في الذهن عبر وسائل التواصل الاجتماعي محتاجاً لوسيط تمر عبره. وهذا الوسيط هو القرآن الكريم باعتباره:

١ - يحوي قيماً علياً ومنها قيمة حماية الوطن عبر سرديات هجرة الأنبياء عن بلادهم بأمر إلهي كابتلاء رباني لهم أو تهديد المعاندين لهم بالنفي عن الوطن مخاطبين إياهم بـ"النخرجنكم من أرضنا أو لتعودنهن في ملتنا".

٢ - مجملاً تفصله السنة، ومن ثم؛ تفصل السنة منه قيمة حماية الوطن. فيكون غرس القرآن في الذهن والسلوك هو غرس إجمالي لقيم السنة النبوية الشريفة التي تفصل طبيعة هذا الغرس في الذهن والسلوك.

لذلك؛ قد نحتاج للقرآن الكريم لتمرير قيم السنة وقيمة حماية الوطن في الذهن والسلوك وليكون وسيطاً ربانياً لذلك. ومن هنا؛ سيركز البحث في أحيين مختلفة ومناطق متفرقة منه على كيفية غرس القرآن الكريم في الذهن والسلوك كمرحلة تمهد لغرس قيمة حماية الوطن فيهما كذلك.

(٢)

### الصمت بوصفه فعلاً عاملاً ضدَّاً على النطق بالوحي وطيهِ قيمة حماية الوطن النبوية

إن تسمية الوحي للترك صنعاً كان لغرض اتخاذ الكلام في الإعلام للتوعية والتثقيف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبر القرآن الكريم. وهذا الكلام بالقرآن الكريم له أجر يكافئ ذنب الصامت عن النطق به. وبشكل عام ومجمل، كلما بلغ المبلغ القرآن الكريم والسنة النبوية العطرة وطيها قيمة حماية الوطن النبوية بالكلمة ونال الثواب في ذلك؛ كلما أثم الصامت عنه.

يستطيع أن يبيع المرء كلمة الباطل بكلمة الحق، وألا يكتفي بالصمت عن الحق؛ بل أن يمدح الباطل بالكلام. كما يقدر المرء على ألا يقول الحق ولا يمدح الباطل؛ لكنه بذلك فقد ويفقد أعظم ما يميزه كإنسان -بله كمسلم-، وهو النطق والمنطق والكلام. إن تلك الكلمة وذلكم الإعلام بالقرآن الكريم والسنة النبوية وذا الصدع بقيمة حماية الوطن النبوية هو سمة الطاعة لله من عباده، تلك السمة التي تمر عبر القرآن الكريم. وبتصيير كلام الله علناً نتكلم كلاماً في أنفسنا ومع بعضنا ونعلنه للعالم، أن صوتنا وكلامنا لله وكلاماً لله ومفعلاً لكلام الله، يتبع فيه الكلام لله كلام الله.

إن الصمت -بهذا المنحى- يزيد في استمرار الخفاء، الصمت شكل إخفائي. وإذا كان هذا المخفي واجب الظهور مثلاً؛ بوصفه قيمة حماية الوطن النبوية، كان الصمت عاملاً شرساً ضده.

### الصمت بوصفه فعالية عاملة لصالح الإعلام بقيمة حماية الوطن النبوية

يكون الصمت أحياناً من وسائل تبليغ قيمة حماية الوطن النبوية. نسعى به لجعل قيمة حماية الوطن النبوية مضمون التواصل. وإذا تم هذا التواصل بالصمت كان الصمت بنفسه قناة رائعة لتبليغ قيمة حماية الوطن النبوية لكن القناة المألوفة هي قناة الإعلام. ذلك أن الصمت تجربة في فضاءات غير صوتية، وبذلك قد تنافس تجربة الإعلام في حالة ما إذا تصادمت التجريبتان. وقد تتلاحمان تعاضداً في حالة ما إذا كان الصمت أكيد الكلام في حالة صمته، والكلام أكيد الصمت في حالة نطقه.

يكون الصمت محموداً في حالات توسيعه لآفاق الكلام ومدّه للكلمة في طولها وغززه للتكلم وتعميق تأثيراته. إنه ممدوح لغيره، وهذا "الغير" هو الكلام الذي يعطي قيمة للصمت وينقذه من



ذاته الصامته التي لا تبرز. وهنا سنحدد أفقين يفتح الصمت من خلالهما آفاقاً للكلام وهما:

١- الصمت عن غير المشروع صمتاً يتعزز بقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ۗ ﴾ (٨٣) (البقرة) وقوله تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٤) وقوله ﷺ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ. (١)

فكل نجوى كانت محمودة وكل همس كان راقياً، إذا وفقط إذا، كان متجهاً نحو تعزيز الوحي وطيه قيمة حماية الوطن النبوية في الوجود وتحذيره في الحياة. والصمت عند تعلقه بهذا المقام السامق أخذ سموه من ذلكم، لأن أعظم الحسن المقول وأفضل الخير المتلو هو الوحي وطيه قيمة حماية الوطن النبوية. وهذا الصمت يدعم الكلام الناطق بالقرآن والسنة وطيه قيمة حماية الوطن النبوية، لأن الصمت عن الباطل يجعل القول بالحق ظاهراً. والكلام بالباطل يجعل الكلام الحق مخفياً أو على الأقل مختلطاً بين اللغو المحشو الزائد. فيقل تأثير كلام الحق في الخلق لتجشؤ الناس بالكلام واشتياقهم لشيء آخر من غير جنس الكلام وهو الصمت.

٢- صمت المستمع للقرآن الكريم (وما يستلزمه من سنة وقيم تابعة لها كقيمة حماية الوطن) صوتاً يتعزز بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤). وسواء اعتبرنا هذا الاستماع الإنصاتي للقرآن الكريم خاصاً بالصلاة أو عاماً؛ فمع ذلك يبقى الصمت للقرآن الكريم صمتاً يعزز كلام الله ويظهر الوحي قرآناً وسنةً في الآذان والحناجر والأذهان وينعش الكلمة في قوتها. لأن الكلام لا يُسمع في ذهن ملئ بالضجيج إذ ما جعل الله لرجل صوتين في أذنيه.

وهكذا، فإن أي صمت مفعول أو مرجو لا بد أن يتجه نحو النطق بالوحي. أعني، أن

١- أخرجه: البخاري: كتاب الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم: ٦٠١٨. ومسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم إيذاء الجار، رقم: ٤٨. وجب التنبيه على أن تبويبات صحيح مسلم هي من وضع القاضي عياض.

استثمارنا لوسائل التواصل الاجتماعي لا بد أن يكون استثمارًا ممتلئًا، استثمارًا يدخر النطق فيها والصمت فيها كذلك، لصنع الريادة لكلام الله بين كلام الناس وقيم وحي الله بين الناس في هذه الوسائل.

### (٣)

إذا أخذنا مصطلح "وسائل" من مفهوم "وسائل التواصل الاجتماعي"؛ كان الصمت، الذي تفيده الوسيلة كقناة محايدة لا تتكلم بمضمون ولا تتدخل في معنى، بل تكتفي بالنقل الموضوعي = مجرد صمت خادع، إذ كل صمت إلا ويدعم كلامًا ما، وأحيانًا يكون متحملاً للكلام أكثر من الكلام نفسه.

وبناءً عليه فقد يعتقد الذهن أن وسائل التواصل الاجتماعي تقف عند كونها وسائل آلية ناقلة ووسيلة دون أي تدخل منها في المضمون أو تلوين منها المعنى ما. وهذا ما يفيد بالضبط المهلّ اللغوي المفاد من حرف "وسيلة"؛ لكن الأمر غير ذلك. ذلك أن الوسائل تحمل هموم مقاصدها جماليًا، ومعاني أسسها معرفيًا. إنها من أكثر ما يؤثر في المضامين ويتجاوز الأشكال والصيغ والمظاهر، نحو الغوص في الأسس والمعاني والمقاصد.

وهكذا، إذا أخذنا وسائل التواصل الاجتماعي كمثال يخلصنا بالضبط هنا؛ كانت متجاوزةً لذاتها كوسائل للتواصل إلى كونها تعبر بذاتها عما يراد أن ينقل في مضامينها التواصلية. أعني؛ أنها رسالة بحد ذاتها أوثق في المعنى من المعاني التي تنقل عبرها. فإذا قلت مثلاً عبر تويتر: "إني أحب السفر" فإن المضمون هنا وهو "حبي للسفر" هو أقل المضامين التواصلية مقارنةً مع ما أفادته هذه الوسيلة من كوني:

- أريد أن يطلع على هويتي الأصدقاء والمجهولون على حد سواء، وأن يطلعوا على ما أريد.
- حاضرًا في هذه الوسائل ومخصصًا جزءًا من وقتي -حياتي لها.
- أن نفس حضوري عبرها هو تعبير عن احتياجات مطلوبة، وقيم مرغوب، في بثها أو اكتسابها أو، عن بثها أو اكتسابها.

إن الوسيلة صامتة، لكنها أسمع كلامًا من الكلام الذي يقوله المنخرط عبرها. وفلسفة هذه الوسائل الصامتة تعني بحياكة المعاني التي نرسلها وتواصل بها عبرها بدون أن نشعر. إنها تعمل في اللاوعي لصياغة الوعي، عبر التأثير خفيًا في المعاني التواصلية التي نكتبها أو نقولها في هذه الوسائل التواصلية. وبما أن اللاوعي صامت، إذا عبّر عن ذاته عبّر عنها عبّر الوعي الناطق؛ فإن الذي يؤثر فيه أكثر هو الصامت الملائم له في صمته، وهو المسكوت عنه في دواخل هذه الوسائل من مكشوفات تهندس من بعيد المضامين المبتوثة عبرها هندسةً ما.

من هنا، فالوسيلة تحمل المعنى بانحياز، وكل التغييرات التي تطرأ في المدينة، مثلاً، حتى البنى التحتية التي يبدو منها التمحض في كونها وسيلةً، بله الأماكن بما تحمله من معنى فبُعد صناعتها وخلق أماكن جديدة من الدور والسيارات، التي نسكن فيها لبرهة من الزمن في اليوم، والمحلات والطرق... هي إعادة إنتاج معانيها وانحيازاتها وصناعة قالب المكان، ومن ثم، إعادة إنتاج معناه مما يعني إنتاجاً لهويته. وبمضمون آخر والمعنى واحد؛ إن أثاث مجتمع وسائل التواصل الاجتماعي الافتراضي يحمل معاني تتخطى كونها وسيلةً إلى مشاركتها في بناء الثيمة/المعنى والمضمون.

إن الوسيلة منحازة وملبئة بالمعنى (مثل المكان المليء بالمعنى) وكما قال مارشال مكلوهن Marshall McLuhan: "الوسيط هو الرسالة"، لما يؤثر على التغيير الاجتماعي، مثل السيارة التي لا تعني وظيفة ناقلة فقط؛ بل تغير حركتنا وسهولة تنقلنا، أو على الأقل، تغير المكان الذي نعيش فيه.<sup>(١)</sup>

وجهة قصد الكلام السابق هي أن التبليغ لقيمة حماية الوطن النبوية وهداياته يجب ألا يقف على نقلها عبّر هذه الوسائل بما تتيحه من الكتابة والصورة والفيديو... بل؛ أن تمتد إلى جعلها داخليةً في مسكوتات الوسيلة وما تستحضره من جهاز نظري تؤثر به في المضامين المبتوثة عبرها والتي تصير بعد بثها فيها ليست مضامين مرت عبر وسيلة محايدة، بل مضامين حبلية بمؤثرات معنوية تكمن طيّ هذه الوسيلة المنحازة (نقيض المحايدة) لتصير بعد نقلها عبرها مختلفةً عن نفسها

١- ينظر:

McLuhan, M. Understanding media: The extensions of man. (London: Routledge & Kegan Paul, 1964).

قبل أن تنقل عبرها (من هذا الجانب؛ فإن أخذ المعلومة من كتاب ورقي تختلف عن أخذها منه وهو إلكتروني حيث تكون في صفتها الأخيرة هذه مليئةً بالانحياز الذي ربطته بها انحيازات الوسيلة نفسها).

من هنا؛ فإن تصديرتنا لقيمة حماية الوطن النبوية في اللاوعي سيأخذ حيزاً كبيراً من البحث في الأصول المعنوية للوسيلة واكتشافها، لجعل قيمة حماية الوطن النبوية المنقولة عبرها مألوفة لها ملء اللاوعي به عبرها بشكل خفي وصامت لا يدره المنخرط ولا يعي تأثره به قبلياً في اللاوعي. ويانعاش قيمة حماية الوطن النبوية في مضامين هذه الوسائل كتابةً وصوراً مما يدركه الوعي؛ سيلتقي الوعي باللاوعي وسيخلق التأثير الكامل المحيط بجوانب مهمة من الوعي واللاوعي وسيصنع الالتقاء بينهما بما يجعل رسالة قيمة حماية الوطن النبوية أسرع تأثيراً وأبلغ تبليغاً.

**المطلب الثاني: وسائل التواصل الاجتماعي؛ نحو ذهنٍ -في- قيمة حماية الوطن النبوية**

(١)

إذا أردنا تجاوز مصطلح "الوسائل" إلى مصطلحي "التواصل والاجتماعي" أمكن تسجيل تقييدتين متسلسلتين:

**التسجيل الأول:** إن وسائل التواصل الاجتماعي Social networking sites تنحدر من الشبكة (Network) التي تستمد منها تعريفها. وهذا التعريف متشكل من ثلاث خصائص:

- ١- الحضور في فضاء افتراضي بهويته التي يصنعها في هذه الشبكة التواصلية، والتي يظهر بها.
- ٢- إمكانية إيجاد مستعملين آخرين.
- ٣- إمكانية تحليل خصائص المستعملين الآخرين عبر تحديد نوعية الذين يمكن أن يتواصل معهم.<sup>(١)</sup>

1- Boyd, D.M., & Ellison, N.B. Social Network Sites: Definition, History, and Scholarship Journal of Computer-Mediated Communication,13(1), Article11.(2007) Online:  
<http://jcmc.indiana.edu/vol13/issue11/boyd.ellison.html>

**التسجيل الثاني:** أبرز مشترك بين هذه الخصائص الثلاث -فوق- هو التواصل الاجتماعي بين المنخرطين في هذه الوسائل كوسط افتراضي شبه مستقل. لكن، كيف يمكن استثمار هذا الفضاء الافتراضي لخلق إقناع وحيي في منخرطيه؟

إن وسائل التواصل الاجتماعي قد توفر لنا مظاهر الحماية للوطن متنوعة لم تك تظهر بدونها أو لا تصادف بالأحرى، وذلك لفوزها بخصائص مثيرة جداً، والتي منها ما يسطر في التالي: ١- إن وسائل التواصل الاجتماعي تلي للمره احتياج السيطرة على الذات، التحكم في مسيراتها، إنتاج ذاته وتحصيل تلك الصفة المطموح إليها، تحديد نوع الأصدقاء المرجوّن وحذف ما لا يحتمل أو يرفض. إن تحديده لواقعه الافتراضي هذا وبناءه لنوع الحياة التي يريد العيش بها ونمط الذات التي يريد الظهور بها يلي احتياجه الكامل في تحسره على عدم قدرته في السيطرة على فضائه الحقيقي.

٢- دخول وسائل التواصل الاجتماعي في الحياة اليومية نظراً لسهولة الارتباط بشبكاتهما ومشاركتها لليومي والأسبوعي من قبل الذات والآخر. وهذا الأمر أ-سهّل احتواءها لليومي والأسبوعي وإمكان نشر قيمة حماية الوطن النبوية في أغلب لحظات وأوقات المنخرط، ويُسرّ تسليك الوحي في الوعي المستمر وتذكير الناس به بشكل يومي. ب- كما أن كشفها لليومي في الآخر سهل الاطلاع على احتياجاته التي يعانها في ساعة ما من نهار أو في يوم ما من أسبوع. وهذا أشر على نوع جرعة حماية الوطن التي يمكن إيفاده بها ومن ثم تحقيق عمق التأثير الملائم للطبيعة النفسية أو الحالة الاجتماعية التي يعيشها المنخرط.

٣- المستعملون لوسائل التواصل الاجتماعي ينحدرون من مختلف الجغرافيات الفكرية، وكلّ يدخل هذا العالم بحمولته الثقافية كاملة. لكن المفارقة الأولى هنا هي أن كثيراً مما يظهره المنخرط في وسائل التواصل الاجتماعي ليس يعبر عن حقيقة ما هو فيه. أعني، أنه يصطنع لنفسه هويةً جديدة، هوية سلبها من هذا النت، وهوية يجتهد في إظهارها في هذا العالم.

ومن ثم؛ فكثير من الأحاسيس والمشاعر والحالات الذهنية التي يعرضها تكون غير حقيقية، كما أن التلقي الذي يستهلكه من وسائل التواصل الاجتماعي يكون غير فعّال مثل التلقي الذي يتلقاه من العلاقات الحية والتفاعلات الواقعية.

لذا، فإن وسائل التواصل الاجتماعي تلي افتقارات نفسية واحتياجات سيكو-اجتماعية كثيرة. وإن تطعيمه قيمة حماية الوطن النبوية بما يلي ذلك الاحتياج عبر قناة هذه الوسائل؛ يؤدي إلى التأثير الكامل نظراً لأن قيمة حماية الوطن النبوية ستلامس منطقة الاحتياج النفسية والاجتماعية التي عرفناها عبر معرفتنا للحاجات التي تجر الناس لاستعمال هذه الوسائل، ولأن المنخرط قصد هذه الوسائل التواصلية كأداة محققة لذلك الاحتياج، أي أودع ثقته النفسية والاجتماعية فيها. فاتخاذها كغلاف لإبلاغ قيمة حماية الوطن النبوية عبرها يؤثر بأسرع وأشد، لاتخاذها وسيلته التي أودع فيها ثقته، لنقل هذه الثقة إلى قيمة حماية الوطن النبوية عبرها، حتى نحقق التأثير بالوسيلة وبمضمون الوسيلة.

(٢)

بعد هذين التسجيلين يقال:

إن هنالك حالات ذهنية Mental states كثيرة عند متصفح وسائل التواصل الاجتماعي، ولنختر منها الموقف القضوي؛ "أحتاج"، أو حالة الذهن؛ "الاحتياج".

إن المنخرط في وسائل التواصل الاجتماعي يحتاج:

- ١- الاجتماع مع الآخر، كون النفس نفسياً لا تكتمل بذاتها وحدها، ولو أن يكون هذا الاجتماع افتراضياً.
- ٢- الأمان، أن يفعل ويؤثر ويقول مع ضمان أمان لذاته عن السوء. إن وسائل التواصل الاجتماعي تعطي للمنخرط قيمة أن يتكلم دون تحمل لمسئوليته مباشرة.
- ٣- التقدير الذاتي، وإظهار أهمية هويته وتقديرها من لدن الآخر.
- ٤- الاعتراف من الآخر.
- ٥- حب الانتماء للجماعة.
- ٦- التحيين الذاتي؛ أي أن تمارس الذات نفسها وسط الجماعة، بأن تدخل الشبكة كل يوم

وتواصل وتجيّب وترد وتحكي وتنتقد وتقول... وتشارك يوميّاً، وتعرف الجديد الذي عند الآخر ورأيه في المستجدات...

٧- فهم الذات أكثر وفهم الآخر والاطلاع على مهمات وخصوصية الآخر.

٨- إظهار الذات الجيدة وإخفاء الذات الرديئة، حيث إن نفسية المرتبط بوسائل التواصل الاجتماعي تقوم على مبدأ الإظهار والإخفاء؛ إظهار الذات للآخر على شكل تنتجها الذات نفسها ويرضي آمالها ورغباتها وتطلعاتها، وإخفاء الذات الحقيقية التي تسكن القهقري عن الذات المنتجة، وتحتفي عبر شاشة الهاتف أو الحاسوب.

٩- فرصة قول شيء أو فعل شيء يمكن أن يراه الآخر أو يحكم عليه.

١٠- حماية الذات من الوحدة المقلقة والمخيفة.

١١- حصيل السعادة والاطمئنان وكسر الوحشة والوحدة.

فلنا حالات ذهنية متعددة، منها الحب، الأمان، الاعتراف، التقدير، الاحتياج، التحيين الذاتي، الحماية، الفهم، الظهور، السعادة. وكلها تُحيل على نطاق مركزي لها هنا وهو الاحتياج.

إن هذا يدفعنا نحو استثمار هذه الحالات الذهنية والأحداث النفسية التي تكشف عنها وسائل التواصل الاجتماعي لاستثمارها في غرز قيمة حماية الوطن النبوية في الذهن والنفس غيرها. وأحسن استثمار يمكن أن يتم هنا هو ما مر بأعمال القلوب الإيمانية وأقوالها.

إن الوحي جاء بالإيمان الباطني والإسلام الظاهري، ومن بين أعمال القلوب الباطنية هو تلبية الحاجة الذهنية في مستوييها: الحاجة العقلية-المعرفية، والحاجة النفسية-العاطفية.

ذلك أن حب المعرفة مكون أساس لتصفح الشبكة الاجتماعية من قبل منحطيهما، وإن الفضول تجاه الآخر للالتذاذ بخصوصياته وفهم الذات والآخر أكثر يقربنا من أعمال القلوب الإيمانية مثل الرضا بالله والغنى بالحق والاكتماء بالعظيم والصبر على الحقيقة والخلوة بين يدي الله والاطمئنان على الآخر (التمثلة مظاهره السلوكية في زيارة المريض وصلة الرحم والتصديق على

الفقير والصوم لتذوق جوع المسكين فالعطف عليه بذلك...) وتدعيم الآخر وتوجيهه وتعريفه بالحق وأمره بالمعروف وهدايته من الضلال وتثقيفه بقيمة حماية الوطن النبوية وتعليمه..، وكل هذا يؤكد فيه اللذة (السعادة) الإيمانية التي هي "جنة الدنيا". أعني أن المنخرط في وسائل التواصل الاجتماعي يظن أن "المتصفح للفيسبوك أكثر هو الأسعد"،<sup>(1)</sup> مما يدفع بذاته نحو أ- تصفح هذه الوسائل بشكل دوري لكسر وحدته وبتو وحشته ونيل سعادته، ب- ونحو الحرص التام على إظهار أجمل ما في الذات وحيواتها وأجمل ما تعيش من لحظاتها. وهذا المركب الخداج يمكن تلبيته عبر تلکم اللذة الإيمانية لتعوض تلکم الوحشة والوحدة وقلة السعادة من جهة. ومن جهة أخرى، لاستثمار هذا البعد النفسي من حيث تشكيل كميات وكيفيات غير معتادة من المواد الوحيانية ومنها قيمة حماية الوطن النبوية في وسائل التواصل الاجتماعي لخلق اقتناع في المنخرط بأفضلية الوحي عليه حتى يهرول للشوق إليه والنهل منه والتأمل فيه.

إن كون القرآن آيات من آيات الله فُصد منه، مما فُصد، أن يعلو على غيره، وهذا ظهر واضحاً في التحدي الإلهي الذي رفعه وما زال، حول الإتيان بمثله أو بسورة منه سواء من الإنس أو الجن. وهذه الغلبة المطلقة التي للقرآن تستثمر وضعية نفسية مفادها؛ أن الإصغاء يتحقق بفاعلية أثناء الضعف، فاعتقاد الدونية في الآخر يجبط السماع منه، وغلبته في المقابل توجب الإصغاء له لأن "المغلوب يقلد الغالب" وفق فلسفة علم الاجتماع الخلدونية. فإذا كان هذا واضحاً؛ فإن استثمار هذه الاستراتيجية القرآنية في المستعمل لوسائل التواصل الاجتماعي يحقق أعظم الإصغاء للوحي.

ولتحقيق انتشار أوسع للوحي لا بد من تعطيش الآخر في قيمه وقيمة حماية الوطن وحمله على تمني الإصغاء للوحي وقيمه، وقذفه بمختلف حُقن الاشتياق للقرآن الكريم والوحي وقيمه عموماً، والتي تحققت مع العرب قديماً بنشر خبر أن القرآن أبلغ من أي بليغ حجة وأفصح من أي فصيح

1- Ron Hammond, Hui-Tzu Grace Chou. Using Facebook: Good for Friendship But Not So Good for Intimate Relationships. 43. The Psychology of Social Networking: Personal Experience in Online Communities. Vol 1. Giuseppe Riva, Brenda K. Wiederhold, Pietro Cipresso (Eds.), Managing Editor: Aneta Przepiórka, (De Gruyter Open Ltd. Warsaw/Berlin: 2016).



ذلاقةً، وبما أنهم لم يشهدوا أفصح من أنفسهم، دفعهم هذا إلى الإصغاء إلى الذي فاقهم وهو الشيء الذي لم يعتقدوه مطلقاً؛ أي لم يعتقدوا مطلقاً فصاحةً وبلاغةً وبياناً يعلو على بيانهم أو حتى هنالك بيان أبلغ من بيانهم. فاستشعرهم القرآن بوجود ما هو أفصح، أي بوجود ما اعتقدوا في موروثهم العربي من قديم، حتى تكرس في لاوعيتهم، أنه منعدم. وحين دغدغ الوحي لاوعيتهم حملهم إلى الوعي بضرورة الإصغاء إلى هذا الفائت، وهذا أدى إلى:

١- تعطشهم للإصغاء. وبقدر الاحتياج للإصغاء بقدر الاحتياج للتأثير الكافي، إذ قدر العطش يحتاج قدر الماء الكافي. وهذا أعطى للقرآن أ- ميزة إسماع نفسه للآخر دون الضرب صفحاً عنه، ب- وميزة الإنصات له إصغاءً، ج- وميزة التأثير في النفس.

٢- أنه أثناء سماعهم له تأكدوا فائقته، وفائقة ذائقته، وفائقة رائحته. والذي عزز هذا الاعتقاد هو احتياجهم للإصغاء الذي قام بتسليك التأثير في النفس بقدر تسليك الشوق للإصغاء.

وهذا أفعل هزة طارئة ومستمرة على لاوعيتهم الذي بني على تركيب طويل في عدم وجود منافس لهم في اللغة مطلقاً. مما أبدى فقدان الثقة بهذا المخزون الثقافي المتكثل في الذهني الماقبلي، وأبدى الاهتزاز في درجات اللاوعي الذي كان يعد صادقاً دوماً، إذ الاعتزاز بالتركيب القبلي المتكثل في ثقافة الأجداد عملياً وفي اللاوعي نظرياً عبر عديد أجيال متتال؛ له أصل تليد في الجاهلية، كما قال الله تعالى عنهم في ذلك: **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتِدُونَ** (الزخرف: ٢٢). واللاوعي يستحيل أن يظل فارغاً، إذ الثقة (الاعتقاد، اليقين، السكون لثابت ما، الخروج عن المتغير...) مرتبط إنساني عتيق، وعند فقدان الثقة في اللاوعي موروثاً أوجب ملؤه بمضمون أوثق. فإحداث القرآن لهذا التشكيك ولد فراغاً غير مقبول، وبما أنه قوي منزلزل، قدم نفسه كبديل أوثق وقوة وسعى، فدفعهم هذا دفعاً إلى الإيمان به.

هذه الاستراتيجية نفسها تطبق على المستعمل لوسائل التواصل الاجتماعي، ذلك أنه يريد إخفاءً للذات، وصنعاً لهوية جديدة تناسبه، وهذا الكسر في الهوية، وهذا الاحتياج السيكو-اجتماعي ولدا ضعفاً مقيتاً يدفع النفس دوماً للتفكير في طرق ملائمة للخروج منه. وعند تدعيم القرآن في النفوس بهذه الطرائق يتم تدعيم القيم النبوية وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية بالضرورة.

عندما يقدم الوحي كخطاب مناسب دومًا للاوعي وللحاجة وكشيء يرمم الهوية ويوحدها نحو التعلق بالله وحده؛ يوجد في النفس أملاً بالتعلق بالأقوى الذي هو الله ذو القوة جميعًا، كما أن شكه في محيطه الذي أحبطه وجعله في ثنايا الضعف دفعه نحو التعلق بيقيني مُربّي عن أي ضعف أو شك.

إن من أهم، أو أهم، محلول تتميز به وسائل التواصل الاجتماعي هو مفهوم الفرصة. إنها تتيح فرصة إعلامية للاطلاع على أكبر قدر ممكن من الأفكار بشكل مختصر ومركب، والاطلاع على عديد هائل من المثقفين بمختلف جغرافياتهم، كما تتيح عرض الذات الفكرية والذات الثقافية على الآخر وتوفيرها لهم. مع سهولة استعمال هذه الوسائل التي لا تتطلب قدرًا ثقافيًا جزلاً.

إذا جمعنا هذا المفهوم بمفهوم التيسير الذي يختص به القرآن والوحي لذكره، وكونه متاحًا للعلمين؛ الدارس وغير الدارس كل يقرؤه ويفهمه على قدر عقله؛ مع سهولة الحصول على المصحف وبطون السنة ودراساتها؛ كان استثمار هذين المفهومين تحت ظل واحد هو تعزيز للمشارك الذي يقرب هذه الوسائل إلى القرآن والعكس، مما يسهل تشحين قيمة حماية الوطن النبوية في هذه الوسائل وإشباعها بها. فإذا كانت تفتح فرصًا ميسورةً لمستعملها، وإذا كان القرآن ميسورًا سهلًا لذكره؛ فإن استغلال تلك الفرصة بمدّها بهذا الميسر يخلق فرصةً ميسرةً ثالثة لتسليك قيمة حماية الوطن النبوية في هذه الوسائل وفي مستعملها على حد سواء.

إن فرصة الشبكات الاجتماعية - حسب جيبسون<sup>(1)</sup> تفتح طرقًا متنوعةً كل منها يمكن أن يقود لفعل ملائم. وذلك من حيث إن كل بيئة أو موضوع داخل ما تتيحه هذه الوسائل يحفز نحو فعل خاص دون غيره. أعني أنه يمكن خلق عدة بيئات في هذه الوسائل بقدر ما تتيحه هي، ثم تملأ كل بيئة بعلم من علوم القرآن أو مضمون من مضامينه (وهذا ممكن جدًا لتضافر التيسير في كلتا الجهتين) لتمرير قيمة حماية الوطن النبوية عبرها.

وهذه البيئات تفتح فرصًا ميسرةً متتالية للآخر لأن يتعرف على مختلف قيم الوحي. وهذا

١- ينظر:

Gibson, J.J. The ecological approach to visual perception. (Hillsdale, NJ: Erlbaum, 1979).

استثمار لعلم النفس المعرفي من حيث إن الذهن يميل لأن ينتفض عند أدنى معوّق، أو عدم وجدان. وإزاحة معوقات الوصول للقرآن الكريم والسنة وقيمة حماية الوطن النبوية عبر تكثير الفرص، وإتاحة بيئات قرآنية متنوعة وكثيرة في وسائل التواصل الاجتماعي ليحدها المتصفح بسهولة؛ هو تجنب هذه الخصيصة التذهنية واستثمار نقيضها في دعم قيمة حماية الوطن النبوية في الذهن.

إن وسائل التواصل الاجتماعي تحوي أصدقاء مقربين ممن لنا معرفة مباشرة بهم من جراء الالتقاء المادي أو الاطلاع على كتاباتهم. وتحوي أصدقاء بعيدين، ويجمعنا بهم الفضاء الافتراضي. وإن الانتقال من العلاقة البعيدة إلى المقربة يكون عبر مشاركة نفس التطلعات والأفكار والآمال، مما قد يتطور الأمر إلى لُقيا مادية أو تعزيز العلاقة إلى الصداقة. أعني أن إدراك الحالة الذهنية الذي يعيشها المنخرط ومشاركته بتفسيرات قرآنية أو آيات ملائمة أو أحاديث مناسبة وتشويقه بذلك لفتح المصحف المادي أو كتاب سنة بطريقة من الطرق سينتقل بعلاقته بالسنة أو بقيمة حماية الوطن النبوية أو بالقرآن من علاقة ضعيفة افتراضية إلى علاقة قوية وصلت حد فتح ورقات المصحف أو ورقات كتاب في السنن والبحث عن معالجات فيه لحالاته الذهنية. فنقله إلى إمساك المصحف واقعيًا تكمن قيمته في أنه يشبه الالتحام ببعيد ليصير صديقًا قريبًا، لأن اللقاء المباشر مع فرد ما يكون مؤثرًا أكثر بحكم أن كلا الفردين يتكلفان السماع والإسماع لبعضهما بعضًا، وإحداث ضحك حقيقي وتأسف حقيقي حتى ولو كانا يتظاهران بذلك، بعكس التواصل عبر الكتابة في وسائل التواصل والتي تعبر عن الحزن أو الضحك (بالإيموجن) أو الكلمات بدون أن يكون صاحبها حقًا قد ضحك وأبدى نواجده. وهذا التكلف في إحداث تفاعل حقيقي بما يليه من لغة الجسد وصوت الكلمات وتعبيرات الجسد وشوارد وشواهد الكلام يوطد العلاقة في اللاوعي خصوصًا إذا استمرت واستمر إقناع اللاوعي بها والضغط عليه بتكريرها. لكن المصحف حتى وإن كانت مباشرته أمتع وأشد إقناعًا وأوفر تأثيرًا وتفاعلاً من مجرد قراءته عبر النت ويدرك هذا من له قراءة لكتاب حقيقي وأخرى له عبر الشبكة؛ إلا أنه لا يختلف كثيرًا في الواقع عما هو عليه في الشبكة. ولهذا فقراءته عبرها ستؤثر بشكل كبير شيئًا ما، لأن صورة وجه إنسان تتواصل معه عبر شبكة اجتماعية لا تجسد وجهه الحاضر معك واقعيًا، لكن صفحة مصحف تجسد بأقرب حضور ورقة مصحف معك واقعيًا. وبعبارة معيّنّة؛ إذا كان المنخرط محتاجًا لجرعة التأكيد على انتمائه للوطن وحقنه بالحماية له؛ كان دفعه عبر هذه الوسائل إلى نصوص السنة المتضمنة لقيمة

حماية الوطن النبوية هو العلاج الأحق لها.

إن وسائل التواصل الاجتماعي تخلق في منخريها نوعاً من الغيرة والحسد، وذلك لما يعتقد هذا المنخرط من الكمال في حياة الآخر الحريص على كشف أجمل لحظات حياته. وهذا يستثمر في حرص المرء بمشاركة أجمل لحظاته أثناء التعامل مع القرآن قراءةً أو تعلماً أو تعليمًا أو تطبيقاً (هذا يضاف إلى وسائل استثمار القرآن الكريم أثناء حاجة الشخص إليه، والإصابة منه بالقرآن الكريم نقاط احتياجه لقلب احتياجه نحو شيء ما إلى القرآن وحده) لقلب حسده هذا غبطة، الأمر الذي تحدث عنه النبي ﷺ في قوله: لا حسد إلا على اثنتين رجل آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل والنهار.<sup>(١)</sup>

إذن؛ فاستثمار الحالات الذهنية الإيجابية التي تصنعها وسائل التواصل الاجتماعي نحو القرآن والسنة وطبها قيمة حماية الوطن النبوية من الحب والسعادة... وكذلك استثمار الحالات الذهنية السلبية في قلبها نقيضاً نحو القرآن الكريم وهداياته من الحسد والاحتياج والملل والحزن وعدم كفاءة الذات للآخر... =خلق أعمال قلوب شرعية مفعمة بالوحي، خصوصاً أن هذه الحالات تترجم سلوكاً في سلسلة ثلاثية متصلة وهي ١-المقابلي في الذهن حيث اللاوعي، ٢-الحالات الذهنية، ٣-السلوك اللغوي والفعلية مما يجعل المنحى بينها واحداً ومتصلاً في التعبئة والتأثير. وهو ما سنوضحه في التالي.

## المبحث الثاني: استراتيجيات حماية الوطن وصد التهديدات عنه

### وسائل التواصل الاجتماعي:

### كيف تكون رافعةً من روافع حماية الوطن وتهديداً له كذلك

بادئ ذي بدء، لا بد من التعرّيج على تعريف الذهن Mind أولاً قبل البدء في تأطير إحراز كفاءات في غرز المعاني الوحيانية والقيم النبوية وحماية الوطن في الذهن.

الذهن mind هو ما يشمل المقابلي Priori ومختلف الحالات الذهنية mental stats

١- أخرجه: البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، رقم: ٤٧٣٧.

الجمعية (العقل منظومة حالات ذهنية، العاطفة مجموعة حالات ذهنية، الفكر مجموعة حالات ذهنية، الاعتقاد مجموعة حالات ذهنية...) وما يلي، أو ما في، ذلك من سلوك لغوي.

إن أي ممارسة ذهنية تحدث في مراكزها وهوامشها وشواردها حالات ذهنية منها ما لنا وعي بها، ومنها ما ليس لنا وعي بها والكامنة في اللاوعي. وأي تَدُّن Cognition كيفما كان يسحب طيه هاتين المرتبتين، اللاوعي واللاوعي، ويوزعهما في المركز وفي الهامش بما يتفق عنده وحيث يلزم. وبمجموع الهوامل والشوارد، والمراكز والمعازل، ينتج التذهن Cognition .

وهكذا، إذا كان الذهن في صفاته تلکم بإجمال واختصار شديدین جداً؛ فإنه لغرض معنى فيه وتحويله إلى أنماط تذهنية (أنماط متعالية/ترانسندنتالية تسكن اللاوعي، وأنماط ذهنية تسكن الوعي، وأنماط لغوية نصح بها) يحتاج لتدابير منطقية وفلسفية عالية الدقة وممتدة الاستمرار.

فالخوف مثلاً هو تهيئة قبلية فطرية في الذهن يكون بموجبها خاماً بدون أي مظهر ما. وعندما يفعل كحالة ذهنية ويترجم باللغة (كقول زيد: "إني حين سمعت عقاب الله أخاف من الله")؛ يكون بذلك قد قطع أشواطاً بعيدة في الذهن وصار موقفاً قضوياً، مستجمعاً كل الظروف التي تؤهله لأن ينسج سلوكاً.

### المطلب الأول: استراتيجيات تسليك قيمة حماية الوطن النبوية في الذهن والسلوك

سأدون الآن هنا استراتيجيات لغرس قيمة حماية الوطن النبوية في الذهن واللاوعي لتحصيل سلوك تربوي مؤطر باستراتيجية مضافة تدفع إليه وتحافظ على المكتسب منه.

(١)

#### استراتيجية استثمار كل صالح

إن استراتيجية غرس قيمة حماية الوطن النبوية في اللاوعي يكون عبر إحضار كفي مكرر ومتجدد للقرآن أمام المنخرط لغرس القرآن في لاوعيه ومن ثم قيمة حماية الوطن بالضرورة. وهذا الإحضار الكيفي المتجدد يكون عبر مقامين:

- ١- إن غرز قيمة حماية الوطن النبوية في هذا المستعمل يجب أن يطور أدواته بما يوازي تطور هذه الوسائل التي تعدت وسائل الإسماع التقليدية. وذلك يكون عبر:
  - نشر أكبر عدد ممكن من المواد الوحيانية، قرآنًا وسنةً وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية، كمًّا لتنشيط الذهن نحو تصديقها والتعلق بها، عملاً بمبدأ الإشهار الذي يعمل على المدى البعيد لقبولة اللاوعي الذي ستتقل مادته تلقائيًا إلى الوعي ثم إلى الفعل.
  - نشر أكبر عدد ممكن من المواد الوحيانية قرآنًا وسنةً وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية كيًّا باستعمال الصور والألوان والفيديوهات القصيرة والطويلة والصوتيات في مختلف البقاع وعلى متنوع الحالات والأصوات والطرق لضمان فعالية هذا الكيف المتنوع للغوص في متنوع الذهن وتنشيط مختلف مناطق الذهن الصوتية والمرئية واللونية... وهذا يعزز الاقتناع.
  - دعم الوحي وطيه قيمة حماية الوطن النبوية بالاستفادة من طرق تسويق الشركات لنفسها، وأبحاثها حول ذلك، ومن أساليب الإشهار والترويج للمنتوج والمنشور وكيفيات إشهار شخص أو تعميم فكرة ما.
- إذن؛ حتى نهيمن على اللاوعي لابد من تكرار إظهار الوحي له عبر مختلف الأشكال مرئيًّا ومسموعًا وملونًا وأمام مختلف المناظر الطبيعية والجمالية، وبمختلف الأصوات والمقامات.
- ٢- لابد من التركيز على استثمار قيمة حماية الوطن النبوية في كل شبكة بما لها من خصوصية فيها. فالفيسبوك Facebook يغلب فيه إحصار وتحديد العلاقات اليومية، وتويتر Twitter لنقل الأفكار في وقتها ولينكدن LinkedIn للمهنيين، وفورسكوير FourSquare لمعرفة الأصدقاء المقربين، وهكذا. واستثمار قيمة حماية الوطن النبوية وفق الحالة هنا يؤدي إلى:
  - ١- الهيمنة على اللاوعي بأقصى كمٍّ ممكن عبر بث قيمة حماية الوطن النبوية في أقصى كم وكيف ممكنين لتكرار إحصار قيمة حماية الوطن النبوية عند المنخرط في أي شبكة انخرط وفي مجموع كل الشبكات التي فيها انخرط.

- ٢- ألا يغيب المنخرط عن شبكة ربما تكون هي الوحيدة التي عند هذا المنخرط.
  - ٣- الهيمنة على محيط الشبكات الاجتماعية بتكوين مجموعات قرآنية يكون هدفها هو تمثيل قيمة حماية الوطن النبوية، ومخاطبة كل الأصناف المستعملين لها.
  - ٤- كل شبكة هي أقوى في ميزتها التي صنعت لها، وإيجاد ملاءمات وحيانية لها سيجعل هذه الميزة كلها في خدمة هذا الجانب القرآني المناسب الذي ضُحِّ فيها، مما يُهدى، أي قوة في التأثير صنعت لهذه الشبكة، لقيمة حماية الوطن النبوية فيستثمر قواه وتأثيراته لكي يؤثر عبرها في المنخرطين بمختلف ثقافتهم وجغرافياتهم.<sup>(١)</sup>
- إن عملية تقريب القدم نحو تحقيق نفخة من هذا إلى تعزيز قيمة حماية الوطن النبوية في اللاوعي والوعي عبر وسائل التواصل الاجتماعي نحو إيجاد سلوك تربوي؛ لغوي وفعلي وحياتيين =يجرنا إلى التالي.

(٢)

### استراتيجية تهديف الاحتياج

إن وسائل التواصل الاجتماعي تكشف عن احتياجات مهمة في سلوك المنخرط النفسي والاجتماعي. فالمنخرط لا بد له من تلبية الاحتياجات التي لا يلبها في واقعه الحقيقي ليجد ضالته في عالمه الافتراضي. وهذا يوجب رسم خطط مبرمجة مسبقاً في شد المنخرط بوسائل التواصل الاجتماعي نحو قيمة حماية الوطن النبوية، والتي منها:

- ١- تقصيد هذه الوسائل باستهداف مكثف ومدروس للمنخرطين في هذه الوسائل بمختلف خلفياتهم الثقافية وانتماءاتهم الجغرافية ومتعدداتهم العقدية.

---

1- Giuseppe Riva, Brenda K. The Psychology of Social Networking: Personal Experience in Online Communities. Vol 1. Wiederhold, Pietro Cipresso (Eds.), Managing Editor: Aneta Przepiórka, (De Gruyter Open Ltd, Warsaw/Berlin: 2016). Psychology Of Social Media: From Technology To Identity. Giuseppe Riva, Brenda K. Wiederhold, Pietro Cipresso, p. 4-14.

٢- استثمار احتياجاتهم الذي يجدونه في هذه الوسائل بتوفيرها لهم في المواد القرآنية والتي تحوي قيمًا كثيرة ومنها قيمة حماية الوطن النبوية. فالمريد لراحة جمالية تزيل عنه مشقة العمل تستثمر إرادته هذه بتوفير أصوات رخوة تقرأ القرآن بمختلف الوسائط المرئية والمسموعة وبمتمنوع القراءات والأصوات الشجية والرقيقة والجهورية، وغير ذلك بما يجد فيها ضالته النفسية والاجتماعية. والمقهور نفسيًا المحتاج للخروج إلى مكان أرحب وأبعد عما يكتئب فيه؛ توفّر له شروحات لمعاني القرآن المختلفة بما يناسب لقمته النفسية تلك عبر بذل أقصى المطاق في تنويع وسائل تحصيل ذلكم له، وهكذا.

٣- خلق عدة قنوات وصفحات وحسابات، تعمل في ظل وسائل التواصل الاجتماعي تتنافس فيما بينها في جودة المواد التي تقدمها للمنخرطين، وتتنافس في إحراز أجود الثمار وأوفر النتائج على مستويين:

أ- مستوى إحراز أكبر عدد ممكن من المنخرطين والمتابعين والمشاهدين..

ب- مستوى إحراز أفضل جودة على مستوى المواد والمضامين والمعروضات الوحيانية والقيم النبوية المناسبة لمتبعيها والمترصدة لساعات احتياجاتهم بمواد تناسب أحوالهم لحفظ الجمهور المكتسب، ونيل مزيد من المنخرطين الجدد وتعميق التأثير بينهم بتلكم المواد الوحيانية.

إذن؛ هذه الكثرة الكمية والجودة الكيفية تضمن استمرار التعبئة وامتداد التأثير وترسيم الإقناع الذي بعد تكديس بعضه على بعض؛ ينتقل من مواد تسكن في الوعي إلى مواد تنغرز في اللاوعي في قعر الذهن البعيد. وهنا تحصل طفرة في المنخرط الذي بدل:

أ- أن يكون مدمنًا على مواد إعلامية ملتدّة يبيت مرابطًا على موضوعات قيم نبوية محبّبة.

ب- أن يكون ذهنه تحت السيطرة البشرية الإعلامية المقيدة يغدو تحت الرحمة الوحيانية الحرة والرحبة.

إن من بين أسلس الوسائل لمخاطبة اللاوعي مباشرة هي ملامسة الاحتياج النفسي



والاجتماعي، لأنها شؤون تتجاوز العقل والوعي في أحيان مطردة وتباشر علاقتها مباشرةً باللاوعي. وعند تلبيتها لا يكون هذا الصنيع ذا حدود على هذا المستوى فقط؛ بل يكون له تأثير وصلي باللاوعي البعيد جداً، والأمر نفسه عند عدم تلبية ذلك. وهنا يكون استثمار الحاجة أداةً ناجعةً لمخاطبة اللاوعي بالمواد القرآنية والقيم النبوية والتي عبرها نمر قيمة حماية الوطن النبوية. وقد أكدنا سابقاً على أن أفضل وسائل تمرير قيمة حماية الوطن هي القرآن والقيم النبوية السنية. ونزيد هذا تفصيلاً أكثر هنا:

(٣)

### استراتيجية تحفيز الحالات الذهنية

#### عبر تنشيط أفعال وأعمال القلوب التي تثيرها المواد القرآنية

سأقيد هنا تقييدين يوضحان هذه الاستراتيجية:

**التقييد الأول:** لعله من مهمات الحدث البشري ليس هو الحدث السلوكي بل الحدث القلبي التذهني. ذلك لأن السلوك يظل في كثير من تبعاته تابعاً للقلب والعقل، ومناطق التأثير والإقناع هو هذان. وإذا كانت أفضل وسائل غرس المعنى والقيمة في اللاوعي والوعي تركز في الذهن، وإذا كان الذهن هو المتحكم في السلوك اللغوي والفعلي؛ فإن القرآن الكريم قد أعطى أهمية جليلاً جداً لأعمال القلوب وأفعالها كمحفّزات للعمل ومؤسّسات للفعل.

إن كل سلوك لا بد أن له قولاً أو عملاً قلوبياً، فالصبر الجسدي، كعمل سلوكي، مادٌ ومتمد من الصبر القلبي كعمل قلبي، والصفح الرمزي أو الجسدي، كسلوكي عملي، مادٌ ومتمد من الحب القلبي كقول أو عمل قلبي، وهكذا. وهذا هو معنى قول السلف: "إن الإيمان قول وعمل واعتقاد"، أي أن منظومة السلوك والاعتقاد والقول واحدة غير منكسرة أبداً.

لكن السؤال هنا هو في كيفية تعبئة الذهن بالقرآن ومن ثم قيمة حماية الوطن النبوية عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

إن أحد الطرق الممكنة لذلك هو الربط بين أعمال القلوب والحالات الذهنية ربطاً يفترض

المعاني القرآنية والقيم النبوية في الكل.

إذا كانت وسائل التواصل الاجتماعي تخفي حالات ذهنية متعددة - كما أوضحنا ذلك فوق-؛ فإن صنع تحفيز لها في ذهن المزاوول لوسائل التواصل الاجتماعي من قبل أعمال القلوب القرآنية والنبوية مهمٌ جدًّا. ذلك أن التركيز على مواد ومفاهيم الخشوع والرجاء والحب والخوف والحاجة إلى الله والتوكل عليه والإنابة إليه وغير ذلك من مفاهيم أعمال القلوب وأقوالها سينسجم مع المنخرط في وسائل التواصل الاجتماعي باحتياجاته القلبية والنفسية والاجتماعية. وهذا سيسهل تلقفه للمواد القرآنية وتأثره بمفاهيم وقيم الوحي الشريف وطبها قيمة حماية الوطن، لأن المرء تبع لما احتاج. إذن؛ فتنشير أفعال القلوب وأقوالها كمًّا وكيفًا عبر مختلف الوسائل ومتنوع البرامج ومتعدّد السبل لتحفيز حالاته الذهنية نحو قيمة حماية الوطن النبوية وقيم القرآن الكريم شق مهم لدمج الخلق في كلام الحق.

**التقييد الثاني:** إن لكل امرئ سلطة معينة على حالاته الذهنية. فهو أعرف بخشوعه لربه من غيره من الناس، وهو أعلم باحتياجه النفسي من غيره. وهذا ما يعرف بسلطة الشخص الأولى *the first-person authority* في فلسفة علم النفس.

إن طريقة الشخص الأولى *the first-person way* أي طريقة قوله لحالاته الذهنية ومعرفته لها تعد جزءًا من مساحات سلطته. وتحدد -بشكل ما- خصائص الحالات الذهنية وتفصح عن وجودها، كما أن طريقة قوله لها تعد كذلك امتدادًا لها في صيغة القول وتحدد بشكل ما طريقة تواجدها والشكل الذي سيعرفه الناس عنها. وفعل شيء جراء حالات ذهنية ما محددٌ ومقيد أو مخصص أو مطلق بشكل ما لحالاته الذهنية وتعريف بوجودها وتنميط لخصائصها.

إذا اعترفنا بأنه في وضعية سلطوية أفضل؛ فإنه هو المرشح الأول لتحديد ما هو الأفضل ليفعله وليقله -بما يناسب مقابله من حالات الذهن، (فالألم الذي يحس به متألم الآن كحالة ذهنية يكون مبيّنًا لصاحبه ليحدد ماذا يقول أو يفعل بما يناسب العمل الموافق للحالة الذهنية)- وما لا يفعله ويقوله، لأنه كان في وضعية زاخرة، ولأنه تجاه حالاته الذهنية كان في وضعية تؤهله لتفضيل فعل على آخر، ويسمي ماثيو طوماس بروت *Matthew Thomas Parrott* هذا

النوع من السلطة بـ agential authority<sup>(١)</sup>.

وأستثمار هذا الكلام وتوظيف هذه المفاهيم هنا يكون عبر تسجيل التالي:

إن الشخص في سكونه لنفسه وتوقعه على حالاته النفسية يحس بأثرة عليها وأنه لا أحد من بني جنسه يعرف ما يعرف ويستحق ما يستحق، كأنه يتحرر بسلطته هذه من العباد والخلق. وهذا يدفعه إلى عدم الثقة بالناس وكلامهم ومشاعرهم وحالاتهم الذهنية، والتعلق بما هو متعال أي مما هو غير مخلوق ولا مما هو من كلام البشر، ويجد ضالته هنا في القرآن الكريم الذي هو كلام الله ليس كلام بشر. والكلام هنا ليس معناه ذلك الصوتي المسموع وحسب؛ بل معنى أن كلام الله ليس كلاماً للبشر أنه ليس من صنع مشاعرهم ولا عقولهم ولا أذهانهم، ولا من صنع حالاتهم الذهنية ولا منطقتهم ولا ماقبلياتهم تذهنهم. وعليه؛ فلا أحد يفرض سلطةً فكرية على القرآن أو يستأثر به لأنه كلام الله فهو للخلق كلهم وللمسلمين أجمعين أكتعين أبصعين. ومن هذا المنطق وجب تبليغه للعالمين لأنه للعالمين وجاء للعالمين.

فالكلام لله لا لأحد. والمحتاج للتحرر من سلطة الأغيار على حالاته الذهنية وتحرير حالاته الذهنية من سلطة غيره عليها؛ يجد حاجته ومصالحته ومنفعته في مفاهيم أفعال القلوب وأقوالها القرآنية وملزوماتها من القيم النبوية وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية. وهذا يحقق مصلحةً ذهنيةً قلبية ضروريةً للعبد كون الإنسان كائنًا قلبياً أكثر منه كائنًا سلوكياً، ويدراً عنه مفسدةً سجن حالاته الذهنية له، وسجن أفكار واعتقادات الآخرين له. أي أنه يحقق مصلحة التحرر من ذاته ومن الآخرين عبر التقييد بالقرآن الكريم، ويدراً عنه مفسد التقييد بذاته وبالآخرين عبر التحرر بالقرآن الكريم، أي فالتحرر بالقيم النبوية وما يندرج طيها.

1- Matthew Thomas Parrott. Agency and First-Person Authority. (University of California, Berkeley: Usa. 2014) P. 4.

(٤)

## استراتيجية العمل على كل المناحي ومضاعفة العمل على المنحى الأهم

لابد من الشروع في تسطير موجز للخبايا السوسولوجية والسيكولوجية القابعة وراء وسائل التواصل الاجتماعي لفهم كيفية توظيفها في موضوعنا هنا.

### أولاً؛ سوسولوجياً:

إن وسائل الإعلام تستهدف ردة طرق التفكير المختلفة الثاوية في الأذهان المتنوعة، وهذا القصد نحو التوحيد بين الأذهان يروم حد إحراز مطابقتها، ويثور أكثر عبر تقديم مواد إعلامية واحدة بتنميط واحد وأشكال واحدة، حتى وإن اختلفت في المظاهر السطحية التي لا تغير من عمق المواد المقدمّة شيئاً.

بالنسبة إلى وسائل التواصل الاجتماعي، فإن لها خلفية هذه القصة عينها، أعني أنها تسعى لخلق مجتمع جديد (افتراضي) مواز للمجتمع التقليدي الحقيقي، له تقاليده وأعرافه وقوانينه وأنماط تفكيره لتقييم حالات مفترضة وخلق أشكال متطّلع نحوها نحو:

- ١- استعاضة المجتمع التقليدي والقيام مقامه والنيابة منابه.
- ٢- التأثير في المجتمع الحقيقي عبر جعله مرآة يعكس ما يدور داخل المجتمع الافتراضي المدار داخل وسائل التواصل الاجتماعي، من قيم وأفكار ومفاهيم وأخلاق وسلوكيات.
- ٣- التقليل من تأثيرات المجتمع والدولة في الفرد ومن سلطتهما القانونية (الدولة) والاجتماعية (الأعراف) بخلق بديل افتراضي له قوانين وأعراف مختلفة في شكل تنظيم جديد.
- ٤- حمل كل المزاي والرزايا التي تسكن طي المجتمع التقليدي إلى إطار جديد وهو المجتمع الافتراضي لينعشه بأبعاد جديدة وينشطه بجرعات زائدة وذلك من أجل:
  - أ- صنع مكان آخر للحياة، له رؤى مختلفة.
  - ب- صنع مكان آخر للتفاعل والتواصل.

ج- إيجاد معيش جديد له نظريات وعمليات مباينة لنظريات (أفكار ورؤى ونظرات) وعمليات (سلوكيات ومهن وأفعال) المجتمع التقليدي.

٥- إيجاد دولة بديلة عن الدولة التقليدية التي تعتمد على القومية-القطرية والضبط والعقاب والمراقبة للأفراد والمجتمع عبر إنشاء أدوات جديدة للمراقبة والضبط والعقاب لأفرادها المنخرطين (المتجاوز القومية القطرية-الجغرافية إلى الكونية) ومجتمعها الذي يضم أهله طيه. أو عبر خلق مفاهيم موازية لهذه المفاهيم التي تشتغل وفقها الدولة القومية.

وهذا يعني أن تركيز غرز قيمة حماية الوطن النبوية في المجتمع التقليدي فقط، يجعل هذا العمل خداجًا. ذلك أن محاولة تغيير مسبب بالعمل عليه وحده غير مجد، وذلك لأنه نتيجة لسبب متحكّم فيه. هذا السبب هو الفاعل الأول فيه وهو المسيطر على عواهنه والسائق والقائد له. وما العمل على تطويع النتيجة دون العمل على أصلها السببي إلا عملاً يزيد من تعليق تلك النتيجة بسببها، ويُمثّل علاقاتها أكثر فأكثر. فمن جانب موضوعنا هنا، إن المجتمع التقليدي يظل أحد انعكاسات المجتمع الافتراضي أو، على الأقل، متأثرًا به إلى حد كبير. فيقف العمل الدعوي الشرعي على التركيز على مسرح مرآوي منفعل متأثر بغيره ليطوّعه إليه. وهذا يجعل من العمل ضائعًا عاملاً في جهة غيره.

لذا، لا بد من إعمال الجهود وادخارها نحو توطين قيمة حماية الوطن النبوية في وسائل التواصل الاجتماعي (الإعلام عمومًا) مادامت هي الأساس وهي المجتمع والدولة الجديدين.

### ثانيًا؛ سيكولوجيًا:

تقوم وسائل التواصل الاجتماعي على المنافسة الإعلامية، المنافسة في كسب أكبر كم من الجماهير، المنافسة على إحراز أكبر الحشود النسبية، المنافسة على تحقيق عمق التأثير في المنخرطين، المنافسة على جذب النخب الاجتماعية والفكرية والسياسية من النشطاء والمتقنين والسياسيين والمفكرين...، المنافسة على جلب تفاعلات أكثر من المنخرطين وهكذا. وهذا العمل يخلق أثرًا ممتدًا على نفسية المديرين لوسائل التواصل الاجتماعي ولوسائل الإعلام عمومًا بما ينعكس على البرامج والتطبيقات والمحتويات التي تهيكّل هذه الوسائل، فيؤثر ذلك طردًا وعكسًا على المزاويلن لهذه

الوسائل والمنخرطين فيها. إذ إن "المنافسة الإعلامية ينعكس تأثيرها على أفكار ومشاعر وتمثلات وسلوكيات جمهورها"<sup>(1)</sup>.

إن خلق منافسات وحيانية طي هذه الوسائل بمنطق "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون" لا يقف مراده الجمالي عند الحفاظ على الممتلكات النفسية للجمهور وحسب؛ وإنما حتى على تكثير كم وكيف الجماهير وتعميق التأثير في نفسيتهم وذهنياتهم.

وإذا كان هذا التأثير التذهني والنفسي والسوسيولوجي منعكسًا على السلوك بالضرورة وبينهما تعانق مطلق واستنزاف غير مشروط؛ فإننا نكون هنا قد وقفنا في الصف الذي يتيح لنا ربط السلوك التربوي بوسائل التواصل الاجتماعي بالمواد القرآنية والقيم النبوية الكريمة.

يؤثر الإعلام في التأثير على السلوك الفردي والجمعي لتحصيل سلوك ذي طابعين:

١- سلوك مستهلك من حيث إنه تشكيل حضر في الذهن وتفجر في السلوك، إنه جزء من منظومة ذهنية-سلوكية يكون الفعلي فيها جزءًا من مجموع الشكل. وصناعة الذهن تمت بمواد وأشكال إعلامية، فالسلوك الناجم عنها مستهلك من جراء كونه نتيجةً لمسلسل منطقي مهندس سلفًا.

٢- سلوك مستهلك، من حيث تركيز وسائل الإعلام على جعل سلوك الفرد مستهلكًا لموادها، فالذهن يستهلك الأخبار والشائعات والتوجيهات والإشهارات التجارية لدفع السلوك نحو أداء خدمات معينة وإنتاج سلوكيات بعينها واستهلاك منتوجات اقتصادية وثقافية حتى تتم عملية تصريف السلع الفكرية والاقتصادية.

إن الفوز بموضع قدم في الذهن يترجم سلوكيًا، على الأقل، بوجه ما. وإشباع الذهن بقيمة

---

1- L. J. Shrum. What's So Special About Entertainment Media and Why Do We Need a Psychology for It?: An Introduction to the Psychology of Entertainment Media. The psychology of entertainment media: blurring the lines between entertainment and persuasion/L. J. Shrum, editor. LAWRENCE ERLBAUM ASSOCIATES, PUBLISHERS Mahwah, New Jersey London. 2004. P 2.

حماية الوطن النبوية سيبلور القصد نحو السلوك الذي تمتلئ به قيمة حماية الوطن النبوية. فإحراز تربية وحيانية في السلوك يكون بتمرير الأفكار في الذهن وإعادة صياغة السلوك لها فعلياً ليكون مثالاً عملياً يشخص المعنى في الذهن ويمد من هذا المعنى في بعد جديد وهو البعد السلوكي.

إن هنالك علاقةً بين الذهن والإعلام بما ينعكس على السلوكين، اللغوي والفعلي. إنه أداة فعالة لتوحيد العالم ليس نحو تبيته قرية صغيرةً وحسب؛ وإنما حتى نحو توحيد الذهن والسلوكين، اللغوي والفعلي، والقضاء على السياق النفسي الخاص بكل فرد، وعلى السياق الاجتماعي الخاص بكل مجتمع. فما يتمثل في الإعلام كحدث اجتماعي يترجم في الحياة الحقيقية.<sup>(١)</sup> بيد أن هذا القضاء يمر عبر تقديم خطاب من مصدر (إعلامي) واحد لصياغة ذهن ومجتمع واحد.

إن تسليك القرآن والسنة وطبها قيمة حماية الوطن النبوية طي الإعلام، يدرأ هذه المفاصد التي تجعل من تعدد الأذهان والمجتمعات معنىً واحداً متواطئاً، ويجلب مصالح من نوع تعزيز مختلف الأذهان والمجتمعات في علاقاتها بالوحي؛ أعني أن هنالك ذهنيات لها علاقة علمية بالقرآن الكريم تترجى الغوص في علومه الشرعية ومفاتيح معارفه الجلدة، بينما تكون أخرى منكبّة على الالتذاذ بلطائفه ونكته الرقيقة، وثالثة تجبذ الاطلاع على أسراره ومقاصده أو توحيده أو نحوه. والأمر عينه في المجتمعات المختلفة حيث يركن مجتمع ما للاجتهاد والرأي (كما كان مجتمع العراق في عصر أبي حنيفة... مثلاً) في حين يميل آخر إلى الأثر (كما كان مجتمع الحجاز في عصر مالك... مثلاً) ونحو ذلك.

إن الوحي لا ينمط أفراده ومجتمعاته تحت سقف فكري واحد أو سلوك واحد؛ بل يدعو للتنافس في الأعمال الصالحات، والتسارع في ازدياد المعارف والعلوم، والتسابق في تحصيل الإيمانيات. فهنالك خطاب متفاوت التيسير والأفق والعمل يظهر جلياً منه أنه يلاحظ اختلاف أفراد ومجتمعاته، ما دام أن "الميديا أو الإعلام يؤثر في مجالات إنسانية عميقة، في السلوك، في التفكير، في الأسس الاجتماعية، في السيرورة النفسية، في العلاقات والتواصلات، في المجالات

١ - انظر:

David Giles. Media psychology. (New Jersey, London: Lawrence Erlbaum Associates, Inc., Publisher, 2003). P.19.

العاطفية والفعلية، في القضايا السياسية"<sup>(١)</sup> يُترجم في التذهنات والخطاب والسلوك على نحو ما. وإن تأطير الذهن بمواد قرآنية مقروءة عبر وسائل التواصل الاجتماعي لا يكفي، بل؛ لابد من تمثيل الوحي بأحداث فعلية (تصوير إمام بالناس صلاةً يقرأ القرآن الكريم... مثلاً..). لأنها من أسهل الوسائل لتحصيل تأثير صامد، خصوصاً في الذهن الناشئ (الصبي...). وما نريده بالضبط، هنا هو إعادة تعريف العلاقات التي أشرت هذه الوسائل الاجتماعية على ضرورة إعادة تعريفها، وهذه الإعادة تتطلب إدخال قيم الوحي وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية في حدها ورسمها.

**المطلب الثاني: وسائل التواصل الاجتماعي؛ كيف تكون رافعةً من روافع حماية الوطن، وكيف تكون تهديدًا له**

إن الكلام السالف الذكر يدندن حول مرامات المصالح جلبًا وقطاعات المفاسد درءًا. ولتحديد كلام حولها أكثر يقال:

(١)

### مع المصالح

إنه لمن المصالح المحققة بوسائل التواصل الاجتماعي الإشادة بالتأطيرات التالية:

١- توفير قيمة حماية الوطن النبوية للآخر وتوفيرها له وتزويدها بمحاملات إضافية من حيث وقت مشاركتها بما يناسب الحالة الذهنية للمنخرط، ومن حيث المضافات التابعة من الألوان ومثيرات الإثارة.

٢- وسائل التواصل الاجتماعي تخلق الترفيه للمنخرط الكاسد للقهر والضغط النفسيين، وهذا يجعل من الوحي مستثمرًا في لحظات الفرح التي يكون فيها الذهن مستقبلاً أكثر للمعنى بحب.

إن هذا:

أ- يجب اللاوعي في المادة المقدمة. وهذا يعني أن لحظات التثقيف المهنية بالوحي التي تحصل

1- David Giles, Media psychology. P. 6.



في المساجد والمعاهد والجامعات وحتى في الشبكة العنكبوتية في مواقع الدراسة بما يخالجها من لحظة الجد حيث يؤخذ المعنى بالانضباط والالتزام دون أن يعني ذلك أخذه بحب والثناء؛ ستكتمل بلحظات الترفيه المضبوط شرعاً حيث يؤخذ المعنى بما يخفف على النفس حباً وبما يعني أخذه بحب والثناء، وهنا يتربع التثقيف بالوحي عرش **المستقبيلات** الذهنية في لحظات الأخذ بالأمر كإلزامه وأخذه له كحب فحماية بعد ذلك بالضرورة، فتكتمل عمليات أخذ الوحي قيمة حماية الوطن النبوية بما لا يتنافى معه. وهذا التثقيف الترفيهي يحفز على التثقيف الإلزامي أكثر ويجببه والعكس صحيح بحيث كل يقوي ويعضد الآخر.

إذن؛ إذا كان المتعلم من طلاب الشريعة أو القيم النبوية، فإن نسج وسائل التواصل الاجتماعي بالمواد القرآنية، والحالة هذه ونحن نفترض انخراطه فيها، سيكسر رتابة التعلم الجدية والإلزامية ويحلّيها بالترفيه المحبّب طبعاً في النفس البشرية. وهذا يعود بالنفع عليه من جهتين: ١- أنه يخفف عنه ضغط التعلم الجدي بما يكسر الرتابة والقهر النسبي. وبهذه الراحة المؤقتة يعود بنفس جديد لمزاولة الدراسة بجدية أكبر. ٢- أنه يأخذ الوحي في لحظات الحياة جميعها؛ الإلزام من الآخر والالتزام من نفسه، والذي دفعه لهذا الأخير هو تحبيب الدرس الوحياني له من خلال نقله له عبر وسائل ترفيهية خفت من حدة الجد الرسمي والانضباط الأكاديمي نحو نوع من السيولة المرنة التي لها وداعة روحية وإثارة ترفيهية على المتلقي المترقّف لمزيد من التلقي الجدي.

إن الترفيه الشبكي الذي نتحدث عنه هنا يكون مجرد محفّز هامشي من أجل دفع المتعلم البالغ نحو التثقف الجدي في المدارس والجامعات وقراءة الكتب الخاصة بالقيم النبوية وحماية الوطن. لكن الهامشية تبيت محفزاً مركزياً بالنسبة إلى الأطفال الذين يعد الترفيه مشكلاً أساساً في جهازهم النفسي.

ب- إن ضخ وسائل التواصل الاجتماعي مثلاً بالقيم النبوية بما هي فضاء ترفيهي سيجعل من الأطفال -أقصد غير البالغين- المستهدف المركزي -وهم حسب ما تؤكد إحصاءات كثيرة، ينشطون بقوة في هذه الشبكات-، وهذا يُسهم في توعيتهم بقيمة حماية الوطن النبوية مثلاً عبر ترفيهية لا تصرفهم عن مثل هذا التعلم، كما أن تشويقهم لذلك سيدفعهم دفعاً نحو الأخذ والجد في الدروس والمدارس، خصوصاً أنهم هم حاضر الغد وأمل الآن.

إن هذا يكسبهم خبرةً يسيرة المأخذ والمدرك لرفاه قناتها، فضلاً عن أن هذه الوسائل توفر لهم الاطلاع على الجديد بأنفسهم دون إخبار ما من أب أو معلم، وتجعلهم قادرين على التفاعل معها بدون مضايقات فوقية - وهذا هو حد الترفيه؛ ذلك الفعل المرفوع عن إملاءات الآخر إلا ما تمليه الذات-. وهذه الخبرة إن كانت مشكّلةً من نتاج تفاعلهم مع الوحي الذي حصلوا عليه من خلال هذه الوسائل؛ فإنها بوادر جيدة في بناء الشخصية القرآنية الممتازة. وتحفيز هذه البوادر عبر شبكات التواصل الاجتماعي هو القصد.

٣- إن وسائل التواصل الاجتماعي تسبّل الحدود العائقة عن ربط العلاقات الإيجابية. وهذا يعني أن نقل القيم النبوية وقيمة حماية الوطن النبوية عبرها يجعل كل امتيازاتها التي تمنحها لروادها من زيادة التقدير للذات وتصفية النفس من بعض الضغوط المرضية ممرورةً عبر مادة الوحي. أعني أن المنخرط لن يميز في وعيه بين الراحة المنتعش بها هل هي من بركة الوحي أو من إيجابيات هذا الوسائل. ولهذا في القابل نقاط سلبية وهي أن سلبيات هذه الوسائل قد تسند للوحي دون الوعي بنقاط الافتراق وأصل السليبي.

٤- هناك اختلاف بين الأشخاص في استعمال وسائل التواصل الاجتماعي سواء في توقيت الاستعمال أو نوعية المشاركات أو التواصلات أو في ارتفاع أعداد المنخرطين فيها سواء في الفيسبوك أو China's Qzone كزون الصيني أو غوغل بلاس Google+ أو تويتر Tumblr أو ويبو، Weibo. وهذا يعزز ضرورة التأكيد على اختلاف الخطاب الوحياني، وتكثير المواد المنشورة باختلاف نوعيات هذه الوسائل ونوعيات روادها، وتوقيت مشاركة مواد المختلفة بحسب الوقت والحال. فالعمال الذي يفتحون في وقت الاستراحة عن العمل لا بد من مشاركة لحظتهم تلك، بقيم نبوية لطيفة تتعلق بالنكت والفوائد والأسرار الجمالية القرآنية، بينما وقت العمل تشارك فيه مواد قرآنية تثقيفية دقيقة. ومواد الصباح الباكر ليست كمواد الليل الدامس وهكذا.

(٢)

### ضدًا على المفاسد

تبعث وسائل التواصل الاجتماعي قيمة الامتلاك في الذهن، امتلاك عالم تختار بإرادة حرة من يسكن فيه، وتقدر على إعدام من تريد بطرده من هذا العالم. هذا الامتلاك بقدر تركزه في الذهن وتمدد الاعتقاد من مجرد أنه عالم افتراضي إلى أنه عالم حقيقي، يضعف امتلاك النفس لذاتها أمام إغراءات الدخول إلى هذا العالم دومًا، فهو امتلاك للعالم بضمن التخلي عن امتلاك الذات. لكن هذه النقطة تستثمر في أن تهديف هذه الوسائل نحو الوحي وجعلها حاملة لمشروعه قد تساهم في تمليك الذات للوحي ببعًا عن طوع واختيار. لكن هذا لا يفهم إلا في سياق أن هذا الامتلاك يضعف علاقاته بعالمه الحقيقي، إذ إنه:

١- يضعف علاقاته بأصدقائه الحقيقيين حتى الذين هم معه في صفحته الإلكترونية، كأنه يعتقد أنهم ملك له ماداموا يسكنون عالمه وله حرية إبقائهم على قيد الحياة في عالمه أو إعدامهم منه عبر مسحهم وتحميدهم. وهذا يؤدي إلى خروج المرء عن الواقعية؛ الأمر الذي بمجموعه يصيبه بنوع من الاستكبار والغرور.

٢- إنه يقلل من علاقاته الاجتماعية الحقيقية بأسرته وأصدقائه، إذ الوقت الذي كان يقضيه وسطهم؛ يقضيه الآن وسط عالمه الافتراضي. وإن كونه في شبكات التواصل الاجتماعي تفاعلًا وترفيهاً وضحكًا ومشاهدةً وتواصلًا، يضعف عنده قوى هذه الملكات الفطرية، ويشبعها لديه بما لا يدع توفيرًا منها لإفراغها على الأسرة أو الولد أو الصديق؛ الأمر الذي يضعف عنده حس صلة الرحم وزيارة المريض وتعزية دار موت (إذ يكتفي بتدوينه يعلن فيها عزاءه للمتوفى له...) وخلق هوية جديدة تنافق في ضحكها ومشاعرها وسلوكها (إذ يمثل أنه يضحك عبر الكتابة وهو ليس كذلك).

٣- أثناء مواجهته لمشاكل أسرية أو نفسية أو اجتماعية (دراسية...) أو فكرية (إشكال فكري...) إنه يميل لعالمه الذي ينسب مشاكلكه ويتيح له نوعًا عالمًا خاليًا من تلك المشاكل مما يضعف عنده رباطة جأش المواجهة ويسبب له في مواجهة تعقيدات الحياة وصعوباتها. الأمر الذي يجعل

من هذه الشبكة كالحمرة المغيبة للعقل في فترة تستدعي تجلده وجهاده.

٤- إذا كان لديه أصدقاء كثر في عالمه الافتراضي؛ وإذا كانوا يظهرون له احترامًا بحكم ما يظهره لهم من أجمل خصاله ولحظات حياته؛ فإن هذا يحسسه بقوة على مستوى علاقاته المفتوحة، وعلى مستوى توهيم ذاته هويةً محترمة. وهذه القوة الموهومة تدفعه نحو:

أ- الاستعلاء.

ب- تحصيل قوة موهومة.

ج- التسلط على غريمه، بحكم الاستقواء بالآخر، وبحكم معابته لسلبيات غريمه، الأمر الذي لو التقى عيانًا مع من توهيم فيهم القوة وبهم الاستقواء؛ لوقف على نقصهم وضعفهم ولما توهيم الاستقواء بهم بذلك القدر ولما احتقر من عاين منه ذلك<sup>(١)</sup>.

٥- إن شبكات التواصل الاجتماعي تغير الهوية والهوية، وذلك لما تغيره من انطباعات وأحكام مسبقة وسلوكات في الفرد، كأن تكون هويته هي المشي فصار وقت المشي يكتفي بفتح شبكة تواصلية. كما أنه يجعلنا نتلقى هويتنا من الخارج، أي عندما نضع صورنا ومعلوماتنا الشخصية على صفحة اجتماعية ونتواصل من خلالها على أنها نحن؛ إننا نتلقى هويتنا من غير ذاتنا ونصنع من يمثلنا. كما أن هذا الممثل لنا يصنع لنا سمعةً معينةً بموجب ذلك. إذن لنا ثلاثة مفاهيم هنا؛ تغيير الهوية، تلقي الهوية، سمعة الهوية.

إن تسليك قيمة حماية الوطن النبوية عبر هذه الوسائل يجعلنا نخاطب وسيط الهوية وممثلها، أي نتخاطب بحاجز، وهذا عائق أمام غرز قيمة حماية الوطن النبوية في الذهن والسلوك،

١- دبل رون هاموند و غرايس شو Hui-Tzu Grace Chou, Ron Hammond على أن العلاقات الشبكية online interaction وخصوصًا الفيسبوك تجر الدارس الشاب إلى إضعاف علاقته الحميمة (الزوجية مثلًا) نظرًا: ١- لحضور ذهنه فيها أكثر من حضوره مع شريكته، ٢- ولأن العلاقة التي يتيحها له الفيسبوك مثلًا تشعره بالقوة أكثر في الوقت التي تجعله خائرًا أمام مواجهة المشاكل. وهو الأمر الذي تفتي بضده العلاقات غير الافتراضية offline interactions .

Ron Hammond, Hui-Tzu Grace Chou. Using Facebook: Good for Friendship But Not So Good for Intimate Relationships. P 47-48.

لكنه في الوقت ذاته تعبير عن خصوصية هويته ودقائقها الشخصية وتفويض لمثل وثق به لتمثيل الذات والهوية. وهذا يفترض إيداع الثقة في الشبكة التواصلية وإيكالها الحق في التعبير عن الذات وتفويضها تمثيل الذات.

٦- إن وسائل التواصل الاجتماعي مادة لبث العنف (العنف الرمزي-اللفظي، العنف الجنسي، العنف السلوكي من الضرب...) في النفوس (وخصوصاً في الأطفال) والمجتمعات. بل إن الارتباط العليّ لإعلام العنف بالعدوانية -حسب ليونارد إرون- Leonard Eron- أكثر قوةً من ارتباط شرب الدخان بسرطان الرئة.<sup>(١)</sup> وهذه المفسدة العامة، أي شحن بعض مواد التواصل الاجتماعي بالعدوانية والتطلع نحو العنف ممارسةً، قد يستثمر لها القرآن الكريم كخطاب جمالي مهذب ومهذب ومصنف للنفس البشرية من الضغوط النفسية والقهرية العنيفة لكونه خطاباً جمالياً يُلذذ الحياة نحو طابع السلم ويريح النفس نحو الاستكانة ويشذب الفؤاد نحو الطمأنينة بما يعدم القلق السلبي في القلب ويقلبه سكيناً مستمرةً.

٧- تتسم وسائل التواصل الاجتماعي بالمراقبة والضببط والسيطرة، وتجعل المنخرط تحت مراقبة أوسع من عديد الأشخاص. ذلك أن هنالك مراقبة تتم من الآخر على الذات حول مهنته وهوايته وأماكن قضاء عطله وأشغاله، إذ إن هذه الوسائل تتيح إمكان الاطلاع على المعلومات الشخصية التي تمثل صاحب الصفحة، والاطلاع على أصدقائه، أو على الأقل، الذين يتفاعلون مع مشاركته بالإعجاب أو التعليق...

وهذا يتجه نحو وجوب استهداف الشخصيات الوازنة علمياً أو ثقافياً أو سياسياً عبر استثمار اختلافاتهم المعبر عنها في وسائل التواصل الاجتماعي، أعني أنها وسائل صادقة للتعبير عن ذاته وما يجب وما لا يجب حيث المتفاعل في الفضاء الحقيقي "يشارك مشاعر حقيقية"<sup>(٢)</sup> ويمكن تحديده عبر أكثر من وسيلة، إذ مشاركته نصاً في تويتر وصورةً في الأنستغرام، وصوتياً أو فيديو في الفيسبوك وكتاباً في لنكدن... كل هذا بمجموعه يفصح عن وجهة ما من شخصيته، الأمر الذي يعطي صورةً لا بأس بها عنها، مما يمكن من تقصيد القيم النبوية وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية المشاركة

1- David Giles. Media psychology, p. 10.

2- Ron Hammond, Hui-Tzu Grace Chou. Using Facebook: Good for Friendship But Not So Good for Intimate Relationships. P 42.

في هذه الوسائل بما يلائم هذه الشخصية، ومشاركتها في الحثيات المؤثرة من حيث توقيتها الملائم -مثلاً- لوقت استحمامه أو تثقيفه بمواد تلائم حالاته تلك.

### ٣

## إذن؛ وسائل التواصل الاجتماعي تهديدٌ للوطن

إن هذا الاستثمار الرائع لوسائل التواصل الاجتماعي في سبيل حماية الوطن والذي تحدثنا عن بعضه هنا، قد يُستخدَم نفسه في تقصيد هذه الوسائل بما يهدد سلامة الأوطان من قِبَل أعداء الوطن ممن لا خلاقَ لهم. لهذا؛ ١- قد يستغل مهتدو الوطن صمت أبناء الوطن عن مُلاَسَنَة العدا في هذه الوسائل ورد إشاعتهم، ٢- أو يستغلون ظروفًا نفسية اعتبارية تخص أبناءه فيقومون بتهديفها نحو تهديد وطنهم واستغلال وعيهم بقيمة ما لديهم، ٣- أو يستثمرون نفس استراتيجيات تسليك قيمة حماية الوطن النبوية عبر هذه الوسائل، والتي ذكرنا بعضها في هذا البحث، سيكولوجيًا وسوسولوجيًا لفائدة تهديده ولفائدة مصالحهم الذاتية، أو غير ذلك..

إن الوعي بقيمة وسائل التواصل الاجتماعي ودورها الاستراتيجي في توعية الناس بمكائد الأعداء وبطرق حماية وطنهم ومجاهة أنياب العدا هو مَكْسَب أصيل حثت عليه أصول السنة النبوية الشريفة. فعن مالك بن الحويرث قال: "أتينا النبي ﷺ ونحن شبيبة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة وكان رسول الله ﷺ رفيقا فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا أو قد اشتقنا سألنا عن تركنا بعدنا فأخبرناه قال ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها وصلوا كما رأيتموني أصلي فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم."<sup>(١)</sup> فهنا أوجب الحديث حماية الأوطان حمايةً مطلقةً، ومثَّل فيها بذلك بضرورة حمايته من الجهل الذي يُعقِب الهزيمةَ دومًا، ومن ثم؛ خسارة الوطن. فأبرز روافع حماية الأوطان هو من كل التهديدات التي قد تصيبه تبتدئ بالعلم، علم أهله وأبنائه وتعميم الوعي بقيمة الوطن وبقيمة حمايته.

١- أخرجه: البخاري، كتاب خبر الآحاد، باب: باب ما جاء في إجازة خبر الواحد، رقم: ٦٨١٩.

## خاتمة

يمكن اقتضاب خلاصة البحث في التالي:

- وسائل التبليغ للقرآن الكريم والقيم النبوية وقيمة حماية الوطن النبوية غير معدودة، وينبغي استثمار كل الوسائل الصالحة والناجعة في سبيل هذا التبليغ مادام إيصال المضمون للعالمين هو القصد.
- تشكل وسائل التواصل الاجتماعي مجتمعاً شبه قائم بذاته ومواز للمجتمع الحقيقي. والإغفال عن كون القرآن فيه هو تضييع لأرض معنوية خصبة لتبليغ قيمة حماية الوطن النبوية.
- تقدم وسائل التواصل الاجتماعي هويةً جديدةً لروادها، وهذه الهوية لا بد أن يشارك الوحي في بلورتها ويعاين تأسيسها.
- تعبر وسائل التواصل الاجتماعي عن حالات ذهنية متعددة، منها الحب، الأمان، الاعتراف، التقدير، الاحتياج، الحماية، التحيين الذاتي، الفهم، الظهور، السعادة. وكلها تُحِيل على نطاق مركزي لها هنا وهو الاحتياج. وهذا أمر ممكن جداً لوضع جسر بين هذه الحالات الذهنية وبين أعمال القلوب وأقوالها الإيمانية (وقد أوضح البحث كيفية ذلك).
- لا بد من التعامل مع هذا المجتمع الافتراضي الذي تصنعه وسائل التواصل الاجتماعي بعقلية تخطط لمدى بعيد، وترى المستقبل باستراتيجيات شاملة مثل استراتيجية استثمار كل صالح، واستراتيجية تهديف الاحتياج، واستراتيجية العمل على كل المناحي ومضاعفة العمل على المنحى الأهم (والتي فصلها البحث) لصنع إمكان التوفيق بين المجتمعين؛ الحقيقي والافتراضي في الفرد بالوحي وقيمه.
- لا بد من ترجمة أعمال القلوب سلوكياً بما يوازي انغراسها، كأعمال قلوب معنوية، في المجتمع الافتراضي، وسلوكها، كأفعال مظهرية، في المجتمع الحقيقي بما ينتج لنا مجتمعاً تربوياً بالوحي وقيمه وطبها قيمة حماية الوطن النبوية.

- لا بد من درء المفساد - التي عددها البحث - التي تكمن وراء وسائل التواصل الاجتماعي بالقرآن وجلب مصالحها - التي عددها البحث - تريباً بالوحي وقيمه وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية.

وعليه؛ فإنه وفي خضم هذه المفساد كلها لا بد من إبدالها مصالح محققة. وإن المسطر فوق، يعد كاقترح لدرء مفساد الأضرار الناجمة عن هذه الوسائل، والتي منها -تباعاً- عدم دوام الارتباط بموادها السريعة النسيان الحثيثة الذهاب، سواء معلوماً أو الأصدقاء المكتسبين من خلالها، كأننا نصيره أداةً لتعزيز الواقع، الواقع المدرسي، الجامعي، وغير ذلك، لـ"تصيير متوسط وسواء الفساد طريقاً لأكثر الصلاح والمصلحة فيما هو فيه -أي ذلك المتوسط الفساد- فساد".

### توصيات البحث:

يوصي البحث بالتالي:

- ١- وضع واستثمار استراتيجيات تقصد وسائل التواصل الاجتماعي لتبليغ الوحي وقيمه وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية وتجاوز العمل الفردي لبناء عمل غير عشوائي.
- ٢- استثمار كافة أنواع وسائل التواصل الاجتماعي المرئية والمسموعة، وتبليغ الوحي وقيمه وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية عبرها في جهتها التي وضعت لها.
- ٣- خلق منافسات بين العاملين على تبليغ الوحي وقيمه وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية عبر وسائل التواصل الاجتماعي لضمان تقدم وتحرك قويين، والسير نحو جودة كيفية في العمل المقدم بما يوازي قدرًا كميًا مسؤولاً.
- ٤- استثمار مفاهيم ومناهج علم نفس الإعلام وعلم اجتماع الإعلام لصنع خارطة نفسية واجتماعية واضحة لهذه الوسائل ولروادها ولفهم كيفية اشتغالها وآليات عملها بغية تحصيل تبليغ أحسن الوحي وقيمه وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية عبرها.
- ٥- تجنب المفساد الإعلامية كالفخاخ والمستنقعات التي تطفح بها هذه الوسائل وتجنب وسائل



التسويق الشبهة المستخدمة من قبل الشركات الرأسمالية.

٦- التركيز على اللاوعي والاشتغال عليه لأهميته القصوى في صياغة الوعي والسلوك اللغوي والفعلي. ويمكن النفاذ إليه وإنفاذ الوحي وقيمه وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية فيه عبر الاستثمار الجيد لوسائل التواصل الاجتماعي.

٧- الانفتاح على فلسفة الذهن لفهم عمل الذهن وأنماطه وطرق اشتغاله لاستثمار تلك المعرفة في تقصيد وسائل التواصل الاجتماعي نحو خدمة الوحي وقيمه وطبيها قيمة حماية الوطن النبوية.

## المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص.
- البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم.

### المراجع الأجنبية:

- Boyd, D.M., & Ellison, N.B. Social Network Sites: Definition, History and Scholarship Journal of Computer-Mediated Communication,13(1), Article11. (2007) Online:  
<http://jcmc.indiana.edu/vol13/issue11/boyd.ellison.html>
- David Giles. Media psychology. (New Jersey, London: Lawrence Erlbaum Associates, Inc., Publisher, 2003).
- McLuhan, M. Understanding media: The extensions of man. (London: Routledge & Kegan Paul .1964)
- Matthew Thomas Parrott. Agency and First-Person Authority (University of California, Berkeley: Usa. 2014)
- Gibson, J.J. The ecological approach to visual perception. (Hillsdale, NJ: Erlbaum .1979).
- Ron Hammond, Hui-Tzu Grace Chou. Using Facebook: Good for Friendship But Not So Good for Intimate Relationships. 43. The Psychology of Social Networking: Personal Experience in Online Communities. Vol 1. Giuseppe Riva, Brenda K. Wiederhold, Pietro Cipresso (Eds.), Managing Editor: Aneta Przepiórka, (De Gruyter Open Ltd, Warsaw/Berlin: 2016)
- The Psychology of Social Networking: Personal Experience in Online Communities. Vol 1. Giuseppe Riva, Brenda K. Wiederhold, Pietro Cipresso (Eds.), Managing Editor: Aneta Przepiórka, (De Gruyter Open Ltd, Warsaw/Berlin: 2016) .Psychology Of Social Media: From Technology To Identity. Giuseppe Riva, Brenda K. Wiederhold, Pietro Cipresso,
- What's So Special About Entertainment Media and Why Do We Need a Psychology for It?: An Introduction to the Psychology of Entertainment Media L. J. Shrum. The psychology of entertainment media: blurring the lines between entertainment and persuasion/L. J. Shrum, editor. LAWRENCE ERLBAUM ASSOCIATES, PUBLISHERS Mahwah, New Jersey London. 2004.

أخلاقيات القائم بالاتصال  
والدور المفترض في حماية الوطن  
دراسة في السنة النبوية

الدكتورة/ رقية بوسنان  
كلية أصول الدين/جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية  
الجزائر





## المقدمة:

تؤسس السنة النبوية للكثير من الأخلاقيات التي تعمل على ضبط العمل الاتصالي بعناصره المختلفة، ويعد القائم بالاتصال من أهم هذه العناصر على اختلاف سماته العامة، والفردية، والاجتماعية، ويقع على عاتق هذا العنصر الكثير من المهام والمسؤوليات، التي يسهم من خلالها في حل القضايا والمشاكل المنتشرة في الزمان والمكان، كما يسهم في التحضير والتطوير والتنمية، ويسهم في نشر الوعي بمختلف أشكاله السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والديني، هذا الإسهام الذي يكون بالطرق الإيجابية يتضمن هدفاً أسمى، وهو حماية الوطن وتأمينه والدفاع عنه ضد كل المخاطر والتهديدات، للمحافظة على الاستقرار المنشود.

ويؤدي القائم بالاتصال الكثير من الوظائف التي تدعم حماية الوطن، ولا يتم ذلك إلا في إطار أخلاقي والذي تكفله مختلف القوانين الدولية، كما تكفله مختلف الأديان، ومنها الدين الإسلامي الخاتم ومرجعياته: القرآن والسنة النبوية وعمل السلف الصالح، ويحتاج القائم بالاتصال في إطار هذه الوظائف الاتصالية المختلفة إلى ميثاق أخلاقي يعمل على تحري الصدق، والمصادقية، والموضوعية، وكل القيم التي تسهم في نشر دعائم السلم والأمن والعدل والخير، من أجل وطن ينعم فيه الفرد بالاستقرار فينطلق في البناء والتشييد، بعيداً عن كل الآفات التي تنتشر في كل العالم من عنف وتطرف و إرهاب، أتت على الأخضر واليابس ولم ترحم صغيراً ولا كبيراً، وأصبحت تتعدى معها الحياة الكريمة، وهي صفة الحياة التي تؤكدتها نصوص القرآن والسنة.

إن التركيز على أخلاقيات القائم بالاتصال من منظور السنة النبوية هو في تقديري من المقاصد الكبرى لحماية الوطن، وهو الجانب الذي لا توليه أقلام الباحثين في البيئة العربية والإسلامية العناية الكافية، اعتداداً بسيطرة الفلسفات الإعلامية الغربية على هذا المجال، والتي تنطلق من أبعاد سيكولوجية واجتماعية لمناقشة الجانب الأخلاقي للقائم بالاتصال، بعيداً عن الجانب القيمي، والمرجعية الدينية وتحديداً المرجعية الإسلامية التي تنطلق من نصوص الكتاب والسنة، وجاء هذا البحث ليؤصل لمنطلقات القائم بالاتصال في جميع المستويات الفردية، والجماعية، والجهادية،

والحضارية، وهو مجال تنذر فيه مثل هذه الأبحاث، خاصة المنطلقة من السنة النبوية، الذي يهدف إجمالاً إلى معالجة المجال الأخلاقي في الممارسة الاتصالية والإعلامية في ظل تكنولوجيا متطورة وحديثة يصعب محاصرتها والمعلومات المتدفقة منها، وهي نظير خصائصها المتعددة، قد تتعرض للتشويه المتعمد وغير المتعمد، والتي أفضت إلى فوضى في القيم الأخلاقية للممارسة الاتصالية، ما يؤثر في استقرار الوطن.

وتنعكس أخلاقيات ممارسة القائم بالاتصال لوظائفه على صورة المجتمع الذي يعيش فيه، كما تنعكس في عاداته وتقاليده، وهو في هذا الإطار يعمل ضمن منظومة متكاملة يسعى فيها عبر جميع الوسائل الاتصالية، إلى إحداث نسق قيمى يحفظ أنسجة المجتمع من الظواهر السلبية التي تؤثر في استقراره؛ فالرهان على أخلاقية الممارسة الاتصالية أصبح أساسياً في العصر الراهن، في ظل التفوق الغربي في صناعة المعلومات وتوجيهها وحتى فرضها أحياناً بطرق متعددة واستراتيجيات مؤدجلة تسعى إلى توحيد النمط الاجتماعي لجميع الدول، وقد تحقق لها بعض هذا التوجيه، مما نلاحظه في سلوكيات الأفراد، من ملابس ومشرب وتعامل داخل المؤسسات والمرجعيات الاجتماعية، ومنها مؤسسة الأسرة تحديداً، وهو ما ينذر بضرورة مراجعة الدخيل والغريب والمستهجن من المعلومات التي تبث عبر البرامج الإعلامية والتواصلية التي تحمل مضامين سلبية وما أكثرها، مستخدمة جميع وسائل الاتصال من غير استثناء.

ولمعالجة موضوع الورقة ارتأيت تقسيمها إلى ثلاثة مباحث، الأول: تمهيدى، ورد فيه التعريف بمفردات البحث، تعريفاً يفضي إلى إبراز أهميتها، وانشغال الأدبيات المختلفة في الكتابة عنها، وجاء في المبحث الثاني، ما أطلقت عليه الوظائف الاتصالية في السنة النبوية، وحددتها في ست وظائف متكاملة، وتُسهم كلها في خدمة الوطن وحمايته واستقراره. وتناول المبحث الثالث قيم الممارسة الاتصالية من خلال نصوص السنة، ليؤكد أنها قيم إنسانية يمكن أن يشترك فيها جميع القائمين بالاتصال على مستوى العالم، وأكد المبحث أنه يمكن أن يؤسس لميثاق شرف اتصالي وإعلامي من نصوص السنة النبوية وإقامة البرهان على حجيتها وصلاحها لكل زمان ومكان.

## المبحث الأول: التعريف بمفردات الدراسة

### ١- تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً:

- تعريف الأخلاق لغة: لا تختلف قواميس اللغة فيما بينها في شرح كلمة الخلق كمفردة، وجمعها أخلاق، ف جاء في لسان العرب أن الخلق والخليقة بمعنى الطبيعة، وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، والخلق بضم اللام وسكونها: هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه، وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة، ولها أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة<sup>(١)</sup>، ويضيف القاموس المحيط: والخلق بالضم وبضمَّتَيْنِ بالتقديم والتأخير: السجية والطبع والمروءة والدين<sup>(٢)</sup>.

وفي مفردات غريب القرآن: "الخلق أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء"، واستنتج من ذلك: أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، المبدع؛ وعليه فإن الأخلاق تجنح إلى هذا الإبداع فتكون مستقيمة، وما انحرف منها عن معنى إبداع الله، صار صفات ذميمة لا تدخل ضمن مفردة الأخلاق؛ قال الراغب: "والخلق يقال في معنى المخلوق، والخلقُ والخلقُ في الأصل واحد، كالشرب والشرب، والصَّرم والصَّرم، لكن خص الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق بالقوى والسجاي المدركة بالبصيرة"<sup>(٣)</sup>.

وجاءت الأخلاق في اللغة الأجنبية من كلمة Ethic وتعني باليونانية (خلق)، وتكون من المعتقدات أو المثاليات الموجهة التي تتخلل الفرد أو مجموعة من الناس في المجتمع. ولا بد من التمييز بين مفهومي: الأخلاق والأخلاقيات؛ فتعبير الأخلاق يستعمل بمعنى "éthique" وهو يتناول التصرف الأخلاقي العام لأي إنسان، بينما يستعمل تعبير الأخلاقيات بمعنى "déontologie"؛ أي مجموعة الواجبات والالتزامات الخاصة التي تنشأ عن ممارسة مهنة ما<sup>(٤)</sup>.

١- لسان العرب، ابن منظور، الجزء ٥، ص ١٤١.

٢- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٨٨١.

٣- مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

٤- الأخلاق الإعلامية بين المبادئ والواقع، صدقة جورج، ص ٩.

**- تعريف الأخلاق اصطلاحاً:** يتفق الباحثون قديماً وحديثاً على أن الأخلاق صورة ظاهرة أو باطنة، تعبر عن ميول الفرد وسلوكياته في تعامله مع المحيط الذي يحيا فيه، وتكون هذه الأخلاق حسنة، أو ذميمة. وقد أفردتُ بعض التعريفات وأوجزتها للوقوف على مدلولاتها؛ فقد عرّفها أبو حامد الغزالي من القدامى بأنها: "عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية"<sup>(١)</sup>، وهو التعريف نفسه عند الجرجاني، مع تمة للعبارة "فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة، سميت الهيئة: خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خلقاً سيئاً، وإنما قلنا: إنه هيئة راسخة"<sup>(٢)</sup>.

وتعرف الأخلاق أنها معايير للسلوك يضعها الإنسان لنفسه أو يعدها التزامات وواجبات تتم بداخلها أعماله، وهي التطبيق العملي والواقعي للمعاني التي يديرها علم الأخلاق بصفة نظرية مجردة، وتعد شكلاً من أشكال وعي الإنسان يقوم على ضبط وسلوك الإنسان وتنظيمه في كافة مجالات الحياة الاجتماعية من دون استثناء؛ في المنزل ومع الأسرة وفي التعامل مع الناس، في كل مكان<sup>(٣)</sup>. بينما تعرف الأخلاقيات، بأنها مجموعة من المبادئ والقيم ومعايير الجماعة للسلوك المقبول، وهي مشتقة من العادات والأعراف الموجودة في مجتمع ما<sup>(٤)</sup>.

**٢- الأخلاق في نصوص السنة:** تكررت كلمة الأخلاق ودلالاتها في السنة النبوية، ووردت معظمها في سياق المدح، وموازاتها بالفرائض التي تقرب لله عزوجل، ثم الحث على التسليم بها، لما لها من فوائد عظيمة على الفرد والمجتمع، ويمكن الاستشهاد على ذلك في غير موضع بأحاديث الرسول ﷺ، ومنها: عن أسامة بن شريك، قال: قالوا: يا رسول الله، ما أفضل ما أعطي المرء المسلم؟ قال: حُسْنُ الخُلُقِ<sup>(٥)</sup>، وعن أبي هريرة، قال: سئل النبي ﷺ - : ما أكثر ما

١- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج ٣، ص ٤٧.

٢- التعريفات، الجرجاني، ص ١٠١.

٣- المعجم الفلسفي، مصطفى حسبية، ص ٤٠.

٤- الإنترنت وسيلة اتصال جديدة، السيد بخيت، ص ٤٨٥.

٥- صحيح ابن حبان - كتاب البر والإحسان - باب حسن الخلق - ذكر البيان بأن حسن الخلق من أفضل ما أعطي المرء في الدنيا، رقم: ٤٧٨، صحيح.



يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ"<sup>(١)</sup>، وعن عائشة: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ"<sup>(٢)</sup>.

وتوضح نصوص السنة أن أشرف وظيفة للرسول ﷺ هي بناء الأخلاق باستمرارية من غير كلل ولا ملل، "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"<sup>(٣)</sup>، فإتمام مكارم الأخلاق وفضائلها هو بمثابة إتمام وضع الأسس والقواعد التي يبني عليها أي نسيج اجتماعي، بداية من نسيج الفرد، ثم نسيج الأسرة، ونهاية بنسج المجتمع، وقد أكدت عائشة مرجعية هذه الأخلاق وأصلها وهو القرآن الكريم؛ حيث وصفت النبي بقولها: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"<sup>(٤)</sup>، والقرآن فيه أحكام لا حصر لها في مجال الأخلاق ومجالاتها، السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وفيه أوامر ونواه، وما يترتب عليها من الثواب للأخذ بمحاسنها والعقاب لتترك سيئاتها، ولست في معرض سَوْقِ هذه النصوص، فلن تسعها هذه الورقات وإنما سيتم التركيز على دلالات الأخلاق في ممارسة العملية الاتصالية بما يتماشى والسياق الذي سترد فيه.

**٣- تعريف القائم بالاتصال:** فرض القائم بالاتصال نفسه بوصفه مفهوماً منذ أن أصبح إنتاج الرسالة الاتصالية خاضعاً لنظام معقد، يقوم فيه القائم بالاتصال بدور بارز<sup>(٥)</sup>، بالإضافة إلى فهم التوقع بتأثير الاتصال؛ فتصور المتلقي للقائم بالاتصال أو المصدر، له دور أساس في تحديد نتائج عملية الإقناع<sup>(٦)</sup>.

ويتولى القائم بالاتصال إدارة العملية الاتصالية وتفسيرها في ضوء ما يتمتع به من قدرات

١- صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان - باب حسن الخلق - ذكر البيان بأن حسن الخلق من أفضل ما أعطي المرء في الدنيا، رقم: ٤٧٦، صحيح.

٢- مسند أحمد بن حنبل - مسند عائشة ﷺ، رقم: ٢٥٦٥٣، مرفوع.

٣- السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الشهادات - جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز - باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، رقم: ٢٠٨٣٩، مسند صحيح.

٤- مسند أحمد بن حنبل - مسند عائشة ﷺ، رقم: ٢٥٢٤٠، مرفوع.

٥- الاتصال والإعلام على شبكة الإنترنت، محمد عبد الحميد، ص ٩٨.

٦- الأسس العلمية لنظريات الإعلام، جيهان رشتي، ص ٢٩٣

وكفاءات في الأداء الذي يحدد مصير العملية الاتصالية برمتها<sup>(١)</sup>، ويعرف "محمد عبد الحميد" القائم بالاتصال: "على أنه الشخص الذي يبدأ عملية الاتصال بإرسال الفكرة أو الرأي أو المعلومات من خلال الرسالة التي يقوم بإعدادها، للنشر والإذاعة وإرسالها مرة أخرى إلى جمهور المتلقين"<sup>(٢)</sup>.

ويبين "محمد حجاب" أن القائم بالاتصال هو شخص يستهدف التأثير في أفكار الناس ولديه خلفية واسعة عنها، يؤمن بها ويصدر عنها في سلوكه وتصرفاته، ويستخدم لذلك كافة إمكانيات وسائل الإعلام المتاحة والأساليب الإقناعية لتحقيق التأثير المطلوب وفق منهجين علمي وفني، مخططين ومدروسين<sup>(٣)</sup>، ويعرف حسن مكاوي وليلى السيد، القائم بالاتصال بأنه الشخص الذي يبدأ بصياغة الأفكار وتحويلها إلى معان لتوجيهها إلى الرأي العام.<sup>(٤)</sup>

والقائم بالاتصال على مستوى البحث هو الشخص الذي تتوفر فيه خصائص علمية وفنية وأدبية وأخلاقية، ويقدم من خلال مستويات الاتصال الشخصية والمباشرة والجماعية والجمهورية والحضارية، رسائل ذات مضامين مقنعة وفاعلة، تنطلق من قيم مرجعيته الدينية والاجتماعية، يبثها عبر كل الوسائل التي توصلها إلى كل متابع أو مستمع بالطرق المطلوبة.

#### ٤- تعريف أخلاقيات القائم بالاتصال: تباينت المفاهيم المتعلقة بأخلاقيات القائم بالاتصال

باعتبارها معايير واختيارات توجه عمل الممارسين، أو باعتبارها منظومة من المبادئ والمعايير التي تستهدف ترشيد سلوكهم<sup>(٥)</sup>، ومع هذا اجتهد الباحثون في تخصص الإعلام والاتصال، في وضع محاولات وتصورات، لتقريب هذه المفاهيم بما يتيح استيعابها ووضوحها في السياق أو الحقل الاتصالي والإعلامي، على اختلاف وسائله ومحتوياته.

ويشير المفهوم إلى القواعد الواضحة للسلوك المهني في مؤسسات الوسائل الاتصالية، وكذلك الاتجاهات الفعّالة والدعاوى المتصلة بكل ما هو ملائم في أسلوب العمل والإنجاز، ومن أمثلة

- ١- الاتصال بالجماهير بين الإعلام والتطويع والتنمية، أحمد غريب بدر، ص ٤٩.
- ٢- العوامل المؤثرة في الأداء المهني للقائم بالاتصال، هادي مهدي صالح الجبوري، ص ٩٨.
- ٣- نظريات الاتصال، محمد حجاب، ص ١٦٨.
- ٤- الاتصال ونظرياته المعاصرة، حسن مكاوي وليلى السيد، ص ٤٤.
- ٥- الإنترنت وسيلة اتصال جديدة، السيد بخيت، ص ٤٨٥.

قيم الممارسة: الفكرة النموذجية التي تتمثل في الالتزام بالموضوعية في إعداد المعلومات، والدعوى المتصلة بأكثر الصور التكنولوجية ملائمة لتحقيق مهام اتصالية ذات نوعية خاصة، والدعوى الخاصة بتحديد مقاييس البرامج الجيدة<sup>(١)</sup>.

وتعرف أيضا بأنها مجموعة من القواعد المتعلقة بالسلوك المهني التي وضعتها مهنة منظمة لكافة أعضائها؛ حيث تحدد هذه القواعد وتراقب تطبيقها وتسهر على احترامها، وهي أخلاق وآداب جماعية وواجبات مكملة أو معوضة للتشريع وتطبيقاته من قبل القضاء، وهذه الأخلاق المهنية تنبع أساساً من الأهداف النبيلة للمهنة وشرف الكلمة وتحقيق المصلحة العامة<sup>(٢)</sup>.

وعرفها "جون هوهنبرج" بأنها: "تلك الالتزامات الأساسية التي يجب أن يتحلى بها كل صحفي، والمتمثلة أساساً بضرورة العمل من أجل الوصول إلى تغطية منصفة وشاملة ودقيقة، صادقة وواضحة، مع مراعاة حماية المصادر وتحقيق الصالح العام، عن طريق احترام القانون وحقوق الحياة الخاصة للأشخاص وتصحيح الأخطاء في حال وجودها".

والأخلاق المهنية للقائم بالاتصال وفقاً للبروخوفمن هي "تلك المبادئ والمعايير الأخلاقية التي لم تثبت قانونياً بعد، ولكنها مقبولة في الوسائل الصحفية ومدعومة من قبل الرأي العام والمنظمات الشعبية والحزبية"<sup>(٣)</sup>، وهي مجموعة قيم ومبادئ خلقية وسلوكية، يلتزم بها القائم بالاتصال أثناء ممارسة عمل، وكذلك تلتزم بها المؤسسة الإعلامية أو الاتصالية، وتتمثل هذه الأخلاق في قيم عامة وتقاليد وتصرفات، بعضها عام ومشترك كقيم الصدق والنزاهة والتوازن، وبعضها خاص بالمجتمعات أو بالمؤسسات<sup>(٤)</sup>.

وتحدد أخلاق القائم بالاتصال أو أخلاقياته من وجهة نظري بمنبعين مختلفين: المنبع الأول يتمثل في تدين الفرد، الذي يفرض عليه الالتزام بمعايير محددة: نحو الصدق، والحياد، والالتزان، والمسؤولية، والرقابة، وهي معايير غير مفروضة، وإنما يعتنقها الفرد لأنه مقتنع بها وموقن بشئائيتها

١- الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث، سامية محمد جابر، ص ٢٧٥.

٢- إدارة المؤسسات الإعلامية، عطا الله شاكر، ص ١٠٥.

٣- أخلاقيات ومبادئ العمل الصحفي الإعلامي، مركز هردو، ص ٨.

٤- الأخلاق الإعلامية بين المبادئ والواقع، مرجع سابق، ص ٨-٩.

متضادة وهي الثواب والعقاب الإلهيين، وفيها تكون المسؤولية حرة، والصدق صفة، والالتزام سجية، وغيرها من الأخلاق الإيجابية التي تمنعه من التعدي على الآخرين بالقول أو الفعل أو التلميح أو التصريح.

ويتمثل المنبع الثاني فيما تفرضه البيئة أو محيط الفرد من قوانين تنظم حياته سواء أكانت قوانين مرنة أم قوانين رادعة، وقد يلتزم الفرد في إطارها أو يتمرد، باعتبارها متغيرة ووضعية ولا تُخدم أحيانا إلا طبقة معينة، وتسلب عليها. ولعل من القوانين المشرعة في الإطار الاتصالي ما يُؤطر لأخلاق الممارسين للعملية الاتصالية.

وتوجّه هذه الأخلاقيات بمواثيق؛ هي بمثابة توجيهات داخلية لقرارات مهنية في مختلف المواقف والموضوعات التي يواجهها أثناء عمله، وهي نوعان<sup>(١)</sup>:

- **مواثيق إجبارية أو إلزامية:** وفي هذه الحالة تحمل المواثيق بعض أشكال العقاب لمن يخالف أو ينتهك ما جاء بها من معايير للسلوك المهني، ويدخل في هذا، الاحتقار أو التأنيب العام أو الوقف المؤقت عن مزاوله المهنة.

- **مواثيق اختيارية:** تقوم على أساس رغبة واردة من العاملين ففي المهنة، بحيث يترتب على موافقتهم عليها التزامهم بتنفيذ ما جاء فيها أثناء ممارستهم للعمل، وتعد هذه المواثيق بمثابة تنظيم ذاتي لهم.

وتعد مواثيق الشرف أو مواثيق الأخلاق المهنية مكملة للحقوق والضمانات المكفولة؛ إذ تعكس وتحدد الحقوق والضمانات التي يتعين توفيرها للمجتمع أو للبيئة التي تمارس فيها العملية الاتصالية ذاتها في مواجهة القائمين بالاتصال، ومن ثم تبلور هذه المواثيق المسؤوليات الاجتماعية والأخلاقية لرجال الإعلام حيال المجتمع الذي يعملون فيه، وحيال المجتمع العربي ككل، وحيال المجتمع الدولي ذاته، وتبنى على أساس أن الاتصال وإن كان حقاً للفرد، فهو أيضاً حق للمجتمع، وينبغي حماية حق المجتمع في الوقت الذي تحمى فيه حقوق الأفراد<sup>(٢)</sup>.

١- نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، محمد عبد الحميد، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

٢- الاتصال والإعلام في الوطن العربي، راسم محمد الجمال، ص ٦٥.

ويمكن أن تكون السنة النبوية في نصوصها المتعددة، وفي ممارسات الرسول ﷺ ميثاقاً مثاليًا لأخلاقيات المهنة أو العمل الاتصالي، الذي ينبغي على كل ممارس محترف أو غير محترف أن يلتزم به، وهذا يتوقف على مدى تقبل السياسات الاتصالية لمثل هذه المرجعية الأصيلة التي تدخل ضمن دائرة ما تقر به الدساتير العربية بأن الإسلام هو دينها.

## المبحث الثاني: الوظائف الاتصالية في السنة النبوية وحماية الوطن

يُمارس الرسول ﷺ في إطار نصوص الدين الإسلامي بوحيتها (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة) صوراً متعددةً لوظائف التواصل والاتصال مع الفئات الاجتماعية على اختلاف سماتها الفردية والاجتماعية، وهو يحرص من خلالها على الدعوة والإرشاد والتبليغ لإقامة مجتمع متكامل معاني، ومحمي من كل ما يقوض بنيانه، فكان له شرف قيادة المجتمعات التي أهلكتها الماديات، وأفسدتها الأهواء والمصالح الضيقة، وقد عرف أن الدين والاستمساك به وإقامة دعائمه، أساس كل قوة ومصدر لها وهو السياج لحماية الوطن وحرية وكرامته، وهو واجب محتم على الدعاة إلى الإسلام أو القائمين بالاتصال جماعات وأفراداً، ومن أجله كان عليهم أن يجندوا كل الإمكانيات لحماية مبادئه، وأن يجعلوا من ترسيخ العقيدة وحفظها سبيلاً للدفاع عن الوطن.

ولا يختلف أحد في أن الدين إذا فُقد أو غُلب عليه لم يغن من ورائه الوطن والمال والأرض، بل سرعان ما يذهب كل ذلك من ورائه، أما إذا قَوِيَ شأنه وقامت في المجتمع دعائمه ورسخت في الأفئدة عقيدته، فإن كل ما ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود، ويصير أقوى من ذي قبل؛ حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة، ولقد جرت سنة الله في الكون وعلى مر التاريخ أن تكون القوى المعنوية هي الحافظة للمكاسب والقوى المادية، فالوطن الغني في أخلاقه وعقيدته السليمة ومبادئها الاجتماعية الصحيحة، يغدو سلطانه المادي أكثر تماسكاً وأرسخ بقاءً وأمنع جانباً، والوطن الفقير في أخلاقه، مضطرب في عقيدته، تائه أو جانح في نظمها ومبادئها يغدو سلطانه المادي أقرب إلى الاضمحلال ومكتسباته المادية أسرع إلى الزوال.

وقد يصادف أن نجد وطنًا تعرّى عن كل مقوماته المادية من ثروة مادية وبشرية في سبيل الحفاظ على العقيدة الصحيحة، وما يتبعها من الخلق والنظام الاجتماعيين السليمين، وقد استحوذ عليه وعلى أمواله المغصوبة، ومع هذا نجد قوته قد عادت إليه مضاعفة معززة، هذه الصورة الصحيحة عن الكون والإنسان والحياة لا توجد إلا في عقيدة الإسلام، والأمر ينطبق كذلك على إيجاد نظام اجتماعي عادل وسليم، ولا يكون إلا في نظام الإسلام وهديه.

و"الحكمة، أن الشريعة الإسلامية تعبدت البشر بالوسائل كما تعبدتهم بالغايات، فليس لأحد أن يسلك إلى الغاية التي شرعها الله، له إلا الطريق المعينة التي جعلها الله وسيلة إليها، وللحكمة معان معتبرة، ولكن في حدود هذه الوسائل المشروعة فقط، فنصوص الدين تقوم على عماد الشرف والصدق في الوسيلة والغاية، فكما أن الغاية لا يقومها إلا الصدق والشرف وكلمة الحق، فكذلك الوسيلة لا ينبغي أن يخطأها إلا مبدأ الصدق والشرف وكلمة الحق، والسر في مشروعية الحكمة في الدعوة إنما هو سلوك أقرب الوسائل إلى عقول الناس وأفكارهم، ومعنى هذا أنه إذا اختلفت الأحوال وقامت عثرات الصد والعناد دون سبيل الدعوة، فإن الحكمة حينئذ إنما هي إعداد العدة للجهد والتضحية بالنفس والمال، إن الحكمة أن تضع الشيء في مكانه"<sup>(١)</sup>.

لقد جاءت نصوص السنة شارحة ومفصلة لنصوص القرآن الذي هو أصل من أصول الدين لتدعم التوجه الملح على ضرورة بناء الوظائف الاتصالية للقائم بالاتصال التي تسهم في دعم حماية الوطن ونشدهان استقراره وتطوره، لتغني بذلك عن الوظائف النمطية التي حددتها الأدبيات العلمية المتخصصة وغير المتخصصة، والتي تركز عادة على الجانب المادي لتظهر قوته في حماية الوطن، مع تجاهل الجانب الأخلاقي الذي يستمد بناء دعائمه وأساسه من المرجعية الإسلامية الأصيلة والموجهة لجميع البشر من دون استثناء، فتصنع بذلك الفارق في البناء المعرفي والسلوكي وتحيل إلى نظام متكامل قاده الرسول ﷺ بحرفية عالية شهد لها الشهود من المتبعين والمخالفين، وقد تم تحديد هذه الوظائف في المحاور الآتية:

#### ١- إشاعة الثقافة الأمنية ومحاربة كل أنواع الجريمة: تعد نعمة الأمن من أهم مقومات

حفظ الوطن وإقامة بنيانه بالشكل التي تستقيم معه الحياة الكريمة، فهو ضرورة سياسية واجتماعية

١- المرجع نفسه، ١٢٨.

واقترادية ودينية للقضاء على مظاهر التعصب والتنافر والتناطح، ونشر مظاهر التسامح والتناصح والتصالح، فكان من المحتم أن تقوم كل السياسات الاتصالية على إشاعة الوعي بالثقافة الأمنية وكل أبعادها، وهو الوعي الذي يصنع الفرد الفاعل والداعم لتأمين الوطن الذي يحيا فيه، ويجرّص على دعم أسسه وتجلياته اليومية، فتصان به الأرواح والأعراض، ويكفل به التطور والتحضر المنشود من الجميع.

ولا تخلو النصوص الحديثية من التأكيد على نشر ثقافة الأمن وضرورتها الحياتية، ويؤكد الرسول ﷺ أهمية الأمن في حياة الإنسان، وكيف يمكن له أن يزاوّل أعماله ونشاطاته من دون وجل، فيحفظ بذلك كل مقومات النجاح والتطور والتقدم: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَانِي فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"<sup>(١)</sup>.

كما كان يؤكد في أحاديثه وخطبه على السلام بين الناس وتأمينهم وعدم الاعتداء عليهم، وكان يؤكد في بيعته على ذلك، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي رَهْطٍ، فَقَالَ: "أَبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوْنِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَحَدَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَطَهْرٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَذَلِكَ إِلَى اللَّهِ: إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِذَا تَابَ السَّارِقُ بَعْدَ مَا قُطِعَ يَدُهُ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ، وَكُلُّ مَحْدُودٍ كَذَلِكَ إِذَا تَابَ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ"<sup>(٢)</sup>.

ويجمع الرسول ﷺ بين منع الجريمة وإقامة الحدود وحفظ الحقوق وتنظيم العدل وإشاعة الأمن<sup>(٣)</sup>، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ عُكْلٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، كَانُوا فِي الصُّفَّةِ، فَاجْتَمَعُوا الْمَدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبْعِنَا رَسُولًا، فَقَالَ: مَا أَجِدُ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَلْحَقُوا بِإِبِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاتُّوْهَا فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَاهَا، حَتَّى صَحُّوا وَسَمِنُوا وَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَأْفُوا الذَّوْدَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ الصَّرِيخُ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي آثَارِهِمْ، فَمَا تَرَجَّلَ النَّهَارُ حَتَّى أُتِيَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِمَسَامِيرَ فَأُحْمِيَتْ،

١- جامع الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٢٣٤٦، حسن غريب.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب توبة السارق، حديث رقم: ٦٨٠١.

٣- الاصفهاني من سيرة المصطفى، عبد العزيز بن إبراهيم العمري، ص ٥٩٧.

فَكَحَلَّهُمْ، وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَمَا حَسَمَهُمْ، ثُمَّ أُلْقُوا فِي الْحَرَّةِ، يَسْتَسْقُونَ فَمَا سُقُوا حَتَّى مَاتُوا  
قَالَ أَبُو قَلَابَةَ: سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَحَارَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ<sup>(١)</sup>.

٢- بناء الآداب والأخلاق الاجتماعية: تعتمد نصوص السنة على قواعد متينة لبناء مجتمع سليم متعاني من كل الأمراض والآفات الاجتماعية، وتحرص على بناء العلاقة بين أفراد المجتمع تقوم على أسس أخلاقية محضة، لتتمكن من حماية الوطن من التفكك والتشردم، فالمجتمعات التي تغرق اتخذت من طرق الضلال ما يسيء إلى تعفف الفرد وترفعه؛ فأضحت مجتمعات بلا ضمير موجه أو رقيب، والنتائج كثرة الرذائل والفواحش والممارسات الشاذة التي أفضت إلى أمراض جسدية وعقلية وسلوكية، تنحرف معها الفطرة السليمة. وللمحافظة على هذه الفطرة وردت الكثير من الأحاديث في ضرورة التخلق بالأخلاق الحسنة، ومنها قوله ﷺ: "إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا"<sup>(٢)</sup>، وقوله: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. قَالَ الْقَوْمُ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا".

ومن مظاهر الأخلاق لبناء المجتمع المعتدل والمستقيم والامن دعوة الرسول ﷺ لكل قائم بالاتصال أن يدكر بحسن الأدب مع الله، وهو الأدب الذي يفرض على الإنسان أن يقدر الله قدره، هذا التقدير يفرضي إلى الاحتراز من الفكر السيء، والمأكل الحرام، والمشرب الحرام، وينظر نظرة المتبصر في المال: "اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَنْ اسْتَحْيَى مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى، وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى، وَلْيَذْكَرِ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَى مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ"<sup>(٣)</sup>.

ومن الآداب التي كان يحرص الرسول ﷺ على إشاعتها في تواصله مع الناس، المحبة والسلام بين الناس، "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا، الْمُؤَطَّفُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ،

١- صحيح البخاري، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود - باب لم يسق المرتدون المحاربون حتى ماتوا، حديث رقم: ٦٨٠٤.

٢- صحيح البخاري، كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ، حديث رقم، ٣٥٥٩.

٣- مسند أحمد، حديث رقم: ٣٧٤٥، جامع الترمذي، رقم: ٢٤٥٨، غريب.



وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ" (١)، وقال: "لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، وَلَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ" (٢)، فالسلام كلمة لها من المعاني والمباني ما يقيم بها مجتمعات معافاة من كل آفات العنف والتطرف والإرهاب.

ويأمر ﷺ بالرفق أيضًا لتحقيق الألفة في المجتمع، "إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ" (٣)، لقد اتصف محمد ﷺ بالرحمة في كل شيء ومع كل شيء، وتجلت سلوكات رحمته في تواصله مع الطفل والمرأة والعدو والحيوان. والأحاديث الصحيحة المذكورة في ذلك لا حصر لها، والمقصد من تطبيق هذا الخلق العظيم هو نيل رضا الله ﷻ ورحمته ولطفه "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّن فِي السَّمَاءِ" (٤).

**٣- محاربة الشائعات ونشر المعلومات الهادفة:** تنتشر الشائعات في كل مكان بغض النظر عن طبيعة البيئة التي تحكم حياتنا وهي من أقدم الأساليب الاتصالية في التاريخ أيضًا، فقد وظفت لنقل الأخبار وبناء السمعة أو تقويضها وتأجيج الفتن والحروب، وقد أدى تطور وسائل الاتصال ابتداء من ظهور الصحافة ومرورًا بالمسموع والمرئي (٥)، وأدت اليوم التكنولوجيا الحديثة إلى تطورها، وانتشارها، وتخصصها، وتعدد أشكالها، ومع ذلك لم تفقد المشافهة أو الاتصال المباشر المستتر بريقها في التجمعات الأصغر.

وتعد الشائعات من أخطر الحروب المعنوية والأوبئة النفسية، التي لها خطورة بالغة على المجتمعات البشرية الآمنة، بسبب سرعة انتشارها وسهولة تأثيرها على الناس خاصة البسطاء منهم، وتزداد خطورتها وقت الأزمات والحروب والثورات والحركات والكوارث، لأن من آثارها: تضليل

١- الأوسط للطبراني، رقم: ٤٤٢٢، لَمْ يَرَوْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدَةَ إِلَّا يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي عَبَّادٍ، وقيل حسن لروايه.

٢- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم: ٥٤.

٣- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل الرفق، رقم: ٢٥٩٣.

٤- سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في الرحمة، رقم: ٤٩٢٦، حسن صحيح.

٥- الشائعات، الوسيلة الإعلامية الأقدم في العالم، جان نويل كافييرير، ترجمة، تانيا ناجيا، ص ١٣، دار الساقى، لبنان، ٢٠٠٧.

الرأي العام، وإثارة الفتنة بين الناس وإشعال جذوة الخوف والقلق عندهم<sup>(١)</sup>.

إن من أخطر الإضرار على أمن المجتمع هو اختلاق الشائعات ونشرها بين الناس؛ مما يؤدي إلى الإضرار بهم معنوياً ومادياً، وخاصة في عصر الإعلام الحديث الذي يتجاذب كل فئات المجتمع المختلفة، ولأن صفة الشائعة هي الكذب من أجل زعزعة الاستقرار النفسي والاجتماعي والديني والسياسي، فقد حاربها الوحي بكل أوجهها، ابتداء من التحذير منها إلى محاصرتها والقضاء عليها، والتعامل مع مصادرها بالتحري والمتابعة والتحقق، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

لقد أصبح هذا النص القرآني بمثابة ميثاق أخلاقي لمواجهة، وتوجيها لرسول الله ﷺ وعموم أفراد الأمة للاحتراس منها، وعليه فقد حذر الرسول ﷺ الجميع في تواصلهم من التحديث بالكذب، وإبلاغ الناس الخطأ الذي قد يعصف بالفرد والمجتمع في آن واحد "اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَنِّي إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ كَذَبَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"<sup>(٢)</sup>، فأشار إلى ضرورة التحري في نقل ما ورد عنه، وما ورد في القرآن الكريم، والحرص على ضرورة أن يكون المتصل عالماً بما ينقل، ومتى وكيف ينقل؟ ولماذا ينقل؟ وأي تجاهل لهذه الدعوة النبوية هو بمثابة تسليم الفرد بجزائه المذكور، وهو ما يؤكد قوله: "إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْذُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا"<sup>(٣)</sup>.

ويحذر الرسول ﷺ من نقل المعلومات بدون التأكد من مصادرها الحقيقية، وإصاق الشائعات بغير مروجيها، فيذكر الجزاء الأليم في الآخرة للردع والتقريع، "أَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ مُسْلِمٍ

١- التأصيل الشرعي للإعلام الدعائي وترويج الإشاعات، شريف علي حماد، ص ٢، جامعة القدس المفتوحة، خان يونس.

٢- جامع الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، رقم: ٢٩٥١، حديث حسن.

٣- سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في التشديد في الكذب، رقم: ٤٨٨٩، وذكر أن إسناد أبي داود صحيح.

بِكَلِمَةٍ وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ يَشِينُهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُذِيْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ حَتَّى يَأْتِيَ بِنِفَادٍ مَا قَالَ<sup>(١)</sup>، فالتوجيه بهذا الشكل، هو بمثابة الحرص على تحري الدقة في مصادر المعلومات التي تغني عن الولوج بالفرد المتلقي في عالم الشك والفضى التي تؤدي حتمًا إلى الإضرار بأمن الوطن، وكل تحقق من مصدرية المعلومات هو مبعث للأمان وحماية للأسماع وتوجيه للأفهام بما يخدم سمعة القائم بالاتصال ومصداقيته لدى الرأي العام الحريص بدوره على سلامة وطنه.

ويحرص الرسول ﷺ على إقامة دعائم الوطن على الطهر ومقت الفاحشة، التي تُعد من أسباب البلاء والهلاك، وقد وعى بذلك القصص القرآني الذي ورد في أقوام الأنبياء الذين لم يتنزها عنها، مثل قوم لوط، وقوم اسحاق، والمجتمع الفرعوني على عهد موسى، حيث انتهت بهم أفعالهم إلى الخسف والتدمير، كما وعى التوجيه القرآني: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ (النور: ١٩)، الذي يحذر من اتهام المسلمين والتحامل عليهم بإحداث الفتن بينهم والتحامل على أعراضهم، وإضرار سوء النوايا نحوهم، الذي يؤثر في تماسكهم داخل المجتمع الواحد، ثم ينبه ويحذر من ظهور الفاحشة وانتشارها بذكر الجزاء المنتظر "مَا نَقَضَ قَوْمَ الْعَهْدِ قَطُّ، إِلَّا كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ، وَلَا ظَهَرَتْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، وَلَا مَنَعَ قَوْمَ الزَّكَاةِ إِلَّا حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْقَطْرَ"<sup>(٢)</sup>.

٤ - التأكيد على أهمية التربية داخل الأنسجة الاجتماعية: تُعد نصوص السنة فضاءً ومجالاً خصبًا لتوضيح دلالات التربية ومقاربة مفهومها واستشراق دورها في بناء الوطن ماديًا وروحيًا، وحمايته من الانحدار والسقوط، هذا الدور قد تجليه الأساليب المعتمد عليها والوسائل التي تصلح للحاضر والمستقبل. والتربية من أهم المفاهيم التي ركزت عليها الأبحاث الاجتماعية والنفسية، وتناولتها الأعلام بالدراسة والتحليل، كونها أحد أبرز العوامل التي تهدف إلى بناء الشخصية الفردية والجمعية والأمية والحضارية، فهي منبع أصيل للقيم الإنسانية والإسلامية على حد سواء، وهي حصن منيع للوفاة الفكرية الغازية، وهي ضرورة عصرية للتقدم والتطوير وتحصين الوطن.

١ - الترغيب والترهيب، المنذري، رقم: ٣/٢٠٧، روي بعضه بإسناده جيد.  
٢ - المستدرك على الصحيحين - كتاب الجهاد - ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم ولا ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الموت، رقم: ٢٥٩٢، صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه.

وتوضح نصوص السنة الشريفة أن التربية يجب أن تشمل جميع الأنسجة الاجتماعية، مثل: الأسرة، والمسجد، والمؤسسات التعليمية، والمؤسسات المدنية، والمؤسسات الرسمية، وهي ضرورة اجتماعية قصوى في ظل التغيرات التي تشهدها المجتمعات الإسلامية والتي طغت عليها المظاهر السلبية المصاحبة للعمولة المتغولة التي تنزع إلى القفز على حدود الوطن، وانتهاك حرمانه من أجل خلق التصدع وتجلية كل مظاهر التبعية والتقليد المنحرفة، وتأخذ هذه النصوص بعين الاعتبار أهم نسيج، والذي يتلقى فيه الفرد التربية منذ ولادته، وهو الأسرة لتراهن على دوره في بناء المجتمع وتربية الفرد تربية سليمة يتعذر معها ظهور ما يفضي إلى تشتته، وتفككه، وتحرص على حمايته ودعم قوته، ومن مظاهر هذه التربية، تعلم ثقافة الحوار، والطاعة والاحترام، ومن النصوص قوله ﷺ: "طَاعَةُ اللَّهِ طَاعَةُ الْوَالِدِ، وَمَعْصِيَةُ اللَّهِ مَعْصِيَةُ الْوَالِدِ"<sup>(١)</sup>، وقوله أيضاً: "سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: ثُمَّ بُرُّ الْوَالِدَيْنِ". قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوْ اسْتَزِدُّهُ لَرَأَيْتَنِي"<sup>(٢)</sup>.

وقد لفت الرسول ﷺ وهو يخطب في الناس ويتواصل معهم، إلى فئة هامة من فئات المجتمع إذا صلحت صلح المجتمع، وإذا فسدت فسدت المجتمع، وهي المرأة نصفه أو كله؛ فأمر بالعناية بها، فكانت خطبة الوداع بمثابة الميثاق الذي يوضح ذلك، وهي الخطبة التي شكّلت حدثاً اتصالياً في تكريمها، مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِحَيْرٍ أَوْ لَيْسُكَتْ، وَاسْتَوْضُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خَلَقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ إِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسْرَتُهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْضُوا بِالنِّسَاءِ حَيْرًا"<sup>(٣)</sup>، والشاهد أن الدعوة النبوية إلى تكريم المرأة والمحافظة على توجيهها وتربيتها التربية الصحيحة كفيلة بتوجيه المجتمع برمته، وما نشهده من دعوات إلى تحريرها وسلبها كرامتها وعفتها هو بمثابة نشئة أجيال مشوهة في أخلاقها تنزو إلى المظاهر الاجتماعية المستلبة، التي تقودها قاطرة الغرب المؤدلج والمشبع بالماديات، والمستبعد للقيم الأخلاقية وهو ما يولد عدم الاستقرار، وتنشد نصوص السنة النبوية ضرورة بناء المرأة الصالحة،

١- المعجم الأوسط للطبراني - باب الألف - من اسمه أحمد - أحمد بن إبراهيم الثقفي الأصبهاني،

رقم: ٢٢٥٥، وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره وبقيه رجاله رجال الصحيح.

٢- صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة - باب فضل الصلاة لوقتها، رقم: ٥٢٧.

٣- صحيح مسلم، كتاب الرضاع - باب الوصية بالنساء، رقم: ١٤٦٨.

ليصلح المجتمع ويتدعم بكل مقومات الاستقرار والأمن.

**٥- إشاعة قيم التكافل والتكامل داخل المجتمع:** حرص الرسول ﷺ من خلال الجهر بالدعوة الإسلامية على بناء مجتمع سليم معافى، يسع الأفراد بمختلف توجهاتهم، فأسس فضاءً اتصالياً وإعلامياً، يجتمع فيه الناس لطرح قضاياهم ومشاكلهم، كما يجتمعون لطرح مشاريعهم ورؤاهم التطويرية والبنائية، فكان المسجد بمثابة أول مؤسسة تمارس جل النشاطات السياسية والثقافية والدينية والاقتصادية، بما يشيع كل مظاهر التكافل والتعاون لدعم قواعد الوطن وحمايته من كل المخاطر والمفاسد.

وجاءت نصوص السنة مؤكدة أن الرسول ﷺ كان يعمل على إشاعة قيم التكافل والتكامل داخل المجتمع، فشبه تلك القيم بالبناء الذي إن بنيت قاعدته على أسس متينة، لم يتعرض إلى الهدم وإن تضافرت عليه عوامل الهدم، "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ"<sup>(١)</sup>، وأشارت إلى أن سر التماسك والقوة، إنما يكمن في التعاون على الخير والفضيلة ونشرهما، "عَلَيْكُمْ بِالتَّوَّاصِلِ، وَالتَّبَادُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّقَاطُعِ، وَالتَّذَابُرِ، وَالتَّفَرُّقِ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"<sup>(٢)</sup>.

**٦- إشاعة ثقافة الحوار والسلم مع الخصم والمخالف:** شكّلت خطب الرسول ﷺ إلى ملوك الحضارات القائمة في عهده، منهجاً اتصالياً يحوي الكثير من قيم الدعوة إلى حوار، وإشاعة ثقافة السلم لنشر رسالة الإسلام العادلة والدعوة إلى تأمين الأوطان، وهو ما يفند رأي المستشرقين المعرضين، بأن الدعوة نُشرت بالسيف؛ فالأمر لم يكن إلا للدفاع عن الأرض والعرض وتحقيقاً للعدل والإنصاف بين الشعوب، وتحريرها من ذل الاستعباد، تحقيقاً لمقصد الاستقرار. والعجب ونحن في القرن الواحد والعشرين، نجد من بين الدول الغربية من تنحو منحى هذه القيم، بينما تعيش بعض الدول العربية الاقتتال البيني أو الجوارى، لقد خاطب الرسول الملوك بأسمائهم مع حفظ الألقاب ودعاهم إلى التسليم بدعوة السلام: "مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرْقَلِ عَظِيمِ الرُّومِ:

١- صحيح البخاري، كتاب الصلاة - باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم: ٤٨١.

٢- المعجم الكبير للطبراني - مسند علي بن أبي طالب - سن علي بن أبي طالب ووفاته ﷺ، رقم: ١٦٨، إسناده فيه راو من رجال الحديث الحسن، لكنه ضعيف لعله الإرسال.

سَلَامٌ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْتَ تَسَلَّمَ، يُؤْتِنَكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّنَ، وَ﴿يَتَأَهَّلُ الْكُتُبُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>، والنماذج في مثل ذلك النوع من الخطاب كثيرة، وتعلم أتباعه ومن يأتي بعدهم الأساليب الاتصالية الراقية في التعامل مع الآخر، ما يفضي إلى كسبه وتوسيع دائرة التعايش معه، بمن فيهم دائرة المعتنقين للإسلام، وتسعى كلها إلى التأكيد على تأسيس وطن خالٍ من الأحقاد والانقسام، وطن ينعم بالحماية ليعيش فيه الجميع بسلام.

### المبحث الثالث: أخلاقيات الممارسة الاتصالية في السنة النبوية

يمكن القول أن أحاديث الرسول ﷺ التي وردت بشأن الممارسة الاتصالية مع الأفراد والمجتمع، المعتنق لها أو المخالف، هي بمثابة دستور أخلاقي لقيم الممارسة الاتصالية ويمكن أن نتجاوز به جميع موثيق الشرف الاتصالية والإعلامية التي تحكم إليها جل المجتمعات ومنها العربية والإسلامية، وتجعلها بمثابة النصوص المقدسة على غرار نصوص السنة، وهذا الذي يورق أي باحث مسلم يعي أهمية السنة النبوية في التشريع، هذا الدستور الأخلاقي الذي يشتمل على قيم اتصالية وإعلامية، تحرص على دعم حماية الوطن وتأمينه من كل الدعوات المرجفة والمعادية للاستقرار والاستمرار والتمكن في الزمان والمكان عبر سواعد المخلصين.

وتجلي نصوص السنة هذه القيم للقائم بالاتصال، في كل مؤسسات الاتصال حتى يلتزم بها قولاً وعملاً أيّاً كان وضعه المهني، ومكان وجوده، وفي كل مؤسسة تشمل الوسائل الاتصالية التقليدية أو الحديثة، وذلك حرصاً على بناء فكر اتصالي متواصل وفعال لبناء وطن يتمتع بجميع خصائص القوة والتطور، ويأبى أن تعصف به رياح التقليد والتبعية التي تعيشها جل الأوطان العربية مع مظاهر فقدان الحماية والحرية والكرامة الإنسانية، ويمكن أن ألخص مجموع هذه القيم في الآتي:

١- المسؤولية: تصاحب هذه القيمة ما يسمى بحرية الاتصال والتواصل التي تمارس خطأ في بعض الفلسفات الغربية، وفقاً للقاعدة "الحرية قمة والمسؤولية قاعدة"، وهو العكس بالنسبة

١- صحيح البخاري، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، رقم ٧٠٥٤.

لنصوص السنة التي نَبَّهت إلى أن كل فرد مسؤول مسؤولية تامة انطلاقاً من موقع عمله، وقد أشار الحديث إلى مجموع الأصناف والأطر الاجتماعية التي يجب عليها تطبيق هذه القيمة، ثم جعل الأمر مفتوحاً للجميع، لتشمل المسؤولية كذلك المؤسسات الاتصالية والوسائل الاتصالية التقليدية منها والحديثة ما يكفل تأمين الوطن وحمایته من كل خطر يحدق به، "أَلَا كُتُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (١)، وهو الحديث الذي يجب أن يأخذه بعين الاعتبار كل قائم بالاتصال؛ إذ تشيع في الوقت الراهن فنون الاستهتار بأعراض الناس، وأنواع العنف اللفظي والابتدال والسخرية باسم حرية التعبير، ما ينذر بفضي القيم التي تنخر لحمة المجتمع، وتزيد من حال التشردم والانقسام.

وتنبه نصوص السنة إلى مسؤولية الكلمة في الاتصال بالناس ومدى مراعاة ذلك والجزاء المترتب، وقد وعت بذلك خطر الانحراف بها إلى الدعاية والكذب والشائعة، والتي باتت قيماً لإيديولوجيات الكثير من الوسائل والسياسات الاتصالية، التي عملت على هدم مجتمعات بأكملها من سفك للدماء وتخريب للممتلكات، "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ" (٢).

**٢- المصدقية أو الصدق:** يأمر الرسول ﷺ بتحري الصدق في كل تواصل وبكل الوسائل، فالصدق من المعايير الهامة الذي ينجح معها القائم بالاتصال في إقناع الناس أو الجمهور، وهو معيار يسهم في الارتقاء بدرجة المعلومات للمحافظة على توازن المجتمع وقد أشرنا سابقاً إلى مدى خطورة المعلومات الكاذبة على أمن المجتمع واستقراره، وفي معرض الحث على الصدق وتخريه ومآل الصادق والكاذب جاءت النصوص النبوية في قوله: "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ،

١- صحيح البخاري، كتاب الأحكام - باب قول الله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم كتاب الأحكام - باب قول الله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، رقم: ٧١٣٨.

٢- صحيح البخاري، باب حفظ اللسان، رقم: ٦٤٧٨.

وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا"<sup>(١)</sup>، وقوله: "أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رِضِّ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقَهُ"<sup>(٢)</sup>.

وتعد المصدقية أو الصدق الدافع لأدبيات التعامل مع المنتج الاتصالي، فالحقيقة هي المحرك للقائم بالاتصال، والوصول إليها ليس من خلال الطرق المتتوية ولا القصيرة المشوبة، بها يحدس دقتها وواقعيتها، "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"<sup>(٣)</sup>، فالحديث يشير إلى ضرورة التأكد من مصدر المعلومة وعدم التصرف بالإضافة أو الإنقاص، فذكر الحقيقة كما هي مهمة في العمل الاتصالي والتبليغ، ويمكن الوصول إليها بطرق سليمة، فتكون مدعاة للسرور وجلب الاطمئنان والأمان، ومقارنة مصداقية المصدر من شخص إلى آخر من الأهمية بمكان، فينبغي أن تسعى كل وسيلة للوصول إلى الحقائق عند الناس أو في واقع بيئتها وأوطانها، ولأن الحقائق لا يوجد من يديرها دائماً، فلا بد من الوصول إلى مصدرها بشتى الطرق وببدل الجهد الجهد<sup>(٤)</sup>.

وفي المجال الاتصالي فإن تعريف المصدقية يتجه صوب الأدلة التي تثبت صدق المعلومات، أو الرأي، وهذه الأدلة هي تلك المعايير والمؤشرات التي تسهم في تقييم مصداقية المادة الاتصالية وتشمل التوازن في مقابل التحيز، التعددية في مقابل الأحادية، الثقة في مقابل التشكيك، التكامل أو الشمولية في مقابل التجزئة<sup>(٥)</sup>، "بِئْسَ مَطِيئَةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا"<sup>(٦)</sup>، حيث يؤكد الحديث ضرورة التثبت

١- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب - باب فيح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم: ٢٦٠٧.

٢- سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في حسن الخلق، رقم: ٤٨٠٠، سكت عنه المنذري.

٣- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، رقم: ١٠٧٠.

٤- إدارة المؤسسات الإعلامية، عطا الله شاكر، ص ١٠١.

٥- مصداقية وسائل الإعلام كما تراها النخبة في مصر، المجلة المصرية لبحوث الإعلام هويدا مصطفى، ص ١٢.

٦- سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في زعموا، رقم: ٤٩٧٢، قال ابن حجر: رجاله ثقة إلا أن فيه انقطاعا.



من المعلومات أو الأخبار وهي مهمة وضرورية لحماية الوطن واستقراره.

كما تعني مدى دقة المعلومات وصحتها التي تبثها الوسيلة الاتصالية ومدى موضوعية صاحب الرأي فيها، ومدى شمولية التغطية في عرضه، وتقديم مختلف جوانب حقيقة المعلومات المثارة<sup>(١)</sup>، والمعلومات الصحيحة (الصادقة) هو مبرر وجود أي وسيلة اتصالية جادة تدرك حقيقة دورها الاجتماعي، وتعني خطورة مسؤوليتها إزاء مبعث كل وسائل الهدم<sup>(٢)</sup>، ويكاد يكون هناك إجماع بين ممارسي الاتصال ودارسيه على أن مصداقية الاتصال بمستوياته هي مكون أساسي لنجاح عملية الاتصال بوظائفها المختلفة، والمتثلة أساساً في دعم استقرار الأوطان، وأنها أحد المعايير المهمة التي على أساسها تتم المفاضلة بين المعلومات.

**٣- الدقة والأمانة:** تعد الدقة عقيدة أي قائم بالاتصال، كما يعبر عنها، ولا بد أن يكافح ويناضل للحصول عليها<sup>(٣)</sup>، والدقة تعني الإلمام بالمعلومات، والأرقام، والبيانات والصور، وهي عامل مكمل للصدق<sup>(٤)</sup>، وهي صفة تشير أيضاً إلى مدى احترام القائم بالاتصال تجاه حق أفراد في معرفة الحقيقة الكاملة حول الحدث المثارة<sup>(٥)</sup>، يقول (جوزيف بولتزر): "الدقة أن تكتب الكلمات والأسماء بشكل واضح، وأن تكون العناوين واضحة وذلك بالتحقق منها، وأن ينقل الخبر من مصادر ومن غير تحريف، وأن تكون الأرقام حقيقية"<sup>(٦)</sup>.

وتعد الدقة من أهم عوامل مصداقية العمل الاتصالي، فعلى القائم بالاتصال أن يكون دقيقاً أثناء تغطية الأحداث وأن ينتبه إلى دقة الأخبار والتقارير من عدم دقتها أو من الإهمال أو من الانحياز والتشويه بالتأكيد على الحذف من المعلومة الهامة، وهذا الحذف يعد من أبشع أشكال

١- مصداقية الإعلام العربي، عزة عبد العظيم، ص ٣٠.

٢- القنوات التلفزيونية العربية المتخصصة، منصف العياري وآخرون، ص ١٦.

3- Mitchell. Stephens: Broad cast news ,4th Edition, Thomson Wadsworth , United states of America, 2002,p 384.

٤- دراسات في الفن الصحفي، إبراهيم إمام، ص ١١٥.

٥- معايير إذاعة وترتيب الأخبار في نشرات الأخبار بالراديو والتلفزيون، مجلة الفن الإذاعي فاروق أبو زيد، ص ٣٧.

6- Melvin Mencher: Basic Media Writing, Published July 10th 1998 by McGraw-Hill Companies ,p81

تشويه المادة الاتصالية والإعلامية.

وتتطلب الدقة أن يكون المضمون الاتصالي متضمناً جوهر الحقيقة في الحدث، حيث تقتضي الدقة ذكر الأرقام والمعلومات والبيانات دون تهويل أو تهوين<sup>(١)</sup>؛ لذلك يجب على القائم بالاتصال أن يتحقق من صدق المعلومات بالتأكد من الأسماء والعناوين والاستعانة بخلفياته السابقة عن الموضوع التي تجعله يستطيع الحكم على مدى صدق المعلومات واتساقها<sup>(٢)</sup>. "عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ أَوْ بِزِمَامِهِ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟! فَسَكَنَّا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ. قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَسَكَنَّا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. فَقَالَ: أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ"<sup>(٣)</sup>.

وبناء على ذلك فإن القائم بالاتصال يتحمل مسؤولية حدوث أي أخطاء في كتابته للمعلومات قد ينتج عنها نقد من الجمهور أو التشكيك في صدق الخبر، وخاصة إذا كان لدى الجمهور معرفة بالموضوع أو الحدث المثار<sup>(٤)</sup>، وتعني الدقة كذلك تحمل مسؤولية نقل الحقيقة بطريقة موضوعية ومنصفة قدر الإمكان<sup>(٥)</sup>، فمسؤولية القائم بالاتصال في برامجه و أخباره، ووسائله مهما كانت نماذجه، أشبه بمسؤولية الحاكم الملزم بتطبيق القوانين التي تؤدي إلى استتباب الأمن ونشر العدل بين كافة أفراد الوطن والذي يكفل حمايته، ويترتب عليه تأديتها على أكمل وجه "خَبَرَنِي مَنْ سَمِعَ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ: نَاجَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً إِلَى الصُّبْحِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَّرَنِي، فَقَالَ: إِنَّهَا أَمَانَةٌ،

١- النشرات الإخبارية العمود الفقري للإذاعة المسموعة، مجلة الفن الإذاعي، عبد الله زلطة، ص ١٧٣.

٢- الأخبار في الراديو والتلفزيون، حسن عماد مكاوي، ص ١٦٧.

٣- صحيح البخاري - كتاب العلم - باب قول النبي ﷺ رب مبلغ أوعى من سامع، رقم: ٦٧.

4- Martin Mayer, " Making News: Revised and Updated" 1st Edition (Boston: Harvard Business School Press, 1993, p 299.

5- Ted White: Broadcast News Writing, Reporting and Producing, 4th Edition, focal press , London, 2005, : Gill Branston. Roy Stafford , P372

وَحَزْبِي وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"<sup>(١)</sup>.

والأمانة وهي كل ما يؤتمن عليه المرء ويطلب منه المحافظة عليه، وقد ارتبط عظمها بنفي الإيمان عمن لا أمانة له، "لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ"<sup>(٢)</sup>، فالأمانة تقتضي أن يكون القائم بالاتصال مستوفياً شروط الصدق والإخلاص في العمل، خاصة أن المجتمعات العربية تسودها فوضى الكلمة الإعلامية وتنتشر فيها الشائعات ويغطي مجالها قضايا التطرف والعنف والتشدد، وإن كانت مفتعلة في بعض الأحيان، وهي مظاهر تحل بصور الوطن الآمن والمستقر، الأمل في مستقبل أفضل وأرقى.

**٤ - التوازن والعدالة:** تُعد مسألة التوازن والعدالة هامة جداً في العمل الاتصالي، وهي التزام أدبي وأخلاقي؛ إذ يجب أن يكون هناك مبدأ لدى القائم بالاتصال، وهو في عرضه للأحداث، يجب أن يكون عادلاً ومنصفاً<sup>(٣)</sup>، فيسعى إلى تقديم رؤية متوازنة للحدث، تقوم على أساس تقديم الحقائق، التي تغطي جوانبه كافة<sup>(٤)</sup>، كما يجب عليه أن يفسح المجال لمختلف الآراء لكي تعبر عن نفسها،<sup>(٥)</sup> "وَأَنَّ شَهَادَةَ غَيْرِ الْعَدْلِ مَرْدُودَةٌ، وَالْحَبْرُ وَإِنْ فَارَقَ مَعْنَاهُ مَعْنَى الشَّهَادَةِ فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ، فَقَدْ يَجْتَمِعَانِ فِي أَعْظَمِ مَعَانِيهِمَا إِذْ كَانَ خَبْرُ الْفَاسِقِ غَيْرَ مَقْبُولٍ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، كَمَا أَنَّ شَهَادَتَهُ مَرْدُودَةٌ عِنْدَ جَمِيعِهِمْ، وَدَلَّتِ السُّنَّةُ عَلَى نَفْيِ رِوَايَةِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْأَخْبَارِ، كَنَحْوِ دَلَالَةِ الْقُرْآنِ عَلَى نَفْيِ خَبْرِ الْفَاسِقِ"<sup>(٦)</sup>، فالشاهد أن كل تحيز في عرض المعلومات بما تمليه المصلحة الفردية أو الجماعية تؤدي بالضرورة إلى تحريف مفهوم الحرص على المصلحة العامة ومصلحة الوطن التي من مظاهرها تأمينه والحرص على استقراره.

ويؤكد الرسول ﷺ ضرورة الوعي بالمعلومات التي ينشرها أو يتواصل بها، ويعمل على إيصالها

١- مسند أحمد، رقم: ٢١٩٣١، وأخرجه مسلم في "صحيحه" برقم: (١٨٢٥) والحاكم في "مستدرکه" برقم: (٧١١١)

٢- صحيح ابن حبان - كتاب الإيمان - باب فرض الإيمان، رقم: ١٩٤.

٣- نظريات وسائل الإعلام، ميلفين مينتشر، ص ٣١.

٤- الإعلام المتخصص، أديب حضور، ص ٤٩.

٥- الأخبار في الراديو والتلفزيون، مرجع سابق، ص ١٦٧، ١٦٨.

٦- صحيح مسلم، مقدمة - باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين (٦/١).

إلى المتلقين بطرق واعية وهي الإخلاص والنصيحة والمحافظة على الإجماع والجماعة التي تشكل في النهاية مظهرًا من مظاهر القوة والدعة، ومظهرًا للأمان والاطمئنان الذي يحصل به التكامل في الرؤى الإيجابية المؤدية إلى نشر الخير، "نَضَرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالِي فَوَعَاها، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعَهَا فَرَبَّ حَامِلٍ فَفَقَهُ لَهْ، وَرَبَّ حَامِلٍ فَفَقَهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغْلُ عَلَيَّهِنَّ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِأُولِي الْأَمْرِ، وَلِزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تَكُونُ مِنْ وَرَائِهِمْ"<sup>(١)</sup>.

إن أفراد المجتمع متساوون في الحقوق والواجبات كما أنهم متساوون أمام وسائل الاتصال، ومن هنا تأتي ضرورة الحرص على ألا تكون هذه الوسائل تعبيرًا عن فئة أو ثقافة أو جهة دون أخرى، فتتحقق معها المساواة والمطالب المشروعة لتحقيق العدل والأمن في شتى الميادين، والعدالة تقتضى توحي الحكمة في عرض الأخبار والصور، والابتعاد ما أمكن عن أساليب المبالغة والتحويل والإثارة الرخيصة التي تزعزع صور الاستقرار والأمن<sup>(٢)</sup>، وتكون العدالة محققة فيهم: "الْمُقْسِطُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكَلَّتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الْمُقْسِطُونَ عَلَى أَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَمَا وُلُوا"<sup>(٣)</sup>.

**٥- النزاهة:** تعرّف النزاهة بأنها تقديم الخبر والصور بنوع من الحياد وتجنب الخلط بين أنواع الفنون الاتصالية والإعلامية، وبين الصالح العام والصالح الخاص، أو ما يسمى بـ "الاعتبارات الذاتية"، "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقِنَهُ"<sup>(٤)</sup>، ومجال الإتقان هو القيام بالعمل الاتصالي على أوجهه وإظهار احترافيته من ناحية الشكل والمضمون، والعمل على الإقناع والإمتاع بعيدًا عن الإضرار بقيم المجتمع ومظاهر تحضره، ومنها تأمينه وتحصينه والمحافظة

١- المستدرك على الصحيحين - كتاب العلم - نضر الله وجه امرئ سمع مقالتي فوعاها، رقم: ٢٩٤، صحيح على شرط الشيخين.

٢- أخلاقيات العمل الإعلامي، بسام عبد الرحمان المشابقة، ص ١٢٧.

٣- صحيح ابن حبان - كتاب السير - باب في الخلافة والإمارة - ذكر وصف الأئمة في القيامة إذا كانوا عدولاً في الدنيا، رقم: ٤٤٨٩.

٤- المعجم الأوسط للطبراني - باب الألف - من اسمه أحمد - أحمد بن يحيى الحلواني، رقم: ٨٩٩، ضعيف.

على استقراره، وتفيد النزاهة التجرد عن الهوى والاستقلالية في العمل وعدم الخضوع لأي تأثير رقابة داخلية "المؤسسية"، أو خارجية "الرأي العام"، والضغط السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية بجميع أشكالها "إِنَّ الْفِتْنَةَ تُرْسَلُ، وَيُرْسَلُ مَعَهَا الْهُوَى وَالصَّبْرُ، فَمَنْ اتَّبَعَ الْهُوَى كَانَتْ قِتْلَتُهُ سَوْدَاءَ، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّبْرَ كَانَتْ قِتْلَتُهُ بَيْضَاءَ"<sup>(١)</sup>، فما يجب أن يتبع هو الرأي الحصيف الذي يؤدي إلى إجماع الأفراد والمجتمع على اتباع الخير وترك الشر المفضي إلى التنازع والتناحر ما يعكس أجواء التعايش السلمي والأمني.

إن التحدي الذي يواجهه وسط القائم بالاتصال، هو تغطية جميع وجهات النظر المهمة بطريقة نزيهة ومنصفة للمعنيين بالموضوع وتقديم صورة كاملة وأمينة لجمهور القراء، وفي هذا يؤكد "دان غيملور" أن النزاهة والإنصاف لا يعنيان من بين أمور أخرى، كالاستماع لوجهات النظر المختلفة، ودمجها في وسائل الاتصال، وأنهما لا يعنيان كذلك تكرير المساواة التي تقود إلى الحصول على تصريحات متناقضة يشهدون بها حين تكون الوقائع مؤيدة لجانب واحد بصورة لا تقبل الشك<sup>(٢)</sup>، ويعد تحقيق الإنصاف في تقديم المعلومات إلى الأفراد والمجتمعات من أهم الدعائم الاتصالية التي تؤدي إلى حماية الوطن وتقويته والارتقاء به.

#### ٥- احترام الكرامة الإنسانية: نصت السنة النبوية على عدم تتبع عورات الأفراد مهما كان

مستواهم، وأمر الرسول ﷺ بسترها، تحقيقاً لمقاصد عظيمة، ومنها حفظ العرض وحفظ النفس، "يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَطْلُبُوا عَثْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْ عَوْرَةَ الْمُسْلِمِ يَطْلُبْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَطْلُبْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ"<sup>(٣)</sup>، وفي علوم الاتصال يقتضي احترام الكرامة الإنسانية عرض الأخبار والصور والأبناء بما لا يمس هذه الكرامة، جماعية كانت (فئة، أو ثقافة، أو دين)، أو فردية مثل عرض صور شخص دون إذنه، وهذا يقتضي استعمال وسائل قانونية سليمة للحصول على المعلومات بحيث لا يجوز استعمال أساليب الخدع أو التطوير أو الابتزاز أو التلاعب بالأشخاص مثل التسجيل أو التصوير

١- المعجم الكبير للطبراني - باب الحاء - من اسمه الحارث - الحارث أبو مالك الأشعري - شريح بن

عبيد الحضرمي عن أبي مالك، رقم: ٣٤٤٦، ضعيف.

٢- أخلاقيات الصحافة، جون هاتليج، ص ١٢١-١٢٢.

٣- صحيح ابن حبان - كتاب الحظر والإباحة - باب الغيبة، رقم: ٤٧٦٣.

غير القانوني فتنتجر عنه كل أنواع الحقد والتآمر وردود الأفعال غير المحسوبة ما يضر بلحمة المجتمع ويؤدي إلى فرقة<sup>(١)</sup>.

إن احترام الكرامة الإنسانية، والخصوصية الإنسانية، من خلال وسائل الإعلام والاتصال، هو حماية للوطن وتأمين استقراره ودعم تنميته، والتعدي على أمن أفراده وحياتهم الخاصة، هو بمثابة التعدي على أمن الوطن واستقراره، ولهذا جاء النهي عن فضح عورات الأفراد وتتبعها ليستقيم حال المجتمع والوطن، ولا تشغل الأنفس إلا بالعمل البناء الذي يؤدي حتمًا إلى الاستقرار والأمن والأمان.

**٦- مراعاة مستوى المتلقين:** تجلي الكثير من نصوص السنة النبوية ضرورة أن يراعي أي قائم بالاتصال أحوال المخاطبين، بحكم اختلافهم في مستويات الاستيعاب والتلقي والفهم، وأي خلل يعتري وصول المعلومة بشكلها الصحيح، وخاصة ما يتعلق منها بالأمن وتأمين عيش الناس، وحماية أرواحهم وأعراضهم فإن ذلك يكون بمثابة الخطر أو الفتنة كما يشير إلى ذلك الحديث: "مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ"<sup>(٢)</sup>، فالحديث يؤكد على ضرورة احترام عقول الناس ومستوياتهم، والحرص على بلوغ المعلومات إليهم وهي تحمل لهم كل ما يفيد في آجلهم أو عاجلهم، وكم من معلومة أيقظت فتنة؛ لأنها لم تصل بالشكل الصحيح للمتلقين، والفتنة أشد من القتل، وكم من معلومة أدت إلى تضارب في الآراء وخلقت انقسامًا بينها واختلافًا حولها وأدت إلى فساد كبير.

إن المهمة الأخلاقية الموكلة للقائم بالاتصال هي تحصيل العقول الفردية ومدركاتها، وتزويدها بما ينفع، وصناعة رأي عام يسهم في بناء مجتمع متلاحم، تسوده مظاهر الإخاء والتعاون، والتكافل، ما يشيع معها حماية الوطن، والتخلي عن هذه المهمة بحثًا عن الإثارة والضخامة والتلاعب بعقول الأفراد والاستهتار بمقدرات الأوطان جنائية وجريمة يرفضها الشرع قبل القانون، فلا بد على القائم بالاتصال أن يمارس دوره التوجيهي والتربوي لإعداد الأفراد روحياً ومعرفياً بما يسهم في الارتقاء بمستوى الاستقرار والازدهار للوطن والأمة.

١- الإعلام: حقائق وأبعاد، إسماعيل معارف، ص ٦٤.

٢- صحيح مسلم - مقدمة - باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم: ٥٠.

يمكن القول في نهاية هذا المبحث أن القيم الاتصالية، أو أخلاقيات الاتصال المنصوص عليها في أحاديث الرسول ﷺ لا حصر لها، وقد ركزت على الأهم ثم المهم، بما يتوافق مع الطرح الإعلامي الحديث حولها، وفي كل الفلسفات الاتصالية والإعلامية، تأكيداً على أن السنة النبوية تحيط بكل المفاهيم المختلفة سواء أكانت تقليدية أم حديثة وأنها تمثل دستوراً اتصالياً يمكن أن يستعين به الباحثون في مجال الاتصال لوضع نظريات تعيد الفرد والمجتمع إلى الارتباط بها بما يخدم حماية الوطن واستقراره وتطوره.

### نتائج البحث:

توصلت الباحثة من خلال عرض أخلاقيات القائم بالاتصال من منظور السنة النبوية إلى جملة من النتائج تؤدي كلها الغرض من البحث وهو مساهمته في حماية الوطن، ويمكن إجمالها في الآتي:

- تُعد السنة النبوية مرجعاً أساسياً لأحلقة العمل الاتصالي بجميع مستوياته: الذاتية، والمواجهية، والجماعية، والجماهيرية، والحضارية ما يحفظ للوطن هيبته واستقراره.
- تركز نصوص السنة النبوية على جملة وظائف اتصالية، تعمل على حماية الوطن وتأمينه ودفع عجلة التطور به، نحو نشر الآداب، ومحاربة الشائعات، وإشاعة ثقافة الحوار، ونشر الوعي التربوي داخل الأنسجة الاجتماعية.
- تتنوع القيم الاتصالية أو أخلاقيات العملية الاتصالية في نصوص السنة النبوية بالمفهوم العام، ومنها المسؤولية، والمصداقية، والدقة، والنزاهة، والامانة، واحترام الكرامة الإنسانية، وتسهم كلها في نشر ثقافة الأمن والسلام داخل الوطن.
- مارس الرسول ﷺ كل مستويات الاتصال داخل المجتمع الاسلامي وخارجه، مع المتوافق معه والمخالف له، وتحققت في تواصله كل أنواع القيم الاتصالية والإعلامية، وأنشأ بذلك وطناً متكامل الأركان والبنیان، تسوده الألفة ويحظى بالأمان.

- تعد سلوكات الرسول في تواصله مع الجميع بمثابة ميثاق شرف أخلاقي عملي يمكن، أن نتجاوز به كل مشكلات العصر التي تعاني منها المجتمعات وعلى رأسها مشكلات التطرف والعنف والارهاب والحروب البينية، وتعتبر هذه السلوكات حصناً حصيناً للوطن وصورة من صور التحضر.

### خاتمة:

يعد هذا البحث مشروعاً وأرضية يمكن أن تكون منطلقاً لأبحاث أخرى في التأصيل لعلوم الإعلام والاتصال في مجالات متعددة، ولاسيما في مجال التأسيس للتشريعات الاتصالية والإعلامية من منظور إسلامي يستند لنصوص السنة النبوية. وتعد ممارسات الرسول ﷺ الاتصالية، وحتى الإعلامية بمثابة القواعد والأسس المتينة التي تسهم في بناء عناصر العملية الاتصالية، من مرسل ومستقبل ورسالة ووسيلة وهدف، بناءً أخلاقياً ومعرفياً يسهم في خدمة الوطن بمسؤولية وأمانة، والمبرر في هذا التوجيه، هو ضعف الطرح النظري الذي تعاني منه النظريات الاتصالية والإعلامية التي أسست لقواعد الممارسة الاتصالية والإعلامية وأخلاقياً من منطلقات عدة، ومنها المنطلق السلطوي، والمنطلق الليبرالي، والمنطلق الاشتراكي، والمنطلق التنموي؛ إذ تعاني من وحدة مستوى المعالجة بالتركيز إما على تضخيم أنا الفرد في الممارسة الاتصالية أو أنا الجماعة، كما تعكس قيماً اتصالية لا تتماشى مع الفطرة السليمة.

وتجمع نصوص السنة على توجيه أخلاقيات الممارسة بين الفرد والجماعة مؤكدة على ضرورة الالتزام بالقيم بدون إفراط أو تفريط، وتستبعد كل قيمة تحمل في دلالاتها ما يسيء إلى المنظومة الأخلاقية للمجتمع المستمدة من الدين والعرف، فهي تستبعد قيم الضخامة والإثارة والشهرة والإفراط في حرية التعبير، التي جنت على تماسك البنيان الاجتماعي في أبعاده السياسية والاقتصادية والأمنية والدينية، وخلقت فوضى واضطرابات، وكرّست مظاهر الانحراف والعنف والجريمة، وعليه فنصوص السنة النبوية كلها خير في ضبط الممارسة الاتصالية والإعلامية ولا يضر أي جهة من اعتمادها كمواد تشريعية لبناء المنظومة القانونية في مجال الإعلام والاتصال، وكل ذلك من أجل مقصد شرعي عظيم وهو حماية الوطن.



### توصيات البحث:

- العمل على وضع ميثاق شرف المهنة الإعلامية انطلاقاً من نصوص السنة النبوية وتفعيله في الدوائر الرسمية.
- إقرار برامج أخلاقيات الاتصال والإعلام في المقررات الجامعية دون استثناء لأهميتها في توجيه المجتمعات.
- ترجمة أعمال الندوة إلى اللغات العالمية وتبليغها إلى المجتمعات الغربية في إطار حوار الثقافات.
- تفعيل الدورات التدريبية في مجالي الاتصال والإعلام من منظور القرآن والسنة.

## المصادر والمراجع:

- الاتصال ونظرياته المعاصرة، حسن مكاي وليلى السيد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث، سامية محمد جابر، دار المعرفة الجماهيرية، الإسكندرية، ١٩٨٤م.
- الاتصال والإعلام في الوطن العربي، راسم محمد الجمال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١م.
- الاتصال والإعلام في شبكة الإنترنت، محمد عبد الحميد، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- الاتصال بالجماهير بين الإعلام والتطوع والتنمية، أحمد غريب بدر، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٠٠م.
- الأخبار في الراديو والتلفزيون، حسن عماد مكاي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٠٥م.
- أخلاقيات الصحافة، جون هاتليج، ترجمة كمال عبد الرؤوف، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.
- أخلاقيات العمل الإعلامي، بسام عبد الرحمان المشابقة، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٢م.
- أخلاقيات ومبادئ العمل الصحفي الإعلامي، مركز هردو، القاهرة، ٢٠١٦م.
- الأخلاق الإعلامية بين المبادئ والواقع، جورج صدقة، مؤسسة مهارات، بيروت، د.ت.
- إدارة المؤسسات الإعلامية، عطا الله شاكر، دار أسامة، الأردن، ٢٠١١م.
- الأسس العلمية لنظريات الإعلام، جيهان أحمد رشتي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢.
- الاصطفاء من سيرة المصطفى، عبد العزيز بن إبراهيم العمري، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ٢٠١٥م.
- الإعلام المتخصص، أديب حضور، المكتبة الإعلامية، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٥م.
- الإعلام حقائق وأبعاد، إسماعيل معارف، ديوان المطبوعات الجامعية، ط ٢، ٢٠٠٧م.
- الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام، سمير محمد حسن، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- الإعلام والموضوعية محمد حجاب، دار الفجر، القاهرة، ٢٠١٠م.
- الإنترنت وسيلة اتصال جديدة، السيد بخت، دار الكتاب الجامعي، الإمارات، ٢٠٠٤م.
- التأصيل الشرعي للإعلام الدعائي وترويج الإشاعات، شريف علي حماد، جامعة القدس المفتوحة، خان يونس، د.ت.

## أخلاقيات القائم بالاتصال والدور المفترض ...

- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.
- دراسات في الفن الصحفي، إبراهيم إمام، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.
- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي، المحقق، بشار عواد معروف، درا الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، د.ت.
- الشائعات، الوسيلة الإعلامية الأقدم في العالم، جان نويل كابفيرير، ترجمة، تانيا ناجيا، دار الساقبي، لبنان، ٢٠٠٧م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري أبو عبد الله، المحقق: محمد زهير ابن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ.
- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري أبو الحسين، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط ٨، ٢٠٠٥.
- القنوات التلفزيونية العربية المتخصصة، منصف العياري وآخرون، سلسلة بحوث ودراسات إذاعية، ع ٥٦٤، تونس، ٢٠٠٦م.
- العوامل المؤثرة في الأداء المهني للقائم بالاتصال، هادي مهدي صالح الجبوري، رسالة ماجستير، الآداب والعلوم الإنسانية العراق، ٢٠١٦م.
- لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣م.
- مبادئ الصحافة في عالم المتغيرات، سيد جاسم عزيز، دار الآفاق للصحافة والنشر، بغداد، ١٩٨٥م.
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

- مصداقية وسائل الإعلام كما تراها النخبة في مصر، هويدا مصطفى، المجلة المصرية لبحوث الإعلام، ع ٢١، جامعة القاهرة، كلية الإعلام، ٢٠٠١م.
- مصداقية الإعلام العربي، عزة عبد العظيم، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: طارق ابن عوض الله، محسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٩٩٥م.
- معايير إذاعة وترتيب الأخبار في نشرات الأخبار بالراديو والتلفزيون، فاروق أبو زيد، مجلة الفن الإذاعي، ع ١٨٣، اتحاد الإذاعة والتلفزيون، مصر، ٢٠٠٦م.
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق، حمدي ابن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- المعجم الفلسفي، مصطفى حسبية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٩م.
- مفردات غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ١٤١٢هـ.
- نشرات الإخبارية العمود الفقري للإذاعة المسموعة، عبد الله زلطة، مجلة الفن الإذاعي، ع ١٦٤، اتحاد الإذاعة والتلفزيون، مصر، ٢٠٠١م.
- نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، محمد عبد الحميد، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٧م.
- نظريات الاتصال، محمد حجاب، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١١م.
- نظريات وسائل الإعلام، ملفين ل. ديلزير، ساندر بول روكيتش، ترجمة كمال عبد الرؤوف، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م.
- Martin Mayer, " Making News: Revised and Updated" 1st Edition (Boston: Harvard Business School Press, 1993.
  - Melvin Mencher: Basic Media Writing, opcit, Published July 10th 1998 by McGraw-Hill Companies
  - Mitchell. Stephens: Broad cast news ,4th Edition, Thomson Wadsworth , United states of America, 2002.
  - Ted White: Broadcast News Writing, Reporting and Producing, 4th Edition ,focal press , London,2005,: Gill Branston. Roy Stafford.

أثر الشائعات في تهديد الوطن  
ودور السنة النبوية في مواجهتها

الدكتور / عماد حمدي إبراهيم  
أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد  
كلية الآداب - جامعة سوهاج / مصر





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،،،

"فإن الأوطان هي بيوت الناس والأمم والحضارات، وأرض الله التي استخلف فيها المستخلفون لأجل العمارة والتعمير، فلا بدع إن نطقت الآي البيئات والأحاديث الواضحات، وسير السلف الصالح بضرورة الدود عن بيضة الأوطان، وصونها عن ذرائع التهارج وفوت الأمان؛ والحكمة في ذلك أنه لا قيام لدين أو حضارة أو رسالة في ظل تصدعات تنخر من الوطن بُنيانه الروحي والمادي"<sup>(١)</sup>.

"ولاشك أن تداول الشائعات وانتشارها؛ يُعدُّ واحداً من أخطر مُهدِّدات حماية الوطن، وخاصة ما يكون في الأمور الخطيرة والجليلة المتعلقة بالعرض أو الدين أو الكرامة أو مقدرات الوطن، تلك التي ما إن انتشرت في مجتمع إلا وتحول أمنه قلماً ورعباً، وترابطه فرقةً واحتراباً، وتآلفه حقداً، وبغضاً، ونفوراً.. ومن ثم زعزعة أمن المجتمعات وسلمها.."<sup>(٢)</sup>.

ومما يزيد خطورة الشائعات على الوطن والمواطنين: "أنها تدخل في كافة جوانب الحياة؛ السياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية والاجتماعية.. وعلى المستويين المحلي والعالمي، كما أنها تنتشر بسرعة مخيفة، لا سيما في أوقات الحن، والأزمات.. وخاصة مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي التي أسهمت في رواج الشائعات والأراجيف بشكل مُرعب ومُخيف، فالشائعة لم تعد منطوقةً فقط بل أصبحت مكتوبة، وتنشر عبر الصحف والمجلات والمواقع الإخبارية.. لتصل إلى الملايين خلال دقائق.. مما زاد من خطورتها وضاعف من قدرتها على التأثير في حياة الناس.."<sup>(٣)</sup>.

١- الندوة العلمية الدولية التاسعة للحديث الشريف (حماية الوطن في السنة النبوية.. مقصد شرعي وضرورة مجتمعية)، الديباجة، <http://www.nadwa-hadith.com>.

٢- الشائعات وأثرها في تهديد السلم المدني، د. مارية بسام محمد عبابنة، ص ٤٩.

٣- الشائعات في المواقع الإخبارية الأردنية، وتأثيرها في نشر الأخبار من وجهة نظر الصحفيين الأردنيين،

وإذا كانت الشائعات "تمثل أحد أهم الظواهر السلبية الكفيلة بإفساد المجتمعات وأخطرها، والتي لا يكاد يخلو منها مجتمع من المجتمعات، أو عصر من العصور.." (١).

"فقد جاءت السنة النبوية تصور أثر الشائعات وتبين خطر الأراجيف على الأوطان والمجتمعات، من خلال بعض الحوادث اليسيرة التي وقعت في المجتمع النبوي، والتي قام على إثرها الماكرون من المنافقين، وأخذت في طريقها وأوقعت بعض الصالحين، من أصحاب الفضل، وشاء الله (ﷺ) أن يكون ذلك في العصر النبوي - وهو خير القرون - لتكون عبرةً ودرسًا للخلف من بعدهم، فيدركوا خطر الشائعات التي لا يسلم من ناراها إلا من تمسك بالقيم الربانية، والهدي النبوي الشريف.." (٢). وهذا بحثٌ مخصصٌ للحديث عن آثار الشائعات على الأوطان، ودور السنة النبوية المطهرة في مواجهتها والتصدي لها، وذلك بغية تحقيق مجموعة من الأهداف، من بينها:

#### أهداف البحث:

- بيان مخاطر الشائعات وأضرارها، وآثارها السلبية على الوطن والمواطنين.
- التأكيد على أن حماية الوطن من الشائعات، مقصد شرعيٌّ وضرورة مجتمعية.
- استشراف معالم المنهج النبوي في الوقاية من الشائعات، وسد ذرائع انتشارها ومواجهتها والتصدي لها، وتقويض أركانها والحد من آثارها، وتفادي أضرارها حال ذبوعها وانتشارها.

#### منهجية الدراسة:

اقتضت طبيعة البحث الاعتماد على المنهج الاستقرائي؛ لتتبع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي تتناول قضية الشائعات واستقرائها، ثم المنهج التحليلي والاستنباطي؛ لمحاولة

رضا عيد حمودة أكحيل، ص ٢.

١- حكم الشائعات في الشريعة الإسلامية، نجلاء عبده محمد العدلي، ص ٣.

٢- الشائعات وأثرها في تهديد السلم المدني، د. مارية بسام محمد عبابنة، ص ٤٩.



دراسة هذه النصوص وتحليلها، واستنباط أهم أسس مواجهة الشائعات وآلياتها في السنة النبوية الشريفة.

### الدراسات السابقة:

- موقف الشريعة الإسلامية من الإشاعة في السلم والحرب، دراسة مقارنة، عبد الله بن متعب الحري<sup>(١)</sup>: وقد حاولت الدراسة بيان ماهية الإشاعة وتاريخها وأهدافها وأنواعها، وأسباب ظهورها، ومراحل انتشارها، وفكرة تجريم الإشاعة في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي والنظام السعودي، وعقوباتها، ودراسة دور المؤسسات التربوية والإعلامية في مكافحة الإشاعة.
- الإشاعة وأضرارها على المجتمع، وطرق وقايتها في ضوء آية الإفك، قطب الدين أحمد زاهدان، وعبد الكريم علي<sup>(٢)</sup>: وقد تناول فيه الباحثان حادثة الإفك على وجه الخصوص في ضوء الآيات القرآنية، دون أن يعرج على بقية الشائعات التي أثرت في المجتمع النبوي.
- الشائعات وأثرها في تهديد السلم المدني، وطرق معالجتها، دراسة في ضوء الهدى النبوي، د. مارية بسام محمد عبابنة<sup>(٣)</sup>: وقد تناولت فيه الباحثة نماذج من الشائعات التي أثرت في المجتمع النبوي، وهددت سلمه المدني، من شائعة الإفك، وخبر طلاق النبي (ﷺ) أزواجه، وشائعة مقتل النبي (ﷺ)، وحاولت تحليلها مستنبطة أهم وسائل مواجهة الشائعات ودرء مخاطرها.

١- وهو بحث مقدم لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في العدالة الجنائية، في جامعة نايف للعلوم الأمنية.

٢- بحث منشور في المجلة الدولية للبحوث الإسلامية والإنسانية المتقدمة، مج (٥)، عدد (٩)، (سبتمبر ٢٠١٥م).

٣- بحث منشور ضمن بحوث الندوة العلمية الدولية الثامنة (السلم المدني في السنة النبوية، مقوماته وأبعاده الحضارية) والتي عقدت في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي (٢٨- ٣٠ رجب ١٤٣٨ هـ - ٢٥-٢٧ أبريل ٢٠١٧م).

- حكم الشائعات في الشريعة الإسلامية، د. نجلاء عبده محمد العدلي<sup>(١)</sup>: وقد حاولت الباحثة تعريف الشائعة وبيان أضرارها ودوافعها، وموقف الشريعة منها، ثم استقرأ وجمع أشهر الشائعات التي روجت في عصر النبوة، محاولة بيان منهج الإسلام في مواجهة الشائعات.
- كما عقدت ندوة علمية بعنوان (أساليب مواجهة الشائعات) بمركز البحوث والدراسات، بأكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية بالرياض (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م)، وقدم المشاركون في هذه الندوة مجموعة من أوراق العمل عن هذا الموضوع من بينها: الإسلام والشائعة، للدكتور: سعيد العرابي الحارثي والأساليب الحديثة في التحصين النفسي والاجتماعي ضد الشائعات، للدكتور: نايل محمود البكور، الإسلام والشائعة، مقاصد الشريعة في المحافظة على ضرورة العرض ووسائلها، من خلال محاربة الشائعات، للدكتور سعد ناصر الشثري، بيد أن معظم هذه البحوث والدراسات تُعالج قضية الشائعات من خلال النظرة التربوية وفي ضوء علمي النفس والاجتماع، وموقف الشريعة بشكل عام.

ولا شك أن هذه الدراسات لها أهميتها الكبرى في التعريف بهذه القضية، وتسييل الضوء عليها.. إلا أنه لا توجد دراسة علمية - على حد علمي - تناولت قضية الشائعة بوصفها أحد مَهْدَدَات حماية الوطن، مُحاولَةً إبراز دور السنة النبوية الشريفة في الوقاية منها وسد ذرائع انتشارها.. وفي مواجهتها والتصدي لها حال حدوث ذلك.. وبهذا تظهر أهمية هذا البحث الموسوم بـ ( أثر الشائعات في تهديد الوطن، ودور السنة النبوية في مواجهتها ).

## المبحث الأول: الشائعات وأثرها في تهديد الوطن والمواطنين

### المطلب الأول: مفهوم الشائعات وخصائصها

#### أولاً: مفهوم الشائعة:

لغة: "شَاعَ الحَبْرُ فِي النَّاسِ يَشِيْعُ شَيْعًا وَشَيْعَانًا وَمَشَاعًا وَشَيْعُوعَةً، فَهُوَ شَائِعٌ: إِذَا انْتَشَرَ وَافْتَرَقَ وَذَاعَ وَظَهَرَ، وَأَشَاعَهُ هُوَ وَأَشَاعَ ذَكَرَ الشَّيْءَ: أَطَارَهُ وَأَظْهَرَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: هَذَا خَبْرٌ شَائِعٌ وَقَدْ شَاعَ فِي النَّاسِ، مَعْنَاهُ قَدْ اتَّصَلَ بِكُلِّ أَحَدٍ فَاسْتَوَى عِلْمُ النَّاسِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ عِلْمُهُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ

١- بحث منشور في مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، السنة (٢٩) العدد (١١٣) (إبريل ٢٠١٨ م).

دُونَ بَعْضٍ. والشاعَةُ: الأَخْبَارُ المُنْتَشِرَةُ<sup>(١)</sup>. وهي: "الخَبَرُ ينتشر غير مثبتٍ مِنْهُ."<sup>(٢)</sup>.

**اصطلاحًا:** عَرَفَها بعض الباحثين بأنها: "أخبار مشكوك في صحتها ويتعذر التحقق من أصلها، وتعلق بموضوعات لها أهمية لدى الموجهة إليهم، ويؤدي تصديقهم أو نشرهم لها إلى إضعاف روحهم المعنوية"<sup>(٣)</sup>.

**وعرّفها آخر بأنها:** "عبارة عن أقوال أو أخبار أو أحاديث يختلقها البعض لغرض خبيث، ويتناقلها الناس بحسن نية، دون التثبت في صحتها ودون التحقق من صدقها"<sup>(٤)</sup>. وقد أضافت الباحثة ( مارية بسام ) إلى هذا التعريف قيداً آخر، وهو: (الغموض) حيث عرفتُها بأنها: "عبارة عن أقوال أو أخبار أو أحاديث يختلقها البعض لغرض خبيث، ويتناقلها الناس بحسن نية، دون التثبت في صحتها، ودون التحقق من صدقها، ويكتنف ظروفها بعض الغموض"<sup>(٥)</sup>.

وإذا كنا نتحدث عن الشائعة بوصفها أحد مهددات الوطن، وأحد الظواهر التي يمكنها إحداث العديد من الآثار السلبية على الوطن والمواطنين، فكان لا بد من إضافة قيد لهذا التعريف يُظهر تلك الآثار التي يمكن أن تخلفها الشائعة على أمن الوطن وسلامته واستقراره، وعلى هذا يمكن تعريف الشائعة بأنها:

عبارة عن أقوال أو أخبار أو أحاديث يختلقها البعض لأغراض خبيثة، ويتناقلها الناس بحسن نية، دون التثبت من صحتها، ودون التحقق من صدقها، ويكتنف ظروفها بعض الغموض، وتكون قادرة على تهديد أمن الوطن وزعزعة هدوئه واستقراره.

١- لسان العرب، لابن منظور (١٩١/٨).

٢- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (٥٠٣/١).

٣- الإشاعة، أحمد نوفل، ص ١٦.

٤- وسائل وأساليب الاتصال في المجالات الاجتماعية والتربوية والإدارية والإعلامية، زيدان عبد الباقي، ص ٤٤٧.

٥- الشائعات وأثرها في تهديد السلم المدني، وطرق معالجتها، دراسة في ضوء الهدى النبوي، مارية بسام محمد عبابنة، ص ٥٧.

## ثانيًا: خصائص الشائعة:

- تتسم الشائعات بمجموعة من الخصائص والسمات، ولعل من أبرزها:
  - سرعة الانتشار: حيث تروج الشائعات وتنتشر بسرعة كبيرة، لا سيما في المجتمعات التي يغلب عليها الجهل والتخلف، فالجاهل لا يعي مخاطر الشائعة وأضرارها وما تخلفه من آثار، كما أنه يسهل التأثير فيه، وإقناعه بالشائعات والأراجيف دون السؤال عن مصدرها"<sup>(١)</sup>.
  - الأهمية: فكلما كان موضوع الشائعة مهمًا بالنسبة للناس، كلما أصبحت الظروف مهيأة والفرصة سانحة لسرعة انتشار الشائعة وترويجها بنسبة كبيرة، ففوة الشائعة وسرعة انتشارها ترتبط ارتباطًا طرديًا مع أهمية موضوعها"<sup>(٢)</sup>.
  - الغموض: وهو كون الوقائع الحقيقية تتسم بشيءٍ من عدم الوضوح، وقد ينشأ الغموض من انعدام الأخبار أو تضاربها أو عدم الثقة بها، أو ينشأ عن بعض التصرفات الانفعالية التي تجعل الفرد غير قادر أو متهيئ لتقبل الوقائع التي تقدمها وسائل الإعلام المعروفة"<sup>(٣)</sup>.
  - الإيجاز: كما تتسم الإشاعة بالإيجاز وسهولة التذكير، وسهولة النقل والرواية والتداول"<sup>(٤)</sup>.

١- حكم الشائعات في الشريعة الإسلامية، نجلاء عبده محمد العدلي، ص ٣.

٢- الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، (٢/٣١٧).

٣- الشائعة والأمن، مهدي على دومان، ص ١٩٥.

٤- علم النفس الاجتماعي، حامد عبد السلام زهران، ص ٣٦٠.

## المطلب الثاني: آثار الشائعات على الوطن والمواطنين

### أولاً: إثارة الرعب والفرع وزلزلة القلوب، وتحطيم الروح المعنوية:

يقول الدكتور: (محمد سيد طنطاوي): "ويقصد بها - أي الإشاعة - في الأعم الأغلب؛ التأثير السلبي في النفوس، والعمل على نشر الاضطراب والفوضى، والقلق وعدم الثقة في قلوب الأفراد والجماعات" (١). ولعل من أبرز النماذج التي توضح أثر الشائعة في نشر الرعب والفرع وإرهاب القلوب، وتحطيم الروح المعنوية: إشاعة مقتل النبي (ﷺ) في غزوة أحد.

فبعد أن ترك الرماة مواقعهم التي حددها لهم المصطفى (ﷺ) على جبل أحد، ونزلوا إلى ساحة المعركة لجمع الغنائم، وانتهز المشركون بقيادة خالد بن الوليد انشغال المسلمين بجمع الغنائم والتفوا حولهم، بعد أن قتلوا من بقي من الرماة في مواقعهم، واضطربت صفوف المسلمين؛ انتشرت في هذه اللحظة إشاعة خبيثة في صفوف المسلمين مفادها أن الرسول (ﷺ) قد قتل؛ وسبب هذه الإشاعة أن واحداً من المشركين - وهو ابن قميئة - اعتدى على النبي (ﷺ) خلال اضطراب صفوف المسلمين بأن ضربه على عاتقه ضربة شديدة، ثم أخذ يصيح في الناس: قتل محمدًا قتل محمدًا (٢).

وقد كان لهذه الإشاعة أسوأ الأثر في نفوس المسلمين؛ فقد أصابهم الوهن والضعف والفرع والخوف الشديد؛ فقد أصيب المصطفى (ﷺ) واستشهد خلق كثير من خيار الصحابة، وهكذا يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن تصديق الإشاعات الكاذبة كان له أسوأ الآثار، وأقبح النتائج والأضرار، لا سيما في أوقات الحن والأزمات، وما من أمة تفشو فيها الإشاعات الكاذبة، فتصدقها إلا وكانت عاقبتها الخسران.

### ثانياً: النيل من رموز الوطن، وتشويه صورة قادته وزعمائه:

"ولعل هذا الأثر من أهم الآثار وأشدّها خطراً على حاضر الوطن ومستقبله، حيث تهدف الشائعة إلى هدم الرموز والقداوات، وتشويه صورة الزعماء والقيادات، من خلال الغمز واللمز

١- الإشاعات الكاذبة وكيف حاربها الإسلام، محمد سيد طنطاوي، ص ١.

٢- السيرة النبوية، لابن هشام، (٢/٩٤).

والنيل من عرض هذا القائد أو العالم.. وحينئذٍ تخلو الساحة من القيادات والزعامات السياسية والفكرية والاجتماعية والدينية.. التي يحترمها أبناء الوطن ويثق فيها، ويتخذها نماذج يُتذى بها؛ فيسهل الطريق أمام الأعداء للغزو الفكري والثقافي، وتتاح لهم الفرصة لنيل مآربهم، وتحقيق أهدافهم، وتمير أفكارهم<sup>(١)</sup>.

وكما يقول (زاهدان): "ولعل هذا ما يفسر لنا سر استهداف المنافقين في شائعة الإفك، لرأس الأمة وزعيمها وقائدها وقودتها.. رسول الله (ﷺ) ولأحب الناس إليه وخليفته الأول، وهو الصديق (ﷺ) وكذلك ابنته أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها)، التي هي أحب نسائه إليه (ﷺ)"<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: تفريق الكلمة وشق الصفوف والنيل من وحدة الوطن:

ولعل من أخطر الآثار وأعظم الأضرار التي يمكن أن تخلفها الشائعات، وتلحقها بالوطن وأبنائه، تلك القدرة العجيبة على تفتيت الصف الواحد، والرأي الواحد وتوزيعه وبعثرته: "ذلك أن اجتماع أبناء الوطن وتوحيد كلمتهم ونبذ الفرقة فيما بينهم، أصل عظيم من أصول الدين، ومقصد أصيل من مقاصد الشريعة، وغاية من أهم غاياتها، وقد دعت إليه النصوص الصريحة الصحيحة من قرآن وسنة.."<sup>(٣)</sup>.

ولعل من أبرز الأمثلة على خطورة الشائعات وأثرها في بث الفرقة بين أبناء الوطن، ما جاء في حديث الإفك، عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: ".. فقام رسول الله (ﷺ) من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي، وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يعذري من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي. قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله، أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذ، وهو سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال

١- الشائعات وأثرها على الروح المعنوية للجند، فهد سعيد الحربي، ص ٨٢.

٢- الإشاعة وأضرارها على المجتمع، قطب الدين أحمد زاهدان، وعبد الكريم على، ص ٢٤.

٣- الاجتماع ونبذ الفرقة، د. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، ص ٥.

لِسَعْدٍ: كَذَبَتْ لَعْمُرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدٍ بِنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعْمُرُ اللَّهِ لَنَقُتْلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ. قَالَتْ: فَتَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْحَزْرَجُ، حَتَّى هُمَا أَنْ يَفْتَسِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ..<sup>(١)</sup>.

فإذا وقع هذا التشاحن والشجار بين خير القرون، وعلى مرأى ومسمع من خير البرية، وسيد البشرية، وبين يديه ﷺ.. وفي خير وأطهر بقاع الأرض، في مسجده ﷺ وهو واقف على منبره الشريف..!! فكيف بنا نحن، وماذا يمكن للشائعات أن تصنع من الفتن والمحن والأزمات؟!

#### رابعاً: تهديد أمن الوطن، وزعزعة هدوئه واستقراره:

"والأمن في مفهومه العام هو: الوصول إلى أعلى درجات الاطمئنان، والشعور بالسلام، واختفاء مشاعر الخوف لدى أفراد المجتمع؛ مما يحفزهم على العمل، ويوفر لهم مناخ الاستقرار اللازم لاستمرار عملية التنمية والتقدم والإنتاج، وهو أحد المطالب الحيوية التي لا يستغني عنها أحد، بل هو مطلب الشعوب كافة، بلا استثناء، ولأهميته دعا به نبي الله إبراهيم ﷺ قائلاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴿١٢٦﴾﴾<sup>(٢)</sup>. وذكره الحق ﷻ في معرض الحديث عن إنعامه على قريش، قائلاً: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾<sup>(٣)</sup>.

بل وعدّه المصطفى ﷺ ثالث ثلاثة من الأسباب التي إذا توافرت للإنسان كان كمن حيزت له الدنيا بخذافيرها، فعن سلمة بن عبّيد الله بن محصن الخطمي، عن أبيه، وكانت له صُحبة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافٍ فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوْتٌ يَوْمِهِ فَكَأَنَّما

١- متفق عليه، واللفظ للبخاري في الصحيح، كتاب الشهادات، باب تَعْدِيلِ النَّسَاءِ بَعْضُهُنَّ بَعْضًا، حديث رقم (٢٦٦١) وأورده مطولاً، مع بعض الزيادات في كتاب المغازي، باب حديث الإفك، حديث رقم (٤١٤١) وأخرجه مسلم في الصحيح، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، حديث رقم (٢٧٧٠).

٢- سورة: البقرة، آية [١٢٦].

٣- سورة: قريش، آية [٤].

حيزت له الدُّنْيَا" (١).

### خامسًا: التلاعب بعقول أبناء الوطن، وإرباك وبلبلة الرأي العام:

ذلك أن للشائعات قدرة عجيبة على التلاعب بعقول المواطنين وتشتيت آرائهم، وأنهم أمامها بين مصدق ومكذب، ومتردد ومشوش الذهن.. حيث تتناقض الأخبار وتتضارب الأنباء، فهذا يثبت وذاك ينفي، وهذا يثبت وذاك يشكك، وآخر يجزم ويؤكد.

"وقد تلعب الشائعة دورًا مهمًا وخطيرًا في جذب انتباه الناس نحو اتجاه ديني، أو تيار فكري، أو سياسي.. وذلك لما لها من قدرة خطيرة في التأثير على الرأي العام، وتسييره إلى الوجهة المرجوة كما أنها قد تجذب العامة إلى فكر معين؛ لتشويه سمعة حاكم أو قائد أو عالم معروف أو جيش أو مؤسسة.." (٢).

### سادسًا: تهديد السلم المدني، وإثارة الفتن والاضطرابات، وصناعة الأزمات:

"حيث تُعد الشائعات من أهم أسباب وذرائع إثارة الفتن وشق الصفوف وتفريق الكلمة، وإحداث الفرقة والانقسام بين أبناء الوطن الواحد، مما يورق أمن المجتمعات على صعيد الأفراد والجماعات والحكومات، ويفتح الباب على مصراعيه لوقوع العديد من الأزمات، ومن هنا وجب

١- الأمن الفكري وعلاقة الجماعات المتطرفة بوسائل التواصل الاجتماعي، سعود حسن العجمي، (٥٠٣/١)، والحديث حسن بمجموع طرقه وشواهده، وقد أخرجته: الترمذي، السنن، أبواب الزهد (٥٧٤/٤) حديث رقم (٢٣٤٦) من طريق عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي شَمَيْلَةَ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنِ النَّخْطِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، مَرْفُوعًا، وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ مَرْوَانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ" وقد أخرجته من هذه الطريق البخاري في "الأدب المفرد" (٣٠٠) والتاريخ الكبير (١١٨١) وابن ماجه، السنن، أبواب الزهد، باب القناعة (٤١٤١) والحميدي في "مسنده" رقم (٤٤٣)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٩٨٧٨) وقال: "هَذَا أَصْحَحُ مَا رَوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ..". وفي الباب عن ابن عمر، أخرجته الطبراني في "الأوسط" (١٨٢٨)، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف [الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (٢١٣١)]، وفي الباب عن أبي الدرداء وابن حبان، في الصحيح، كتاب الرقائق، باب الفقر والزهد والقناعة - ذكر الإخبار عن طيب الله جل وعلا عيشه في هذه الدنيا (٦٧١) وأبي نعيم في "الحلية" (٢٤٩/٥).

٢- حكم الشائعات في الشريعة الإسلامية، نجلاء عبده محمد العدلي، ص ٣.



على القادة وأولي الأمر أن يديروا تلك الأزمات الناشئة عن الشائعات بحكمة وروية، ولا يحملنهم الغضب على اتخاذ القرارات التي تفتك بأمن المجتمع، وتعصف بهدوئه واستقراره، وتحقق للماكرين أهدافهم وغاياتهم، ولنا في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة؛ وقد سبقت الإشارة، إلى ما وقع من الفرقة والاختلاف وتفرق الكلمة، عندما استعذر النبي (ﷺ) الأوس والخزرج من عبد الله بن أبي بن سلول<sup>(١)</sup>.. حتى كاد الحيان يقتتلان عصبية وحمية، ورسول قائم بينهم وواقف على منبره الشريف، فما كان منه (ﷺ) إلا أن أخذ يخفضهم ويرجئ أمر ابن أبي بن سلول درءًا للفتنة، ونزعًا لفتيل الأزمة، مستعينًا بالله (ﷻ).. " (٢).

### سابعًا: إشاعة الانحلال الخلقي، والانحراف السلوكي بين أبناء الوطن

وقد تبّه ابنُ عاشور إلى هذا الأثر الخطير من آثار الشائعات وما تلحقه من أضرار سلوكية وأخلاقية بالوطن والمواطنين، وهو في معرض تفسيره لتلك الآيات التي تقص علينا خبر شائعة الإفك، فيقول شارحًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

"ولشيوع أخبار الفواحش بين المؤمنين بالصدق أو بالكذب مفسدة أخلاقية، فإن مما يزع الناس عن المفاصد تهييمهم وقوعها وتجهيمهم وكرهتهم سوء سمعتها، وذلك مما يصرف تفكيرهم عن تذكرها بله الإقدام عليها رويدا رويدا حتى تنسى وتنمحي صورها من النفوس، فإذا انتشر بين الأمة الحديث بوقوع شيء من الفواحش تذكرتها الخواطر وخف وقع خبرها على الأسماع، فدبّ بذلك إلى النفوس التهاون بوقوعها وخفة وقعها على الأسماع، فلا تلبث النفوس الخبيثة أن تقدم على افترافها، وبمقدار تكرر وقوعها وتكرر الحديث عنها تصير متداولة، هذا إلى ما في إشاعة الفاحشة من إلحاق الأذى والضرر بالناس ضررًا متفاوت المقدار على تفاوت الأخبار في الصدق والكذب، ولهذا ذيل هذا الأدب الجليل بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي يعلم ما في ذلك من المفاصد فيعظكم لتجتنبوا وأنتم لا تعلمون، فتحسبون التحدث بذلك لا يترتب عليه ضرر وهذا

١- راجع الأثر الثالث من آثار الشائعات ص ٩.

٢- الشائعات وأثرها في تهديد السلم المدني، مارية بسام محمد عبابنة، ص ٨٥.

٣- سورة: النور، آية [١٩].

كقوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (١٥) (١).

## المبحث الثاني: دور السنة النبوية في مواجهة الشائعات والتصدي لها

### توطئة:

إن حماية الوطن وصيانته والحفاظ عليه من أخطار وآثار ومضار الشائعات ليس مسؤولية القيادة السياسية وأولو الأمر فحسب، أو هي مسؤولية العلماء والفقهاء وحدهم، كما أنها - وبطبيعة الحال - ليست مسؤولية عامة الشعب.. لكنها مسؤولية مشتركة تتوزع فيها الأدوار والأعباء والمهام، وتتكاتف فيها الجهود؛ ولذلك حرص المهدي النبوي الشريف في التعامل مع الشائعات على تقسيم الأدوار وتوزيع المسؤوليات.

ولا عجب في ذلك فالوطن وحمانيته والدفاع عنه والحفاظ عليه من كل ما يحيط به من أخطار، وما يهدده من شائعات وأراجيف وغلو وتطرف وأميه وجهل وعصيان وتمرد وخيانة وغيرها.. أشبه بالسفينة التي نركبها جميعاً على اختلاف أماكننا ودرجاتنا وأحوالنا، وحماية هذه السفينة من الأمواج العاتية، مسؤولية مشتركة، فعن التُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ (رضي الله عنه)، عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَأَقِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَفُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ جَنَّوْا وَجُحُوا جَمِيعًا.. " (٢).

وانطلاقاً من هذه الرؤية النبوية لسفينة الوطن، كان المهدي النبوي في مواجهة الشائعات التي تعصف بهذه السفينة، وتهدد أمنها وسلامتها يقوم على محورين:

- المحور الأول: الذين هم في أعلاها (وهم أولي الأمر من القادة والعلماء).
- المحور الثاني: الذين هم في أسفلها (وهم عامة الناس وجمهور المواطنين).

١- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور (١٨٥/١٨)، والآية من سورة: النور، رقم [١٥].

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، حديث رقم (٢٤٩٣).

وسوف أحاول دراسة كل محور من هذين المحورين في مطلب مستقل، مبيناً فيه الدور المنوط بكل فئة من هذه الفئات في مواجهة الشائعات والتصدي لها.

### المطلب الأول: دور أولي الأمر من الزعماء والقادة والعلماء في مواجهة الشائعات

#### أولاً: مواجهتها بالحقائق الثابتة، والأدلة القاطعة:

إن من أفضل الوسائل لدحض الإشاعات الكاذبة: مواجهتها بالحقائق الثابتة التي تدمغها وتزهقها، وبالمنطق الحكيم الذي يفضح المتفوهين بها والناشرين لها، ومثال ذلك ما حدث في بداية البعثة النبوية حيث كثر إيذاء المشركين لمن أسلم مع رسول الله (ﷺ) فلم يجد لهم الرسول (ﷺ) مخرجاً إلا بالهجرة إلى الحبشة، فهاجروا، وبعد وصولهم إلى الحبشة بفترة من الزمن عادوا إلى مكة؛ لأنهم سمعوا أن المشركين قد هادنوا المسلمين وتركوهم أحراراً، لكنهم وجدوا الأمر خلاف ذلك، فأمرهم الرسول (ﷺ) بمعاودة الهجرة إلى الحبشة، وكانت الهجرة الثانية أشق من الأولى؛ لأن كفار مكة قد تنبهوا للأمر وقرروا إفشالها، لكن استطاع المسلمون الإفلات من حصار المشركين ووصلوا إلى الحبشة، فجز عليهم أن يجد من هاجر من المسلمين مأمناً لهم في بلاد الحبشة، فأرسلوا وفداً منهم يحمل الهدايا لملك الحبشة، وزودوه بالإشاعات الكاذبة عن المسلمين، وكان مما قاله (عمرو بن العاص) قبل أن يسلم: "أيها الملك إن ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، ونرجو أن تطردهم من بلادك.." (١).

لكن النجاشي - وكان معروفاً بالعدل والحكمة - رأى أن من العدل والإنصاف تمحيص القضية وسماع جميع الأطراف، فأرسل إلى أصحاب محمد (ﷺ) فحضرُوا وسألهم وكان المتحدث عنهم (جعفر بن أبي طالب) (رضي الله عنه) قال: "فَأَنْتَهَيْتَنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ وَهُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِهِ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَنِ بَيْتِهِ، وَعُمَارَةُ عَنِ يَسَارِهِ، وَالْقَسِيسِيُّونَ مِنَ الرُّهْبَانِ جُلُوسٌ سِمَاطِينَ<sup>(٢)</sup>. فَقَالَ لَهُ عَمْرُو وَعُمَارَةُ: إِنَّهُمْ لَا يَسْجُدُونَ لَكَ، فَلَمَّا أَنْتَهَيْتَنَا إِلَيْهِ زَرْنَا مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْقَسِيسِيِّينَ وَالرُّهْبَانِ: اسْجُدُوا لِلْمَلِكِ، فَقَالَ جَعْفَرٌ: لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ

١- البداية والنهاية، لابن كثير، (٧٠/٣).

٢- سِمَاطِينَ: أي صفين، وسِمَاطُ القوم: صفُّهم. ويُقال: قامَ القومُ حوله سِمَاطِينَ أي صفين. ينظر: لسان العرب، لابن منظور (٣٢٥/٧).

بَعَثَ فِينَا رَسُولَهُ، وَهُوَ الرَّسُولُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ اسْمُهُ أَحْمَدُ، فَأَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَنُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَنُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَأَمَرْنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ: فَأَعْجَبَ النَّاسَ قَوْلُهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَمَرُوهُ، قَالَ لَهُ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْمَلِكَ، إِنَّهُمْ يُخَالِفُونَكَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَقَالَ النَّجَاشِيُّ لَجَعْفَرٍ: مَا يَقُولُ صَاحِبُكَ فِي ابْنِ مَرْيَمَ؟ قَالَ: يَقُولُ فِيهِ قَوْلَ اللَّهِ: هُوَ رُوحُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ، أَخْرَجَهُ مِنَ الْبُتُولِ الْعُدْرَاءِ، لَمْ يَقْرُبَهَا بَشَرٌ، قَالَ: فَتَنَاوَلَ النَّجَاشِيُّ عُدْوًا مِنَ الْأَرْضِ، فَرَفَعَهُ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْقَسِيِّسِينَ وَالرُّهْبَانَ، مَا يَزِيدُ هَؤُلَاءِ عَلَى مَا تَقُولُونَ فِي ابْنِ مَرْيَمَ مَا يَزِينُ هَذِهِ، مَرْجَبًا بِكُمْ، وَمِنْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَلَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ، لَأَتَيْتُهُ حَتَّى أَحْمِلَ نَعْلَيْهِ، امْكُثُوا فِي أَرْضِي مَا شِئْتُمْ، وَأَمْرٌ لَهُمْ بِطَعَامٍ وَكِسْوَةٍ، وَقَالَ: رُدُّوا عَلَيَّ هَذَيْنِ هَدَيْتَهُمْ" (١).

ولنا أن تتأمل كيف أدت مواجهة الشائعة بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، إلى القضاء عليها وتبديدها، وكيف أدت إلى فتح جديد ونصرٍ عظيم، وقوةٍ وعزةٍ ومنعةٍ للمستضعفين.. وخيبةٍ وخسارةٍ وخذلانٍ للمرجفين.

### ثانيًا: منع من يثير الشائعات عن قوة العدو (المُخَذَّل) من البقاء بين الجنود:

من المعلوم أن الشائعات تكثر في زمن الحروب والنزاعات المسلحة، حيث يغيب الأمن، ويسود الخوف والقلق والاضطراب فيكون الجو مهيبًا، والتربة خصبة لنمو الشائعات وذيوعتها وانتشارها، ولذا فإن من التدابير الوقائية التي ينبغي على ولي الأمر اتخاذها دون تردد؛ منع من يثير الشائعات عن قوة العدو (المُخَذَّل) من البقاء بين الجنود؛ بل إن من واجبات الإمام أن يمنع

١- رجاله ثقات، أخرجه الحاكم، في المستدرک، کتاب التفسیر - تفسیر سورة النساء - قصة إسلام النجاشي وغلبة وفد المسلمين على الكافرين عنده، حديث رقم (٣٢٠٨) وقال: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ" وقال الذهبي: "على شرط البخاري ومسلم". وقد أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، رقم (٣٦٦٤٠) مطولاً، وعبد بن حميد، في المسند رقم: (٥٥٠) جميعهم من طريق: عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، أَنبَأَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى.. وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١/ ١١٤) من طريق عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ رَجَاءٍ، ثَنَا إِسْرَائِيلُ.. وأخرجه أبو داود، في السنن، كتاب الجنائز، باب في الصلاة على المسلم يموت في بلاد الشرك، رقم (٣٢٠٥) من طريق: إسماعيل بن جعفر عن إسرائيل.. بهذا الإسناد.

المخذّل من الخروج في الجيش يقول صاحب ( الفروع ): " وَيَلْزَمُ الْإِمَامَ، وَقِيلَ يُسْتَحَبُّ، تَعَاهُدُ خَيْلٍ وَرِجَالٍ، فَيَمْنَعُ مَا لَا يَصْلُحُ لِحَرْبٍ كَمُخَذَّلٍ يَفْنَدُ عَنِ الْعَزْوِ، وَمُرْجَفٍ يَحْدُثُ بِقُوَّةِ الْكُفَّارِ وَضَعْفِنَا، وَمُكَاتِبٍ بِأَخْبَارِنَا، وَرَامٍ بَيْنِنَا، وَمَعْرُوفٍ بِنِفَاقٍ وَزَنْدَقَةٍ.. " (١). وهذا إجراء وقائي واستباقي لمواجهة الشائعة.

ولعل الحكمة في هذا الإجراء الوقائي: " أن مَنْ يقومون بترويج الشائعات هم في حقيقة الأمر جماعة من المعسكر الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا خطورة الإشاعة في خلخلة المعسكر، وفي النتائج التي تترتب عليها، وقد تكون قاصمة؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث، ولم يدركوا جدية الموقف وحساسية الظرف، وإن كانت كلمة عابرة أو فلتة لسان، فقد تجر من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته، ووطنه، ما لا يخطر له ببال، وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال، أو لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر، فلا يعينهم ما يقع له من جراء أخذ كل شائعة، والجري بما هنا وهناك، وإذاعتها حين يتلقاها لسان عن لسان.. " (٢).

### ثالثاً: رفع الروح المعنوية، وبث الأمل والتفاؤل:

ذلك أن من سمات الأمم العاقلة القوية، أن ترى أبناءها كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضاً، وأن أفرادها يتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وأن حبههم لدينهم وأوطانهم يجعلهم ينبذون كل إشاعة كاذبة من شأنها إن صدقها الناس أن يلحقهم الأذى والضرر.

والقائد الحكيم صاحب البصيرة النافذة والعزيمة القوية والهمة العالية والشجاعة الفائقة، هو الذي يستطيع - لا سيما في أوقات المحن والأزمات - أن يجمع شمل جنوده، وأن يقوي الروح المعنوية في أبناء وطنه، وأن يجعل الجميع ينبذون الإشاعات الكاذبة، ويحتقرون الأراجيف الباطلة، ويلقون خلف ظهورهم كل ما يؤثر في أخوتهم واتحادهم وتماسكهم.

والذي يقرأ سيرة المصطفى (ﷺ) يجده يضرب أروع الأمثلة بقوله وفعله في تقوية الروح المعنوية في نفوس أتباعه، وفي شحذ هممهم من أجل التغلب على الأزمات ومواجهة المحن والشدائد، وكذا

١- الفروع، لابن مفلح، (١٩٢/٦).

٢- حكم الشائعات في الشريعة الإسلامية، نجلاء عبده محمد العدلي، ص ٢١.

في وقايتهم من التأثر بما يشيعه أعداؤهم عنهم من أقوال باطلة.

ومن ذلك ما فعله الرسول (ﷺ) يوم الأحزاب، حين عرضت لهم صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول، يقول البراء بن عازب (رضي الله عنه): "وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَّوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ فَضْرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهُ إِلَيَّ لِأُبْصِرَ قُصُورَهَا الْحُمْرِ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ وَضْرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهُ إِلَيَّ لِأُبْصِرَ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قُصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ وَضْرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَفَلَقَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ"<sup>(١)</sup>.

رابعاً: استثمار طاقات الشباب و شغل أوقات فراغهم بالعمل الجاد النافع لهم ولأوطانهم:

فقد خلق الله الإنسان للعبادة والعمل، ومن لم يشغل نفسه بما يعود عليه وعلى مجتمعه ووطنه بالنفع؛ يعيش في فراغ قاتل ويكن تربة خصبة لنقل وتداول الشائعات، فالعقول الفارغة يسهل ملؤها بالتوافه والأكاذيب، ويزداد الأمر سوءاً إن اقترن هذا الفراغ بالشباب، والغنى، وذلك لما في مرحلة الشباب من طاقة كبيرة، إن لم تستغل وتستثمر بشكل جيد في العمل والإنتاج؛ فإنها تكون وبالاً على الإنسان والأوطان، فاستغناء الشاب عن العمل الذي يشغله، مع توافر المال بين يديه، يتيح له فرصة كبيرة ( للقليل والقال ) لاسيما إن كان ممن يستخدمون وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، والتي أصبحت من أهم وأخطر وسائل نقل وتداول الشائعات، وقد أخبر المصطفى (ﷺ) عن غبن كثير من الناس لهاتين نعمتين، وسوء استعمالهما، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ

١- إسناده حسن، أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم ( ١٨٦٩٤ ) واللفظ له، والنسائي في "الكبرى، كتاب السير، حفر الخندق (٨٨٠٧)، وأبو يعلى (١٦٨٥) من طرق عن عوف، عن أبي عبد الله ميمون، عن البراء.. وله أصل في الصحيح من حديث جابر عند البخاري، في الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، حديث رقم: (٤١٠١)، وفيه: " فأخذ النبي (ﷺ) المعول، فضرب في الكدبية، فعاد كئيباً أهيل أو أهيم.. " وليس فيه الزيادة التي في رواية أحمد، وحسن الحافظ ابن حجر إسناده في الفتح [فتح الباري (٤٥٧/٧)].

﴿وَلَا تَقْرَأُ الْكِتَابَ إِلَّا نُورًا فَتُبِينُ﴾ (١).

خامساً: تنمية منهج التقويم والنقد والمراجعة لدى أبناء الوطن:

"النقد والتقويم والمراجعة من القيم الإيجابية في المنظور القيمي الإسلامي، وقد حثَّ القرآن الكريم على تفعيل تلك القيمة، فقال (ﷺ): ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢).

ولعل من الصور والتطبيقات العملية لهذا المنهج الإلهي في مواجهة الشائعات، ما رواه الطبري في تفسيره، عن أبي أيوب الأنصاري وزوجه - (ﷺ) - وقد خاض الناس في حديث الإفك أن: "أبا أيوب خالد بن زيد، قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك" (٣).

سادساً: الشفافية والوضوح، وفتح قنوات الحوار والتواصل:

إن الشفافية والوضوح وتقديم التفسيرات للقرارات السياسية، وفتح قنوات الحوار والتواصل، والإبقاء عليها بين القادة وصناع القرار وبين أبناء الوطن تعد أحد أهم الآليات الكفيلة بسد ذرائع الفوضى والهرج، وقطع الطريق أمام مروجي الشائعات لبث السموم والأراجيف..

ومن الأمثلة العملية على هذه الآلية وهذه السياسة النبوية في مواجهة الشائعات، والقضاء عليها في مهدها؛ ما حدث في أزمة توزيع الغنائم، في أعقاب غزوة حنين؛ فبعد انتصار المسلمين في هذه الغزوة، نال المسلمون غنائم وفيرة، تطلعت لها مطامع الناس، وتاقت إليها نفوس العباد "وأعطى رسول الله (ﷺ) المؤلفة قلوبهم، وكانوا أشرفاً من أشرف الناس، يتألفهم ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حكيم بن

١- البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، حديث رقم (٦٤١٢).

٢- سورة: الزمر، آية [١٨].

٣- جامع البيان، للطبري، (١٢٩/١٢٩).

حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن كلدة أخوا بني عبد الدار مائة بعير<sup>(١)</sup>.

فلما أعطى الرسول (ﷺ) هؤلاء الأشراف تلك العطايا ولم يجعل للأنصار شيء، وجد الأنصار شيئاً في أنفسهم تجاه رسول الله (ﷺ)، فعن أبي سعيد الخدري قال: "لَمَّا أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مَا أُعْطِيَ مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) قَوْمَهُ. فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيُّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفِيءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أَنَا؟ قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ الْأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَزَدَهُمْ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لَهُ أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَاتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةَ بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ وَجِدَّةً وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلْفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرٌ وَأَفْضَلُ. قَالَ: أَلَا بُجَيْبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: وَمَاذَا بُجَيْبِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصَدَّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذِّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوْيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَاسْتَيْنَاكَ، أَوْجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفَتْ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَحْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحِطًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) وَتَفَرَّقُوا"<sup>(٢)</sup>.

١- السيرة النبوية، لابن هشام (٤٩٢/٢).

٢- إسناده حسن، أخرجه أحمد في المسند، (٢٥٣/١٨) رقم (١١٧٣٠) وابن أبي شيبة، في المصنف، (٤١٨/٧) رقم (٣٦٩٩٧) وأبو يعلى في المسند (٥٠٩/٢) رقم (١٣٥٨) وأورده الهيثمي، في مجمع



وهنا تظهر أهمية فتح قنوات الاتصال والحوار والتواصل، وضرورة الإبقاء عليها بين القادة والزعماء، وبين أبناء الوطن فسياسة الباب المفتوح، والمفاتيحة والمعاينة من المصادر المهمة للمهمة للتزويد بالمعلومات، والمتابعة الدقيقة لتطورات الأحداث، ومن ثم التدخل متى دعت الحاجة والضرورة إلى ذلك.

" كما لا بد من ملاحظة كيف واجه رسول الله (ﷺ) اعتراض الأنصار، وحاوهم ولم يرض بسكوتهم أول مرة، فالنفوس تهاب الزعيم والقائد، ولهذا يقولون بأدب (بَلِ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ اَمْنٌ وَّافْضَلُ) وكان بإمكانه (ﷺ) أن يستند إلى سكوتهم المشوب بالخجل منه (ﷺ) في تبرير موقفه من توزيع الغنائم، إلا أنه (ﷺ) فضّل أن يحاورهم، ويقر لهم بالفضل، ويعلمهم بالهدف من وراء هذه القسمة، حتى يقضي على هذه الشائعة في مهدها، ولينزح بذلك فتيل الأزمة من نفوسهم، ويكون سكوتهم عن رضا وارتياح، لا عن خوف وخجل.. " (١).

### المطلب الثاني: دور أفراد الشعب وأبناء الوطن في مواجهة الشائعات

قبل الحديث عن الدور المنوط بأفراد المجتمع في مواجهة الشائعات، لا بد من تقرير حقيقة، وهي أن الشائعة: " مرض وبائي خطير، فما يلبث المرجف أن يطلق إشاعته، حتى تراها قد ذاعت وشاعت وانتشرت كالنار في الهشيم، ولا يتسنى لها ذلك لولا وجود صنفين من الناس، أولهما: من وقع في الجهل فلم يتنبّت ولم يتروّ، وقد يكون في هذا الصنف من هو من أهل الصلاح والنوايا الحسنة، ولكن الخبر يسترعي اهتمامه فيأخذ في نشره والتحدث به والسؤال عنه، والثاني: هم المنافقون والحاقدون، الذين تقع منهم الشائعة موقع الموافقة، والقبول والسرور لنيل مآربهم، وتحقيق مرادهم، من إلحاق الأذى بمن لا يرتضون.. " (٢).

الزوائد ومنبع الفوائد، (٣٠/١٠) رقم (١٦٤٧٧) وقال: " رَوَاهَا أَحْمَدُ كُلَّهَا، وَأَبُو يَعْلَى بِالرَّوَايَةِ الَّتِي قَالَ فِيهَا: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لِأَصْحَابِهِ.. وَرِجَالُ الرَّوَايَةِ الْأُولَى لِأَحْمَدَ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، وَقَدْ صَرَّحَ بِالسَّمَاعِ.. " وتصريح محمد بن إسحاق، بالتحديث هنا، ينفي عنه شبهة التدليس، والله أعلم.

١- إدارة الأزمة، عبد الله الكيلاني، ص ١٣٤.

٢- الشائعات وأثرها في تهديد السلم المدني..، مارية بسلام محمد عبابنة، ص ٦١.

فنحن إذاً أمام صنفين من الناس في التعامل مع الشائعة، صنف: أراد بيثها الفتنة، وآخر وقع فيها بسبب العجلة وعدم التروي والتثبت؛ اغتاراً بما أُشيع، وبالظروف والملابسات التي رافقت الشائعة..

ولعل هذا ما يفسر لنا سبب وقوع بعض مَنْ يُتَيَّمَنُ فيهم الخير والصلاح من خير القرون، من أصحاب النبي (ﷺ) في الفتنة والخوض في شائعة الإفك، كما أشارت إلى ذلك رواية أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) قائلة: "أَمَا زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِدِينِهَا، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ فَهَلَكَتْ فِيْمَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَالْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ، هُوَ وَحَمْنَةُ.. " (١).

وقد حفلت السنة النبوية بالعديد من الوصايا القولية، والمواقف العملية، التي تحدد مسؤولية كل من الصنفين السابقين من أبناء الوطن، وتبرز دوره في مواجهة الشائعات، والقضاء عليها، وذلك على النحو التالي:

#### أولاً: تقديم حسن الظن من المسلم بأخيه المسلم عن سماع الشائعة:

وقد وجهنا القرآن الكريم مباشرة إلى هذا السلوك الإيماني قائلاً: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) ولنا فيما فعله الصحابة الكرام - ﷺ - أجمعين - في حادثة الإفك خير شاهد ودليل:

فهذا أسامة بن زيد (رضي الله عنه) حين استشاره رسول الله (ﷺ) في فراق أهله، يجب بلا تردد: "أَهْلَكَ، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا" (٣).

وهذه بريرة حين سأها (رضي الله عنها) عن السيدة عائشة تقول: "وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَعْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ" (٤).

١- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، حديث رقم (٤١٤١).

٢- سورة: النور [١٢].

٣- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، حديث رقم (٤١٤١).

٤- المصدر السابق، نفسه، وبريرة هي: مولاة عائشة (رضي الله عنها) " [ ابن الأثير، أَسَدُ الْغَابَةِ: (٣٧/٧) ].

ويسأل السيدة زينب بنت جحش فتقول: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا"<sup>(١)</sup>.

ويعصد هو (ﷺ) على المنبر فيقول: "مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِيَ.." <sup>(٢)</sup>.

### ثانيًا: وجوب الثبوت من صحة ما يُقال ويُسمع:

وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تحث المسلمين على الثبوت من صحة ما ينطقون به، وما يسمعونه من غيرهم، وما يقرءونه في صحفهم، وما يدور بينهم من أحاديث، ومن الآيات الجامعة في هذا الشأن، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ <sup>(٣)</sup>.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في ( الوليد بن عقبة بن أبي معيط)، فقد روي أن النبي (ﷺ) بعثه مصدقا <sup>(٤)</sup>. إلى بني المصطلق، فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهاجم لإحنة <sup>(٥)</sup> كانت بينه وبينهم، فرجع إلى النبي (ﷺ) فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث نبي الله (ﷺ) خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلا، فبعث عينونه فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكره، فعاد إلى نبي الله (ﷺ) فأخبره، فنزلت هذه الآية، وفي رواية: أن النبي (ﷺ) بعثه إلى بني المصطلق بعد إسلامهم، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم خافهم، فرجع إلى رسول الله (ﷺ) فأخبره أن القوم قد هموا بقتله، ومنعوا صدقاتهم، فهم رسول الله (ﷺ) بغزوهم، فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله (ﷺ) فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنُكرمه، ونؤدي

١- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، حديث رقم (٤١٤١).

٢- المصدر السابق، نفسه.

٣- سورة: الحجرات [٦].

٤- والمُصَدِّقُ: الَّذِي يَأْخُذُ الْحُقُوقَ مِنَ الْإِبْلِ وَالْغَنَمِ [ ابن منظور، لسان العرب، (١٠/١٩٦)].

٥- الإحنة: " الحقد والعداوة والجمع إحن " [ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (١/٢٧)].

إليه ما قبلنا من الصدقة، فاستمر راجعاً، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله (ﷺ) أنا خرجنا لنقاتله، والله ما خرجنا لذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وسمى الوليد فاسقاً أي كاذباً..<sup>(١)</sup>.

يقول الدكتور (محمد سيد طنطاوي) والمعنى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبز من الأخبار، فلا تقبلوه دون تثبت، بل تأكدوا من صحته، والتعبير (بان) المفيدة للشك، للإشعار بأن الغالب في العقلاء اليقظة، ومعرفة مداخل الأمور ومخارجها وما يترتب عليها من نتائج، وأنهم يحكمون عقولهم فيما يسمعون من أنباء، ولا يقيمون وزناً للإشاعات والأراجيف.."<sup>(٢)</sup>.

ولعل فيما سبق ذكره - في العنصر السابق - من تَبَيَّنَ النبي (ﷺ) في شائعة الإفك، وسؤاله (لأسامة بن زيد) واستيثاقه وسؤاله للحارية (بريرة) وللسيدة (زينب بنت جحش) - ﷺ أجمعين - دليل عملي وتطبيقي منه (ﷺ) لمنهج التثبت والاستبيان عند سماع الأخبار والشائعات.

### ثالثاً: رد الأمور إلى مصادرها الأصلية:

فرد الأمور إلى مصادرها الأصلية وذلك بسؤال أهل العلم والخبرة وذوي البصائر المستنيرة دليل على سلامة التفكير وصلاح الحال، وصفة ينبغي للعقلاء أن يتصفوا بها، وهي صفة من صفات الأخيار من الناس، وعلى النقيض من ذلك فإن القول بغير علم، والحكم دون بينة، يُعد من أقبح الصفات التي لا تلتصق إلا بالسفهاء الأشرار، والتي تشكل ذريعة قوية لنشر وترويج الشائعات، التي تهدد أمن الوطن واستقراره، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧). لقد جاءت هذه الآية في سياق الرد على من زعموا أن الأنبياء لا يكونون من البشر، وأشاعوا أن الرسول (ﷺ) لا يصلح أن يكون رسولاً؛ لأنه بشر كسائر البشر، والرسول في زعمهم يجب أن يكون من الملائكة، فرد القرآن عليهم بهذا الرد الدامغ، وأمرهم بسؤال أهل العلم وأصحاب الخبرة والفهم عند اختلاط الأمور عليهم.

١- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٣١١/١٦).

٢- الإشاعات الكاذبة وكيف حاربها الإسلام، د. محمد سيد طنطاوي، ص ١٩٠.

٣- سورة: الأنبياء [٧].

فقوله تعالى: ﴿ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣).<sup>(١)</sup> توبيخ لهؤلاء الغافلين، لأنهم تكلموا بهذا الكلام دون تعقل، أو تدبر، أي: ما دامت قد بلغت بكم الغفلة أن تستبعدوا أن يكون الرسل من البشر، فاسألوا أهل العلم لكي يوضحوا لكم بالمنطق والبرهان أن الرسل السابقين لم يكونوا إلا رجالاً، فإن شفاء الجهل سؤال أهل الخبرة في كل علم وفن، وإن السفهاء وحدهم هم الذين يفتنون بغير علم، ثم يشيعون ذلك بين الناس عن سوء نية وقبح طوية..<sup>(٢)</sup>

ومن الجدير بالذكر: "أن أمتنا وأوطاننا تعاني اليوم حالة من ( الغثائية الثقافية ) تملأ الفضاء والأجواء، ويسيطر عليها الإعلام بكل وسائله وأدواته، ويسهم الكثير منه في صناعتها وترويجها، من خلال ما يبثه من حوارات ومناقشات ومقابلات وتحليلات، وإن شئت فقل: (تضليلات).. هذا الواقع الغوغائي وهذه الحالة الغثائية، غالباً ما تقتصر على الإذاعة والإشاعة، والدوران ضمن الحلقات نفسها، وهي الحالة التي أشار إليها القرآن الكريم قائلاً: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ (٨٣).<sup>(٣)</sup>

هذا الواقع الغوغائي، وهذه الحالة الغثائية من الإشاعة والإذاعة، والهيجان، والحماسة، والأخذ والرد، والضجيج والخوض، والتي تشبه إلى حد كبير، آلة تصويرٍ لاقطة، أو شاشة تليفزيونية أمام المشاهدين جميعاً تشد أبصارهم، وتجذب انتباههم، وتستحوذ على اهتمامهم، وتشكل أحاديثهم، وتداولهم الكلامي.. تفتقر إلى الأجدية الصحيحة، التي تحسن قراءتها بشكل صحيح، وتدرك أبعادها وتخلص إلى الحلول من ظواهرها، وتستنبط الأوعية الشرعية الملائمة لواقع الأمة ومسيرتها، وهنا يأتي القرآن الكريم ليقدم الحل الأمثل لهذا الواقع فيقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (٨٣).<sup>(٤)</sup>

والسؤال الذي يطرح نفسه بالحاح: "أين الذين يستنبطونه منا؟! أين الاختصاصات التي تؤهل وتمكن لذلك؟ أين الفقهاء بالمعنى الأعم للفقهاء؟ أين المؤهلون للحوار؟ أين القادرون على

١- سورة: النحل [٤٣].

٢- الإشاعات الكاذبة وكيف حاربها الإسلام، د. محمد سيد طنطاوي، ص ١٩٠.

٣- سورة: النساء، آية [٨٣].

٤- سورة: النساء، آية [٨٣].

الإبصار، المؤهلون لتجاوز الصورة إلى الحقيقة؟! أين من يمتلكون إمكانية قراءة وتحليل ما وراء الصورة؛ للتعرف على الحقيقة ومن ثم وضع الخارطة المناسبة للتعامل معها.. وهذا لا يتحقق إلا برد كل قضية إلى متخصصيها من المؤهلين القادرين على الاجتهاد واستنباط الحلول، ولكل إشكالية متخصصوها"<sup>(١)</sup>.

ومن الجدير بالذكر: "أن الدول المتقدمة قد أدركت أهمية ذلك من وقت مبكر، أدركته بالتجربة والاختبار، والخطأ والصواب، فجعلته عملاً مؤسسياً، فأنشأت مراكز متخصصة للبحوث والدراسات، ورصد ومتابعة الأخبار والمستجدات.. مهمتها قراءة الصورة وتحليل مضمونها، ورصد ظواهر الواقع، وفقه أسبابها وأهدافها، وإصدار الدراسات والأبحاث، التي تشكل دليل عمل وخارطة طريق، للمواطن وصاحب القرار على حد سواء، حتى إنه ليجود في بعض الدول المتقدمة اليوم أكثر من ألفي مركز بحوث ودراسات في شتى التخصصات!

فأين نحن من وحي ربنا وسنة نبينا التي اختصرت لنا الطريق؟! أين نحن من إقامة المراكز المتخصصة، التي تقرأ إذاعات وإشاعات الأمن والخوف، وشتى شؤون الواقع الإنساني، وتستنبط الحلول، وتخلصنا من حالة التبعر والضياح والهيجان والإشاعة والادعاء؟! وكيف لنا أن نصل إلى القناعة بأن لكل شأن من شؤون الحياة متخصصوه، وأهل الخبرة والدراية به"<sup>(٢)</sup>.

#### رابعاً: كتمان الشائعة، وعدم تكرار الحديث عنها:

إن من أنجح الوسائل، وأيسر الأساليب للقضاء على الإشاعات الكاذبة والأراجيف الباطلة، التي تكثر في أوقات المحن والأزمات والاضطرابات: هو كتمانها وعدم نقلها من شخص لآخر، أو من جماعة لأخرى، أو من مكان لآخر، لأن كتمانها يُميتها، ويدل على احتقارها، وعلى الاستخفاف بها، ومتى حدث ذلك في بلد من البلدان؛ ساد فيه الأمن والأمان، والهدوء والاطمئنان، ولقد كان من الآداب القرآنية السامية، والتوجيهات الحكيمة التي أمر الله (ﷺ) عباده المؤمنين بالتزامها، أنهم إذا سمعوا إشاعة خبيثة أشاعها المنافقون، ومن في قلوبهم مرض، فإن عليهم كتمانها وعدم نقلها وتداولها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا

١- منهج النبوة وإشكالية النهوض، عمر عبيد حسنة، ص ١٤٩.

٢- المصدر السابق، ص ١٥٠.

## سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾<sup>(١)</sup>.

وقد وردت هذه الآيات الكريمة، تعقيماً على ما أشاعه المنافقون من تهم كاذبة وأراجيف باطلة، عن السيدة عائشة رضي الله عنها، مما تسبب في إحداث أزمة خطيرة في بيت النبوة كادت أن تتسبب في تدمير أشرف وأطهر البيوت على ظهر الأرض، لولا أن أظهر الله ﷻ براءتها من فوق سبع سماوات.

### خامساً: الحذر من تداول وترديد كل ما يُقال ويُسمع:

فَعَنْ أَبِي قَلَابَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَوْ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ لِأَبِي مَسْعُودٍ مَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِي: زَعَمُوا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: بِئْسَ مَطِيئَةُ الرَّجُلِ زَعْمُوا<sup>(٢)</sup>. وقال ابن حجر: "الأصل في زعم أنها تُقال في الأمر الذي لا يوقف على حقيقته"<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن بطال: "معنى حديث أبي مسعود أن من أكثر من الحديث بما لا يتحقق صحته، لم يؤمن عليه الكذب"<sup>(٤)</sup>. وقال البغوي في شرح السنة: "إنما ذم هذه اللفظة؛ لأنها تستعمل غالباً في حديث لا سند له ولا ثبت فيه، إنما هو شيء يحكى عن الألسن، فشبّه النبي ﷺ ما يقدمه الرجل أمام كلامه، ليتوصل به إلى حاجته من قولهم: (زَعَمُوا) بالمطية التي يتوصل بها الرجل إلى مقصده الذي يؤمه، فأمر النبي ﷺ بالثبوت فيما يحكيه، والاحتياط فيما يرويه، فلا يروي حديثاً

١- سورة: النور [١٦].

٢- إسناده صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين، أخرجه أبو داود، في السنن، كتاب الأدب، باب في قول الرجل: زَعَمُوا، حديث رقم (٤٩٧٢) وابن المبارك في "الزهد" (١٢٧/١) رقم (٣٧٧) والبخاري في "الأدب المفرد" رقم (٧٦٢) والطحاوي في "المشکل" رقم (١٨٦) من طرق عن الأوزاعي به.. إلا أنهم قالوا: "عن أبي قلابة قال: قال أبو مسعود لأبي عبد الله، أو قال أبو عبد الله لأبي مسعود: ما سمعت.. إلخ.. وقد صرح أبو قلابة بالتحديث في رواية الوليد ابن مسلم، وبذلك قد أمنا تدليسه؛ لأنه يدلّس تدليس التسوية، ولا بد من التصريح بالسماع في كل طبقة من طبقات الإسناد قال: أنبأنا الأوزاعي أنبأنا يحيى بن أبي كثير أنبأنا أبو قلابة أنبأنا أبو عبد الله مرفوعاً به، والتي أخرجه الطحاوي، في المشکل (١٨٦) وقال أبو داود: "أبو عبد الله هذا حذيفة".

٣- فتح الباري، لابن حجر، (٥٥١/١٠).

٤- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، (٣٣٠/٩).

حتى يكون مروياً عن ثقة..<sup>(١)</sup>

### سادساً: البعد عن (القييل والقال) وعدم الإكثار من الكلام دون داع:

يقول الأستاذ (فتح الله كولن) في تعقيبه على حديث المغيرة بن شعبة: سَمِعْتُ النَّبِيَّ (ﷺ) يَقُولُ: " .. إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ"<sup>(٢)</sup>.

"رمز إلى الشائعات هنا ب ( قيل وقال ) وهو الكلام الذي لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة، وهو الكلام التافه غير الضروري.. ونشر الشائعات مرض اجتماعي يختلف في شدته باختلاف المستوى الاجتماعي للناشرين، وباختلاف واسطة الشائعة - التي قد تكون جريدة أو مجلة أو إذاعة أو تليفزيوناً - ومدى وسعة دائرة انتشارها، وهذا مرض اجتماعي يسري في المجتمعات التي تعطلت فيها مواهب الأفراد، وتسطحت فيها مشاعر الجماهير وضاعت آفاق تفكيرهم.."<sup>(٣)</sup>.

### سابعاً: الحرص على القول النافع أو التزام الصمت:

"إن كل الآثام والشُرور القاتلة التي يكون الفم مصدرها، والتي حرمها الإسلام، تنمو وتنتشر من خلال هذا الطريق وهذه الذريعة، وهي ( القييل والقال ) ولهذا نجد الهدي النبوي المبارك في هذا الشأن يقدم لنا وصية جليلة، وآلية في غاية التأثير للحد من ذبوع الشائعة، والحيلولة دون انتشارها، وهي قول الخير أو التزام الصمت، واعتبارها شرطاً أساسياً ودليلاً قاطعاً على صدق الإيمان بالله واليوم الآخر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): " .. وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ"<sup>(٤)</sup>. وقد تنبّه إلى هذا المعنى صاحب كتاب ( الشائعات ) فقال مؤكداً أهمية التزام الصمت وأثره في الوقاية منها: "الواقع أن الوقاية من الشائعات، تتحقق بطريقة

١- شرح السنة، للبعوي، (١٢/٣٦٢).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (١٧٣) [البقرة: ٢٧٣] وكم الغنى، حديث رقم (١٤٧٧).

٣- النور الخالد، فتح الله كولن، ص ٢٤١.

٤- النور الخالد، فتح الله كولن، ص ٢٤١، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره حديث رقم (٦٠١٨).



واحدة هي: منع الناس من الكلام..<sup>(١)</sup>.

ثامناً: التخفيف من وقع الإشاعة ومواساة مَنْ أُوذِيَ بها:

وهذا الدور قريب من الدور السابق، أو هو متفرع عنه، وهو من قبيل محاولة تلافي الأضرار النفسية والمعنوية التي تخلفها الشائعة، وتلحقها بمن ابتلي بها، ولعل من الدلائل على هذا السلوك النبيل، ما فعلته أم السيدة عائشة (رضي الله عنها)، حين قالت لها أثناء انتشار شائعة الإفك: "قالت: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكَ، فَوَ اللَّهُ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيعةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثُرْنَ عَلَيْهَا."<sup>(٢)</sup>.

تاسعاً: اجتناب الكذب والافتراء:

فقد حذرنا الإسلام من إشاعة الخبر الكاذب، ووصف الله (ﷻ) ورسوله الكريم مبتدع الإشاعة ومروجها بأقبح الأوصاف، فقد وصفه بالفسق في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾<sup>(٣)</sup>. ووصفه بالكذب في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾<sup>(٤)</sup>. وبالنفاق كما في حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ.. "<sup>(٥)</sup>.

- ١- الشائعات الوسيلة الإعلامية الأقدم في العالم، جان - نويل كافيرير، ص ٣٠٩.
- ٢- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، حديث رقم (٤١٤١).
- ٣- سورة: الحجرات، آية [٦].
- ٤- سورة: النحل، آية [١٠٥].
- ٥- البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم (٣٣).

## الخاتمة

### أهم النتائج:

- كشفت الدراسة عن أهم الآثار والمخاطر والأضرار، التي يمكن أن تلحقها الشائعات بالوطن وأبنائه، من إثارة الرعب والقلق والفرع وزلزلة القلوب، وتحطيم الروح المعنوية لأبناء الوطن، والنيل من رموز الوطن، وتشويه صورة قادته وزعمائه، وتهديد أمن الوطن وسلمه، وزعزعة هدوئه واستقراره، وإثارة الفتن والاضطرابات، وصناعة الأزمات، وإشاعة الانحلال الخلقي، والانحراف السلوكي بين أبناء الوطن.
- كما أن للشائعات قدرة عجيبة على تفريق الكلمة وشق الصفوف، والنيل من وحدة الوطن والتلاعب بعقول أبنائه، وإرباك وبلبله الرأي العام.
- إن مَنْ يحاولون نشر الأراجيف وترويج الشائعات هم - وبلا شك - بؤرة فاسدة في جسد الوطن، وطفح جلدي منتن، وآفة فتاكة، تهدد أمن الوطن وسلمه والعمل على محاربتها واستئصالها، وانتزاعها من جذورها واجب شرعي، وضرورة مجتمعية؛ لتبقى الأوطان قوية متماسكة مترابطة ذات هدف واحد، ولتبنى مستقبلها وتقف ضد أي أخطار تعترض مسيرتها.
- كما أوضحت الدراسة أن الوطن في ضوء الهدي والرؤية النبوية أشبه بالسفينة التي يركب على ظهرها جميع مَنْ يعيشون على تراب هذا الوطن، ويستظلون بسمائه وحماية هذه السفينة، والحفاظ عليها من كل ما يحيط بها من أخطار، وما يهددها من مهددات؛ كالشائعات، والأراجيف، وأفكار الغلو، والتطرف، والأمية، والجهل، والعصيان، والتمرد والخيانة، وغيرها.. مقصد شرعي وضرورة مجتمعية.
- بينت الدراسة عظمة السنة النبوية، وعبقريّة المنهج النبوي، في حماية الأوطان من آثار وأضرار ومخاطر الشائعات، وقد ظهر ذلك جلياً في توزيع المسؤوليات، وتقسيم الأدوار أثناء عملية المواجهة، فللزعماء والقادة والعلماء دورهم ومسؤوليتهم في مواجهة الشائعات، كما أن

## أثر الشائعات في تهديد الوطن ودور السنة النبوية في مواجهتها

لجماهير الشعب وأبناء الوطن كافة دورهم أيضاً، فالمسؤولية عن حماية الوطن من كل ما يهدده مسؤولية مشتركة.

- كما كشفت الدراسة عن استخدام السنة النبوية لنوعين من الوسائل والآليات في التعامل مع الشائعات، وذلك النحو الآتي:

- آليات ووسائل: للوقاية من الشائعات وسد ذرائع ذبوعها وانتشارها، (قبل وقوعها) من اجتناب الكذب والافتراء، والحرص على القول النافع أو التزام الصمت، والبعد عن القيل والقال، وعدم الإكثار من الكلام دون داع، والحذر من تداول وترديد كل ما يُقال ويُسمع، وضرورة رد الأمور إلى مصادرها الأصلية، والتثبت من صحة ما يُقال ويُسمع، والعمل على تنمية منهج التقويم والنقد والمراجعة لدى أبناء الوطن، بالإضافة إلى الشفافية والوضوح، وفتح قنوات الحوار والتواصل، بين القادة والزعماء وبين أبناء الوطن، وضرورة استثمار طاقات شباب الوطن، وشغل أوقات فراغهم بالعمل الجاد النافع لهم ولأوطانهم..

- آليات ووسائل: لمواجهة الشائعات، والحد من آثارها، وتخفيف أضرارها على الوطن والمواطنين (بعد وقوعها) وانتشارها، من كتمان الشائعة، وعدم تكرار الحديث عنها، التخفيف من وقعها السيئ، ومواساة من أُوذي بها، ومواجهتها بالحقائق الثابتة والأدلة القاطعة ومحاولة رفع الروح المعنوية لأبناء الوطن، وبث الأمل والتفاؤل بين جماهير المواطنين.

### التوصيات المقترحة:

- العمل على تفعيل قوانين محاسبة مَنْ يحاولون نشر الأراجيف وترويج الشائعات، في كل المجالات وليس السياسي فقط، فالشائعات الاقتصادية، والدينية، والأخلاقية، والفنية.. تهيئ المناخ لأي شائعات أخرى.

- ضرورة فتح الآفاق لحرية الصحافة والتعبير والبحث العلمي وتخفيف حدة الرقابة القبليّة من الجهات الرسمية؛ لأنها تفتح أبواباً كثيرة للتكهنات والاحتمالات في أي قرار.

- ضرورة التزام الشفافية والوضوح، والحرص على تقديم التفسيرات للقرارات السياسية، وفتح قنوات الحوار والتواصل والإبقاء عليها بين القادة وصناع القرار، وبين أبناء الوطن؛ سداً لذرائع الفوضى والهرج، وقطعاً للطريق أمام مروجي الشائعات لبث السموم والأراجيف..
- ضرورة استشعار المؤسسة الإعلامية لدورها ومسئوليتها الوطنية، في حماية الوطن من الشائعات، وذلك من خلال رد الأمور إلى مصادرها الأصلية، والاستعانة بأهل الخبرة والاختصاص كل في تخصصه ومجاله.
- كما يجب على المؤسسة الإعلامية أن تكون على قدر ومستوى المسؤولية، عند نشر وإذاعة الأخبار والمعلومات المتعلقة بالظروف العسكرية والاقتصادية والاجتماعية للوطن، وذلك لتفويت الفرصة على أعداء الوطن، في محاولة تصيُّدها والتقاطها، ومن ثم جمعها والإفادة منها، والتعامل مع أسرار الوطن على أنها مصلحة عليا مُقدَّسة، وأن المساس بها مساس وإضرار بالوطن نفسه.

## قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الاجتماع ونبد الفرقة، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، اعتنى به: عادل بن علي بن أحمد الفريدان، المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بسلطنة، ط (١٤٢٥هـ).
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ) ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت: ٧٣٩هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (١٤٠٨هـ).
- إدارة الأزمة: مقارنة التراث.. الآخر، عبد الله إبراهيم الكيلاني، سلسلة (كتاب الأمة) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الدوحة، عدد (١٣١) (جمادى الأولى ١٤٣٠هـ).
- الإشاعات الكاذبة وكيف حاربها الإسلام، محمد سيد طنطاوي، دار الشروق، ط (٢٠٠١).
- الإشاعة وأضرارها على المجتمع، وطرق وقايتها في ضوء آية الإفك، قطب الدين أحمد زاهدان، وعبد الكريم علي، بحث منشور بالمجلة الدولية للبحوث الإسلامية والإنسانية المتقدمة، مجلد (٥) عدد (٩) (سبتمبر ٢٠١٥م).
- الإشاعة، أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان، الأردن ط (١٩٨٣م).
- الأدب المفرد، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (ت: ٢٥٦هـ) حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط (١٤١٩هـ).
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين بن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
- الأمن الفكري وعلاقة الجماعات المتطرفة بوسائل التواصل الاجتماعي، سعود حسن العجمي، بحث منشور بالعدد (١١٢) من مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، السنة (٢٩) عدد (١١٢) (يناير ٢٠١٨م).
- البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، دار الفكر، ط (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).
- التاريخ الكبير، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (ت: ٢٥٦هـ) دائرة المعارف

- العثمانية، حيدر آباد، الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، ط.د.ت.
- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، (١٩٨٤ هـ).
- جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١ (١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م)
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط٢ (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).
- الجرح والتعديل، لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ) طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، بجيدر آباد الدكن، الهند، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ (١٢٧١ هـ ١٩٥٢ م).
- الحرب النفسية معركة الكلمة والمعتقد، صلاح نصر، دار القاهرة للطباعة والنشر، القاهرة، ط١ (١٩٦٦م).
- حكم الشائعات في الشريعة الإسلامية، نجلاء عبده محمد العدلي، بحث منشور بمجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، السنة (٢٩) العدد (١١٣) (إبريل ٢٠١٨م).
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١٤٠٩هـ).
- دور المؤسسات التربوية في مكافحة الشائعات، د: فهمي توفيق مقبل، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ط (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م).
- دياحة الندوة العلمية الدولية التاسعة للحديث الشريف (حماية الوطن في السنة النبوية.. مقصد شرعي وضرورة مجتمعية) <http://www.nadwa-hadith.com>
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٥ هـ).
- الزهد والرفائق، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرزوي (ت: ١٨١هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.د.ت.

## أثر الشائعات في تهديد الوطن ودور السنة النبوية في مواجهتها

- السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ) حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).
- السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُشْرُوجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣ (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- السنن، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ بن موسى بن الضحّاك، الترمذي، (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢ (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).
- السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط.د.ت.
- الشائعات الوسيلة الإعلامية الأقدم في العالم، جان - نويل كابفيرير، ترجمة: تانيا ناجيا، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط١ (٢٠٠٧م).
- الشائعات في المواقع الإخبارية الأردنية، وتأثيرها في نشر الأخبار من وجهة نظر الصحفيين الأردنيين، رضا عيد حمودة اكحيل، رسالة علمية غير منشورة، تقدم بها الباحث لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في كلية الإعلام، جامعة الشرق الأوسط، (٢٠١٥م).
- الشائعات وأثرها على الروح المعنوية للجنود، فهد سعيد الحري، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في السياسية الشرعية، من جامعة الإمام محمد بن سعود، (١٤٢١هـ).
- الشائعات وأثرها في تهديد السلم المدني، وطرق معالجتها.. دراسة في ضوء الهدى النبوي، مارية بسام محمد عباينة، الندوة العلمية الدولية الثامنة ( السلم المدني في السنة النبوية.. مقوماته وأبعاده الحضارية) كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي، (٢٨-٣٠ رجب ١٤٣٨هـ - ٢٥-٢٧ أبريل ٢٠١٧م).
- الشائعات والأمن، مهدي على دومان، بحث منشور ضمن فعاليات ندوة (أساليب مواجهة الشائعات) والتي عقدت بمركز البحوث والدراسات، بأكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، بالرياض، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- شرح السنة، لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٦هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتبة الإسلامية، دمشق، بيروت، ط٢

(١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م).

- شرح صحيح البخارى، لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال (ت: ٤٤٩ هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢ (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م).
- شرح مشكل الآثار، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (ت: ٣٢١ هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١ (١٤١٥ هـ، ١٤٩٤ م).
- شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨ هـ) حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخرجه أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي، الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١ (١٤٢٣ هـ).
- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١ (١٤٢٢ هـ).
- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١ هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط.د.ت.
- علم النفس الإجتماعي، حامد عبد السلام زهران، عالم الكتب، القاهرة، ط٤ (١٩٧٧ م).
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، اعتنى به: محمد فؤاد عبد الباقي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، ط (١٣٧٩ هـ).
- لسان العرب: ابن منظور الإفريقي ت (٧١١ هـ)، ط دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- الفروع، محمد بن مفلح المقدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٨ هـ).
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧ هـ) تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، (١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م).
- المستدرک علی الصحیحین، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م).
- المسند، لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثني بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (ت: ٣٠٧ هـ) تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١ (١٤٠٤ - ١٩٨٤ م).



## أثر الشائعات في تهديد الوطن ودور السنة النبوية في مواجهتها

- المسند، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط١ (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)
- المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواسطي العبسي (ت: ٢٣٥هـ) تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١ (١٤٠٩هـ).
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، د.ت.ط.
- مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣ (١٤٢٠هـ).
- منهج النبوة وإشكالية النهوض، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١ (١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م).
- النقد الإيجابي، صالح سالم النهام، مقال منشور بمجلة الوعي الإسلامي، الكويت، عدد (٦٢٤) (شعبان ١٢٣٨هـ - إبريل ٢٠١٧م).
- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ط (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- النور الخالد محمد (ﷺ) مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة، ط١ (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).
- وسائل وأساليب الاتصال في المجالات الاجتماعية والتربوية والادارية والاعلامية، زيدان عبد الباقي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢ (١٩٧٩م).



مجالات حماية الوطن في السنّة النبويّة  
ومنهج الإدارة النبويّة في بنائها

الدكتور / محمد شريف مشوّح  
(سوريا)





## المقدمة

الحمد لله الذي ألّف بين قلوب المؤمنين بمنّه وفضله، الذي أمرهم بالاعتصام بحبله، فجعلهم بنعمته إخواناً، وجنبهم بائتلاف قلوبهم ذنوباً ونيراناً، ممثلين بذلك لأمره في قوله:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣).

والصلاة والسلام على من أرسله ربه للعالمين رحمة، الذي حمى وطن الإسلام بالعدل والحزم والحكمة، وبعد:

فإن حماية الوطن والدود عنه لا يمكن أن تكون بالشعارات، ولا بالصورة التقليدية والمتمثلة بالجيش الذي يربط على الحدود ويعمل ليل نهار على حماية الامن في البلد فقط، بل تتعدى تلك الصورة النمطية إلى مفهوم أوسع وأشمل، لتغطي التأسيس القيمي للمجتمع، ولتهتم بالتشريع والسياسة، وبالروابط الاجتماعية الموحدة للمجتمع، وبتحسين الأوضاع الاقتصادية للمواطنين، وذلك عن طريق حكومة قوية قادرة على إدارة شؤون البلاد، وقادرة على قيادة عجلة التنمية بكافة المجالات؛ ليتشكّل بذلك وحدة مجتمعية متجانسة فكرياً وثقافياً ومادياً، فتكون قادرة فعلاً على حماية الوطن في كل حين، ومن كل خطر، وعليه:

يأتي بحث: "مجالات حماية الوطن في السنة النبوية ومنهج الإدارة النبوية في بنائها" نتيجة الحاجة للتأصيل لآليات التطبيق النبوي، ولمنهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في مختلف مجالات حمايته، والتي تشمل المجالات: الدينية، والتشريعية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، والتي قام النبي ﷺ ببنائها وتطبيقها وتوحيد المجتمع الإسلامي وجمعه - على المستويين القيمي والتطبيقي - على مبادئها؛ وذلك لاستلهام التجربة النبوية الشريفة المؤيدة بالوحي، واعتمادها نموذجاً يمكن الاستفادة منه في إدارة وحماية وتحصين الأوطان في كل زمان ومكان، وذلك ضمن المشاركة في الدورة التي تقيمها الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، والموسومة

ب: "حماية الوطن في السّنة النبوية: مقصد شرعي وضرورة مجتمعية"، وذلك ضمن محور: "مجالات حماية الوطن في السّنة النبوية"، وقد تناوله الباحث في التقديم لبحثه وفق المنهجية التالية:

**أهمية البحث:** تتجلى أهمية البحث في الإضافة العلمية التي سيقدمها البحث إلى مجال الدراسة، وفي إمكانية تطبيق نتائجها في الواقع العملي، ولما كانت السّنة النبوية الشريفة صنو القرآن الكريم في الوحي الإلهي، فإن تطبيقاتها - بلا شك - تمثل النموذج الأمثل المناسب لصلاح حال الإنسان في كل زمان ومكان، وبذلك تكون أهمية البحث في التأصيل لمجالات حماية الوطن في السّنة النبوية، والاستفادة من تطبيقات منهج الإدارة النبوية في بنائها وإقرار مبادئها في المجتمع الإسلامي، ثم في تفعيلها في حماية الوطن في واقع اليوم؛ لما يعترى هذا الواقع من اضطراب وابتلاءات وفتن تستدعي وحدة المجتمع وتحصينه في مختلف المجالات؛ لحمايته وفق مقررات وتوجيهات السّنة النبوية الشريفة.

**مشكلة البحث:** يمكن تبسيطها في إشكالين أثارا في ذهن الباحث الحاجة إلى بحث علمي يسر أغوارهما، ويجب عليهما، وهما:

- **الأول:** ظنُّ بعض الناس أنّ حماية الوطن تكون فقط من خلال حماية حدوده بالقوّة العسكرية والسيف!

- **الثاني:** أن كثيراً من "الحداثيين" لا يعتقدون أصلاً أنّ في السّنة النبوية الشريفة ما يفيد عصرنا الحاضر من أدوات وأساليب ومناهج: لا في حماية الأوطان ولا في غيره؛ لأنّها تمثّل بالنسبة إليهم مرحلة زمنية غابرة، ناسبت وقتها ومجتمعاتها، وانقضت برجالها وأحوالها.

في حين يرى الباحث الآتي:

- **أولاً:** أن السّنة النبوية "صيدلية" كل عصر، وشفاء كل معضلة، وأنّها في مجال حماية الوطن قد أعطت الدواء الناجع لكل زمان ومكان؛ حيث أتت بترايب إدارية ومنهجية فذّة، ووجّهت بها أفراد المجتمع نحو الوحدة في مختلف المجالات، وجعلت من تكامل مجالات حماية الوطن مقصداً شرعياً وضرورة مجتمعية، وأهلتهم بذلك ليكونوا قادرين على حمايته ممّا يهدّده من أخطارٍ داخليةٍ أو خارجيةٍ.

- **ثانياً:** أنّ حماية الوطن في الجانب العسكري جزء من منظومة متكاملة من الجوانب والمجالات التي يجب تأسيسها، وتوحيدها وتنظيمها وبنائها على قاعدة وحدة المجتمع - قيمياً وتطبيقياً - وأن أهم المجالات التي اعتبرتها السنة مهمّة في حماية الوطن فقامت ببنائها وفق منهجية هي المجالات: الدينية، والتشريعية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، وأنها دأبت على إخراجها وحدة واحدة متكاملة، تعمل بتراتبية تكاملية وتنسيق في تحسين المجتمع وحماية الوطن.

**أسئلة البحث:** ومن الإشكالية المطروحة انبثقت أسئلة البحث التالية: ما منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال: الديني؟ والتشريعي والسياسي والاجتماعي؟ والاقتصادي؟ والعسكري؟

**أهداف البحث:** وتتلخص أهداف البحث بالتعريف بمنهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال: الديني؟ والتشريعي والسياسي والاجتماعي؟ والاقتصادي؟ والعسكري؟

**فرضية البحث:** تفترض الدراسة أن مكونات السنة النبوية المطهّرة تحتوي على كنوز المعرفة الإنسانية التي جمعت بين المثالية القيمة وقابلية التطبيق، وأنها تحوي نماذج حلول العضلات الإنسانية في كل مجال، وأنها قادرة على تكيف مشاكل الزمان والمكان والتعامل معها بإيجابية تحدم البشرية؛ لأنها وحي ممن خلق الزمان والإنسان، وأنها في مجال حماية الأوطان أعطت الوصفة المنهجية المتكاملة في: توحيده، وتحسينه، وحمايته في مختلف المجالات.

**الدراسات السابقة:** لم يتسنّ للباحث الاطلاع على دراسات مستقلة أفردت جهودها لموضوع حماية الأوطان في السنة النبوية عموماً، ولا لدراسات بحثت في التراتيب الإدارية النبوية في حماية الوطن خصوصاً، ما يعطي قصب السبق والتميّز للأمانة العامة لندوة الحديث الشريف في طرح هذا الموضوع، ما أعطى الباحث شرف المشاركة فيها ببحثه من خلال محور: "مجالات حماية الوطن في السنة النبوية".

ولكننا قد نجد الموضوع مفرّقاً في بطون الكتب، وقد يكون هناك دراسات توسعت في التراتيب النبوية، فوجد الباحث بعض مبتغاه فيها، ومنها:

● دراسة الدكتور حافظ أحمد عجّاج الكرمي، والمعنونة ب: الإدارة في عصر الرسول ﷺ: "دراسة

تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى.

- دراسة الدكتور علاء الدين عبد الرزاق جنكوي، وعنوانها: "المواطنة بين السياسة الشرعية والتحديات المعاصرة"<sup>(١)</sup>، وفيها تقصى الباحث الجذور الأيدوجية للمواطنة بوصفها مفهومًا مستحدثًا، ثم بحث في إسقاطاتها المعاصرة، في محاولة لبناء مواطنة حقيقية مستمدة من قيم الإسلام.

وأما جديد بحثي فيتلخص في الآتي:

١- لفت النظر إلى كون حماية الوطن لا تكون من خلال الاهتمام بجانب واحد على حساب جوانب أخرى، بل لا تكتمل إلا بالاهتمام بمجالات عدّة، يتشكّل باجتماعهّن توحيد المجتمع وحماية الوطن من خلال وحدته، وأنّ السنّة النبوية لاحظت ذلك مبكرًا، فبرز اهتمامها بتوحيد المجتمع بمنهجية في: المجال الديني، والتشريعي، والسياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والعسكري.

٢- أنّ لحماية الوطن تراتيب إدارية تقتضي من الإدارة العليا للمجتمعات مراعاتها، ولا يمكن أن تكون ارتجالية، وأنّ السنّة النبوية كانت السبّاقة في تكريس ذلك واعتباره، فشكّلت من مجموع المجالات الضرورية لحماية الوطن كتلة واحدة، وجهتها بمنهجية في توحيد المجتمع الإسلامي الأول وحماية دياره.

٣- جمع ما يمكن من الأحاديث والتوجيهات النبوية الشريفة الخاصة بحماية الوطن بمختلف مجالاتها، وتلمّس دلالاتها في بحث علمي موثّق، يمكن من خلاله الاطلاع على منهجية السنّة النبوية في حماية الأوطان وأساليبها في توحيدها، وتقديمها نموذجًا صالحًا للعمل به دون إغفال خصوصية المكان والزمان والإمكان.

---

١- وهي ورقة مشاركة في المؤتمر العلمي الثالث لمركز الزهاوي للدراسات الفكرية، ١٦ / ٥ / ٢٠١٤، السلیمانية، كردستان العراق، تحت عنوان: (النظام السياسي في الفكر الإسلامي: تحديات الواقع وآفاق المستقبل).



## تمهيد: في الوطن وحبّه ومجالات حمايته

يُعرّفُ الوطن في اللغة: بالمنزل تقيم فيه، وهو موطن الإنسان، ومحله، ويقال: أوطن فلان أرض كذا وكذا، أي: اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيه<sup>(١)</sup>، وعرفه الجرجاني بقوله: الوطن الأصلي هو مولد الرجل، والبلد الذي هو فيه<sup>(٢)</sup>، وأما الوطنية، فهي: الشعور العاطفي للفرد بارتباطه ببيئته معينة، وهي عبارة عن الدفاع الذي يؤدي إلى تماسك الأفراد وتوحدتهم وولائهم للوطن وتقاليده وقيمه والدفاع عنه بالغالي والنفيس<sup>(٣)</sup>... إنه ارتباط الإنسان بالوطن الذي فيه احتياجاته الروحية والعاطفية المتولدة من تعلق الإنسان بأرضه التي عاش عليها وترعرع بين جنبها<sup>(٤)</sup>.

وقد أقرت السنة الشريفة بمشروعية حبّ الوطن والحنين إليه، فهذا رسول الله ﷺ يناجي مكة يوم فراقها فيقول: (ما أطيبك من بلدٍ، وأحبك إليّ، ولولا أنّ قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيرك)<sup>(٥)</sup>، وكان إذا قَدِمَ من سفرٍ، فأبصر درجات المدينة، أَوْضَعَ ناقته، وإن كانت دابةً حركها من حبّها<sup>(٦)</sup>، وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية حبّ الوطن والحنين إليه<sup>(٧)</sup>.

ولقد ظهر دور السنة النبوية في توجيهها للعاطفة المتقدمة في حبّ الأوطان إلى: "مقصد شرعي وضرورة مجتمعية" في حماية الوطن، فراه ﷺ قد أصّل لتلك الحماية من خلال ترسيخه لمفهوم الوحدة المجتمعية وتكاملها في مجالات: الدين، والتشريع، والاقتصاد، والاجتماع، والقوة العسكرية؛ لتشكيل سدّ منيع من القيم الاعتقادية والعملية، يحصّن بها المجتمع ويوحده ضدّ ما قد يحدق به، وسيقوم الباحث بعرض تلك المجالات التي وظّفها السنة الشريفة في توحيد المجتمع

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة وطن، ج ١٣/٤٥١.

٢- الجرجاني، التعريفات، ص ٢٥٣.

٣- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، ص ٤٨٩، موقع: كتب عربية.

٤- التأصيل الشرعي لمفهوم الوطنية - أوراق عمل، موقع السكينة، <https://www.assakina.com/book/57990.html>، تاريخ الإدراج: ١٤/١١/٢٠١٤ م. "بتصرف".

٥- أخرجه الترمذي، عن ابن عباس، كتاب المناقب، باب فضل مكة، رقم: ٣٩٢٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٦- أخرجه البخاري، كتاب: العمرة، باب: من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة، رقم: ١٨٠٢.

٧- ابن حجر، فتح الباري، ج ٣/٦٢١.

وتوجيهه من خلالها نحو "مقصد" حماية الوطن، وذلك في المباحث الآتية:

## المبحث الأول: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال الديني

والدين يشمل في ثلاثيته المعهودة: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، ودعوى الباحث فيه هو: أن السّنة النبوية اتخذت تراتيب منهجية أسست من خلالها قواعد التقبّل في وجدان المسلم على صعيد العقيدة والعبادة والأخلاق، وأنها أدارت توجيه أفراد المجتمع المسلم على أصول مرعية؛ لضرورات مقصودة، يتحقّق باجتماعها مقصد الوحدة المجتمعية، والحماية للجماعة المسلمة في أوطانها، وذلك من خلال التّأصيل لوحدة المجتمع في المجال الديني: عقيدة، وعبادة، وأخلاقاً، على أنّها أصل في حماية الوطن، وسيسلّط الباحث الضوء على أبرز المسائل المتعلقة في هذا المجال بوصفها أدلّة من السّنة المطهّرة على ما ذهب إليه في دعواه، وذلك في المطالب الآتية:

## المطلب الأول: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في الجانب العقدي

إنّ تحقيق التجانس العقديّ في أيّ مجتمع، هو الكفيل بتوحيد الوجدان الجمعي بين أفرادهِ، وضمان يُسر التوجيه لأحاديثهم ككتلة واحدة باتجاه تحقيق أهدافهم المشتركة، وما من بابٍ أحوج إلى اجتماع الكلمة وتوحيد التوجّه الجماعي من باب حماية الأوطان، ولذلك نلحظ أن منهجية التوجيهات النبوية بقيت على الدوام ترسم في وجدان المسلمين قيم الوحدة العقدية، وتؤصّل لمشروعية العمل بمقتضاها؛ لأنها ستكون فيما بعد قاعدة الانطلاق والعمل والولاء، فكان الصحابة يلتقطون الإشارات والإرشادات النبوية ليصنعوا منها منهج حياة، وكان النبي ﷺ يقوم بإدارة البناء العقدي والمادي عند الصحابة ﷺ بمنهجية ربانية محكمة، حيث أرست تراتيبه الشريفة في الوجدان الجمعي لجماعة المسلمين قيم التوحيد، ونبد الشرك يكون أصلاً ثابتاً، ويثبت ذلك في أحاديث كثيرة يخطّئها العدوّ، منها قوله ﷺ: (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف...) (١)، وقوله حين بعث معاذاً ﷺ إلى اليمن: (ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإنّ هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كلّ يوم وليلة؛ فإن هم أطاعوا

١- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حبّ الأنصار، رقم: ١٨.

لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم<sup>(١)</sup>، وقوله: (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأطيعوا من ولاة الله أمركم، ولا تنازعوا الأمر أهله، ولو كان عبداً سوداً، وعليكم بما تعرفون من سنة نبيكم والخلفاء الراشدين المهديين، وعضوا على نواجذكم بالحق)<sup>(٢)</sup>، فقدّم ﷺ التوحيد العقدي للجماعة المسلمة القائم على توحيد الله سبحانه وتعالى ونبذ الشرك - وهو عمل قلبي محض - على سائر العمل، ليشكل في ضمائر ووجدانات أفراد المجتمع ذاك التجانس الاعتقادي والوحدة الفكرية والوجدانية التي ستكون قاعدة الانطلاق وموجه السلوك في كل عمل.

### المطلب الثاني: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في الجانب التعبدي

وأصول العبادات في السنة النبوية هنّ أركان الإسلام، وقرّرها النبي ﷺ بقوله: الإسلام: (أنّ تشهد أنّ لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً)<sup>(٣)</sup>، والحديث أصل في تقرير كون الدين الإسلامي ديناً اجتماعياً، ويستدل به الباحث على منهجية السنة النبوية في توحيد الناس في عبادات اجتماعية تزيد اللّحمة المجتمعية وتقوي الأخوة الإيمانية بينهم، ووحدهم هذه تعني أيضاً: النأي بهم عن الفرقة المبدّدة للقوة، وهي أصل يمكن الاتكاء عليه في حماية الوطن ممّا يدهمه من أخطار ودواهِ.

وتوحيد المجتمع المسلم من خلال توحيد العبادات ظاهر، ففي الصلاة المفروضة اجتماع الناس في القبلة، وفي المسجد، وفي الاصطفاف، وفي الوقت كلّ بحسب دخوله في مكانه، وفي أداء الزكاة وحدة الشعور الاجتماعي بحاجة المحتاج ووجوب التكافل، ووحدة اقتصادية بالاشتراك النسبي في الأموال، وفي صوم رمضان وحدة الناس في العبادة في الوقت والشعور والجوع والعطش والإحساس بالجائعين، وفي الحج اجتماع عام لمن استطاع إليه سبيلاً، ومؤتمر أممي فذ، ووحدة في الوقت والمكان واللبس والمناسك.

١- أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم: ١٣٩٥.

٢- أخرجه الحاكم، المستدرک، عن ابن مسعود، كتاب العلم، باب عليكم بسنتي، رقم: ٣٣٤، وقال: إسناده صحيح على شرطهما، ولا أعرف له علة.

٣- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، رقم: ٨.

ومن الإجراءات المنهجية التي قام بها النبي ﷺ، وكان لها آثارها العميقة في تفعيل الجانب التعبدية في توحيد المجتمع الإسلامي وبنائه على أساس التعبد كقوة موحدة فاعلة في حماية الوطن، سيسلط الباحث الضوء على أبرز المسائل المتعلقة في هذا المجال على سبيل المثال لا الحصر، دون إغفال لدور باقي العبادات من صيام وزكاة وحج، والتي لا يسمح المقام للإفاضة والتفصيل فيها، وذلك بما يأتي:

١- **بناء المسجد:** قَدِمَ النبي ﷺ المدينة، فنزل أعلى المدينة في حيٍّ يقال لهم بنو عمرو بن عوفٍ، فأقام النبي ﷺ فيهم أربعَ عَشْرَةَ ليلةً، ثم أرسل إلى بني النجار، فجاؤوا مُتقلِّدي السيوفِ، كأني أنظرُ إلى النبي ﷺ على راحلته، وأبو بكرٍ رِدْفُه، وملاً بني النجارِ حوله، حتى ألقى بفناءِ أبي أيوب، وكان يُحِبُّ أن يصلي حيث أدركته الصلاةُ، ويصلي في مرابضِ الغنمِ، وأنه أمر ببناءِ المسجدِ، فأرسل إلى ملاً من بني النجارِ، فقال: يا بني النجارِ ثامنوني بحائطِكم هذا، قالوا: لا والله، لا نطلبُ ثمنه إلا إلى الله، فقال أنسٌ: فكان فيه ما أقول لكم، قبورُ المشركين، وفيه حربٌ، وفيه نخلٌ، فأمر النبي ﷺ بقبورِ المشركين فنبِشَتْ، ثم بالحربِ فسويَتْ، وبالنخلِ فقطِعَ، فصَفُّوا النخلَ قِبَلَةَ المسجدِ، وجعلوا عِضَادَتِيهِ الحِجَارَةَ، وجعلوا يَنْقُلُون الصخرَ وهم يَرْتَجِرُونَ، والنبي ﷺ معهم، وهو يقول: اللهم لا خيرَ إلا خيرُ الآخرةِ، فاغفر للأَنْصارِ والمهاجرة<sup>(١)</sup>.

٢- **الحض على صلاة الجماعة:** صلاةُ الجماعةِ تَفْضَلُ صلاةَ الفَدِّ بسبعٍ وعشرين دَرَجَةً<sup>(٢)</sup>.

٣- **تسوية الصفوف:** والأحاديث الشريفة في تسوية الصفوف كثيرة، منها: قوله ﷺ: (سُوِّوا صفوفُكم، فإنَّ تَسْوِيَةَ الصفوفِ من إقامةِ الصلاةِ)<sup>(٣)</sup>، والحديثان المذكوران دليل على منهجية السَّنة النبوية في دأبها - فضلاً عن التعبد لله بها - على غرس قيمة النظام والوحدة المجتمعية - حيث المنهج يثبت بمتابعة سلوك ذات الأمر على التكرار، وهو في الصلاة لا ينقطع -

١- أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، رقم: ٤٢٨.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الأذان، فضل صلاة الجماعة، رقم: ٦٤٥.

٣- أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: إقامة الصف من تمام الصلاة، رقم: ٧٢٣.

بوصفهما عاملاً حاسماً في ضبط وتوجيه سلوك الأفراد نحو حماية الوطن؛ ذلك أن المسجد هو مكان الصلاة للجماعة وللجمعة مراراً وتكراراً، وهو أيضاً تعبير ورمز عن وحدة المجتمع الإسلامي، وهو منطلق أنشطة كثيرة: فكان النبي ﷺ يعقد فيه الاجتماعات، ويستقبل به الوفود، ويقوم فيه حلق الذكر والعلم والإعلام، وهو منطلق الدعوة والبعوث وإبرام كل أمر ذي بال يهم المسلمين في السلم والحرب، ولذا كان دوره مركزياً في تجميع وتوحيد الجماعة المسلمة كوحدة مجتمعية واحدة، والعمل على جعلها أحد أسباب تماسك وقوة المجتمع المساعدة والمؤثرة حتماً في حماية الوطن.

### المطلب الثالث: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في الجانب الأخلاقي

تمثل الأخلاق مجموعة من القواعد والقيم المبدئية التي تحكم سلوك الفرد والجماعة بشأن ما هو صواب وما هو خطأ، أي: تمثل قيماً معيارية يتم الحكم بما على ما هو صواب، وما هو خطأ، في سلوك الفرد، أو الجماعة؛ والسلوك الأخلاقي للفرد يتأثر حتماً بصفاته وخصائصه الشخصية، مثلما يتأثر بالبيئة التي يعمل ويعيش فيها<sup>(١)</sup>.

ولقد دأب النبي ﷺ على ترسيخ الأخلاق الحميدة في نفوس المسلمين لكونه أحد الأسس الضرورية في وحدة المجتمع وتجانسه بما يتسق وقيم دين الإسلام حتى التمام، فهو ﷺ الذي قال: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ"<sup>(٢)</sup>، ثم جهد ﷺ، ومن خلال منهجية بناء صرح الأخلاق في الأمة في ترسيخ القيم الفاضلة؛ لتكون تعبيراً عن لون المجتمع الإسلامي الموحد، وكأحد أسباب قوته الفاعلة في حمايته عند الحاجة، ومن ذلك يذكر الباحث باختصار لضيق المقام حرصه ﷺ على إقامة القيم التالية أساساً لوحدة المجتمع من الناحية الأخلاقية:

١- العاني، أخلاقيات إدارة التسويق في الإدارة العربية الإسلامية (مصدر سابق)، ج ١/١١١، وما بعدها بتصرف واختصار.

٢- أخرجه أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، باب: مسند أبي هريرة، ج ٤/٥١٣، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان.

- أولاً: قيم الصدق والأمانة: فما كان خُلُقُ أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب<sup>(١)</sup>، وهو الذي أمر بالصدق فقال: عليكم بالصدق، فإنَّ الصِّدْقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يصدُقُ ويتحرَّى الصِّدْقَ حتَّى يُكتبَ عند الله صديقاً، وإيَّاكم والكذبَ، فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجورِ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النَّارِ، وما يزالُ الرَّجُلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتَّى يُكتبَ عند الله كذاباً<sup>(٢)</sup>، وقال ﷺ: أدُّ الأمانةَ إلى من ائتمنك، ولا تخنُ من خانك<sup>(٣)</sup>، وقال: إنَّ الأمانةَ نزلتْ في جذرِ قلوبِ الرجالِ<sup>(٤)</sup>.

- ثانياً: قيم الودِّ والإخاء والترابط والتراحم بين أفراد المجتمع الإسلامي: وذلك من خلال الحضِّ على التزام قيم العفو، واللين، والتجاوز، والتيسير، والسماحة في سائر التعاملات، وذلك بعد الإفاضة بالنهي عن جميع أساليب الغشِّ والخداع والتدليس والغبن والغرر والخيانة فيهما؛ لينأى بالمجتمع المسلم عن أسباب الفساد والتقاطع والتناحر والتدابير والتحاسد، فيصل إلى تحقيق مقصده في إيجاد مجتمع موحد متماسك، بصبغة مميزة وشخصية مستقلة، ويؤكد ذلك قول النبي ﷺ: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تداربوا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)<sup>(٥)</sup>، وواضح من الحديث الشريف أنَّ الانتهاء عن المنهي عنه سببٌ للإتيان بضدِّه، فلا تخلية إلا بعد التخلية، فنبذ الحسد والبغضاء والتناحر والتدابير سبب تحقق الأخوة الإيمانية في مجتمع متعاظم متناغم كالجسد الواحد، يشدُّ بعضه بعضاً، وفي ذلك يقول النووي في شرحه على مسلم: "ومعنى كونوا عباد الله إخواناً، أي: تعاملوا وتعاشروا معاملة الإخوة، ومعاشرتهم في المودة والرفق

١- أخرجه الترمذي، عن عائشة ؓ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الصدق والكذب، رقم: ١٩٧٣، ص ٤٥٧، وقال: هذا حديث حسن.

٢- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم: ٢٦٠٧.

٣- أخرجه الترمذي، عن أبي هريرة، كتاب البيوع، باب أدُّ الأمانةَ إلى من ائتمنك، رقم: ١٢٦٤، وقال: حديث حسن غريب.

٤- أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب إذا بقي في حثالة من الناس، رقم: ٧٠٨٦.

٥- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم: ٢٥٦٤.

والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير ونحو ذلك من صفاء القلوب والنصيحة بكل حال<sup>(١)</sup>.

## المبحث الثاني:

### منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال التشريعي والسياسي

إنَّ إيجاد مجتمع موحد متماسك يستطيع على القيام بواجباته في حماية وطنه لا يمكن أن ينشأ وينمو ويستمر من غير دستور موحد يشترك في الخضوع لقوانينه ومقرراته جميع شرائح المجتمع وطبقاته، ولذلك نلاحظ أن الإدارة النبوية - وفور وصوله ﷺ إلى المدينة المنورة - قد قام بخطوات تشريعية وسياسية توحيدية؛ لتكون سبباً في تنظيم المجتمع وانتظام أفرادها في قانون يوحد بينهم، ويعرّف كل شريحة منهم حقوقها وواجباتها تجاه الجماعة وتجاه الوطن، وإليك الدليل في المطالبين الآتين:

### المطلب الأول: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال التشريعي

وسيسلّط الباحث الضوء على أبرز المسائل المتعلقة في هذا المجال في الفرعين الآتين:

**الفرع الأول: وضع دستور المدينة، أو كتابة "الوثيقة"<sup>(٢)</sup>:** وفيها كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، ودُعي إليه اليهود، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم، ومما ورد فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي الأمي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفتدون عانيهم بالمعروف والقسط، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين... وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا

١- النووي، المنهاج شرح مسلم بن الحجاج، ج ١٦/ ١١٥.

٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/ ٨٥، وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: جميل صدقي، ط ١، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٧م، ج ٢/ ١٥٢ - ١٥٣، وينظر: السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤/ ٢٤٠.

يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم: مواليتهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ<sup>(١)</sup> إلا نفسه وأهل بيته.

**ووجه الاستدلال بالوثيقة هو:** أنها أظهرت أعلى مستويات التنظيم الإداري في الجانب التشريعي، وأنها كانت البذرة الدستورية الأولى في مسار بناء الدولة الإسلامية وأنها أعطت بمحدداتها ومقرراتها المكتوبة إجراءات العمل التنفيذية على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي أيضاً، حيث جاءت لضبط وتنظيم العلاقات وتنسيق العمل بين مكونات المجتمع المدني برباط قانوني مكتوب يمثل أول وأسبق نظام دستوري في تاريخ الدولة الإسلامية، بل به وُضعت أسس التعامل بين مكونات المجتمع المدني في تعاملها مع بعضها ومع غيرها؛ فكانت بمثابة إجراءات عمل تنفيذية واضحة حدّدت المواضيع والنقاط الآتية:

١. أنها نصّت على وحدة الأمة كأساس في حماية الوطن ضدّ ما قد يدهمه من أخطار، فقال: "إنهم أمة واحدة من دون الناس".
٢. نظّمت العلاقة بين المؤمنين ومحيطهم من غير المسلمين.
٣. حدّدت مسار التعامل في مواجهة الحوادث بين جميع مكونات المجتمع المدني.
٤. حدّدت المسؤوليات بين الجماعات بعضها ببعض، وبين الأفراد بعضهم بعضاً، وبين الأفراد والجماعات.
٥. أظهرت وحدة المجتمع الإسلامي، وتساوي أعضائه، وتكاتفهم، واشتراكهم في تقرير العلاقات مع محيطهم، ومنعت البغي والظلم بين كل المكونات.

**الفرع الثاني: تشريع قيم الانتماء للوطن<sup>(٢)</sup>:** ومن الترتيبات النبوية الشريفة في بناء المنهج

١- الوَتَغُ بالتحريك: الهلاك، وَتَغٌ يَوْتُغُ وَتَغًا: فَسَدَ وَهَلَكَ وَأَثِمَ، انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: وتغ، ج ٤٥٨/٨.

٢- ينظر: العبد القادر، بدر بن علي بن عبد الله، الانتماء إلى الوطن وأثره في حماية الشباب من الانحراف، السجل العلمي لمؤتمر: واجب الجامعات السعودية وأثرها في حماية الشباب من الجماعات والأحزاب



النبوي في مجالات حماية الوطن وإدارتها وبنائها في الجانب التشريعي: جعله عليه الصلاة والسلام من قيم الانتماء للوطن تشريعاً وحافزاً ودينياً يتقرب أفراد المجتمع المسلم بإقامتها إلى ربهم، وقد تجلّى ذلك في التصرفات النبوية التي يمكن رصدها في النقاط الآتية:

**أولاً: حبّ الوطن والحنين إليه:** ومن أدلته ما رواه أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (كان إذا قدم من سفر، فأبصر درجات المدينة أوضع ناقته، وإن كانت دابةً حرّكها)<sup>(١)</sup>، أي: أسرع السير، وفي الحديث دلالة على فضل المدينة وعلى مشروعية حب الوطن والحنّة إليه<sup>(٢)</sup>.

**ثانياً: حب الخير للوطن:** ودليل حبّ الوطن الحرص على رقيته ونمائه، وهو أحد أسباب حمايته، وشاهده من السنة النبوية قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (اللهم اجعل لي بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة)<sup>(٣)</sup>، وقوله: (اللهم بارك لنا في مدينتنا، وفي ثمارنا، وفي مدنا وفي صاعنا بركة مع بركة)<sup>(٤)</sup>.

**ثالثاً: التعلّق بالوطن وصعوبة مفارقتة:** ومن أسباب حماية الوطن ترسيخ التعلّق بالوطن وصعوبة مفارقتة، وقد ثبت حبّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لوطنه وتعلّقه به بقوله حين أخرج من مكة: (ما أطيبك من بلد، وأحبّك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)<sup>(٥)</sup>.

**رابعاً: ذكر فضائل الوطن:** وذكر فضائل الوطن تجسيداً لمعنى الانتماء الصادق، وينمي في المجتمع قيم التآلف والتماسك المفضيان إلى الاستعداد التام والدائم لحماية الوطن، وثبت ذلك في السنة النبوية المطهّرة بقوله مخاطباً مكة ليلة الهجرة عنها: (علمتُ أنك خير أرض الله، وأحب

---

والانحراف، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٢٨-٢٩ / ١ / ٢٠١٨، مج ٥، ص ١٥٧٠ وما بعدها بتصريف واختصار.

١- رواه البخاري في صحيحه، عن أنس، كتاب: العمرة، باب: من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة، رقم: ١٨٠٢، ص: ٢٩٠.

٢- العيني، بدر الدين محمود العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ضبطه وصححه: عبد الله محمود عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ١٠/١٩١.

٣- رواه البخاري في صحيحه، عن أنس، كتاب فضائل المدينة، رقم ١٨٨٥، ص: ٣٠٣.

٤- رواه مسلم، عن أبي هريرة، كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم ١٣٧٣، ص: ٥٧٦.

٥- رواه الترمذي، عن ابن عباس، كتاب المناقب، باب فضل مكة، رقم: ٣٩٢٦، ص: ٨٨٣، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

الأرض إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت<sup>(١)</sup>.

إن تشريع النبي ﷺ لقيم الانتماء للوطن، جعل منها قضية جوهرية تساهم في إعداد المواطن القادر على التضحية في سبيل حماية الوطن، فضلاً عن جعله ركيزة بناء الأوطان، والمساهمة الفعالة في تقدّمها ونهضتها وتطورها.

### المطلب الثاني: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال السياسي

ويمكن رصد أبرز المسائل المنهجية التي اتبعتها السّنة النبوية في هذا المجال في الفرعين الآتيين:

**الفرع الأول: على المستوى الداخلي: اعتماد القيم السياسية الإسلامية:** وأمها ست عشرة قيمة، وهي: الشورى، والعدل، والمساواة، والحرية، والطاعة، والأخوة، والبيعة، والوحدة، والمسؤولية، والمحاسبة، وسيادة الشرع، وسيادة الأمة، والحقوق الإنسانية، والتكافل الاجتماعي، والتكامل بين الشؤون الدينية والدنيوية، والاستعانة بالأقوياء الأمناء... وأوصلها بعض الباحثين من خلال استقراء أدلة الشريعة إلى ثلاثين، فأضاف قيم: قيام الناس بالقسط، وولزوم الجماعة، وغيرها، وهي مصطلحات تجيب إجابة مباشرة عن أهم أسئلة فلاسفة السياسة، كضرورة وحاجة الاجتماع الإنساني لوجود سلطة سياسية.

إنّ اعتماد القيم السياسية المذكورة في السّنة النبوية كان الأساس لوضع نظام سياسي قيمي يتوحد المجتمع في ظله، وتتوحد قواه في حماية الوطن، وما من قيمة مذكورة إلا ولها أصل في كتاب الله أو سنة نبيه، ويذكر الباحث بعض الأحاديث دليلاً على بعض تلك القيم، لضيق المقام عن استيعابها كلّها، ومنها:

**أولاً: في الشورى والاستعانة بالأقوياء الأمناء:** قال رسول الله ﷺ: "إذا كان أمراًؤكم خياركم، وأغنياؤكم شمعاءكم، وأموركم شورى بينكم؛ فظهُرُ الأرضِ خيرٌ لكم من بطنها"<sup>(٢)</sup>، وقد

١- رواه أحمد في مسنده، عن أبي هريرة، ج ١٣/٣١، رقم: ١٨٧١٧، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح على وهم في إسناده، فقد خالف فيه معمر الرواة، والصحيح: رواية من رواه عن الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن الحمراء.

٢- أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب في خيار الأمراء وشرارهم، رقم: ٢٢٦٦، وقال: غريب لا نعرفه إلا

شاوَر النبي ﷺ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فأوا له الخروج... وشاور عليًا، وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة فسمع منهما... وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأئمء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره، اقتداء بالنبي ﷺ (١).

**ثانيا: في لزوم الجماعة: كمثل قوله ﷺ: "عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإنَّ الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوة الجنة فليزِم الجماعة" (٢).**

**الفرع الثاني: على المستوى الخارجي: "مراسلة الملوك":** وفي بلورة الشكل السياسي في المنهجية النبوية واستكمال الوحدة المجتمعية وإبراز الهيئة المتناسكة للمجتمع إزاء الدول والممالك والامبراطوريات الأخرى: مراسلة الملوك؛ ليصنع بذلك الوجود المادي والمعنوي لأُمَّته، فيكسب مجتمع المسلمين ودولتها الوليدة الهيبة والقوة على خارطة العالم، فيكون ذلك سببًا وقائيًا أو احترازيًا أو استباقيًا في تحصين وحماية الوطن، ومن مراسلاته ﷺ يذكر الباحث الشواهد الآتية:

- **أولًا: كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم:** إذ أنَّ النبي ﷺ كتب إلى هرقل: "من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين" (٣).

- **ثانيًا: كتابه ﷺ إلى كسرى وقيصر والنجاشي وكل جبار:** فعن أنس رضي الله عنه أنَّ نبيَّ الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كلِّ جبارٍ، يدعوهم إلى الله تعالى (٤).

---

من حديث صالح المري، وصالح المري في حديثه غرائب ينفرد بها، لا يتابع عليها، وهو رجل صالح.  
١- البخاري، الجامع الصحيح، باب قول الله تعالى: وشاورهم في الأمر، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ص ١٢٦٧.

٢- أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم: ٢١٦٥، وقال: حسن صحيح.

٣- أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، رقم: ٧.

٤- أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب: كتب النبي إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الإسلام، رقم: ١٧٧٤.

## المبحث الثالث: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال الاجتماعي

ويسلّط الباحث الضوء على أبرز المسائل المتعلقة في هذا المجال في المطلبين الآتين:

### المطلب الأول: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال الاجتماعي بين أفراد الجماعة المسلمة

لقد اتضحت المنهجية النبوية في حماية الوطن في المجال الاجتماعي من خلال الإجراءات النبوية التي سلكت مسلكين متوازيين على الصعيدين التأصيل والتطبيقي، فاستوعب التأصيل المجالَ القيمي الذي سعى من خلاله النبي ﷺ إلى إرساء قيم اجتماعية توحيدية تكون دافعاً معنوياً نحو الجدّ في حماية الوطن؛ واستوعب التطبيق ترسيخ تلك القيم من خلال التطبيق العملي، ويمكن تلمّس بعض أدلة ذلك في الفرعين التاليين:

**الفرع الأول: إرساء القيم الاجتماعية التوحيدية:** نحو قيمتي العدل والمساواة اللتين أتينا على ذكرهما عند الحديث عن المنهج النبوي في حماية الوطن في المجال الأخلاق بوصفها قيمتين توحيديتين لأخلاق المجتمع، وهما قيمتان متلازمتان غالباً، وإن كانت قيمة العدل أعم وأشمل، وغالباً ما عبّر عنها القرآن الكريم بلفظ: القسط، واعتبرها بعض الباحثين القيمة الجوهرية العليا التي تتمحور حولها كل القيم الإنسانية الأخرى، لأنها اختيار إلهي من جهة، ولأنها القيمة التوحيدية الوحيدة التي تضمن التوازن في النظام الحضاري العام للناس<sup>(١)</sup>، فكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يقول: يا أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا لأحمرّ على أسودّ، ولا لأسودّ على أحمرّ إلا بالتقوى، أبلغت؟<sup>(٢)</sup>، وكان يقول أيضاً: (سلمان منّا أهل البيت)<sup>(٣)</sup>، والحديثان دليلان - فضلاً عن غيرهما وعن آيات القرآن الكريم - على

١- عساف، النظرية الإسلامية العلمية في الإدارة، ص ٤٩٤، وما بعدها باختصار.  
٢- أخرجه أحمد في مسند، عن أبي نضرة المنذر بن مالك، باب حديث رجل من أصحاب النبي، ج ٤٧٤/٣٨، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة رقم: ٢٧٠٠، ج ٤٤٩/٦، وقال: إسناده صحيح.  
٣- رواه الحاكم في مستدركه، عن كثير بن عبد الله المزني، عن أبيه عن جده، باب ذكر سلمان الفارسي، ج ٣/٦٩١، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، باب غزوة الخندق وقريظة، ج ١١٦/٦، رقم: ١٠١٣٧، وقال: أخرجه الطبراني، وفيه كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعّفه الجمهور وحسّن الترمذي حديثه، وبقيّة رجاله ثقات.

حثه على المساواة وإرساء قيم العدل بين أفراد المجتمع المسلم.

**الفرع الثاني: تطبيق مبدأ المؤاخاة:** والذي ثبت بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كأول إجراء اجتماعي له أبعاد اقتصادية ونفسية، حيث كانت المؤاخاة تعني عملية تنظيم ودمج جذرية للمجتمع الإيماني وإظهاره جسداً واحداً متجانساً، فكانت ضرورية لإذهاب الوحشة وإثبات مبدأ المساواة بين المسلمين، لا سيما أن المهاجرين تركوا كل المقومات الأساسية المادية للحياة في مكة، فكانت المؤاخاة خطوة مهمة في توحيد المجتمع الجديد تُضاف إلى ما سبقها من خطوات<sup>(١)</sup>، وأدلتها في السنة كثيرة منها: مارواه أنس: (... أنه لما قدموا المدينة، نزل المهاجرون على الأنصار، فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع، فقال: أفاسمع مالي، وأنزل لك عن إحدى امرأتي...)<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن مبدأ المؤاخاة مبدأ نبوي شريف، عمل به النبي ﷺ في المرحلة المكية قبل الهجرة أيضاً، حيث ذكر ابن حجر في الإصابة أنه ﷺ آخى بين أصحابه بمكة قبل الهجرة، فأخى بين طلحة والزبير<sup>(٣)</sup>.

### المطلب الثاني: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال الاجتماعي بين أفراد الجماعة المسلمة وغيرهم من غير المسلمين: "المواطنة"

والتأصيل الشرعي لقضية المواطنة يقوم على أساس: وحدة الأصل البشري، والمصالح المشتركة، ودعوة الإسلام للعدل والإنصاف، وضرورة الاجتماع البشري، وتمثل وثيقة المدينة القاعدة الأساسية لمبادئ المواطنة في الإسلام، بوصفها أول دستور مدنيّ شامل في الإسلام<sup>(٤)</sup>.

وفي بنود الوثيقة التي أتينا على ذكرها عند الحديث عن منهجية الإدارة النبوية في توحيد المجتمع في الجانب التشريعي بكونها أول دستور إسلامي، نعيد هنا لضرورة المقام ذكر الجوانب التي أتت عليها الوثيقة في التأسيس لتوحيد المجتمع في المجال الاجتماعي بين أفراد الجماعة المسلمة وغيرهم

١- الكرمي، الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص ٧٧، ٧٨، "بتصرف بسيط".

٢- أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الوليمة ولو بشاة، رقم: ٥١٦٧.

٣- انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٣/٥٣١، (بتصرف).

٤- علاء الدين عبد الرزاق جنكو، المواطنة بين السياسة الشرعية والتحديات المعاصرة، ص ٥٩.

من غير المسلمين، والذي يُعدّ أصلاً في التأسيس لقضية المواطنة بكونها توجّهًا توحيدياً يسهم بشكل مباشر في حماية الوطن، ويمكن رصد المنهجية النبوية في هذا الباب في النقاط الآتية<sup>(١)</sup>:

١. هذا كتاب من محمد النبي الأمي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٢. وإنه مَنْ تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

٣. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين.

٤. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم: مواليتهم وأنفسهم، إلا مَنْ ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

### المبحث الرابع: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال الاقتصادي

لقد اتخذت الإدارة النبوية سلسلة من الإجراءات العملية المنهجية بقصد توحيد المجتمع واستقلاله في المجال الاقتصادي؛ ليقينه ﷺ بأن قوة الاقتصاد واستقلاله وتوحيد المجتمع فيه فكرياً وعملاً هو أحد أسباب وسبل الدفاع عن الوطن، وسيسلط الباحث الضوء على أبرز المسائل المتعلقة في هذا الموضوع في المطالب الآتية:

#### المطلب الأول: الاستقلال الاقتصادي: "بناء سوق المدينة ومتابعته ومراقبته"

إنَّ الاستقلال الاقتصادي يبدأ من استقلال السوق، ومن عدم تبعيته لغير أبناء مجتمعه، ومن ثمَّ دأب ﷺ إلى وضع منهجية خاصة به، فقد روي أنه ﷺ لما قدم المدينة المنورة نظر في السوق، وفي الحالة التجارية والاقتصادية السائدة آنذاك، فإذا باليهود وقد سيطروا بشكل كامل على حركة المال والتجارة واستبدوا بها، (ذهب إلى سوق النبيط، فنظر إليه، فقال: ليس هذا لكم بسوق؛ ثم ذهب إلى سوقٍ، فنظر إليه، فقال: ليس هذا لكم بسوق؛ ثم رجع إلى هذا السوق، فطاف فيه ثم

١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٨٥، وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/١٥٢ - ١٥٣، وانظر: السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤/٢٤٠.

قال: هذا سوقكم فلا ينتقصن ولا يضرين عليه خراج<sup>(١)</sup>.

ودأب ﷺ بعدها على متابعته ومراقبة من يتنجر فيه، والدليل ما روي أنه: "مرّ ﷺ على صبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟، قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟! من غشّ فليس مني"<sup>(٢)</sup>.

### المطلب الثاني: التشجيع على الإنتاج والعمل

وذلك لأنّ الإنتاج والعمل يزيدان من قوة المجتمع، فقد حرص ﷺ على اتخاذ خطوات عملية في تنظيم الأمور في جميع المجالات الإنتاجية أو المساعدة على التنمية، ولا سيما على الأصعدة الآتية:

**أولاً: على صعيد الزراعة:** حثّ ﷺ على استغلال الأراضي وزراعتها، وكره حبسها بوراً دون إنتاج، ذلك أنه ﷺ نظر في المدينة، فرأى أن المجتمع المدني في غالبه مجتمعاً زراعياً، فوجد الأراضي الصالحة للزراعة لم تُستغل بشكل صحيح أو كامل، ووجدها بأيدي من حبسها دون استثمار، فدأب على التشجيع على استغلالها وإحياء مواتها، فقال: "مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَزْرَعْهَا، وَعَجَزَ عَنْهَا، فَلْيَمْنَحْهَا أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، وَلَا يُؤَاجِرْهَا إِلَّاهُ"<sup>(٣)</sup>، وأما موات الأراضي التي لا تعود ملكيتها لأحد، فقد شرّع امتلاكها بإحيائها لمُحبيها باستغلالها فقال: (مَنْ أَحْيَى أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ..."<sup>(٤)</sup>.

**ثانياً: على صعيد الصناعة:** ويمكن رصد التطبيقات المنهجية النبوية على صعيد الصناعة - والتي وضع من خلالها اللبنة الأولى لمجتمع صناعي يعتمد على أبنائه، ليكون في المستقبل قوة

١- أخرجه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الأسواق ودخولها، رقم: ٢٢٣٣، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف؛ لضعف إسحاق بن إبراهيم، انظر: سنن ابن ماجه، تحقيق الأرنؤوط وآخرون، طبعة دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩م، ج ٣/٣٤٤.

٢- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا، رقم: ١٠٢.

٣- أخرجه مسلم كتاب البيوع، باب كراء الأرض، رقم: ٣٩٢٠.

٤- أخرجه أبو داود، عن جابر، كتاب الخراج، باب في إحياء الموات، رقم: ٣٠٧٣، وعلق عليه الأرنؤوط بقوله: إسناده على شرط مسلم.

اقتصادية تسهم بإنتاجها في تحصين وحماية الوطن- في النقاط الآتية:

١- كانت العرب قبل الإسلام تأنف الصناعة وتنظر إلى محترفها بدونية واحتقار، فحاء النبي ﷺ ليرفع هذه النظرة، ويزيل الاحتقار عن محترفي الصناعة وأهل المهن؛ تشجيعاً لهم ودفعاً لهم على الاحتراف والإنتاج، ويبين أنهم جزء من المجتمع ويساؤون باقي الناس في الحقوق والواجبات، والدليل: ما رواه البخاري رحمه الله عن أنس رضي الله عنه قال: "إِنَّ خِيَّاطًا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَطَعَامَ صِنْعِهِ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَذَهَبَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى ذَلِكَ الطَّعَامِ"<sup>(١)</sup>.

٢- شجّع رسول الله ﷺ على الاحتراف والكّد والأكل من عمل اليد، فقال: "إن الله يحب المؤمن المحترف"<sup>(٢)</sup> وقال: "كان زكرياء عليه السلام نجاراً"<sup>(٣)</sup>، وقال أيضاً: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"<sup>(٤)</sup>، وكان داود عليه السلام يصنع من الحديد عُدد الحرب ولبوسها، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوِيَّ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (سبأ: ١٠-١١).

٣- أنه ﷺ أبقى ثلاثين حدّادًا وصائغًا من سبي خيبر في السنة السابعة للهجرة؛ لينتفع المسلمون من صنعتهم، ويتقوّن بها على جهاد عدوهم<sup>(٥)</sup>.

٤- عمد ﷺ إلى استغلال ثروات الأرض الباطنية؛ لتستفيد الدولة والناس من معادنها، فأقطع النبي ﷺ بلال بن الحارث المزني معادن قبيلته، وهي من أعمال الفرع بالمدينة وكتب له بذلك كتابًا، ونصّه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله ﷺ بلال بن الحارث المزني: أعطاه معادن القبليّة غوريّها وجلسيّها، عشبة وذات النصب، وحيث يصلح الزرع من

١- أخرجه البخاري كتاب الأطعمة، باب من ناول أو قدم إلى صاحبه على المائدة شيئًا، رقم: ٥٤٣٩.

٢- أخرجه البيهقي، باب التوكل بالله، ج ٢/٤٤١، وقال: تفرد به أبو الربيع عن عاصم، وليس بالقويين.

٣- أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل زكرياء عليه السلام، رقم: ٢٣٧٩.

٤- أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم: ٢٠٧٢.

٥- الكتاني، التراتيب الإدارية، ج ٢/٥٢.



قدس، ولم يُعطه حقَّ مسلم<sup>(١)</sup>، وهو ما يُعرف اليوم بصناعة التعدين.

٥- ثالثاً: على صعيد إدارة الموارد وترشيد الاستهلاك الخاص والعام: ومقتضاه الاقتصاد في استخدام الموارد والاستفادة من التوالف وإعادة استخدام ما يمكن استخدامه من المواد المستعملة، وهو ما يُعرف اليوم ب: إعادة التدوير، إذ لم يكتفِ ﷺ بالنظر والتركيز على الإنتاج وإدارة أدواته، وإنما حرص على المحافظة على المواد الأولية والموارد العامة، تلك التي يمثل الاقتصاد فيها تخفيض المصاريف والحد من تبديدها، ما يعني رفع نسبة الربح والمردود المادي كمًّا ونوعاً، بما يعود بالفائدة على المجتمع كِّله، ومن تلك التوجيهات النبوية الشريفة التي تبرز المنهجية النبوية في تأهيل أفراد المجتمع وتوحيدهم للقيام بدورهم الاقتصادي المفضي حتماً إلى قوة إضافية تساعد وتدعم في تحصين المجتمع وحماية الوطن يذكر الباحث الإجراءات النبوية الآتية دليلاً:

أ- نهى ﷺ عن السرف في استخدام الموارد وأنكر على المسرفين، ولاسيما المياه التي تشكل الحياة لعموم العوالم، فعن عبد الله بن عمرو: "أن رسول الله ﷺ مرَّ بسعد وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف؟! فقال سعد: أفي الوضوء إسراف؟ قال: نعم وإن كنت على نهر جار<sup>(٢)</sup>، وطبَّق ذلك في نفسه، "فكان النبي ﷺ يتوضأ بالمدِّ ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد"<sup>(٣)</sup>.

ب- أمر ﷺ بالحفاظ على الطاقة وأخذ أسباب الأمان في استخدامها، فقال رسول الله ﷺ: "خمروا الآنية، وأوكوا السقية، وأجيفوا الأبواب... وأطفئوا المصابيح عند الرقاد، فإن الفويسقة ربما اجترت الفتيلة فأحرقت أهل البيت"<sup>(٤)</sup>.

١- أخرجه أبو داود، كتاب الخراج، باب في إقطاع الأرضين، رقم: ٣٠٦٢، وعلق عليه الأرناؤوط بقوله: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن في المتابعات والشواهد.

٢- أخرجه ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكرهية التعدّي، رقم: ٤٢٥، ص ٦٢، وقال ابن حجر: أخرجه ابن ماجه وغيره وإسناده ضعيف، ينظر: ابن حجر، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ج ١/٣٨٧.

٣- أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة، رقم: ٣٢٥.

٤- أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم، رقم: ٣٣١٦.

ج- أمر ﷺ بالإفادة من المخلفات والتواف، ومن ذلك: "أن رسول الله ﷺ مرّ بشاة ميتة، فقال هلاً استمتعتم بإهابها؟ قالوا: إنها ميتة!، قال: إنما حُرِّمَ أكلها"<sup>(١)</sup>.

## المبحث الخامس: منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال العسكري

لقد نهجت الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال العسكري منهجاً منطقيًا مميزاً، حيث اهتمت بالإعداد الذي شمل التدريب على مهارات الدفاع عن الوطن، والاهتمام بتصنيع أدوات وأسلحة الدفاع والهجوم العسكري، وذلك بعد التأسيس المعنوي الذي شمل العقيدة والعبادة والأخلاق، وقبل النزج بفلذات الأكباد في أتون المواجهة، وهذا ما سيسلط الباحث الضوء على أبرز المسائل المتعلقة بهذا المجال في المطلبين الآتيين:

**المطلب الأول: إجراءات الإعداد:** وذلك امتثالاً للأمر الإلهي المتمثل بقوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقد ظهرت إجراءات الإعداد النبوي في الخطوات الآتية:

**الأول: تضمير الخيل وإجرائها في التسابق:** فقد أجرى النبي ﷺ ما ضم من الخيل من الحفياء إلى ثنية الوداع، وأجرى ما لم يضم من الثنية إلى مسجد بني زريق، قال ابن عمر: وكنث فيمن أجرى<sup>(٢)</sup>.

**الثاني: التدريب على الرمي والتشجيع عليه:** وثبت ذلك بأحاديث كثيرة، منها: مرّ النبي ﷺ على نفرٍ من أسلم ينتضلون، فقال النبي ﷺ: ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان، قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: ما لكم لا ترمون، قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي ﷺ: ارموا فأنا معكم كلكم<sup>(٣)</sup>.

١- أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب جلود الميتة قبل أن تدبغ، رقم: ٢٢٢١.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب السبق بين الخيل، رقم: ٢٨٦٨.

٣- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، رقم: ٢٨٩٩.

الثالث: تشجيع صناعة الأدوات العسكرية: ومن ذلك:

١- صناعة السهام إِنَّ اللَّهَ لَيُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ الْجَنَّةِ: صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، وَالْمُدَّ بِهِ، وَقَالَ ارْمُوا وَارْكَبُوا وَلَا أَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرَكَّبُوا، كُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ بَاطِلٌ إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَأْدِيهِهِ فَرَسَهُ وَمُلَاعَبَتِهِ أَهْلُهُ فَإِنَّهُمْ مِنَ الْحَقِّ<sup>(١)</sup>.

٢- صناعة المنجنيق: فقد روي أن رسول الله ﷺ أرسل عروة بن مسعود، وغيلان بن سلمة إلى جرش؛ ليتعلَّمَا صناعة الدَّبَابَاتِ وَالْمَنْجَنِقَاتِ وَالْعَرَادَاتِ، وَهِيَ أَضْحَمُ الْأَلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ آنَذَاكَ، وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَى حَاجَةِ الْمُنْظَمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ إِلَيْهَا آنَذَاكَ<sup>(٢)</sup>.

المطلب الثاني: إجراءات التطبيق: ويستشهد الباحث على إجراءات التطبيق النبوي في حماية الوطن والدفاع عنه في المجال العسكري بالنقاط الآتية:

- أولاً: حفر الخندق: فقد ندب ﷺ المهاجرين والأنصار إلى حفر الخندق حول المدينة، وكانوا ينقلون التراب على متونهم<sup>(٣)</sup>، وقد شارك ﷺ بنفسه في حفر الخندق حتى وارى التراب بياض بطنه<sup>(٤)</sup>، والحديث دليل على وجوب حماية الوطن عندما تهدده الأخطار، أو يُنذَرُ بِالْغَزْوِ الْخَارِجِيِّ.

- ثانيًا: الخروج إلى أحد لملاقاة المشركين والدفاع عن المدينة: وذلك أن رسول الله ﷺ شاوَرُ أَصْحَابِهِ يَوْمَ أَحَدٍ فِي الْمَقَامِ وَالْخُرُوجِ، فَرَأَوْا الْخُرُوجَ، فَلَمَّا لَبَسَ لِأُمَّتِهِ وَعَزَمَ قَالُوا: أَمِّمْ، فَلَمْ يَمَلْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْعَزْمِ<sup>(٥)</sup>، والحديث دليل على تحفّزهم لملاقاة عدوهم والدفاع عن مدينتهم وحماية وطنهم.

- ثالثًا: مطاردة العرنيين ومعاقتهم: وذلك من إجراءات الدفاع عن الأوطان فلا تكون

١- أخرجه الترمذي، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، رقم: ١٦٣٧، وقال: حسن صحيح.

٢- الكرمي، الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص ١٩١، باختصار.

٣- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، رقم: ٢٨٣٥.

٤- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: حفر الخندق، رقم: ٢٨٣٧.

٥- رواه البخاري، باب قوله تعالى: وأمرهم شورى بينهم، بعد الحديث رقم: ٧٣٦٨، ص ١٢٦٧.

نَهَبًا لِكُلِّ لَصٍّ، وَثَبَتَ ذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ أَنَسٌ: أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ، اجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَرَحَّصَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْتُوا إِبْلَ الصَّدَقَةِ، فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَقَوْا الدَّوْدَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَّرَ أَعْيُنَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ بِالْحَرَّةِ يُعْضُونَ الْحِجَارَةَ<sup>(١)</sup>.

الخاتمة: وعرض فيها الباحث: نتائج البحث، والتوصيات، وذلك على النحو الآتي:

### أولاً: نتائج البحث: حيث وصل البحث إلى نتائج عديدة، كان أهمها:

١- إنَّ حماية الوطن والذود عنه لا يمكن أن تكون بالشعارات، ولا بالصورة التقليدية والمتمثلة بالجيش الذي يربط على الحدود وحسب، بل لا بدَّ أن تتعدَّى حماية الوطن تلك الصورة النمطية إلى مفهوم أوسع وأشمل، لتغطِّي التأسيس القيمي للمجتمع، ولتتهتمَّ بالتشريع والسياسة، وبالروابط الاجتماعية الموحَّدة للمجتمع، وبتحسين الأوضاع الاقتصادية للمواطنين، وتقوية الجانب العسكري إعدادًا وتأسيسًا؛ ليتكثَّل بذلك مجتمع موحد متجانس فكريًا وثقافيًا وماديًا، فيكون قادرًا فعلاً على حماية الوطن في كل حين، وضدَّ كل ما يدهمه من أخطار.

٢- إن كلمة السرِّ والأساس الأول والقاعدة الأقوى في منهج الإدارة النبوية في بناء المجتمع وتأهيل أفراده على حماية الوطن هي في: تركيزه ﷺ على الوحدة "الوطنية"، وإرساء مبدأ المواطنة، وتكثيل المجتمع قوةً موحَّدةً في مختلف المجالات، وتوحيد تلك المجالات في تكاملية ممنهجة في حماية الوطن.

٣- إنَّ منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال الديني شمل توحيد المجتمع في مجال العقيدة، والعبادة، والأخلاق.

٤- إنَّ منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال التشريعي والسياسي بدأ بوضع أول بذرة دستورية في تاريخ الدولة الإسلامية، من خلال: كتابة "الوثيقة"، ثمَّ باعتماد القيم السياسية الإسلامية داخل المجتمع الإسلامي، ثمَّ بممارسة قادة الإمبراطوريات المحيطة بالدولة الإسلامية الوليدة.

١- رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب استعمال إبل الصدقة وألبانها لأبناء السبيل، رقم: ١٥٠١.

- ٥- إنَّ منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال الاجتماعي تعرّض لإرساء القيم الاجتماعية التوحيدية: كقيمتي العدل والمساواة، وبالقضاء على الطبقية، وبتطبيق مبدأ المؤاخاة بين المؤمنين في المرحلتين المكية والمدنية.
- ٦- إنَّ الإدارة النبوية نهجت في حماية الوطن في المجال الاقتصادي مبادئ تقوية المجتمع في مختلف المجالات الاقتصادية، فعمدت إلى الاستقلال الاقتصادي ونبت التبعية للسيطرة اليهودية على التجارة ببناء السوق الخاصة بالمسلمين، ثم وسّعت الزراعة ودعمتها من خلال إحياء الأراضي الميتة واستغلالها، وشجّعت الصناعة باتباع أساليب جديدة حينها.
- ٧- إنَّ منهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في المجال العسكري ركّز على الإعداد من خلال التشجيع على التدريب، وأسس للصناعة الحربية لتكون وسيلة في حماية الوطن، وطبّق حماية الوطن عند الحاجة باستخدام تقنيات لم تكن العرب تعرفها، كحفر الخندق يوم الأحزاب.

ثانيًا: التوصيات: وقد أوصى الباحث بالآتي:

١. ضرورة تكثيف الجهود البحثية في دراسة السنة النبوية، والعمل على استنباط المناهج النبوية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية.
٢. تعميم نتائج البحوث والدراسات على مختلف فروع الإدارات في المجتمع والتعريف بها بمختلف الطرق، ولاسيما الندوات واللقاءات المباشرة.
٣. اعتماد نتائج البحوث والدراسات في السنة النبوية في مناهج التربية والتعليم؛ لتربية الأجيال عليها.

### قائمة المصادر والمراجع:

- الإسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعيّ، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٧٧٢هـ)، نهاية السؤل شرح منهاج الوصول، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠)، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الرياض، مكتبة المعارف للنشر، (د. ط)، ١٩٩٦م.
- البخاري، أبو عبد الله، محمد بن اسماعيل بن بردزبه البخاري الجعفي، المتوفى: (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، ط ٢، الرياض، السعودية، دار السلام للنشر، ١٩٩٩م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجدي البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط ١، ١٤٠١هـ.
- الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الترمذي، (المتوفى: ٢٧٩هـ)، الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، ط ١، السعودية، الرياض، دار السلام للنشر، ١٩٩٩م.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، كتاب التعريفات، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م.
- جنكو، علاء الدين عبد الرزاق جنكو، المواطنة بين السياسة الشرعية والتحديات المعاصرة، المؤتمر العلمي الثالث لمركز الزهاوي للدراسات الفكرية، ١٦ / ٥ / ٢٠١٤، السليمانية، كردستان العراق، تحت عنوان: (النظام السياسي في الفكر الإسلامي: تحديات الواقع وآفاق المستقبل).
- الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المستدرک على الصحيحين، ط ١، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.
- حامد، خالد حامد، منهجية البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ط ١، الجزائر، جسر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.
- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، ط ١، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

## مجالات حماية الوطن في السنة النبوية ...

- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٩م.
- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة للنشر، ط ١، ٢٠٠١م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، (المتوفى ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، ط ١، الرياض، المملكة العربية السعودية، دار السلام للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.
- دويدري، رجاء وحيد دويدري، البحث العلمي: أساسياته النظرية وممارسته العملية، (د.ط). بيروت، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٥م.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، (بدون رقم طبعة)، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ١٩٩٠م.
- العاني، أنور شريف العاني، أخلاقيات إدارة التسويق في الإدارة العربية الإسلامية، الندوة العلمية الدولية السابعة: إدارة المال والأعمال في السنة النبوية، (بحث محكم)، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، ٢١-٢٣/٤/٢٠١٥م، دبي، الإمارات العربية المتحدة.
- العجلوني، محمد محمود العجلوني، النظرية الإدارية الإسلامية: استنباط الأسس والمبادئ، ط ١، عمان، الأردن، دار المسيرة للنشر.
- عساف، عبد المعطي عساف، النظرية الإسلامية العلمية في الإدارة: (I Theory): نظرية الإدارة بالقيم: MBV، ط ١، الأردن، دار زهران للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.
- العيسوي، عبد الفتاح محمد العيسوي، وعبد الرحمن محمد العيسوي، مناهج البحث في الفكر الإسلامي والفكر الحديث، ط ١، بيروت، دار الراتب الجامعية، ١٩٩٧م.
- الكتاني، محمد عبّد الحّي بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني، (المتوفى: ١٣٨٢هـ)، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة، تحقيق: عبد الله الخالدي، ط ٢، بيروت، دار الأرقم، (د. ت).

- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، (المتوفى: ٥٧٧٤هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: جميل صدقي، ط١، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٧م.
- الكرمي، حافظ أحمد عجاج الكرمي، الإدارة في عصر الرسول، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، ط١، القاهرة، دار السلام للطباعة، ٢٠٠٦م.
- ابن ماجه، أبي عبد الله محمد بن يزيد الربيعي، ابن ماجه القزويني، (المتوفى: ٢٧٣هـ)، سنن ابن ماجه، ط١، الرياض، السعودية، دار السلام للنشر، ١٩٩٩م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٨٣م.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، (المتوفى: ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، ط٢، الرياض، السعودية، دار السلام للنشر، ٢٠٠٠م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، (المتوفى: ٧١١هـ)، لسان العرب، ط٣، بيروت، لبنان، دار صادر، ١٤١٤هـ.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، (المتوفى: ٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: أحمد شمس الدين، الطبعة الأخيرة (بدون رقم)، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ٢٠٠٤م.
- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٩٩٤م.
- **مواقع إلكترونية:**
- التأصيل الشرعي لمفهوم الوطنية - أوراق عمل، موقع السكينة،  
<https://www.assakina.com/book/57990.html> تاريخ الإدراج: ١٤/١١/٢٠١٤م.
- عبد الكافي، إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، نسخة PDF، موقع: كتب عربية (WWW.KOTOBARABIA.COM).



# أحاديث العهود وأثرها في حماية الأوطان

الدكتور/ عادل فائز

جامعة ابن زهر/ أكادير

المملكة المغربية





## المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابه  
أجمعين. أما بعد:

فقد جعل الإسلام العهد من مقتضيات الدين، ومن مقاصده الكبرى التي لا يتحقق مسمى  
الدين إلا بها، وذلك لما له من الأهمية البالغة في حياة الناس واستقرارهم، روحياً وجسدياً ودينياً.

إذ لا يمكن لأي فرد أو دولة أن تعيش بمفردها، معزولة عن غيرها، بل اقتضت سنة الوجود  
البشري، أن تكون الأمم متعاونة متآزرة، تتعايش وتتعاضد.

ولما كان الإسلام ديناً عالمياً جاء إلى الناس كافة، كان من الطبيعي أن يهتم الإسلام بتنظيم  
العلاقات بين المسلمين وغيرهم، حتى يعيش الناس في أمن وأمان. وإن من أبهى الصور التي تتجلى  
فيها تنظيم تلك العلاقات: ما يتعلق بالعهود سواء أكانت عهداً فردية أم جماعية.

وإننا نشهد في هذا العصر تحافياً لأحكام الشريعة فيما يتعلق بالمعاهدين والمستأمنين، وإنكاراً  
للطريقة المثلى التي سنّها الإسلام في التعامل مع غير المسلمين، فكان ذلك سبباً في خراب الأوطان  
وتدميرها مادياً ومعنوياً، فقد فرضت عقوبات اقتصادية على كثير من بلدان المسلمين لأنها خالفت  
عهودها، كما شنت حروب على دول أخرى نتيجة عدم الوفاء بمعاهداتها، فكان من ذلك خراب  
الأوطان وتشريد الشعوب.

فكان لزاماً بيان أهمية المحافظة على العهود، وكيف نظم الإسلام المعاهدات، إذ من شأن  
ذلك أن يحافظ على الأوطان ويصونها من الخراب والدمار، ويحقق لها الأمن والاستقرار والازدهار.  
فلذلك اخترت أن يكون موضوع البحث: أحاديث العهود ودورها في حماية الأوطان.

وقد حظيت قضية العهد في الإسلام باهتمام كبير من لدن الباحثين، فكانت فيه دراسات  
عديدة، أكتفي بالإشارة إلى أهمها: تأصيل العلاقة مع غير المسلمين، من خلال أحداث السيرة

النبوية لحמיד الصغير . والإسلام والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين، عبد المنعم أحمد بركة، رسالة دكتوراه، طبعها مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٠ ٤١ هـ. والتعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم داخل دولة واحدة، سور الرحمن هدايات، رسالة ماجستير، طبعها دار السلام، مصر، ١٤٢١ هـ. والعلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين في الشريعة الإسلامية واليهودية والمسيحية والقانون، بدران أبو العنين بدران، رسالة دكتوراه، طبعها دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

هذه الدراسات، على أهميتها، فإني لم أجد من بينها من أفرد العهد في السنة بالبحث، بل كانت تلك الدراسات، تعتمد على نصوص القرآن، وبعض نصوص السنة؛ فقد عاجلت العهد في الشريعة بصفة عامة، كما ركزت على المقارنة بين الديانات في التعامل مع مخالفيها، ولم أجد من بينها دراسة خصصت لبحث العهد في السنة، وأثره في حماية الأوطان

أضف إلى ذلك أن هذه الدراسات أغفلت جانباً مهماً في قضايا العهود، وهي القيم الإنسانية التي ترمز إليها أحاديث العهود، وكيف كانت تلك القيم المثلى سبباً لبناء الأوطان وحمائتها وهو ما حاولت تجليلته في هذا البحث.

وحين يمتد البحث وجمعت مادته، كانت مادة غزيرة وفيرة، فلم يكن البحث متسعاً لعرضها ومعالجتها، فاقترعت على أهمها، مركزاً على ثلاث قضايا أساسية:

- بيان أن ما شرعه الإسلام في قضايا العهود سواء أكانت بين الأفراد أم الجماعات، حيث إن الهدف العام منه هو حماية الأوطان من الخراب والدمار، وجعلها أوطاناً تنعم بالأمن والاستقرار، وقد تأكدت هذه الحقيقة عبر التاريخ فالدول التي لا تحترم معاهداتها، ولا تلتزم باتفاقياتها يكون ذلك سبباً في خراب أوطانها، وتشريد شعوبها، في حين أن الدول التي تلتزم بعهودها يكون ذلك سبباً في ازدهار أوطانها، واستقرار مجتمعاتها، وأمن شعوبها.

- بيان أن الحفاظ على العهد والوفاء به من المقاصد العظمى لهذا الدين؛ فلذلك رتب على نقضه أشد العقوبات، كما بينت التأصيل النبوي في المحافظة على العهود، والتعامل مع غير المسلمين. أما في الخطوة الثالثة، فقد بينت القيم الإنسانية التي تتضمنها أحاديث العهود، وأن نشر

تلك القيم كفيل بالمحافظة على الأوطان وصيانتها.

**تعريف العهد:** يدل الجذر اللغوي "عهد" في العربية على جملة من المعاني: يوضحها الجوهري بقوله: "العَهْدُ: الأمان، واليمين، والموثق، والذمة، والحفاظ، والوصية"<sup>(١)</sup>، وقد ذكر ابن فارس أن الأصل الذي ترجع إليه معاني هذه الكلمة هو: الاحتفاظ، يقول: " (عَهْدَ) الْعَيْنُ وَالْهَاءُ وَالذَّالُّ أَصْلُ هَذَا الْبَابِ عِنْدَنَا ذَالٌ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، قَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ الْخَلِيلُ. قَالَ: أَصْلُهُ الْإِحْتِفَافُ بِالشَّيْءِ وَإِحْدَاثُ الْعَهْدِ بِهِ. وَالَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ الْإِحْتِفَافِ هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ فُرُوعُ الْبَابِ. فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ عَهْدَ الرَّجُلِ يَعْهَدُ عَهْدًا، وَهُوَ مِنَ الْوَصِيَّةِ. وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْعَهْدَ مِمَّا يَنْبَغِي الْإِحْتِفَافُ بِهِ. وَمِنْهُ اسْتِنْقَاقُ الْعَهْدِ الَّذِي يُكْتَبُ لِلْوَلَاةِ مِنَ الْوَصِيَّةِ، وَجَمْعُهُ عُهُودٌ. وَالْعَهْدُ: الْمَوْثِقُ، وَجَمْعُهُ عُهُودٌ. وَمِنْ الْبَابِ الْعَهْدُ الَّذِي مَعْنَاهُ الْإِلْتِقَاءُ وَالْإِلْمَامُ، يُقَالُ: هُوَ قَرِيبُ الْعَهْدِ بِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِمَامَةَ بِهِ احْتِفَافٌ بِهِ وَإِقْبَالٌ"<sup>(٢)</sup>.

فالأصل -إذا- في كلمة العهد هو الاحتفاظ؛ فالعهد هو عبارة عن الحفظ، حفظ الأمن، وحفظ الاستقرار، وحفظ العلاقات، وغير ذلك. فالأساس في العهد هو: الحفظ، وهناك مصطلحات أطلقت على ذوي العهد في الإسلام، كالمعاهدين، والمستأمنين، وأهل الذمة. وهي مصطلحات سيأتي تعريفها في البحث إن شاء الله.

## المبحث الأول: أثر أحاديث العهود في حماية الأوطان

هذا المبحث هو مقدمة للمباحث الآتية، أروم به بيان أثر أحاديث العهود في حماية الأوطان، بصفة عامة، على أن يتم تفصيل قضايا هذا المبحث في المباحث السالفة، وقد ارتأيت تجلية أثر أحاديث العهود في حماية الأوطان، في نقطتين اثنتين:

**أولاً: لا وطن دون أمن، ولا أمن دون عهد:** اقتضت سنة الوجود أن لا يعيش الإنسان معزولاً عن غيره، بل في هو في حاجة ماسة إلى غيره من البشر، فلذلك هم في حاجة إلى التعايش والتعاون والتساكن، ما يحقق للإنسان خلة الاستقرار والأمان، ولا ريب أن هذا التعايش والتساكن

١- الجوهري، الصحاح ٥١٥/٢.

٢- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ١٦٧/٤.

لا يمكن أن يحصل إلا عن طريق معاهدات تربط بين الأفراد والجماعات؛ هذه الجهود هي التي تحقق للمجتمعات الأمن والاستقرار، الذي هو مناط الحفاظ على الوطن، فما شرعته الأحاديث من حقوق المعاهدين، ما سلف في المباحث السالفة، إنما الغرض منه: أن يشعروا بالأمن في البلدان التي يعيشون فيها، وإذا شعروا فيها بالأمن، كان ذلك باعثاً لهم على الإسهام فيما ينفع الأوطان التي يعيشون فيها، فتزدهر تلك الأوطان، وتصير أوطاناً قوية: اقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً، في حين أن البلدان التي لا تحافظ على معاهداتها، ويروع فيها المستأمنون والمعاهدون، يكون ذلك سبباً في نشوب الحروب فيها، ما يعود بالضرر العميم على الوطن كله، فيصير وطناً مخرباً، يذوق أهله العذاب والويلات.

وهذا ما تأكد في عصرنا الحالي؛ فالبلدان التي يشعر فيها المعاهدون والمستأمنون بالأمن والأمان، نتيجة احترام الجهود التي تربطهم بتلك الدول، يتشجعون على الاستثمار فيها، ما يعود بالنفع على تلك البلدان التي يعيشون فيها، فيخلقون فرصاً للشغل، مما يقلل من البطالة، ويجعل اقتصاد البلد منتعشاً، ما يقلل من نسبة الفقر، ونتيجة ذلك تماسك اجتماعي، ووطن قوي.

في حين أن البلدان التي لا تحافظ على عهودها، فيروع فيها المستأمنون، ويخفر عهدهم، يفرون منها، ولا يتشجعون على الاستثمار فيها؛ فيكون ذلك سبباً في انتشار الفقر والبطالة، ما يكون سبباً في انتشار الجريمة، بل في نشوء الفكر المتطرف، ما يعود على الوطن بالخراب والدمار. كما أن الدول التي لا تحافظ على معاهداتها مع غيرها يكون ذلك سبباً في فرض حصار عليها، فتضعف اقتصادياً واجتماعياً، وتتخبط في مشكلات عويصة.

ومن ثم، فإن الحفاظ على العهد - كما شرعه الإسلام - هو من الأسباب الكبيرة للمحافظة على الأوطان، ووقايتها من الحروب والويلات، فنتيجة الحفاظ على العهد هو تماسك الأوطان، وعكسها خراب الأوطان، ومن ثم واجب تأكيد أن أحاديث العهود في الإسلام مقصدها العام، إنما هو حماية الأوطان.

**ثانياً: قيم العهود والحفاظ على الأوطان:** حماية الأوطان تقتضي وسائل الحماية، وهذه الوسائل قد تكون وسائل حسية، وقد تكون وسائل معنوية، ولربما كانت هذه الوسائل المعنوية

أنجع في حماية الأوطان من الوسائل المادية، وإن من أعظم الوسائل المعنوية هو القيم، فهي الرواسي التي تحمي الأوطان أن تميد.

والمأمل في أحداث العهود يبدو لائحا له أن أما ترمي إلى تحقيق مجموعة من القيم التي تحمي الأوطان، وتُسهم في أمنها واستقرارها، وازدهارها.

وقد تمَّ في المبحث السالف رصدُ بعض القيم التي تتوخى أحداث العهود تحقيقها، والقصد الآن بيان أن هذه القيم الغرض منها حماية الأوطان؛ فأحداث العهود تحقق قيمة الحرية، والتعايش، والتعاون، والرأفة، إلى غير ذلك. وإن كل مجتمع تشيع فيه تلك القيم، لا شك أن وطنه يحمي من الهجمات القيمية الخارجية؛ فيشيع فيه العدل، والمساواة والحرية، وهي قيم تجعل المجتمع متماسكاً، تنمحي فيه الفوارق الاجتماعية، وتزول فيه الفوارق الشاسعة بين الطبقات، ما يجعل المواطنين ينعمون بالاستقرار النفسي، والاجتماعي، وتكون النتيجة العامة لذلك هو: قوة الوطن، وحمانيته. ومن ثم، فإن أحداث العهود في أبعادها العامة، تحقق الوسائل المعنوية لحماية الأوطان، وهي الوسائل القيمية.

وإنَّ أحداث العهود وما تضمنته من أحكام، إنما ترمي في أبعادها العامة ومقاصدها الكبرى، إلى حماية الأوطان، واستقرارها وازدهارها، وقد دَلَّ التاريخ على تصديق هذا الأمر، فما بنيت الدول ولا حميت الأوطان إلا حينما حافظت على عهودها ومعاهداتها، ولا خربت الأوطان وشردت الشعوب إلا حين نقضت الدول معاهداتها. ولذلك عني الإسلام العناية الفائقة بقضايا العهود، لأنها الركن الأساس في قيام البلدان وحماية الأوطان؛ فبالعهود تُحمى الأوطان، وبحمانيته الأوطان تُحمى شعائر الدين، لأنهما أمران متلازمان ضرورة.

### المبحث الثاني: الوفاء بالعهد من مقاصد الدين

جعل الله تعالى الإنسان خليفة في الأرض؛ قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ﴾ [البقرة ٣٠]، فكان المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها.

ولا ريب أن استمرار صلاحها إنما يكون بصلاح المستخلفين فيها<sup>(١)</sup>، ولذلك كان الغرض من الشريعة: تحقيق مصالح الناس، ودرء الفساد عنهم؛ يقول العز بن عبد السلام: "اعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يشرع حكماً من أحكامه إلا لمصلحة عاجلة أو آجلة، أو عاجلة وآجلة، تفضلاً منه على عباده. . . والشريعة كلها مصالح، إما تدرأ مفاسد، أو تجلب مصالح"<sup>(٢)</sup>.

فكان من مقاصد الدين العامة: الحفاظ على النفس؛ إذ عظم الإسلام حرمتها، وحرّم إذابتها، وإلحاق الضرر بها، بل جعل الاعتداء عليها بالقتل جريمة في حق الإنسانية جمعاء، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة ٣٢]، بيانا لعظم حقها.

وحفاظاً على النفس وحققها في العيش الكريم والحياة السعيدة، شرعت الشريعة الإسلامية مجموعة من الأحكام، وسنت مجموعة من القوانين، من بينها: المحافظة على العهود وتحريم نقضها، سواء أعلق الأمر بالعهد بين الإنسان وربه أم بين الإنسان وأخيه الإنسان، أو بين دولة ودولة.

ذلك أن احترام العهود والمواثيق من شأنه أن يحقق للناس الاستقرار والأمن، وأن يحفظ أوطانهم من الدمار والخراب، كما أن نقضه من شأنه أن يسبب نشوب الحروب، وإزهاق الأنفس والأرواح، وتخريب الأوطان والمجتمعات؛ فكان الحفاظ على العهد من مقاصد الدين العامة.

وقد وردت عن المصطفى ﷺ مجموعة من الأحاديث، تؤكد هذا الأمر وتجليه، أقتصر في ذا المقام على بعض منها:

أولاً.: قول النبي ﷺ "لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ"<sup>(٣)</sup>. دل هذا الحديث بصريح لفظه على نفي الدين على من ليس له عهد<sup>(٤)</sup>، ولا شك أن هذا الوعيد الشديد لا يرتب

١- علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ص ٤٩.

٢- عز الدين بن عبد السلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/٩.

٣- صحيح ابن خزيمة، كتاب الزكاة، - جماع أبواب ذكر السعاية على الصدقة - باب في التغليظ في الاعتداء في الصدقة وتمثيل المعتدى فيها بمعانيها، حديث رقم ٣٣٤.

٤- وقد ذهب جمع من الشراح إلى أن النفي هنا إنما هو نفي كمال، وحتى على هذا الرأي، فإن نفي الكمال دليل النقصان، وهو جرم لا يرتب إلا على الأمور العظيمة في الدين.



إلا على جرم عظيم في الشريعة، يمس بمقاصدها العامة، وبأسسها الكبرى، فلو لم يكن العهد من المقاصد الجامعة لهذا الدين، لما رتب عليه الشرع هذا الوعيد الشديد، يقول الزحيلي: "وجزاء ناكثي العهد، وخائني الأمانات، أشدّ عند الله من مرتكبي بقية الكبائر، كالزنا، والسرقه، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وعقوق الوالدين، لأن مفسدة نقض العهد عامة شاملة، وضررها أعظم وأخطر"<sup>(١)</sup>. ولذلك كان النبي ﷺ يستعيذ منه، فيقول كما روى أبو هريرة رضي الله عنه: "كان رسول الله ﷺ يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ؛ فَإِنَّهُ يَبْسُ الصَّحِيحُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ؛ فَإِنَّهَا بَسَّتِ الْبَطَانَةَ"<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: جعل الشرع الحفاظ على العهد من علامات الإيمان، وجعل نقضه وإخلافه من علامات النفاق؛ فقد جاء في الحديث الصحيح "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا أُوْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"<sup>(٣)</sup>.

فلو لم يكن الحفاظ على العهد من مقاصد الدين، لما جعله الشرع نقضه أمارة من أمارات النفاق، ولذلك جعل هرقل الوفاء بالعهد من دلالة صدق نبوة محمد - رضي الله عنه - في حديثه الطويل مع أبي سفيان، وقد جاء فيه " وَسَأَلْتُكَ: بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَأَكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ"<sup>(٤)</sup>.

وإذا كانت الأحاديث السالفة دالة على مكانة العهد في الإسلام، وكونه مقصداً عاماً من مقاصدها، فإن الأمر يزداد تأكيداً حين يتعلق الأمر بمن ليس على دين الإسلام، ممن تربطهم مع المسلمين عهود ومواثيق.

- ١- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٢/ ٢٧٠.
- ٢- سنن النسائي، كتاب الاستعادة، باب الاستعادة من الجوع، حديث رقم أبي داود، باب في الاستعادة حديث رقم ٥٤٨٣.
- ٣- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق حديث رقم ٣٤.
- ٤- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالنُّبُوَّةِ، وَأَنَّ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ حديث رقم ٢٩٤٠.

فقد أكدت الشريعة احترام هذه العهود، وجاءت نصوص كثيرة في السنة تحتم على المسلمين احترام عهودهم مع غيرهم، وتحذرهم من نقضها، لما لذلك من الأهمية البالغة في الحفاظ على استقرار المجتمعات، وتعايش الناس، وهذا ما تكفل المبحث الثالث بمعالجته:

### المبحث الثالث: أحاديث العهود وتأصيل العلاقة بين المسلمين وغيرهم

الإسلام دين عالمي، شمولي كوني، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث النبي ﷺ - إلى الناس كافة؛ فكان "من فضل الله على الأمة الإسلامية: أن الرسالة الخاتمة جاءت شاملة لكل ما يحتاج إليه المسلمون في حياتهم الدنيوية والدنيوية، موجهة لكل الثقليين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ذاك أن الهدف هو هداية الله للإنسان، دون قصر الدعوة على جنس بذاته، أو مكان معين؛ إذ إن دعوة النبي ﷺ - موجهة إلى الناس كافة"<sup>(١)</sup>.

فهو دين جاء لتحقيق السعادة للبشرية جمعاء، ولذلك لم تقتصر تشريعاته وتعاليمه على أتباعه، بل شمل حتى من ليس معتنقاً له، فشرع جملة أحكام للتعامل مع غير المسلمين، سواء الذين يعيشون في بلاد المسلمين، أم الذين تربطهم مع المسلمين عهود ومواثيق، ما يحقق للطرفين التعايش والسلام، والأمن والاستقرار.

ويروم هذا المبحث بيان أهمية المحافظة على العهود التي تبرم مع غير المسلمين، سواء أكانوا قاطنين في بلاد المسلمين أم ليسوا كذلك، ومن ثم جعلت هذا المبحث في محورين؛ خصصت المحور الأول للعهود بين غير المسلمين ومن يقطن في بلادهم، والمحور الثاني للعهود بين المسلمين ومن لا يقطن في بلادهم؛ أي بين المسلمين والبلدان الأخرى.

**المحور الأول: العهود بين المسلمين وغيرهم ممن يقطن في بلاد المسلمين:** جعل ابن القيم أهل العهد ممن يعيشون في بلاد المسلمين ثلاثة أصناف: "أهل ذمة، وأهل هدنة، وأهل أمان، يقول: "ولفظ الذمة والعهد يتناول هؤلاء كلهم في الأصل، وكذلك لفظ الصلح، فإن الذمة من جنس العهد والعقد"<sup>(٢)</sup>

١- الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله ص ٤٨.

٢- ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة ٤٣/٢.

**أولاً:** - أهل الذمة<sup>(١)</sup>؛ هم مَنْ ليسوا بمسلمين، ويسكنون مع المسلمين في الوطن نفسه، ووصفهم بأهل الذمة لأنهم أهل عهد وأمان<sup>(٢)</sup>؛ فالمعاهد: هو كل مَنْ له مع المسلمين أمان بعهد شرعي.

**ثانياً:** - المستأمنون؛ هم الوافدون إلى بلاد الإسلام، لغرض التجارة أو العمل أو نحو ذلك، ويدخل في هذا الصنف: الدبلوماسيون، والمستثمرون، ورجال الأعمال؛ فالمستأمنون أنواع عدة؛ يقول ابن القيم: "المستأمن هو الذي يقدم بلاد المسلمين من غير استيطان لها، وهؤلاء أربعة أقسام: رسل، وتجار، ومستجبرون حتى يعرض عليهم الإسلام والقرآن. وطالبوا حاجة من زيارة وغيرها"<sup>(٣)</sup>. فكل هؤلاء مستأمنون؛ أي أعطي لهم الأمان.

فالحفاظ على العهود التي تربطها الدولة الإسلامية مع المعاهدين أو المستأمنين، من شأنه أن يجعل المسلمين مع غيرهم في تعايش وسلم، ما ينتج عنه تقدم البلدان وازدهارها؛ فالمستثمرون على سبيل المثال، حين يجدون الأمن والأمان في بلد من بلدان الإسلام، يتشجعون للاستثمار فيه، وبذلك يسهمون في خلق فرص الشغل التي تنمي البلد المستثمر فيه.

كما أن عدم المحافظة على العهود تجعل البلد في عزلة تامة، بل لربما كان نقض العهود سبباً في نشوب حروب طاحنة، تأتي على الأخضر واليابس.

ونظراً لأهمية المحافظة على عهود المعاهدين والمستأمنين في حماية الأوطان، جاءت مجموعة من الأحاديث تبين كيفية التعامل معهم، وتشرع لهم مجموعة من الأحكام والقوانين؛ أقتصر في هذا المقام على بعض منها:

**أولاً:** وجوب الوفاء بالعهد لمن أبرم معه العهد: سبق القول إن الوفاء بالعهد من المقاصد العظمى لهذا الدين، سواء أكان بين العبد وربّه أم بين الإنسان وأخيه الإنسان. ويزداد أمر الوفاء

١- أفرد العلماء كتباً لأحكام أهل الذمة وما يتعلق بهم في بلاد المسلمين، من أهم تلك الكتب: كتاب: أحكام أهل الذمة لابن القيم، وليس القصد في هذا المقال بيان أحكام أهل الذمة، وإنما بيان أهمية الحفاظ على عهودهم في حماية الأوطان، انطلاقاً من الأحاديث الواردة في ذلك.

٢- ينظر: وهبة الزحيلي، الإسلام وغير المسلمين ص ٦٠ - ٦١.

٣- ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة ٢/٤٧٦.

بالعهد تأكيداً حينما يتعلق بالمعاهدين والمستأمنين، ولذلك وردت أحاديث عدة تحذر من الغدر بعهدهم، فمن ذلك حديث سليم بن عامر، قال: "كان بين معاوية وبين الروم عهداً، وكان يسيرُ نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهدُ غزاهم، فجاء رجل على فرسٍ أو برَدُونٍ وهو يقول: اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، وفاءٌ لا غدرٌ، فنظروا فإذا عمرو بن عَبَسَةَ، فأرسلَ إليه معاويةُ، فسأله، فقال: سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ: " مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَجْلُهَا حَتَّى يَنْقُضِيَ أَمْدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سِوَاءٍ " فرجع معاوية" (١).

فقد دلَّ هذا الحديث على حرمة نقض العهد حتى تنقضي مدته، وإذا خاف منهم خيانة وأراد أن ينهي العقد فليعلمهم بذلك، حتى يكون في العلم بانتهاء العقد على حد سواء. ومن ذلك أيضاً قول النبي ﷺ: "لِكُلِّ عَادِرٍ لَوْاءٌ يُنْصَبُ بَعْدَ رَيْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (٢). ولا بد في ذا المقام تأكيد قضية من الأهمية بمكان، وهي أن حفظ العهد من الأمور التي فرضها القرآن الكريم في نصوصٍ كثيرة (٣)، سواء تعلق الأمر بالعهد العام، أم الخاص. ثم جاءت السنة فزادت الأمر تأكيداً وبيانا. وإن هذه الأحكام التي يشرعها القرآن والسنة، لها مرتبة عظيمة، ومنزلة سامقة، ولا تكون إلا في الأمور العظيمة في الدين، إذ ليس ما تفردت السنة بتشريعه في مرتبة ما شرع بالقرآن والسنة معاً، فهناك تراتبية في الأحكام، انطلاقاً من مصدر تشريعها "ومن أخطأ هذه القاعدة الأصولية الجلييلة فاته كثير من فقه الدين" (٤).

**ثانياً:** حرمة دمائهم: عَظَّمَ الإسلام أمر الدماء، فلذلك حرم القتل وجعله من أعظم الكبائر، وقد سبق أن حفظ النفس من المقاصد العامة لهذا الدين، ولذا ركز النبي ﷺ على هذه المسألة في خطبة حجة الوداع، فقال عليه الصلاة والسلام: "أَلَا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ،

١- سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير نحوه، حديث رقم ٢٧٥٥.

٢- صحيح البخاري كتاب الجزية، باب اثم الغادر للبر والفاجر، حديث رقم ٣١٨٨.

٣- هناك آيات عديدة أمر الله فيها المسلمين بالوفاء بالعهد، مع بعضهم ومع غيرهم ممن ليس على دينهم. للتوسع في موضوع العهد في القرآن ينظر: وفاء حيدر شقورة، الوفاء في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية.

٤- فريد الأنصاري، سيماء المرأة في الإسلام ص ٦٥.

كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ " قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ - ثَلَاثًا - وَبَلَّغْتُمْ، أَوْ وَبَلَّغْتُمْ، أَنْظُرُوا، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ" (١).

ويستوي في هذه الحرمة المسلم، والذمي، والمعاهد؛ فكما يحرم سفك دم المسلم دون حق شرعي، فكذلك لا يجوز سفك دم المعاهدين والمستأمنين، وقد وردت عدة أحاديث في هذا الأمر؛ من ذلك حديث أبي بكر، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدَةً بَعِيرَ حَقِّهَا، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أَنْ يَشْمَ رِيحَهَا" (٢). وفي رواية أبي هريرة أن النبي ﷺ، قَالَ: "أَلَا مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدًا لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ أَخْفَرَ بِذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يُرِيحُ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا" (٣).

وقد أغلظ النبي ﷺ القول والوعيد لمن أَمَّنَ رجلاً ثم قتله؛ يقول ﷺ: "أَيُّمَا رَجُلٍ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ ثُمَّ قَتَلَهُ، فَأَنَا مِنَ الْقَاتِلِ بَرِيءٌ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا" (٤).

ولعظم حرمة دم المعاهدين جعل الشرع الحنيف المسلمين متكافئين في استئمان غيرهم، فكل من أجار من ليس على دين الإسلام، وأعطى له الأمان فلا يجوز لأحد من المسلمين إذيته، فقد جاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - "المسلمون تتكافأ دِمَاؤُهُمْ: يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَرُدُّ مُشَدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، وَمُتَسَرِّبِهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ، لَا يُقْتَلُ مَوْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ" (٥).

فكل من أجار من المسلمين أحداً وأعطى له أماناً، فلا يجوز لأحد الاعتداء عليه، ولو كان المستأمن امرأة، وقد دل على ذلك حديث أم هانئ: "قَالَتْ ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ بِثَوْبٍ، قَالَتْ: فَسَلَّمْتُ، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ فَقُلْتُ: أَنَا

١- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، حديث رقم ٤٤٠٢.

٢- صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الذمي والجزية، حديث رقم ٤٨٨٢.

٣- المستدرک علی الصحیحین، کتاب الجهاد، حديث رقم ٢٥٩٦.

٤- صحيح ابن حبان باب ذكر الزجر عن قتل المرء من آمنه على دمه حديث رقم ٥٩٨٢.

٥- سنن النسائي، كتاب القسامة والقود، باب القود بين الأحرار والمماليك في النفس، حديث رقم ٤٧٤٩.

أُمُّ هَانِيٍّ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: "مَرَّحَبًا بِأُمِّ هَانِيٍّ"، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ مَلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا أَجْرْتُهُ فَلَانَ بْنُ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "قَدْ أَجْرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِيٍّ"<sup>(١)</sup>.

ثالثًا: حرمة أموالهم: وردت أحاديث عدة يبين فيها النبي ﷺ - أن أموال المعاهدين لا تحل استباحتها، ولا الاعتداء عليها، فحرمتها كحرمة أموال المسلمين؛ ومن ذلك حديث خالد بن الوليد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ - خير، فأتيت اليهود، فشكوا أن الناس قد أسرعوها إلى حظائرهم، فقال رسول الله ﷺ -: "ألا لا تحلُّ أموال المعاهدين إلا بحقها، وحرامٌ عليكم حُمُرُ الأهلية، وخيلها، وبغالها، وكل ذي نابٍ من السباع، وكلُّ ذي مخالبٍ من الطير"<sup>(٢)</sup>.

فدل هذا الحديث على أن المعاهدين لهم من الحقوق ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، فلا يجوز الاعتداء على أموالهم، ولا أعراضهم، ولا نفوسهم، يقول القرافي: "إن عقد الذمة يوجب حقوقًا علينا لهم، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا، وذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ - ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله، وذمة الإسلام"<sup>(٣)</sup>.

رابعًا: الدفاع عنهم: كل من اعتدى عليهم يجب التصدي له، سواء أكان مواطنًا من دولة أخرى تحارب المسلمين، أو كان من أهل الذمة، أو من المسلمين. ولذلك وصَّى عمر بن الخطاب من تولى الخلافة من بعده بقوله: "وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفوا إلا طاقتهم"<sup>(٤)</sup>.

خامسًا: حرمة إزايتهم بأي نوع من أنواع الإذابة: عمومًا فإن إلحاق أي نوع من أنواع الإذابة بالمعاهدين لا يجوز، سواء تعلق الأمر بالنفس، أو المال، أو العرض، فهذا بمثابة أصل جامع في التعامل مع المعاهدين.

١- صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحقًا به، حديث رقم ٣٥٧.

٢- سنن أبي داود، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في أكل السباع. حديث رقم ٣٨٠٦.

٣- القرافي، الفروق ٣/١٤.

٤- صحيح البخاري باب ماجاء في قبر النبي ﷺ حديث رقم ١٣٩٢.

يقول جمال الدين القاسمي: "جاءت السنة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، ومن آذى ذمياً فليس منا. واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام. ولست أبالي إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام، عند ما بدأ الضعف في الإسلام، وضيق الصدر من طبع الضعيف، فذلك مما لا يلصق بطبيعته، ويخلط بطيبته"<sup>(١)</sup>.

هكذا سوى الشرع الحنيف بين المسلمين والمعاهددين في الحقوق والواجبات؛ يقول الزحيلي: "قرر الإسلام المساواة بين المسلمين والذميين في كثير من الحقوق، أثبت لهم عصمة الدماء، والأموال، والأعراض، بل أعفى الذميين من بعض الواجبات، ومع ذلك فلهم ما للمسلمين من الحقوق المدنية، والسياسية، وعليهم ما على المسلمين من الواجبات التي تتعلق بأمن البلاد، ونظام التعامل والعقوبات"<sup>(٢)</sup>.

هذه بعض الحقوق التي جعلها الله تعالى للمعاهددين، وإن من شأن احترامها أن ينعم البلد الذي يعيشون فيه بالاستقرار، والأمن والنماء، فيحقق أمنًا اقتصاديًا، وثقافيًا، وسياسيًا، واجتماعيًا، وبذلك يحافظ الوطن على تماسكه واستقراره وتقدمه، وتلك فلسفة الإسلام في المحافظة على العهود.

**المحور الثاني: العهود مع الدول التي ليست مسلمة (المعاهدات الدولية):** معلوم أن دولة الإسلام تحتاج دومًا إلى عقد معاهدات مع غيرها، ممن ليس على دينها، وهو أمر من الأهمية بمكان، وقد بين النبي - ﷺ - أهمية المعاهدات الدولية، ودورها في بناء الأوطان، والحفاظ على استقرارها، بل إن سيرته - ﷺ - تعد درسًا في التعامل مع الدول الأخرى، وسأقف في ذا المقام مع معاهدة أبرمها النبي - ﷺ - لنتبين منها الهدى النبوي في بناء الأوطان، والمحافظة عليها، وهي المعاهدة التي أبرمها مع اليهود.

فقد كانت الخطوة الأولى التي أقدم عليها النبي - ﷺ - وهو يروم بناء دولة إسلامية: إبرام معاهدة مع من كان يسكن بالمدينة من اليهود، فلم تتجه سياسته - ﷺ - إلى مصادرتهم، وطردهم

١- جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، ٣٨٥/٥.

٢- وهبة الزحيلي، الإسلام وغير المسلمين ص ١٣٩ - ١٤٠.

من المدينة، وإنما إلى موادعتهم ومعاهدتهم، على أن يكون له دينه ولهم دينهم<sup>(١)</sup>. يقول ابن القيم: "فصالح يهود المدينة، وكتب بينهم وبينه كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قينقاع، وبني النظير، وبني قريظة"<sup>(٢)</sup>.

وقد روت كتب التاريخ والسير نص هذا العهد الذي عاهد به النبي - ﷺ - اليهود؛ يقول ابن إسحاق: "وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَادَعَ فِيهِ يَهُودَ وَعَاهَدَهُمْ، وَأَقْرَبَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَشَرَطَ لَهُمْ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فَلِحَقِّ بِهِمْ، وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنْ لَا يُحَالَفَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ، وَإِنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ، يُجْبِرُ عَلَيْهِمْ أَذْنَاهُمْ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوْلَى بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ، وَإِنَّهُ مَنْ تَبَعَنَا مِنْ يَهُودٍ فَإِنَّ لَهُ النَّصَرَ وَالْأَسْوَدَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ، لَا يُسَالِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ، وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتَغُ إِلَّا نَفْسَهُ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتَغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَإِنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصَرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ، وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَأْتُمْ امْرُؤٌ بِجَلِيفَةٍ، وَإِنَّ النَّصَرَ لِلْمَظْلُومِ، وَإِنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرَ مُضَارٍّ وَلَا آثِمٍ، وَإِنَّهُ لَا بُحَارَ حُرْمَةً إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا، وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادَهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَتَقَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ. . . وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ، وَإِنَّهُ لَا يُحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ وَأَثَمٍ، وَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنًا، وَمَنْ

١- ينظر: ابن شبة، تاريخ المدينة ٤٥٩/٢.

٢- ابن القيم: زاد المعاد ١٤٨/٢.



قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثَمَ، وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ" (١).

هذا العهد الذي وادع به النبي - ﷺ - اليهود يدل على مجموعة من القضايا المهمة في معاهدة الأطراف الخارجية، أذكر اثنتين منها:

١. إن اليهود بمقتضى هذه الوثيقة يصيرون رعية واحدة مع المسلمين، يسري عليهم ما يسري على المسلمين من النظم والأحكام، كما أن لهم الحق في ممارسة شعائرهم، والاحتفاظ بعقائدهم، وقد كفل لهم المصطفى - ﷺ - حقوقهم في أجلى صورة، من ذلك أن أبا حدرد أحد الصحابة، كان ليهودي عليه أربعة دراهم، فاستعدى عليه النبي - ﷺ - فأمره النبي - ﷺ - أن يعطي لليهودي حقه (٢)، فاضطر أبو حدرد إلى بيع برده ليسدد ما عليه لليهودي، فتساوى اليهودي والمسلم أمام عدل الإسلام.

٢. إقامته - ﷺ - النظام الاجتماعي على أساس التشارك والاختلاط، فلم ير حرجاً في أن يعمل مسلم عند يهودي أو العكس، لأن المجتمع قائم على نظام التشارك والتعاون، وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه اشتغل عند يهودي فسقى له إبله كل دلو بتمرة (٣)، وقد أخبر النبي بذلك فلم ينكره.

وقد حافظ النبي - ﷺ - على هذا العهد، حتى نقضه اليهود، فكان بينه وبينهم ما هو معلوم في كتب السيرة.

فلم يلجأ النبي - صلى عليه وسلم - إلى الحرب والمواجهة، بل لجأ إلى المودعة والمهادنة، لأنها السبيل الأمثل إلى التعايش وبناء الأوطان، واستقرار المجتمعات.

فتبين مما سلف أن النبي - ﷺ - كان يعاهد مخالفه، ويضمن لهم بمقتضى ذلك العهد حقوقهم، وحث الأمة على احترام تلك العهود، وحذر ناقضها، وتوعده بأشد أنواع الوعيد، وما

١- ابن هشام، سيرة ابن هشام ١/٥٠١-٥٠٤.

٢- مسند الإمام أحمد حديث رقم ١٥٤٨٩.

٣- سنن ابن ماجه باب الرجل يستقي كل دلو بتمرة ويشترط جلدة حديث رقم ٢٤٤٦.

ذلك إلا محافظة على الأوطان واستقرارها.

وإن المتأمل في مختلف الأحكام التي شرعها الله تعالى في مجال العهود، وما حوته السيرة العطرة من مواقف تجاه المعاهدين، ليدرك أن الشرع يهدف من خلالها إلى تحقيق مجموعة من القيم الإنسانية، التي تعد الركائز الأساسية لبناء المجتمعات والأوطان، وهذا ما تكفل المبحث الرابع ببيانه:

### المبحث الرابع: القيم الإنسانية في أحاديث العهود ودورها في حماية الأوطان.

تهدّف الإسلام في تشريعاته وأحكامه تحقيق مجموعة من القيم التي تسعد البشرية جمعاء، من ذلك: تشريعاته المتعلقة بالعهود، فقد تقصّد الإسلام من وراء الأحكام التي شرعها في قضايا العهود، غرس مجموعة من القيم الإنسانية التي ينبغي أن يتشبع بها المسلمون في علاقتهم مع من ليس على دينهم، وسأكتفي في ذا المقام بعرض بعض من تلكم القيم المتضمنة في أحاديث العهود، ولعل أهمها:

**أولاً: الحرية:** لا شك أن من القيم التي ينشدها العالم اليوم، ويسعى إلى تحقيقها فيما يسنه من قوانين: جعل الفرد والمجتمع يتمتع بأوفر نصيب من الحرية، وإن المتأمل في أحاديث العهود، وما شرعته من أحكام، ليجد أنها تدعو إلى تحقيق نوع من الحرية التي يسعى إليها الفرد، وهي: حرية الاعتقاد.

فقد اتسم موقف الإسلام من الأمم والأديان الأخرى " بالتسامح، واحترام حرية عقائد هذه الأديان، وشعائرها. وعلى أساس هذا الموقف، أقام الإسلام جميع ما قرره من قواعد، وما سنه من مبادئ لتنظيم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين"<sup>(١)</sup>.

وقد دلت الأحاديث السالفة في العهود، على أن المعاهد له كامل الحرية في ممارسة عقائده، وشعائره الدينية، دون أي تضيق أو منع، وهذا يتماشى مع قاعدة عامة في باب العقائد، وهي

القاعدة أصلتها الآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة ٢٥٦]

وقد سار الصحابة على هدي النبي - ﷺ - في هذا المبدأ الرشيد في التعامل مع غير المسلمين، فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - جاءته امرأة مشركة في حاجة لها، فدعاها إلى الإسلام فرفضت،

١- علي عبد الواحد وافي، بحوث في الإسلام والاجتماع، ص ٦٣.

ثم قضى لها حاجتها، وخشي - ﷺ - أن يكون مسلكه هذا قد انطوى على إكراه، فاستغفر الله مما فعل، ثم قال: "اللهم إني أرشدت ولم أكره"<sup>(١)</sup>.

**ثانيًا: المساواة والعدل:** الإسلام دين عدل وقسط، فلا يظلم في كنفه أحد؛ فلذلك سوى الشرع الحنيف في كثير من الأمور بين المسلمين وغيرهم، لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات، وقد ضرب النبي - ﷺ - أروع الأمثلة في هذه القضية، فقد مرت جنازة يهودي بالنبي - ﷺ - فقام لها، فقيل له: إنها جنازة يهودي فقال - ﷺ - : "أليست نفساً؟"<sup>(٢)</sup>.

أما الأحاديث الدالة على العدل والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين، فهي أكثر من أن تحصى، وقد سبقت الأحاديث الدالة على تحريم دماء المعاهدين، وأموالهم، وإذابتهم، لذا أكتفي في ذا المقام بحديث واحد، يبين هذا الأمر في أجلي صورة. فقد أتى زيد بن سعة النبي - ﷺ - وكان من أحابار اليهود قبل أن يسلم، فجذب ثوب النبي - ﷺ - عن منكبه، ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب أصحاب مطل، وإني بكم لعارف، فما كان من عمر بن الخطاب - ﷺ - إلا أن ثار لرسول الله - ﷺ - فانتهر زيدا، فقال النبي - ﷺ - : يا عمر أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج، أن تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي، انطلق يا عمر أوفه حقه، أما إنه قد بقي من أجله ثلاث، فزده ثلاثين صاعًا لتزويرك عليه"<sup>(٣)</sup>.

هكذا صنع المسلمون بأهل الكتاب، وعلى هذه العدالة التامة قامت المعاهدات، لأن رعاية الحق، وإقامة العدل، هما أساس الصلة التي ينشئها المسلمون مع مخالفيهم في الدين، ومثل هذه الوقائع في زمن النبي - ﷺ - وفي زمن الخلفاء أكثر من أن تحصى، وقصة علي بن أبي طالب - ﷺ - مع شريح القاضي، أشهر من نار على علم<sup>(٤)</sup>. وهذا ما دفع بعض المستشرقين إلى أن يشيد بعظمة النبي - ﷺ - في تأسيس هذا المبدأ، فقال: "إن محمدًا كان هو النبي والملهم والمؤسس، ولم

١- السيوطي، الدر المنثور ٣/١٩٩.

٢- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي حديث رقم ١٣١٢.

٣- المستدرك على الصحيحين، كتاب البيوع، - إن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها، حديث رقم ٢٢٥٠.

٤- ابن كثير، البداية والنهاية ١١/١٠٨.

يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا. . . ومع ذلك فلم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر، أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين، إن شعور المساواة والإخاء، الذي أسسه بين الجمعية الإسلامية، كان يطبق تطبيقاً عملياً حتى على النبي نفسه<sup>(١)</sup>.

**ثالثاً: التسامح:** من المبادئ العظيمة لهذا الدين مبدأ التسامح، خاصة ما يتعلق بالمعاهدات التي يعقدها المسلمون مع مَنْ ليسوا على دينهم، سواء أكانوا ذميين أو مستأمنين أو غيرهم. وقد كانت المعاهدات التي أبرمها النبي - ﷺ - مع المشركين، أو أهل الكتاب، أروع نموذج في تسامح الإسلام. ففي صلح الحديبية كان باستطاعة جيش المسلمين أن يدك بلاد المشركين دكاً، وأن يدخلها عليهم عنوة، لكن أثر النبي - ﷺ - حقق الدماء، ولما تم الاتفاق بين الطرفين كان ظاهر بعض بنوده الحيف ما دفع عمر بن الخطاب - ﷺ - إلى إبداء نوع من الاعتراض قائلاً: ففيم نعطي الدنية في ديننا<sup>(٢)</sup>؟ لكن النبي - صلى الله عليه - أثر التسامح والرفق، بدل الشدة والعنف، فقبل منهم هذا البند لأنه - ﷺ - يعلم العاقبة الحميدة للتسامح والرفق، ولذلك سمى الله تعالى ما وقع في صلح الحديبية: بالفتح المبين. وقد كان صلح الحديبية بصفة عامة، درساً عظيماً، ورؤية استراتيجية بعيدة المدى، لأنها تنسجم مع الأهداف التي تحققت في المستقبل.

فكان صلح الحديبية فتحاً للقلوب التي كانت مغلقة على الشرك؛ ففي أثناء هذه الهدنة، أسلم كثيرون من دهاة قريش وصناديدها، وما استطاعت بعد ذلك أن تشن حرباً على رسول الله - ﷺ - فكان هذا الصلح المتسامح فتحاً مبيناً<sup>(٣)</sup>. هكذا عاش أهل الذمة في كنف الدولة الإسلامية في العهد النبوي، يتمتعون بكامل حريتهم، لا يروعونهم أحد، ولا ينتقصهم أحد، وقد دلت أحداث السيرة النبوية، أنهم كانوا أحراراً حتى في تعاملاتهم مع النبي - ﷺ - على الرغم من مكانته ﷺ، ولا أدل على ذلك من حديث أبي رافع مولى رسول الله - ﷺ - حيث قال: "نزل برسول الله - ﷺ - ضيف، فأرسلني إلى يهودي بالمدينة يستسلفه، فأتيته فقال: لا أسلفه إلا برهن، فأخبرته بذلك، فقال: إني لأمين في أهل السماء وفي أهل الأرض، فاحمل درعي إليه، كما ثبت

١- نقلاً عن: محمد غلاب، هذا هو الإسلام ص ٧٨.

٢- صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، حديث رقم ١٧٨٥.

٣- محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام ص ٢٦٥

أيضاً أنه - ﷺ - توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير. (١)

ولا شك أن هذا السلوك منه - صلى عليه وسلم - إنما فعله ليبين سماحة الإسلام في التعامل مع من ليس من أهل الإسلام، وأنه دين يدعو إلى التسامح والتعايش، لا إلى التنازح والتنافر، وإلا فقد كان من بين أصحاب النبي - ﷺ - أثرياء يعطون النبي - ﷺ - ما شاء برضى منهم، بل كانوا يتسابقون إلى ذلك، كما دلت على ذلك أحاديث كثيرة، ففعله - صلى الله عليه - كان القصد منه أن يبين بشكل عملي سمو الإسلام وسماحته في تعامله مع غير المسلمين.

**رابعاً: التعايش:** لا شك أن من المشكلات العويصة التي يعاني منه العالم اليوم: مسألة التعايش بين الديانات المختلفة في بلد واحد؛ إذ هناك مَنْ يرى بينها تناحراً، فيسعى إلى فرض نوع من العنصرية، والتضييق على معتقد ما، أو نحلة ما؛ وإن رمى إليه الشارع في أحاديث العهود: جعل أهل الديانات المختلفة يتعايشون في بلد واحد، يتمتع فيه المعاهد بكامل حقوقه، السياسية والمدنية، له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، وقد كان العهد النبوي أمثل عهد على تحقيق ذا التعايش.

وقد سار الصحابة على سنن المصطفى - ﷺ - في معاملتهم للمخالفين في الدين، ولا أدل على ذلك من حديث أسماء بنت أبي بكر، قالت: "كُنْتُ مَرَّةً فِي أَرْضٍ قَطَعَهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَالزُّبَيْرِ مِنْ أَرْضِ النَّضِيرِ، فَخَرَجَ الزُّبَيْرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَنَا جَارٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَذَبَحَ شَاةً فَطُبِخَتْ فَوَجَدْتُ رِيحَهَا، فَدَخَلَنِي مِنْ رِيحِ اللَّحْمِ مَا لَمْ يُدْخِلْنِي مِنْ شَيْءٍ قَطُّ وَأَنَا حَامِلٌ بِابْنَةٍ لِي تُدْعَى خَدِيجَةَ، فَلَمْ أَصْبِرْ فَاَنْطَلَقْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى امْرَأَتِهِ أَقْتَبِسُ مِنْهَا نَارًا لَعَلَّهَا تُطْعِمُنِي، وَمَا لِي مِنْ حَاجَةٍ إِلَى النَّارِ، فَلَمَّا شَمَمْتُ رِيحَهُ، وَرَأَيْتُهُ اَزْدَدْتُ شَرًّا، فَأَطْفَأْتُهُ، ثُمَّ جِئْتُ الثَّانِيَةَ أَقْتَبِسُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ الثَّلَاثَةَ فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قَعَدْتُ أَبْكِي وَأَدْعُو اللَّهَ، فَجَاءَ زَوْجُ الْيَهُودِيَّةِ فَقَالَ: أَدْخَلْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا الْعَرَبِيَّةَ أَتَتْ تَقْتَبِسُ نَارًا، فَقَالَ: فَلَا أَكُلُ مِنْهَا أَبَدًا أَوْ تُرْسَلِي مِنْهَا إِلَيْهَا، فَأَرْسَلَتْ إِلَيَّ بِقَدْحَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنْ تِلْكَ الْأُكْلَةِ" (٢).

**خامساً: التعاون:** إن أحاديث العهود ترمي من بين ما ترمي إليه تحقيق التعاون بين الشعوب

١- صحيح البخاري، كتاب الرهن، باب ما قيل في درع النبي ﷺ، حديث رقم ٢٩١٦.  
٢- المعجم الكبير للطبراني - مسند النساء - باب الألف، من اسمها أسماء، أسماء بنت أبي بكر الصديق رقم ٢٧٨.

والأمم المختلفة، في المجالات المختلفة، سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وثقافياً؛ فالبلد المسلم لا ينبغي أن ينغلق على نفسه، بل يجب أن يستفيد من غيره من الأمم اقتصادياً وعلمياً، وهذا تحققه العهود التي تربط بين مختلف الدول والديانات، واحترام بنود تلك العهود، وقد كانت سيرة النبي - ﷺ - وسيرة الصحابة - ﷺ - أروع مثال على ذلك، فقد كان التجار من غير المسلمين يفدون على المدينة، فيبيعون ويشترون، ويستفيد منهم المجتمع اقتصادياً واجتماعياً.

**سادساً: التسامح:** لاشك أن دين الإسلام دين تسامح في شتى تشريعاته، فالإسلام الحنيف يرحب بالتسامح ويدعو إليه، من خلال الإحسان والبر والقسط، ولا يتنافى هذا مع النصوص الشرعية في النهي عن موالاة غير المسلمين.

ومن ثم لا ينبغي الخلط بين ما يجب للمعاهدين من البر والإحسان، وبين ما يوجبه الدين من عقيدة الولاء والبراء، وقد أدى الخلط بين الأمرين إلى تنامي عقائد وآراء تدعو إلى قطع التعامل مع غير المسلمين بصفة عامة، فرفضوا التعدد، وتنكبوا مهيع الإسلام في تعامله مع مَنْ ليس على دين الإسلام، ففتنوا الناس، وطعنوا في العلماء، وحرّفوا نصوص الشرع عن مقاصدها، وحملوها من المدلولات ما لا تحتل، فوجب نشر الفهم الصحيح لأحاديث الولاء والبراء، وأن مدلولها لا يعني ما يروج له عند بعض من لا يفهم النصوص الفهم الصحيح، وأن ثقافة الإسلام في التعامل مع مَنْ ليس من المسلمين تنبني على مجموعة من القيم، التي سنّها الشرع في كثير من الأحكام المتعلقة بمخالفيه.

وقد جاءت أحاديث عدة تدعو إلى التسامح، ونبذ العصبية والعنصرية، فقد جاء في صحيح مسلم، أن النبي - ﷺ - قال: "ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً"<sup>(١)</sup>.

فليس بدعا -إذاً- أن يُعامل المسلمون مَنْ يخالفهم في الدين معاملة كريمة حسنة، فذلك أمر طبيعي، وتطبيق عملي، لما جاء به الإسلام من مبادئ، وما حواه من قيم<sup>(٢)</sup>، وإن في روح

١- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، حديث رقم ٢٥٤٣.

٢- أبو هلاله يوسف، تعامل المسلمين مع غيرهم في مجتمع الدعوة ص ٦٥.

الإسلام من السماحة الإنسانية، ما لا يملك منصف أن ينكره، أو يرواغ فيه، وهي سماحة مبذولة للمجموعة البشرية كلها، لا لجنس فيها، ولا لأتباع عقيدة معينة، إنما هي للإنسان بوصفه إنساناً.

**سابعاً: الرأفة:** الرأفة بالمخالفين في العقيدة مبدأ من مبادئ الدين، ومقصد عام من مقاصده، وهو مظهر من مظاهر التسامح، وقد وردت أحاديث عدة، ووقائع كثيرة زمن النبوة، تؤصل هذا الأمر، وتدعو إلى تطبيقه، فعندما جاء وفد ثقيف إلى رسول الله - ﷺ - ضرب عليهم القبة في المسجد، فقال عمر - ﷺ - يا رسول الله إنهم لا يصلون، فقال النبي - ﷺ - دعهم يا عمر فَإِنَّهُمْ سَيَسْتَحْيُونَ أَلَّا يُصَلُّوا، فَمَكَّنُوا يَوْمَهُمْ لَا يُصَلُّونَ وَالْعَدَا، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الْعَصْرِ صَلُّوا بِغَيْرِ وُضُوءٍ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلُّوا بِلَا وُضُوءٍ، فَقَالَ ﷺ: "دَعَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ سَيَتَوَضَّئُونَ"، حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمَ الثَّلَاثُ غَسَلُوا وُجُوهَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ وَأَعْنَاقَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ إِلَى الْمَنَاكِبِ، وَتَرَكُوا الْأَرْجُلَ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُمْ فَعَلُوا كَذَا وَكَذَا فَقَالَ: "دَعَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ سَيَتَوَضَّئُونَ"، وَغَدَا الْيَوْمَ الْخَامِسَ فَعَسَلُوا الْبُطُونَ وَالظُّهُورَ، فَأَتَى عُمَرُ - ﷺ - - النَّبِيَّ - ﷺ - فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: "دَعَهُمْ عَنْكَ"، فَلَمْ يَذْكُرْ شَيْئاً مِنْ أَمْرِهِمْ بَعْدُ" (١).

وقد كانت عبارة النبي - ﷺ - في صلح الحديبية أروع مثل للرأفة بالمخالفين، حين قال عليه الصلاة والسلام: "والله لا تدعوني فُرَيْشُ الْيَوْمِ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَاةَ الرَّحْمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا" (٢). وإن من مظاهر الرأفة بالمعاهدين: أن الشرع الحنيف لم يحدد جنس الجزية التي تؤخذ منهم، بل ترك أمرها مطلقاً، فقد أخذها النَّبِيُّ ﷺ دراهم ودنانير، كما أخذها من الثياب، على حسب استطاعتهم وقدرتهم، مراعاة لخلّة التيسير والرأفة. ومظاهر الرحمة والرأفة بغير المسلمين في سيرة المصطفى - ﷺ - أكثر من أن تحصى، وقد صدق الله العظيم حين قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ الأنبياء ١٠٧ ].

فلم يقل للمسلمين، بل للعالمين؛ فرحمته - ﷺ - شاملة للإنسانية جمعاء، وقد طبق ذلك عليه الصلاة والسلام عملياً في حياته، فاستطاع بناء دولة إسلامية قوية، ودخل الناس في دين

١- ابن شبة، تاريخ المدينة ٥٠٠/٢.

٢- مسند الإمام أحمد، أول مسند الكوفيين رضي الله عنهم حديث رقم ١٩٢١٢.

الله أفواجًا، ومن ثم فحين تسود القيم الإنسانية التي دعا إليها الإسلام في التعامل مع مَنْ ليسوا بمسلمين، يشيع الأمن والأمان، وتُبنى الأوطان، ويعمّ السلام.

إن هذه القيم التي تهدف إليها أحاديث العهود، وترمي إلى تحقيقها في المجتمع، هي الكفيلة ببناء الأوطان، وحماتها، وازدهارها، وتقديمها؛ فالبلد التي تسود فيه قيم التسامح، والتعايش، والحرية، من شأنه أن يكون بلدًا قويًا، اقتصاديًا، واجتماعيًا، وسياسيًا، وصناعيًا.

وقد أثبت التاريخ أن الأمم التي تحافظ على عهودها، وترعى معاهداتها، هي الأمم التي تحقق لشعبها الأمن والاستقرار، وأن الأمم التي تنقض معاهداتها، ولا تكاد تستقر على ميثاق أو عهد، هي الأمم التي تخرب أوطانها، وتشرذ شعوبها، ولذلك كان الوفاء بالعهد - كما سلف - من مقاصد الدين، لأنه السبيل إلى حفظ النفوس، وأمنها واستقرارها.

**الخلاصة:** أسفر البحث في ذا الموضوع عن مجموعة من النتائج، أسجل في ذا المقام أهمها:

١. إن حفظ العهد من المقاصد العظمى لهذا الدين؛ إذ يتحقق به حفظ الناس وصيانتها وكرامتها، وبحفظة تُحفظ الأوطان من الخراب والدمار، ويتحقق لها من العيش أرغده، ومن الحياة أسعدها، اجتماعيًا، وسياسيًا، واقتصاديًا، وثقافيًا.
٢. حرّم الإسلام نقض العهد، سواء أكان بين الأفراد، أم بين الجماعات، وجعل المحافظة عليه سيماء المؤمنين، وفي المقابل جعل نقضه علامة النفاق، وجرمًا عظيمًا في الدين.
٣. ضمن الإسلام للمعاهدين مجموعة من الحقوق التي يتمتعون بها في بلاد المسلمين، في الأموال والأعراض؛ إذ بذلك يتحقق التعايش والسلام، ما يحفظ الأوطان، ويُسهّم في ازدهارها.
٤. تتضمن تشريعات الإسلام في قضية العهود مجموعة من القيم الإنسانية العظمى، نحو الحرية، والعدل، والتعاون، والتعايش، والرأفة. . . وهي أخلاق وقيم: ما من مجتمع يتمتع بها إلا وساد فيه التقدّم والرقّي على كافة الأصعدة. ولذلك فإن الإسلام حينما حثّ على المحافظة على العهود، إنما يرمي إلى تحقيق تلك القيم، التي من شأنها أن تجعل المجتمع الإسلامي مجتمعًا قويًا، متقدمًا مزدهرًا، يعيش فيه الناس في أمن وأمان، وطمأنينة واستقرار.



٥. إن فلسفة الإسلام في قضية العهود، إنما هي حماية الأوطان، وبنائها، وتقديمها وازدهارها، ولذلك أولها عناية فائقة، ورعاية بالغة.

٦. إن سيرة النبي - ﷺ - وسيرة صحابته سجلٌ حافل لمعرفة كيفية صيانة الأوطان، وحفظ العهود والمواثيق. ومن ثم ينبغي النظر في السيرة النبوية، واستحضار الأحداث التي تبين هذا الأمر، واستنباط الدروس والعبر التي من شأنها أن تكون نبراساً للمسلمين عامة في المحافظة على عهودهم ومواثيقهم، وجعلها لبنة أساسية في بناء أوطانهم وحمايتهم.

بعض التوصيات:

- ١ . العمل على نشر ثقافة الإسلام فيما يتعلق بمعاملته مع من ليس على دين الإسلام، لأن من شأن ذلك أن يصحح كثيرا من التصوّرات الخاطئة عن علاقة المسلمين بغيرهم.
- ٢ . العمل على بيان أهمية الأحكام التي شرعها الإسلام في علاقة دول الإسلام بغيرها في بناء الأوطان، وتقدمها وازدهارها.
- ٣ . العمل على إصدار مدونة شاملة للأحاديث التي يحدّد فيها الإسلام كيفية التعامل مع المخالفين، وترتيبها حسب المجالات، نحو أحاديث العهود، وأحاديث الولاء والبراء، وبيان دور تلك الأحاديث في حياة المسلمين العملية.
- ٤ . العمل على استنباط القيم الإنسانية، من الأحاديث النبوية، وتدوينها ونشرها، لأن من شأن ذلك، أن يبين دور السنة في نشر القيم الكونية لإسعاد البشرية جمعاء.
- ٥ . تخصيص ندوة لنظرة الإسلام للتعامل مع غير المسلمين، والتركيز على أهمية تلك الأحكام في حماية الأوطان وتقدمها.

### المصادر والمراجع:

- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، الدارمي، البُستي، صحيح ابن حبان، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣.
- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي، سسن أبي داود، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية.
- أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ١٤٢٢.
- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، سنن الترمذي
- تحقيق، بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨.
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق، أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٥.
- أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، المعجم الأوسط، تحقيق، طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة
- دار الحرمين.
- ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، جدة، دار الأصفهاني للطباعة والنشر.
- ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ١٩٩٧.
- ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، دمشق، ١٩٦١.
- أبو هلاله يوسف محي الدين، تعامل المسلمين مع غيرهم في مجتمع الدعوة، عمان، دار الضياء، ٢٠٠١.
- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، ١٩٨٦.
- أبو زهرة محمد، العلاقات الدولية في الإسلام، ضمن المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية، أكتوبر ١٩٦٦.

- محمد رجب البيومي، البيان النبوي، دار الوفاء، ١٩٨٧.
- علي عبد الواحد وافي، بحوث في الإسلام والاجتماع، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٧.
- عبد الله بن عبد المحسن التركي، الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٨.
- السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ٢٠٠٣.
- علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، البيضاء، مكتبة الوحدة العربية.
- عز الدين بن عبد السلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١.
- وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دمشق، دار الفكر، ١٤١٨.
- محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق، محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية.
- مصطفى حلمي، الإسلام والأديان دراسة مقارنة، مكتبة الدعوة، ١٩٩٠.
- المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣.
- محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، مكتبة الأسرة، مصر، ٢٠٠٥.

النصيحة أصالة المفهوم وتجديده ودورها  
في حماية الوطن

الدكتور/ عبد الله بن عبد العزيز الباقي  
المملكة العربية السعودية





## المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

الأوطان ركن من أركان الحياة، فيها يولد الإنسان وينمو، وفيها يتملك ويبنى وينشئ تاريخه الخاص وحضارة أمته.

الأرض هي الوطن العام الذي امتن الله به على خلقه في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ "المرسلات: ٢٥ - ٢٦"، ثم لكل جنس وطنهم المندرج في الوطن الأم، وهكذا يكون لكل قبيلة أو قرية وطنهم الخاص...

وقد ركز الله حب الأوطان في فطرة الإنسان، ولذا كان الدفاع عنها وحماتها بمنزلة حماية الروح، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ "النساء: ٦٦".

ومن هنا، فإن عقد ندوة خاصة لمناقشة واجب حماية الأوطان من خلال السنة النبوية خطوة رائدة في هذا الباب؛ ذلك أن السنة النبوية تؤكد ما جاء في القرآن الكريم من توجيهات، وتشتمل على نماذج صادقة تطبيقية لحماية الأوطان، فهي مصدر تشريعي، وصورة واقعية لحماية الأوطان. جزى الله القائمين على هذه الندوة خير الجزاء ونفع بجهودهم.

وقد اخترت موضوعاً في صميم قضية حماية الوطن، وفي موضع القلب منها وهو: النصيحة للوطن ودورها الحمائي للأوطان من خلال سنة النبي ﷺ. وعنوانته بـ: "النصيحة أصالة المفهوم وتجديده ودورها في حماية الوطن".

### الدراسات السابقة:

من خلال إجراء بحث شامل عبر منصات البحث الإلكتروني في المحتوى الرقمي للمكتبات الرسمية لم أجد من كتب في موضوع النصيحة وعلاقتها بحماية الوطن لا من جهة دلالة القرآن

الكريم عليها أو السنة المطهرة، لكني وجدت مؤلفات حول موضوع النصيحة بعمومه، مثل:

- أهمية النصيحة في ضوء الكتاب والسنة. د. عدنان بن عبد الرزاق الحموي العليي.  
وباستعراض محتويات الكتاب لم يتطرق مؤلف الكتاب إلى ذكر علاقة النصيحة بحماية الوطن.

- كتاب فقه النصيحة تأليف د. محمد عبد الله أبو صعليك. وهو كتاب يكرس فهم النصيحة وتطبيقها على ما يتعلق بالنصح القولي. ولم يتطرق إلى علاقتها بحفظ أمن الوطن وحمايته.

وسائر ما كُتِبَ في هذا الباب لا يعدو أن يكون نقلاً لما قرره العلماء في تفسير الآيات القرآنية وشروح الأحاديث النبوية، دون البحث في الانعكاسات الإيجابية للنصيحة في حياة الناس عمومًا، وما يتعلق بحماية الوطن خصوصًا.

أسأل الله أن يوفقني لإنجاز هذه البحث بما يخدم هدف الندوة ويحقق النفع للإسلام والمسلمين.

وأن يوفق القائمين على إقامة هذه الندوة وأن يجزيهم خير الجزاء على استنهاض الهمم للبحث في هذه المسألة الخطيرة المتعلقة بأمن الأوطان وحمايتها من المفسدين.



## تمهيد

### مفهوم النصيحة

#### النصيحة في اللغة:

تقرر مصادر اللغة أن أصل هذه المادة النون والصاد والحاء وهو يدل على ملاءمة بين شيئين وإصلاح لهما. ومنه النصح والنصيحة: خلاف الغش. ونصحته أنصحته. وهو ناصح الجيب لمثل، إذا وصف بخلوص العمل، والتوبة النصوح منه، كأنها صحيحة ليس فيها خرق ولا ثلمة، وناصح العسل: ماذيه، كأنه الخالص الذي لا يتخلله ما يشوبه. ونصحت له ونصحته بمعنى<sup>(١)</sup>.

وصرحت المعاجم بأن التعدية باللام وتعدية فعل (نصح) بنفسه تؤدي الغرض نفسه وذات المعنى من الإخلاص وعدم الغش، ولذا قالوا: نصح الشيء: خلص. والناصح: الخالص من العسل وغيره. وكل شيء خلص، فقد نصح. قال الراغب: "والنصح: نقيض الغش مشتق منه نصحه وله نصحا ونصيحة ونصاحه ونصاحية ونصحًا، وهو باللام أفصح؛ قال الله تعالى: وأنصح لكم. ويقال: نصحت له نصيحتي نصوحًا أي أخلصت وصدقت، والاسم النصيحة"<sup>(٢)</sup>.

#### النصيحة اصطلاحًا:

من النصح وهو كل شيء خلص. قاله الكفوي<sup>(٣)</sup>، وهذا المعنى يتوافق مع الأصل اللغوي كما هو ظاهر.

**لكن المفهوم الشائع في شرح حديث الدين النصيحة يعني: إسداء النصيحة من خلال عبارات -ملفوظة أو مكتوبة- إرشادية في قضايا أو حوادث معينة تستهدف التوجيه إلى ما يراه**

١- ابن فارس، مقاييس اللغة (٥ / ٤٣٥)، الخليل بن أحمد، معجم العين (٣ / ١١٩)، ابن منظور، لسان العرب (٢ / ٦١٥)

٢- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٠٨)

٣- الكفوي، الكليات (ص: ٨٨٧)، وهذا التعريف الذي ذكره الكفوي يعد أصلاً ينبغي أن يبنى عليه الاصطلاح، لكن التعريف الاصطلاحي الشائع قلص دلالة هذا المعنى العميق الدقيق في وسائل ظاهرة دون الحقيقة والجوهر.

الناصح أفضل للمنصوح.

وهذا المفهوم لا يتطابق مع المفهوم التأصيلي للنصيحة، لكنه يمثل تمظهرًا من مظاهر النصيحة بمعناها الصحيح، فهو بمنزلة بسمه فرح بنجاح المنصوح له، أو دمعة حزن على مصيبة حلت به، أو تشميرة ساعد في نصرته، أو خطوة سريعة في نخطته.

وقد أدى اختزال معنى النصيحة في هذا المعنى الشائع إلى اختزالات دلالية في فهم مفردة النصيحة في الكتاب والسنة، وكذلك أدى إلى إشكالات مفاهيمية في تفسير معنى النصيحة في حديث النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين منها:

أولاً: تفسير النصيحة بمظهر من مظاهرها، وجزء من ماهيتها، دون البيان لحقيقتها.

ثانياً: تعدد نواحي النصح في الحديث يضطر الشارح لمعنى النصيحة إلى الخروج عن دائرة الدلالة اللفظية المباشرة والتي توافق التعدية الواردة في الحديث الواردة باللام، ولكن الشراح لما استحضروا ذلك المفهوم الشائع؛ لم يمكنهم أن ينزلوه على كل هذه الجهات، فنجدهم يضطرون إلى تكييف المعنى بحسب الجهة.

ويتبين من خلال البحث في المعنيين أصالة المعنى الأول لسائياً واصطلاحياً، وله صفة الديمومة؛ فهو عقد قلبي لا يتعلق بالأحداث، ولكنه يتعلق بالاعتقادات والتوجهات.

أما النصيحة بالمعنى الشائع فهي فرع في أصله وفي استعماله؛ أما الأصل، فكما قررت سالفاً من أنه مظهر من مظاهر النصيحة، ولكونه مظهرًا قد يتطرق إليه الخداع؛ فليس كل من نصح بلسانه ناصحاً بقلبه، وأما الاستعمال فهو مرتبط بالمناسبات العارضة، ويتوقف أثره على مدى استحابة المنصوح وتقبله لها.

وهناك فرق بينهما في الأثر؛ حيث إن النصح المنافي للغش يجمع الإخلاص والصدق للمنصوح، ويُعدُّ بهذا المعنى سداً منيعاً، وحصناً حصيناً يحول بينه وبين ما يضر المنصوح من الأخطار، فهو أعظم فائدة للمنصوح من بعض كلمات تواسي أو ترضي ثم تنتهي.

## المبحث الأول: التأصيل الشرعي للنصيحة للوطن ودورها في حمايته

قد يعد هذا الملحظ غريبًا شيئًا ما بما أنه غير منصوص عليه في كتب الشروح، ويصعب أن تجد هذا المركب في أي محرك للبحث، ومع ذلك فهذا ما يميز هذا الجهد البحثي، وهنا تكمن الإضافة العلمية المطلوبة من المشاركات العلمية. وسوف أسعى لبيان الحقيقة الشرعية لهذه المسألة من خلال المطالب الخمسة الآتية:

- المطلب الأول: دلالة حديث "الدين النصيحة" على حماية الوطن.
- المطلب الثاني: النصيحة للوطن وعلاقتها بالهوية الشخصية والانتماء.
- المطلب الثالث: العلاقة بين النصيحة والبيعة لولي الأمر وأثرها في حماية الوطن.
- المطلب الرابع: تطبيقات من السنة النبوية لفريضة النصيحة للوطن.
- المطلب الخامس: عبودية النصح للوطن بين الراعي والرعية.

## المطلب الأول: دلالة حديث "الدين النصيحة" على حماية الوطن

الأصل في هذا الباب حديث تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ، قال: "الدين النصيحة" قلنا: لمن؟ قال: "لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ".<sup>(١)</sup>

هذا حديث له دور كبير في بناء قيمة عظيمة من قيم الإسلام وهي قيمة النصيحة، فقد نقل ابن رجب الحنبلي عن الأئمة قيمة هذا الحديث في الشريعة فقال: "هذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور عليها الفقه. وقال الحافظ أبو نعيم: هذا الحديث له شأن، ذكر محمد بن أسلم الطوسي أنه أحد أرباع الدين"<sup>(٢)</sup>.

يعتقد الباحث أن كل جهات النصيحة الواردة في هذا الحديث لها ارتباط وثيق بالوطن فكون "النصيحة لله ولكتابه ورسوله" يمثل الانتماء الديني والقيمي الذي على أساسه تبنى معايير الحياة في

١- أخرجه: مسلم في الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم الحديث (٥٥).

٢- ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم ت الأرئوط (١/ ٢١٥ - ٢١٦) ز

بقعة من الأرض، إذ إننا لا نجد مكاناً لا انتماء فيه لدين، حتى الذين يدينون بالإلحاد الذي ظاهره رفض الدين؛ إلا أنهم في الواقع لا ينفكون عن دين يدينون به، هو عبادتهم أنفسهم، وتأليههم لأهوائهم وآرائهم من دون أن يسموا ذلك ديناً.

وأما علاقة النصح لأئمة المسلمين وعامتهم فهي ظاهرة، من حيث إن العبرة في الأوطان ليست بالأشباح ولكن بالأرواح، فالوطن الحقيقي ما يجمع مكاناً وإنساناً وتاريخاً. والأماكن من دون إنسان يعمرها عديمة التاريخ. فالإنسان يمنح المكان الحياة والتاريخ؛ ومن ثم فالوطن المكاني مفتقر افتقاراً وجودياً للوطن الإنساني.

ويعتقد الباحث أن اللبث المجرد والأحادي للشخص في مكان ما لا يكفي في عده وطناً إلا بضميمة الشراكة الإنسانية والتاريخية فيه؛ وإلا لعدت الأرحام والقبور أوطاناً وهذا غير وارد بإطلاق.

وعند الإجابة عن علاقة النصيحة بالحماية يمكن القول إن ذلك مرتبط بأصل معنى النصيحة الذي يعني الإخلاص للمنصوح له وعدم غشه، وهذا هو الخيط الدلالي الذي يجمع كل جهات النصيحة الواردة في هذا الحديث.

يظهر ذلك في الشرح الذي نقله محمد بن نصر عن بعض أهل العلم حيث قرّرَ عامة ما يترتب على النصيحة لكل تلك الجهات؛ فمما قال مما له علاقة بالحماية؛ حيث عرف مفهوم النصيحة بقوله: "جماع تفسير النصيحة هو عناية القلب للمنصوح له من كان"<sup>(١)</sup>، ولا شك أن العناية القلبية بالمنصوح له تتطلب ضرئاً من الحماية والذود والصيانة.

ويندرج في مدلول النصيحة لله حماية العقيدة الصحيحة من كل هجمات التلبيس والتدليس والتشويه التي قد تتعرض لها في آونة متفاوتة.

ويندرج في مدلولها فيما يتعلق ببقية الجهات كل مسالك الحماية لوجودها، وحياتها الكاملة؛ إما على سبيل الفرض، أو على سبيل النفل كما قرّره محمد بن نصر فيما نقله عن بعض أهل العلم

١- ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم ت الأرئووط (١/ ٢٢٠).

وأيده عليه ابن رجب<sup>(١)</sup>.

ويؤيد ذلك ما ورد في خبر صلح الحديبية في شأن خزاعة حيث قال المسور بن مخزوم ومروان: "فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نَصَحَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تَهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحَدِيثِيَّةِ، وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ"<sup>(٢)</sup>.

إن موقف بديل بن ورقاء وكلامه ليعد أوضح تفسير لكونهم نصحاء لرسول الله وقائمين له بواجباتها، وهذا ظاهر في شرحه لموقف أعدائه وتحذيره من شرهم، فهذا تأويل قوله: "وكانوا عيبة نصح رسول الله"<sup>(٣)</sup>.

والناظر في سياق الاستعمال النبوي لكلمة عيبتي أن العيبة ليست فقط مستودع الثياب؛ بل الأمر كما قال المازري في شرح مسلم: "معناها في كلام العرب التي يجعل فيها الرجل أفضل ثيابه وحر متاعه وأنفسه عنده"<sup>(٤)</sup>. ومنه قول النبي ﷺ في شأن الأنصار: "الْأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي"<sup>(٥)</sup>.

### المطلب الثاني: النصيحة للوطن وعلاقتها بالهوية الشخصية والانتماء

عند تحقق النصيحة للوطن، وشيوعها اعتقاداً أصيلاً تجاه الوطن بمكوناته الدينية، ومقدساته، وشركاء العيش فيه من ولاة أمر وعامة، وسلوكاً قولياً وعملياً يصدق ذلك الاعتقاد ويعزز في الواقع؛

١- المرجع السابق ( ١ / ٢٢٣ ).

٢- أخرجه: البخاري في صحيحه ( ٢ / ٩٧٤ ) كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. برقم (٢٥٨١).

٣- والعيبة، بفتح العين المهملة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة، وهي في الأصل ما يوضع فيه الثياب لحفظها، والمراد بها هنا: موضع سره وأمانته، شبه الإنسان الذي هو مستودع سره بالعيبة التي هي مستودع الثياب. انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ( ٤ / ٨ ) وانظر: الخطابي، معالم السنن ( ٢ / ٣٢٨ )، ابن فارس، مقاييس اللغة ( ٤ / ١٩٠ )

٤- أبو عبد الله المازري، المعلم بفوائد مسلم ( ٢ / ٢٠٠ ).

٥- أخرجه: البخاري في صحيحه ( ٧ / ٩١ - ٩٢ ) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول: النبي ﷺ: "اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم"، ومسلم رقم (٢٥١٠) في فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم. كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

عندما تتحقق تلك النصيحة على وجهها؛ فإن نسبة الخائنين للوطن تتضاءل لأدنى مستوياتها؛ ذلك أن المواطن الناصح يعد مصالح وطنه مصالح ذاتية شخصية بالنسبة إليه، ومن هنا فإن الوطن يعد هوية شخصية لكل المواطنين، نسبة انتمائهم لها كنسبة انتماء أجسادهم إلى أرواحهم.

وكما يذهل الشخص عن مصالح ذاته، ويصرف عن حقيقة انتمائه لهويته أحياناً، كذلك قد يذهل الشخص عن القيمة الهائلة في وجوده لانتمائه لهويته الوطنية، فيحتاج إلى أن يذكر بها ويدل على معاملها حتى لا يخدع عنها.

وهذه النصيحة للوطن هي في الواقع نصيحة للذات من حيث إن العناصر المشتركة بين أفراد الوطن الواحد تجعل منهم كياناً واحداً متعدد الأجساد، متحد السمات والأهداف.

إن أكبر خطر يهدد الأوطان هم الأفراد الطفيلون فيه، الذين لا يعدون انتماءهم للوطن انتماء للذات والهوية الشخصية؛ بل يعدون الوطن شيئاً خارجاً عنهم، ومن ثم يخضعون التعامل معه على مبدأ المصالح الخاصة والمصالح المشتركة، فيحدث شرخ في مفهوم الانتماء يتسم بالحيرة بين الانتماء للذات وبين الانتماء للوطن، ومن وصل إلى هذه المرحلة من صراع الهوية فالغالب أن تنتصر نزعات النفس والهوى والأناية على المصالح الوطنية، ومن هذه الجهة تنمو الكيانات الوطنية الخؤونة في جسد الوطن من حيث لا يشعر الوطن، كما تنمو الخلايا السرطانية في جسد الإنسان، حتى إذا قويت شوكتها آذت وربما قتلت. فمن خلال هذه الكيانات الخؤونة يتسلل العدو إلى نسيج الوطن فيمزقه، وإلى قوته فيوهنها، هؤلاء جعلوا الوطن ومصالحه سلعة تباع وتشتري.

**والسنة النبوية** تؤكد مبدأ الاتحاد بين الهوية الشخصية والهوية الوطنية في أحاديث عدة فكما يجب بحكم الفطرة أن ينصح لذاته ونفسه ويحفظها من كل سوء كذلك يجب عليه أن يحفظ وطنه الإنساني والمكاني.

أما حفظ الوطن الإنساني فعن ابن شهاب أن سالماً أخبره أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أخبره: أن رسول الله ﷺ قال: "المُسلِمُ أخو المُسلِمِ، لا يظلمُهُ ولا يُسلِمُهُ، ومَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ

مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(١)</sup>. عند أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الْمُؤْمِنُ مِرَاةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، يَكْفُ عَلَيْهِ ضَيْعَتُهُ وَيَحْوَطُهُ مِنْ وَرَائِهِ"<sup>(٢)</sup>.

فظاهر من هذا الحديث -ونظائره في السنة كثير - الدور الحمائي الذي يقوم به المسلم تجاه أخيه المسلم وأن الذود عنه واجب شرعي سواء في ماله أو بدنه أو عرضه.<sup>(٣)</sup>

وهذا الجانب من النصيحة للوطن الإنساني حظي بقدر كبير من التوجيهات النبوية إليه، والتأكيد عليه في أحاديث عدة تندرج تحت حق المسلم.

وأما حماية الوطن المكاني فجاءت السنة بعده واجبا بالضميمة مع بقية عناصر المواطنة؛ فعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ"<sup>(٤)</sup>.

ولقد آثرت إيراد هذا الحديث هنا لشموله لجوانب النصيحة الواردة في حديث تميم وبعض الزيادات، من خلال الآتي:

١- أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٨ / ٣) كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه رقم (٢٤٤٢)، وأخرجه مسلم (١٩٩٦/٤) في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم رقم ٢٥٨٠.

٢- أخرجه: أبو داود (٢٨٠ / ٤) في الأدب، باب في النصيحة والحيطة رقم (٤٩١٨). وحسنه الألباني صحيح وضعيف سنن أبي داود (ص ٢)، وانظر: السلسلة الصحيحة (٩٢٦)، صحيح الجامع الصغير (٦٦٥٦).

٣- ولا أدل على ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ رَدَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". أخرجه الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. رقم (١٩٣٢) في البر، باب رقم (٢٠)، ورواه أيضا أحمد في "المسند" ٦ / ٤٤٩ و ٤٥٠، ورواه الطبراني عن أسماء بنت يزيد، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

٤- أخرجه: أبو داود (٢٣٦/٤) في السنة، باب في قتال اللصوص. والترمذي (٢٧/٤) في الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد. برقم (١٤٢١)، وقال هذا حديث حسن صحيح. وأوقال الألباني صحيح. انظر: صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣ / ٤١٨)، وكذلك صحيح ابن ماجه برقم الحديث (٤٥٨٠).

- : شمل ما يتعلق بالنصيحة لله ولكتابه ورسوله في قوله: "ومن قتل دون دينه فهو شهيد".
- ثانيًا: شمل النصيحة للوطن المكاني في قوله: "ومن قتل دون ماله فهو شهيد"، لأن المال يشمل ما يتموله الشخص من منقول وعقار، وهو جزء من الوطن، والحماية له حماية للوطن كما أن حماية الوطن حماية له.
- ثالثًا: شمل النصيحة للنفس في قوله: "ومن قُتل دون دمه". وهي وإن لم ترد في حديث تميم إلا أنها مفهومة بطريق الأولى، وبضميمة هذا الحديث، وهذا يعني أن من النصيحة للدم أن يذود عنه ما بقي فيه روح، ولا يسلمه لأدنى رهبة.
- رابعًا: شمل عموم الوطن الإنساني في قوله: "ومن قتل دون أهله فهو شهيد". فهو يشمل بدلالته الواسعة: "أئمة المسلمين وعامتهم"، وإن كانت دلالته الخاصة على الأهل الأقربين، ولكننا بتتبع استعمال العرب لها نجدهم يتوسعون فيها لشمولوا بها العشيرة والقبيلة الجامعة.<sup>(١)</sup> ويُفاد من كل ما تقدم التلازم الشديد بين الهوية الوطنية والهوية الشخصية سواء في التكوين الروحي أو الواجب الشرعي، فالنصيحة للوطن بما تتضمنه من إخلاص في الحب والانتماء، وصدق في الحماية والذود؛ لا تنفك عن النصيحة للنفس لكون العلاقة بينهما تلازمية من حيث الجبلية الفطرية والشريعة الدينية.

### المطلب الثالث: العلاقة بين النصيحة والبيعة لولي الأمر وأثرها في حماية الوطن

قرر العلماء في شرح قول النبي ﷺ في النصيحة للأئمة المسلمين العلاقة بين النصيحة لولي الأمر والبيعة له؛ ومن خلال تقريراتهم نكتشف أثر ذلك في حماية الوطن.

نقل في جامع العلوم والحكم عن محمد بن نصر عن بعض أهل العلم قوله: "وأما النصيحة لأئمة المسلمين، فحب صلاحهم ورشدهم وعدلهم، وحب اجتماع الأمة عليهم، وكراهة افتراق

١- ابن منظور، لسان العرب (١١ / ٢٩)؛ ومما جاء فيه في التوسع في استعمال الأهل: "وقوله عز وجل لنوح، عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾" هود: ٤٦؛ قال الزجاج: أراد ليس من أهلك الذين وعدتهم أن أنجيهم، قال: ويجوز أن يكون ليس من أهل دينك. وأهل كل نبي: أمته. معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣ / ٥٦).



الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله عز وجل، والبغض لمن رأى الخروج عليهم، وحب إغزازهم في طاعة الله عز وجل" (١).

وعن ابن الصلاح أنه قال: "والنصيحة لأئمة المسلمين: معاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وتذكيرهم به، وتنبههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق وحث الأغيار على ذلك" (٢).

وقد أخرج الإمام مالك في الموطأ حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَأَنْ تَنَاصِحُوا مَنْ وُلَّاهُ اللَّهُ أَمْرُكُمْ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ قَيْلٌ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ" (٣).

ففي هذا تنبيه على ما يرضاه الله تعالى وهو التوحيد، والتوحد، ومناصحة ولي الأمر الذي من شأنه أن يحفظ الله به التوحيد والوحدة.

وقد نَبَّه ابن عبد البر في هذا الموضوع إلى أن العجز الاختياري أو الاضطراري عن مناصحة ولي الأمر لا يلغي حقه في النصيحة، وصدق البيعة، والكينونة معه على السمع والطاعة.

قال ابن عبد البر -: "إن لم يكن يتمكن نصح السلطان فالصبر والدعاء فإنهم كانوا يهون عن سب الأمراء.. عن أنس بن مالك قال: "كان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يهوننا عن سب الأمراء" (٤)، ووقف أبو الدرداء على باب معاوية فحجبه لشغل كان فيه فكأن أبا الدرداء وجد

١- انظر: ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم ت الأرناؤوط (١ / ٢٢٢).

٢- المرجع السابق (١ / ٢٢٣).

٣- أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (ص: ٢٢٦)، مالك في الموطأ ت عبد الباقي (٢ / ٩٩٠)، كتاب الكلام، باب ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين برقم (٢٠)، وأحمد في المسند ط الرسالة (٤٠٠ / ١٤)، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، برقم ( ٨٨٠٠). وصحح إسناده الأرناؤوط في التحقيق. والألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: ١٧١).

٤- أخرجه اداني في السنن الواردة في الفتن (٢ / ٤٠٠)، وقوام السنة في كتاب الحجة في بيان المحجة (٢ / ٤٣٥)

في نفسه فقال: "...وإن أول نفاق المرء طعنه على إمامه"<sup>(١)</sup>، وعن أبي إسحاق قال: "ما سب قوم أميرهم إلا حرموا خيره"<sup>(٢)</sup>، وعن الأعمش قال: قال حذيفة: "إذا كان والي القوم خيراً منهم لم يزلوا في علياء، وإذا كان واليهم شراً منهم، أو قال شرهم لم يزدادوا إلا سفالاً"<sup>(٣)</sup>.

وتنبه ابن عبد البر إلى هذه المسألة يدل على فقه عميق بدقائق النصوص النبوية، فإنه ربما تطرق إلى بعض الأفهام شيء من الوهم حيال هذه المسألة فنبه إلى أن النصح للإمام أس راسخ من أسس الشريعة لا يسوغ تجاهله ولا مخالفته بسبب تعذر فرع من فروعها مثل بذل النصيحة القولية لولي الأمر لأي سبب.

ومن هنا يتقرر أن النصيحة لولي الأمر تعني عقد القلب على الوفاء له ببيعته والسمع له والطاعة، وعدم غشه أو خيانتة.

ويظهر أثر هذا التلازم بين النصيحة والبيعة للإمام في بقاء العلاقة بين الإمام والرعية على الوفاق المحقق للوحدة والصلابة للأمة في وجه كل الأعداء، وهذا من شأنه ضمان مساحة آمنة للرعية من مخاوف النوازل الحربية أو الاقتصادية؛ بقوة الجبهة الداخلية للوطن التي تمثل الحماية الداخلية الأكثر فعالية.

#### المطلب الرابع: تطبيقات من السنة النبوية لفريضة النصيحة للوطن

حفلت دواوين السنة والسيرة بنماذج تطبيقية كثيرة ومتنوعة نلخص أنواعها إلى نوعين:

- الأول: نماذج الوفاء بفريضة النصيحة الوطنية.

- الثاني: نماذج تعددية مجالات النصيحة الوطنية.

وسوف أورد نموذجاً واحداً أو اثنين لكل نوع بما يناسب طبيعة هذا البحث.

١- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٠ / ١٢)

٢- أخرجه: الداني في السنن الواردة في الفتن (٤٠٥ / ٢)

٣- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢١ / ٢٨٧) مع حذف أسانيد الروايات.

## النوع الأول: الوفاء بفريضة النصيحة الوطنية

وفت كتب السير بنماذج من هذا النوع تشمل نوعين من البشر: الأول من وفوا بالنصيحة للوطن، والثاني من خانوا أمانة النصيحة لأوطانهم.

**الأول: نصيحة الأوفياء لأوطانهم؛** ومن أعظمهم نبينا محمد ﷺ حيث يعد قمة هرم النصحاء لأوطانهم عبر التاريخ. ومن الشواهد على ذلك:

جاء في خبر النبي ﷺ يوم العقبة لما رجع من الطائف: "فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمر بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، قال رسول الله - ﷺ -: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"<sup>(١)</sup>.

وسأوكل للقارئ استدعاء حالة النبي ﷺ الشديدة والدم يسيل من قدميه وجراحات روحه تنزف، وهي حالة تجسدها جملة من دعائه الخاشع لربه تبارك وتعالى: "وهواني على الناس"<sup>(٢)</sup>، وبالشدة هذا الشعور لشخص عادي من عوام الناس فكيف بنبي كريم يوحى إليه!

ومع كل هذا الألم إلا أنه ﷺ لما علم بحق أن الخطر يحدق بوطنه المكاني والإنساني، وماذا يبقى بعد أن يطبق عليهم الأخشبان.. لا شيء إلا العدم والتأريخ المظلم..

لما علم ذلك تجاهل كل ذلك الألم، وقدم نصيحة وطنه على الانتصار لنفسه. وليس فوق هذا الموقف منزلة من منازل النصح للوطن والدفع عنه، فقد دفع عنه عقوبة رابانية وشيكة الحدوث.

---

١- رواه البخاري ٦ / ٢٢٤ و ٢٢٥ في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، وفي التوحيد، باب ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ١٣٤، والنساء: ١٣٤، ومسلم رقم (١٧٩٥) في الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين.

٢- نقله ابن كثير في "جامع المسانيد" (٥٣٠٨/قلعجي)، و (٣/٦٦٥-٦٦٦/ابن دهيش). وذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٣٥/٦)، وقال: "رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق؛ وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات".

وهذا يفيدنا في أن العداوات الشخصية لا ينبغي أن تكون كارثة على الوطن بكامله، بل إذا وصل الأمر إلى بيضة الأمة ومجموعها فلا التفات للذات ولذاتها.

ومما يمكن الاستشهاد به في هذا الباب من مواقف النبي ﷺ؛ ما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "إِنَّمَا كَانَ هَذَا، لِأَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾" الدخان: ١٠ - ١١ " قَالَ: فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَسْقَى اللَّهُ لِمُضَرَ، فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ، قَالَ: لِمُضَرَ إِنَّكَ لَجَرِيءٌ، فَاسْتَسْقَى فَسُقُوا" (١).

**الثاني: الخائنون لأوطانهم؛ فمثالهم موقف أبي رغال في خيانة البيت وأهله، وإيثاره نفسه على الوطن ومقدساته.** (٢)

قال ابن إسحاق: "فبعثوا معه أبا رغال يدلّه على الطريق إلى مكة، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك، فرجعت قبره العرب، فهو القبر الذي يرحم الناس بالمغمس" (٣).

وقد كان رجم قبر أبي رغال مشهوراً بين الصحابة ولذا نجد عمر يهدد أحدهم بقوله: "وَلَا مُرَنَّ

١- أخرجه: البخاري في صحيحه (٤٣٩ / ٨)، كتاب التفسير، في تفسير حم الدخان، باب ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ "الدخان: ١٠"، وفي الاستسقاء، باب دعاء النبي ﷺ "اجعلها عليهم سنين كسني يوسف"، وباب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط، وفي تفسير سورة يوسف، باب ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ "يوسف: ٢٣"، وفي تفسير سورة الروم، وفي تفسير سورة ص، ومسلم رقم (٢٧٩٨) في صفات المنافقين، باب الدخان.

٢- هذا على أحد الأقوال في شخصية أبي رغال، والثاني أنه أحد قوم ثمود لاذ بالحرم لما هلك قومه فلما خرج أدركه العذاب، وقد ورد به حديث عند أبي داود ضعفه الألباني كما في الضعيفة (٤٧٣٦)، وضعيف الجامع الصغير (٦٠٨٢).

٣- ابن هشام، السيرة النبوية ت السقا (١ / ٤٧-٤٨).

بِقَبْرِكَ، فَيُرْجَمُ كَمَا رُجِمَ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ"<sup>(١)</sup>.

فأبو رغال غدا مثلاً في خيانة وطنه، ونقض العهد الفطري والإنساني بالنصيحة له، وظن أنه يحرز نفسه بتلك الخيانة، فكان جزاؤه وصمة العار التي تلحقه في قبره إلى يوم يعثون؛ علاوة على ما حل به من ميتة غير سوية.

### النوع الثاني: مجالات النصيحة الوطنية:

مجالات النصيحة للوطن هي كل مجالات الحياة المتعلقة بالوطن، ومن ثم فإنني سوف أورد بعض الأمثلة على ذلك:

أ. مجال حفظ الدين الذي يدين به الوطن وساكنوه. وأعظم نماذج هذا المجال هم الأنبياء والمرسلون جميعاً عليهم الصلاة والسلام، ومن النماذج من غيرهم في هذا المجال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لما حمل عبء الأمة وترك الجهاد في الثغور وجاء إلى خليفة المسلمين عثمان بن عفان وحمله على جمع القرآن الجمع العثماني<sup>(٢)</sup> الذي باركه الله وكتب له البقاء واجتماع الأمة عليه؛ بعد أن كادت أن تفترق في كتاب رها. والمطلع على الخلافات المذهبية والفقهيّة في الأمة وهي مسائل ربما يسوغ فيها الخلاف من بعض الوجوه إلا أننا نرى في الأمة تمزقاً وتشردماً أضعف قوتها وأوهن أركانها، لما يطلع على ذلك يعلم- بحق- حجم المنقبة التي نالها حذيفة بحفظ الأمة في أصل تشريعها، وأدرك مدى نصحه لأمته في كتاب رها عز وجل.

١- أخرجه: ابن حبان في الإحسان ( ٤٦٣/٩ ) كتاب النكاح، باب نكاح الكفار برقم (٤١٥٦)، وأحمد في المسند ( ٢١٥ / ٨ )، مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنه (٤٦٣١)، وصححه الألباني في الإرواء برقم حديث: (١٨٨٣)، وانظر: الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٤٠٨ / ٣٥).

٢- انظر: صحيح ابن حبان - محققاً ( ٣٦٥ / ١٠ ) قال ابن شهاب: وأخبرني أنس بن مالك أنه اجتمع لغزوة أذربيجان وأرمينية أهل الشام وأهل العراق، فتذاكروا القرآن فاختلفوا فيه، حتى كاد يكون بينهم قتال، قال: فركب حذيفة بن اليمان لما رأى اختلافهم في القرآن إلى عثمان بن عفان، فقال: إن الناس قد اختلفوا في القرآن، حتى إنني والله لأخشى أن يصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف، ففرع لذلك عثمان رضوان الله عليه فرعا شديداً، وأرسل إلى حفصة، فاستخرج الصحف التي كان أبو بكر أمر زيداً بجمعها، فنسخ منها المصاحف، فبعث بها إلى الآفاق، ثم لما كان مروان أمير المدينة أرسل إلى حفصة يسألها عن الصحف ليمزقها، وخشي أن يخالف بعض العام بعضاً، فمئنته إياها.

ب. الذب عن الرسول ﷺ الله وهو مجال خطير من مجالات النصح لرسول الله ﷺ وحماية عرضه الشريف من تطاول السفهاء والأعداء فعن عائشة، قالت: "كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ - أو قالت: ينافح عن رسول الله ﷺ - ويقول رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَانَ بَرُوحِ الْقُدْسِ، مَا يُفَاخِرُ أَوْ يُنَافِحُ عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ" (١).

ت. مجال العلاقات الدولية وأبرز مثال لذلك تولي زيد بن ثابت ﷺ مهمة تعلم لغة اليهود حماية للنبي ﷺ ورسالته أخرج أبو داود عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ، وَقَالَ: "إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي"، فَتَعَلَّمْتُهُ فَلَمْ يَمُرَّ بِي إِلَّا نَصَفُ شَهْرٍ حَتَّى حَذَقْتُهُ، فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِذَا كَتَبَ، وَأَقْرَأُ لَهُ إِذَا كُتِبَ إِلَيْهِ (٢).

في هذا الحديث جملتان محوريتان:

- الأولى: قول النبي ﷺ: "إني والله ما آمن يهود على كتابي"، يدل خطورة الموقف وتعلقه بأصل الملة وأساس الشريعة (القرآن الكريم). وهذه الجملة لها أكبر الدور في نشاط زيد للتعلم وتفانيه فيه.

- الثاني: قوله ﷺ: "فلم يمر بي إلا نصف شهر حتى حذقته"، يدل على استشعار زيد لخطورة الموقف واستفراغ الجهد فيه، فكان ناصحاً في استجابته، وناصحاً للنبي ﷺ فيما كلف به من مهمة جسيمة، وإلا فكيف يحذق لسان قوم في نصف شهر قراءة وكتابة ومعاني؟!

---

١- أخرجه: الترمذي في سننه (١٣٨ / ٥) في الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر، برقم (٢٨٤٦)، وقال حديث حسن صحيح. وانظر: المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة (١٢ / ٢٠٥)

٢- أخرجه: أبو داود في سننه (٣١٨/٣) كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، برقم (٣٦٤٥)، والترمذي في سننه ت شاعر (٦٧/٥) في الاستئذان، باب ما جاء في تعليم السريانية، برقم (٢٩١٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

## المطلب الخامس: عبودية النصيحة للوطن بين الراعي والرعية

تقرر في السنة النبوية أن على طرفي الولاية السلطانية واجب النصح للآخر، وهي حقوق ظاهرة ومعروفة، لكنني في هذا المطلب أشير إلى الجانب العبادي من المسألة وهي: تعبد كلا الطرفين بالنصح للآخر وعدم غشه، وبما أننا قررنا فيما سبق أن النصيحة عمل قلبي بالأساس؛ فإن التعبد لله تعالى بما لأحد ما يعني في حده الأدنى: عدم انطواء القلب على أدنى شعور بالرغبة في غش الآخر أو إلحاق الضرر به، أو الرضى بالضرر اللاحق.

فولي الأمر الناصح لرعيته هو الإمام العادل الذي كافأه الله تعالى بأن يكون يوم القيامة في ظل عرشه، وجعله من خيار الناس، وهو من رعى حق النصح لرعيته؛ كما قال الحسن: عاد عبيد الله بن زياد معقل بن يسار في مرضه الذي مات فيه، فقال له معقل: إني محدثك حديثاً سمعته من رسول الله - ﷺ - : "مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رِعِيَّةً، فَلَمْ يُحْطَهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ"<sup>(١)</sup>.

فقوله عليه الصلاة والسلام: "فلم يحطها بنصيحة"، دلالة ظاهر على العلاقة بين النصيحة والحماية للرعية، فإن إحاطة نصيحة الناصح بالمنصوح سياج حماية من كل خطر داخلي أو خارجي.

ونصيحة ولي الأمر لرعيته تتطلب الرفق بهم والحنو عليهم، ويهاب كل الهيبة من مغبة غشهم بفرض المشقة عليهم في حياتهم أو أنفسهم؛ فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: "اللَّهُمَّ مَنْ وَليَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَليَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ"<sup>(٢)</sup>.

قال ابن تيمية: "وهذا ظاهر الاعتبار؛ فإن الخلق عباد الله، والولاية نواب الله على عباده، وهم وكلاء العباد على نفوسهم؛ بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر، ففيهم معنى الولاية والوكالة ثم

١- أخرجه: البخاري في صحيحه (٦ / ٢٦١٤)، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، برقم (٦٧٣١).

٢- أخرجه: مسلم في صحيحه (٣ / ١٤٥٨)، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، برقم (١٨٢٨).

الولي... وإذا حقق الاجتهاد التام، وكان أحذه للولاية بحقها فقد أدى الأمانة، وقام بالواجب في هذا، وصار في هذا الموضوع من أئمة العدل والمقسطين عند الله<sup>(١)</sup>.

وفي مقابل هذا أكد الله تعالى ورسوله النصيحة لولاة الأمر؛ بالوفاء لهم ببيعتهم، وعدم غشهم في مشاهدتهم أو مغيبهم. وأكد على أن نصيحتهم واجبة من جهتين:

**الأولى:** من جهة كونهم مسلمين ومن الواجبات النصح لكل مسلم. وهي جهة عمومية.

**الثانية:** من جهة كونهم ولاة أمر وهي جهة خاصة. كما دلت عليه الأحاديث السابق ذكرها. وكونهم أئمة للمسلمين ولاة لأمرهم يجعلهم مخصوصين بضرب من النصيحة الخاصة، والخالصة، وارتبط بالنصيحة لهم الضلال والهدى عدماً ووجوداً. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "السلطان ظل الله في الأرض، فمن غشه ضل ومن نصحه اهتدى"<sup>(٢)</sup>، وعنه قال: "السلطان ظل الله في الأرض فمن غشه ضل و من نصحه اهتدى"<sup>(٣)</sup>.

وما كان ذلك إلا أن مقامهم مقام رعاية الأمة وحمائتها من العاديات، فهم يمثلون الوطن بكل أطيافه ومقدراته، فنصيحتهم نصيحة للوطن.

قال ابن تيمية: "وأما الحديث النبوي: "السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل ضعيف وملهوف" وهذا صحيح، فإن الظل مفتقر إلى آو، وهو رفيق له مطابق له نوعاً من المطابقة، والآوي إلى الظل المكتنف بالمثل صاحب الظل، فالسلطان عبد الله، مخلوق، مفتقر إليه، لا يستغني عنه طرفة عين؛ وفيه من القدرة، والسلطان، والحفظ، والنصرة، وغير ذلك من معاني السؤدد والصمودية التي بها قوام الخلق ما يشبه أن يكون ظل الله في الأرض"<sup>(٤)</sup>.

وبهذا يتبين أن النصيحة عبادة لله تعالى من جهتي الولاية (الراعي والرعية)، والغاية منها حفظ

١- ابن تيمية الحراني، إصلاح الراعي والرعية (ص: ٢٥) بتصرف.

٢- شعب الإيمان للبيهقي (٩/ ٤٨١)

٣- شعب الإيمان للبيهقي (٦/ ١٨) موقوفاً على أنس، وحسنه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٢٢٤)

٤- ابن تيمية الحراني، الفتاوى الكبرى (٥/ ١٢٣)



الأمة وحماية مقدراتها، لأن تحقيقها في حياة الناس يعني مزيداً من التوحد، مزيداً من الوعي بأهمية الجماعة، وهذا كله يُبقي الوطن قوياً منيعاً بإذن الله.

والواقع يشهد أن هذا الجانب ربما غاب في بعض المجتمعات، وربما تشوش بفعل الدعايات المضلة، لتضخيم حظوظ النفس على المصلحة العامة.

### المبحث الثاني: برنامج عملي لتنفيذ النصيحة في حماية الوطن

في هذا المبحث سوف يحاول الباحث فتح نافذة على الواقع، يمكن من خلالها التفكير في خطط عملية لرفع مستوى الوعي بضرورة النصيحة للوطن، وأنها من الدين بمكان رفيع، هذا من جهة ومن جهة أخرى وضع آليات منهجية تقوي حضورها في سلوك المواطنين بصفة ذاتية؛ حيث يتبنى المواطن أدبيات النصيحة ويتفانى فيها كعبادة من العبادات الكبرى في الإسلام تستهدف استدامة البيئة الإسلامية الآمنة لإقامة الحياة وفق شريعة الله تعالى.

ويمكن أن نتناول هذا المبحث من خلال مطلبين:

الأول: مؤشرات الاحتياج المجتمعي لدور تأسيسي أو تأكيدي للوعي بشرعية النصيحة للوطن.

الثاني: برنامج مقترح لتنفيذ دور النصيحة للوطن في حمايته.

#### المطلب الأول:

#### مؤشرات الاحتياج المجتمعي لدور تأسيسي أو تأكيدي للوعي بشرعية النصيحة للوطن

مما لا شك فيه أن النصيحة للوطن لها حضور نسبي في كل المجتمعات المعاصرة، والملاحظ أن أكثر البلاد تمتعاً بمزيد من حضورها نجدتها أكثر أمنًا واستقرارًا، وأقوى على دفع غوائل الفرقة والانكسار، وبعض المجتمعات التي تقل فيها نسبة النصيحة للوطن - بما تتضمنه من الولاء لكل مكونات الوطن من دين ومواطنين وأرض. ويمكن أن يرصد الباحث هنا بعض مؤشرات الحاجة للتأكيد على النصيحة الوطنية وأثرها في حماية الوطن، لأن الأوطان لا تحمي فقط بالبنادق والمدافع، فهناك أعداء لا يصلح معها هذا النوع. ومن تلك المؤشرات:

أولاً: الغياب الكلي - بحسب اطلاع الباحث- لمصطلح النصيحة الوطنية أو النصيحة للوطن، ولعل السبب في ذلك عدم وجود هذا المصطلح في التراث الإسلامي، ولكننا وإن لم نجد بلفظه فهو مقرر بمعناه - كما سبق في المبحث السابق-، ولعل الله تعالى جعل ما نراه من أحداث وحوادث سبباً في تنشيط هذا المعنى في حِسِنَا الذاتي والشعبي.

ثانياً: الجرأة على ثوابت الأوطان ومقدساتها من داخل الصف الوطني، واستخدام وسائل معاصرة نافذة في المجتمع المحلي، وربما الدولي، وهذا يسبب أذى للوطن من خلال زعزعة استقراره الثقافي والقيمي، ومن خلال تشويه صورته أمام الرأي العام العالمي حيث يظهره مجتمعا غير راسخ في مبادئه وثوابته.

ثالثاً: ومن أخطر أنواع الجرأة على ثوابت الأوطان الجرأة على ولاية الأمر في وسائل التواصل الاجتماعي، بنشر الشائعات عنهم، أو القوادح فيهم، وتضخيم أخطائهم، وتحقير إنجازاتهم، وهذه خطيئة كبرى حذر منها النبي ﷺ بقوله: "مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَهَانَهُ اللَّهُ"<sup>(١)</sup>.

ولهذا الحديث قصة ذات دلائل عميقة في توظيف هذا الحديث في حفظ مقام ولاية الأمر؛ فعن زياد بن كسيب العدوي، قال: كنت مع أبي بكر تحت منبر ابن عامر وهو يخطب وعليه ثياب رفاق، فقال أبو بلال<sup>(٢)</sup>: "انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفساق". فرد عليه أبو بكر بهذا الحديث.

وهذا يجعل الصورة واضحة تمام الوضوح بين أهل السنة وبين الخوارج؛ أهل السنة الذي يتعبدون الله تعالى بالنصح لولي الأمر من خلال حفظ مقامه في حضرته وغيبته تعبدًا لله تعالى لا تملقًا أو تزلفًا. ومنهج الخوارج إسقاط حرمة ولي الأمر لأتفه الأسباب، فلم يحفظوا حرمة كمسلم، ولم يحفظوا حرمة كإمام للمسلمين.

١- رواه الترمذي في السنن (٢٢٢٤) في الفتن، باب ما جاء في الخلفاء. باب ( بلا ترجمة ) وقال: هذا حديث حسن غريب. الحديث صححه الألباني صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢٢٤ / ٥)، وفي تحقيق رياض الصالحين (ص: ٢٩٠)، وفي مشكاة المصابيح (٢ / ١٠٩٢).

٢- وهو مرداس بن أدية وهي جدته، وأبوه حدير، وهو أحد بني ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، قال عمران بن حطان: لقد زاد الحياة إلى بغضًا، وجبًا للخروج أبو بلال. انظر: الكامل في اللغة والأدب (٣ / ١٢٤)

رابعاً: التحريض على التكتلات المعارضة التي تهدف إلى إسقاط ولاية الأمر الشرعيين، وفي هذا مخالفة صريحة لكل الأحاديث النبوية التي تؤكد وجوب الصبر على الإمام.

وهذا السلوك يدل على نقص الوعي بفريضة النصيحة للوطن عند هؤلاء، وتأثرهم بالفكر الغربي في تعامله مع ساسته وحكامه.

خامساً: وجود بعض الخيانات المدنية والعسكرية في بعض الأحيان إيثاراً للمال على الوطن، استجابة لداعي الأنانية الشخصية على حساب الفريضة الوطنية. ويؤدي ذلك إلى نيل العدو من الوطن وتوغله في حدوده السياسية والثقافية والمجتمعية.

سادساً: التقصير في واجب التعليم وتخرج أجيال من الطلاب يحملون الشهادات العلمية ويمثلون الخواء المعرفي والمهني بشكل مزر بهم وبالأمّة، لاسيما في التخصصات الشرعية والعسكرية والطبية والهندسية. وأصدق دليل على ذلك استمرار الحاجة في قضايا الأمة الجوهرية إلى خبراء من الخارج مع إمكانية منافسة القوى البشرية المحلية في كل مجالات المعرفة المدنية الأدبية والعسكرية. وهذا الخلل مخالف لمقتضى النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، وقد ورد عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: "تَنَاصَحُوا فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّ خِيَانَةَ أَحَدِكُمْ فِي عِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ خِيَانَتِهِ فِي مَالِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَأَلَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(١)</sup>.

وهذا حديث وإن كان فيه بعض كلام؛ لكن معناه مندرج في عموم حديث تميم بن أوس الداري الصحيح.

### المطلب الثاني: برنامج مقترح لتفعيل دور النصيحة للوطن في حمايته

تبقى كثير من الأطروحات العلمية - دينية أو أدبية أو علمية - عديمة الأثر في حياة الناس؛ مادامت حبيسة أوراقهم أو مواقعهم الإلكترونية، ويحيط بها هناك - في عالم الأفكار والمعارف المحضه - كل آفات المتعلمين من مفاخرات بسبق علمي، أو منافسة قرناء؛ بينما الواجب الإحيائي لتلك الأطروحات الرائعة يكون بوضع الخطط لتوطينها في الواقع المعيش بين الناس من خلال

١- المعجم الكبير للطبراني (١١ / ٢٧٠)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩ / ٢٠)، الفوائد لتمام الرازي (٢ / ١٩٨).

معارفهم المكتسبة، ومهاراتهم السلوكية. فأصبح لدينا واجبان معرفيان متلازمان:

أحدهما: الواجب التكويني للمعرفة، وهو ما يتعلق بتأسيس المعرفة وتقريرها، وحشد الشواهد لصحتها وحقيقتها، وهو ما قد يعبر عنه بـ"التنظير والتأصيل".

وثانيهما: الواجب الإحيائي، والواجب الإحيائي بمثابة الروح التي يهبها الله للأجساد الخاوية فتحيا وتعيش، وهو يتعلق بمهمة توظيف المعرفة في المجتمع وجعلها سلوكا ومبدءا. ومن هنا حاولت أن أضع برنامجاً مقترحاً لتفعيل دور النصيحة في حماية الوطن.

**توصيف المقترح:** هو عمل حملة وطنية شاملة تتميز بمحتوى علمي رصين ودقيق ومحكم من جهات الاختصاص، ويشترك في تفعيلها مؤسسات الدولة الرسمية والشعبية كافة مع تغطية إعلامية واسعة عبر القنوات التلفزيونية والإذاعية ووسائل التواصل الاجتماعي.

### من أهداف البرنامج المقترح:

1. تأصيل مفهوم النصيحة بمعناها الشامل، من خلال ورش الأبحاث العلمية، والدراسات المتخصصة.
2. نشر المفهوم الصحيح للنصيحة من خلال طباعة الكتب والنشرات والرسائل SMS القصيرة والوسائل المتاحة كافة للتواصل مع الجمهور.
3. تعزيز قيمة النصح للوطن بمستوياتها القلبية والسلوكية، والمتمثل في صدق الانتماء والمحافظة على مقدرات الوطن ومكتسباته بوصفها أولوية.

### من خطوات البرنامج العملية:

1. إدراج النصيحة في أبواب العقائد، وتفصيل مسائلها في فصول مرتبة بحسب الوارد في النصوص الشرعية، وتقرير دراستها متطلباً دراسياً في التخصصات الأكاديمية والعسكرية كافة؛ ذلك أن الخيانات التي تحصل من بعض الجنود إنما حصلت بسبب نقص الوعي بقيمة النصيحة للوطن من جهة، ومن جهة أخرى ضعف تحققها في اعتقاد القلب، وتنمر الذات والأنا لدى الجندي.

٢. توظيف هذا المعنى تربويًا بين فئات الطلاب عبر مراحل تعليمهم المتلاحقة، من خلال تضمين المقررات الدراسية شذرات من المقررات الشرعية والتاريخية في باب النصيحة، وتوظيف النشاطات المدرسية لترسيخ هذه المعاني. حتى يتبين لهم أن النصحاء لأوطانهم هم حماة الحقيقيون لأوطانهم.
٣. إبراز النماذج الوطنية الناصحة في المجالات الدينية والسياسية والعسكرية كافة، والنظر إليهم كأبطال وحماة حقيقيين لأوطانهم.
٤. عقد مؤتمر (النصيحة ودورها في حفظ هوية الوطن)، واستدعاء أبرز المتحدثين العالميين في هذا الشأن، لأنها قضية عالمية، ولها شواهد في كل الثقافات والأديان البشرية، ونؤكد على أسمى معانيها وغاياتها بما جاء في الكتاب والسنة من تشريعات حولها.

### خاتمة

- في ختام هذا البحث أحمد الله تعالى وأشكر لأهل الفضل تهيئتهم الفرصة للكتابة في هذا الموضوع الذي خلصت من خلاله إلى نتائج مهمة منها:
- أولاً: أهمية الفهم الصحيح للأحاديث النبوية عموماً، وخصوصاً مفردة النصيحة حيث إن المحتوى البياني لدلالة هذه اللفظة يحتاج إلى مزيد من الدقة والتحرير.
  - ثانياً: حديث تميم بن أوس الداري في دلالاته العامة يجمع مبدأ النصح لكل العناصر المتعلقة بالوطن؛ الدين وتتجسد في النصح لله ولكتابه ورسوله، والمجتمع ويتمثل في النصح لأئمة المسلمين وعامتهم.
  - ثالثاً: شدة العلاقة بين النصيحة للوطن والوفاء ببيعة ولي الأمر، لأن الوفاء ببيئته وعدم غشه أعظم مصدر لحماية الوطن بعد حفظ الله تعالى.
  - رابعاً: النصيحة لكل مسلم تتضمن حمايته في دينه وبدنه وعرضه ووطنه وأخلاقه. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ "النور: ١٩"، وإذا تحقق هذا في المجتمع المسلم كان أشد تماسكاً وتمتع بقوة هائلة تمنعه من التفكك والتحلل.

- خامساً: تبين للباحث من خلال البحث أن الدور الذي تؤديه النصيحة للوطن في حفظ الوطن وحمايته لا يقل عن دور الجيوش، لأنها تمثل الجبهة الداخلية لحماية الوطن في حين الجيوش يتولى الجهة الخارجية.  
ويوصي الباحث بعد هذه النتائج بالتوصيات الآتية:

- أولاً: تكثيف البحث في باب النصيحة تأصيلاً وتطبيقاً.
- ثانياً: التواصل مع جهات ومؤسسات بناء الرأي العام والثقافة الدينية الوطنية، لتحسين الناشئة من دعوات الكيد والتضليل من خلال ترسيخ فريضة النصح للوطن ديناً وولادة وعامة.
- هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وأن ينفع به وأن يجعله خالصاً لوجهه، كما أسأله أن يجزي القائمين على هذه الندوة المباركة، وأن يقر أعينهم بتحقيق ما يصبون إليه من خدمة سنة النبي ﷺ. والله الموفق.

## ثبت المصادر والمراجع

- إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، معاني القرآن وإعراجه، ت: عبد الجليل عبده شلبي، بيروت، عالم الكتب، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات، ت: عدنان درويش - محمد المصري
- أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ت: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، عام: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، جامع المسانيد والسُنن الهادي لأقوم سنن، ت: د عبد الملك بن عبد الله الدهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
- أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، بيروت، دار المعرفة
- أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، ت: صفوان عدنان الداودي، دمشق بيروت، دار القلم، الدار الشامية - الأولى - ١٤١٢ هـ
- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية، ١٩٨٣ م
- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ت: محمد السعيد بسويوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ، سنن أبي داود، ت: سعيد محمد اللحام، طبعة جديدة منقحة ومفهرسة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
- أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ) معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، حلب، المطبعة العلمية، الطبعة: الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) مسند الإمام أحمد بن

- حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م
- أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري المالكي (المتوفى: ٥٣٦هـ)، المُعَلِّم بفوائد مسلم، ت: فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر - المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر - المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقق والدراسات بيت الحكمة، الطبعة: الثانية، ١٩٨٨ م، والجزء الثالث صدر بتاريخ ١٩٩١ م.
- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ت: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام النشر: ١٣٨٧ هـ
- أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار إحياء التراث العربي
- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) معجم مقاييس اللغة تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- بيروت، مؤسسة الرسالة - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الفتاوى الكبرى، ت: محمد عبدالقادر عطا - مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م
- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) السياسة الشرعية، المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ
- صهيب عبد الجبار، المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة، عام النشر: ٢٠١٣ م غير مطبوع - واستفيد منه من خلال المكتبة الشاملة.



- الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.
- عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣ هـ) السيرة النبوية، ت: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م
- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبجي المدني (المتوفى: ١٧٩ هـ)، الموطأ، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، عام النشر: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م
- محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، ت: د. مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، اليمامة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧
- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦ هـ) صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، ت: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م
- محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤ هـ) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ت: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣
- محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩ هـ)، سنن الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
- محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١ هـ) لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير + محمد أحمد حسب الله + هاشم محمد الشاذلي، القاهرة، دار المعارف
- محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥ هـ)، الكامل في اللغة والأدب، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفكر العربي، الطبعة: الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

- محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، إشراف: زهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
- محمد ناصر الدين الألباني، ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثالثة - ١٤١٣-١٩٩٣ م
- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

# المنهج النبوي في حماية الوطن والدفاع عنه

الدكتور/ أنس سليمان المصري

المملكة الأردنية الهاشمية





## مقدمة:

الحمد لله خالق الإنسان، ومعلم القرآن، وموطن الأوطان، والصلاة والسلام على النبي العدنان، سيد الهداية والبيان، وعلى صحابته أكمل الرضا ومسك الختام، ومن تبع سمتهم فأمن ثم استقام، ونشر دعوتهم من العلماء والأعلام، وبعد:

فإن الله ﷻ جعل الأرض موطن آدم -عليه السلام- وذريته، وتعبدهم بخلافتها وعمارتها والتوطن فيها بشرع الله وهدية، مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ﴾ [البقرة: ٣٠]، فجعل الناس من بعده شعوباً وقبائل مختلفة، فأرسل إليهم الرسل -عليهم السلام-، وأنزل عليهم الشرائع والكتب، وأمرهم باتباعها والعمل بها؛ مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وابتلاهم بإقامتها واتباع أنبيائها؛ مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانَكُمْ فَاسْتَشِيقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن هنا، كان لا بد لهذه الحضارات من سيادة تميمها، وقوة تدافع عنها؛ لضمان استمرارها وبقاء صلاحها، والحفاظ عليها من أية أنظمة ظالمة، أو مناهج مفسدة، أو مصالح مادية منحرفة، فأمر الله ﷻ بحماية أراضيه التي يُقام بها شرعه، والاستماتة من أجل مبادئه ودينه؛ فجاء الأمر في الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة بالموالجة الفكرية والمالية والعسكرية لاستدامة نظام الإسلام، والدفاع عن أراضيه وأوطانه، وترسيخ معنى الجهاد بالكلمة والمال والسلاح في نفس المؤمن وتبشيره بجزيل الجزاء الصالح عند الله ﷻ، بما يناسب تضحية المؤمن بروحه أو ماله في سبيل حماية الأرض التي تُطبق فيها شرائع الله، وتُعمَّر بما يشاء ويرضى.

وقد جاء دور المنهج النبوي، والشريعة الإسلامية التي قامت على ترسيخ مبادئ المسلم لتغرس في النفوس مبدأ حماية الأوطان، وتؤطره بالمنهج الرباني بعيداً عن الإفراط أو التفريط، وتوظيف ذلك المبدأ لنشر دين الله ﷻ وتطبيق شرعه في تعامل المسلمين فيما بينهم، وعلاقتهم مع الآخرين،

وتوطيد صلتهم بالله ﷻ، ومن ثم نشر الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة؛ لتكون الدعوة الإسلامية هي دعوة الحق.

إنّ ما تنادي به الأنظمة المعاصرة، والقوانين الوضعية ومنظمات الحقوق الدولية من حماية للشعوب، واحترام الآخرين، وعدم الاعتداء عليهم، وإقامة العدالة الدولية، والبعد عن العنف والعصبية والغلو والتطرف ما هي إلا مصطلحات أخرى تحاكي الجوانب البشرية، إلا أنّها - في حقيقة الأمر - لم تُضف إلى المنهج النبوي في بناء القيم الخلقية والإنسانية إلا تسميات جديدة، توصل واضعوها إلى جزء من منظومة هذا المنهج الرباني، إضافة إلى ما ترجمه النبي ﷺ وأمر باتباعه من المنهج النبوي والقيم الإسلامية.

وسنعرض في هذا البحث أهم ركائز المنهج النبوي في حماية الأوطان، والطريقة القويمة التي وازنت بين الأمر بالدفاع عن الوطن والاستشهاد في سبيل ذلك من جهة، وعدم التطاول في ذلك واتخاذ ذريعة للاعتداء على الآخر، واستحلاله باسم الدفاع عن النفس وحماية الحدود، وضوابط ذلك المبدأ، وطرق تنميته وصقله، ومعالجة المشكلات والشبهات الموجودة عند العمل به، من خلال المواقف النبوية المختلفة، فضلاً عن اتصافه ﷺ بتلك الوسطية والعدالة بشكل واضح، ومدى حكيمته ﷺ في توظيفها في شتى مناحي حياته، مما جعله ﷺ أكمل الناس أوصافاً، وأكثرهم تأثيراً في الآخرين.

### مشكلة الدراسة وأهدافها:

تتراوح الدراسات السابقة للبحث بين مراجع قديمة أصيلة تتمحور حول الأحاديث الواردة في حماية الوطن والجهاد والدعوة دون جمع أو تحليل أو تصنيف أو تفعيد، وبين ما تفتقر إليه المكتبة المعاصرة من مراجع حديثة تعرض منهج النبي ﷺ في حماية الوطن وتتخذ ذلك المنهج أساساً لدراساتها؛ مما يعوز إلى دراسة معاصرة تربط بين المنهج النبوي بوصفه المرجع الأول والأكمل في الدعوة إلى حماية الوطن والعمل بها، وبين أحدث ما توصلت إليه المعرفة البشرية في تعميق ذلك المبدأ أو تعزيزه والتعامل معه.

ذلك أن هذا المفهوم وقع بين إشكالين؛ أولهما: اتخاذه من بعضهم ذريعة للعدوان واستباحة الأرواح والأعراض دون علم أو اتباع للمنهج النبوي القويم، وثانيهما: إهماله والتقاعس عنه بسبب انفصاله عن المفهوم العقدي والجزاء الأخروي، ولضعف مناهج ترسيخه، وعدم فاعلية آليات تعزيزه وتوظيفه.

ومن هنا كان لا بد من دراسة منهجية واضحة تميزه وتؤطر مفهومه وتقوّم آليات تطبيقه.

تمهيد:

## أولاً: في مفردات العنوان:

نعني بالمنهج النبوي في حماية الوطن؛ تلك الآليات والوسائل النظرية والتطبيقية للنبي ﷺ في غرس هذا المبدأ وتنميته وتطويره، معتمداً على المنهج الرباني؛ ولا يخرج عن إطار القرآن والسنة، سواء كان منطلقه الوحي الكريم أو اجتهاده ﷺ المعتمد على الوحي، ولا يخرج مفهوم المنهج النبوي عن أطر الشريعة الإسلامية.

"والمنهج: هو الطريق البين الواضح، وفي التنزيل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] <sup>(١)</sup>.

وهو الطريقة التي يمكن استخلاصها من خلال استقراء أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وتصنيفها حسب الأسس والقواعد المشتركة بينها، ليعتمد إلى الاستفادة منها وتطبيقها. وقد اعتمد الصحابة ﷺ والعلماء هذا المنهج، وفرعوا منه وطبقوه.

والحماية: من حمى، والحماية: المنعة، والحامية: الرجل يحمي أصحابه في الحرب، وهم أيضاً، وأحمى المكان: جعله حمى لا يُقرب، وحمى فلان الأرض: يحميها حمى لا يُقرب <sup>(٢)</sup>؛ كما في قوله ﷺ: "أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حَمِيٍّ..." <sup>(٣)</sup>، ولا تقتصر الحماية على الدفاع العسكري فحسب، بل هي معنى شامل يدخل فيه الأمن الثقافي، والاجتماعي، والديني، والعقدي، والاقتصادي، والسياسي، وغيرها من أشكال الحماية للوطن، إذ إنها كلها ركائز لا غنى عنها في الاستقرار والاستقلال والمنعة.

وأما الوطن: فهو المنزل أو المكان أو البلد الذي تقيم فيه، وهو موطن الإنسان ومحله الذي يسكن فيه ويعتاش <sup>(٤)</sup>، أو ينتسب إليه ويرجع ويؤول، حتى لو لم يسكنه أو يقيم فيه؛ لأن فيه أهله

١- ينظر ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ٣٨٣.

٢- ينظر المرجع السابق، ١٤/ ١٩٧، بتصرف.

٣- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه، ح(٥٢)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ح(٤١٧٨).

٤- ينظر ابن منظور، لسان العرب، ١٣/ ٤٥١، بتصرف.



وعشيرته وأهل ديانته، وإليه يكون ولاؤه وانتماؤه.

ويمكن الخلوص إلى أن هذه الدراسة مختصة في الطريقة الواضحة المتبعة الواردة عن النبي ﷺ سواء أكانت نظرية أم تطبيقية، والتي من خلالها عمل النبي ﷺ على ترسيخ وتطبيق مبدأ الدفاع عن بلاد الإسلام وحمايتها والحفاظة عليها؛ لتحقيق المقصد الرباني في عمارة الأرض وإقامة العدالة الإلهية بحسب ما نص عليه الشرع.

### ثانيًا: المفهوم الشرعي للوطن:

للوطن في معتقد المسلم مفهوم عام، ومفهوم خاص؛ فأما العام: فكل أرض يُقام فيها شرع الله ﷻ ودينه، وما يدخل في حوزة الإسلام والمسلمين، فهو مرتبط بعقيدته ودينه، وليس بحدود جغرافية أو مسميات سياسية، وهذا ما حصّ المنهج النبوي على حمايته والدفاع عنه، لأنه يعتمد على رابط الدين الذي عززه الشرع وجعله الأساس في التعامل كما وقع في قول النبي ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى"<sup>(١)</sup>، وهو ما يُفهم من قول الشيخ ابن عثيمين: "حب الوطن؛ إن كان إسلاميًا فهذا تحبه؛ لأنه إسلامية، ولا فرق بين وطنك الذي هو مسقط رأسك، والوطن البعيد عن بلاد المسلمين، كلها أوطان إسلامية، يجب علينا أن نحميها"<sup>(٢)</sup>. فبلاد المسلمين كلها وطن للمسلم في المعنى العام للكلمة.

وأما المعنى الخاص: فيقتصر على مفاهيم متعددة ومتباينة نسبيًا؛ فإما أن يكون مفهومه معتمدًا على البلد التي يؤول إليها الشخص نسبيًا، أو ولادة ونشأة، أو عيشًا وكسبًا وإقامة، أو لغة وثقافة، أو ما يحمله من جنسيتها؛ فكل ذلك يدخل في المعنى الخاص للوطن، إلا أن اعتباراته الشرعية غير مؤثرة، خاصة إن كانت تلك الأوطان ليس مسلمة، أو كانت مسلمة لكنها دفعت المسلم إلى العصبية أو الشعوبية أو دعوى الجاهلية مما ذمه الشرع، كما ورد عن النبي ﷺ: "مَا بَالُ

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ح(٥٦٦٥)،

ومسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ح(٦٧٥١).

٢- ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين، ١/ ١٠.

دَعَوَى أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ" (١)، ولهذا المعنى أشار الألباني في قوله: "العبرة في البلاد إنما هي بالسكان، وليست بالحيطان...، كون الأرض دار كفر و دار إيمان، أو دار فاسقين ليست صفة لازمة لها: بل هي صفة عارضة بحسب سكانها، فكل أرض سكانها المؤمنون المتقون هي دار أولياء الله في ذلك الوقت، و كل أرض سكانها الكفار فهي دار كفر في ذلك الوقت، و كل أرض سكانها الفساق فهي دار فسوق في ذلك الوقت" (٢)، فالاعتبارات الشرعية تقوم على التعامل مع الأوطان من خلال سكانها وشرائعها.

لكن ذلك لا يمنع تفضيل بعض البقاع على بعضها فيما نص عليه الشرع؛ كالبلد الحرام، ومدينة رسول الله ﷺ، أو المسجد الأقصى؛ كما ورد في أحاديث مختلفة؛ كقوله ﷺ: "وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ" (٣)، أو ما حث على الدفاع عنه لاعتبارات خاصة؛ كالثغور والحدود ومواطن الرباط، والبلاد المسلمة المستضعفة؛ كما ورد عن النبي ﷺ: "رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا" (٤).

ومن لطيف ما ذكره الفقهاء في معنى الوطن؛ أن الرجل إذا تزوج ببلد، أو مَرَّ على بلد فيه زوجته أتم صلاته؛ لأنه الزوجة في حكم الوطن، وهذا هو مذهب مالك وأبي حنيفة وأصحابهما، وأحمد وبه قال ابن عباس ؓ، وروي عن عثمان بن عفان ؓ واحتج مَنْ قال بهذا القول بما رواه الإمام أحمد وعبد الله بن الزبير الحميدي في مسنديهما، عن عثمان بن عفان ؓ أنه صلى بأهل منى أربعاً، وقال: أيها الناس لما قدمت تأهلت بها، وإني سمعت رسول الله ﷺ، قال: "إِذَا تَأَهَّلَ

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ح(٣٣٣٠)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، ح(٦٧٤٨).

٢- الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٦ / ٣٥٦.

٣- رواه أحمد، المسند، ح(١٨٧٣٧)، وصححه شعيب الأرنؤوط في الهامش، وصححه الألباني، مشكاة المصابيح، ح(٢٧٢٥).

٤- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، ح(٢٧٣٥)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله، ح(٥٠٤٧)، بلفظ مقارب.

الرَّجُلُ فِي بَلَدٍ فَلْيَصِلْ بِهِ صَلَاةَ الْمُقِيمِ"<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: هل حماية الوطن والدفاع عنه مبدأ فطري أو مكتسب؟

تنسحب معرفة هذا التساؤل على جميع المبادئ والقيم الإنسانية التي يتحلى بها البشر -بل وغير البشر أحياناً-، ولا شك أن الإنسان لا يولد منعدم المبادئ والأخلاق ثم يكتسبها جميعاً بعد ذلك؛ وإنما يحوز أصولها ومبادئها ويكون مهيباً لاكتساب مزيد منها أو تقويمها وصقلها والعمل بها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه المبادئ قد تولد مع الإنسان بدرجة عالية دون تربية أو تعزيز مسبق، وهذا يفسر وجودها بشكل ملحوظ لدى بعض الأطفال أو صغار السن دون تربية أو توجيه، ومن ثم يمكن تعزيز تلك القيم وتنميتها واكتساب مزيد منها عن طريق التربية والتوجيه والتعزيز<sup>(٢)</sup>.

ويتجلى مبدأ الدفاع عن النفس والمواطن بأشكاله الفطرية لدى البشر قبل إدراكهم وعند بعض المخلوقات غير العاقلة، مما يُثبت أن جزءاً من المبادئ والقيم يولد مع الإنسان بغض النظر عن دينه أو معتقده؛ ولذلك فإن مبدأ حماية المواطن قد يُولد فطرياً لدى بعض البشر أو غيرهم من المخلوقات، إلا أن تعزيزه وصقله وتوجيهه لدى الإنسان أوسع، مما يعوز إلى اتباع المنهج النبوي في ذلك لما يتميز به من ارتباط بالعقيدة التي لا تتغير بعيداً عن العصبية العرقية، أو المصالح المادية، أو المواقف السياسية.

ولذا فإن النبي ﷺ أطر هذا المبدأ بالشرعية الإسلامية بعدّ دين الإسلام دين الفطرة والحق؛ ذلك أن للدفاع عن الوطن دوافع عدة، منها ما هو حق ومنها ما هو غير ذلك، كما ثبت عنه ﷺ حين سئل: يقاتل الرجل حمية، ويقاتل الرجل شجاعة، ويقاتل رياء، فأى ذلك في سبيل الله؟

١- ينظر العاصمي، حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، ٢/ ٣٩٢، والحديث رواه البيهقي، معرفة السنن والآثار، باب الإتمام في السفر، ح (١٦٥٠)، وضعفه ابن حجر في الفتح، ٢/ ٥٧٠، بالانقطاع، وضعف بعض رواته، وضعفه الألباني، ضعيف الجامع، ح (١٤٣٦).

٢- جابر عبد الحميد، الذكاءات المتعددة والفهم، ص ١٣، بتصرف.

قال: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"<sup>(١)</sup>، فالقتال والحماية كثيراً ما تكون على غير منهج الحق.

ومن هنا، يمكن لأية شخصية مسلمة كانت أو غير مسلمة أن تمتلك مبدأ الدفاع عن الوطن وحمائته والتضحية في سبيله بشكل ملحوظ، كما يمكن لها أن تفتقر -طبيعة- لهذا المبدأ، وهذا يفسر وجود بعض الشخصيات غير المسلمة التي ظهرت في هذا المجال في حين قد نجد تدني وجودها عند بعض المسلمين، بوصف أية شخصية مهيأة لتعزيز هذا المبدأ وصقله، خاصة إن كانت تمتلك المقومات النفسية والخلقية التي تساعد عليه؛ كالشجاعة، والقوة، وحب الغلبة والظهور، إلا أن الشريعة الإسلامية امتازت بالمنهجية الثابتة المتوازنة المتنامية في غرس وتعزيزها المبادئ الإيجابية مما يضمن تأثيرها والعمل بها دون غلو أو انحراف أو مصلحة شخصية أو آنية، بل من منطلق العدل والمنهج الرباني الحكيم.

ويعتمد تعزيز مبدأ حماية الأوطان على عدد من الخطوات المتسلسلة منطقيًا، يتصدرها الكشف عن مدى وجوده عند المسلم ثم ترسيخ عقيدة الدفاع عن الأوطان والتضحية لذلك؛ ليتسنى بعد ذلك العمل على صقلها وتعزيزها من خلال وسائلها المتاحة، ثم الكشف عن الثغرات ونقاط الضعف ومعالجتها وتقويمها؛ ليتم توظيفها والعمل بها لخدمة الدين وعمارة الأرض.

- ويتضمن ذلك أربعة مباحث انضوت عليها الدراسة:
- المبحث الأول: المنهج النبوي في الكشف عن مبدأ حماية الوطن ودرجته.
- المبحث الثاني: المنهج النبوي في غرس مبدأ حماية الوطن وترسيخه.
- المبحث الثالث: المنهج النبوي في تعزيز مبدأ حماية الوطن وصقله.
- المبحث الرابع: المنهج النبوي في توظيف مبدأ حماية في خدمة الدين وعمارة الأرض.

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ح(٢٦٥٥)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ح(٥٠٢٩).

## المبحث الأول: المنهج النبوي في الكشف عن مبدأ حماية الوطن ودرجته

تعدُّ هذه الخطوة أولى خطوات بناء شخصية المسلم على الإقدام والتضحية في سبيل حماية الوطن بأشكالها كافة ، ليعمد بعد ذلك إلى تعزيزها وصلتها وتصحيحها وإعداد صاحبها وتأهيله، والتي لا يمكن الوصول إليها دون المعرفة التامة بمدى تمتع الفرد المسلم بها.

وقد اعتمد المنهج النبوي في الكشف عن هذا المبدأ المحوري عدة طرق مختلفة؛ كالسؤال المباشر (العصف الذهني)، أو المراقبة الدقيقة (تحديد المؤشرات)، أو التحفيز والحث وإقامة المنافسات.

كل ذلك أعطى النبي ﷺ معرفة تامة بقدرات الصحابة رضي الله عنهم وإمكاناتهم المتعددة، الأمر الذي ساعد على توظيف قدرات كل منهم بحسب طاقاته.

وينضوي المنهج النبوي في الكشف عن مبدأ حماية الوطن على ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: السؤال المباشر (العصف الذهني).

- المطلب الثاني: المراقبة والمتابعة (تحديد المؤشرات).

- المطلب الثالث: الحث والمنافسة.

### المطلب الأول: السؤال المباشر (العصف الذهني)

ورد أسلوب السؤال المباشر في الشريعة الإسلامية مؤشراً مباشراً لتحديد الدرجة التي يتمتع بها المؤمن من التضحية والفداء وحماية الوطن بوصفه أحد أقصر الوسائل المؤدية إلى ذلك؛ كما روي عن عاصم بن ثابت رضي الله عنه أنه قال - لما سأل النبي ﷺ - يوم بدر: "كَيْفَ تُقَاتِلُونَ الْقَوْمَ إِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ؟" فَقَامَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا كَانَ الْقَوْمُ مِنَّا حَيْثُ يَنَالُهُمُ النَّبْلُ كَانَتْ الْمُرَامَةُ بِالنَّبْلِ، فَإِذَا اقْتَرَبُوا حَتَّى يَنَالَنَا وَإِيَّاهُمْ الْحِجَارَةُ كَانَتْ الْمُرَاضِحَةُ بِالْحِجَارَةِ، فَأَخَذَ ثَلَاثَةَ أَحْجَارٍ فِي يَدِهِ وَحَجَرَيْنِ فِي حِزْمَتِهِ، فَإِذَا اقْتَرَبُوا حَتَّى يَنَالَنَا وَإِيَّاهُمْ الرِّمَاحُ كَانَتْ الْمُدَاعِسَةُ بِالرِّمَاحِ، فَإِذَا انْقَضَتِ الرِّمَاحُ كَانَتْ الْجِلَادُ بِالسُّيُوفِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "بِهَذَا أُنزِلَتِ الْحَرْبُ، مَنْ قَاتَلَ فَيُقَاتِلَ قَاتَلَ عَاصِمًا"<sup>(١)</sup>.

١- رواه الأصبهاني، معرفة الصحابة، ح(١٧٠٠)، وإسناده حسن، والمداعسة: المطاعنة، والمدافعة.

والمراضحة: القذف والتكسير. انظر ابن منظور، لسان العرب، ٦/ ٨٣، و ٢/ ١٩.

ومن خلال ذلك استطاع النبي ﷺ أن يحدد درجة وجود هذا المبدأ عند الصحابة رضي الله عنهم، وما وصلت إليه حدود مهاراتهم العقلية والجسدية، فاستخدمها ووظفها ﷺ لخدمة الدعوة ونشر الإسلام.

وبمثله من المواقف استطاع النبي ﷺ أن يعرف ذلك، مما يُساعد على اكتشاف مواضع الخلل أو النقص ومن ثم العمل على استكمالها وتعزيزها.

### المطلب الثاني: المراقبة والمتابعة (تحديد المؤشرات)

تفيد المراقبة والمتابعة ملاحظة الدلالات المصاحبة للمواقف المختلفة، واستخراج المؤشرات القابلة للملاحظة؛ سواء أكانت مؤشرات سلبية أم إيجابية؛ ليُعتمد إلى تقويم السلبية منها، ويُكشف عن المؤشرات الإيجابية لتعزيزها وفق استراتيجيات محددة، وذلك بعد تصنيفها وتحديد مستوياتها المختلفة<sup>(١)</sup>.

وهذا من أكثر الأساليب استخدامًا وكشفًا عن القيم والطبائع المختلفة بشكل عام، وعن مبدأ حماية الوطن ومفهومه عند المسلم بشكل خاص، ويعتمد على جمع المعلومات من خلال ملاحظة المواقف المتعددة؛ فكثيرًا ما كان النبي ﷺ يراقب أصحابه رضي الله عنهم أو غير أصحابه من المشركين أو غيرهم ليعرف مدى امتلاكهم لمبدأ الدفاع عن الوطن والإقدام والمبادرة في سبيل ذلك، ومن ثم توجيههم بناءً على هذه المعرفة التراكمية.

لذا نجد ﷺ كثيرًا ما يوكل مهامًا معينة لأشخاص بأعينهم؛ يصعب من خلالها معرفة سبب اختيار ذلك الشخص دون غيره، إلا ما كان عند النبي ﷺ عنه من المعرفة المسبقة الناتجة عن المراقبة والمتابعة؛ كما ثبت عنه ﷺ الاستعانة ببعض المشركين في بداية الدعوة؛ كعميه أبي طالب عند بداية الدعوة<sup>(٢)</sup> والعباس رضي الله عنهم في بيعة العقبة<sup>(٣)</sup> على الرغم من عدم إسلامهما آنذاك، وكما وجه الصحابة رضي الله عنهم إلى الهجرة إلى الحبشة لعلمه لما عند حاكمها من توفير مبدأ الحماية وما يملكه من مبدأ السيادة

١- الصمدي، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ص ٧٣، بتصرف.

٢- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، ح (٣٦٧٠)،

ومسلم، صحيح مسلم، الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيق عنه، ح (٥٣١).

٣- رواه أحمد، المسند، ح (١٥٨٣٦)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

والعدالة، وإبعاداً لهم عما وقع بهم عند قريش من اعتداءات؛ فكان ما أَرَادَهُ النبي ﷺ؛ ولهذا قالوا: "نزلنا خير دار إلى خير جار؛ آمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نُؤذِي ولا نَسْمَعُ شَيْئاً نَكْرَهُه..."<sup>(١)</sup>، "...ولم نخش منه ظلماً"<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال هذا المنهج -أيضاً- عرف النبي ﷺ مدى رسوخ مبدأ الوقاية الفكرية لدى حذيفة بن اليمان ﷺ، وما كان يتصف به من قوة للشخصية، وحفظ للأمانة والسر، وحكمة في القرار، ورزانة في الرأي، فأسرَّ إليه كثيراً من أخبار الفتن والملاحم، وأسماء المنافقين وغيرهم، حتى كان صاحب سر النبي ﷺ حتى بعد وفاته<sup>(٣)</sup>.

وتكرَّر ذلك في توظيفه ﷺ صوت العباس ﷺ لحماية الوطن عسكرياً خلال غزو الطائف، وفي أشد الظروف وأصعبها لجهورية صوته، لما أمره في حنين أن ينادي في الناس وهم مؤلون، فقال: "أي عباس! ناد أصحاب السُّمرة؟"<sup>(٤)</sup>، الأمر الذي ما كان أن يكون إلا بمعرفة ومراقبة مسبقة من النبي ﷺ لشخصيات أصحابه ﷺ، وما يمتاز به كل منهم، فنادى العباس وكان رجلاً صَيِّئاً، فاجتمعوا حول النبي ﷺ حتى انتصروا.

### المطلب الثالث: الحث والمنافسة

من أشد الأساليب تأثيراً واستخراجاً للمهارات المختلفة؛ سواءً العقلية منها أو الجسدية زرع روح التنافس والتسابق على إحراز هدف ما؛ الأمر الذي يدفع الشخص إلى بذل أقصى جهده، سواءً كانت تلك المنافسة بين شخصين متنافسين، أو وضع الشخص في تحدٍّ مع نفسه، أو وعده بمكافأة أكبر من مهارته التي سيظهرها.

١- رواه أحمد، المسند، ح(١٧٤٠)، وحسنه شعيب الأرنؤوط في الهامش، وقال الألباني: إسناده جيد. انظر الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(٣١٩٠).

٢- رواه البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ٩/٩، وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(٣١٩٠).

٣- رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عمار وحذيفة ﷺ، ح(٣٤٥٩)، قول علقمة الليثي لأبي الدرداء ﷺ: أو ليس فيكم صاحب سر النبي ﷺ.

٤- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، ح(٤٧١٢)، السمرة: الشجرة، والمقصود: أهل بيعة الشجرة.

وقد اعتمد المنهج الرباني -فضلاً عن المنهج النبوي- في كثير من مواقفه على زرع روح الآخرة والجزاء عند الله ﷻ في كثير من أعمال المسلم إضافة للثواب الدنيوي؛ إلا أن ذلك ظهر جلياً في بعض المواقف النبوية، من خلال أن يستحث النبي ﷺ شجاعة شخص بعينه وإقدامه وتصدره للمواقف؛ ليعلم ما يتمتع به من مبدأ حماية الوطن والدفاع عنه بإخضاعه لاختبار واقعي؛ كما في ليلة الأحزاب، حين أخذت المسلمين ریح شديدة وقر، وتطلب من النبي ﷺ أن يستحث القوم فقال: "ألا رجل يأتيني بخبر القوم؛ جعله الله معي يوم القيامة"، فتقدم أسامة بن زيد ﷺ، إلا أن النبي ﷺ أراد من ذلك أن يستحث ما كان عند حذيفة ﷺ وأمثاله من الحرص وسرعة البديهة وعمق الفهم، ورجاحة العقل المطلوبة لتلك المهمة، فقال: "قم يا حذيفة"<sup>(١)</sup>، فأتاه بخبر القوم دون أن يلحظه أحد، على الرغم من الفرصة التي لاحت له بقتل عدد منهم، إلا أن خبر القوم كان أولى لإنهاء الحرب بالكيفية، فكان ذلك نتيجة ما اكشفه النبي ﷺ من شخصيات أصحابه من دافعية لحماية الوطن وروح المبادرة والتضحية، فعلم -كذلك- ما كان عند أسامة بن زيد ﷺ من المنافسة.

### المبحث الثاني: المنهج النبوي في غرس مبدأ حماية الوطن وترسيخه

يعتمد هذا المنهج بشكل أساس على زيادة الترسخ النفسي والعقدي لمبدأ حماية الوطن بعد الكشف عن مدى تمتع المسلم به، وهو حلقة وصل تؤدي إلى تعزيز مبدأ حماية الوطن وترسيخه، وربطه بعقيدة المسلم ودينه.

ولا شك أن حماية الوطن تتطلب تضحية باهظة الثمن من المال أو الجهد أو النفس؛ ولذا فإن الشارع الحكيم قد جعل لها ما يناسبها من الجزاء والثبوة التي تعتمد على إيمان المسلم باليوم الآخر، وما سيلقاه عند الله ﷻ.

وبناءً على ذلك؛ فإن ترسيخ مبدأ حماية الوطن لا بد أن يعتمد على أركان الإيمان، بعيداً عن أية مصلحة آنية أو مادية.

١- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب، ح(٣٣٤٣).



ولهذا، فقد اعتمد المنهج النبوي في ترسيخ مبدأ حماية الوطن في نفس المؤمن على عدة مقومات مختلفة، بحسب الآتي:

- المطلب الأول: الارتباط الوثيق بعقيدة المؤمن.
- المطلب الثاني: التعلق النفسي والعاطفي بالوطن.
- المطلب الثالث: تأطير مبدأ حماية الوطن بالمنهج الرباني.
- المطلب الرابع: تعليق العمل بها بالجزاء الأخروي.

### المطلب الأول: الارتباط الوثيق بعقيدة المؤمن

لا شك أن ارتباط مبدأ حماية الوطن بالعقيدة، يجعلها واحدة من الثوابت الشرعية التي لا تتغير ولا تُتخذ مطية لتحقيق غايات آنية أو مصالح شخصية أو استغلالية، وإنما تبقى منحصرة في حدود عمارة الأرض والمصلحة المطلقة، بحيث لا يُبالغ في استخدامها، ولا يُتقاعَس عن أدائها؛ ولهذا جعل مبدأ الدفاع عن الوطن وحمائته شعبة من شُعب الإيمان، والتخلي عنه خيانة لله ورسوله وللمؤمنين؛ كما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: "مَنْ استعمل رجلاً من عصابة وفي تلك العصابة مَنْ هو أرضى لله منه؛ فقد خان الله وخان رسوله، وخان المؤمنين"<sup>(١)</sup>، ومن هنا أصبحت حماية الأوطان واحدة من مبادئ العبادة، ودرء عداوة الظالمين عنها قُرى يتخذها المؤمن إرضاء لربه، وانتصاراً لعباده المستضعفين، فقد صح عن النبي ﷺ أنه دعا على شيبه بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف لما تسبوه من اضطراب لأهل مكة وإخراج أهلها منها بغير حق بعيداً عن ديارهم وأموالهم وأولادهم<sup>(٢)</sup>، وهو أمر هدّد مبدأ المواطنة وألحق خللاً في الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والديني لأهل مكة المسلمين، فما دفعهم هذا الابتلاء إلى بُغضها أو التخلي عنها أو

١- رواه الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ح(٧٠٢٣)، وقال: صحيح الإسناد.

٢- رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، ح(١٧٩٠)، كما في قوله ﷺ: "اللهم العن شيبه بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمّية بن خلف كما أخرجونا من ديارنا".

التأمر عليها، كذلك لم يجعل هزيمتهم عند جبل أحد أن تأنفه نفوسهم أو يتشاءموا بسبب ما وقع لهم عنده من الابتلاءات بل بقي جبلاً "يحبنا ونحبه"<sup>(١)</sup>، الأمر الذي عاجله المنهج النبوي ورسخه مع عقيدة المسلم.

### المطلب الثاني: التعلق النفسي والعاطفي بالوطن

لم يربط المنهج النبوي المؤمن بوطنه عقدياً فحسب، بل تعمق ذلك الارتباط عاطفياً ونفسياً إلى حد جعل فيه الإسلام حب الوطن من الفطرة، وابتغاء عزته حاجساً يراود كل مؤمن، والمساس به بسوء يفطر قلبه دون سبب مادي أو مصلحة خاصة.

ومن هنا، جاءت كثيرٌ من الأحاديث في الهدى النبوي مُشيرةً إلى تعلق النبي ﷺ بأرضه التي يحب ويهوى، وفيض العاطفة التي لم يستطع إخفاءها حين كان يطوف بالكعبة فقال: "ما أطيبك وأطيب ريحك..."<sup>(٢)</sup>، وكما ورد في حديث بدء الوحي حين سأل النبي ﷺ مستنكراً: "أو مخرجي هم؟"<sup>(٣)</sup> قال ابن حجر: "قال السهيلي: يؤخذ منه شدة مفارقة الوطن على النفس فإنه ﷺ سمع قول ورقة أنهم يؤذونه ويكذبونه فلم يظهر منه انزعاج لذلك، فلما ذكر له الإخراج تحركت نفسه لذلك لحب الوطن وإلفه فقال: "أو مخرجي هم؟!"، قال: ويؤيد ذلك إدخال الواو بعد ألف الاستفهام مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه فأشعر بأن الاستفهام على سبيل الإنكار أو التفجع"<sup>(٤)</sup>.

وامتد هذا الشوق والحب إلى مدينته النبوية المطهرة حين قال: "اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه، ح(٣٨٥٥)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب جبل أحد يحبنا ونحبه، ح(٣٤٣٧).

٢- رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٣٨٦١)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(٣٤٢٠).

٣- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ح(٣)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كيف كان بدء الوحي، ح(٤٢٢).

٤- ينظر: ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٦٢١/٣.

مكة أو أشد"<sup>(١)</sup>، وقد روى البخاري في صحيحه ما يدل على شوقه وحنينه إلى وطنه ﷺ؛ لما كان يقدم من سفر فيرى دَرَجَاتِ المدينة، أَوْضَع نَاقَتَهُ"<sup>(٢)</sup>. قال ابن حجر: "فيه دلالة على مشروعية حب الوطن والحنين إليه"<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا كان الارتباط العاطفي بالوطن أمراً موافقاً للعقيدة والفطرة والعمل القويم، ما أدى إلى الارتباط النفسي الذي يجعل المسلم متعلقاً بوطنه، مؤمناً ومرتبطاً به هوية وواجباً ومسؤولية، وقد تجلّى هذا المفهوم في قول النبي ﷺ حين كان يرقى مريضاً بلُّ أصبعه بريقه، ثم وضعه على التراب، ثم مسح به المريض، ثم قال: "بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يُشْفَى سقيمنا، بإذن ربنا"<sup>(٤)</sup>، وهو دافع شرعي نفسي يجعل قلب المؤمن متعلقاً بتراب وطنه ويعلم أن ماله الروحي والجسدي إلى بلده؛ لذا فإن عليه أن يبني تلك الثقة ويصدقها، ويجعل من وطنه موثلاً صالحاً، بعيداً عن الإفساد الذي يُوقِع البغض والكراهية والنفور منه، قال القاضي والبيضاوي وابن حجر في الفتح: "شهدت المباحث الطبية على أن الريق له دخل في النضج وتبديل المزاج، ولتراب الوطن تأثير في حفظ المزاج الأصلي، ودفع نكايه المغيّرات، ولهذا ذكروا في تدبير المسافر أنه يستصحب معه تراب أرضه إن عجز عن استصحاب مائها، حتى إذا ورد غير الماء الذي تعود شربه ووافق مزاجه، جعل شيئاً منه في سقايته، ويشرب الماء من رأسه ليحفظ عنه مضرة الماء الغريب ويأمن تغيير مزاجه بسبب استنشاق الهواء المغاير للهواء المعتاد"<sup>(٥)</sup>.

فإذا كانت هذه المكانة المطلوبة للوطن في نفس المؤمن، تحققت الغاية التأديبية التي أرشد

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الفضائل، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ح(٣٧١١)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها، ح(٣٤٠٨).

٢- رواه البخاري، صحيح البخاري، أبواب العمرة، باب من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة، ح(١٧٠٨)، والدرجات: جمع درجة، وهي الطرق المرتفعة، وأوضع ناقته: أي حملها على سرعة السير. انظر ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ٢٦٦، بتصرف، و٨/ ٣٩٦.

٣- انظر ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٢/ ٣٥٩.

٤- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطب، باب رقية النبي ﷺ، ح(٥٤١٣)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة، ح(٥٨٤٨).

٥- انظر ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٠/ ٢٠٨.

إليها الحديث في جعل التغريب عن الوطن<sup>(١)</sup> من أشد العقوبات وأثقلها على نفس المؤمن والعقوبة لا تكون إلا فيما يكره، أما إن وصلت الحال إلى تمني الهجرة من الوطن فهذا فيه خلل إما في إيمان المسلم وحبه لوطنه، أو إيقاع فساد أو مضرة في الوطن تدفع المسلم إلى ذلك.

### المطلب الثالث: تأطير مبدأ حماية الوطن بالمنهج الرباني

يوازن المنهج النبوي بين حب الوطن إلى درجة الإيمان والتضحية وبذل المال والدم، وبين الامتناع عن العصبية أو اتخاذ حمايته ذريعة للعدوان أو التخلي عن رباط الدين والعقيدة، الأمر الذي جعل من المنهج النبوي وسيلة مثلى لتنظيم أولويات مبدأ حماية الوطن ووضعها في إطارها الصحيح المبني على الشريعة الإسلامية الربانية.

ومن هنا كانت أحوّة الدين مقدمة على غيرها من الروابط الأخرى، كما في قوله ﷺ: "المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضها بعضاً"<sup>(٢)</sup>، كما ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ  
عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ فكثير من المهاجرين حاربوا آباءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم في  
المعارك، مما جعل رباط الدين والحق مقدماً عندهم على غيره، كما ورد عن حمزة وعلي وعبيدة بن  
الحارث أنهم قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر وهم أقرباؤهم<sup>(٣)</sup>.

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب شهادة القاذف والسارق والزاني، ح(٢٥٠٦)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ح(٤٥٣١)، حديث أن النبي ﷺ أمر فيمن زنى ولم يحصن بجلد مئة وتغريب عام.

٢- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، أبواب المساجد، باب تشييك الأصابع في المسجد، ح(٤٦٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح(٦٧٥٠).

٣- رواه ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ح(٢٢٨٧)، وصححه الألباني، صحيح ابن ماجه، ح(٢٨٢٥)، وفيه أن "هذه الآية: ﴿هَذَا خِطْمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رِجْمِهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ شِيَابٌ مِّن نَّارٍ...﴾، الآية [الحج: ١٩]، نزلت في حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة اختصموا في الحجج يوم بدر".

كذلك فإن الشريعة حرّمت إعانة الرجل قريبه على الظلم، بل الأصل الأخذ على يده وكفّه عنه<sup>(١)</sup>، على الرغم من أن حبه مقدم على حب الآخرين، وجعل نصرته هي الأخذ بيده - إن كان ظالمًا - إلى العدالة والحق، لكن بقيت مناصرة أولي القربى ومؤازرتهم على الخير، وحمائتهم من الضر؛ من حسن البر والصلة، لا من باب العصبية والظلم.

وهذا المنهج الوسطي جعل المسلم متوازنًا في أفعاله سواء مع أبناء جلدته أو أعدائه، فلا يُعين على ظلم يقوم به محبوه، أو عصبية ناتجة عن ذلك، كما أنه لا يُقدم عليهم في المكانة أحدًا، في الوقت الذي لا يظلم فيه أعداءه بغير حق، كما لا يواليهم على وطنه وبني عقيدته، الأمر الذي يحقق حماية للوطن من الاغتيال أو الاستغلال من قبل أبنائه، وحمائته من العدوان أو الطغيان من قبل أعدائه. وسيأتي مزيد من التفصيل في المطلب السادس من المبحث الثالث.

#### المطلب الرابع: تعليق العمل بها بالجزاء الأخروي

يتميز المنهج النبوي في حماية الوطن والمحافظة عليه بالمال والنفوس والعرض والفكر، بالجزاء الأخروي المناسب لعظيم هذه التضحية والبذل؛ ولهذا كان مقدار الجزاء من عظيم درجة العمل، لكن دون حرمان خير الدنيا وثوابها.

ولا شك أن النفس والروح هي أعظم ما يمكن أن يُقدمه المؤمن من التضحية لقاء الجنة وعظيم الأجر عند الله ﷻ؛ ولهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بأن "مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ..."<sup>(٢)</sup> أو "...أهله فهو شهيد"<sup>(٣)</sup>، ومغفرة ذنوبه عند أو دفعة من دمه<sup>(٤)</sup>، وغيرها من حسن الجزاء، سواء

١- رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب عن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، ح(٢٣١١)، قول النبي ﷺ: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا".

٢- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، ح(٢٣٤٨)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دليل على أن من قصد أخذ مال غيره...، ح(٣٧٨).

٣- رواه أبو داود، سنن أبي داود، ٥ / ٢٧٥، وصححه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، ح(١٤١١).

٤- رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٦٦٣)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير، ح(٩٣١٣)، قول النبي ﷺ: "للشهيد عند الله ست خصال؛ يغفر له في أول دفعة...".

كان ذلك حماية له من اعتداء قادم، أو استردادًا لحقٍّ مأخوذ أو مظلمة واقعة<sup>(١)</sup>.

بل يتجاوز الأمر إلى وعد المؤمن بحسن العطاء لمجرد نيته حماية وطنه من احتمال شرٍّ قد يحيك به، ذلك أن النبي ﷺ وعد أهل بيعة العقبة برفيع المكانة في الجنة دون قتال<sup>(٢)</sup>، كما وعد النبي ﷺ مرافقته في الجنة لمجرد أن يقوم واحد من الصحابة ﷺ ويأتيه بخبر القوم يوم الأحزاب<sup>(٣)</sup>، وغيرها من أجور الرباط والحراسة في سبيل الله.

ومن الجدير بالملاحظة أن المجاهد بنفسه الحائز على الشهادة لم يقصر الله ﷻ همّه على الأجر الدنيوي كما في القوانين الدنيوية المعاصرة، ولا لورثته من الغنائم؛ لأن المنهج النبوي يقوم على تعليق المؤمن بالأجر الأخروي المضمن عند الله ﷻ، ولا يعدّه بالأجر الدنيوي لأنه أجر غير مضمون؛ فهذا مصعب بن عمير وحمزة وغيره من الصحابة ﷺ لم يأخذوا من متاع الدنيا شيئاً لقاء تضحياتهم بالمال والنفس في سبيل حماية أوطانهم، وإنما وعدهم النبي ﷺ بالجنة والرضوان من الله ﷻ، كما جاء في الصحيح أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائماً، فقال: "قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كُفن في بردة إن غُطي رأسه بدت رجلاه وإن غُطي رجلاه بدا رأسه، -وأراه قال: - وقُتل حمزة وهو خير مني، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بسط، - أو قال: - أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا"، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام<sup>(٤)</sup>.

١- رواه أحمد، المسند، ح(٢٧٨٠)، وصححه شعيب الأرنؤوط في الهامش، وصححه الألباني، انظر

صحيح الترغيب والترهيب، ح(١٤١٣)، قول النبي ﷺ: "من قتل دون مظلمته فهو شهيد".

٢- رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب وفود الأنصار وبيعة العقبة، ح(٣٦٨٠)، أن

عبادة بن الصامت ﷺ قال: "إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ وقال: بايعناه على أن لا نشرك

بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا ننتهب ولا نعصي بالجنة"،

الحديث.

٣- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب، ح(٣٣٤٣)، قول النبي ﷺ: "ألا رجل

يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة".

٤- رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ح(٣٨١٩).

## المبحث الثالث: المنهج النبوي في تعزيز مبدأ حماية الوطن وصقل

يعتمد تعزيز مبدأ حماية الوطن في نفس المؤمن وعقيدته وفكره على معرفة مدى امتلاكه لهذه القيمة العظيمة، وأحياناً ما يعزز المنهج النبوي هذا المبدأ ويغرسه في قلوب المسلمين دون النظر إلى درجاته المتفاوتة لدى كل منهم؛ وعلى كلتا الحالتين فقد استخدم المنهج النبوي لذلك مناهج متعددة ومتكاملة توجه سلوك المسلم وتبني شخصيته بغض النظر عن الدافعية التي يمتلكها لحماية الوطن والدفاع عنه إن كانت قوية منذ ولادته أو أنه اكتسبها بسبب ظروف أو بيئة أو تربية لاحقاً.

وقام المنهج النبوي بتعزيز مبدأ حماية الوطن وتنميته من خلال طرق عدة، نلخصها فيما يأتي:

- **المطلب الأول:** الحماية الفكرية للفرد وتعزيز المفاهيم الصحيحة.
- **المطلب الثاني:** إبراز القدوة ورسم الأنموذج في حماية الوطن.
- **المطلب الثالث:** تحقيق العدالة ومحاربة العنصرية والفتوية والفساد.
- **المطلب الرابع:** حماية العمق الاستراتيجي وتضافر المجتمعات المسلمة.
- **المطلب الخامس:** الحماية العسكرية وتحصين المجتمع من أي اعتداء خارجي.
- **المطلب السادس:** الحماية من المبالغة أو الوقوع في الأخطاء التطبيقية في الدفاع عن الوطن.
- **المطلب السابع:** الدعاء وطلب الإعانة من الله ﷻ.

وفيما يلي تفصيل ذلك:

### المطلب الأول: الحماية الفكرية للفرد وتعزيز المفاهيم الصحيحة

تقوم حماية الوطن على تعزيز أفرادها فكرياً وأخلاقياً وتدريبهم مهارياً على أعلى المستويات؛ لأن كل واحد منهم على ثغرة من ثغور الوطن، يعمل على حمايته بكل المجالات سواء الفكرية أو العسكرية أو غيرها من أسس بناء المجتمع الإسلامي المتكامل، كما أن هذا التعزيز المتكامل للفرد يقيه من الأفكار الفاسدة والأخلاق المنحرفة التي يُؤتى الوطن من قبلها.

والتعزيز المتكامل للفرد المسلم يمثلاً فراغاً عقلياً وفكرياً وأخلاقياً يحميه من أية موجة فكرية ضالة ويُعنيه عن البحث، ويُرشده إلى طريق نبوي واضح، ولا يتركه هائماً أو تائهاً أو جاهلاً؛ ولهذا نجد أن المنهج النبوي اهتم - في مواضع يصعب حصرها - بتعزيز الفرد عقدياً وفكرياً ومهارياً ليحمي نفسه ويخدم مجتمعه.

وقد جاء المنهج النبوي بشمولية تامة، ومنهجية تطبيقية لتعزيز الفرد المسلم؛ فحدد له ركائز عقيدته، وتفصيلات شريعته، ومحددات أخلاقه؛ فحرم الدماء والأموال والأعراض بغير حق<sup>(١)</sup>، ووضح علاقة المسلم مع ربه ومع نفسه ومع غيره من المسلمين وغير المسلمين في قوله ﷺ: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"<sup>(٢)</sup>، سواء في حالات السلم أو الحرب، والمعاهدات والوثائق سواء مع المشاركين في الوطن منهم أو غير المشاركين كما ورد في وثيقة المدينة<sup>(٣)</sup>؛ وغير ذلك من الأمور التي شكّلت شخصيات الصحابة ﷺ.

### المطلب الثاني: إبراز القدوة ورسم الأنموذج في حماية الوطن

تفاوت منهج النبي ﷺ في إبراز القدوة بين تمتله الشريف للجندى المدافع عن وطنه ودينه وعقيدته، إضافة إلى إبراز القدرات المكونة في نفوس أصحابه ﷺ، ذلك أنه ﷺ كان أكمل الناس خلقاً وعقلاً كما قال حسان بن ثابت ﷺ:

وأحسن منك لم تر قط عيني  
وأجمل منك لم تلد النساء  
خُلقت مبرراً من كل عيب  
كأنك قد خلقت كما تشاء<sup>(٤)</sup>

ذلك التمثل الذي ظهر جلياً في جميع مواقفه القتالية والقيادة في المعارك والحروب أو عند

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ح(١٦٥٢)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض، ح(٤٤٧٨)، قول النبي ﷺ: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا...".  
٢- رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٨٧)، وقال: "حديث حسن صحيح"، وحسنه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، ح(٣١٦٠).

٣- ابن سلام، الأموال، ح(٣٩٢)، وابن زنجويه، الأموال، ح(٥١٥)، من عدة طرق وأسانيده حسنة لغيرها.

٤- حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، ١/ ٦٦.



الحاجة للثبات والرباط، كما قال المناوي: "لحيازته جميع المحاسن والمكارم وتكاملها فيه، ولما اجتمع فيه من خصال الكمال وصفات الجلال والجمال ما لا يحصره حدٌ ولا يحيط به عدٌ"<sup>(١)</sup>.

وقد تعددت أمثله وكثرت مواقف، الأمر الذي كان منشؤه شخصية النبي ﷺ، إضافة إلى ما حباه الله ﷻ من النبوة، فليس فيه مدخل لأهل التأويل أن يدعوا عجز الإنسانية عن التأسي به لخصوصية نبوته، كما لا يُنسب تفرده في تمام الأخلاق إلى ذاته ليسحب منه المغرضون نبوته فينسبون إنجازاته إلى بشريته؛ وإنما كلُّ منهما تمتعت به شخصيته الفذة ﷺ؛ ولهذا جعله الله ﷻ مثلاً للقوة والشجاعة والتضحية.

ومن أبرز ما جاء عنه ﷺ في ذلك قوله: "لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل"<sup>(٢)</sup>.

وقد ظهر تطبيق ذلك جلياً فيما رواه علي بن أبي طالب ﷺ قال: "لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً"<sup>(٣)</sup>، ومنها إقدامه ﷺ وشجاعته لما فرغ أهل المدينة من صوت ذات ليلة انطلقوا إليه، فاستقبلهم النبي ﷺ وهو عائد من قبل الصوت، راكبٌ فرساً عربياً بلا سرج، يعدو به وفي عنقه السيف، وهو يقول: "لن تُراعوا، لن تُراعوا"<sup>(٤)</sup>، أي: ليس هناك ما تخافون منه.

وقد كان النبي ﷺ كذلك قدوة في استخدام القوة العقلية في المعارك والغزوات؛ كما ظهر ذلك جلياً في معرفة عدد المشركين في غزوة بدر لما أمسك المسلمون برجلين من موالي قريش، وأبيا أن يفصحا عن عدد المشركين، وجهد الصحابة ﷺ والنبي ﷺ أن يخبروهم، فسألهم النبي ﷺ: "كم

١- المناوي، فيض القدير، ٥/ ٩٠.

٢- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ح(٤٩٦٧).

٣- رواه أحمد، المسند، ح(٦٥٤)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

٤- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق،

ح(٢٥٩٢)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب،

ح(٤٢٦٦).

ينحرون من الجزر؟" فقال: عشرًا كل يوم، فقال رسول الله ﷺ: "القوم ألف؛ كل جزور لمائة"<sup>(١)</sup>، فتعلّم الصحابة ﷺ من أمثال هذا التمييز العقلي الذي تحلّى به النبي ﷺ.

وتمثل منهجه ﷺ أيضًا في إبراز القدرات المكنونة في نفوس الصحابة ﷺ، وجعلهم قدوة لأقرانهم وأتباعهم؛ ولهذا أبرز شخصية عدد منهم في مجالاتهم التي يبرعون بها؛ كما علم ﷺ من حذيفة بن اليمان ﷺ ما كان يتصف به من قوة للشخصية، وحفظ للأمانة والسر، وحكمة في القرار، ورزانة في الرأي، فأسّر إليه كثيرًا من أخبار الفتن والملاحم، وأسماء المنافقين وغيرهم، حتى كان صاحب سر النبي ﷺ حتى بعد وفاته<sup>(٢)</sup>، ومثله سعد بن أبي وقاص ﷺ في الرماية<sup>(٣)</sup>، وخالد بن الوليد ﷺ في الشجاعة والإقدام<sup>(٤)</sup>، وعمر بن الخطاب ﷺ في الشدة<sup>(٥)</sup>، وعبيدة بن الجراح ﷺ من الأمانة في الأداء<sup>(٦)</sup>. وغيره العديد من الأمثلة.

### المطلب الثالث: تحقيق العدالة ومحاربة العنصرية والفئوية والفساد

لا شك أن أحد أهم أسباب قوة الحضارة الإسلامية، وتفوقها على نظيراتها اللواتي عاصرتها من الدول ارتفاع معيار حماية الحقوق، وانتشار العدالة الاجتماعية، وانتفاء التمايز العرقي أو

- ١- رواه أحمد، مسند أحمد، ٢/ ٢٥٩، ح(٩٤٨)، وصححه شعيب الأرنؤوط.
- ٢- رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عمار وحذيفة ﷺ، ح(٣٤٥٩)، قول علقمة الليثي لأبي الدرداء ﷺ: "أوليس فيكم صاحب سر النبي ﷺ".
- ٣- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب المعجن ومن يترس بترس صاحبه، ح(٢٦٩٠)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ، ح(٤٤٢٩).
- ٤- رواه أحمد، المسند، ح(١٧٥٠)، وصححه شعيب الأرنؤوط على شرط مسلم في الهامش، في غزوة مؤتة حين أخذ خالد ﷺ الراية قال النبي ﷺ: "ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد، ففتح الله عليه".
- ٥- رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٣٧٩٠)، وقال: "حديث حسن غريب"، صححه الألباني في الهامش، وفيه قول النبي ﷺ: "أشدهم في أمر الله عمر".
- ٦- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، ح(٤١١٩)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي عبيدة بن الجراح، ح(٤٢٦٦)، وفيه أن النبي ﷺ أخذ بيد أبي عبيدة ﷺ فقال: "هذا أمين هذه الأمة".

الطبقي أو النَّسَبِي أو غيره.

هذا المبدأ الذي رسّخته الشريعة الإسلامية بقوة منذ اللحظة الأولى من الدعوة؛ حين طلب عليه القوم من قريش أن يجعل لهم مجلس مغاير عن مجالس عامة الناس في الدعوة فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢]، وتواترت النصوص على تدعيم هذا المعنى وترسيخه على جميع المستويات الشرعية والدينية، ومحاربة أية فكرة أو معتقد يعزز مبدأ العنصرية أو الفئوية أو الفساد؛ كما أنكروا النبي ﷺ على المهاجرين والأنصار دعواهم بدعوى الجاهلية وهو بين ظهرانيهم؛ فقال: "دعواها فإنها منتنة" (١)، خاصة أنه ﷺ قد احتاط لذلك حينما آخى بين المهاجرين والأنصار على أعقاب هجرته مباشرة (٢)، الأمر الذي أغلق باب الفئوية والتفرقة؛ ولهذا فقد حذر النبي ﷺ من أن الشيطان قد أيس من إفساد عقائد المسلمين وإرجاعهم إلى الوثنية، لكنه اتخذ بدلاً عن ذلك استغلال العنصرية والإفساد والتحريش بينهم (٣).

كل ذلك وحد الصف الداخلي للمجتمع المسلم وجعل حمايته أمتن وأقوى من أن يكون مجتمعا طبقيا حقودا مفككا؛ ولهذا فقد ضمن المنهج النبوي تلك العدالة في كل جزئية وتحت أي ظرف؛ كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: "مَنْ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عَصَابَةِ وَفِي تِلْكَ الْعَصَابَةِ مِنْ هُوَ أَرْضَى اللَّهُ مِنْهُ؛ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَخَانَ رَسُولَهُ وَخَانَ الْمُؤْمِنِينَ" (٤)، حتى أضحي منهجا معمولاً به في

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ح(٣٣٣٠)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوماً، ح(٦٧٤٨).

٢- رواه أحمد، المسند، ح(١٢٩٩٩)، وصححه شعيب الأرنؤوط على شرط الشيخين، وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(٣١٦٦).

٣- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه، ح(٧٢٨١)، قول النبي ﷺ: "إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم".

٤- رواه الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ح(٧٠٢٣)، وقال: صحيح الإسناد.

الحرب والسلام، والشدة والرخاء؛ وقد ظهر ذلك يوم استشار النبي ﷺ أصحابه في أحد بين الخروج والقتال في المدينة؛ فقدم رأي المشورة على رأيه، والتزم به وأنفذه<sup>(١)</sup> دون أن يؤثر فيه؛ ليحمل صفة العدالة المطلقة في اتخاذ القرار، ويتحمل كل فرد منهم عواقب ذلك ومسئوليته.

وتكرر ذلك فيما كان يعرض غلمان الأنصار في كل عام فيلحق من أدرك منهم بالقتال، فألق غلاماً ورد سمرة، فقال سمرة: يا رسول الله! أحقته ورددتني ولو صارته لصرعته؛ فأراد النبي ﷺ أن يحقق العدالة التي طلبها سمرة؛ فقال له: "فصارعه"، فتصارعا أمام النبي ﷺ فصرعه سمرة؛ فألقه النبي ﷺ بالجيش<sup>(٢)</sup>، فكان لا يميّز بين مسلم وآخر، بل كان قدر كل امرئ ما كان يتقنه.

#### المطلب الرابع: حماية العمق الاستراتيجي وتضافر المجتمعات المسلمة

يقصد بالعمق الاستراتيجي ترابط الدول الإسلامية على اختلاف أنظمتها السياسية المستقلة أو تباعدها الجغرافي أو تعدد عروقها وأصولها ولغاتها، وتأزرها ودعم بعضها بعضاً في الحماية المشتركة بشتى أنواعها، وهذا المبدأ يعتمد على مفهوم الوطن في الشريعة الإسلامية، والذي يقوم على أن كل مجتمع إسلامي مهما كان موقعه أو لغته أو ثقافته فإنه وطن لكل مسلم، وله يوالي وعليه يُعادي، ولا فرق بين مسقط رأس المسلم أو مكان عيشه أو ما يحمل جنسيته وبين أية بقعة

١- ذكره البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله ﷻ وأمرهم شورى بينهم، في ترجمة الباب، ورواه أحمد، المسند، ح(١٤٨٢٩)، أن النبي ﷺ قال لأصحابه: "لو أنا أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم"، فقالوا: يا رسول الله! والله ما دخل علينا فيها في الجاهلية فكيف يدخل علينا فيها في الإسلام؟ قال عفان في حديثه: فقال: "شأنكم إذا"، قال: فلبس لامته، قال: فقالت الأنصار: رددنا على رسول الله ﷺ رأيه، فجاؤوا فقالوا: يا نبي الله شأنك إذا، فقال: "إنه ليس لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل".

٢- رواه الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ٢ / ٦٩، والبيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ٩ / ٢٢، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في "التلخيص": صحيح.

يُقام فيها شرع الله؛ فكلها أوطان إسلامية يجب على الجميع حمايتها، كلٌ حسب جهده، فالأرض ليست بالحدود، وإنما بالدين والشريعة، حتى لو لم يكن دستورها إسلامياً صرفاً.

وبهذا يتشكل مفهوم العمق الاستراتيجي وحماية المجتمعات المسلمة بعضها بعضاً، بل يتوسع ذلك إلى حماية المسلمين، وموالاتهم والدفاع عنهم بشتى الوسائل المتاحة، سواء أكانوا يعيشون في بلد مسلمة أم غير مسلمة.

وبهذا جاءت أحاديث كثيرة، وتضافر معناها ليشكل منهجاً نبوياً لحماية العمق الاستراتيجي للمجتمعات المسلمة على اختلاف مواقعها الجغرافية أو تحت أية دولة تخضع؛ كما جاء عن النبي ﷺ قوله: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر"<sup>(١)</sup>، وغيرها من الأحاديث كقوله ﷺ: "المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشد بعضه بعضاً"<sup>(٢)</sup>؛ فالجسد وحدة واحدة مع انقسام أماكنه ووظائفه وأشكاله ومهامه، إلا أنه إذا أصيب إصبعه قامت له القدم، وفكر العقل، ونظرت العين، وتكلم اللسان، وانشغلت الحواس والأطراف؛ عزيزها وصغيرها، بانقضاء الألم ورفع المعاناة حتى ينجلي.

### المطلب الخامس: الحماية العسكرية وتحصين المجتمع من أي اعتداء خارجي

تتراوح سيادة الدولة الإسلامية بين القوة الفكرية والعقدية الثابتة، التي يعتمد عليها الفرد في تعزيز شخصيته وكيانه، ومنها تنبثق المؤسسات والدساتير والدول، وبين الهيبة العسكرية التي تحفظ أمن الدول الإسلامية من أية جهات تحاول الإساءة أو العدوان العسكري، الأمر الذي جعله الإسلام من باب جهاد النفس والمال جنباً إلى جنب مع جهاد العلم والكلمة والفكر.

وقد حصّن الإسلام نظامه ودولته وحماها بما عزّزه في فكر المسلم وعقيدته من أهمية الحماية العسكرية وكل ما ينبني أو يترتب عليها؛ ولهذا فقد جاء عدد غير قليل من الأحاديث التي تبيّن مكانة الجهاد وأثره، وموفور جزائه في الدنيا قبل الآخرة.

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ح(٥٦٦٥)،

ومسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ح(٦٧٥١).

٢- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، ح(٢٣١٤)، ومسلم،

صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح(٦٧٥٠).

ففي فضائل الأعمال التي سُئِلَ عنها النبي ﷺ كان الجهاد في مراتبه الأولى بعد الصلاة وبر الوالدين<sup>(١)</sup>، وقوله ﷺ أنه "من قُتِل دون ماله..."<sup>(٢)</sup> أو "...أهله فهو شهيد"<sup>(٣)</sup>، كما حَثَّ الإسلام على الرباط والحراسة لثغور المسلمين وحمائتها من أي اعتداء سواء في حالات السلم أو الحرب كما في قوله ﷺ: "لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً"<sup>(٤)</sup>.

ولم يتوقف الأمر على التعزيز العقدي لمعنى الجهاد والرباط لحماية الوطن، بل كان أعمق من ذلك في الحث على اكتساب مهارة القتال والعمل عليها كما في قوله ﷺ: "ألا إن القوة الرمي -كررها ثلاثاً-"<sup>(٥)</sup>، والثناء على مَنْ برع بها كما في قوله ﷺ: "ارم سعد، فذاك أبي وأمي"<sup>(٦)</sup>.

ويمتد ذلك إلى تعزيز الحرب النفسية والقوة الذاتية لِيُبْرز عزة المسلم وكبرياءه بمهارة قيادية فذَّة من خلال موقف استثنائي، وظَّف به النبي ﷺ الشخصية الحادة لدى أبي دجاجة ﷺ لِيُخيف به أعداء الله<sup>(٧)</sup>.

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من قال أن الإيمان هو العمل، ح(٢٦)، ومسلم، صحيح مسلم، الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال، ح(٢٦٢)، لما سئل النبي ﷺ عن أي الأعمال أفضل...، قال -بعد الإيمان وبر والوالدين-: "الجهاد في سبيل الله".

٢- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، ح(٢٣٤٨)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دليل على أن من قصد أخذ مال غيره...، ح(٣٧٨).

٣- رواه أبو داود، سنن أبي داود، ٥ / ٢٧٥، وصححه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، ح(١٤١١).

٤- رواه ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ح(٢٧٦٤) وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، ح(٢٢٣٨).

٥- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، ح(٣٥٤١).

٦- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب المحن ومن يترس بترس صاحبه، ح(٢٦٩٠)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ، ح(٤٤٢٩).

٧- رواه أحمد، المسند، ح(١٢٢٥٧)، وصححه شعيب الأرنؤوط على شرط مسلم، ورواه الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ح(٥٠١٩)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي في التعليق، أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: "من يأخذ هذا السيف؟" فأخذه قوم فجعلوا ينظرون إليه، فقال: "من يأخذه بحقه؟"، فأحجم القوم، فقال أبو دجاجة سماك: أنا آخذه بحقه، فأخذه، ففلق هام المشركين.

ولذلك نجد أن المنهج النبوي كان شاملاً لجميع الجوانب التي تساعد على حماية الوطن، وتعزيز كل جزئية من الجوانب المذكورة، وتطبيقها والعمل فيها كما سيأتي في المبحث الآتي.

### المطلب السادس:

#### الحماية من المبالغة أو الوقوع في الأخطاء التطبيقية في الدفاع عن الوطن

وهذه خطوة وقائية مكتملة للمطالب الآتية، ذلك أن التعزيز الصحيح للفرد المسلم على المنهج النبوي قد يقع فيه خطأ في الفهم أو التطبيق، فإن الأحاديث النبوية جاءت لتصحيح وترسخ المفاهيم الصحيحة عن طريق إنكار المفاهيم السلبية أو الممارسات المنافية للمنهج الرباني، سواء كانت تمس الحماية المدنية؛ كقوله ﷺ: "لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق"<sup>(١)</sup>، وقوله ﷺ: "لا ترجعوا كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"<sup>(٢)</sup>، أو قتل معاهد؛ كقوله ﷺ: "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً"<sup>(٣)</sup>، أو حتى قتل غير المقاتل حتى لو كان في معسكر الكفار حين غضب النبي ﷺ لما رأى امرأة مقتولة في غزوة وقال: "ما كانت هذه لتُقاتل"، ثم بعث إلى خالد بن الوليد ﷺ رجلاً فقال: "قل لخالد: لا يقتلن امرأة ولا عسيفاً"<sup>(٤)</sup>، كما أوصى بالعمل بأدنى ذريعة لحماية الأرواح والدماء؛ ولهذا عاتب النبي ﷺ أسامة بن زيد ﷺ - وهو حبه - عتاباً شديداً لما طعن رجلاً بعد أن نطق الشهادتين وكان متعوداً بها من القتل، فما زال يعاتبه ﷺ حتى قال أسامة ﷺ: "تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم"<sup>(٥)</sup>. كل ذلك يؤطر مفاهيم المسلم وأفعاله بالمنهج النبوي ويعزز معنى حماية الوطن ويزيل عنه أية شوائب.

ولم يقتصر ذلك على وقاية مفهوم حماية الوطن بحماية الأرواح، بل امتد ذلك إلى الحماية

- ١- رواه ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ح(٢٦٠٩) وصححه الألباني، صحيح ابن ماجه، ح(٢١٢١).
- ٢- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ لا ترجعوا بعدي كفاراً، ح(٦٦٦٦)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدي كفاراً...، ح(٢٣٢).
- ٣- رواه البخاري، صحيح البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، ح(٢٩٩٥).
- ٤- رواه أبو داود، سنن أبي داود، ١ / ٤١٦، وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(٧٠١)، والعسيف: الخادم أو العبد أو الأجير المستهان. انظر ابن منظور، لسان العرب، ٩ / ٢٤٥، بتصرف.
- ٥- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ، ح(٤٠٢١)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، ح(٢٨٨).

المعنوية والاقتصادية والسياسية؛ ولهذا قال النبي ﷺ - وهو يطوف بالكعبة: "مَا أَطْيَبَ وَأَطْيَبَ رِيحِكِ، وَمَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لِحُرْمَةِ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكَ؛ مَالِهِ وَدَمِهِ"<sup>(١)</sup>، فجعل حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة - على عظمها-، ثم حرم الهدية التي يجنيها الرجل بموجب منصبه، ولو قعد في بيته ما أتته<sup>(٢)</sup>، كما أنكر على تولية رجل من عصابة، وفي تلك العصابة من هو أرضى لله، وجعله خائناً لله ولرسوله وللمؤمنين<sup>(٣)</sup>، كل تلك الثغرات - وغيرها - نبه عليها المنهج النبوي، وعدّها من مهددات حماية الوطن، وأسباباً تمنع استقراره وتخل موازينه.

### المطلب السابع: الدعاء وطلب الإعانة من الله ﷻ

لقد تميّز المنهج النبوي عن غيره من المناهج الأخرى - سواء أكانت مناهج ذوات مراجع دينية أم مادية - بالعامل الروحي المتمثل بسؤال الله ﷻ وحده الأمن والسلامة والبركة والمحبة؛ كما ثبت عنه ﷺ حين قال: "اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا..."<sup>(٤)</sup>، وقوله ﷺ: "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد"، ثم دعا لها بالبركة<sup>(٥)</sup>.

وكذلك الدعاء على المفسدين في مقدرات الأمة، والمهددين لاستقرار الأوطان؛ كما في قوله

١- رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٣٨٦١)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(٣٤٢٠).

٢- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب من لم يقبل الهدية لعله، ح(٢٤٥٧)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، ح(٤٨٤٣) قول النبي ﷺ: "مَا بَالُ عَامِلٍ أْبَعُثَهُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدَى لِي. أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقْرَةٌ لَهَا حُورٌ أَوْ شَاةٌ تَبْعُرُ".

٣- رواه الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ح(٧٠٢٣)، وقال: صحيح الإسناد.

٤- رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآفات، ح(٩٩٠).

٥- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الفضائل، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ح(٣٧١١)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها، ح(٣٤٠٨).



ﷺ: "اللهم العن شيبه بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميه بن خلف كما أخرجونا من ديارنا"<sup>(١)</sup>.  
وأمثال ذلك كثيرة.

إضافة إلى دعاء النبي ﷺ - في غير موضع - دوام الأمن والسلامة في الأوطان كما في قوله ﷺ: "اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام"<sup>(٢)</sup>، واستعاذته مما يُجلب بشيء من أمن الوطن واستقراره كما في دعائه ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نعمتك، وجميع سخطك"<sup>(٣)</sup>، وقوله ﷺ: "ولا تسلط علينا من لا يرحمنا"<sup>(٤)</sup>، وأمثال ذلك كثيرة.

وهذا يؤكد تكامل المنهج النبوي في حماية الوطن بين المادية والروحانية والعقدية والمهارية وغيرها، ويربط الحماية العقدية مع الفكرية مع الاستعداد العسكري وغيره من مقومات الحماية للوطن.

### المبحث الرابع:

## المنهج النبوي في توظيف مبدأ حماية الوطن في خدمة الدين وعمارته الأرض

يعتمد المنهج النبوي في توظيف مبدأ حماية الوطن واستغلاله لخدمة الدين وعمارته الدنيا على سلسلة متقدمة من الخطوات التي يعتمد بعضها على الآخر؛ حتى تشكل منظومة متكاملة تؤخذ ثمرتها من الكشف عن ذلك المبدأ العظيم في نفوس الصحابة ﷺ بالطرق المذكورة آنفاً، ومن ثم غرسها وجعلها عقيدة في مبادئهم، ثم تعزيزها وتنميتها ومعالجة ما لا يصلح منها، وإعدادها بشكل متكامل؛ ليُعمد بعدها إلى توظيفها والعمل بها، ويكون هذا التوظيف من خلال ما يأتي:

١- رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، ح(١٧٩٠).

٢- رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٣٤٥١)، وقال: حديث حسن غريب، وحسنه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(١٨١٦).

٣- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، ح(٧١٢٠).

٤- رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٢٧٨٣)، وقال: حديث حسن غريب، وحسنه الألباني، انظر صحيح الترمذي، ح(٣٥٠٢).

- المطلب الأول: تحمل جميع أفراد المجتمع مسؤولية حماية الوطن والمحافظة عليه.
- المطلب الثاني: وضع أنظمة وقوانين تنظم العمل بمبدأ حماية الوطن وتراقبه.
- المطلب الثالث: استغلال القدرات وتوظيف المهارات الفردية والطاقات الفعالة.
- المطلب الرابع: التعزيز الإيجابي.
- المطلب الخامس: التعليم المتبادل. وتفصيل ذلك كالآتي:

### المطلب الأول: تحمل جميع أفراد المجتمع مسؤولية حماية الوطن والمحافظة عليه

تتميز الدول والمجتمعات في الرقي والتقدم الحضاري بناء على مدى الاستقرار والحماية التي يتمتع به الأفراد جميعاً وعلى حد سواء، والعدالة بينهم في خدمة الوطن وتحملهم المسؤولية في ذلك، وكلما شملت المسؤولية أفراد المجتمع بشكل أكبر، وتساووا في مستوى الحماية والأمن؛ زاد الاستقرار المجتمعي، وأصبحت الدولة في مصافِّ الدول المتقدمة.

ومن هنا كان المجتمع النبوي مجتمعاً راقياً ومتقدماً يحفظ لجميع أفرادها حق الأمن والحماية مهما كانت عروقتهم أو دياناتهم أو طبقاتهم الاجتماعية، ولا يسمح لأصحاب السلطة والمال، أو النفوذ والجاه بالاستعداد على هذا الحق مهما كانت سطوتهم؛ وقد قعدت السنة النبوية لهذه المبادئ جميعها ابتداءً من مسألة المسلمين؛ كما في قوله ﷺ: "المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يسلمه... كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه"<sup>(١)</sup>، وقوله ﷺ: "لا يحل مسلم أن يروِّع أخاه المسلم"<sup>(٢)</sup>، إلى مسألة غير المسلمين؛ كقوله ﷺ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ"<sup>(٣)</sup>، حتى لو كان المعتدي ذا شأن أو منصب أو مال فلا يحل له أن يخوف غيره، أو أن يتعرض لمخارمه؛ فلو "أن فاطمة بنت محمد سُرقت" لُقِّطعت يدها<sup>(٤)</sup>، ولهذا كان المبدأ عادلاً والقانون شاملاً لكل

١- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ح(٢٣١٠)، ومسلم، صحيح مسلم، البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، ح(٦٧٤٣)، واللفظ له.  
٢- رواه أبو داود، سنن أبي داود، ح(٥٠٠٤) وغيره، وصححه الألباني، غاية المرام، ح(٤٤٧).  
٣- رواه البخاري، صحيح البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، ح(٢٩٩٥).  
٤- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم، ح(٣٢٨٨)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، ح(٤٥٠٥).

فرد في المجتمع المسلم، وقد توعد الله ﷻ مَنْ يُخِلُّ بِأَمْنِ الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ؛ كما في قوله ﷻ: "إن الله يعذب الذي يعذبون الناس في الدنيا"<sup>(١)</sup>.

كما وقرّ المنهج النبوي العدالة في تحمّل مسؤولية حماية الوطن والدفاع عنه؛ ابتداء من الشخصية الأولى في المجتمع المتمثلة بالقائد الأعلى حين قال ﷻ: "لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية..."<sup>(٢)</sup>، إلى أصغر جنديّ يمكن له أن يُسهم في توفير الحماية للوطن، كإجازته للغلمان الذين كانوا يعرضون أنفسهم عليه ليجيز إشراكهم في الدفاع عن الوطن<sup>(٣)</sup>، فتساوى كل أفرادها في هذه المهمة، وتحمل كل مسلم مسؤولية الحماية والوقاية.

### المطلب الثاني: وضع أنظمة وقوانين تنظم العمل بمبدأ حماية الوطن وتراقبه:

لقد اهتم الإسلام بسن قوانين راسخة تؤمن حماية رصينة للوطن وأفراده وجماعته ومؤسساته وجميع جوانبه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ ولهذا كانت هناك دساتير وتشريعات إسلامية تفرض عقوبة على من يتعدى على أمن الناس وسلامتهم، وقد أنزل الله ﷻ في كتابه العزيز وسنة نبيه ﷺ حد الحراية<sup>(٤)</sup>؛ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ

١- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق، ح(٦٨٢٤).

٢- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ح(٤٩٦٧).  
٣- رواه الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، ٢/ ٦٩، والبيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ٩/ ٢٢، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في "التلخيص": صحيح، حديث سمرة بن جندب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعرض غلمان الأنصار في كل عام فيلحق من أدرك منهم، قال: وعُرضت عامًا فألحق غلامًا ورتني، فقلت: يا رسول الله! لقد ألحقته ورددتني ولو صارته لصرته، قال: "فصارعه"، فصارعه فصرته، فألحقني.

٤- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المحاربين من أهل الردة والكفر، باب، ح(٦٤١٧)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب القسامة، باب حكم المحاربين والمرتدين، ح(٤٤٤٥)، أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْبَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- الْمَدِينَةَ فَاجْتَوَوْهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- " إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا ". فَفَعَلُوا فَصَحُّوا ثُمَّ مَالُوا عَلَى الرَّعَاءِ فَفَقَتَلُوهُمْ وَأَرْتَدُوا عَنِ الْإِسْلَامِ وَسَاقُوا دَوْدَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَلَبَّغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ -ﷺ- فَبَعَثَ فِي آثَرِهِمْ فَأَتَى بِهِمْ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا.

فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ... ﴿المائدة: ٣٣﴾؛ ليحمي بذلك المجتمع من تبعات الإرهاب والترويع، وجعل جزاء المعتدين فيه مُعلنًا وصارمًا.

وقد أسس المنهج النبوي ذلك بأن وُحِدَ الناس تحت أمير واحد حتى لو "خرج ثلاثة في سفر؛ فليؤمروا أحدهم"<sup>(١)</sup>، الأمر الذي يحفظ أمنهم، ويحميهم من شق العصا، ووقاهم من ذلك أن إذا اجتمعوا على رجل أمره، ثم جاء من يريد نقض ذلك، فإن مصير هذا المعتدي القتل<sup>(٢)</sup>؛ لأن تفريق الجماعة والإخلال بأمنهم، وإدخال التهيب في حياتهم أعظم عند الله وأخطر من قتل رجل واحد ولو كان مسلمًا.

ولهذا كان للمنهج النبوي التقعيد الثابت والطريق الواضحة لوضع سياسة للدول ومؤسساتها تحمي سلامتهم، وتحقق أمنهم وتحفظ مجتمعاتهم، إضافة إلى ما رسّخه القرآن من الآيات الكثيرة في ذلك، ولا شك أن في ذلك توفيرًا لجميع الوسائل الممكنة والإجراءات المطلوبة لتأمين الحماية وخطوط الدفاع الداخلية، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فقد وضع الإسلام قوانين لحماية الوطن من أية اعتداءات خارجية؛ كوجوب الجهاد في حالات الدفاع، وعظيم أجر الشهداء، وغير ذلك من الأحاديث الواردة في المطلب الخامس من المبحث الثالث.

### المطلب الثالث: استغلال القدرات وتوظيف المهارات الفردية والطاقات الفعالة

لقد أفاد الصحابة رضي الله عنهم من شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا من المبادئ والصفات والقيم، وعلى رأس تلك المبادئ؛ شجاعته وتضحيته في حماية وطنه والدفاع عنه صلى الله عليه وسلم، كما قال صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم مثلهم الأعلى؛ اتخذوا هديه منهجًا حرصوا على تطبيقه في حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

١- رواه أبو داود، سنن أبي داود ح(٢٦٠٨)، وصححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(١٣٢٢).  
٢- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب إذا بويع لخليفتين، ح(٤٩٠٥)، قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما".

وقد كان النبي ﷺ أسوة لأصحابه في مواقف عدة ظهرت جلياً في قول علي بن أبي طالب ﷺ: "لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً"<sup>(١)</sup>، ولما فرغ أهل المدينة من صوت ذات ليلة انطلقوا إليه، فاستقبلهم النبي ﷺ وهو عائد من قبل الصوت، راكباً فرساً عربياً بلا سرج، يعدو به وفي عنقه السيف، وهو يقول: "لن تراعوا، لن تراعوا"<sup>(٢)</sup>، -أي: ليس هناك ما تخافون منه-.

هذا بالإضافة إلى ما وُظّف النبي ﷺ من مهارات الصحابة ﷺ التي يمتاز بها كل منهم للإفادة منها في خدمة الدين، وجعلهم قدوة لغيرهم في ذلك، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ومتنوعة؛ فقد أبرز مهارة سعد بن أبي وقاص ﷺ في الحرب بقوة الرمي ودقته<sup>(٣)</sup>، ودفع الناس إلى الاقتداء بشخصية أبي دجانة ﷺ في إخافة أعداء الله<sup>(٤)</sup>، إلى غير ذلك مما يمتاز به شخصية كل صحابي ﷺ ليجعلها سبباً في حماية الوطن وقدوة لغيره في ذلك حتى في أقل المواقف وأدقها، نحو توظيفه ﷺ صوت العباس ﷺ في أشد الظروف وأصعبها لجهرية صوته، لما أمره في حنين أن ينادي في الناس وهم مولون، فقال: "أي عباس! ناد أصحاب السمرّة"<sup>(٥)</sup>، فأفاد من صوته لتحفيز القتال والدفاع.

١- رواه أحمد، المسند، ح(٦٥٤)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

٢- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق، ح(٢٥٩٢)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب، ح(٤٢٦٦).

٣- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب المحن ومن يترس بترس صاحبه، ح(٢٦٩٠)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ، ح(٤٤٢٩)، قول النبي ﷺ: "ارم سعد، فذاك أبي وأمي".

٤- رواه أحمد، المسند، ح(١٢٢٥٧)، وصححه شعيب الأرنؤوط على شرط مسلم، ورواه الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ح(٥٠١٩)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي في التعليق، أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: "من يأخذ هذا السيف؟" فأخذه قوم فجعلوا ينظرون إليه، فقال: "من يأخذه بحقه؟"، فأحجم القوم، فقال أبو دجانة سماك: أنا آخذه بحقه، فأخذه، ففلق هام المشركين.

٥- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، ح(٤٧١٢)، السمرّة: الشجرة، والمقصود: بيعة الشجرة.

إضافة إلى استغلال قوة بعض الصحابة رضي الله عنهم في رجاحة العقل وسرعة البديهة، وقوة الشخصية حين جعل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه درعًا واقياً لحفظ الأمانة وسر النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup>. وأمثال ذلك كثيرة.

### المطلب الرابع: التعزيز الإيجابي

اتفق علماء التربية وعلم النفس على أن التعزيز الإيجابي عامل مهم لتفعيل المبادئ وتوظيفها، كما الحال في أهميته لغرسها وتنميتها، وهو منهج نبوي متبع، أسس له القرآن الكريم والشريعة الإلهية بالترغيب وفضائل الأعمال.

وجاء في السنة النبوية عدد من المواقف التي عزز فيها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم في كيفية حماية الوطن والدفاع عنه؛ سواء حماية وقائية قبل وجود أي اعتداء، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا إن القوة الرمي" - كررها ثلاثاً- <sup>(٢)</sup>، أم حماية دفاعية عند الحاجة إلى ذلك، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "للشهيد عند الله ست خصال؛ يُغفر له في أول دفعة... <sup>(٣)</sup>". سواء أكانت الحماية من عدوٍ داخلي كما قال صلى الله عليه وسلم - عند وقوع الفتنة بين الصحابة -: "دعوها فإنها منتنة" <sup>(٤)</sup>، أم خارجي، كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: "أفضل الجهاد من عُقر جواده وأهريق دمه" <sup>(٥)</sup>. وأمثال ذلك من الأحاديث.

ولا شك أن التعزيز الإيجابي يعتمد على المعرفة المسبقة أو معاينة موقف أو ملاحظة عمل شجاع ومسؤول صادر من أحد الصحابة رضي الله عنهم، وهو دافع بشري يستجيب له كل ذي فطرة سليمة.

١- رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهم، ح(٣٤٥٩)، قول علقمة

لأبي الدرداء رضي الله عنه: أو ليس فيكم صاحب سر النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، ح(٣٥٤١).

٣- رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٦٦٣)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير، ح(٩٣١٣).

٤- متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ح(٣٣٣٠)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، ح(٦٧٤٨).

٥- رواه أحمد، المسند، ح(١٤٧٦٩)، وحسنه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(٥٥٢).

### المطلب الخامس: التعلم المتبادل:

تقوم المجتمعات سواء الإسلامية أو غيرها على ما يملكه أفرادها ومؤسساتها وقوانينها من القيم والمبادئ؛ وكلما كانت تلك المبادئ ذات مستويات عليا؛ ارتفعت سوية المجتمع، مما يجعله مجتمعاً مؤثراً يسهل اقتناع الآخرين بمبادئه بمجرد معاشته؛ الأمر الذي جعل كثيراً من الأفراد والشعوب يعتنقون الإسلام بمجرد معابنتهم لأخلاق المسلمين والتزامهم وانضباطهم بالمبادئ الإسلامية المختلفة، إضافة إلى ما يكتسبه المسلمون أنفسهم من بعضها بعضاً. كل ذلك يدخل في مفهوم التعلم المتبادل.

وقد ورد في السيرة النبوية مواقف عدة؛ وظف فيها النبي ﷺ التعلّم المتبادل لمبدأ حماية الوطن وأمنه والدفاع عنه؛ منها حديث عاصم بن ثابت رضي الله عنه أنه قال -لما سأل النبي ﷺ- يوم بدر: "كيف تقاتلون القوم إذا لقيتموهم؟"، فقام عاصم بن ثابت رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، إذا كان القوم منا حيث ينالهم النبل كانت المرامة بالنبل، فإذا اقتربوا حتى ينالنا وإياهم الحجارة كانت المراضحة بالحجارة، فأخذ ثلاثة أحجار في يده وحجرين في حزمته، فإذا اقتربوا حتى ينالنا وإياهم الرماح كانت المداعسة بالرماح، فإذا انقضت الرماح كانت الجلاذ بالسيوف، فقال رسول الله ﷺ: "بهذا أنزلت الحرب، من قاتل فليقاتل قتال عاصم"<sup>(١)</sup>، إضافة إلى ترسيخ هذا المبدأ من خلال المشورة الدائمة التي أبرزها يوم استشار أصحابه في أحد بين الخروج والقتال في المدينة؛ فقدّم رأي المشورة على رأيه، والتزم به وأنفذه<sup>(٢)</sup>. وغيرها من المواقف.

هذا، وصلّ اللهم تعالى على سيد الخلق، وناطق الحق، وعلى آله وصحبه وسلم.

١- رواه الأصبهاني، معرفة الصحابة، ح(١٧٠٠)، وإسناده حسن، والمداعسة: المطاعنة، والمدافعة. والمراضحة: القذف والتكسير. انظر ابن منظور، لسان العرب، ٦/ ٨٣، و ٢/ ١٩.

٢- ذكره البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله ﷻ وأمرهم شورى بينهم، في ترجمة الباب، ورواه أحمد، المسند، ح(١٤٨٢٩)، أن النبي ﷺ قال لأصحابه: "لو أنا أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم"، فقالوا: يا رسول الله! والله ما دخل علينا فيها في الجاهلية فكيف يدخل علينا فيها في الإسلام؟ قال عفان في حديثه: فقال: "شأنكم إذا"، قال: فلبس لامته، قال: فقالت الأنصار: ردنا على رسول الله ﷺ رأيه، فجاؤوا فقالوا: يا نبي الله شأنك إذا، فقال: "إنه ليس لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل".

**التوصيات:** من خلال الدراسة المتأنية لكثير من المواقف النبوية المهداة، واستنطاق أحداثها، والنظر في المناهج الحديثة وما قدّمت في تعزيز هذا المبدأ، نجد أن المنهج النبوي كان رائدًا في تأسيس المبادئ وتعزيزها وتوظيفها، بشكل أكثر عمقًا وتفصيلاً، والتي يمكن الاستفادة منها ضمن التوصيات والمقترحات الآتية:

١. استقراء القرآن الكريم والسيرة النبوية بشكل كامل، واستنطاقها؛ لاستكمال منظومة مبادئ الدفاع عن الوطن وحمانيته، ضمن آلية علمية منضبطة، ودون مبالغة أو تفرّيع غير مجدٍ.
٢. توطيد المنهج النبوي في حماية الوطن لدى المرين وعلماء النفس، وربطها مع الجهات العسكرية والمدنية المختصة بذلك.
٣. التوسع في دراسة مبدأ حماية الوطن والدفاع عنه عند الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين، والسلف الصالح من العلماء والمجاهدين، وإبراز جوانبها وآلياتها وطرق الاستفادة منها.
٤. تدريب الدعاة والوعاظ وأئمة المساجد والخطباء لتجلية أهمية هذا المبدأ وترسيخه من خلال السيرة النبوية.
٥. تعميم ما سبق ذكره من المناهج على جميع المؤسسات التربوية والجمعيات والتخصصات الجامعية والمعاهد العليا.
٦. توظيف وسائل الإعلام المختلفة لترسيخ هذا المنهج، وإعداد البرامج لخدمتها، وإبراز أهمية المنهج النبوي في ذلك ووسطيته وواقعيته، ومدى تميّز الإسلام به، وسبقه لتطبيقه، ودرء ما يُفتري عليه من العنف والإرهاب.
٧. إنشاء قنوات التواصل بين مؤسسات المجتمع المدني والباحثين والمفكرين والمؤسسات التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية لبلورة مضامين هذا المبدأ، ومكانته في الإسلام، وعمقه في المنهج النبوي، من خلال مشاريع عمل مشتركة وهادفة.
٨. عمل المؤتمرات والندوات وورش العمل التدريبية ودعوة الباحثين والدارسين ورجال الثقافة وأصحاب القرار التربوي والتعليمي؛ لدعم مفهوم حماية الوطن وآليات الدفاع عنه، والعمل على تطبيقه وتفعيله.



### فهرس المصادر والمراجع:

- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار، السيرة النبوية، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ.
- ابن عثيمين، محمد بن صالح، شرح رياض الصالحين، ط ١، دار السلام، السعودية، ١٤٢٣هـ، تحقيق عبد الحميد مذكور.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الإفريقي، لسان العرب، ط ٣، ١٥م، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.
- ابن هشام، عبد الملك المعافري الحميري، السيرة النبوية، ط ١، دار الجليل، بيروت، ١٤١١هـ.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، ٤م، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، معرفة الصحابة، ط ١، دار الوطن، السعودية، ١٤١٩هـ.
- الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٧م، مكتبة المعارف، الرياض.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته، ط ١، ٢م، مكتبة المعارف، الرياض.
- ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم، ط ٣، المكتبة الإسلامي، بيروت، ١٤١٣هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله الجعفي، الجامع الصحيح المختصر من حديث الرسول ﷺ وسننه وأيامه، ط ٣، ٦م، دار ابن كثير واليمامة، بيروت، ١٩٨٧م، تحقيق مصطفى البغا.
- البرقوقي، عبد الرحمن، شرح ديوان حسان بن ثابت، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٩١م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، دلائل النبوة معرفة أحوال صاحب الشريعة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ. وسنن البيهقي الكبرى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، تحقيق محمد عبد القادر عطا.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح المسمى بسنن الترمذي، ٥م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون.
- جابر، جابر عبد الحميد، الذكاءات المتعددة والفهم تنمية وتعميق، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- الحاكم، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

- الشيباني، أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، ٥٠م، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون.
- الصمدي، خالد، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ١م، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ٢٠٠٨م.
- الطبراني، أحمد بن سليمان، المعجم الكبير، ط٢، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ.
- العاصمي، عبد الرحمن بن محمد النجدي، حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، ط١، ١٣٩٧هـ.
- العسقلاني، أحمد بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- القزويني، محمد بن يزيد بن ماجه، سنن ابن ماجه، ط١، دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- المناوي، زين الدين محمد بن عبد الرؤوف بن تاج العارفين، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط١، ٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- النسائي، أحمد بن شعيب، سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري، الجامع الصحيح المسمى بصحيح مسلم، ٨م، دار الجيل ودار الآفاق، بيروت.

## توصيات الندوة التاسعة



## التوصيات

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين واله وصحبه والتابعين،  
وبعد،

فمن خلال ما تم عرضه ومناقشته من أبحاث علمية متخصصة، وبعد اجتماع الأمانة العامة  
لندوة الحديث الشريف في دورتها التاسعة، والموسومة بـ:

"حِمَايَةُ الْوَطَنِ فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضُرُورَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ"

تم الانتهاء إلى جملة توصيات هي:

أولاً: ضرورة إعداد مناهج دراسية في المؤسسات التعليمية والتربوية تُسهم في تعزيز ثقافة حماية  
الوطن، وتُسَلِّمهم فيها من الشريعة الغراء.

ثانياً: إنشاء موسوعة علمية في السنة النبوية والسيرة العطرة متعلقة بحماية الوطن، تُسهم في  
ترسيخ دعائم استقراره، وحفظه من المهددات.

ثالثاً: العمل على رفع الوعي العام إلى مستوى الإدراك بأن حماية الأوطان ليست مسؤولية  
الجهات الرسمية وحدها، بل هي مسؤولية مشتركة تتحملها كافة أطراف المجتمع.

رابعاً: تفعيل الخطاب الديني الراشد في المؤسسات الإعلامية والشرعية والتعليمية في التوعية  
بضرورة حماية الأوطان، وحفظ أمنها، واستقرارها.

خامساً: الدعوة إلى إجراء البحوث والدراسات الكفيلة بالنهوض بأسر الشهداء.

سادساً: الدعوة إلى بناء منهجية سليمة في تداول الأخبار والإشاعات في وسائل الإعلام، والتواصل  
الاجتماعي.

وختاماً؛ فإن الأمانة العامة تتقدم بالشكر الوافر والامتنان للسيد جمعة الماجد، رئيس مجلس أمناء جامعة الوصل ومؤسسها، وراعي الندوة المباركة على جهوده المبذولة في خدمة السنة النبوية.

كما تتقدم بشكرها الجزيل إلى سعادة مدير الجامعة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن على اهتمامه ومتابعته الدؤوبة لسير أعمال الندوة، وتذليل الصعاب التي واجهتها في جميع مراحل الإعداد لها.

والشكر موصول إلى جميع اللجان العاملة: أساتذة وإداريين وطلاباً على جهودهم المميزة في التنظيم والإعداد لهذه الندوة.

ولا يفوتنا أن نشيد بحكومة دبي الرائدة على التسهيلات المقدمة وكرم الضيافة، وبالرعاة الذين أسهموا في رعاية الندوة وإنجاحها، بدعمهم المادي والمعنوي.

**والحمد لله رب العالمين**

## الفهرس

٨٢٩	- "السنة النبوية وحماية الوطن من خلال تأمين النشاط الاقتصادي للمجتمع". د.عزالدين بن زغبية (الجزائر).
٨٦١	- "حماية الدخل القومي في السنة النبوية وأثر ذلك في حماية الوطن". د. محمود فهد أحمد مهيدات (الأردن).
٨٨٧	- "مكانة حماة الوطن والشهداء وحقوقهم في السنة النبوية وأثر ذلك في حماية الوطن". د. باسم حسن وردة (الأردن).
٩١٩	- "الرباط فضله وأثره في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية". أ.عمران محمد المزوري (العراق).
٩٥٣	- "أثر الأسرة في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية". أ.د. مفرح بن سليمان القوسي (السعودية).
٩٩١	- "تقصيد وسائل التواصل الاجتماعي، نحو خدمة القيم النبوية؛ قيمة حماية الوطن نموذجاً". أ.يونس الخمليشي (المغرب).
١٠٣٥	- "أخلاقيات القائم بالاتصال والدور المفترض في حماية الوطن". د.رقية بوسنان (الجزائر).
١٠٦٩	- "أثر الشائعات في تهديد الوطن ودور السنة النبوية في مواجهتها". د.عماد حمدي إبراهيم (مصر).
١١٠٧	- "مجالات حماية الوطن في السنّة النبويّة ومنهج الإدارة النبويّة في بنائها". د. محمد شريف مشوّح (سوريا).

١١٣٧	- "أحاديث العهود وأثرها في حماية الأوطان". أ.د. عادل فائز(المغرب).
١١٦٥	- "النصيحة (أصالة المفهوم وتجديده، وأثرها في حماية الوطن)". د. عبد الله بن عبد العزيز الباقي (السعودية).
١١٩٥	- "المنهج النبوي في حماية الوطن والدفاع عنه". د.أنس سليمان المصري (الأردن).